لمعى المطيعى

موسوعة
هذا الرّجل من مصر

دار الشروق

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

الطبعة الثانية
١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

الإهداء

إلى روح أستاذنا
عميد النّاشرين المصريّين والعرب
الأستاذ محمّد المعلّم
لمسة وفاء ..

لمعي المطيعي

الإهداء

إلى روح أستاذنا

عميد النّاشرين المصريّين والعرب

الأستاذ محمّد المعلّم

لمسة وفاء ..

لمعي المطيعي

تقـــديم

أما قبـل . . .

فهذه موسوعة جديدة فى شكل جديد ومضمون جديد تضم تسعين رجلاً من مصر أثروا الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والأدبية والثقافية خلال فترة يمكن أن نطلق عليها سنوات التكوين بالنسبة لمصر الحديثة .

وهذه الموسوعة جزء من الإثراء الحقيقى لذاكرة الأمة وعقل المجتمع ووعى المواطن بما تضمه من دراسات تحليلية . ولم يكن غريباً أن أعرف من أصدقاء مغتربين خارج مصر أن أولادهم الذين يقرءون حتى الآن باللغة العربية انبهروا وكان سؤالهم الدائم : هل كان فى مصرنا مثل هذه الشخصيات الرائدة ؟ وهذا كله يكفينى ويعزينى عن وأد هذه السلسلة فى عز شموخها ونموها .

لقد لمعت هذه النجوم الزاهرة فى سماء مصر ، واختلفت درجات الإضاءة التى تبعث بها ، ولكنها أعطت بقدر ما أتيح لها من رؤية فى حدود زمانها وموقعها . وتحول الماضى إلى دم يسرى فى عرق الحاضر لتستقيم خطانا نحو غد مشرق بذاكرة قوية تعى الماضى وتتفهم الحاضر .

لقد حرصت على أن تكون الشخصيات من مجالات إبداع مختلفة ، سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية وثقافية ، وعلى أن تكون من روافد حزبية متباينة ، وعلى أن تكون نتاج مراحل زمنية مختلفة قبل يوم الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وبعد ذلك من أيام . والإطار العام لهذا العمل الكبير هو أن مصر العزيزة هى مصرنا جميعاً . . مصر معبد الكرنك . . ومصر الكنيسة المرقسية . . ومصر الأزهر الشريف . . هى مصرنا جميعاً . والرجال الذين نقدمهم هنا ـ حسب الترتيب الهجائى ـ تركوا ميراثاً زاخراً لأجيال كثيرة من بعدهم . وكل رجل منهم يكاد أن يمثل

نموذجاً مستقلا فى حد ذاته ، وإن شئت فقل مدرسة مستقلة فى العطاء لمصر أياً كانت درجة اختلاف أو اتفاق القراء . فالدراسة تحمل رؤية فكرية واجتماعية وتقدم تقيما جديدا لهذه الشخصية أو تلك ، وتعطى معالم جديدة لهذه الصور القديمة ، وتحيى ذكراهم وتبرز دورهم . والمردود لنا ـ من وراء النشر ـ غال وثمين وهو تأكيد انتمائنا لهذا الوطن العزيز ، ورفع من درجة معنوياتنا ، وشحذاً لهمتنا فى مزيد من العطاء .

واحتلت كل شخصية دراسة مستقلة متكاملة من حيث الظروف الاجتماعية ، والأدوار السياسية ، والأفكار والآراء ، والآثار والبصمات مع عدم إغفال التعريف المادى والزمنى من حيث تواريخ الميلاد والوفاة ، ومن حيث التعليم ودرجاته ، ومن حيث العلاقات الاجتماعية مع الحرص على الإشارة إلى عدد من الأسانيد التى توضح الصورة لو أراد الباحث مزيداً من الايضاح أكثر مما تحتمله المساحة الصحفية التى أتيحت لكل شخصية عند نشرها فى جريدة أسبوعية مرة كل أسبوع .

وإذا كنت قد أظهرت الإيجابيات لدى بعض الشخصيات فليس معنى هذا أننى تخليت عن الموضوعية فى التقويم أو التقييم، تماماً كما حرصت على تسجيل الأسانيد والاقتباسات عند الحديث عن السلبيات .

وأرجو أن تكون هذه المجموعة الأولى بداية لعمل موسوعى آخر يضم القمم المصرية من الرجال والنساء وما أكثرهم فإن مصر الولود التى أنبتت هؤلاء الرجال قد أنبتت غيرهم ونمتهم وأرضعتهم وعاشت بهم ولهم . والله من وراء القصد .

العجوزة فى أول أكتوبر ١٩٩٣ .

لمعى المطيعى

الدكتور أحمد أمين



فى باريس ، وفى صباح ٣ أكتوبر ١٩٢٠ ، كان محمد كامل سليم يعرض البريد والأخبار على سعد زغلول رئيس الوفد المصرى ، التفت سعد إلى سكرتيره الخاص يسأله «من يكون الأستاذ الشيخ أحمد أمين ؟ » .

وأجاب كامل : هو أستاذ فى مدرسة القضاء الشرعى ، والأول فى ترتيب الخريجين من أول دفعة لهذه المدرسة ، وأحب الطلبة إلى عاطف بركات ناظر المدرسة الذى أظهر إعجابه به وتقديره بأن عينه أستاذا مساعدا له . وهو ـ أى أحمد أمين ـ فى مطلع الثلاثين من عمره واسع العلم متين الأخلاق صادق الوطنية .أ

وتلألأ وجه سعد وتهلل غبطة لأنه هو الذى أنشأ مدرسة القضاء الشرعى سنة ١٩٠٧ عندما كان ناظرا (وزيرا) للمعارف (١٩٠٦ ـ ١٩٠٨) وتنفيذا لفكرة أستاذه وصديقه الشيخ محمد عبده، عاطف بركات ناظر المدرسة هو ابن شقيقته وقريب إلى قلبه وفصله الإنجليز سنة ١٩١٩ لمواقفه الوطنية .

اطمأن سعد إلى صدق أحمد أمين ، وإلى تقاريره عن أحوال مصر التى يراسل بها صديقه محمد كامل سليم . . وأومأ سعد برأسه ليقرأ كامل التقارير التى أرسلها أحمد أمين .

التقـريـر الأول

الخطاب الأول بتاريخ ١١ سبتمبر ، وفيه يصف استقبال الناس لبعض أعضاء الوفد الذين وفدوا إلى مصر . وإذا كان استقبال الناس لبعض أعضاء الوفد على هذه الصورة فكيف يكون الأمر عند عودة سعد باشا ؟ وفى الخطاب إشارة إلى مقال فى جريدة « المقطم» تغير فيه سياستها

وتتقرب إلى الأمة وتبتعد عن الإنجليز . وجاء فى الرسالة « الرأى فى مصر يا كامل أميل إلى قبول مشروع الاتفاق بتحفظات » .

والمشروع الذى يشير إليه أحمد أمين هنا فى رسالته إلى محمد كامل سليم ، هو مشروع كان «ملنر» قد قدمه إلى الوفد فى ١٧ يوليو رأى فيه سعد زغلول حماية وليس استقلالا ، وعزم على قطع المفاوضات والعودة إلى مصر ، وأعد بيانا إلى الأمة . ولكن غالبية الوفد من المعتدلين كان رأيهم «أن مصر بما ستناله بهذا المشروع ستتطور به وستقوى ، وستصبح أقدر على المطالبة بحقها الباقى يوما من الأيام » . وتقرر أن يعود إلى مصر أحمد لطفى السيد ، ومحمد محمود ، وعلى ماهر ، وعبد اللطيف المكباتى لعرض المشروع على الأمة على أن يكون هؤلاء على الحياد . ولكنهم لم يكونوا كذلك ، وأرسل سعد إلى مصر أكثر من عشرين خطابا تكشف عن استنكاره للمشروع . وأرسل بهذا المعنى إلى أعضاء الوفد الثلاثة الذين كانوا فى مصر من قبل ، وهم مصطفى النحاس ، وويصا واصف ، وحافظ عفيفى . ويعد الموقف من « مشروع ملنر » هو البداية الحقيقية للانقسام فى الوفد .

التقرير الثانى

أما الخطاب الثانى الذى قرأه محمد كامل سليم على سعد زغلول ، فقد أرسله أحمد أمين فى ٢١ سبتمبر ١٩٢٠ وفيه « أن حركة الاستئناس برأى الأمة قد تمت ، والأغلبية العظمى كانت ميالة إلى قبول المشروع بتحفظات عديدة » . وبالخطاب إشارة واضحة إلى أن بعض المصريين دهش من هذا المشروع وما كان يتوقع أن انجلترا تسمح بما سمحت به .

وأعجب سعد برصانة أحمد أمين ، وبطريقة عرضه للواقع والحوادث بالتحليل والتعليل . ولفت نظر سعد تركيز أحمد أمين على « التحفظات العديدة » وأن بالخطاب إشارة واضحة إلى أن بعض المصريين دهش من هذا المشروع وما كان يتوقع أن انجلترا تسمح بما سمحت به .

وفى ٤ أكتوبر وصل المندوبون الأربعة (الذين كانوا قد سافروا إلى مصر لشرح مشروع ملنر وصلوا من مصر إلى باريس فاتهمهم سعد صراحة بأنهم لم يبينوا عيوب المشروع مطلقا ، وبأنهم أثاروا فى نفوس المصريين آمالا ليس إلى تحقيقها من سبيل وأن الواجب عليهم كان يقضى بأن يلتزموا جادة الحق والواقع حتى يرى الناس مخازى المشروع وأضراره .

على أية حال فإننا نعرف مما كتبه محمد كامل سليم أن سعد زغلول حتى أكتوبر ١٩٢٠ لم يكن يعرف أحمد أمين بشخصه وإن كان قد أعجب بالرسائل التى يرسلها إلى صديقه كامل فى باريس .

رواية أحمد أمين

أما الشيخ أحمد أمين فنعرف من كتابه « حياتى » أنه اتصل بجريدة حزب الأمة المسماة «بالجريدة » التى كان يرأس تحريرها أحمد لطفى السيد .

ثم تعرف سنة ١٩١٤ على « بضعة من خيار الطلبة تخرجوا من مدرسة المعلمين العليا » وهم : أحمد زكى ، وأحمد عبد السلام الكردانى ، ومحمد عبد الواحد خلاف ، ومحمد كامل سليم ، ومحمد الغمراوى . ثم انضم إلى جماعتهم ثلاثة من خريجى مدرسة الحقوق هم حسن مختار رسمى، ويوسف الجندى، وصبرى أبو علم . وشكلوا لجنة يدفع كل عضو فيها « عشرة قروش » فى كل شهر ، وإذا ألف أحدهم كتابا يقرؤه على الآخرين ويسهمون جميعا فى طباعته فكانت «لجنة التأليف والترجمة والنشر » سنة ١٩١٤ . وفى الوقت نفسه كانت مجموعة أخرى تتكون من الشيخ مصطفى عبد الرازق ، ومنصور فهمى ، وعزيز ميرهم ومحمد كامل سليم ، وأحمد زكى ، وعبد الحميد حمدى تلتف حول جريدة أسبوعية أصدرها عبد الحميد حمدى ، وهى جريدة «السفور» . وكان من الطبيعى أن تلتقى الجماعتان .

وبعد أن تكون الوفد (١٩١٨) فكر هؤلاء فى أن يكون لهم ممثل فى الوفد . وذهب اثنان أحدهما أحمد أمين لمقابلة سعد زغلول الذى اختار لعضوية الوفد الشيخ مصطفى عبد الرازق ، ولكن يبدو أن هذه المقابلة السريعة مع سعد لم تترك انطباعا لدى سعد عن أحمد أمين لا بالاسم ولا بالشكل ، وهذا يفسر سؤال سعد لمحمد كامل سليم : من هو صديقك الشيخ أحمد أمين ؟

ومهما يكن من أمر ، فلما اشتعلت نيران الثورة كان الشيخ أحمد أمين من المتصلين بعبد الرحمن فهمى سكرتير اللجنة المركزية للوفد . ويقول فى « حياتى » إنه كان يرسل إلى محمد كامل سليم فى باريس « تقريرات إلى سكرتير سعد ليطلعه عليها ، وكانت هذه سببا فى معرفة سعد باشا بى ، وكان يرسل إلىّ الشفرة الجديدة إذا غيرت لأوصلها إلى بعض الأعضاء فى مصر ، إذ كنت شيخا مدرسا فى مدرسة القضاء لايظن أحد أن أمرا خطيرا كهذا يأتى إلىّ » .

«ولما انقسم الوفد كنت فى صف سعد باشا ومن مؤيديه والداعين له ، ومع ذلك لم يضع استقلالى فى التفكير » . وفى صراحة شريفة يقول فى موضع آخر « ظللت أساهم فى السياسة وأشارك بعض من صاروا من زعماء السياسيين مثل محمود فهمى النقراشى ويوسف الجندى وصبرى أبو علم ، ولكن لم اندفع اندفاعهم ولم أظهر فى السياسة ظهورهم لأسباب أهمها أنى لم أتشجع شجاعتهم فكنت أخاف السجن وأخاف العقوبة » .

الفكر الإسلامى

أحمد أمين خاف السجن وخاف العقوبة فابتعد عن السياسة ، واكتفى فى شبابه بتأييد الثورة (١٩١٩) وخطب فى التجمعات مناديا بوحدة الثوار ووحدة الوطن ، ونراه سنة ١٩٤٥ وقد قارب الإحالة إلى المعاش (ولد فى أول أكتوبر سنة ١٨٨٦) يعتذر عن عدم رئاسة تحرير جريدة «الأساس» التى اعتزم السعديون إصدارها لسانا لحالهم . وكان فى ذلك الوقت منصرفا لأعماله فى لجنة التأليف والنشر ، وفى الجامعة الشعبية ، وفى دار الكتب ، وفى اللجان المختلفة التى هو عضو فيها .

وفى تقديرنا أن الكتب التى ألفها أحمد أمين (١٢ عملا) هى التى بقيت له . وإن كان « فيض الخاطر» فى ١٠ أجزاء ،و«النقد الأدبى » فى جزأين ، و«قصة الفلسفة الحديثة» فى جزأين . . فإن «فجر الإسلام وضحاه وظهره » هى أقدر أعمال أحمد أمين على البقاء ، على حد تعبير دكتور طه حسين ، وهى من أقوم وأروع ما وضع عن الحياة العقلية والفكرية للإسلام كما قال دكتور عبد الرزاق السنهورى . وحسبه أنه حلل الحياة العقلية للعرب والمسلمين تحليلا لم يتهيأ مثله لأحد من قبله ، كما قال عنه أحمد حسن الزيات .

ولم يكن هذا العمل ـ فى تقديرنا ـ مصادفة وإنما هو نتاج لحياة أحمد أمين ، ونتاج لتطوره العقلى، ونتاج للبيئة التى عاشها وللظروف التى مر بها أو التى مرت به .

ولد فى الساعة الخامسة صباحا من أول أكتوبر سنة ١٨٨٦ ، وكأن هذا التاريخ إرهاصا بأنه سيكون مدرسا ، فأول أكتوبر عادة هو بدء افتتاح الدراسة « وشاء الله أن أكون كذلك . فكنت مدرسا فى مدرسة ابتدائية ، ثم فى مدرسة ثانوية ، ثم فى عالية». ووالده « يحفظ القرآن ويلتحق بالأزهر . ويبحث عن عمل يكسب منه بجانب دراسته فيكون مصححا بالمطبعة الأميرية» . وكان ـ أى والده ـ مولعا بالكتب فى الفقه والتفسير والحديث ، واللغة والأدب ، والنحو والصرف والبلاغة . ثم أصبح مدرسا فى الأزهر ، ومدرسا فى مسجد الإمام الشافعى وأمام مسجد . «ويغمر البيت الشعور الدينى ، فأبى يكثر من قراءة القرآن صباحا ومساء» .

ودخل أحمد أمين الكُتّاب ، وتنقل فى أربعة كتاتيب ، ودخل المدرسة الابتدائية ، ثم التحق بالأزهر وحضر دروسا فى الفقه الحنفى لأنه هو الفقه الذى يعد للقضاء . ودخل سنة ١٩٠٧ مدرسة القضاء الشرعى واجتاز امتحانها النهائى سنة ١٩١١ . وعين مدرسا فى مدرسة القضاء وقاضيا فى الواحات الخارجة سنة ١٩١٣ . وتعرف سنة ١٩١٤ ـ كما أشرنا ـ إلى مجموعة تخرجت فى المعلمين العليا . وأخذ فى تعلم اللغة الإنجليزية ، وعرض عليه صديقه دكتور طه حسين أن

يكون مدرسا بكلية الآداب . وقد هيأت له الجامعة رحلات خارج مصر . وخلع الزى الأزهرى وارتدى الزى الأفرنجي .

وفى تلك الفترة وضع الدكتور طه حسين وعبد الحميد العبادى وأحمد أمين مشروعا لدراسة الحياة الإسلامية . . يختص الدكتور طه بالحياة الأدبية ، والعبادى بالحياة التاريخية ، وأحمد أمين بالحياة العقلية . . وهكذا صدر « فجر الإسلام » سنة ١٩٢٨ ، وقدر له أن يصدر بعد ذلك ضحى الإسلام « وظهر الإسلام » أما زميلاه فقد عاقتهما عوائق عن الإسهام فى المشروع .

الجـامعتـان

فى حياة مصر الثقافية فى الثلاثينات والأربعينات ظاهرة ثقافية لم تتكرر بعد ، تلك هى ظاهرة مجلتى « الرسالة » و«الثقافة » . صدر العدد الأول من مجلة « الرسالة » فى ١٥ يناير ١٩٣٣ ، وصدر العدد الأخير فى ٢٣ فبراير ١٩٥٣ . أصدرها ورأس تحريرها أحمد حسن الزيات وكانت نصف شهرية ثم أسبوعية . وكان شعارها « ربط القديم بالحديث ، ووصل الشرق بالغرب» .

وفى ٣ يناير ١٩٣٩ أصدرت « لجنة التأليف والترجمة والنشر » وهى اللجنة التى تأسست سنة ١٩١٤ ، واختير أحمد أمين رئيسا لها ، وكان هذا الاختيار يجدد كل عام إلى أن توفى عام ١٩٥٤ . ووضعت مجلة « الثقافة » اسم أحمد أمين كرئيس للجنة التأليف والترجمة وكصاحب امتياز للمجلة. وتولى رئاسة التحرير محمد عبد الواحد خلاف ، ومع ذلك كان يعهد لبعض أعضاء اللجنة بالإشراف على التحرير مثل محمد فريد أبو حديد ، وزكى نجيب محمود ، ولاسيما فى السنوات الأخيرة التى لم يتفرغ فيها أحمد أمين للمجلة . وإذا كان أحمد حسن الزيات قد تحدث فى مجلة « الرسالة » عن وصل الشرق بالغرب ، فإن أحمد أمين كان أكثر وضوحا فى عرض هذه الفكرة فى افتتاحية العدد الأول فتحدث عن ارتباطنا بهذا العلم والأدب ، وكيف أن المدنية الغربية طوعا أو كرها ، تدفعنا فى تيارها دفعا حتى أصبح الشرق مرتبطا بالغرب ارتباطا وثيقا فى كل مرفق من مرافق الحياة .

وكان موقف مجلة « الثقافة » من التيارات الفكرية والفنية موقفا يميزها عن « الرسالة » ، فقد عرفت بالمذاهب السياسية الحديثة فيما كتبه على أدهم وزكى نجيب محمود ومفيد الشوباشى ، وشجعت التيار الاجتماعى فى الأدب ولاسيما فيما كتبه فريد أبو حديد ، كما شجعت فن الرواية والمسرحية . كما كان نصيبها من العلوم الاجتماعية والنقد النظرى والتطبيقى نصيبا بارزا ، وكانت محاولات محمد خلف الله أحمد ، ومحمد مندور ، وزكى نجيب محمود ، وشوقى ضيف فى النقد جادة وجديدة معا . وإذا كانت «الرسالة » عنيت بالإبداع فى الأدب ، فإن « الثقافة » عنيت

بالتأصيل والتنظير . ومع ذلك كله ـ كما يقول د . على شلش ـ فكل منهما تكمل عمل الأخرى فيما يتعلق بكونهما جامعتين حرتين .

وقد ناصرت « الرسالة » حركة الجيش ، وأعلنت عن تجديد أبوابها فى أول يناير ١٩٥٣ لتساير «العهد الجديد » . ولكن فى ٢٣ فبراير ١٩٥٣ صدر العدد الأخير منها ينعى « الرسالة » إلى القراء ، والافتتاحية الحزينة بعنوان « الرسالة تحتجب». ولم يمد العهد الجديد يده لهذه الجامعة الحرة ، كما لم يمد يد المساعدة إلى الجامعة الحرة الأخرى ، ونعنى بها مجلة « الثقافة » التى صدر العدد الأخير منها فى ٥ يناير ١٩٥٣ .

أكبر من عميد

وحياة أحمد أمين الشخصية ، وحياته العقلية ، وكلتاهما نموذج يحتذى أو ينبغى أن يترك آثاره لدى أجيالنا الجديدة .

وقدر له أن يرى الغرب كما رأى الشرق ، فيكون له بدل العين عينان . واختير عضوا فى مؤتمر المستشرقين الذى يعقد فى هولندا وزار انجلترا وفرنسا وإيطاليا . ويقول فى « حياتى » . . أنا رجل دخيل على الجامعة بحكم تربيتى الأزهرية ، وأنا رجل لم يتعلم فى مدرسة مصرية ولا أجنبية ، وأنا رجل لم أتعلم لغة أجنبية ، إلاّ ما تعلمته من اللغة الانجليزية بعناء . هذا الرجل بأعماله الموسوعية يرقى فى كلية الآداب إلى أستاذ مساعد . ومن غير الحصول على الدكتوراه يرقى إلى « الأستاذية » بفضل كتابيه « فجر الإسلام وضحاه » بعد أن فحصهما أستاذان مستشرقان . واختير ليكون ممثلا لكلية الآداب فى مجلس الجامعة لعشر سنين .

وفى إبريل ١٩٣٩ اختير عميدا لكلية الآداب بعد أن حصل على أعلى الأصوات . وعلى صفحة ٢٩١ من الطبعة السادسة «لحياتى» يسجل « اختير ثلاثة وكنت أكثرهم أصواتا فعيننى المرحوم محمود فهمى النقراشى باشا عميدا . . » والصحيح عندنا أن الذى عينه عميدا هو الدكتور محمد حسين هيكل الذى كان وزيرا للمعارف فى وزارة محمد محمود (٢٤ يونيه ١٩٣٨ ـ ١٨ أغسطس ١٩٣٩) . أما محمود فهمى النقراشى فقد أصبح وزيرا للمعارف فى وزارة على ماهر (١٨ أغسطس ١٩٣٩ ـ ٢٧ يونية ١٩٤٠) ولعل صداقة أحمد أمين للنقراشى ، وتداخل الوظائف وتباعد الزمن هو السبب فى هذا الخطأ .

وبعد سنتين من العمادة ، وكان الدكتور محمد حسين هيكل وزيرا للمعارف وقام بنقل عدد من مدرسى كلية الآداب إلى الإسكندرية من غير أن يكون لأحمد أمين علم بشىء من ذلك ، فقدم استقالته من العمادة وصمم عليها إلى أن قبلت . وعاد إلى عمله كأستاذ وهو يردد قوله المشهور «أنا أصغر من أستاذ وأكبر من عميد » .

عاد أحمد أمين إلى عمله كأستاذ ، وعاد ليكمل سلسلة « فجر الإسلام » و«ضحى الإسلام » فأخرج « ظهر الإسلام » . وكان قد اختير عضوا بمجمع اللغة العربية سنة ١٩٤٠ واشترك فى كثير من لجانه مثل لجنة الأدب ، ولجنة ألفاظ الحضارة ، ولجنة المعجم الوسيط .

وكان رأيه أن المجمع ليست وظيفته الأساسية وضع المصطلحات ، وإنما عمله الأساسى هو وضع المعجم اللغوى التاريخى الأدبى الكبير . وهذا الإسهام الكبير فى مجمع اللغة العربية يضاف إلى رصيد أحمد أمين فى خدمة الثقافة . فقد أشرنا من قبل إلى تأسيس « لجنة التأليف والنشر » سنة ١٩١٤ ، وإلى إسهامه فى مجلة « الرسالة » ثم إصدار مجلة « الثقافة » سنة ١٩٣٩ . وسنة ١٩٤٥ انتدب ـ وهو أستاذ بكلية الآداب ـ مديرا للإدارة الثقافية بوزارة المعارف . وكان الدكتور عبد الرزاق السنهورى وزيرا للمعارف . وإدارة الثقافة « إدارة ليس لها أول يعرف ، ولا آخر يوصف ، واختصاصها واسع سعة لا حد لها لمن شاء أن يعمل ، وضيق أشد الضيق لمن شاء ألاّ يعمل » .

ورحل أحمد أمين سنة ١٩٥٤ بعد أن قدم للثقافتين المصرية والعربية الكثير فى هدوء بعيدا عن الصخب والضجيج ، وبعد أن أسهم فى قضايا الوطن القومية دون دعاية أو بريق . وإن شئت وصفا له فإننى أقدمه إليك بقلمه من صورة له ولصديق عزيز عليه فقده بسبب عمادته لكلية الآداب . . أقدم الصورة التى رسمها لنفسه بعد أن حذفت صورة هذا الصديق العزيز عليه . . «أنا أقرب إلى الواقعية ، عالم يحكمه المنطق ، أحب الاختفاء وأحب الهدوء ، معتدل إذا أحببت أو كرهت ، هادىء إذا صادقت أو عاديت ، قلق مضطرب لست بغضوب ، تاجر إن كسبت كسبت قليلا فى بطء ، وإن خسرت خسرت قليلا فى بطء ، لا أحب السياسة ولا أحب المغامرة ، أريد أن أعمل لا أن أسيطر . . » .

هذه هى صفات أحمد أمين إن أردت أن تتشبه به ، وإن أردت أن تتشبه بصديقه العزيز الذى فقده بسبب « العمادة » فاقلب هذه الصورة تماما . .

الأسانيد :

١ ـ أحمد أمين . . حياتى .

٢ ـ عبد العزيز مصطفى (مجلة الثقافة يناير ١٩٨٢) .

٣ ـ د . على شلش ـ دليل المجلات الأدبية .

٤ ـ محمد كامل سليم ـ صراع سعد فى أوروبا .

٥ ـ د . محمد مهدى علام ـ المجمعيون فى ٥٠ عاما .

الشيخ أحمد حسن الباقورى



أعرف أن بعض القراء الكرام من جماعة الإخوان المسلمين كان يود له ألاّ يشترك فى الوزارة رقم ٧١ من وزارات مصر التى شكلتها « الثورة » فى ٧ سبتمبر ١٩٥٢ برئاسة اللواء محمد نجيب . وقد رفض مكتب الإرشاد الاشتراك فى تلك الوزارة . وقد ظل جمال عبد الناصر فترة يظن أن حسن العشماوى هو صاحب فكرة قرار الإخوان ذاك ، وحاول أن ينال من حسن بسببه .

أعرف هذا ، وأعرف أن بعض القراء الكرام من الوفديين لم يزل يذكر أن حكومة « الوفد » قد اعتقلت الشيخ الباقورى فى ١٨ فبراير ١٩٤٣ لأنه حرض طلبة الأزهر على الإضراب والسير فى تظاهرة إلى عابدين لتهنئة الملك فاروق بعيد ميلاده ، شأنه فى ذلك شأن قطاعات كثيرة من شباب الإخوان ومصر الفتاة والحزب الوطنى كانت فى تلك الفترة مخاصمة للوفد ولمصطفى النحاس وتأمل خيرا فى الملك .

أعرف هذا ، وأعرف غيره . . ولكننى أعرف أنه دخل التاريخ كعالم من علماء الأزهر الشريف، وأحد الخطباء المعدودين فى العالم العربى ، وداعية من دعاة الإسلام والقومية العربية ، وعقل موسوعى المعرفة ، وزعيم لثورة الأزهر سنة ١٩٣٥ . ورئيس للمركز العام لجمعيات الشبان المسلمين ، وعضو فى مجمع اللغة العربية . . . إلى آخر الصفات الطيبة التى عددها أستاذنا الدكتور محمد مهدى علام . ثم إنه « الرجل ، والعالم ، والأديب ، والإنسان ، ورجل العلم الغزير ، والأدب الجم ، والتواضع الودود ، والأسلوب الرصين المتمكن ، والحديث الحلو » على حد وصف الكاتب الإسلامى الكبير الأستاذ خالد محمد خالد . وهو « علم من أعلام الدعوة إلى الله على بصيرة وسماحة نادرة ، وفد على أروقة الأزهر المعمورة لينهل من موارد هذا البحر العتيد حيث المعهد ، صاحب العبق التاريخى التالد » كما كتب الأستاذ الجليل الدكتور محمد شرف

الدين ـ جامعة الأزهر . ثم إنه كان يكفيه فخرا ما وصل إليه من مناصب علمية فى الأزهر حتى منصب مدير جامعة الأزهر ، وتكفيه عضويته فى الجمعيات العلمية فى الداخل والخارج ، وتكفيه مظاهر التقدير العالمى ممثلا لمصر ، ويكفيه واحد من مؤلفاته المطبوعة والتى هى تحت الطبع ، فما بالنا وقد حاز ذلك كله ـ كما كتب عنه تلميذه وصديقه القريب إلى قلبه الصحفى الكبير الأستاذ عبد الوارث الدسوقى .

قريـة صـديقـة

كان هكذا فى عيون الواقع والحقيقة . . وبالنسبة لى ـ فهو ابن بلدى أسيوط ، قريتى تجاور قريته بيوتا وحقولا ، هما قرية واحدة فى واقع الحال وليستا قريتين . . نصف ساعة على الأقدام ويكون المرء فى بيت له فيه نسب وقرابة هنا وهناك . . الأسرة الواحدة بعضها من هناك ، وبعضها من هنا ، فاتصلت الأنساب وتداخلت البيوت والحقول بالميراث ، وتشابكت الأصول والفروع فأصبحت القريتان قرية واحدة كبيرة .

فى قريته ـ كما قال وكتب وأذاع ـ نشأ فى بيت يجاور بيتا مسيحيا . . وكان أبناء البيتين يلعبون فى فناء واحد ، ويأكلون من خبز واحد ويشربون من ماء نيل واحد . وخرج أحمد حسن الباقورى إلى القاهرة يجعل بيته بيتا صديقا لكل من يطرق باب هذا البيت .

وسنة ١٩٥٣ فى مدينة السويس ، وفى عز الحر جاء هو إلى هناك ومعه من قادة الثورة كمال الدين حسين وحسن إبراهيم ومن رجال الإذاعة سعيد أبو السعد ، ومن أبناء السويس أنور سلامة النقابى بشركة شل ، والوزير فيما بعد ، وابن خالة أحد أعوان جمال عبد الناصر فيما تروى الروايات ، المهم . . عقدوا مؤتمرا كبيرا يدعون فيه لما يريدون الدعوة إليه . . وكنت أنا هناك مبعدا عن العمل بالقاهرة بأمر السلطة الجديدة . وكنت ضمن شباب يخشى زحف الرجال الجدد ضد الديمقراطية . وكان صوتنا هتافا ضد الدكتاتورية ودفاعا عن الحريات يربك المتحدثين من الضباط ، ويربك رجال الإذاعة فيما يؤدون من أعمال ، وأشاروا إليه أن يسرع بالحديث . . وتكلم . . وسكت الجميع . . إن من البيان لسحرا . . ولم يجرؤ شاب أن يجرح هذا الصمت إعجابا به . وأدركنا لماذا اختاروا الباقورى وزيرا . وبعدها بأيام أمر « الفرعون » أن أذهب وراء الشمس لسنوات خمس . يوم ينطح يوما . بعدها بسنوات أمر «ا لفرعون» أن يبقى الباقورى فى الظل لسنوات وسنوات .

ما عرفت أكثر منه ودا فى اللقاء . . رأيته مرة فى القاعة التى تسمى بقاعة اللجنة المركزية أثناء

اجتماع لنا ضم أعضاء لجان المجلس الأعلى للثقافة ومقرريها وأعضاء المجلس . كان المرض يناوشه . خدرت القدم ، وثقلت الخطوة ، وصاحب يستند إليه . واقتربت برفق وتجنبت اللهفة تجنبا للانفعال . . ويدى اليمنى على ذراعه ودعاء له بالصحة والعافية وبطول العمر إلى آخر مدى . وتهللت أسارير وجهة وابتسمت شفتاه . . وعبارات حاسمة . التحية هكذا لاتنفع . . وأخلى ذراعه من كتف صاحبه الذى يستند إليه وضمنى فى أخوة ، بل فى أبوة . . وكلمات تشجيع لما أكتب ، وتوصية حازمة أن أطرق بابه وقت أن أشاء . .

الساحر . . وثورة الأزهر

كانت تلك بعض كلماتى عنه بعد أن رحل . . التى كان لها شرف أن تجاور كلمات الكاتب الكبير خالد محمد خالد وجاء عنوانا الكلمتين كبيت من الشعر ، كتبت تحت عنوان « أيها الشيخ الجليل وداعا» ، وكتب الأستاذ خالد تحت عنوان « عزيز علينا أن نقول وداعا » .

وأستاذن فى أن أنقل بعض ما كتبه الأستاذ خالد محمد خالد ، لأن به تسجيلا للتاريخ لمن يهمه التاريخ .

لقد رحل الشيخ الباقورى ـ يا كل أحبابه وأصحابه وتلاميذه ، ويا كل الذين أفادوا من علمه . . ويا كل المكرمات والمروءات!

رأيته أول مرة ـ الحديث للأستاذ خالد ـ مع عشرات الألوف من طلبة الأزهر عام ١٩٣٥ . كان الأزهر قد أشعل إحدى ثوراته الكبرى فارضا على الملك الفرعون « فؤاد » وعلى حكومته عودة الإمام المراغى شيخا للأزهر . وقاد الثورة أحمد حسن الباقورى . . حين أطل على الألوف الحاشدة فى الجامع الأزهر من فوق منبره العظيم لأول مرة . . كان مصير الثورة قد تقرر . . !! ووقر فى الروح للجموع المنصتة أن هذا « الساحر » مدرك غايته لامحالة . . وما أن يرتقى الباقورى ذروة المنبر حتى يستقبل بترحاب غير معهود . . وبتأييد ما مثله تأييد . . !! وفجأة . . وبتلقائية مهيمنة يسيطر صمت خاشع حتى لتكاد تسمع صوت الدم فى العروق!!

ويبدأ « الساحر العظيم » خطبته بصوت خفيض ، يفرض على المكان والزمان والمناسبة مزيدا من الصمت المصفى ، ومن الخشوع الجليل . . !!

ثم يعلو الصوت رويدا رويدا ، وتعلو معه خفقات القلوب ، وتزداد الأعين تحديقا فى وجه «الساحر » منتشية بملامحه التى تتغير تباعا وفق انعكاسات كلماته عليها . . حيث العذوبة والقوة

والبهاء وكبرياء الروح والكلمة . . جمعها مع « الساحر » لقاء سعيد . .

ثم يدوى الصوت الساحر والآسر ، وتنطلق معه الكلمات كالرصاص المقذوف . . شامخة وهادرة ومنذرة .

ويقبض عليه ، وتستضيفه السجون ، ويصدر قضاؤنا العظيم أمره بالإفراج الفورى ، وهو يعلم أنه بهذا الإفراج يتحدى القصر والملك . . !!

ويعود الباقورى إلى منبره ، وإلى جهاده ، حتى تنتصر به ثورة الأزهر ، ويوقع الملك مكرها وظاعنا مرسومة الملكى بعودة المراغى العظيم . . !!

المسيرة الطيبة

أحمد حسن الباقورى ابن الشيخ أحمد عبد القادر بدوى ، ولد فى ٢٦ مايو سنة ١٩٠٧ فى قرية باقور مركز «أبوتيج »مديرية أسيوط ، التحق بكُتّاب القرية ، وبعد أن حفظ القرآن الكريم التحق بمعهد أسيوط الدينى سنة ١٩٢٢ وحصل منه على الشهادة الثانوية سنة ١٩٢٨، ثم التحق بالقسم العالى وحصل منه على شهادة العالمية النظامية فى سنة ١٩٣٢ . ثم حصل على شهادة التخصص فى البلاغة والأدب سنة ١٩٣٦ . وبعد تخرجه عين مدرسا للغة العربية وعلوم البلاغة فى معهد القاهرة الأزهرى . ثم نقل مدرسا بكلية اللغة العربية ، وبعدها نقل وكيلا لمعهد أسيوط العلمى الدينى بأسيوط ، ولم يلبث أن نقل وكيلا لمعهد القاهرة الأزهرى عام ١٩٤٧ . وفى سنة ١٩٥٠ عين شيخا للمعهد العلمى الدينى بالمنيا .

وبدأت مسيرته مع ثورة يوليو فى ٧ سبتمبر ١٩٥٢ ـ كما أسلفنا فى السطور الأولى ـ وزيرا للأوقاف فى الوزارة المركزية للجمهورية العربية المتحدة من سنة ١٩٥٨ . وكان قد اختير عضوا بمجمع اللغة العربية سنة ١٩٥٦ فى المكان الذى خلا بوفاة المرحوم الدكتور أحمد أمين .

وكانت تلك الفترة فى مجملها فترة ازدهار للشيخ الباقورى . . مَثّل مصر لزيارة المناطق الشمالية والجنوبية بالسودان عام ١٩٥٢ ، ومَثّل حكومة مصر عام ١٩٥٣ فى الاحتفال بتتويج الملك حسين ملكا للملكة الأردنية الهاشمية ، وحصل على كسوة التشريف من الملك عبد العزيز آل سعود عام ١٩٥٣ ، وعلى وسام النهضة من الدرجة الأولى من الملك حسين فى العام نفسه . وفى عام ١٩٥٤ حضر الاحتفال بافتتاح برلمان السودان نائبا عن الحكومة المصرية . ومثّلها فى مؤتمر مسلمى الشرق الأقصى الذى عقد فى الفلبين لاستطلاع أحوال المسلمين فى باكستان ، والهند ،

وبورما ، وأندونيسيا ، وهونج كونج ، والصين الشعبية . وحصل فى تلك السنة على وشاح الجلالة الشريفة من الملك محمد الخامس ملك المغرب . وفى الاحتفال بمرور ٢٥ عاما على دستور إيران ، كان نائبا عن حكومة جمهورية مصر سنة ١٩٥٥ ، وفى السنة ذاتها رأس مؤتمر الخريجين الذى عقد فى القدس ومثل مصر أيضا فى احتفال الحزب الحر الدستورى بتونس . وفى احتفال المغرب بعودة الملك محمد الخامس من المنفى ، كان مندوبا عن حكومة مصر سنة ١٩٥٥ . وفى إبريل سنة ١٩٥٥ كان عضو وفد مصر فى مؤتمر باندونج الشهير برئاسة جمال عبد الناصر ، وحصل على وسام أمية من الجمهورية السورية عام ١٩٥٧ .

فترة الانحسـار

وفى ظل الحكم الدكتاتورى لاشىء مضمون ، حيث لايطيق الحاكم أى نقد حتى من أقرب المقربين إليه ، وأترك قلم الأستاذ خالد محمد خالد يروى لنا . .

فى أيامه الأخيرة فى وزارة الأوقاف . . رأيته يطلق لسانه بنقد لافح لبعض إجراءات الثورة . . متناولا بعض كبار مسئوليها بأسمائهم . . وأذكر أننى فى أحد تلك الأيام تعمدت أن أبقى حتى يخلو المكتب من زواره ثم أسر له بنصيحة . . سألته : أليس هناك احتمال بأن يكون بين زوارك هؤلاء واحد ، أو اثنان ، أو أكثر من عيون المخابرات . . ؟ ! قال : إن هذه المقاعد ، وجدران الغرفة هذه ملغمة جميعها بأدق أجهزة التنصت والاستماع . . قلت : إذن فأين مانعرفه عنك من طول بال وسعة حيله . . قال : لم أعد أطيق . قلت : لقد ذكرت ـ فلانا ـ بالاسم أمام زوارك ، وقلت إنه حرامى . . والرئيس يعلم أنه حرامى ، ويضعه فى مناصب لايستحقها . . ! ألست تدرك بخبرتك على الأقل أن فقرة كهذه كافية لوضعك فى موضع لاتريده لنفسك ولاتطيقه . . ؟ قال : أعلم . . ولكننى زهقت .

وذات مساء زار صديقا حميما له . ووقف يصلى المغرب حيث دق جرس التليفون وبدأ صديقه مكالمة مع الذى تلفن له وختمها بقوله : الشيخ الباقورى عندى الآن ، وبعد أن ينتهى من صلاة المغرب سأناقشه فيما ينبغى أن تفعله مع عبد الناصر ابن . . !! وألقى كلمة تناهت فى الإقذاع والقحة ! وبعد ليال قليلة استدعى الشيخ الباقورى للقاء الرئيس الذى فاجأه بتسجيل المكالمة . وفى الصباح نشرت الصحف نبأ قبول استقالة الشيخ الباقورى وزير الأوقاف .

وتعرض الشيخ الباقورى بعدها لإشاعات كاذبة مغرضة إلى أن تبين « الحاكم بأمره » خطأه الفادح فى حق الشيخ فعاد مديرا لجامعة الأزهر عام ١٩٦٤م حتى سنة ١٩٦٨م .

بعد العودة

ونادته أشواقه الحميمة إلى ماضى الأزهر العتيد ، فأعاده إلى الوجود فى صورة جليلة . . الشيخ يقتعد كرسيه ، والطلبة متحلقون حوله وبين يديه . . يستمعون ويتفقهون . . دراسات حرة لكل من يريد . . وشهادة عالية تمنح لكل من يستحقها من الطلاب . . بينما الأزهر الجديد المتطور يمضى قدما .

كذلك هيأ فضيلته الفرصة التى يحصل بها طالب الدراسات العليا على إجازتى الماجستير والدكتوراه .

وشارك كعضو فى مؤتمر اتحاد الجامعات العربية عام ١٩٦٥ الذى عقد فى الأردن ، ومثل الجمهورية العربية المتحدة فى الاحتفال بعيد ثورة الجمهورية اليمنية عام ١٩٦٦، ومثل جامعة الأزهر فى الاحتفالات بتوزيع الدرجات العلمية على خريجى جامعة الخرطوم عام ١٩٦٦ . وسنة ١٩٦٨ كان رئيس وفد مصر فى المؤتمر الإسلامى المنعقد فى باكستان للاحتفال بمرور أربعة عشر قرنا من الهجرة ، ورأس وفد مصر فى المؤتمر الإسلامى الذى انعقد فى ليبيا عام ١٩٧٠ .

ورصيد الشيخ أحمد حسن الباقورى خلال حياته العلمية ، رصيد زاخر فهو عضو فى مجمع اللغة العربية ، ومجمع البحوث الإسلامية ، والمجلس الأعلى للأزهر ، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ورئيس جمعية ومعهد الدراسات الإسلامية والرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين العالمية ، وعضو الجمعية الصينية الإسلامية فى بكين والجمعية الخيرية الإسلامية ، ومقرر لجنة الشريعة والقانون فى المجلس الأعلى للثقافة ، وعضو رابطة خريجى الجامعات العربية .

هذا وقد ترك الشيخ الباقورى للمكتبتين العربية والإسلامية ١٥ عملا هاما ، وثلاثة أعمال كانت تحت الطبع .

وكان ـ رحمه الله ـ بعيد النظر فى اتخاذ أيسر السبل لتبسيط الأحكام الفقهية لعامة الناس . وتجد فى أعماله الفكرة الأصيلة والعبارة المتأنقة والرأى الراسخ . وتعمق بنشاطه الجاد فى أغوار النفس البشرية دون النظر إلى جنس أو لون أو دين .

وما وصل إليه الشيخ الباقورى فى سنواته الأخيرة كان بعد دأب ومثابرة ، فلم تكن أيامه فى بدايتها هكذا . . يقول الباقورى فيما نقله عنه دكتور محمد شرف الدين : « فور تخرجى حاولت أن التحق بمدرسة الصيارف حيث كانت الحالة المالية سيئة واحتمل الأزهر من سنة ١٩٣٠م أكثر مما احتمل غيره من أعباء تلك الحالة . . ولم تجد الحكومة أنفع من المساهمة فى تخفيف أعباء تلك

الحالة إلاّ على حساب مرتبات الخريجين من الأزهر ، وفصلت سبعين عالما كان بعضهم لايجد القوت ، وفى مقدمة من فصلوا الشيخ عبد الجليل عيسى ، والشيخ عبد اللطيف دراز ، والشيخ محمود شلتوت . . وكان الالتحاق بمدرسة الصيارف أمنية غالية ، فتقدمت إلى تلك المدرسة بالأوراق المطلوبة ومن بينها شهادة العالمية . ولسوء الحظ أو لحسنه لا أدرى ، أنكر شيخ الأزهر أن يلتحق عالم من علماء الأزهر بمدرسة الصيارف . فاتصل بوزير المالية وطلب إليه أن يعمل على عدم قبول من يحملون الشهادة العالمية صونا لكرامة العلماء » .

أقعده المرض فى الفترة الأخيرة قبيل الرحيل ، وسافر إلى لندن لتفيض روحه إلى بارئها هناك يوم ٢٧ أغسطس من عام ١٩٨٥ .

وفى ذكرى الأربعين ، فى ١٥ أكتوبر ١٩٨٥ كان الوفاء من عارفى فضله يتحرك بالقطار من القاهرة فى الصباح إلى أسيوط بدعوة من اللواء زكى بدر محافظ أسيوط فى ذلك الحين . كنا خمسة : الشيخ الدكتور عبد الجليل شلبى عضو مجلس البحوث الإسلامية ، والقمص بولس باسيلى عضو المجمع المقدس ، والشيخ محمد عبد الواحد وكيل وزارة الأوقاف ، والشاعر الأديب الغزالى حرب (رحمه الله) وكاتب هذه السطور ، ولم يتمكن من السفر الأستاذ خالد محمد خالد ، وفى أسيوط انضم إلينا فى الاحتفال والحديث صاحب الدعوة وصاحب الفكرة اللواء زكى بدر ، والشيخ حسين رشدى شيخ المعهد الدينى ، والدكتور محمود فهمى عن الأزهر الشريف ، وعبد الرحمن السيد أمين عام جمعية الشبان المسلمين ، ومحمود عبد العال عضو مجلس الشعب وقت ذاك ، وصلاح شريت مدير الثقافة الجماهيرية بأسيوط .

وفى المساء . . فى قصر الثقافة كانت هناك مصر . . وفد من رجال الدين المسيحيين بأسيوط بزيهم المعروف إلى جانب رجال المعهد الدينى . . أبناء القرى إلى جانب أبناء المدينة . . أبناء الجامعة والمدارس والتجار والموظفين . . وقطرات الدمع فى كلمات المتحدثين . ورائحة تراب مصر تعبق فى المكان . وروح الباقورى تشيع السماحة والصفاء والنقاء . ومن أجل هذا عاش الباقورى . . ومن أجل هذا مات . . رحم الله الباقورى وأكرم مثواه .

الأسانيد :

١ ـ خالد محمد خالد . . جريدة الأخبار ٣/ ٩/ ١٩٨٥ .

٢ ـ عبد الوارث الدسوقى . . جريدة الأخبار ٦/ ٩/ ١٩٨٥ .

٣ ـ مجلس مجمع البحوث الإسلامية . . تقرير ترشيح الباقورى لجائزة الدولة التقديرية .

٤ ـ د . محمد شرف الدين . . جريدة الأخبار ١٧/ ٥/ ١٩٨٧ .

٥ ـ د . محمد مهدى علام . . المجمعيون فى ٥٠ عاما .

أحمد حسن الزيات



يالها من مصادفة ! أن يكون المهندس أحمد الشرباصى والكاتب الكبير أحمد حسن الزيات من محافظة الدقهلية . . ويالها من مصادفة أن يجىء كلاهما إلى الحياة فى شهر واحد هو « إبريل » ، وإن كان الزيات قد ولد عام ١٨٨٥ (بعض المصادر أوردته على أنه عام ١٨٨٢ ، ولكن التاريخ الذى أوردناه هنا هو التاريخ الذى حققه أستاذنا الدكتور محمد مهدى علام) وولد المهندس الشرباصى فى إبريل ١٨٩٩ . ورحل الأستاذ الزيات عام ١٩٦٨ ، بينما رحل المهندس الشرباصى عام ١٩٨٤ .

وحتى اللقاء الذى تم بين الرجلين لم يكن خاليا من طرافة ، كتب عنه الكاتب الإسلامى الكبير محمد عبد الله السمان فى مجلة أكتوبر (١٨ مارس ١٩٨٤) بعد رحيل الشرباصى . . كان الشيخ عبد الرحيم فوده قد ألح على الأستاذ الزيات مدير تحرير مجلة الأزهر أن يسعى للقاء المهندس الشرباصى وزير الأوقاف وشئون الأزهر يومئذ ، وبلا موعد مسبق ، فاسم الزيات ليس فى حاجة إلى موعد حين يشاء أن يلقى وزيرا ، ولكن مدير مكتب الوزير ـ دون الرجوع إلى الوزير ـ اعتذر للزيات بأن الوزير مشغول فى لجان وسوف يحدد له موعدا آخر ! . وعاد الزيات منكسر النفس يلوم نفسه لأنه كان عليه أن يطلب تحديد موعد . ويواصل الأستاذ السمان الحديث . . وأخبرت الشيخ أحمد حسن الباقورى الذى كان مديرا لجامعة الأزهر يومئذ بالقصة ، وبعد يوم واحد قال الشيخ الباقورى إن الشرباصى أقسم له أنه لا علم له بما حدث ، وأنه أصر على زيارة «الأستاذ الزيات » فى مقر المجلة ليعتذر له عن خطأ مدير مكتبه .

وقدر للأستاذ الكبير ألاّ يكون طوال حياته من موظفى الحكومة ، بل إنه لم يقبل ما عرض عليه من وظائفها . نشأ وتدرج وعمل وارتقى بين الأهالى بعيدا عن « الميرى » وطقوسه .

ولد الزيات فى ٢ إبريل ١٨٨٥ ، فى كفر دميره القديم مركز طلخا بمحافظة الدقهلية . وفى الخامسة من عمره دخل الكُتّاب وحفظ القرآن الكريم وهو فى الحادية عشرة ، ثم التحق بالأزهر . كانوا ثلاثة طه حسين ، ومحمود الزناتى ، وأحمد حسن الزيات (حوالى عام ١٨٩٨) وعكفوا على قراءة الأدب ، وعلى الإقبال المتقطع على دروس الأزهر ، ثم التردد على الجامعة المصرية الأهلية التى انشئت عام ١٩٠٧ . وعرفنا ما كان عليه شأن الدكتور طه حسين ، وانصراف محمود الزناتى إلى العمل فى المكتبات القديمة . أما صاحبنا أحمد حسن الزيات فقد عمل مدرسا للغة العربية بمدرسة الفرير بالخرنفش نحو سبع سنوات ، يعلم التلاميذ اللغة العربية ويتعلم هو اللغة الفرنسية . وفى سنة ١٩١٤ انتقل الشيخ أحمد حسن الزيات إلى مدرسة بالظاهر ، مدرسة أهلية غير حكومية . وإذا كانت مدرسة الفرير من المدارس الأجنبية ، فإن مدرسة الظاهر كانت من المدارس التى أنشأها الشيخ عبد العزيز جاويش لمواجهة محاولات الاحتلال الإنجليزى فى التعليم . ومكث فى تلك المدرسة إلى عام ١٩٢٢ ، ويسجل أسماء الذين عملوا معه فى تلك المدرسة وهم أحمد زكى ، والكردانى ، والعبادى ، والغمراوى ، وخلاف ، وبدران ، ومحمد كامل سليم ، وفريد أبو حديد ، وهذه الأسماء هى ذاتها التى تحدث عنها أحمد أمين وهو يروى سيرة حياته ووصفهم بأنهم « مدرسة الثقافة الانجليزية » ، وانضم إليهم ثلاثة هم حسن مختار رسمى ، ويوسف الجندى ، وصبرى أبو علم . . واجتمع هؤلاء جميعا سنة ١٩١٤ وشكلوا لجنة عرفت « بلجنة التأليف والترجمة والنشر » . وتشكيل هذه اللجنة درس ينبغى أن نضعه أمام أجيالنا الجديدة . . التزم كل عضو أن يدفع عشرة قروش فى كل شهر ، وأن يجتمع مجلس إدارتها فى بيت عضو من أعضائها . ويؤلف أحدهم كتابا يعرض على المجموعة فإذا أقرته دفعوا به إلى المطبعة ، وإذا لم يكف ما جمع من عشرات القروش أقرض اللجنة بعض الأغنياء من الأعضاء ليتم طبع الكتاب . وقد تولى شئون اللجنة أحمد أمين إلى أن توفى . . واللجنة لم تزل باقية ولكن دون عمل يذكر ، ولها مطبوعاتها وحساباتها ولكن دون نشاط له أثر . وكنت قد تحدثت فى شأن إحيائها إلى أساتذتنا الأجلاء أعضائها . على أن أحمد أمين لم يشر إلى أحمد حسن الزيات كواحد من أعضاء اللجنة ، وإن كان أستاذنا الدكتور مهدى علام قد أشار إلى ذلك . ومهما يكن من أمر فإن أحمد حسن الزيات اختارته الجامعة الأمريكية عام ١٩٢٢ رئيسا للقسم العربى بها ، وفى العام نفسه التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة لعامين ، وأمضى عاما ثالثا بباريس حيث أدى امتحان الليسانس .

ويبدو أن الزيات كان يعد نفسه لعمل أدبى كبير ، فآثر الابتعاد عن وظائف الحكومة وقنع بالوظائف المتواضعة فى المدارس الحرة أو الأهلية ، وفى الوقت نفسه كان يحرص على الدرس

والتحصيل إلى أن حصل على ليسانس الحقوق الفرنسية سنة ١٩٢٥ وكان قد حصل على ليسانس الآداب ١٩١٢ أثناء عمله بالتدريس فى مدرسة الفرير بالخرنفش .

وقلنا من قبل إنه عمل سنة ١٩١٤ بإحدى المدارس التى أنشأها الشيخ عبد العزيز جاويش وظل بها كما عرفنا إلى سنة ١٩٢٢ ، والتقى فيها بأسماء كان لها دور فى الحركة الوطنية فيما بعد أمثال محمد كامل سليم الذى أصبح سكرتيرا لسعد زغلول وشارك الزيات بكتابة المنشورات السرية .

وعاد الزيات من باريس سنة ١٩٢٥ ، وعاد إلى عملة رئيسًا للقسم العربى فى الجامعة الأمريكية حتى سنة ١٩٢٩ ، وسافر إلى العراق أستاذا بدار المعلمين العليا ببغداد حتى سنة ١٩٣٢ .

وفى السنوات الثلاث التى قضاها ببغداد نرجح أنه عنى بأمرين . أولهما . . الحرص على ادخار بعض المال لمشروع مجلة «الرسالة» الذى نحسب أنه كان يراوده من قبل ، ودليلنا على ذلك هو أن العدد الأول من «الرسالة» صدر فى ١٥ يناير ١٩٣٣ بعد عودته من بغداد فى يوليو ١٩٣٢ ، والأرجح أنه أعد عدته لهذه المجلة وهو فى بغداد . والزيات نشأ فى بيئة متواضعة لأبوين فقيرين .

والأمر الثانى . . هو وقوفه على اتجاهات الفكر القومى العربى . . ومعروف أن جيله كله فى مصر ، والجيل السابق عليه كانا متأثرين لحد كبير بفكرة القومية المصرية ، والنضال من أجل حرية مصر . . هذا على مستوى الأدباء والساسة معا . ولكنه يعود بعد ذلك يسأل المفكر العربى القومى ساطع الحصرى . . هل الشقاق طبع فى العرب ؟ فيجيبه الحصرى على صفحات مجلة «الرسالة» بقوله . . صديقى . . لقد اطلعت على السؤال الذى وجهتموه إلى فى مقالكم بعنوان : هل الشقاق طبع فى العرب ؟ .

ياصديقى الأستاذ لايوجد فى طباع الأمة العربية ما يجعلها شاذة عن سائر الأمم فى الاتفاق والانشقاق . . إن الماضى لايقيد الحاضر . . يجب أن نقلع عن الالتفات إلى الوراء . . فلا يجوز أن نحاول تبرير مساوينا الحالية بنقائص فى أسلافنا الأقدمين .

مجلة « الرســالة »

عاد أحمد حسن الزيات من بغداد (يوليو ١٩٣٢) وفى ذهنه أن يصدر مجلة للأدب العربى الرفيع ، وفى نوفمبر ١٩٣٢ قصد زيارة زميله وصديقه الدكتور طه حسين فى داره بالزمالك وعرض عليه فكرة إصدار مجلة أدبية أسبوعية . . وكان رد الدكتور طه ابتسامة عريضة انتهت بقهقهة

طويلة . ولكن « الرسالة » صدرت فى ١٥ يناير ١٩٣٣ نصف شهرية إلى العدد رقم (٢١) فأصبحت تصدر أسبوعية يوم الاثنين ، حتى أقفلت أبوابها بعددها الأخير فى ٣- فبراير ١٩٥٣ . وتكون قد استمرت بذلك عشرين عاما وبرئاسة أحمد حسن الزيات . وهذه تجربة يجب أن ننبه بها أثرياءنا ـ أليس فيهم من يستثمر بعض أمواله فى إصدار عدد من المجلات الفكرية والثقافية والأدبية ، يفتحون أبوابها لشبابنا الذى يطحنه اليأس ، ويقض مضاجعة الإحباط ، ويلقى بنفسه بعد ذلك فريسة للتطرف . . كل ألوان التطرف .

لست فى مجال الإطناب عن رسالة « الرسالة » واتجاه «الرسالة » وأهداف « الرسالة » ولكن يكفى أن أقول إنه كتب فى «الرسالة» من الرواد . . طه حسين ، ومحمد حسين هيكل ، وعباس محمود العقاد ، البشرى ، وعبد الوهاب عزام ، وأمين الخولى ، ومحمد عوض محمد ، ومحمود تيمور ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، وتوفيق الحكيم ، وخليل مطران ، ومحمد فريد أبو حديد ، وعبد الرحمن شكرى ، وأحمد زكى أبو شادى ، ومحمد عبد الله عنان ، وأحمد رامى ، وأحمد زكى ، وإسماعيل مظهر . . وغيرهم .

هل تريدون المزيد ؟ . . كتب فيها من الجيل الوسيط . . محمود الخفيف ، وزكى نجيب محمود ، وزكى مبارك ، ومحمد مندور، وسيد قطب ، وعلى محمود طه ، وعلى الجندى ، ومحمد سعيد العريان ، وزكى طليمات ، ومحمود شاكر ، ودرينى خشبة، وعزيز أباظه ، وكامل الشناوى ، وفتحى رضوان . . وغيرهم .

هل تريدون المزيد ؟ كتب فيها من جيل الشباب بموجاته المختلفة . . إبراهيم ناجى ، صالح جودت ، شهدى عطية الشافعى ، عبد الحميد يونس ، سهير القلماوى ، بنت الشاطئ ، رشاد رشدى ، محمود حسن إسماعيل ، حسن كامل الصيرفى ، رمسيس يونان ، أحمد الشرباصى ، نجيب محفوظ ، عزيز فهمى ، عبد القادر القط ، زكريا إبراهيم ، كمال نشأت ، ثروت أباظة ، عبد الرحمن الخميسى ، محمد أحمد هيكل ، شكرى عياد ، أنور المعداوى ، فهمى عبد اللطيف ، عباس خضر، عبد الرحمن الشرقاوى ، عبد الفتاح البارودى ، مصطفى محمود ، محمد الفيتورى ، رجاء النقاش ، كيلانى سند ، عبد الفتاح الديدى . . وغيرهم .

ومضى جيل الرواد العظام أو غالبيته ، وجيل الكهول دخل مرحلة الشيخوخة وبدأت تتساقط أوراقه ، وجيل الشباب بموجاته المختلفة دخل مرحلة الكهولة . . هل تريدون المزيد ؟ كتب فى الرسالة من البلاد العربية . . ساطع الحصرى ، ميشيل عفلق ، مصطفى الشهابى ، زكى المحاسنى ، عمر أبو ريشة ، نزار قبانى ، محمد على الحومانى ، ميخائيل نعيمه ، أمين نخله، سهيل ادريس ، حسين مروة ، قدرى طوقان ، فدوى طوقان ، خيرى حماد ، ناصر

النشاشيبى، إبراهيم الفلالى ،إبراهيم العريض ، أحمد رفيق المدوى ، محمد البشير الإبراهيمى ، التيجانى يوسف بشير ، محيى الدين صابر ، محيى فارس ، أيليا أبو ماضى ، شفيق المعلوف . . وغيرهم .

وفى ٣ يناير ١٩٣٣ صدر العدد الأول من مجلة عظيمة أخرى هى « الثقافة » ، فى ٥ يناير ١٩٥٣ أقفلت أبوابها بعددها الأخير . . « الرسالة » و« الثقافة » انتهتا عام ١٩٥٣ !

« الرسالة » أصدرها ورأس تحريرها أحمد حسن الزيات . . و« الثقافة » أصدرتها لجنة التأليف والنشر ، ورأس تحريرها أحمد أمين وآخرون . . هؤلاء الرجال العظام أصدروا مجلات ثقافية أفضل مما أصدرته وزارة الثقافة ، ألاّ يحرك هذا وجدان أثرياء النفط من أدبائنا لإصدار مجلات فكرية وثقافية وأدبية بدلا من المجلات ذات الاتجاهات السياسية المشبوهة ؟!

وفى ٢٥ يونية سنة ١٩٦٣ عادت « الرسالة » ثانية بمعاونة وزارة الثقافة وبإدارة من موظفيها . . ولكن هذه المرة كانت «الرسالة» رسالة عدد من موظفى الوزارة الذين حولوا المجلة إلى صراع يشق الصف ويشرخ جدار الوطن ، فاضطرت الدولة إلى التدخل ووقف إصدارها .

الجامعة الحرة

وإذا نحن نظرنا إلى الذين كتبوا فى «الرسالة» على مدى عشرين سنة، من البلاد العربية، ومن الرواد والكهول والشباب فى مصر لوجدنا من هؤلاء جميعا قادة الثقافة ورواد الفكر ونجوم الأدب فى البلاد العربية كافة، ومن الاتجاهات والتيارات والمدارس المختلفة .

وعلى الرغم من أن « الرسالة » أيدت حركة الجيش فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وكتب الزيات عن الثورة التى فيها ريح النبوة وأعلن عن استعداد « الرسالة » لتجديد شبابها فى أول يناير ١٩٥٣ لمسايرة العهد الجديد الذى بدأته مصر فى الثقافة والحضارة ، رغم هذه كله فوجىء القراء بالأستاذ الزيات ينعى إليهم المجلة فى افتتاحية حزينة بعنوان « الرسالة تحتجب» ، ولكن لأن «الرسالة» كانت مدرسة حقيقية ، أخرجت أجيالا من الكتاب والأدباء ، ومنحت صفحاتها لمعارك التجديد الثقافى فقد كتب الزيات يقول :

لو أرادت « الرسالة » زهرة الحياة الدنيا لعرضت ضميرها للبيع ، وقلمها للإيجار ، ويومئذ تتحول أكداس الورق من أوراق طبع إلى أوراق نقد ، ولكن الله الذى حبب فى سبيله إلى المجاهد الأول الاستشهاد ، وليس فى مزودة إلاّ حفنة من دقيق ، أو قبضة من تمر ، حبب إلى « الرسالة»

الجهاد فى الميدان المجدب الموحش ، ولاعدة لها ، إلا الصدق ، والصبر والزهد لتظفر بنصر المجاهد إذا فاز ، أو بأجر الشهيد إذا قتل .

وليس أبلغ من قول الدكتور محمد مهدى علام . . فى تأبين الزيات ـ « لقد حدث أنه فى خلال الخمسة عشر عاما الماضية أصيب الأدب العربى بخسارتين فادحتين : كانت أولاهما احتجاب الرسالة (١٩٥٣) وكانت الثانية احتجاب الزيات (١٩٦٨) . . وحين احتجبت « الرسالة » كان عزاؤنا بقاء صاحبها بيننا يواصل نشاطه الأدبى العظيم . واليوم وقد احتجب عنا الزيات نجد بعض عزائنا فى بقاء « الرسالة » سجلا أدبيا وتاريخيا معاصرا لحركتنا الفكرية ، بل نجد تلاميذ «الرسالة » وقد أصبحوا اليوم من أعلام الفكر والقلم . . » .

وحى الرسـالة

لقد بقيت « الرسالة » بعد أن احتجبت فى تلاميذها على امتداد الوطن العربى ، وبعد أن احتجب الزيات عاد الناس يبحثون عن « الرسالة » . وقد أخذت بعض الدول العربية فى إعادة طبع أعداد « الرسالة » الـ ١٠٢٥ عددا التى صدرت طوال عشرين عاما ، وأصبحت تباع بأسعار باهظة جدا . وكان الأجدر بالقاهرة أن تقوم بهذا العمل .

ظل الزيات قرابة عشرين عاما عضوا بمجمع اللغة العربية . . ولم يصدر عدداً كبيراً من الكتب ، والعبرة ليست بالعدد . . ثمانية كتب . . خمسة مؤلفة . . وثلاثة مترجمة . . خامس الكتب المؤلفة « تاريخ الأدب العربى » طبع أكثر من عشرين طبعة وقد وضعه سنة ١٩١٦ . وكتابه « وحى الرسالة » فى أربعة أجزاء ، تشتمل على مقالات الأستاذ الزيات فى « الرسالة » . وأحد كتبه الثلاثة المترجمة « الأم فرتر» فقد طبع ثمانى طبعات . . ورواية « روفائيل » التى ترجمها فى فرنسا سنة ١٩٢٥ فقد طبعت تسع مرات .

ولم ينضم الزيات لحزب من الأحزاب ، غير أن « وحى الرسالة » ملىء بمواقف قلمية للزيات ترقى إلى مستوى الجهاد السياسى ، وتكشف عن وطنية صادقة وانحياز لفئات الشعب الدنيا . ودافع عن دور « الدين » فى الإصلاح الاجتماعى . . وحذر من استمرار الاغنياء فى تجاهل مصالح الشعب الفقير . . « أقدامه تحفى من الضنك وهم فى دعة ، وجسمة يضوى من الإقلال وهم فى سعة ، ونفسه تضطرب من الأهوال وهم فى أمن . إنهم إلا يفعلوا يندموا ، فإن من المشكوك فيه أن يتسع حلم الشعب طويلا . . » ولأن الأجيال الجديدة فى الثقافة والأدب لم تسد فراغا ، ولم تصلح خللا عاد الناس يبحثون عن « الرسالة » وعن «الزيات » . . يبحثون عن « الثقافة » ويبحثون عن

« أحمد أمين » . ورحم الله أحمد حسن الزيات حين قال عن نفسة . . «مذهبى فى الحياة يتميز فى عملى بعيدا عن إرادة الغير ، فلم أضع يدى ولا عنقى فى أغلال الوظائف الحكومية ، ولم أصعد على أكتاف الطوال من ذوى السلطان والحكم . . بذلك سلمت نفسى من ذل الوظيفة ، فلا جبن ولا رياء ولا ملق» . .

الأسانيد :

١ ـ أحمد أمين . . حياتى .

٢ ـ أحمد حسن الزيات . . وحى الرسالة .

٣ ـ د . فرج الشرباصى . . مع المهندس أحمد الشرباصى .

٤ ـ د . عبد الرحمن برج . . ساطع الحصرى .

٥ ـ د . على شلش . . دليل المجلات الأدبية .

٦ ـ د . محمد مهدى علام . . المجمعيون .

٧ ـ د . نعمة رحيم العزاوى . . أحمد حسن الزيات . (كاتبا وناقدا) .

أحمد حسنين



يوم الثلاثاء ١٩ فبراير من عام ١٩٤٦ ، كان أحمد حسنين رئيس ديوان الملك فاروق يطالع عددا من الملفات التى يحفظها الديوان الملكى للشخصيات وللأحداث التى كان لها دور فى السياسة المصرية . واستغرق أحمد حسنين فى القراءة التى صرفته عن موعد لتناول الغداء عند أسرة صديقه فى ضاحية المطرية . ومد يده إلى التليفون يعتذر عن عدم تلبية تلك الدعوة . وعاد يستغرق فى قراءة الملفات . .

والملفات كثيرة ولكننى اتصور أنه كان فى مقدمتها . . الملف الخاص باللورد كيلرن السفير البريطانى بالقاهرة ، وكان قد سحبته حكومة العمال الجديدة فى لندن قبل ذلك بأيام ، ثم ملف «مكرم عبيد والكتاب الأسود »

وطوى بسرعة الملف الخاص بالملكة الأم « نازلى » وملف « الأمير فاروق » قبل أن يصبح ملك على مصر ، وتوقف عند ملف خاص يحمل اسم « أحمد حسنين باشا » وراح يطالع الخطابات المتبادلة بينه وبين الملك وأسماء المرشحين لتلك الوزارة ومراسيم تشكيلها التى لم تظهر إلى النور وقبعت فى ظلام الأضابير منذ ١٨ إبريل ١٩٤٤ .

وفى الساعة الثالثة غادر أحمد حسنين مكتبه واستقل سيارته عائدا إلى منزله القريب من ميدان عبد المنعم بالدقى ، وكان المطر غزيرا . وبينما سيارته تجتاز كوبرى قصر النيل كانت هناك سيارة لورى من سيارات الجيش الانجليزى قادمة من الاتجاه المضاد وتنزلق عجلاتها وتلف نصف لفة وتصطدم بسيارة حسنين ويسيل الدم من فمه . ويسرع من إحدى السيارات أحمد عبد الغفار باشا صديق أحمد حسنين منذ أيام الدراسة فى « أكسفورد » والذى كان وزيرا للزراعة فى وزارة محمود فهمى النقراشى المستقيلة قبل الحادث بأربعة أيام (ذكر محمد التابعى فى كتابه « أسرار

الساسة والسياسة » أحمد عبد الغفار باعتباره وزيرا للزراعة وقت الحادث ، وهذا غير صحيح فقد كان حسين عنان هو وزير الزراعة فى وزارة إسماعيل صدقى الجديدة ، وكان أحمد عبد الغفار وزيرا للزراعة فى وزارة النقراشى المستقيلة) . وأسرع بالحضور إسماعيل صدقى رئيس الوزارة الجديدة ، وتم نقل حسنين إلى مستشفى الأنجلو ولكن السر الإلهى كان قد خرج . وذهب الملك فاروق إلى منزل حسنين بالدقى وألقى نظرة سريعة إلى « رائده ومربيه وأستاذه ورئيس ديوانه ومستشاره » وعاد إلى القصر وفى جيبه مفاتيح المكتب الخاص بأحمد حسنين .

حسنين رئيسا للوزارة

هو أول ملفات أحمد حسنين التى نعرض لها هنا . . أحمد حسنين باشا رئيس مجلس الوزراء . . أمنية صدرت بها المراسم ثم حفظت فى ظلام الأدراج . . وهى أمنية كل رئيس للديوان الملكى . . فرئيس الديوان هو أقرب الناس إلى أذن الجالس على العرش، وهو واسطة الملك لدى رؤساء الوزارات وكل الساسة وفى مصر كان من الأمور المألوفة أن يصبح رئيس الديوان رئيسا للوزراء أو أن يصبح رئيس الوزراء رئيسا للديوان الملكى . . هكذا كان توفيق نسيم ، وأحمد زيور ، وعلى ماهر، وحسين سرى وإبراهيم عبد الهادى . . وأحمد حسنين ليس أقل من هؤلاء فى الدهاء والمكر والدس والمكائد ، وليس أقل منهم تأثيراً على الملك .

ورسم أحمد حسنين خطته . . أوعز إلى الملك فاروق أن يضع قصر رأس التين تحت تصرف القوات الإنجليزية ، وأن يتبرع الملك بمبلغ كبير للترفيه عن جنود الحلفاء ، وأن يحسن الملك استقبال المسئولين البريطانيين . ورسم خطته فى تنظيم صفوف المعارضة لمواجهة « الوفد » . . وبدأت اجتماعات المعارضة باجتماع عقده إسماعيل صدقى . فى داره وتوالت الاجتماعات . وفى ١٢ إبريل ١٩٤٤ استدعى الملك السفير البريطانى وشرح له أهمية إقالة وزارة النحاس لأن البلاد « لاتحتمل ملكين . . !» على حد تعبير فاروق ، وشرح أهمية أن يعهد إلى أحمد حسنين بتأليف وزارة جديدة . ووجه الملك رسالة التكليف إلى أحمد حسنين ورد أحمد حسنين بالقبول والشكر . ووقع الملك فى ١٧ إبريل ١٩٤٤ أوامر تشكيل الوزارة على النحو التالى : أحمد حسنين للرياسة والخارجية ، وحسن فهمى رفعت للداخلية ، ومريت غالى للتجارة والصناعة ، وعبد الفتاح عمرو وزير دولة ، وطراف على للمواصلات ، وراضى أبو سيف راضى للشئون الاجتماعية ، وعلى عبد الرازق للأوقاف ، وعبد القوى أحمد للأشغال ، ومحمد كامل مرسى للمعارف ، ومحمد على نمازى للعدل ، وحسن صادق للدفاع ، ومحمود محمد محمود للمالية . . . وكان هذا كله كلاما على الورق ولم يعلن بعد توقيعه من الملك فى يوم عطلة شم النسيم . وكان النحاس باشا فى

«سمخراط» ، أما زعماء المعارضة فلم يكن من السهل عليهم أن يجتمعوا وينفضوا طوال السنتين السابقتين للإطاحة بحكومة النحاس باشا ثم يأخذها أحمد حسنين لقمة سائغة ويشكل وزارة جميع عناصرها من المستقلين . ولم يكن الموقف الحربى بالنسبة للحلفاء يسمح بعد بحكومة لاسند لها من حزب الأغلبية أو من أحزاب المعارضة على السواء . وعلى هذا فقد ظلت هذه المراسيم بعد توقيعها حبيسة الأدراج يعود إليها أحمد حسنين بين الحين والآخر ثم يطويها داخل الأضابير دون أن يدخل اسمه تاريخ النظارات أو الوزارات .

إقالة وزارة النحاس

والملف الثانى الذى نعرض له من ملفات أحمد حسنين خاص بدوره فى إقالة وزارة النحاس باشا فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ . وهذه قصة تآمر متصل من جانب القصر نسج خيوطها وثابر على تنفيذها أحمد حسنين منذ اليوم الأول لتولى مصطفى النحاس رئاسة الوزارة فى ٤ فبراير ١٩٤٢ . وكان أحمد حسنين المحرك الرئيسى لأحزاب الأقلية السياسية من أجل مواجهة « الوفد » وحكومته ومن أجل إسقاط الحكومة وكان كل فريق يستغل الفريق الآخر للإطاحة بحكومة « الوفد » لصالحه الخاص . وفى صيف ١٩٤٣ عادت العلاقة طبيعية بين القصر والإنجليز ، وزادت نقاط الاشتعال بين القصر و«الوفد » . وبدأ القصر يؤجل توقيع المراسيم التى ترفعها الوزارة ، ويعترض على شغل المناصب القضائية رغم موافقة المجلس الأعلى للقضاء عليها . وفى ٦ أكتوبر ١٩٤٣ نشرت جريدة « المصرى » نبأ تعيين إبراهيم فرج مدير المستخدمين بوزارة الداخلية ، قاضيا بالمحاكم المختلطة ضمن حركة تعيينات واسعة . ووافق القصر على الحركة فيما عدا إبراهيم فرج ، وتمسك محمد صبرى أبو علم وزير العدل بالترشيح ووقع صدام حاد بينه وبين أحمد حسنين . ثم وقع حادث « القصاصين » المشهور فى ١٥ نوفمبر ١٩٤٣ الذى أصيب فيه الملك فاروق فى حادث سيارة ، وعندما ذهب النحاس باشا لزيارة الملك زعم أحمد حسنين أن الزيارة ممنوعة ، ولكنه فى اليوم التالى دعا زعماء أحزاب المعارضة لزيارة الملك . وفى ٢٢ ـ ٢٦ نوفمبر ١٩٤٣ انعقد بالقاهرة مؤتمر فى فندق « مينا هاوس » لتنسيق وسائل الحرب ضد اليابان حضره « روزفلت ، وتشرشل ، وشيانج كاى شيك » . وأشار الملك فاروق بنصيحة من أحمد حسنين على زعماء المعارضة أن يتقدموا بمطالب مصر القومية إلى ذلك المؤتمر . وبالفعل فى ٢٤ نوفمبر تقدمت المعارضة بمذكرة إلى المؤتمر وقعها «حافظ رمضان رئيس الحزب الوطنى ، ومحمد حسين هيكل رئيس حزب الأحرار ، وأحمد ماهر رئيس الهيئة السعدية ، ومكرم عبيد رئيس الكتلة الوفدية » .

وفى إبريل ١٩٤٤ تمت كما أشرنا من قبل محاولة إقالة « وزارة الوفد » وتعيين أحمد حسنين رئيسا

لوزارة من المستقلين ، وهى محاولة لم تر النور ، وبعدها كثف أحمد حسنين مقابلاته مع المسئولين فى السفارة البريطانية للتنسيق بين القصر والإنجليز وكانت تلك الاجتماعات تتم فى داره إمعانا فى السرية . وعرف أحمد حسنين من الانجليز أن مصطفى النحاس يعد العدة لمواجهة الانجليز والقصر معا ، وبالفعل ألقى النحاس فى ٢٦ أغسطس ١٩٤٤ خطابه المشهور الذى طالب فيه بتعديل معاهدة ١٩٣٦ . ولكن السفير البريطانى قابل الملك «فاروق» فى ٨ سبتمبر وحذره من اتجاه النحاس نحو تعديل المعاهدة . وفى ١٥ سبتمبر ١٩٤٤ وقع حادث « اللافتات » المعروف حين ذهب الملك لأداء صلاة الجمعة فى مسجد عمرو بن العاص وصحبه أحمد حسنين ولم توجه الدعوة إلى رئيس الوزراء مصطفى النحاس ، وشاهد الملك فى الطريق لافتات تحيى الملك مع النحاس ، فأمر محمود غزالى مدير الأمن بنزعها ونفذ غزالى تعليمات الملك . ومن الإسكندرية قرر فؤاد سراج الدين وزير الداخلية . وقف غزالى عن العمل ، وأذاع الخبر فى الصحف . وجن جنون أحمد حسنين وحاول إرجاع غزالى إلى عمله لأيام معدودة ولجأ إلى الإنجليز ، وإلى غير الإنجليز ورفض النحاس إعادة غزالى إلى عمله .

وهكذا وصل الأمر بمصطفى النحاس إلى أن يواجه فى وقت واحد الإنجليز والقصر وأحزاب المعارضة ، وتقرر تنفيذ مؤامرة الإقالة . ويقول حسن يوسف فى مذكراته صفحة ١٨٨ . . . « يوم الخميس ٥ أكتوبر قرر الملك عزل النحاس باشا . وأعد أحمد حسنين خطة محكمة أحيطت بالسرية والكتمان الشديدين مع الاستعداد لجميع الاحتمالات بحيث لايتمكن النحاس باشا من تقديم استقالته . وتم إعداد كتاب الإقالة وتوليت كتابته بخط يدى ضمانا للسرية » . وللتمويه سافر حسن يوسف إلى الإسكندرية يوم السبت ٧ أكتوبر وطلب من النحاس باشا موعداً للغد لبحث موضوعات معلقة بين القصر والوزارة ، فحدد له النحاس باشا الساعة الخامسة بعد ظهر الأحد ٨ أكتوبر ١٩٤٤ ، وفى الموعد المحدد فوجىء النحاس باشا بكتاب الإقالة .

الكتـاب الأسود

وهذا ملف آخر يكشف من أوله إلى آخره عن دور حسنين فى تفجير أزمة الكتاب الأسود ، بل فى صنعه وتقديم الغطاء الأمنى للعملية بأسرها . يقول جلال الدين الحمامصى أمين صندوق حزب الكتلة الوفدية فى كتابه « معركة نزاهة الحكم » إن قصة الكتاب الأسود بدأت فى أغسطس عام ١٩٤٢ حين اجتمع فى ليلة من ليالى هذا الصيف بأحمد حسنين رئيس الديوان الملكى واتفقا على تسجيل ما أسمياه بفساد حكومة الوفد فى وثيقة ترفع إلى الملك . وذهب الحمامصى إلى رأس البر وبحث الفكرة مع مكرم باشا الذى لم يتردد فى الموافقة عليها ، واقترح الحمامصى طبع

العريضة فى كتاب . ويعترف الحمامصى بأن حسنين كان يتابع الكتاب أثناء تأليفه . وفى كتاب «حوار وراء الأسوار » يقول الحمامصى « عندما أحسسنا بشدة مراقبة البوليس ذهبت إلى أحمد حسنين وكان ذلك فى أوائل مارس ١٩٤٣ . . وقال «لامانع عندى من تسلم النص المكتوب باليد للعريضة ومعه الوثائق للاحتفاظ بها فى خزائن قصر عابدين . . وماعليك إلا أن تسلمها غدا فى منزلى » .

ويوم ٣١ مارس ١٩٤٣ كما يقول الحمامصى . . « وصل مكرم عبيد فى الموعد المحدد واتجه مباشرة إلى مكتب أحمد حسنين حيث كانت العريضة رابضة على مكتبه بعد أن أخرجت من خزينة القصر » . ومما كتبه ونشره جلال الدين الحمامصى فى كتابين يتضح أن فكرة العريضة التى تحولت إلى كتاب أسود تم الاتفاق عليها بين أحمد حسنين والحمامصى ، ثم وافق عليها مكرم عبيد وصاغ العريضة بأسلوبه الأدبى البليغ . وخوفا من رقابة البوليس سلم الحمامصى العريضة والوثائق إلى أحمد حسنين فى منزله بالدقى الذى أودعها خزائن قصر عابدين إلى أن أخرجت يوم ذهب مكرم عبيد ورفع العريضة إلى الملك فاروق .

دور أحمد حسنين واضح فى الكتاب الأسود فكرة ومتابعة وحماية ، ودوره واضح أيضا قبل ذلك بعام فى الوقيعة بين مصطفى النحاس ومكرم عبيد بتحديد موعد . . « يتشرف فيه معالى وزير المالية مكرم عبيد باشا بمقابلة جلالة الملك فاروق » ، ثم أوعز حسنين لمندوب الأهرام أن يطلب من سكرتير الوفد تصريحا عن المقابلة ، ووقع مكرم عبيد فى الشباك وأدلى بالتصريح الذى نشرته الأهرام فى ١٣ مارس ١٩٤٢ يشيد فيه بعطف الملك وتشجيعه واطلاعه الواسع ، وإرشادة النافع ونظرته الدقيقة والعميقة ورجولته المبكرة وخبرته النادرة . . وكانت بداية الأزمة الشهيرة داخل الوفد .

ويؤكد دكتور يونان لبيب رزق فى كتابه « الوفد والكتاب الأسود » أن السلطات البريطانية عرفت بأمر الكتاب الأسود ولم تبلغ حكومة النحاس باشا وهذا أمر له دلالته ، كما أن الملك أخذ يوثق علاقاته بالسفير البريطانى ويخرج الاثنان فى رحلات للصيد . وعندما أثار نجيب الهلالى وزير المعارف ديون أحمد حسنين التى لم يسددها لمدرسة أسيوط الصناعية نظير أثاث اشتراه ولم يسدد ثمنه منذ عام ١٩٢٩ ، تدخل الانجليز لحماية أحمد حسنين ولعدم التشهير بذمته المالية . .

ومهما يكن من أمر فإن الكتاب الأسود لم يشر من بعيد أو من قريب إلى موقف مصطفى النحاس فى ٤ فبراير ١٩٤٢ ، وهو أحد الملفات الهامة . .

٤ فبراير ١٩٤٢

وجد أحمد حسنين فى أحداث ٤ فبراير ١٩٤٢ فرصة فى أن يثير الشكوك حول موقف مصطفى النحاس ، واتجه نشاطه فى محاور كثيرة .

ويوضح عبد اللطيف البغدادى ص ٢٠ المذكرات جـ ١ أن مناقشات الضباط بناديهم بالزمالك أسفرت عن التوجه للسراى لتسجيل أسمائهم فى سجل التشريفات إثباتا لولائهم للملك، وتعبيرا عن مساندتهم له . واتصل البغدادى بأحمد حسنين تليفونيا وطلب مقابلته ، وذهب يرافقه الملازم طيار « عبد الحميد الدغيدى » . ويقول البغدادى . . خرجنا من عنده ولم نعرف الحقيقة عن موقف النحاس ، ولو أننا أحسسنا من ثنايا الحديث أن النحاس لم يكن متواطئا مع الإنجليز كما كان يشاع ولكنه اتخذ هذا الموقف اعتقادا منه أنه أحسن الحلول لمواجهة هذا الموقف العصيب . .

كان أحمد حسنين هو الذى كان يعلم حقيقة موقف الإنجليز وقد أثير هذا الموقف سنة ١٩٤٨ عندما أدلى على ماهر بشهادته فى قضية اغتيال أمين عثمان الذى قام به مجموعة من الشباب تعمل لحساب الملك فاروق . قال على ماهر : إن حسنين كان على علم بأن الدبابات ستحضر إلى قصر عابدين فى الساعة التاسعة مساء . وعندما عرضت المسألة على الزعماء المجتمعين كانت توجد معلومات عند رئيس الديوان لم يدل بها إلينا ، كما أنه بعد أن ذهب إلى السفير بعد الساعة السادسة مساء عاد وكانت عنده معلومات أخرى وسئل فلم يقل شيئا . هذا ما قاله على ماهر ، وهو من الأعداء التقليديين للنحاس . وغموض موقف حسنين هذا بهدف ألا يقدر الزعماء المجتمعون فى القصر بدعوة من الملك للنظر فى الإنذار البريطانى . . ألا يقدروا الموقف تقديرا سليما . .

ورغم هذا فقد رفض مصطفى النحاس وسائر الزعماء الإنذار البريطانى ، وطلبوا من أحمد حسنين أن يحمل رفض الإنذار إلى السفير . ويقول محمد حسنين هيكل فى مذكراته : « حمل رئيس الديوان قرار رفض الإنذار وذهب به إلى السفارة البريطانية بعد أن طلب إلينا أن ننتظر عودته . . وحاولنا ـ بعد عودته ـ أن نستشف ما يكون قد فهمه من اتجاه السفير ، لكن حسنين أكد أنه لم يستطع أن يتبين شيئا . ولم تكن هذه هى الحقيقة .

الملف الشخصى

والملفات كثيرة والموضوعات متشعبة . ويعتقد الذين يعرفونه أنه يجيد التمثيل للوصول إلى أغراضه ، ويتحدثون عن علاقاته بالملكة نازلى . ولكن يبقى ملفه هو الخاص بهويته وبالتعريف به ، ولكن يكون من عند ياتنا بل من الملف رقم ٥٢ من الملفات الخاصة بالشخصيات المصرية فى السفارة البريطانية ، وهذا نص ماجاء فيه :

« مولود عام ١٨٨٥ . ابن الشيخ محمد حسنين من رجال الأزهر . تعلم فى مصر ، التحق بأكسفورد . حاول الالتحاق بالجيش البريطانى عام ١٩١٤ ، عينه الجنرال مكسويل سكرتيرا عربيا له . عمل كضابط سياسى مع القوات الانجليزية المتجهة إلى الصعيد بعد اضطرابات ١٩١٩ . شغل سنة ١٩٢٠ منصب مساعد مفتش بوزارة الداخلية . عام ١٩٢٤ عين سكرتيرا أول للبعثة المصرية فى واشنطن ، ثم نقل إلى المنصب نفسه فى لندن عام ١٩٢٥ . عينه الملك فؤاد ياورا ثانيا ، ثم ياورا أول . تزوج عام ١٩٢٦ من لطفية ابنة الأميرة شويكار مطلقة الملك فؤاد عام ١٩٢٩ . ترك الملك فؤاد لندن وبقى حسنين لعدة شهور ومازالت أسباب ذلك غامضة . اصطحب الأمير «فاروق» فى رحلته إلى انجلترا بين أكتوبر ١٩٣٥ وإبريل ١٩٣٦ . ومنح الباشوية فى أغسطس ١٩٣٦ . . وهنا نكتفى بهذه الملفات وببعض ماجاء فيها .

الأسانيد :

١ ـ حسن يوسف . . المذكرات .

٢ ـ جلال الدين الحمامصى . . حوار وراء الأسوار .

٣ ـ عبد اللطيف البغدادى . . المذكرات جـ ١ .

٤ ـ محمد التابعى . . أسرار الساسة والسياسة .

٥ ـ د . يونان لبيب رزق . . الوفد والكتاب الأسود .

أحمد حسين



أستأذن فى أن أعيد هنا فقرة أو فقرات مما نشرته عنه منذ حوالى تسع سنوات . . قلت : « لم أكن من أتباعه أو مريديه ، بل إننى قضيت الجانب العملى من حياتى السياسية فى موقع ينظر إليه بعين تبدى المساويا . فإذا وجد أتباعه ومريدوه ومحبوه فى هذا المقال ما يمكن أن يكون نقدا أو شبهة نقد لموقف من مواقف ـ أحمد حسين ـ فليعذرونى وليردوا ذلك إلى رواسب الماضى » .

لقيته فى حياتى مرتين . . الأولى عام ١٩٥١ ، وكنت إذ ذاك سكرتيرا لأحد الاتحادات التعليمية ، وقد سعى إلى بعض الزملاء لانضم إلى لجنة دعت إلى ما أسميناه « الجبهة الشعبية » . وجلسنا إليه فى مقر الحزب الاشتراكى ، ونشرت مجلة الاشتراكية بيانا جاء فيه : « الطريق الوحيد لتحرير بلادنا هو توحيد صفوف الشعب وتضامن أحزاب وهيئات الأحرار والوطنيين والديموقراطيين وجميع الهيئات الشعبية فى جبهة شعبية حول برنامج شعبى » . والمرة الثانية عام ١٩٦٥ وكنت أشارك فى تحرير مجلة « صوت العروبة » وذهبنا إليه . . فؤاد نصحى من أبناء «مصر الفتاة » والمستشار بالجامعة العربية ، وأحد قادة حزب العمل فيما بعد ـ يرحمه الله ويحسن إليه والمرحوم صادق عزيز المحرر بالأهرام ـ وقتذاك ـ ، والزميل محمود مهدى المحرر بالأهرام وقتذاك وحاليا ، ثم كاتب هذه السطور .

كان أحمد حسين قد فرض على نفسه عزلة اختيارية ، وبدأت الأمراض تناوشه ، ولكنه أبى إلا أن يستضيفنا بنفسه ، ويقدم لنا الشاى بيديه ، وكلنا فى مقام الإخوة الصغار وتلاميذه . . ومضت الأيام واشتد المرض عليه . . وفشلت فى أن أقنع نفسى بأن أرى « الثائر الهادر » وقد استكان للمرض . . واكتفيت بأن أجاوره على صفحة « الرأى للشعب » بالزميلة « الأخبار » حين كنت أكتب فيها مقالا أسبوعيا . وكانت مقالاته فى تلك الفترة تحتمل الاختلاف أكثر مما تحتمل الاتفاق ، واكتفينا بأن ندعو له بالصحة والعافية .

وأترك أخاه عادل حسين رئيس تحرير الزميلة « الشعب» يوجز لنا حاله فى تلك الفترة : «اعتزل المحاماة مع بداية سنة ١٩٦٠ وداهمه الاكتئاب مع كارثة يونيو ١٩٦٧ ، ولم ينفع علاجه فى لندن ، وعاد وقد استشهد زوج ابنته « إيهان » الرائد طيار سامح مرعى . . ودخل أحمد حسين فى غيبوبة وأفاق منها وهو فى حالة شلل كامل صاحبه حتى توفاه الله . . ومن فضل الله عليه أن بقى له عقله المتوهج ، ويده اليمنى تتعثر فى الكتابة » .

وفى تقديرنا أن أحمد حسين هو أكثر رؤساء الأحزاب فى مصر الذى يجوز له أن يتألم ـ إلى هذا الحد ـ لمصير حركة ٢٣ يوليو فقائدها جمال عبد الناصر كان عضوا بمصر الفتاة وعضوا بقمصانها الخضر حتى آخر عام ١٩٣٥ ، ثم انتقل عام ١٩٣٦ إلى القمصان الزرق . والصديق الحميم لجمال عبد الناصر « كمال الدين صلاح » الذى استشهد فيما بعد بالصومال هو أحد مؤسسى «مصر الفتاة » ، وهو شقيق السيدة الفاضلة زوجة « فتحى رضوان » ، وعدد من الضباط الأحرار أعضاء سابقون فى مصر الفتاة أمثال حسن إبراهيم ، وإسماعيل فريد ، ومشهور أحمد مشهور ، ومصطفى بهجت بدوى ، ومحمود رياض ، ومحمد وجيه أباظه . إلا أن « السلطة الجديدة » لجأت للاستعانة بفتحى رضوان وهو المؤسس الثانى لمصر الفتاة . وكان قد انضم معه عدد من العناصر البارزة فى الجماعة إلى « الحزب الوطنى » عام ١٩٤٤ وأصدروا « اللواء الجديد » . وفى مايو ١٩٤٩ شكل فتحى رضوان ومجموعته « اللجنة العليا لشباب الحزب الوطنى » واستمر فى إصدار «اللواء » . لجأ عبد الناصر للاستعانة بفتحى رضوان ، ولم يلجأ للاستعانة بأحمد حسين فى أى مرحلة من المراحل . . لماذا ؟ الزعامة الفردية جزء من شخصية عبد الناصر ، وهى أيضا جزء من شخصية الزعيم السابق لعبد الناصر . كان أحمد حسين منذ شبابه الباكر يتصل بزعماء الأحزاب ويراسل قادة الدول ، ويواجه الزعامات التقليدية ، وكانت لأحمد حسين ملاحظات على «الانقلاب » ، ووقعت جفوة باكرة بينه وبين فتحى رضوان بسبب هذه الملاحظات .

وعند أول خلاف حول سياسة « الحركة » اعتقل عبد الناصر زعيمه السابق أحمد حسين ، واعتقل عبد القادر عودة وعددا من زعماء الإخوان سنة ١٩٥٣ . وشهدت ساحة السجن الحربى أبشع اعتداء على أحمد حسين وعبد القادر عودة ، فى « طريحة واحدة» وبأسلاك الكهرباء المجدولة !! ولعل أحمد حسين تأكد حين ذاك أن طريق الدكتاتورية الذى يسلكه عبد الناصر لايمكن أن يسمح بأية مشاركة شعبية ولا بأية أساليب ديمقراطية ، ولا بأية معاملة إنسانية . ولعله أدرك أن عهد « الضباط الأحرار » يختلف جذريا عن عهود « الوفد » السابقة التى كان يعارضها ويحاربها أحمد حسين . ونراه من لندن عام ١٩٥٥ (كان قد سافر إلى لندن بعد الإفراج عنه) يبعث برسائل ثلاث إلى جمال عبد الناصر يركز فيها على عودة الدستور ، وسيادة القانون

وتعدد الأحزاب ، وحقوق الإنسان المصرى . وأشارت الرسائل أيضا إلى أن الحاكم العسكرى يضيق بالاختلاف فى الرأى ولايقبل المعارضة .

جيل القلــق

ولا أظن أن « النزعة الزعامية » التى أشرنا إليها هنا عند أحمد حسين تنفيها أو تقلل من احتمالات وجودهـا عنده مواقف مختلفة لديه مع محمد محمود زعيم الأحرار الدستوريين ، وعلى ماهر الخصم العنيد للوفد ، ومحمد كامـل البندارى أيام كان رجل القصر أو محاولة الاندماج مع الإخوان المسلمين . . أو شبه الانـدماج الذى تم عام ١٩٤٠ بين لجان الحـزب الوطنى ومصر الفتاة واشتراك أحمد حسين فى « جماعة الشباب الحر أنصار المعاهدة » برئاسة حافظ محمود فى أغسطس ١٩٢٠ . والدفاع عن مشروع معاهدة « محمد محمود ، هندرسون » وهجومه على الوفد، ومناداته بمحمد محمود زعيما لمصر (فى مواجهة زعامة مصطفى النحاس) . فقد كان فى هذا الموقف يعبر عن رغبته الكامنة فى أن يكون هو نفسه « زعيما لمصر » ، وليس محمد محمود أو مصطفى النحاس . ثم لا ننسى أنه كان فى ذلك الموقف فى الثامنة عشرة من عمره ، إذ أنه ولد فى ٨ مارس ١٩١١ لوالده محمود حسين كاتب الحسابات فى بعض الدوائر الزراعية ولوالدة من قرية «ميت النصارى » تمت بصلة القربى لمصطفى النحاس باشا . شاب عمره ١٨ سنة ، فى السنة الأولى بالحقوق ، مغرم بالتمثيل ، كان عضوا بفرقة التمثيل فى المدرسة الخديوية ، ورئيسا لفرقة تدعو إلى « مجد الفراعنة التليد » وكانت جريدة « السياسة » تفتح أبوابها لبيانات هذا الشاب ، ورئيس وزراء مصر ابن محمود سليمان يقبل عليه مما جعل الشاب أحمد حسين يغرق فى المناداة بزعامة محمد محمود ابن الصعيد ، سليل الفراعنة . ولكن لا محمد محمود استمر فى الدور ، ولا جريدة « السياسة » استمرت تفتح أبوابها له ، وكان الموقف كله من مقتضيات السياسة للإفادة من الشاب ومن زملائه . وفى الوقت ذاته محاولة من الزعيم الشاب أن يستند إلى « الأحرار الدستوريين » وأن يفيد من وزاراتهم سياسيا وماديا وصحفيا ويضمن نموا لجماعته وحزبه فى ظلهم، ولكن بعد إقالة حكومة النحاس فى ديسمبر ١٩٣٧ ، ومجىء محمد محمود رئيسا للوزراء قام بحل التشكيلات العسكرية للوفد ولمصر الفتاة على السواء فى ٩ مارس ١٩٣٨ ، ووقعت الجفوة بين أحمد حسين ومحمد محمود وبين « مصر الفتاة » و«الأحرار الدستوريين » ، ووصلت الجفوة إلى الصدام والزج بعناصر جيل القلق إلى السجون .

التجربة الثانية مع على ماهر ، وهو معروف بأنه يعمل لصالحه الشخصى سواء فى خدمته للقصر أو فى تحالفاته المختلفة . ومن هذا المنطلق سعى على ماهر للتحالف مع أحمد حسين ضد

الوفد . . ويوضح أحمد حسين أسباب تحالف « مصر الفتاة» لفترة طويلة مع على ماهر . كتب فى جريدة « مصر الفتاة » فى ٢٢ نوفمبر ١٩٣٩ . « إننا قوم عمليون ، ولاتزال البلاد فى حاجة إلى اسم ضخم ، ولما كان على ماهر هو آخر هذه الأسماء الطنانة ، وهو الرجل الذى لم يفتر عن تأييدنا تأييدا كاملا طوال ست سنوات ، فلا عجب إذا رآنا الناس نأخذ جانب على ماهر ليكون مقدمة لحكم الشباب ، ومقدمة لثورة الإصلاح الكبرى » . حكم الشباب إذن هو الهدف ، وحزب الشباب هو « حزب مصر الفتاة » . وزعيم الحزب هو أحمد حسين . الهدف واضح إذن فى تحالفاته وهو إفساح الطريق للجيل الجديد ليأخذ مكان الجيل القديم ، وليحل الشباب محل الأسماء الطنانة . وأحسب أن أحمد حسين قد حدد هدفه من الجيل القديم منذ بداية مشروع القرش ـ فبراير ١٩٣٢ ـ وخاصة الجيل القديم من مدرسة سعد زغلول . وربما كان هذا النهج متبعا أيضا فى علاقة أحمد حسين بعدد من الشخصيات البارزة أمثال عزيز المصرى وصالح حرب ومحمد كامل البندارى ، ومحمد على علوبة والشيخ حسن البنا .

البحث عن هوية

لقى أحمد حسين هجوما شرسا عليه من جانب كتاب وباحثين ومفكرين عديدين بسبب اختلاف مواقفه من الهيئات والشخصيات والمؤسسات التى وصلت أحيانا من النقيض إلى النقيض . من أجل هذا وصفوه بالفاشية وبالزئبق وبمدرسة الصخب وبالدسيسة وبالرجل الذى باع الوطن لكل من دفع الثمن ! وساقوا أدلة على تلك التغيرات الحادة فى مواقفه على مدى ثلاثين عاما . فهو قد بدأ نشاطه وهو فى حوالى العشرين بولاء لا حدود له للجالس على العرش ، ولكن لو أجلنا البصر على تاريخ كل زعماء مصر عندما كانوا فى العشرين من أعمارهم ما وجدنا مواقفهم تختلف كثيرا عن موقف أحمد حسين . وإذا كان قد استمر هذا الولاء معه لسنوات عديدة مما طبع « مصر الفتاة » وتشكيلاتها وصحفها بطابع الولاء للملك ، فإننا لانجد شخصية سياسية ولا جماعة سياسية مزقت هيبة القصر وألقت باسم الملك فى الوحل مثلما فعل أحمد حسين وأعضاء «الحزب الاشتراكى » فى بداية الخمسينات . وإذا كانت دعوته الباكرة ضد الأجانب عامة فإنها تركزت ضد الانجليز عام ١٩٥١ .

وقد بدأ نشاطه الصحفى فى مجلة « الصرخة » عام ١٩٣٠ بدعوته المصرية الفرعونية « ياشباب النيل ، ياسلالة الفراعنة مصر مركز العالم ، أم الحضارات » . . . إلى آخر هذه الدعوة . ولكن المتأمل المدقق يجد أنه يقرن هذه الدعوة بصرخة أخرى لطرد المحتل الذى يعتدى على « مصر أم الدنيا » ثم يقرنها بشعار عاطفى « مصر فوق الجميع » . وإذا تحدث عن رمسيس فهو يتحدث

عن مجد الإمبراطورية القديمة الذى داسته أقدام المحتلين ، ويتحدث عن امنحتب مقرونا بالعدل الاجتماعى ، ويوقع مقالاته أحيانا باسم « أحمس » استلهاما للتحرير . والعناصر التى بدأ بها دعوته « الفرعونية المصرية » وظلت ثابتة لديه سياسة وأسلوبا نرى منها « الميليشيا الفرعونية » ، وربما تحولت هذه إلى « القمصان الخضراء » التى أحيتها لديه تشكيلات إيطاليا الفاشية وألمانية النازية ، والعدل الاجتماعى ظل لديه فى حزب مصر الفتاة ، وفى الحزب الإسلامى ، وفى الحزب الاشتراكى (١٩٤٩) والذى حرص على أن يسجل أنه يأخذ باشتراكية متعارضة مع الماركسية ويستمدها من الإسلام . وعندما خشى أن تلتبس الأمور أعلن فى أخريات أيامه أنها الإسلام وحسب .

سنة ١٩٣٠ صدرت مجلة « الصرخة » ورأس تحريرها حافظ محمود حسب روايته ، وكانوا خمسة : أحمد حسين وفتحى رضوان وكمال الدين صلاح وحافظ محمود ، ومصطفى الوكيل . واتصل أحمد حسين وحافظ محمود بجمعية « المصرى للمصرى » التى أنشأها سلامة موسى ودعت إلى مقاطعة كل البضائع غير المصرية ، ودعا أحمد حسين « لمشروع القرش » الذى شجعه الشباب والقادة وأفسح له إسماعيل صدقى ـ وكان رئيسا للوزراء ـ المجال ، وتبناه طلعت حرب ، وتأسس مصنع للطرابيش بأموال مصرية سنة ١٩٣٣ . وأعفى أحمد حسين من منصبه فى « جمعية القرش » بعد أن كسب شهرة قومية من وراء الدعوة للمشروع وأعلن عن تكوين « جمعية مصر الفتاة » فى ١٢ أكتوبر ١٩٣٣ ، ونشر برنامج الجمعية على صفحات « الصرخة » فى ٢١ أكتوبر وهو البرنامج الذى قام « حزب مصر الفتاة » سنة ١٩٣٧ للدفاع عنه ، وسنة ١٩٣٨ بدأ « الاتجاه الإسلامى » يظهر واضحا فى نشاط الحزب ، وفى ١٨ مارس ١٩٤٠ وضع برنامجا لحزب إسلامى رفعه إلى الملك فاروق وتغير اسم الحزب إلى « الحزب الوطنى الإسلامى » . إلا أن الحزب الجديد يبدو أنه لم يستطع أن ينافس « الإخوان المسلمين » فى ميدان هم فرسانه ، فبدأت العودة إلى اسم الحزب القديم « مصر الفتاة » فى العام نفسه . وعام ١٩٤٩ وتحت تأثير الوضعية الجديدة فى المنطقة بعد حرب فلسطين (١٩٤٨) والتغيرات على النطاقين العالمى والمصرى ، بدأ تحول « حزب مصر الفتاة» إلى « حزب مصر الاشتراكى » ، وفى وثائق الحزب الاشتراكى التى تقدم بها دكتور فخرى أسعد عن الأعضاء المؤسسين تطبيقا لقانون الأحزاب لسنة ١٩٥٢ ، نجد أن المادة الأولى تنص على أن الحزب الاشتراكى هو استمرار لحركة مصر الفتاة التى بدأت فى ١٢ أكتوبر ١٩٣٣ . ولكن لم يقدر للحزب أن يقوم من جديد لأن مصر دخلت مرحلة جديدة لا أحزاب فيها ولا دستور ولا ديمقراطية ، مما دفع أحمد حسين إلى الصدام مع السلطة الجديدة كما أسلفنا .

شهادة للتـــاريخ

وإذا كان أحمد حسين قد بدأ حياته السياسية العملية بحرب شعواء ضد « الوفد » ، فإنه قد ختمها أيضا عام ١٩٥١ بحملة شعواء ضده أسهمت ـ فى تقديرنا ـ فى إسقاط الحكومة وفتح الطريق لوزارة على ماهر بعد الحريق ، وبعدها استيلاء الضباط الأحرار على السلطة والحكم الدكتاتورى الذى اكتوى بتعذيبه أحمد حسين نفسه . ولم يكن من الغريب فى سنوات العزلة الاختيارية والتأمل فيما مضى به من أحداث أن يكتب أحمد حسين مقالا بجريدة الجمهورية بعنوان « شهادة للتاريخ عن مصطفى النحاس » بتاريخ ٢٨ أغسطس ١٩٧٥ يقول بالحرف الواحد : « إن الديمقراطية والحرية السياسية هى السر الحقيقى لقوة الشعوب ، ومن هنا فقد كان حق النحاس فى حكم البلاد باعتباره زعيم الأغلبية الساحقة هو حق طبيعى ، والحق لايتحول إلى باطل » . وفى مقال آخر فى الشهر نفسه ، وفى الجريدة ذاتها يقول عبارات محددة . . « إن سيادة القانون وسلطانه وأحكام الدستور وممارسة الديمقراطية لم تتوقف لحظة واحدة خلال حكم الوفد». وفى ظل طموح أحمد حسين لزعامة الشباب والجيل الجديد الذى يدعوه إلى الإمساك بمقاليد الأمور بدلا من الجيل القديم ، وفى ظل دعوة « مصر الفتاة » لابتعاد الشباب عن العمل السياسى ، ودعوتها للميليشيا الفرعونية والتشكيلات شبه العسكرية وللقمصان الخضر ، وعدم الإيمان بالأساليب البرلمانية فى إطار الليبرالية والدعوة لاستخدام القوة وللانقلاب والثورة . . كان من الطبيعى ألا تندمج « مصر الفتاة » فى حزب الأغلبية الشعبية الذى يؤمن بالدستور والوسائل البرلمانية ، ومن الطبيعى أن يكون موقف الجمعية فى الجانب المعادى للوفد وإن اختلف موقف الجمعية من فصائل الفريق المعادى للوفد .

وقد بدأت علاقة أحمد حسين بمحمد محمود والأحرار الدستوريين أكثر من طيبة ، إلا أن محمد محمود الذى كان يطمع يوما أن يكون رئيسا للوفد بعد سعد زغلول وسليل الفراعنة ومن أحشاء الصعيد ، والذى دعاه أحمد حسين ذاته أن يكون « موسولينى مصر » لم يكن بالشخص الذى يمكن أن تحركه « جماعة مصر الفتاة » كما تهوى ، فكان يحدث الخلاف بين الحين والحين . وكانت « مصر الفتاة » تؤمن بكثير من تراث الحزب الوطنى وبمواقفه وأساليبه وتشكيلاته ، ولكن لم تكن هناك فرصة لاتحاد الجيل الجديد مع الجيل القديم . وقد بادرت « مصر الفتاة » بتأييد انقسام « ماهر والنقراشى » عام ١٩٣٧ وذلك لإضعاف الوفد ، ودب الخلاف بسبب اتجاه أحمد ماهر لدخول مصر « شكليا » الحرب إلى جانب انجلترا مما أدى إلى اغتياله فى فبراير ١٩٤٥ . وقد بذل عزيز المصرى جهودا فى محاولة اندماج « مصر الفتاة » فى جمعية « الإخوان المسلمين » ورفض الشيخ حسن البنا الفكرة عام ١٩٣٩ ، واستطاعت الجماعة أن تستقطب عددا من أعضاء « مصر

الفتاة » لوضوح توجهاتها الدينية ، ولغلبة الاتجاه السياسى لدى مصر الفتاة . وبتأثير النشاط الماركسى تعاطف عدد من أعضاء « مصر الفتاة » مع العناصر اليسارية ، ولكن بعد وضوح موقف أحمد حسين من الماركسية ، وبعد الهجوم الضارى من الماركسيين على أحمد حسين و«مصر الفتاة » ، خرج عدد من أعضاء « مصر« الفتاة » إلى المنظمات اليسارية أو إلى الوفد .



أحمد حسين سباق مع الزمن ، أفكار كالصاعقة ، عقلية متوهجة ، حالم بمجد رمسيس وبشخصية أحمس ، وميليشيا فرعونية ، ومصر فوق الجميع ، وجيل جديد يريد أن يحتل موقع الجيل القديم وداعية لولايات عربية متحدة ، ورئيس « مصر الفتاة » جماعة وحزبا ، والحزب الوطنى الإسلامى ، والحزب الاشتراكى ، والعدل الاجتماعى ، والأخوة العالمية . . مواقف ملتهبة من الولايات المتحدة إلى الاتحاد السوفيتى ، مواقف متغيرة من كل أحزاب وجماعات وشخصيات مصر إلا فيما ندر . . دخل السجن العادى أيام الديموقراطية . . والسجن الحربى أيام نظام تلاميذه القدامى . . و . . . و . . . هل استطعت أن أقدم صورة كاملة عنه ؟ لا أظن . .

الأسانيد :

١ ـ د . رفعت السعيد . . « أحمد حسين » .
٢ ـ عادل حسين . . « الشعب » ١٥/ ٣/ ١٩٨٨ .
٣ ـ د . عبد العزيز الدسوقى . . « الحركات الجديدة » أحمد حسين .
٤ ـ د . عبد العظيم رمضان . . « تطور الحركة الوطنية فى مصر » .
٥ ـ د . على شلش . . « مصر الفتاة » .
٦ ـ د . لطيفة سالم . . « الصحافة والحركة الوطنية المصرية » .
٧ ـ لمعى المطيعى . . الأخبار ٢٩/ ١٠/ ١٩٧٩ .

أحمد حلمى



غريب أمر هذه الدنيا . . أحمد حلمى يشقى إلى جانب مصطفى كامل سبع سنوات كاملة ، ولكن على فهمى كامل شقيق مصطفى يحاربه ويهزأ به ويسعى إلى طرده من جريدة اللواء . يكتب فى « اللواء » و«الشعب» و«العلم» ، ويصدر « القطر المصرى» فيجوع ويأويه محمد فريد فى واحد من بيوته ، وعندما يترك الصحافة تقبل الدنيا عليه ويزرع ألف فدان ويبنى عمارة فى شبرا. وبعد أن ارتاح البال يعود إلى إصدار مجلة ليس فيها سياسة ومقصورة على « الزراعة » ، وتبدأ أحواله المالية فى التدهور ويصاب بالبول السكرى . فى ٢٤ إبريل ١٩٠٨ أصدر العدد الأول من المجلة الأسبوعية « القطر المصرى » . ويوم صدور العدد الأول كان يوما لم يشهد سكان القاهرة يوما ممطرا مثله فى أشد أيام الشتاء مطرا ، ظل المطر ينهمر طوال النهار وطرفا من الليل فلم يلتفت أحد لشراء هذا العدد واشتروه فى أيام تالية . رحبت صحف تلك الأيام « بالقطر المصرى » فيما عدا جريدة « اللواء » التى بذل فيها أحمد حلمى جهوده كلها . . يكتب فى الصفحة الأولى من «اللواء » ، ويصدر « القطر المصرى » ويكتب فى « الشعب و«العلم» ، وعند أول صدام مع رفاقه فى الحزب الوطنى يقولون : « لم يبق سوى بتاع الهوانم » . و« الهوانم » تلك مجلة باللغة العامية اشترك أحمد حلمى مع أحد الأجانب فى إصدارها (١٥ إبريل ١٩٠٠) وهى مجلة نسائية ورد ذكرها فى كتب عن تلك الفترة، ولكنا لم نجدها فى « دار الكتب القومية » ، حتى أحمد حلمى نفسه لم يشر إليها فى التحقيق الذى أجرى معه (١٥ مارس ١٩٠٩) وعندما سأله المحقق عن نشاطه الصحفى قبل « القطر المصرى » سجل أنه كان يعمل محررا فى « اللواء » ، ولم يشر من بعيد أو قريب إلى مجلة « الهوانم» . كتب المقالات الرئيسية فى « اللواء» ، وهاجم الاحتلال وأسرة محمد على ، ودافع عن الحزب الوطنى، ولكنه لم يجد من رجال الحزب الوطنى سوى الفتور وعدم الاهتمام مما جعل الخديو وسلطات الاحتلال تشدد القبضة عليه ، ويقدم إلى المحاكمة بتهمة «التطاول على مسند الخديو » وهنا تعطف الحزب الوطنى عليه وطلب من إبراهيم الهلباوى الدفاع عنه .

مراسلات مصطفى كامل

ولكن يبدو أن مصطفى كامل كان مختلفا عن رجال الحزب الوطنى فى معاملة أحمد حلمى ، ستة خطابات محفوظة بمتحف مصطفى كامل بالقلعة من « مصطفى كامل إلى أحمد حلمى » خمسة منها صادرة من باريس ، وخطاب صادر من الإسكندرية وسوف نلقى نظرة إلى أهم هذه الخطابات وإلى أهم مافيها .

والدراسة التاريخية للخطابات لها مغزى خاص غير دراسة المقالات أو المذكرات أو الذكريات أو الخطب ، وهذه كلها تحيط بها ملابسات معينة لمراعاة نفسية الجماهير ، وعقلية القراء ، أو الرغبة فى تحسين صورة القائد أو الزعيم عند كتابة مذكراته وذكرياته وهو يعلم أنها سوف تكون محل دراسة فى مقتبل الأعوام . أما الخطابات فعلى الرغم مما يكون فيها من عناصر المجاملة فإنها محصورة بين الكاتب والقارىء ، والتعبير قد يكون مباشرا فى أغلب الحالات . . على أية حال نبدأ بالرسالة الأولى وإذا لزم الأمر فسوف نسجل ما نراه من شرح أو تعقيب .

باريس فى ٢ سبتمبر ١٩٠٣

عزيزى حلمى حفظه الله

سلاما واحتراما وشوقا جزيلا . وبعد ، فقد تشرفت بكتابك العزيز المؤرخ ٢٢ أغسطس الماضى وتأسفت جدا لما جاء به . مع أنى لما تناولته ورأيت إمضاءكم فى آخره سررت وقلت ، سنرى حلمى فى حوادث مصر ، وما كان يخطر لى على بال أن حلمى غاضب نافر يود ترك «اللواء» ويضحى بصاحبه لحادثة من أبسط الحوادث . وإنى مع إعجابى بما أنت عليه من الشمم والأخلاق الفاضلة التى تزيدنى حبا فيك يوما عن يوم أراك نسيت أنه لا إرادة لك مادمت أنا حيا ، لأنى أعتبرك أخا لى ولا وجود بيننا لرئيس ومرءوس وما أراه صالحا لك هو الصالح الحقيقى بلا نزاع . ولا معنى لمحو إرادتك هنا إلا اتحادها بإرادتى واشتراكها معها أو امتزاجها بها . وأنت لا تجهل قول الشاعر العربى : « ولأجل عين ألف عين تكرم ! » .

فلأجلى تحمل كل شيء فإنى أعرف أن أقابل هذه المروءة بأحسن منها ، وأعرف لك فضلك وهمتك ونشاطك ، وقد أتعبتك فى هذا العام عن رغبة فى جعلك أول صحافى فى مصر . وستكون كذلك رضيت أو لم ترض ، وسترى مرتبك فى قليل من الزمن فوق مرتب كل صحافى فلا تيأس وتأكد أن على بك يحبك حبا شديدا ، ويذكرك فى كل خطاباته لى بمزيد من الثناء والامتنان . وليس هذا الوقت الذى أحوج فيه إلى القوة والاتحاد هو وقت الافتراق !

(. . . . . . . تأتى هنا سطور لاتتصل بموضوعنا وهى من قبيل المجاملات والتحية . .) .

العنوان :

مصطفى كامل

مصطفى كامل بك

٨ شارع بلزاك ، باريس ٨ ، فرنسا

(ملحوظة من عندنا . . العنوان فى الرسالة المحفوظة مكتوب بالفرنسية) .

تحقيق وتعليق

كان هذا هو الخطاب الأول من مصطفى كامل إلى أحمد حلمى ، من قبل . وأسلوب مصطفى كامل حتى فى خطاباته يتميز بالرصانة وسلامة اللغة وهذه ميزة تسجل له . ويتبين من الخطاب أنه رد على خطاب من أحمد حلمى يقرر فيه أنه فى سبيل أن يترك العمل بجريدة « اللواء » بسبب مضايقات من على فهمى كامل شقيق مصطفى كامل . ويبدو أيضا اهتمام مصطفى كامل بالإبقاء على مشاعر أحمد حلمى فى « اللواء » ، ويحاول فى الخطاب أن يسترضيه بالبقاء فيداعب مشاعره بالعلاقة الحميمة بينهما فضلا عن صورة مشرقة يرسمها له من حيث المستقبل الصحفى وزيادة فى المرتب .

المهم هنا هو موقف على فهمى كامل من أحمد حلمى والعلاقة بينهما . .

واضح من الوثائق التاريخية أن « اللواء » صدر العدد الأول منها يوم الثلاثاء ٢ يناير ١٩٠٠ ، وكان مقرها المنزل رقم ١٣ شارع فهمى بجوار محطة باب اللوق حاليا . ومنذ الفترة الأولى نجد اسم أحمد حلمى بين الأسماء الكبيرة الكثيرة التى تظهر على صفحات « اللواء » أمثال : محمد فريد، أحمد شوقى ، وإسماعيل صبرى ، وخليل مطران ، وويصا واصف ، ومحمد فريد وجدى، وفؤاد سليم ، وعبد القادرة حمزة ، ومحمد لطفى جمعة ، وعثمان صبرى ، والشيخ عبد العزيز جاويش .

هو إذن من أوائل الذين كتبوا فى « اللواء » ، ونجد مقالات له على الصفحة الأولى وكان يحرر المقالات الهامة ، ويعاون مصطفى كامل فى أعمال كثيرة تتصل بالجريدة . وقد ذكر الأستاذ عباس محمود العقاد فى مجلة « المصور » (يونية ١٩٥٦) بصدد الحديث عن حادثة دنشواى (يونية ١٩٠٦) . . قال العقاد : « لاتعرف فزعا شمل القطر المصرى من أقصاه إلى أقصاه كالفزع الذى شمله يوم قرأ الناس أخبار هذه الفاجعة ، ونشرتها إحدى الصحف بعنوان يادافع البلاء » .

والأستاذ العقاد يشير هنا إلى التحقيق الصحفى الذى نشره أحمد حلمى فى صورة مقال بعنوان

« يادافع البلاء » يصف فيه أحداث دنشواى لحظة بلحظة . وقد كان لمقال أحمد حلمى الأساس الذى اعتمد عليه مصطفى كامل فى مقالاته، وفى حملته ضد بشاعة الاحتلال البريطانى فى مصر.

كان أحمد حلمى قريبا من مصطفى كامل ، ولكنه فى الوقت ذاته قريب من محمد فريد ، وما أن توفى مصطفى كامل فى ١٠ فبراير ١٩٠٨ حتى أسفر على فهمى كامل فى العداء لمحمد فريد ، ولأنصار محمد فريد وفى مقدمتهم أحمد حلمى . وحاول أن يتولى رئاسة الحزب الوطنى بعد رحيل زعيمه ، وأسند رئاسة تحرير « اللواء » إلى الشيخ عبد العزيز جاويش بحجة أن الشيخ جاويش يحمل مؤهلا عاليا ، وأن أحمد حلمى ـ الذى كان يطمع فى رئاسة التحرير ـ لايحمل أى مؤهل وإن كان قد ثقف نفسه بجهوده الذاتية .

شكوى أحمد حلمى من على فهمى كامل ثابتة ولها مايبررها ، ومضايقات على فهمى كامل له كانت معروفة ولها دوافعها عنده وانتهت بخروج أحمد حلمى من اللواء عقب وفاة مصطفى كامل . وأما كلام مصطفى كامل إلى أحمد حلمى فى الخطاب المشار إليه حول ثناء على فهمى كامل على أحمد حلمى فهو من قبيل تهدئة الأمور .

الخطابات الأخرى

وقبل أن نتابع مسيرة أحمد حلمى الصحفية والكفاحية ، نقدم موجزا سريعا للخطابات الأخرى من مصطفى كامل إلى أحمد حلمى .

الخطاب الثانى من باريس فى ١٧ سبتمبر ١٩٠٣ .

وهو رد على خطاب من أحمد حلمى (٩ سبتمبر) ويردد له أيضا أن على فهمى كامل يثنى عليه دائما ويشكره لرده على «المؤيد» « ارتحت لكل ماكتبتموه ردا على المؤيد ومفترياته الصبيانية» ، وينصحه ألا ينشغل اللواء « خادم الأمة » بجريدة «قوس قزح » . ثم يخبره أنه مسافر إلى الآستانة ويرجوه أن يكتب إليه هناك .

والخطاب الثالث من سان ستفانو فى ٧ يونية ١٩٠٤ .

كان مصطفى كامل قد عاد إلى الاسكندرية لإلقاء خطابه على مسرح زيزينيا فى ٧ يونيه ١٩٠٤ . وأرسل خطابه هذا لأحمد حلمى يرجوه أن يعتنى بتصحيح الخطبة .

والخطاب الرابع . . الخميس ٨ أغسطس ١٩٠٧ .

ليس مدونا عليه الجهة المرسل منها ولكنه يقول فيه « إنى قاصد جبال سان موريتس بعد ثلاثة أيام للإقامة بها أسبوعين وسأعود إلى باريس ثم أبحر فى ٥ سبتمبر لأكون عندكم إن شاء الله فى ٩ سبتمبر . . » .

والخطاب الخامس . . باريس فى أول سبتمبر ١٩٠٧ .

يقول لأحمد حلمى فيه . . « صحتى على ما يرام وسأعود إن شاء الله إلى الوطن العزيز فى آخر الشهر ، سلامى العاطر لكافة المحررين والعمال والجمعية وكل من يعاون فى إظهار « اللواء » المنصور ودم بخير لمحبك . . مصطفى كامل » .

والخطاب السادس . . باريس فى ٢٨ سبتمبر .

على المظروف جاء تاريخ مغاير « حضرة الماجد حلمى أفندى المحرر باللواء الغراء » وتاريخ البريد ١٨/ ٩/ ١٩٠٦ هذا فى حين أن الخطاب السابق عليه كان بتاريخ « أول سبتمبر ١٩٠٧ » .

خان الخليلى

نعود إلى المسيرة من خان الخليلى . السنة ١٨٧٤ ميلادية . . ودكان صغير لبيع الملابس يملكه عبد الغنى سعودى وحسن على المهدى . حسن يتزوج ابنة عبد الغنى . ويتوفى حسن وطفل صغير فى بطن زوجته ابنة عبد الغنى . وفى الأسبوع الأخير من فبراير ١٨٧٥ ، فى حارة تواجه الباب الأخضر للمسجد الحسينى ، وفى بيت شقيق زوجة « المرحوم حسن » ولد طفل هو « أحمد حلمى» .

خرج أحمد حلمى إلى الحياة وأبوه قد رحل عن الدنيا ، ويرسله خاله إلى كتّاب « خان جعفر» ، ويتلقى الصبى ثقافة محدودة . ويحدث نزاع بينه وبين خاله لضيق ذات اليد ، فيذهب حلمى إلى الإسكندرية سيرا على القدمين من القاهرة . ويعمل عملا متواضعا فى شركة أجنبية ولكنه يتعلم فيها الفرنسية ، ويترك الشركة إلى العمل كاتبا صغيرا بمركز دمنهور ، ويذهب للعمل فى مأمورية سيوة . ويعود إلى القاهرة ، وكانت تصدر فى الإسكندرية جريدة تجارية سياسية يومية هى «السلام » وقد صدر العدد الأول منها فى ٥ مايو ١٨٩٨ ميلادية . وأعلنت الجريدة سنة ١٩٠٠ أنها فى حاجة إلى « مراسل » لها فى القاهرة . . وفى ٨ مارس ١٩٠٠م يظهر مقال صغير فى الجريدة لأحمد حلمى يتحدث فيه عن جهوده المقبلة كمراسل لهذه الجريدة ، والمقال مصحوب ببعض أخبار العاصمة . ثم اشترك فى ١٥ إبريل ١٩٠٠م مع أحد الأجانب فى إصدار مجلة « الهوانم » التى أشرنا إليها . وفى تلك الفترة بدأ يرسل بموضوعات حماسية لجريدة « اللواء » . ويترك عمله فى مصلحة المساحة ليتفرغ للعمل فى جريدة « اللواء » من أول أكتوبر ١٩٠١ ميلادية ، ليعمل مصححا للرسائل التى ترد إلى الجريدة من الأقاليم ، ويعاون مأمون بيومى المسئول عن الأخبار فى الجريدة ، وأصبح بعدها يكتب المقالات الرئيسية ثم المقالات الافتتاحية . وقد أشرنا من قبل إلى مقاله الشهير (يادافع البلاء ـ ٢٩ يونيه ١٩٠٦ » عن حادث دنشواى .

بعـد رحيل الزعيم

واستمر أحمد حلمى قوة ضاربة على صفحات جريدة « اللواء » رغم الصراعات الداخلية إلى أن رحل مصطفى كامل فى ١٠ فبراير ١٩٠٨ ، وتولى رئاسة الحزب الوطنى محمد فريد ليواجه مناورات على فهمى كامل الذى كان يطمع فى رئاسة الحزب والذى جاء بالشيخ عبد العزيز جاويش رئيسا للتحرير ، والذى سار بالجريدة فى سياستها التقليدية وهى سياسة مناوئة للاحتلال وتميل للخديو حسب الظروف ، وتعتمد على تأييد فرنسا ، ويبدأ الجاويش مقالاته فى ٣ مايو ١٩٠٨ . وكان أحمد حلمى قد ترك «اللواء» وبدأ يشن حملة ضد على فهمى كامل ، فينشر فى ٧ إبريل مقالا فى جريدة « الأخبار » (وهى جريدة أصدرها اللبنانى يوسف الخازن سنة ١٨٩٦ ـ أى أنها غير الأخبار التى أصدرها فيها بعد أمين الرافعى) ، قال أحمد حلمى فى مقاله إن على فهمى بدأ يمالئ الانجليز لينقذوه من ديونه بسبب إسرافه ، وأشار إلى خلاف « على » مع محمد فريد . .

وعندما تولى محمد فريد مسئولية الحزب الوطنى بدأ على فهمى يستقطب المعارضين لمحمد فريد ، وأوعز إلى العمال بالإضراب عن العمل ، وأرسل الخديو إلى العمال المضربين ٦٠ جنيها سرا، فلجأ محمد فريد إلى طباعة « اللواء » فى مطبعة « الجريدة » بمساعدة أحمد لطفى السيد ، ولجأ على فهمى ومؤيدوه إلى إصدار صحيفة « مصر الفتاة » . أما أحمد حلمى فقد لمس أن محمد فريد عاجز أو غير راغب فى مناصرته لمواجهة على فهمى كامل فقدم استقالته ولزم داره . وأخذ يعد العدة لإصدار مجلته الأسبوعية « القطر المصرى » .

« القطر المصرى »

قدم أحمد حلمى استقالته كما أشرنا فى ٤ إبريل ١٩٠٨م ولزم داره إلى أن أصدر « القطر المصرى» فى ذلك اليوم المطير يوم الجمعة ٢٤ إبريل ١٩٠٨ . بدأ تجربته الجديدة والحزب الوطنى لايهتم به ، ومحمد فريد رغم علاقته الطيبة به إلا أنه لا يستطيع أن يناصره فى وضعه الذى لايحسد عليه ، وعلى فهمى كاره له ويتآمر عليه ، وعبد العزيز جاويش رئيس تحرير « اللواء » حاقد عليه هازىء به . . وأحمد حلمى يعد نفسه واحدا من الأمناء على مبادىء الحزب الوطنى ، وواحدا من الأوفياء للزعيم بعد رحيله . وهكذا هاجم على فهمى واتهمه بمحالفة الإنجليز ، وهاجم الشيخ جاويش واتهمه بالعمل على التفرقة بين عنصرى الأمة . . وفى حماسة يهاجم أحمد حلمى الاحتلال وأسرة محمد على ، ويهاجم الحكومة ، وينبه العمال إلى حقوقهم ويستجيب عمال « الترام» ويقومون بإضراب كبير ، ويخاطب الجيش أن ينضم إلى صفوف الشعب ، وتحس سلطات

الاحتلال بخطر « القطر المصرى » . وتنشر الأهرام فى ٢١ سبتمبر ١٩٠٨م أن القائم بأعمال المعتمد البريطانى تحدث إلى الخديو بأن كل أمر جائز إلا « التمحك» فى الجيش ، وإلا بث روح التمرد فيه ، ويتفق المسئول الإنجليزى والخديو على بعث قانون المطبوعات القديم الذى كان قد صدر سنة ١٨٨١ . ويخطب أحمد حلمى فى تظاهرة احتجاجا على إعادة قانون المطبوعات ، ويسير على رأس التظاهرة مدافعا عن حرية الصحافة فى ٣١ مارس ١٩٠٩ .

وفى صباح يوم الاثنين ٥ إبريل ١٩٠٩ انعقدت المحكمة الخصوصية بمحكمة السيدة زينب لمحاكمة أحمد حلمى « لأنه تطاول على مسند الخديوية المصرية ، وطعن فى حقوق الحضرة الخديوية ، وعاب فى ذات ولى الأمر » . وتولى الدفاع عنه أحمد لطفى المحامى شقيق التعاونى عمر لطفى ، وحكمت المحكمة بحبسه عشرة شهور وتعطيل جريدة « القطر المصرى » لمدة ستة أشهر وإعدام كل ماضبط ويضبط من العدد ٣٧ . وعدلت محكمة الاستئناف الحكم من عشرة شهور إلى سنة مع الشغل وكان عليه من قبل حكم بالحبس أربعة أشهر ، وهكذا صار مجموع ما حكم عليه سنة كاملة مع الشغل وأربعة أشهر حبسا بسيطا . ومضى الصحفى إلى سجن مصر ، ونقل فى ١٩ إبريل ١٩١٠ إلى سجن الاستئناف ، ولم يفرج عنه بعد قضاء ثلاثة أرباع المدة . وأفرج عنه بعد قضاء مدة العقوبة كاملة فى ١٤ أغسطس ١٩١٠ ، ويتقاضى عن اشتغاله بصناعة السجاجيد فى السجن طوال مدة العقوبة مكافأة قدرها ٤٩٨ مليما فيرسلها إلى خزانة الحزب الوطنى .

وكانت « القطر المصرى » قد عادت إلى الظهور فى ٢٣ أكتوبر ١٩٠٩ ، وأخذ أحمد حلمى يكتب من السجن بتوقيع « أديب ناصح » . كتب مقالا بعنوان « إصلاح الرعية بصلاح ملوكها » «يا كل ملك غشوم ، أو حاكم ظلوم ماضرك لو تتروى قبل حلول الأجل فلا تحكم فى عباد الله بحكم الجاهلين » ، وبعد أن أفرج عنه كتب مقالا فى ٢٦ نوفمبر ١٩٠٩ بعنوان « فلتسقط حكومة الفرد » . فانتهى الأمر بتعطيل الجريدة نهائيا فى ٧ يناير ١٩١٠م .

مابعد السجن

أفرج عنه فى ١٤ أغسطس ١٩١٠ ، وفى ١٨ أغسطس بدأ يكتب سلسلة من المقالات عن السجون المصرية فى جريدة «العلم» وهى من جرائد الحزب الوطنى التى كانت قد صدرت أول مارس ١٩١٠ ، ومن الطريف أن الشيخ عبد العزيز جاويش كان رئيس تحريرها ورحب بمقالات أحمد حلمى التى جمعها بعد ذلك فى كتاب بعنوان « السجون المصرية » ، ثم كتب فى « الشعب » التى أوقفها أمين الرافعى فى ٢٧ نوفمبر ١٩١٤ ، وكانت مقالات حلمى فى « الشعب » غالبيتها

بدون توقيع . ولفترة قصيرة أصدر فى آخر سنة ١٩١٤ جريدة « المشرق » وكانت تحتوى على المقالات الاجتماعية والوطنية ، وفى كل عدد قصة مترجمة أو موضوعة .

وبعد أن أعلنت الحماية البريطانية على مصر فى ديسمبر ١٩١٤ اتجه إلى العمل فى الزراعة حتى أنه كان يزرع ألف فدان وكسب أموالا طائلة واشترى عمارة كبيرة فى شبرا . وفى ٢٥ أغسطس ١٩١٩ عاوده الحنين إلى الصحافة فأصدر جريدة « الزراعة » أسبوعية ولم تستمر طويلا .

بقيت مسألة نسجلها أمانة للسرد التاريخى ، وهى اتصال أحمد حلمى بالماسونية منذ عام ١٩٢٦ . كان يقضى وقتا طويلا فى « المحفل » حتى وصل إلى درجة الخطيب الأعظم فى الوقت الذى كان فيه على شوقى باشا أستاذا أعظم ، والدكتور أحمد ماهر نائبا للأستاذ الأعظم ، ومحمد حافظ رمضان باشا منبها أول أعظم ، ومحمد لطفى جمعة منبها ثانيا أعظم . . وكان الدكتور محمد مظهر سعيد السكرتير الأعظم للمحفل الأكبر الوطنى المصرى . ولهذا قصة أخرى .

وبعد الثراء العريض الذى أصابه أحمد حلمى حسن المهدى نزلت به خسائر مالية فادحة تأثر لها تأثرا بالغا ، وأصيب بمرض البول السكرى .

وفى ١٨ يناير ١٩٣٦م توفى أحمد حلمى بعد رحلة شاقة فى الحياة ، وشيعت جنازته من منزله بشارع جميل باشا خلف المدرسة التوفيقية بشبرا ، وكان حفيده محمد صلاح الدين بهجت فى السادسة من عمره والذى عرفناه فيما بعد باسم صلاح جاهين ذى المواهب المتعددة ، والذى رحل هو أيضا منذ سنوات .

وفى أول شبرا ميدان فسيح هو « موقف أحمد حلمى » على ألسنة الناس . وفى ٢٠ يناير ١٩٥٧ أزيح الستار عن لوحتين تذكاريتين بنقابة الصحفيين واحدة لعبد الله النديم ، والثانية لصاحب هذه السيرة « أحمد حلمى بن حسن بن على بن عامر ابن السيد بن جاهين بن المهدى » .

الأسانيد :

١ ـ د . أحمد أحمد بدوى . . أحمد حلمى الصحفى المكافح .
٢ ـ خلف عبد العظيم . . بحث تمهيدى موجز لم ينشر بعد .
٣ ـ د . شوقى الجمل . . مراسلات مصطفى كامل .
٤ ـ عبد العظيم رمضان . . مذكرات سعد زغلول جـ ١ .
٥ ـ د . يواقيم رزق . . صحافة الحزب الوطنى (١٩٠٧ ـ ١٩١٢) .

المهندس أحمد عبده الشرباصى



ثائر هادىء ، مفكر متواضع ، مثقف موسوعى ، عالم بالدين واللغة ، سياسى غير محترف ، إنسان حين تضير المواقف الإنسانية بأصحابها وحين يكون الوفاء متعارضا مع المنصب، شجاع حين يمكن أن تطيح الشجاعة بأصحابها، مخلص لدينه محب للإنسانية عاشق لبلاده ولنيل بلاده . .

قدمته الحياة لنا فى بداية أمره ، على أنه أحمد عبده الشرباصى مهندس الرى ، وكان يكفيه هذا . . فمهندس الرى فى بلادنا كان فى مقدمة موظفى المؤهلات العليا مرتبا ووسائل انتقال ومسكنا قرب النيل ، كان مهندس الرى فى مصر محسودا من سائر الموظفين . وظل على هذه الحال منذ عام ١٩٢٤ عام تخرجه فى مدرسة الهندسة يجوب القطر المصرى من الإسكندرية إلى أسوان فعرف النيل نقطة نقطة ، وعرف قراه قرية قرية ، وأخشى أن أقول عرف عائلاتها عائلة عائلة . وسافر للسودان منذ عام ١٩٣٣ حتى عام ١٩٤١ للعمل فى إنشاء خزان جبل الأولياء . والذين عاشوا بالسودان يعرفون أن مهندسى الرى هناك كانت لهم مكانة وتقدير ورخاء . وخلال تلك الفترة ، وفى النادى المصرى بالخرطوم تحلق حوله كثيرون يستمعون إلى آراء فى الدين غاية فى الأصالة، ويستمعون إلى شعر وأدب وبلاغة غاية فى الرفعة ، ثم يقفون منه على أحوال النيل من منبعه إلى مصبه .

ولولا أنهم يعرفونه لقالوا . . إنه ثائر وداعية جاء إليهم متنكرا فى وظيفة مهندس كبير للرى ، تسانده ثقافة عميقة فى المجال الذى تنكر فيه . وسنة ١٩٤١ نزل من السودان ، على حد التعبير الدارج بين الموظفين ، وعادت به عجلة الحياة تنقله من مدينة إلى مدينة ، ومن قرية إلى قرية ، ومن كفر إلى كفر ، حتى جاء إبريل ١٩٥٣ فعاد إلى السودان مساعدا للمفتش العام للرى وهى وظيفة مرموقة . نسيت أن أقول إنه عندما كان بالسودان (١٩٣٣ ـ ١٩٤١) رآه وجلس إليه محمد

نجيب وجمال عبد الناصر فى النادى المصرى ، بل إن محمد نجيب زاره فى بيته بالسودان سنة ١٩٣٧ .

عاد الشرباصى كما قلنا إلى السودان فى أبريل عام ١٩٥٣ ، وفى يوليو اتفق جمال عبد الناصر ومحمد نجيب على استدعاء الشرباصى ليشغل منصب وزير الأشغال . وحضر فى ٩ يوليو ليتسلم وزارة الأشغال ، ويفاجأ بذاكرة حديدية كما يقولون لدى محمد نجيب وجمال عبد الناصر وعدد آخر من الضباط الذين تعرفوا عليه فى النادى المصرى بالسودان .

دخل الحكم سنة ١٩٥٣ وزيرا للأشغال ، وبعد الوحدة بين مصر وسوريا ١٩٥٨ أصبح وزيرا مركزيا للأشغال ، وبعد انفصام الوحدة عين عضوا فى مجلس الرياسة ، ثم نائبا لرئيس الوزراء للأوقاف وشئون الأزهر (١٩٦٤) حتى ترك الحكم سنة ١٩٦٦ قبل هزيمة ١٩٦٧ ، ولم يعد للحكم مرة أخرى بعد أن رأى الصراع الرهيب داخل مجلس الرياسة وغيره .

وخلال تلك المدة من الحكم وهى ١٣ سنة لم يكن الشرباصى مجرد وزير يؤمر فيأتمر ، ولم يكن مجرد موظف استدعى ليكون وزيرا فحرص على المنصب ، وكثيرا ما يذل الحرص أعناق الرجال ، وإنما كان وطنيا له منهجه وفيا له مواقفه ومفكرا له اتجاهاته . .

كان وفيا مخلصا شجاعا فى وفائه لزملائه وأصدقائه حتى ولو اعترض السلطان على هذا الوفاء . . كان شجاعا فى علاقته بالشيخ أحمد حسن الباقورى ، وكان وفيا فى رثائه لحسين سرى وعثمان محرم ، ونجيب إبراهيم .

وكان وزيرا يحترم نفسه وهو يعترض على التجاوزات فى قضايا الإقطاع ، ولم يخش الصدام بشخص كان الجميع يعملون له ألف حساب بمن فيهم جمال عبد الناصر نفسه والمشير عبد الحكيم عامر .

وبعد أن ترك الحكم بسنوات ست ، عندما شعر بأن الوطن فى حاجة إلى كلمة مخلصة منه ؛ ومن بعض أصدقائه كتب تصوره الشامل بخط يده فى عريضة إبريل ١٩٧٢ ، ووقف أنور السادات فى مجلس الشعب يصف أصحاب العريضة بأنهم « يريدون أن يفرضوا وصاية على البلد»، وأحسب أن هذه المواقف وغيرها فى حاجة إلى تفصيل .

كان السلطان قد فرض عزلة على الشيخ أحمد حسن الباقورى نتيجة لوشاية أو وشايات. وانصرف عنه الصحاب والأصدقاء ومريدو الحاجات إلا أن الشرباصى فى وفاء نادر حرص على أن يزور صديقه وبصفة متصلة، وأبلغ ذلك للسلطان الذى تظاهر بالموافقة وأثنى على وفاء الشرباصى .

وعندما كان وزيرا مركزيا للأشغال توفى رئيس الوزراء الأسبق المهندس حسين سرى ، وعلى الرغم من موقف رجال ٢٣ يوليو منه ذهب الشرباصى وألقى كلمة رثاء هى قطعة أدبية رفيعة ويذكر له . . « أعز هذه الذكريات ذكرى ترجع إلى ثلاثين عاما خلت ، ونحن يومئذ مهندسون ناشئون وإذ به يدخل المكتب المتواضع ، ويفجؤنى بقوله . . يقولون بأنك امرؤ مغرور ؟! ويلمح انقباضى وازوِرارى ، فيلتفت إلى مخاطبا : إن ما يسمونه غرورا أسميه ثقة بالنفس ، فلا تبال بما يقولون وسر فى طريقك» .

وفى رثاء المهندس نجيب إبراهيم قال الشرباصى : « كلنا نعلم أن الإنجليز كانوا حريصين أشد الحرص على الاستشار بوزارة الأشغال ، ولكن نجيب إبراهيم رد للمصريين ثقتهم بأنفسهم ، وأعلى من كرامة المواطن وشرفه ، وغسل الإهانة التى ألصقها المستعمر بوطنه ، ومن حوله أنظار الانجليز تقدح بشرر الحقد . . »

وأحمد عبده الشرباصى من شباب ثورة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول وكان عمره ٢٠ سنة (ولد فى إبريل ١٨٩٩) وهو فى ذلك الوقت فى مدرسة المعلمين، وقبض عليه ولما أفرج عنه سافر لقريته « كفر أبو ذكرى» مركز منية النصر ـ مديرية الدقهلية يدعو للثورة . وامتنع هو وبعض زملائه عن الامتحان وفصل من مدرسة المعلمين العليا . وظل مخلصا لزعامة سعد إلا أنه كان يعتقد أن عبد اللطيف المكباتى ابن خاله « شخص لم يجد التاريخ بمثله» . والمكباتى هو أحد الأعضاء المؤسسين للوفد، وأحد البارزين فى تأسيس حزب الأحرار الدستوريين . وقد مال أحمد عبده الشرباصى إلى الأحرار الدستوريين، وكان يؤمن أنهم الذين أتوا بالدستور للبلاد (يقصد دستور ١٩٢٣) ولذلك كان الشرباصى فى شبابه على خلاف مع عثمان محرم لاختلاف الميول الحزبية لدى كل منهما. وتوفى عثمان محرم وزير الأشغال الأسبق عندما كان الشرباصى وزيرا للأشغال والرى، فرثاه الشرباصى وأشاد به. وجاء له البعض وسألوه كيف وهو وزير فى ثورة حاكمت عثمان محرم ، وكيف وهو من أعضاء الأحرار الدستوريين يقوم برثاء عثمان محرم من قادة الوفد ؟ . . ويقول الشرباصى بهدوء وثقة . . هذا لا يمنع أن نذكر آثار الرجل على مصر . وكانت كلمة الشرباصى فى رثاء عثمان محرم من الكلمات المنصفة والتى أبانت بياض صفحة أحد كبار الوفديين ، وسجل أن عثمان محرم هو الذى بدأ الإسكان الشعبى قبل أن تبدأه وزارات ٢٣ يوليو .

أطلق عليه عبد الحكيم عامر لقب حامى حمى الإقطاع ، وقالوا لعبد الناصر إن الشرباصى يشنع على لجنة تصفية الإقطاع «فى قلب الوزارة » . كان عبد الحكيم هو رئيس لجنة تصفية الإقطاع ومعه عدد كبير من ذوى الجاه والسلطان . ورأى الشرباصى أن هذه اللجنة لا تسير

حسب القانون ، ولا حتى قانون الإصلاح الزراعى ، وأن إجراءاتها استثنائية ، فطالب بوقف «السلب والنهب » والالتزام بقانون الإصلاح الزراعى . كان الناس الذين تسلب أملاكهم وتنهب يذهبون إلى الشرباصى ويبحث الشكاوى والمستندات ، ويحدد جوانب الخروج على قانون الإصلاح الزراعى ويرسل نسخة إلى عبد الحكيم بصفته رئيسا للجنة تصفية الإقطاع ، وصورة لعبد الناصر بصفته رئيسا للدولة ، ولكنه لاحظ أن المشكلات قبل أن تصل إلى عبد الناصر تعبث بها أياد كثيرة ، فتصل الصورة مشوهة ، وتجىء أحكام عبد الناصر حسب آخر صورة وصلت إليه، ولكن عبد الناصر أنصف حالات كثيرة وصلت إليه مما أثار اللجنة على المهندس الشرباصى.

وقد توثقت الصلة بين عبد الناصر والشرباصى ونشأ بينهما احترام متبادل ، لأن الشرباصى له منطق فى تفكيره وليست له مصالح شخصية أو خاصة وقوى الحجة . ويبدو أن عبد الناصر كان فى حاجة ـ فى تلك الفترة ـ إلى عناصر فى وزن الشرباصى ليواجه عددا من العناصر المحيطة به . وهذا ما حدا بعبد الناصر إلى أن يحاول إعادة الشرباصى إلى الحكم بعد هزيمة ١٩٦٧ . كان الشرباصى قد اعتزل الحكم سنة ١٩٦٦ قبل الهزيمة . ولا نعرف لماذا اعتزل أو أصر على الاعتزال فهو لم يترك كتابا مؤلفا فيما عدا بحثه عن السد العالى ، كما أنه لم يترك مذكرات سوى بعض الخاطرات وبعض الأفكار التى حفظها لنا ـ جزاه الله خيرا ـ الدكتور فرج الشرباصى ، والتى أودعها كتابه عنه « مع المهندس أحمد الشرباصى ـ قبل الرحيل » والذى صدر بعد رحيل الشرباصى بعامين (توفى فى فبراير ١٩٨٤) . بعد الهزيمة زاره عبد الناصر فى منزله بمصر الجديدة، ولكنه كان قد آل على نفسه ألا يعمل فى الحكومة بعد خروجه منها ، ولكن إذا استنصحه ولى الأمر فلابد من إسداء النصيحة بإخلاص .

العريضـــة

ثم تأتى العريضة المشهورة أو المغمورة ، والتى قال عنها أنور السادات فى مجلس الشعب إن أصحابها « يريدون فرض وصاية على البلد » . وكى نفهم ظروف البلد التى جاءت بعدها العريضة (٤ إبريل ١٩٧٢) نعود إلى ما كتبه السادات فى « البحث عن الذات » . .

« جاء بودجورنى فى أواخر مايو سنة ١٩٧١ ، وفى اليوم التالى عقدنا المعاهدة . . وكنت قد أعلنت أن عام ١٩٧١ هو عام الحسم فإما حل سلمى وإما معركة . وفى أول يناير ١٩٧٢ أعلن روجرز أن أمريكا ستحتفظ لإسرائيل بالتفوق على العرب مجتمعين وليس على مصر وحدها . وفى

أواخر إبريل سنة ١٩٧٢ طلبت من موسكو توريد الأسلحة المتأخرة ولم يتم شيء» .

وانتشرت إضرابات الشباب طلبا لحل ويأسا من التصريحات العديدة . . والشرباصى يتلخص تفكيره فى أن المخطط الصهيونى يهدف إلى أن تنطفئ أى جذوة مشتعلة ، فإذا خمدت الروح انعدمت الإرادة وضاع الهدف ، وان أسباب هزيمة ١٩٦٧ هى غيبة القانون وصورية الأجهزة ، وامتهان الإنسان فى وطنه ، وتنبغى مراجعة سياسة الاعتماد الكامل على الاتحاد السوفيتى أو على الولايات المتحدة . .

وفى ٤ إبريل ١٩٧٢ كتب المهندس أحمد عبده الشرباصى عضو مجلس الرياسة ونائب رئيس الوزراء الأسبق ، كتب عريضة بخط يده ووقع العريضة معه الدكتور مصطفى خليل ، وعبد اللطيف البغدادى ، وكمال الدين حسين ، وصلاح الدسوقى ومدكور أبو العز ، وعصام الدين حسونة . ورفض . فتحى رضوان التوقيع معهم طبقا لرواية موسى صبرى فى كتابه « السادات . . الحقيقة والأسطورة » . وقد سلم المذكرة عبد اللطيف البغدادى إلى محمود أبو وافية فى مظروف مغلق أمام وزارة الزراعة بالدقى كى يقدمها إلى السادات .

وقد أوضحت العريضة أن مصر لم تعرف محنة كتلك المحنة التى تمر بها . والغزو الإسرائيلى يدنس جزءا غاليا من أرض مصر والولايات المتحدة الأمريكية تقدم لإسرائيل من العون القدر الذى يغريها بالمزيد ، والاتحاد السوفيتى يقدم لنا من العون القدر الذى لايأذن بتحرير الأرض . والدول العربية لم تستجمع بعد قواها ، وإن البناء الداخلى يوشك أن ينقض . وهزيمة يونيه ولدت فى حضن استبداد الفرد بالسلطة . وإن الطريق إلى النصر لايمكن بحال أن يكون طريق الهزيمة . . لقد آن الأوان لأن ترسم سياسة التحرير الوطنى على أساس أن قوى مصر الذاتية وحدها ـ روحية ومادية ـ هى الركيزة الأولى والأمينة لتلك السياسية . وانتهت العريضة بدعوة كل الشخصيات الوطنية ، التى عرفت بولائها لمصر ولثورة ٢٣ يوليو لمناقشة « شئون الوطن العامة » وتشكيل « جبهة وطنية » تتولى تخطيط سياسة النضال الوطنى من أجل التحرير .

القدوة الحسنة

هذا العقل الموسوعى ، صاحب التماسك الأخلاقى ، واستقامة الفكر والسلوك . . لم ينشأ من فراغ أو فى فراغ . . لعل كلمة الدكتور إبراهيم مدكور رئيس مجمع اللغة العربية فى جلسة تأبين الشرباصى تلقى بعض الأضواء . . « لا غرابة فقد بدأ تعليمه فى كتّاب القرية ، وحفظ فيه نصف القرآن ولم يجاوز السابعة من عمره ، ثم انتقل إلى المدرسة الابتدائية والثانوية ، وتتلمذ لأمثال فريد

أبو حديد وأحمد رامى فحببا إليه الشعر والنثر ، وكان لإلهامه فى ثورة ١٩١٩ ما دفعه إلى تجويد القول والخطابة . ويظهر أنه كان أميل إلى الدراسات الأدبية فالتحق بمدرسة المعلمين العليا ، ثم قطع الجهاد الوطنى عليه الطريق وسجن زمنا ، وما إن خرج من سجنه حتى اتجه نحو مدرسة المهندسخانة . وكانت له مجالس أدبية وعلمية جمعت بين شيوخ الأزهر وكبار العلماء المعاصرين . وفى عام ١٩٦٥ حظى مجمع اللغة العربية بعضويته ، وتشاء الصدف أن يشغل المقعد الذى كان يشغله أحمد لطفى السيد وطوال ١٩ سنة حاول ما استطاع أن يسهم فى أعمال المجمع ، فى لجانه ومجلسه ، ومؤتمره » .

وكان له فى بيته بمصر الجديدة ندوة أسبوعية يلتقى فيها برجال الفكر والثقافة الرفيعة ، فهو عالم جليل واسع الأفق يتحدث مع زملائه وأصدقائه وتلاميذه فى الشريعة ، وفى الشعر وفى الأدب، وجلساته حافلة بالحوار مع المتخصصين فى الفقه والتفسير والبلاغة والنحو ، وكان من أصدقائه وجلساته المرحوم الشيخ عبد الجليل عيسى والمرحوم عبد الرحمن الجويلى .

ولأنه يتمتع بحس إنسانى رقيق فقد أثر فى نفسه رحيل الشيخ عبد الجليل عيسى ، ورآه البعض يبكى كالأطفال عندما توفى عباس محمود العقاد . إذ إنه أحب العقاد فى شبابه ثم انصرف عنه لملازمة العقاد للوفد ، وظل على عدائه للعقاد إلى أن قرأ له كتابه « مطالعات فى الكتب » فعاد يحبه ويؤثره على الكتاب الآخرين .

وإلى جانب ندوته كانت له أحاديثه المعروفة لطلاب العالم الإسلامى طوال أربعة أعوام (١٩٦٣ ـ ١٩٦٦) وخاصة فى معسكر أبى بكر الصديق .

هكذا يفكر

كان يعتقد بأن الوطنية موجودة فى دم كل إنسان ، والذين يظنون أن الوطنية وقف عليهم إنما هم يعبثون . . وتصنيف الناس خاطئ ، ولا نستطيع بل لا يجب أن نتهم أحدا بأنه غير وطنى «فالوطنية ليست وقفا على فئة أو حكرا على طبقة ، وكم من وقت أضعناه فى فكرة التصنيف هذه ومازلنا نتخبط فيها ، إن مثل هذا الأقوال لايجنى الشعب من ورائها شيئا إلا الفرقة والخوف ومعناها إما أن تكون وطنيا أى تهز رأسك دائما بالموافقة وإما أن تكون غير وطنى إذا ما حاولت أن تغاير » . .

وكانت له مواقف إزاء الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة . . فالاتحاد السوفيتى لم يرسل له أية دعوة لزيارته فى حين أن كل الوزراء وصلتهم دعوات . أما الولايات المتحدة فكان يرسل وكلاء

الوزارة نيابة عنه ، وهو يرى « أن الولايات المتحدة وراء إسرائيل فيما كانت تفعله ، والاتحاد السوفيتي كان يساعدنا بتحفظ شديد ، أما الدول العربية فإن القدر الذى قدمته كان تعويضا جزئيا عن خسارتنا فى قناة السويس ولكنه لايفى بمطالبنا الآخذة فى التزايد » .

أما رأيه فى الوحدة العربية فهو يقدم العقيدة والدين على أية أسس أخرى كاللغة ووحدة التاريخ ووحدة الفكر . فالدين يبنى الإنسان نفسه . . والبناء عنده هو « الناس » والأنظمة ينبغى أن تكون حافظة وراعية للبناء والأساس . ورأيه أن الدين هو الملاذ والأمان والطمأنينة .

وعن التصوف الحق فإن « الشرباصى يرى ما يراه العقاد ، فالملكات الإنسانية كثيرة ولأن ينالها إنسان واحد « فالتصوف مسألة يمكن نوالها بالتخصص مثل ملكات أخرى جسدية وروحية . . واستيحاء أصول التصوف الحقيقى هو من خلال القرآن الكريم . . وعلى ذلك فلا يمكن أن يصير الناس كلهم من الصوفيين » .

وفى سنة ١٩٦٦ ترك الحكم ولم يعد له ، وانصرف إلى نشاطه بمجمع اللغة العربية ، وإلى ندوته الأسبوعية ، وإلى أحاديثه مع مريديه . . وفتح بيته لأبناء السودان وأبناء مصر معا . وبدأ المرض يهاجمه منذ عام ١٩٨٣ ، وقرر الرئيس محمد حسنى مبارك علاجه على نفقة الدولة بانجلترا ، وكان المرض أقوى من كل علاج فعاد إلى القاهرة حيث توفى فى فبراير ١٩٨٤ عن ٨٥ عاما وعن ٤٠ وساما ، وعن محبين وأصدقاء وعارفين لفضله لايعرف لهم أحد عددا .

الأسانيد :

١ ـ أحمد الشرباصى . . السد العالى وآثاره .

٢ ـ أنور السادات . . البحث عن الذات .

٣ ـ د . فرج الشرباصى . . مع المهندس أحمد الشرباصى .

٤ ـ د . مهدى علام . . المجمعيون فى ٥٠ عاما .

٥ ـ موسى صبرى . . السادات الحقيقة والأسطورة .

أحمد فتحى زغلول



اعترف أننى ترددت فى الكتابة عن الرجل بعد أن وقفت على علاقته بأخيه سعد زغلول ، وبعد أن تحدث سعد عن هذه العلاقة فى مذكراته (الكراستين السادسة والسابعة) . لقد كانت لديه « غيرة شديدة » منه ، ورأى أن وجود سعد يمنع عنه « الترقى » إلى الوزارة ، ويمنعه « من الاسترسال مع شهواته » ، وكان يرى دائما أنه أحق من سعد بمنصب الوزارة ، وأنه أكفأ منه . . باختصار لم تكن بينهما علاقة طيبة .

وكان « فتحى » قد شارك مع صديقه الحميم أحمد لطفى السيد فى تأسيس « الجريدة » ، ولكنه أوصل للخديو ـ مدافعا عن نفسه أن سعدا ورفاقه أرادوا تأليف حزب سياسى على مبادئ الشيخ محمد عبده وأنه ـ أى فتحى ـ صرفهم عن فكرة تأليف الحزب بفكرة إصدار « الجريدة» . ويذكر سعد أنه رفض المشاركة فى تأسيس « الجريدة » ، وأن العمل على إصدارها كان قد تم وهو بعيد عن مصر . ويسجل سعد أنه قال لفتحى . . إن كثيرا من الناس يقولون عليك أقوالا كثيرة ، يقولون إنك دساس تسىء إلى إخوانك إذا تمكنت ولا تبالى إلا بفائدتك ، فإن كنت تعمل من ذلك شيئا فاقلع عنه . والعلاقة بين الإخوة لا تدوم على حال واحد .

. . فيذكر سعد فى موضع آخر ما يفيد أن أخاه فتحى شرح للخديو أن سعدا ليست له صلة بحزب « الأمة » وليست له صلة «بالجريدة » ، وأن « الجريدة » أنشأها فتحى وأنه لما وجدها تسير على غير أفكاره ـ أى أفكار فتحى ـ انصرف عنها . وكان الخديو يكره « كرومر » ويسمع أن فتحى قد ذهب يقدم الشكر لكرومر على نيشان منح له . وظن الخديو أن زيارة فتحى لكرومر قد تمت بإيعاز من سعد زغلول . وقد أكد فتحى للخديو أن سعدا رفض فكرة الزيارة ، وفكرة تقديم الشكر لكرومر ، وأن الذى شجعه على الزيارة وذهب معه عند كرومر هو الصديق الحميم لسعد

وفتحى ، بل والذى كان لهما فى مقام الأستاذ . . وهو الشيخ محمد عبده .

هكذا كان موقف سعد زغلول من أخيه فتحى زغلول إنكارا لتصرفاته ، واستنكارا لمواقفه . وصدمتنى رواية عنيفة عن أحمد فتحى زغلول رواها محمد فريد فى مذكراته بعد الهجرة . . يقول محمد فريد :

« سمعت من زيور باشا محافظ الإسكندرية ، أن أحمد باشا عفيفى وكيل زوجة شواربى الغنى الكبير الذى مات قريبا ، وجد ضمن أوراق المتوفى سندين على أحمد باشا فتحى زغلول ، أحدهما بألف ومائتى جنيه والثانى بأربعمائة جنيه مقسطين على أقساط شهرية كل منها بخمسة وعشرين جنيها بلا فائدة ، وأن فتحى أراد إتلافهما وعدم درجهما فى المطلوب للشواربى . . أى أراد سرقة السندات لضياع المبلغ فلم يوافقه » .

والتعليق الأخير يبين موقف محمد فريد من « أحمد فتحى زغلول ، وقد حرص على تسجيل رواية سمعها من أحمد زيور باشا والذى خلف سعد زغلول فى رياسة الوزارة بعد اغتيال السيرلى استاك وسلم بجميع مطالب الانجليز . ثم يستطرد محمد فريد فى ذكر نبذة عن تاريخ أحمد فتحى زغلول تفيدنا فى رواية تاريخ الرجل ، وإن كنا سوف نستكمل حلقاتها فى الطريق . مع ملحوظة جانبية منا وهى أن محمد فريد كان يكره سعد زغلول ويكره سيرته . وليس هذا تبريرا لمواقف أحمد فتحى زغلول ، فنحن هنا نسرد التاريخ الذى لاحيلة لنا فيه .

يقول محمد فريد ، أو تقول مذكراته : « فتحى باشا . . اسمه فى الأصل فتح الله صبرى ، وكان تلميذا بالمدارس التجهيزية وإبان الثورة العرابية ، وكان من الخطباء الذين يحضون على الثورة مع المرحوم عبد الله النديم ، ولما دخل الانكليز مصر وعينوا المرحوم أحمد خيرى باشا الكبير ، ناظرا للمعارف ، رفت فتح الله صبرى من المدارس بسبب اشتراكه فى الثورة ، ولكن خيرى كان يحبه لنباهته وفصاحته فأراد مساعدته على إتمام دراسته فنصحه بتغيير اسمه حتى يتسنى إدخاله المدرسة ثانية ، كأنه طالب جديد غير فتح الله المرفوت فتسمى بـ « أحمد فتحى » ودخل مدرسة الألسن ، وكنت بها مع الدكتور صادق رمضان . . ونتوقف هنا قليلا . . لقد كان أحمد فتحى زغلول واحدا من الخطباء الذين يحضون على الثورة مع عبد الله النديم ، وبعد هزيمة الثورة فصل من المدارس ، وواضح أن السلطة التى فصلته أقوى من سلطة ناظر المعارف ـ أى وزير المعارف ـ ولعلها سلطة الانجليز والخديو توفيق إلى درجة أن « وزير المعارف » أوعز لفتحى أن يغير اسمه حتى يتسنى له دخول المدارس من جديد .

فتحي ودنشواي

فى سنة ١٨٨٣ سافر أحمد فتحى زغلول إلى أوروبا لدراسة الحقوق ، وعاد فى سنة ١٨٨٧ وعين فى قلم قضايا الحكومة ، وعين فى المحاكم الأهلية سنة ١٨٨٩ وترقى إلى أن أصبح رئيسا لمحكمة مصر . وازدادت علاقته باللورد إلى أن وقعت حادثة « دنشواى» فى ١٣ يونية ١٩٠٦ ، وزعمت السلطات البريطانية أن فلاحى قرية دنشواى قد اعتدوا على الضباط الانجليز مما تسبب فى وفاة أحدهم .

وقام الإنجليز بتشكيل المحكمة من بطرس باشا غالى بصفته قائما بعمل ناظر الحقانية رئيسا ، وعضوية اثنين من الانجليز وعضوية أحمد بك فتحى زغلول رئيس محكمة القاهرة الابتدائية . وكان سكرتير المحكمة هو عثمان بك مرتضى ، وتولى الادعاء إبراهيم بك الهلباوى ، وقام بالدفاع عن الفلاحين المتهمين أحمد بك لطفى السيد ، وإسماعيل بك عاصم ، ومحمد بك يوسف .

واستمرت المحاكمة فى الفترة من ٢٤ إلى ٢٧ يونية ١٩٠٦ وصدرت أحكام غير قابلة للطعن فيها . . وتقضى بإعدام أربعة وبالأشغال الشاقة المؤبدة لاثنين ، وبالسجن ١٥ سنة لواحد ، وبالسجن سبع سنوات لستة آخرين ، وبأحكام أخرى بالحبس والجلد . .

وكان المنظر رهيبا فى ٢٨ يونية حين تم تنفيذ الأحكام كلها أمام الفلاحين . ويلاحظ الباحثون أن ثلاثة من أصدقاء أو مريدى الشيخ محمد عبده شاركوا فى محكمة دنشواى : أحمد لطفى السيد وقد تولى الدفاع بطريقة لينة وطالب الرأفة للفلاحين المصريين من الجلادين الانجليز ، وإبراهيم بك الهلباوى الذى صال وجال وطالب بتوقيع أقصى العقوبات على الفلاحين المصريين ، ثم أحمد فتحى بك زغلول الذى صاغ حيثيات الحكم وهى فى غير صالح أبناء بلده .

وعلى أية حال فقد كان لمشاركة أحمد فتحى زغلول فى مأساة دنشواى ظلال قاتمة على سيرته حتى وفاته وبعد رحيله فالكثيرون أهملوا سيرته ، وآخرون كانوا يذكرون اسمه مقرونا بدوره فى دنشواى ، والقليلون ركزوا على جانب مضىء مشرق للرجل وهو ماسوف نعرض له هنا ولكن بعد حين حتى يبين لنا الإطار التاريخى الذى سار فيه سابقوه ، وأدى إلى نشاط أقرانه ، وبالتالى نعرض لدوره المشرق داخل إطاره التاريخى السليم .

رحلة سريعة . .

رحلت الحملة الفرنسية عن مصر بعد أن أثارت انتباه المصريين إلى عنصر جديد من عناصر

التقدم وهو « العلم » . وها هى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر وعلى رأسها محمد على الذى أخذ عن الحملة الفرنسية اهتمام « القيادة » بالعلم والتعليم ، فقام بإرسال البعثات إلى فرنسا بلد الحملة الفرنسية التى بهرت علماءنا الأجلاء بعلمها الجديد . واقترب من محمد على الشيخ حسن العطار وتلميذه رفاعة الطهطاوى . وقدر للطهطاوى أن يكون رائدا للنهضة الفكرية الحديثة فى مصر ، وعندما رحل فى عام ١٨٧٣ كان قد ألقى بذورا طيبة على أرض مصر تلقفها أحمد عرابى وعبد الله النديم وعلى مبارك ومحمد عبده . . وقبل أن يرحل بعامين أى فى عام ١٨٧١ كان قد جاء إلى بر مصر ثائر عظيم هو السيد جمال الدين الأفغانى ، وجمع حوله محمد عبده ، وسعد زغلول ، وعبد الله النديم ، . . . وغيرهم من الطليعة الفكرية فى مصر . ويغادر الأفغانى مصر سنة ١٨٧٩ وقد ترك بها بذرة ثورة وترك بها ثوريين ، وترك بها بذرة ثقافية وترك بها مثقفين .

حتى جاء الثلاثاء الأسود ، ١١ يوليو من عام ١٨٨٢ ، وقذائف الأسطول الانجليزى تتساقط على مدينة الاسكندرية فإذا بالشباب الثائر المثقف يلتف حول عرابى وحول ثورته ، وفى مقدمتهم للأمانة وللتاريخ عبد الله النديم وأحمد فتحى زغلول . والذى كان اسمه فى الأصل فتح الله صبرى . . وللحق أيضا فإن الكتابات التاريخية عن كفاح النديم منذ وقفة عرابى فى ميدان عابدين إلى ضرب الإسكندرية تسجل اسم فتح الله أفندى صبرى مقرونا باسم عبد الله النديم .

إذن كانت البداية وطنية وثورية ، وكانت الخطى ثابتة فيما الذى جرى يا ترى ؟

هزيمة روحية

سارت أمور الثورة العرابية كما نعرف ، وانتهت أيضا كما نعرف ، وتفشل الثورة كما نعرف . وينفى عرابى خارج البلاد وأصبح كل شىء فى مصر يوحى بالمهادنة والاستسلام . الشيخ محمد عبده أستاذ أحمد فتحى زغلول قال إنها كانت « فتنة » ومال إلى إصلاح حال الأمة بالتعليم ، وقال قاسم أمين إن تحرير المرأة هو بداية للإصلاح ، وسعى خمسة من الأعيان إلى مصالحة مع الاحتلال . . وهم : محمد سلطان ، ومحمد الشواربى ، وعبد الشهيد بطرس ، وعبد السلام المويلحى ، ومحمود سليمان . . حتى الزعيم أحمد عرابى يعلن بعد عودته من المنفى حسب نشرته « المقطم » فى ٣ أكتوبر سنة ١٩٠١ « . . شاء الله أن ينعم على وطنى ولكن لحكمة له جل جلاله قضى أن ذلك على يد الذين نازلناهم فى ساحة القتال وكانوا لنا أعداء فصاروا لمصر الخير الأصدقاء ، وقد قضى الله أن أكون واسطة هذا التغيير ، فأنال وطنى ما كنت اتوخى وأتمناه له من الخير . . بحسن تدبير جناب اللورد كرومر الإدارى المصلح الكبير » .

الهزيمة جعلت الكثيرين يتراجعون ويرفعون شعار الملاينة والمحاسنة فيما عدا أحد أبناء هذا الشعب ، ابن خباز فى الإسكندرية الذى اختفى بين الفلاحين لمدة تسع سنوات ، وبعد أن قبض عليه حقق معه وكيل النيابة قاسم أمين الذى عامله فى التحقيق برفق ، واشترى له الدخان من جيبه الخاص ، وأمر له بالقهوة ، وأصدر أوامره إلى إدارة سجن طنطا بتنظيف زنزانة النديم . وأعاد كرومر الشيخ محمد عبده من منفاه فانصرف إلى الحديث عن إصلاح التعليم . وكان فتح الله صبرى أو أحمد فتحى زغلول صديقا أو تلميذا كبيرا للشيخ محمد عبده كما أسلفنا ، وكان صديقا للنديم ولكن النديم قد توفى إلى رحمة الله . . وبقى الصديق الحميم أحمد لطفى السيد .

وأحمد لطفى السيد كان رائدا من رواد الفكر الإصلاحى بعد أن اعتذر أحمد عرابى عن الثورة ، وأشرنا فيما سبق إلى أن أحمد فتحى زغلول زعم أنه هو الذى أسس « الجريدة » وأنكر صلته بحزب الأمة . . على أية حال فإن أحمد لطفى السيد كان له دور كبير فى تأسيس « الجريدة » وفى تأسيس حزب الأمة الذى كان التمهيد التاريخى لحزب الأحرار الدستوريين ، ولكل دعاة المهادنة والملاينة والمصالحة ولكل دعاة الفكر الإصلاحى . وكان فتحى وثيق الصلة بهؤلاء جميعا .

وتمضى المسيرة حتى أحمد لطفى السيد الزميل والصديق لأحمد فتحى زغلول وقد تزاملا فى الإعداد لإصدار « الجريدة » وفى تأسيس حزب الأمة ، وإن كان أحمد لطفى السيد قد قدر له أن يكون أطول عمرا ، وأكثر شهرة ، وأقرب إلى قلوب المثقفين والمستنيرين ، وقدر له أيضا ألا توجه إليه السهام الحادة كما وجهت إلى أحمد فتحى زغلول .

وليس الحديث هنا عن أحمد لطفى السيد ، وربما يكون له حديث مستقل . . وإلى هذا الحين نقول إنه اهتم بحركة الترجمة ورأى أن فى الترجمة ما يسد حاجة الأمم إلى المعرفة المرجوة ، وأيقن أن حاجة الشرق فى أيامه هى فى ترجمة عيون ما كتب أهل الغرب . وكان من القائلين بأن حركة الترجمة تسبق حركة التأليف فى نهضة الأمة وتمهد لها كما حدث فى عصر النهضة الأوروبية . . وأظن أن أحمد فتحى زغلول قد رأى مثل هذا الرأى أيضا .

فتحى زغلول مترجما

٥١ عاما فقط قضاها أحمد فتحى زغلول على هذه الأرض ، ولم يقدر له إلا أن يصل إلى منصب وكيل وزارة الحقانية (وزارة العدل حاليا) ، ٥١ عاما بين عام مولده ١٨٦٣ ، وعام رحيله ١٩١٤ وكان يطمع فى الكثير بالمقارنة مع أخيه زعيم الأمة سعد زغلول باشا .

على أية حال فقد درس فى فرنسا وأتقن اللغة الفرنسية ، وعكف على نقل عدد من الأعمال الهامة من الفرنسية إلى العربية ومن الانجليزية أيضا .

ونسجل هنا أهم ما قام بترجمته . . وصدر فعلا :

١ ـ ادمون ديمولان « سر تقدم الانجليز السكسون » ١٨٩٩ .

٢ ـ جوستاف لوبون « سر تطور الأمم » ١٩١٣ .

٣ ـ جوستان لوبون « روح الاجتماع » ١٩٠٩ .

٤ ـ الدكتور هنرى دى كونترى « خواطر فى الإسلام » ١٨٩٧ .

٥ ـ جيرمى بنتام « أصول الشرائع » ١٨٩٢ .

وأهم مافى الأمر أن أحمد فتحى زغلول كان يملك ناصية اللغة العربية ، وكان دائما ينبه إلى الاهتمام بها ، ويوجه اهتمام المترجمين إلى مطابقة اللفظ للمعنى ، ويحذر من فساد اللغة .

وقال أحمد شوقى فى ترجمات فتحى :

ومعـربات كالمنـــار وإنمـــا لزيـــادة فى رأس مـــال الضـــاد

وقال فتحى فى شأن الاهتمام باللغة العربية . . « عليكم بالتقدم فادخلوا أبوابه المفتوحة أمامكم ، ولا تتأخروا فلا تقدم لكم إلا بلغتكم فاعتنوا بها وأصلحوها ، وهيئوها لتكون آلة صالحة فيما تبتغون ولا تشوهوا صورتها الجميلة ، ثم لاتقفوا بها موقف الجمود والعجمة تهددها على ألسنة العامة ، وهى لا تلبث أن تدخل على لغة الخاصة ، اقيموا فى وجه هذا السيل الجارف سدا من الاشتقاق المعقول والترجمة الصحيحة والتعريب عند الضرورة » .

وهكذا كان اهتمام أحمد فتحى زغلول باللغة العربية وكأنه يتكلم فى زمان مثل زماننا الحاضر الذى تكسرت فيه قواعد اللغة على ألسنة الإعلاميين والإعلاميات ، بل وعلى ألسنة كثيرين من المتعلمين والمثقفين أو الذين من المفروض أنهم كذلك . .

كان يهتم باللغة العربية بقدر اهتمامه باللغات الأخرى سبيلا إلى نقل معارف الآخرين لنقف على سر تقدم الشعوب الأخرى وكما قال عنه أحمد لطفى السيد إنه « دعا الناس إلى الاستمساك بشخصيتهم ، وقام بترجمة « الفرد ضد المملكة ، وروح الاجتماع وسر تطور الأمم » وذلك لينشر فى الجمهور الأسس العلمية للرقى حتى يطبق الناس حولهم على هذه الأصول ، فينتفعوا بتجارب الأمم » .

الشقيق المفكر

درج الناس على منح الشهرة لفئات مختلفة ولكن بترتيب قد لايكون منطقيا وقد لا يرضى عنه الكثيرون . وعلى سبيل المثال يأتى أهل الفن بمختلف فروعه فى المقدمة شهرة وثروة ، ويليهم أهل

السياسة ، وبعدهم المفكرون والمثقفون والأدباء والكتاب وكل من أدركتهم حرفة الأدب . . هذا بشكل عام ولكل قاعدة استثناء فمن الأدباء من تصعد شهرته ويغطى بها على سائر أبناء الطوائف الثلاث . . ومن السياسيين من يصل إلى مرتبة الزعامة الشاملة فيكون دونه جميع أبناء الأمة بمختلف فئاتها . وفى هذا الصدد كان سعد زغلول زعيما للأمة ، وكان شقيقه الأصغر أحمد فتحى زغلول وكيلا لوزارة الحقانية أو العدل بلغة أهل زماننا فى حين أنه قام بدور بارز فى حياة الفكر المصرى الحديث ، ولكن هذه أقدار الناس .

وأحمد فتحى زغلول وإن لم تصبه شهرة شقيقة السياسى سعد زغلول ، فإن دوره فى الفكر المصرى الحديث لايقل عن أهمية الدور الذى قام به سعد زغلول .

كانت قضية « التمدن» قد طرحت نفسها علىّ المجتمع المصرى بعد هزيمة عرابى وقبل البداية الجديدة لحركة الاستقلال مع مطلع القرن العشرين . . وكانت المعادلة الصعبة هنا هى كيف يمكن التخلص من السيطرة الغربية السياسية ، مع الإفادة مما وصل إليه أهل هذه السيطرة السياسية من تقدم ورقى فى بلادهم .

وإزاء هذه المعادلة الصعبة نشأت مواقف ثلاثة : « الأول » موقف الرفض والتعصب ضد هذه المدنية الجديدة وضد أصحابها الغربيين الذين يسيطرون على مقدرات الشعوب ، و«الثانى » موقف الإعجاب بهذه المدنية وبأصحابها إلى حد الذوبان فى هذه الحضارة والإنسياق فى الدفاع عن أصحابها بدرجة أفقدت هذا الفريق شخصيته الأصلية ، والموقف « الثالث » كان فى حاجة إلى فكر راجح ، ورأى ثاقب ، وشخصية متزنة متماسكة توازن بين الرطانة بلغة أهل الغرب مع العناية باللغة العربية ، وتوازن بين الإفادة من مدنية الغرب مع صياغة حديثه لتقاليدنا ، وتوازن بين مظاهر حضارية وافدة مع الكشف عن الأصول الحضارية عندنا والوقوف على أرضها .

وتلك كانت مهمة شاقة فى مجال الفكر والثقافة والأدب ربما كان رائدا لها رفاعة الطهطاوى ومن بعده الشيخ محمد عبده وبشكل أكثر تفصيلا أحمد فتحى زغلول وأحمد لطفى السيد وقاسم أمين .

أحمد فتحى زغلول

والرجل الذى نتحدث عنه هو واحد من الذين حاولوا الإجابة عن سؤال هام . . وهو كيف السبيل لنهضة مصرية كتلك النهضة الموجودة فى فرنسا أو الموجودة فى انجلترا ؟ ولماذا فرنسا ؟ ولماذا انجلترا ؟ لأن فرنسا من خلال الحملة العسكرية سنة ١٧٩٨ واجهت المصريين بنموذج

حضارى أكثر تفوقا من النمط الحضارى الموجود فى مصر آنذاك ، ولأن انجلترا واجهت المصريين بنموذج سياسى وادارى وثقافى انهزمت أمامه مصر سنة ١٨٨٢ . كان لابد إذن من دراسة أسباب تفوق الغرب عامة وفرنسا وانجلترا خاصة ، وكان لابد من دراسة عناصر التقدم لدى الغرب ، ودراسة عناصر التخلف عندنا ، وبالتالى وضع منهاج تسير عليه الأمة لتلحق بركب الحضارة الغربية التى هزمت مصر مرتين خلال مائة عام أو أقل . ولعل هذه القضية لم تزل مطروحة حتى يومنا هذا بين دعاة العودة إلى الأصول ، ودعاة التغريب ، ودعاة التوفيق بين المدرستين .

وربما يظن البعض من العرض السابق أن أحمد فتحى زغلول كان مرفوضا أو معزولا عن بنى وطنه بسبب مشاركته فى محكمة دنشواى . . لم يكن الأمر إلى هذا الحد ، إذ كان عضوا مؤسسا فى الجمعية الخيرية الإسلامية مع محمد عبده وسعد زغلول وحسن عاصم سنة ١٨٩٢ ، وكان عضوا نشطا ويختار فى اللجان التى تشكلها الجمعية ، بل إن تقارير الجمعية تذكر فضله باعتباره أكثر الأعضاء نشاطا ، وقد ظل عضوا فى الجمعية حتى توفى سنة ١٩١٤ .

وقد كان لنشاطه الثقافى أثره الكبير لدى الصفوة المثقفة بخاصة ، ولدى المتعلمين بعامة ، ويتضح هذا من الحفل الذى أقاموه لتكريمه فى ٢٧ يونيه ١٩١٣ ، والذى أقيم فى الجامعة المصرية وحضره عدد كبير من الأدباء والعلماء ورجال القضاء الأهلى، ورجال القضاء الشرعى . ويبدو هذا التقدير له أيضا فى حفل التأبين الذى أقيم فى دار الأوبرا الخديوية فى ١٨ مايو ١٩١٤ بمناسبة مرور أربعين يوما على وفاته واشترك فى رثائه الأمراء والوزراء .

وقد قام فتحى زغلول بدور هام فى وضع قوانين المحاكم الشرعية ، وفى وضع نظم المعاهد الدينية والأزهرية ، إذ كان رئيسا للجنة إصلاح هذه المعاهد والتى كانت تضم إسماعيل صدقى وعبد الخالق ثروت . . الذى نشر فى « الجريدة» فى ١٠ مايو ١٩١٤ ، يعترف بأن الفضل فى وضع نظم هذه المعاهد يعود إلى أحمد فتحى زغلول وحده ، كما أسهم فى وضع القوانين الحكومية لما له من دراية موثقة بالنظم والقوانين المختلفة فى مصر وفى دول أوربية كثيرة ، وعرف عنه الدقة فى صياغة القوانين وفى المؤلفات القانونية .

لم يكن من الغريب إذن أن يشيع جثمانه من منزل سعد باشا زغلول ، وأن تكون جنازته مهيبة سار فيها رجال العلم والأدب والقانون .

كان اهتمام فتحى زغلول الأساسى موجها إلى « تعليم الأمة » فهو شعاره المفضل لديه ، وقد أشرنا إلى بعض كتبه التى ترجمها ونضيف إليها هنا كتبه التى ألفها . .

١ ـ المحاماة . . سنة ١٩٠٠ .

٢ ـ شرح القانون المدنى . . سنة ١٩١٣ .

٣ ـ الآثار الفتحية . نشر بعد وفاته سنة ١٩١٤ .

٤ ـ التزوير فى الأوراق . . « رسالة قانونية نشرت بدون تاريخ » .

وقد ذكر أحمد لطفى السيد الذى كان من أخلص أصدقائه أن فتحى بك ترجم عددا من الكتب الأخرى غير التى صدرت وأشرنا إليها ، وهذه الكتب لم تنشر وهى :

١ ـ جان جاك روسو . . العقد الاجتماعى .

٢ ـ بورجار . . الاقتصاد السياسى .

٣ ـ جوستاف لوبون . . تمدن الغرب .

٤ ـ جمهورية أفلاطون .

٥ ـ هربرت سبنسر . . الفرد ضد المملكة .

وتكتمل الصورة إذا أضفنا إلى المترجمات والمؤلفات ، مقالات أحمد فتحى زغلول التى جمعها عبد العال حمدان تحت عنوان «الآثار الفتحية » ونشرت بالقاهرة سنة ١٩١٤ ، وأهم هذه المقالات والخطب « ماهية اللغة ، وعلموا الأمة ، والتمدن والحرية والتمدن والتقدم ، والتمدن والتغريب ، وإصلاح اللغة العربية » .

تعريف

وإلى الذين يهتمون بسرد الحياة نوردها هنا مرتبة وقد أوردناها فى ثنايا الموضوع .

ولد فتح الله صبرى (أحمد فتحى زغلول) فى ٢٢ فبراير ١٨٦٣ بقرية ابيانه من أعمال مديرية الغربية ، وكان الابن الأصغر لابراهيم زغلول ، وأمه من عائلة بركات بالمديرية نفسها ، وتلقى تعليمه فى كتاب القرية ، وتعلم فى رشيد حتى المرحلة التجهيزية ، ثم فى مدرسة الألسن عام ١٨٨٣ ، وحصل على ليسانسيه فى القانون سنة ١٨٨٧ ، وعين رئيسا للنيابة بأسيوط فى ٢٧ يونية ١٨٨٩ ثم رئيسا لنيابة الإسكندرية ، وفى ١٨ نوفمبر ١٨٩٣ عين رئيسا لمحكمة المنصورة الأهلية ، ونقل رئيسا لمحكمة مصر الابتدائية الأهلية فى ٢٦ فبراير ١٨٩٦ ، وعين وكيلا لنظارة الحقانية فى ٢٨ فبراير ١٩٠٧ ، وتوفى فى ٢٧ مارس ١٩١٤ .

الأسانيد :

١ ـ د . أحمد زكريا الشلق . . رؤية فى تحديث الفكر المصرى (٢) (أحمد فتحى زغلول وقضية التغريب) .

٢ ـ سعد زغلول . . المذكرات .

٣ ـ صلاح عبد الصبور . . قصة الضمير المصرى الحديث .

٤ ـ محمد فريد . . مذكراتى بعد الهجرة .

أحمد لطفى السيد



هل أصفه لكم ؟ أم أدع سيدة مصرية تزوجت وعاشت فى كاليفورنيا ، ابنة شقيقه ، الدكتورة « عفاف لطفى السيد مارسوه » أستاذ تاريخ الشرق الأوسط ـ لو أنجيلس . . تقول الأستاذه الجامعية المعجبة بعمها « يصعب على المرء أن يحدد سر الجاذبية التى كانت تجذب إليه الرجال والنساء ، لم يكن ذلك يرجع بالتأكيد إلى جمال منظره ، إذ كان يفتقر إلى الجمال . كان نحيفا طويل القامة ، له عينان غائرتان تلتقيا فوق أنف منتفخ ، وشفتان ضيقتان وراء شارب كث . وكانت يداه هما المظهر الجميل الوحيد فيه ـ طويلتان دقيقتان الأطراف رشيقتان . كان أصدقاؤه يداعبونه لأن مائدته كانت تزخر بالنساء من كل الأعمار ، توافدن ليقدمن له واجب الاحترام ، وينعمن بمداعباته اللطيفة » . ويداه ـ المظهر الجميل الوحيد فيه ـ جذبتا أنظار سيدة أخرى هى «الدكتورة نعمات أحمد فؤاد » وصفته ذات مرة فقالت : « . . كانت ملابسه حريصة عليه ، لاتظهر منه إلا كفين نحيلتين نبيلتى الحركة والإشارة ورقبة طويلة تحمل رأسا كبيرا . . كبير العقل . . كبير المعرفة . . كبير المقام . . إنه أحمد لطفى السيد . . الأستاذ . . » .

وأستاذ الجيل الذى ترجم بعض أعمال المعلم الأول « أرسطو » ورئيس تحرير « الجريدة » والداعية لإنشاء مجمع اللغة العربية ورئيس المجمع ـ فيما بعد ـ أستاذ الجيل مدير دار الكتب ومدير الجامعة المصرية ووزير المعارف . . هذا الرائد المفكر ، باعترافه عن نفسه لم يكن متفوقا فى دراسته . . كان متوسط المستوى ، وإن كان متفوقا فى اللغة العربية .

أحمد لطفى السيد ابن العمدة « السيد باشا أبو على » ابن العمدة « على أبو سيد أحمد » . . أصله من الفلاحين شأنه شأن سعد زغلول ، ولكن الفرق بينهما هو أن سعد زغلول استمر يفكر كما يفكر الفلاح المصرى ، أما أحمد لطفى السيد فقد أبقى على روابط المشاركة الوجدانية مع

الريف المصرى ولكنه تخلى عن أهل الريف فكريا . ومن هنا التف الفلاحون فى مصر حول سعد زغلول ، ولم يتجاوبوا - وهم الغالبية الساحقة - مع أفكار أحمد لطفى السيد . والقصة المعروفة سنة ١٩١٣ عندما رشح أحمد لطفى السيد نفسه على « مبادئ «الديمقراطية » ولم تكن عبارة «الديموقراطية » معروفة لدى الفلاحين ، فاشاع معارضوه أن الديموقراطية » تعنى « الالحاد » فانصرف عنه الناخبون إلى منافسه . . (هكذا ذكر هو فى « قصة حياتى » ص ١٤٠) وهنا الفرق الدقيق بين السلوك الفكرى ومراعاة ظروف النشأة .

ونعود معَ أحمد لطفى السيد إلى قرية « برقين » من قرى مديرية الدقهلية ، وإلى سنة ١٨٧٢ ، فى ١٥ يناير ، وفى يوم قارس البرد جاء « أحمد لطفى السيد » . وفى الرابعة من عمره التحق بالكتاب سنوات تعلم أثناءها الكتابة والقراءة وحفظ القرآن الكريم ومن مدرسة المنصورة الابتدائية حصل على الشهادة الابتدائية عام ١٨٨٥ ، ومن المدرسة الخديوية بالقاهرة حصل على التوجيهية عام ١٨٩٠ . وعام ١٨٩٤ حصل على ليسانسيه الحقوق وعين كاتبا فى النيابة بالقاهرة، وبعدها سكرتيرا للنائب العام . ثم انتدب للعمل بنيابة بنى سويف والتقى بصديقه عبد العزيز فهمى ، وكان وكيلا للنيابة أيضا هناك . ثم التقت كلمة أحمد لطفى السيد ، وعبد العزيز فهمى، وأحمد طلعت رئيس النيابة وشكلوا جمعية سرية « لتحرير مصر » . ووصلت أخبار تلك الجمعية إلى الخديو عباس حلمى الثانى ، فتحدث إلى مصطفى كامل لضم تلك الجمعية إلى «الحزب الوطنى السرى » الذى اعتزم الخديو تشكيله وتقابل أحمد لطفى السيد مع الخديو عباس الثانى بواسطة مصطفى كامل ، ، ثم اجتمع أحمد لطفى السيد ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد، ولبيب محرم ، ومحمد عثمان ، وسعيد الشيمى وقرروا تشكيل جمعية سرية باسم « الحزب الوطنى » برياسة الخديو ، وكانت الاجتماعات تتم سرا فى مسجد قرب سراى القبة . ومن الطريف أن محمد عثمان هو والد أمين عثمان باشا ، وأن لبيب محرم هو شقيق المهندس عثمان محرم باشا . وطلب الخديو من أحمد لطفى السيد أن يسافر إلى سويسرا ليكتسب الجنسية السويسرية ، التى تكون بمثابة الحماية له عندما يصدر جريدة وطنية بعد عودته . وسافر أحمد لطفى السيد إلى سويسرا وهناك التقى بالشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول وقاسم أمين ، ويقال إن الأربعة تقاربت أفكارهم هناك ، وإن الأفكار التى نشرها قاسم أمين حول « تحرير المرأة » هى أفكار الشيخ محمد عبده وأحمد لطفى السيد ، وإن الصياغة لسعد زغلول . وعندما علم الخديو باتصال أحمد لطفى السيد بالشيخ محمد عبده وسعد زغلول ، غضب عليه لأنه لم يكن يرتاح لهما . وساءت العلاقات بين الخديو وأحمد لطفى السيد الذى انصرف إلى العمل بالنيابة ، ثم استقال عم ١٩٠٥ واشتغل بالمحاماة مع صديقيه عبد العزيز فهمى وعزيز منسى . وعن عبد العزيز فهمى نذكر كيف أن على

شعراوى بإخلاص وبحسن نية ضغط على المحامين الثلاثة للدفاع فى قضية خاسرة ، كانت سببا فى أن يزهد أحمد لطفى السيد ويترك المكتب فى ميدان العتبة لزميليه ويتجه إلى الصحافة والسياسة .

الجريدة وحزب الأمة

فى مذكراته التى نشرتها « مجلة المصور ـ سبتمبر ١٩٥٠ » تحدث أحمد لطفى السيد عن اتفاقه مع محمد محمود بن محمود باشا سليمان حول « إنشاء جريدة مصرية حرة تنطق بلسان مصر وحدها دون أن يكون لها ميل خاص إلى تركيا أو إلى الخديو أو إلى الانجليز» . واجتمع أحمد لطفى السيد فى « الكونتننتال» مع محمد محمود وعمر سلطان ومحمود عبد الغفار ، وتحدثوا فى الأمر وفى منزل محمود سليمان فى ٢٣ يونية ١٩٠٦ تقرر تأسيس شركة خاصة للجريدة والمطبعة . وتم اختيار محمود سليمان ، وحسن عبد الرازق ، وإبراهيم سعيد ، وإسماعيل أباظه ، وباسيلى تادرس ، وأحمد يحيى ، وإبراهيم مراد ، وطلبة سعودى ، ومحمود عبد الغفار ، وعمر سلطان لتحديد اختصاصات الشركة ووضع لوائحها . واختير محمود سليمان رئيسا للشركة ، وحسن عبد الرازق باشا (والد الشيخ مصطفى عبد الرازق ، ومحمود عبد الرازق ، وحسن عبد الرازق) وكيلا للشركة، واختير أحمد لطفى السيد مديرا للجريدة ورئيسا لتحريرها لعشر سنوات . وصدر العدد الأول من « الجريدة » فى ٩ مارس ١٩٠٧ وحملت « الجريدة » لواء الدعوة إلى « المصرية » ومعارضة الاتجاه إلى تركيا ، وإلى «محاسنة » السلطة الفعلية وتقصد بها الانجليز .

وفى يوم السبت ٢١ سبتمبر عام ١٩٠٧ ، وفى اجتماع الجمعية العمومية لشركة الجريدة ، أعلن حسن باشا عبد الرزاق الكبير نيابة عن محمود باشا سليمان الذى لم يحضر لمرضه ، تحويل الجمعية العمومية إلى حزب هو « حزب الأمة » . . اختير محمود سليمان رئيسا للحزب ، وحسن عبد الرازق وعلى شعراوى وكيلين ، واختير أحمد لطفى السيد سكرتيرا عاما للحزب . وهكذا أصبح أحمد لطفى السيد عام ١٩٠٧ سكرتيرا عاما لحزب الأمة ورئيسا لتحرير صحيفته «الجريدة» . وكان من المعروف أن الشيخ محمد عبده الذى كان قد توفى عام ١٩٠٥ كان الأب الروحى لهذه المجموعة وتوقفت الجريدة فى ٣٠ يوليو ١٩١٥ . وكان أحمد لطفى قد اعتكف فى بلده « برقين » استياء من سياسة الاحتلال التى بدأت تشدد قبضتها على البلاد ، وخاصة بعد بداية الحرب العالمية الأولى وإعلان الحماية على مصر فى ديسمبر ١٩١٤ . ومن المؤكد أن سعد زغلول لم يكن له دور فى تأسيس « الجريدة » أو حزب الأمة ، وكان شقيقه أحمد فتحى زغلول هو الذى له دور ومن هنا جاء الخلط لدى بعض الباحثين . وقد جار الخلط لدى بعض الباحثين .

وقد حاول الخديو عباس حلمي الثاني أن يبطش بحزب الأمة بعد وفاقه مع المعتمد البريطاني «جورست» ولكنه لم يتمكن .

العودة إلى الجهاد

وبعد أن ألقى أحمد لطفي السيد قلمه، واعتكف في «برقين» ، استجاب إلى دعوة سعد زغلول للتفكير في مستقبل الوطن . وقبيل إعلان الهدنة (١٩١٨) ، كان سعد يجتمع في عزبته بمسجد وصيف مع أحمد لطفي السيد وعبد العزيز فهمي ، ومحمد محمود ، ودار الحوار فيما ينبغي عمله بعد إعلان الهدنة . وفي ١١ نوفمبر أعلنت الهدنة ، وعقد اجتماع في بيت سعد (بيت الأمة) تقرر فيه توجيه الدعوة إلى اجتماع موسع ، وكتب أحمد لطفي السيد صيغة الدعوة . وفي هذا الاجتماع الموسع تقرر أن يتكون «الوفد الأول» أو المجموعة الأولى من الوفد من : سعد زغلول ، وعلى شعراوي ، وعبد العزيز فهمي ، ومحمد محمود ، وأحمد لطفي السيد ، وعبد اللطيف المكباتي . وتقرر أن يذهب سعد زغلول ، وعلى شعراوي ، وعبد العزيز فهمي إلى مقابلة المعتمد البريطاني في ١٣ نوفمبر ١٩١٨ . وسارت الأمور كما هو معروف من اعتقال سعد وإسماعيل صدقي ومحمد محمود وحمد الباسل، ثم الثورة الشعبية الكبرى في ٩ مارس ١٩١٩ ، ثم إطلاق سراحهم وسفر الوفد إلى أوربا للمفاوضات مع الانجليز ، وعرض القضية على مؤتمر الصلح .

وفي أوربا ظهر أحمد لطفي السيد باعتباره العقلية المفكرة لغالبية المجموعة المعارضة لسعد زغلول والمؤيدة لعدلي يكن والراغبة في الوصول مع الانجليز إلى حدود هي في رأى سعد مجرد حماية مستترة ، وكانت هذه المجموعة تتكون من أحمد لطفي السيد وعبد العزيز فهمي ، ومحمد محمود ، وحمد الباسل ، ومحمد على علوبة ، وعبد اللطيف المكباتي . وعادت الغالبية من أوربا وعاد عدلي يكن ليشكل وزارته الأولى في ١٦ مارس ١٩٢١ ، وعاد سعد في ٥ إبريل ١٩٢١ ليشن حملة شعواء على المفاوضات التي يجريها عدلي مع الإنجليز . وأيدت «جمعية مصر المستقلة» التي مهدت فيما بعد لتكوين حزب الأحرار الدستوريين ، وهي الجمعية التي اشترت امتياز جريدة السياسة ، أيدت عدلي يكن ووزارته ومفاوضاته . أحمد لطفي السيد خطوات عدلي يكن وفشلت مفاوضات عدلي وعاد من لندن في ٥ ديسمبر ١٩٢١ ، وقدم استقالته التي قبلها الملك فؤاد في ٢٤ ديسمبر . واتهمت سلطات الاحتلال سعد زغلول بأنه السبب في فشل المفاوضات ، واعتقلته ونفته إلى «سيشيل» في ٢٩ ديسمبر ١٩٢١ ومعه عدد من مؤيديه .

وفي ٢٨ فبراير ١٩٢٢ أصدرت الحكومة البريطانية «تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢» وفي ١٥

مارس أعلن أحمد فؤاد نفسه ملكا وأعلن استقلال مصر فى ٢٥ إبريل وقد أيد أحمد لطفى السيد والغالبية المعارضة لسعد زغلول كل هذه الخطوات ، فى الوقت الذى كانت فيه سلطات الاحتلال تعتقل الصفين الثانى والثالث من رجال الوفد .

وفى تلك الفترة كان أحمد لطفى السيد يعمل من وراء الستار فى الإعداد لبرنامج ولائحة الحزب الجديد الذى أعلن عن نفسه فى ٣٠ أكتوبر ١٩٢٢ تحت اسم « حزب الأحرار الدستوريين » ، ولم يظهر اسم لطفى السيد فى جهازه القيادى ولا فى مستوياته الأخرى لأنه كان يعمل « مديرا لدار الكتب » .

إستاذ الجيل

وقد حرمت « السياسة البلاد من أن ينتظم « أستاذ الجيل » فى العمل الفكرى والثقافى . فقد تولى أمر إدارة « دار الكتب » ويتركها ويعود إليها . وهكذا نشاطه فى الجامعة ، وفى مجمع اللغة العربية ونشاطه فى الترجمة والصحافة .

فى سنة ١٩١٥ عين مديرا لدار الكتب ، وتركها حين أراد أن يتفرغ للوفد المصرى ، ثم عاد إليها قبيل تكوين « حزب الأحرار الدستوريين » الذى أسهم فى تشكيله من وراء الستار ، وظل مديرا لدار الكتب حتى اختير مديرا للجامعة سنة ١٩٢٥ . وكان وراء إنشاء « المجمع اللغوى المصرى » سنة ١٩١٦ الذى رأسه شيخ الجامع الأزهر ، وقد أفرد لأعضائه قاعة من قاعات دار الكتب التى كان هو مديرا لها . واختير عام ١٩٤٠ عضوا بمجمع اللغة العربية ، وتولى رياسته خلفا لرئيسه الدكتور محمد توفيق رفعت سنة ١٩٤٥ . وظل رئيسا للمجمع حتى توفى سنة ١٩٦٣ ، وخلفه فى منصبه الدكتور طه حسين . وله مع طه حسين قصة فهو الذى فتح له أبواب الجامعة دراسة وتدريسا ، واستقال عام ١٩٣٣ عندما نقله إسماعيل صدقى إلى وزارة المعارف . وانشئت الجامعة الأهلية (مارس ١٩٠٨) برياسة الأمير أحمد فؤاد ، وكان أول مجلس لها عندما أصبحت « الجامعة المصرية » فى مايو ١٩٢٥ برياسة على ماهر ، وأحمد لطفى السيد مديرا لها . وقد كان وكيلا من قبل للجامعة الأهلية ، وعاد مديرا للجامعة عام ١٩٣٥ وتركها ثم عاد إليها مرة أخرى حتى عام ١٩٤١ حين دخل عضوا بمجلس الشيوخ .

وكان « مجمع اللغة العربية » الذى انشىء عام ١٩١٦ قد انفض عام ١٩١٩ ، وسنة ١٩٢٦ كان قد اندثر المجمع الذى تكون عام ١٩٢٢ ، وقد تابع أحمد لطفى السيد إحياء المجمع حتى تكون من جديد عام ١٩٣٢ .

ورأى أحمد لطفى السيد أن حاجة الشرق هى فى « ترجمة عيون ماكتب أهل الغرب » . وفى دار

الكتب عمد إلى ترجمة أعمال أرسطو . وكان يولى أهمية للترجمة على التأليف إذ يراها سابقة عليه، وقد عكف سنوات طوالا على ترجمة أعمال أرسطو . وقد قرأ الغالبية مفكرى الغرب وتأثر بهم . . . وقرأ لمفكرى العرب وتأثر بهم أيضا أمثال ابن رشد وابن سينا .

أخطاء الأستاذ

إننا نشارك الدكتورة عفاف ابنة شقيقه أنه «من سوء الحظ أن يصبح أحمد لطفى السيد وزيرا»، فإن مابقى منه للتاريخ ليس عمله فى الوزارة وليس جولاته فى المفاوضات ولا عضويته بمجلس الشيوخ ، وإنما آثاره على الفكر المصرى ، فى دعم الليبرالية وفى القومية المصرية ، وفى تعليم المرأة وفى النهضة الصحفية ، وفى الحياة الجامعية .

ومهما يكن من أمر ، فقد أصبح «الأستاذ» وزيرا للمعارف فى وزارة محمد محمود الأولى من ٢٧ يونية ١٩٢٨ ـ ٢ أكتوبر ١٩٢٩ . وهى الوزارة التى عرفت بوزارة «اليد الحديدية» ، والتى حاول القصر استخدامها لضرب «الوفد» وضرب الحياة النيابية . ومن ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ ـ ٢٧ إبريل ١٩٣٨ فى وزارة محمد محمود الثانية وهى الوزارة التى تم فى عهدها أخطر انقسامات الوفد «أحمد ماهر ـ النقراشى» واشترك فيها أحمد لطفى السيد وزيرا للدولة وفى الوزارة التالية لها من ٢٧ إبريل ١٩٣٨ ـ وهى الوزارة الثالثة لمحمد محمود ـ نجده أيضا وزيرا للدولة . أما من ١٨ مايو ١٩٣٨ ـ ٢٤ يونيو ١٩٣٨ فإن «أرسطو» يتولى وزارة الداخلية فى نطاق الوزارة ذاتها . وفى ١٧ فبراير ١٩٤٦ شكل إسماعيل صدقى وزارته الثالثة فى مواجهة المد الشعبى المطالب بالتحرر والاستقلال والديموقراطية ، وفى مقدمة الوزراء كان اسم أحمد لطفى السيد وزيرا للدولة ويتولى وزارة الخارجية . وفى عهد تلك الوزارة ازداد الصدام الدامى بين العمال والطلبة وبين قوات الحكومة ، وفشلت المفاوضات وخرج لطفى السيد من الوزارة فى ١٠ نوفمبر . واستمرت وزارة صدقى إلى ٩ ديسمبر ١٩٤٦ وخلفه محمود فهمى النقراشى ، وهى الوزارة التى قتل فيها النقراشى (٢٨ ديسمبر ١٩٤٨) .

وبعد . . هل قدر على «الأستاذ» أن يقف دائما فى مواجهة التيار الوطنى ؟! أنشأ حزب الأمة فى مواجهة الحزب الوطنى ورسم خط حزب الأحرار الدستوريين ليواجه الوفد حزب الأغلبية الشعبية ، وها هو يشارك فى حكومات محمد محمود وإسماعيل صدقى فى مواجهة التيار الوطنى الديمقراطى . . .

ولكنه فى الوجه المقابل أطلق صيحة عالية على صفحات « الجريدة » من أجل

«الديمقراطية»، وأطلق شعار « مصر للمصريين » ، وطرح فى فترة باكرة (١٩١٢) خطة لاستقلال مصر ذاتيا عن تركيا . وكان مفكر مجموعة « حزب الأمة » وعاون فى تأسيس « الوفد » . وعمل وكيلا فمديرا للجامعة الأهلية والجامعة المصرية ، وأرسى القواعد العلمية . وله فضل فى إنشاء مجمع اللغة العربية وكان مكتبه فى « الجريدة » مدرسة للثقافة الجديدة ، ومدرسة للاستنارة الفكرية ، وله دور كبير فى إرساء مفهوم «القومية المصرية » ، ورفع من شأن الصحافة وأعلى من مكانتها .

لقد ظن الكثيرون أن الناس قد نسوه بعد أن عاش ٩١ عاما ، ولكنه عندما توفى عام ١٩٦٣ كانت جنازته تؤكد أن مصر لا تنسى الذين يعملون من أجلها حتى ولو تعثرت بعض خطاهم . . وجل من لا يخطىء .

الأسانيد :

١ ـ أحمد عصام الدين . . حركة الترجمة فى مصر .
٢ ـ أنور الجندى . . الصحافة السياسية .
٣ ـ د . عفاف لطفى السيد . . تجربة مصر الليبرالية . (ترجمة عبد الحميد سليم) .
٤ ـ شهدى عطية الشافعى . . تطور الحركة الوطنية المصرية .
٥ ـ صلاح عبد الصبور . . قصة الضمير المصرى الحديث .
٦ ـ د . محمد مهدى علام . . المجمعيون فى ٥٠ عاما .

أحمد ماهر



مع مساء يوم السبت ٢٤ فبراير ١٩٤٥ تقدم محمود العيسوى عضو الحزب الوطنى والمحامى . فى مكتب سكرتير الحزب عبد الرحمن الرافعى ، تقدم من الدكتور أحمد ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء ليصافحه ، فأقبل عليه الرجل وابتسامة خفيفة على شفتيه، ولكن المحامى الشاب أفرغ رصاصات مسدسه فى صدر رئيس الوزراء فسقط قتيلا فى البهو الفرعونى بين مجلس النواب ومجلس الشيوخ .

كان رئيس الوزراء الشجاع قد ذهب إلى مجلس النواب يعرض عليه قرارا بأن تعلن مصر الحرب على ألمانيا النازية التى كانت وقت ذاك فى سبيل إعلان هزيمتها أمام الحلفاء ، ومشاركة مصر مع الحلفاء كانت تتيح لها دخول المنظمات الدولية المزمع إنشاؤها، ولكن الرأى العام كان مشحونا ضد الانجليز . وكان عبد الرحمن الرافعى لايرى مصلحة لمصر من وراء هذه المنظمات والمواثيق الدولية . بل إنه سبق له أن أذاع بيانا باسم الحزب الوطنى وعليه توقيعه يحذر من دخول الحرب . وعندما يعلق عبد الرحمن الرافعى على الحادث لايذكر صلة العيسوى به من قريب أو بعيد ، ولايذكر صلة العيسوى بالاخوان المسلمين ، وإنما يتحدث عنه على أنه « محام شاب متهوس يدعى محمود العيسوى » ، ثم يحاول الرافعى إلقاء المسئولية على الوفد والوفديين « ولكن الوفديين أثاروا النفوس على أحمد ماهر موهمين الناس أنه يسعى للزج بالبلاد فى أتون الحرب وإرسال المصريين إلى الخارج ليحاربوا فى ميادين القتال البعيدة » وكان من أثر هذه الفتنة وقوع تلك الجناية الفظيعة التى ذهب ضحيتها زعيم من خيرة رجالات مصر .

وليس الرافعى هو موضوع حديثنا هنا ، ولكن عندما يكتب البعض فى السياسة تحت رايه الكتابة التاريخية ينبغى على الباحث أن يتصدى لهذا اللون من الكتابة . وما حدث على وجه الدقة

هو ان عبد الرحمن الرافعى له مواقف ثابتة ضد اشتراك مصر فى المنظمات الدولية ، وله مواقف ثابتة ضد اشتراك مصر فى الحرب العالمية الثانية منذ بدايتها ، والحزب الوطنى عارض بشدة موقف أحمد ماهر من إعلان دخول مصر للحرب إلى درجة أن رئيس الحزب حافظ رمضان قدم استقالته ، وكان وزيرا للعدل فى وزارة أحمد ماهر الثانية والأخيرة ، وعاد وسحب الاستقالة بأمر من الملك . فالأقرب إلى المنطق هنا أن يتأثر العيسوى برأى أستاذه الرافعى . وهو يلازمه دائما لأنه يعمل معه فى مكتبه ، والأقرب إلى المنطق أن يتأثر بموقف الحزب الذى ينتمى إليه وبموقف رئيسه . ولكن لأن الرافعى يكره الوفد كراهية متوارثة من الحزب الوطنى أراد أن يلصق الاتهام بالوفد بطريقة ساذجة فلم يشر إلى معرفته بالعيسوى ، ولا بصلة العيسوى به وركز على دور الوفد فى تلك الفترة .

على أية حال من الضرورة أن تكون لنا كلمة هنا . . يوم الاغتيال هو ٢٤ فبراير ١٩٤٥ وألمانيا النازية تحتضر وفى طريقها لإعلان التسليم ، أى أنه لم تكن هناك مخاطر عسكرية من وراء اشتراك مصر فى الحرب . والفكرة قديمة من أيام وزارة على ماهر مع بداية الحرب فى أول سبتمبر ١٩٣٩ . وكان روزفلت وتشرشل وستالين قد قرروا أن تشترك فى مؤتمر فرانسيسكو لإنشاء الأمم المتحدة كل دولة تكون قد أعلنت الحرب على دول المحور قبل أول مارس ١٩٤٥ ، وتقرر أن يعقد مؤتمر سان فرانسيسكو فى ٢٥ إبريل ١٩٤٥ . الحرب انتهت فعلا والباقى أسبوع على آخر موعد لإعلان الحرب على المحور تمهيدا للاشتراك فى مؤتمر سان فرانسيسكو . . مسألة شكلية تماما ولم يكن أحمد ماهر فى هذا الموقف خائنا لبلاده ، وكيف يخون من تربى فى الجمعيات السرية بقيادة عبد الرحمن فهمى وبمعرفة كاملة من سعد زغلول . كان وطنيا شجاعا دفع حياته ثمنا لهذه الشجاعة نحن نختلف معه فى مواقف هامة ولكنه نموذج ينبغى أن يقرأ من سطوره الأولى . .

تاريخان لمولده . . الأول ١٨٨٥ أورده محمد السوادى فى كتابه « أقطاب مصر بين الثورتين » ، والثانى ١٨٨٨ أورده د/ يونان لبيب رزق فى كتابه « تاريخ الوزارات فى مصر » . وقد اتفقت المصادر المختلفة على أنه تخرج فى مدرسة الحقوق سنة ١٩٠٨ . ووالده محمد ماهر وكيل وزارة الحربية ومحافظ القاهرة . وعمل عامين بالمحاماة ، وفى سنة ١٩١٠ سافر إلى فرنسا حيث حصل على الدكتوراه فى القانون والاقتصاد من جامعة مونبيليه . وعاد إلى مصر سنة ١٩١٣ ليعمل فى مدرسة التجارة ، ويلتقى هناك بزميل عمره محمود فهمى النقراشى فيتزاملان ويرتبطان ويسيران معا تحت راية سعد، ويدخلان أجهزة عبد الرحمن فهمى السرية ويقبض عليهما معا فى قضية اغتيال حسن عبد الرازق واسماعيل زهدى ، أمام مبنى جريدة السياسة سنة ١٩٢٢ ، ويفرج عنهما معا لعدم ثبوت الاتهام ومرة أخرى يقبض عليهما معا فى مايو سنة ١٩٢٥ بتهمة تشكيل

جماعة سرية للاغتيالات ، ويشكل سعد هيئة للدفاع على رأسها سكرتير الوفد مصطفى النحاس الذى يستبسل فى الدفاع عنهما إلى أن صدر الحكم بالبراءة فى مايو ١٩٢٦ . وعلى الرغم من أن السياسة قد فرقت بعد ذلك بحوالى عشر سنوات بين مصطفى النحاس وأحمد ماهر ، حين انشق أحمد ماهر والنقراشى على الوفد ، إلا أن أحمد ماهر ظل طوال حياته لاينطق ولايسمح لأحد أن ينطق أمامه بكلمة جارحة لشخص مصطفى النحاس ، والطريف أن النهاية أيضا لماهر والنقراشى واحدة . . لقى كل منهما مصرعه اغتيالا وهو يؤدى واجبه . .

ماهر والنقراشى ومكرم

وإذا كان أحمد ماهر قد حفظ لمصطفى النحاس دوره فى الدفاع عنه ، فإن هذا لم يمنعه أن يطمح فى رئاسة الوفد بعد رحيل سعد فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ . وإن كان دور مصطفى النحاس كسكرتير للوفد قد رجح كفته على أحمد ماهر ، فإن ماهر والنقراشى كانا يؤمنان عن يقين بأحقية أحدهما بمنصب سكرتير الوفد بدلا من مكرم عبيد وذلك لأسبقيتهما فى الارتباط بسعد زغلول ، ولدورهما فى الكفاح السرى الذى عرضهما أكثر من مرة للموت . .

وهذه المنافسة بين ماهر والنقراشى من جانب ، وبين النحاس ومكرم من جانب آخر لايمكن إغفالها عندما ننظر إلى الانقسام الخطير الذى وقع خلال عامى ١٩٣٧ ، ١٩٣٨ وخرج فيه ماهر وغالب والنقراشى وشكلوا مع غيرهم من شباب الوفد ما عرف بالهيئة السعدية .

ماهر والنقراشى دخلا الأجهزة السرية فى فترة مبكرة . وقد تحملت شبكة عبد الرحمن فهمى السرية وعناصره الإدارية عبء الكفاح السرى والعلنى قبل ٩ مارس ١٩١٩ ، ويوم ٩ مارس سنة الثورة القومية وطوال عامين عندما كان سعد زغلول والوفد فى باريس ولندن للمفاوضات مع الانجليز ، أى أن أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى تاريخيا من أبناء الثورة .

ويسجل فخرى عبد النور فى مذكراته فى مجال وصف عودة سعد باشا من أوروبا فى ٥ إبريل ١٩٢١ - ٢٥ رجب ١٣٣٩هـ .

. . تحرك القطار إلى القاهرة فبلغها فى نحو سبع ساعات ، أى فى ضعف الزمن الذى يقطعه القطار السريع . كان الفلاحون على طول الطريق يقفون فى سبيل سيره ، ويأبون إلا أن يقف أمام قراهم ليؤدوا واجب الوفاء والشكر لزعيمهم المحبوب . . . وفى هذه الأثناء قدم له الأستاذ ويصا واصف عضو الوفد ، الأستاذ الشاب وليم مكرم عبيد ، وكان وقتئذ مدرسا بمدرسة الحقوق فحياه سعد باشا واثنى عليه وأعرب له عن إعجابه الكبير بمذكرته القيمة الجليلة التى كتبها باللغة

الانجليزية ردا على مشروع المستشار القضائى الانجليزى . وكان وقت أن كتب هذه المذكرة سكرتيرا له . وقد ترجمها إلى اللغة العربية الأستاذ محمد لبيب مدير الإدارة القضائية) .

أى أن أول لقاء بين سعد زغلول ومكرم عبيد كان فى إبريل ١٩٢١ .

ما قبل الانقسام

ومع مسيرة أحمد ماهر نقرأ فى مذكرات فخرى عبد النور أيضا فى مجال حديثه عن محاكمة «السبعة أسود فى قفص » ويقصد بهم حمد الباسل ، ومرقص حنا ، وواصف غالى ، وعلوى الجزار، وويصا واصف ، وجورج خياط ، ومراد الشريعى ، الذين صدر عليهم حكم بالإعدام يوم ١١ أغسطس ١٩٢٢ . . قال حمد الباسل للانجليز « لكم أن تحكموا علينا لا أن تحاكمونا » . وبعد إعلان الحكم هتف واصف غالى « لتحى مصر » فردد الحاضرون الهتاف ، وقبض البوليس على واحد من هؤلاء وكان هو الدكتور أحمد ماهر ، وكان إذ ذلك مدرسا بمدرسة التجارة العليا .

وفى انتخابات ١٢ يناير ١٩٢٤ التى أجراها رئيس الوزراء النزيه يحيى إبراهيم وسقط هو فى تلك الانتخابات ، كان أحمد ماهر عضوا فى هذا المجلس . وشكل سعد زغلول الوزارة الشعبية (٢٨ يناير ـ ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤) وكان محمد سعيد باشا رئيس الوزراء الأسبق وزيرا للمعارف ، وفى ٢٥ أكتوبر خرج محمد سعيد وجاء أحمد ماهر وزيرا للمعارف ، وبعدها بشهر واحد استقالت الوزارة الشعبية على إثر حادث اغتيال السردار « السير لى ستاك » فى ٩ نوفمبر . وتربص الانجليز بالفدائى الكبير عبد الرحمن فهمى وبابن أخيه أحمد ماهر ، وبزميله محمود فهمى النقراشى الذى قبض عليه وأفرج عنه لعدم كفاية الأدلة .

ومهما يكن من أمر فإن عبد الفتاح عنايت ، وهو أحد المتهمين فى حادث اغتيال « السردار » فى كتابه « قصة كفاح » تحدث عن كفاح أعضاء أسرته وعن آخرين ، وعن حركة المقاومة من ١٩٢٢ ـ ١٩٢٥ . وتعرض لأحداث اغتيال كثيرة مثل اغتيال المستر براون مراقب عام وزارة المعارف ، واغتيال المستر كييف وكيل حكمدار القاهرة ، واغتيال المستر بيجوت مدير مالية الجيش الانجليزى ، ثم تحدث عن اغتيال حسن باشا عبد الرازق وإسماعيل بك زهدى من كبار الأحرار الدستوريين ، وعلى كثرة ما أورد من أسماء هذه المجموعة السرية فإنه لم يشر من بعيد أو قريب إلى أحمد ماهر أو النقراشى أو عبد الرحمن فهمى . ونحن نرجح أن أجهزة عبد الرحمن فهمى كانت موجهة من عقلية سياسية تهدف إلى الاستقلال الوطنى ولا تقامر فى عمليات من شأنها أن تضر بالحركة الوطنية وفى تقديرنا أيضا أن مجموعة « عنايت » كانت ضمن مخطط موجه أساسا

لإجهاض ثورة ١٩١٩ ، وموجه إلى قيادتها الوطنية ، لذلك نستطيع أن نقول إن أجهزة عبد الرحمن فهمي كان وراءها سعد زغلول ، وأن مجموعة عنايت وبعده العيسوى كان وراءها الحزب الوطنى بتطرفه المعروف . وبكراهيته للوفد الذى سحب بساط التأييد الشعبى من تحته . .

رحيــل الزعيــم

فى ٢٢ مايو ١٩٢٦ جرت الانتخابات التى فاز فيها الوفد بالأغلبية ، وفاز فيها الدكتور أحمد ماهر أحد نواب الوفد اللامعين وأعلنت البراءة بالنسبة لماهر والنقراشى فى قضايا الاغتيالات السياسية ، وهدد الانجليز باتخاذ إجراءات ضارة بالاستقلال الوليد إذا رأس سعد زغلول الوزارة مرة أخرى فقام بتشكيلها ائتلافية عدلى يكن ، وأعقبتها وزارة عبد الخالق ثروت من ٢٥ ابريل ١٩٢٧ ـ ١٦ مارس ١٩٢٨ ، وفى تلك الفترة ظهرت سيطرة النقراشى على الشباب الوفدى .

وفى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ توفى زعيم الأمة سعد زغلول دون أن يشير إلى من يخلفه . وكان مصطفى النحاس وأحمد ماهر خارج مصر ، وكان محمود فهمى النقراشى ومكرم عبيد داخل مصر . . النقراشى بقدراته التنظيمية الهائلة ، ومكرم بحماسته الدافقة وطاقته البلاغية . . وداخل الوفد صراع خطير . . البعض يرشحون فتح الله بركات ابن أخت الزعيم سعد زغلول ، وظهر اسم أحمد ماهر كرئيس للوفد واسم محمود فهمى النقراشى كسكرتير للوفد ، ثم ظهر على السطح تعديل للاقتراح : النحاس رئيسا والنقراشى سكرتيرا عاما . . وقام مكرم عبيد بنشاطه وبلاغته وقوة إقناعه بحسم الموقف لصالح مصطفى النحاس . وفى ١٤ سبتمبر ١٩٢٧ اجتمع الوفد المصرى واختار مصطفى النحاس رئيسا ، ثم اختار مكرم عبيد سكرتيرا بتأييد واضح من مصطفى النحاس الذى اختار مكرم عبيد وزيرا للمواصلات فى وزارته التى شكلها (١٦ مارس ـ ٢٥ يونيه ١٩٢٨) ولم يكن من أعضائها ماهر أو النقراشى .

وظل الرجلان يكتمان الجراح عشر سنوات كاملة .

المحــاولة العنيفة

وصلنا إلى أن ماهر والنقراشى كانا يطمحان فى رئاسة الوفد وفى سكرتاريته ، أو على الأقل فى سكرتاريته إذا عز منال رئاسة الوفد ، لأن أحقية النحاس واضحة فهو سكرتير الوفد ، وهو عازف عن المناصب . وهما أقدم كفاحا من مكرم عبيد ، وتحملا عبء الكفاح المسلح إذا صح هذا التعبير على أية حال بعد اختيار النحاس ومكرم لمنصبى القيادة فى الوفد ، لم يحاول ماهر أو

النقراشى الخروج على تلك القيادة إلى أن واتت ظروف موضوعية أخرى تساعد على تحقيق الحلم القديم .

كانت معاهدة ١٩٣٦ قد أبرمت ولم تعد هناك أمام الأحزاب قضية وطنية ساخنة يمكن حشد الجماهير حولها ، وهنا ظهر رأى لأحمد ماهر ينادى بعودة الوحدة بين الأحزاب ، ومعنى هذا أن أحمد ماهر بدأ يميل إلى المهادنة مع أحزاب الأقلية السياسية . وفى الوقت ذاته كان الملك أحمد فؤاد قد رحل وجاء ملك شاب ومهادنته لاتعد خروجا على تقاليد العمل الوطنى أمام الجماهير . . ودخل الأزهر وشيخه الإمام مصطفى المراغى الساحة مؤيدين للملك الشاب الجديد مما شكل تحديا جديدا للوفد . إلى جانب ذلك كله وجود على ماهر ، العدو التقليدى للوفد وشقيق أحمد ماهر ، رئيسا للديوان الملكى . هذا بالإضافة إلى أن أحمد ماهر بشخصيته المرنة وحضوره السياسى كان يحتل موقعا هاما هو رئيس مجلس النواب . .

وقدم مصطفى النحاس استقالة وزارته الثالثة (٩ مايو ٣٦ ـ ٣١ يوليو ١٩٣٧) . وشكل وزارته الرابعة فى أول أغسطس ١٩٣٧ وقد خلت من محمد صفوت ، ومحمود فهمى النقراشى ، ومحمود غالب ، وعلى فهمى ، وهى كلها من مجموعة أحمد ماهر .

وانفجر الموقف داخل الوفد ، وفى الصحف ، وفى الجبهة المعادية لوحدة الوفد ، وتبادل الفريقان الاتهامات . وقامت التظاهرات تطالب بوحدة الوفد فى مواجهة المؤامرة الواسعة لإحداث الانقسام الكبير فى الوفد . وتبادل النحاس والنقراشى خطابين شديدى اللهجة فى ٧ ، ١٠ سبتمبر ١٩٣٧ . وأصد الوفد المصرى بالإجماع قرارا فى ١٣ سبتمبر ١٩٣٧ بفصل النقراشى لأنه وضع شروطا لحضوره الاجتماع لمناقشة الموقف . أما الدكتور أحمد ماهر فقد بقى فى الوفد استمرارا لخطة الاستيلاء على الوفد من الداخل ، ولكن الوفد دعا إلى اجتماع تاريخى حضره مصطفى النحاس وأحمد ماهر وقدم كل منهما وجهة نظره وأوراقه ووضح أمام الاجتماع أن أحمد ماهر يسعى إلى رئاسة الوزارة باسم الوفد . ودافع عن حق الملك الدستورى ، وأقسم الجميع على الثقة بمصطفى النحاس وعلى تأييده فيما عدا ثلاثة هم أحمد ماهر ، والدكتور حامد محمود ، وإبراهيم عبد الهادى فصدر قرار بفصلهم فى ٣ يناير ١٩٣٨ وذلك بعد إقالة وزارة النحاس فى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ .

بداية السقوط

ودخل فى روع أحمد ماهر أن القصر سوف يعهد إليه بتأليف الوزارة عقب إقالة مصطفى النحاس فى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ وشكل الوزارة محمد محمود ليعود بيده القوية ويحل البرلمان الوفدى. وفى وزارة محمد محمود الرابعة (٢٤ يونية ١٩٣٨ ـ ١٨ أغسطس ١٩٣٩) يدخل أحمد ماهر ، ومحمود فهمى النقراشى ، ومحمود غالب ، والدكتور حامد محمود الوزارة ليشاركو فى اليد القوية ، وكبت الحريات وضرب الشعب . . وكانت بداية السقوط .

وفى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ وجه الملك فاروق بايعاز من أحمد حسنين إلى مصطفى النحاس إقالة من الوزارة ، وتبين إلى أى مدى وصلت السراى وأحزاب الأقلية السياسية فى الاستهزاء بعقول الشعب. . قال فاروق واقرءوا الرسالة مرتين « لما كنت حريصا على أن تحكم بلادى وزارة ديمقراطية تعمل للوطن وتطبق أحكام الدستور نصا وروحا ، وتسوى بين المصريين جميعا فى الحقوق والواجبات ، وتقوم بتوفير الغذاء والكساء فقد رأينا أن نقيلكم من مناصبكم » . وكلف الملك أحمد ماهر بتشكيل وزارة من السعديين والأحرار الدستوريين ، والحزب الوطنى والكتلة الوفدية . . فشل أحمد ماهر فى أن يكون رئيسا للوفد ، وهاهو رئيس للوزراء بأمر الملك ! وفشل مكرم عبيد أن يكون زعيما للوفد وفشل أيضا أن يكون رئيسا للوزراء . . وبأمر الملك خرج من المعتقل ليعمل وزيرا تحت رئاسة خصمه القديم أحمد ماهر ، وزميلا لعدوه العتيد محمود فهمى النقراشى . تجمعوا بأمر الملك لمحاكمة الوفد والإجهاز عليه وتقسيم الدوائر فيما بينهم وبعد الانتخابات شكل أحمد ماهر وزارته الثانية فى ١٥ فبراير ليواجه مسألة إعلان الحرب على المحور للاشتراك فى مؤتمر سان فرانسيسكو ، ويوم السبت ٢٤ فبراير ١٩٤٥ انتهى أحمد ماهر من إلقاء بيانه أمام مجلس النواب . . ثم بدأ ينتقل من مجلس النواب إلى مجلس الشيوخ . . وفى البهو الفرعونى تقدم منه محمود العيسوى والمحامى فى مكتب عبد الراحمن الرافعى ، وأطلق عليه رصاص مسدسه فأرداه قتيلا . .

الأسانيد :

١ ـ د . حمادة إسماعيل . . رسالة دكتوراه لم تنشر . بعد عن (عبد الرحمن الرافعى) .

٢ ـ د . عبد العظيم رمضان . . تطور الحركة الوطنية فى مصر .

٣ ـ عبد الفتاح عنايت . . قصة كفاح .

٤ ـ فخرى عبد النور . . مذكرات .

٥ ـ محمد التابعى . . أسرار الساسة والسياسة .

٦ ـ محمد السوادى . . أقطاب مصر بين الثورتين .

أحمد نجيب الهلالى



شخصية مثيرة تشدك إلى أن تمعن النظر فى تاريخها . . لا أدرى لماذا هو عندى شبيه لمكرم عبيد؟ كلاهما صعيدى . . ترى عندهما بسهولة رغبة الأخذ بالثأر فى المعارك مع الآخرين . . تصفية الحسابات تفرض نفسها ولو بعد حين . . وفى النهاية أضاع كل منهما رصيده أو الجزء الغالب من رصيده . وجد كل منهما حياته وتاريخه ومجده فى الوفد . وحسب كل منهما أنه واصل لرئاسة حزب أو لرئاسة الوزارة . . وهمس أحمد حسنين ولعب على طموح مكرم عبيد فخرج على الوفد وأسس الكتلة الوفدية حزبا وجريدة ، وبعد سنوات قليلة لم يكن هناك حزب ولم تعد هناك جريدة ، وتنبأ توفيق نسيم بالزعامة والرئاسة فى أذنى نجيب الهلالى فوصل إلى كرسى رئاسة الوزارة مرتين وسعى إلى تكوين حزب يطاول الوفد ، وبعد شهور قليلة لم تكن هناك رئاسة وزارة ولم يظهر له حزب .

مكرم عبيد خطيب ساحر تهتز له المنابر ، وأحمد نجيب الهلالى كاتب بليغ . . وويل للهلالى من لسان مكرم . . وويل لمكرم من « مخالب القط » . وقد لعب القدر بهما أو لعب معهما لعبته الساخرة . . كان مكرم رجل الجماهير وفتاها الفاتن ، وهو فى سبيل أن ينتصر على مصطفى النحاس أو على محمد فؤاد سراج الدين أصبح رجل القصر أو كاد ، ثم أفاق بعد فوات الأوان . واعتذر أحمد نجيب الهلالى عن عدم اشتراكه فى حكومة مصطفى النحاس السابعة (١٢ يناير ١٩٥٠) لأنه كما قال أقسم ألا يدخل قصر عابدين راكبا أو راجلا ، وذلك بسبب الإهانة التى لحقت بحكومته فى خطاب الإقالة ١٩٤٤ ! . . واعتذر أيضا عن عدم تعيينه عضوا بمجلس الشيوخ (يونيه ١٩٥٠) لأنه يكون مضطرا فى هذه الحالة أن يدخل قصر عابدين « راكبا وراجلا » ليشكر الملك على مرسوم تعيينه . . ثم هو فى سبيل أن ينتقم من الوفد ، وأن يصفى حساباته مع

مصطفى النحاس ، وأن يثأر من محمد فؤاد سراج الدين دخل قصر عابدين راكبا وراجلا لينسق فى تأسيس حزب جديد ، وليرأس الوزارة مرتين فى أخريات أيام القصر ، ويأمر بتحديد إقامة محمد فؤاد سراج الدين سكرتير عام الوفد وعبد الفتاح حسن وزير الدولة فى ١٨ مارس ١٩٥٢ بتوجيهات من السفارة البريطانية للخارجية المصرية لم ينفذها على ماهر وتم تنفيذها فى وزارة الهلالى الأولى (٢ مارس ـ ٢ يوليو ١٩٥٢) .

وتكمل المأساة فصولها عندما يدلى الرئيس السابق أحمد نجيب الهلالى باشا بشهادته أمام محكمة البغدادى وأنور السادات وحسن إبراهيم أطلق عليها « محكمة الثورة » فى الجلسة الثالثة والجزء الأول من الجلسة الرابعة « ١٣ ديسمبر ١٩٥٣ » ، وعندما يدلى رئيس حزب الكتلة الوفدية والوزير السابق مكرم عبيد باشا أمام المحكمة ذاتها بشهادته . . وكان ذلك أثناء محاكمة فؤاد سراج الدين التى بدأت فى ٩ ديسمبر ١٩٥٣ وانتهت فى مارس ١٩٥٤ . وقد امتدت شهادة الهلالى لست ساعات وقريبا منها شهادة مكرم ، وكل منهما استخدم ذاكرته وبلاغته ورغبته فى الانتقام من الوفد ومصطفى النحاس وفؤاد سراج الدين والسيدة زينب الوكيل . والذى يعرف نفسية أهل الجنوب يدرك دون كبير مشقة بصمات الرغبة فى الثأر على شهادة الرجلين .

القــدرة والنبوءة

وكان القدر أكثر سخرية مع أحمد نجيب الهلالى . ففى صيف عام ١٩٣٤ شدد الوفد حملته من أجل إلغاء دستور ١٩٣٠ (دستور صدقى باشا) ومن أجل إعادة العمل بدستور ١٩٢٣ . ورد الملك المريض بتعيين أحمد زيور رئيسا للديوان الملكى . واستقالت وزارة عبد الفتاح يحيى فى ٦ نوفمبر وجاءت وزارة توفيق نسيم (١٤ نوفمبر ١٩٣٤ ـ ٣٠ يناير ١٩٣٦) وتولى فيها أحمد نجيب الهلالى وزارة المعارف العمومية ، والرجل له ثقافته وله بصماته على وزارة المعارف . كان شعلة من النشاط والحركة . . زار مدرسة « النهضة » بحى الظاهر بالقاهرة ، وكان فريق التمثيل يؤدى أحد أعماله ويقوم بدور يوليوس قيصر طالب طويل نحيل أسمر أنفه بارز ، طالب أصله من الصعيد من « بنى مر » بلديات الوزير من أسيوط ، الوزير يهنئه ويتنبأ له بمستقبل بّاهر . ولم يكن الوزير يدرى أن هذا الدور سوف يكون فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، فى اليوم الثانى لوزارة الهلالى التى استمرت من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى ٢٤ يوليو ١٩٥٢ ، ويكون دور الطالب جمال عبد الناصر حسين وصحبه من الضباط الأحرار هو تنحية أحمد نجيب الهلالى ، وإسناد رئاسة الوزارة إلى على ماهر .

كان الضباط الأحرار قد استولوا على السلطة فجر يوم الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وما أن أشرق

الصباح حتى تلقى اللواء محمد نجيب مكالمة تليفونية من أحمد نجيب الهلالى رئيس الوزراء يدعوه فيها للذهاب إلى الإسكندرية . وكان البيان الأول للثورة قد أذيع باسم لواء أركان حرب محمد نجيب ، ورفض محمد نجيب الذهاب إلى الإسكندرية ، وقدم الهلالى استقالة وزارته يوم ٢٣ يوليو وقد صدر الأمر الملكى بقبول الاستقالة يوم ٢٤ يوليو ، وفى اليوم نفسه صدر الأمر الملكى إلى على ماهر بتشكيل وزارته الرابعة .

ونظرة إلى وزارة الهلالى الثانية والأخيرة ندرك بوضوح أن الهدف الرئيسى لها كان الاستمرار فى تنفيذ منهج الوزارة الأولى فى ضرب الوفد وتطويق التذمر فى القوات المسلحة . . بأيدى عدد من الوزراء رجال القصر والمعادين للوفد أمثال طه السباعى ، محمد زكى عبد المتعال ، أحمد مرتضى المراغى ، محمد فريد زعلوك ، إسماعيل شيرين .

الوفـد «طريقـا» للوصول

عندما اختار توفيق نسيم فى وزارة « ١٤ نوفمبر ١٩٣٤ - ٣٠ يناير ١٩٣٦» أحمد نجيب الهلالى وزيرا للمعارف العمومية عرف - أى الهلالى - بالكفاءة والنزاهة والاستقامة والذكاء فتوقع له توفيق نسيم مستقبلا باهرا فى السياسة المصرية . والرجل ذكى . . فيلزم لتحقيق هذا المستقبل حزب قادر على أن يصل به إلى تحقيق أمنياته . . اتجه إلى حزب الأغلبية الشعبية . . إلى «الوفد» . وإن هى إلا فترة قصيرة ، وبعد انشقاق على ماهر والنقراشى انتخب الوفد فى أخريات عام ١٩٣٧ خمسة عشر عضوا جديدا هم : محمد سليمان الوكيل ، ومحمد المغازى عبد ربه ، وبشرى حنا ، ومحمد الحفنى الطرزى ، وكمال عليا ، وفهمى ويصا ، وسيد بهنس ، ومحمد صبرى أبوعلم ، وعبد الفتاح الطويل ، ويوسف الجندى ، وعلى زكى العرابى ، وعلى حسين وأحمد نجيب الهلالى ، ومحمد محمود خليل ، وعثمان محرم .

وتولى « الرجل» وزارة المعارف ثلاث مرات فى عهد حكومات الوفد : الأولى من ١٧ نوفمبر ١٩٣٧ - ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ فى وزارة مصطفى النحاس الرابعة التى انتهت بإقالتها . والثانية من ٦ فبراير ١٩٤٢ - ٢٦ مايو ١٩٤٢ فى وزارة مصطفى النحاس الخامسة . والثالثة من ٢٦ مايو ١٩٤٢ - ٨ أكتوبر ١٩٤٤ فى وزارة مصطفى النحاس السادسة . وفى هذه الوزارات الثلاث كان أحمد نجيب الهلالى ملتزما بخط الوفد ، معاديا للقصر ، حريصا على وحدة الحزب التنظيمية . كتب مقالاته المشهورة فى جريدة « المصرى » تحت عنوان « مخالب القط » منذ عام ١٩٣٨ وهى مقالات بأسلوب بليغ تأثرت بها الدوائر السياسية والاجتماعية فى مصر ، وكلها تعبر عن

الاتجاهات الرئيسية للوفد . وتصدى فى هذه المقالات للذين خرجوا على الوفد أمثال عباس محمود العقاد .

وفى جلسة ١٩ أبريل ١٩٤٣ استخدم أحمد نجيب الهلالى مخالب القط فى المناقشات الخاصة بالكتاب الأسود ، واستهل كلامه بقوله : « زعم المفترى فى كتابه الكاذب » . وفى جلسة ١٩ مايو ١٩٤٣ قال الهلالى باشا وزير المعارف فى بيان طويل إن فى ذمة أحمد حسنين مبلغ ٥٠٣ جنيهات ثمن أثاث منزلى منذ عام ١٩٢٩ وأنه لم يقم بسداده بالرغم من مطالبته به مرارا .

وهو هنا يحاول أن يبين للرأى العام صفات أحمد حسنين رئيس الديوان الملكى الذى وقف خلف مكرم عبيد وخلف جلال الدين الحمامصى وخلف الكتاب الأسود ، واستخدم خزائن القصر فى حفظ « العريضة » حتى لايصادرها بوليس حكومة الوفد وحتى تمكن مكرم عبيد من تقديمها إلى الملك فاروق وتوزيعها فى صورة « الكتاب الأسود » .

وقد ظل الهلالى طوال الفترة منذ أن انضم إلى الوفد حتى إقالة الوزارة الوفدية فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ يظهر من المواقف التى جعلت منه وفديا ملتزما .

إلا أن الوضع لم يسر هكذا . ففى عام ١٩٤٤ كان محاميا لخصم أحمد عبود باشا فى وقت كان فيه عبود باشا صديقا للوفد . وقد تعرض أحد كبار الوفديين (أحمد الوكيل) لمشكلة قضائية ويرفض الهلالى الدفاع فى تلك القضية ، ويتقدم فؤاد سراج الدين المحامى للدفاع وتقضى المحكمة بالبراءة مما كان له وقع طيب فى الدوائر الوفدية ، ولدى رئيس الوفد مصطفى النحاس . ويتعرض النحاس باشا لقضية أخرى ويحجم الهلالى عن الدفاع فى تلك القضية ، ويتقدم إبراهيم فرج المحامى للدفاع عن زعيم الوفد وتقضى المحكمة بسلامة موقف النحاس باشا وتحكم له بكل طلباته . وعلى الرغم من هذا كله ظل « الرجل طيب القلب» مصطفى النحاس يقرب منه أحمد نجيب الهلالى ويجعل منه موضع مشورته ، وهكذا أعضاء الوفد كافة . وجاء فى شهادته أمام «محكمة الثورة» قال : « عقب وفاة صبرى أبو علم كنا فى سرادق العزاء يوم الوفاة ، وإحنا منصرفين الرئيس السابق مصطفى النحاس أخذنى أنا وعبد الفتاح الطويل على جنب « يانجيب إحنا عاوزين نعين سكرتير الوفد » وفى الشهادة ذاتها قال الهلالى : « لما خرج مكرم عبيد جانى صبرى أبو علم وقال لى لازم تبقى سكرتير الوفد قلت له ما انفعش» . وفى موضع آخر من شهادته يقول : « وسنة ١٩٤٨ كنت أنا فى الإسكندرية وذات مساء كلمنى النحاس بالتليفون « يانجيب . عبد السلام مريض وطالع له دمامل فى جسمه ومش حايقدر يلبس البدلة لبضعة شهور وعايزين بكره اجتماع فى الوفد » ، قلت له ما أقدرش ومع ذلك المسألة دايره بين فؤاد وعبد السلام ، وعبد السلام مادام عيان ادوها لفؤاد » .

وعلى الرغم من أن الهلالى فى تلك الفترة كان يتخذ من المواقف مايبعده عن الوفد ، فإن ما جاء بشهادته يعنى أن رئيس الوفد وأعضاء الوفد كانوا يدعونه للاجتماعات ويشاورونه فى الأمر : فمحمد صبرى أبو علم ، عقب خروج مكرم عبيد ، كان يؤثر الهلالى على نفسه ورشحه لمنصب سكرتير عام الوفد ، وعقب وفاة صبرى أبو علم بادر مصطفى النحاس بدعوته للاجتماع . وبمناسبة مرض عبد السلام جمعه اتصل النحاس باشا بالهلالى باشا يدعوه للاجتماع واعتذر هو عن عدم الحضور ورشح فؤاد سراج الدين .

الوزارة السابعة

وفى مباحثات تشكيل وزارة مصطفى النحاس السابعة (١٢ يناير ١٩٥٠) عرض مصطفى النحاس على أحمد نجيب الهلالى وزارة المعارف العمومية ، واعتذر الهلالى عن عدم الاشتراك فى الوزارة لأنه أقسم ألا يدخل قصر عابدين بسبب خطاب الملك بإقالة حكومة النحاس باشا فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ ورشح الدكتور طه حسين . وأصر النحاس باشا على التمسك بالدكتور طه رغم معارضة الملك فاروق ، كما أن الوفد أشرك فى وزارته الدكتور حامد زكى الذى رشحه الهلالى باشا ، وأشرك الدكتور زكى عبد المتعال تلميذ الهلالى وزيرا للمالية على اعتبار أن إشراكه يرضى الهلالى باشا . ولكن زكى عبد المتعال سرعان ما قام بدور تخريبى داخل الوفد ، فأخرجه الوفد من وزارته فى نوفمبر ١٩٥٠ . وتأكد أن الهلالى أستاذ الدكتور حامد زكى ، وزكى عبد المتعال ، وأن الأخير هو رجل القصر داخل وزارة الوفد الأخيرة . والذى يطالع شهادة محمد زكى عبد المتعال أمام «محكمة الثورة » أثناء محاكمة فؤاد سراج الدين يقف على مدى الكراهية الدفينة لدى الدكتور عبد المتعال ضد الوفد والنحاس باشا وفؤاد سراج الدين .

وفى وزارته الأولى (من أول مارس ١٩٥٢ ـ ٢ يوليو ١٩٥٢) أشرك الهلالى باشا معه فى الوزارة الدكتور محمد زكى عبد المتعال وأشركه معه أيضا فى وزارته الثانية (٢٢ ـ ٢٤ يوليو ١٩٥٢) .

لم يكن الوفد ولا رئيسه مصطفى النحاس ولا سكرتيره العام فؤاد سراج الدين ، ولا أعضاء الوفد يضمرون العداء لنجيب الهلالى ، بل إن اللجنة التى شكلت لإعداد خطاب العرش فى وزارة الوفد الأخيرة (١٢ يناير ١٩٥٠) كانت من أحمد نجيب الهلالى رغم عدم اشتراكه فى الوزارة ، ومن إبراهيم فرج ، والدكتور محمد صلاح الدين ، والدكتور طه حسين ، وعبد الفتاح الطويل . وعقدت اللجنة اجتماعاتها بمنزل الهلالى وبمشاركته وذلك تنفيذا لتعليمات مصطفى النحاس .

كان الوفد وقياداته مبقين إذن على أحمد نجيب الهلالى . واستنادا إلى كتاب « فاروق ملكا » لأحمد بهاء الدين فإن الهلالى عام ١٩٥١ قام باتصالات مع رجال القصر ، ومع بعض العناصر

المسئولة الإنجليزية والأمريكية . وفى أواخر عام ١٩٥١ ركز هجومه على حكومة الوفد ، وعلى السكرتير العام للوفد فتقرر فصله من عضوية الوفد فى ٧ نوفمبر ١٩٥١ .

الطريق إلى السلطة

كشف أحمد نجيب الهلالى فى أواخر ديسمبر ١٩٥١ عداءه لحكومة الوفد ، وأصبح القصر والإنجليز والأمريكان يرتبون أوراقهم تمهيدا لضرب الحركة الوطنية الشعبية المتصاعدة ضد الملك وضد الاحتلال الانجليزى وضد السيطرة الأمريكية الزاحفة . وأصبح أمام هذه الجهات مجتمعة عناصر بذاتها يحصرها المراقبون فى على ماهر وحافظ عفيفى وأحمد نجيب الهلالى .

وأحمد نجيب الهلالى ينتمى إلى أسرة عريقة بمدينة أسيوط التى ولد بها فى أكتوبر ١٨٩١ . وحصل على شهادة التعليم الثانوى من المدرسة التوفيقية بالقاهرة ١٩٠٨ وتخرج فى الحقوق ١٩١٢ . وبدأحياته محاميا ثم وكيلا للنائب العام ، وانتقل من النيابة إلى قسم القضايا بالخاصة الملكية وعين للتدريس فى كلية الحقوق عام ١٩٢٣ . وبعد أن عمل مستشارا اختير سكرتيرا عاما لوزارة المعارف العمومية حتى اختاره توفيق نسيم وزيرا للمعارف العمومية (١٤ نوفمبر ١٩٣٥) وهى الوزارة التى شغلها وأجاد العمل بها مرات ثلاث فى حكومات الوفد بعد ذلك .

واتجهت إليه الأنظار عقب حريق القاهرة ليتولى رئاسة الوزارة ، ولكنه ترك الفرصة لعلى ماهر الذى تولاها فى ٢٧ يناير ١٩٥٢ واستقال أول مارس ١٩٥٢ . وتولى أحمد نجيب الهلالى رئاسة الوزارة ، وحدد إقامة فؤاد سراج الدين وعبد الفتاح حسن فى ١٨ مارس ١٩٥٢ ، واعتقل عددا من شباب الوفد والشباب الوطنى وشكل لجانا للتطهير ، ورفع شعار محاربة الفساد ، ووجهت الحكومة رأس الرمح ضد الوفد وخضعت لإرادة الملك ، وهادنت الأحزاب الموالية للقصر ، ودفعت بالقضية الوطنية إلى الخلف ونشط الهلالى لتكوين حزب جديد من العناصر الوفدية التى لها ملاحظات على حكومة الوفد الأخيرة ، ومن جمعية الفلاح المعروفة بارتباطاتها الأمريكية ، ومن العناصر المستقلة المقبولة من الجماهير . وفى سبيل ذلك أقام الهلالى علاقات طيبة مع جماعة الإخوان المسلمين . وتصدى « الوفد » للهلالى الذى استصدر من الملك مرسوما بحل مجلس النواب فى ٢٤ مارس ١٩٥٢ والدعوة لانتخابات جديدة فى ١٨ مايو . وتحدى « الوفد » هذا الإجراء بإعلان قوائم مرشحيه فى كل الدوائر . وارتبكت خطى الهلالى وقدم استقالته فى ٢ يوليو ، وعاد إلى رئاسة الوزارة مرة أخرى ليوم أو بعض يوم فى ٢٢ يوليو ١٩٥٢ .

وفى ٢٤ يوليو تبدد حلم رئاسة الوزارة على يدى الطالب الطويل النحيل الأسمر بلدياته من

«بنى مر » وكان قد تبدد من قبل حلم الحزب الجديد . وفى ١٣ ديسمبر ١٩٥٣ كان حاجب محكمة « الثورة » يصيح عند دخول قائد الجناح عبد اللطيف البغدادى « محكمة !» ، ويدخل أحمد نجيب الهلالى شاهدا أمام تلك المحكمة لينفى عن نفسه الاتهام بأنه اعتقل فؤاد سراج الدين وعبد الفتاح حسن تنفيذا لتعليمات السفارة البريطانية للخارجية المصرية ، فيواجهه عبد الفتاح حسن بصورة خطاب ويوضح أن على ماهر لم ينفذ تلك التعليمات وتم التنفيذ فى عهد الهلالى .

استمرت محاكمة « الوفد » فى شخص سكرتيره العام محمد فؤاد سراج الدين من ٩ ديسمبر ١٩٥٣ ـ مارس ١٩٥٤ . واستمعت المحكمة لشهادة زكى عبد المتعال ، وأحمد كامل ، وعلى علوبة ، ومكرم عبيد ، وعبد السلام الشاذلى ، ورشدى نعمان وعلى ماهر ، وعبد الفتاح الطويل، ومحمد على رشدى ، وأحمد نجيب الهلالى الذى توفى فى ديسمبر ١٩٥٨ ، بعد رحيل السيدة زوجته بأسبوعين . وأمام المحكمة والشهود محمد فؤاد سراج الدين بذاكرة قوية تكشف مثالب الشهود ، وإلى جواره عبد الفتاح حسن يرد الاعتداءات بوثيقة تلو الوثيقة . وهذا تاريخ لاحيلة لأحد فيه .

الأسانيد :

١ ـ إبراهيم فرج . . حديث شخصى ١٥/ ١٠/ ١٩٨٨ .
٢ ـ أحمد بهاء الدين . . فاروق ملكا .
٣ ـ صلاح عيسى . . محاكمة فؤاد سراج الدين .
٤ ـ طارق البشرى . . الحركة السياسية فى مصر .
٥ ـ فؤاد أكرم . . النظارات والوزارات .
٦ ـ د . يونان لبيب رزق . . الوفد والكتاب الأسود .

إسماعيل صدقى



تاريخ الرجل يشدنى فهو ملىء ومتعرج ، أذكى سياسى عرفته مصر فى النصف الأول من القرن العشرين . . ليته انحاز إلى الشعب ، لكان أعظم الساسة الذين عرفتهم مصر ، لكن أحداث التاريخ لاتقع بالتمنى ولا بالمصادفة . ومن يصدق أن الرجل الذى كتب أول مذكرة باللغة الفرنسية عن مطالب مصر بعد الحرب العالمية الأولى ويقدمها إلى الوفد المصرى هو أول من يخرج على هذا الوفد ، أو أول من يخرجه الوفد . من يصدق أن الرجل الذى أشار إلى أهمية الصناعة إلى جانب الزراعة يقع فى خصومة دامية مع العمال والفلاحين . ويتهمه هؤلاء بأنه انحاز إلى كبار رجال المال وكبار الاقطاعيين . من يصدق أن الذى انحاز إلى كبار رجال المال وإلى كبار الإقطاعيين يقف سنة ١٩٤٨ فى خندق واحد مع الشيوعيين العرب ضد دخول الجيوش العربية فى حرب فلسطين . . من يصدق! ولكن قبل أن يصدق القارئ أو يكذب أحذره من نفسى ومن قلمى . . فأنا واحد من جيل نشأ فكريا وعاطفيا على محاربة الرجل والتشكيك فى كل ما فعل . . فلينظر القارئ إلى ما كتبت نظرة متأنية ، وعلى أية حال سوف أعطى الرجل الفرصة ليقدم لنا نفسه .

«ولدت فى ١٥ يونيو سنة ١٨٧٥ بالإسكندرية فى عهد الخديو إسماعيل ، وكان إسماعيل صديق باشا المفتش وزير الخديو إسماعيل وقت ولادتى فى أوج مجده وسلطانه ، فسمانى والدى باسمه كما هى عادة الناس حين يسمون أبناءهم بأسماء العظماء والوزراء المشهورين ، وهو اسم يجمع بين اسمى الخديو ، ووزيره المعروف .

وحدث بعد ذلك بقليل أن غضب الخديوى على وزيره فخشى والدى أن يكون فى اسمى وقتئذ ما يشعر بولائه للوزير المنكوب فأسرع بتحويره من إسماعيل صديق إلى إسماعيل صدقى .

كان والدى أحمد شكرى باشا من كبار رجال الحكومة فى عهد الخديو إسماعيل ، والخديو توفيق . وكانت والدتى فاطمة هانم كريمة محمد سيد أحمد باشا رئيس ديوان الأمير محمد سعيد باشا بن الأمير محمد على باشا الكبير . والدى من بلدة « الغريب » ، التابعة لمركز زفتى ، وقد تقلد منصب مدير أسيوط ، وأحيل إلى المعاش وهو وكيل للداخلية . وأدركته الوفاة سنة ١٨٩٥ » .

نقفل القوس على هذا الجزء من مذكرات إسماعيل صدقى لنتأمل فيما ورد فيه . . فذكاء أحمد باشا شكرى والد إسماعيل صدقى من النوع البسيط والسريع ، فعندما أراد أن يغير اسم ابنه غير حرفا واحدا أو حرفين : « صديق » تحولت إلى « صدقى » . وهذا يذكرنى بما رواه الأستاذ العقاد عن ذكاء إسماعيل صدقى باشا عندما كان وزيرا للداخلية فى الثلاثينات واصطدم البوليس بالمتظاهرين مستخدما خراطيم المياه . . حدث أن أستولى المتظاهرون على خراطيم المياه وسلطوها ضد البوليس ، وفكر رئيس البوليس أن يطلق الرصاص ضد المتظاهرين ليسترد خراطيم المياه . . وكان من الضرورى أن يستأذن وزير الداخلية الذى كان هو صدقى باشا نفسه ، وسأل صدقى باشا قائد البوليس لماذا يريد أن يطلق الرّصاص ، فقال له كى يسترد البوليس خراطيم المياه يروى الأستاذ العقاد أن إسماعيل صدقى باشا قال لقائد البوليس بهدوء : اقفل المحبس . وقفل هو التليفون .

ووالد فاطمة هانم والدة صدقى باشا وهو محمد سيد أحمد باشا يوحى اسمه بدرجة من القرابة للكاتب محمد سيد أحمد المحرر بجريدة الأهرام ، ومدير تحرير جريدة « الأهالى » ، وقد أكد لى الزميل الكاتب الكبير كامل زهيرى صلة القرابة هذه . ومن الطريف أن إسماعيل صديق الذى اشتهر بالمفتش وتسمى صدقى باشا باسمه قبل أن تحذف « الياء » من « صديق» وتضاف آخر الكلمة ، من الطريف أنه كان وزيرا للمالية الخديو إسماعيل . . وقد روى مؤرخنا الكبير عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « عصر إسماعيل ـ الجزء الثانى » مأساة إسماعيل صديق الذى أمر الخديو إسماعيل بقتله حتى لايكشف أسرار العجز فى الميزانية من جراء تصرفات الخديو ، وقيل إنه اغتيل بطريقة معينة فى إحدى السفن التى أبحرت جنوبا إلى السودان فى نوفمبر ١٨٧٦ ، ولا ندرى أيضا أثر نهاية إسماعيل صديق على تفكير إسماعيل صدقى سميه والذى وقف على قصته بالتأكيد من أسرته .

الوزارة لأول مرة

. ونمضى مع إسماعيل صدقى فى مذكراته . . « دخلت مدرسة الحقوق ، وكان من زملائى محمد توفيق نسيم و أحمد لطفى السيد وكنت وتوفيق نسيم نتبادل الأولية فى الامتحانات ، وتخرجت من مدرسة الحقوق سنة ١٨٩٤ وعينت فى وظيفة كاتب نيابة بمرتب خمسة جنيهات ، وكان صديقى وزميلى عبد الخالق ثروت قد عين سكرتيراً للمستشار القضائى بمرتب خمسة عشر جنيها .

وفى ليلة وفاة رئيس النظار ـ يقصد بطرس باشا غالى الذى اغتيل فى ٢١ فبراير سنة ١٩١٠ ـ كنت مع محمد سعيد باشا فى منزله فقال لى . . والله طارت الوزارة يا إسماعيل ، فقلت له . . بالعكس فإنى أتنبأ بأنك رئيس النظار المقبل ، وقد حدث فى اليوم التالى ما تنبأت به فعهد إليه الخديو عباس بتأليف الوزارة الجديدة ، وعينت أنا ـ الحديث لأسماعيل صدقى ـ وكيلا للداخلية وأنعم على بالباشوية . وفى ٥ فبراير سنة ١٩١٤ سقطت وزارة محمد سعيد باشا وتولى النظارة بعده حسين رشدى باشا فاختارنى ناظرا للزراعة » قفلنا القوس لنقول إن هذه الوزارة كانت من ٥ إبريل سنة ١٩١٤ إلى ١٩ ديسمبر ١٩١٤ ، وكان فيها إسماعيل صدقى وزيرا للزراعة فى وزارة حسين رشدى باشا الذى رأس الوزارة مرة أخرى من ١٩ ديسمبر ١٩١٤ إلى ٢٠ مايو ١٩١٥ واختار إسماعيل صدقى هذه المرة وزيرا للأوقاف . ونصل إلى الجانب الاقتصادى عند إسماعيل صدقى ونركز فيه على دوره كوزير للمالية .

« وزيرا » للمـالية

نبدأ بالبيانات التاريخية ، وبعدها نتعرض لدور الرجل داخل تحليل للوضعية الاقتصادية . تولى إسماعيل صدقى وزارة المالية للمرة الأولى فى وزارة عدلى يكن من ١٧ مارس ١٩٢١ إلى ٢٤ ديسمبر ١٩٢١ ، والمرة الثانية فى وزارة عبد الخالق ثروت باشا من أول مارس ١٩٢٢ إلى ٢٩ نوفمبر ١٩٢٢ . ونلاحظ ان عدلى يكن كان المنافس فى تلك الفترة لسعد زغلول زعيم الوفد . . وقد شكل عدلى هذه الوزارة بعد الانقسام الواضح الذى حدث فى « الوفد » فى أوربا ، ولعل اختيار عدلى لاسماعيل صدقى وزيرا فى وزارته له دلالته إذ إنه أول من خرج أو أخرج من الوفد . ولهذا قصة سوف نأتى إليها فى حينها . وأما عبد الخالق ثروت فقد كان صديقا وزميلا له . وأما المرة الثالثة فقد كانت من ١٩ يونيو ١٩٣٠ إلى ٤ يناير ١٩٣٣ حين جمع إسماعيل صدقى بين رياسة الوزارة ووزارة المالية ، والمرة الرابعة فى عهد رياسته الثانية للوزارة من ٤ يناير ١٩٣٣ إلى ٢٧ سبتمبر ١٩٣٣ والتى استمر فيها صدقى رئيسا للوزارة ووزيرا للمالية . والمرة الخامسة وزيرا للمالية

فى عهد وزارة محمد محمود باشا من ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ إلى ٢٧ ابريل ١٩٣٨ ، والمرة السادسة وزيرا للمالية فى عهد وزارة محمد محمود باشا أيضا من ٢٧ ابريل ١٩٣٨ إلى ١٨ مايو ١٩٣٨ . وفى عهد رياسة صدقى باشا للوزارة للمرة الثالثة فى ١٦ فبراير ١٩٤٦ ظل وزيرا للمالية للمرة السابعة . ولهذه الوزارة حديث وحديث طويل عن صدقى باشا رئيسا للوزارة ووزيرا للمالية ووزيرا للداخلية .

هذه هى البيانات لمن تهمه البيانات ، أى أن الرجل كان له دور فى اقتصاد مصر .

الوجه الاقتصادى

قال عنه اللورد كيلرن السفير البريطانى « إنه السياسى المصرى الوحيد الذى إذا ترك العمل السياسى عاد للعمل فى المجال الاقتصادى » ، وهذه حقيقة إذ إنه اشترك فى عضوية الشركات التالية : الشركة الإنجليزية البلجيكية ـ شركة الغزل الأهلية ـ شركة الملح والصودا ـ الشركة العقارية المصرية ـ شركة قناة السويس ـ شركة وادى كوم أمبو ـ شركة الأشغال والمبانى ـ شركة سكة حديد الفيوم . . وهذه الشركات كلها كانت تشترك فيها رؤوس أموال أجنبية . ويلاحظ أن رؤوس الأموال الأجنبية لم توجه إلى الصناعة بصفة أساسية ، وإنما اتجهت فى الغالب إلى المشروعات ذات المنفعة العامة كالنور والمياه والترام والسكك الحديدية .

وعلى الرغم من أن الاحتلال لم يسبب أضرارا لكبار ملاك الأراضى ، فإن مشروعات الاحتلال التى كانت تهدف إلى جعل مصر بلدا زراعيا فقط قد عادت بالثراء على كبار ملاك الأرض . . إلا أن الحرب العالمية الثانية ألقت بأفكار جديدة حول أهمية الصناعة والتجارة إلى جانب الزراعة . وتألفت فى أثناء الحرب « لجنة التجارة والصناعة » كان من أعضائها إسماعيل صدقى وطلعت حرب بالإضافة إلى عدد من المصريين والأجانب ، ووضعت هذه اللجنة تقريرا جاء فيه . . « إن مصر فى حاجة إلى قيام الصناعة إلى جانب الزراعة » ، ثم أصبح إسماعيل صدقى رئيسا لهذه اللجنة وقد اختاره لها حسين رشدى باشا ، ثم أصبح بعد ذلك رئيسا للمجلس الاقتصادى وجمعية الصناعات بالقطر المصرى . وهذه الأشكال هى التى تطورت فيما بعد إلى « اتحاد الصناعات المصرية » الذى تولى صدقى باشا رئاسته ، وبعد فترة تخلى عن الرئاسة الفعلية وجاء حافظ عفيفى رئيسا واكتفى صدقى بأن يكون رئيسا فخريا .

ماذا يعنى الاستقلال ؟

وإذا عدنا إلى ثورة مصر القومية بقيادة الوفد ، عرفنا أن إسماعيل صدقى أول من خرج ، وبعده حدث الانقسام الكبير الذى وقف خلفه عدلى يكن ، وكان رجاله هم عبد العزيز فهمى وأحمد لطفى السيد ومحمد محمود ومحمد على علوبة . . إلى آخر هذه القائمة ، وبقى سعد زغلول على رأس أقلية من الوفد . وفيما يتعلق بخروج إسماعيل صدقى . . هل خرج ؟ أم فصل ؟ هناك روايتان : الأولى تقول إن « الوفد » عندما كان فى أوروبا قدم أحمد لطفى السيد تقريرا إلى الوفد يقول فيه إن إسماعيل صدقى يعارض اتجاه الوفد فى المفاوضات ، وأنه يتصل بالانجليز للحصول على مطالب أقل مما يرى الوفد . وعلى هذا فصل إسماعيل صدقى من الوفد فى يوليو ١٩١٩ وعاد إلى مصر .

والرواية الثانية هى لاسماعيل صدقى نفسه يقول : « مكثت فى باريس أعمل فى الوفد المصرى برياسة سعد باشا ، إلى أن وجدت آرائى فى تصريف الأمور تخالف آراء بعض أعضائه ، لأننى كنت ومازلت لا أميل إلى تحكيم العواطف بل إن خطتى على الدوام تتجه نحو الواقع المفيد وترمى إلى الوصول إلى النتائج ، فانفصلت عن الوفد ، وعدت إلى مصر وتبقى بعض أعضائه وقيل إننى فصلت من الوفد ولم استقل ، ونسبوا إلىّ أننى ذهبت إلى لندن واتفقت مع بعض الساسة الانجليز، والواقع أن ذلك لم يحصل » . المهم أنه أول من ترك الوفد وبعده تركته مجموعة أخرى هى التى شكلت حزب الأحرار الدستوريين ، وبقى الوفد بقيادة سعد .

والآن ماذا يعنى الاستقلال بالنسبة للفرقاء الثلاثة ؟ بالنسبة إلى الشعب وفيه الفقراء ومن أسموهم « الرعاع » كان الاستقلال يعنى الدستور والحريات ووضعا اجتماعيا أفضل . وهؤلاء دون تردد اختاروا سعد زغلول قائدا لهم . وبالنسبة لكبار ملاك الأرض كان الاستقلال يعنى قدرا من الحكم الذاتى ، وكان يمثل هذا الفريق « حزب الأحرار الدستوريين » . وأما الجناح الرأسمالى بأقسامه المختلفة فكان يرى فى هذا القدر من الاستقلال أو الحكم الذاتى فرصة لإنشاء صناعات بسيطة وفقا للتراكم المالى الذى كان موجودا لديهم . وليس معنى هذا التقسيم أنه جامع مانع . . كلا ليست هناك فواصل قاطعة بين هذه الطبقات والفئات . . هناك قدر من التداخل بينها ولكننا نتحدث عن الاتجاه الغالب لهذه الأقسام . فالجناح الرأسمالى عبر عنه إسماعيل صدقى وفى تطور الموقف أصبح الجناح الرأسمالى الوطنى يميل أكثر إلى الوفد ، وبقى رأس المال الاحتكارى المرتبط برأس المال الأجنبى يعبر عنه اسماعيل صدقى .

التوجهات الاقتصادية

ونحن لانفرق بالطبع بين المواقف السياسية والمواقف الاقتصادية ، والتلاحم بينهما واضح جدا عند اسماعيل صدقى ، ولكن مقتضيات البحث تجعلنا نفرد لكل جانب حيزا . وسوف نتناول هنا عهدين لاسماعيل صدقى باشا كان فيهما رئيسا للوزراء .

* العهد الأول الذى اشتمل على وزارتين الأولى من (١٩ يونيو ١٩٣٠ ـ إلى ٤ يناير ١٩٣٣) والثانية من (٤ يناير ١٩٣٣ ـ ٢٧ سبتمبر ١٩٣٣) . وفى بداية هذا العهد بلغت الأزمة الاقتصادية ذروتها وهبطت أسعار القطن وحدث خراب شامل لصغار المزارعين ومتوسطى المزارعين ، وكان الوفد فى وزارته التى أقيلت قد أعد مشروعا لإنشاء بنك التسليف الزراعى لحماية صغار المزارعين من أخطار الأزمة ، ولكن صدقى جعل رأسماله نصف مليون جنيه بدلا من ٢ مليون جنيه كانت قد رصدتها حكومة الوفد المقالة . وحول صدقى البنك لخدمة بنوك الرهن العقارى ، وتسهيلا لعمل البنوك أصدر قانونا تدفع الخزانة بموجبه المبالغ التى للبنوك فى ذمة الفلاحين ، ثم أصدر أوامره إلى الموظفين بتحصيل الضرائب والديون من الفلاحين بمنتهى القسوة، وأجبر الفلاحين على بيع المواشى والمحاصيل بأبخس الأثمان حتى يسددوا ما عليهم من ضرائب وديون . وهنا تظهر « السلطة » فى عهد صدقى لخدمة مواقفه الاقتصادية ، وحطم عمال العنابر صناديق الانتخابات الزائفة واصطدمت فى عراك دام ثلاثة أيام ، وأغلق صدقى العنابر ثلاثة أشهر وفصل المئات من العمال ثم نقل العنابر إلى صحراء أبى زعبل .

* العهد الثانى وزارة إسماعيل صدقى من (١٦ فبراير ١٩٤٦ ـ ٢٨ سبتمبر ثم استمرارها حتى ٩ ديسمبر ١٩٤٦) وكانت الصناعة المصرية تتعرض لأزمة ، وصاحب أزمة الرأسمالية المصرية تصاعد الحركة الوطنية بعد الحرب العالمية الثانية ، وطرحت مشكلة الأرصدة الاسترلينية واقترحت بريطانيا تسديدها فى شكل سلع ، وكان هذا الحل يهدد الصناعة المصرية التى هى فى حاجة إلى أرصدة لتجديد الآلات بعد الحرب . ونجح صدقى فى أن تفرج بريطانيا عن جزء من الأرصدة الاسترلينية فى شكل نقود وليس فى شكل سلع . ودخل صدقى فى دوامة مواجهة الحركة الوطنية فى تلك الفترة . . ولهذه قصة أخرى .

« وزيرا » للداخلية

تولى إسماعيل صدقى باشا وزارة الداخلية ٥ مرات . . الأولى فى وزارة أحمد زيور باشا من (٩ ديسمبر ١٩٢٤ ـ إلى ١٣ مارس ١٩٢٥) . دخل صدقى باشا الوزارة فى ٩ ديسمبر وكان زيور باشا قد شكل الوزارة فى ٢٤ نوفمبر عقب استقالة وزارة سعد باشا . والمرة الثانية فى وزارة زيور باشا

أيضا (من ١٣ مارس ١٩٢٥ إلى ١٢ سبتمبر ١٩٢٥) . أما المرة الثالثة فقد كانت فى عهد وزارة صدقى باشا نفسه من (١٩ يونيو ١٩٣٠ ـ إلى ٤ يناير ١٩٣٣) ، والرابعة فى عهد رئاسته للوزارة أيضا من (٢٤ يناير ١٩٣٣ ـ إلى ١٣ مارس١٩٣٣) وإن كانت الوزارة قد استمرت إلى ٢٧ سبتمبر ١٩٣٣ ، والمرة الخامسة عندما جمع صدقى باشا فى يديه أيضا رئاسة الوزارة ووزارة الداخلية ووزارة المالية واستمرت هذه الفترة من (١٦ فبراير ١٩٤٦ ـ ٩ ديسمبر ١٩٤٦) . . وللتاريخ ملاحظات :

* وزارتا زيور الأولى والثانية جاءتا فى أعقاب مقتل « السير لى ستاك » والإنذار البريطانى لسعد زغلول الذى رفض غالبية عناصره وجاء زيور وأعطى الانجليز « الجمل بما حمل » .

* وزارة إسماعيل صدقى فى النصف الأول من الثلاثينات شهدت تزويرا فاضحا للانتخابات وصدامات دموية مع عمال العنابر وضحايا فى الأرياف ، وأحداث البدارى والحصانية ، وتأجيل اجتماعات مجلس النواب ومحاولة اغتيال مصطفى النحاس باشا وصدور مرسوم ملكى بإلغاء دستور ١٩٢٣ ، ودستور جديد عرف « بدستور صدقى » وانتشار البطالة حتى بين الصحفيين بعد أن ألغى تراخيص صحف كثيرة بجرة قلم .

* وزارة إسماعيل صدقى عام ١٩٤٦ حاول فيها صدقى باشا أن يطبق مبدأ « بسمارك » إزاء المعارضة ، وهو أن يغريها بالتمادى فى تصرفاتها ثم يضربها . تحالف مع الأحرار الدستوريين وهادن السعديين ، واتفق إلى حين مع الإخوان المسلمين . . وهؤلاء جميعا تصدوا للوفديين والشيوعيين والوطنيين الآخرين . وكان قادة الطلاب من الإخوان يواجهون تظاهرات الطلبة ضد مشروع «معاهدة صدقى بيفن » بترديد الآية القرآنية « واذكر فى الكتاب إسماعيل أنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا » وذلك فى مجال الدفاع عنه . وكانت قد تكونت جبهة تحت اسم « اللجنة الوطنية للطلبة والعمال » قادت إضرابات ٢١ فبراير و٤ مارس ، وخرج جنود الاحتلال من ثكنات قصر النيل (مكان النيل هيلتون ومبنى الجامعة العربية بميدان التحرير حاليا) يطلقون الرصاص على الطلبة والعمال . . وقد قررت اللجنة أن يكون يوم ١١ يوليو (ذكرى ضرب الإنجليز للإسكندرية سنة ١٨٨٢) يوما للحداد العام . وفى اليوم السابق عليه يوم ١٠ يوليو وجه صدقى ضربته الشهيرة للوطنيين والشيوعيين وقادة العمال والكتاب والمثقفين واعتقل أكثر من ٢٠٠ كان من بينهم محمد زكى عبد القادر ومحمد مندور وسلامة موسى ، وأغلق عددا من الصحف ودور النشر من بينها « جريدة الوفد المصرى » وقدم استقالته فى ٩ ديسمبر ١٩٤٦ . . وفشلت مفاوضاته مع انجلترا وكان يحلم أن يختم حياته باتفاقية مع بريطانيا تحقق قدرا أكبر من استقلال مصر . .

المسيرة السياسية

البداية مثيرة . . « كان الوفد المصرى فى دور التأليف ـ يقصد سنة ١٩١٨ ـ واتصلت بدولة محمد سعيد باشا واجتمعنا بسعد زغلول وتم الاتفاق على أن نتعاون معا فى الوفد المصرى . وأصبحت منذ ذلك الحين عضوا فى « الوفد » . .

وفى يوم ٨ مارس ١٩١٩ ـ اليوم السابق على الثورة ـ كنت أجلس إلى مكتبى فى غرفة مجاورة لمكتب سعد زغلول بمنزله فجاءنى خادم الدار ينبئنى بحضور ضابط انجليزى ، وكان الضابط قد طلب من سعد باشا أن يركب عربة عسكرية ثم دعانى إلى ركوب عربة أخرى وذهب بنا إلى ثكنة قصر النيل . . ثم سارت بنا الباخرة ووصلنا إلى مالطة فنقلنا إلى حصن عسكرى ، وتم الإفراج عنا فى ٧ إبريل سنة ١٩١٩ ثم سافرنا إلى باريس لعرض قضيتنا » . . بداية القضية المعروفة، والسفر للاشتراك فى مؤتمر السلام ، ثم ما أشرنا إليه من فصل أو استقالة إسماعيل صدقى من « الوفد » .

كانت البداية مثيرة إذن ، استمرت حوالى سبعة أشهر . . وكان من الطبيعى له أن يشترك فى وزارة عدلى يكن بعد أزمة «الوفد» . . وأن يشترك فى وزارة عبد الخالق ثروت باشا التى أعلنت الاستقلال حسب تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ والذى شارك صدقى باشا فى وضعه . وشارك فى «دعوة ذوى الكفايات من جميع الهيئات للاشتراك فى وضع الدستور فأبى فريق من المعارضة تلبية الدعوة . وعلى الرغم من مكانة أعضاء هذه اللجنة . فقد أسمتها المعارضة لجنة الأشقياء . وكانوا يرون أن يتولى وضع الدستور جمعية وطنية تنتخب لهذا الغرض . ونجحت مساعينا فى الوصول إلى إصدار الدستور سنة ١٩٢٣ . وفى انتخابات ١٩٢٤ رشحت نفسى لمجلس النواب . . »

هكذا قال فى مذكراته ويقصد بالمعارضة « الوفد » . .

محاولة للتفسير

ندرك تماما أن الوضع الطبقى لإسماعيل صدقى هو الذى وضعه مبكرا خارج « الوفد » ، ولكن هذا الإمعان فى معاداة « الوفد طوال حياته وبإصرار شديد هل يمكن أن يكون باعثه الأسلوب الذى اتخذه معه « الوفد » فى فصله أو إبعاده ؟ مجرد محاولة للتفسير . . ونحن ندرك تماما أن ارتباطاته الاقتصادية وتوجهاته الفكرية هى التى أبعدته عن معسكر الشعب وأبعدت معسكر الشعب عنه ، ولكن هذا الفشل الذريع فى انتخابات دائرته أمام مواطن من غير دائرته هو باعثه للإمعان فى تغيير نتائج الانتخابات ، وفى اصطناع حزب يتسمى باسم « الشعب » ويفوز قسرا بأعلى نسبة من الأصوات ؟ مجرد محاولة للتفسير وليست كل عناصر التفسير . . ونسير مع الأحداث . .

* يقول هو . . « فى انتخابات ١٩٢٤ رشحت نفسى لمجلس النواب فى دائرة سترابط ، ورشح « الوفد » أمامى الأستاذ نجيب الغرابلى وعلى الرغم من كونه رجلا فاضلا إلا أنه لم يكن ابن الدائرة، ولم يكن معروفا بها . ولكن شخصية سعد زغلول فى ذلك الحين كانت شخصية جبارة ، وفى الوقت نفسه جذابة غمرت البلاد بقوتها وشدة تأثيرها واجتاحت أمامها كل شىء ، وأصبح الاعتقاد فيها يشبه الاعتقاد بالأنبياء فلم أفز فى الانتخابات إلا بأقل من ثلث الأصوات وسقطت أمام منافسى . . » .

فى ١٧ نوفمبر ١٩٣٠ . . وكان إسماعيل صدقى رئيسا للوزارة منذ ١٩ يونيو ١٩٣٠ أعلن قيام حزب الشعب وأصدر له جريدة باسم « الشعب »، وأجرى انتخابات فاز فيها الحزب بالأغلبية الكبيرة وألغى دستور ١٩٢٣ وأعلن « دستور صدقى » . وبعد أن استقال صدقى من الوزارة استقال أيضا من رئاسة الحزب ومن عضويته ، وعاد إلى رئاسة الحزب مرة أخرى سنة ١٩٣٦ . . وضع مقلوب . . سياسى رئيس للحكومة ، يضرب حريات الشعب فى ظل أزمة اقتصادية ثم يلغى الدستور ويضع دستورا جديدا ، ويشكل حزبا يستقيل منه بعد أن يستقيل من الحكومة . . والوضع الطبيعى هو الحزب ثم الدستور ثم الحكومة، ولكنها مصر وهذا الرجل من مصر .

رأيه فى سعد

يقول إسماعيل صدقى فى مذكراته عن سعد زغلول باشا « كان سعد زعيما وطنيا بكل ما تؤديه هذه الكلمة من معان ، ولو أن كلمة زعيم لاتمنع أنه كان سياسيا قديرا وقائدا ماهرا فى أوقات الشدائد ، وربانا بارعا صارع الأنواء والأمواج وواجه الأخطار فلم تؤثر فى عزيمته ولم تزعزع من جبروت نفسه وإرادته ، وكان يخرج بسفينته قويا منتصرا جبارًا .

وكانت شجاعته وبلاغته وسعة اطلاعه وكثرة تجاربه مما هيأ له التأثير بين الجماهير فاشتد حبها له وإعجابها به ، وانقيادها لكل ما يبديه من رأى وإصغاؤها لكل ما يهتف به من قول ، فامتلك الأفئدة والنفوس ، وبقى طوال حياته الزعيم الأكبر» .

صدقت يا « أبا السباع » ونسجل لك أنت أيضا الجهر بالرأى حتى ولو كان مخالفا لجمهور المواطنين . . ومن هذا رأيك فى حرب فلسطين . .

* سنة ١٩٤٧ كان مد الجماهير العربية فى اتجاه فلسطين العربية ووقف قيام دولة الإسرائيل ، وتنادى القوم للحفاظ على عروبة فلسطين بالسلاح جيوشا وتطوعا ، ووقف الشيوعيون العرب ضد الحرب لأن الاتحاد السوفيتى كان ضد الحرب وضد التقسيم ، ورأوا أن الصدام المسلح على أرض فلسطين فى ذلك الحين لصالح الرجعية العربية والاستعمار العالمى . . ولكن رجلا وصفوه بالرجعية والعمالة للاستعمار وقف معهم ضد الحرب وحذر من نتائجها . . هو إسماعيل صدقى

باشا ، متحديا رأى الجماهير كل الجماهير (تراجع الشيوعيون العرب عن معارضة قرار التقسيم الذى صدر فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ بعد أن وافق الاتحاد السوفيتى واعترف بإسرائيل) وبقى هو على رأيه لم يغيره حتى رحل فى ٩ يوليو ١٩٥٠ وكان « الوفد » فى الحكم بعد انتخابات حاز فيها على الأغلبية دون تدخل من الإدارة أو غير الإدارة . . (توفى فى باريس على أثر أزمة قلبية) وتقترب المساحة المتاحة من نهايتها ، ومن يرغب فى المزيد أرجو منه أن يعود إلى الأسانيد .

الأسانيد :

١ ـ إبراهيم عامر . . ثورة مصر القديمة .
٢ ـ اسماعيل صدقى . . مذكرات . . مجلة المصور .
٣ ـ طارق البشرى . . الحركة السياسة فى مصر (١٩٤٥ ـ ١٩٥٢)
٤ ـ فوزى جرجس . . دراسات فى تاريخ مصر السياسى .
٥ ـ د . محمود متولى . . مجلة الكاتب ١٩٧٣ .

الدسوقى أباظة



حضرات أعضاء الجمعية التشريعية ومجلس المديرية بالجيزة . .

أنا إبراهيم دسوقى رشوان عمدة العزيزية اتشرف بأن أرفع لحضراتكم مايأتى :

سمعت طرقا شديدا على باب منزلى ليلة الثلاثاء ٢٥ مارس ١٩١٩ الساعة الرابعة بعد منتصف الليل استيقظت مذعورا ووجدت على سلم بيتى نحو عشرة جنود من الانجليز مسلحين يقودهم اثنان من ضباطهم يرافقهم مترجم .

فقال لى المترجم :

« يأمرك الضابط بأن تقدم سلاحك حالا ، ثم تجمع أسلحة البلد فى خمس عشرة دقيقة » . واندفع الجند فدخلوا حجرة النوم وكانت بها زوجتى وبناتى الثلاث ، وانهال الجند على الصندوق والدولاب فكسروهما وأخذوا ماكان بهما من حلى ، وأخذوا محفظتى وبها خمسون جنيها وساعتى وسلسلتها ، وفتشوا زوجتى شر تفتيش ، ووصلوا إلى الشقة الأخرى من المنزل وكانت بها زوجتى الثانية وولداها وأدركها أحد العساكر بضربه القتها صريعة ! ثم صعدوا للطابق الأعلى وأخذوا تسعمائة وخمسين جنيها وباقى مصوغات زوجتى الثانية .

ثم أمروا المترجم فصاح فى الناس بأن الانجليز سيجعلون البلدة كلها طعمة للنار ، وعلى كل شخص أن يغادر البلد سريعا ، فبادر السكان إلى تنفيذ ذلك وخرجوا رجالا ونساء وأطفالا وكان البلد محاطا بصنوف من العساكر المسلحة بالبنادق فانقضوا على الناس عند خروجهم وسلبوهم . وكانوا يفتشون النساء ويرفعون عنهن ملابسهن ، أو يمزقونها عليهن عاريات لايستر اجسامهن شىء ويضعون أيديهم حيث شاءوا بحجة التفتيش . !

وبعد أن استولى رجال الجيش الإنكليزى على مايملكه أهل البلد أشعلوا النار فى البيوت . وكانوا يطلقون النار على كل من رأوه يطفئ النار .

ووصلنا نقطة الحوامدية ونحن فى حالة يرثى لها قرب الظهر فوجدنا بها أيضا عمدة البدرشين وأحد مشايخها فأخبرانا بأن بلدهما نالت قسطها من العذاب . وبقينا مدة طويلة فى الشمس والتراب تحت أفواه المدافع فى الحوامدية .

وقال الضابط الأكبر : « جريمة العزيزية أن بعض أهلها ضربوا أحد الضباط البريطانيين فى الطريق المؤدى لأهرام سقارة وأن الأهالى اشتركوا فى إحراق محطتى الحوامدية والبدرشين » .

ولما عدت إلى البلد وجدت أن عدد البيوت المحروقة بلغ مائة وثمانين بيتا تقريبا ، وأن أكثر الأهالى هاجروا .

وفى اليوم التالى أثبت حضرة مأمور ضبط مديرية الجيزة أقوالنا فى محضر تحقيق واستدعى الامباشى المصرى الذى كان مرافقا للقوة التى هاجمت العزيزية وسمع شهادته بحضورى وهى تطابق أقوالنا » . ونضع خطا تحت عبارة «مأمور ضبط مديرية الجيزة» وسوف نعود إليه بعد أن نقرأ موجزا لشكوى عمدة البدرشين .

شكوى عمدة البدرشين

حضرات أعضاء الجمعية التشريعية ومجلس مديرية الجيزة .

أنا محمد منظور الدالى عمدة البدرشين الموقع على هذا أرفع لحضراتكم مايأتى :

فى الساعة الرابعة والنصف بعد منتصف ليلة الثلاثاء من يوم ٢٥ مارس ١٩١٩ هجم على منزلى أربعون عسكريا ، ودخل العسكر غرفة نومى وبها زوجتى وزوجات أولادى وبناتى الصغيرات . وقد جذب أحدهم حلقا من أذن بنت لى صغيرة فجرحها. ووجدت السيدات يرتعدن مفزوعات ويحكين لى ماصنعه العساكر من تفتيشهن تفتيشامعيبا وسلب كل ماوجدوه من نقود أو حلى . وأخذوا منى ومن أولادى نقودنا وساعاتنا وكنت أرى الحرائق مرتفعة يعلو لهيبها فى الجو تلتهم المنازل . وبعد مدة صعدنا مع عمدة العزيزية ومشايخها إلى بناية حيث وجدنا مجلس من ثلاثين ضابطا ذكر لنا رئيسهم تهما غريبة . إن حوادث البلد العديدة تبلغ من البشاعة والشناعة والفظاعة ما لاقدرة لى على وصفه . وقد شكونا أمرنا للمديرية . وفتح حضرة مأمور

الضبط إبراهيم أفندى دسوقى أباظة تحقيقا سمع فيه أقوالنا وسمعت أنا شهادة الملاحظ أمامه تدل على صدقنا . . »

ونتوقف هنا عند شكوى محمد منظور الدالى عمدة البدرشين ، إذ إننا وصلنا إلى اسم « حضرة مأمور الضبط » الذى وضعنا تحته خطا عند سرد بعض ماجاء فى شكوى إبراهيم دسوقى رشوان عمدة العزيزية وحضرة مأمور الضبط فى مديرية الجيزة إبراهيم أفندى دسوقى أباظة هو نفسه «إبراهيم دسوقى أباظة باشا » الذى نتحدث عنه هنا فى هذه الحلقة .

وقد أردت أن أنقل لشبابنا هذه الأيام مختصرا لشكوى عمدة العزيزية ، ولشكوى عمدة البدرشين لأضع أمام شبابنا صورة لما فعله الإنجليز فى أعقاب الثورة الشعبية الكبرى (ثورة ١٩١٩) ببلادنا وبأهلنا . وقد نقلت هاتين الشكويين من « مذكرات عبد الرحمن فهمى » وهو مصدر وثيق ليوميات مصر السياسية فى تلك الفترة .

كان مدير الجيزة فى ذلك الوقت هو حمدى بك سيف النصر ، أحمد اقطاب الوفد فيما بعد ، وكان مأمور الضبط هو إبراهيم افندى دسوقى أباظة ، أحد أقطاب الأحرار الدستوريين فيما بعد ولما أحس المدير والمأمور أن هذا المحضر قد يختفى بأمر السلطات الإنجليزية بادرا إلى عقد مجلس المديرية ، وعرضا عليه محضر التحقيق ، وسجلا ما به من الوقائع فى محضر المجلس . وقاما بطبع نص البلاغين فى كراسة صغيرة انتشرت بسرعة البرق فى مصر ، وكان لها أسوأ الأثر فى نفوس الشعب . وبعد أن اطمأن الرجلان « حمدى سيف النصر ، وإبراهيم دسوقى اباظه » إلى أن جرائم الانجليز قد سجلتها وثائق الثورة ، وأنها أصبحت منشورا سياسيا بين أيدى الجماهير الثائرة بادرا بالاستقالة قبل أن يتلقيا قرارات سلطات الاحتلال بالفصل من الخدمة .

قبل الثورة

هذا هو إبراهيم أفندى دسوقى أباظة مأمور الضبط الذى لم يخش على وظيفته المرموقة ، وآثر أن يكون أحد جنود الثورة القومية الكبرى بقيادة الزعيم العظيم سعد زغلول ، وحفظ لتاريخنا الحديث وثيقة من أهم وثائقه .

ولد إبراهيم بقرية « غزالة » بمديرية الشرقية سنة ١٨٨٩ ، والحقه والده بمدرسة الناصرية الابتدائية وحصل على شهادة الابتدائية ستة ١٩٠٣ ، وأتم الدراسة الثانوية سنة ١٩٠٨ بالمدرسة الخديوية . والتحق بمدرسة الحقوق التى تخرج فيها سنة ١٩١٢ . وقد شهدت فترة دراسته بالحقوق نشاطه السياسى المبكر شأنه فى ذلك شأن غالبية طلاب مصر الذين شاركوا فى الحركة

السياسية كطليعة لشعب مصر ، وسائرين خلف مصطفى كامل الذى كان له فضل إثارة الهمة التى كانت قد خبت بعد أن ألقى أحمد عرابى سيفه ، وبعد أن انكسرت حدة الثورة العرابية .

اتصل إبراهيم دسوقى أباظة بنادى المدارس العليا الذى رأسه عمر لطفى ، رائد التعاون فيما بعد . وكتب فى صحف الحزب الوطنى التى انتشرت فى ذلك الزمن ، ووقع مقالاته باسم « الغزالى أباظة » وذلك نسبة إلى قريته « غزالة » التى ولد فيها . وشارك فى التظاهرة الشهيرة التى قام بها طلبة مدرسة الحقوق فى ٩ نوفمبر ١٩٠٨ . ومع إرهاصات الحركة القومية بقيادة سعد زغلول فى أواخر ١٩١٨ كان « الحزب الوطنى» قد دخل أزمته الكبرى ، واتجه عدد من شباب الحزب الوطنى للمشاركة فى جهود « الوفد » من أجل الاستقلال ، من هؤلاء مصطفى النحاس وحافظ عفيفى وقرر « الوفد » ضمهما إلى عضويته ، ومنهم أمين الرافعى وعبد الرحمن عفيفى اللذان انضما إلى عضوية اللجنة المركزية ، ومنهم أيضا إبراهيم دسوقى أباظة الذى استقال من « الحزب الوطنى» وانضم إلى « الوفد » . وظل إبراهيم دسوقى أباظة عضوا « بالوفد » حتى حدث الانقسام الكبير الذى تأسس على أثره حزب الأحرار الدستوريين فى أواخر عام ١٩٢٢ بعد أزمة كبرى داخل «الوفد » بسبب المفاوضات مع الانجليز . وهنا تقول وثائق تاريخنا الحديث إن إبراهيم دسوقى أباظة كان من المؤسسين للحزب الجديد « حزب الأحرار الدستوريين » .

الأحرار الدستوريون

وفى دراسة جديدة للدكتور « ماريوس ديب » عن « الوفد » وخصومه التى صدرت باللغة الانجليزية سنة ١٩٧٩ وصدرت لها ترجمة عربية سنة ١٩٨٧ ، يرى أن نشأة حزب الأحرار الدستوريين ترجع إلى الانشقاق الذى حدث داخل « الوفد » خلال المحادثات بين سعد وملنر . ومع حلول صيف ١٩٢١ أنشا الخارجون على « الوفد » وعدد آخر من مؤيدى عدلى يكن تنظيما أطلق عليه اسم « جمعية مصر المستقلة » قدمت تأييدها لعدلى أثناء محادثاته مع « كيرزون » ، وفى ديسمبر ١٩٢١ كان عدلى قد عاد من انجلترا دون نتيجة . ومع صيف عام ١٩٢٢ حصل حافظ عفيفى على امتياز إصدار جريدة « السياسة » التى رأس تحريرها د . محمد حسين هيكل فيما بعد . وتم التأسيس الفعلى للحزب فى ٣٠ من أكتوبر عام ١٩٢٢ . وانتخبت الجمعية العمومية الأولى للحزب ثلاثين عضوا كمجلس إدارة هم مدحت يكن ـ الشيخ محمد بخيت ـ السيد عبد الحميد البكرى ـ محمد محب ـ محمد حشمت ـ حسن عبد الرازق ـ محمد محمود ـ يوسف أصلان قطارى ـ إبراهيم الهلباوى ـ حافظ عفيفى ـ عبد اللطيف المكباتى ـ محمد على علوبه ـ على إبراهيم ـ توفيق دوس ـ عبد المنعم رسلان ـ إسماعيل زهدى ـ صليب سامى ـ إبراهيم دسوقى اباظة ـ السيد على

الرفاعى ـ الياس عوض ـ رشيد عبد الله ـ حبيب خياط ـ أحمد عبد الغفار ـ سيد خشبة ـ حامد فهمى ـ محمد البدراوى ـ صالح لملوم ـ عبد العزيز رضوان ـ محمد محفوظ ـ محسن صالح . ومن بين هؤلاء كان عدد من أعضاء لجنة الدستور هم : بخيت ـ البكرى ـ حشمت ـ عبد الرازق ـ قطاوى ـ المكباتى ـ محمد على ـ دوس ـ عوض ـ لملوم . ومنهم عدد من أعضاء مجلس إدارة جمعية مصر المستقلة وهم : عبد الرازق ـ عفيفى ـ على إبراهيم ـ زهدى ـ صليب سامى ـ محمد صالح . وفى العاشر من نوفمبر ١٩٢٢ انتخب مجلس الإدارة مدحت يكن ، ومحمد محمود وكيلين ، ومحمد على سكرتيرا للحزب ، وإبراهيم دسوقى أباظه سكرتيرا مساعدا ، وعبد اللطيف المكباتى أمينا للصندوق ، وكان بعض الأعضاء الشبان الذين انضموا لحزب الأحرار الدستوريين أعضاء سابقين فى « الحزب الديمقراطى » ومنهم : محمد حسين هيكل ـ محمود عزمى ـ مصطفى عبد الرازق .

وقد كتب عبد العزيز فهمى فى سيرة حياته أنه (أى عبد العزيز) قام بدور هام فى تكوين حزب الأحرار ، إلا أنه لم يسجل نفسه فى بداية الأمر عضوا فيه وترك رئاسة الحزب لعدلى يكن «كما أن أحمد لطفى السيد لم ينضم رسميا بسبب منصبه بدار الكتب» .

الوزارات العشر

ونعنى بها هنا الوزارات التى تولاها إبراهيم دسوقى أباظةبصفة أصيلة . وقد بدأ يتولى وزارة الشئون الاجتماعية فى ٢٦ يونية ١٩٤١ ، وذلك فى التعديل الذى طرأ على وزارة حسين سرى التى شكلها فى ١٥ نوفمبر ١٩٤٠ ، واستقالت الوزارة فى ٣١ يوليو ١٩٤١ وبذلك يكون إبراهيم دسوقى أباظه قد تولى وزارة الشئون لمدة شهر واحد . واختاره حسين سرى وزيرا للشئون الاجتماعية فى وزارته الثانية (٣١ يوليو ١٩٤١ ـ ٤ فبراير ١٩٤٢) . أما وزارة المواصلات فقد تولاها مرات خمس : الأولى فى وزارة أحمد ماهر الأولى من (من أكتوبر ١٩٤٤ ـ ١٥ يناير ١٩٤٥) والمرة الثانية فى وزارة أحمد ماهر الثانية من (١٥ يناير ١٩٤٥ ـ ٢٤ فبراير) التى لم تقدم استقالتها نظرا لاغتيال أحمد ماهر . والمرة الثالثة من (٢٤ فبراير ١٩٤٥ ـ ١٥ فبراير ١٩٤٦) فى وزارة النقراشى باشا الأولى . والمرة الرابعة من (٩ ديسمبر ١٩٤٦ ـ ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨) فى وزارة النقراشى باشا الثانية . ونجد هنا اسمه مقرونا بلقب « باشا » بعد أن كان مقرونا بلقب « الأستاذ » فى الوزارات السابقة أما المرة الخامسة التى يتولى فيها إبراهيم دسوقى باشا وزارة المواصلات فكانت من (٢٧ فبراير ١٩٤٩ ـ ٢٥ يوليو ١٩٤٩) وذلك فى التعديل الذى طرأ على وزارة إبراهيم عبد الهادى الأولى التى شكلها من (٢٨ ديسمبر ٤٨ ـ ٢٥ يوليو ١٩٤٩) .

وتولى وزارة الأوقاف بصفة أصيلة مرتين : الأولى من (١٧ فبراير ١٩٤٦ ـ ٩ ديسمبر ١٩٤٦) فى وزارة إسماعيل صدقى الثالثة التى شكلها فى التاريخ السابق . وكانت المرة الثانية من (٢٦ يوليو ١٩٤٩ ـ ٣ نوفمبر ١٩٤٩) وذلك فى وزارة حسين سرى الثالثة، أما وزارة الخارجية فقد تولاها بالنيابة فى وزارات سابقة ، وتولاها بصفة أصيلة من (٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ ـ ٢٧ فبراير ١٩٤٩) فى وزارة إبراهيم عبد الهادى الأولى ، ثم تم تعديل وزارى تولى فيه أحمد خشبة وزارة الخارجية وتولى إبراهيم دسوقى أباظة وزارة المواصلات . ويكون بذلك قد تولى المنصب الوزارى بصفة أصيلة عشر مرات ، وبالنيابة أربع مرات .

العريضة المشهورة

ولعل مشاركة إبراهيم دسوقى أباظة باشا فى العريضة المشهورة التى رفعها عدد من ساسة مصر البارزين إلى الملك فاروق فى ١٦ أكتوبر ١٩٥٠ ، هى أحد الأعمال الهامة التى شارك فيها قبل رحيله عام ١٩٥٣ .

وتتناول العريضة شكوى موقعيها من العناصر التى تحول بين البلاد وبين العرش « لا لسبب إلا لأن الأقدار قد أفسحت مكانا فى الحاشية الملكية ، منهم من حامت حول تصرفاتهم ظلال كثيفة من الشكوك والشبهات هى الآن مدار التحقيق الجنائى الخاص بأسلحة جيشنا الباسل » والعريضة هنا تشير إلى مسألة « الأسلحة الفاسدة » التى أثارتها الصحف فى صيف ١٩٥٠ وقيل إن الجيش المصرى حارب فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ بأسلحة فاسدة . ثم عرجت العريضة إلى ماعرف بمراسيم ١٧ يونية ١٩٥٠ والتى قضت بزوال عضوية مجلس الشيوخ عن هيكل باشا ، وإبطال عضوية آخرين . وفى الموضوع الذى نشرناه عن مصطفى مرعى ، أوضحنا أن تلك المراسيم جاءت لتصحيح أخطاء ارتكبتها حكومتا حسين سرى فى ١٧ مارس ١٩٤٦ وأحمد ماهر بعد ٨ أكتوبر ١٩٤٤ ، وكلها إجراءات للعبث بنسبة الأعضاء الوفديين بمجلس الشيوخ . أما مسألة « الأسلحة الفاسدة» فقد قامت حكومة النحاس باشا بإبلاغ النائب العام ، وأبعدت القائد العام للقوات المسلحة عن منصبه ، وأحالت ١٢ ضابطا كبيرا إلى المعاش . وفى ٢٨ مارس ١٩٥١ صدر قرار بحفظ التحقيق وبعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ تم حفظ التحقيق مرة ثانية .

وأسجل هنا تصريحا هاما صرح به السفير الفريق محمد حافظ إسماعيل عند مناقشة كتابه «أمن مصر القومى » فى ندوة «كاتب وكتاب» التى قمت بإدارتها وشارك فى المناقشة السفير اللواء محمد فريد عبد القادر ، والسفير أحمد ماهر وذلك فى معرض الكتاب بتاريخ ٢٨ يناير ١٩٨٨ . . صرح السيد محمد حافظ إسماعيل بأنه كان فى جبهة الحرب سنة ١٩٤٨ ويشهد بأنه لم تكن هناك بندقية فاسدة واحدة . وهذا يكفى لإغلاق مسألة « الأسلحة الفاسدة » التى أشارت إليها

العريضة المشهورة والتى وقعها إبراهيم عبد الهادى ، ومحمد حسين هيكل ، ومكرم عبيد ، ومحمد حافظ رمضان ، وعبد السلام الشاذلى ، وطه السباعى ، ومصطفى مرعى ، وعبد الرحمن الرافعى ، وإبراهيم دسوقى أباظة ، وأحمد عبد الغفار ، وعلى عبد الرازق ، ورشوان محفوظ ، وحامد محمود ونجيب اسكندر وزكى ميخائيل بشارة ، والسيد سليم .

اعتذار

وأقرر أن أمورا كثيرة لم أسجلها وأنا أتحدث عن إبراهيم دسوقى أباظة باشا ، مثلا سنة ١٩٣١ عندما قاطع « الوفد » والأحرار الدستوريون انتخابات « صدقى » رشح نفسه ونجح عن دائرته ، وسنة ١٩٣٨ كان وكيلا لمجلس النواب ، وأسس سنة ١٩٤٦ جامعة أدباء العروبة وأنشأ لها فرعا بالزقازيق . . واقرأ فى كتاب الصديق الكبير عبد المنعم شميس « شخصيات مصرية » عن معاونته المادية والأدبية للأدباء الكادحين . . وكانت هناك أمور كثيرة كان يمكن أن أضيفها لو أننى سألت أو جلست إلى ابنه الكاتب الكبير الأستاذ محمد ثروت أباظة رئيس اتحاد الكتاب وأنا على بعد مقاعد منه فى مجلس إدارة الاتحاد الذى أنا عضو فيه أو لو أننى سألت أو جلست إلى سميه الأستاذ الدكتور إبراهيم دسوقى أباظة ، وأنا على بعد صفحات منه فى جريدة الوفد . . على أية حال فإننى قد فتحت الباب ويمكنهما أن يضيفا الكثير إلى ماقدمت .

الأسانيد :

١ ـ حافظ محمود . . أسرار الماضى .

٢ ـ حسن يوسف . . مذكرات .

٣ ـ عبد الرحمن فهمى . . مذكرات ج ١ .

٤ ـ عبد المنعم شميس . . شخصيات مصرية .

٥ ـ فؤاد كرم . . النظارات والوزارات المصرية .

٦ ـ موريس ديب . . الوفد وخصومه (ترجمة عبد السلام رضوان) .

أنـور السـادات



نبدأ من كارثة ٥ يونيو ١٩٦٧ التى أصابت عبد الناصر فى نفسيته فظهر على حركته الإحباط بدلا من الشموخ ، وأصابته فى قيادته فبدأ المماليك الصغار يتحركون ويصدرون القرارات باسمه .

ومنذ هذا التاريخ بدأ صراع خفى بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية على مصر . أيهما أولى بالنفوذ السافر ؟

الاتحاد السوفيتى الذى انحاز له رجال ناصر أنفسهم والذى أصبح له مستشارون بالآلاف فى جيش مصر ، ووصلت العناصر الموالية له إلى قيادة التنظيم الطليعى المحرك للاتحاد الاشتراكى ، . الاتحاد السوفيتى الذى أصبح له نفوذه السياسى ، فالمنظمات الماركسية أصبحت بالكامل داخل الاتحاد الاشتراكى ووسائل الاتصال الجماهيرى فى أيدى الماركسيين . . الاتحاد السوفيتى أصبح له نفوذه الاقتصادى أيضا فمعظم شركات القطاع العام تتعامل معه . . كان الجو ممهدا لنفوذ سوفيتى أكبر وأوضح .

ويبدو أن جمال عبد الناصر كان مدركا لهذا المصير فأراد فى أخريات أيامه أن يوقف زحف العناصر التى تحكم باسمه فى الظاهر ، وفى واقع الأمر كانت تمهد للسيطرة السوفيتية . وتردد أنه أصدر أوامره بعودة عبد اللطيف البغدادى وزكريا محيى الدين نائبين له إلى جانب نائبه أنور السادات وتردد أيضا أن مقر رئاسة الجمهورية فى مصر الجديدة كان يعد لاستقبالهما . وتمضى الأقاويل بأن عبد الناصر طلب إذاعة خبر تعيين البغدادى ومحيى الدين نائبين له وكان يستمع يوم وفاته لإذاعة القاهرة فى نشرة الخامسة مساء . . ولم يذع الخبر . . وقال وهو على فراش الرحيل . . غريبة لم يذع الخبر ! .

وعلى الجانب الأمريكى فمنذ مؤتمر باندونج فى أبريل ١٩٥٥ ، وصفقة الأسلحة من تشيكوسلوفاكيا وتأميم قناة السويس فى يوليو ١٩٥٦ وإصرار جمال عبد الناصر على خط وطنى مستقل ، والولايات المتحدة الأمريكية تريد العودة بنفوذها إلى مصر يقلقها النفوذ السوفيتى المتزايد وترى أنها أحق بالشفعة . فهى التى أسهمت بدور واضح فى الإطاحة بحكومة النحاس باشا فى يناير ١٩٥٢ ، وهى التى ساندت حكومات مابعد الحريق ، وهى التى لم تستجب لنداءات الملك فاروق لمساندته بل أيدت التخلص منه . . وهى التى كانت على صلة مباشرة بالمجموعة العسكرية الحاكمة يوم ٢٣ يوليو ، وكان مندوبو القيادة على اتصال مستمر بالسفارة الأمريكية يطمئنونها على موقفهم المعادى من « الوفد » ومن الشيوعيين ، ويؤكدون لها أن الانقلاب ليس له صلة بجماعة الإخوان المسلمين وأن الصحف اليسارية قد أغلقت وأن الدور قادم على جريدة « المصرى » . . أكثر من هذا فإن الوثائق الأمريكية التى نشرتها مجلة « المصور » المصرية تشير فى حلقة يوم ٧ أغسطس ١٩٨٧ إلى أن عبد المنعم النجار فى مقابلة له مع الملحقين العسكريين الأمريكى والبريطانى والفرنسى فى ٣١ يوليو ١٩٥٢ نقل إليهم « إن العسكريين فى مصر يريدون تشكيل لجنة غير رسمية لمحاربة النشاط الشيوعى . . ويأمل العسكريون أن تضم اللجنة المقترحة ممثلين للسفارات الفرنسية والبريطانية والأمريكية !» .

ويعلق الدكتور رضا شحاته الذى نشر هذه النصوص ضمن دراسته على حديث مندوب القيادة المصرية مع ايفانز الملحق العسكرى الأمريكى بأن يضع العلاقة بين حركة الجيش والسفارة الأمريكية على صعيد المشاركة فى السياسة المصرية الداخلية وليس مجرد صعيد تبادل المعلومات . والولايات المتحدة الأمريكية هى التى حمت الانقلاب من التدخل العسكرى البريطانى وتلقت بالارتياح قيام السلطة الجديدة بضرب الشيوعيين و«الوفد » وتحجيم الإخوان المسلمين ، ووقف إصدار الصحف اليسارية والوطنية وفتح المعتقلات وتصفية الحركة الشعبية ، وقفت الولايات المتحدة إلى جانب عبد الناصر ضد محمد نجيب الذى أخذ ينسق مع الإخوان المسلمين والشيوعيين والوفديين . وبعد أن انقلب ناصر على الولايات المتحدة الأمريكية ، كان لأمريكا دور فى حرب ١٩٦٧ حتى أن جونسون عندما أيقظه معاونوه يخبرونه أن إسرائيل تضرب عبد الناصر عاد إلى التناوم وهو يردد . . دعوها تؤدبه !!

كانت أمريكا حريصة إذن على إعادة نفوذها الذى كان لها فى مصر فى السنوات الأولى لانقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وسيطر عليها القلق من النفوذ الماركسى المتزايد ومن التحالف بين الاتحاد السوفيتى وعبد الناصر ، بوفاة جمال عبد الناصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ نشطت الولايات

المتحدة الأمريكية لإعادة نفوذها فى مصر ، وقام الرئيس الأمريكى نيكسون برحلته إلى البحر المتوسط وأوربا والتى انتهت فى ٥ أكتوبر ١٩٧٠ لاستعراض القوة .

الأهـداف التقليـدية

ومهما يكن من أمر فقد رحل جمال عبد الناصر وجاء بعده أنور السادات رئيسا للجمهورية ، ويشتد الصراع بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية . ويمكن أن نلخص الأهداف الأمريكية فى مصر ، وهى لم تزل كما كانت فى الفترة الأولى من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . . تصفية الحركة الشعبية منعا لقيام ثورة شعبية تشكل خطرا على المصالح الأمريكية ، ووجود أمريكى فعال يمنع الوجود السوفيتى الذى تصاعد فى السنوات الأخيرة من حكم عبد الناصر . وإذا كانت الوزارات الأربع بعد الحريق قد سلكت فى سبيل تنفيذ هذه الأهداف أسلوبا من التهدئة الشكلية لم يكن فعالا بما يرضى الولايات المتحدة الأمريكية ، وإذا كانت الفترة الأولى من سلطة ٢٣ يوليو قد باشرت القمع بأسلوب شرس وأعلنت الجمهورية الرئاسية وتحويل مسار الثورة الشعبية . . مما تلاقى عمليا مع أهداف الولايات المتحدة . . إذا كان ذلك كذلك فإننا نلحظ أن الأحداث فى عصر السادات تسير أيضا بما يتطابق مع أهداف الولايات المتحدة الأمريكية فى مصر وفى المنطقة . ومرة ثانية نحن نسجل الوقائع ولا نتحدث من منطلق الاتفاق المسبق أو التآمر بين السادات وبين الدوائر الأمريكية ، وإنما نقول فقط إن ماحدث يتفق والمصالح الأمريكية فى المنطقة .

الصراع على السـلطة

وكان من الطبيعى تماما أن يترجم هذا الصراع بين العملاقين الدوليين على أرض مصر إلى صراع على السلطة بين رجال عبد الناصر الموالين للسوفيت وبين السادات الحاكم الجديد . . كان الذى حدث صراعا على السلطة بكل المعايير ولم يكن أبدا « ثورة تصحيح » كما أطلق عليها عبد الرحمن الشرقاوى والموالون للسادات ، ولم يكن أيضا « ثورة مضادة » كما أطلق عليها الموالون لعبد الناصر وإنما هو صراع على السلطة داخل الشريحة العسكرية الحاكمة من الطبقة الوسطى ، والصراع دائما له تقاليده . . كل فريق يقدم مبرراته . . الفريق الأول . . رجال عبد الناصر الموالون للسوفيت كشفوا عن اتجاه السادات نحو أمريكا ، وكشفوا تاريخه منذ ارتباطه بالحرس الحديدى : يوسف رشاد ومصطفى كمال صدقى ، ومجموعة الاغتيالات التى اغتالت أمين عثمان وحاولت اغتيال النحاس باشا لصالح الملك فاروق . . وكشفوا عن ارتباطه بجواسيس الألمان

وتقديم المعلومات العسكرية عن الانجليز للنازى ، وكشفوا عن قصة التهرب من المواجهة ليلة ٢٣ يوليو وذهابه إلى السينما وافتعاله مشاجرة مع أحد المشاهدين ليحرر محضرا فى القسم يحتمى به إذا فشلت محاولة الانقلاب . والفريق الثانى . . فريق السادات تحدث عن دكتاتورية ناصر وفساد الاتحاد الاشتراكى ، والمعتقلات والتعذيب والحراسات ، وفساد القطاع العام والسيطرة السوفيتية . وكان لابد من شعارات جديدة تجذب الجماهير فى هذه المعركة . . رفع السادات شعار الديمقراطية ! وتعدد المنابر التى تحولت إلى أحزاب » وشعار سيادة القانون ! والإفراج عن المسجونين . وكان هناك طرف ثالث يكسب من هذا الصراع هو الشعب الذى أيد بشكل واضح السادات وفريقه ليتخلص من مجموعة رجال عبد الناصر الذين حكموا بالحديد والنار ، ونهبوا الثروات وهربوها إلى الخارج . وكسب الشعب هامشا لا بأس به من الحريات ، وتشكلت منابر تحولت إلى أحزاب وصدرت صحف لهذه الأحزاب .

ثم أعقب ذلك طرد المستشارين السوفيت لدى الجيش المصرى وإلغاء المعاهدة المصرية السوفيتية فى ١٨ يوليو ١٩٧٢ .

النفوذ الأمريكى واحد فى الفترتين والحرب ضد « الوفد » والشيوعيين واحدة فى الفترتين ، ومهادنة الإخوان المسلمين للإفادة منهم فى مواجهة « الوفد » والشيوعيين واحدة فى الفترتين ، يزيد عليها فى فترة السادات الناصريون الذين عارضوا السادات . . والمواقف من الصحافة واحدة فإذا كانت الرقابة فى عهد عبد الناصر الباكر بشكل مباشر ، فإنها فى عهد السادات عن طريق مجموعة من رؤساء التحرير تدين له بالولاء .

عبد الناصر حل الأحزاب وأعلن هيئة التحرير وطارد كل من رفض الانضواء تحت لوائها ، والسادات بأسلوب آخر ألغى الاتحاد الاشتراكى لأنه تحول إلى أداة معارضة فى يد الناصريين والشيوعيين ، وسمح بالأحزاب ولكنه حارب هذه الأحزاب عندما حاولت الخروج عن الدور المرسوم لها . ولم يكن عهد السادات سوى حلقة فى سلسلة ٢٣ يوليو المعادية للديمقراطية ولكن بأسلوب مختلف ، وحلقة فى سلسلة المواقف المشابهة لمواقف الولايات المتحدة الأمريكية والتى بدأت مع عبد الناصر نفسه . وفى كتابه « البحث عن الذات » صفحة ١٧٠ يفسر السادات اتجاه عبد الناصر ناحية السوفيت بقوله :

عبد الناصر كان يريد رقعة واسعة للمناورة وعندما يجدها فهو مناور ممتاز . . ولكن الذى حدث أنه قطع علاقاته بأمريكا والغرب والعرب وإيران ولم يبق إلا السوفيت . . وهذا لم يعطه حرية المناورة وخاصة أن السوفيت عاملوه معاملة أبعد ماتكون عن الكرم أو الكرامة » . ولعل هذا

يفسر اتجاه عبد الناصر فى أخريات أيامه للاستعانة بأنور السادات ، والتفكير فى الاستعانة بعبد اللطيف البغدادى وزكريا محيى الدين وهم معادون للسوفيت . . وإن كان عبد الناصر لم يعين السادات نائبا لرئيس الجمهورية إلا فى ديسمبر ١٩٦٩ . وقد قدر لعبد الناصر أن يتخلص من النفوذ الأمريكى ليقع فى النفوذ السوفيتى ، والسادات تخلص من النفوذ السوفيتى ووقع فى النفوذ الأمريكى .

الطبقــة الجـديدة

ويحلو للبعض أن يشير إلى مايسمى بالطبقة الجديدة كأحد مظاهر حكم السادات . وفى واقع الأمر أن هذه الطبقة من إفراز فترة حكم عبد الناصر ، وتكونت أصلا من الشريحة العسكرية للطبقة الوسطى ومن مديرى القطاع العام ، ومن زعماء النقابات التى التفت حول النظام الجديد ، ومن القيادات العليا والوسطى للتنظيم السياسى الواحد ، ومن عناصر مختلفة الروافد الاجتماعية وجدت مصلحتها فى تبنى شعارات السلطة الجديدة المعادية للديمقراطية والتعددية الحزبية . . ووجدت حماية لتصرفاتها المالية والإدارية فى حساسية النظام إزاء النقد للسلبيات ، لدرجة أن من يعرض لأية سلبيات كان ينظر إليه على أنه معارض للنظام وعلى أنه من عناصر الثورة المضادة ، وبذلك اختفى الحديث عن هذه السلبيات والانحرافات فى عهد عبد الناصر وانفجر الحديث عنها فى عهد السادات ، وبتشجيع منه حتى امتدت الشائعات إلى عبد الناصر نفسه . وأورد جلال الدين الحمامصى فى كتـابه « حـوار وراء الأسوار » نموذجـا لما تردد حول تهريب الأموال إلى سـوسرا وإيداعها فى البنوك بحسابات سرية .

وقد وجدت هذه الطبقة فرصتها بعد هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ وبدأت تتقدم لتملأ الفراغ الذى تركه الجيش .

ولكن الخلل الاجتماعى العميق أصاب المجتمع المصرى فى عهد السادات بفعل ظاهرة أخرى هى « الانفتاح الاستهلاكى» التى رحبت بها الطبقة الجديدة للمشاركة بأموالها فى مشروعات الاستثمار مع رؤوس الأموال الأجنبية والعربية مما أفرز فئات من النشاط الطفيلى الذى ساد المجتمع .

ولعل المقارنة السطحية بين الانحرافات المعلنة والظاهرة فى عهد السادات ، والانحرافات الخفية بقوة القهر فى عهد عبد الناصر هى التى أدت بمفكر ماركسى معروف هو الدكتور فؤاد مرسى أن يكتب فى مقالة له بمجلة « الفكر المعاصر » نوفمبر ١٩٧٠ عن عبد الناصر « لقد كان أول معلم نقل الاشتراكية إلى وعى الملايين المصريين !! » .

وأمامنا إحصائية تبين التركيب لهذه الطبقة الجديدة التى كانت عماد التنظيم السياسى الواحد وهو الاتحاد القومى بعد هيئة التحرير . ففى انتخابات مجلس الأمة الذى تكون من ٣٥٠ مقعدا كانت على النحو التالى : ٣٣٪ لرجال الأعمال والمحامين ٣٠٪ لوزراء وضباط جيش استقالوا ليعملوا بالأمور العامة ، ١٢٪ ملاك الأرض ، ١٠٪ عمد فى القرى وكبار الفلاحين ، ٣٪ عمال ، ١٢٪عناصر مختلفة النشاط ، وهذه الطبقة لا يمكن أن تدعو إلى اشتراكية حقيقية حتى ولو تغير اسم الاتحاد القومى .

٦ أكتــوبر

ولم تكشف الوثائق بعد عن دور الولايات المتحدة الأمريكية فى عملية التخلص من رجال ناصر المناوئين للسادات ، تلك العملية التى اتخذت أمام الشعب شكل المفاجأة ، ولكن من المرجح أنها بدأت تدريجيا منذ أن تولى السلطة فى أكتوبر ١٩٧٠ إلى ١٥ مايو ١٩٧١ يوم الإعلان عن الإطاحة بمجموعة على صبرى الذين كانوا يعتزمون الإطاحة بالسادات ، ونجد فى أقوال هنرى كيسنجر مايشير إلى هذا الموقف . . « خلال عام ١٩٧١ تفوق السادات تدريجيا فى مواجهة مناورات خصومه ، وفى شهر مايو انتهى من التخلص بصورة مذهلة من المنافسين الموالين للسوفيت الذين كانوا يتآمرون للقضاء عليه » . . وأيا كان الأمر فإن الغالبية الساحقة من الشعب أيدت هذه الخطوة ورحبت بها على أمل أن تكون خطوة جادة نحو انفراجة ديمقراطية .

أما الموقف الثانى الذى رحبت به قطاعات هامة من الشعب المصرى فهو قنبلة الإعلان المفاجئ فى ١٨ يوليو عام ١٩٧٢ عن إنهاء مهمة أكثر من ١٥ ألف مستشار وخبير عسكرى سوفيتى فى مصر . . ولم يكن الشعب يعرف حتى هذه اللحظة أن الوجود السوفيتى على هذا النحو من الخطورة ، واعتبر طرد هؤلاء الخبراء العسكريين موقفا يدعم الاستقلال الوطنى .

ثم كانت حرب العاشر من رمضان ، السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ، التى أوجدت تغييرا عميقا من الناحية النفسية لدى الشعب المصرى والشعوب العربية ، وأوجدت وضعية جديدة كان يمكن استثمارها نحو ديمقراطية حقيقية ، ولكن السادات كان يريدها ديمقراطية هشة ارتد عنها عندما وجد أن القوى السياسية المختلفة تريد ممارسة ديمقراطية تسهم فى إعادة البناء فى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وخاصة أن الحرب بدأت والوضع الاقتصادى متدهور للغاية . ففى ٣٠ سبتمبر ١٩٧٣ قبل الحرب بأسبوع اجتمع السادات ومجلس الأمن القومى وقال بالحرف الواحد « اقتصادنا النهارده فى مرحلة الصفر وعلينا التزامات إلى آخر السنة لن نستطيع الوفاء بها

للبنوك ، وعندما تأتى سنة ١٩٧٤ بعد شهرين لن يكون عندنا رغيف الخبز للمواطنين » .

وكان النصر وتبارك السادس من أكتوبر بين الأيام ، ولكن الأمور لم تسر كما تريد غالبية الشعب . . سارت الأمور كما يريد السادات . وإذا كان جمال عبد الناصر قد انتهى وهو يحيى ملوك العرب ورؤساءهم ، فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، فقد انتهى أنور السادات وهو يحتفل مع جنوده بيوم النصر العظيم فى ٦ أكتوبر ١٩٨١ وسبحان من له الدوام .

الأسانيد :

١ ـ إبراهيم سعدة . . سنوات الهوان .
٢ ـ أنور السادات . . البحث عن الذات .
٣ ـ الاستعلامات (مصلحة) . . خطب الرئيس جمال عبد الناصر .
٤ ـ جلال الدين الحمامصى . . حوار وراء الأسوار .
٥ ـ د . فؤاد موسى . . الفكر المعاصر نوفمبر ١٩٧٠ .
٦ ـ د . محمد أنيس . . الكاتب يوليو ١٩٧٤ .
٧ ـ موسى صبرى . . وثائق ١٥ مايو .

توفيـق الحـكيم



على ضفاف بحيرة الموت جلس ، وأطال الجلوس ، ويتحرك موج البحيرة ويقترب الموت من الحكيم ، وهو مستسلم لقضاء الله سبحانه وتعالى ، لأنه يعيش كما قال كثيرا فى الوقت بدل الضائع . . ويقترب الموت ويربت على كتف الحكيم ويعود ليغوص فى بحيرة الظلام من جديد . . لأن وقت الذهاب لم يكن قد حان بعد . . وها هو يرحل فى يوم الأحد ٢٦ يوليو ١٩٨٧ .

ويا أيها الشاب الذى نسينا اسمه الآن ، والذى كتب فى جرأة يحسد عليها يستعجل وفاة الحكيم لأن الحكيم فى رأى ذلك الشاب ، وفى رأى عدد من زملائه يسد الطريق أمام الشباب . . ورد الحكيم عليه فى الصحيفة نفسها يستمهل الشاب العجول إلى أن يحين قضاء الله .

ولم يكن الحكيم قد عاش ، ولم يعش جيله العظيم . . طه حسين ، وعباس محمود العقاد . وسلامةموسى ، وإبراهيم عبد القادر المازنى . . لم يعش هذا الجيل العظيم أبدا فى الوقت بدل الضائع . . ولم يسد الطريق أمام أحد أبدا . . بل كان المصابيح المضيئة على الطريق المظلمة . .

فى رحلات كشفية كثيرة ذهب يبحث عن الحقيقة . . فى باريس كتب عودة الروح . . وفى القاهرة كتب عودة الوعى . . وعلى الورق رحل إلى اليونان يفكر فى مأساة (أوديب) الإنسان الذى ينهزم أمام القدر . ويفكر فى مأساة (بيجماليون) الفنان المتردد بين الفن والحياة . . وفى التاريخ المصرى القديم يلتقى بايزيس واوزوريس . . وفى القرية فى مسرحية الصفقة يلتقى بالفلاحين . . وفى مسرحية السلطان الحائر يبحث عن العدل فى هذا العالم . . وفى (شمس النهار) يقول (أنت صعلوك ولكنك انتصرت . . أما أنا فقد فقدت كل شىء . .) .

الكاتب السياسى

لاياسيدى . . لم نفقد شيئا . . لقد انحزت إلى الشعب طوال حياتك ، ونزعم أن ذلك كان واضحا فى كل ماكتبت أو فى غالبية ماكتبت . .

ولم ينضم فى حياته إلى حزب سياسى ولم يجهر بأى مذهب فكرى أو سياسى . . وكعادته فى التمويه كتب تحت عناوين . . (من البرج العاجى ، وتحت المصباح الأخضر ، وقالت العصا ، وحمارى قال لى . .) فأوهم الناس أنه بعيد عن السياسة وما كان كذلك ابدا . .

سنة ١٩١٩ كتب مسرحية (الضيف الثقيل) يقصد بها الاحتلال الإنجليزى . . لم تنشر وضاعت أصولها . . وفى باريس سنة ١٩٢٧ كتب (عودة الروح) فى عمل فنى تأثر بالروح الوطنية التى أشعلتها ثورة ١٩١٩ . . وكان قد اعتقل فى سجن القلعة لأنه سار فى تظاهرة اثناء الثورة . . وكتب عدة مقالات عن حق مصر وسوريا ولبنان فى الاستقلال . . بل إنهْ فى (آخر ساعة) فى ١١ سبتمبر سنة ١٩٤٦ دعا الشعب إلى المقاومة السرية المسلحة . . وسنة ١٩٤٧ قام برد وسام إلى فرنسا كان قد أهدى إليه من قبل . . وذلك احتجاجا على موقف فرنسا فى المغرب العربى . .

وأثناء المفاوضات المصرية البريطانية كتب فى أخبار اليوم فى ٢٤ أغسطس ١٩٤٦ على لسان حماره (نحن معشر الحمير لم نقبل أن نوقع بإمضائنا على أن توضع القيود فى أرجلنا واللجم فى أفواهنا) . .

وسنة ١٩٤٠ وجه النداء إلى المفكرين ودعاهم إلى مناصرة الحلفاء ضد دول المحور . . هكذا صراحة دون أن يتحدث على لسان العصا أو على لسان الحمار . .

وفى أيام عبد الناصر لاينسى (تعذيب أستاذ جامعى فاضل هو الدكتور عبد المنعم الشرقاوى الذى عذب تعذيبا جسمانيا بلغ من بشاعته أن أنكر شكله أهله ومعارفه) فكتب توفيق الحكيم إلى عبد الناصر (هذه لطخة سوداء فى جبين الثورة لايمكن الدفاع عنها أمام التاريخ) . .

وفى يناير ١٩٧٣ جمع فى مكتبه عددا من الكتاب والأدباء ورجال الفكر وكتب « الحكيم » بخط يده البيان المشهور عن حقيقة الموقف ووقع عليه ، وبعده نجيب محفوظ ثم وقع عليه آخرون . . فغضب السادات وصدر قرار بالعزل السياسى لكل من وقع على البيان فيما عدا « توفيق الحكيم ونجيب محفوظ » .

صانع الأقنعة

ولقد خدعنا الحكيم وأجاد الخداع . وأوهم الدنيا كلها أنه لا شأن له بالسياسة . . كانت له كتابات سياسية مباشرة ولكنه أوهم الناس جميعا بأنه (فى حاله) يكتب للمسرح . . ومن خلال الأقنعة التى يصنعها فى مسرحياته ، وفى أعماله الأخرى كتب فى السياسة ، وفى المذاهب ، وفى المواقف الاجتماعية أكثر مما كتبه غيره من كتاب السياسة المباشرين . . ولكنه « توفيق الحكيم » الذى لم يمدح « الملك فاروق» مرة واحدة . . وكان « جمال عبد الناصر » حريصا على إرضائه ، واعتذر عن عدم اللقاء الذى حمله إليه « محمد حسنين هيكل » . . وكان «الأستاذ هيكل » كلما رأى « توفيق الحكيم » يقول أمام الحاضرين . . هذا هو الرجل الذى رفض مقابلة عبد الناصر فيبادر الحكيم بتخفيف الوضع فيقول (ليس شخص عبد الناصر بل الحاكم . . أنا لم أقابل فى حياتى رئيس حكومة وهو فى الحكم) فيقول « هيكل » ضاحكا . . (يعنى تريد منه أن يستقيل ليراك ؟) .

من قال إنه لم يكتب فى السياسة ، وفى المذاهب والأوضاع الاجتماعية ؟ وهو القائل فى كتابه سلطان الكلام (لاريب فى أن الاشتراكية هى جوهر لابد أن يدخل فى تركيب كل نظام سياسى حديث . وكما استطاعت الدكتاتورية اختراع الوطنية الاشتراكية ـ يقصد النازية ـ فما أيسر على الديمقراطيات إنشاء الديمقراطية الاشتراكية .) .

وهو القائل فى كتابه «تأملات سياسية» إن أبسط ما اتمناه لأهل بلدى إصلاح دون تقييد بمبدأ أو بمذهب ، فليس اخطر على أمة ناشئة من أن تلبسها مذهب أمة أخرى دون نظر إلى طبيعتها وحاجتها وروحها) .

وهو القائل فى كتابه تحت شمس الفكر : (إن المفروض فى ممثلى الشعب ان يتقدموا ببرامج ثابتة واضحة ، محدد فيها بالدقة الخطط ووسائل التنفيذ لمطالب الشعب المختلفة التى يمثلونها) . .

وهو القائل فى كتابه . . عصا الحكيم : (. . أرى أن تقوم مصلحة أو وزارة باسم منشئات العمال) باستقطاع جزء من أجر كل عامل، وتجمع حصيلته فى صندوق خاص تغذيه الحكومة وأصحاب العمل بمبلغ كاف . ويوجه هذا المال إلى انشاء المشروعات التى ترفع مستوى العمال مباشرة ، كبناء المساكن الصحية والحوانيت التعاونية والنوادى العمالية) . .

وقال يوضح نفسه فى هذا الشأن . . (أنا لم أكن يوما من حملة الشعارات للوحدة العربية ولا لغيرها إنى اتصرف دائما من وحى شعورى التلقائى ونظراتى الخاصة . . ولم يخطر فى بالى قط أن

أعزل الفكر عن أى نشاط سياسى أو اجتماعى . . والعزلة التى دعوت إليها هى العزلة عن السياسيين لا عن السياسة وعن الأحزاب لا عن المجتمع . . ولا أستطيع اليوم أن انضم إلى ماوتسى أو إلى سميث فكلاهما صادق وكلاهما كاذب ، ولا استطيع أن انضوى تحت لواء الشيوعية أو الرأسمالية فكلاهما مصيب وكلاهما مخطىء . .) .

خـدعوه فقالوا

وفى الخامس من يونية ١٩٦٧ وقع صانع الأقنعة فريسة لخداع من هم أكثر مهارة فى صناعة الأقنعة . . الذين (هوشوا) بالحرب وهم لايريدون الحرب . . الذين حشدوا الطائرات فى المطارات وأعطوا التعليمات أن تتلقى أول ضربة وبعدها تقاتل العدو، والذين أرسلوا الدبابات والمعدات تملأ أرض سيناء وساعة هجوم العدو كان « القائد العسكرى » فى سياحة جوية والتعليمات للمدفعية أن تقف مكتوفة لأن « القائد » فى الجو . . وأوهم المذيع ذو الصوت الجهورى . . والأسلوب التمثيلى فى الأداء ، أوهم الحكيم صانع الأقنعة أننا على مشارف تل أبيب . . وصدق صانع الأقنعة . . وكتب فى جريدة الأهرام ٥ يونيه ١٩٦٧ نثرًا هو أجمل من شعر المحدثين . .

يامن تحملون سيوفا فعدو بلادى على بابيا

يامن ترفرف عليكم الأعلام حارسين لأعتابنا

خلفكم رابضة قلوب كل قلب هو قلب أسد

فبالله الذى نفسى بيده وبالنيل الذى يجرى فى العروق دما

وبالطفل الذى ينظر لغده لسوف ترون المقعد يقفز من مقعده

والشيخ الذى يفجر من شريانه نهرا والأخرس يطلق بلسانه شعرا

ولكنها كانت الهزيمة التى ألقت بظلالها الكثيفة على وجدان الكاتب والفنان والأديب « توفيق الحكيم » وبعد أن نطق شعرا أو ماهو أشبه بالشعر ، سكت الحكيم لم يتكلم لا جهارا ولا رمزا ولم يرسل خطابات للزعيم ولم يوجه النداء أو يكتب بيانا . . كانت الصدمة قاسية أصابت الكثيرين بالاكتئاب وسار يدب بعصاه على أرض الواقع المصرى الذى أصبح وأمسى حزينا يبعث على الحزن ، وعلى التأمل المجرد بعيدا عن عواطفنا نحو الآخرين . .

الحكيم والحاكم

كانت الفكرة المسيطرة على توفيق الحكيم وهى فكرة صحيحة إلى حد كبير (إن الحاكم لايريد من المفكر تفكيره الحر بل تفكيره الموالى ، إنه يريد أن يسمع منه تأييدا لا اعتراضا . .) .

ونجح الحكيم فى أن يبتعد عن « الملك فاروق » وتحت ستار مظهر الكاتب المسرحى الذى يمسك بالعصا ويجر حماره لم يمدح الملك «فاروق» كما فعل غيره من الكتاب والصحفيين . ولا مرة واحدة وكان تصرفه لبقا وذكيا بمناسبة الاحتفال فى الأوبرا بزفاف الملك فاروق فى ٢٤ يناير ١٩٣٨ . وعلى الرغم من أن الملك وقتها لم يكن مكروها فقد اكتفى « الحكيم » بأن يكتب التمهيد المسرحى للشعراء والمتحدثين أمثال «بهى الدين بركات وعباس محمود العقاد ، وخليل مطران ، وأحمد أمين ، ومحمد الهراوى ، و إبراهيم عبد القادر المازنى ، وعلى محمود طه . . وغيرهم » .

وبذكاء شديد وفى تقديرنا أنه مرسوم ومقصود كان موقفه إزاء جمال عبد الناصر ولو أراد الحكيم أن يكون جليس الحاكم الأول لاستطاع سيما وان جفوة كانت بين العقاد والسلطة الجديدة ، والدكتور طه حسين كان قد زهد فى أمور كثيرة . . وسيما وإن « عبد الناصر » من جهته سلك السبيل التى تمهد للحكيم الاقتراب منه أكثر فأكثر . .

وقد استقبل « الحكيم » ٢٣ يوليو بالحماسة وردد أنه بشر بالثورة وبالثوار ، وأبدى عبد الناصر إعجابه القديم بعودة الروح وتأثره بها . . ودعا « محمد حسنين هيكل » توفيق الحكيم إلى لقاء عبد الناصر وأغلب الظن أنه بطلب من عبد الناصر واعتذر الحكيم إلى آخر هذه الحدوته المعروفة . .

وبعيد ٢٣ يوليو كان الحكيم لم يزل مديرا عاما لدار الكتب المصرية ، ويبدو أن أحد « لابسى القباقيب » حدثته نفسه بأن يجلس على كرسى توفيق الحكيم ، والكرسى الذى جلس عليه من قبل أحمد لطفى السيد والدكتور محمد صبرى السربونى ومنصور فهمى باشا . . فأرسل شكوى كاذبة من أساسها ضد الحكيم وثبت كذبها .

(ومن الطريف أنه أيام كان الوزير الليبرالى المثقف منصور حسن وزيرا للثقافة ، تكررت ظاهرة الشكاوى الكيدية الكاذبة ضد المرحوم صلاح عبد الصبور وضد كاتب هذه السطور . . وكان مصيرها إلى سلة المهملات) . . المهم أن (لابسى القباقيب) ظلوا يتعقبون الحكيم ، وكتبوا للوزير المختص « إسماعيل القبانى » إن ا« الحكيم » موظف غير منتج فى دار الكتب ، وفى مجلس الوزراء عرض الوزير اقتراح فصل الحكيم واعترض « جمال عبد الناصر » بأسلوبه المعروف الذى اضطر الوزير إلى الاستقالة . . وظل عبد الناصر يروى هذه الحكاية وكيف إنه طرد وزيرا من أجل كاتب . . ويقرر « توفيق الحكيم » فى (عودة الوعى صفحة ٩٤) أنه لم (يقابله) طوال حياته أكثر من دقائق معدودة . ونحن وقوف .

وفى عهد عبد الناصر يعين الحكيم عضوا بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بدرجة وكيل وزارة وليتم اختياره سنة ١٩٥٩ مندوبا لمصر فى هيئة اليونسكو بباريس ، ويحصل على جائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٦١ .

والحكيم هنا رحب بالثورة وتحمس لقائدها واستقبلها استقبالا حسنا ، والثورة وقائدها قدما التقدير المعنوى والتقدير المادى للحكيم . . فعندما يكتب كتابه (عودة الوعى) يكون قد كتبه من منطلق سليم هو تناقضة مع إجراءات غير سليمة للثورة نفسها وتناقضة مع مواقف للقائد منافية لحقوق الإنسان . . وهذا كله يجعل من تصرف الحكيم تصرفا لا حقد فيه ولا تنكر فيه ولا تصفية لحسابات قديمة .

لم تكن هناك خصومة من جانب الحكيم أو من جانب عبد الناصر وهذا مايجعل لما كتبه الحكيم فى (عودة الوعى) قيمة خاصة . يتناول الحكيم أحداث يوليو فى رقعة زمنية فسيحة من ٢٣ يوليو ٩٥٢ حتى رحيل عبد الناصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ والمهمة الكبرى لحامل القلم هى الكشف عن الحقيقة .

اتفاقية الجلاء عام ١٩٥٤ بنودها هى البنود نفسها التى سبق عرضها على مصر ورفضتها الأحزاب . . كان بالاتفاقية شرط يسمح للانجليز بالعودة إلى مصر إذا تعرضت المنطقة لأخطار الحرب . ولما كان بقاء السودان مرتبطا بمصر هو العقبة التى فشلت عندها كل مفاوضات سابقة خاصة بالجلاء فإن قادة يوليو تركوا نهائيا موضوع السودان ووقعو اتفاقية الجلاء . وقد سمع «الحكيم» النحاس باشا يقول . . لولا قضية السودان لتم الجلاء عن مصر منذ العشرينات .

وقناة السويس ما كادت تستقر فى أيدينا بأعجوبة فى عام ١٩٥٦ ، ونرى ذهبها يلمع فى أكفنا حتى مضينا نلقى به على تلال اليمن السعيد ، والقبائل حتى الموالية لنا كانت تأخذ ذهبنا بالنهار وتترصد لضباطنا وجنودنا فى الليل .

وفى ٥ يونيو ١٩٦٧ فإن دخول جيوشنا تل أبيب لن يتاخر عن التاسعة مساء من نفس يوم ٥ يونيو .

والاستفتاء الذى تطبل له جميع الصحف مقدما لكلمة « نعم » بالخط الأحمر العريض ، ثم يخرج بنتيجة ٩٩٫٩٩٩ معناه أن هذا البلد ليس له وعى ولا حرية ولا كرامة إنسانية . .

لقد عرفت مصر فى تاريخها القريب زعيما معبودا هو « سعد زغلول » قائد ثورة ١٩١٩ ذلك فى نظر الفلاحين هذاالزعيم لم تمنع عبادة الشخص له من وجود معارضين يخالفونه الرأى ، بل إن صحيفة معارضة تناولته بالتجريح وهو زعيم الأغلبية ، ورئيس الحكومة واحتكم إلى القضاء .

ولكن القضاء المصرى العادل لم يعط الحق لرئيس الحكومة وحكم ببراءة المعارضة .

ومصطفى النحاس حدث أن جاء إلى الحكم . . وكنت مديرا لادارة الإرشاد بوزارة الشئون الاجتماعية والوزير هو « عبد المجيد عبد الحق »ونشر « توفيق الحكيم » مقالا فى جريدة الأهرام يهاجم الوفد وزعيمه ولم يمس الحكيم بأذى .

والمؤتمر القومى ينعقد . . مجرد كتل بشرية لا عقل لها ولا تفكير وأذرع تلوح وأياد تصفق وأفواه تهتف . . وأصبحت الحناجر هى العقول . . وابتسامة الرضى ترتسم على شفتى الزعيم . .

وهنا تكمن مسئوليتنا نحن المثقفين ويقع علينا اللوم بل المحاسبة أمام التاريخ لابد من محاكمة لنا جميعا . .

أرجو من التاريخ ألا يبرىء شخصا يحسب فى المفكرين ، وقد أعمته العاطفة المحبة للثورة عن الرؤية ففقد الوعى بما يحدث حوله . .

هــذا قــدره

ولقد قدر له أن يبحر دائما فى مياه صعبة . ومنحه الله القدرة على الإبحار بين الأمواج المتلاطمة ابتعد عن السياسيين ولم يبتعد عن السياسة ابتعد عن الأحزاب ولم يبتعد عن المجتمع ومشكلاته ، مرت عليه حربان عالميتان فانحاز إلى الإنسان وإلى الديمقراطية وإلى الأطفال . . و(لعنة الله على العلم الذى ينزع الطعام من أفواه البشر ليضعه فى أفواه المدافع . .) وعاش أربع حروب بين العرب وإسرائيل . . وقال كلمته المشهورة فى ٦ أكتوبر ٩٧٣ (عبرنا الهزيمة) وشهد فى حياته حرب اليمن . عاش حياته فنانا وعاش السياسة فنانا ، وقضى فى باريس أربعة أعوام وقرأ المقرر ولم يتقدم للأمتحان وعاد من أوربا عام ١٩٢٨ ليعمل فى النيابة فى الإسكندرية ، ووكيلا للنائب العام فى طنطا وغيرها لخمس سنوات إلى أن نقل مديرا للتحقيقات بوزارة المعارف سنة ١٩٣٤ .

وعاش عصر الملك فؤاد والملك فاروق ، وفترات جمهورية محمد نجيب وجمال عبد الناصر وأنور السادات . . وأخيرا رحل فى عهد « محمد حسنى مبارك » شهد الأحزاب كلها أمامه . . وهاجم الأحزاب فى عهد « محمد محمود » فطالب بفصله ولم يتمكن وزير المعارف « الدكتور محمد حسين هيكل » من ذلك فخصموا من مرتبه ١٥ يوما ، وهاجم الأحزاب فى عهد حكومة « مصطفى النحاس » . . (فلم يلحق بى أذى) .

عاش جسرا ممتدا بين ١٩١٩ و١٩٥٢ . . سنة ١٩١٩ سار فى التظاهرات يهتف للثورة

ولقائدها سعد . وسنة ١٩٥٢ قال إنه نادى بالثورة من قبل ولكنه ظل سنين لايكتب كلمة تأييد واحدة سواء فى مقال مباشر أو فى عمل فنى حرص « جمال عبد الناصر » على أن يقترب «الحكيم» منه ومن نظامه ، ولكن الحكيم لم يشكره لا بالمقابلة ولا بالمراسلة لقد تأصلت فى نفسه (عادة البعد عن رجال السياسة والحكم) .

بطاقة عائلية

وتاريخ ميلاد الحكيم هو ٩ أكتوبر ١٨٩٨ ، ومكان الميلاد حى محرم بك بالإسكندرية . . والأب هو إسماعيل من رجال القضاء والأم «اسماء» تركية بنت « سليمان » بن « ميلاد السيامى » أما جده لأبيه فهو « أحمد الحكيم » واسمه هو « حسين توفيق » فيكون اسمه الكامل : « حسين توفيق إسماعيل أحمد الحكيم » واختار أن يعيش بين الناس باسم « توفيق الحكيم » وكانت أمنيته وهو طفل أن يصبح (محولجى قطارات) وقال عنه زميل دفعته يحيى حقى : (شاب نحيل أصفر الوجه ، بارز العينين صموت ، على رأسه أقصر طربوش فى الفصل . ولو قيل لى يومئذ إن جارك هذا سيصبح نجما فى سماء الأدب لاستهزأت بالقائل) . .

الأسانيد :

١ ـ رجاء النقاش مقعد صغير أمام الستار .

٢ ـ فؤاد دواره مسرح توفيق الحكيم (المسرحيات السياسية) .

٣ ـ توفيق الحكيم عودة الوعى .

٤ ـ محمد السيد شوشة حياة توفيق الحكيم (٨٥ شمعة) .

٥ ـ محمد مهدى علام المجمعيون فى ٥٠ عاما .

جمال عبد الناصر



معذرة لست البرين . . ولكفر زرقان المجاورة لميت أبو الكوم ، وللعسل وصل ، وللعلاج بالعطارة ، ومعذرة للأفندى الذى هو أول من حصل على الشهادة الابتدائية فى ميت أبو الكوم ـ حسب رواية « أنور السادات) عن (الأفندى) والده . . ومعذرة للسيدة « همت مصطفى » التى اعتادت أن تقدم لنا حلقة يوم ٢٥ ديسمبر من كل عام ، يوم ميلاد الرئيس الراحل « أنور السادات» .

عبد الناصر هو القائد والمنظم للضباط الأحرار والسادات هو أحد قادة الضباط الأحرار ، ربما كان له دور قديم ، ولكن تأخر انضمامه إلى اللجنة التأسيسية ، بل قامت حوله اعتراضات حادة، وعبد الناصر حكم مصر قبله ، وقدر للسادات أن يعقبه فى حكم مصر بعد رحيله فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، ولست أجد تشبيها للعلاقة بين جمال عبد الناصر وأنور السادات أكثر طرافة من حديث لأنور السادات عن (وابور الزلط) فى طفولته بميت أبو الكوم أنقله عن كتاب (البحث عن الذات) صفحة ٢١ .

(وابور الزلط فى كل مرة أصادفه كنت أراه يسير ورائى . . أسرع الخطى فيسرع خطاه . . أجرى فيجرى خلفى . . ماقصده بالضبط ؟ واضح أنه يسعى ليدوسنى تحت عجلاته الضخمة . . كلما نظرت خلفى رأيته يلاحقنى فيزداد ذعرى . . ولم يكن لينقذنى منه كل مرة إلا إذا انعطفت فى حارة ضيقة لا تسمح بمروره . .) لقد كان « عبد الناصر » دائما هو وابور الزلط الذى يلاحق أنور السادات فيصاب بالذعر .

من الطبيعى إذن أن أعطى هذه الحلقة (لوابور الزلط) « جمال عبد الناصر حسين خليل سلطان » الذى دخل تاريخ مصر ، وتاريخ البلاد العربية ، وتاريخ العالم فى العصر الحديث تحت اسم « جمال عبد الناصر » .

وتاريخ عبد الناصر كتبت عنه مقالات كثيرة ، وبحوث كثيرة ، وصدرت عنه كتب كثيرة ، من أجل هذا فإننا نقصر حديثنا هنا على نقطة واحدة هى (التطابق الكامل بين أهداف أمريكا إزاء الثورة الشعبية المصرية التى تصاعدت عامى ١٩٥٠ ، ١٩٥١ والموقف العملى لجمال عبد الناصر طوال سنوات ٥٢ ، ٥٣ ، ١٩٥٤) معطيات التاريخ تقدم لنا تطابقا مذهلا بين التخطيط الأمريكى والتطبيق « اليوليوى » إزاء الحركة الشعبية المصرية .

ونحن هنا لانتحدث بمفهوم البعض عما يسمونه (بالاتفاق الخفى بين عبد الناصر والدوائر الأمريكية قبل يوليو ١٩٥٢) ولانتحدث عن منطق وصف حركة ٢٣ يوليو بأنها انقلاب أمريكى ، وإنما نقدم فقط أهداف الولايات المتحدة الأمريكية نقلا عن (الوثائق الأمريكية) ثم نعرض ما قامت به حركة ٢٣ يوليو فى سنواتها من يوليو ١٩٥٢ ـ يوليو ١٩٥٤ من واقع ماجرى فعلا من أحداث ، فإذا بالتشابه غريب وإذا بالتطابق مذهل أترك تفسيره للباحثين وللدارسين ولمن يملكون وثائق أكثر ويبقى هذا التطابق المذهل ـ فى تقديرى ـ مفتاحا لمواقف عبد الناصر فيما بعد ، ويقدم تفسيرا لما حدث أثناء ولاية أنور السادات أيضا .

وقبل أن نغرق فى الوقائع وفى التفسيرات تلح علينا صورة إنسانية لطفولة عبد الناصر وصدر شبابه ، وصورة حزبية فى شبابه وصدر كهولته .

كان « عبد الناصر حسين خليل سلطان » قد غادر (بنى مر) فى محافظة أسيوط إلى الإسكندرية . وعندما كان « جمال » فى الثامنة من عمره انتقل ليعيش مع عمه (خليل) فى حى الموسكى بالقاهرة . وفى التاسعة من عمره توفيت والدته التى كان يحبها أعمق الحب . وعاد «جمال» من القاهرة إلى الإسكندرية بعد وفاة والدته ليعيش مع جديه لوالدته وتلحقه أسرة والدته بمدرسة العطارين الابتدائية ويعود مرة أخرى ، وهو فى الثانية عشرة من عمره ليعيش مع عمه (خليل) فى القاهرة ثم ترك بيت عمه خليل الذى انتقل إلى المحلة الكبرى وعاش مع والده الذى كان قد نقل للعمل بالقاهرة . وعام ١٩٣٦ أجبره والده على أن يعيش مع عمه خليل فى المحلة الكبرى . وعاد إلى القاهرة ليلتحق بالكلية الحربية .. فترة قاسية أسريا ووجدانيا وعاطفيا وماديا ، ثمانية عشر عاما منذ ميلاده فى ١٥ يناير ١٩١٨ لم يذق فيها حنانا أو راحة أو استقرارا .

عـدم الاستقرار الحزبى

وعلى المستوى الحزبى ونشاط « جمال عبد الناصر » قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ يقول هو فى ١٨ نوفمبر ١٩٦٥ أمام الشباب فى حلوان :

(أنا قبل الثورة كنت على صلة بكل الحركات السياسية . . يعنى مثلا كنت أعرف الشيخ حسن البنا . . لكن ماكنتش عضو فى الإخوان . . وكنت أعرف ناس فى الوفد ، وكنت أعرف ناس من الشيوعيين . أنا باشتغل فى السياسة من أيام ماكنت فى ثالثة ثانوى . وأول ما اشتركت . اشتركت فى مصر الفتاة وبعدين حصل خلاف وسبت مصر الفتاة وانضميت للوفد . وبعدين نفس الشىء حصل فى الوفد) .

ووثائق هذه القوى السياسية ، وشهود الأحداث ، والوقائع التاريخية تؤكد أن عضوية « جمال عبد الناصر » فى هذه الجماعات كانت عضوية كاملة وليست مجرد معرفة (ناس) فى هذه الجماعات .

كان عضوا فى (مصر الفتاة) وقد كتب « محمد صبيح » عن هذه الفترة كتابة موثقة كان عضوا عاملا وليس مجرد معرفة !

ومنذ مطلع عام ١٩٤٤ كان عضوا وليس مجرد معرفة . فى الخلية السرية الأولى للضباط فى (جماعة الإخوان المسلمين) ومعه «عبد المنعم عبد الرءوف ، وخالد محيى الدين ، وحسين حمودة ، وصلاح الدين خليفة » وفى أوائل عام ١٩٤٦ وفى منزل بحى الصليبية بجوار سبيل أم عباس ، منزل « عبد الرحمن السندى » رئيس التنظيم السرى . دخل جمال عبد الناصر هو وزملاؤه حجرة بها ضوء خافت ومفروشه بالحصيرة يجلس بها رجل مغطى بملاءة وأخذ البيعة على المصحف والسيف .

وكان عضوا ـ وليس مجرد معرفة ـ فى تنظيم حدتو الشيوعى (الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى) باسم حركى هو «موريس» .

أما انضمامه إلى (الوفد) فقد ذكره هو فى كلمته التى أشرنا إليها وعلاقته مؤكدة بالمرحوم عزيز فهمى وبالاستاذين إبراهيم طلعت وأحمد أبو الفتح وبالمهندس رفيق الطرزى .

لقد كانت له سياحة داخل هذه الجماعات السياسية ربما تفسر لنا مواقفه من هذه الجماعات فى مجالى المهادنة أو القمع بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

مقدمات عن الطفولة والنشاط الحزبى لمن يريد أن يفسر مواقف « الفرد » بأيام الطفولة وأحداث الشباب .

الوثائق الأمريكية

والوثائق الأمريكية التى نقصدها هنا هى تلك التى وردت ضمن دراسة قام بها « الدكتور رضا شحاته » وهو مستشار بالخارجية المصرية ، والوزير المفوض الآن لسفارتنا فى باكستان أى أن الذى أعد الدراسة وترجم نصوص الوثائق دبلوماسى مصرى يعمل بوزارة الخارجية المصرية ، وقد عرض الدراسة ولخصها « غنيم عبده » وهو فيما يبدو من كتاباته ناصرى أو على الأقل غير معاد لعبد الناصر ، وقد قامت بنشر هذه الدراسة ونصوص الوثائق الأمريكية مجلة المصور المصرية فى أعدادها من (٣١ يوليو - ٢١ أغسطس ١٩٨٧) .

فى تقرير أمريكى لأول مرة فى مطلع عام ١٩٤٩ . . (يبدو من تطور الأمور فى مصر من سيئ إلى أسوأ أن الثورة قد أصبحت أمرا محتوما) والثورة التى يشير إليها التقرير الأمريكى هنا هى الثورة الشعبية التى تخشاها الولايات المتحدة الأمريكية والتى حذرت منها فى وثائقها وليست هى (ثورة ٢٣ يوليو) كما قد يتبادر إلى الأذهان . . فالتقرير يشير أيضا إلى (أنه فى كل الظروف الراهنة فإن الصراع سيحتدم بين الملاك والمعدمين . . إن المستقبل فى مصر كئيب . .) ومع تطور الأمور خاصة بعد أن قام « مصطفى النحاس » بالغاء معاهدة ١٩٣٦ فى ٨ أكتوبر ١٩٥١ تقول الوثائق . . « قدر كافرى فى أعقاب الغاء معاهدة ١٩٣٦ أنه ما لم يتم التوصل لحل حول القناة فإن انفجارا مدويا لن يكون أمرا مستبعدا وإنه سيكون له تداعيات تصل إلى الثورة والسيطرة الشيوعية» واضح هنا أن الثورة التى تتوقعها وتخشاها أمريكا هى ثورة تؤدى إلى السيطرة الشيوعية ! وتكشف التقارير عن قلق أمريكا من مقاطعة العمال المصريين للقواعد البريطانية وتصب جام غضبها على (الوفد) بسبب هذه الأحداث . (إن الولايات المتحدة تبدى الأسف لاستمرار حرب العصابات ضد البريطانيين الأمر الذى يزيد من تفاقم المشكلات الداخلية فى مصر . . إن القلاقل الناتجة عن مقاطعة العمال المصريين للقواعد البريطانية أمر يؤثر فى الوضع المضطرب فى الشرق الأوسط) ولهذا يصف التقرير الأمريكى الوفد (بأنه أفسد حزب سياسى فى تاريخ مصر الحديث) وبعد حريق القاهرة والإطاحة بحكومة الوفد يقول التقرير (وقد أبدى السفير الأمريكى فى القاهرة ارتياحا تاما لتغيير حكومة الوفد) .

الحركة الشعبية

ولكن ماذا حدث فى القاهرة طوال حكومة الوفد « ١٩٥٠ - ١٩٥٢) وبفعل الحريات التى أتاحتها حكومة الوفد مما أثار مخاوف أمريكا من ثورة شعبية قد تؤثر على النفوذ الغربى كله فى

المنطقة ؟ وجعل أمريكا ترتاح لتغيير حكومة الوفد ، وفى بعض التحليلات السياسية أنها عملت على الإطاحة بحكومة النحاس باشا .

على النطاق الوطنى قامت حكومة الوفد بإلغاء المعاهدة ، ودعت العمال المصريين إلى مقاطعة القواعد البريطانية ، وقام المرحوم « عبد الفتاح حسن » بتدبير العمل لآلاف العمال العائدين من المعسكرات البريطانية ، وأنهت الحكومة المفاوضات وشجعت الكتائب المسلحة لضرب قوات الاحتلال وكون عزيز المصرى ومصر الفتاة وجماعة الإخوان المسلمين والشبان المسلمون كتائب مسلحة تضرب الإنجليز فى منطقة القناة ، وأطلقت الحكومة حرية حمل السلاح ، وتشكلت لجنة للكفاح المسلح فى القناة من « رفيق الطرزى ويس سراج الدين ورياض شمس ومحمد بلال وحنفى الشريف ومصطفى موسى » ، ودارت الأحداث كالأمواج العالية وخرجت التظاهرات تمزق هيبة الملك على أرض الشارع ، وتصاعد الهجوم على كبار الملاك وأصحاب رءوس الأموال المتعاونين مع الإنجليز . ووقف ضباط الجيش وضباط البوليس مع الجماهير . . ودخل الفلاحون والعمال المعركة وارتفع صوت « خالد محمد خالد » يطالب بإصلاح زراعى وبتحديد الملكية وبالقضاء على الخيانة والفساد . ونزل مصطفى النحاس إلى الشارع على رأس تظاهرة من مليون مواطن ، وتداخلت شعارات الاستقلال الوطنى والثورة السياسية والثورة الاجتماعية . وارتعدت فرائص الجالس على العرش ، وفزعت قوات الاحتلال ، وسيطر القلق على أمريكا . وكان لابد من الإطاحة بحكومة الوفد حتى يمكن وقف هذا المد الشعبى المتصاعد ، وفى كتابه « الإخوان والثورة » على صفحات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ يشير الصديق الحميم لجمال عبد الناصر وقطب الإخوان المسلمين « حسن العشماوى » إلى جمال عبد الناصر على أنه هو الذى أحرق القاهرة فى ٢٦ يناير .

على أية حال حدث حريق القاهرة ، وأطيح بحكومة الوفد ، وكتبت « التايم » الأمريكية « إن الولايات المتحدة الأمريكية تنظر إلى أحداث مصر نظرتها إلى أحداث اليونان سنة ١٩٤٧ عندما حاولت أن تحل محل بريطانيا هناك ، وجاءت أربع وزارات من ٢٧ يناير حتى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . . وعلى الجانب السياسى حملة سياسية للتشهير بالوفد ، وتصفية الحركة الشعبية وتنظيماتها ووقف أعمال الكتائب فى القناة واعتقال عدد كبير من العناصر الوطنية من الجماعات السياسية المختلفة .

أمريكا و ٢٣ يوليو

وتشير الوثائق الأمريكية إلى أن الملك «فاروق» اتصل بالسفير الأمريكى « كافرى » أكثر من مرة ولكن « كافرى أكد لفاروق أن الحركة ليست موجهة له شخصيا » ، كما توضح الوثائق أيضا أن

«الخارجية الأمريكية ناقشت انقلاب الجيش فى مصر مع ممثلى السفارة البريطانية ، وأكدت أن حركة الجيش مسألة داخلية » أى لا ضرورة لأى تدخل من جانب بريطانيا . وعلى هذا « أكد الملحق العسكرى البريطانى لمحمد نجيب فى ٢٤ يوليو أن بريطانيا لن تتدخل » .

وقابل « على صبرى » الملحق الجوى بالسفارة الأمريكية « ديفيد ايفانز » حسب ما جاء فى الوثائق الأمريكية ـ وطرح عليه «مخاوف رجال ٢٣ يوليو من تطلع الوفد للحكم ، ومن مهاجمة الشيوعيين للانقلاب ، ونفى أية صلة للحركة بالإخوان المسلمين » وفى صباح ٢٤ يوليو أيضا اجتمع « البكباشى سليمان محمود ، والصاغ عبد النعم النجار » بديفيد ايفانز وأبلغاه « بطلب معونة عسكرية ومعدات من أمريكا والاشتراك فى قيادة مشتركة مع الحلفاء والقضاء على النفوذ الشيوعى » وتشير الوثائق إلى مسألة خطيرة عن لقاء نجيب مع كافرى فى ٢٠ أغسطس « وتحدث كافرى عن برامج الإصلاح الزراعى ، وخطورة التسرع فى إطلاق سراح الشيوعيين » .

ملحوظة : لم يتم إطلاق سراح الشيوعيين ، وأعلن عن الإصلاح الزراعى فى ٩ سبتمبر . .

ويقول التقرير أيضا : « وقد نقل أباظه يقصد وجيه أباظه ـ أن الصحف الشيوعية المعارضة . . الملايين ، الاشتراكية ، الكاتب المصرى ـ يقصد مجلة الكاتب لأنصار السلام ، سوف يوقف صدورها ، وأنه من المنتظر إغلاق المصرى أفندى يقصد جريدة المصرى » وهذا ماحدث فعلا . . وإن كان قد تأخر إغلاق المصرى حسب خطة عبد الناصر إلى عام ١٩٥٤ ، وقد اقتضت الظروف ضرب الوفد والشيوعيين ومهادنة الإخوان إلى أن طاردهم عبد الناصر بشراسة عام ١٩٥٣ . وتم حل الأحزاب والغاء دستور ١٩٢٣ وفتح المعتقلات .

عـود على بـدء

والمؤرخ وهو يسجل لفترات حكومة الوفد من يناير ١٩٥٠ ـ يناير ١٩٥٢ ، وفترات ٤ وزارات من ٢٧ يناير ـ ٢٢ يوليو ١٩٥٢ ، وفترات نظام يوليو من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ـ يوليو ١٩٥٤ يرى بوضوح أن الحركة الشعبية المصرية قد استخدمت السلاح لطرد المحتل ، وطالبت بإسقاط الملك من أجل جمهورية برلمانية ، ونددت بالنفوذ الأمريكى الذى يهدف إلى أن يحل محل النفوذ البريطانى ، ومارست حرية الصحافة وطالبت بحريات أوسع ، ووجدت الجماهير الشعبية فى الشارع هاتفة بمطالبها وأصبحت مصر على شفا ثورة شعبية من أجل ديمقراطية حقيقية وعدالة اجتماعية واستقلال وطنى .

ويرى المؤرخ بوضوح فى الفترة الثانية بدايةللمعتقلات ومطاردة للقوى الشعبية ومهادنة النفوذ الأمريكى ومحاولات للتهدئة بإصلاحات شكلية . . أما فى الفترة الثالثة « القيادة الحقيقية فيها

لجمال عبد الناصر » فإن المؤرخ يرى بوضوح طردا للملك فاروق وإقامة لجمهورية دكتاتورية ، ويرى مطاردة القوى الشعبية بشراسة لم يكن لها مثيل فى تاريخ مصر الحديث ، واتخذت الفئة العسكرية من الطبقة الوسطى موقفا معاديا للديمقراطية منذ اليوم الأول للاستيلاء على السلطة ، وضربت الأحزاب والمؤسسات السياسية والجامعة المصرية ومجلس الدولة والمؤسسات الصحفية ، وفتحت المعتقلات وباشرت أبشع ألوان التعذيب وصفت الحركة الشعبية .

وبعد أن تحققت هذه الأهداف التى كانت هى تماما أهداف أمريكا نشب الصراع داخل مؤسسة الفئة العسكرية من الطبقة الوسطى كأبشع مايكون الصراع ، خاصة عندما حاول أحد أجنحة هذه المؤسسة « محمد نجيب» أن ينسق مع القوى الشعبية التى حاولت أن تسترد مواقعها التى كانت لها قبل ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، وللإنصاف التاريخى فإن عبد الناصر بعد أن سيطر على مقدرات البلاد وفى مواجهة محاولات الولايات المتحدة الأمريكية .لزيادة نفوذها داخل مصر ، وحجب السلاح عن مصر ، واستخدام الضغط الاقتصادى حاول أن يشير فى طريق مستقل ولم يكن أمامه غير الاتحاد السوفييتى فى الخارج وغير الشيوعيين فى الداخل . . ولم يكن أمام أمريكا إلا التآمر عليه ووضع نهاية له . وقد تم هذا ـ فى تقديرنا ـ بهزيمة ١٩٦٧ التى أصابت عبد الناصر بجرح عميق فى نفسيته وفى زعامته وفى قيادته إلى أن رحل فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ . . جمال عبد الناصر . . وطنى نعم اشتراكى لا ، ديمقراطى لا ولا وألف رحمة عليك ياناصر .

الأسانيد :

١ ـ د . إبراهيم دسوقى أباظه . الخطايا العشر .
٢ ـ حسن العشماوى . الإخوان والثورة .
٣ ـ حسين حمودة ، الضباط الأحرار والإخوان المسلمون .
٤ ـ د . رضا شحاته ، أمريكا وثورة يوليو .
٥ ـ روبرت سان جون « الرئيس » ترجمة سعد زغلول نصار .
٦ ـ سيد مرعى . أوراق سياسية .
٧ ـ صلاح عيسى ، الكاتب يوليو ١٩٧٤ .
٨ ـ طارق البشرى . الحركة السياسية فى مصر .
٩ ـ موسى صبرى . قصة ملك و٤ وزارات .

حافظ عفيفى



طبيب الأطفال « حافظ عفيفى » عندما كان فى العشرين من عمره (ولد فى ٩ نوفمبر ١٨٨٦) هل كان يدرى وهو يتزعم إضرابات طلاب المدارس العليا ضد سلطات الاحتلال بعد دنشواى (٣ يونية ١٩٠٦) هل كان يدرى ؟ أو يتصور ـ مجرد تصور ـ أن يأتى يوم يؤلف فيه كتابا كله مديح للإنجليز (الإنجليز فى بلادهم). وهل كان يدور بخاطره ان ينشر فى جريدة (الأهرام) فى ٢٥ أغسطس ١٩٥١ دفاعا عن معاهدة ١٩٣٦ ؟ . ودفاعا عن تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ؛ ويعلن تمسكه بالمعاهدة فى الوقت الذى أرتفع فيه المد الشعبى ضد الاحتلال . وفى الوقت الذى كان فيه «مصطفى النحاس » يعد فى تكتم شديد دون أن يعلم الملك والإنجليز قراره التاريخى بإلغاء المعاهدة ، والذى تم فى ٨ أكتوبر ١٩٥١ .

« حافظ عفيفى » العضو النشط فى الحزب الوطنى ، حزب مصطفى كامل ومحمد فريد هل كان يدرى وهو يؤيد « الخديو عباس الثانى » وقت أن كان الخديو وجها مقبولا من المصريين . . هل كان يدرى أو يتصور ـ مجرد أن يتصور ـ إن يأتى عليه يوم (٢٥ ديسمبر ١٩٥١) .

يتولى فيه رئاسة الديوان الملكى ؟ فيسمع بأذنيه هدير الجماهير بالموت له ولمليكه فاروق ؟

« حافظ عفيفى » أحد اثنين اختارهما « سعد زغلول» ليمثلا شباب الحزب الوطنى (٢ ديسمبر ١٩١٨) لعضوية الوفد وأحد ثلاثة « مصطفى النحاس ، وويصا واصف ، وحافظ عفيفى » اعتمد عليهم « سعد زغلول فى مصر عندما كان الوفد فى أوروبا اعتمادا شخصيا ، (ويلاحظ أن الثلاثة كانوا من ابناء الحزب الوطنى) . . حافظ عفيفى هذا ، هل كان يتصور ـ مجرد أن يتصور ـ أنه فى صيف ١٩٢١ يدعو إلى إنشاء (جمعية مصر المستقلة) بهدف مساندة « عدلى » فى مفاوضاته مع الإنجليز ، وذلك لأن «سعد زغلول » كان يعارض هذه المفاوضات ؟ ويبادر « حافظ عفيفى »

بارسال برقية تأييد لعدلى باسم الجمعية . وبعد فشل المفاوضات واصل « عفيفى » مساندته لعدلى ، ثم حصل على أمتياز إصدار (جريدة السياسة) والآن من المقدمة إلى التفاصيل.

فى ديسمبر ١٩٠٥ تأسس (نادى المدارس العليا) وتم اختيار « عمر لطفى » أول رئيس له . وفى بلد كمصر كانت نسبة الأمية مرتفعة فيه كان من الطبيعى أن يقوم طلاب المدارس العليا بدور الطليعة التى تطالب بالاستقلال والتطور والتقدم . وعلى الرغم من أن طلاب (مدرسة الحقوق) كانوا عماد نادى المدارس العليا ، فإن عددا من طلاب المدارس العليا الأخرى كان له دور فى كل ماقام به هذا النادى ، ومن بين هؤلاء الطالب « حافظ عفيفى » .

وهذه المجموعة النشطة من طلاب المدارس العليا هى التى سارت وثارت خلف « مصطفى كامل » لأنه كان الصوت الجديد الذى يبعث الأمل فى الحركة الوطنية المصرية بعد انتكاسة الثورة العرابية . وفى الوقت نفسه كان « محمد طلعت حرب » فى تلك الفترة الباكرة ينادى بالاستقلال الاقتصادى . ويدعو (سنة ١٩٠٦) إلى التعاون . وإلى إنشاء بنك وطنى .

وأصبح لحافظ عفيفى دور بارز داخل أعضاء الحزب الوطنى أيام مصطفى كامل ، وبعد رحيل مصطفى كامل اقترب من «محمد فريد » والقيادة الجديدة . ونرى له دورا واضحا فى الحرب التركية الإيطالية التى بدأت فى ٢٩ سبتمبر ١٩١١ ، وذلك ضمن المجموعة الشعبية التى سافرت إلى (طرابلس الغرب) لمعاونة المجاهدين العرب فى ليبيا . ثم عادت القوى الشعبية والتضامنية فى يوليو ١٩١٣ بعد تخاذل السلطات التركية . فعندما انضم إلى الوفد المصرى نجده ينصرف إلى الجهاد تحت لوائه بكل طاقته إلى درجة أن « محمد فريد » زعيمه السابق يكتب فى مذكراته أن «حافظ عفيفى » لم يرد على رسالة من أحد زملائه السابقين فى الحزب الوطنى والذى كان معه فى طرابلس . مما جعل محمد فريد يغضب من هذا التصرف ويسجله فى مذكراته .

سنة تانيـة وفـد

إلا أن هذه الحماسة للوفد لم تدم فى الواقع أكثر من عامين من ديسمبر ١٩١٨ تاريخ انضمامه للوفد إلى ديسمبر ١٩٢٠ وهو الوقت الذى ظهرت عليه فيه أعراض الميل إلى المعارضين لسعد زغلول .

كانت غالبية الوفد قد سافرت من بورسعيد فى ١ أبريل ١٩١٩ متجهة إلى فرنسا ، وبعد فترة وجيزة يعود « ويصا واصف » إلى مصر وتتكون مجموعة ثلاثية من « مصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفى » تخلص لسعد أشد الإخلاص ، ويظل الاتصال بين سعد وبينهم بالشفرة التى يحفظ مفاتيحها « محمد كامل سليم » .

وفى ١٧ يوليو ١٩٢٠ يقدم « ملنر » مشروعه أو (مشروع المعاهدة) إلى الوفد . ورأى سعد أن المشروع حماية صريحة ، وأعلن ضرورة قطع المفاوضات ، والعودة من لندن إلى باريس ، ولكن أغلبية الوفد ومعهم « عدلى » رأوا ضرورة التريث . وانتهى الموقف إلى عرض المشروع على الأمة لأن فيه بعض الامتيازات وتقرر أن يعود إلى مصر « محمد محمود ، وعبد اللطيف المكباتى ، وأحمد لطفى السيد ، وعلى ماهر » ليشرحوا المشروع للأمة بأسلوب محايد . ورأى « سعد » أن ينضم إلى هؤلاء الأربعة كل من « مصطفى النحاس ، وويصا واصف ، وحافظ عفيفى » الموجودين أصلا فى القاهرة . وسافر الأربعة من مارسيليا بالباخرة يوم ٣١ أغسطس ١٩٢٠ ليصلوا إلى الإسكندرية فجر يوم ٧ سبتمبر ، على أن ينجزوا مهمتهم خلال شهر وأن يعودوا إلى باريس يوم ٧ أكتوبر وأعد سعد زغلول خطابا خاصا إلى مصطفى النحاس جاء فيه .

(إننى لست من رأى المشروع الذى ستعرضونه على الأمة أنتم والقادمون إليكم من إخوانكم لأنه مشروع ظاهره الاستقلال وباطنه الحماية) . . وأرسل كذلك أكثر من عشرين خطابا لأعضاء الجمعية التشريعية البارزين بالمعنى نفسه . وقد حدد سعد تحفظاته على المشروع وقد بذل «مصطفى النحاس » جهودا مشكورة لتتمسك الأمة بهذه التحفظات ، بينما حاول المندوبون الأربعة أن يجعلوا منها عناصر ضغط عند المفاوضات . ولظروف عديدة اتجه الرأى العام فى مصر إلى أن المشروع يصح أن يكون أساسا للمفاوضات مع وضع التحفظات فى الاعتبار . وفى أكتوبر ١٩٢٠ عاد المندوبون الأربعة ومعهم « حافظ عفيفى » ومصطفى النحاس ، وويصا واصف » من مصر إلى باريس . وكان « سعد » قد لاحظ أن المندوبين الأربعة كانوا يراسلون « عدلى يكن » بما يفيد إمكانية تمرير المشروع وغضب « سعد » من النتيجة التى وصل إليها المندوبون الأربعة واتهمهم بعدم الحيدة فى مهمتهم . ثم عاد إلى مصر « مصطفى النحاس ، وحافظ عفيفى وويصا واصف، فى ٢٣ نوفمبر ١٩٢٠ ، وبعد ذلك عاد «عدلى يكن » وقد اعتزم أن يشكل وفدا مستقلا للمفاوضات تؤيده فى ذلك غالبية أعضاء الوفد . وقد أفصح عن هذه الخطة الخفية « عبد اللطيف المكباتى » الذى أطلقوا عليه لصراحته البالغة « عبد اللطيف المدباتى » بقوله : (إنهم يريدون تنحية الرئيس سعد عن المفاوضات ، وأن يتولى أمرها عدلى ومن يختارهم . . ولقد حاولنا تهدئة سعد وزعمنا أننا على رأيه ولانريد الدخول فى المفاوضات الرسمية إلا بعد قبول التحفظات . . ولكن« سعد» ثعلب لم ينخدع بما قلناه .)

وشكل عدلى وزارته فى ١٦ مارس ١٩٢١ ـ ٢٤ ديسمبر ١٩٢١ . وهنا قام « حافظ عفيفى » بدور نشط فى تأييد حكومة عدلى . وفى تأييد مفاوضاته مع الإنجليز وفى تكريس الانقسام عن الوفد . وحاول عدلى خداع سعد وطلب منه أن يشترك فى وفد المفاوضات غير أن « سعد » رفض ونزل إلى الشارع يهاجم المفاوضات .

التحول والخروج

لم تعد المواقف تتحمل المحاورة والمداورة . . سعد أو عدلى . . الاستقلال أو الحماية . . المشروع بتحفظات أو بدون تحفظات . . ونشط « حافظ عفيفى » فى تشكيل (جمعية مصر المستقلة) ومعه « حسن عبد الرازق ، وعلى إبراهيم ، وإسماعيل زهدى ، وصليب سامى ، ومحمد صالح » ، وآخرون . وأعلنوا أن هدف الجمعية مساندة وفد المفاوضات الذى يرأسه « عدلى يكن » . وأرسل « عفيفى » برقية تأييد باسم الجمعية . ولكن المفاوضات فشلت واستقال « عدلى » وتم اعتقال « سعد ومكرم عبيد وسينوت حنا وفتح الله بركات ومصطفى النحاس » ، وسار أنصار عدلى فى طريق تحويل (الجمعية) إلى حزب سياسى وحصل « حافظ عفيفى » على امتياز إصدار (جريدة السياسة) . ومارست وزارة « عبد الخالق ثروت » نفوذها من أجل إصدار الجريدة وإعلان الحزب الجديد . وأعلن حزب الأحرار الدستوريين فى ٣٠ أكتوبر ١٩٢٢ . وتم انتخاب ثلاثين عضوا لمجلس الإدارة من بينهم الأعضاء البارزون فى (جمعية مصر المستقلة) .

وداخل حزب الأحرار كان له دور ملحوظ فى اختيار « عدلى يكن » رئيسا للحزب سنة ١٩٢٢ ، وبعد أن استقال « عدلى » من رئاسة الحزب سنة ١٩٢٤ ، قام حافظ عفيفى ومحمد محمود بدور هام فى أن يتولى الرئاسة « عبد العزيز فهمى » وبعد أن أصر «عبد العزيز على الاستقالة سنة ١٩٢٦ ظل المنصب شاغرا إلى فبراير ١٩٣٠ ، حتى تولى « محمد محمود » رئاسة الحزب . وخطوة خطوة بدأ « حافظ عفيفى » عضو (نادى المدارس العليا) وابن الحزب الوطنى ، والذى شارك فى الحرب ضد الغزو الإيطالى فى طرابلس ، وأحد اثنين اختارهما سعد لعضوية الوفد ، وأحد ثلاثة كان سعد يضع أمله فيهم . . بدأ يبتعد عن هذا الطريق . وبدأ يتحدث عن (الإنجليز فى بلادهم) بشىء من المودة ، وأصبح وزيرا فى وزارة محمد محمود الأولى . وبدأ يتوق إلى أن يكون أحد العناصر الرأسمالية فى بلادنا .

وموقفه من الإنجليز أشرنا إليه فى البداية وسوف نعود إليه عندما يقترب الموضوع من نهايته . ووضعه المالى سوف نعرض له بعد حين ، أما رغبته فى أن يكون وزيرا فقد حان أوانه .

سخر القدر من حافظ عفيفى إلى أبعد الحدود ، كان زميله فى النضال « مصطفى النحاس » قد أصبح زعيما وشكل وزارته الأولى (١٦ مارس ـ ٢٥ يونية ١٩٢٨) وكانت وزارة ائتلافية . وبالتزوير والتآمر صدر أول قرار فى تاريخ الوزارات (يبدأ تاريخ الوزارات فى مصر بإعلان الحماية فى ١٩ ديسمبر ١٩١٤) بإقالة وزارة النحاس باشا الأولى . وتعقبها وزارة « محمد محمود » الأولى (٢٥ يونية ١٩٢٨ ـ ٢ أكتوبر ١٩٢٩) وجاء فيها « حافظ عفيفى بك » وزيرا للخارجية ، وهى الوزارة التى عرفت (بوزارة اليد الحديدية) وأوقفت الحياة النيابية ثلاث سنوات قابلة للتجديد ،

وأعادت العمل بقانون المطبوعات القديم ، وعطلت صحف المعارضة . وحرمت الاشتغال بالسياسة على الموظفين ، وبذلك يكون زميله الثانى « محمد محمود » قد أصبح رئيسا للوزارة ورئيسا للحزب . وبقى حافظ عفيفى وكيلا للحزب ليضع فى ذهنة أن يترك الحزب تدريجيا .

وتطل سخرية القدر مرة ثانية فى ١٩ يونية ١٩٣٠ ، استقالت وزارة مصطفى النحاس الثانية (أول يناير ـ ١٩ يونية ١٩٣٠) وزارة التقاليد البرلمانية والصدام الحاد مع الملك فؤاد . وأعقبتها وزارة إسماعيل صدقى المشهورة (٩ يونية ١٩٣٠ ـ ٤ يناير ١٩٣٣) وجاء فيها « حافظ عفيفى » باشا هذه المرة ـ وزيرا للخارجية . وهنا يتقدم « حافظ عفيفى » باشا باستقالته من عضوية حزب الأحرار الدستوريين . ويقترب من القصر أكثر فأكثر ، ويبحث عن المال أكثر فأكثر ، ويهادن الإنجليز أكثر فأكثر . ثم أراد أن تكون له حرية الحركة فاستقال من منصبه الوزارى كوزير للخارجية فى ١٢ يوليو ١٩٣٠ ، بعد ٢٢ يوما قضاها فى وزارة الخارجية . كان قد حدد طريقه . .

نحو الثروة

عندما اختير حافظ عفيفى عضوا بمجلس إدارة حزب الأحرار الدستوريين كان ينتمى إلى مايمكن أن نسميه (الطبقة المتوسطة الحضرية) أى فئة الموظفين والمهنيين وقد تزايدت قوة هذه الفئات فى المدن المصرية بانتشار التعليم ، واتساع الإدارة الحكومية . ونما دور قسم هائل منها فى الحركة القومية ، ووقف قسم منها على الحياد ، واتجه قسم منها إلى مهادنة الاستعمار وهو القسم الذى اتجه إلى الإثراء الفاحش .

وفى مواجهة تصاعد التنظيمات العمالية وتنامى دورها ، قام اتحاد الصناعات سنة ١٩٢٢ ليضم الرأسماليين المصريين والأجانب والمتمصرين ، وكانت خلفه عقلية وجهود « إسماعيل صدقى » وهو أول من أخرجه الوفد أو أول من خرج على الوفد سنة ١٩١٩ . وحرص « صدقى » فى وزارته ٢٠ يونية ١٩٣٠ ـ يناير ١٩٣٣ وامتدادها المعدل من يناير ١٩٣٣ ـ سبتمبر ١٩٣٣ على تنفيذ مطالب اتحاد الصناعات إلى أقصى حد ممكن ، وكانت فرصة للعناصر الرأسمالية للإثراء .

وأصبح « حافظ عفيفى » عضو مجلس إدارة البنك العقارى وشركة المكابس وشركة السكر . وشركة الملح والصودا ، والشركة العقارية المصرية ، وعضو البنك الأهلى منذ سنة ١٩٣١ . وقد جمع بين يديه رئاسة مجلس الإدارة ، أو عضوية مجلس الإدارة المنتدب أو عضوية مجلس الإدارة لعدد ٤١ شركة ثلاث منها يزيد رأس مالها على المليون جنيه . وست لايقل رأس مالها عن نصف مليون جنيه ووصل مجموع دخله من هذه الشركات فى السنة حوالى (١٣٢) ألف جنيه بتقدير زمان .

وقبيل الحرب العالمية الثانية ، وعلى وجه التحديد فى ١٨ أغسطس ١٩٣٩ كان « على ماهر » رئيسا لحكومة مصر ، وحسين سرى وزيرا للمالية ، وأوعز الإنجليز للحكومة بأن تسحب كل ودائعها لدى بنك مصر ، وأن تسحب كل أموال صندوق التوفير البريدى ، وحدث عجز فى السيولة النقدية لدى بنك مصر . وتقدم « محمد طلعت حرب » رئيس مجلس إدارة بنك مصر إلى (البنك الأهلى) يطلب قرضا . ورفض البنك الأهلى . . وقال « حسين سرى » إن مطالب البنك الأهلى . . أن يترك طلعت حرب بنك مصر . . واستقال « طلعت حرب » فى ١٤ سبتمبر ١٩٣٩ ، وحل محلة « حافظ عفيفى » رئيسا لبنك مصر . .

نهاية طريق

استقر وضع حافظ عفيفى كواحد من كبار الرأسماليين فى مصر ، وكرئيس لبنك مصر ، وكواحد من كبار رجال القصر ومؤيدى السياسة البريطانية . . ونحن الأن فى ١٢ يناير ١٩٥٠ والوفديون يعودون إلى الحكم . وفى ظل الظروف الموضوعية فى عهد حكومة الوفد أضرب العمال والفلاحون ، ووقفت الحكومة موقف الحياد فى الحرب الكورية ، وكشفت الوثائق الأمريكية التى نشرت وترجمت إلى العربية أخيراً مدى كراهية أمريكا لحكومة الوفد ولرئيس الوفد « مصطفى النحاس » . وفى ٨ أكتوبر ١٩٥١ ألغت الحكومة معاهدة ١٩٣٦ .

وفى ١٣ أكتوبر رفض « النحاس » المشروع الرباعى الذى تقدمت به أمريكا وانجلترا وفرنسا وتركيا لضم مصر لحلف الشرق الأوسط . وبدأت المقاومة المسلحة فى القناة بتشجيع الحكومة الوفدية وشاركت عناصر من البوليس والجيش فى الكتائب الوطنية . وفى ١٣ نوفمبر ١٩٥١ نزل «مصطفى النحاس » على رأس مليون مواطن فى تظاهرة شعبية كبرى . واشتعلت شوارع القاهرة والإسكندرية والمدن الكبرى بالتظاهرات الشعبية ضد الملك فاروق وأتباع فاروق وضد الاحتلال الإنجليزى وضد الولايات المتحدة الأمريكية . . وحددت الثورة الشعبية أهدافها فى التخلص من الملك ، وفى الاستقلال الكامل . وفى العدل الاجتماعى . . وتحركت أمريكا وخلفها انجلترا والملك . . تم تعيين حافظ عفيفى رئيسا لديوان الملك فى ٢٥ ديسمبر ١٩٥١ . . وحدث الصدام الدامى بين القوات البريطانية ورجال البوليس فى الإسماعيلية فى ٢٥ يناير ١٩٥٢ ، وفى ٢٦ يناير ١٩٥٢ حريق القاهرة وفى الفجر أقالة حكومة الوفد . وفى الفجر التالى اعتقال الوطنيين وللتاريخ فإن « مصطفى النحاس » ـ لم يكن غافلا عن مؤامرة أمريكا ضد حكومته ، وكان يعلم أنها تدبر المؤامرة عن طريق « حافظ عفيفى ونجيب الهلالى وعلى ماهر » وهى العناصر التى مارست الدور المرسوم لها بعد الإطاحة بحكومة الوفد ، وفى الأسبوع الأخير من ديمسبر ١٩٥١ نشرت جريدتا

اخبار اليوم والكاتب أن وزارة الخارجية البريطانية واثقة من أن وزارة الوفد سوف تستقيل خلال ثلاثة أسابيع قادمة وستتلوها وزارة مرشح لرئاستها حافظ عفيفى . ربما كانت هذه أمنية الانجليز لصديقهم حافظ عفيفى ولكن أمريكا - كما كشفت الوثائق - كانت تدبر لتغيير أعمق فى المنطقة ، واستخدمت كل هذه الأسماء من أجل هذه التغييرات .

كانت نهاية رجل من مصر ، وكانت نهاية لمرحلة تاريخية بأسرها ، وبداية لمرحلة تاريخية جديدة . . غفر الله لحافظ عفيفى الذى رحل فى يونية ١٩٦١ .

الأسانيد :

١ - إبراهيم عامر ، ثورة مصر القومية .
٢ - طارق البشرى ، الحركة السياسية فى مصر .
٣ - ماريوس ديب ، الوفد وخصومه ، ترجمة عبد السلام رضوان .
٤ - محمد زكى عبد القادر ، مذكرات وذكريات .
٥ - محمد فريد ، مذكراتى بعد الهجرة .
٦ - د . محمود متولى . تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى .

الشيخ حسن البنا



مكثت يومين أو أكثر ، أفكر كيف أبدأ . . إذا اخترت كلام واحد من مريديه ، ربما انطفأت روح الحوار فى المقال . . وإذا بدأت برأى واحد من أعدائه ، فهذا يسد طريق الفكر الحر ويغلق المنافذ إلى نظرة موضوعية محايدة .

وأخيرا ترك القلم قياده إلى مذكرات وذكريات « محمد زكى عبد القادر » فهى على الأقل تخلو من العبارات الجارحة . . يقول : ـ عرفت المرحوم الشيخ حسن البنا مرشد الإخوان المسلمين فى وقت ما فى الأربعينات . . عرفته معرفة أكيدة لا أقول إنها وثيقة ، فلم أكن أراه إلا فى المناسبات العامة ومصادفة فى أكثر الأحيان . . اذكر أننى لقيته فى حفل جرى فيه الحديث عن المرأة والرجل ونظرة الدين إلى علاقة أحدهما بالآخر ، واذكر أنى قلت له : لماذا تنظر إلى المرأةوالرجل كأنهما ضدان متنافران لكل منهما قضية تختلف من أحدهما إلى الآخر ، والأصح أنهما متكاملان ، وأذكر أن الشيخ أقرنى على رأيى فى ابتسامة ذات إخاء وإشراقة وجه تحف به لحية مستديرة سوداء ، دقيقة منظمة جميلة . . لم أعرف وقتها هل كان إقراره وجهة نظرى مجاملة أو اقتناعا . . كل الذى أحسسته نوع من الود نحو الرجل . وذات يوم جرى الحديث بينى وبين الأستاذ مريت غالى بك حول الإخوان المسلين ودعوتهم ، فلم أجد لديه نفورا منها أو منهم ، وفهمت أن بينه وبين الشيخ حسن شيئا من الود والتعاطف . . ثم سمعت فيما سمعت أن بعض الأقباط لايجدون ضيرا فى أن يكون بينهم وبين الدعوة والداعى مثل هذا الود والتعاطف ، وإن كنت قد لمحت فى مجادلات ومحاورات أخرى بين عدد منهم أنهم يعترضون عليها ويجدون فيها بوادر تعصب من الجانب الآخر، وكلاهما لايسيغه المجتمع المصرى ولايقبله ، كما لايسيغه الدين ولايقبله .

زارنى الشيخ حسن البنا فى مكتبى فى (الأهرام) وكانت أول مقابلة خاصة بينى وبينه ،

وفجدت فيه رجلا رقيقا سمحا وديعا . . ربما أميل إلى القصر والامتلاء ، تضيء وجهه إشراقة فسرتها بأنها طيبة فى القلب وعمق فى الرضا والإيمان والتسليم ، وفسرها أنصاره بأنها نورانية الهية . وأحسست أن الشيخ قلق يريد أن ينصرف . فأكدت له أن الحوار معه كنت أنتظره من وقت طويل فلماذا العجلة ؟ . . فقال لى فى استحياء رقيق نم عن طبيعة الرجل البالغة التهذيب : لى صديق فى الخارج أخشى أن أبطىءعليه . . قلت له : ولماذا لم تدعه يدخل ؟ قال : خشيت أن يسيئك لو دخل بغير استئذان .

ودخل صديقه فإذا هو الفضيل الورتلانى ، رجل ضخم فيه بسطة فى الطول والعرض وسماحة وبسمة تغطى وجهه . وأنست إليه ورحبت به ترحيبا كبيراً ، واستأنفت الحديث مع الشيخ حسن البنا استكمالا لما كنا قد بدأناه ، ولم يكن الفضيل الورتلانى مصريا على نحو ما حزرت وتحققت ولكنى لم أعرف بالدقة هويته . . ثم قتل الإمام يحيى إمام اليمن ، وذاعت الشائعات أن للفضيل الورتلانى يدا فى قتله .

وكان أن اصدر الإخوان المسلمون جريدة يومية ، ورغب أحد الصحفيين أن يلتحق بالجريدة ، فاصطحبته إلى دار الإخوان المسلمين فى الحلمية الجديدة ، ألفيت الشيخ حسن البنا جالسا إلى مكتب صغير ، والغرفة مملوءة عن آخرها باشتات من الناس ، وهم الشيخ بلقائى فى حفاوة بالغة حمدتها له وأثرت فى نفسى تأثيرا شديدا ، وعاد إلى مقعده وجلسته البسيطة العادية ، وطوى رجليه تحت جسمه . . وراقبته وهو يتحدث إلى أتباعه فى حنان وعطف وأخوة ، يسأل عنهم وعن أولادهم وذويهم ومشكلاتهم .

وقلت للشيخ إن أنصارك يشتبكون مع الوفديين من وقت إلى آخر . . ولا أكتمك ان الناس يقولون أن القصر يؤيدك ويذيع أنك متعاطف معه ، فضحك الرجل فى ثقة واطمئنان . . (وماذا تريدنى أن أصنع لمن يقولون إننى معهم أو إنهم معى . . دعهم يقولون مايشاءون . . أما أنا فأعرف طريقى ودعوتى . . ثم أدنى رأسه من رأسى وقال إنه لا خلاص ولاتقدم للبلاد العربية إلا إذا تخلصت من حكامها وأمرائها المسيطرين عليها . . أنا أعرف أنك لست من الإخوان المسلمين ولن تكون منهم ، ولكننى فيما أعرف عنك أنك أمين مستقيم ، ومن هنا أفضى إليك بدخيلة نفسى) . .

وإلى هنا أرجو ان أكون قد وفقت فيما اقتبسته من مذكرات وذكريات كاتب قادر مقتدر لا ناقة له أو جمل مع هذا أو ذاك . والفقرات السابقة زاخرة بالحديث عن الرجل وموقفه من الوفد والقصر والأقباط ورأيه فى الحكام العرب وجاذبيته المؤثرة فى محدثيه وأتباعه ومريديه . ودأبه لكسب

المؤيدين والأنصار ، وتاريخ الرجل منذ نشأته إلى يوم مصرعه فى يوم السبت ١٢ فبراير سنة ١٩٤٩ .

فى مطلع هذا القرن ، مدينة الإسماعيلية تنطوى على تناقض حاد . . فالحى الأوروبى شوارعه واسعة وتظلله الأشجار وبيوته أنيقة تحيط بكل بيت حديقة جميلة ، والحدائق هنا وهناك تفوح بروائح الزهور والفواكه وبهذا الحى النوادى ووسائل الترف ومظاهر الرفاهية ، والوجوه البيضاء تلونها حمرة الغذاء الطيب والشراب المسكر ، وأصحاب هذه الوجوه لايعرفون فى الغالب لغة أهل البلاد وإنما هم يتكلمون اللغات الأجنبية وخاصة الفرنسية بلدغة رائها التى تزيد من حسن النساء . . والأجور مرتفعة ، وأموال القناة تجرى فى بنوك وأيدى هؤلاء الأجانب . . . وعلى الجانب الآخر من المدينة كان هناك الحى البلدى ، الحوارى ضيقة والشوارع تتسع قليلا ولكن الشوارع والحوارى تطفح بالقذارة ، والفقر يأكل أجساد الناس ويطغى عليهم المرض وعدم التعليم . . وأهل البلاد الأصليون ينظرون إلى الأجانب الوافدين بعيون المقت والكراهية . .

وكان « حسن البنا » قد ولد عام ١٩٠٦ بالمحمودية محافظة البحيرة ، وإن كانت أسرته من إحدى قرى مركز (فوه) غربية . تلقى دروسه الأولى بدمنهور . جاء إلى القاهرة سنة ١٩٢٣ حيث التحق بدار العلوم حيث تخرج فيها عام ١٩٢٧ وكان أول دفعته . وعين مدرسا بمدرسة الإسماعيلية الابتدائية الأميرية للبنين وتسلم عمله فى ٢٠ سبتمبر ١٩٢٧ . وظل يعمل مدرسا بالإسماعيلية لمدة خمس سنوات إلى أن طلب نقله للعمل بالقاهرة فنقل إلى مدرسةعباس بالسبتية ، وقد ظل بالقاهرة مدرسا بالمدارس الابتدائية أربع عشرة سنة أخرى . وهكذا ظل تسع عشرة سنة ، لم ينل فيها الدرجة الخامسة إلا بحكم قانون الموظفين المنسيين . وفى مايو ١٩٤٦ استقال من عمله بالحكومة حتى يتفرغ لجريدة (الإخوان المسلمون) اليومية وبالقاهرة كان يسكن بشارع سنجر الخازن رقم ٥ بالحلمية الجديدة وبإيجار قدرة جنيهان مصريان .

وكان « الشيخ طنطاوى جوهرى » قد اصدر جريدة الإخوان أسبوعية عام ١٩٣٣ ، ثم انتقل امتيازها بعد ذلك إلى الشيخ حسن البنا . وصدرت صيحفة (النذير) عام ١٩٣٨ سياسية أكثر منها دينية ، ثم اعتزلت الجريدة جماعة الإخوان المسلمين وانضمت إلى جماعة (شباب محمد) .

وبعد أن استقال « الشيخ حسن البنا » من العمل بالتدريس فى مايو ١٩٤٦ جرت الأحداث بسرعة على أرض مصر إلى أن صدر قرار بحل جماعة (الإخوان المسلمون) فى ٨ ديسمبر ١٩٤٨ ، وفى يوم ٢٨ من الشهر نفسه ، بعد عشرين يوما من قرار الحاكم العسكرى بحل الجماعة ، أطلق طالب بمدرسة الطب البيطرى هو « عبد المجيد أحمد حسن » وقد ارتدى ثياب ضابط شرطة ودخل إلى فناء وزارة الداخلية وأطلق الرصاص على « محمود فهمى النقراشى » رئيس الوزراء بينما

كان يتهيأ لدخول المصعد . ويذكر « محمد زكى عبد القادر » أن آخر حديث له مع « الشيخ حسن البنا » كان اتصالا تليفونيا من « الشيخ » وكان « الشيخ » قد أعد بيانا باستنكار قتل المرحوم النقراشى ، وذلك لنشره بجريدة الأهرام . . وانقطعت الصلة بينهما إذ إن « الشيخ » اغتيل فى ١٢ فبراير سنة ١٩٤٩ .

القصـر والاغتيـال

فى مذكراته التى صدرت أخيرا ، وعلى صفحة ٦٢ سجل « عبد المنعم عبد الرءوف » ، أحد الضباط الإخوان ، والذى قام بحصار قصر رأس التين إلى أن غادر « الملك فاروق » البلاد فى الساعة السادسة من يوم السبت ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، كتب يقول : ـ فى عام ١٩٤٩ كنت أقضى فترة نقاهة مرضية فى القاهرة . وحضر الملازم سيد مرعى طالبا منى الاتصال بطبيب الملك الخاص (الدكتور يوسف رشاد) . . وفى بيت الطبيب التقيت بأنور السادات وببعض الضباط الشبان ، وكان من بينهم من اشتركوا معى فى الحرب الفلسطينية ، ومنهم من اعتقل معى ، ومع المقدم أركان حرب محمد رشاد مهنا عام ١٩٤٦ فى قضية توزيع منشورات ضد رئيس هيئة أركان حرب الجيش .

لم يتحدث معى الدكتور يوسف رشاد حديثا خاصة على انفراد . . وأثناء حديثه أشار إلى التخلص من رئيس الوفد المصرى المرحوم « مصطفى النحاس باشا » ومن المرشد العام للإخوان المسلمين الشهيد حسن البنا . . وقد أمن الحاضرون على حديث الدكتور يوسف رشاد ، بينما غمرنى الاضطراب وصعد الدم إلى رأسى وبادرت بالانصراف مستأذنا . وذهبت فورا إلى الصاغ محمود لبيب . . وبعد أسابيع قليلة من هذا اللقاء اغتيل الإمام حسن البنا فى مساء ١٩٤٩/٢/١٢ . ويستطرد « عبد المنعم عبد الرءوف » قائلا : (ومن قبل ذلك كانت قد انفجرت عبوة ناسفة عند منزل المرحوم مصطفى النحاس مساء يوم ٣٠/ ١٩٤٨/٤ فعرفت من هم المدبرون لهذه الأحداث) .

وهذا الكلام يشير بوضوح إلى أن (القصر) كان وراء محاولات اغتيال « النحاس باشا » و«الشيخ حسن البنا » . وهناك من يرى ان القصر ورئاسة الوزراة استدرجا « الشيخ البنا » إلى جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة بحجة التفاهم معه على الإفراج عن الإخوان المعتقلين ، وعندما خرج وجد سيارة أجرة فى انتظاره ، وما كادت السيارة تتحرك حتى انطلقت الرصاصات إليه ، ولم تصب منه مقتلا فنزل من السيارة ، واتصل تليفونيا بالإسعاف ، ثم حمل إلى مستشفى قصر العينى حيث ترك بدون علاج حتى توفى تاركا ولدا واحدا هو « أحمد سيف الإسلام البنا » عضو مجلس الشعب حاليا ، وخمس بنات .

ويقول « عمر التلمسانى » إن جثمان الإمام نقل وسط تظاهرة مسلحة من رجال البوليس ، ولم يسمح لأحد من الأسرة بالاقتراب من الجثمان ، ونقل الجثمان إلى مسجد (قيسون) القريب من المنزل ، ولم يسمح لأحد بتشييعه ، ولم يستطع أحد تقديم العزاء سوى « مكرم عبيد باشا » .

القومية والإخاء الوطنى

تميز « الشيخ » بأفق واسع ، وبنظرة شاملة ، وبأسلوب حضارى وأكد فى (دعوتنا فى طور جديد ـ ليس يضيرنا فى هذا كله أن نعنى بتاريخ مصر القديم ، وبما ترك قدماء المصريين من آثار الحضارة والعمران ، وبما سبقوا إليه الناس من المعارف والعلوم والفنون ، فنحن نرحب بمصر القديمة ، كتاريخ فيه مجد وفيه عزة وفيه علم ومعرفة) ولكنه رفض اتخاذ تلك المصرية القديمة كمنهاج عمل لمصر الإسلامية . على أية حال فقد كان « الشيخ » انضج فكرا من المسئول عن المعارف بعد الثورة والذى بعث بتعليمات سرية إلى الإدارات المختلفة بعدم ذكر أى شىء عن حضارة مصر القديمة .

وذكر فى رسالته (إلى الشباب) . . يخطىء من يظن أن الإخوان المسلمين دعاة تفريق عنصرى بين طبقات الأمة ، فنحن نعلم أن الإسلام عنى أدق العناية باحترام الرابطة الإنسانية العامة بين بنى الإنسان . .

وقد حرم الإسلام الاعتداء حتى فى حالات الغضب والخصومة . . وأوصى بإنصاف الذميين وحسن معاملتهم ، فلهم مالنا وعليهم ما علينا وكتب فى صحيفة الإخوان « إن سماحة الإسلام تجعل بره وصلته تتسع لأبناء قومنا وإن كانوا على غير ديننا . . بل إن تعاليم الإسلام تقضى عليأبنائه أن يكونوا مع أهل التعاقد سواسية لهم مالهم وعليهم ما عليهم) .

ولا أحد ينكر أن صحف الجماعة نشرت بعض مقالات مثيرة فى مضمونها للأقباط ، ولكن لا أحد ينكر أيضا ما اتسم به موقف الإخوان المسلمين من الأقباط من اعتدال ، وحرص الشيخ البنا على عدم عودة الفتنة الطائفية وحرصه على نفى تهمتى التعصب الدينى وإشاعة الفرقة بين أبناء الأمة .

الزعـامة الدينيـة

ما من أحد يتصل بالشيخ إلا وقد ترك لديه أبعد الأثر . . يقول « الرئيس أنور السادات » فى كتابه (البحث عن الذات) ص ٣٥ (. . كان ممتازا فى اختياره للموضوعات وفهمه للدين وشرحه وإلقائه . . من كل النواحى فعلا كان الرجل مؤهلا للزعامة الدينية . . هذا إلى جانب أنه

كان مصريا صميما بكل ماتحمله هذه الكلمة من دماثة خلق وسماحة وبساطة فى معاملة الناس . . أعجبت به كل الأعجاب . . فبعد أن انتهى من المحاضرة هنأته من كل قلبى . . وقبل أن يخرج دعانى لحضور درس الثلاثاء الذى كان يلقيه كل أسبوع . .) .

والأستاذ « عمر التلمسانى » يقول : ـ البداية كانت فى مارس ١٩٢٨ فى مدينة الإسماعيلية ، وأول تشكيل للجماعة كان يضم ستة من الإخوان ، قدموا البيعة لمدرس الابتدائى « حسن البنا» . . ومن الإسماعيلية تحركت الجماعة إلى القاهرة ، لتبدأ مرحلة جديدة . . ذهبت إلى بيت الأستاذ حسن البنا فى القاهرة واستقبلنى فى حجرة متواضعة . . ومضى الحديث قرابة الساعة واقتنعت بوجهة نظره ، ولكنه لم يرض أن يستغل هذا الاقتناع وقال لى ، نرجىء هذا لأسبوعين . . فإذا اقتنعت فلنلتق ، فإذا قبلت فنحن إخوان ، وإذا رفضت فنحن أصدقاء) . .

وضابط الشرطة « صلاح شادى » يقول : ـ (. . . ذهبت إلى ايتاى البارود وسمعت الرجل يتحدث لا عن نواقض الوضوء وفرائض الصلاة ، وإنما عن جوهر الإسلام . . وكان يحضر الحفل معى الأستاذ محمد فريد عبد الخالق شقيق زوجتى . . وفى اليوم الثانى كان الرجل يتحدث إلى الناس فى حفل آخر فى نكلا العنب ووجدت أنى منساق إلى هناك . . إليه . . مع الأستاذ محمد فريد عبد الخالق الذى أدركه من الرجل ما أدركنى . . ثم كانت ليلتى الثالثة فى كفر الزيات ، وذهبت إلى هناك أسمع الجديد من أمر الإسلام . . وفى نهاية المطاف عقدت مع الرجل بيعة . .) أما « عبد المنعم عبد الرءوف » فيقول :ـ (فى أواخر شهر مايو عام ١٩٤٢ ذهبت إلى المركز العام وأدخلنى الأخ الطوبجى غرفة فضيلة المرشد فوجدته ومعه رجلان ، هما المرحوم الصاغ محمود لبيب ، والدكتور مهندس حسين كمال الدين . . استقبلنى الثلاثة بحرارة . . وقال المرشد : إن أخاك الصاغ محمود لبيب سيكون المشرف على تكوين المجموعة . .) وبدأ « عبد المنعم عبد الرءوف » فى ضم « النقيب جمال عبد الناصر حسين ، ، والملازم أول حسين حمودة ، والملازم أول سعد توفيق ، والملازم أول صلاح الدين خليفة ، والملازم أول خالد محيى الدين وتتفق رواية «حسين حمودة » فى كتابه (الإخوان والضباط الأحرار) مع رواية « عبد المنعم عبد الرءوف » ومضمون الرواية أن (الضباط الأحرار) هم فى الأصل مجموعة من الإخوان المسلمين تكونت بمعرفة المرشد العام « حسن البنا » .

ولكن الداعية والمرشد العام والإمام قد رحل فى ١٢ فبراير ١٩٤٩ وابتعد عبد الناصر بالمجموعة عن جماعة الإخوان المسلمين . . ماذا لو عاش المرشد العام ؟ هل كان فى مقدور عبد الناصر أن ينسلخ بالمجموعة ؟ وهل كان من الممكن أن ينعزل الإخوان عن السلطة بعد استيلاء الضباط الأحرار على الحكم ؟ رحل « المؤسس » فسرعان ما انقسمت الجماعة . رحل « المفكر » ففرض

الجهاز الخاص سطوته على أجهزة الجماعة بما فيها مكتب الارشاد . وفى النهاية . . هل أنا كتبت الكثير عن الجماعة ؟ . . لا . . وهل كتبت الكثير عن « الشيخ حسن البنا» ؟ . . لا . . وأنا أكتب فى سطر واحد أن (الجماعة) بعلم أو دون علم « الشيخ حسن البنا » قد أخطأت ودفعت ثمنا باهظا . هو غياب « الشيخ حسن البنا » .

الأسانيد :

١ ـ أنور السادات . . البحث عن الذات . .

٢ ـ صلاح شادى . حصاد العمر .

٣ ـ عبد المنعم عبد الرءوف . . مذكرات .

٤ ـ المستشار طارق البشرى . . المسلمون والأقباط .

٥ ـ محمد زكى عبد القادر . . ذكريات ومذكرات .

٦ ـ محمد شلبى . . حسن البنا أمام وقائد .

الدكتور حسين فوزى



فى مارس ١٩٦٧ كتب « الدكتور حسين فوزى » مقالا فى مجلة (الطليعة) التى كانت تصدر فى القاهرة تحت عنوان (الفن فى المجتمع الاشتراكى) قال فيه : ـ يطيب لى أن أذكر يوما قضيته ببلد صغير من بلاد الجمهورية الديموقراطية الشعبية للمجر ، بل قضيت أكثره على عمق مئات الأمتار تحت سطح أرضه ، داخل منجم فحم ، فلما خرجنا من باطن الأرض قضيت ساعة فى حمام ساخن لأعود بنى آدم . وقالت مرافقتى المجرية الحسناء : لقد رأيتنا فى ظروف العمل القاسى ، تعال بنا لنشهد كيف يقضى العمال أوقات فراغهم . . ويممنا شطر (بيت الثقافة واستمعنا مع أعضائه إلى . . رباعيات بيتهوفن) وفى هذا المقال أراد (الدكتور حسين فوزى) أن يقول « إن الإنسان » عمل وفن . . أو عمل وثقافة . ورأيت « حسين فوزى » فى هذا المقال بثقافته الواسعة ليؤكد رأيه . . ينتقل بنا من الكاتب السوفيتى « ايليا أهرنبورج » إلى مؤتمر الكتاب السوفيت الأول عام ١٩٣٤ ، إلى كتاب (الفن والمجتمع) للشاعر والناقد الفنى العظيم « هربرت ريد » إلى مطالعاته أيام الشباب ، إلى أن يشير إلى أخطر ما يهدد مجتمعنا المصرى ألا وهو التخنث والطراوة والاستسلام للمؤثرات الحسية ، والمخدرات الفنية إلى أن يختم مقاله ذاك بقوله . . (واجبنا دائماً أن نطهر أدوات الاتصال بالجماهير من الفن الرخو والعابث ، وأن نطارد فى المسرح والسينما والمطابع كل آثار التقسيم وكما أن الشعب الجاد ينتج الفن الجاد ، فإن الجدية فى الفن تخلق الشعب خلقا جديدا) .

وأحسب أن الجدية التى أشار إليها المثقف الراحل العظيم ، كانت هى طابع حياته كلها . . فى الثقافة ، والفن ، والسلوك . . وها نحن نصحبه فى مسيرته الطيبة من ١١ يوليو ١٩٠٠ إلى ٢٠ أغسطس ١٩٨٨ .

حى الحسين الذى يعبق بأريجه الشعبى والدينى والوطنى ، كان قد مضى على ضرب الأسطول البريطانى للأسكندرية ١٨ عاماً كاملة ، فى ١١ يوليو سنة ١٩٠٠ جاء إلى الدنيا « حسين فوزى » فى أسرة متوسطة ، وتسمى باسم « الحسين » والده على قدر من المعرفة ، وأمه لاتعرف القراءة أو الكتابة . على غير رغبته ألحقه أبوه بكتاب « الشيخ سليمان جاويش » وكانت الأسرة قد انتقلت إلى حى باب الشعرية ، وبقى يتردد على الكتاب من عام ١٩٠٥ حتى عام ١٩٠٧ وبين حى الحسين وحى باب الشعرية وحى السيدة زينب كانت حركة الطفل والصبى والشاب ، يصحبه أبوه ، أو بصحبة أقرانه ، أو متفردا وتتأصل مصريته . ومع والده يرى الأهرامات وأبا الهول فينبهر الصبى أيما انبهار . وأحسبنى على صواب إذا قلت أن (مصريته) قد رسخت فى وجدانه منذ صباه حتى آخر عمره . لم أزل أذكر منذ بداية الستينات دعوة ذكية تلقيتها من الصديق الراحل « عبد الرحمن صالح » ، المذيع بإذاعة ركن السودان ، كنت هناك فى مكتب رئيس تلك الإذاعة الزميل والصديق « الدكتور المعتصم سيد » رحمه الله ، وحان وقت تسجيل للدكتور حسين فوزى ، ورحبت بدعوة « عبد الرحنمن » لى بأن أحضر التسجيل لأكون أول من يسمع حديث المفكر العظيم . وفى الاستوديو كنت صامتا بالطبع ودون أى حركة تفسد التسجيل ، ولكن الدكتور بدأ كالسيل المنهمر ، الفكرة واضحة وناصعة لديه . . قال ، ما نصه ومعناه . . إنه مصرى ، وعمره أكثر من خمسة آلاف عام . . الأهرامات ومعابد مصر القديمة ميراثه وأرضه وبيته ، وكنائس الأقباط وأديرتهم ميراثه وأرضه وبيته ، والأزهر والمساجد ميراثه وأرضه وبيته . وانتفخت أوداج الرجل وكأنه يفاخر الدنيا كلها وهو يكمل حديثه . . أنا مصرى . . أنا أصيل . . أعرف أصلى وفصلى . . جذورى تمتد فى أعماق التاريخ لأكثر من خمسة آلاف عام . ومنذ تلك اللحظة وأنا أضع هذا المفكر المصرى العظيم موضع التقدير .

مصرى هو ، تنمو مصريته معه وهو يتدرج فى الدراسة من التعليم الابتدائى ويحصل على الابتدائية عام ١٩١٢ والتعلم الثانوى ، ويحصل على التوجيهية عام ١٩١٧ ، والتعليم الجامعى ويحصل على بكالوريوس الطب فى مطلع عام ١٩٢٣ . ويعين طبيبا فى مستشفى الرمد بمدينة طنطا ، ويصدر قرار تعيينه طبيبا بمصلحة الصحة عام ١٩٢٤ فى عهد وزارة « سعد زغلول » التى عرفت بوزارة الشعب الأولى .

فى حدائق القاهرة ، وحول الأكشاك الموسيقية ، ينسى الصبى نفسه ، وتهز أصابعه ، وتتحرك قدماه على أنغام الموسيقى التى عشقها لآخر عمره وكان له مع الموسيقى قصة . ومع عصر كل يوم جمعة كان الصبى ينطلق من المنزل إلى كشك الموسيقى بالحديقة القريبة . ومن يرده فليبحث عنه أولا هناك . وهكذا عندنا فى سنواته الأخيرة ، من كان يريده فليبحث عنه فى البرنامج الثانى بإذاعة جمهورية مصر العربية .

حصل على الشهادة المتخصصة فى طب العيون، وعمل بمستشفى الرمد عام ١٩٢٣ ، وصدر القرار بتعيين الطبيب «حسين فوزى » بمصلحة الصحة عام ١٩٢٤ . والتحق بالبعثة التى أعلنت عنها الحكومة المصرية للتخصص فى علوم البحار وذلك عام ١٩٢٥ بفرنسا . وهناك يجد «حسين فوزى » نفسه . . يحصل على دبلوم الدراسات العليا فى الأحياء المائية ومصائد الأسماك من جامعة تولوز بفرنسا . . ويحصل على بكالوريوس العلوم من السوربون ، ويترك نفسه على سجيتها ليشبع من الموسيقى وألوان الفنون الأخرى .

وفى باريس تزوج من زميلة فرنسية كانت تدرس الآداب بالسوربون وهى التى سعد فى حياته معها على امتداد ثلاثين عاما حتى توفيت بالقاهرة . وعاش هو بعدها وحيدا دون ولد ، ويبدو أنهما كانا على اتفاق فى عدم الإنجاب . ومن فرنسا بدأ يرسل ببعض مقالاته إلى الصحف المصرية ليصل ما انقطع عندما كان يكتب فى مجلة (السفور) وهو طالب فى الطب إلى حين سفره فى بعثته الفرنسية . ومجلة السفور صدرت عام ١٩١٥ م بعد أن توقفت (الجريدة) . وكان صاحب السفور « أحمد حمدى » من أعضاء حزب الأمة ، ووضع السفور تحت تصرف مجموعة من المثقفين الشبان فى ذلك الحين تضم ذوى ثقافة انجليزية وذوى ثقافة فرنسية وذوى ثقافة قانونية وذوى ثقافة عربية . . نذكر منهم الآن الشيخ أحمد أمين والشيخ مصطفى عبد الرازق وعزيز ميرهم ويوسف الجندى ومحمد صبرى أبو علم ومحمد حسين هيكل ومنصور فهمى ومحمود عزمى . . ووجدت مقالات « حسين فوزى » بين مقالات هؤلاء جميعا والذين أصبح لهم شأن بعد ذلك .

وفى فرنسا رضع من ألبان الثقافة الغربية حتى شبع وارتوى وتشكل عقله ووجدانه وسلوكه . . وأصبح له تفكيره الخاص به وأصبح له أسلوبه المتميز أيضا . . الفصحى السهلة المطعمة بعبارات لها وقعها ولها وظيفتها من اللهجة العامية .

وعاد ليصبح عالما من كبار علماء البحار والأحياء المائية ، وفى عام ١٩٤٢ اختير كأول عميد لكلية العلوم بجامعة الإسكندرية والتى اختير مديرا لها أيضا عام ١٩٤٥ . وظل يبدع فى الكتاب والمقال فى الثقافة والفنون ، كذلك ظل يترك بصماته فى معهد الأحياء المائية ، وخرج إلى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وعكف على الدراسات الخاصة بعلوم البحار وإضافة إلى عطائه المتميز فى علوم الفن والموسيقى . كما كانت له إنجازته فى كلية العلوم وجامعة فاروق الأول (الإسكندرية حاليا) . ثم اختير وكيلا لوزارة الثقافة ليسجل أروع إنجازاته فى تلك الوزارة ، بل أروع إنجازات تلك الوزارة بأسرها مما جعل طابور الحقد يتحرك ليزيحه عن الطريق .

فى مذكراته السياسية والثقافية كتب الدكتور « ثروت عكاشة » نائب رئيس الوزراء ووزير الثقافة ، والذى تولى وزارة الثقافة مرتين . . الأولى من أكتوبر ١٩٥٨ إلى سبتمبر ١٩٦٢ ،

والثانية من سبتمبر ١٩٦٦ إلى نوفمبر ١٩٧٠ يقول : إن الدكتور حسين فوزى قدم استقالته كوكيل لوزارة الثقافة فى الفترة الأولى . وسجل الدكتور عكاشة أنه كان يود لو استمر العمل بينه وبين هذا المثقف العظيم . على أية حال البركة فى « أولاد الحلال » على حد تعبير الأستاذ رجاء النقاش فى مقاله الممتاز عن « الدكتور حسين فوزى» فى مجلة المصور (٢ سبتمبر ١٩٨٨) . . وأولاد الحلال هؤلاء عملة رديئة عملت على طرد العملة الجيدة من السوق طبقا للقاعدة الاقتصادية المعروفة .

وقدر للعملة الجيدة ، ونقصد بها « الدكتور حسين فوزى » أن تترك من الأعمال بوزارة الثقافة مما يعد سجلا مشرفا إبان عمله وكيلا للوزارة حتى يوم اختلافه مع الدكتور ثروت عكاشه واستقالته من عمله الحكومى . وما نسجله له هنا مرجعنا فيه هو ما سجله « الدكتور ثروت » فى مذكراته .

أقامت حكومة الثورة وزارة الإرشاد القومى ، وفى ٢٢ فبراير ١٩٥٨ أضافت إلى مهامها الإعلامية مهمة ثقافية حملت من أجلها اسم (وزارة الثقافة والإرشاد القومى) فأنشأت مصلحة الفنون ، وإدارة للثقافة والنشر ، ومركزا للفنون الشعبية ، وبرنامجا إذاعيا سمى (بالبرنامج الثانى) يهدف إلى الارتفاع بذوق الجماهير فى مجالات الأدب والفن والموسيقى الرفيعة . وقد كان للعالم الفنان الدكتور حسين فوزى فضل المشاركة بالجهد الأساسى الواعى فى هذا العمل الطليعى الجليل .

وكان مشروع (الألف كتاب) الذى صدر بالإدارة العامة للثقافة حين كانت تابعة لوزارة التربية والتعليم سنة ١٩٥٥ من بين المشروعات الأولى الثقافية فى عهد الثورة .

وبهذا الصدد فإن آخر ميزانية لهذا المشروع كانت عام ٦٨/ ١٩٦٩ . وقد أعاد « الدكتور سمير سرحان » النشاط لهذا المشروع بعد أن تولى رياسة الهيئة المصرية العامة للكتاب فى أغسطس ١٩٨٥ ، وبدأ (المشروع الثانى) للألف كتاب الذى يشرف صاحب هذا المقال بأن يكون رئيسا لتحريره . ثم كانت (المكتبة العربية) و(المكتبة الثقافية) وسلسلة (تراث الإنسانية) وسلسلة (أعلام العرب) وسلسلة (مسرحيات عالمية) وغيرها من المشروعات التى كان للدكتور حسين فوزى وكيل الوزارة المثقف دور هام منذ عهد « الأستاذ فتحى رضوان » وأعطاها « الدكتور ثروت عكاشة » دفعة قوية . ولقد آمنت وزارة الثقافة بأن من أهم واجبات الدولة فى ميدان النشر احتضان المشروعات الضخمة مثل دوائر المعارف والمعاجم ، فبدأت عام ١٩٥٩ بمشروع (دائرة المعارف الإسلامية) . وكانت وزارة الثقافة قد أصدرت فى عهد « الأستاذ فتحى رضوان » مجلة (المجلة) فى يناير ١٩٥٧ وتولى رياسة تحريرها بالتعاقب الدكتور « محمد عوض محمد » ثم الدكتور

« حسين فوزى » والدكتور « على الراعى » والأستاذ « يحيى حقى » فالدكتور « عبد القار القط »
ومع حلول عام ١٩٥٩ أرتفعت مقتنيات دار الكتب بمبنى باب الخلق إلى نصف مليون مجلد مكدسة بطريقة لايسهل معها تنظيفها ولا صيانتها ولا الانتفاع منها وأصبح التلف يتربص بأكثر الكتب قيمة وندرة ، فكانت أول الحلول انشاء عشرة فروع لدار الكتب فى أحياء القاهرة تتيح خدمة مكتبية يسيرة ومريحة . وظهر أول عرض لمسرح القاهرة للعرائس فى مارس ١٩٥٩ ، واستفاد من الزيارات المتبادلة مع أشهر المسارح المتخصصة فى أنحاء العالم حتى فاز فى عام ١٩٦٠ بالجائزة الثانية فى مهرجان بوخارست العالمى لفن العرائس . وفى هذه المرحلة شرعت الوزارة فى إنشاء (الفرقة القومية للفنون الشعبية) . . وقدمت فرقة رضا أول عروضها على المسرح فى أغسطس ١٩٥٩ ، وما لبثت أن انضمت إلى فرق الدولة فى عام ١٩٦١ . . ومنذ عام ١٩٥٩ أهتمت الوزارة بإنشاء مسارح جديدة . وبادرت إذاعة القاهرة بإنشاء أوركسترا الإذاعة عام ١٩٥٦ ، وأوصى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية عام ١٩٥٧ بنقل تبعية الأوركسترا من الإذاعة إلى دار الأوبرا . ويقول الدكتور «ثروت عكاشة» صفحة ٥١٦ من الجزء الأول (ومن هذه البداية جهاد نفر من المثقفين يأتى على رأسهم الدكتور حسين فوزى فى الارتقاء ، به مضى أوركستر الإذاعة ليحتل مكانه بين أجهزة وزارة الثقافة والإرشاد القومى مع بداية عام ١٩٥٩ تحت اسم أوركسترا القاهرة السيمفونى .

وضمن إطار وزارة الإرشاد القومى عام ١٩٥٧ نشأ جهاز خدمات تحت اسم (مؤسسة دعم السينما) بدأ نشاطه الفعلى عام ١٩٥٩ ، ونشأ (المعهد العالى للسينما) فى أغسطس ١٩٥٩ ، وفى عهد وكالته لوزارة الثقافة بدأ إنشاء معاهد الفنون المختلفة على أسس أكاديمية ، وبعدها رأى أن تتجمع هذه المعاهد وتستكمل تطورها فى أكاديمية الفنون) .

لقد تمكنت العملة الرديئة من طرد العملة الجيدة من وكالة وزارة الثقافة غير أن المسئول عن الثقافة « الدكتور ثروت عكاشة » كان عارفا لقدر الرجل وأثنى عليه فى أكثر من موضع فى مذكراته الهامة عن السياسة والثقافة . واستمرت الصلة بينهما حتى بعد إحالة الدكتور حسين فوزى إلى التقاعد ، وبعد التحاقه للعمل بالصفحة الأدبية بجريدة الأهرام عام ١٩٦١ . ونقرأ فى مذكرات الدكتور ثروت عكاشة على صفحة ٣٩٢ تبين له أن (المعهد العالى للموسيقى) تدهورت أحواله فأوفد الدكتور حسين فوزى » إلى وزارة الثقافة فى الاتحاد السوفيتى لاختيار عميد جديد للمعهد . وعلى صفحة ٣٩٨ (الجزء الثانى) نقرأ للدكتور ثروت . . (أنشأت فى ١٩٦٨ مجلسا للمعاهد برياستى توطئة لتجميع هذه المعاهد فى أكاديمية للفنون . ولقد كنت أتوق إلى أن يرأس هذه الأكاديمية حسين فوزى بأستاذيته التى لاتنكر فرشحته لرياستها فى الفترة التى كنت أشرف بنفسى على الإعداد لها وأوفدته فى مهمة علمية إلى فرنسا والاتحاد السوفيتى على نفقة وزارة الثقافة . . وبعد عودته إلى مصر اشترط لقبول المنصب أن يحتفظ بمكانه فى صحيفة الأهرام . غير

أنى رأيت أن رياسة الأكاديمية تستوجب فيمن يتولاها أن يتفرغ لها تفرغا تاما ، وتركت له أن يختار مايشاء : الأهرام أو الأكاديمية ، فاختار الأهرام .

لقد كان الدكتور ثروت عكاشة على حق لأن رياسة الأكاديمية لايجوز أن تكون إلى جانب عمل آخر ، وكان الدكتور حسين فوزى على حق لأنه لم يزل يذكر (أولاد الحلال) الذين نجحوا فى الإيقاع بينه وبين الدكتور ثروت ، ولم يكن الدكتور حسين فوزى يجيد السير فى الدهاليز مثلما فعل الذين مارسوا العمل السياسى ، ولعبوا بالبيضة والحجر ، كان الدكتور حسين فوزى يعبرعن أفكاره باستقامة ووضوح حتى لو اختلف معه الكثيرون .

والدكتور حسين فوزى جزء لا يتجزأ ، مصريته التى ملكت عليه كل حركةمن حركاته جعلته يحرص على مصر لايريد لها أن تتحد مع هذا البلد العربى أو ذاك . ثقافته الغربية سيطرت على نشاطه الفكرى بأسره ، وظل يعتقد أن التقدم والفكر والثقافة والتطور . . من هناك . . من الغرب . حرية الفكر وحرية العقيدة وحرية التعبير لم يتراجع عنها قيد أنملة وظل فى صدام مع أية قيود يحاول البعض أن يفرضها عليه أو يفرضها على غيره .

سأله مرة زميلنا « محمد شلبى » فى حديث معه لمجلة الجديد عام ١٩٧٥ . . ماهو تصورك للحياة الفكرية والثقافية والفنية عام ٢٠٠٠؟ كانت إجابة « الرجل » . . لا أستطيع تصورها إلا بعد أن أعرف اليوم مستقبل الحرية والديموقراطية فى بلادنا ومتى تشرق شمسها ، الحرية كانت عنده كل شىء . . الحرية هى الأساس لبناء الإنسان . . والإنسان هو كل شىء لبناء الوطن. وعلى مسئولية الزميل « إبراهيم عبد العزيز » فى حديث نشره بمجلة الإذاعة بعد رحيل السندباد إنه أجراه معه عام ١٩٨٣ . . تحدث السندباد « حسين فوزى » إنه قال لعبد الناصر فى زيارة للأهرام . . . كان أهلنا وأصدقاء أهلنا ومدرسونا يقولون لنا ثقوا بأنفسكم وأحبوا بلدكم لأنها أصل الحضارات ، والأجانب يعرفون ويعترفون بذلك ، ويقولون لنا أيضا إذا أردتم أن تحبوا بلدكم انظروا إلى أوربا واعملوا على تقدم بلدكم ، فقال عبد الناصر . . طبعا لاتوجد بلد تستطيع أن تفعل شيئا من غير التكنولوجيا . .

وسكت « حسين فوزى » ولم يتكلم لأن عبد الناصر حصر الموضوع فى (التكنولوجيا) أما «حسين فوزى » فيقول : ـ لقد قصدت بكلامى أن نبنى الفرد فى بلدنا ونعطيه الثقة بنفسه أمنا من الخوف لأن الخائف لن يحب إلا نفسه ولن يكون همه أن يبنى بلده بقدر ما يكون همه ضمان لقمة عيشه . . التكنولوجيا تشترى بالمال ، وسوف يأتى يوم ينتهى فيه المال . . فماذا بعد ؟ إن الضمان هو الإنسان نفسه . . عبد الناصر رجل له طاقة جبارة ولكنه شتت هذه الطاقة فى حروبه الخارجية . . خرج بنا عبد الناصر من حكم فاروق الفاسد إلى نظام حكم ألغى دستور ١٩٢٣ . .

وما الحاجة إلى الدستور إذا كان سيتغير كلما جاء حاكم من الحكام . . فمن الضرورى ألا يتغير الدستور إلا باستفتاء الشعب حقيقة لاصوريا) .

لقد كان « حسين فوزى » مصريا بلا حدود . . كان يخجل من إلغاء اسم مصر ليسمى الإقليم الجنوبى كمديرية من المديريات فى ظل الوحدة المصرية السورية ١٩٥٨ . . كان يكتب أمام توقيعه فى سجل الزيارات فى الدول الأجنبية « د . حسين فوزى ـ القاهرة » كان يؤمن بالوحدة العربية الفاتحة فعلا بفعل الإسلام واللغة العربية ، ولكنه رفض الوحدة السياسية لأنها تتحول إلى مطايا أنظمة الحكم ـ فى نظره ـ زائلة ، ولن تبقى إلا الشعوب تجسد رمز الوحدة العربية . . وعلى هذا ـ فى نظره أيضا ـ لا يوجد شىء اسمه تكامل مصرى سودانى لأن مصر والسودان دائما قلب واحد وشريان حياة واحد . . وهو يرى دائما أن تتكتل جهود الشعوب العربية لاستثمار إمكانياتهم المادية والبشرية لخيرهم وخير أجيالهم القادمة .

والسادات ـ فى رأى حسين فوزى ـ فى غاية الذكاء و النباهة و (ألعبان) كبير . . يسمح بإبراز أخطاء وسلبيات عبد الناصر ، ويظهر على أنه غير موافق على أسلوب الحديث عن أخطاء وسلبيات عبد الناصر . . والسادات رجل كتوم وأغواره عميقة ولا تستطيع أن تتبين من خلال ملامح وجهه إذا كان موافقا على الموضوع الذى تطرحه أمامه أو لا .

وحسين فوزى هو أول وأكبر مفكر عربى يزور إسرائيل . . زارها مرتين الأولى فى ديسمبر ١٩٧٩ ، والثانية فى أبريل ١٩٨٠ وألقى المحاضرات فى الجامعة العبرية ، وقدموا له الدكتوراه الفخرية . . وهذا الموقف أيده فيه السياسيون وصحفيو السادات والكتاب الذين يؤيدون الصلح مع إسرائيل ويؤيدون اتفاقية السلام و (كامب دافيد) . . ويهاجمه فيه كل أعداء الصلح مع إسرائيل والرافضون للتطبيع بين مصر وإسرائيل .

إن « حسين فوزى » واحد من شباب ثورة ١٩١٩ ، وجيله أيد الثورة تأييدا واضحا ، أبناء الحزب الوطنى ، وأبناء قادة حزب الأمة ، وقد أيد هو الثورة وأيد سعد زغلول وتنظيمات ما بعد ثورة ١٩١٩ وفى ثورة ١٩ انضم إلى مجموعة منهم إبراهيم عبد الهادى ومحمد كامل حسين ومحمود عز العرب ، ولم ينضم إلى أى تشكيل من تشكيلات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ رغم الفرصة المواتية لانضمام المثقفين كمستشارين أو دعاة للثورة . كانت له أفكار سياسية وأراد أن يكون حرا فى التعبير عن هذه الأفكار بعيدا عن قيود هذه التنظيمات والتزاماتها . ومن هنا كانت نزاهته وأمانته وصدقه فى التعبير عن أفكاره الذاتية حتى ولو رفضها الكثيرون .

لقد أراد لنفسه أن يكون كما (السندباد) ذلك الرحالة الذى أبدعته قريحة عربية مجهولة . .

يذهب من هنا لهناك . . لا تحده حدود ولا عوائق من نظم ، ولا إرادة من بشر . . رحلة إلى الشرق . . ورحلة إلى الغرب . . ورحلة إلى داخل النفس المصرية . . وهكذا كانت أعماله .

صدر له (سندباد عصرى) عام ١٩٣٨ طاف معه فى عدد من بلدان أوروبا . و(حديث السندباد القديم) عام ١٩٤٣ طاف معه فى أزمنة مختلفة وكتب عربية مختلفة ، و (سندباد إلى الغرب) عام ١٩٥٠ وطاف معه فى عالم القطط التى تعيش معه فى منزله ، أما (سندباد مصرى) فقد أصدره عام ١٩٦١ يطوف معه فى الحضارة المصرية منذ نشأتها ، وسندباد فى حركة الحياة سنة ١٩٦٨ ، وسندباد فى سيارة سنة ١٩٧٣ .

وكتب أخرى كثيرة نذكر منها (الموسيقى السيمفونية) سنة ١٩٥٠ ، وكتاب عن (بيتهوفن) ١٩٧١ ، وكتابه عن (سان جوست ملاك الإرهاق) فقد أصدره عام ١٩٧٥ . وله أيضا (رحلة تاريخية فى البحار السبعة) و (لندن تطفئ الأنوار) و (المرأة كتاب) .

وفى دراسته لعلوم البحار ، ولدت لديه فكرة الكتابة مستعينا بالسندباد وقصص (السندباد) قصص بحرية خيالية والسندباد القديم رحلة عبر التاريخ فى الزمان والمكان ، أما سندباد الغرب فهو سندباد حقيقى هو « حسين فوزى » ذاته فى بلاد الغرب فعلا .

والدكتور حسين فوزى فى كتبه ومقالاته يستوعب ثقافة الغرب ولكنه استوعب أيضا ثقافة بلاده القومية ، ومصريته لم تفارقه لحظة واحدة فى كل ماكتب .

لقد منحت الدولة جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٦٦ للدكتور حسين فوزى ، سلمها له (جمال عبد الناصر) . . وأوصى هو بمكتبته الأدبية لجامعة القاهرة ، وأوصى بمكتبته الفنية لأكاديمية الفنون . . فهل تتحرك جامعة القاهرة وأكاديمية الفنون بأسرع مما يتحرك السائق والخدم والورثة الذين لايعرفون قيمة هاتين المكتبتين ؟ .

تلكم مختزلات تصور جهود مؤسسة ثقافية وفكرية ، اسم الشهرة لتلك المؤسسة هو « الدكتور حسين فوزى » أقصى ما وصل إليه فى السلم الوظيفى هو درجة (وكيل وزارة) ووكلاء الوزارة أصبحوا بعد « الدكتور حسين فوزى » وإذا استخدمت أسلوبه (فى التطجين العامى ـ على حد تعبير الزميل خيرى شلبى) لقلت إنهم أصبحوا ـ كنت أنا واحدا منهم ـ أكثر من الهم على القلب . . ولكن ليس كل من ركب الحصان خيالا . . وليس كل وكيل وزارة حسين فوزى . . رحم الله الدكتور حسين فوزى ابن آحياء الحسين وباب الشعرية والسيدة زينب . . ابن مصر .

الأسانيد :

(ورد ذكرها فى ثنايا المقال)

حمد الباســـل



١

عزيزى حمد . . الاتجاه إلى الاعتقال . . واجبك أن تعود إلى الوفد . . رد الأمة هو عدم التضامن مع الإنجليز، مقاطعة البنوك والشركات الانجليزية، تشجيع بنك مصر، الامتناع عن تشكيل أى وزارة . . التوقيع (سعد) .

تهتز مشاعرى كلما قرأت هذه السطور الحاسمة من سعد زغلول إلى حمد الباسل فى ٢٣ ديسمبر ١٩٢١ . عندما كان الوفد فى باريس ولندن وقف حمد الباسل مرة إلى جانب رأى سعد ومرات إلى جانب الرأى المعارض لسعد . . وعندما أصبح الانقسام وشيكا وقف حمد الباسل مع فريق عبد العزيز فهمى والمكباتى وشعراوى وعلوبه وأحمد لطفى السيد . . وعندما عاد « عدلى يكن» من أوروبا وشكل وزارته فى ١٦ مارس ١٩٢١ على غير رأى سعد وقف « حمد الباسل » إلى جانب عدلى . . وأجرى «عدلى» مفاوضات مع الانجليز على أمل أن يحقق بعض المكاسب ينتصر بها على سعد ، وانضم إليه فريق الاعتدال « حمد الباسل، عبد العزيز فهمى ،جورج خياط ، أحمد لطفى السيد ، محمد على علوبه ، محمد محمود ، على شعراوى ، حافظ عفيفى ، عبد اللطيف المكباتى ، عبد الخالق مدكور » على أمل القضاء على « سعد » وتياره المتشدد . ولكن المفاوضات تفشل ويعود عدلى ليقدم استقالة وزارته وهنا يباشر الإنجليز الإرهاب ضد « سعد » وفريقه الذى وقف إلى جانبه وفى ٢٠ ديسمبر ١٩٢١ يوجه الانجليز إنذارا إلى « سعد زغلول » ومصطفى النحاس وسينوت حنا ومكرم عبيد وجعفر فخرى ، وأمين عز العرب وصادق حنين . . أن يبتعدوا عن القاهرة وأن يلزموا الإقامة فى الريف .

واستشعر الزعيم أن الاتجاه إلى الاعتقال ، ويستعرض فى ذهنه الذين خرجوا على الوفد وبخبرته العميقة يستقر ذهنه عند « حمد الباسل » دونهم جميعا ويترك له الرسالة الموجزة وبها توجيهاته عد

إلى الوفد . . عدم التضامن مع الإنجليز . . تشجيع بنك مصر . . الامتناع عن تشكيل أى وزارة .

فراسة الزعيم

وتصدق فراسة « سعد زغلول » ويعتقل الإنجليز « سعد زغلول ، ومصطفى النحاس ، وسينوت حنا ، ومكرم عبيد ، وفتح الله بركات ويبقى من الوفد ثلاثة « على ماهر ، وواصف غالى ، وويصا واصف » وظهر التردد على خطى « على ماهر » وأعد «واصف غالى وويصا واصف» بيانا إلى الأمة تلقته الجماهير الواعية على أنه بيان سعد . . وتصدق فراسته ويعود « حمد الباسل » ليتقدم صفوف الوفد ، ويعود معه « جورج خياط » وينضم إلى الوفد فى ظروف التحدى « على الشمسى وعلوى الجزار ومراد الشريعى ، وعبد القادر الجمال ، ومرقص حنا » وقبض الانجليز على « حمد الباسل ، وجورج خياط ، ومراد الشريعى ، ومرقص حنا ، وعلوى الجزار ، وواصف غالى ، وويصا واصف ، وساقوهم إلى قشلاق قصر النيل وصدر عليهم الحكم بالإعدام بتهمة التحريض على تخريب الاقتصاد والحض على كراهية السلطات وذلك فى ٢٥ أبريل ١٩٢٢ .

ووقف « حمد الباسل » يقول للمحكمة ـ باسم الوفد المصرى ، إننا ونحن الوكلاء عن الشعب المصرى مكلفون بالمطالبة باستقلاله لا نستطيع أن نعترف بأى حال من الأحوال بقضاء محكمة أجنبية ولو أن هذه المحكمة تأخذ بتصريح حكومتها أو تعتبره تصريحا جادا « يقصد تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى اعترض عليه الوفد والذى صدر عندما كان سعد وصحبه فى جزيرة سيشل » وهو أن مصر دولة ذات سيادة لكان حقان عليها أن تعلن من تلقاء نفسها عدم اختصاصها بمحاكمتنا . . لكم أن تحكموا علينا ولكن ليس لكم أن تحاكمونا . .

صدقت فراسة الزعيم ، وعاد « حمد المنشق إلى الوفد ليتقدم الصفوف ويحكم عليه وعلى رفاقه الستة بالإعدام والجدير بالذكر أن الجماهير أطلقت على هؤلاء السبعة (سبعة أسود فى قفص) وهؤلاء قد رفضوا الإجابة على أسئلة المحقق ورفضوا أن يدفعو التهمة وكان لموقف هؤلاء الرجال أثره فى أن تتشكل قيادة جديدة ، أخرى للوفد من المصرى السعدى ، وحسن القصبى وفخرى عبد النور ، ومحمد نجيب الغرابلى ، ومصطفى القاياتى ، وسلامة ميخائيل » .

وأمام نضال الوفد تم تعديل الحكم على (الأسود السبعة) من الإعدام إلى السجن ٧ سنوات وغرامة ٥٠٠٠ جنيه لكل منهم . وأمام المد الشعبى والتفاف الجماهير حولهم أفرج عنهم فى ١٤ مايو ١٩٢٣ .

اللقـــاء الأول

وفى مذكرات سعد زغلول ، الكراسة السابعة ، صفحة ٣٤٠ تقف على أول لقاء بين سعد زغلول عندما كان ناظرا للمعارف وذهب إلى الفيوم ليتفقد أحوال التعليم فيها . . يقول سعد فى يوم الاثنين عشرة فبراير (سنة ١٩٠٨) توجهت إلى الفيوم مع برادة كاتم أسرارى ، وذلك لزيارة معاهدها العلمية ونزلت عند مدير الفيوم (محمد محمود بك ورئيس الوزراء ، ورئيس حزب الأحرار فيما بعد) فى بيته وقد احتفل بقدومى احتفالا على عظمته كان أقل من سابقه فى السنة الماضية ، وكان فى الإكرام من جهة المائدة أقل أيضا ، ولكنى حملت ذلك على ما وجد بيننا من تمكن الألفة فإنه لم يدع أحدا للأكل معنا ، ولم يكن غيرى وهو على المائدة ولكنى رأيت منه احتراما ولطفا عظيمين .

وقد طاف بى على بعض بلاد المركز فلم أجد فيما زرته من المعاهد شيئا تغير لأن أكثر هذه المعاهد وسخ والعلم فيه ضعيف والنظام غير تام ، وبعضها لم يتم بناؤه وبعضها لم يستكمل معداته ولكنى رأيت نهضة فوق ما رأيت فى العام الغابر وقد يكون السبب فى ذلك راجعا إلى فقر الأهالى فإنهم ضيقو الحال جدا وقد رأيت المدير محترما عندهم ، نافذ الكلمة وإذا استمر على ما رأيت فى النهضة فلا يبعد أن تتقدم المعارف على عهده تقدما عظيما . وقد تكلمت معه فى شئون كثيرة يختص بعضها بالعلاقة مع الخديوى وبعضها بالعلاقة مع الإنجليز ، وبعضها بحزب الأمة والبعض الآخر بالحزب الوطنى ، وكنت أراه موافقا لى فى الآراء جميعها تقريبا وقد أعجبت بحمد الباسل وهو عربى شجع العلم كثيرا بتشييد كثير من معاهده وحضرت افتتاح كتابه واثنيت عليه الثناء الجميل وقد استقبلنى حكمدار البوليس ـ من قبل الفيوم بمحطة ثم سبقنى لغاية الواسطى حين العودة .

هذه هى الصفحة رقم ٣٤٠ من مذكرات سعد زغلول أثرنا أن نوردها كاملة وهى تعرض لنا حال مدينة الفيوم منذ ٨٠ عاما تقريبا وتعرض لأول لقاء بين سعد زغلول وحمد الباسل وهو مغربى الأصل ولد بمصر سنة ١٨٧١ وعين عمدة لقبيلة الرماح وعين فى مجلس مديرية الفيوم سنة ١٩١٠ وفى سنة ١٩١٤ حصل على رتبة الباشوية وأصبح فيما بعد وكيلا للوفد المصرى .

وتعرض الصفحة أيضا اللقاء الطريف بين سعد زغلول ومحمد محمود مدير الفيوم وهو ابن محمود باشا سليمان صاحب الدور المعروف فى تأسيس حزب الأمة وقد قدر لمحمد محمود أن يكون من الرعيل الأول فى تأليف الوفد المصرى وأن يكون مع سعد زغلول وحمد الباسل وإسماعيل صدقى عند اعتقالهم ونفيهم إلى جزيرة مالطة فى ٨ مارس ١٩١٩ .

وقد آثرنا ان ننشر الصفحة كما كتبها سعد زغلول بأسلوبه الطريف وبالصدق دون تزويق أو تزييف .

الرعيـــل الأول

كان سعد زغلول يعرف حمد الباسل منذ عام ١٩٠٨ وربما قبل ذلك ولعل الزعيم عرف منذ ذلك الحين أى نوع من الرجال هو على الرغم من انحيازه أغلب الأحيان إلى معسكر المخالفين لسعد أثناء المفاوضات فى أوروبا وعلى الرغم من أنه شد أزر الذين يمهدون للانشقاق عليه رأى فيه « سعد » إنه لن يتراجع عن دعم الوفد إذا واجه الوفد هجوما من جانب الإنجليز فاختاره دون سواه من المعارضين وعبارة صغيرة يتركها له . . عد ياحمد . . فيعود حمد ليواجه حكما بالإعدام .

وفى الانتخابات الأولى لمجلس شورى النواب ٢٥ نوفمبر ١٨٦٦ . .

وفى الانتخابات الثانية سنة ١٨٧٠ وفى البرلمان الثالث الذى شهد خلع إسماعيل سنة ١٨٧٩ وفى برلمان ١٨٨١ لانجد أحدا من أسرة الباسل عضوا فى هذه المجالس عن الفيوم ولكننا نجد اسمه « حمد الباسل » فى الجمعية التشريعية التى قامت بديلا عن مجلس شورى النواب والجمعية العمومية) وكان سعد وكيلا للجمعية . .

وكان التشكيل الأول للوفد من « سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى ومحمد على علوبه وعبد اللطيف المكباتى ومحمد محمود وأحمد لطفى السيد » ثم انضم إليه « حمد الباسل وجورج خياط وواصف غالى وإسماعيل صدقى وسينوت حنا ومصطفى النحاس وحافظ عفيفى» . . وهكذا إلى آخر جولات الانضمام والانسحاب المعروفة حتى يجىء يوم ٨ مارس ١٩١٩ وهو اليوم السابق على الثورة وكانت مكاتب الوفد فى بيت سعد زغلول « بيت الأمة » ومنزل « حمد الباسل » فى مواجهة بيت الأمة وقبض الإنجليز على سعد زغلول وإسماعيل صدقى ومحمد محمود وحمد الباسل » وسارت بهم باخرة إلى مالطة حيث نقلوا إلى حصن عسكرى وتم الإفراج عنهم فى ٧ أبريل سنة ١٩١٩ .

وفى أوروبا يحدث الصراع الكبير بين فريق يرى قطع المفاوضات لعدم جدواها وهذا الفريق يقوده « سعد زغلول » وعرف بفريق (التشدد » وبين فريق يرى التريث وعدم قطع المفاوضات ليأخذ من الانجليز مايمكن أخذه وهذا الفريق يقوده « عدلى يكن » فى الخفاء و«عبد العزيز فهمى » فى العلن وعرف بفريق (التريث) ونعرف أن حمد الباسل فى مرات عديدة يقف مع الفريق الثانى وإن كانت علاقته قوية بسعد زغلول . .

ويعود « عدلى يكن » من أوروبا ليرأس وزارة تقوم بمفاوضات جديدة وتفشل المفاوضات ويقدم استقالته ويوجه الإنجليز رماحهم إلى سعد وفريقه وعندما استشعر « سعد » هذا الاتجاه من الانجليز كان أول من فكر فيه ليقود الوفد فى حالة اعتقاله هو المعارض حمد الباسل كما أسلفنا فى بداية الحديث .

وبعدها يحدث الانشقاق الكبير فى الوفد اثناء حياة « سعد » وتمثل فى إعلان فريق التريث لحزب الأحرار الدستوريين بقيادة «عدلى يكن » وبأفكار عبد العزيز فهمى وأحمد لطفى السيد وبقوة دافعة من محمد محمود وبتأييد من حمد الباسل وآخرين ..

عمـر المختــار

وحمد الباسل عربى نشأ نشأة بدوية ويمت بالصلة إلى « عمر المختار » الشيخ الذى قاوم الغزو الإيطالى فى ليبيا وكان لاستشهاده صدى كبير فى مصر وفى البلاد العربية .

وفى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣١ وجه « حمد الباسل باشا » دعوة للاحتفال بتأبين « عمر المختار » واعد الشعراء وفى مقدمتهم أحمد شوقى وخليل مطران القصائد لتلقى فى ذلك الحفل . ولكن«إسماعيل صدقى » دكتاتور مصر وقت ذاك خشى أن يتحول الحفل إلى تظاهرة سياسية ضد حكمة الاستبدادى وخاصة أن يوم الاحتفال يواكب الاحتفال بعيد الجهاد الوطنى فاصدر تعليماته بمنع الاحتفال . .

وكتبت جريدة البلاغ وجريدة الجهاد وغيرهما فى ١٣ نوفمبر ١٩٣١ تصف كيف صودرت حفلة تأبين « عمر المختار » أوفدت حكمدارية بوليس العاصمة ألف جندى من رجال البوليس وبلوك الخفر وأحاطت تلك القوات بدار سعادة حمد الباسل وسدت المنافذ المؤدية إليها ومنفذ الوصول إلى الدار التى كان مزمعا إقامة الاحتفال بها . . ووضع رجال البوليس أسلاكا شائكة لمنع مرور السيارات كما وضعوا سيارات كبيرة لتعترض الطرقات ومنع جميع المدعوين . . وتقول الجهاد أعد سعادة حمد الباسل باشا سرادقا داخل منزله ليكون محل الاجتماع لسماع القرآن الكريم وذكر مناقب المجاهد العظيم عمر المختار وبينما هو جالس فى منزله عصر يوم الأربعاء إذا برسول يحمل إليه خطابا من محافظ القاهرة يتضمن منع الاحتفال لأنه سياسى ودخل مأمور القسم وأبلغ الباشا أنه يحمل أمرا بهدم السرادق بالقوة فأمر سعادة حمد باشا بغلق أبواب المنزل واتصل برئيس النيابة وطلب منه الحضور لضبط واقعة تهجم على منزل ليس فيه أحد فلم يحظ منه بطائل ويقول حمد الباسل لحكمدار البوليس اسمع ما أقوله لك : إن هذا الاجتماع ليس سياسيا مطلقا ، وهو أبعد مايكون عن السياسة المصرية بل هو اجتماع لذكرى رجل يمت لى بقرابة ومن العار ، أن يحتفل بذكراه السوريون والفلسطينيون ولايحتفل به أقاربه وأكثر الناس به ارتباطا .

ومضى الباشا فى طريقه من إعداد لوازم الاجتماع وتجهيز الطعام للفقراء والمساكين وأقبل الفقراء فلم ينالوا إلا إهانة وبدل الطعام إلا لكزا وضربا وأمر الباشا بحمل ما كان معدا للفقراء إلى قسم البوليس وتسليمه للحكومة ليكون شاهدا على تصرفات ما كان يتصورها أحد .

السبعة ونصف

فى خريف سنة ١٩٣٢ اتهم « نجيب اسكندر » عضو الوفد فى قضية إلقاء قنبلة وتقدم للدفاع عنه « مكرم عبيد » و«نجيب الغرابلى » واختلف « مكرم باشا » مع المحكمة وأعلن انسحابه وأوقعت عليه المحكمة غرامة إهانة المحكمة وتوقع « مكرم » سكرتير الوفد أن يتضامن معه «نجيب الغرابلى » ويعلن انسحابه ولكنه لم يفعل وايد « النحاس باشا » موقف سكرتير الوفد وتقدم « الغرابلى » باستقالته وعاد فسحبها ولكن « النحاس باشا ومكرم باشا » قررا قبول الاستقالة وفى ٢٠ نوفمبر ١٩٣٢ حرم الوفد عددا من أعضائه شكلوا نوعا من التكتل داخل الوفد ، وحرمهم من عضوية الوفد وهم « حمد الباسل » وفتح الله بركات ومراد الشريعى وعلوى الجزار وفخرى عبد النور وعطا عفيفى وعلى الشمسى » ومن حيث الشكل بدأ هذا الانشقاق وكأنه خلاف بين مكرم عبيد ونجيب الغرابلى ورغم تسليمنا بهذا العنصر ودوره فى الانشقاق إلا أننا نرى أن هذا الانشقاق وقع خلال ظروف موضوعية كانت تساعد عليه وكان إسماعيل صدقى يشدد من قبضته على الشعب ويعصف بالحياة الدستورية وكان الملك فؤاد والانجليز يشدون من أزر صدقى لضرب الوفد الذى تحالف فى ذلك الوقت مع الأحرار الدستوريين ولم يكن القصر أو اسماعيل صدقى بعيدين عن هذا الانشقاق . وقد تردد بشدة أن إسماعيل صدقى كان وراء نجيب الغرابلى وتردد بشدة أيضا إن عبد القادر حمزة صاحب جريدة البلاغ كان قد تعب من مضايقات صدقى باشا فكان يؤيد هذا الانشقاق وقد أيد الثمانية المنشقون حزب الأحرار الدستوريين فى دعوته لوزارة ائتلافية التى رفضتها (الوفد) وكان هذا العدد يشكل نسبة هامة من أعضاء الوفد مما اضطر إلى أن يضم إلى صفوفه عددا جديدا من الأعضاء وأعلن مقاطعة جريدة البلاغ التى أيدت المنشقين .

وعلى الرغم من أن هذه المجموعة لم تؤثر كثيرا فى بنيان الوفد إلا أنها ظلت كمجموعة تنادى بإيمانها بمبادئ سعد زغلول وإنها تسير على دربه ونجد فى بعض الوثائق إشارة إلى « حمد الباسل » كرئيس لما أسموه « الوفد السعدى » نسبة إلى سعد زغلول وكانت صحف الوفد تشير إليهم باسم (السبعة ونصف) ونجد اسمه أيضا بهذه الصفة فى أوراق الجبهة التى أعلنت فى ١٢ ديسمبر ١٩٣٥ من جميع القوى السياسية فى مصر بفعل الأزمة السياسية الداخلية وبفعل سحب الحرب الخارجية وهى الدعوة التى تطورت بعد حين إلى جبهة لمفاوضة بريطانيا نجد أن فى أوراق هذه الدعوة اسم « حمد الباسل » رئيس الوفد السعدى مع اسم « مصطفى النحاس رئيس الوفد المصرى واسم محمد محمود رئيس حزب الأحرار » .

الرجال الأربعة

ويبدو أن اهتمام « مصطفى النحاس » رئيس الوفد المصرى بانجاز قدر من المكاسب الوطنية لمصر فى ظل الظروف التى كانت تمر بها بريطانيا فى سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية هذا

الاهتمام بإزالة ما بقى من الامتيازات الأجنبية وإزالة الإدارة الأوروبية التى كانت لم تزل موجودة إلى جانب إدارة الأمن العام المصرية والرغبة فى أن تكون لمصر قوة دفاع مصرية وحق مصر فى دخول المنظمات الدولية كعصبة الأمم . . إلى آخر الأمور التى تضمنتها معاهدة ١٩٣٦ هذا الوضع فى تقديرنا هو الذى دفع الوفد برئياسة « مصطفى النحاس » أن يرتفع فوق الشكليات ويوقع بيانا مع رؤساء الأحزاب الآخرين بمن فيهم حمد الباسل رئيس الوفد السعدى على أية حال اندثرت دعوة الوفد السعدى مع الأيام وإذا نظرنا نحن الآن من بعيد إلى الأربعة الكبار أو إلى الأربعة الذين قبض عليهم الإنجليز يوم ٨ مارس ١٩١٩ وغداة هذا اليوم اندلعت ثورة مصر القومية . . رأينا ان ترتيب الرحيل هكذا . . سنة ١٩٢٧ رحل رئيس الوفد « سعد زغلول » . . وسنة ١٩٤٠ رحل وكيل الوفد « حمد الباسل » . . وسنة ١٩٤١ رحل رئيس حزب الأحرار الدستوريين « محمد محمود» وسنة ١٩٥٠ رحل رئيس حزب الشعب « إسماعيل صدقى » . . هل تدخل القدر ليحفظ لكل مقامه حتى فى ترتيب الرحيل ؟ لست ادرى .

الأسانيد :

١ ـ صبرى أبو المجد . سنوات ماقبل الثورة .
٢ ـ د . عبد العظيم رمضان . مذكرات سعد زغلول جـ ١ .
٣ ـ فخرى عبد النور . مذكرات .
٤ ـ د . لويس عوض . تاريخ الفكر المصرى الحديث .

رفاعة الطهطاوى



أى عام هذا ، العام الأول ، من القرن التاسع عشر ، عام ١٨٠١ م الذى تقع فيه ثلاثة أحداث تدخل كلها فى نسيج واحد لتصنع تاريخ مصر الحديث ، عام ١٨٠١م يأتى إلى مصر (عسكرى بلديات الإسكندر الأكبر) يأتى إلى مصر على رأس ألف جندى ليشارك فى القتال ضد الغارة الفرنسية ثم يعود إلى حيث أتى ، وتخرج الحملة الفرنسية فى ١٥ أكتوبر ١٨٠١م ولكن «محمد على » يحاور ويناور ويداور ليبقى فى مصر . وأى يوم هذا ١٥ أكتوبر ١٨٠١م تجمع الحملة الفرنسية فلولها عائدة إلى فرنسا ، وفى اليوم ذاته ، فى طهطا مديرية جرجا ، بصعيد مصر يولد « رفاعة الطهطاوى » فيكون له شأن مع بلديات الاسكندر الأكبر « محمد على » الذى جاء من قوله ورفض أن يعود .

وفى ١٣ مايو ١٨٠٥م ، يتقدم « الشيخ عمر مكرم» ابن أسيوط مع علماء الأزهر ويختارون «محمد على » واليا على مصر . أحداث تتشابك فى عملية مخاض تاريخية تخرج من شرنقتها مصر الحديثة . .

الحكم العثمانى بتخلفه وفساده ، ونور المعرفة يخبو ، وبصيص ضوء ينبعث من الأزهر ، وقيادة مصرية من علماء الأزهر وكبار التجار ، والمماليك يمرحون فى بلد مثقل بالأزمات المالية وبالفساد الإدارى ، وعند تلك النقطة الحرجة من الزمان ، فى يوليو ١٧٩٨ يلتقى نابليون بونابرت . . فى يده اليمنى مدفع وفى يده اليسرى مطبعة وحوله عدد من العلماء . . يلتقى بجيش المماليك . . وأترك « الشيخ عبد الرحمن حسن الجبرتى » يصفه لنا . . (يلبس أحدهم قميصا من القطن الناعم الأبيض فوقه ثوب من القماش الهندى الخفيف ، وفوقه قفطان من حرير مزركش تمتد أكمامه حتى أطراف الأصابع ، وحول رقبته فراء من السمور ، وفوق ذلك كله طيلسان » يلف

به جسمه جميعه ، وفى يده سيفه وفى وسطه خنجره . .) نوعان من الحضارة يلتقيان ويكون الصدام !

وبين هؤلاء وأولئك علماء مصر برئاسة نقيب الأشراف « السيد عمر مكرم » يريدون لمصر أن تخرج من ظلمة التخلف ، وفى الوقت ذاته يقودون المقاومة الشعبية ضد الحملة الفرنسية ، والأسطول البريطانى يحوم حول سواحل مصر لاصطياد سفن الحملة . والمماليك بملابسهم المزركشة يكرون ويفرون على أرض الدلتا والصعيد . و(القنبر) المتساقط من مدافع الفرنسيس يهز نفوس العثمانيين والمماليك والمصريين ، و(الحيل العلمية) تهز عقول علماء مصر ، رجفة شبيهة بفعل شرارة الكهرباء .

وفى زاوية أخرى من الصورة نرى « محمد على » وقد بقى فى مصر يرقب الموقف بذكاء طموح . . بونابرت أشهر قادة الحرب فى تلك الأيام عاد إلى فرنسا سعيا لتحقيق طموحاته ، والحملة الفرنسية تنسحب مهزومة (ملحوظة : محمد على ونابليون بونابرت من مواليد سنة واحدة هى ١٧٦٩) . والقيادة الشعبية التقليدية وعلى رأسها « السيد عمر مكرم » لاتتقدم لتسد الفراغ فى قيادة البلاد ويقول « الدكتور محمد عمارة » عن هذه القيادة : (لم تكن هذه القيادة مؤهلة لاطبقيا ولا اجتماعيا ولا فكريا لحمل كل المهام الجديدة بعد الهزة الفكرية والاجتماعية التى أحدثها الغزو الفرنسى للبلاد . ويتقدم « محمد على » فى حذر بشىء من الجرأة ، وفى مكر بشىء من الصراحة ، أبدى ميلا نحو المصريين ، وأبدى استعدادا لمواجهة المماليك ، وأبدى رغبة فى ازاحة الباشوات الأتراك، وفى ١٣ مايو ١٨٠٥م ، وفى احتفال شعبى أعلن « العلماء » اختيار محمد على واليا .

وأقر الباب العالى هذا الاختيار فى ١٨ يوليو ١٨٠٥ . . وفى ظل هذا المناخ كان قد ولد لمصر «رفاعة الطهطاوى » فى ١٥ أكتوبر ١٨٠١ .

الميـلاد

ميلاد «رفاعة » وخروج الحملة ، ومجىء « محمد على» موعد واحد مع القدر الجديد لمصر، ولد «رفاعة» من أسرة تتصل بالسلف الصالح ، فأبوه من نسل الرسول ، وأمه من نسل الأنصار . أبوه « بدوى بن على بن محمد بن على بن رافع» يتصل بالحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما ، وأمه « فاطمة بنت الشيخ أحمد الفرغلى» ويتصل نسبها إلى الأنصار وإلى قبيلة (الخزرج) .

وتنقل « رفاعة » الصغير مع أبيه « بدوى » من طهطا إلى منشأة النيدة إلى فرشوط إلى قنا ، وكان الوالد حريصا رغم كل الظروف على أن يتم « رفاعة » حفظ القرآن وحفظ جميع المتون . . إلى أن كان عام ١٨١٦ م يتوفى الوالد فيرحل « رفاعة » عام ١٨١٧ إلى القاهرة ليدق باب الأزهر .

مرحلة جديدة

هذا هو الأزهر عام ١٨١٧م ، وقد انصرفت قياداته إلى علوم الدين بفعل تدبير « الباشا » بدأ «محمد على » حكمه سنة ١٨٠٥م بالغاء نظام الالتزام ، وأعقبه بتأميم الأرض إذا صح هذا التعبير فتذمر الأهالى ولم يقبل « محمد على » احتجاج « عمر مكرم » وسافر « الألفى بك » زعيم المماليك إلى بلاد الانجليز ليتفق معهم على طرد « محمد على » ويرسل الإنجليز حملة « فريزر » سنة ١٨٠٧ وقلوب المماليك معها . ولكن الشعب ـ وليس جيش محمد على ـ يهزم الحملة الإنجليزية عند رشيد . ويخشى « محمد على » بأس الشعب ونفوذ « عمر مكرم » . وعندما يطلب زيادة الضرائب يعترض الأهالى بزعامة عمر مكرم . ويلجأ « محمد على» هذه المرة إلى الحيلة فيوقع بين العلماء وبين عمر مكرم . وينتهى الأمر بعزل « عمر مكرم » من نقابة الاشراف ونفيه إلى دمياط . وحل محلة «الشيخ السادات » الذى انحاز إلى « محمد على » وتوقف دور العلماء فى الشئون السياسية .

كبار المماليك وهؤلاء دعاهم إلى احتفال فى القلعة وأجهز عليهم فى مذبحة مارس ١٨١١م .

وفى تطور آخر ادرك « محمد على » دور الاقتصاد فى السياسة ، فبعد أن الغى نظام الالتزام واستولت الدولة على الأرض عمل على تنويع المحصولات والاكثار من رقعة زراعة القطن . وأمر عن طريق السخرة ، بحفر الترع وإقامة الجسور ، والسدود على النيل . ثم بدا عام ١٨١٦ م سياسة جديدة للتصنيع .

أما المرحلة الثانية من عام ١٨١٨م ـ ١٨٣٠م فهى مرحلة الصناعة الكبرى وبخاصة صناعة التسلح وصناعة النسيج .

وكان صاحبنا « رفاعة الطهطاوى » قد تخرج فى الأزهر عام ١٨٢٢م وعمل مدرسا به لعامين . ثم عين عام ١٨٢٤م واعظا وإماما بالجيش حختى عام ١٨٢٦م .

وهكذا غادر « رفاعة » مصر إلى فرنسا واعظا وإماما لأكبر بعثة دراسية أوفدها « محمد على » إلى باريس فى يوليو ١٨٢٦م ومصر بها تطور زراعى وصناعى جديد يقوم على صناعة نشطة فى مجالات كثيرة ، وعلى زراعات متنوعة ، والدولة تقوم على احتكار وسائل الإنتاج جميعها بما فيها الأرض . وبالتعبير العصرى على (رأسمالية الدولة) . ويدير هذا كله (الديوان العالى) وهو بمثابة مجلس الوزراء ويجتمع بالقلعة برياسة نائب الباشا ويحمل لقب (كتخدا) . . وكان رئيس وزراء مصر فى عهد محمد على « لاظ أوغلى» .

وقد أرسل « محمد على » من قبل بعثة إلى إيطاليا عام ١٨١٣ لدراسة فنون الطباعة ، وأرسل بعثة إلى فرنسا عام ١٨١٨ م لدراسة فنون الحربية والبحرية . وفى مجال الحديث عن بعثات « محمد

على » فان بعض الكتاب من ذوى أنصاف الثقافة التاريخية يتهمون « محمد على » بأنه قصر بعثاته على الأتراك والشراكسة وهذا غير صحيح على الإطلاق ، وينكر دور العناصر المصرية الوطنية التى شاركت فى بعثات « محمد على » وعادت لتقود النهضة الحديثة فى مجالاتها المختلفة .

ويجدر أن نذكر عدداً من أسماء المصرين الوطنيين الذين شاركوا فى بعثات محمد على . . «محمد بيومى » من دهشور ، و«أحمد دقلة » من بسيون غربية ، و« أحمد طائل » من بلتان مركز طوخ قليوبية ، و« أحمد السبكى » من سبك الثلاث ، و«حسن نور الدين » من سنهور غربية ، و«محمد على البقلى » من زاوية البقلى بالمنوفية ، و« إبراهيم البنجاوى » من نبروة غربية ، و «حماد عبد العاطى» من أبو تيج أسيوط ، و«عبد الله السيد » من الفيوم .

تخليص الأبريز

بدأ « رفاعة » بتعلم اللغة الفرنسية ، وأخذ يرصد كل ما يصل إليه من معارف جديدة ومن مشاهدات . وفى عام ١٨٣١ أتم تأليف عمله الشهير (تخليص الأبريز فى تلخيص باريز)أو (الديوان النفيس بإيوان باريس) صدرت طبعته الأولى عن مطبعة بولاق الرسمية عام ١٨٣٢ . واهتم « محمد على » بهذا الكتاب وأمر بقراءته فى قصوره ، وأمر بتوزيعه على جميع دواوين الدولة والمدارس ، وعلى (الوجوه والأعيان من الرعية) ، وهذا دليل على استنارة « محمد على » فعلى الرغم من أن الكتاب يعد من كتب أدب الرحلات ويحتوى على ما شاهده « المسيو الشيخ رفاعة » فى باريس إلا أن به لمحات اجتماعية وسياسية ذات دلألة خاصة . . فالملك فى فرنسا يحكم بشروط ، والوزير إذا مشى فى الطريق لاتعرفه من غيره ، والورقات اليومية المسماة بالجرنالات يعرف الإنسان منها سائر الأخبار سواء كانت داخلية أو خارجية ، وفى باريس مجامع للعلماء وخزائن للكتب ، وعلماء الهيئة أوضحوا بالأدلة أن الأرض كروية ، والتياترو عندهم كالمدرسة العامة يتعلم فيها العالم والجاهل .

وفى نهاية الكتاب يحتفى « الشيخ رفاعة » بثورة الشعب الفرنسى على « شارل العاشر » عام ١٩٣٠م لانتهاكه (الشرطة) أو الميثاق ويقصد به الدستور الفرنسى الذى عكف « رفاعة » على ترجمته بما فيه من دعوة للحريات وأصول الحكم الديمقراطى ومن باريس أرسل « رفاعة » ترجمة للكتاب (مبادئ العلوم المعدنية) سنة ١٨٢٨ وطبع بإذن من « الباشا » فى مطبعة بولاق .

العودة والازدهار

وعاد ابن الأزهر من باريس سنة ١٨٣١ م وعمل مترجما بمدرسة الطب لمدة عامين ، راجع ترجمة قام بها « يوسف فرعون » لكتاب (التوضيح لألفاظ التشريح) . وأشرف على (مدرسة المارستان) إلى جانب عمله بمدرسة الطب . وقام بتدريس الحساب والهندسة والتاريخ والمنطق . وانتقل عام ١٨٣٣ م للعمل مترجما للعلوم الهندسية والعسكرية بمدرسة (الطوبجية) - أى المدفعية . وفى العام نفسه أنشأ (مدرسة التاريخ والجغرافيا) واصدر كتاب (التعريبات الشافية لمريد الجغرافية) وهو عبارة عن محاضرات ألقاها على طلبة المدرسة . وترجم سنة ١٨٣٤م مجلدا من (جغرافية ملطبرون) . وأنشأ سنة ١٨٣٥ مدرسة الترجمة التى أصبح اسمها (مدرسة الألسن) وأشرف عليها فنيا واداريا وقام بتدريس الأدب والشرائع الإسلامية والغربية ، وأشرف على اختيار الكتب المرشحة للترجمة . وأنشئت مدرسة الإدارة الافرنجية (العلوم السياسية) سنة ١٨٤٤م . وأنشأ قسما للإدارة الزراعية الخصوصية سنة ١٨٤٧م .

وإذا لاحظنا ان هذه المدارس جميعها هى مدارس عليا فى مستوى المعاهد العليا أو الكليات الجامعية فى أيامنا الحالية لادركنا ماذا يقصده « صالح مجدى » مؤرخ سيرة الطهطاوى يقوله . . (كان الطهطاوى يسوس هذه المدرسة المجتمعة بغاية الدقة) . وهو يقصد أن « الطهطاوى » كان يخطط لتحويل (مدرسة الألسن) إلى جامعة تضم هذه المدارس العليا جميعها . ونلاحظ فى هذا الصدد أن « رفاعة » قد حول فناء (مدرسة الألسن) إلى متحف للآثار سنة ١٨٣٥م ، ونقل المدرسة التجهيزية إلى مقر مدرسة الألسن سنة ١٨٤١م . وأنشأ عام ١٨٤١م قلما للترجمة . وعندما أسند إليه عام ١٨٤٢م الإشراف على (الوقائع المصرية) أدخل التجديدات على مادتها وإخراجها . وصدر قرار بترقيته إلى رتبة (قائمقام) سنة ١٨٤٣م . وتحول ابن الصعيد إلى شعلة من الإشعاع الفكرى .

الانقلاب الرجعى

بداية من معاهدة لندن فى ١٥ يوليو ١٨٤٠ فرضت الدولة العثمانية وبريطانيا وروسيا والنمسا وبروسيا حالة من التقلص على نشاط مصر العسكرى والاقتصادى وانعكس بالتالى على النشاط الفكرى والثقافى . وأصاب الوهن الذهنى والجسمانى « محمد على » فترك دفة الحكم لابنه إبراهيم باشا ، ولكن إبراهيم باشا توفى فى ١٠ نوفمبر ١٨٤٨م وخلفه « عباس الأول » فى ٤ ديسمبر ١٨٤٨ ، وفى ٢ أغسطس ١٨٤٩م توفى « محمد على » .

وكان « رفاعة » العظيم وتلاميذه العظام فى حياة محمد على وإبراهيم باشا قد أقاموا صرحا من النهضة الفكرية الحديثة موازيا للتقدم العسكرى ، والتطور الاقتصادى . وبعد أن تولى الجاهل «عباس الأول » أريكة حكم مصر بدأ الانقلاب الرجعى فى المجالات العسكرية والزراعية والصناعية والثقافية . قرر (المجلس المخصوص) نفى « رفاعة الطهطاوى » إلى السودان وتمت تصفية مدرسة الألسن وأغلقت أبوابها فى نوفمبر ١٨٤٩م .

ومات « عباس الأول » فى مؤامرة من مؤامرات قصور الشرق ، وتولى الحكم « سعيد باشا » فى ١٦ يوليو ١٨٥٤م وعاد الطهطاوى من السودان ، وأرسل « سعيد » على باشا مبارك إلى الحرب الدائرة فى القرم بين روسيا والدولة العثمانية . . ولا بأس فهو يحمل رتبة (اميرالاى) . .

وتولى « رفاعة » وكالة المدرسة الحربية سنة ١٨٥٥م ، ثم أنشأ مدرسة مستقلة للحربية فى القلعة ، وإلى جانب عمله تولى نظارة مدرسة « الهندسة » ومدرسة « مصلحة الأبنية » وفى تلك الفترة أعد أول مشروع لطبع كتب التراث العربى الإسلامى تقوم به مطبعة بولاق . . وفجأة على عادة الشرق أيضا وجد نفسه مفصولا عن العمل عام ١٨٦١م ، وبقى دون عمل رسمى إلى أن مات سعيد وجاء إسماعيل سنة ١٨٦٣م .

شجرة طيبة

وجاء عصر « إسماعيل » ورفاعة رافع الطهطاوى يتقدم كتيبة من المثقفين فى مختلف مجالات المعرفة . وأدرك « رفاعة » أن الأمة ينبغى أن تسير بساقين . . البنين والبنات ، فوضع سنة ١٨٧٢ كتابه (المرشد الأمين للبنات والبنين) . وانتشرت المدارس فى عهد إسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) .

وازدهرت الصحافة التى تصدرها الحكومة والمصريون والأجانب ، وظهرت المجلات العلمية المتخصصة .

واشترك « رفاعة » مع « على مبارك فى التخطيط لمجلة (روضة المدارس) التى صدر العدد الأول منها يوم السبت أول إبريل سنة ١٨٧٠م وكان على مبارك ناظراً للمعارف ، ورفاعة مشرفا على المجلة وناظرا لقلم الترجمة . وتحلقت حول « الرائد العظيم » مجموعة من العلماء والمفكرين والأدباء والدارسين ، تأثروا بشخصيته المشعة ، ونادى رفاعة بأن يكون هؤلاء المثقفون المستشارين للسلطان ، وأن يكون للشعب حقه فى الحوار السياسى ، وشاعت فى كتاباته عبارات الوطن والوطنية والأخوة الوطنية والمجتمع المدنى .

واقتحم « رفاعة » أصعب القضايا الاقتصادية ، وبكل البصيرة المتقدمة قال بأن العمل هو

(القيمة الرئيسية) . وقال فى جرأة . إن الملاك يسرقون جهد الفلاحين وعملهم . . ترك لمصر ما هو أثمن من ذلك بكثير . . عشرين عملا مترجما . . وزادا فكريا تربى عليه . . على مبارك ومحمد عبده وأحمد عرابى وعبد الله النديم وسعد زغلول . .

ويوم الثلاثاء ٢٧ مايو ١٨٧٣م انتهى عمر شجرة طيبة ، أصلها ثابت ، فروعها فى سماء الوطن العظيم .

الأسانيد :

١ ـ الطليعة (مجلة) . . ملف رفاعة الطهطاوى (يونية ١٩٦٧) .
٢ ـ د . أنور عبد الملك . . نهضة مصر .
٣ ـ د . حسين فوزى النجار . . رفاعة الطهطاوى .
٤ ـ صلاح عبد الصبور . . قصة الضمير المصرى الحديث .
٥ ـ محمد عبد الغنى حسن ود . عبد العزيز دسوقى . . روضة المدارس .
٦ ـ د . محمد عمارة . . رفاعة الطهطاوى .

الدكاترة زكى مبارك



زكى مبارك العاشق الذى نعرف هو الثائر الذى نجهل ، زكى مبارك صاحب ليلى المريضة فى العراق ومرجريت ومادلين فى باريس ، وسعاد فى المنصورة المنافس لإبراهيم ناجى فى حب من أسماها « ليلى الزمالك » وصاحب فتاة مصر الجديدة ، وفتاة حى الحمراء بأسيوط . . زكى مبارك هذا هو بنفسه الشيخ الأزهرى المعمم الذى ألهب حماسة الثائرين سنة ١٩١٩ وما بعدها ، هو بذاته الذى ألقى القصائد الوطنية فى بيت « محمود باشا سليمان » رئيس لجنة الوفد المركزية فأحال الاجتماعات إلى تظاهرات ضد الاحتلال فيلجأ الإنجليز إلى اعتقاله . .

وتخرج جريدة الأهرام صباح الاحد أول يناير سنة ١٩١٩ بخبر يقول : (اعتقل البوليس صباح أمس الأول الاستاذ زكى مبارك وهو شيخ معروف بذلاقة اللسان والنظم الرشيق . .) ويرفض زكى مبارك أن يفرج عنه إلا إذا ما كتب تعهدا بألا يشتغل بالسياسة ويواصل نشاطه الوطنى متأثرا بالشيخين . مصطفى الغاياتى وعبد اللطيف دراز ويكتب فى صحيفة الأفكار ، التى يصدرها «الصوفانى » رجل الحزب الوطنى ويضطر الإنجليز إلى الافراج عنه بعد شهور طويلة .

وظل زكى مبارك يذكر جهاده فى ثورة ١٩١٩ ويفاخر به على الكتاب الآخرين الذين لم يشاركوا مثله فى الثورة ، كان ثائرا بالمعنى الذى تعنيه الكلمة ، يخطب ويهيج الجماهير ويلقى القصائد الوطنية ويختفى عن أعين الانجليز الذين يطاردونه . كتب مرة عن هذه الفترة . . (كانت السلطات العسكرية تبحث عنى لتقتلنى ، وكان يجب أن احترس فأمنع السلطة البريطانية من أن تعرف أين مكانى ، فقضيت ثلاثة أشهر وماواى غرفة فى سطح بيت يقيم به أحد الشبان الأقباط من أبناء سنتريس . وهو شاب على جانب من الذوق واللطف هو الأستاذ (أنيس ميخائيل) . .

كانت علاقته وطيدة بانيس ابن قريته ، ويلجأ إليه كلما حاول الاختفاء ويرسل إليه الرسائل

من المعتقل . . ومن رسالة أرسلها لأنيس فى مارس ١٩٢٠ نشرها « زكى مبارك » فى كتابه (البدائع) نعرف محاولة الإنجليز مساومة زكى مبارك للإفراج عنه : (فكر القوم فى مساومتى لأول لحظة وطئت فيها ثكنة قصر النيل ولكنى فقأت عيونهم حين أريتهم كيف يطيب الشقاء فى سبيل البلاد. وأقسم لو خرج مصطفى كامل من قبره ليصافح الإنجليز لما كان فى ذلك ما يزحزحنى قيد أنملة عن معاداتهم) .

وسجل فى كتاباته . . (كان الأزهر يموج كل مساء بالآلاف المؤلفة لسماع الخطب الوطنية . وكان رئيس الخطابة يومئذ الشيخ محمود أبو العيون . . وفى مساء يوم حضر وفد الصحافة الأجنبية وخطب خطيبهم باللغة الفرنسية ، فسألنى الشيخ أبو العيون أن أرد تحيتهم بجرأة وحماسة وخطبت خطبة فرنسية رنانة . . وأشهر خطباء الثورة يومئذ أبو شادى ، والشيخ مصطفى الغاياتى والدكتور محجوب ثابت) .

ولم تكن مواقفه الوطنية مقصورة على أيام الشباب بل إننا نجده فى وزارة « إسماعيل صدقى » ١٦ فبراير ـ ٩ ديسمبر ١٩٤٦ له موقف واضح ضد سياسة هذه الوزارة فاشار « محمد حسن العشماوى » وزير المعارف بملاحقته فى عمله فأنشد قصيدته (الوزارة التى هوت) ومن قبل كان قد نظم قصيدة (يوم المدينة الجامعية) يوم الصدام بين البوليس والطلبة فى عهد حكومة النقراشى (٢٤ فبراير ١٩٤٥ ـ ١٥ فبراير ١٩٤٦) وكان فيها عبد الرزاق السنهورى وزيرا للمعارف وعلى خصومة مع زكى مبارك فنقله إلى دار الكتب وإنما وقع فى خصومة مع الكثيرين جرت عليه المتاعب طوال حياته ، ولا بأس أن نعرض لها ولكن بعد فقرة عن حكاية (الدكاترة)التى عرف بها . .

الدكاترة . . . لماذا ؟

فى الجامعة المصرية القديمة تقدم برسالة عن (الأخلاق عند الغزالى) التى نوقشت فى ١٥ مايو سنة ١٩٢٤ ونال عنها درجة الدكتوراه . . وقد ثارت ضجة حول ما جاء فى هذه الرسالة . وكتب بعض العلماء فى المقطم والأهرام يهاجمون « زكى مبارك » لما حسبوه تطاولا على (حجة الإسلام الإمام الغزالى) .

وفى ٢٥ إبريل ١٩٣١ نال الدكتوراه عن رسالته (النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى) من جامعة السوربون فى باريس . . وهناك اختلف مع أساتذته وفى مقدمتهم المشرف على الرسالة . . وعارض رأى الأستاذ المشهور « ماسينيون » وهاجم آراءه فى النثر الفنى . . وقال هناك . . جئت لأصحح أغلاط المستشرقين .

وبعد ان عاد من باريس فى مارس ١٩٣١ عكف يعد رسالة الدكتوراه الثالثة عن (التصوف الإسلامى) التى حصل عليها فى ١٤ إبريل ١٩٣٧ من الجامعة المصرية الجديدة . . واعتذر الدكتور طه حسين عن عدم رياسة لجنة المناقشة بحجة أن زكى مبارك رجل غير مصقول وأنه قد يخرج على قواعد الذوق فى المناقشة مما يسبب الحرج للعميد أمام الجمهور . .

وبعد الدكتوراه الثالثة حرص « زكى مبارك » أن يتحدث عن نفسه بعبارة (الدكاترة زكى مبارك) وقال الآخرون عنه إنه معجب بذاته ، ويمتدح نفسه دائما ويقلل من شأن الآخرين . . وهذا القول صحيح إلى حد كبير . .

قال عن كتاب (التصوف الإسلامى) ـ كتاب لم يسبقنى إليه سابق ولن يلحقنى فيه لاحق ، ولن تنجب الجامعة المصرية فتى يؤلف كتابا مثل هذا الكتاب !

وقال ـ (سأشمت بزملائى فى البلاغ وأنا منهم مغتاظ وفعل شمت لايوجد فى اللغة الفرنسية ، سأتركهم لنيران الظهيرة فى المطبعة بين تحرير وترجمة وتخبير والتخبير هو استيقاء الخبر ، وهى كلمة لايعرفها المجمع اللغوى !

وقال ـ المجمع اللغوى فقد هيبته حين خلا منه اسم زكى مبارك . . واليوم أقول إننى زاهد فى عضوية المجمع اللغوى لأن هذه المنزلة ستجعلنى زميلا لحضرة الأستاذ محمد فريد أبو حديد .

وقال ـ بأى حق يكون الأستاذ الزيات عضوا فى المجمع اللغوى ولا أكون أنا عضوا فى المجمع اللغوى !

وقال عن كتابه النثر الفنى ـ ستبيد أحجار الجامعة المصرية ويبقى كتاب النثر الفنى فقد بادت المدرسة النظامية وبقيت مؤلفات الغزالى .

وإذا كان أدباء عصره عابوا عليه أنه كثير الحديث عن نفسه ، فقد أوضح أنهم جميعا هكذا . . الدكتور طه حسين ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، وعباس محمود العقاد ، وسلامة موسى ، كتبوا عن أنفسهم وعن تجاربهم الذاتية .

المعارك القلمية

حمل زكى مبارك القلم كما يحمل فلاح سنتريس (النبوت) وإذا كان الشاعر « الحطيئة » أيام الخلفاء الراشدين قد هجا الجميع حتى نفسه ، فإن زكى مبارك أطاح فى الجميع ومدح نفسه . . وحاربه الجميع فى الخفاء أو العلن وكان ضحية قلمه (الفالت) إذا صح هذا التعبير . . فأسقطه الدكتور طه حسين مرتين فى امتحان الليسانس ، وأخرجه محمد حسن العشماوى من عمله ، وأخرجه عبد الرزاق السنهورى من وزارة المعارف ، وسافر إلى باريس على نفقته الخاصة . . كان

يبحث دائما عن خصوم يصاولهم وينتصر عليهم .. ظل طوال عمره ، رجلا غير مصقول ، جريئا وعنيفا لايعرف المجاملة ، يأبى المداراة والنفاق فيه بداوة فى الطبع قيل عنه إنه يثير الناس ليظفر بالشهرة .. احتفظ بطبيعة الفلاح فى سلوكه .. وأدرك هو هذا كله .. أدرك ان غيره وصل لأنه كاذب أما هو فقد تخلف لأنه صادق ، وأدرك أن صراحته قطعت رزقه ورزق عياله ، وأدرك أنه تخلف فى حياته الرسمية رغم كثرة ما نشر من كتب ومقالات .. وأدرك ان الصدق جره إلى معاطب ومهالك وقال عن نفسه (من المستحيل ان يكون فى الدنيا أحد أصدق منى) !

تصدى لأساتذته فى باريس المشرفين على رسالته والممتحنين له على غير عادة الباحثين هنا وهناك .. كان ناقدا مخيفا يخشاه الآخرون والويل لمن يبدأ الهجوم عليه .. ومنذ أن قال « طه حسين » على كتاب النثر الفنى .. (كتاب من الكتب ألفه كاتب من الكتاب) ففتح « زكى مبارك » النيران عليه لعشر سنوات متصلة ورفض طه حسين تجديد عقد زكى مبارك مع كلية الآداب سنة ١٩٣٤ .. فرد بقوله (لو جاع أولادى لشويت طه حسين وأطعمتهم لحمه) وقال عن طه حسين (لم يقرأ فى حياته كتابا كاملا ، وإنما قرأ فقرات من هنا وهناك وأخذ يشطح ذات اليمين وذات الشمال) .. ودخل فى معركة مع أحمد أمين وكتب ضده فى الرسالة أكثر من عشرين مقالة ولم يرد عليه أحمد أمين لأنه كان يظن أن أحمد حسن الزيات يقف خلف هذه الحملة إلى أن رزق الله زكى مبارك بالسباعى بيومى الذى واجهه بالعنف والقوة .

واشتبك مع العقاد وسلامة موسى وأحمد شوقى ولطفى جمعه وأحمد حسن الزيات .. حتى أحمد لطفى السيد قال زكى مبارك عن أسلوبه (بطىء الحركة إلى حد الجمود وهو يجر كلامه بتثاقل وإبطاء) وهاجم مصطفى صادق الرافعى وشيخ العروبة أحمد زكى باشا ، وعبد العزيز البشرى ، والمازنى ، ولم يسلم من قلمه الشيخ « سليم البشرى » شيخ الجامع الأزهر ووالد « عبد العزيز البشرى » وهاجم إسماعيل صدقى والنقراشى والسنهورى وإسماعيل القبانى .. فكتب فى البلاغ يقول : (لن اطيع أمرك ، إلا يوم يقوم الدليل على أنك وزير فقد أسلمت أمور الوزارة إلى قبانى بلا ميزان) يقصد إسماعيل القبانى !

زكى مبارك والبلاغ

نستطيع أن نقول إن زكى مبارك كان فى فترة ماسببا فى شهرة البلاغ ، وإن البلاغ بدورها كانت طريقا إلى شهرة زكى مبارك الذى لم يعرفه الكثيرون بقصائده أو بعمله فى وزارة المعارف وقد وقفت البلاغ إلى جانب « زكى مبارك » عندما سافر إلى باريس للحصول على الدكتوراه الثانية وكانت تدفع له ١٥ جنيها شهريا بعد أن كان فى سنوات السفر الأولى يقضى فى باريس أربعة شهور وفى

القاهرة ثمانية يعمل فى الصحافة وفى التدريس ويجمع نفقات إقامته فى باريس ويعود إليها .

ومنذ عام ١٩١٤ كتب فى الصحف بتوقيع « الفتى الأزهرى » ثم كتب فى جريدة الأفكار وهى من صحف الحزب الوطنى حتى وصل إلى رئاسة تحريرها . ثم اتفق « عبد العزيز الصوفانى » مع «عبد القادر حمزة » على أن تصبح « الأفكار » جريدة وفدية واستمر زكى مبارك فى الأفكار وكان ذلك سنة ١٩٢١ . وعمل بالبلاغ منذ صدورها عام ١٩٢٣ واستمرت علاقته بها وهو فى باريس من ٢٧ ـ ١٩٣١ وبعد أن عاد من باريس اهتم بنشر مقالات عن الأدب العربى . وقد شهدت البلاغ معارك زكى مبارك الساخنة مع أدباء وساسة عصره . وهو وأن كتب فى صحف أخرى سياسية وأدبية إلا أن صفحته فى البلاغ بعنوان (الحديث ذو شجون) سوف تظل معلما بارزا لزكى مبارك وللبلاغ على السواء .

وبعض ما كتب تعرض للتكذيب بوصفه مزاعم من زكى مبارك مثل قوله فى البلاغ فى ١٧ يونيه ١٩٣٢ بأن المتنبى زار سنتريس دون أن يوضح فى أية مناسبة ولماذا . وعندما صدر ديوان أحمد شوقى بمقدمة للدكتور محمد حسين هيكل كتب زكى مبارك إن شوقى طلب منه مقدمة ثانية ولكنه اعتذر ، كان ذلك عام ١٩٢٥ . . ولكن « د . محمد رجب البيومى » فى دراسة له يستبعد هذا الزعم وكتب زكى مبارك يقول إنه كان يكتب (جريدة الأفكار) من الألف إلى الياء ولاتظن أن الوضع كان هكذا تماما ولكنه نوع من مفاخرة زكى مبارك بجهوده التى لم يعترف بها الكثيرون وهذا مانجده يعبر عنه فى أشعاره ولعل هذا أيضا ما جعله يغرق فى الكأس ومع بنات الناس إن حقيقة أو مبالغة إلى درجة أن البعض قال بأن ليلى المريضة فى العراق هى شخصة من اختراع خيال زكى مبارك .

ومهما يكن من أمر فإننا سوف نسير معه فى رحلته مع الشعر ، والخمر والغراميات والإيمان لننظر إليه فى صورته المتكاملة .

الشعر والعشق

يبدو أن تأثير سنتريس تلك القرية الصغيرة من قرى المنوفية ، كان كبيرا فى نفسية زكى مبارك وماترسب فى وجدانه هى قرية تجاور الرياح المنوفى ، ولد فيها زكى مبارك سنة ١٨٩٢ وقد نشأ يحب قريته ويحب أباه الذى توفى سنة ١٩٣٥ وكان قد فقد أمه سنة ١٩١٧ وفقد أخاه سنة ١٩١٨ ، وأخذ عن والده صدق القول وفصاحة اللسان وقوة العزيمة .

وسنتريس (لم تكن تعرف الطلمبات فكان الماء يحمل إلى المنازل من النيل أو من السواقى ،

فكنت ترى فى الصباح أسرابا من الصبايا يحملن جرات الماء وحولهن ظلال من الهوى والمرح والشباب والنشوان) وكان فى تلك الأيام يخرج لصلاة الصبح ، ثم يعود مسرعا إلى داره ، فيسحب البقرة ويخرج إلى الغيط ، وهو مسرور لأنه سيشهد أسراب الصبايا فى طريقهن إلى السواقى أو إلى النيل . وفى هذه السن الباكرة أقبل الفتى زكى مبارك على مشاهدة الحسان وعلى قراءة الشعر فأقبل على نظمه مستمدا مادته مما حوله فى سنتريس من طبيعة ومن حسان الفجر . وقد أصبح عشقه للجمال من العناصر الرئيسية فى تكوين شخصيته سواء فى سلوكه أو فى أشعاره . . أنطق شعره فى الغزل وفى التصوف . . وهنا مكان الحديث عن الغزل والعشق والخمر ليجىء الحديث عن التصوف والإيمان خاتمة للموضوع وغفر الله له ولنا وللقراء أجمعين .

نجد من أشعاره أن حبه الأول كان فى سنتريس مع تلك الفتاة التى أنطقته بالشعر الأول والتى أهدى لها ديوانه الأول كما جاء فى مقدمة ديوانه (ألحان الخلود) (إلى تلك الفتاة التى خفق لها القلب أول خفقة والتى قلت فيها أول قصيدة وسكبت عليها أول دمعة إلى تلك الفتاة التى تنام فى قبر مجهول تحت سماء سنتريس) ونسير معه جغرافيا لا تاريخيا . . فى القاهرة وفى الزمالك ليلاه المريضة . . ممثلة إغراء مشهورة وهى التى أوحت للشاعر « إبراهيم ناجى» بقصيدة الأطلال الشهيرة ، وأوحت إلى زكى مبارك بقصائد عديدة . . ويقول « صالح جودت » إن هذه الفاتنة من (سنتريس) وكان « زكى مبارك » يشعر بأنه أولى بحبها ولكنها ألقت بالجميع بعد أن بلغت الشهرة وينتقل زكى مبارك إلى مصر الجديدة حيث يسكن وحيث تعيش ليلى أخرى . ومن القاهرة إلى المنصورة حيث سعاد وهى الأخرى تنظم الشعر ، ويحدثنا عنها وعن أخيها وقد أوحت إليه بقصيدة (غرامى) . ومن المنصورة إلى مدينة أسيوط حيث كان هناك مفتشا للمدارس الأجنبية ، وفى (حى الحمراء) ملهمة صعيدية ولكنه لايكتب فيها الشعر مباشرة وإنما ينظمه على أهل أسيوط .

وفى باريس يلتقى وامرأة ضائعة ترك لها من خدعها ابنها موريس يقول زكى مبارك إنها اخلصت له وعاش معها يحكى القصص لموريس ويقول : « د . العربى درويش » إنه فى قصيدته (زفرات) استلذ العذاب فى حب هذه الفاتنة الحسناء واستطاب العويل فى تلك الساحرة الجذابة . ثم يكشف لنا نحن عن (روح لطيفة عرفتها من باريس كان اسمها مادلين قسميتها ليلى . بلغ بها الوجد مبلغا قضى بأن تنظم الأشعار فى حبى . وتحضر إليه فى مصر تعرض عليه الزواج وتعود إلى باريس لأنه متزوج) .

أما قصة الطبيب المداوى زكى مبارك مع ليلى المريضة فى العراق فقد أصدر عنها كتابا فى ثلاثة أجزاء .

أما بعـــد

فقد توفى زكى مبارك يوم ٢٣ يناير ١٩٥٢م فيكون قد قطع هذه الرحلة الصاخبة من الحياة فى ٦٠ عاما . . من سنتريس إلى الأزهر الشريف إلى باريس إلى بغداد . . من المعتقل إلى الصحافة إلى التعليم إلى الجامعة . . من الفصل إلى التشريد إلى الجوع أحيانا . . ملأ الحياة الثقافية فى مصر والبلاد العربية صخبا وضجيجا . . دخل فى عراك مع قادة الفكر والرأى فما دارى أو نافق أو مسح الجوخ أو الحذاء لأحد كما يفعل البعض .

من حقه علينا ـ وهو فى رحاب الله ـ أن نصدقه حين يقول إنه كان صوفيا مؤمنا محبا لله وإنه كان من حماة الدين الحنيف ، وإنه كان له فى سنتريس وغير سنتريس مريدون واتباع ، وإنه كان يصوم رمضان فى باريس . . رحم الله الدكاترة « محمد زكى عبد السلام مبارك » ونداء إلى ابنه الزميل والصديق « عبد السلام زكى مبارك » الذى طاب له المقام فى باريس منذ سنوات طويلة أن يعود ومعه ولو دكتوراه واحدة تحية لذكرى والده .

الأسانيد :

١ ـ العربى درويش . زكى مبارك شاعرا .
٢ ـ أنور الجندى . زكى مبارك .
٣ ـ زكى مبارك . ألحان الخلود (ديوان) .
٤ ـ عبد الرزاق الهلالى . زكى مبارك فى العراق .
٥ ـ فاضل خلف . زكى مبارك بين رياض الأدب والفن .
٦ ـ د . محمد رجب البيومى . مجلة الثقافة يناير ٨٢ .
٧ ـ محمد محمود رضوان . صفحات مجهولة من حياة زكى مبارك .



سعد زغلول

هؤلاء الرجال من مصر . . وسعد زغلول زعيم مصر وزعيم هؤلاء الرجال جميعا دون منازع . أدخل فى الموضوع مباشرة لأننى اتحدث عن « سعد » العظيم . . والمساحة المتاحة محدودة .

أبدأ بمذكرات « حسن يوسف » الذى عمل مع « فاروق » من سنة ١٩٣٥ إلى أن أصبح وكيلا للديوان الملكى ورئيسا له بالنيابة على فترات ، وكان كاتم سر مجلس البلاط ، وحامل أختام الملك. قال حامل أختام الملك فى مذكراته على صفحة ٦٠ : « يجمع الكتاب والمؤرخون على أن محاولة الحكم فى مصر ترتكز على ثلاث قوى . . الوفد والقصر والإنجليز . . ويمكن القول اجمالا إن الفترة التى سبقت دستور ١٩٢٣ كان الحكم فيها للقصر بمساندة الإنجليز وبعد صدور الدستور وتحديد اختصاص كل من السلطتين التنفيذية والتشريعية تناوب القصر والوفد سلطة الحكم . . سنة ١٩٢٤ كان الحكم فيها للوفد .

وعلى صفحة ٧٧ . . (ذهب سعد باشا بعد ظهر ذلك اليوم ـ يقصد ١٦ نوفمبر ١٩٢٤ ـ لمقابلة الملك ـ ودامت المقابلة ساعتين علت من خلالها أصوات المتجمهرين « جنود سعد » وهم يهتفون تحت نوافذ القصر « سعد أو الثورة » .

وعلى صفحة ٨٢ . . (عمد الملك بعد ذلك فورا إلى تكوين جبهة مناهضة للوفد ، فقرب إلى القصر عدلى يكن باشا وعبد الخالق ثروت باشا واسماعيل صدقى باشا كما تقرب إلى الحزب الوطنى برياسة حافظ رمضان باشا . وأنشأ القصر من خلال حسن نشأت باشا رئيس الديوان الملكى بالنيابة ، حزب الاتحاد فى يناير سنة ١٩٢٥ وبذلك أصبح الملك وحزب الأحرار الدستوريين والحزب الوطنى ، وحزب الاتحاد فى جبهة معارضة للوفد ولسعد باشا) .

وملحوظة سريعة من عندنا إن « على ماهر » كان وكيلا لحزب الاتحاد والرئيس الفعلى له . .

وبذلك تكون الجبهة المعادية للوفد تضم أيضا عدلى يكن وعبد الخالق ثروت وإسماعيل صدقى وعلى ماهر ، وهذا يوضح الثقل الوطنى والشعبى الذى كان يتمتع به سعد العظيم .

ويستطرد صاحب المذكرات على الصفحة ذاتها . . (وقد أحدثت وفاة سعد زغلول فى أغسطس ١٩٢٧ فراغا شعبيا هائلا انتهزه الملك فؤاد ليزيد من نفوذه القصر إذ أن شخصية سعد كانت القوة الوحيدة التى تستطيع الوقوف أمام أو توقراطية الملك) .

واعتقد أن كلام « حامل أختام الملك فاروق » ليس فى حاجة إلى توضيح أو إلى تعقيب من جانبنا ، وليس فى حاجة إلى اعتراض من جانب غيرنا .

ونأتى إلى « إسماعيل صدقى » أول من خرج على سعد زغلول ، ومؤسس حزب الشعب ، والذى حل البرلمان الوفدى أكثر من مرة والذى تمت فى عهده محاولة اغتيال مصطفى النحاس فى المنصورة . . والذى . . . والذى . . يقول فى مذكراته عن سعد زغلول (كان سعد زعيما وطنيا بكل ماتؤديه هذه الكلمة من معان ، ولو أن كلمة زعيم لاتمنع ، أنه كان سياسيا قديرا وقائدا ماهرا فى أوقات الشدائد وربانا بارعا صارع الأنواء والأمواج وواجه الأخطار فلم تؤثر فى عزيمته ولم تزعزع من جبروت نفسه وإرادته .

وكان يخرج بسفينته قويا منتصرا جبارًا ، وكانت شجاعته وبلاغته وسعة اطلاعه وكثرة تجاربه مما هيأ له، التأثير بين الجماهير فاشتد حبها له وإعجابها به، وانقيادها لكل مايبديه من رأى وإصغاؤها لكل مايهتف به من قول. . فامتلك الافئدة والنفوس وبقى طوال حياته الزعيم الأكبر) .

واعتقد أن كلام « إسماعيل صدقى » ليس فى حاجة إلى توضيح أو إلى تعقيب من جانبنا ، وليس فى حاجة إلى إنكار من جانب غيرنا .

القرية والأزهر

من الظواهر التى تلفت نظر الباحثين أن القرية المصرية أنجبت لمصر عددا من زعمائها المرموقين بعد أن استودعتهم الأزهر الشريف يقدم لهم الأصالة ثم يقدمهم بدوره قادة لمصر فى الأنشطة المختلفة . . من هؤلاء الذين ولدتهم القرية المصرية وتأسست بنيتهم الثقافية فى الأزهر كان « سعد زغلول » .

والتاريخ الشائع لميلاد « سعد زغلول » هو عام ١٨٥٩ م ويرجح « الدكتور عبد العظيم رمضان » أنه ولد فى شهر ذى الحجة ١٢٧٤هـ الذى يوافق يوليو ١٨٥٩م ، وهو التاريخ الذى

صرح به سعد زغلول بنفسه لسكرتيره محمد إبراهيم الجزيرى .

ومهما يكن من أمر فقد انبتته ونمته قرية مصرية هى (قرية ابيانه) مركز فوه التى كانت تابعة لمديرية الغربية ، أبوه « الشيخ إبراهيم زغلول » رئيس مشيخة القرية ، ووالدة سعد هى مريم بنت الشيخ عبده بركات أحد كبار الملاك ، وأنجب منها بنتا واحدة هى « ستهم » ثم سعد الذى عرف بسعد زغلول ، وفتحى الذى عرف بأحمد فتحى زغلول ، ومات الشيخ إبراهيم زغلول وسعد عمره خمس سنوات فكفلته أمه وخاله « عبد الله بركات » والد « فتح الله بركات » .

ثم جاء دور « الكتاب » بتعلم منه سعد القراءة والكتابة ويحفظ القرآن الكريم ، ووفد « سعد» إلى القاهرة سنة ١٨٧٣ م ويلتحق بالأزهر . . وفى ذلك العام رحل رفاعة الطهطاوى .

وكان قد وفد إلى مصر الثائر « السيد جمال الدين الأفغانى » سنة ١٨٧١ .

وفى تقديرى أن تلك النشأة الأصيلة هى التى حددت السمات التى تميز بها « سعد زغلول » فيما بعد والتى سجلها « محمد كامل سليم » قال : (سعد رجل الشعب ، والاستقلال لمصر . وثقافته عربية أدبية دينية إسلامية ، تعلم الفرنسية على كبر وأتقنها كلاما ، وكتابة ، وعرف الحضارة الغربية بكثرة اطلاعه وقراءاته وكثرة أسفاره إلى الخارج ، وهو رجل أخلاق ومبادئ مطبوع على الصراحة والشجاعة والثقة بالنفس والصدق والأمانة . . رجل عاطفى مشبوب العواطف يحب بكل قلبه مع العطف والحنان ، ويكره مع السخط والاحتقار ، ويغضب فى عنف على كل منحرف عن الصدق والفضيلة والاستقامة) .

سعد والشيخ والسيد

من الصعب أن تقارن بين تأثير الشيخ محمد عبده ، وتأثير السيد جمال الدين الأفغانى على سعد زغلول . . ولعل تأثير «السيد» على سعد زغلول هو الذى حدا بالزميل الكاتب الأستاذ جمال بدوى أن يطلق على مقالة له فى هذا الشأن عنوان (سعد زغلول . . الأفغانى) على كل حال فإن « الشيخ محمد عبده » وفد إلى الأزهر فى منتصف شوال من سنة ١٢٨٢ هجرية (١٨٦٦ ميلادية) وهو فى هذا سابق على مجيء سعد زغلول بسبع سنوات الذى جاء إلى الأزهر سنة ١٨٧٣ م ، وكان السيد جمال الدين الأفغانى قد جاء إلى مصر فى أواخر سنة ١٢٨٦ هجرية (مارس ١٨٧١ ميلادية) وقد صاحبه « الشيخ محمد عبده » ابتداء من شهر المحرم سنة ١٢٨٧ هجرية وأخذ يتلقى عنه بعض العلوم الكلامية والفلسفية .

وصحب « الشيخ محمد عبده » تلميذه وصديقه إلى حلقة الأفغانى ، وكان « الشيخ محمد عبده » يكبر « سعد زغلول » بعشر سنوات وسابقا عليه فى تلقى العلم بالأزهر بسبع سنوات ،

وسابقا عليه أيضاً فى الاتصال « بالسيد جمال الدين » الذى جلس إليه مريدون كثيرون « محمد عبده ، سعد زغلول ، عبد الله النديم ، محمود سامى البارودى ، إبراهيم المويلحى ، وإبراهيم اللقانى وعلى مظهر ، وحفنى ناصف ، وعبد السلام المويلحى ، وعبد الكريم سلمان ، وأديب اسحق ، وسليم النقاش ، وسعيد البستانى ، والسيد وفاء التونى ، ومحمد صالح ، وسلطان محمد » .

وفى ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ كانت قوة بأمر « الخديو توفيق » تقبض على « جمال الدين الأفغانى » وعلى خادمه « أبو تراب » وأودعا باخرة عند السويس سارت بهما إلى بومباى ، وكان هذا اليوم آخر العهد بالسيد فى مصر . . ولكنه كان قد ألقى بذور الثورة فى تربة مهيأة لها .

فكانت تظاهرة عابدين بقيادة عرابى فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ . . وكتب سعد زغلول فى (الوقائع المصرية) يؤيد الثورة . . وقام بدور هام فى نقل أخبار الوطنيين إلى عرابى فى الجبهة ، ونقل اراء «الشيخ محمد عبده » وقرارات الوطنيين إلى العربيين فى جبهة القتال . . وبعد هزيمة الثورة فصل من وظيفته ففتح مكتبا للمحاماة . . وظلت سلطات الاحتلال والخديوى تطارده فقبض عليه فى ٢٠ يونيو ١٨٨٣ بتهمة الاشتراك فى جمعية سرية .

١٣ نوفمبر ولماذا سعد ؟

لسنا بصدد الحديث عن وقائع هذا اليوم التاريخى وإنما نعرض هنا لسؤال هام هو . . لماذا سعد ؟

للرجل تاريخ يعود إلى سنة ١٨٧٣ وهو العام الذى التقى فيه بالسيد جمال الدين الأفغانى ، وتاريخ يعود إلى مصاحبته للشيخ محمد عبده ، وتاريخ يعود إلى مشاركته الجدية فى أحداث الثورة العرابية وإلى الفصل من الوظيفة وإلى السجن بسبب هذا النشاط .

ثم يواصل المسيرة إلى جانب الشعب ، ففى ١٨ نوفمبر ١٩٠٦ اختير سعد ناظرا للمعارف فينحاز تماما إلى حق الشعب فى التعليم ، وإلى تعيين الوطنيين فى وظائف المعارف ، والتصدى لدانلوب والمستشارين الإنجليز وفى ٢٣ فبراير ١٩١٠ نقل ناظرا للحقانية فكان مثالا للعدالة والوطنية المصرية .

وعندما كان وكيلا للجمعية التشريعية كان معارضا بارزا للسياسة الانجليزية .

وقبيل إعلان الهدنة دعا « سعد » إلى عزبته بمسجد وصيف « عبد العزيز فهمى » و«أحمد لطفى السيد » ومحمد محمود » وتحدثوا فيما ينبغى عمله بعد إعلان الهدنة ، وفى ١١ نوفمبر أعلنت

الهدنة وكان هناك اجتماع فى بيت سعد تقرر فيه توجيه الدعوة إلى اجتماع موسع وكتب صيغة الدعوة « أحمد لطفى السيد » ، وفى هذا الاجتماع الموسع تقرر أن يذهب « سعد زغلول » وكيل الجمعية التشريعية ، و«عبد العزيز فهمى وعلى شعراوى » عضوا الجمعية التشريعية إلى المعتمد البريطانى فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨ .

ليس دفاعا عن الثورة

وهكذا إذا وصلنا إلى يوم الثورة فى ٩ مارس ١٩١٩ التى اشتعلت غداة القبض على « سعد زغلول » وزملائه . . وراء سعد ما يقرب من نصف قرن من الارتباط بالحركة الوطنية المصرية ، ومن المواقف الشجاعة إلى جانب مصالح الشعب ، ومن التنظيم والإعداد ليوم الجهاد ولما بعد هذا ، ولم تأته القيادة مصادفة ولا هو ركب موجة ولا يحزنون .

والحديث عن الثورة القومية الكبرى عميق ومتشعب . . فهى أول ثورة يقوم بها شعب ضد الاحتلال بعد الحرب العالمية الأولى، وأعادت ثقة الشعب المصرى إلى نفسه ، بعد أن هزمت الثورة العرابية . هذه الثورة لم يقم بها حزب واحد من الأحزاب التى عرفت فى مصر قبل الحرب العالمية الأولى (الحزب الوطنى حزب الأمة حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ، حزب النبلاء، الحزب المصرى الحزب الدستورى ، الحزب الجمهورى ، الحزب الاشتراكى المبارك . .) وإنما قامت بها جبهة عريضة واسعة أذهلت السياسيين داخل مصر وخارجها هذه الجبهة عرفت تاريخيا باسم «الوفد » وهذه واحدة من ميزات الثورة الكبرى.

وكانت الحركة الوطنية موزعة الاتجاهات والأساليب . . مرة الأمل فى الدولة العثمانية ، وأخرى فى الخديوى ، وثالثة فى فرنسا ورابعة فى التسليم بواقع الاحتلال والسعى إلى الإصلاح . . ولكن الثورة رفعت شعار مصر للمصريين وجددت أمل المصريين فى الثورة كأسلوب للتغيير .

ويرى باحثون آخرون أن أعظم انجازات ثورة ١٩١٩ هى وحدة المسلمين والأقباط فقد أصبحت مصر بذلك تكاد تكون الدولة العربية الوحيدة التى لاتمزقها العصبيات والنعرات القومية والدينية . ويكفى أن شعار الثورة (الدين لله والوطن للجميع)، لم نزل نعود إليه إذا ما نزلت بالوطن فتنة أو شبه فتنة طائفية .

الوزارة الشعبية

بقيت مصر من ٩ فبراير ـ ١٥ مارس ١٩٢٣ بدون وزارة ، وجاءت وزارة « يحيى إبراهيم » من ١٥ مارس ـ ٢٧ يناير ١٩٢٤ على أساس أن تفرج انجلترا عن « سعد زغلول » وعن أعضاء الوفد المعتقلين فى سيشل . وتم الأفراج عن المعتقلين داخل مصر وصدر الدستور فى ١٩ إبريل ١٩٢٣ . وأجرى يحيى إبراهيم انتخابات برلمانية سليمة فى ١٢ يناير ١٩٢٤ حاز فيها مرشحو سعد على ١٩٥ مقعدا من مجموع المقاعد (٢٢٤) . وتقدم يحيى إبراهيم بالاستقالة فى ٢٧ يناير ١٩٢٤ ليشكل « سعد باشا» فى (٢٨ يناير ـ ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤) الوزارة الشعبية الأولى التى أدهشت الكثيرين .

يقول الدكتور محمد حسين هيكل فى مذكراته (فى اليوم الذى تألفت الوزارة فيه فتح كثيرون عيونهم واسعة من شدة الدهشة لقد ألف الناس من عشرات السنين ، وفى عهد الإنجليز أنفسهم، أن يكون فى الوزارة قبطى واحد . أما سعد فقد أخذ فى وزارته اثنين من الأقباط . . وقد ألف الناس أن يكون الوزراء ممن لهم مكانة ملحوظة فى الحكومة أو خارج الحكومة . فاشرك سعد فى وزارته رجالا لم يعرف لهم أحد ماضيا يقام له وزن ، أشرك نجيب الغرابلى المحامى بطنطا ، وأشرك غيره فأدهش ذلك أهل مصر وكان مثارا لدهشة البلاد العربية الأخرى) .

وإذا كان هذا الاتجاه إلى وضع أبناء الشعب فى مقاعد الوزراء قد أدهش الكثيرين فى مصر والبلاد العربية ، فإن ما قدمه نواب الشعب فى الدورة الأولى لأول مجلس نواب ينتخب انتخابا حرا على أساس دستور ١٩٢٣ كان بمثابة قرارات سياسية واجتماعية واقتصادية تؤكد اتجاه السلطة الوطنية الجديدة . . قرر نواب الشعب فيما قرروا . . تنظيم استهلاك الدين ، وفصل العملة المصرية عن العملة البريطانية ، وسحب الاحتياطى من بنك انجلترا ، وحذف الاعتماد المخصص لنفقات جيش الاحتلال ، وحذف رسوم الجمارك بين مصر والسودان على مهمات وذخائر الجيش المصرى . . وتنشيط الجمعيات التعاونية واعتماد إضافى لوزارة المعارف لإنشاء المدارس ، ومشروع إصلاح الأراضى البور ، وبيع أطيان الحكومة لصغار المزارعين واختيار مندوبين مصريين يمثلون الحكومة لدى الشركات الأجنبية بدلا من الأجانب ، وجعل الانتخاب على درجة واحدة لمجلسى النواب والشيوخ ، بعد أن كان على درجتين للنواب ، وثلاث للشيوخ . .

وازاء الثورة القومية الكبرى ، الثورة الشعبية الحقيقية من حيث القوى والقيادة والأهداف والتنظيم ، وإزاء أول برلمان بعد انتخابات حرة يتخذ مثل القرارات السابقة ، وإزاء الوزارة الشعبية الأولى برئاسة زعيم الأمة ، وإزاء الوفد الوكيل الشرعى للأمة . . كان من الطبيعى أن تتحالف القوى المعادية للشعب المصرى لإجهاض ثورة ١٩١٩ ، ووضع العراقيل أمام مسيرتها . . تحالف الإنجليز ، والملك فؤاد ، والزعامات غير الشعبية وغير الديموقراطية أمثال إسماعيل صدقى ،

وعلى ماهر ومحمد محمود وأحزاب القصر والأقلية السياسية كالأحرار الدستوريين ، والحزب الوطنى ، وحزب الاتحاد . . وبعد أول طلقة لاغتيال « السيرلى ستاك » اضطر سعد باشا إلى الاستقالة . . وجاء أحمد زيور ليعطى الجمل بما حمل للانجليز والملك .

لماذا الهجوم ؟

ليس من الغريب إذن أن يكون هذا الهجوم الشرس على سعد زغلول وسياسة سعد زغلول أثناء حياته وطوال ستين عاما حتى اليوم بعد رحيله فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ . . لماذا ؟ كان سعد يمثل ضمير الأمة فى مفاوضاته مع الإنجليز ، وكان غيره يريد أن يصل إلى ما يمكن أن يسمح به هؤلاء الإنجليز . . وحين لجأ سعد إلى الجماهير فى ٢٥ إبريل ١٩٢١ يفسر لها تمسكه برئاسة وفد المفاوضات قال : (إذا طلبنا الرئاسة ، فإنما نطلبها ليكون الرئيس حرا مرتكزا على قوة هى قوة الأمة لا أن يكون مرتكزا على قوة من الحكومة الإنجليزية . . وإلا ففى هذه الحالة يكون جورج الخامس يفاوض جورج الخامس) .

سعد استرد من الملك فؤاد السلطات التى اغتصبها . . من الطبيعى أن يحاربه القصر وكل سياسى يريد أن تعود السلطات للملك . . كان زعيما خرج بكفاحه من بين الجماهير ، زعيما شعبيا حقيقيا ، يستند إلى الشعب وليس إلى سلطة الاحتلال أو القصر حاربوه بالانقسام وبمحاولة الاغتيال وبكل محاولات إجهاض الثورة القومية الكبرى ، حاربوه ومازالوا يحاربون ميراثه الديموقراطى عندما كان رئيسا لمجلس النواب وأراد أن يتحدث فينزل عن كرسى الرياسة وناداه وكيل المجلس « ويصا واصف » الكلمة الآن لنائب السيدة زينب . . وضج المجلس الموقر بالتصفيق .

معذرة أبا الزعماء . . فالعين بصيرة والمساحة المتاحة قصيرة . . ويكفى أن أردد ما قاله الشاعر اللبنانى « بشارة الخورى » عند رحيلك . .

قالوا : دهت مصر دهياء فقلت لهم . . هل غيض النيل أم هل زلزل الهرم ؟
قالوا : أشد وأدهى قلت ويحكم . . إذن لقد مات سعد وانطوى العلم .

الأسانيد :

١ ـ اسماعيل صدقى مذكرات .
٢ ـ جمال بدوى مشاهد حية من تاريخ مصر الحديث .
٣ ـ حسن يوسف مذكرات .
٤ ـ د . عبد العظيم رمضان . مذكرات سعد زغلول .
٥ ـ عباس محمود العقاد . سعد زغلول سيرة وتحية .
٦ ـ د . محمد حسين هيكل . مذكرات فى السياسة المصرية .
٧ ـ محمد كامل سليم . سعد وعدلى .

سـلامة موسـى



أدخل كلمة (الاشتراكية) فى وقت مبكر إلى اللغة العربية . . وعندما : عرف البعض شيئا عن الاشتراكية أداروا مدافعهم إلى « سلامة موسى » يمطرونه بأشد الهجوم لأنه أراد هذه الاشتراكية ديمقراطية بعيدة عن الدكتاتورية ويريدها وطنية لاترتبط بهذا البلد أو ذاك ، ولأنه أرادها سلاما بعيدة عن العنف والدم !

روج لكلمة (الثقافة) وعندما نشأ جيل من المثقفين تتلمذوا على أفكاره وعلى يديه حرصوا على ألا يذكروا اسمه فى مناسبة أو غير مناسبة ، وحرصوا على تجاهل اسمه ، وعملوا على ألا تعرفه الأجيال الجديدة وكأن لم يكن هناك فى الحقل الثقافى مفكر اسمه « سلامة موسى » .

أسس جمعية (المصرى للمصرى) ونادى بمقاطعة البضائع الأجنبية وخاصة الانجليزية ، وأصر « إسماعيل صدقى » على أن يترك « سلامه موسى» رئاسة الجمعية .

كان يرى أن تكون الصحافة المصرية للصحفيين المصريين . . وعندما عمل بدار الهلال ، وعندما انضم « كريم ثابت » إلى دار الهلال خرج « سلامه موسى » ليصدر من جيبه الخاص مجلة شن فيها حملة شعواء على وجود غير المصريين ، وعلى وجود المتمصرين فى الصحافة المصرية .

الفقيه القانونى الدستورى الكبير « عبد العزيز فهمى » دعا مرة إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية ظنا منه أن هذه الطريقة تخلص الكتابة من بعض سلبياتها ، ودعا سلامة موسى إلى هذه الفكرة فنسى البعض « عبد العزيز فهمى » وتذكروا «سلامة موسى » ، نسوا الأصل وتذكروا الفرع وانهالت المطارق على رأس سلامة موسى .

حمل بشراسة على القصر ، وعلى الملك فؤاد ، وعلى الملك فاروق وجابه عهود ما قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وجاءت عهود ما بعد ٢٣ يوليو فلم تذكره ولم تنصفه سوى مؤسسة أخبار اليوم التى

ضمته إلى كتابها حتى توفى فى ٤ أغسطس ١٩٥٨ .

باع الأرض التى تركها له أبوه ليصدر المجلات الصغيرة ، وليصدر كتبه ، ويتعرض لعمليات المطاردة وقطع الرزق . . ثم يكتب كاتب مصرى فى مجلة الحوادث اللبنانية وبعد رحيل سلامة موسى مقالا غاية فى القسوة : (سلامة موسى . . صفحة ينبغى أن تطوى) .

على أية حال نقول ربما يكون قد أخطأ . . ويقول البعض . . ليس خطأ ولكنه خطيئة . . وإذا قالوا خطيئة . . نقول . . من كان منكم بلا خطيئة فليرمه بأول حجر . . فهو بكل المقاييس لايستحق أن يرمى بأول حجر . إنه صفحة ينبغى أن تنشر .

تربية سلامة موسى

فى كتابه (تربية سلامة موسى) نعلم الكثير عن سيرته الذاتية . . ولد سنة ١٨٨٧ فى قرية قرب مدينة الزقازيق بدلتا النيل . والده موظف فى الحكومة ولكنه توفى عندما كان « سلامة » فى الثانية من عمره . لم تكن الأسرة فقيرة أو معدمة ، فلديها بعض الأملاك وترك الوالد للأسرة معاشا لا بأس به . على أية حال لم تكن الأسرة تعانى من مشكلات مالية .

فى طفولته دخل مدرسة قبطية صغيرة من تلك المدارس التى تعلم شيئا من القراءة وشيئا من الحساب ، ثم انتقل إلى مدرسة إسلامية صغيرة من تلك المدارس التى تعلم شيئا من اللغة العربية إلى أن التحق بالمدرسة الابتدائية الأميرية بالزقازيق حتى حصل على شهادة (الابتدائية) .

جاء إلى القاهرة والتحق بالمدرسة التوفيقية ثم المدرسة الخديوية حتى حصل على البكالوريا حوالى عام ١٩٠٣ ويبدو أن الأزمات بدأت تقتحم مناخ الأسرة ويقول فى مقدمة كتابه (هؤلاء علمونى) : (بدأت أرسم خارطة حياتى حوالى عام ١٩٠٦ حين ساء الوسط العائلى . ففررت إلى أوربا . . وهناك شرعت أدرس اللغتين الفرنسية والانجليزية وأقرأ من الكتب ما يشع النور فى عقلى ويبعث الشجاعة فى قلبى . .) .

وقبل أن نتحدث عن رحلته الأوربية وما بعدها نتناول محاولته تثقيف نفسه قبل سفره إلى أوربا، وذكرياته عن قريته ، ثم قصة كتابه (هؤلاء علمونى) ، وحقيقة الأمر أن حياة « سلامة موسى » قصص متصلة من المعاناة . . على مسئولية « حازم فوده » فى كتابه (نجوم شارع الصحافة) . . ننقل ما كتبه عن « سلامة موسى » : ـ فى عام ١٩٥٠ ضاق المسئولون فى السراى بما يكتبه سلامة موسى فى جريدة (صوت الأمة) وطلبوا منعه من الكتابة . . وظهر اقتراح بأن تدفع الحكومة لسلامة موسى مرتبه كاملا ويمتنع عن الكتابة . . واقترحت ـ حازم يتحدث ـ إخفاء الأمر عن سلامة موسى . . وعرضت عليه أن يكتب صفحة بعنوان ـ هؤلاء علمونى كل

أسبوع يلخص فيها كتابا لمؤلف مشهور . . واخترنا لهذه الصفحة عنوان ـ هؤلاء علموني ـ والتى أصبحت فيما بعد كتابا يحمل نفس العنوان . . ولقد ظل سلامة موسى سنوات طويلة لايعرف هذه الحكاية حتى صدر كتابه وكتبت له القصة بالكامل ، ورد على رحمه الله بخطاب مازلت أحتفظ به يلومنى فيه أننى أخفيت عنه محاولات (الأوباش) . . لمنعه عن الكتابة ! انتهى كلام حازم فودة ـ والحكاية على مسئوليته ـ ولكن كل الذين يمنعون المفكرين من الكتابه هم أو باش بكل المقاييس .

وعندما كان بالقاهرة ، قبل أن يسافر إلى أوربا قرأ عن دارون وعن نظرية النشوء ، وقرأ للدكتور شبلى شميل ، وقرأ المقتطف وقرأ الأدب العربى القديم .

القرية المصرية

أما القرية المصرية فقد بدأت مع « سلامة موسى » منذ طفولته وصباه وبقيت معه حتى وفاته ، كانت جزءا هاما من اهتماماته وأفكاره . . وهو يروى أنه ولد حوالى سنة ١٨٨٧ لأسرة نزحت أصولها من (البياضية) وهى قرية من قرى (المنيا) وأقامت فترة فى (القراقرة) مركز منيا القمح فى الشرقية ثم استقرت فى الزقازيق . . ويذكر أنه كان يركب الحمار والفلاح يجرى خلفه نحو ساعة أو أكثر ويذكر وباء الكوليرا الذى تفشى فى الزقازيق حوالى سنة ١٨٩٥ وكيف كانت النعوش تخرج متوالية وليس خلفها سوى شخصين أو ثلاثة . . ويذكر أيضا أنه اكتسب من الريف حبه للطبيعة الذى جعله يحس سائر حياته أن الأرض هى الأم .

تلك الصورة ترسبت فى وجدان سلامة موسى وفى عقله فنذر قلمه دفاعا عن القرية المصرية وعن الفلاحين المصريين . وهاجم البذخ الذى يعيش فيه أفراد قليلون ينفقون الوف الجنيهات فى العام بينما لاينفق الفلاح أكثر من عشرة جنيهات هو وعائلته . وفى كتبه وفى الجرائد والمجلات التى كتب فيها دافع عن حق الفلاحين فى الحياة . وهاجم الترف والسفة فى شارع الهرم وحققت معه النيابة على اعتبار أنه يقصد سهرات « الملك فاروق » هناك .

فى رحاب العقل

بدأ يرسم خارطة لحياته عام ١٩٠٦ وسافر إلى فرنسا وقضى سنة فى باريس ، وعاد إلى مصر لعدة أشهر ثم سافر مرة ثانية إلى باريس ليقضى سنتين أخريين قرأ فيهما كتابات الاشتراكيين الفرنسيين . ولكنه تأثر أكثر ماتأثر بالمفكر الفرنسى « فولتير » الذى مهد للثورة الفرنسية وتأثر بكارل ماركس ولكنه لم يكتب عنه فى (هؤلاء علمونى) وذلك خشية اتهامه بالشيوعية . كان أول

كتاب له هو مقدمة السوبرمان نشرته له (دار الهلال) سنة ١٩١٠ . وهو كتاب به خليط من الأفكار والقراءات لايربطها خيط واحد وإن كان أشار فيه إلى الاشتراكية .

وقضى بعد سنواته الثلاث فى فرنسا أربع سنوات فى انجلترا التقى فيها بجورج برنارد شو، واتصل بالجمعية الفابية. ونشر عام ١٩١٣ كتابه الصغير بعنوان (الاشتراكية) وضح فيه تأثره بالاشتراكية الفابية التى تنفر من العنف والثورة، وهى أقرب إلى الاصلاح بالتدرج الهادىء عن طريق التوعية والانتخابات الحرة . وكان معجبا أشد الإعجاب بالكاتب الروسى « تولستوى » وفى أخريات أيامه كان يضع صورة كبيرة لتولستوى فوق فراشه، وكان يرى فيه فيلسوفا للشعب لأنه يقيس كل شىء بمدى قيمته للشعب .

ومنذ أن عاد من الخارج حتى وفاته ، وفى كل رحلاته إلى الخارج وبعد عودته من كل رحلة ، كان ينقل إلى المصريين ما رأى وما سمع وما قرأ . . أصدر ٤٠ كتابا وأصدر على نفقته الخاصة عددا من المجلات والجرائد . . أشهرها (المصرى للمصرى والمجلة الجديدة والمستقبل واليومية) وكتب فى عديد من المجلات والجرائد (اللواء والجامعة والمحروسة والمقتطف والهلال والأخبار والبلاغ) وتولى رياسة تحرير (الهلال) من عام ١٩٢٥ . كان أول من ترجم لدستو يفسكى إلى العربية . وفى كل كتاباته كان صريح العداء للقصر وللأمراء ولملاك الأرض الإ قطاعيين ، وكان صريح الانحياز للفقراء وللعمال والفلاحين ولعل هذا هو الذى دفعه للاشتراك فى تأسيس الحزب الاشتراكى المصرى .

الحزب الاشتراكى المصرى

فى نهاية العقد الثانى وأوائل العقد الثالث من القرن العشرين شهدت مصر حركة ثقافية جديدة .اهتم سلامة موسى كما عرفنا بنقل أفكار تولستوى وغاندى والاشتراكيين الفرنسيين وشبلى شميل ينقل أفكار دارون ، وطه حسين يتحدث عن الأفكار الاجتماعية لابن خلدون ، وإسماعيل مظهر يسير فى اتجاه شبلى شميل وأحمد لطفى السيد مثل هؤلاء جميعا ينادى بالديمقراطية ويرفع شعار مصر للمصريين . وعدد من أبناء الثقافة الفرنسية « الشيخ مصطفى عبد الرازق وعزيز ميرهم والدكتور محمود عزمى والدكتور منصور فهمى والدكتور محمد حسين هيكل » يؤسسون الحزب الديموقراطى وكان الاقتراح الأول للدكتور منصور فهمى أن يكون اسمه (الحزب الاشتراكى) .

أما الأجانب فقد كان لهم نشاط فى اتجاه تأسيس خلايا شيوعية ، خاصة جماعات من اليونان والأرمن والإيطاليين والروس . أبرز هؤلاء جميعا شخصية غامضة وهو « روزنتال » الذى نشط فى

تأسيس نقابات عمالية بالإسكندرية ، وعمل على تحريك النقابات على الإضرابات ، ثم نشط للاتصال بعدد من المثقفين المصريين لتأسيس حزب شيوعى مصرى . وفى أغسطس ١٩٢١ صدر بيان بإعلان (الحزب الاشتراكى) وكانت العناصر المؤسسة له والتى أعلن عنها هى : سلامة موسى وحسنى العرابى وعلى العنانى ، ومحمد عبد الله عنان . وقد حرص « روزنتال » على عدم وضع اسمه . ودار بعد ذلك صراع غريب بين العناصر المصرية من جانب والعناصر الأجنبية من جانب آخر .ثم صراع آخر داخل المجموعة المصرية إذ إن « سلامة موسى » لم يكن يرغب فى تكوين حزب أو تنظيم وإنما كان يريد أن يكتفى بتكوين (جماعة) تقوم بالدعاية للأفكار الاشتراكية ، ولكنه على الرغم من هذا ينشر بيانا باسم الحزب الاشتراكى باعتباره (سكرتيرا عاما) للحزب مما دفع العناصر الأجنبية إلى مساندة « محمد عبد الله عنان » واختياره سكرتيرا للحزب الاشتراكى المصرى . وقد شن « سلامة موسى » حملة ضد (البلشفية) لأنها نشرت الخراب والدمار فى روسيا ، وأعلن « سلامة موسى » أن أى نشاط شيوعى فى مصر يضر بقضية البلاد الوطنية ـ وهو هنا يقترب من موقف سعد زغلول وموقف الوفد ـ وأصر « روزنتال » والأجانب على تحويل الحزب الاشتراكى إلى حزب شيوعى وقد أيدهم فى هذا الاتجاه « محمد عبد الله عنان » سكرتير الحزب ، ومحمود حسنى العرابى . ولكن سرعان ما تبين « على العنانى » و«محمد عبد الله عنان » صحة موقف « سلامة موسى » بعد أن تبادلوا الاتهامات من قبل ، ويتبادلوا المنافسة على منصب سكرتير عام الحزب الاشتراكى الذى اختير له فى بداية الأمر « على العنانى » ثم نشر « سلامة موسى » بيانا بتوقيعه كسكرتير عام ، ثم اختار الأجانب سكرتيرا جديدا هو « محمد عبد الله عنان » . على أية حال انسحب العنانى وعنان وسلامة موسى وتركوا العرابى يمضى فى الشوط إلى آخره وليس هنا مجال الحديث عن هذه القصة .

ترك « سلامة موسى » الحزب الاشتراكى والحزب الشيوعى لأنه فيما يبدو لم يكن يرغب فى أية قيود تنظيمية وإن كانت هناك رواية أنه انضم للوفد وبقى عضوا فيه حتى وفاته ، وكان يوجه بين الحين والآخر نقدا لسياسة الوفد إلا أننا كما نعلم فإن طبيعة الوفد كانت تسمح لأعضائه بقدر من الاختلاف .

وقد ظل « سلامة موسى » واحدا من جيل يؤمن بالحضارة الغربية ويدعو إلى الحرية والى العدل الاجتماعى وإلى العلم وإلى تحكيم العقل فى سلوكنا اليومى . ونذر قلمه للتنوير العلمى متأثرا فى كل ذلك بما رآه فى أوربا من شعوب حرة لها الكلمة العليا ورأى الصحف تعالج المذاهب وتناقش الساسة ، ورأى البيت النظيف والشارع النظيف ، والمكتبات المجانية .

كان يؤمن بأن مصر أصل الحضارة ، وإن كان ينظر إلى العالم كقرية كبيرة ، سرت مصريته فى

دمائه وعظامه وإن كان شعوره بالإنسان يشمل الإنسان فى كل مكان . هوجم لأنه كان مفتونا بالحضارة المصرية القديمة وقالوا إنه كان يدعو إلى (الفرعونية) ونسوا أن هذه الدعوة كانت فى جوهرها إيمانا بمصر فى مواجهة محاولات الاحتلال طمس الشخصية المصرية والتهجم على قدرات شعب مصر فى النهوض والتقدم . . وقد دعا إلى (الفرعونية) وإلى أحياء مجد مصر القديمة من هذا المنطلق « الدكتور محمد حسين هيكل » و«أحمد حسين » رئيس جماعة مصر الفتاة وعندما دعا إلى الأخذ بأسباب الحضارة العربية لم يكن يعنى أبدا التبعية إلى الغرب بل كان يقصد التخلص من هذه التبعية » كان مناضلا صلبا من أجل الاستقلال الوطنى .

مدرسة سلامة موسى

وقد نقب له خصومه عن مثالبه وقالوا ثمة تناقض بين دعوته إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية وبين إشادته الدائمة بالحضارة المصرية القديمة. وأخذوا عليه ارتباطه بجمعية الشبان المسيحيين التى لها اتصالات قوية بأمريكا فى الوقت الذى يهاجم الاحتلال البريطانى هجوما مستمرا . . ومن الطريف أنهم أشاروا إلى حملته من أجل تحديد النسل فى الوقت الذى أنجب فيه ثمانية أبناء .

على الرغم من هذا فإن أفكار سلامة موسى فى مجموعها شكلت مدرسة مستقلة . ولظروف مختلفة لم تكن لمدرسة سلامة موسى شعبية ولكن لاينكر أحد أن أفكاره وجدت تأييدا من عناصر مختلفة . . فدعوته إلى تمصير الصناعة أيده فيها محمد طلعت حرب وأحمد حسين وفتحى رضوان وحافظ محمود . . ودعوته للتوسع فى التعليم وجدت أرضا خصبة لدى الدكتور طه حسين . . ودعوته إلى حرية التعبير وحرية التفكير وجدت صداها لدى مثقفين كثيرين . . أما دفاعه عن (اللهجة العامية) فقد هاجمها الكثيرون وأيدها البعض الذين كتبوا المسرحيات وغيرها .

ودعوته للزى الأفرنجى أيدها الكثيرون وعارضها البعض-. . ودعوته القوية للاشتراكية فقد وجدت تأييدا لها بدرجات متفاوتة لدى المنظمات اليسارية وبعض الأحزاب وإن اختلفت الأساليب . . وكتب عام ١٩٥٧ : هانذا (فى عام ١٩٥٧ ، أجد الجمهورية التى اتهمت بالدعوة إليها ، وحبست من أجل ذلك فى سنة ١٩٤٦ ، وأجد نجاح دعوتى للصناعة ، وهى دعوة أمضيت فيها أكثر من ثلاثين سنة ، وأجد نجاح دعوتى للعلم ، . . ولذلك أستطيع أن أقول : إنى انتصرت) .

والمسألة ليست مسألة انتصار أو هزيمة ، المسألة هى رسالة ولاينكر أحد أن سلامة موسى كانت له رسالة تحمل فى سبيلها الهجوم المتصل .

والكاتب دائما موقف وأسلوب . . مواقفه معروفة جرت عليه غضب القصر وبعض

الحكومات وسلطات الاحتلال . . وأسلوبه باعد بينه وبين الذين تجذبهم المحسنات البديعية وجذالة اللفظ . . كان يكتب بأسلوب تقريرى مستخدما السرد المنطقى والجملة القصيرة . أطلق عليه هو فيما بعد (الأسلوب التلغرافى) .

صورة عن قرب

لقد قدر لجيلنا أن يراه وأن يقترب منه ، وللجيل الجديد الذى لم يره ولم يقترب منه نقدم تلك الصورة القلمية التى كتبها « نعمان عاشور » : (كان رغم صراخه الداخلى المتأجج رجلا ساكنا هادئا قانعا . . يتحمل كل مايصيبه بصبر وتفاؤل . . كان متوسط الحجم أقرب إلى أن يكون قصيرا . . وجه مستدير وعينان تلمعان فى بريق نفاذ يدل على الذكاء المتوقد . . والقارئ الذى يريد أن يتعرف على سلامة موسى . . يستطيع بكل سهولة وبلا حاجة إلى لقائه ، أن يجد المادة التفصيلية الغزيرة لحياته وفكرة وكفاحه فى كتبه العديدة التى خص معظمها بالحديث عن نفسه) .

هذا هو سلامة موسى الذى ترك أكثر من ٤٠ كتابا و ١٥ مجلة ومئات المقالات . . إنه صفحة ينبغى ان تنشر .

الأسانيد :

١ ـ توفيق حنا . . . جريدة وطنى ٩/ ٨/ ١٩٨٧ .

٢ ـ د . رفعت السعيد . . . تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر .

٣ ـ سلامة موسى . . تربية سلامة موسى .

٤ ـ د . عفاف لطفى السيد . . تجربة مصر الليبرالية . ترجمة عبد الحميد سليم .

٥ ـ يحيى أحمد . . . أسماء لها بريق أخضر .

سينوت حنا



كان صديقا شخصيا لمصطفى كامل زعيم الحزب الوطنى ، ووثيق الصلة بعضو اللجنة الإدارية للحزب الوطنى « ويصا واصف » والذى امتدت العلاقة بينهما إلى يوم الرحيل وقد تميز كلاهما بوضوح الرؤية وتحديد الاتجاه والصلابة فى الموقف وكان لكليهما موقف متميز واضح إلى جانب « سعد زغلول » ثم إلى جانب خليفته « مصطفى النحاس » وكان على علاقة قوية ببلدياته « قلينى فهمى » المؤسس المشارك فى صحف الحزب الوطنى ولكن الثلاثة وغيرهم من أقباط مصر الذين اتصلوا بالحزب الوطنى تباعدت خطاهم عن مسيرة الحزب بعد رحيل « مصطفى كامل » وضعف قبضة القيادة الجديدة « محمد فريد » وارتفاع صوت « عبد العزيز جاويش » الذى توجس الأقباط خيفة منه ، وإن كان للجاويش بعد ذلك بسنوات موقف واضح فى دعم وحدة الأمة .

وبدأت فى الساحة السياسية المصرية قوة جذب جديدة متمثلة فى شخصية « سعد زغلول » وفى أفكار (الأخوة الوطنية) التى ورثها «سعد » عن رفاعة الطهطاوى والشيخ محمد عبده .

وفى الشهر الأخير من حياة « مصطفى كامل » كان ناظر المعارف العمومية « سعد زغلول » فى جولته الشهيرة بالوجه القبلى لتفقد المعاهد العلمية ، ومن أمتع الصفحات فى مذكرات سعد زغلول تلك التى يتحدث فيها عن جولاته والتى رأى فيها ربما لأول مرة عددا من الشخصيات التى قدر لها بعد عقد واحد من هذه الجولات أن تقترب من « سعد » وقد أصبح زعيما للأمة ونقف فى تلك الصفحات على حالة المصريين الاجتماعية والمادية والعلمية .

بدأت جولة «سعد زغلول» ناظر المعارف إلى الوجه القبلى صبيحة يوم السبت ١٨ يناير سنة ١٩٠٨ من القاهرة ـ بطريق النيل على ظهر الباخرة رفيق ، يرافقه كل من أحمد أفندى براده ، سكرتيره ، وفؤاد أفندى كمال ، مساعد السكرتير . . ونترك « سعد زغلول » يتحدث عن الجولة

بأسلوبه العفوى الممتع ، وبتفصيلاته الدقيقة . . كان المطر يتساقط رذاذا ، والهواء باردا جدا والشمس محجبة بالغمام ، وتأخر السفر عن ميعاده الثامنة صباحا ، بسبب تأخر الطباخ عن الحضور ! حتى ظننا أنه « لن يعد» يحضر ، وخرجنا من الوابور ، ثم صارت السفينة ، ولم نستطع لشدة البرد البقاء على ظهرها ، فنزلنا فى غرفها . .

ويوم الجمعة ٢٤ منه ، قمنا فى الساعة السادسة والدقيقة ٥٠ إلى أسيوط ، فوصلناها الساعة السابعة والدقيقة ١٥ (صباحا)، وفى أثناء المسير ، قبل الوصول إلى ابنوب بنحو ساعة ونصف ، شحط الوابور ، ومكث مشحوطا زيادة على أربع ساعات ونصف . . وكنا عازمين أن نتناول الشاى عند حسين بك فهمى المحامى إجابة لدعوته ، وأخبرناه بذلك فى التليفون ولكن تأخرنا على الوصول منعنا وكان أمين واصف ، فى انتظارنا مع بعض العساكر .

. . . توجهنا إلى منزل المدير ، حيث تناولنا العشاء ، وكان حاضرا وكيل المديرية المذكور ، والخواجة سينوت حنا ، أحد التجار الأعيان بأسيوط وفى أثناء العشاء حضر كل من حسين بك فهمى المحانى ومحمد أفندى أمين ناظر المدرسة ، وفى الساعة عشرة عدنا إلى الوابور وحددنا الساعة ثمانية لزيارة المدارس (يقصد الثامنة من صباح السبت) . . .

زرنا أولا المدرسة الأميرية فصلا فصلا ، ثم جميع الملحقات ، فوجدنا النظافة فيها لا بأس بها ولكن لم نسر من حالة التعليم بها فإن تلامذتها متأخرون فى جميع الفنون التى سألناهم فيها ، وهى العلوم العربية ، والحساب والجغرافيا ، والديانة ، واللغة الإنجليزية ، وتبين لنا أن أغلب الأساتذة ضعاف فى التعليم من جهة ، وكسالى من جهة أخرى . . وبالجملة فإننا خرجنا من المدرسة غير مسرورين إلا من نظافتها ونجابة التلميذ « إسماعيل » الذى وجدناه فى كتاب الكاشف عام أول ، وأمرنا بإدخاله فى هذه المدرسة مجانا . .

ونتوقف عند هذا الحد من حديث سعد الممتع وعرفنا منه أنه رأى فى اللقاء « الخواجة سينوت حنا » الذى قدر له أن يقف إلى جوار سعد حتى رحيله . وإلى جوار « مصطفى النحاس » حتى تلقى عنه طعنة السونكى من جنود « إسماعيل صدقى » فى المنصورة أما « إسماعيل » التلميذ الذى كان « سعد » قد رآه فى كتاب الكاشف العام السابق على عام الزيارة فهو « إسماعيل القبانى » الذى اختار بعد ذلك أن تكون له مدرسة فى التربية والتعليم لا تؤمن بحق أبناء الشعب فى مجانية التعليم ، وقدر له أن يكون وزيراً للمعارف فى (٨ سبتمبر ١٩٥٢) ويقترح طرد توفيق الحكيم » من وظيفته بدار الكتب . . فى حين أن سعد زغلول أمر بأن يتعلم « إسماعيل » بالمجان .

صوت العقل

على الرغم من أن الحزب الوطنى (مصطفى كامل) حرص على أن يضم إلى صفوفه بمختلف مستوياتها عددا من الأقباط إلا أنه بعد رحيل « مصطفى كامل » لم يكن الوضع هكذا وبدأت العناصر القبطية تبتعد عن الحزب الوطنى ، وتقترب أكثر فأكثر من اتجاهات (حزب الأمة » الذى كان يعمل فى أناة لبناء الوطنية المصرية والقومية المصرية . ونجد فى صفوفه عددا من الأقباط وقام «اخنوخ فانوس » المحامى فى سبتمبر ١٩٠٨ بالإعلان عن تأسيس (الحزب المصرى) كحزب للأقباط ، وكرد فعل للاتجاهات الجديدة فى الحزب الوطنى (محمد فريد) إلا أن الاتجاه القومى المتصاعد أبقى (الحزب المصرى) كمحاولة فردية من صاحبها ، ولم يكن له نشاط يذكر ، وانضم إليه أفراد قليلون لم يكن من بينهم أحد من الزعامات القبطية التى أسهمت بعد ذلك بدور فعال فى الحركة الوطنية .

لم يقبل الأقباط على الحزب المصرى أو (الحزب القبطى) حزب اخنوخ فانوس وهو (غير تابع للكنيسة القبطية الارثوذكسية دينا وتعليما اذ تربى فى أحضان أرساليات التبشير الأجنبية) وبعد أن قاطع المسلمون والأقباط هذا الحزب أعلن فانوس عن تكوين هيئة باسم مجتمع الإصلاح القبطى روجت لها صحيفتا (الوطن ومصر) وسيأتى ذكر موقف هاتين الصحيفتين من الرباعى سينوت حنا وويصا واصف ومرقس حنا وواصف غالى ووصفهم باخوان يهوذا الأسخريوطى لدورهم الشجاع ضد العناصر المتطرفة قام سينوت بدوره داخل المؤتمر وقام ويصا بدوره العظيم خارج المؤتمر .

الاغتيال والمؤتمر

وفى تلك الفترة تصاعدت الكتابات والأصوات المعبرة عن الخلاف بين المسلمين والأقباط ونشأت دعوة إلى عقد مؤتمر قبطى بدأ الأمر بفكرة عقد المؤتمر القبطى وبدأ التفكير فيه قبل اغتيال بطرس غالى وكان هو (وهو رئيس للوزراء) ممن وقف ضد تحقيقها فجاء مقتله محرضا الدعاة على عقد المؤتمر .

وكان اغتيال (بطرس غالى) فى ٢٠ فبراير ١٩١٠ وكان سينوت حنا ضمن العناصر البارزة التى حاولت احتواء الحادث وأن يكون محصورا فى نطاق سياسى لاطائفى قال شيخ الأزهر عند قبر بطرس ـ قليل من المسلمين عملوا الخير لبلدهم ولقد فعل هذا المسيحى الخير أيضا وأصدرت المؤيد جريدة الشيخ على يوسف ملحقا وصفت الاغتيال بالحدث المحزن ووصفت اللواء جريدة الحزب الوطنى الحادث بالحادث الخطير .

ونشرت المؤيد رسالة للأديب زكى خير الابوتيجى تدعو للتسامح والإخاء وقام نصيف جندى المنقبادى بالرد فى جريدة التيمس على مقال طائفى « قرياقص ميخائيل » أما صحيفة العلم وهى من صحف الحزب الوطنى فقد اثنت فى (١٠ مارس ١٩١٠) على ما اتصف به سينورت بك حنا الذى زار مدرسة الفشن وهى ببلدة سينوت وتبرع للمدرسة وتبرع لتعليم تلميذ مسلم على حسابه حتى التعليم العالى وذلك كرمز للتعاون بين أبناء الوطن الواحد .

المؤتمـران

وقد تصاعد نوع من اصطناع الخلاف بين المسلمين والأقباط كان ميدانه صحيفتى مصر والوطن من جهة وصحيفة المؤيد وبعض كتاب صحف الحزب الوطنى من جهة أخرى ووصل الخلاف إلى مداه حتى انعقاد المؤتمر القبطى فى مدينة أسيوط ٦ مارس ١٩١١ والمؤتمر المصرى (الإسلامى) فى مصر الجديدة فى ٢٩ إبريل ١٩١١ .

ويسجل الأستاذ المستشار طارق البشرى تقويما هاما يوضح مدى صلابة الجماعة الوطنية المصرية ومدى قدرتها على احتواء هذا النوع من الخلاف رغم حساسيته . . يقول البشرى ص ٦٣ ـ من المفيد التطلع إلى هذا الذى يشكل (أقصى) ماحدث من شقاق عرفة التاريخ الحديث بين أبناء مصر وإذا كان هذا هو الأقصى فهو ابلغ دليل على الوحدة والامتزاج بين أبناء الوطن الواحد. . وفى كتاب الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ص ١٢٠ يقول محمد حسين هيكل تعليقا على هذين المؤتمرين لم تكن هذه المحنة شرا خالصا فقد وضعت هذه الخصومة السافرة حدا لسوء الظن المتبادل بين الفريقين وإذا كان من الحق أن هذه الخصومة كانت قمة العنف فى النزاع الذى ينذر بتصدع الجامعة المصرية فمن الحق أنها كانت فى نفس الوقت الميلاد الحقيقى لفكرة الوطنية المصرية .

وكان سينوت حنا ومرقص حنا وويصا واصف وواصف غالى من كبار القبط الذى وقفوا بإصرار ضد الشقاق وعندما اعترض « جورست » المعتمد البريطانى على انعقاد مؤتمر أسيوط سواء حقيقة أم تمويها دافع قادة الرأى من المسلمين عن حق الأقباط فى الاجتماع والتعبير عن مطالبهم على الرغم من أنهم لايرون ضرورة لهذا الاجتماع ومعنى هذا ببساطة أن المسلمين وقفوا إلى جانب مواطنيهم المسيحيين ضد ممثل الاحتلال الأجنبى .

وقد حاول « اخنوخ فانوس » ان يرأس المؤتمر ، ولكن العناصر المعتدلة سيطرت على قيادة المؤتمر فتولى رئاسته « بشرى حنا » وتولى أخوه « سينوت حنا » أمانة الصندوق ، وقد قام بدور هام

فى أن يكون المؤتمر دعما للوحدة الوطنية وليس شرخا فى جدارها ولم يحبذ « واصف غالى » بن «بطرس غالى » فكرة المؤتمر ، وعارض المؤتمر وقاطعه « ويصا واصف » وأبدى « الأنبا كيرليس الخامس » بطريرك الأقباط تخوفه من المؤتمر وأصدر بيانا ذكر به أنه كان يسره اجتماع كلمة أبنائه على مافيه الخير للجميع وليس بدعوة الجمع الغفير ، وسجل « عبد القادر حمزة » صاحب جريدة « الأهالى» والذى حضر المؤتمر ، سجل فى ١٤ مارس ١٩١١ ـ أعجبنى من خطباء المؤتمر أنهم ضربوا فى أقوالهم على نغمة اتحاد المسلمين والأقباط . وفى يوم الافتتاح فى ٦ مارس ١٩١١ حرص المؤتمرون على تأكيد الانتماء الكامل للوحدة الوطنية ، فارتفع العلم المصرى فوق مكان الاجتماع ، وبدأ يعزف السلام الخديوى وقد شمل الجميع أو الغالبية حرص على توثيق الرباط الوطنى .

ورد المسلمون على المؤتمر القبطى بمؤتمر آخر أسمى « المؤتمر المصرى » تولى رياسته « رياض باشا » المعروف بعدائه للثورة العرابية ولكنه مشهود له ببعد النظر والحرص على عدم تدهور الموقف . وفى جلسة الافتتاح أعلن « رياض باشا » أن هدف المؤتمر مناقشة المسائل العمومية ومنها ما يسمونه بمطالب القبط . . وكان فى هذا حصيفا وموفقا وضع الأمور بما يليق بدور أغلبية واعية تناقش كافة الأمور التى تشغل الرأى العام ، وعلى الرغم من أن تقرير المؤتمر تعرض لما حدث فى المؤتمر القبطى بعبارات حادة إلا أنه انتهى إلى اشاعة روح التهدئة .

لسنا بصدد الحديث عن المؤتمر القبطى أو المؤتمر المصرى إلا بالقدر الذى نوضح به سلامة الاتجاه العام لدى الفريقين ، وإلا بالقدر الذى نوضح به أهمية الدور الذى قام به المستنيرون فى كل فريق ، وقد كان موقف « ويصا واصف » ومعه « سينوت حنا» و«مرقص حنا » و«واصف غالى» حاسما وواضحا فى احتواء الموقف والحرص على وحدة الوطن ، ومن جراء هذا حملت «الوطن » حملة شعواء على « ويصا واصف » وسينوت والآخرين وأطلقت عليهم « جماعة يهوذا » نسبة إلى « يهوذا الاسخربوطى » الذى خان السيد المسيح وسلمه لليهود ، فى الوقت نفسه هاجمت البطريرك « كيرلس الخامس » الذى دعا الأقباط إلى التعقل ، وذكرت «« الوطن ومصر » أن البطريرك لاشأن له بمثل هذه الأمور على اعتبار أنها شئون مدنية لا دخل للقيادات الدينية بها ، وتحدث «إبراهيم الغزالى » فى المؤتمر المصرى وقال ـ لقد تنبه لتلك المضار ، أغلب مواطنينا الأقباط مقدرين الوحدة الوطنية حق قدرها) . وأثبت الزمن أن « جماعة يهوذا » . . ويصا واصف ، وسينوت حنا ومرقص حنا ، وواصف غالى ومن استمع إليهم كانوا أبعد نظرا وأصبحوا القوة الضاربة لدعم الوحدة الوطنية ، والفصيلة المناضلة حول « سعد زغلول » والوفد إلى درجة أن جريدتى مصر والوطن أصبحتا فى فترة ما أكثر الصحف دفاعا عن « سعد » والوفد ، وكذلك مراسلها فى لندن « قرياقص ميخائيل» أصبح فى فترة مادا عية كبيرا لسعد والوفد .

وإذا كان « سينوت حنا » قد لقى « سعد زغلول » فى فترة باكرة فى يناير ١٩٠٨ فإننا فى ٢٢

يناير ١٩١٤ ، فى افتتاح الجمعية التشريعية التى قامت على دستور ١٩١٣ ، نجد سعد زغلول » عضوًا منتخبا ، وسينوت حنا عضوا معينا ، ومعه الأقباط المعينون « قلينى فهمى ، وكامل صدقى ، ومرقس سميكة» وعندما ثار خلاف « مبكر أيضا » بين سعد الوكيل المنتخب ، وبين عدلى الوكيل المعين انحاز سينوت إلى سعد ضد عدلى .

واختار الأقباط فى نوفمبر ١٩١٨ « واصف بطرس غالى » ليمثلهم فى الوفد ثم رأى الوفد أن يضم إليه « سينوت حنا » عضو الجمعية التشريعية ، وجورج خياط ، وحلفا اليمين مع حمد الباسل فى جلسة واحدة فى ٢ ديسمبر ١٩١٨ .

وفى ٨ إبريل ١٩١٩ سافر سينوت مع أعضاء الوفد إلى باريس ، وبقى إلى آخر يوم قرر فيه الرئيس سعد أن يبقى .

المجاهد الزاهد

كان « سينوت حنا » مناضلا صلبا إلى جانب سعد زغلول ، وتميز بوضوح الرؤية ، وبوضوح الهدف فى المقالات التى نشرت له فى صحف مختلفة ، واستمر هكذا إلى جانب « مصطفى النحاس » ومن بين الموضوعات الثلاثة التى كتبها عنه الأستاذ « جمال بدوى » مذبحة فى المنصورة ـ مروءة نادرة ـ المجاهد الزاهد » اخترت العنوان الأخير فهو يعبر بدقة عن شخصية « سينوت حنا» . .

وتحدد يوم ٨ يوليو ١٩٣٠ لزيارة يقوم بها النحاس باشا لمدينة المنصورة . وأن يتناول طعام الغداء فى منزل محمد بك الشناوى رئيس لجنة الوفد ، ثم يلتقى ولجان الوفد فى منزل محمود بك نصير ، وقررت حكومة إسماعيل صدقى منع الوفد من السفر عن طريق قطار الدلتا ، وفتحت الكبارى حتى لايسافر الوفد بالسيارات . وانتشر عساكر البوليس يهدمون الأقواس والزينات وباتت المنصورة فى ليلة الزيارة كأنها ميدان حرب ، وحمل الجنود كل أنواع الأسلحة ، وغمرت الحكومة شوارع المدينة بالزفت والقطران ولكن الأهالى من عمال وفلاحين وموظفين وطلبة خرجوا يهتفون للنحاس وللدستور ، ومرت سيارة النحاس فى المسار المتفق عليه بين الوفد والإدارة فلما أشرفت على اجتياز النطاق العسكرى الثالث وقعت المذبحة ، وكان « سينوت حنا » يشعر فى قرارة نفسه بأن خطة دنيئة دبرتها حكومة صدقى لاغتيال النحاس ، وأسر « سينوت » بما يخالجه من شكوك إلى صديقه « حامد جوده » واتفق الصديقان على أن يلاصقا الزعيم حتى يفتدياه إذا تعرض لمكروه ، وأسرع سينوت إلى سيارة النحاس باشا أما حامد جودة فقد فرق الزحام بينه وبين السيارة ، ولمح « سينوت » أحد الجنود يسدد الحربة إلى صدر النحاس ، فما كان من سينوت إلا أن تصدى ليتلقى الطعنة القاتلة ، فانغرست فى كتفه وانكسر النصل فى لحمه وتدفقت دماؤه على ملابس

النحاس باشا ، وتقدم جندى آخر ليسدد طعنة أخرى فتلقاها على أفندى الموجى ، وهاجت الجماهير العزلاء فالتحمت بالجيش والبوليس ، وسقط أربعة من الأهالى وثلاثة من الجنود وجرح حوالى ١٥٠ من الجانبين ، وتوفى سينوت حنا فى منزله بالجيزة ودفع حياته ثمنا لوفائه لمبادئ سعد والخليفة سعد ، وإخلاصا لتراب مصر .

الأسانيد :

١ ـ جمال بدوى . . كان وأخواتها .
٢ ـ سعد زغلول . . مذكرات تحقيق د . عبد العظيم رمضان .
٣ ـ طارق البشرى . . المسلمون والأقباط .
٤ ـ محمد كامل سليم . . صراع سعد فى أوروبا .

شريف باشا أبو الدستور



محمد شريف باشا الذى نتحدث عنه اليوم تولى رئاسة النظارة (رئاسة الوزرارة) أربع مرات . . المرة الأولى شهدت خلع الخديو اسماعيل (٢٦ يونيه ١٨٧٩) . وكان « شريف » قد جاء فى (٧ إبريل ـ ٥ يوليو ١٨٧٨) ليواجه النفوذ الأجنبى وليمصر النظارة التى وضع فيها « نوبار باشا » وزيرين من الأجانب . . وقدم « شريف » ماعرف بـ « اللائحة الأساسية » التى يعدها المؤرخون أول دستور فى تاريخ مصر ؟

والنظارة الرابعة أسندت إليه فى ٢٨ أغسطس ١٨٨٢ وجيش الغزو الانجليزى يزحف نحو القاهرة . وفى تلك الفترة كانت الثورة المهدية فى السودان وطلب الانجليز من « الخديو توفيق » إخلاء السودان ووافق توفيق . ورفض « شريف باشا» إخلاء السودان ، واحتج على موافقة الخديو وهو عمل سياسى من صميم اختصاص الوزارة ، وقدم استقالته فى ١٠ يناير ١٨٨٤ .

التفت الحركة الوطنية المصرية التى تمثلت فى الأعيان والعلماء والمشايخ والعمد حول « محمد شريف باشا » الذى قام بدور كبير فى (جمعية حلوان) وبعدها (الحزب الوطنى الأول) وأصدر منشورا سريا طبع منه ٢٠٠٠٠ نسخة فى ٤ نوفمبر ١٨٧٩ ويعلن أن الحزب حزب سياسى لا دينى ، لا ينظر إلى أختلاف المعتقدات ، ويعضده مشايخ الأزهر الذين يعتقدون أن الإسلام ينهى عن البغضاء ويعتبر الناس فى المعاملة سواء .

قبل وفاة « محمد على » فى (٢ أغسطس ١٨٤٩) كان قد ترك الأمور لابنه إبراهيم باشا من إبريل ١٨٤٨ حتى توفى فى ١٠ نوفمبر ١٨٤٨ . وجاء « عباس الأول » من ١٨٤٩ ـ ١٨٥٤ الذى قضى على كل ما فعله محمد على خوفا من النفوذ الأجنبى وقضى على كل تقدم فى الداخل خوفا من التمرد الداخلى . وفى عهد سعيد (١٨٥٤ ـ ١٨٦٣) بدأ رأس المال الأوروبى يدخل إلى مصر ،

وبدأت الخطوات التمهيدية لقناة السويس ووضح العجز فى الميزانية ، وزادت أعمال السخرة ، وسياسة القروض من الدول الأجنبية . وهنا نجد اسم « شريف باشا » وزيرا للخارجية فى عهد «سعيد » من بين أسماء الوزراء .

وفى ١٨ يناير ١٨٦٣ توفى سعيد وتولى إسماعيل وصاحبنا « شريف باشا » قد وصل إلى رتبة الفريق . وعمره ٣٧ عاما إذ إنه ولد بالقاهرة فى نوفمبر عام ١٨٢٦ . جاء إسماعيل والحال فى مصر ما أوجزنا ولكنه للحقيقة أعلن عزمه على إلغاء السخرة وأعلن بعد يومين من توليه (١٨٦٣) وأمام الدبلوماسيين الأجانب (أريد أن تكون القناة تابعة لمصر لا أن تكون مصر تابعة للقناة) ومن يومها وضع الأجانب فى أذهانهم أن الخديو إسماعيل لا يرتاح للنفوذ الأجنبى ، فهو يريد الإفادة من الأجانب . . نعم . . ولكنه يريد أن تكون الكلمة له . . وهو موقف الارستقراطية المصرية فى ذلك الحين وعلى رأسها « شريف باشا » ، ولكن واقع الحال لم يسر هكذا ، فقد غرق إسماعيل إلى ذقنه فى الديون وازداد النفوذ الأجنبى حتى فرضوا عليه الأرمنى « نوبار باشا » رئيسا للنظار وفرضوا على وزارته وزيرين من الأجانب . فترة غامضة مليئة بالتناقضات . . إسماعيل يريد المال لا يريد أصحابه ، اسماعيل يغمض عينيه عن حركات التمرد فى الجيش ضد نوبار وضد النفوذ التركى والشركسى ويغمض عينيه عن الحركات السرية والعلنية ويرغب فى قيام أشكال نيابية ولكنه يريد أن تكون الكلمة له فى النهاية . ويفتح الباب للصحافة ولكنه يريدها أن تكون صحافة موجهة .

الأجانب أدركوا أنه ليس رجلهم تماما ، والباب العالى لايرتاح لهذا الانفتاح على أوروبا ، والميزانية أثقلت بالديون . والمثقفون من أبناء مصر لايريدونه وخلفهم أو أمامهم « جمال الدين الأفغانى » الذى وقع فريسة للمخادع الماكر « توفيق » . كان الأفغانى وتوفيق فى محفل ماسونى واحد ومعهما قسم عظيم من رجال البلاد من وطنيين وأجانب ويقول « توفيق » للسيد جمال الدين الأفغانى (أنت موضع أملى فى مصر أيها السيد . .) ويدبر الأفغانى مع تلميذه « محمد عبده » خطة لاغتيال إسماعيل وهو يمر على كوبرى قصر النيل ولكن الخطة لم تنفذ ويشكل الأفغانى جماعة سرية باسم مصر الفتاة ويذكر محمد عبده أن أغلب أعضائها كان من الشبان اليهود ! ويجتمع الأعيان وأعضاء مجلس شورى النواب ويطالبون بعزل نوبار وتشكيل وزارة برياسة «شريف باشا» . ويذهب « الأفغانى » على رأس وفد من المصريين إلى قنصل فرنسا بمصر ويبلغه أن حزبا بمصر قد تشكل ويطالب بأن يتنازل « إسماعيل » عن الحكم لولده « توفيق » . وفى ٢٦ يونيو ١٨٧٩ يتنازل « الخديو إسماعيل » عن العرش ويتولى « الخديو توفيق » ولكن فى ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ ذهبت قوة بأمر « توفيق زميل الأفغانى فى المحفل الماسونى !» تقبض على «الأفغانى » وعلى خادمه « أبو تراب » وتودعهما باخرة عند السويس سارت بهما إلى « بومباى »

وكان هذا اليوم آخر العهد « بالسيد جمال الدين» فى مصر . وبعدها كان الصراع بين توفيق والأجانب من ناحية وبين الحركة الوطنية المصرية بشقيها العسكرى والمدنى من ناحية أخرى ثم صراع خفى بين القسم العسكرى من ناحية والقسم المدنى من ناحية أخرى . . وصراعات جانبية كثيرة قدر لشريف باشا أن يشهدها وأن يكون له دور فيها . وقدر له أن يرأس نظارة فى عهد إسماعيل ، ونظارات ثلاثا فى عهد توفيق ، وأن يقود حركة الأعيان من أجل الدستور والديمقراطية بكل تعقيداتها وتراجعها وتقدمها .

تمصير الوزارة

قام فى عهد « إسماعيل » أول برلمان مصرى باسم (مجلس شورى النواب) سنة ١٨٦٦ وله سلطة محدودة وحق الانتخاب محصور فى العمد والمشايخ وأعيان البلاد بحيث يكون من الصواب أن نطلق على هذا البرلمان (مجلس الأعيان) وكان « إسماعيل » يعتزم إعلان استقلال مصر عن الدولة العثمانية مع افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ وهو يريد من المجلس أن يقف إلى جواره فى مواجهة الباب العالى . وفى أوائل ١٨٧٠ أجريت الانتخابات للمجلس الثانى وكان إسماعيل يغرق ويغرق فى الديون يريد من البرلمان ان يعاونه فى قوانين جباية الضرائب ، ويقع نوع من الفتور بين إسماعيل والمجلس .

وطوال سنوات المجلسين الأول والثانى نجد « شريف باشا » أبا الديمقراطية وزيرا للداخلية تحت رئاسة « اسماعيل » ولكن فى الدورة الثالثة للمجلس الثانى من (يناير ١٨٧٣ ـ مارس ١٨٧٣) نجد أن « شريف باشا » أصبح وزيرا للحقانية وأن «إسماعيل صديق المفتش » أصبح وزيرا للداخلية ومعنى هذا أن الخديو إسماعيل رأى جباية الضرائب بالكرباج إنقاذا لورطته فى الديون ثم جاء البرلمان الثالث من ١٨٧٦ ـ ١٨٧٩ وهذا البرلمان شهد أخطر الأحداث . .

الحديث الأول ـ وزارة نوبار باشا الأرمنى والتى عرفت بالوزارة الأوروبية (٢٨ أغسطس ١٨٧٨ ـ ٢٣ فبراير ١٨٧٩) وهى نتيجة لتزايد النفوذ الأجنبى استغلالا لديون الخديو إسماعيل . ودخل هذه الوزارة وزيران من الأجانب ومعهما رياض باشا وراتب باشا ، وعلى مبارك ولم يشترك فيها «شريف باشا » .

الحدث الثانى ـ التظاهرة العسكرية من الضباط فى ١٨ فبراير ١٨٧٩ أحاطت بعربة نوبار باشا وجر الضباط رئيس الوزراء ووزير المالية إلى وزارة المالية وحبسوهما مع رياض باشا فى غرفة بالدور العلوى وجاء « الخديو إسماعيل » وأنقذ رئيس الوزراء والوزيرين . والكلام كثير حول هذه التظاهرة هل هى بترتيب من الخديو أم بترتيب من « راتب باشا » وزير الحربية وهو وثيق الصلة

بشريف باشا ؟ المهم أن وزارة نوبار سقطت بعدها بأيام .

الحدث الثالث ـ نظارة محمد شريف باشا الأولى (٧ إبريل ـ ٥ يوليو ١٨٧٩) وكان واجبها الأساسى المعروف مواجهة النفوذ الأجنبى الذى أذل « الخديو إسماعيل » عندما أغرق مصر بالديون . وتخلى « شريف باشا » عن الوزيرين الأجنبيين وقام بتمصير الوزارة . وهنا قرر الأجانب أن يذهب شريف ولكن بعد أن يذهب الخديو إسماعيل نفسه .

الحدث الرابع ـ فى ١٩ مارس ١٨٧٩ ، كان مجلس شورى النواب قد طالب بتخفيض الضرائب ولكن وزارة « الأمير محمد توفيق » أعلنت فض الدورة البرلمانية . ورفض الأعضاء وطالبوا بحضور وزير المالية لمناقشته ، وفى ٢ إبريل ١٨٧٩ اجتمعوا وفى مقدمتهم « شريف باشا » ووقع المجتمعون من الأعيان والنواب والعلماء (اللائحة الوطنية) مطالبين فيها بالإصلاح الدستورى على أساس مبدأ المسئولية الوزارية . ووافق الخديو إسماعيل على اللائحة . وعلى أثر ذلك شكل شريف نظارته الأولى .

الحدث الخامس ـ فى ١٠ إبريل ١٨٧٩ بعد ثلاثة أيام من نظارة شريف أعلن مجلس النظار إلغاء قرار فض الدورة البرلمانية وفى ١٧ مايو ١٨٧٩ قدم « شريف باشا » مشروع (اللائحة الأساسية) وهى أول دستور عرفته البلاد بالمعنى الكامل . ولكن قبل أن يصدر بالدستور المرسوم الخديوى كان قد وقع حادث هام هو :

الحدث السادس ـ خلع الخديو إسماعيل فى ٢٦ يونيه ١٨٧٩ وحل برلمان إسماعيل الثالث ، وتأجيل النظر فى إصدار دستور ١٨٧٩ ، واستقالة نظارة شريف باشا ولكن « الخديو توفيق » الماكر المخادع كلف شريف باشا بتأليف نظارته الثانية .

إرهاصات الثورة .

وهكذا سقط « اسماعيل » بفعل السهام التى وجهت إليه من الجوانب المختلفة ، وبفعل مواقفه الأزدواجية . . فى عملية معقدة وغامضة سقط « إسماعيل » الذى أراد أن يجعل مصر قطعة من أوروبا تآمر عليه الأجانب طمعا فى زيادة نفوذهم والأعيان أملا فى تخفيض الضرائب، وقطاعات من الجيش رغبة فى تمصير المواقع القيادية ، والجمعيات السياسية بتأثير الأفغانى توهما فى الاستيلاء على السلطة . ولعب على هذه الحبال كلها المخادع الماكر «توفيق » الذى دخل المحفل الماسونى مع الأفغانى ، اتصل بعناصر الجمعيات السياسية ، وهادن بعض عناصر الجيش ، وقرب إليه بعض العناصر الفعالة من الأعيان وكبار الملاك ، ووثق علاقاته مع الدول الأجنبية ، فسقط إسماعيل وجاء توفيق لتدخل مصر فى أخطر مراحل تاريخها ، ونتوقف عند أمرين :

الأولى انتفاضة الضباط فى ١٨ فبراير ١٨٧٩ والتى انتهت باستقالة نوبار باشا والتى تعد تجربة لثورة أحمد عرابى ، وتعبر عن اشتراك الجيش المصرى فى السياسة المصرية ضد النفوذ الأجنبى ، وفى وزارة شريف تخلص من الوزيرين الأجنبيين فلو اتحدت جبهة الأعيان والجيش والخديو ربما أمكن محاصرة النفوذ الأجنبى وعمل تسوية معينة لديون إسماعيل وربما لم يسر تاريخ مصر فى مساره المعروف .

الثانى ـ استقالة نظارة شريف الثانية فى ١٨ أغسطس ١٨٧٩ بعد شهر ونصف من تشكيلها لأن « توفيق » رفض مشروع دستور ١٨٧٩ حين قدمه له « شريف باشا » . وقام « توفيق » بتشكيل النظارة بنفسه ، وبطرد « الأفغانى » ، من مصر ، ولم يلبث أن أسند رئاسة النظارة إلى رجل الإنجليز « رياض باشا » فى ٢١ سبتمبر ١٨٧٩ . وبدأت تركيا تستعيد نفوذها على مصر الذى كانت قد فقدته أيام محمد على وإسماعيل ، وتم تحديد عدد الجيش ، بـ١٨ ألف جندى . ووضح تماما التنسيق بين «توفيق » والسلطان « عبد الحميد » وتزايد نفوذ العناصر التركية والشركسية على جيش مصر .

الحزب الوطنى

فى الفترة المعقدة والغامضة ، التى سبقت خلع إسماعيل وتولى توفيق نجد تنظيمين تجدر الإشارة إليهما وكلاهما قام « جمال الدين الأفغانى » بدور فيه . . الأول هو المحفل الماسونى . قام الأفغانى بدور مؤثر فى هذا المحفل وضم إليه « محمود سامى البارودى » ، وعبد السلام المويلحى، وإبراهيم المويلحى ، والشيخ محمد عبده ، وإبراهيم اللقانى ، وعلى مظهر ، وأبو الوفا العونى ، وسليم النقاش ، وأديب اسحق ، وعبد الله النديم ، وفرع المحفل بالإسكندرية ضم قائدى التمرد العسكرى الذى وقع فى ١٨ ، ١٩ فبراير ١٨٧٨ « لطيف سليم وسعيد نصر » . والتنظيم السرى الثانى هو (جمعية مصر الفتاة » التى ضمت «الأفغانى وسليم النقاش وعبد الله النديم ونيقولا توما » ونلاحظ هنا أن « سعد زغلول » على الرغم من اتصالاته بالأفغانى وصلته القوية بالشيخ محمد عبده لم ينضم إلى أحد هذين التنظيمين السريين كما أن الشيخ محمد عبده ذكر أن أغلب أعضاء جمعية مصر الفتاة كانت من اليهود ولعل هذا يفسر انسحاب « عبد الله النديم » من هذه الجمعية .

ونحن الآن فى ٤ نوفمبر ١٨٧٩ مع أول بيان يحمل توقيع (الحزب الوطنى) وهو منشور سرى طبع منه ٢٠٫٠٠٠ نسخة نعرف منه أن الخديو إسماعيل طلب تدخل الحزب الوطنى وأن الحزب الوطنى يسعى لانتزاع البلاد من الهوة السحيقة التى دفعها إليها الاستبداد .

الحزب العسكرى

قدم « شريف باشا » استقالة نظارته الثانية ـ كما عرفنا ـ فى ١٨ أغسطس ١٨٧٩ وشكل «الخديو توفيق » النظارة برئاسته . . وبعدها سلم الحكومة لمصطفى رياض من (٢١ سبتمبر ١٨٧٩ ـ ١٠ سبتمبر ١٨٨١) وخلال تلك الفترة ظهر الأعيان كقوة سياسية متمثلة فى (الحزب الوطنى) وتظاهر طلاب الأزهر ومارس « رياض » أعمال القمع ضد هذا المد الوطنى فألغى الصحف التى ظهرت أيام الخديو إسماعيل ونفى الكثيرين وشدد الرقابة على الزعماء وفى مقدمتهم « شريف باشا » ووجد المد الوطنى متنفسا له فى الجيش المصرى أو ما يمكن أن نسميه بالحزب العسكرى الذى بدأه « أحمد عرابى » ومحمد عبيد ، وخضر خضر وعبد العال حلمى ، وألفى يوسف ، وأحمد عبد الغفار ، وعلى فهمى وإسماعيل صبرى واستطاعت مجموعة عرابى أن تجبر الخديو على عزل « عثمان رفقى » ناظر الجهادية والبحرية وأن يحل محلة « محمود سامى البارودى » من أصدقاء « شريف باشا » والذى انضم للعرابيين بعد ذلك . وكان هذا فى أول فبراير ١٨٨١ . وينضم النديم إلى العرابيين وأيده أعيان الريف وأقام « عرابى » علاقة وثيقة مع « شريف باشا » و«سلطان باشا » .

وتمضى الأحداث بسرعة ، ويستقيل البارودى من وزارة رياض ، ويشعر العرابيون بمؤامرة الخديو ضدهم وتصل إلى اليوم التاريخى ٩ سبتمبر ١٨٨١ ، يوم التظاهرة العسكرية أمام قصر عابدين لمواجهة الخديو توفيق بمطالب الجيش والأمة . وكتب الضباط عريضة إلى « شريف باشا» ـ نلتمس من دولتكم قبول مسند الوزارة . ووقع حوالى ١٦٠٠ من كبار المصريين عريضة إلى «شريف » ـ نحن الواضعين أسماءنا علماء ومشايخ وأعيان وعمد مصر واسكندرية والثغور والوجهين البحرى والقبلى . . التمسنا أن تتسلم إدارة وأشغال ورئاسة مجلس النظار .

وقدم « شريف باشا » شرطين . . الأول على الخديو وهو ان يضمن سلامة الثوار الشخصية ، والثانى على الثوار وهو انسحاب القوات الثائرة إلى المعسكرات .

وفى تقديرنا أن هذا الذى حدث هو الانقسام الأول فى صفوف الثورة ويعبر عن تخوف (الأعيان) من الحكم العسكرى . وقد تردد الكثيرون من قادة الفكر والأعيان فى تأييد أحمد عرابى وتخوفوا من مغبة الصدام غير المحسوب ، ونجد عددا منهم قد انحاز للخديو توفيق بعد انكسار الثورة وفى مقدمتهم « سلطان باشا » .

وشكل « شريف باشا » نظارته الثالثة (١٤ سبتمبر ١٨٨١ ـ ٤ فبراير ١٨٨٢) ولكن الحرص والحذر كانا يحكمان العلاقة بين الجناح المدنى بقيادة « شريف » ، وبين الجناح العسكرى بقيادة «عرابى » وانتهى الموقف بانحياز غالبية مجلس الشورى لأحمد عرابى الذى تزايد نفوذه فسقطت وزارة شريف وفرض الجيش « محمود سامى البارودى » .

الثورة والانقسام

فى ٤ فبراير ١٨٨٢ تولى اللواء والشاعر محمود سامى البارودى رئاسة النظارة ، وتولى أحمد عرابى منصب ناظر الجهادية والبحرية وهو المنصب الذى كان يشغله البارودى فى وزارة شريف . وتولى الضابط « محمود فهمى » منصب ناظر المالية . وبدأ تحول « سلطان باشا » رئيس مجلس شورى النواب الذى سحب الثقة من شريف ، بدأ يتحول ضد الوزارة العسكرية ، وأخذ شريف موقفا متشددا من سيطرة العرابيين على الحكم فاستقال « محمود سامى البارودى » وشكل «إسماعيل راغب » أحد رؤساء مجلس شورى النواب أيام إسماعيل ، شكل نظارة جديدة فى ١٧ يونيه ١٨٨٢ . وانحسر نفوذ العرابيين داخل الوزارة فى شخص « أحمد عرابى » الذى بقى ناظرا للجهادية .

وكانت وزارة « إسماعيل راغب » فى أعقاب المؤامرة التى دبرها « توفيق » ومحافظ الإسكندرية «عمر لطفى » فى ١١ يونيه والتى تمثلت فى هجوم البدو وغيرهم على الأجانب . وكان الهدف منها إظهار « أحمد عرابى » بمظهر العاجز عن حفظ الأمن فأقيل من نظارة الجهادية . وخرج أحمد عرابى ينظم صفوفه بعيدا عن السلطة فى ٢٥ يوليو ١٨٨٢ وكان الأسطول البريطانى قد ضرب الإسكندرية فى ١١ يوليو ونزلت القوات البريطانية إلى أرض مصر لتبقى فيها ٧٤ عاما .

خرج أحمد عرابى من الوزارة ليواجه قوات الغزو . . والخريطة هكذا . . انجلترا ودول أوروبا تريد مزيدا من النفوذ فى مصر وتركيا تريد مزيدا من استرداد النفوذ والخديو « توفيق » يريد النفوذ فى ظل الأجانب وتركيا . وجيش مصر يعتمد على حماسته أكثر مما يعتمد على عدته وعتاده . والجناح المدنى يأخذ على عرابى مغامرته بعضه يؤيده ما دامت الثورة قد اشتعلت ، وبعضه يخذله لأنه لم يحسب حساباته بدقة .

وفى ٢٨ أغسطس ١٨٨٢ وجيش الغزو يقترب من القاهرة يسند « توفيق » ، رئاسة النظارة إلى « محمد شريف باشا » ، وفى ظل هذه النظارة دخل الجيش البريطانى القاهرة فى ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ ، واندلعت الثورة المهدية فى السودان ، إلا أن شريف باشا أراد أن يختم وزارته الرابعة بموقف مشرف فرفض تدخل « الخديوى » فى أعمال الوزارة ، ورفض طلب الانجليز بإخلاء السودان واستقال فى ١٠ يناير ١٨٨٤ . وانتهت بذلك وزارته الرابعة وكان الله غفورا رحيما .

الأسانيد :

١ ـ د . أنور عبد الملك . . نهضة مصر .
٢ ـ د . رفعت السعيد . . الأساس الاجتماعى للثورة العرابية .
٣ ـ د . لويس عوض . . تاريخ الفكر المصرى الحديث .
٤ ـ مركز الدراسات السياسية ـ الأهرام . . ١٠٠ عام على الثورة العرابية .

شهدى عطية الشافعى



كيف نبدأ ؟ . . ومن أين نبدأ ؟ . . بعيداً عن التعظيم ، وبعيداً عن التأثيم ؟ . . كيف نقرأ «شهدى عطية الشافعى » أحد قادة الحركة الشيوعية فى مصر قراءة صحيحة ؟ أحد العناوين البارزة فى الكتاب الأحمر فى مصر . . لانقرؤه دون أن نبدأ من الصفحات الأولى لذلك الكتاب . . وبعد أن نقرأه لانستطيع أن نتوقف عند خطاب مصلحة السجون إلى مدير الطب الشرعى ـ مشرحة زينهم ـ ١٧ يونيو ١٩٦٠ (مرسل مع هذا جثة المسجون تحت التحقيق المتوفى لرحمة الله شهدى عطية الشافعى وذلك كإشارة قسم عابدين بناء على انتداب السيد وكيل نيابة أمن الدولة لكم . رجاء التكرم بالاستلام والتوقيع بما يفيد ذلك) .

اتفقنا . . سوف نقرأ الصفحات الأولى لنرى آثارها فى خطى « شهدى عطية الشافعى » . . وسوف نقرأ « شهدى» لنرى بصماته على الحركة الشيوعية المصرية بعد النعى الذى نشرته جريدة (الأهرام) فى ٢٠ يونيو ١٩٦٠ وقالت الأسرة عن (عزيزها الغائب) :

فتى مات بعد الطعن والضرب ميتة

تقوم مقام النصر إن فاته النصر

البداية أجنبية صرفة . . « بانكاكس » تاجر اسفنج يونانى ١٩٢٠ ، و«روزنتال » لا أحد يعرف أصله ، غادر مصر بعد أن حل « سعد زغلول » الحزب الشيوعى سنة ١٩٢٤ . . «افيجدور » زوج بنت روزنتال . .

« روزنتال » اشتراكى روسى ، بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ عاد لروسيا وعمل سكرتيرا خاصا للزعيم لينيين . . « استور» جندى انجليزى جاء أثناء الحرب العالمية الأولى . . « بوبوفا » بلغارية

لقنت الماركس المصرى القديم « عبد الفتاح القاضى » الماركسية فى ألمانيا سنة ١٩٢٠ . أجانب من كل لون عملوا على تأسيس نقابات عمالية ، وتأسيس الحزب الاشتراكى المصرى (١٩٢١) وتحول إلى (الحزب الشيوعى المصرى) سنة ١٩٢٢ . وذكر الكاتب « إبراهيم عامر » فى كتابه (ثورة مصر القومية ص ٦٤) قولا للزعيم « لينين » نقلا عن (وثائق الدولية الشيوعية ١٩١٩ ـ ١٩٢٢ المنشورة فى لندن ١٩٥٦) . . أعلن لينين (إن الحزب الشيوعى المصرى مؤلف أساسا من الأجانب وإن الأجانب موجودون فى الحزب لا يزيدون على كونهم عملاء للاستعمار ، يسعون إلى تضليل العمال المصريين) .

وفى ظل الحماية الأجنبية وامتيازاتها نشر « روزنتال » بيانا إلى النقابات التى أسسها الأجانب فى مصر يدعوها إلى تأسيس (اتحاد عام للعمال) الذى تكون فعلا سنة ١٩٢١ . وانتقل « روزنتال » خطوة أخرى بين الأجانب ذوى الثقافة الماركسية فأسس (حزبا)، وفى الوقت ذاته كانت بالقاهرة جمعية اشتراكية تكونت من سلامة موسى وعلى العنانى ومحمد عبد الله عنان ومحمود حسنى العرابى .

واتفق « روزنتال » مع الجمعية على تكوين (الحزب الاشتراكى المصرى) سنة ١٩٢١ . وصدر بيان بتأسيس الحزب موقع عليه من هؤلاء المصريين وحرص « روزنتال » على عدم التوقيع معهم مكتفيا بتحريك الأعضاء الأجانب وهم الغالبية الساحقة فى الحزب . وفى منتصف ١٩٢٢ تحول الحزب إلى (الحزب الشيوعى المصرى) وانضم إلى (الكومنترن) وأصبح « محمود حسنى العرابى » سكرتيره العام . وشن « سلامة موسى » حملة شعواء على الشيوعية وعلى الاتحاد السوفيتى والكومنترن والحزب ، وتبعه فى ذلك باقى الأعضاء المؤسسين المصريين وبدأ العمال الأجانب ، والنقابات ، والحزب الشيوعى حملة إضرابات واعتصامات من فبراير ١٩٢٣ وقبض على « حسنى العرابى » وآخرين ، واشتدت حركة احتلال المصانع فى مارس ١٩٢٤ فأمر « سعد زغلول » بالقبض على قيادات الحزب وترحيل الأجانب . وسنة ١٩٢٥ قبضت حكومة « أحمد زيور » على الباقين ، وتوقف النشاط الشيوعى .

ثم كانت البداية الثانية . . على أيدى الأجانب أيضاً فى تيارات متصارعة . . التيار الأول عرف بتيار (الفجر الجديد) نسبة إلى مجلته الشهيرة (الفجر الجديد) ومن عناصره التاريخية « بول جاكو دى كومب » ومعه من اليهود « يوسف درويش وأحمد صادق سعد وريمون دويك » وقد أسلموا بعد ذلك . ومن العناصر المصرية أحمد رشدى صالح وأبو سيف يوسف ، ومحمد يوسف المدرك ومحمود العسكرى وطه سعد عثمان ، وقد مارس هذا التيار نشاطه الثقافى من خلال (لجنة نشر الثقافة الحديثة) و(دار القرن العشرين) ومجلتى (الفجر والضمير) وكان « شهدى » على خلاف

مع هذا التيار . هنرى كورييل والتيار الثانى وهو تيار صغير وضعيف ، هو التيار التروتسكى المعادى لستالين ولجميع المنظمات الشيوعية الأخرى . من أبرز عناصره « جورج حنين» ولطف الله سليمان ورمسيس يونان ، وكانوا يتجمعون حول (المجلة الجديدة) التى كان يصدرها « سلامة موسى » .

أما التيار الثالث ، فهو تيار الحركة المصرية للتحرر الوطنى التى أسسها « هنرى كورييل » أشهر شخصية شيوعية فى مصر وقد ولد بالقاهرة عام ١٩١٤ ، من أسرة يهودية إيطالية وفدت إلى مصر . تلقى تعليمه الابتدائى والثانوى بالفرنسية وكان زميلاه فى تلك الدراسة على صبرى والدكتور أنور عبد الملك . حسب رواية الدكتور « أنور » لى . وعرف « هنرى كورييل » الماركسية عن طريق أخيه « راءول كورييل » مع بداية الحرب العالمية الثانية . وافتتح (مكتبة الميدان) بميدان مصطفى كامل بالقاهرة لترويج الكتب الماركسية سنة ١٩٤١ . وأصبحت حلقة اتصال لجنود الحلفاء الماركسيين ومن بينهم جنود الفرقة اليهودية التى كونتها (الحركة الصهيونية) للخدمة فى صفوف الحلفاء . وهكذا بقيت علاقة « هنرى كورييل » بالصهيونية موضع جدل داخل الحركة الشيوعية فى مصر وأصدر « كورييل » مجلة أسماها حرية الشعوب ثم أسس منظمة شيوعية أطلق عليها اسم (الحركة المصرية للتحرر الوطنى) سنة ١٩٤٢ وانضم إليها عدد من الأجانب (اليهود) وعدد من (السودانيين) وعدد من المثقفين المصريين التروتسكيين .

واعتقل فى يونيو ١٩٤٢ بمعتقل الزيتون حسنى العرابى ، فى المعتقل . وانضم إلى (الحركة المصرية) عدد من ابناء البورجوازية اليهودية والمصرية . وفى ليلة ١١ يوليو ١٩٤٦ اعتقال إسماعيل صدقى هنرى كورييل فى القضية التى عرفت بقضية الشيوعية الكبرى . وفى مايو ١٩٤٧ اتحدت (الحركة المصرية للتحرر الوطنى) ومنظمة (اسكرا) وتكونت المنظمة الشهيرة (الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى ـ حدتو) وهى المنظمة التى انضمت إليها بعد ذلك منظمات أخرى . وانقسمت عنها منظمات أخرى وتلك قصة أخرى لايتسع لها المجال الحالى .

المهم (منظمة اسكرا) التى ورداسمها الآن . . واسكرا كلمة روسية معناها (الشرارة) أسسها سنة ١٩٤٣ مثقف يهودى هو (شوارتز) كانت له علاقات واسعة بالمثقفين المصريين أمثال «شهدى عطية الشافعى ، وعبد المعبود الجبيلى ، وأنور عبد الملك وشريف حتاتة ، ومحمد سيد أحمد » هؤلاء وآخرون أنشئوا (دار الأبحاث العلمية) تقدم محاضرات أسبوعية .

ومثقف يهودى ماركسى آخر هو « مارسيل إسرائيل » أسس منظمة شيوعية سرية أخرى هى (تحرير الشعب) سنة ١٩٤١ وهذه المنظمة انضم منها جزء إلى (الحركة المصرية) قبل أن تتحد مع (اسكرا) وانضم جزء آخر إلى (الحركة الديموقراطية) وهى نتاج وحدة (الحركة المصرية واسكرا)

وانفجرت الصراعات والاتهامات بين المنظمات وبقايا المنظمات وهى دوامة ليس هنا مجال الدخول فيها لأن أقلها الاتهام بالعمل لصالح الإمبريالية والصهيونية والبوليس واتهامات أخرى ليس من أخلاقيات هذا القلم أن يدخل فيها . وأثناء حرب فلسطين ١٩٤٨ تم اعتقال الشيوعيين اليهود الذين أفرج عنهم وسافروا إلى إسرائيل . وبقى ثلاثة هم «هنرى كورييل وشحاته هارون وجو ماتالون » أفرجت عنهم حكومة الوفد فى مايو ١٩٥٠ وقامت بترحيل « كورييل » فى يوليو ١٩٥٠ . وفى باريس ، فى ٤ مايو ١٩٧٨ ، وهو يهم بمغادرة المصعد اغتيل بشكل غامض لم يكشف عنه حتى اليوم .

العودة إلى شهدى

عندما تأسست منظمة (اسكرا) ١٩٤٢ كان « شهدى عطية الشافعى » أحد أعضائها البارزين ، وعندما اتحدت (اسكرا) مع (الحركة الوطنية) فى المنظمة الجديدة (الحركة الديموقراطية) أصبح « شهدى » عضوا فى لجنتها المركزية .

كان « شهدى » خلال الحرب العالمية الثانية قد عاد من انجلترا بعد أن حصل على الماجستير فى الأدب الانجليزى . تلقى الماركسية على أيدى صديقة انجليزية تمسكت بالزواج منه ، ولكنه أصر على العودة لمصر لمحاربة الوجود الإنجليزى (هكذا أكد لى الدكتور أنور عبد الملك) والقى بجهوده هو وزميله « الدكتور عبد المعبود الجبيلى » فى (دار الأبحاث) ومحاضراتها السياسية والاجتماعية كل يوم أحد .

وعام ١٩٤٥ صدر لشهدى عطية الشافعى وعبد المعبود الجبيلى كتاب فى ٩٢ صفحة من القطع الصغير بعنوان (أهدافنا الوطنية) ويبدو ان الكتاب صدر بعد مناقشة مع مجموعة المثقفين فى (دار الأبحاث) وهم عماد تنظيم (اسكرا) وعلى الرغم من الملاحظات عليه إلا أنه محاولة باكرة لرسم (الأهداف الوطنية) من جانب مجموعة من المثقفين المصريين الشيوعيين . . وطالب الكتاب بالجلاء العسكرى والاقتصادى والسياسى وبالسودان (حرا وقد تخلص من كافة أنواع الاستعمار) وطالب بحركة شعبية تضغط على الاستعمار ، ورفع مستوى الشعب فى ميادين الاقتصاد والاجتماع والسياسة والثقافة . وطالب بضرورة انضمام مصر إلى هيئة الأمم المتحدة ، وبالجلاء التام فورا دون قيد أو شرط ، وبشراء الأسهم البريطانية فى قناة السويس ، وعقد معاهدات تحالف وصداقة مع (أمريكا والاتحاد السوفيتى وفرنسا والصين !) وتأييد قيام الجامعة العربية على ألا تأخذ صفة دينية وضرورة انضمام مصر إليها ، وأوضح الكتاب خطر الصهيونية مع التفرقة بين الصهيونية واليهودية . وطالب الكتاب بتصنيع البلاد تصنيعا شاملا والارتفاع بمستوى

معيشة الجماهير ، وملكية الدولة للصناعات الكبرى ، واشتراك مندوبى العمال فى إدارة هذه المصانع ، وتوزيع الملكيات الزراعية الكبيرة والأراضى الحكومية وأراضى الأوقاف على فقراء الفلاحين والعمال الزراعيين . وركز الكتاب على الكفاح ضد (الاتجاهات الفاشية) فى مصر التى تعادى الأسلوب الديموقراطى فى الحكم وتتستر وراء الدين والنعرة القومية المتطرفة وتعادى الأقليات . وطالب بأن تحول الحكومة دون (الفاشيين) والترشيح للانتخابات . ثم طالب بتأميم الطب وإلغاء العيادات الخاصة .

هذه هى لمحات سريعة من كتاب (أهدافنا الوطنية) الذى وضعه شهدى عطية الشافعى فى فترة باكرة (١٩٤٥) ورغم الملاحظات عليه فإنه (برنامج) تفصيلى يلزم أصحابه بدلا من الشعارات المرسلة دون تحديد . .

وفى أوائل عام ١٩٤٧ نزل تنظيم (اسكرا) المعركة بمجلة أسبوعية هى (الجماهير) صاحبها ورئيس تحريرها أحد أعضاء التنظيم « محمود النبوى المحامى » والمسئول السياسى لها هو « شهدى عطية الشافعى » يعاونه « عبد المعبود الجبيلى وأنور عبد الملك ومحمد سيد أحمد » وكان « شهدى » يكتب افتتاحية المجلة وقد صدر العدد الأول فى ٧ إبريل ١٩٤٧ . وقدم شهدى تلميذه فى مدرسة التجارة المتوسطة الرسام « طوغان » ، ليكون رسام الكاريكاتير فى (الجماهير) .

على أن أهم ما كتبه « شهدى » فى (الجماهير) هو مقالة بعنوان (يريد الشعب . . حزبا من نوع جديد) يدعو إلى حق الطبقة العاملة والجماهير الكادحة فى تأسيس حزب لها . وقد اعتبر باحثون كثيرون أن هذا المقال هو نقطة تحول فى موقف المنظمات الشيوعية ، ودعوتها إلى (حزب مستقل) عن الأحزاب القائمة وخاصة (الوفد) . . ولكن التيار الأول الذى أشرنا إليه من قبل (تيار الفجر الجديد) كان له رأى آخر . . وتصدى « أحمد رشدى صالح » أحد قادة تيار الفجر الجديد لهذه الدعوة . وكتب مقالا فى (رابطة الشباب) مجلة الشباب الوفدى ووصف اتجاه «شهدى » بأنه لايقوم على خطة سياسية واضحة ، وليست هناك عناصر قيادية لهذا الحزب ، وليس هناك برنامج يقوم عليه الحزب . وانفجر الصراع التقليدى بين تيار الفجر الجديد من جانب وتيار (الحركة المصرية واسكرا ومن بعدهما الحركة الديموقراطية) من جانب آخر .

شهدى وكورييل وشوارتز

تكونت الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى كما عرفنا فى مايو ١٩٤٧ من تنظيمى (الحركة المصرية ـ كورييل) و(اسكرا ـ شوارتز) وأصبح « شهدى » عضوا فى اللجنة المركزية . وفى سبتمبر ١٩٤٧ طالب « شهدى » باستبعاد كل من كورييل وشوارتز فهما يهوديان مثقفان ثقافة أجنبية ،

وطالب بتمصير قيادة الحركة الشيوعية فى مصر (يلاحظ أن جميع المنظمات فى تلك الفترة اسستها عناصر يهودية) . وكان الرد هو إبعاد « شهدى » عن مجلة (الجماهير) . وحدث صراع عنيف داخل التنظيم الجديد ونشأت تكتلات مختلفة وازداد الخلاف فى فبراير ١٩٤٨ وقررت اللجنة المركزية طرد « شهدى عطية الشافعى وأنور عبد الملك وحسين كاظم » الذين اتجهوا إلى تشكيل تنظيم جديد ، ووقف « عبد المعبود الجبيلى » ضد « شهدى» ثم انشق « عبد المعبود » بدوره بعد ذلك . وفى إبريل ١٩٤٨ أغلق البوليس مجلة (الجماهير) وبإعلان حرب فلسطين (١٥ مايو ١٩٤٨) ألقت السلطات القبض على عدد كبير من الشيوعيين اليهود والمصريين وفى آخر عام ١٩٤٨ قبض على « شهدى » وصدر الحكم ضده بالأشغال الشاقة سبع سنوات . ومن السجن أرسل « شهدى » يساند (الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى ـ حدتو) ويعترف بأنه كان على خطأ وخرج من السجن عام ١٩٥٥ ليقف مع « جمال عبد الناصر » وثورة ٢٣ يوليو فى المعركة ضد الأحلاف وظل على موقفه هذا حتى يوم رحيله فى ١٥ يونيه ١٩٦٠ . وشارك عام ١٩٥٦ فى تحرير جريدة (المساء) التى أصدرها « خالد محيى الدين » وافتتح مكتب مصر للترجمة والنشر . ونشر كتابه الشهير (تطور الحركة الوطنية المصرية ـ ١٩٥٧) وبعض الأفكار التى وردت به موضع خلاف . .

شهدى وعبد الناصر

ومنذ عام ١٩٥٥ حتى أول يناير ١٩٥٩ و« شهدى عطية الشافعى » يدعو لمساندة « جمال عبد الناصر » وفى أول يناير كان البوليس المصرى بتعليمات مباشرة من عبد الناصر يعتقل الغالبية الساحقة من الشيوعيين المصريين . وداخل المعتقل ظل «شهدى» يردد أن ثورة ٢٣ يوليو بقيادة «الرئيس جمال عبد الناصر » ثورة وطنية تتطور نحو آفاق الثورة الوطنيـة الديموقراطية . . ويقنع جميع المعتقلين الشيوعيين بهذه المقولة . ثم وجه « شهدى » رسالة من داخل السـجن إلى « جمـال عبد الناصر» . . أوضح فيها : (إن القوى الرجعية من مصلحتها أن تشعل نار الخلافات . . وكل مالاقيناه من عنت وإرهاق لم يزحزحنا قيد أنملة عن الثقة بوطنيتك . . لسـنا اليوم ولا فى السنين العشر القادمة بصدد تطبيق الاشـتراكية . . نحن اليوم بصـدد استكمال ما بدأته ثورة ٢٣ يوليو . . وهل لى ياسيادة الرئيس أن أطمع فى ان تبعث بمندوب تطمئن إليه أستطيع أن أفضى إليه بمكنون قلبى . . سبتمبر ١٩٥٩) .

ولم يرسل «عبد الناصر» مندوبا إلى « شهدى» وقدم ومعه مئات الشيوعيين أمام محكمة أمن الدولة العليا فى مارس ١٩٦٠ ووقف « شهدى » أمام المحكمة فى تلك الفترة . ورغم ظروف الاعتقال فإن المتهمين كانوا يسجلون أمام المجلس العسكرى العالى الذى يرأسه « هلال عبد الله

هلال » تأييدهم لعبد الناصر. وإن استمرار الأزمة وتصاعدها لن تفيد منه سوى الرجعية التى تريد أن توقف التحول الاشتراكى وتدمره! وفى التحقيق الذى أجرته النيابة حول مقتل «شهدى» فى ١٥ يونيه ١٩٦٠ حرص كل واحد على أن يختم أقواله بعبارة لا صلة لها بالتحقيق. (إننى أؤيد الرئيس جمال عبد الناصر) مما يؤكد أنها عبارة متفق عليها بين الشيوعيين.

كان « شهدى » فى سبتمبر ١٩٥٩ قد طلب من « عبد الناصر » ان يرسل مندوبا ليفضى إليه بمكنون قلبه . . وتأخر عبد الناصر فى الرد خمس سنوات . . وبدلا من مندوب واحد كان هناك ثلاثة مندوبين . . وانقل عن عبدالستار الطويلة ص ١٥٢ : (تمسك عبد الناصر مع أولئك الذين كانوا يفاوضون فى التحالف مع الشيوعيين بحل الحزب وكان أبرز تلك العناصر التى تقوم بدور المكوك . . السادة أحمد حمروش وأحمد فؤاد والمرحوم كمال الدين رفعت وكانت هى المرة الأولى فى تاريخ الشيوعية فى العالم ان يحل حزب شيوعى سرى نفسه ويدخل تنظيما يرأسه جلادوه . ولله فى خلقه شئون .

الأسانيد :

١ ـ إبراهيم عامر . . ثورة مصر القومية .

٢ ـ أحمد صادق سعد . . اليسار المصرى (٤٥ ـ ١٩٤٦) .

٣ ـ د . رفعت السعيد . . (الحركة الاشتراكية فى مصر والصحافة اليسارية فى مصر) .

٤ ـ د . رءوف عباس . . (الحركة العمالية فى مصر ودراسة لأوراق كوربيل) .

٥ ـ شهدى عطية الشافعى . . (تطور الحركة الوطنية المصرية) .

٦ ـ د . عبد العظيم رمضان . . (الفكر الثورى قبل ٢٣ يوليو) .

٧ ـ هنرى كوربيل . . (أوراق) ترجمة عزة رياض .

الدكتور صبرى السربونى



آه يا بلد . . الدكتور محمد صبرى السربونى توافيه المنية يوم الأربعاء ١٨ يناير ١٩٧٨ ، وتشيع جنازته يوم الخميس ١٩ يناير فلا يسير فى جنازته أكثر من عشرة أشخاص حسب وصف « الأستاذ فتحى رضوان » للجنازة هم أربعة من مقدريه لشخصه ومكانته ، ومجموعة من الضباط جاءو لمواساة أحد أفراد أسرته حسب وصف « الأستاذ بدر الدين أبو غازى » رحمه الله .

آه يا بلد . . الدكتور محمد صبرى السربونى الذى عمل مع الزعيم « سعد زغلول » سكرتيرا للوفد فى باريس ، وقال عنه «سعد » ـ هذا شاب أحب الاحتفاظ به . . لايسير فى جنازته أكثر من عشرة .

آه يا بلد . . الدكتور محمد صبرى السربونى الذى نشرت عن أعماله ما يقرب من ٦٠ مقالا ، ونشر هو ما يقرب من ٤٠ مقالا فى الأدب والاجتماع والفن والتاريخ والسياسة ، وكتب ٢٣ عملا فى الثورة المصرية ، وفى التاريخ الحديث ، وفى الأدب ، وفى السياسة . . ولا يسير وراء نعشه سوى أربعة من عارفى فضله ، ومثل هذا العدد أو يزيد جاءوا لمواساة زميل لهم من أفراد الأسرة .

لماذا هذا الجحود ؟ نقول إن الرجل كان لديه قدر من خشونة الحق . . لا يداهن ولا ينافق ولا يطرق باب أحد . . كان نائبا لمدير عام دار الكتب المصرية ، والدار تابعة لوزارة المعارف وقت ذاك . ويخلو منصب مدير دار الكتب فى ديسمبر ١٩٤٦ . ولكن الرجل على خلاف مع « الدكتور عبد الرزاق السنهورى » وزير المعارف فيعين مديرا جديدا للدار متخطيا السربونى ويقدم استقالته . وفى ديسمبر ١٩٥٠ يقوم بتدريس التاريخ الحديث بالجامعة ، ويعين فى ١٩٥١ مديرا لمعهد الوثائق والمكتبات بجامعة فؤاد الأول . ويظل على خشونة فى الطبع فيخرج فيما سمى بالتطهير فى ديسمبر ١٩٥٢ ولجأ الرجل إلى القضاء ولكن أى قضاء كان يمكنه أن يجاهر بالعداء للثورة ويناصر السربونى ؟

ولماذا السربونى يقول إنه دأب أن ينشر اسمه على أعماله مقرونا بعبارة (دكتوراه الدولة من السربون) فعرف بالسربونى فى الأوساط الثقافية . . وهكذا أصبح اسمه وشهرته « الدكتور محمد صبرى السربونى » .

محمد إبراهيم صبرى

واسمه الأصلى . محمد إبراهيم صبرى وموطن الأسرة مدينة بلبيس مديرية الشرقية . وعمل والده مفتشا للزراعة وكثرت تنقلاته من الوجه البحرى إلى الوجه القبلى .

ولد « محمد إبراهيم صبرى » فى (المرج) التابعة لمديرية القليوبية أما تاريخ مولده فحوله خلاف ويرجح « الأستاذ فتحى رضوان » أنه ولد عام ١٨٩٠ . تعلم القراءة والكتابة فى المرج . وتلقى تعليمه الابتدائى فى مدرسة النحاسين الابتدائية بالقاهرة . وبسبب انصرافه إلى حفظ الشعر فشل كطالب منتظم فى الدراسة . ولكنه حصل على البكالوريا (الثانوية العامة) من المنازل سنة ١٩١٣ وهى سن متأخرة للحصول على مثل هذه الشهادة . توفيت والدته وهو يؤدى امتحان الشهادة الابتدائية مما أصابه بالحزن الشديد . وانصرف إلى التعرف لشعراء تلك الفترة ورواية ما يحفظه لهم وكاد الشعر يجنى على مستقبله . وسوف تعرف بعد قليل أن الشعر احتل مساحة هامة فى شخصيته وفى نشاطه الثقافى .

وسافر إلى فرنسا سنة ١٩١٣ عام حصوله على البكالوريا ليكمل تعليمه على نفقته الخاصة . وهناك عكف على شعر لامارتين وفيكتور هيجو ، وجذبته الطبيعة الخلابة فساح فيها وجال وعاد إلى مصر سنة ١٩١٤ مع مقدمات الحرب العالمية الأولى وسافر ثانية إلى باريس سنة ١٩١٥ . وعقد العزم على أن يحصل على الليسانس فحصل عليه سنة ١٩١٩ وكان زميلا للدكتور طه حسين الذى حصل على الليسانس سنة ١٩١٨ . .

وتحدث عنه الدكتور « طه حسين » . .

(. . لم يعرف يأسا أو قنوطا . ولم يذعن لعقبة أو صعوبة وإنما حاول وطاول وألح فى المحاولة والمطاولة حتى تقدم للامتحان ذات يوم . وقدم إلى الممتحنين صحفا أتاحت له الفوز والنجاح) .

أما « محمد صبرى » فيروى رواية طريفة . . (دخلت أنا والدكتور طه حسين امتحان الليسانس فى عام واحد ، وعندما أعلنت النتيجة ذهبت فلم أجد اسمى ولا اسمه ـ كان ذلك عام ١٩١٨ ـ وفى اليوم التالى وجدت اسمه محشورا بين السطور فتوجهت إليه وأخبرته . .) .

والمهم أن « طه حسين » حصل على الليسانس عام ١٩١٨ ، وان (محمد إبراهيم صبرى »

حصل عليه عام ١٩١٩ . وفى إبريل ١٩١٩ سافر أعضاء الوفد المصرى إلى باريس . وهناك التقى « محمد صبرى » وأعضاء الوفد وعمل فى سكرتارية الوفد واتصل برئيس الوفد « سعد زغلول» وتلك حكاية طويلة نؤجل الحديث عنها إلى ان نفرغ من حكاية « الدكتور صبرى » مع الشعر الذى كاد الانصراف إليه يؤدى به إلى الفشل فى الدراسة .

شيطان الشعر

ويبدو أن شيطان الشعر اقترب من « محمد صبرى » وهو صبى صغير وظل يحوم حوله إلى فترة متأخرة من حياته . فى مرحلة التعليم الثانوية وانصرف الصبى إلى حفظ أشعار المعاصرين والقدامى حتى كاد يفشل فى دراسته . وصدر له الجزء الأول من كتابه (شعراء العصر) سنة ١٩١٠ وقدم له « مصطفى لطفى المنفلوطى » وصدر الجزء الثانى سنة ١٩١٢ وقدم له «جميل صدقى الزهاوى » الشاعر العراقى المعروف .

والكتاب به تراجم لعدد من شعراء العرب المعاصرين الذين التقى بهم الفتى مما يدل على حركة نشطة له فى الحركة الأدبية ويدل على نبوغ مبكر فى حفظ الشعر وروايته . وهذا الكتاب جعل «الأستاذ أحمد حسين الطماوى » لايعتمد تاريخ مولد « محمد صبرى» الذى ورد فى بطاقته العائلية وهو (٩ يوليو ١٨٩٤) ويجعلنا نعتمد التاريخ الذى أورده « الأستاذ فتحى رضوان » فى كتابه (أفكار الكبار) وهو ١٨٩٠ وإن كان لم يذكر مصدره .

وقد عثر « الأستاذ الطماوى » على قصيدة له نظمها عام ١٩١٢ . ويبدو أن الحظ العاثر بدأ معه مبكرا فحين نشرت له الأهرام عام ١٩١١ قصيدة عن الحرب الإيطالية فى طرابلس نسبتها إلى «إسماعيل صبرى » بدلا من « محمد صبرى » وعلى الرغم من أن الأهرام صوبت الاسم فى اليوم التالى إلا أن القصيدة ظلت تنشر فى (ديوان إسماعيل صبرى) . وسنة ١٩٢٣ ينشر دراستين عن الشاعر « محمود سامى البارودى » والشاعر « إسماعيل صبرى » . فيكون بذلك قد قدم فى (شعراء العصر) بجزأية وفى هاتين الدراستين ، ترجمة للبارودى وإسماعيل صبرى وشوقى وحافظ وأحمد نسيم وبطرس كرامة وحفنى ناصف ومطران وعائشة التيمورية والمنفلوطى والزهاوى وأحمد الكاشف وحسن القاياتى وخير الهنداوى والكاظمى وعثمان زناتى وكاظم الرجبلى وناصف اليازجى ونقولا رزق الله .

ثم يجىء عام ١٩٤٤ فيبدأ فى إصدار سلسلة (الشوامخ) ويستهلها بـ« امرؤ القيس » ثم در اسة بعنوان (الشعر الجاهلى أعلامه وخصائصه) و«ذو الرمة » سنة ١٩٤٦ و«البحترى » فى العام ذاته .

وبدافع من الوفاء لشاعرين صديقين له هما « خليل مطران وأحمد شوقى» ، راح « الدكتور صبرى السربونى » يجمع ما تناثر من أدبهما فى الدوريات . وأصدر سنة ١٩٦٠ كتاب (خليل مطران أروع ما كتب) . وتقف الحركة الأدبية فى مصر وفى البلاد العربية مبهورة عامى ١٩٦١ ، ١٩٦٢ عندما يصدر « صبرى السربونى » الشوقيات المجهولة التى جمع فيها عشرات القصائد التى لم تنشر فى ديوان شوقى بأجزائه الأربعة . وعكف « الدكتور صبرى » على تاريخ القصائد وكان يحمل اسم شوقى والكثير منها يحمل توقيعات رمزية . ثم يعود فى سنة ١٩٦٨ ليقدم لنا شوقيات مجهولة أخرى لم ترد فى الكتاب الذى سبق نشره وكان «السربونى» يرى أن « أحمد شوقى » أكبر شعراء العربية على الإطلاق .

فى ظلال سعد

كان « محمد صبرى » كما عرفنا من قبل فى فرنسا منذ عام ١٩١٤ فيما عدا شهورا قليلة قضاها فى مصر ثم سافر إلى باريس وفى ١١ إبريل ١٩١٩ سافر أعضاء الوفد المصرى . إلى باريس . وفى تلك السنة حصل « صبرى » على الليسانس من (السوربون) وأغلب الظن أنه اتصل بالوفد فى تلك السنة ، وأغلب الظن أن معرفة سابقة كانت تربطه بالأستاذ « محمد كامل سليم» ، السكرتير الخاص لسعد زغلول .

وتحت تاريخ ١٢ يناير سنة ١٩٢١ وهو يتحدث عن آخر جلسة للوفد فى باريس وجو الانقسام قد خيم على الجميع يقول «محمد كامل سليم » كنت أول من وصل إلى مقر الوفد فأشرفت على إعداد قاعة الجلسة مع صديقى الدكتور محمد صبرى (السربونى) ثم توافد الأعضاء وهم متجهمون عابسون إلا حمد الباسل وسينوت حنا فهما باسمان مشرقان ، دخل حمد الباسل قاعة الجلسة وكأنه داخل إلى حجرة الطعام ، وكذلك كان صاحبه الرشيق الهندام ، ودخل عبد العزيز فهمى قاعة الجلسة وكأنه داخل قاعة محكمة للمرافعة فى جريمة قتل عقوبتها الإعدام . ودخل الرئيس سعد وعلى وجهة ملامح الأسد ونظراته وكأنه داخل لمصارعة الثيران . . إلخ .

وفى موضع آخر تحت تاريخ ١٧ يناير سنة ١٩٢١ . . يقول . . دخل صديقى الدكتور محمد صبرى (السربونى) ومعه جريدة (الأوفر) الفرنسية وأطلعنا على برقية مطولة نشرتها الجريدة لمراسلها فى القاهرة واستأذنت من الدكتور صبرى فى أن يعطينى هذا العدد من جريدة الأوفر لأطلع الرئيس على برقية مراسلها .

وفى ٢٠ يناير سنة ١٩٢١ يسجل السكرتير الخاص لسعد زغلول ـ كنت فى مكتبى بمقر الوفد

فى صبيحة هذا اليوم أتصفح الجرائد الإنجليزية كالعادة وكان معى الدكتور حامد محمود والدكتور محمد صبرى (السربونى) وأحمد نجيب مراسل الأخبار وكانوا يتحدثون فى أمر المنشقين الذين سافروا إلى مصر أمس ، ويتنبأ كل منهم بما عسى أن يعملوه فى مصر . .

ولنا ملاحظة على النص الذى أورده « الأستاذ أحمد حسين الطماوى » فى كتابه الممتاز (صبرى السربونى) على صفحة ٥٣ نقلا عن مذكرات محمد كامل سليم (٢١ نوفمبر سنة ١٩٢١ حضر لزيارة سعد ، ومصطفى النحاس ، وويصا واصف وحافظ عفيفى ، وأبلغوه أنهم عائدون إلى مصر . . وقال سعد هل تستطيع البقاء معى أم تؤثر العودة إلى مصر ؟ فقلت انى معك هنا ، وأشعر بأننا فى حاجة إلى آخرين مثل الدكتور صبرى (السربونى) . . إلخ .

الملاحظة الأولى أن مصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفى عادوا من باريس فى ٢١ نوفمبر ١٩٢٠ بعد أيام قضوها هناك لإبلاغ الرئيس سعد أحوال مصر (ولعل رقم ٢١ من قبيل الأخطاء المطبعية) والمؤكد أيضا أن سعد باشا عاد من باريس إلى مصر فى إبريل ١٩٢١ أى قبل نوفمبر ١٩٢١ .

ويسجل « الأستاذ الطماوى » أن « محمد صبرى » سجل فى مذكرات له ـ لم تنشر بعد ـ إعجابه بوطنية سعد ورفضه لقبول التحفظات التى تعنى الحماية ويذكر أن سعد باشا شجعه على كتابة تاريخ مصر .

تاريخ مصر

فى باريس بدأ كتاباته التاريخية ، فأصدر سنة ١٩١٩ الجزء الأول من (الثورة المصرية) باللغة الفرنسية ، وأصدر الجزء الثانى سنة ١٩٢١ بالفرنسية أيضا ، وكان سنة ١٩٢٠ قد أصدر فى باريس كذلك كتاب (المسألة المصرية) بالفرنسية وفى هذه الأعمال الثلاثة أفاد من وثائق الوفد ومباحثاته فى باريس ولندن ، وأفاد من معلومات قادة الوفد وقد عاش معهم واقترب منهم . و«الدكتور صبرى » وان كان يميل إلى التوفيق بين جناحى الثورة ويأسف للانقسام الذى وقع فى الوفد إلا أنه بقى على وفائه وتقديره لسعد زغلول .

أما رسالته للدكتوراه فقد كانت عن (نشأة الروح القومية فى مصر) وصدرت فى باريس بالفرنسية . سنة ١٩٢٤ وهى تتناول تاريخ مصر الحديث من عصر محمد على إلى الثورة العرابية .

وكان كثير التنقل بين مصر وفرنسا ، ونجده سنة ١٩٢٦ يصدر كتابه باللغة العربية (تاريخ مصر الحديث من محمد على إلى اليوم) وكان قد عاد إلى مصر سنة ١٩٢٤ ليعمل بمدرسة المعلمين العليا أستاذا للتاريخ ، ويعمل بالجامعة ، وينقل إلى دار العلوم ١٩٢٧ ـ ١٩٢٨ ، ويعود ليكتب بالفرنسية ، سنة ١٩٣٠ كتابه (الإمبراطورية المصرية فى عهد محمد على والمسألة الشرقية) .

وبالفرنسية أيضا أصدر سنة ١٩٣٣ (الإمبراطورية المصرية فى عهد إسماعيل والتدخل الإنجليزى الفرنسى) وسنة ١٩٣٤ عين مديرا للبعثة التعليمية المصرية فى جنيف حتى عام ١٩٣٧ . وبعد عودته إلى مصر أصدر باللغة العربية عام ١٩٣٩ كتابه (مصر فى أفريقيا الشرقية) .

وسنة ١٩٤٧ كلفه « محمود فهمى النقراشى » ، بوضع دراسة عن مسألة السودان فكتب بالفرنسية (السودان المصرى ـ ١٨٢١ ـ ١٨٩٨) وطور الدراسة إلى كتاب كبير ترجمه إلى العربية تحت عنوان (الإمبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر) وصدر بالعربية سنة ١٩٤٨ . أخرجته الثورة المباركة فى التطهير سنة ١٩٥٢ . ولكن بعد أن أممت مصر قناة السويس فى يوليو ١٩٥٦ ووقع العدوان الثلاثى على مصر فى أكتوبر ١٩٥٦ بادر إلى إصدار كتاب دفاعا عن حق مصر فى تأميم القناة بعنوان (أسرار قضية التدويل واتفاقية ١٨٨٨) كان ذلك عام ١٩٥٧ أعقبه كتاب آخر بعنوان (فضيحة السويس) سنة ١٩٥٨ وفيه إدانة للغرب .

ظلمـوه

وقد لقيت أعمال « الدكتور محمد صبرى السربونى » تقدير العدد القليل من أهل الفكر والثقافة فى بلادنا ، فقد روى « فتحى رضوان » فى كتابه (أفكار الكبار) أنه سمع من الفقيه المصرى الكبير « عبد الحميد بدوى باشا » يقول عن كتاب (الإمبراطورية المصرية فى أفريقيا) . . حسب محمد صبرى هذا الأثر النفيس والعظيم لينال من أمته مظاهر التبجيل والتوقير .

وقال عنه « فتحى رضوان » ـ محمد صبرى ، كان يتمتع بموهبة المؤرخ الذى يطيل صبره على الوثيقة ، ويجرى لاهثا وراء الفهم الصحيح والتاريخ المحقق والورقة الضائعة والكتاب المندثر ، ليحصل بعد العناء والجهد ، على حقيقة صغيرة .

ولكن هل نعود فى النهاية لنفسر الأمور بالقسمة . . والنصيب . . ؟

نظم القصائد الكثيرة ، ولم يدخله النقاد فى زمرة الشعراء . . اتصل بشعراء عصره المصريين والعرب وكتب عنهم وترجم لهم وأرسلوا له يقرظونه ويمتدحون أعماله ولم يدخله أحد فى عداد الأدباء أو فى عداد مؤرخى الأدب ! اتصل بقادة الوفد جميعا فى باريس واتصل بجناح سعد وجناح عدلى على السواء ، وهو واحد من كتاب عصر النهضة الثقافية ومن جيل طه حسين ومحمد حسين هيكل وعباس محمود العقاد وبعضهم كتب عنه فى كتبه ولكنه لم يصل إلى شهرة أحد منهم. كتب تاريخ مصر والمسألة المصرية والثورة المصرية فلم يلق اهتماما كبيرا بأعماله التى أصدرها باللغة العربية ، ولم يلتفت أحد لترجمة أعماله التى أصدها باللغة الفرنسية . كتب التاريخ من زاوية الشعب وليس من زاوية السلطان فلم يعترف به السلطان ولم ينصفه كتاب الشعب سوى بعض الدموع على سطور بعد رحيله ، أفنى سنوات من عمره بين دهاليز دار الكتب بحثا عن

الشوقيات المجهولة فأصابه من بعض النقاد اتهامات بالتزييف والانتحال ! كتب فى الاجتماع والحضارة فالتفت إليه قليلون! أنفق ما كان لديه من مال على دراسته فى الخارج ، وعلى أسفاره ، وعلى أعماله الفكرية والتاريخية حتى لم يعد لديه ما يكفيه فى هذه الحياة ، وأضاع سنوات من عمره فى ساحات القضاء مطالبا بحق فى ترقية ، وبحق فى تعويض ولم يصل إلا إلى الدرجة الأولى دون المدير العام والدرجة الأولى الآن يصل إليها كثيرون من صغار الموظفين .

كان معتزا بكرامته وبذاته لا ينافق ولا يداهن يريد أن يأخذ الدنيا غلابا ولكن بالحق . . وهجرته زوجته الفرنسية عام ١٩٥١ والتى كان قد تزوجها عام ١٩٣٧ بعد أن تركت له « اسماعيل وعلى ومنى » .

وقد وصف « الأستاذ أحمد حسين الطماوى » ، وهو صديقه وكاتب سيرته ، وصف حاله فى أخريات أيامه . . (فى أخريات أيامه تبرم بالناس ، وضاق صدره بهم ، وساء ظنه فيهم ، فلا جرم أن رأيناه يكتئب نفسيا ، وتسهل إثارته لأوهى الأسباب) . . رحم الله الدكتور محمد صبرى السربونى .

الأسانيد :

١ ـ أحمد حسين الطماوى . . صبرى السربونى .

٢ ـ د . طه حسين . . الأيام جـ٣ .

٣ ـ فتحى رضوان . . أفكار الكبار .

٤ ـ محمد كامل سليم . . سعد وعدلى .

الصاغ صلاح سالم



فى الساعة الحادية عشرة قبل ظهر يوم الأحد ١٨ فبراير عام ١٩٦٢ توفى « الصاغ صلاح سالم » عضو مجلس قيادة الثورة وأحد الضباط الأحرار الذين استولوا على السلطة فى مصر ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

وكان قدره أن يموت والناس يشفقون عليه . . أرقده المرض عاما ونصف عام وعجز أطباء مصر والسويد والولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا والاتحاد السوفييتى ، عجزوا جميعا عن علاجه وكانت صحته تسير إلى التدهور .

أشفق عليه الناس فهو أول من يرحل بالوفاة من أعضاء مجلس قيادة الثورة الذين حكموا مصر، وكان قد اعتزل عضوية المجلس واعتزل الوزارة ، وبدأ اسمه يذبل فى الظل مع جسمه الذى يضمر وهو يصارع المرض ، وأشفق عليه الناس الطيبون لأنه أصغر ملوك مصر الجدد عمرا . . والناس فى بلادى يحزنون لموت صغار العمر حتى ولو كانوا يخالفونهم الرأى . . يتحسرون على الشباب الذى راح . . وقد مات صلاح سالم فى شرخ الشباب كما يقولون عن واحد وأربعين عاما وثلاثة شهور . . ولد فى ٢٥ سبتمبر عام ١٩٢٠ . . وأبناء جيله يذكرون جيدا الشاب «صلاح مصطفى سالم » ابن (الحلمية الجديدة) وابن (المدرسة الإبراهيمية) والضابط الشاب الذى يتميز بالحيوية والحركة والتهور والاندفاع ، والذى تخرج فى الكلية الحربية عام ١٩٣٨ وهو فى الثامنة عشرة من عمره .

وصلاح مصطفى سالم لم يدع أحدا فى (مجلس قيادة الثورة) لم يسخر منه أو يصطدم به ، بداية من « محمد نجيب » و«جمال عبد الناصر » إلى أنور السادات وإلى الآخرين كافة . . لسانه أفقده صداقه الكثيرين . . وأحيانا يده . . وأحيانا قدمه . . والقصص كثيرة ومعروفة . . وصلاح

سالم الذى انتهى رئيسا لمجلس إدارة مؤسسة صحفية وصحفيا كان أول صدام له مع الصحافة والصحفيين . عرض فى مجلس الثورة قائمة بعدد من الصحفيين يتقاضون مصاريف سرية . . ولكن « عبد الناصر » بعقليته السياسية والذكية حال دون ذلك وسعى للإفادة من أصحاب هذه الأسماء . وفى ١٥ سبتمبر ١٩٥٣ أعلن « صلاح سالم» فى ميدان عابدين عن وجود مؤامرة سياسية ، وأعلن عن تشكيل « محكمة ثورة » برئاسة « عبد اللطيف البغدادى » وعضوية « أنور السادات وحسن إبراهيم » . ثم التفت إلى الصحفيين وقال بطريقة مسرحية (سيأتى دورك ياصاحبة الجلالة !).

الحكاية كلها واحدة

فى كتابه (عودة الوعى) قال « توفيق الحكيم » أنه سمع « مصطفى النحاس » يقول إن الصخرة التى تتحطم عليها المفاوضات المصرية دائما من أجل إجلاء الانجليز عن مصر هى السودان . والحكيم يقصد أن اتفاقية الجلاء وقعها « عبد الناصر» فى ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ هى مماثلة لأى (اتفاقية) رفضتها الأحزاب المصرية قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ولكن لأن (الثورة) طرحت مسألة السودان جانبا أمكن توقيع اتفاقية الجلاء . والطريف أن « صلاح سالم » ولد فى مدينة (سنكات) شرقى السودان ، وقضى هناك أيام طفولته ، وحفظ أول آية قرآنية . وتلقى على يد (عريف سودانى) أول علقة لأنه ذهب إلى الكتاب عارى الرأس وكان فى التاسعة من عمره . وتلقى فى المسألة السودانية أقسى درس .

وتدور الأيام ويستولى الضباط الأحرار على السلطة . ويطير من العريش صباح ٢٦ يوليو ١٩٥٢ إلى القاهرة ، ويتولى فيها يتولى الاشراف على القوات المسلحة مع « عبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين » واختص « صلاح سالم » بقوات الجيش المصرى فى السودان . ويقول « صلاح سالم» فى مذكراته التى اطلع عليها صديقنا الاذاعى الراحل « الدكتور محمد المعتصم سيد » مدير إذاعة ركن السودان فيما بعد . . يقول المرحوم صلاح : (القدر وحده هو الذى ربطنى بقضية السودان، القطر الشقيق ، ولم يكن لى سابق دراية أو خبرة بمثل هذا العمل . . لم أقرأ فى حياتى عن السودان سوى النذر اليسير . . لم يكلفنى مجلس قيادة الثورة قبل ٢٣ يوليو بدراسة هذا الموضوع . . أمر هذه القضية لم نتعرض له قط فى اجتماعاتنا ومناقشاتنا التى سبقت الثورة . . لم يكن لى صديق سودانى واحد يحدثنى وأتحدث معه فى شئون بلاده . . لم أسمع شيئا عن السودان إلا من والدى الذى عمل فى حكومة السودان ، ومن والد زوجتى وقد عمل طويلا كضابط فى الجيش فى السودان) .

ويواصل « صلاح » حديثه (فى الأسبوع الأول من أغسطس عام ١٩٥٢ وفد إلى دار القيادة العامة « خضر عمر » وكان سكرتيرا عاما لحزب الأشقاء جناح محمد نور الدين ، وطلب خضر عمر مقابلة جمال عبد الناصر الذى رجانى أن اجتمع بالزائر السودانى . . وقال . . أنت عارف ان ده يدخل فى اختصاصك . . أنت مش مسئول عن الجيش فى السودان ؟ وده كمان من السودان؟ الحكاية كلها واحدة . .) .

صلاح والمسألة السودانية

هكذا كانت الأمور ، أهل الثقة قبل أهل الخبرة ، صلاح سالم مسئول عن أخطر القضايا لأنه ولد فى (سنكات) شرقى السودان ، ولأنه كان مسئولا عن قوات الجيش المصرى فى السودان . كانت الظروف كلها مهيأة لتسير مسألة السودان فى مسارها الصحى . . اتحاد السودان مع مصر بإرادته الحرة المستقلة ، واتحاد شقيقين كل واحد له ذاتيته ولكن قلبه على الثانى . قبل نهاية عام ١٩٥٢ عقدت اجتماعات فى القاهرة بين زعماء الأحزاب السودانية وتم الاتفاق على حق السودان فى تقرير المصير . وأجريت انتخابات برلمانية فى السودان أعلنت نتائجها فى ٢٥ نوفمبر حصل فيها (الحزب الاتحادى على ٥٤ مقعدا ، وحزب الأمة على ٢٠ مقعدا ، والحزب الجمهورى على ٤ مقاعد ، والمستقلون على ١٢ مقعدا ، وانضم نواب الحزب الجمهورى إلى الوطنى الاتحادى . . أى أن الغالبية الساحقة لاتجاه الاتحاد مع مصر ويقود هذا الاتجاه « إسماعيل الأزهرى » .

وبدأت المفاوضات الرسمية مع بريطانيا فى ٢٨ أبريل ١٩٥٣ ، وشكل وفد المفاوضة المصرى من « جمال عبد الناصر وصلاح سالم وعبد الحكيم عامر وعبد اللطيف البغدادى والدكتور محمود فوزى » . . وكانت الأزمة بين « محمد نجيب » و«عبد الناصر » قد بدأت منذ أواخر عام ١٩٥٣ ، وألقت بظلالها الكثيفة على المفاوضات مع بريطانيا ، وعلى الوضع فى السودان ، وأعلن «حزب الأمة » صراحة عن رغبته فى انفصال السودان عن مصر ، ووقعت مصادمات بين الجماهير والبوليس فى السودان ، وطالما أن الشخص المسئول ليست لديه الخبرة الكافية والمعرفة بالمسألة فانه يلجأ إلى أساليب لاتستقيم معها الأمور . . وهذا مافعله «صلاح سالم» ولم تكن لمجلس قيادة الثورة خبرة أيضا أو قدرة على تقويم الموضوعات ، واستهلك عناصره فى الصراع الداخلى على السلطة . . لجأ صلاح سالم إلى ضرب « إسماعيل الأزهرى » بجناح « نور الدين » ولجأ إلى أسلوب الرشوة السافر لعناصر لانفوذ لها حتى (أصبح الشك يتناول كل شخص يرغب فى التعاون مع مصر . .) وهذا ماقرره « اللواء صالح حرب » أمام مجلس قيادة الثورة فى ٢٥ أغسطس ١٩٥٥ . وكان هذا الأسلوب الخاطئ أحد الأسباب الرئيسية فى تحول الحزب الاتحادى بزعامة « إسماعيل

الأزهرى » وليس بزعامة « نور الدين » الذى قام بحركة مفتعلة لفصل إسماعيل الأزهرى وروجت لهذه الحركة أجهزة صلاح سالم تحول الحزب الاتحادى من الدعوة للاتحاد مع مصر إلى الاستقلال عن انجلترا وعن مصر معا . وساعد هذا الاتجاه تنحية « محمد نجيب » وأساليب صلاح سالم المسرحية الساذجة مما جعل الصحف الأجنبية تطلق عليه عبارة (الصاغ الراقص) . وضاع الاتحاد بين مصر والسودان . وضاعت الملايين التى أغدقها « صلاح» على بعض العناصر السودانية . وحسم « إسماعيل الأزهرى » الموقف أمام الجماهير السودانية وقال : (أنا لحم اكتاف من مصر ، وأنا وصلت هناك لابسا حذاء كاوتش ولكن هل يرضيكم أن يحكمنا صلاح سالم والعسكر فى مصر ؟ وأجابته الجماهير الهادرة . . لا . . لا . .) وهكذا أعلنت الحكومة السودانية جمهورية السودان فى ١٩ ديسمبر ١٩٥٥ ، كما تم إعلان استقلال السودان رسميا أول يناير ١٩٥٦ . . ورفض « إسماعيل الأزهرى » أن يكون « صلاح سالم» أول سفير مصرى فى السودان .

أما فى مصر . . كان صلاح سالم قد قدم استقالته من جميع مناصبه ومواقعه من مجلس الثورة ومن وزارة الارشاد القومى . . واستقر فى يقين صلاح أن هناك مؤامرة ضده أدت إلى انفصال السودان . . وهذه المؤامرة يشترك فيها « حسين ذو الفقار صبرى والقائمقام عبد الفتاح حسن ، والقائمقام حمدى عبيد » ثم اتهم « على صبرى وزكريا محيى الدين وأنور السادات » بالاشتراك فى المؤامرة وأنهم يرغبون فى التخلص منه . واتهم « صلاح » على صبرى بأنه ينفذ سياسة الانجليز والامريكيين فى السودان ، وهذا يعنى اتهاما خفيا لجمال عبد الناصر نفسه إذ إن « على صبرى » كان مديرا لمكتب « جمال عبد الناصر » ، على أية حال فإن « محمد نجيب» كان قد نحى عن منصبه فى ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ ، وكان صلاح سالم وجمال سالم أكبر أعوان عبد الناصر ضد محمد نجيب . وأصبح « صلاح سالم » كرتا محروقا ـ حسب تعبير صلاح نفسه ـ فى السودان . . فلا بأس من التضحية بصلاح سالم وقبول استقالته من جميع مناصبه فى ٣٠ أغسطس ١٩٥٥ .

صلاح والاتحاد السوفيتى

فى مايو ١٩٥٥ أفصح « جمال سالم » شقيق صلاح عن أن « جمال عبد الناصر » من نوع «ستالين » يحرص أن يحيط نفسه بالأقزام ، على خلاف « لينين » الذى كان يحيط نفسه بالأقوياء . وتوقع « جمال سالم » أن يتخلص « عبد الناصر » من العناصر القوية فى مجلس قيادة الثورة . وقال « صلاح سالم » للبغدادى إن الدور على جمال ثم صلاح سالم وبعدهما حسن إبراهيم . أما «البغدادى » فكان يتوقع أن يكون هو نفسه أول القائمة . وهنا نسأل : هل هذا الشعور الذى سيطر على صلاح جعله يؤمن نفسه بعلاقات مع الاتحاد السوفييتى ؟ الكاتب « محمد جلال

كشك » فى كتابه (ثورة ٢٣ يوليو الأمريكية) أشار إلى أن « صلاح سالم» حاول أن يعقد اتصالات خفية مع الاتحاد السوفييتى فى مواجهة الصلات السريعة التى كانت لعدد من زملائه مع الولايات المتحدة الامريكية .

للحقيقة . . النتيجة ليست محسومة عندنا ولهذا نضع الوقائع أمام غيرنا ، عسى أن يحسمها الزمن ، يحدثنا « البغدادى » أنه ذهب ومعه « حسن إبراهيم » فى ٢٧ أغسطس ١٩٥٥ لزيارة صلاح سالم فى استراحة القناطر الخيرية أثناء أزمة صلاح فى (المسألة السودانية) فوجدا عنده السفير الروسى يتكلم معه عن السودان، وقد أهداه السفير فى نهاية الزيارة بعض الكتب عن روسيا والدستور الروسى وكان صلاح مهتما بها أشد الاهتمام . وفى ٢٩ أغسطس أبلغ الصحفى «صلاح هلال » مصطفى أمين أنه عرف من « صلاح سالم » أن بعثة من الجيش المصرى قد سافرت إلى روسيا لشراء أسلحة وأن أول شحنة من طائرات الميج والدبابات قد شحنت فعلا إلى مصر . وفى منتصف الليل . . اتصل « مصطفى أمين » بعبد الناصر وأبلغه الرواية ، وبعدها عاد « عبد الناصر» يطلب « مصطفى أمين » ليعيد عليه الخبر لأنه كان هذه المرة يسجل حديث مصطفى أمين . وقد وضع « عبد الناصر » هذا الموضوع أمام (مجلس القيادة) متهما « صلاح سالم » بالخيانة وإنه يجب أن يحاسب عليها .

وفى ١٢ فبراير ١٩٥٣ . . عقدت اتفاقية السودان وتقضى بإجراء انتخابات حرة تأتى بمجلس نواب يمارس نشاطه خلال فترة انتقال لثلاث سنوات تحت إشراف الحاكم العام تعاونه لجنة خماسية تتكون من مصرى وعضو بريطانى وعضوين سودانيين وعضو باكستانى ويرأس اللجنة . . واقترح « صلاح سالم » ضم عضو سوفييتى ولكن الاقتراح رفض .

وفى أغسطس ١٩٥٥ طالب « صلاح » بالافراج عن المعتقلين الشيوعيين بل إنه استدعى إلى مكتبه أربعة من المعتقلين الشيوعيين هم « الدكتور يوسف ادريس ، وإبراهيم عبد الحليم ، وفتحى خليل ، والرسام زهدى » وأكد لهم أن سياسة مصر فى طريقها إلى توثيق علاقاتها بالاتحاد السوفيتى ، وأنها تسير نحو الاشتراكية ، وطلب منهم السفر إلى السودان لاقناع (الحزب الشيوعى السودانى » بفكرة الاتحاد مع مصر ، وأعطاهم مهلة لمدة أسبوع ، ولكن قبل أن ينتهى الأسبوع كان صلاح قد قدم استقالته وإنتهت علاقته بالسودان .

والذين يقولون بعلاقة (ما) بين صلاح سالم والاتحاد السوفيتى ربما وجدوا مبررا لهم فى زيارة «صلاح سالم » التى قام فيها إلى موسكو فى نوفمبر ١٩٥٩ ، سافر كرجل إعلام لأنه لم يعد مسئولا، وفى موسكو « عومل صلاح كواحد من قادة ثورة ٢٣ يوليو » وأعدت له الحكومة السوفيتية استقبالا رسميا ووضعت له برنامجا خاصا لزياراته ، وأفردت له وسائل الإعلام اهتماما

ملحوظا وتابع التليفزيون السوفيتى زيارته حتى مغادرته للاتحاد السوفيتى ، والتقى بخروشوف واستمر اللقاء أربع ساعات كاملة ، وتقرر فى هذه الزيارة أن يقوم الاتحاد السوفيتى بتمويل المرحلة الثانية لمشروع السد العالى ، كانت المقابلة يوم ٥ نوفمبر ، ويوم ٧ نوفمبر كان « صلاح سالم» ضمن ضيوف الشرف فى يوم الثورة الاشتراكية . الاحتمالات كثيرة وقد وضعنا هنا المادة اللازمة للدراسة وتحليل الظروف .

بين نجيب وجمال

من يكتب عن (أعضاء مجلس قيادة الثورة) لايستطيع أن يتجنب الحديث عن موقف هذا أو ذاك من « محمد نجيب » و«جمال عبد الناصر » وقد استطاع « جمال عبد الناصر » أن يدفع كلا من « جمال وصلاح سالم » ضد « محمد نجيب » ثم تخلص منهما بعد ذلك وكان من الميسور عليه أن يصطادهما من أخطائهما واندفاعهما وجموحهما وطموحهما . اندفع صلاح سالم فى تأييد عبد الناصر إلى حد أن يقود تظاهرة غوغائية تعتدى على مجلس الدولة وعلى رئيسه « الدكتور عبد الرزاق السنهورى » وقد علم « محمد نجيب » من زوجة المرحوم الاميرالاى وصفى مدير الحدود الأسبق أن ابنها الضابط محمد وصفى ضابط مخابرات مطروح قد تعرض للضرب والتعذيب من « صلاح سالم» أثناء التحقيق معه وكان يركله برجله فى صدره حتى نزف الدم من فمه وتوفى بعد ذلك .

وقد اقترح « جمال عبد الناصر » أن يضم إلى مجموعته « عبد الحكيم عامر ، وصلاح سالم ، وعبد اللطيف البغدادى » وكان بالمجموعة من قبل « عبد المنعم عبد الرءوف ، وكمال الدين حسين ، وخالد محيى الدين ، وحسن إبراهيم » كان هو إذن من الأعضاء القدامى فى الضباط الأحرار . أما الطيار « جمال سالم » فقد انضم قبل نهاية ١٩٥١ بعد عودته من لندن بعد ثلاث سنوات تحت العلاج . ولم يقدر لجمال سالم وصلاح سالم المشاركة فى الحركة ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لأنهما كانا فى العريش وإن كانا قد سيطرا على القوات المسلحة هناك صباح الأربعاء ٢٣ يوليو .

كان « صلاح سالم » أول من أثار اعتراضات على « محمد نجيب » وأسلوبه فى الاتصال اليومى ، بموظفى الإذاعة أثناء رحلته فى بلاد النوبة فى أواخر نوفمبر ١٩٥٣ ، وبعدها بأيام ، وفى مؤتمر شعبى بالإسكندرية ألقى عبد الناصر وصلاح سالم وأحمد حسن الباقورى كلمات عن الديمقراطية توحى بأن « محمد نجيب » يتجه إلى الدكتاتورية وذلك فى حضور نجيب نفسه ، ولكن أمانة للتاريخ ، عندما اقترح « جمال عبد الناصر » مسايرة نجيب إلى حين التخلص منه فى مارس ١٩٥٤ ، وأنه بنفسه الذى سيقوم بعمل الترتيبات اللازمة ، اعترض صلاح سالم على فكرة التخلص من نجيب لتأثير ذلك على العلاقات مع السودان . وعندما اقترب محمد نجيب من الفوز فى جولة من جولات الصراع واضطر أن يعلن فى الإذاعة عن عودة محمد نجيب بكى صلاح

وجمال سالم بكاء مرا لشعورهما بالهزيمة ، وأبدى صلاح رغبته فى الاستقالة .

وفى مساء الاثنين ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ بدأ العدوان الثلاثى على مصر والذى اضطرب له غالبية أعضاء مجلس القيادة وفى مقدمتهم جمال عبد الناصر إلا أن « صلاح سالم » وصل به الأمر إلى اقتراح وقف القتال والاستسلام وأن يسلموا أنفسهم إلى السفير البريطانى (راجع مذكرات البغدادى جـ ١ ص ٣٤٥) وتقدم « سليمان حافظ » باقتراح إعلان حياد مصر وأن يقوم بهذه الخطوة محمد نجيب (ص ٣٤٦ الجزء نفسه) . واقترح « صلاح دسوقى » اعتقال صلاح سالم فى منزل البغدادى . . وتقرر أن يسافر «صلاح » للدفاع عن السويس ، وللحقيقة فانه أخذ الأمور بجدية كواحد من أبناء هذا الوطن الذين يدافعون عن ترابه .

الأسانيد :

١ ـ أنور السادات . . قصة الثورة كاملة .
٢ ـ عبد اللطيف البغدادى . . المذكرات جـ ١ ، جـ ٢ .
٣ ـ توفيكم الحكيم . . عودة الوعى .
٤ ـ جمال حماد . . صلاح سالم ومأساة انفصال السودان (مجلة أكتوبر ٦ ديسمبر ١٩٨٧) .
٥ ـ محمد المعتصم سيد . . صلاح سالم .
٦ ـ محمد نجيب . . كلمتى للتاريخ .

الدكتور طه حسين



سألت صديقى العزيز فضيلة الشيخ الدكتور « إبراهيم أبو الخشب » الأستاذ المحاضر فى الأزهر عما إذا كنت أستطيع أن أدرج « الدكتور طه حسين » ضمن المجموعة التى كان لها صلة واضحة بالأزهر « فقال فضيلة الشيخ « أبو الخشب » : (رغم أنفه ورغم أنفنا هو واحد من أبناء الأزهر) .

«وطه حسين » « كثيرة هى النعوت التى خلعت عليه » فهو عميد الأدب العربى ، وقاهر الظلام والمعجزة ، ورائد اليقظة . . وهو الأديب الكبير والمفكر الحر ، وهو الذى فتح للأدب العربى آفاقا عالمية .

فى عزبة (الكيلو) إحدى قرى مركز مغاغة بمحافظة المنيا ولد فى أكتوبر ١٨٨٩ . وفى (الكتاب) حفظ القرآن وألم بمبادئ العلوم الدينية والعربية وجاء إلى القاهرة ليتلقى العلم بالأزهر الشريف . وكان ذلك عام ١٩٠٢ وعمره ١٣ عاما . حضر دروس المبتدئين ثلاث سنوات . وبين عامى ١٩٠٥ و١٩٠٧ حضر دروس المتوسطين فى الفقه والنحو . ويبدأ عام ١٩٠٧ يحضر دروس المتقدمين . وفى سنة ١٩٠٨ لم يكن يحضر غير درس الفقه على « الشيخ محمد بخيت » ودرس الأدب على « الشيخ سيد المرصفى» ودرس البلاغة على « الشيخ عبد الحكيم عطا » إلا أنه كان برما بهذه الدروس وبنظام الأزهر عامة ، كثير الجدل مع الأساتذة . واختلف اختلافا حادا ففصل ومعه زميلاه « أحمد حسن الزيات» و«محمود حسن زناتى » .

وفتحت الجامعة الأهلية أبوابها عام ١٩٠٨ فالتحق بها ، وفى ٥ مايو ١٩١٤ نوقشت أول رسالة علمية فى هذه الجامعة عن (أبى العلاء المعرى) وحصل بها « طه حسين » على الدكتوراه وأوفدته الجامعة فى بعثة إلى فرنسا فى نوفمبر ١٩١٤ بجامعة مونبليه وجامعة باريس وحصل هناك على

الليسانس فى الآداب من السوربون ١٩١٧ ، وعلى الدكتوراه سنة ١٩١٨ ، وعلى دبلوم الدراسات العليا سنة ١٩١٩ . وفى أكتوبر ١٩١٩ عاد إلى مصر ليعمل أستاذاً للتاريخ القديم بالجامعة ويبدأ قصة جديدة .

رجـال فى حيـاته

وإذا كان « الشيخ سيد المرصفى » له الأثر الكبير عليه وهو (مجاور) فى الأزهر فإن رجلين آخرين كان لهما أثر كبير فى تشكيل مستقبله . ونترك « الفتى » أو « طه حسين » يتحدث عن أثر أول الرجلين فى حياته : (واتصل الفتى بالشيخ عبد العزيز جاويش ـ رحمه الله ـ فأكثر الاختلاف إليه ، والاستماع له ـ وما هى إلا أن أخذ يجرب نفسه فى الكتابة ، كما جرب نفسه فى الشعر على يدى أستاذه المرصفى . ولم يكد الفتى يأخذ فى الكتابة حتى عرف بطول اللسان والإقدام على ألوان من النقد ، وكان نقدا محافظا إلا أن يعرض لشئون الأزهر ، فهنالك كان يخرج حتى عن طور الاعتدال ، ويغلو فى العبث بالشيوخ ، ويجد التشجيع كل التشجيع على ذلك من الشيخ عبد العزيز جاويش ، وربما وجد منه إغراء بذلك وحضا عليه . . . كان يحبب العنف إلى الفتى ، ويزين فى قلبه الجهر بخصومة الشيوخ والنعى عليهم فى غير تحفظ ولا احتياط . . وللشيخ عبد العزيز جاويش فضل أى فضل فهو الذى ألقى فى روع الفتى فكرة السفر إلى أوربا . . وعلمه الكتابة فى المجلات ، فقد أنشأ مجلة (الهداية) وطلب إلى الفتى أن يشارك فى تحريرها ثم ترك له أو كاد يترك له الإشراف على هذا التحرير . وكان له الفضل كل الفضل فيما تعلم الفتى من إعداد الصحف وتنسيق ما ينشر فيها من فصول . . وأنشأ الشيخ عبد العزيز جاويش مدرسة ثانوية وكلف الفتى أن يعلم فيها الأدب على ألا ينتظر على ذلك أجرا . وقد أقبل الفتى على تعليمه ذلك فرحا به مبتهجا له يرى فيه شفاء لغيظه من الأزهر) .

وهكذا على غير ماهو شائع ، فإن الشيخ عبد العزيز جاويش قطب الحزب الوطنى هو الذى بدأ برعاية الفتى ، وجذبه إلى محافل الكتابة والخطابة وهو الذى شجعه على مصاولة الأزهر ، وهو الذى حرضه على السفر إلى فرنسا .

أما الرجل الثانى ، وهو أحمد لطفى السيد ، فعلاقته بالفتى ومساندته له وتعضيده هى أمور شائعة ومعروفة . كان «الفتى» يزوره كل يوم فى مكتبه بدار (الجريدة) فلا يحجب عنه ويقبل عليه ويتوسط له لدى السلطان وغير السلطان دفاعا عنه ، وطلبا للخير له ومساندا له فى الجامعة ، وفاتحا له صفحات الجريدة . وهكذا كان « صاحبنا » موزعا بين مذهبين من مذاهب الكتابة ، أحدهما مذهب الاعتدال ذلك الذى كان الأستاذ لطفى السيد يدعوه إليه ويزينه له . والآخر

مذهب الغلو والإسراف ، ذلك الذى كان الشيخ عبد العزيز جاويش يغريه به ، ويحرضه عليه تحريضا . وكان للفتى مذهبان فى ذلك الوقت . . إذا اقتصد فى النقد نشر فى (الجريدة) عند أحمد لطفى السيد ، وإذا غلا ذهب ينشر فى صحف الحزب الوطنى .

على أية حال ، فإن « الفتى » قد سافر إلى فرنسا فى نوفمبر من سنة ١٩١٤ وعاد إلى مصر فى أكتوبر من سنة ١٩١٩ ، وكان بين هذين التاريخين وثيق الصلة بأحمد لطفى السيد يراسله هويلقاه حين يأتى إلى مصر بين الحين والآخر ليحل له ما أشكل عليه من أمور ، ويقوده إلى أصحاب السلطة ، ويجد طه حسين ـ بأسلوبه الخاص ـ طريقه إلى السياسة .

تقـويم من اليســار

لبعض الماركسيين ولع بتصنيف الأحداث وتوصيف الناس ، وهو أمر يريح الناس أحيانا ، ولكنه أحيانا أخرى يوقع فى الخلط والاضطراب ويؤدى إلى فساد الأحكام اذا لم تتوفر لة الدراسة الموضوعية وخاصة إذا كان (التوصيف) فريسة للمسميات الشكلية ومقصورا على عدد من المواقف دون مراعاة للاتجاه العام . والمنطق الشكلى ـ لا الجدلى ـ يكتفى بأن تتطابق الصفات على الموصوف فتكون محددة لذاته وموضحة لمسماه . . وعلم السياسة ـ يحدد صفات (الليبرالية البورجوازية) بأنها تدعو إلى : (حرية الفكر والتسامح الدينى والاتجاه العقلانى والحكم الدستورى وحق الانتخاب العام وعدم التفرقة أو التمييز بسبب الجنس واللون أو العقيدة الدينية) . . وبنظرة سريعة إلى « الرجل » وأسلوب تفكيره وجدوا أن الصفات السابقة كلها موجودة عنده ، فهو إذن (ليبرالى بورجوازى) . . . هكذا كتب محرر مجلة (الفجر الجديد) التى كانت تصدرها إحدى المنظمات الماركسية فى مصر عامى ٤٥ ـ ١٩٤٦ وكان من شأن هذه اللافتة الجامدة أن تحجب عن أعين (هؤلاء النقاد) البيئة التى انحدر منها « طه حسين » من صلب رجل فقير ، ونشأته فى بيئة فقيرة ، ولا يجد علاج عينيه إلا عند (حلاق القرية) الذى ذهب بما فيهما من إبصار . وحجبت عنهم أيضا دفاعه عن حرية الشعب السياسية وحريته فى التعبير ، وحارب بصلابة وعناد طغيان السلطة الرأسمالية والاقطاعية التى تمثلت فى اضطهاد حكومة إسماعيل صدقى له . وهذا المفهوم الضيق هو الذى دفع اثنين من (هؤلاء النقاد) لتوجيه الاتهامات القاسية للدكتور طه حسين على صفحات جريدة المصرى فى باكورة الخمسينات . وإنصافا . . فإن عددا من الماركسيين وقت ذاك لم يؤيدوا هذا الكلام الذى نشر على صفحات جريدة المصرى . . وانصافا مرة أخرى فإن الموقف فى عمومياته الآن ليس كما كان سابقا . لقد وجد « طه حسين » كلمات حق وحقيقة من جانب الذين اخطئوا فى حقه وحقيقته . ولم تزل صورة العميد

التى نقلتها الشاشة الصغيرة منذ نحو ربع قرن من منزله وحوله عدد من الأدباء والمفكرين ومن بينهم «محمود أمين العالم » يناقش مناقشة (الراغب فى الاستزادة من العلم) على حد تعبيره هو. . لم تزل هذه الصورة ماثلة للعيون والأذهان وان كانت محاولات نقد جديدة من تجاهات أخرى تحاول أن تنال من « العميد » بدعوى أن الذين يؤازرونه بعضهم بدافع من جهات أجنبية لاتكن الود للحضارتين العربية والإسلامية .

البداية السياسية

من الأفكار الشائعة ـ وهى صحيحة إلى حد كبير ـ أن يتغير الناس كلما تقدم بهم العمر ، فينتقلون من اليسار إلى اليمين وينتقلون من الثورة إلى الاعتدال .

ولكن « طه حسين » ـ كعادته ـ يخالف ماجرت به العادة ، وتراه فى حياته السياسية ينتقل من اليمين إلى اليسار نسبيا كلما تقدمت به السن وكلما نضجت التجربة . فالثابت أنه كتب (لمصر الفتاة) القديمة عام ١٩٠٩ و(الجريدة) عام ١٩١٠ . و(الهداية) فى مثل هذين التاريخين . والجريدة (٩ مارس ١٩٠٧ ـ ٣٠ يوليو ١٩١٥) دعت إلى (التعقل والاعتدال والمحاسنة) وكانت تمهيدا لحزب الأمة (٢١ سبتمبر ١٩٠٧ وهو حزب العقلاء الساكنين والحكماء الهادئين على حد تعبير الدكتور « محمد حسين هيكل » . ومن جريدة العقلاء الساكنين إلى (الأهرام) عامى ١٩٢١ و١٩٢٢ أيام كانت الأهرام أكثر عقلا وسكينة وأكثر حكمة وهدوءا ، وكان معه فى الأهرام « محمود عزمى » بعد أن انتهى من تجربة الحزب الديموقراطى ، ومعه « توفيق دياب » قبل أن يتحول إلى الوفد . وكانوا جميعا فى موقف المعارضة للوفد وكتب « الدكتور طه » فى ٢٥ يونيو ١٩٢١ مقالا فى الأهرام بعنوان (ديموقراطية أم طغيان) حمل فيها على (طغيان شخصية سعد على مستوى الحزب، وعلى مستوى الأمة) .

ويتبلور الموقف من « سعد والوفد » على صفحات جريدة السياسة التى صدرت فى (٣٠ أكتوبر ١٩٢٢) غداة إعلان حزب الأحرار الدستوريين (٢٩ أكتوبر ١٩٢٢) والذى تشكل أساسا من البقية الباقية من حزب الأمة . وعلى صفحات السياسة من ١٩٢٢ حتى ١٩٢٦ هاجم « طه حسين » زعامة سعد لأنها (زعامة حزب لا زعامة أمة) ولأن (سعدا وأصحابه ضعاف يخافون الحق ويفزعون منه ويذعرون من النقد ويضطربون له) ولعل أوضح المواقف فى هذا الاتجاه تلك التى اتخذها عام ١٩٢٦ عندما تولى رياسة تحرير جريدة (حزب الاتحاد) الذى عرف بانه حزب السراى . على صفحات جريدة الاتحاد ، ومن موقع رياسة التحرير شدد الهجوم على « سعد » وأظهر ميزات الملك فؤاد فى (رعايته للجامعة) ودافع عن (حق الملك الدستورى فى

اختيار الوزراء) إلا أنه سرعان ما ترك حزب الاتحاد ورياسة التحرير وعاد إلى جريدة السياسة التى التف حولها عدد من المفكرين والمثقفين المستنيرين أمثال أحمد لطفى السيد ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ، ومحمود عزمى ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، وتوفيق دياب، ومحمد زكى عبد القادر) .

الشعر الجاهلى

فى سنة ١٩٢٥ عين « الدكتور طه حسين » أستاذاً لتاريخ الأدب العربى فى كلية الآداب بالجامعة . وألقى على طلبة هذا القسم مجموعة من المحاضرات جمعها فى كتاب بعنوان (الشعر الجاهلى) سنة ١٩٢٦ . وقد وردت بهذا الكتاب وقائع استنكر الرأى العام أن تصدر من مفكر مسلم تعلم فى الأزهر وحمل لقب شيخ لفترة ما . وقد تصدى للرد على هذا الكتاب « الشيخ الخضر حسين ، ومحمد فريد وجدى ، ومحمد لطفى جمعة» فى كتب ثلاثة هى نموذج للبحث العلمى ومقارعة الحجة بالحجة فى هدوء وبسلوك حضارى يندر أن نجده فى أيامنا الحالية . لقد أنكر عليه الرأى العام هذه الأفكار التى خرج بها . ودخلت السياسة فى المعركة وكان من حظ «الدكتور طه » أن تحالفا كان قائما وقت ذاك بين الأحرار الدستوريين والوفد . . فرئيس الوزراء «عدلى يكن» هو حر دستورى ، ورئيس مجلس النواب هو « سعد زغلول » . . هدد رئيس الوزراء بالاستقالة أن أصاب الرجل أذى . واستخدم رئيس مجلس النواب نفوذه الشخصى فى تخفيف حدة ثائرة النواب الوفديين الذين وجدوها فرصة لتصفية الحساب مع « طه حسين» وقادت جريدة (كوكب الشرق) التى كانت تعتبر إلى حد كبير امتدادا للمؤيد ، وصدرت وفدية عام ١٩٢٤ ، واستمر صاحبها ورئيس تحريرها « أحمد حافظ عوض » الذى تربى على أيدى «الشيخ على يوسف» فى تأييده للوفد ، واستمر أيضا فى الهجوم على طه حسين بسبب ما جاء فى الكتاب المشار إليه . وأفردت (كوكب الشرق) عددا من صفحاتها للهجوم على طه حسين ، والهجوم على اتجاه (جريدة السياسة) والذين وقفوا يدافعون عن « طه حسين » أمثال . . أحمد لطفى السيد والدكتور محمد حسين هيكل ، ومنصور فهمى ، وكذلك « عباس محمود العقاد » الذى تصدى للدفاع عن حق « طه حسين » فى التعبير عن آرائه . وحبذت (كوكب الشرق الوفدية) مقالات للرد على طه حسين بأقلام مصطفى صادق الرافعى وشكيب أرسلان ومحمد لطفى جمعه وأحمد الغمراوى وعبد المتعال الصعيدى .

على أية حال حفظ التحقيق مع « الدكتور طه » وأعاد طبع الكتاب تحت عنوان (الأدب الجاهلى) بعد أن رفع منه الفصول التى أهاجت الرأى العام ، وأغضبت العلماء .

أزمة جديدة

وفى سنة ١٩٢٨ عين عميدا لكلية الآداب إلا أن الظروف السياسية اضطرته إلى الاستقالة يوم تعيينه . واختير عميدا مرة أخرى سنة ١٩٣٠ . وفى ٣ مارس سنة ١٩٣٢ فى عهد وزارة إسماعيل صدقى (الثانية) ٤ يناير ـ ٢٧ مارس ١٩٣٢ قرر « إبراهيم فهمى كريم باشا » وزير المعارف العمومية نقل « الدكتور طه حسين » إلى وزارة المعارف ، وعلى الرغم من أنه نفذ النقل إلا أنه رفض العمل . وكان « العميد » قد رفض ما أراده وزير المعارف من منح الدكتوراه الفخرية لعدد من الوزراء ، رأى الدكتور طه أنهم غير جديرين بدرجة الدكتوراه . ووقفت الجامعة والصحافة والرأى العام إلى جانب الدكتور طه حسين فقررت وزارة إسماعيل صدقى إحالة الدكتور طه إلى المعاش . والدكتور طه يشحذ همته أيام التحدى ، ففى ديسمبر ١٩٢٦ عام أزمة الشعر الجاهلى بدأ فى (مجلة الهلال) يكتب أول فصل من الجزء الأول من (الأيام) ، ونشر هذا الجزء الأول فى كتاب سنة ١٩٢٩ ، ونشر الجزء الثانى ١٩٤٠ ، ونشر الجزء الثالث قبل وفاته بعام واحد (توفى فى ٢٨ أكتوبر ١٩٧٣ ـ وشيعت جنازته فى ٣٠ أكتوبر ١٩٧٣) .

وتراه عام ١٩٣٢ بعد أن أصدرت الوزارة قرارا بإحالته إلى التقاعد قد لزم بيته يكتب فى جريدة السياسة اليومية ، ويتولى رئاسة تحريرها أثناء غيبة الدكتور محمد حسين هيكل . ثم تراه يشارك فى تحرير جريدة الوفد (كوكب الشرق) وفى ٩ مارس عام ١٩٣٣ صرح « مصطفى النحاس » بقوله : (إنى لمغتبط لاشتراك النابغة الكبير الدكتور طه حسين فى تحرير الكوكب على المبدأ الوفدى وكتب الدكتور طه مقاله الأول بعنوان (عهد) . . وكان عهدا لمسيرة مع الشعب ، وعهدا للدفاع عن الدستور . ومهدت (كوكب الشرق) التى طالما شنت حملة شعواء على طه حسين ، مهدت لهذا الحدث الكبير فى ٨ مارس بمقال لأحمد حافظ عوض يشهد لطه حسين أنه كان (فى جميع مراحله فى الصحافة لاينشد من وراء كتاباته كلها إلا مايراه متفقا والمصلحة الحقيقية ، وكم أود أن أذكر لكم مبلغ تعلقه بالقرآن الكريم وتذوقه لأسلوب القرآن وإجلاله لكل ما يتصل بالقرآن) . واستعار « أحمد حافظ عوض » وهو يمهد لطه حسين على صفحات (الكوكب) بعبارة قالها «مكرم عبيد » عندما تحول « توفيق دياب » من الأحرار الدستوريين إلى الوفد ، قال مكرم : (ومن عجب أن يأخذ بعض الناس على توفيق دياب أنه أصبح وفديا مع أن الوفدية كانت مصيره المحتوم . بل إنه كان وفديا بطبعه فى الوقت الذى كان يتحمس فيه لمحاربة الوفد بقلمه) .

الرجل والرمز

اشترك سنة ١٩٣٣ فى تحرير (كوكب الشرق) كما قلنا ، وأشرف على تحريرها أيضا لفترة محدودة ، ثم اشترى امتياز جريدة (الوادى) وأشرف على تحريرها حتى ديسمبر سنة ١٩٣٤ ولكنه خسر مايقرب من ثلاثة آلاف جنيه ، وتوقف حين أعيد إلى كلية الآداب أستاذاً للأدب العربى مرة

أخرى ثم انتخب مع مجيء حكومة الوفد سنة ١٩٣٦ عميدا لكلية الآداب . وفى أواخر عام ١٩٣٩ انتدب (مراقبا) للثقافة بوزارة المعارف العمومية إلى جانب محاضراته فى كلية الآداب ، وبمجيء حكومة الوفد إلى الحكم فى فبراير سنة ١٩٤٢ عينه وزير المعارف « أحمد نجيب الهلالى » مستشارا للوزارة ووضع فى تلك الفترة أسس ديموقراطية التعليم والخطوط العريضة لحق أبناء الشعب فى التعليم . وفى السنة ذاتها (أكتوبر ١٩٤٢) انتدب إلى جانب عمله مديرا لجامعة فاروق بالاسكندرية (جامعة الإسكندرية حاليا) وظل يزاول هذه الأعمال جميعها بروح الانتماء إلى الشعب حتى أحيل إلى التقاعد فى ١٦ أكتوبر ١٩٤٤ . وفى هذا الشأن يقول أستاذنا الدكتور «محمد مهدى علام » : إنه بمقتضى هذا التاريخ يكون تاريخ ميلاد الدكتور طه هو ١٦ أكتوبر ١٨٨٤ وليس نوفمبر ١٨٨٩ كما هو شائع . وقد أكد « الدكتور طه » للدكتور « مهدى علام » أن تاريخ ميلاده ـ أى ميلاد الدكتور طه ـ هو ١٨٨٩. وليس هناك تفسير سوى أن تسجيل المواليد فى القرن التاسع عشر فى ريف مصر لم يكن منتظما ولا سليما .

وفى ظل حكم السعديين والأحرار الدستوريين . . أخذ البعض يوجه الضربات للدكتور طه كمدير لجامعة الإسكندرية فاستقال عام ١٩٤٦ وأصدر مجلة (الكاتب المصرى) . ثم قصد إلى أوربا وأقام بها إلى حين ، وقال فى ذلك : ـ تركت فى مصر شرا ونكرا وإثما ، وخرجت وفى نفسى شيء من شرها ونكرها وإثمها ، وإنى لظالم للحق ولنفسى حين أحفل بهذه الضفادع البائسة التى تملأ جو مصر نقيقا) .

وفى ١٢ يناير ١٩٥٠ فى حكومة « مصطفى النحاس » السابعة والأخيرة جاء « الدكتور طه حسين» وزيرا للمعارف ليقرر مجانية التعليمين الثانوى والفنى ، ولينشر المدارس فى أزقة المدن وحاراتها ، وفى الكفور والنجوع لأن التعليم عنده ضرورى كالماء والهواء .

وأذكر عند تشكيل حكومة الوفد فى ١٢ يناير ١٩٥٠ بعد فوز الوفد الشهير فى ٣ يناير ١٩٥٠ ، أذكر أن آمالنا ـ نحن الشباب ـ الذى وجد فى تلك الليلة بمنزل « مصطفى النحاس » كانت أن يتولى « أحمد نجيب الهلالى » وزارة المعارف . اعتقادا منا ـ فى ضوء رؤيتنا وقت ذاك ـ أنه يدعم الاتجاه الشعبى فى مواجهة التيار اليمينى الذى كان يزحف على قيادة الوفد . أذكر أن « أحمد نجيب الهلالى وهو يهبط الدرج داخل منزل « مصطفى النحاس ، قال : ـ الشخص الجدير بالمنصب هو الذى سيتولاه ، الدكتور طه حسين سيكون وزيرا للمعارف » . وظل وزيرا للمعارف حتى أقيلت الوزارة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ . وفى عام ١٩٥٥ كان وراء المشروع الثقافى الكبير (مشروع الألف كتاب) وكانت آخر ميزانية لهذا المشروع عام ٦٨ ـ ١٩٦٩ وقد أصدر قرابة ثلاثة أرباع الرقم المقدر له أن يصدره ترجمة وتأليفا . وقد كان شرفا لهذا القلم كاتب هذه السطور أن يرأس تحرير هذا المشروع عندما عاد للمرة الثانية عام ١٩٨٦ ليصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب .

مجمع اللغة العربية

هذه العقلية المستنيرة التى أصدرت أكثر من ١٠٠ كتاب عملا بين تأليف وترجمة ، وكتبت عشرات المقالات ذات الهدف والقصد ، وجدت طريقها إلى العضوية العاملة بمجمع اللغة العربية سنة ١٩٤٠ ثم اختير نائبا للرئيس سنة ١٩٦٠ ، وبعد أن توفى رئيس المجمع « أحمد لطفى السيد » اختير « الدكتور طه حسين » خلفا له سنة ١٩٦٣ ، وظل رئيسا للمجمع لعشر سنوات متصلة حتى توفى فى أكتوبر ١٩٧٣ .

وفى مجمع اللغة العربية أسهم فى كثير من لجانه ، وقدم عدة بحوث ودراسات واقتراحات . ومثل المجمع فى عدة مؤتمرات خارجية . وأهتم أكثر ما اهتم بمشكلات اللغة العربية وتيسير كتابتها .

لقد أصبح الدكتور طه حسين (الموقظ الأكبر للعقل العربى) على حد تعبير تلميذه « الدكتور عبد الرحمن بدوى» . ولم يكن من الغريب أن تترجم كتبه إلى عدة لغات أجنبية . . الإنجليزية والفرنسية والصينية والعبرية والروسية والفارسية والألمانية والإيطالية والمجرية والاردية . ونال جائزة الدولة التقديرية فى الآداب سنة ١٩٥٨ بل إنه أول من نال هذه الجائزة ، ومنح قلادة النيل سنة ١٩٦٥ ، ولهذا شيع جثمانه فى جنازة عسكرية مهيبة خرجت من الجامعة فى ٣٠ أكتوبر ١٩٧٣ .

ولقد استقبل « الدكتور طه حسين » ما حدث فى مصر يوم الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بارتياح كبير . وفى ٣ أغسطس سنة ١٩٥٢ يكتب من فندق بالاس تولى ايزاريو ـ بإيطاليا رسالة إلى صديقه « توفيق الحكيم » يطلق فيها على ما حدث عبارة (الثورة الرائعة) بعيدا عن تعقيدات فكرية ، ومتاهات حزبية . ولم يكن هذا التعبير معروفا لأحد حتى لأصحاب ٢٣ يوليو أنفسهم وبدأ الماركسيون استخدامه بعد أن أطلقه « طه حسين » بسنوات . كان رائدا فى ميادين كثيرة . . التعليم . . والتعليم الجامعى . . والنقد الأدبى . . ومجمع اللغة العربية . . وفى الصحافة . . وفى مواقف سياسية كثيرة . . وفى الثقافة . . إلى أن رحل وحسبه أنه نبت طيب لأرض طيبة .

الأسانيد :

١ ـ أنور الجندى . . الصحافة السياسية فى مصر .

٢ ـ طه حسين . . الأيام (٣ أجزاء) .

٣ ـ فتحى رضوان . . مجلة الثقافة ديسمبر ١٩٧٣ .

٤ ـ لمعى المطيعى . . مجلة الثقافة نوفمبر ١٩٧٤ .

٥ ـ د . محمد مهدى علام . . المجمعيون فى خمسين عاما .

عبد الرحمن الرافعى



صديقه الحميم لسنوات طويلة « محمد إبراهيم جمعة » قال .. إن الرافعى كثيرا ماكان يتساءل .. هل سيأتى من يكتب عنى؟ نعم .. جاء وسيجيء من كتب ويكتب عنك .. مقالات .. وكتبا .. ورسائل جامعية .. ولكن وأنت فى رحاب الله هل ترضى أو لا ترضى عنها؟ فتلك قضية أخرى ..

ونبدأ بأكثرها حدة .. كتب المرحوم « الدكتور وحيد رأفت » تعليقا على أحداث مارس ١٩٥٤ ، وتعليقا على موقف « عبد الرحمن الرافعى » المؤيد على طول الخط لمواقف عبد الناصر .. (وللأستاذ عبد الرحمن الرافعى وأمثاله من الكتاب والمؤرخين ان يتخذوا جانب السلطة بلا تحفظ ويتغنوا بكل مافى ذلك العهد ، ويحرقوا للسلطة البخور ، ويؤلهوا الحاكم الذى حولوه بخنوعهم وسكوتهم إلى طاغية ، فانهم قوم فقدوا الوعى فوجدوا حسنا ما ليس بالحسن ، وعميت أبصارهم عن رؤية السلبيات والسيئات ..).

والعبارات ليست أكثر حدة مما قال « عبد الرحمن الرافعى » فى أحمد عرابى وصحبه .. وفى كتابه عن (ثورة ١٩١٩) تحدث على استحياء عن (الملك فؤاد) وفتح النار على الوفد وقادته ، وفى ٢٤ فبراير ١٩٤٥ يقوم « محمودالعيسوى » وهو من شباب الإخوان المسلمين ويعمل محاميا فى مكتب « الأستاذ عبد الرحمن الرافعى » يقوم باغتيال « الدكتور أحمد ماهر » رئيس الوزراء ويعلق «عبد الرحمن الرافعى على الحادث .. فلا يذكر صلة محمود العيسوى بالعمل فى مكتبه من قريب أو بعيد ، ولايذكر صلة العيسوى بالحزب الوطنى ويذكر صفته على إنه (محام شاب متهوس يدعى محمود العيسوى) ثم يمضى « الرافعى » محاولا القاء المسئولية على الوفد والوفديين (.. ولكن الوفديين أثاروا النفوس على أحمد ماهر ، موهمين الناس انه يسعى للزج بالبلاد فى أتون

الحرب وإرسال المصريين إلى الخارج ليحاربوا فى ميادين القتال البعيدة . . وكان من أثر هذه الفتنة وقوع تلك الجناية الفظيعة التى ذهب ضحيتها زعيم من خيرة رجالات مصر وعلم من أعلام الجهاد . .) .

وهذا كلام سياسى حزبى يحاول ان يوقع بالحزب الذى لايميل إليه ، وليس كلام مؤرخ يشرح الظروف ويحلل المواقف ويسرد الوقائع كلها بأمانة ولعل هذه المقدمة تيسر علينا السبيل ونحن نتحدث عن مواقف « عبد الرحمن الرافعى » من نظام ٢٣ يوليو لأن أحداث تلك الفترة لم تزل قريبة إلى الأذهان . .

٢٣ يوليو ١٩٥٢

استقبل « عبد الرحمن الرافعى » نظام ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بقدر كبير من حسن الظن ووجدها فرصة مواتية ليعاود هجومه على الأحزاب السياسية ، ونعتها بأسوأ الأوصاف وطالب بالا تزيد على حزبين أو ثلاثة أحزاب . . وكان الحركة الدافعة لعناصر الحزب الوطنى سيما إنه كان سكرتيرا عاما للحزب منذ عام ١٩٣٢ حتى عام ١٩٤٦ ، ليواصل الحزب نشاطه فى ظل ظروف مواتية للحزب الوطنى وغير مواتية للأحزاب الأخرى وخاصة الوفد . . ولكنه فوجىء فى ٩ سبتمبر ١٩٥٢ بالاستاذ « فتحى رضوان » يتقدم بإخطار لإعلان (الحزب الوطنى الجديد) ووصل الأمر إلى القضاء على اعتبار أن « فتحى رضوان وزملاءه » مفصولون من الحزب الوطنى ٢٨ يناير ١٩٥٠ . . وكان قد حدث فى أواخر الحرب العالمية الثانية ان انشق عن جماعة (مصر الفتاة) فتحى رضوان . ونور الدين طراف ، ومصطفى المنزلاوى ، والدكتور زهير جرانه وانضموا إلى الحزب الوطنى ثم انشقوا على الحزب الوطنى فى أوائل عام ١٩٥٠ وشكلوا ماسموه (اللجنة العليا لشباب الحزب الوطنى) وأصدروا جريدة (اللواء الجديد) . وكانت مجموعة نشطة على عكس القيادات التقليدية للحزب الوطنى التى كان نشاطها الأساسى مقصورا على زيارة أضرحة الزعماء فى المناسبات الوطنية . غير أن النظام الجديد لم يعط الفرصة لا للحزب الوطنى القديم ولا للحزب الوطنى الجديد ، فشارك «الرافعى» فى إصدار جريدة (القاهرة) ، وفى يناير ١٩٥٣ اختير عضوا فى لجنة الدستور ، ولم يتم اختيار « الدكتور وحيد ر أفت» على الرغم من ان « فتحى رضوان » اتصل به فى هذا الشأن على اعتبار أن اختيار كفاءة دستورية قانونية مثل الدكتور وحيد رأفت أمر مفروغ منه ثم منح « عبد الرحمن الرافعى » جائزة الدولة التقديرية للعلوم الاجتماعية .

قـرار ١٩٥٤

وفى أحداث مارس ومقدمات تلك الأحداث راهن « الرافعى » على « جمال عبد الناصر » وانحاز إلى صفه انحياز الحزب السياسى . . وتنشيطا للذاكرة فإن مظاهر الخلاف بين « محمد نجيب » و« جمال عبد الناصر » قد بدأت تظهر على السطح خلال اشهر صيف ١٩٥٣ ، وتكلم « جمال عبد الناصر » مع « محمد حسنين هيكل وأحمد أبو الفتح ومصطفى أمين وعلى أمين » لعدم نشر احاديث محمد نجيب وصوره (راجع مذكرات عبد اللطيف بغدادى) وفى ١٢ يناير ١٩٥٤ صدر قرار بحل جمعية الإخوان المسلمين (لم تكن قد حلت مع حل الأحزاب عام ١٩٥٣) وجرت اعتقالات واسعة لعناصر الإخوان . وساد التخبط والارتباك والمناورات عناصر قيادة ٢٣ يوليو . . بين العودة إلى الجيش ، وبين الحياة النيابية ، وبين تشكيل حكومة مدنية إلى اقتراح بمد فترة الانتقال إلى عشر سنوات ، وإلى اقتراح بإعفاء محمد نجيب وإعادته دون سلطات . والصدام بين سلاح الفرسان والعناصر الأخرى من الضباط الأحرار . . إلى التظاهرات الشعبية الجارفة فى ٢٨ فبراير ١٩٥٤ . ثم تجدد الاعتقالات فى أوائل مارس للاخوان والشيوعيين والوفديين وأساتذة الجامعات والطلاب . ثم قرارات جديدة فى ٥ مارس بشىء من الانفراج ، وبعدها قرارات هامة فى ٢٥ مارس وبعدها النكوص على قرارات ٥ و٢٥ مارس وعودة الرقابة على الصحف ، وتظاهرات مدفوعة الأجر ضد الحرية وضد الحياة النيابية وضد مجلس الدولة ، وضد الدكتور السنهورى .

ونقابة المحامين المعروفة بمواقفها المساندة لحريات الشعب لم تكن بعيدة عن هذه الأحداث . واجتمعت الجمعية العمومية لنقابة المحامين بصفة غير عادية فى ٢٦ مارس ١٩٥٤ وقررت المطالبة بعودة الحياة النيابية ، وحل مجلس قيادة الثورة وإعلان حكومة مدنية والإفراج عن المعتقلين السياسيين كافة . وردت قيادة ٢٣ يوليو بحل مجلس نقابة المحامين فى ٢٢ ديسمبر ١٩٥٤ وتعيين « عبد الرحمن الرافعى » نقيبا وظل هذا المجلس المعين إلى أن أجريت انتخابات للنقابة فى ١٣ يونيه ١٩٥٨ اسفرت عن مجلس جديده برياسة « مصطفى البرادعى » .

وسنة ١٩٥٨ صدر قرار جمهورى بتعيين « عبد الرحمن الرافعى » عضوا بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية لمدة سنتين وتجدد التعيين مرة ثانية ، ومرة ثالثة حتى عام ١٩٦٤ . وخلال عضويته بالمجلس حصل على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية سنة ١٩٦١ .

موقف سياسي

وأسلوب الرافعي فى تأييده لنظام جمال عبد الناصر هو الأسلوب نفسه الذى اتبعه عندما انحاز فى دفاعه عن الدولة العثمانية وعن مصطفى كامل ، وعن محمد فريد ، أسلوب واحد يركز الأضواء على الإيجابيات ويحرص على إخفاء كامل لكل السلبيات . رفع مصطفى كامل ومحمد فريد إلى مرتبة القداسة مع إخفاء كامل لكل السلبيات أو مايشبه السلبيات .

هذا كان موقفه منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حتى اقعده المرض فى ٢٤ نوفمبر ١٩٦٤ ، وتوفى إلى رحمة الله فى ٣ ديسمبر ١٩٦٦ . رحب بقانون الإصلاح الزراعى الذى صدر فى سبتمبر ١٩٥٢ لأنه (أوجد طبقة من صغار الملاك تجعل المجتمع اقرب إلى التوازن الاجتماعى وأبعده عن تسرب الشيوعية) . ورأى فى بعض التشريعات العمالية (خطوة هامة لمنع تسرب الشيوعية إلى العمال) .

وتراه عام ١٩٥٤ يؤيد المفاوضات مع الإنجليز ويرحب باتفاقية الجلاء فى أكتوبر ١٩٥٤ تلك الاتفاقية التى كان ضمن شروطها رجوع الانجليز إذا ما تعرضت المنطقة إلى الخطر ، والتى اشترطت الإبقاء على عدد من الخبراء . وكانت هذه الشروط هى العقبة أمام حكومات ماقبل ١٩٥٢ فى مفاوضاتها مع الانجليز . . والأهم من هذا فان العقبة الرئيسية أمام تلك الحكومات هى مسألة السودان ، ولولا مسألة السودان لأمكن لأى حكومة الوصول إلى اتفاق للجلاء مع الانجليز وجاءت :حكومة ١٩٥٤ وفصلت المسألة السودانية . فكان من السهل الوصول إلى اتفاقية الجلاء . .

وعبد الرحمن الرافعى الذى بنى رصيده مع مدرسة الحزب الوطنى فى شعار (لامفاوضة إلا بعد الجلاء) والذى قال : (يجب أن يحل الجهاد والمطالبة محل المفاوضة . . المطالبة هى الحق الكامل . . أما المفاوضة فهى مساومة فى هذا الحق) واختفى هذا كله اثناء المفاوضات التى انتهت بإقرار الاتفاقية فى يوليو سنة ١٩٥٤ ، ثم الموافقة النهائية فى أكتوبر ١٩٥٤ ، ويصرح بأن الاتفاقية كسب كبير لمصر ، وأن الذين يعارضون هذه الاتفاقية غير مخلصين وهذا بذاته الذى فسر إلغاء معاهدة ١٩٣٦ فى ٨ أكتوبر ١٩٥١ (بان الوفد اراد ان يوارى سوءة اخفاقه فى المفاوضات وتساهله فيها بعمل يكون له دوى وفرقعة) .

وهو نفسه الذى هاجم أسلوب الكفاح المسلح (القوة المسلحة فى ذاتها ليست كل شىء . . وليست وسائل الكفاح فى العنف فقط وأنا لا أنادى به . .) وقال أيضا : (الصدام غير المسلح أقوى أثرا من أى سلاح ، ومن الوسائل المعروفة للصدام غير المسلح عدم التعاون مع المحتلين ومقاومتهم سلبيا . .) .

أما وقد اقبل « عبد الرحمن الرافعى » على نظام جمال عبد الناصر ، فمن الطبيعيأان يقبل النظام عليه . . فيتولى الرافعى رئاسة لجنة الآثار والتاريخ بالمجلس الأعلى للفنون والآداب لسنوات طويلة ، وصدر له (مقدمات ثورة يوليو ١٩٥٢) ثم (ثورة يوليو من ١٩٥٢ ـ ١٩٥٩) تركيزا على الإيجابيات وإخفاء للسلبيات والحديث على استحياء شديد عن « محمد نجيب » .

ويتم اتفاق بين « كمال الدين حسين » و« عبد الرحمن الرافعى » لنشر مختارات من أعمال الرافعى ، وبترتيب مقصود يتقدم اسم « الرافعى » على الساحة أسماء مؤرخين لهم دورهم وأساتذة تاريخ لايمكن إغفال ذكرهم أمثال : « سليم حسن ، ومحمد شفيق غربال ، وصبرى السربونى ، وعبد الحميد العبادى ، وعزيز سوريال عطية ، ومحمد فؤاد شكرى ، وحسن إبراهيم حسن ، وأحمد عزت عبد الكريم » مما جعل الكثيرين يطرحون منهج الرافعى فى كتابة التاريخ للمناقشة العلمية . . هل هو مؤرخ أم هو جامع للوقائع التاريخية ؟ هل هو مؤرخ له منهج خاص به أم هو سياسى حزبى يكتب التاريخ من زاوية الحزب الذى ينتمى إليه ؟ هل هو مؤرخ أم هو محام يدافع عن قضايا حزبية ؟

وكانت هناك فى هذا الشأن ملاحظات حادة :

فى فترة سابقة اعترض على أن يتولى « حافظ رمضان » منصبا وزاريا لأن الاشتراك فى الوزارة دعم للاحتلال ، وبالمنطق نفسه اعترض على اشتراك « محمد زكى على وعبد العزيز الصوفانى » فى وزارة إبراهيم عبد الهادى ، (من ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ حتى ٢٥ يوليو ١٩٤٩) وبعدها قبل هو نفسه الاشتراك وزيرا للتموين فى وزارة « حسين سرى » .

كتب عن (مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية) وحرص على إخفاء أية سلبيات من شأنها أن تخدش تلك الصورة . . حتى ماسجله محمد فريد فى مذكراته عن أسلوب مصطفى كامل . . (لا أدرى إن كان الخديو دفع له مساعدة فى هذا المشروع أم لا لأنه رحمه الله كان يخفى على كل مايتختص بالمساعدات المالية التى كان يأخذها سواء من الخديو ، أو من السلطان عبد الحميد) . .

كتب عن (محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية) وحرص على إخفاء أيةأخطاء سياسية أو شخصية . . وفى الوقت نفسه يندفع فى الهجوم على « أحمد عرابى » إلى حد اتهامه بالخيانة ، ويهاجم الشيخ محمد عبده ، ويشكك فى إخلاص قادة الوفد وفى وطنيتهم .

ويبقى السؤال هل هو مؤرخ له منهج علمى ؟

أصول الكتـابة التاريخية

معلومة خطيرة . . قبل الحديث عن مواصفات الكتابة التاريخية ، والشروط التى ذكرها الرافعى نفسه وهل التزم بها أم لم يلتزم؟ نسجل هنا معلومة خطيرة اوردها الباحث الممتاز «د . حمادة محمود أحمد إسماعيل » فى كتابه (صناعة تاريخ مصر الحديث ـ دراسة فى فكر عبد الرحمن الرافعى وهو جزءمن أطروحة الدكتوراه التى لم تنشر كاملة بعد ، وقد تفضل باهداء نسخة من الرسالة إلينا وعلى صفحة ٢٤٧ يشرح « الدكتور حماده إسماعيل » الأسلوب الفنى الذى يزعم أن الرافعى كان يلجأ إليه لإسقاط العبارات التى تشوه صورة من يدافع عنه عند نشر الوثائق الأصلية . . يقول د . حماده : (لتنفيذ هذه المهمة كان يقوم بتصوير الخطاب الأصلى ، ويقوم بعد ذلك بتقسيم النسخة المصورة إلى شرائح ، ويقوم برفع مايريد حذفه ثم يعيد ترتيب الشرائح ويقوم بإعادة التصوير من جديد) وفى الهوامش صفحة ٢٧٩ وأمام الهامش رقم ١٢٣ يقرر الدكتور حماده (عثرت بين أوراق الرافعى على إحدى هذه المراسلات وقد قسمت إلى شرائح وهذا يؤكد ماقلناه فى المتن) . انتهى ماقرره الدكتور حماده على مسئوليته الأدبية والتاريخية والقانونية ـ إذا لزم الأمر ـ ونأتى إلى ألاقيات الكتابة التاريخية كما قررها الرافعى نفسه : كان الرافعى على حق عندما قال : (المؤرخ يشبه أن يكون قاضيا فى الحوادث التى يؤرخها وعليه ان يقتبس من القاضى روح العدل) ونحن على حق عندما نقول أن روح العدل لاتعنى إخفاء سلبيات الدولة العثمانية والحزب الوطنى وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . ولاتعنى إخفاء إيجابيات أحمد عرابى والشيخ محمد عبده وسعد زغلول ومصطفى النحاس ، كان الرافعى على حق عندما قال :) لايجوز لمن يتصدى لكتابة التاريخ ان يدخل عنصر المجاملة فيما يكتب) ونحن على حق عندما نقول إن « الرافعى » جامل إلى أبعد الحدود مصطفى كامل ومحمد فريد وجمال عبد الناصر على حساب سعد زغلول ومصطفى النحاس حتى لتبدو كتاباته فى هذا الشأن تصفية حسابات مع الوفد وقادة الوفد .

لماذا الخصـومة ؟

عبد الرحمن الرافعى ابن مخلص للحزب الوطنى ، يميل حيث يميل ويكره حيث يكره وعندما بزغت قيادة جديدة للحركة الوطنية وقامت الثورة القومية الكبرى فى ٩ مارس ١٩١٩ واندهش لها « محمد فريد » وقادة الحزب الوطنى فى المنفى . . حدث نوع من التنسيق بين الحزب الوطنى والوفد داخل مصر . وانضم عبد الرحمن الرافعى وامين الرافعى إلى اللجنة المركزية للوفد . . وكان « عبد الرحمن الرافعى » ضمن مؤيدى نشر توكيل الأمة لسعد زغلول ، بل إنه كان ضمن مؤسسى لجنة الوفد بمديرية الدقهلية واختاره « سعد » ضمن الجهاز السرى برئاسة عبد الرحمن فهمى ولكن

طابع الاعتدال غلب عليه فانسحب من الجهاز السرى وانسحب من اللجنة المركزية ، وابتعد عن نشاط لجنة الوفد فى الدقهلية وقد لاحظ الدكتور حسين مؤنس فى دراساته عن ثورة ١٩١٩ أن « عبد الرحمن الرافعى » استنكر العمل الفدائى إبان الثورة إلى درجة انه عند تسجيل أحداث الثورة قدم لها بقوله (وإنا مع استنكارنا لمبدأ الاعتداء وحوادثه ـ نذكر فيما يلى تسجيلا للوقائع التاريخية) وفى حديثه عن ثورة ١٩١٩ القى عبد الرحمن الرافعى مسئولية انقسام الوفد بعد الثورة على « سعد زغلول » وهو متأثر فى ذلك بموقف « محمد على علوبه » والذى عمل الرافعى فى مكتبه . أما فوزه بدائرة (مركز المنصورة » فى انتخابات ١٩٢٤ على مرشح الوفد بصوت واحد فهى قصة طريفة . والذى حدث ان (لجنة الطلبة) فى الدقهلية ـ وهى لجنة وفدية ـ أيدت ترشيخ « عبد الرحمن الرافعى » ولكن الوفد رفض وأصدر قرارا بفصل جميع أعضاء لجنة الطلبة .

ولكن فى انتخابات ١٩٢٦ تم تصحيح هذه الأوضاع وطلب الرافعى ان يترك له الوفد الدائرة ولكن الوفد رفض ويذكر الرافعى أن عددا من زملائه الذين هزموا فى الانتخابات قد توفوا إثر الصدمة وانه شخصيا تأثر نفسيا من موقف الوفد الذى أدى إلى هزيمته .

ومن يومها وهو لايكتم عداءه للوفد الذى تسبب فى هزيمته .

مـن هـو ؟

فى ٨ فبراير ١٨٨٩ ولد « عبد الرحمن الرافعى » فى عطفة « أبو» داود بشارع درب الحصر حى الخليفة بالقاهرة . والده الشيخ «عبد اللطيف» من علماء الأزهر وتوفى والده فى ٢٤ يناير ١٩١٨ . أما والدته فهى السيدة « حميدة » كريمة الشيخ « محمود رضوان» من القاهرة وتوفيت فى ٢١ يوليو ١٨٩٣ وكان « عبد الرحمن » فى الرابعة من عمره وهو رابع أخوته الأشقاء « أمين واحمد وإبراهيم وعبد الرحمن » كان أمين الرافعى الذى أصبح صحفيا شهيرا يكبره بثلاث سنوات وقد توفى فى (٢٩ ديسمبر ١٩٢٧) أما أحمد وإبراهيم فقد توفيا فى فترة باكرة .

وفى الإسكندرية حيث نقل والده نال الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠١ ، وفى المنزل رقم ٥٨ شارع قصر رأس التين بالانفوشى فى هذا المنزل فى أحد أيام صيف ١٩٠١ كان أخوه أمين يجره فى قفص من جريد ودخل من يخبره بنجاحه فى الشهادة الابتدائية ولأول مرة فى حياته يرى اسمه منشورا فى (جريدة اللواء) وهى المرة الأولى أيضا التى يرى فيها (اللواء) فتدخل إلى رأسه وإلى وجدانه معا ويظل مخلصا لقادة الحزب الوطنى وللحزب الوطنى حتى آخر لحظة فى حياته .

وبعد ان تخرج فى الحقوق التحق بهيئة تحرير اللواء وحضر ندوات اللواء واستمع لأحاديث مصطفى كامل ومحمد فريد وأحمد لطفى وعمر لطفى وإبراهيم الهلباوى . وحضر ندوات نادى المدارس العليا ، وودعت البلاد « مصطفى كامل » إلى مثواه الأخير يوم ١٠ فبراير ١٩٠٨ واقيم

حفل تأبين فى ٢٠ مارس . وفى صباح ٢١ مارس ١٩٠٨ كان ظهور المقال الأول « للاستاذ عبد الرحمن افندى » وعلى مدى ٥٥ عاما امسك بالقلم ليكتب المقالات والرسائل لمحمد فريد وليكتب عن حقوق الشعب ونقابات التعاون الزراعية ، وتاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر، وعصر محمد على وعصر إسماعيل ، والثورة العرابية ومصطفى كامل ومحمد فريد ، ثورة سنة ١٩١٩ وفى أعقاب الثورة المصرية ، وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وكتابه الأخير عن « جمال الدين الأفغانى » الذى ظهر سن ١٩٦٧ بعد رحيله .

ماذا بقى للتاريخ ؟

الذين يعارضون « عبد الرحمن الرافعى » كثيرون ونحن منهم ، إلا أن معارضيه ومؤيديه لم يستطع أحد منهم ان يفلت من تأثير كتابات الرافعى التاريخية .

ومفردات تاريخية كثيرة أغفلها عن عمد أو عن غير عمد . . نعم . . ولكن سوف تظل المعطيات التى قدمها لأجيال الباحثين أهم المصادر فى تاريخنا الحديث .

إن تأثير « الرافعى » على الفكر التاريخى المصرى يشكل تحديا هائلا أمام المدارس المصرية السياسية المختلفة لأن الخلافات بين تلك المدارس ومدرسة الحزب الوطنى كبيرة وسوف يظل كذلك . بلغ من تأثير كتاباته التاريخية أن نسى الناس أنه كان محاميا ، أو أنه كان وزيرا أو أنه كان من أوائل الدعاة إلى التعاون أو انه كان نائبا فى مجلس النواب أو فى مجلس الشيوخ .

لقد بقى للتاريخ منه ما أراده هو عن عمد أن يبقى فبقيت (الكتابات التاريخية) لأنه كان يرى (إن التاريخ مدرسة للوطنية) ولكن الوطنية عند الرافعى هى (الحزب الوطنى ـ مصطفى كامل ومحمد فريد) وهى بالقطع ليست مصر كلها . وهو مانختلف معه من البداية إلى النهاية وهذا حقنا مع رجل عظيم من مصر العظيمة .

الأسانيد :

١ ـ بهاء الدين علوان . . عبد الرحمن الرافعى .
٢ ـ د . حمادة إسماعيل . . أطروحة للدكتوراه لم تنشر كاملة بعد ، تفضل وأهدى إلينا نسخة منها ـ ظهر منها جزء بعنوان دراسة فى فكر عبد الرحمن الرافعى .
٣ ـ صبرى أبو المجد . . أمين الرافعى .
٤ ـ عبد الرحمن الرافعى . . مذكراتى .
٥ ـ د . وحيد رأفت . . فصول من ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

عبد الرحمن الشرقاوى



كان هذا الاستفتاء الباكى وراء نعش الشرقاوى هو فصل الخطاب فى اعتراف الكل بمكانته ، الحكومة وقادتها ، الحزب الحاكم وكباره ، أحزاب المعارضة وزعماؤها ، زملاؤه فى الصحافة ، تلاميذه فى الثقافة والأدب ، رجال الدينين الإسلامى والمسيحى.. جاءوا يودعون الشرقاوى ويعتذرون له . . جاءوا يقولون ما قاله زميله وصديقه الوفى « عبد الوارث الدسوقى » يرحمنا الله . . ويرحم عبد الرحمن الشرقاوى الذى كان ـ فى العلم والأخلاق والجهاد ـ إماما . . مقبولا من الكل وانقل لكم الصورة كما وصفها « عبد الوارث » . . أرأيتم إلى الكاتب والمفكر الإسلامى الكبير خالد محمد خالد يترك سرير مرضه ، ويسارع إلى جنازة عبد الرحمن الشرقاوى يبكى ، ويحمل نعشه على كتفه رغم العلة وتقدم السن ! والشيخ الكبير الدكتور السعدى فرهود الرئيس السابق لجامعة الأزهر وهو يؤم صلاة الجنازة والدموع تملأ مأقيه ؟ والشيخ الورع الدكتور محمد الطيب النجار رئيس جامعة الأزهر الأسبق ، وهو يمشى فى الجنازة أسيفا وقد اخضلت دموع لحيته الوقور؟ والشيخ المجاهد الدكتور عد المنعم النمر ، وهو يصحب عبد الرحمن الشرقاوى إلى قبره وينزل معه إلى لحده يسويه بيديه وهو يبكى ؟ وكثيرون غيرهم من علماء الإسلام ورجال الدين المسيحى وكلهم حزين عليه . . حزن أم مات وحيدها فى حجرها . .

* * *

محمد مهدى الجواهرى الشاعر العراقى الكبير ، الذى كان رئيسا لاتحاد كتاب العراق ، ونقيبا للصحفيين ، ويقيم منذ فترة خارج العراق بين الاتحاد السوفييتى ودول أوروبا الشرقية وأحيانا سوريا . . محمد مهدى الجواهرى هذا ، فى فترة باكرة امتدح الملك « فيصل الثانى » بقصيدة مطلعها . .

ته يا ربيــع بزهـرك العطـر النـدى

وبصفـوك الزاهـى ربيـع المولـد

ونصدى للجواهرى شاعر ـ لم يحفظ التاريخ الحديث اسمه أو لم يردده ـ بقصيدة مطلعها ، ويعارضه فيها . .

صه يا رقيـع فمن شفيعـك فى غـد

فلقـد صـدأت وبان معـدنك الـردى

وكان « الجواهرى » كلما اتخذ موقفا مغايرا لموقف إحدى المجموعات السياسية فى العراق ، أعادوا على مسمعه أو إلى عينيه قصيدته فى مدح « الملك فيصل » وأخرجوا له ما يحفظونه فى الجعبة أو فى الجراب . . ويعيدون ويزيدون . . الجواهرى هو القائل فى مدح أمريكا .

أأمريـك يا بنـت كـولـومبـس

لحبـك وقـع علـى الأنـفس

وهو القائل فى مدح نورى السعيد . .

عليـك سـلام أيها البطـل الفـرد

تطالعك البشرى ويخدمك السعد

وانقسمت الحركة الثقافية بل الحركة السياسية بأسرها فى العراق حول (الخانة) التى يضعون فيها « الجواهرى » هل هى خانة الشعب أم خانة أعداء الشعب . . بيت واحد من قصيدة (الشهيد) للجواهرى كان يحسم الموقف . . ويصمت الجميع لأن الجماهير هى التى تردده

اتعـلم أم أنـت لا تعـلم

بأن جـراح الضحـايا فـم

وما حدث مع الجواهرى فى العراق حدث مثله مع « عبد الرحمن الشرقاوى » فى مصر مع فارق كبير هو أن الشرقاوى لم يمتدح الملك ، ولم يمتدح أمريكا ، ولم يمتدح قرين نورى السعيد . . إلا أنه كان له تاريخ طويل فى الخلاف مع فصائل كثيرة . . ومع هذا فان هذه الفصائل كافة أرسلت أرفع مندوبيها لوداع الشرقاوى فى رحلته الأخيرة .

الخلاف مع اليسار واليمين

وعلى امتداد نحو أربعين عاما أصبح وراء الشرقاوى مايمكن أن نطلق عليه (معارك الشرقاوى) وهى جزء لايتجزأ من تراثه الأدبى والفكرى . . ويمكن أن نقسم وجهات النظر الخلافية إلى قسمين ، القسم الأول . . بينه وبين رفاق الدرب اليسارى وهو فى حقيقته خلاف بين

فصائل اليسار ذاتها نتيجة لمعطيات جديدة على الساحة السياسية . القسم الثانى . . بينه وبين من أسماهم الصحفى الكبير « عبد الوارث الدسوقى » حملة التوكيلات والأقلام . . وذلك على صعيد دعوته إلى الإسلام الحق .

وإذا بدأنا بالقسم الثانى فاننى أترك الحديث للشيخ الدكتور « عبد المنعم النمر » ـ توسعت مداركه وقراءاته فى الإسلام وتاريخه ، وشده موقف أبى ذر الغفارى من المال وحقوق المواطنين وجد فيه ما يغذى نزوعه ودعوته لإنصاف المحرومين والمظلومين . . كما وجد فى القرآن ، وفيما كفله الإسلام لمجتمعه من تحقيق العدالة الاجتماعية فيه ، ما يمكن أن يكون بديلا لما جذبه إليه من شعارات الماركسية . . وأخرج للقراء بعد ذلك روائعه الإسلامية من تاريخ الأئمة ومواقفهم ، ثم أخيرا من تاريخ الراشدين بصورة مغايرة تماما للسرد التاريخى . . ولكنى مع ذلك لمست أن بعض من أعرفهم من علماء الأزهر لايزالون واقفين عندما عرفوه عن عبد الرحمن الشرقاوى فى مطلع حياته ، وتعاطفه مع اليساريين .

ونقترب من الصورة مع كلمات « عبد الوارث الدسوقى» على صعيد دعوته إلى العودة إلى الإسلام الحق كان طريقه مزروعا بالألغام محفوفا بالأعاصير راحوا يطرقون كل باب وبأيديهم خناجرهم المسمومة ، وفى قلوبهم ضغن وغل . . راحوا لشيخ الأزهر الراحل الإمام عبد الحليم محمود ليوغروا صدره ضد الشرقاوى قائلين له ، يا مولانا . . لم نكن نعلم أن الإمام الحسين شيوعى . .

ولكن عبد الرحمن يترك الفتنة تعربد حتى تسقط ، ويستمر فى الطريق الذى بدأه « محمد رسول الحرية » وختمه « الصديق أول الخلفاء » لايعبأ بمن كادوا ، ويأسى ويتألم لمن وقعوا فى الكمين ! عندما أثار قضية الثروة فى الإسلام ، وساق بصددها الأسانيد المعتبرة ، والأدلة المعتمدة من أئمة الإسلام الذين يرون رد فضول الأغنياء على الفقراء هبت عليه الرياح الصرصر العاتية تتهمه بالشيوعية فى هذه المرة ينحى عبد الرحمن الشرقاوى حلمه جانبا ويقول لهم ، أرجوكم جميعا أن تعودوا إلى تراثنا الخصيب . . ارجعوا إليه لتجدوا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد وضع قاعدة للعطاء . . لكل وسابقته . . لكل وبلائه . . لكل وحاجته . . وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : (ما اغتنى غنى إلا بفقر فقير)!! هما « عمر وعلى » شيوعيان اذن ؟ . . عودوا إلى الإسلام الحق ، تجدوه أكثر تقدما من كل الفلسفات البشرية . . أم أنكم ستسلبون الإسلام محاسنه لتضيفوها إلى الشيوعية؟ .

مثقف شجاع

والشرقاوى على امتداد مراحله الفكرية إذا صحت هذه التسمية كان مثقفا شجاعا على غير مايظن الكثيرون . . نلقاه منذ البداية فى (جماعة نشر الثقافة الحديثة) مع « سعيد خيال ، ومصطفى كامل منيب ، وأحمد رشدى صالح ، ونعمان عاشور ، وسعد مكاوى ، ومحمد إسماعيل محمد ، وأبو سيف يوسف ، وعلى الراعى ، وكانت تقف خلف الجماعة حلقة صغيرة من الماركسيين الأجانب والمتمصرين .

وهذه الحلقة الماركسية هى التى أصدرت مجلة (الفجر الجديد) ويقول « أحمد صادق سعد » فى كتابه (اليسار المصرى) على صفحتى ٥٠ ، ٥١ : (صدرت مجلة الفجر الجديد فى ١٥ مايو الصحيح ١٦ مايو) ١٩٤٥ كمجلة نصف شهرية ثم تحولت إلى أسبوعية بعد ذلك ، وتعاون فى التحرير معنا على الراعى ونعمان عاشور وعبد الرحمن الشرقاوى ثم تفرغ لها أبو سيف يوسف . . ومن مميزات الفجر الجديد أنها لم تكن مجلة فقط ، بل مركزا للجذب فقد اهتمت بنشر رسائل القراء والاتصال بهم : ويقدم لنا د. على شلش بيانا موجزا ودقيقا عن مجلة الفجر الجديد فى كتابه (دليل المجلات الأدبية) : تاريخ صدور العدد الأول ١٦ مايو ١٩٤٥ ، وتاريخ صدور العدد الأخير ١١ يوليو ١٩٤٦ (تاريخ حملة صدقى باشا) ورئيس التحرير . . أحمد رشدى صالح . . والكتاب : عبد الرحمن الشرقاوى ، لطيفة الزيات ، نور الشريف ، على الراعى ، زكى هاشم، سعد مكاوى ، نعمان عاشور ومحمد عبد المعز نصر ، يوسف الشارونى ، سعيد خيال ، صفية ربيع ،أبو سيف يوسف ، أنور شتا ، أسعد حليم ، محمد خليل قاسم ، صادق سعد ، عبد القادر القط ، محمد إسماعيل محمد ، عبد القادر التلمسانى ، عبد العزيز فهمى ، كمال عبد الحليم ، أنور المشرى ، أنور عبد الملك ، محمود الشنيطى ، لطفى عزوز ، عز الدين فوده . .) .

وفى كتابه (الصحافة اليسارية فى مصر) يكمل لنا « د . رفعت السعيد » الصورة : (لأن عدد محررى الفجر الجديد كان فى بداية الأمر محدودا جدا فقد اضطروا إلى أن يكتب الواحد منهم أكثر من مقال فى العدد الواحد ، واضطرهم ذلك إلى التوقيع فى أحيان كثيرة باسماء مستعارة . . فمثلا كتب « محمد إسماعيل محمد » باسم إسماعيل يحيى ، وكتب « أبو سيف يوسف » باسم رأفت يوسف ، وكتب « على الراعى » باسم على الكاتب ، وكتب « أحمد رشدى صالح » باسم أحمد سعيد) .

المهم أن « عبد الرحمن الشرقاوى » لمع منذ العدد الأول بقصيدة عنوانها ـ الفجر الجديد . . وقعها باسمه كسائر قصائده . . ومطلعها . .

يارفاق المجد قد عشنا إلى الآن حيارى
انها الحرية الكبرى . . جعلناها المنار

كان مثقفا شجاعا ونحسبه قد ظل هكذا فى كل ماكتب بعد ذلك لأن الشجاعة ليست مقصورة على مواجهة السلطان ولكنها أيضا فى مواجهة رفاق الدرب .

العمل الجبهوى

وشهدت الفترة الأخيرة من حياته خلافات سياسية كبيرة بينه وبين رفاق الدرب ، وكانت أكثرها حدة حول دعوته إلى (الجبهة) لمواجهة أزمات الوطن . .

وجرت سطور من الرفاق تحاول أن تنال منه . . قالوا إن دعوته إلى (الجبهة) تعود إلى أيام السادات سنة ١٩٧٩ ويسألون عما دار بينه وبين « الرئيس مبارك » وربطوا بين مقابلاته للرئيس وبين دعوته للجبهة . . وجرت السخرية من (الجبهة الشرقاوية) وليس أقسى على المثقف من التعريض بشرف كلمته ، وليس أقسى على المناضل من تشويه تاريخه . ووجدت نفسى مضطرا إلى الكلام حتى أدفع عن « الرجل » الاتهام بالخوف أو التواطؤ . . واضطررت إلى إخراج بعض ماهو مكتوم فى الصدور ، والذى أحرص على كتمانه مادام أصحابه أحياء أو مادمت حيا . . ونشرت مقالا فى جريدة الأخبار فى ٢٥ سبتمبر ١٩٨٥ بعنوان (اذهبوا إلى الأزهر وأعلنوا الجبهة) . . وجاء فى مقالى ذاك :

أعود إلى بدايات ثورة ٢٣ يوليو والخوف على الديمقراطية وعلى حرية الكلمة ، وعلى حقوق الإنسان المصرى . . كنا ثلاثة . . عبد الرحمن الشرقاوى ، ومحمد إسماعيل محمد وكاتب هذه السطور . . فى بيت محمد إسماعيل محمد وضعنا الخطوط العريضة لجبهة تقف فى وجه الاستبداد الزاحف ، وفى وجه الديكتاتورية . . كانت هذه الجبهة التى دعونا إليها موجهة فى الأساس ضد السلطان . وكان الشرقاوى بذاته هو واضع عباراتها المحددة وليست العامة . .) .

كانت هذه سطورا من مقالى الذى اضطررت إليه ، وأعود اليوم فأكمل مالم اكتبه . . كانت مهمة الشرقاوى أن يجذب إلى هذا العمل السرى الموجه ضد سلطان ذلك الزمان عددا من الشخصيان العامة ، وكانت مهمة « محمد إسماعيل محمد » الحوار مع المنظمات اليسارية السرية ، وكان دورى هو الحوار مع الأصدقاء من شباب الوفد . . وبدأ العمل وأصدرنا نشرة باسم (الجبهة) . وفزعت أجهزة السلطان ولكنها لم تصل إلى الشرقاوى ولا إلى محمد إسماعيل . . وفى صيف ١٩٥٣ دخلت أنا السجن لأقضى فيه ٥ سنوات . وطويت السر فى صدرى إلى أن حاول

البعض أن يمس الشرقاوى فى شرفه الوطنى فكتبت ما كتبت بعد مضى ٣٢ سنة وخشيت أن أكون قد سببت حرجا للشرقاوى إلى أن جاءنى صوته شاكرا ويرفع عنى الحرج فيما اضطررت إليه . . وأظن أن ما يتعرض لعمل سرى فى عهد عبد الناصر وضد نظامه ليس من السهل أن يتهم بالتواطؤ فى عهود أخرى .

الرفاق والفتى مهران

وكان عاما ١٩٥٣ ، ١٩٥٤ هما عاما الأزمة بين الثورة وقادتها من جانب ، وبين الجماهير الشعبية من جانب آخر . . فالأحزاب قد حلت ، والدستور قد ألغى . والمعتقلات تستوعب غالبية القوى السياسية ، والصراعات قد تفجرت داخل صفوف الثوار أنفسهم . . ولكن تغيرات أخرى تحت السطح لايتبينها الكثيرون . . عبد الناصر يشتد فى العداء مع القيادات العربية الرجعية ، وتقارب خفى يحدث مع الصين الشعبية . ونفور بين مصر وبين الدول العربية التى تدعو لحلف بغداد . . وإذا بعبد الناصر فى أبريل من عام ١٩٥٥ مع نهرو وتيتو فى باندونج ودعوة إلى المبادئ الخمسة وحركة إلى حياد إيجابى . . وإذا بالشرقاوى يفاجئ الجميع بكتاباته ذات الأسلوب الرفيع عن السلام وباندونج . . ويقف إلى جانبه البعض فى حرص وحذر ويهاجمه الآخرون فى بذاءة وقحة . ومن يراجع اليوم الأسانيد التى يسوقها هؤلاء الذين تحولوا إلى الدفاع بحماسة عن « عبد الناصر » فإذا هى تلك التى تحدث بها الشرقاوى منذ عشرين عاما . . وهاجموه بسببها !

وبفعل التغيرات الموضوعية والذاتية داخل المجتمع وداخل فئات الثورة نفسها اتجهت الثورة إلى مايشبه سحق القوى السياسية الأخرى والقضاء عليها ليتأكد لقيادة الثورة الحكم المطلق . . كان ذلك فى منتصف الستينات . . وظهرت مسرحيته (الفتى مهران) وإذا برفاق الأمس ينبهون الثورة وأجهزتها إلى إيحاءات يلقى بها الشرقاوى فى أعماله الأدبية ، وذلك على اعتبار أن الشرقاوى لم يدخل فى الحلف الجديد بين الفصائل الماركسية التى حلت نفسها وبين تنظيم الاتحاد الاشتراكى لدعم ما أسموه التنظيم الواحد للثورة .

وكان من الطبيعى جدا ان يقف « الشرقاوى » مع السادات فى مايو ١٩٧١ كما وقفت معه قطاعات عديدة من الشعب التى وجدت فى الصراع بين السادات وبين أجهزة عبد الناصر فرصة للتخلص ـ ولو إلى حين ـ من التنظيم الواحد ومن عناصر القهر .

واترك له هذه السطور، من هو ؟ يقدم نفسه . . كما جاءت فى رائعته (من أب مصرى إلى الرئيس ترومان) على اننى قد أطلت الحديث ولم تدر ياسيدى من أنا ولكن أنا . . أنا من أنا ؟

ولدت لعشرين عاما مضت على مطلع القرن ياسيدى .

ولما كبرت لبست الحذاء ووليت وجهى إلى القاهرة .

فأبصرت من تحت ثقل السلاح وجوههم الجهمة الجائرة

فتصرخ ويلى من الانجليز

وندرس (جغرافيا) ذات عام ، ونعرف مناخ الدول وألمح (أطلس) دولة من فوقها جمرة تشتعل ولمارجعت إلى قريتى سألت أبى (من هم البلشفيك : ؟ ولكننى رغم طول الحديث ووعثائة لم أقل من أكون .

ولست بشىء جليل الخطر !

فدعنى أقل لك إنى أب . . أب ليس غير ولى طفلة كائتلاف الصباح .

الأسانيد :

١ ـ أحمد صادق سعد . . اليسار المصرى (٤٥ ـ ١٩٤٦) .

٢ ـ جلال السيد . . جريدة الجمهورية ١١/ ١١/ ١٩٨٧ .

٣ ـ د . رفعت السعيد . . الصحافة اليسارية فى مصر .

٤ ـ د . عبد المنعم النمر . . جريدة الأخبار ١٥/ ١١/ ١٩٨٧ .

٥ ـ عبد الوارث الدسوقى . . جريدة الأخبار ١٣/ ١١/ ١٩٨٧ .

٦ ـ د . على شلش . . دليل المجلات الأدبية .

٧ ـ مصطفى عبد الغنى . . الشرقاوى متمردا .

عبد الرحمن فهمى



دار الأدباء ١٠٤ شارع قصر العينى ، على يمين القادم من ميدان التحرير . . وإلى يسار الداخل إلى الدار باب صغير أسفل المبنى يؤدى إلى دور سفلى أو (البدروم) كان أيام الأديب الراحل « يوسف السباعى » مؤثثا بأسلوب يليق بأدباء مصر وبضيوفهم من الأدباء العرب والأجانب .

فى هذا البدروم المؤثث بطريقة فاخرة كان أدباء مصر من شعراء وروائيين وكتاب القصة والمسرحية ، ومن نقاد ومفكرين ومثقفين . . كانوا يلتقون ويثرثرون ويختلفون ويتفقون وترتفع أصواتهم ويهمسون ويتجاذبون أطراف الحديث من كل بلد وعن كل أديب ، وعن كل أدب ، ومن كل عصر . . وفى يد كل منا كتاب جديد أو مشروع كتاب أو مجلة أو مشروع مقال . . وكل منا يظن أنه أتى بما لم يأت به الأوائل . هكذا كان الحال ، قبل أن ينتقل النشاط إلى مقر اتحاد الكتاب فى ١١ شارع حسن صبرى بالزمالك ، كان السامر ينعقد مع بداية المساء وينفض عندما ينتصف الليل أو يكاد .

فى هذا المبنى ١٠٤ شارع قصر العينى بالقاهرة . . كان شباب فى مصر منذ حوالى ثلاثة أرباع القرن يدخلون متسترين بالظلام ، ويدلفون صامتين إلى البدروم ، ويتحدثون هامسين إلى أن يهبط إليهم من الأدوار العليا رجل يقيم هو وأسرته وأولاده ـ رجل قال عنه سعد زغلول بالحرف الواحد «عبد الرحمن فهمى رجل كبير فى مركزه الماضى والحاضر ، وهو فى طليعة الرجال الأكفاء العاملين فى مصر ، وهو المنظم لسير الحركة الوطنية والمنفذ لرغباتنا وقراراتنا بصفته السكرتير العام لهيئة الوفد المركزية والقبض عليه أن هو إلا طعنة بريطانية تشل الحركة الوطنية فى مصر . .

الجماعات السـرية

وفى الحديقة الصغيرة خلف البيت ، وفى طرقاته الخارجية وممراته كان اللقاء الطبيعى لأخطر جهاز سرى للوفد ولثورة ١٩١٩ كانت الجماعات السرية تجتمع فى البدروم ، وفى طرقات الفناء الخارجى يلعب ويجرى ويصرخ ويتشاجر أولاده . . كمال فهمى (المرحوم مهندس) ومراد فهمى (المرحوم والذى أصبح وزيرا للأشغال بعد ٢٣ يوليو ومحيى الدين فهمى (المرحوم) الذى عمل سكرتيرا عاما لمجلس الوزراء فى وزارة من وزارات ابن عمه « على ماهر » قبل ٢٣ يوليو . . وأصغرهم الزميل والصديق « صلاح فهمى » المدير العام الآن بالجهاز المركزى للمحاسبات .

الأولاد وأقرانهم يلعبون خارج الدار وفى الداخل يضع « عبد الرحمن فهمى » أسس أخطر جهاز لمخابرات الثورة ، ويجتمع بكل جماعة سرية على حدة ، وكل جماعة لا تعرف الجماعة الأخرى . . وعرف « عبد الرحمن فهمى » هو وابن أخيه « أحمد ماهر » أسلوب الكتابة بالحبر السرى . . وفى هذا البيت الوطنى التقى أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى وإبراهيم عبد الهادى والشيخ القاياتى وأصغرهم كان الشيخ عبد اللطيف دزاز . . ثم الشاب القبطى « عريان يوسف سعد » وله حكاية يجدر ان نحكيها لشباب مصر هذه الأيام .

فى ٢١ نوفمبر ١٩١٩ أسندت رئاسة الوزارة إلى « يوسف باشا وهبة » وهو من القبط وكان وزيرا فى وزارة محمد سعيد المستقيلة ، وقد اختار الإنجليز هذا القبطى رئيسا للوزارة بهدف شق الصف الوطنى بقيادة الوفد ، ولكن قومة القبط العنيفة الشرسة ضد يوسف وهبة أفسدت مخطط أعداء الوطن ، وعقد الأقباط اجتماعا بالكنيسة الكبرى ، وخطب فيهم « القمص سرجيوس وتوفيق حبيب » وأرسل المجتمعون برقية ليوسف وهبة (الطائفة القبطية تحتج بشدة على شائعة قبولكم الوزارة ، اذ هو قبول للحماية ، ولمناقشة لجنة ملنر ، وهذا يخالف ما أجمعت عليه الأمة المصرية . . نستحلفكم بالوطن المقدس وبذكرى أجدادنا العظام أن تمتنعوا عن قبول هذا المنصب الشائن) .

وهنا يتقدم الوطنى العظيم « عبد الرحمن فهمى » وقد ذهب إلى الكنيسة فى ٢٣ نوفمبر يشارك الأقباط فى تألمهم ويقول إنه إذا وجد بين الأقباط خائن قبل الوزارة ، فيوجد سبعة من المسلمين اشتركوا معه فى الوزارة . . وإنه لن يحدث شقاق بين المسلمين والأقباط لسبب قبول « يوسف وهبة» تشكيل الوزارة .

وهنا أيضا يتقدم الشاب القبطى عضو الجهاز السرى الذى يرأسه « عبد الرحمن فهمى » يتقدم « عريان يوسف سعد» بن «يوسف بك سعد » من أقباط ميت غمر ويتربص فى مقهى (ريش)

فى شارع سليمان باشا ، يتربص لسيارة « يوسف وهبه» ويلقى على موكبه قنبلتين انفجرتا وأخطأتاه، ويقبض على الشاب القبطى وهو يهتف (يحيا الوطن) ولم يتكلم « عريان » بكلمة واحدة وان كان البحث قد كشف عن شريكين له هما « تادرس المنقبادى وجورج شحاته » وحكم على « عريان » بالأشغال الشاقة عشر سنوات . وقد تطوع « عريان » لاغتيال « يوسف وهبة» حتى لايساء استخدام الحادث ان أقدم عليه وطنى مسلم وهو أمر وارد ازاء الخروج على الصف الوطنى بغض النظر عن الانتماء الدينى ، رحم الله رجال زمان ، ورحم الله شباب زمان وحفظ الله أرض الكنانة من كل سوء .

ضرب التنظيم السرى

ونعود إلى أول يوليو ١٩٢٠ ، وسعد باشا وعدد من أعضاء الوفد فى لندن للمفاوضات مع «ملنر » وتصل برقية إلى سعد باشا من « مصطفى النحاس » بالقاهرة تحمل أنباء القبض على «عبد الرحمن فهمى بك » السكرتير العام للجنة الوفد المركزية والشخصية القوية الممتازة المنظمة للحركة الوطنية فى مصر .

ويقول « محمد كامل سليم » سكرتير « سعد زغلول » وقع الخبر كالصاعقة على « الرئيس سعد» وانتشر فى جو حجرة الاجتماعات غضب وغيظ وسخط . . وبعد قليل وردت برقية أخرى تحمل أخبار القبض على عدد من معاونى « عبد الرحمن فهمى » من الشباب .

إبراهيم عبد الهادى طالب الحقوق ، ومحمد عبد الرحمن الجديلى خريج مدرسة القضاء الشرعى ، عبد الحليم عابدين طالب حقوق ، على هنداوى طالب بالأزهر ، حسنى الشنتناوى طالب ثانوى ، توفيق صليب طالب بمدرسة الأقباط ، محمد حلمى الجيار طالب طب ، وكامل أحمد ثابت خريج الحقوق ، وكامل جرجس عبد الشهيد طالب بالحقوق ، ومحمود عبد السلام مدرس ، ومحمد إبراهيم سليمان طالب بمعهد الإسكندرية ، وياقوت عبد النبى ، وعبد العزيز حسن هندى الطالبين فى الثانوى، وقرياقص ميخائيل صحفى ، ومحمد حسن البشبيشى المحامى ، ومحمد المصيلحى طالب بالجامع الأحمدى ، وعازر غبريال ، وناشد غبريال ، وأنيس سليمان عامل بالسكة الحديدية ، وصالح شلبى ، ومحمد الميرغنى النجار ، وحافظ محمود ومنير جرجس عبد الشهيد طالب بمدرسة الأقباط ، ومحمد سامى سكرتير الأمير محمد داود ، ومحمد لطفى المسلمى » .

ورحم الله من رحل من هؤلاء الأبطال ، وأمد الله فى عمر من يكون باقيا منهم على قيد

الحياة . . ودعونا نتأمل هذه الأسماء . . من نعرف منهم ، وما أخبارهم . . أنا شخصيا وجيلى كله بالطبع عرف إبراهيم عبد الهادى (رحمه الله) وقد وصل إلى منصب رئاسة الوزارة . . وقرأنا عن «توفيق صليب » والد زميلنا الصحفى « سمير توفيق » بالأخبار ، وسمعنا عن « قرياقص ميخائيل » الصحفى الذى استقر به المقام فى لندن ومات هناك . . أكثر من هؤلاء لا أعرف . . ولكن ماذا يضير هؤلاء الأبطال الوطنيين إذا كنت أعرف أو لا أعرف . . الله يعرفهم أبطالا . . وسعد باشا كان يعرفهم كزعيم لهذه الأمة وعبد الرحمن فهمى كان يعرفهم عناصر صلبة فى كتائبه السرية .

وسكت الأعضاء وكأن على رؤوسهم الطير ، ثم كان أولهم فى الكلام « حمد الباسل » الذى قال : « إن الرئيس على حق فيما يرى ويشعر به . ولكنه يرى قبل اتخاذ أى قرار أن يتفضل عدلى باشا فيقابل ملنر ويفهم الموقف جيدا » .

وقال عدلى . . يحسن التريث قليلا فقد يأتى الغد بجديد ، وقال أحمد لطفى السيد وعلى ماهر ومحمد على علوبة ومحمد محمود والمكباتى وعبد العزيز فهمى . . قالوا إن الوفد وصل إلى مرحلة دقيقة نهائية فى المفاوضات ويحسن التريث وعدم قطعها وقال عدلى إن ملنر يجب أن يأخذ الزمن الكافى ليصلح ما إفسده غيره !

وقال « سعد » إن ملنر من غير شك يعرف كل شىء حتى قبل ان يقع القبض فى أول يوليو وقال « محمد محمود » إن السياسة تقضى بالمجاملة وحسن المعاملة . وقال له سعد لا أقبل أن تكون ناصحى بطريقة عامة . . وضح ما تريد . . قال محمد محمود . . كلا . . هذه فكرة عامة طرأت على .

وقال « سعد » بعد انصراف الجميع : لا يتأتى لضعيف أن يبث روح الثورة . . لقد ضاق صدرى من أحوال هؤلاء الذين قضت الظروف القاسية أن يكونوا زملاء لى فى عمل لا هم يليقون به ولا لهم قابلية للقيام به فضلا عما عندهم من غرور عجيب . .

ويذكر التاريخ ان عدلى ، وعبد العزيز فهمى ، ومحمد محمود ، وأحمد لطفى السيد ، وعلى ماهر ، ومحمد على علوبة ، كل الذين نصحوا « سعدا » بالتريث وبالمجاملة وبحسن المعاملة ، وبعدم قطع المفاوضات احتجاجا على اعتقال عبد الرحمن فهمى وأخوته هم جميعا الذين خرجوا على « سعد » وانقسموا على الوفد بعد ذلك ، ورفعوا شعار المحاسنة والملاينة .

صحيفة الشـرف

وبدأت محاكمة « عبد الرحمن فهمى » وزملائه يوم الثلاثاء ۲۰ يوليو ۱۹۲۰ بتهمة انشاء جمعية سرية باسم (الانتقام) تعمل على خلع السلطان « أحمد فؤاد » وفى واقع الأمر كان الإنجليز يخشون دور عبد الرحمن فهمى فى تحريك ثورة جديدة بعد فشل مفاوضات الوفد مع « ملنر » فى لندن ، وانتهت المحاكمة فى ٦ أكتوبر ۱۹۲۰ « ومن أبرز المحامين المصريين الذين دافعوا عن عبدالرحمن ومجموعته «مصطفى النحاس بك » وكامل البندارى ، وتوفيق دوس ، وأمين يوسف» .

وأصدرت المحكمة أحكامها بالإعدام على « عبد الرحمن وحامد محمد المليجى ، ومحمود عبد السلام ، ومحمد يوسف ، ومحمد حسن البشبيشى ، ومحمد لطفى المسلمى ، وعلى هنداوى ثم خفف الحكم إلى السجن ١٥ سنة » .

وصدرت أحكام بالسجن لمدد مختلفة على « حسن الشتناوى ، وتوفيق صليب ، وإبراهيم عبد الهادى ، وكامل جرجس عبد الشهيد وعبد الحليم أحمد عابدين ، ومحمد إبراهيم سليمان ، ومحمد عبد الرحمن الجديلى ، وصالح حسن شلبى ، وحافظ محمد عواد ، وعازر غبريال ، ومحمد المصيلحى ، ومحمد سامى ، وياقوت عبد النبى وعبد العزيز هنداوى ، ومحمد حلمى الجيار » طيب الله ثرى من رحل من هؤلاء الأبطال وأمد الله فى عمر من لم يزل منهم على قيد الحياة .

وفى عهد حكومة الشعب ، أول حكومة وفدية برئاسة « سعد زغلول » يناير ١٩٢٤ صدر قانون بالعفو عن هؤلاء الأبطال .

ويبدو أن العلاقة بين « عبد الرحمن فهمى » و«مصطفى النحاس » كانت وثيقة فى تلك الفترة . . فيسجل عبد الرحمن فى مذكراته ـ الكراسة الأولى ص ٢٢» :

(لما خرج عضوا الحزب الوطنى الأستاذان محمد زكى على بك ومصطفى الشوربجى غاضبين . . يقصد من اجتماع لهما مع سعد باشا ـ عرضت على سعادة زغلول باشا بان المصلحة تقضى بأن يكون الحزب الوطنى ممثلا فى الوفد المصرى وقلت له . . أعرف شابين معتدلين من هذا الحزب هما ١ ـ مصطفى بك النحاس القاضى الأهلى . ٢ ـ الدكتور حافظ بك عفيفى طبيب جمعية رعاية الطفل فاستدعاهما سعد باشا وبعد أن أنس فيهما خيرا اجتمع الوفد المصرى وقرر ضمهما إليه ورقما ١ ، ٢ وردا هكذا بالمذكرات .

مثال آخر . . ملف ٧ ص ٤٣٢ . . (ظلت المحكمة العسكرية تنعقد منذ ٢٣ مايو ١٩١٩ وحكمت بالإعدام على كل من أمين عبد القادر ، وعبد السيد شحاته ، وعبد الله أبو زيد ،

وبالأشغال الشاقة المؤبدة على أمين الريدى ، وبالسجن ١٥ سنة على بدوى الديب) وكانت هذه الأحكام بسبب الأحداث التى وقعت فى الواسطى وقتل فيها أحد الموظفين الانجليز « أرثر سميث» .

الثائر دائما

عبد الرحمن فهمى الضباط بالجيش المصرى بمنطق ذلك الزمان شارك فى الحملة التى قادها «كتشنر » القائد العام للجيش المصرى سنة ١٨٩٨ إلى السودان وظلت له علاقات بقادة الحركة الوطنية السودانية تدعمت بعد ثورة ١٩١٩ .

وعمل مديرا للجيزة سنة١٩١١ ولأعماله الوطنية المبكرة أصر مستشار الداخلية الانجليزى على إبعاده عن مديرية الجيزة فنقل إلى (وكالة الأوقاف) فى أواخر سنة ١٩١١ وكانت الأوقاف تابعة للخديو عباس فوقع الصدام بين الخديو وعبد الرحمن فهمى فأصدر الخديوى عباس قرارا باحالة «عبد الرحمن فهمى » إلى المعاش فى ١٩١٣ لأنه وقف فى وجه السراى التى أرادت الاستيلاء على أرض الأوقاف فى « المطاعنة » .

وقد كتب مذكراته بخط واضح منسق وجميل أيضا ، والباحث لا يجد صعوبة فى مطالعته على عكس ما عليه الحال فى مذكرات سعد . .

وفى يوم الأربعاء ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ قامت مجموعة من الشباب باغتيال « السردار » سيرلى ستاك واتهم فى هذا الحادث « عبد الفتاح عنايت ، وعبد الحميد عنايت ، وإبراهيم موسى ، ومحمود راشد ، وراغب حسن ، وعلى إبراهيم ، وشفيق منصور ومحمود إسماعيل» وكانت الأنظار قد اتجهت إلى « عبد الرحمن فهمى » فأعيد القاء القبض عليه مع آخرين ولكن لم تثبت أية صلة له بالحادث .

وإذا كانت المذكرات تعد من ناحية التقويم العلمى (يوميات سياسية) فإنها لدقتها ذات فائدة تاريخية كبرى بالنسبة للمرحلة الثورية ودور الفئات المختلفة فى الثورة . . ولم يغفل تسجيل دور المرأة المصرية فى الحركة الوطنية . . ودور العمال ودور الطلبة .

وهو بكل المقاييس أهم من سجل وقائع ثورة ١٩١٩ . . وكانت حياته كما قلنا من قبل سلسلة متصلة من المواقف المناضلة .

والرواية الراجحة تقول إن « عبد الرحمن فهمى » ولد بالقاهرة فى ٣٠ مارس ١٨٧٠ ، وتخرج فى

المدرسة الحربية سنة ۱۸۸۸ وعمل ياورا لوزير الحربية « مصطفى فهمى باشا » ثم نقل إلى خدمة البوليس سنة ۱۹۰۱ ، وكما ذكرنا من قبل عمل مديرا للجيزة سنة ۱۹۱۱ ، ولصدامه مع الخديو صدر قرار باحالته إلى المعاش مبكرا جدا سنة ۱۹۱۳ . . وحسب رواية ابنه الصديق « صلاح فهمى » فإن عبد الرحمن فهمى توفى إلى رحمة الله فى ۱۳ يوليو سنة ١٩٤٦ .

والراجح ان « عبد الرحمن فهمى » كان متأثرا بموقف « سعد زغلول » و« أحمد فتحى زغلول » المساند لدعوة « قاسم أمين » إلى أن يكون للمرأة دور فى تقدم البلاد ونهضتها ، وهو الرأى الذى كان يخالفه « مصطفى كامل » وفريق كبير معه .

والراجح أيضا أن جمعياته السرية لم يكن ضمن أعضائها نساء . . ولكنه فى مذكراته سجل دور المرأة فى الحركة الوطنية التى كان يقودها « سعد باشا » وفى تقريره الذى قدمه إلى الوفد فى ١٧ يناير ١٩٢٠ يقول : (قامت بعض النساء المصريات بعد ظهر أمس بمظاهرة لطيفة قامت من ميدان المحطة إلى لوكاندة شبرد . وهناك هتفن لسينوت حنا بك المقيم بها وللوفد المصرى ورئيسه وللاستقلال التام ولجريدة مصر . ولما وقع نظر السيدات على بعض الضباط الانجليز أخرجت كل واحدة من تحت إزارها علما مصريا وصحن بأعلى أصواتهن . . تحيا مصر حرة مستقلة ، يحيا الاستقلال التام ، يحيا الوفد المصرى ، يحيا سعد باشا زغلول . . يسقط ملنر ، لتخسف الأرض بملنر . . وكانت المظاهرة على الأقدام

سعد وعناصر المهادنة

وقبل أن نتحدث عن قضية البطل « عبد الرحمن فهمى » وعن معاونيه من الجماعات الوطنية السرية . . يجدر أن تعرف تأثير هذه القضية على أعضاء الوفد فى لندن . .

كان أشد الناس غضبا وسخطا وحزنا وغيظا وانفعالا نفسيا عنيفا هو الرئيس « سعد زغلول » والأعضاء يحاولون تهدئته وهو لايهدأ بل يزيد انفعالا ويقول « لابد من قطع المفاوضات فورا احتجاجا » ولكن اخوانه ينصحونه بالتريث والانتظار حتى تنجلى السحابة ويعرف الوفد مزيدا من المعلومات .

ويصرخ سعد باشا . . إن الانجليز يريدون أن يذكرونا ونحن فى لندن أنهم مسيطرون على مصر سيطرة تامة . . إن الانجليز يريدون أن يفهموا المصريين عامة والوفد خاصة أنهم لا يكترثون بهم ولايعبئون بغضبهم أو رضاهم . . إن الانجليز يريدون التأثير على سير المفاوضات .

الرئيس سعد مدرك لأسلوب الانجليز ومدرك أيضا لقيمة رجاله المعاونين له وفى مقدمتهم «عبد الرحمن فهمى » .

وفى ٢ يوليو ذهب « سعد وعدلى » لمقابلة « ملنر » وكان الرئيس متجهما ثم قال لملنر . . ما هذا الذى ترتكبونه فى مصر ؟ . . ماذا لديك من معلومات ؟

وقال ملنر . . إنه يجهل كل شىء وإنه أسرع بإرسال برقية إلى اللنبى يطلب منه التفصيلات الكافية (ملنر كاذب فى هذا الذى قال) .

وفى ١١ يوليو دعا الرئيس سعد أعضاء الوفد للاجتماع به فى الساعة ١١ صباحا فحضروا جميعا وحضر معهم عدلى ، وقال الرئيس إنه تلقى برقية من « مصطفى النحاس» من القاهرة عن الإجراءات التعسفية القاسية التى اتخذتها السلطات العسكرية البريطانية ضد « عبد الرحمن فهمى» وإخوانه . وإن النحاس وزملاءه المحامين منعوا من مقابلة المتهمين المسجونين سجنا انفراديا ، واقترح « سعد باشا » ان تقطع المحادثات مع لجنة ملنر والعودة فورا إلى باريس .

وكان « مصطفى النحاس » وعدد من الشباب الوطنى قد سعوا إلى مقابلة « سعد باشا » يحدثونه فى قيادة الحركة الوطنية ولكن الزعيم كان حذرا فى حديثه معهم فتوجهوا إلى عبد العزيز باشا فهمى » ليبحث « سعد باشا » على قيادة الحركة ، ولما أطمأن « عبد العزيز باشا » لهم أفصح لهم بما يطمئنهم وبأن « سعد باشا » يعد فعلا لهذا الأمر عدته ، وأوصاهم بالكتمان الشديد . . وبعدها كانت مقابلة سعد وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى لممثل الاحتلال الانجليزى فى ١٣ نوفمبر ١٩١٧ ، كان « سعد » قد رأى « مصطفى النحاس » من قبل فكانت مهمة « عبد الرحمن فهمى » سهلة فى تزكيته للانضمام للوفد .

المذكرات

وعبد الرحمن فهمى لايشفى غليل الباحث حول (الجماعة السرية) وأعضائها وأعمالها فى مذكراته التى تقع فى ٤٣ ملفا ، ولعل حرصه الشديد ، وقدرته على التنظيم والكتمان وخوفه على أسرار هذه الجماعة جعلته لايكتب عنها فى مذكراته المحفوظة الآن فى دار الوثائق القومية ، والتى أعد مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر بهيئة الكتاب جزءا منها للنشر ، ولكن المذكرات دقيقة غاية الدقة فى سردها لأحداث ثورة ١٩١٩ مما يشير إلى أن « عبد الرحمن فهمى » كان يعاونه فى أعماله الثورية جهاز دقيق يضع أمامه الأخبار بتفاصيلها والتى يقدمها بدوره إلى زعيم الأمة سعد زغلول .

• المذكرات « ملف ٢ ص ١١٩ وص ١٢٠ » . (يوم الأحد ٩ مارس ١٩١٩ خرج مئات الطلبة فى مقدمتهم طلبة مدرسة الحقوق ، أعلنوا أنهم لايدرسون القانون فى بلد تداس فيه القوانين . . لم يكن هناك أروع من أن الطلبة يقابلون رصاص البنادق بصدورهم إذا سقط رافع العلم فى مقدمة

الموكب تقدم غيره ورفع العلم . . المذكرات . . ملف ٣ ص ٢١٩ ، ٢٢٠ . . (٥ ابريل علمت السلطة بان اجتماعا سيعقد بالأزهر . . فتقرر عقد الاجتماع بجامع أحمد بن طولون . . وعند سبيل أم عباس أقيمت طابية وكان فيها صبى فى العاشرة يدعى بن القباقيبى قتله الانجليز) .

وبالمذكرات سجل هام لشهداء ثورة ١٩١٩ . . فى القاهرة والإسكندرية والوجه القبلى والوجه البحرى . . مما يؤكد وجود شبكة واسعة تسجل الأحداث بدقة مثال ـ المذكرات ـ ملف ٤ ص ١٦٩ يتحدث عن تظاهرة فى البدرشين فى ٢٦ مارس ١٩١٩ (من ضحايا البدرشين « محمد أبو العلا » هشم الرصاص ذراعه وقام الطبيب بقطعها فى اليوم التالى ، والسيد الدالى الخفير الرسمى اخترقت رصاصة جسده ولم يمت ، وأحمد أحمد حماد ضرب فى رأسه وأصيب إصابة خطيرة ، والسيد محمد ضرب فى صدره وجرح وأصيب) كان يتميز بالدقة وعدم المبالغة ويعرف قيمة الكلمة الأمينة .

وفى المذكرات (لقد كتبت إلى الوفد بخصوص احتجاج لجنة السيدات ، وابتعاد شعراوى باشا عن العمل ، وعدم تضامنه مع المجاهدين إزاء هذه المشروعات فى تقريرى المؤرخ ٢ مارس ١٩٢٠ ، ومن الغريب أنه بينما تحتج لجنة السيدات التى ترأسها السيدة حرم شعراوى باشا ، تراه هو لايهتم بذلك . . ذكرنا لكم هذا لتعرفوا مقدار اشتغال سعادته بالحركة العامة .

ويبدو هنا ان « عبد الرحمن فهمى » كان من مهامه أيضا أن يلاحظ نشاط الشخصيات العامة ومدى إسهامها فى الحركة الوطنية ، وهو هنا يلوم « على شعراوى » لابتعاده عن العمل الوطنى ، ويقارن بينه وبين حرمه « هدى شعراوى » التى أخذت تسهم فى العمل الوطنى عن طريق النشاط النسائى .

وكتب يصف تظاهرة نسائية أخرى بروح تنم عن سعة أفق . . (لم تشأ المرأة المصرية أن تحجم عن المساهمة فى تلك الثورة التى اشتد لهيبها فأرادت أن تحظى بشرف هذا العمل المجيد حتى تبرهن للغاصب المحتل على أنها ليست أقل قوة وعزيمة عن أختها الغربية . وحتى تذكى نار الحماسة الوطنية فى قلوب الرجال . . ففى ١٦ مارس انطلقت كثيرات من عقائل العائلات الراقية يجبن أنحاء القاهرة هاتفات بحياة الحرية والاستقلال ، مناديات بسقوط الحماية . وقد مررن بموكبهن على القنصليات ومعتمدى الدول الأجنبية ، والناس من حولهن يصفقون لهن ويهتفون والنساء من نوافذ بيوتهن يزغردن ويهتفن ، فكان ذلك منظرا جميلا رهيبا يأخذ بمجامع القلوب . ولكن لم يكن للسلطة ان تترك مثل هذا الموكب الرائع دون أن تشوه من جلاله فضرب الجنود الانجليز نطاقا حولهن وسددوا إليهن فوهات بنادقهم وحرابهم) .

التنظيمات العمالية

وكان لعبد الرحمن فهمى قدرات تنظيمية هائلة جعلت الزعيم سعد زغلول يعتمد عليه اعتمادا كبيراً ليس فى تنظيم الجماهير الثائرة فحسب ، وليس فى تنظيم الجماعات الوطنية السرية ولكن فى التنظيمات النقابية العمالية أيضا .

ففى ٢٨ يناير ١٩٢٤ شكل « سعد زغلول » الحكومة وسرعان ما فوجئ بإضرابات فى الإسكندرية قامت بها النقابات التى تسيطر عليها العناصر الأجنبية اليسارية ورفعت العلم الأحمر على المصانع . وكان « سعد » قبل أن يتولى الحكومة قد حذر «عبدالرحمن فهمى» من نشاط هذه العناصر الأجنبية التى يمكن أن تضر بمسيرة الحركة الوطنية .

وأصدر « سعد » تعليماته إلى « عبد الرحمن فهمى » بإنشاء نقابات عمالية جديدة غير تلك التى تسيطر عليها العناصر الأجنبية ، على أن تكون من المصريين وأن تكون قياداتها من العناصر الموالية للوفد . . وربما كان هذا أول عمل تنظيمى يقوم به الوفد داخل العمال المصريين مستفيدا من المشاركة الفعالة التى قام بها العمال فى ثورة ١٩١٩ إلى جانب الفئات الأخرى .

وقد عمل « عبد الرحمن فهمى » على إصدار مجلتين عماليتين فى فترة قصيرة وبذلك يكون (الوفد) قد أدرك أهمية « التنظيم» وأهمية « الجريدة » للعمل الجماهيرى . . وقد كان « سعد زغلول» عبقرية فى اختيار رجاله « عبد الرحمن فهمى » للتنظيم وللأعمال السرية ، وأمين الرافعى للصحافة والبيانات الصحفية ، وعباس العقاد للمقالات التى تصول وتجول ، وواصف غالى للأمور السياسية الخارجية . . والرجال كثيرون حول الزعيم . . كل له دور يصلح له .

رجـل التضحيـات

ولكن يبدو أن « عبد الرحمن فهمى » كانت له علاقة من نوع خاص بالزعيم . . يتداخل فى كل الأعمال التى هى فى حاجة إلى كتمان وإلى تنظيم .

تقرأ له فى رسالة سرية إلى « سعد زغلول » بتاريخ ٢٢ يوليو ١٩١٩ .

(اشتد الخلاف بينى وبين إبراهيم باشا سعيد (أمين صندوق لجنة الوفد) لأنه يريد معرفة الطريقة التى أخاطبكم بها . . كما يريد معرفة تفاصيل المصروفات التى أصرفها . . ولما لم أنجح فى أخذ العقود اللازمة للصرف توجه إليه أمس سعادة محمود باشا سليمان مع أمين بك الرافعى) .

وأمين بك الرافعى عرف هو الآخر بالوطنية والتضحية معا . . قريب من نوعية عبد الرحمن

فهمى الذى كان يثق فى أمانة الرافعى . . فى رسالة من عبد الرحمن فهمى إلى سعد زغلول فى أول سبتمبر ١٩١٩ يكرر الشكوى من مواقف إبراهيم باشا سعيد ورغبته فى تشكيل لجنة للنظر فى نشر أو عدم نشر البيانات التى يرسلها « سعد باشا » على الأمة فاقترح عبد الرحمن فهمى ، أن يشترك معه فى اللجنة « أمين بك الرافعى ومرقص بك حنا » .

وفى رسالة إلى سعد باشا بتاريخ ٢٥ فبراير سنة ١٩٢٠ قال عبد الرحمن فهمى « نحمد الله الذى أتاح لنا بعد التى واللتيا إصدار جريدة الأخبار بمعرفة زميلنا أمين بك الرافعى » .

ويرحل أمين بك الرافعى راضيا بما قدم لمصر ، ويرحل « عبد الرحمن بك فهمى » راضيا أيضا بما قدم لمصر دون أن يكون نائبا أو وزيرا . . وسلام على المخلصين فى هذا البلد الأمين .

الأسانيد :

١ ـ د . آمال السبكى : الحركة النسائية فى مصر . ١٩١٩ ـ ١٩٥٢ .
٢ ـ صبرى أبو المجد ـ أمين الرافعى .
٣ ـ طارق البشرى . . المسلمون والأقباط .
٤ ـ عبد الرحمن فهمى . . مذكرات .
٥ ـ د . محمد أنيس . . دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ جـ١ .
٦ ـ د . نبيل عبد الحميد . . شهداء ثورة ١٩١٩ مع فريق من مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر .

الدكتور عبد الرزاق السنهورى



هذا الرجل ولد فى الإسكندرية سنة ١٨٩٥م وضرب بمدينة القاهرة سنة ١٩٥٤م . . كيف ضرب ؟ ولماذا ضرب ؟ نقرأ ماكتبه « اللواء محمد نجيب » فى كلمته للتاريخ صفحة ٢٢٤ عن أحداث ٣٠ مارس ١٩٥٤ :

توجهت مظاهرة مدبرة من مبنى هيئة التحرير إلى مجلس الدولة وكانت المظاهرة مكونة من عمال مديرية التحرير وجنود من البوليس الحربى وعدد آخر من ضباط البوليس الحربى .

وكانت جريدة أخبار اليوم قد نشرت أن الجمعية العمومية لمجلس الدولة سوف تجتمع اليوم بدعوة عاجلة من رئيس المجلس بصورة توحى بأن الاجتماع له صلة بالأحداث الجارية . واقتحم المتظاهرون مبنى مجلس الدولة الذى سحبت الحراسة من حوله ودخلوا إلى قاعة الاجتماع الذى كان قد أصدر قرارا بتأييد الديمقراطية والحياة النيابية وقرارات ٥ ، ٢٥ مارس وقد اعتدى المتظاهرون على الدكتور عبد الرزاق السنهورى وعلى باقى الأعضاء بالضرب الشديد ومزقوا القرار الذى تم اتخاذه وبعد أن تم حبس مستشارى مجلس الدولة فى قاعة الاجتماعات تم إجبارهم على توقيع بيان بتأييد مجلس الثورة .

اتهم الدكتور عبد الرزاق السنهورى أمام النيابة جمال عبد الناصر بتدبير الحادث كما أنه رفض مقابلته عندما زاره ليعوده بعد الاعتداء عليه .

وكلام اللواء محمد نجيب . . يوضح أن التظاهرة مدبرة وأن الحراسة سحبت من مجلس الدولة وأن الدكتور السنهورى اتهم جمال عبد الناصر شخصيا بتدبير الحادث . كما أنه رفض مقابلته عندما ذهب يسأل عنه بعد الاعتداء عليه .

ومذكرات عبد اللطيف البغدادى لاتنفى ماسجله « اللواء محمد نجيب » وإن كانت تعرض للموقف بطريقة أخرى على صفحة ١٢٧ وفى مجال حديثه عن أزمة مارس (إن السنهورى يقترح إعادة دستور سنة ١٩٢٣ فورا ، وأن يحل مجلس قيادة الثورة حتى يطمئن محمد نجيب على نفسه لأنه يشعر بالقلق منه . وإن هذا الحل الذى يقترحه هو أسرع وأضمن الحلول لإنقاذ هذه البلاد من كارثه محققة) .

السنهورى هنا قد انحاز إلى صف القوى الشعبية التى طالبت بحل مجلس قيادة الثورة وبرجوع الجيش إلى ثكناته ، وبالعودة إلى الدستور . وهو بذاك أصبح مستهدفا من قبل العناصر التى تريد أن تستبد بحكم البلاد .

وفى صفحة ١٦٠ يسجل (حضر أثناء انعقاد المؤتمر أحد الطيارين واسمه « عبد الرءوف عبد الحميد » فأبلغنى أن المتظاهرين قد اتجهوا نحو مبنى مجلس الدولة لاجتماع الجمعيه العمومية . . ثم حضر من بعده أيضا « محمد صدقى محمود » رئيس أركان حرب القوات الجوية وأبلغنا نفس الشىء فطلبت منه كذلك ارسال البوليس الحربى الجوى فورا إلى مبنى مجلس الدولة لمنع المتظاهرين من الاقتراب منه) .

ويواصل البغدادى (ثم صلاح ـ يقصد صلاح سالم ـ وتوجه إلى مبنى المجلس ليعمل على تهدئة المتظاهرين ولقد عاد صلاح إلى الاجتماع ثانية بعد ساعتين من مغادرته لنا وأبلغنا أن المتظاهرين قد اعتدوا على رئيس مجلس الدولة وأن إصاباته بسيطة وسطحية . وأن المتظاهرين هاجموا المجلس بعد أن وصفهم بعض المستشارين بالمأجورين مع نعتهم بصفات قبيحة أخرى وقال صلاح إنه لازم السنهورى من مبنى المجلس حتى المستشفى لعلاج الإصابات التى أصيب بها . ولكن السنهورى لم يشكره على موقفه) .

وهذه العبارات توضح أن السنهورى والمستشارين يعتقدون أن الحادث مدبر وتوضح أن صلاح سالم يفسر الاعتداء بتصدى المستشارين للمتظاهرين ولكن سرعان ماتكشف المذكرات عن حقيقة موقف مجلس الثورة من الاعتداء على مجلس الدولة . . فعلى صفحة ١٦٩ نقرأ :

(وانعقد المجلس وقرأ علينا جمال عبد الناصر مذكرة مجلس الدولة المرسلة إلى رئيس مجلس الوزراء والخاصة باعتداء المتظاهرين على مجلسهم . . وكانت مذكرة شديدة اللهجة عنيفة فى تعبيراتها ـ ولقد دارت مناقشة حولها ـ ورئى فى النهاية أن يكون الرد عليها بدبلوماسية ـ بمعنى إن نقول أن النيابة ستقوم بالتحقيق ـ وإن الحكومة منتظرة نتيجة هذا التحقيق) .

وطبعا كان تحقيق النيابة فى ذلك العهد شماعة لتفويت أو لتمويت الاعتداء على القضاء وكان

رد الحكومة هو قانون بمنع الوزراء الحزبيين قبل ١٩٥٢ من تولى المناصب الهامة فسقط السنهورى من رئاسة مجلس الدولة وهذا دليل واضح على موقف «عبد الناصر » من السنهورى الذى اقترح (العودة إلى دستور ١٩٢٣) لإنقاذ البلاد من الكارثة .

السنهورى و٢٣ يوليـو

ومنذ الأيام الأولى لاستيلاء الضباط الأحرار على السلطة وضع « الدكتور عبد الرزاق السنهورى» رئيس مجلس الدولة نفسه وخبرته بل استخدم وضعه فى مجلس الدولة لإقناع المستشارين الآخرين بتأييد الوضع الجديد .

ظهر هذا واضحا وجليا فى مشاورات خلع الملك فاروق ووضع صيغة التنازل عن العرش . . بل إن السنهورى توجه مع اللواء محمد نجيب وجمال سالم وأنور السادات إلى مقر الوزارة فى بولكلى وهناك اقترح « جمال سالم » إضافة عبارة أيده فيها الدكتور السنهورى وتفيد بأن النزول عن العرش كان استجابة لرغبة الأمة وذهب « المستشار سليمان حافظ » بالوثيقة إلى الملك لتوقيعها .

وكان اندفاع « السنهورى » فى تأييد الحركة ومعه فى ذلك الموقف المستشار « سليمان حافظ » وكيل المجلس واضحا يوم ٣١ يوليو ١٩٥٢ فى أول قضية تواجه الضباط الشبان بعد تنازل « الملك فاروق » عن العرش ، وهى قضية دستورية ، ولو اتخذ السنهورى فى تلك القضية الموقف الدستورى السليم ربما تغيرت أمور كثيرة ولكن التساهل فى المواقف الدستورية جر عليه وعلى سليمان حافظ ما لا يرضاه لهما أحد وبعد هذه التنازلات ضرب السنهورى فى مقر مجلس الدولة ، وبعدها بسنوات اعتقل « سليمان حافظ » عند أول خلاف مع السلطة الجديدة .

ونعود إلى موضوعنا . . ينص الدستور فى المادة ٥١ على ألا يتولى أوصياء العرش عملهم إلا بعد أن يؤدوا أمام مجلسى النواب والشيوخ مجتمعين اليمين التى يؤديها الملك أمامهما قبل مباشرة سلطته الدستورية وتنص المادة ٥٢ من الدستور على أنه عند وفاة الملك يجتمع البرلمان بحكم القانون خلال عشرة أيام من الوفاة فان كان المجلس منحلا وجب أن يعود المجلس المنحل للعمل حتى يجتمع المجلس الذى يخلفه .

ومعنى هذا السلوك الدستورى فى حالة تنازل الملك فاروق أن يدعى المجلس الوفدى المنحل ، ولكن رئيس الوزراء هو « على ماهر» عدو الوفد التقليدى وهو الذى استصدر قرارا بحل المجلس بعد يناير ١٩٥٢ ومستشار السلطة الجديدة هو « سليمان حافظ» الذى يكره « مصطفى النحاس » كراهية شخصية ورئيس مجلس الدولة هو « الدكتور السنهورى» الذى كان وفديا وخرج من الوفد

فى انقسام النقراشى وأحمد ماهر . . تجمعت هذه الظروف وانعقد قسم الرأى فى مجلس الدولة برياسة « الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهورى » والعادة جرت على أن يجتمع القسم برئاسة وكيل المجلس ولكن السنهورى ذهب بنفسه ليساند وكيله «سليمان حافظ » ونزل بثقله الفقهى والقانونى واستصدر قرارا من قسم الرأى بإضافة مادة للأمر الملكى رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٢ تنص على أنه (فى حالة نزول الملك عن العرش وانتقال وصاية الملك إلى خلف قاصر يجوز لمجلس الوزراء إذا كان مجلس النواب منحلا أن يؤلف هيئة للعرش من ثلاثة تتولى بعد حلف اليمين أمام مجلس الوزراء سلطة الملك) .

شخص واحد فقط عارض هذا الرأى داخل القسم هو « دكتور وحيد رأفت » وندم السنهورى وسليمان حافظ على موقفيهما بعد ذلك .

وبذل السنهورى جهدا خاصا فى مشروع الإصلاح الزراعى وبعد استقالة على ماهر اتجهت الأنظار إلى « الدكتور السنهورى » ليرأس الوزارة ولكن « على صبرى » أقنع « جمال سالم » بأن السنهورى له ميول شيوعية لأنه وقع على (نداء السلام) فتولى « جمال سالم» مهمة إقناع مجلس قيادة الثورة بعدم ترشيح السنهورى لرئاسة الوزارة حتى لايغضب الأمريكان .

وتولى رئاسة الوزارة « اللواء محمد نجيب » وسارت الأمور حتى أزمة فبراير ومارس ١٩٥٤ والسنهورى يقدم لهم الرأى والمشورة ، وعند أول بادرة لوقوفه إلى جانب الديمقراطية ومطالبته بعودة الدستور وحل مجلس قيادة الثورة أو عودة الجيش إلى ثكناته تحركت التظاهرة من مبنى هيئة التحرير إلى مجلس الدولة وحدث ماحدث .

عود على بدء

فى السطر الأول قلنا إن الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهورى ولد فى الإسكندرية سنة ١٨٩٥ وبالأحرى فى ١١ أغسطس وتلقى فيها تعليميه الابتدائى والثانوى . . ونال شهادة الدراسة الثانوية سنة ١٩١٣ ثم انتقل إلى القاهرة والتحق بمدرسة الحقوق وحصل منها على الليسانس سنة ١٩١٧ .

وبعد تخرجه بعامين اندلعت شرارة الثورة القومية سنة ١٩١٩ بقيادة الزعيم « سعد زغلول » فتأثر بها وانحاز لها وانعطفت ميوله نحو الوفد المصرى وعين عضوا بالنيابة العامة وتدرج فى الوظائف حتى رقى وكيلا للنائب العام سنة ١٩٢٠ . ثم انتقل بعد ذلك لتدريس القانون فى مدرسة القضاء الشرعى . . وسافر إلى باريس سنة ١٩٢١ فى بعثة حصل خلالها على الدكتوراه فى

العلوم القانونية وعلى الدكتوراه فى العلوم الاقتصادية والسياسية وعلى دبلوم القانون الدولى وعاد إلى مصر سنة ١٩٢٦ ليعمل مدرسا للقانون المدنى بكلية الحقوق حتى أصبح أستاذا مساعدا فأستاذا ثم انتخب عميدا للكلية سنة ١٩٣٦ .

وفى تلك السنة نادى بوضع قانون مدنى جديد فى مصر واستجابت الحكومة إلى رأيه ، وشكلت لهذا الغرض لجنة كان «السنهورى » من أبرز أعضائها ـ ثم انتهى الأمر بإسناد مهمة التعديل إليه وحده ـ سنة ١٩٣٨ ـ وتركت الحكومة له حرية اختيار من يعاونونه فى هذا العمل الجليل . وانتهى وضع التقنين المدنى الجديد فى صورة مشروع متكامل سنة ١٩٤٥ ـ ومر بمراحله التشريعية إلى أن صدر فى أواخر شهر يوليو من سنة ١٩٤٨ .

وفى كتابه (عودة الوعى) يحكى لنا « توفيق الحكيم » جانبا من علاقته بالسنهورى فيقول (كانت صداقتى قديمة به ، منذ عام ١٩٣٥ كنت مديرا لإدارة التحقيقات بوزارة المعارف وكان هو أستاذا بكلية الحقوق وكنا نسكن منطقة الجيزة ونسير على أقدامنا ساعة العصر على كوبرى عباس نتحدث طويلا وفى يد كل منا قرطاس من الترمس وفى ذات يوم جاءنى يقول إنه فكر فى مشروع نافع لتكوين الشباب وغرس روح البطولة فى نفوسهم ، وجعلنا نستعرض أبطال تاريخنا الذين يمثلون المبادئ العظيمة مثل « عمر بن الخطاب » و« طارق بن زياد » و« رمسيس الثانى » ونحو ذلك . . ومضت أيام ، وبينما أنا جالس فى مكتب وكيل الوزارة إذا بى أجد حركة غير عادية وكانت الوزارة يومئذ ضد حزب الوفد والوفديين ، ووكيل الوزارة يقول مجلس الوزراء منعقد لفصل الدكتور السنهورى من الجامعة لأنه ألف جمعية سياسية لنشر الدعوة للوفد بإيعاز من صديقه عضو الوفد « النقراشى » فتعجبت عجبا شديدا ولم تلبث الوزارة التى فصلت السنهورى أن سقطت وجاءت وزارة وفدية وأصبح عميدا للكلية فوكيلا لوزارة المعارف) .

السنهورى وزيرا

فى ٣ أغسطس ١٩٣٧ شكل « مصطفى النحاس » وزارته الرابعة فى أعقاب وزارته الثالثة التى كان قد شكلها فى ٩ مايو ١٩٣٦ . . وفى الوزارة الرابعة تم استبعاد « محمود فهمى النقراشى ، ومحمد صفوت ومحمود غالب وعلى فهمى » وكان هذا الإبعاد نتيجة للخلافات الداخلية وكان بدوره بداية لتفاقم الخلافات واستغلت السراى وأحزاب المعارضة وعلى ماهر والشيخ المراغى الفرصة لتعميق الخلافات داخل الوفد وانضم « أحمد ماهر » إلى هذا التكتل وحدث الانشقاق الخطير فى تاريخ الوفد فى سبتمبر ١٩٣٧ ويهمنا فى موضوعنا الحالى أن الدكتور عبد الرزاق

السنهورى صديق محمود فهمى النقراشى كان إلى جانب قادة هذا الانقسام . . إلى أن شكل المرحوم « أحمد ماهر » وزارته الثانية فى ١٥ يناير سنة ١٩٤٥ واختير « السنهورى » وزيرا للمعارف. وبعد اغتيال « أحمد ماهر » شكل « محمود فهمى النقراشى » الوزارة فى ٢٤ فبراير ١٩٤٥ حتى فبراير ١٩٤٦ وعندما شكل إسماعيل صدقى وزارته فى ١٦ فبراير ١٩٤٦ لم يدخلها «السنهورى » ولكنه دخل فى التعديل الذى أجرى فى ١١ سبتمبر ١٩٤٦ وكان وزير دولة حتى ٩ سبتمبر ١٩٤٦ وعاد « النقراشى » رئيسا للوزارة فى ٩ سبتمبر ١٩٤٦ إلى ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ وكان «السنهورى » وزيرا للمعارف . . ولاغتيال النقراشى باشا شكل « إبراهيم عبد الهادى » وزارته فى ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ التى استمرت إلى ٢٥ يوليو ١٩٤٩ وكان « السنهورى » وزيرا للمعارف ولكنه استقال فى ٢٧ فبراير ١٩٤٩ ليحل محله « على أيوب » وزيرا للمعارف .

وبهذا يكون الدكتور السنهورى قد شغل منصب وزير المعارف أربع مرات فى مدد مجموعها أكثر من ثلاث سنوات ترك عليها بصماته دون شك وعين رئيسا لمجلس الدولة من عام ١٩٤٩ إلى عام (الضرب) ١٩٥٤ ويوم ترك وزارة المعارف ليرأس مجلس الدولة قال للدكتور « مهدى علام » أترك وزارة المعارف وقد نجحت فى معظم مشروعاتى وأخفقت فى أمرين الدروس الخصوصية وتوزيع الحجرات على كبار الموظفين .

ثـروة قوميـة

ومثل « الدكتور عبد الرزاق السنهورى » هو جزء من ثروة مصر القومية سواء اتفقنا أو اختلفنا معه . . فهو أحد أعلام الفقه والقانون ومؤلفاته ثروة للمكتبة القانونية . . ظل عضوا بمجمع اللغة العربية منذ سنة ١٩٤٦ وقد أسهم فى وضع كثير من المصطلحات القانونية ـ إلى أن لقى ربه سنة ١٩٧١ .

وقد أوفد « السنهورى » إلى مؤتمرات دولية كثيرة . . فكان رئيس الوفد المصرى فى مؤتمر القانون المقارن بباريس سنة ١٩٣٢ ورئيسا للوفد المصرى فى مؤتمر القانون الثانى فى لاهاى سنة ١٩٣٧ ورئيس الوفد المصرى إلى لندن فى مؤتمر فلسطين سنة ١٩٤٦ ورئيس الوفد فى الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة ١٩٤٦ وعضوا فى الوفد المصرى الذى تقدم بشكوى مصر ضد انجلترا أمام مجلس الأمن سنة ١٩٤٧ .

لم يقتصر دوره فى التوجيه على دارسى القانون فى مصر بل شمل كل أبناء البلاد العربية كان كل مؤلف يعد كتابا أو رسالة فى القانون يحرص على أن يلقى السنهورى لكى يعرض عليه عمله

ويستنير برأيه وبعض الأساتذة العرب المتفرغين لدراسة الشريعة الإسلامية يطلقون على السنهورى لقب (الإمام الخامس) بعد الأئمة الأربعة وفى العراق يلقبه تلاميذه (بالأستاذ الإمام) فهو الذى وضع للعراق قانونه المدنى الذى جمع فيه بين أحكام القوانين العصرية الوضعية وأحكام الشريعة الإسلامية .

كذلك وضع السنهورى القانون المدنى السورى كما وضع القانون المدنى الليبى ثم وضع قوانين دولة الكويت ودستورها كما وضع الدستور السودانى وكان آخر عمل تشريعى قام به للبلاد العربية هو مشروع وضع دستور لاتحاد إمارات الخليج العربى ولكنه لم يتمكن من إتمامه لظروف صحية . ووضع السنهورى لإمارة البحرين مجموعة من القوانين العصرية تعد من المفاخر التشريعية .

وكان نشاط السنهورى كمشرع للبلاد العربية سببا فى إيجاد وحدة فكرية فى الميدان القانونى بين أبناء البلاد العربية .

رحم الله الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهورى ، الذى رحل عام ١٩٧١ .

واعتذار له من كل أبناء مصر لما لحقه فى مارس ١٩٥٤ .

الأسانيد :

١ ـ توفيق الحكيم . . عودة الوعى .
٢ ـ د . عبد الباسط جميعى . . مجلة الفكر المعاصر ـ أغسطس ١٩٧١ .
٢ ـ د . محمد مهدى علام . . المجمعيون فى ٥٠ عاما .
٤ ـ محمد نجيب . . كلمتى للتاريخ .
٥ ـ د . وحيد رأفت . . فصول من ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

عبد العـزيز الشـوربجى



بالوفاء للأستاذ النقيب « عبد العزيز الشوربجى » اقترح الصديق الأستاذ «عبد العزيز محمد » المحامى ، الذى تعرفه الساحة الوطنية مدافعا عن الحريات ، ويعرفه القراء بحسه القومى العربى ، اقترح ان تخصص حلقة عن « عبد العزيز الشوربجى » وفى لحظات وضع الصديق «الأستاذ جمال بدوى » دينامو التحرير ـ وكنا فى مكتبه ـ وضع أمامى رقم تليفون « الأستاذة مواهب الشوربجى » كريمة المرحوم « عبد العزيز الشوربجى » وخلال أيام كان أمامى ما تصورت « الأستاذة مواهب » أن يكون مفيدا لى فى كتابة هذه الحلقة .

وجدت نفسى أمام شخصية محيرة بكل ما تحمل الكلمة من معان . محام يشتعل حماسة لكل قضية وطنية يؤمن بها ، وينفعل إخلاصا لكل جانب يميل إليه .

بدأ حياته السياسية وفديا ، وفى لجنة الطلبة التنفيذية العليا (١٩٣٥) يرى غير ما يرى الوفد فى المطالبة بالدستور والاستقلال فيقف مع (أقلية) تقدم الاستقلال على الدستور وسنة ١٩٤٣ يقف مع « مكرم عبيد » فى الانقسام الذى عرف بالكتلة الوفدية بل إنه يشرف على تحرير جريدة (الكتلة) فترة ما وعندما يتجه « مكرم عبيد » إلى المصالحة مع الحزب الأم (الوفد) يخاصم « عبد العزيز الشوربجى » الوفد والكتلة الوفدية ، ومصطفى النحاس ومكرم عبيد ، وتمضى السنوات ويستولى الضباط الأحرار على السلطة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وسنة ١٩٥٤ يطالب المحامون بأن يعود الجيش إلى ثكناته ، وتخرج التظاهرات تعبر عن رغبة قطاعات كثيرة من الشعب فى عودة الحكم النيابى ، ولكن « عبد العزيز الشوربجى » يرى غير هذا الرأى ، ويقف إلى جانب جناح « عبد الناصر» ويشكل من بعض المحامين ما عرف بجماعة « أنصار الثورة أو المحامين الأحرار » .

ويتم حل مجلس النقابة ، ويحكم « عبد الناصر » قبضته على السلطة وتمضى الأيام ويكتشف

الشوربجى أن الجناح الذى أيده لم يسر فى المسار الذى يرتضيه وينزل « عبد العزيز الشوربجى » يدافع فى بسالة عن عائلة « الفقى » فى أحداث « كمشيش » المعروفة ويصطدم بقيادات التنظيم السياسى الواحد ويصدر قرارا بحرمان الشوربجى من حق الترشيح لانتخابات مجلس الأمة . . ويبقى هكذا على خصومة شديدة حتى ١٥ مايو ١٩٧١ فيهنىء « السادات » ويؤيده ولكنه يهاجم بعد ذلك السياسة الخارجية للسادات والاتجاه إلى الصلح مع إسرائيل ، ويشن حملة على (كامب دافيد) وعلى تدخل الحكومة فى الانتخابات ويرشح نفسه نقيبا للمحامين ويصفه السادات بأنه (وفدى عتيق) يؤيده الإخوان المسلمون والشيوعيون والانتهازيون ويقف «الشوربجى » يقول بأعلى الصوت . . نعم ياريس هؤلاء يؤيدوننى . . فمن الذى يؤيدك أنت ياريس ؟ دخل (الوفد الجديد) وتحمس له ، ولكنه عارض الموقف من (تجميده) . . وفى مقر حزب العمل فى يونيه ١٩٨١ صاح بأن الصلح مع إسرائيل مقبرة لكل الآمال المصرية واستدعاه (المدعى الاشتراكى) للتحقيق فقال (الشوربجى) لو أننى أستطيع أن أحمل السلاح لذهبت أحارب إسرائيل . . وفى ٥ سبتمبر ١٩٨١ كان عبد العزيز الشوربجى واحدا ضمن ١٥٣٦ من قادة الرأى والعمل السياسى المعتقلين .

سياسى بالصدفة

شخصية مثيرة محيرة قلقة لها زوايا مدببة كثيرة تبحر فى مياه صعبة وأنت تكتب عنها ، المواقف متعددة تبدو أنها متناقضة ولكن لها قاسما مشتركا أعظم هو الرأى المستقل والتعبير الحر عن هذا الرأى ، ثم الاندفاع إلى آخر الشوط دفاعا عما يعتقد أنه صواب .

فى مطلع الثلاثينات ، كان طالبا فى نهاية المرحلة الثانوية وإسماعيل صدقى رئيس للوزراء ، حل البرلمان والغى الدستور والتظاهرات ضد صدقى تجتاح القاهرة والمدن الرئيسية الأخرى والطالب « عبد العزيز الشوربجى » . . يذهب من البيت إلى المدرسة ويعود من المدرسة إلى البيت بعربة « حانطور » والسائق يتجنب التظاهرات حتى يعود فى سلام . و« الشوربجى» يأبه بهذه التظاهرات ، ولا بأصحابها ، ولا بالجالس على كرسى رئاسة الوزارة هو فى (حاله) كما يقولون . . آماله ان يجتاز المرحلة الثانوية وأن يدخل كلية الحقوق ويخرج منها أو فيها ويعمل محاميا مشهورا . . وذات يوم وهو ذاهب من البيت إلى المدرسة وواحدة من التظاهرات ضد صدقى باشا مشتعلة والبوليس يتصدى للطلاب بوحشية وقسوة أثارتا الطالب « عبد العزيز الشوربجى » ويهاجم البوليس فيما يهاجم (عربة الحانطور) وانقلبت العربة ، وثار الطالب « الشوربجى »

وبأعلى صوته ، وبكل حماسته يردد هتافات الطلاب ضد الحكومة ويطالب بالدستور وينضم إلى لجنة الطلبة الوفديين . .

وينتهى عهد « إسماعيل صدقى » الذى بدأ فى ٢٠ يونيه ١٩٣٠ حتى ٢٧ سبتمبر ١٩٣٣ . وتجيء وزارة « عبد الفتاح يحيى باشا» من ٢٧ سبتمبر ١٩٣٣ حتى ١٤ نوفمبر ١٩٣٤ ودستور ١٩٢٣ لم يزل معطلا وتعقبها وزارة محمد توفيق نسيم فى ١٤ نوفمبر ١٩٣٥ وأعلن عدم رضائه على دستور صدقى مما يشير إلى أنه يعتزم إعادة دستور ١٩٢٣ فأيده الوفد وبدأ توفيق نسيم وزارته بالغاء دستور صدقى (دستور ١٩٣٠) ولكنه لم يبادر بإعادة دستور ١٩٢٣ وفى ١٣ نوفمبر ١٩٣٥ فى احتفال الأحرار الدستوريين بعيد الجهاد الوطنى خطب « محمد محمود » وطالب بإعادة دستور ١٩٢٣ ، وخرج الشباب من سرادق الأحرار الدستوريين إلى سرادق الوفد حيث «مصطفى النحاس » يطالب بمقاطعة الانجليز وباستقالة الوزارة وبسحب الثقة منها . وتدفقت جموع الشباب من مختلف الأحزاب فى تظاهرات عارمة نحو بيت الأمة ، ووقع الصدام المعروف بين المتظاهرين وجنود الاحتلال . . وهنا نجد الطالب عبد العزيز الشوربجى بإرادته وبعزمه عضوا بلجنة الطلبة التنفيذية العليا التى قادت ما عرف بثورة الشباب ١٩٣٥ أو بثورة الدستور . ولنا مع شبابنا اليوم حديث عن هذه الثورة وعن لجنة الطلبة التنفيذية العليا .

لجنة الطلبة العليا

حفظت لنا وثائق تلك الفترة بيانات ثلاثة أو أربعة عن أعضاء اللجنة التنفيذية العليا للطلبة التى قادت ثورة الشباب من أجل الدستور ١٩٣٥ وجهود الشباب من أجل وحدة الزعماء ومن أجل تحقيق المطالب الوطنية ويبدو أن اللجنة لم يكن لها تشكيل ثابت تماما ، وأنها كانت تتكون بفعل واقع الأحداث وإن كانت هناك عناصر تشكل غالبية اللجنة نجدها فى البيانات المتباينة . .

التشكيل الأول . . نقرؤه على النحو التالى :

كلية الطب : محمد بلال ، نور الدين طراف ، أحمد لطفى ، وحافظ حسنى .

كلية الحقوق : عبد العزيز الشوربجى ، الطاهر حسن أحمد ، فريد زعلوك ، زكى علام ، على كريم ، نصيف مرقس ، أحمد عبد النبى .

كلية الآداب : مصطفى السعدنى ، أحمد بشر ، عبد القادر حجاب ، فتحية الكابلى ، عبد العزيز يونس .

كلية العلوم : محمود لاشين ، سعد الدين الشيشينى .

الأزهر : أحمد حسن الباقورى ، عبد المجيد الغايش ، سليمان النمكى .

كلية التجارة : عبد المنعم البيه ، كامل الدماطى ، فتحى عمر ، أحمدطلبة صقر .

كلية الزراعة : أحمد الدمرداش قرنى ، أبو المجد التونى ، حسن سالم ، عبد السلام حسن .

كلية الهندسة : جلال الدين الحمامصى ، جمال صادق ، إبراهيم عثمان ، محمود يونس حسين الشايب (الهندسة التطبيقية). دار العلوم : أحمد الحوفى ، أحمد حجاب ، فؤاد رحمو ، سيد العجان ، محمد برهام ، عبد الرافع الشافعى ؟

الفنون الجميلة : محمد شبل الحضرى .

وهذا البيان حسبما وعته ذاكرة المناضل القديم « دكتور محمد بلال » وأرسل به إلى الأستاذ «صبرى أبو المجد » ليضمنه الجزء الأول من كتابه « سنوات ما قبل الثورة » .

وفى البيان الذى أصدرته اللجنة فى ٦ ديسمبر ١٩٣٥ وهو البيان الذى عبرت فيه اللجنة عن وحدة صفوفها بعد خلاف سوف نعرض له فى فقرة قادمة نجد أسماء جديدة إلى جانب الأسماء السابق ذكرها ونجد أن بعض الأسماء التى وقعت البيان السابق لم يرد ذكرها فى هذا البيان الجديد . . فمثلا . .

كلية الطب أضيفت أسماء إبراهيم عبود ، أحمد عبد الله ، حسن توفيق ، قاسم فرحات ، محمود لبيب الشاهد ، عبد اللطيف جوهر ، ولم يرد اسم « أحمد لطفى » .

كلية الحقوق : أضيف اسم « فكتور مكرم عبيد » وبهذه المناسبة فهو نفسه فكرى مكرم عبيد وغاب اسم نصيف مرقس وأحمد عبد النبى .

كلية الآداب : أضيف اسم سهير القلماوى ومحمود أبو رحاب وغاب اسم فتحية الكابلى .

كلية العلوم : أضيف اسم فؤاد سالم ، حبيب المصرى ، عماد الدين الشيشينى .

كلية التجارة : أضيف اسم الفونس زكى ، عبد الله أباظة ، أحمد حلمى .

كلية الزراعة : أضيف اسم حسن الأبيارى ، مصطفى كامل منصور ، حسين عزت .

دار العلوم : غابت أسماء أحمد الحوفى وأحمد حجاب ، وفؤاد رحمو ، وسيد العجان .

وبعودة دستور ١٩٢٣ ، أصدرت (لجنة الطلبة التنفيذية العليا) بيانا توضح فيه اتجاهاتها وتطالب المظاهرات بالبعد عن التخريب ولاحظنا عليه :

كلية الطب . . ظهر لأول مرة اسم حسنى العامرى . . كلية الحقوق انتظام ظهور اسم « عبد العزيز الشوربجى » وأضيفت أسماء حمادة الناحل ، ومحمود فهمى أبو عزيز ، وعبد الغفار متولى

وخليل جمال الدين وأحمد شرف الدين ومراد يس لأول مرة . .

وبالنسبة لموضوعنا الراهن نلاحظ أن اسم « عبد العزيز الشوربجى » انتظم ظهوره فى البيانات المختلفة مما يوضح أن مساهمته فى العمل الوطنى كانت بإرادة واعية وبموقف محدد لاسيما أن كفاح اللجنة كان شاقا ومحفوفا بالمخاطر ولا بأس ان نقدم فكرة عن جهود الشباب تلك . .

ثـورة الشـباب

كان شباب مصر فى عامى ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ يواجه مشكلات إعادة العمل بدستور ١٩٢٣ الذى ألغاه « إسماعيل صدقى » والذى لم يكن مقتنعاً به « توفيق نسيم » فإذا به يلغى دستور ١٩٣٠ « دستور صدقى » ولايبادر بإعادة العمل بدستور ١٩٢٣ ، ثم مشكلة توحيد جهود زعماء مصر ، ومشكلة تحقيق الاستقلال الوطنى .

وتحرك شباب مصر فى سبيل تحقيق هذه المطالب الثلاثة وتشكلت (لجنة الطلبة التنفيذية العليا) وعند أول موقف ظهرت أقلية داخل اللجنة تنادى بأن يكون (الاستقلال) هو المطلب الرئيسى أو المطلب الوحيد ، وأغلبية تنادى بضرورة عودة دستور ١٩٢٣ والحريات مع المطالبة بالاستقلال الوطنى وانحصرت الأقلية فى عدد محدود من أعضاء اللجنة هم : (عبد العزيز الشوربجى ، ونور الدين طراف ، وحسن أحمد ، ومصطفى السعدنى ، وأحمد حسن الباقورى) .

ومضت أغلبية اللجنة فى طريقها الذى رسمته لنفسها وكانت اجتماعات اللجنة بنقابة المحامين ثم بالنادى السعدى وانصهرت مع الأحداث ، وتقدمت الشعب بأسره وتوحدت صفوفها واتحدت جهود الطلبة مع جهود العمال وكان أول شهداء ثورة الشباب فى نوفمبر ١٩٣٥ عاملين هما : إسماعيل الخالع وأخوه عبد السميع الخالع واستشهد برصاص الانجليز أيضا بطل كلية الزراعة محمد عبد المجيد مرسى وبطل كلية الآداب « عبد الحكم الجراحى وبطل المعهد الأزهرى بطنطا محمد عبد المقصود وهم بلديات عبد العزيز الشوربجى من طنطا وبطل دار العلوم على طه عفيفى ، وأصيب فى تلك الأحداث « إبراهيم شكرى » من كلية الزراعة « رئيس حزب العمل حاليا » ، وأصيب « عبد القادر زيادة » من كلية الحقوق ووحدت دماء الشهداء صفوف الطلبة فأصدرت اللجنة التنفيذية بيانها الشهير فى ٦ ديسمبر ١٩٣٥ يعلن وحدة الجهود من أجل الدستور واتفاق الزعماء والاستقلال وفى ١٢ ديسمبر ١٩٣٥ صدر قرار عودة دستور ١٩٢٣ وأعلن الزعماء فى اليوم نفسه اتفاقهم من أجل مواجهة الانجليز جبهة واحدة فى المفاوضات وأصدرت اللجنة بيانا فى ٣ يناير ١٩٣٦ تشكر فيه الطلبة على حسن تقديرهم للموقف وعودتهم

إلى الدراسة استجابة منهم لزعيم البلاد دولة الرئيس « مصطفى النحاس باشا » واستقالت وزارة « نسيم » فى ٣٠ يناير ١٩٣٦ وشكل على ماهر وزارته من (٣٠ يناير ٣٦ ـ ٩ مايو ١٩٣٦) على أساس أن يتكون وفد المفاوضات برياسة مصطفى النحاس وأن تجرى الانتخابات فى ٢ مايو ١٩٣٦ وفى ٢٨ ابريل توفى الملك فؤاد وأجريت الانتخابات التى فاز فيها الوفد بأغلبية ساحقة فشكل مصطفى النحاس وزارته فى ٩ مايو ـ ٣١ يوليو ١٩٣٧ ، وهى الوزارة التى جرت خلالها المفاوضات وعقدت المعاهدة فى أغسطس ١٩٣٦ هذه هى الفترة التى تشكلت فيها شخصية «عبد العزيز الشوربجى » .

صورة سريعة

وفى أواخر الثلاثينات تخرج عبد العزيز الشوربجى فى كلية الحقوق وعمل بالمحاماة وكان أقرب الناس إليه الشباب الثائر فى بلده (طنطا) ولد فى محلة مرحوم مركز طنطا ١٩١١ وكان يدافع عن المقبوض عليهم بدون مقابل فى كل العهود وخاصة فى فترة وزارة إبراهيم عبد الهادى سنة ١٩٤٩ .

وانضم إلى انقسام (الكتلة الوفدية) خطيبا وكاتبا . وفى الأربعينات كان من أبرز محاميى الحريات . وأشرنا من قبل إلى تأييده لحركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى درجة أنه شكل ما أسماه « أنصار الثورة » واشتدت خصومته للحركة عندما أهدرت حقوق الإنسان ودافع عن أسرة الفقى التى تعرض أفرادها للتعذيب والمهانة ويذكر الأستاذ إبراهيم يونس أن « الأستاذ عبد العزيز الشوربجى عندما كان نقيبا للمحامين أوائل الستينات حدث أن قتل أحد المحامين فى شبرا ، ولم يعثر على جثته ونقلت الإشاعات أن أحد الأجهزة هى التى قتلته عقد اجتماعا لمجلس النقابة واتصل بوزير الداخلية أمام جمع من الحاضرين وأخبره ان مجلس النقابة سيظل فى حالة انعقاد إلى حين العثور على جثة المحامى ، والقبض على القاتل .

وعلى الرغم من محاربة جناح عبد الناصر له إلا أنه تقدم يدافع عن الذين تعرضوا للسجن أو الاعتقال فى عهد السادات ومن بينهم « فريد عبد الكريم » السياسى الناصرى المعروف ورأس اتحاد المحامين العرب وعنى بقضايا الأمة العربية .

الإفراج والرحيل

وعنى أيضا بوحدة الكلمة بين النقابات المهنية المختلفة . . قال الأستاذ « حافظ محمود » نقيب الصحفيين الأسبق وهو يرثيه «تذكرت يوم انتخابى نقيبا للصحفيين . . كان أول زائر لى بدار النقابة هو عبد العزيز الشوربجى نقيب المحامين ، وقد جاء مهنئا وكانت تهنئته صورة من

شخصيته فقد دخل غرفة مكتبى مهللا يقول . . ياحافظ جاءت المناسبة التى نتخذ فيها قرارا مشتركا لإزالة السور الذى يفصل بين نقابتينا) .

وقال « الشوربجى » يصف لحظات الإفراج عنه بعد رحيل السادات :

(كنت موجودا فى مستشفى معهد القلب بامبابة بعد ان أصبت بأزمة قلبية فى ليمان طره . . ويوم الإفراج اعتقدت أننى مطلوب للتحقيق . . وطلبت منى مديرة مكتب كبير الأطباء ان أرتدى ملابسى الكاملة ، وفى الطريق إلى قصر العروبة اعتقدت بأننى متوجه إلى مكتب المدعى الاشتراكى . . ووصلت إلى صالون القصر قبل أن يصله باقى زملائى بحوالى ساعة ونصف . واجتمع بنا الرئيس . . وقد لمست شخصيا كرم الرئيس محمد حسنى مبارك عندما سألنى عن صحتى فأخبرته بأننى قادم من معهد القلب . . فقال الرئيس لو علمت ذلك لذهبت إليك بنفسى . . وأجلسنى إلى جواره) .

ولكن لكل أجل كتابا . . ففى يوم الأحد ٧ فبراير ١٩٨٢ توفى الأستاذ النقيب عبد العزيز الشوربجى وفى الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الاثنين ٨ فبراير شيعت جنازته من مقر نقابة المحامين وأقيم سرادق العزاء بالنقابة أيضا .

الأسانيد :

١ - إبراهيم يونس . . جريدة الأخبار ٩/ ٢/ ١٩٨٢ .
٢ - حافظ محمود . . جريدة الجمهورية ١٢/ ١/ ١٩٨٢ .
٣ - شكرى القاضى . . مائة شخصية وشخصية .
٤ - صبرى أبو المجد . . سنوات ماقبل الثورة .
٥ - عبد العزيز الشوربجى . . حديث لجريدة الهدف ٢٤/ ١٢/ ١٩٨١ .
٦ - عبد العزيز الشوربجى ندوة فى ٢٨/ ١٢/ ١٩٨١ .

الشيخ عبد العزيز جاويش



الشيخ عبد العزيز جاويش أو شاويش هو فى تقديرنا الشخص الثالث فى الحزب الوطنى بعد مصطفى كامل ومحمد فريد ترك بصمات واضحة على السياسة المصرية فى تلك الفترة ، وعلى (أزمة الحزب الوطنى) منذ أن قدمه « محمد فريد » إلى « مصطفى كامل » فى باريس سنة ١٩٠٦ ، وإلى أن رحل ـ الجاويش ـ فى ٢٥ يناير ١٩٢٩ .

لم يكن « الجاويش » مجرد عضو عادى بالحزب الوطنى ، وإنما كان يرى فى نفسه أحسن رأيا ، وكان يرى أنه جدير بزعامة الحزب ، ولم تظهر هذه النزعة أيام مصطفى كامل مؤسس الحزب والمستحوذ على عواطف الشباب ، وإنما ظهرت أيام محمد فريد وخاصة بعد سفر الجاويش إلى الأستانة سنة ١٩١٢ عندما كانت سلطات الاحتلال تتأهب لاعتقاله بسبب مشاركته فى إرسال السلاح للمجاهدين فى (طرابلس الغرب) ضد الغزو الإيطالى .

ترك « محمد فريد » مصر فى ٢٧ مارس ١٩١٢ وأرسل برقية للجاويش لانتظاره فى الأستانة ، ولكن عندما وصل « محمد فريد وإسماعيل لبيب » الأستانة صباح الأحد ٣١ مارس لم يجدا «الجاويش » فى انتظارهما ، وإنما أرسل إليهما مدير جريدته (الهلال العثمانى) التى كان يصدرها هناك ، ورفض « إسماعيل لبيب » أن يذهب إلى مقر الجريدة حيث « الجاويش » لأنه استاء من عدم انتظاره لهما ، ولكن « محمد فريد » ذهب على مضض .

ليس من الغريب إذن ألا نجد رسالة واحدة من الجاويش إلى محمد فريد أو من محمد فريد إلى الجاويش ضمن (مراسلات محمد فريد) التى بلغت (٣٨٥) رسالة باللغات العربية والفرنسية والانجليزية ، وليس من الغريب أيضا ألا نجد رسالة واحدة من الجاويش إلى مصطفى كامل أو من مصطفى كامل إلى الجاويش ضمن (مراسلات مصطفى كامل) التى بلغت (١٩٨) رسالة .

لم يتحدث « محمد فريد » بأسى ومرارة فى مذكراته مثلما تحدث عن « الشيخ عبد العزيز جاويش » منذ اليوم الأول لوصول «فريد » إلى الأستانة فى ٣١ مارس ١٩١٢ ، وفى صيف ١٩١٢ حضر « الخديو » إلى الأستانة وقرر « فريد » أن يقوم الطلبة المصريون هناك بتظاهرة ضد الخديو ولكن (ظهرت معاكسة الشيخ لى فى أعمالى السياسية وكلمنى فى منعها ونصح الطلبة بالعدول عنها . . وقال لى أمام جميع الحاضرين . . اسمح لى بأن أحاربك فى هذه المسألة فقلت له أفعل ماشئت) لم يكن «الجاويش » إذن مجرد عضو عادى بالحزب الوطنى ، ولكنه كان يرى فى نفسه نظيرا لرئيس الحزب لايمتثل لقراراته وإنما يتصرف حسب رأيه الخاص .

وسرعان ما تبدل الوضع السياسى فى الأستانة وكان فريد قد أدرك هذا الأمر فسافر إلى باريس قبل أن يقع التغيير ويقبض على «الشيخ جاويش » فى ٤ سبتمبر ١٩١٢ ويسلم إلى سلطات الاحتلال بمصر ، وأفرج عنه لعدم كفاية الأدلة على شرط ألا يقيم بمصر فسافر إلى الأستانة فى ٢٠ أكتوبر ١٩١٢ ، وعندما عاد « فريد » إلى الأستانة فى ٢٣ فبراير سنة ١٩١٣ وجد « الجاويش » قد تغير تماما وامتنع عن ان يكتب لى شيئا فى جريدته (الحق يعلو) لاضد الخديو ولا ضد الانجليز ، ثم علمت من محمد بك كامل نجاتى بأنه رأى عنده محمود أفندى وصفى وكيل الخديو وأنه اختلى به فتأكدت من وجود علاقات بينه وبين رجال المعية .

ويمضى فريد فى مذكراته . . (أول سبتمبر ١٩١٣ اخبرنى عبد الملك أفندى حمزة بحضور على محمد بأن الشيخ جاويش كتب لاسماعيل شرين سكرتير محمد سعيد باشا يطلب منه أن يسعى لدى الحكومة أن يتيح له العودة لمصر على شرط ألايشتغل بالسياسة مطلقا ، وأخبرنى عبد الملك أفندى أيضا بأنه سمع من الفولى والد زوجة الشيخ جاويش ، بأن الحكومة عرضت على الشيخ أن يوظف بوظيفة شرعية) أكثر من هذا فى ٢٧ أكتوبر ١٩١٣ يسجل فريد ـ عدت لباريس فى مساء ٢٧ فوجدت جوابا من الأستانة يفيد أن الشيخ عبد العزيز لايخفى سياسته الجديدة بل يعلن أنها سياسة اعتدال ، وأنه ملازم دائما لسعيد بك الشيمى رئيس جواسيس المعية) .

وأعلنت الحرب العالمية الأولى فى أول أغسطس ١٩١٤ ، وعاد الاتفاق بين الخديو ومحمد فريد والحزب الوطنى والأتراك لإعداد حملة تركية تدخل مصر ومعها « الخديو عباس » الذى كان مقيما فى الأستانة ، ونصح الخديو عباس الجميع بتصفية الخلافات فى مواجهة « الصدر الأعظم سعيد حليم باشا » الذى كان يطمع فى عرش مصر . . وهنا يبرز دور جديد للشيخ جاويش يسجله فريد فى مذكراته ص ٩٢ ، ص ٩٣ على الوجه التالى ـ قال سعيد حليم باشا بأن مصر لايمكن أن تكون للمصريين بل هى ملك للترك ، والمصريون بها كالبهائم وأن الخديو عباس مخطىء فى اتفاقه

مع الحزب الوطنى . .) ويقول فريد . . (سعيد حليم باشا يشتغل مع حلمى مسلم وعماد الدين وكيل دائرته ، وأخيه الدكتور بهجت وهبى لتأليف حزب مصرى جديد يدعونه بالحزب الوطنى تحت رئاسة الشيخ عبد العزيز جاويش ، يكون مبدؤه محاربة الخديو عباس والسعى فى تولية سعيد حليم مكانه .

وسارع الإنجليز بإعلان الحماية على مصر فى ديسمبر ١٩١٤ ، وبعزل الخديو عباس وبتعيين عمه « حسين كامل » سلطانا لمصر تحت الحماية الانكليزية . وفى ٢٩ مايو ١٩١٥ تم الإعداد للحملة التركية على مصر وحرض « الشيخ الجاويش » السلطات التركية ألا تصحب الحملة معها « إسماعيل لبيب » لأنه من الجناح الذى يقول باستقلال مصر وانفصالها عن تركيا تماما ، فى حين أن الشيخ يقول بأن تكون مصر ولاية عثمانية .

وفى نوفمبر ١٩١٦ قدمت تركيا أموالا لعوض البحراوى وإسماعيل كامل والجاويش وعبد الملك حمزة لاصدار (مجلة مصر) وظهر العدد الأول من هذه المجلة فى ١٧ نوفمبر . وقد حمل «فريد »على هذه المجلة عندما وجد مقالا كتبه أحد الألمان يركز على انتزاع مصر من الانجليز .

أما مسألة ما إذا كانت مصر تحكم نفسها بعد ذلك أو لا فمسألة ثانوية ويعلق « فريد » على ذلك بقوله (هذا دليل جديد أن الشيخ ومن انضم إليه لايخدمون الا صالحهم الشخصى) . وفى مايو ١٩١٧ سعى الجاويش لمصالحة محمد فريد ولكن « فريد» يسجل - إنى مصمم على ألا أضع يدى فى يد هذا الرجل مادمت حيا بعد ما ارتكبه فى حقى من الوشايات والسعايات لدى الأتراك بقصد الإفساد بينى وبينهم) .

ونعرف من المذكرات أنه تم صلح بين فريد وجاويش فى يناير ١٩١٨ ، وأن الجاويش سافر إلى الأستانة يوم الجمعة ١٨ يناير للحصول على أموال للصرف على الحزب الوطنى ، ولكن الجاويش يقابل الخديو ويتفق معه أن يعمل الخديو مع غير الحزب الوطنى ويعلق « محمد فريد » على صفحة ٢٧٢ من مذكراته - ليس من الغريب أن يسعى جاويش فى أن يكون العمل بغير اسم الحزب الوطنى لأنه يرمى بذلك إزالة صفة الرياسة وأن ينتخب هو رئيسا لهيئة جديدة) .

ويظل « محمد فريد » و« عبد العزيز جاويش » يتخاصمان ويتصالحان ، ويجىء شهر نوفمبر ١٩١٨ وتعلن هزيمة تركيا ويهرب الجاويش من الأستانة إلى برلين ، ويتشكل الوفد المصرى برئاسة « سعد زغلول » وفى ٩ مارس تقوم الثورة القومية الكبرى ويسجل « محمد فريد » على صفحة ٣٠٣ (الذى يمكن قوله إن هذه الحركة لم تكن فى الحسبان وإن ما أظهره المصريون من التضامن والاتفاق ماكان أحد ليحلم به) .

الانعـزال والإرهـاب

فاجأت الثورة الشعبية المناضلين خارج مصر ، وسارع محمد فريد وعبد العزيز بإرسال برقيات تهنئة لسعد زغلول ، ووقعت قيادة الحزب الوطنى فريسة الانعزال عن الحركة الجماهيرية حتى توفى « محمد فريد » فى ألمانيا ، فى ١٥ نوفمبر ووقف « عبد العزيز جاويش » يؤبنه وقال : (أبصر فريد كيف اتحدت كلمة الشعب ، وكيف نافس فى سبيل الـوطن أطفـال الأمة ، الشيوخ ونساؤها والرجال ، ومسيحيوها المسلمين ، وكيف تعانق الهلال والصليب ، والقرآن والإنجيل ، وتعانق الشيخ والقسيس) . ولما جرت أول انتخابات عامة طبقا لدستور ١٩٢٣ ، ورشح الشيخ عبد العزيز جاويش نفسه عن دائرة كرموز بالإسكندرية وقف ، إلى جانبه « جندى إبراهيم » صاحب جريدة الوطن بمقال طويل نشر فى ٢١ ديسمبر سنة ١٩٢٣ ، وبذلك أكد الفريقان أن اية خلافات بين عنصرى الأمة يمكن محاصرتها وتجاوزها بصوت العقل والحكمة .

ومهما يكن من أمر فقد قبض على « الجاويش » يوم ١٢ يوليو ١٩٢٤ حين جرت محاولة لاغتيال « سعد زغلول » رئيس الوزراء وزعيم الأمة وأعادت إلى الأذهان محاولات الاغتيال الأخرى التى نسبت إلى الحزب الوطنى ، والجمعيات السرية التى كان يقف خلفها « الجاويش » ولقد كان الجناح السرى هو أقوى أجنحة الحزب الوطنى بعد أن دخل الحزب الوطنى مرحلة التشرذم والتفتت أمام (الوفد) الذى سيطر على الشارع المصرى وقت ذاك لم تكن أيدى هذا الجناح الذى يؤيده الجاويش بعيدة عن محاولة اغتيال زعيم الثورة ، كما إنها لم تكن بعيدة عن اغتيال « السردار » الذى أعقبته استقالة وزارة سعد فى نوفمبر ١٩٢٤ ، وزيادة تحكم الانجليز فى مقدرات البلاد ، واجهاض ثورة ١٩١٩ ، وأعقبه أيضا إصدار « زيور » رئيس الوزراء الجديد قرارا بتعيين «الجاويش» مديرا للتعليم الأولى .

وبعد وفاة « مصطفى كامل » انقسم الحزب الوطنى من الناحية الفعلية إلى أقسام مختلفة ، واشتدت نبرة « الجاويش » ولجأ كثيرون من أعضاء الحزب إلى العمل السرى ، وكان أبرزهم «إبراهيم الوردانى » الذى كانت له صلات قديمة ، وبعد أن تولى «الجاويش» رئاسة تحرير اللواء فى سنة ١٩٠٨ كان له تأثير قوى على الشباب وخاصة أعضاء الجمعيات السرية التى انتشرت فى البلاد ، إلى درجة أن « الخديو » نفسه فى فترة تباعد الحزب الوطنى عنه أو عز إلى « الشيخ على يوسف » بتأسيس (جمعية الاخلاص الإسلامية) كجمعية سرية تحارب الحزب الوطنى .

وإلى جانب الجمعيات السرية وجد « عبد العزيز جاويش » فى الصحافة وسيلة علنية للتعبير عن مواقفه وافكاره ، وقد ظهرت جريدة اللواء فى ٢ يناير ١٩٠٠ قبل الإعلان الرسمى عن الحزب الوطنى بسنوات ست ، وقد هاجم اللواء أحمد عرابى وثورته والشيخ محمدعبده وأفكاره وقاسم

أمين ودعوته إلى المرأة الجديدة وكان « عبد العزيز جاويش» من كتاب اللواء البارزين ، واتفقت اتجاهاته فى ذلك المجال مع اتجاهات مصطفى كامل ومحمد فريد ، وعلى الرغم من أن اللواء صدرت بتأييد من « الخديو » وعلى الرغم من أن مصطفى وفريد والجاويش حاربوا قاسم أمين وتحرير المرأة (تقربا للخديو ولذوى الأفكار المتخلفة ـ على حد تعبير سعد زغلول فى مذكراته ـ إلا أننا نجد شخصية أخرى أكثر تبعية للخديو وهو الشيخ على يوسف » ينشر بتأييد من « الشيخ محمد عبده » الذى وقف خلف « قاسم أمين » ودعوته ينشر كتاب « المرأة الجديدة » فى حلقات على صفحات (المؤيد) .

وتوفى « مصطفى كامل » فى ١٠ فبراير ١٩٠٨ ، وتولى « محمد فريد » رئاسة الحزب فى ١٤ فبراير انفجر الصراع المكبوت داخل الحزب الوطنى وداخل جريدة اللواء وسلم « محمد فريد » رئاسة تحرير اللواء للجاويش حتى يقف فى وجه مناورات « على فهمى كامل » واستقال من (اللواء) أحمد حلمى المحرر الأول واليد اليمنى لمصطفى كامل ، وأصدر مجلة (القطر المصرى) فى ٢٤ ابريل ١٩٠٨ وظل الجاويش رئيسا لتحرير اللواء حتى اغلقتها السلطات فى ٣١ أغسطس ١٩١٢ ، وقد عرف الجاويش بتطرف لهجته واتهمته السلطات بالتحريض على ارتكاب الجرائم ، وبإهانة الوزارة ، وارتفعت نبرته فى الدفاع عن الدولة العثمانية ، وكانت له مقالات مشهورة فى فترة الصراع الطائفى وقدم « الجاويش » أثناء رئاسته لتحرير اللواء « بداية من ٣ مايو ١٩٠٨ » للمحاكمة مرات ثلاثا الأولى بتهمة إهانة وزير الحربية ، والثانية بسبب مقال له فى ذكرى دنشواى، والثالثة بسبب مقدمة كتبها لديوان « وطنيتى » للشيخ على القاياتى ، وبسبب أزمة (اللواء) المالية والصراع الموجه بين الورثة ، ترك « محمد فريد » اللواء وأصدر جريدة أخرى تحل محل اللواء هى جريدة العلم ، وصدر العدد الأول منها يوم ٧ مارس ١٩١٠ ومديرها وصاحب امتيازها « اسماعيل أفندى حافظ » وقد عطلتها السلطات لمدة شهرين سنة ١٩١٠ ، وثلاثة شهور من ديسمبر ١٩١١ ، وعطلتها نهائيا فى ٧ نوفمبر ١٩١٢ وكان « الجاويش » هو المحرر الأول لجريدة العلم ايضا ، وضيقت السلطات الخناق عليه فخرج من مصر وسافر إلى الأستانة حيث اصدر هناك (الهلال العثمانى) بأموال الدوائر الحاكمة العثمانية ، ومالبث ان لحق به هناك « محمد فريد » فى ٣١ مارس ١٩١٢

الجامعة الأهليـــة

هذه فرصة للحديث الموثق عن (الجامعة الأهلية) وحقيقة موقف الشخصيات المختلفة منها ، بدأت (مجلة الهلال) التمهيد لهذا المشروع فى سنوات ١٨٩٨ ، ١٩٠٠ ، ١٩٠٣ ، وانضمت مجلة (المقتطف) لمجلة الهلال فى هذه الدعوة ، وفى سنة ١٩٠٤ اقترح « مصطفى كامل » إنشاء (كلية محمد على) ، وسنة ١٩٠٥ تبنى « الشيخ محمد عبده » المشروع ودعا الاثرياء للتبرع له وبعد أن رحل الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٥ ، دعا مصطفى كامل المصريين للتبرع لهذا المشروع وكان ذلك سنة ١٩٠٦ على أن تكون الجامعة (لاتختص بجنس أو دين بل تكون لجميع السكان على اختلاف جنسياتهم وأديانهم) وبذلك يكون « مصطفى كامل» هو الذى حدد الاتجاه العلمانى لهذه الجامعة منذ البداية ، وتمت الدعوة لاجتماع يعقد فى ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦ لمناقشة الاكتتاب ووضع الأسس العامة لهذه الجامعة وعقد الاجتماع بدار سعد زغلول وحضره ٢٧ شخصا نجد من بينهم « سعد زغلول وقاسم أمين ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش واخنوخ فانوس وعبد العزيز فهمى » ، وقرر المجتمعون تكوين لجنة تحضيرية من «سعد زغلول » وكيلا للرئيس ، وقاسم أمين سكرتيرا للجنة وحسن سعيد أمينا للصندوق وعضوية « محمد عثمان أباظة ، ومحمد راسم ، وحسن جمجوم ، وحسين السيوفى ، وأخنوخ فانوس ، وزكريا فانوس ، ومحمد الشيشينى ، ومصطفى الغمراوى « على أن يكون اسم الجامعة هو (الجامعة المصرية) وتأجل اختيار الرئيس .

واستاء « مصطفى كامل » وأرسل من أوروبا أنه سبق سعد زغلول وقاسم أمين فى الفكرة ، ويجب أن يكون تنفيذ المشروع تحت رعايته ، إلا أن اللجنة مضت فى عملها وتحمست الأمة للمشروع ، ويوم ٣٠ نوفمبر عقدت اللجنة جلسة ثانية فى منزل « حسن جمجوم » وحضر الاجتماع « سعد زغلول وقاسم أمين ومحمد فريد » وتم اختيار « قاسم أمين ، نائبا لرئيس اللجنة مكان سعد زغلول الذى كان قد اختير وزيرا للمعارف حتى يتفرغ لمنصبه الجديد ، واختير « محمد فريد» سكرتيرا محل قاسم أمين .

ثم سافر « محمد فريد » إلى أوروبا وطال غيابه فاختارت اللجنة « حفنى ناصف » سكرتيرا ، ولم نجد اسم « الجاويش » فى اللجان التالية ، وهاجم « محمد فريد » أعمال اللجنة على صفحات (الدستور) و(اللواء) وشنت اللواء حملة على أعضاء اللجنة، وهاجمها فى خطبه بعد رحيل مصطفى كامل ، وللتاريخ فإن « الشيخ على يوسف » وقف إلى جانب المشروع وهاجم موقف محمد فريد والحزب الوطنى واللواء ، وانتقد « سعد زغلول » موقف فريد وأنصاره (لأن الهمم فاترة من طبيعتها فليست هى فى حاجة إلى من يثبطها) على أية حال تشكل مجلس إدارة الجامعة برئاسة الأمير « أحمد فؤاد » وعقد أول جلسة له فى ٢٤ مايو ١٩٠٨ ، وكان « مصطفى كامل » قد رحل ، وابتعد عن المشروع « محمد فريد » و«الجاويش» والحزب الوطنى .

عبد العزيز فهمى



رحم الله الشيخ « محمد عبده » الذى استعاذ بالله من السياسة ، ومن لفظ السياسة ، ومن عبارات ساس ويسوس وسائس ومسوس .

ولعل الأستاذ الإمام يشير فيما يشير إليه من مثالب السياسة إلى أنها قد تصرف عبقريا عن جانب أو جوانب من عبقريته ، أو تصرف معاصريه المخالفين له فى الرأى عن الإشادة بهذا الجانب أو ذاك من الموهبة ، أو تجعلهم يسلطون الأضواء على جوانب الضعف دون جوانب القوة .

وهذا ما حدث لذلك الرجل العظيم « عبد العزيز فهمى » الذى أساءت السياسة إليه فاعتزلها واعتزل الحياة العامة وعاد إلى قريته « كفر المصيلحة » بمحافظة المنوفية ، وخلع ملابس المدينة وارتدى الجلباب والعباءة ، وانصرف يعلم الناس القراءة والكتابة حتى لم يعد فى القرية واحد يجهل القراءة والكتابة . وأسس الجمعية التعاونية وإقام المساجد ، وكأنه يقول لمنافسيه من رجال السياسة ، إليكم دولتكم السياسية اغرقوا فى « ساس ويسوس ومسوس » حتى الذقون ، واتركونى وشأنى مع أهلى البسطاء ومع قريتى الصغيرة وأنا وهم على الله نتعلم القراءة والكتابة ونتعاون على الحياة .

ويبدو أن الرجل كان يدرك مواهبه الحقيقية ويخشى عليها من السياسة ومن الساسة ، ففى أواخر سنة ١٩٢٢ وقف خلف تأسيس حزب الأحرار الدستوريين مع المنشقين على سعد زغلول ، ولكنه ترك رئاسة الحزب إلى « عدلى يكن » بل ولم يكن عضوا بالحزب ، وبعد أن استقال « عدلى يكن » من رئاسة حزب الأحرار الدستوريين فى أواخر ديسمبر ١٩٢٤ كتب إليه « محمد محمود وحافظ عفيفى » والح عليه قادة الحزب لكى يتولى رئاسة الحزب ولو إلى حين ومرة أخرى اختير

عبد العزيز فهمى



رحم الله الشيخ « محمد عبده » الذى استعاذ بالله من السياسة ، ومن لفظ السياسة ، ومن عبارات ساس ويسوس وسائس ومسوس .

ولعل الأستاذ الإمام يشير فيما يشير إليه من مثالب السياسة إلى أنها قد تصرف عبقريا عن جانب أو جوانب من عبقريته ، أو تصرف معاصريه المخالفين له فى الرأى عن الإشادة بهذا الجانب أو ذاك من الموهبة ، أو تجعلهم يسلطون الأضواء على جوانب الضعف دون جوانب القوة .

وهذا ما حدث لذلك الرجل العظيم « عبد العزيز فهمى » الذى أساءت السياسة إليه فاعتزلها واعتزل الحياة العامة وعاد إلى قريته « كفر المصيلحة » بمحافظة المنوفية ، وخلع ملابس المدينة وارتدى الجلباب والعباءة ، وانصرف يعلم الناس القراءة والكتابة حتى لم يعد فى القرية واحد يجهل القراءة والكتابة . وأسس الجمعية التعاونية وإقام المساجد ، وكأنه يقول لمنافسيه من رجال السياسة ، إليكم دولتكم السياسية اغرقوا فى « ساس ويسوس ومسوس » حتى الذقون ، واتركونى وشأنى مع أهلى البسطاء ومع قريتى الصغيرة وأنا وهم على الله نتعلم القراءة والكتابة ونتعاون على الحياة .

ويبدو أن الرجل كان يدرك مواهبه الحقيقية ويخشى عليها من السياسة ومن الساسة ، ففى أواخر سنة ١٩٢٢ وقف خلف تأسيس حزب الأحرار الدستوريين مع المنشقين على سعد زغلول ، ولكنه ترك رئاسة الحزب إلى « عدلى يكن » بل ولم يكن عضوا بالحزب ، وبعد أن استقال « عدلى يكن » من رئاسة حزب الأحرار الدستوريين فى أواخر ديسمبر ١٩٢٤ كتب إليه « محمد محمود وحافظ عفيفى » والح عليه قادة الحزب لكى يتولى رئاسة الحزب ولو إلى حين ومرة أخرى اختير

رئيسا لحزب الأحرار الدستوريين بعد وفاة « محمد محمود » فى فبراير سنة ١٩٤١ . وكان فى كل مرة عازفا عن الرئاسة ويتحين الفرصة ليتركها فى أقرب وقت .

بعيدا عن السياسة

وبعيدا عن السياسة نراه شاعرا مشهودا له وإن كان هذا الجانب غير شهير به قال عنه الدكتور طه حسين . . « ما أعرف أن احدا أصلح من رأيى فى الشعر العربى كما أصلح من رأيى عبد العزيز فهمى وما أعرف أن أجدادنا ناقشنى من الشعر الجاهلى كما ناقشنى فيه عبد العزيز » له قصيدة طويلة من ٣٤٠ بيتا قال عنها من قرأها إنها ثامنة المعلقات إشارة إلى المعلقات السبع وتلك هى الثامنة . ويقول الأستاذ الدكتور محمد مهدى علام فى كتابه « المجمعيون فى خمسين عاما » إن الأستاذ محمد شوقى أمين عضو المجمع ، عنده قصيدتان طويلتان رصينتان للشاعر « عبد العزيز فهمى » . . ليت الأستاذ محمد شوقى أمين يعيد على شباب اليوم نشر هاتين القصيدتين . . وليت عبد العزيز فهمى ابتعد عن السياسة وبقى شاعرا كبيرا من شعراء العربية .

وبعيدا عن السياسة نراه عضوا بمجمع اللغة العربية منذ سنة ١٩٤٠م إلى سنة وفاته ١٩٥١م. وفى المجمع كان له نشاط كبير ، واشترك فى كثير من لجانه مثل لجنة الأصول ، ولجنة الاقتصاد ، ولجنة القانون ولجنة ألفاظ الحضارة الحديثة ، ولجنة اللهجات ، ولجنة نشر النصوص القديمة .

وقد تقدم للمجمع باقتراح رأى أنه السبيل لتيسير الكتابة العربية وجعلها صالحة لضبط النطق وهو أن تكون الكتابة بالحروف اللاتينية بدلا من الحروف العربية . وقد كان لهذا الاقتراح صدى كبير ، فكان مجالا لمناقشات طويلة لم تقتصر على قاعة جلسات المجمع ، بل تعدتها إلى الصحافة وإلى الهيئات المعنية بالدراسات اللغوية ، وانتهى الأمر برفض المشروع .

ومهما يكن من أمر ، ليت عبد العزيز فهمى ابتعد عن السياسة إذن لكسبت اللغة العربية عالما كبيرا إلى جانب أحمد لطفى السيد وطه حسين .

حـرية الفـكر

وهذا الرائد العظيم واحد من مدرسة عظيمة تضم « أحمد لطفى السيد والشيخ مصطفى عبد الرازق ، والشيخ على عبد الرازق ، والدكتور محمد حسين هيكل ، والدكتور طه حسين ، وإبراهيم

دسوقى أباظة . . هذه المدرسة التى نؤثر ان نسميها «مدرسة التنوير » وإن تربت فى أحضان حزب محافظ سياسيا هو حزب الأحرار الدستوريين ، ولكن كانت لها مواقف شجاعة دفاعا عن حرية الرأى وعن حرية الفكر .

فى ٣ مارس سنة ١٩٢٤ أعلن « مصطفى كمال اتاتورك » إلغاء الخلافة العثمانية ، فأوعز الانجليز إلى الملك فؤاد بأن يتولى منصب الخلافة ، ولما كان الملك فؤاد هو من هو فى صفاته وأخلاقياته ومن منطلق وطنى ديمقراطى وقفت مدرسة الاستنارة وفى مقدمتها عبد العزيز فهمى ضد فكرة أن يتولى الملك فؤاد الخلافة ، واستطاعت هذه المجموعة بثقلها الفكرى والثقافى والحزبى أن تجعل حزب الأحرار الدستوريين بأسره يقف ضد هذه المحاولة ووقف الوفد إلى جانب الأحرار .

وبهذا الصدد أصدر الشيخ على عبد الرازق القاضى الشرعى بمحكمة المنصورة كتابه الشهير «الإسلام وأصول الحكم » سنة ١٩٢٥ بهدف سد الطريق أمام الملك فؤاد وأمام الانجليز الذين أرادوا أن يستخدموا فكرة الخلافة فى إضفاء صفة الشرعية على تصرفاتهم وتصرفات الملك فؤاد .

وأثار الكتاب عاصفة فى الحياة السياسية والثقافية والدينية ، قادها الملك فؤاد سرا وعلانية فعقدت « هيئة كبار العلماء » محاكمة تأديبية للمؤلف أنتهت بالحكم عليه بما يؤدى إلى فصله من وظيفته وتحريم توليه الوظائف المدنية أو الدينية وحكم بتجريده من « شهادة العالمية » .

وكان عبد العزيز فهمى وزيرا للحقانية فى وزارة أحمد زيور الثانية التى شكلها فى ١٣ مارس ١٩٢٥ وكان فى تلك السنة رئيسا لحزب الأحرار الدستوريين ، وانعكس الخلاف الحاد حول كتاب « الإسلام وأصول الحكم » على وزارة زيور التى ضمت عناصر كثيرة موالية للملك فؤاد الطامع فى الخلافة ، وأصبح على وزير الحقانية عبد العزيز فهمى بعد قرار « هيئة كبار العلماء » ان يصدر قرارا بفصل الشيخ على عبد الرازق من منصبه ، وقال الرجل فى قوله المشهور : « بأى حق فى الكتاب أو فى السنة أو فى الدستور أو فى القانون أصادر حرية الرأى وأعتدى على حرمة العلم وكرامة العلماء » وقال : « استحضرت هذا الكتاب وقرأته فلم أجد فيه ادنى فكرة يؤاخذ عليها مؤلفه » ، وأصر الملك فؤاد على فصل الشيخ المؤلف .

ورفض الرجل أن يصدر قرارا بفصل المؤلف وأعد استقالته لأنه كاره بطبعه للسياسة وللمنصب . وجاء أمر الملك فؤاد بأن يقدم الوزير استقالته وهنا تغير موقف عبد العزيز فهمى ابن كفر المصيلحة ومزق الاستقالة وصاح : « أنا لن استقبل . . وعلى الملك أن يقيلنى بمرسوم أو أن يقدم رئيس الوزراء استقالة الوزارة ولايدخلنى فى الوزارة . وكان زيوار باشا يستشفى فى الخارج تاركا تصريف الأمور ليحيى إبراهيم ، وتاركا البلاد لرئيس الديوان الملكى حسن نشأت فاستصدر

يحيى إبراهيم مرسوما بإحالة أعمال وزير الحقانية إلى وزير المعارف على ماهر ! فلزم الرجل بيته وقدم توفيق دوس ومحمد على علوبة استقالتيهما من الوزارة تضامنا مع عبد العزيز فهمى وكان إسماعيل صدقى وزير الداخلية فى أوروبا فاستقال تلغرافيا .

وفى ٨ مارس ١٩٢٥ أصدر حزب الأحرار الدستوريين قرارا باجماع الحاضرين نسجله هنا لأهميتةته التاريخية :

ـ الثقة التامة بسيادة رئيس الحزب عبد العزيز فهمى باشا وبزميليه محمد على علوبة باشا وتوفيق دوس باشا .

ـ استنكار ما يروجه خصوم الحزب من أن هذا التصرف المخالف للدستور منشؤه مسألة دينية . ونعلن أن حزب الأحرار الدستوريين يحافظ اشد المحافظة على أن الإسلام دين الدولة .

ـ عدم التعاون مع الحكومة واستقالة الوزراء الأحرار الدستوريين . .

وارتاح عبد العزيز فهمى من هموم المنصب الوزارى الذى لم يكن راغبا فيه . ولم يبق يثقل كاهله إلا رياسته لحزب الأحرار الدستوريين فاستقال منها سنة ١٩٢٦ وجاء بعده محمد محمود ، واشتهر فى تلك الفترة ، وفى مواجهة تلك الأزمة بخطابه المشهور « حنانيك يانشأت » والمقصود به حسن نشأت الذى كان رئيسا للديوان الملكى ، والرئيس الفعلى لحزب الاتحاد حزب الملك فؤاد .

النزاهة المبكرة

مكث فى مدرسة الحقوق حتى سنة ١٨٨٩ ، وكان وقتئذ فى السنة النهائية وتقدم إلى وظيفة مترجم ونجح على الرغم من بقاء عدة شهور على امتحان ليسانس الحقوق ، وبعدها حصل على الليسانس سنة ١٨٩٠ وعمره أقل من عشرين عاما . وحدث وهو فى عمله كمترجم أن وصلته دعوة لمقابلة السير ملنر « وهو اللورد ملنر رئيس لجنة ملنر » فيما بعد إبان الحركة الوطنية . وكان فى ذلك الحين وكيلا لوزارة المالية وصاحب الشأن الفعلى ، وعرض عليه وظيفة معاون إدارة بالدقهلية بمرتب ١٢ جنيها . ويقول فى كتابه « هذه حياتى » . . ولما كنا فى أوائل شهر أغسطس سنة ١٨٩٢ واخذ النيل فى الارتفاع فنصبت « خصا » من البوص على جسر البحر وأرسل لى والدى بغلة أركبها فى المرور على الدرك المخصص لى وقد اتبعت فى عشى خطة لم تكن متبعة من قبل تلك أنى دفعت ثمن البوص والخشب اللازم للخص من مالى ، ولم أقبل من أى من الوجهاء أن يقدم لبغلتى شيئا من التبن ولا من العليق ، كما جرت عادة المعاونين .

ولما انتهت فترة زحف النيل فى تلك السنة ١٨٩٢م جاءنى أمر من المدير بألا أرجع إلى المنصورة، بل أقوم بالتحصيل فى البلاد التى كان أهلوها يخفرون النيل فى دركى . وهنا أقول إننى لم أطق البقاء بعد ١٨٩٢ بالإدارة فتبادلت مع كاتب اسمه بسيونى أفندى بمحكمة طنطا فجاء معاونا بالدقهلية بدلى ، وذهبت كاتبا بمحكمة طنطا بدله ، وسنة ١٨٩٣ نقلت معاونا لنيابة قنا ومعاونا لنيابة أسنا ١٨٩٤ ، ونيابة نجع حمادى ١٨٩٥ ، ونيابة بنى سويف ١٨٩٥ وهناك التقيت بصديقى أحمد لطفى السيد الذى كان عضوا بنيابة بنى سويف ، وسنة ١٨٩٧ فى منتصفها عينت وكيلا للمستشار القضائى بالأوقاف ، ولكن طبيعة عبد العزيز فهمى قلقة وسرعان مازهد فى الوظيفة .

وسنة ١٩٠٣ استقال عبد العزيز فهمى وبدأ العمل بالمحاماة وفتح مكتبا فى ميدان العتبة الخضراء . وكان زميله فى هذا المكتب صديقه عزيز منسى وظل المكتب يعمل حتى استقال أحمد لطفى السيد سنة ١٩٠٦ وانضم إليهما فى المكتب .

بيت الأمة

وفى يوليو سنة ١٩١٣ صدر قانون بإنشاء الجمعية التشريعية لتحل محل مجلس شورى القوانين والجمعيات العمومية . . ويقول فى « هذه حياتى » . . لم أكن ممن يميلون لترشيح أنفسهم وخوض المعارك الانتخابية ولكن صديقى محمد علوى الجزار هو الذى جعل أهالى قويسنا يرشحوننى وينتخبوننى عن دائرتهم وافتتحت الجمعية التشريعية فى ٢٢ يناير ١٩١٤ وتعطلت أعمالها فى ديسمبر من السنة نفسها لفرض الحماية على مصر .

وفى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ ـ وهو يوم الهدنة ـ طلبنا من سير ريجنلد ونجت المعتمد البريطانى تحديد موعد لمقابلته فحدد لنا الساعة الحادية عشرة من صباح ١٣ نوفمبر ، ومما أذكره هنا أننا ونحن مجتمعون بمنزل سعد باشا حضر اثنان من الحزب الوطنى هما مصطفى الشوربجى ومحمد زكى على واعترضا على انفرادنا بتأليف الوفد دون تفكير فى الحزب الوطنى وغيره ، وقال مصطفى الشوربجى لسعد باشا ليس هذا بيتك ... إنه بيت الأمة . . وسارت مثلا .

ويواصل عبد العزيز فهمى ذكرياته : وكان الأمر قد وصل بالأمير عمر طوسون والحزب الوطنى وبعض أعضاء الجمعية التشريعية إلى تأليف وفد آخر إلى جانب وفدنا فاتفقنا على فكرة ترضى الجميع وهى أن كل من كان عضوا فى الجمعية التشريعية يكون عضوا فى وفدنا .

هو إذن ثانى الثلاثة الذين قابلوا المعتمد البريطانى فى الساعة الحادية عشرة يوم ١٣ نوفمبر

١٩١٨ « سعد زغلول وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى » وهو عضو الوفد المصرى فى تشكيله الأول وتؤكد الوثائق التاريخية دوره فى التمهيد لتشكيل الوفد ، ودوره فى المطالبة باستقلال مصر ، وهو الذى تولى كتابة محضر بما دار فى تلك المقابلة التاريخية ، وقد كان التشكيل الأول للوفد من سعد زغلول وعبد العزيز فهمى ومحمد على علوبة وعبد اللطيف المكباتى ومحمد محمود وأحمد لطفى السيد .

وفى ٨ مارس سنة ١٩١٩ اعتقل سعد باشا وإسماعيل صدقى باشا ومحمد محمود باشا وحمد الباسل باشا ونفاهم الانجليز إلى مالطة ، وغداة الاعتقال اشتعلت الثورة القومية الكبرى .

وسافر عبد العزيز فهمى مع الوفد إلى باريس ولندن واختلفت وجهات النظر داخل الوفد فاستقال عبد العزيز من الوفد فى يناير ١٩٢١ ووقف خلف تشكيل حزب الأحرار الدستوريين دون أن ينضم إليه .

ليس من الأشقياء

أعلنت وزارة عبد الخالق ثروت الاستقلال حسب تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، وشكلت لجنة لوضع الدستور كان من أبرز أعضائها عبد العزيز فهمى وبرئاسة حسين رشدى باشا ، وفى تلك الأثناء كان زعيم الشعب سعد باشا فى المنفى فى سيشل وقاطع الوفد والحزب الوطنى لجنة الدستور، وطالب الوفد بجمعية تأسيسية منتخبة لوضع الدستور وأطلق سعد باشا عبارة «لجنة الاشقياء » على لجنة الدستور . على أى حال جاء مشروع الدستور الذى انتهت إليه اللجنة مخيبا لآمال الملك فؤاد . وغضب الملك على رئيس الوزراء عبد الخالق ثروت لأنه لم يعترض على النتائج التى توصلت إليها لجنة الدستور فاستقال فى أواخر أكتوبر ١٩٢٢ وجاءت وزارة توفيق نسيم وأدخلت تعديلات على مشروع لجنة الدستور وجاءت وزارة أخرى برياسة يحيى إبراهيم وتصدى فقيه ذلك العصر عبد العزيز فهمى لهذه المحاولات . ونشر فى الصحف نص الخطابات التى وجهها إلى رئيس الوزراء يحيى إبراهيم مطالبا بالعدول عن كل تعديل فيما انتهت إليه لجنة الدستور. وفى هذه الخطابات حدد عبد العزيز فهمى نقاطا هامة تشهد له أنه لم يكن ضمن الاشقياء الذين سايروا الملك داخل لجنة الدستور . . وأهم هذه النقاط :

ـ السيادة هى سيادة الأمة ، فلابد أن تكون الأمة وليس الملك مصدر السلطات .

ـ إن حل مجلس النواب من جانب الملك ينبغى أن يكون مقيدا ، وإن حل مجلس الشيوخ محظور عليه .

ـ إن الملك لا حق له فى تعيين نصف أعضاء مجلس الشيوخ ـ كما ذهب إليه التعديل ـ ويكتفى

بتعيين ثلاثين عضوا فقط يختارهم الملك عن طريق الوزارة الدستورية .

ـ الملك ليس من حقه إصدار مراسيم فى غيبة البرلمان .

ـ ليس من حق الملك ان يلحق بإدارته شئون التعليم الدينى وإدارة الأوقاف

لقد كان عبد العزيز فهمى فى هذا الموقف صائغا قانونيا لوجدان الشعب . وبالفعل تم حذف فقرات هامة من التعديل الذى أدخل على بيان لجنة الدستور الذى أعلن فى ١٩ ابريل ١٩٢٣ وجاءت بموجبه وزارة الشعب الأولى بعد انتخابات حرة .

هـذه حـياته

هذه القيمة الدستورية العظيمة ، عضو الوفد المصرى الأول ، وأحد مؤسسى حزب الأحرار الدستوريين ، والمحامى النزيه وعضو لجنة دستور ١٩٢٣ ورئيس حزب الأحرار لفترتين «متفرقتين» ووزير الحقانية ووزير الدولة وعضو مجلس الشيوخ ورئيس المجلس . وأول رئيس لمحكمة النقض ، والقاضى العادل ، وعضو مجمع اللغة العربية ، والشاعر والأديب والمترجم ، المدافع الصنديد عن حرية الفكر ، والذى طالب بإلغاء تعدد الزوجات، والمشرع الدقيق ، والمحامى الذى لايقبل الدفاع عن الباطل . . هذه الشخصية الثرية يقول عن نفسه فى كتاب هذه حياتى : « نشأت فى أسرة من صميم الريف المصرى الذى اعتز به ولبثت فى الجامع الأزهر أعيد تسميع القرآن وأحفظ المتون . ولدت فى ليلة أول شوال سنة ١٢٨٥هـ الموافقة ٢٣ ديسمبر ١٨٧٠ م» وسلام عليه يوم ولد ويوم مات فى فبراير ١٩٥١ .

الأسانيد :

١ ـ حافظ محمود « أسرار الماضى ١٩٠٧ ـ ١٩٥٢ » .

٢ ـ عبد العزيز فهمى « هذه حياتى » .

٣ ـ مجلة الطليعة « أغسطس ١٩٧٢» .

٤ ـ مركز الوثائق والبحوث « مؤسسة الأهرام » « خمسون عاما على ثورة ١٩١٩» طبعة ١٩٦٩ .

عبد السلام فهمى جمعة



مدينة طنطا . . ذات التاريخ الشعبى والدينى والوطنى . . وسط هذا المزيج الفريد ينشأ بيت « جمعة » لايبخل على مصر بالشهداء إذا طلبت الاستشهاد ، ويقدم لها اثنين من أفضل العناصر الوطنية فى تاريخنا القريب . . الوالد وابنه أو الابن وأباه . . عبد السلام فهمى محمد جمعه والدكتور عزيز فهمى .

نشأ الأب « عبد السلام فهمى جمعة » فى مناخ الحركة الوطنية المصرية وهى تتبلور فى (الوفد المصرى) ، والثورة الشعبية الكبرى تشتعل ، وهو من قادتها فى مدينة (طنطا) وسط الدلتا . واتجهت التظاهرة الأولى يوم ١١ مارس ١٩١٩ إلى محطة السكة الحديد تمنع القطارات من الحركة فى هذا الاتجاه أو ذاك ، ووصلت الرسالة إلى أهالى الدلتا وبدءوا هم ايضا بالمشاركة فى هذا التيار الشعبى الجارف . وكانت توجيهات القيادة الوفدية فى طنطا هى الاحتجاج السلمى ، وهكذا كانت التظاهرة الأولى سلمية من الصباح حتى المساء .

وفى صباح يوم الأربعاء ١٢ مارس ١٩١٩ خرج أبناء « المعهد الأحمدى » هاتفين بحرية هذا الوطن ، وسارت جموعهم إلى المدارس كافة وانضمت إليهم الجماهير الثائرة ، إلى مبنى المديرية . ومن مبنى المديرية إلى المحطة حتى تتوقف حركة المواصلات احتجاجا ، ولكن شرذمة من جنود الاحتلال خرجت على المتظاهرين ترميهم بالرصاص فسقط أكثر من ٢٠ قتيلا ، وحوالى ٥٠ جريحا . . من الشهداء أذكر اسماء « محمد إسماعيل » الطالب بالمعهد الأحمدى ، و«السيد يوسف المبيض » تاجر، و«محمد عامر العربى» مزارع ، و«منصور فهمى جرجس» طالب ، و«محمود السيد جمعة » طالب وهكذا ضمت قائمة الشهداء طلاب المعهد الأحمدى، وطلاب المدارس الثانوية ، والتاجر والمزارع . وفى مناخ الثورة الوطنية اكتملت شخصية « عبد السلام فهمى جمعة» .

والحديث عن الابن « الدكتور عزيز فهمى » هو جزء من الحديث عن الأب « عبد السلام فهمى جمعة » إذ إن الأب رمى بالابن فى أتون السياسة التى كان الأب من كبار شخصياتها ، وشارك فيها منذ نشبت الثورة والأب كان وراء الأبن العظيم يشركه فى الرأى، ويلقنه كل ما يهم الوطن ، وهذه الرعاية السياسية من الأب ملأت عزيزا بتلك النزعات السياسية وجعلته ذا حظ كبير يفوق حظ الناشئين الذين عاصروه . . ثم دفع الاب بالأبن إلى باريس ليحصل على مزيدمن علم فى حقل الحقوق وحقل الآداب . وكان له ما أراد وعاد الأبن إلى مصر عام ١٩٤٨ يحمل «دكتوراه» فى الحقوق ودكتوراه فى الآداب .

ليس غريبا إذن أن نتحدث عن الابن عندما نتحدث عن الأب ، وليس غريبا أيضا أن يقع العكس . . وها هو أستاذنا «الشيخ أحمد أمين » فى كتابه (حياتى) يحدثنا عن رحلة له مع طلابه فى سنة ١٩٣١ ، وفى إجازة نصف السنة إلى العراق . يقول بأسلوبه الممتع : (كان يوما أيوم ، يوم « سر من رأى » وقد شاء الله أن تكون « سيء من رأى » ذلك أننا اعتزمنا زيارة سامرا وعبرنا نهر دجلة وحدث أن اراد طالب معنا أن يعبر الجسر المقام على دجلة فسقط بين المركبين ، وكانت الدنيا شتاء والبرد قارسا فاخرجناه والحمد لله سليما . . وكان هذا الطالب هو المرحوم « عزيز فهمى» نجل الأستاذ « عبد السلام فهمى جمعة » رئيس مجلس النواب سابقا وكان هذا الحدث ارهاصا لما حدث فيها بعد ، فقد ذهب الأستاذ بعد ذلك بسنين ، يريد أن يترافع فى قضية وفاته القطار ، فركب سيارة إلى بنى سويف ، فغرقت به فى الطريق ، (وكأن القدر حتم عليه أن يموت غريقا) .

رياسة مجلس النواب

تولى « عبد السلام فهمى جمعة » رياسة مجلس النواب مرتين . . الأولى من ٣٠ مارس سنة ١٩٤٢ إلى ١٥ نوفمبر ١٩٤٤ . والثانية من ١٦ يناير ١٩٥٠ إلى ١٠ مارس ١٩٥٢ . وبذلك يكون قد جلس على الكرسى الذى جلس عليه منذ ١٦ مارس ١٩٢٤ أول مجلس نواب فى ظل دستور ١٩٢٣ « أحمد مظلوم باشا ، وسعد زغلول باشا ، ومصطفى النحاس باشا، وويصا واصف بك ، ومحمد توفيق باشا والدكتور أحمد ماهر ، ومحمد بهى الدين بركات باشا ، ومحمد حامد جودة بك » . وإذا كان «أحمد مظلوم باشا » هو أول رئيس لمجلس النواب فى العهد البرلمانى، فقد كان أيضا رئيسا للجمعية التشريعية (ديسمبر ١٩١٣) .

وبهذا الصدد لا بأس أن نذكر أن الهيئات النيابية فى مصر بدأت سنة ١٨٢٤ وان لم تكن كاملة الشكل أو السلطة . . كان فى مصر المجلس العالى ، وهو مجرد مجلس استشارى أيام « محمد على

الكبير » وقد تولى رياسته على التوالى « محمد لاظوغلى بك ومحمد شريف بك ، والحاج إبراهيم أفندى ، ومحمود أفندى ، وعبده شكرى بك ، ومصطفى مختار بك ، وعبد الباقى بك » .

ثم بدأ مجلس « شورى النواب » أيام إسماعيل (١٨٦٦) وتولى رياسته على التوالى « إسماعيل راغب باشا ، وعبد الله عزت باشا ، والسيد أبو بكر راتب باشا ، وقاسم رسمى باشا ، وجعفر مظهر باشا ، وأحمد رشيد باشا ، وحسن راسم باشا » .

وأما مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية أيام الاحتلال وأيام توفيق ومن تلاه منذ ١٨٨٣ حتى قيام الجمعية التشريعية سنة١٩١٣ فقد كان الرؤساء على الوجه التالى : « محمدسلطان باشا، على شريف باشا ، عمر لطفى باشـا ، إسماعيل محمـد عبد الحميد صادق باشا ، الأمير حسين كامل باشا ، محمود فهمى باشا » .

ونعود إلى المرة الأولى التى تولى فيها « عبد السلام فهمى جمعة » رئاسة مجلس النواب من (٣٠ مارس ١٩٤٢ ـ ١٥ نوفمبر ١٩٤٤) فقد كانت فى ظل حكومة الوفد (٤ فبراير ١٩٤٢ ـ ٨ اكمتوبر ١٩٤٤) ومعروف تاريخيا أن أحزاب (الأقلية السياسية) حاولت أن تشترك فى حكومة ٤ فبراير برياسة « مصطفى النحاس » ولكن « النحاس باشا » رفض بإصرار لسابق خبرته بالحكومات الائتلافية مع هذه الأحزاب . ثم طلبت تلك الأحزاب أن يسمح لها الوفد بنصف مقاعد مجلس النواب ورفض الوفد هذه النسبة وعرض على الأحزاب ربع عدد المقاعد ، ولم تقبل الأحزاب هذا العرض وأجريت الانتخابات وفاز فيها الوفد بنسبة ٨٩٪ من مقاعد مجلس النواب . وأقيلت حكومة « النحاس باشا » فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ ، وتولى رئاسة الحكومة « أحمد ماهر باشا الذى استصدر قرارا بحل مجلس النواب الوفدى فى ١٥ نوفمبر ١٩٤٤ .

وفى ٣ يناير ١٩٥٠ كانت الانتخابات الشهيرة التى فاز فيها الوفد بأغلبية ساحقة . وتم انتخاب « عبد السلام فهمى جمعة » رئيسا لمجلس النواب للمرة الثانية . وبسقوط حكومة الوفد فى ٢٧ يناير سقط نظام كامل كان قد بدأ بحكم الوفد أيضا فى يناير ١٩٢٤ ، وكان فى درج « على ماهر » مرسوم موقع من الملك بحل مجلس النواب دون تحديد التاريخ ولكن « مرتضى المراغى وزير الداخلية أذاع مرسوم حل مجلس النواب على الصحف فى ١٠ مارس ١٩٥٢ .

المواجهـة مع جريفـز

لن نتحدث عن الفترة القصيرة التى تولى فيها « عبد السلام فهمى محمد جمعة » وزارة الزراعة من ٦ فبراير إلى ٣١ مارس ١٩٤٢ لأن الفترة قصيرة ، وقد تم تعديل وزارى لأن «عبد السلام

جمعة» انتخب رئيسا لمجلس النواب فى ٣٠ مارس ١٩٤٢ ، وحل مكانه وزيرا للزراعة « الأستاذ محمد فؤاد سرج الدين » . كما إنه فى وزارة « مصطفى النحاس » الرابعة (٣ أغسطس ١٩٣٧ ـ ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧) وهى الوزارة التى عين فيها « عبد السلام فهمى محمد جمعة » وزيرا للتجارة والصناعة ووزيرا للمعارف العمومية وقد جرى تعديل وزارى فى ١٧ نوفمبر ١٩٣٧ ترك بموجبه «عبد السلام باشا » وزارة المعارف وحل محله فى تلك الوزارة « أحمد نجيب الهلالى بك » .

سيكون حديثنا مقصورا على إنجازات « عبد السلام فهمى محمد جمعة باشا » فى وزارة التجارة والصناعة فى حكومة « مصطفى النحاس » الثالثة (١٠ مايو ١٩٣٦ ـ ٣١ يوليو ١٩٣٧) وفى وزارة التجارة والصناعة أيضا فى الوزارة الرابعة لمصطفى النحاس باشا (أول أغسطس ١٩٣٧ ـ ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧) .

ويلاحظ الباحثون ان الفترة من مايو ١٩٣٦ إلى ديسمبر ١٩٣٧ من اخطر الفترات التى وقف فيها الوفد فى مواجهة الانجليز والقصر فيما يتصل بالحركة العمالية ، وخاصة مشكلات الأجور والبطالة . . وقد كان الانجليز يقبضون على زمام الأمور عن طريق « مكتب العمل » الذى يسيطر عليه رجال الأمن العام الانجليز ، يتلقون التوجيهات من « جريفز » المدير العام للمكتب . وإلى جانب « مكتب العمل » كان « اتحاد العمال » الذى عادت السيطرة عليه لعباس حليم بعد أن رد إليه « الملك فاروق » لقب «النبيل » فهادن القصر وساءت العلاقة بينه وبين الوفد . وهناك أيضا «اتحاد الصناعات » وكانت رئاسته لأحمد زيور رجل الانجليز والقصر .

كل هذه الأجهزة تكاتفت لعزل الوفد عن العمال ، بل إنها ذهبت إلى تحريض العمال ضد حكومة الوفد ، فشهدت تلك الفترة موجة من الإضرابات العمالية أبرزها أضرابات عمال النسيج والسكر والنقل .

وتدلنا التقارير التى كان يرفعها جريفز إلى السفارة البريطانية وترفعها السفارة بدورها إلى «المستر انتونى ايدن » وزير الخارجية على موقف جريفز ضد الوفد ، واتهام الوفد بالعمل ضد مصالح الشركات الأجنبية . ويخشى جريفز ان يؤدى تشجيع الوفد لعمال المدن إلى أن يطالب عمال الزراعة بزيادة أجورهم بنفس القدر . وفى تقرير للسفير البريطانى إلى وزير الخارجية ايدن ان الملك «فاروق» عرف بوجهة نظر « المستر جريفز » .

ولكن حكومة الوفد ممثلة فى وزير التجارة والصناعة كان عليها أن تواجه الانجليز والقصر واتحاد الصناعات فأصدر « عبد السلام جمعة » وزير التجارة والصناعة قرارا (١٤ يوليو ١٩٣٦) بتشكيل لجنة لبحث الموقف من جميع جوانبه ، ولم تجددالحكومة قرار المجلس الاستشارى الأعلى للعمل الذى يمثل المصالح الحكومية الخاضعة لنفوذ الانجليز وأصدرت قرارا بمنح عمال الحكومة

إجازات سنوية مدفوعة الأجر . ووضعت العناصر الوفدية فى المواقع الحساسة بمصلحة العمل واستطاعت هذه العناصر أن تحد من نفوذ « جريفز » المدير العام للمصلحة . . وقرر « النحاس باشا » رئيس الوزراء ، وعبد السلام جمعة وزير التجارة والصناعة والوزراء الأخرون عدم استقبال «جريفز » ووضعوه فى حجمه الحقيقى كموظف لدى حكومة مصر . ولكنه استرد مكانته بعد إقالة حكومة الوفد فى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ ، وتولى « محمد محمود » رئاسة الوزارة .

على أية حال فإن الوفد فى أواخر الثلاثينات سيطر على الحركة العمالية ، وحقق فى هذا المجال نصرا واضحا على القصر وعلى عباس حليم وعلى « جريفز » والسياسة الانجليزية إزاء الحركة العمالية المصرية .

سكرتير عام الوفد

وقد أفرزت ثورة ١٩١٩ قادة سياسيين فى الأقاليم المختلفة وفى الغربية ظهر « يوسف الجندى » الذى تزعم المجلس الثورى وظهر « عبد السلام فهمى محمد جمعة » الذى ارتبط بالفلاحين والتجار ولأفندية والأعيان فى طنطا ، وظل مخلصا لهذه البيئة وأقام فيها ، ولم ينقل مقر إقامته حتى وهو رئيس لمجلس النواب ، على الرغم من عضويته القديمة فى (الوفد المصرى · الذى كان بمثابة الهيئة العليا للوفد ، وظل هذا الوضع قائما وهو وزير . وفى عهد ولاية « عبد السلام جمعة » على وزارة التجارة والصناعة يقرر الباحث « ماريوس ديب » فى كتابه (الوفد وخصومه) أن الوفد استطاع أن يستعيد بوجه عام فى الفترة (١٩٣٥ ـ ١٩٣٩) ولاء العمال ، وقد أيد « عبد السلام فهمى جمعة » الاعتراف الرسمى بنقابات العمال بوصفه إجراء يفيد العمال وأصحاب العمل . ويقرر أيضا أن الوفد كان متعاطفا مع مطالب النقابات العمالية المختلفة مثل زيادة الأجور وتخفيض ساعات العمل « الإجازات المدفوعة الأجر ، والاجازات المرضية ، والتأمينات والمعاشات» .

وأقدمية « عبد السلام فهمى محمد جمعة » فى الوفد سابقة على الذين انتخبهم الوفد فى هيئته العليا فى سبتمبر وديسمبر ١٩٣٧ أمثال « محمد سليمان الوكيل ، ومحمد المغازى عبد ربه ، وبشرى حنا ، ومحمد الحفنى الطرزى ، وكمال عليا ، وفهمى ويصا وسيد بهنس ، ومحمد صبرى أبو علم ، وعبد الفتاح الطويل ، ويوسف الجندى ، وعلى زكى العرابى ، وعلى حسين ، وأحمد نجيب الهلالى ، ومحمد محمود خليل ، وعثمان محرم » . وكان عدد الأعضاء القدامى ثمانية أعضاء هم : « مصطفى النحاس ومكرم عبيد ، وأحمد حمدى سيف النصر ، وكامل صدقى ، ومحمود

البسيونى ، وإبراهيم سيد أحمد ، وعبد السلام فهمى جمعة».

وفى عام ١٩٤٧ توفى « محمد صبرى أبو علم » السكرتير العام للوفد المصرى ، وتولى « عبد السلام فهمى جمعة » المنصب ولكن لإقامته الدائمة فى طنطا بعيدا عن القاهرة ، ولظروفه الصحية ، قدم استقالته وعرض المنصب على « عبد الفتاح الطويل » واعتذر لاقامته الدائمة أيضا فى الإسكندرية . وفى عام ١٩٤٨ اختير « محمد فؤاد سراج الدين » سكرتيرا عاما ، واختير «محمود سليمان غنام » سكرتيرا مساعدا .

يوليـو والوفـــد

وفى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ استولى الضباط الأحرار على السلطة . ووجهوا رأس الرمح ضد (الوفد) . . وألغيت الأحزاب لإلغاء الوفد ، وألغى دستور ١٩٢٣ لإلغاء الحكم النيابى ، وضموا « عبد السلام فهمى جمعة » لعضوية لجنة الدستور برياسة « على ماهر » فى فبراير ١٩٥٣ لإحداث انقسام داخل صفوف الوفديين ، وكان « جمال عبد الناصر » قد اجتمع قبل ذلك بعبد السلام فهمى جمعة بعزبة عبد السلام جمعة بالغربية ، وحاول تشجيعه على إحداث انقسام فى الوفد . وذكر له ان « تطهير » الوفد هو شرط تعاون الضباط معه . ولكن « عبد السلام جمعة » نقل تفاصيل المقابلة إلى زعيم الوفد « مصطفى النحاس » الذى اعتبر ما قام به « جمال عبد الناصر » عملا تخريبيا ، وحذر « عبد السلام جمعة » من هذه المحاولة التخريبية وبعدها وقع الهجوم الرهيب ضد الوفد ، وهو صراع قال عنه الكاتب « صلاح عيسى » : « صراع يتميز بدرجة عالية من اللا أخلاقية أهين بها التاريخ وزورت بعض صفحاته ، واستخدمت أكثر أساليب الصراع السياسى دناءة وأقلها احتراما » .

الأسـانيد :

١ ـ أحمد أمين . . حياتى .

٢ ـ د . رءوف عباس . . الحركة العمالية فى ضوء الوثائق البريطانية .

٣ ـ صلاح عيسى . . محاكمة فؤاد سراج الدين باشا .

٤ ـ محمد قنديل البقلى . . مقدمة بحث للدكتور عزيز فهمى .

٥ ـ د . محمود متولى . . مصر والحياة الحزبية .

٦ ـ د . نبيل عبد الحميد وآخرون . . شهداء ثورة ١٩١٩ (اعداد) .

عبد الفتـاح الطـويـل



مرة أخرى نبقى فى مدينة (طنطا) لسطور قليلة نقول فيها إن هذه المدينة العظيمة قد شهدت أيضا مولد رجل عظيم من رجالات مصر ورجالات الوفد هو « عبد الفتاح الطويل » وكان مولده فى ٢٩ يناير ١٨٩٣ . واجتاز تعليمه الابتدائى فى طنطا وحصل على الشهادة الابتدائية عام ١٩٠٦م . وجاء إلى القاهرة لينجز التعليم الثانوى عام ١٩١١ ويدخل الحقوق ويزامل مجموعة من الشباب الوطنى الثائر فى مقدمتهم « محمد صبرى أبو علم » و« حسن سرور » . ويفصلون من التعليم لمدة عام بسبب نشاطهم الوطنى ، وتخرج « عبد الفتاح الطويل » فى الحقوق عام ١٩١٦ .

ويطيب له المقام بعد تخرجه حتى وفاته (يونيو ١٩٦٣م) فى مدينة الإسكندرية حيث بدأ حياته العملية بالمحاماة فى مكتب المحامى الوطنى « مصطفى الخادم » .

ويسير الزمن إلى يوم الجهاد الوطنى ، وهو فى الخامسة والعشرين من عمره وقد استقل بعمله فى المحاماة . . وتنشط الحركة الوطنية فى الإسكندرية حول رجل الأعمال الوطنى « سيد بك مرسى » الذى يختاره سعد باشا رئيسا للجنة الوفد بالإسكندرية ويتولى المحامى الوطنى الشاب « عبد الفتاح الطويل » مسئولية وكيل لجنة الوفد ويكون الامتحان الكبير فى أيام الثورة الكبرى ثورة ١٩١٩ .

ووسط لهيب الثورة تمرست لجنة الوفد وعلى رأسها سيد مرسى وعبد الفتاح الطويل فى النضال ويسجل عبد الرحمن الرافعى أن طلبة المدارس والمعاهد أضربوا يوم ١٢ مارس ١٩١٩ . وبدأت المسيرة من ميدان مسجد أبى العباس المرسى ، واتجهت إلى دار المحافظة بشارع رأس التين ، ثم ميدان محمد على . وألقت السلطات القبض على ٦٠ طالبا وتجددت التظاهرات يوم ١٦ مارس وفى ١٧ مارس واجه الجنود الانجليز تظاهرة طلاب المدارس الثانوية والمعاهد الدينية والمدرسة

الصناعية ، وأطلقوا عليها النار عند الانفوشى وسقط ١٦ قتيلا و٢٤ جريحا . وفى ٢٠ مارس قامت تظاهرة عمالية اندمج فيها الطلاب وواجههم الانجليز بالرصاص فقتلوا ١٢ وجرحوا ٢٤ . وبمناسبة الإفراج عن زعيم الثورة « سعد زغلول » فى ٧ ابريل ١٩١٩ طافت التظاهرات بشوارع الإسكندرية . وفى ١٠ ابريل حدث تصادم دام بباب عمر باشا ، وحى كرموز فقتل ثلاثة وجرح ستة ، وبعد ظهر اليوم نفسه قتل ١٧ غير الجرحى الكثيرين . ثم كانت التظاهرة الشهيرة فى ١٢ ابريل التى سقط فيها أكثر من ٢٠ قتيلا ، وفى ١٤ ابريل كانت تظاهرة الطالبات . وفى أكتوبر من العام نفسه خرجت الإسكندرية لاحياء ذكرى شهدائها وخاصة فى يومى ٢٤ ، ٢٥ أكتوبر التى رتبت لها لجنة الوفد بالمدينة ، وقام المتظاهرون بوضع المتاريس وحفر الخنادق بحيى رأس التين والجمرك فلم تستطع سيارات الانجليز مطاردة المتظاهرين فى الشوارع وأغلقت المتاجر أبوابها . وتحولت الإسكندرية إلى مايشبه ساحة القتال . وقد سجل « عبد الرحمن فهمى » فى مذكراته الأحداث الدامية لأيام ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ أكتوبر ١٩١٩ بالإسكندرية . واحتج المواطنون فى مدن كثيرة بالبرقيات وتظاهرات الاحتجاج على بربرية سلطات الاحتلال ضد المواطنين فى الإسكندرية .

ويوم ٣١ أكتوبر خرجت التظاهرة الكبرى التى تجمعت فى ميدان محمد على وسارت فى شارع المنشية إلى شارع شريف وتطاير الرصاص فى كل اتجاه وسقط المتظاهرون قتلى وجرحى أمام (التلغراف الانجليزى) وداست سيارات الانجليز أجساد المتظاهرين . وعلى الرغم من هذه الفظائع فإن شعب الإسكندرية واصل احتجاجه فى ١٨ نوفمبر ١٩١٩ حتى وصلوا إلى شارع فرنسا حيث أطلق الانجليز الرصاص على المتظاهرين . وفى هذا اليوم احتلت القوات البريطانية أحياء الاسكندرية وحظرت التجوال من الساعة التاسعة مساء . وبناء على تعليمات لجنة الوفد المركزية قابل شعب الإسكندرية خبر وصول لجنة فلنر إلى البلاد (ديسمبر ١٩١٩) بالتظاهرات التى واجهتها السلطات الانجليزية بالرصاص .

كانت هذه صورة إقليمية لثورة ١٩١٩ م وجرت أحداث كثيرة ثم صدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ من جانب واحد . وكانت البداية الحقيقية للانقسام فى صفوف الثوار فرحب به جناح «عدلى يكن » ولم يرض عنه تيار سعد زغلول وظهر (حزب الأحرار الدستوريين) فى مواجهة الوفد ، وتم إعلان دستور ١٩٢٣ فى ١٩ ابريل ١٩٢٣ الذى عبث به الذين وضعوه . وتمسك به الذين لم يرضوا عنه ولم يشاركوا فى وضعه (سعد وأبناؤه) وفى هذه الظروف كلها تبلورت شخصية «عبد الفتاح الطويل » الذى خاض انتخابات يناير ١٩٢٤ وأصبح عضوا فى أول مجلس نواب ينتخب على أساس دستور ١٩٢٣ . وقد حصل الوفد على ١٩٥ مقعدا من مجموع مقاعد مجلس

النواب وعددها ٢١٤ مقعدا وكان رئيس مجلس النواب هو أحمد مظلوم رئيس الجمعية التشريعية ١٩١٤ ومن يناير ١٩٢٤ حتى يناير ١٩٥٢ ظل عبد الفتاح الطويل علامة بارزة فى مجالس النواب عن الإسكندرية .

شئون القصر

حاولت وزارة الوفد (مايو ١٩٣٦) فى عهد مجلس الوصاية على العرش إنشاء وزارة لشئون القصر ضمن هيئة الوزارة ، ووجد الوفد معارضة لهذه الفكرة من جهات عديدة فاضطر النحاس باشا إلى العدول عن إنشاء هذه الوزارة الجديدة واكتفى بتعيين عبد الفتاح باشا الطويل وكيلا برلمانيا لشئون القصر ، وكان وقت ذاك رئيسا للجنة الوفد بالإسكندرية .

وقد خشى مجلس الوصايةأن يسيطر الوفد على القصر عن طريق وزير شئون القصر مما يترتب عليه إلغاء منصب رئيس ديوان الملك وقد تقرر ان يكون مقر الوكيل البرلمانى لشئون القصر برياسة مجلس الوزراء وليس بالقصر وإلى جانب تعيين « عبد الفتاح الطويل » وكيلا برلمانيا لشئون القصر، تقرر تعيين يوسف الجندى وكيلا برلمانيا لوزارة الداخلية و«حامد محمود » وكيلا برلمانيا لوزارة الصحة ، وممدوح رياض » وكيلا برلمانيا لوزارة الخارجية . وانتهت التجربة فى وزارة النحاس باشا (يوليو ١٩٣٧) ولعدم الدخول فى صراعات مع لجنة الوصاية برياسة الأمير محمد على ومع الإنجليز ومع العناصر المعاونة للوفد رأى النحاس باشا ان منصب الوكيل البرلمانى لشئون القصر قد يفى بالغرض وبالفعل استطاع عبد الفتاح الطويل ، أن يضع فى يده كل شئون القصر . واصدر تعليماته بألا يتصل أى موظف فى الحكومة بموظفى القصر والا يتصل موظفو القصر بموظفى الحكومة الا بإذن منه . وبهذا تحول رئيس الديوان الملكى وكبار موظفى القصر ، وموظفو لجنة الوصاية على العرش ، تحولوا إلى تابعين لعبد الفتاح الطويل وثار على التجربة كل موظفى القصر ، وسنة ١٩٣٧ ولانشغال النحاس والوفد فى مواجهة محاولة الانشقاق الخطير داخل الوفد بقيادة « أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى ، ومحمود غالب ، ومحمد صفوت وإبراهيم عبد الهادى » صرف النحاس باشا النظر عن تجربة الوكلاء البرلمانيين التى فتحت عليه بابا جديدا للصراع مع جهات مختلفة .

فى مقاعد الوزراء

فى ٢٩ يوليو ١٩٣٧ تولى « الملك فاروق » سلطاته الدستورية وكان من الطبيعى أن يتقدم مصطفى النحاس باستقالة وزارته وكلفه الملك بتشكيل وزارته الرابعة (٣ أغسطس ١٩٣٧ ـ ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧) واشترك عبد الفتاح الطويل فى هذه الوزارة وزيرا للصحة العمومية . وفى وزارة النحاس باشا الخامسة (٦ فبراير ـ ٢٦ مايو ١٩٤٢) اختير الطويل باشا وزيرا للصحة أيضا وتولى

وزارة الشئون الاجتماعية بالنيابة فى (أول ابريل ١٩٤٢) وحدث تعديل وزارى فى ١٤ مايو ١٩٤٢ تولى بمقتضاه عبد الفتاح باشا وزارة المواصلات وحل محله فى وزارة الصحة « الدكتور عبد الواحد الوكيل » واستمر هذا الوضع إلى أن استقالت الوزارة فى ٢٦ مايو ١٩٤٢ . وفى وزارة النحاس السادسة (٢٦ مايو ١٩٤٢ ـ ٨ أكتوبر ١٩٤٤) جاء « عبد الفتاح الطويل » وزيرا للمواصلات وفى ٢٠ نوفمبر ١٩٤٣ أصبح وزيرا للعدل بالنيابة وذلك فى مدة غياب « محمد صبرى أبو علم » بالحجاز لأداء فريضة الحج والمعروف أن هذه الوزارة أقيلت فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ .

وفى أخر وزارات الوفد ، وزارة النحاس باشا السابعة (١٢ يناير ١٩٥٠ ـ ٢٧ يناير ١٩٥٢) تولى « عبد الفتاح الطويل » وزارة العدل ، وفى ١٩ ابريل ١٩٥٠ ، تولى أعمال وزارة المعارف بالنيابة عن « الدكتور طه حسين » مدة تغيبه فى الخارج وفى ٢٤ سبتمبر ١٩٥١ جرى تعديل فى الوزارة تولى بمقتضاه « عبد الفتاح الطويل » وزارة المواصلات ، وحل محله « محمد محمود الوكيل » وزير المواصلات وزيرا للعدل ، وفى هذه الوزارة جرت أحداث كثيرة أهم مايتصل منها بعبد الفتاح الطويل باشا وزير العدل ما عرف بقضية (الأسلحة الفاسدة) .

أثناء حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، كان هناك نفر من العاملين بالقصر وغير القصر ضمائرهم فاسدة وذممهم خربة ، احتموا بملك فاسد وتاجروا فى الأسلحة كما تاجروا فى قوت الشعب وأثروا بطريقة غير مشروعة ، ولم تكن هناك أسلحة فاسدة لدى الجيش المصرى المحارب فى فلسطين ، وإن ماعرف بقضية الأسلحة الفاسدة عملية سياسية لم يكشف بعد عن حقيقتها ولا عن الأسباب الحقيقية خلف إثارتها بالشكل الواسع الذى عرفت به ، ولكن الأمر الثابت والذى نعنى هنا بتسجيله هو أن الجيش المصرى لم يحارب سنة ١٩٤٨ بأسلحة فاسدة (يضربها إلى الأمام فترتد إلى الخلف !) وأن الهزيمة التى حدثت لم تكن هزيمة لجيش ، ولا هى هزيمة لأسلحة وإنما كانت هزيمة أنظمة ، فى ٢٨ مارس ١٩٥١ صدر قرار بحفظ التحقيق الذى جرى فى عهد حكومة الوفد ، وفى عهد « عبد الفتح الطويل » وزير العدل . وفى يوليو ١٩٥٢ أعادت حركة الجيش التحقيق فى القضية وتأكدت النيابة أنه لم تكن هناك أسلحة فاسدة وتم حفظ التحقيق . وفى يناير ١٩٨٨ اعلن « الفريق السفير « حافظ إسماعيل » مستشار الأمن القومى أثناء ندوة (كاتب وكتاب) التى اشرفت على إعدادها بمعرض القاهرة الدولى للكتاب ، أعلن الرجل أنه كان ضابطا فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٨م ولم تكن هناك بندقية واحدة فاسدة . لم تكن هناك إذن أسلحة فاسدة ، كانت هناك تجارة فاسدة فى الأسلحة .

والمهم الآن كيف كان موقف حكومة الوفد إزاء الحملة الصحفية الخاصة (بالأسلحة الفاسدة) وكيف كان موقف وزير العدل عبد الفتاح الطويل ؟ وأشير هنا إلى التحقيق الصحفى الذى نشره « جمال بدوى » فى حلقات ثلاث (٢٧/ ١٢/ ٨٤ ـ ٣/ ١ ـ ١٠/ ١/ ١٩٨٥) وكيف أفاد الضباط

الأحرار من الحملة الصحفية حول ماسمى بالأسلحة الفاسدة . وكان عبد اللطيف البغدادى وحسن إبراهيم ومصطفى مرتجى ومحمد شوكت على صلة بمصطفى مرعى . وقابل محسن عبد الخالق أمينة السّعيد والسادات على صلة بإحسان عبد القدوس . وبدا « إحسان عبد القدوس » بإثارة الموضوع فى يوليو ١٩٤٩ ، وجدد الحملة فى يونيو ١٩٥٠ . وأعود إلى السؤال الهام عن موقف حكومة الوفد ، وموقف عبد الفتاح الطويل . . أنقل هنا عن مذكرات « حسن يوسف » رجل الملك فاروق من ص ٢٨٦ ـ ص ٢٩٠ يقول :

بدأت القصة بما نشرته مجلة روز اليوسف فى شهر يونية ١٩٥٠ من أنباء خطيرة عن توريد أسلحة فاسدة للجيش المصرى أثناء حرب فلسطين إذ اتصل بى مصطفى نصرت وزير الحربية والبحرية وقال إنه سوف يبلغ النائب العام . واستدعت النيابة رئيس التحرير الاستاذ إحسان عبد القدوس لسماع أقواله . وبعد ثلاثة أشهر من بدء التحقيق زارنى فى مكتبى عبد الفتاح الطويل وزير العدل وفؤاد سراج الدين وزير الداخلية وقالا إن النائب العام أخبرهما بوجود قرائن تدل على أن لبعض افراد الحاشية الملكية صلة بصفقات الأسلحة التى ظهر فسادها وأنه يطلب التصريح بتفتيش منازل خمسة اشخاص ومراقبة تليفوناتهم .

المهم أن النائب العام ـ فى عهد حكومة الوفد ـ وضع تليفونات المذكورين تحت المراقبة وفتش منازلهم . وقام جهلان ـ متعهد التوريدات للخاصة الملكية ـ بفتح الخزينة بحضور رئيس النيابة . وقامت الحكومة بتنحية حيدر باشا عن منصبه ، وباقالة عثمان المهدى رئيس هيئة أركان الحرب من منصبه ، وبإحالة ١٢ ضابطا إلى التقاعد لتسهيل مهمة النائب العام . وفى النهاية أثبت التحقيق أنه لاتوجد أسلحة فاسدة وكان موقف الحكومة وموقف وزير العدل يستحقان التسجيل التاريخى إزاء هذه القضية . وقد تبنى هذه المسألة فى استجواب أمام مجلس الشيوخ « مصطفى مرعى » أملا فى إحراج حكومة الوفد وبالذات وزير العدل «عبد الفتاح الطويل» الذى تشوب علاقاتهما بعض الحساسيات منذ أيام الشباب فى الإسكندرية . . عبد الفتاح الطويل سابق على مصطفى مرعى وسليمان حافظ فى التخرج بحوالى سنوات أربع ، وله شهرة سياسية لانتمائه لحزب الأغلبية ، أما مصطفى مرعى وسليمان حافظ فقد كانا ينتميان لحزب انحسرت عنه الأضواء فى سنوات ثورة ١٩١٩ . ويفسر البعض اعتراض حكومة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بعد صدور قرار بتنظيم الأحزاب فى سبتمبر ١٩٥٢ ، على عضوية عبد الفتاح الطويل فى الوفد ، يفسرونه برغبة الانتقام لدى « سليمان حافظ » من « عبد الفتاح الطويل »

تنظيم الأحـزاب

وقد ظهر اعتراض « سليمان حافظ » على عضوية « عبد الفتاح الطويل » فى الوفد بعد أن صدر قانون تنظيم الأحزاب السياسية (٩ سبتمبر ١٩٥٢) وبعد ان قدم الوفد برنامجه تطبيقا لهذا

القانون ، وأعلن « سليمان حافظ » أيضا اعتراضه على الرئاسة الفخرية « لمصطفى النحاس » مما دفع بالوفد إلى أن يلجأ للقضاء فى يناير ١٩٥٣ . وعندما تأكد « سليمان حافظ » أن مجلس الدولة سوف ينصف الوفد لا محالة صدر قانون حل الأحزاب فى ١٦ يناير ١٩٥٣ .

على أية حال قبل تقديم إخطار الوفد لم يكن « عبد الفتاح الطويل » موضع اعتراض . وبهذه المناسبة تفضل واتصل بى « أنور نافع » ضابط الجيش المتقاعد ، والمحامى والكاتب والشاعر حاليا بعد نشر الحلقة الخاصة بعبد السلام فهمى جمعة ، وأكد لى ان «عبد الفتاح الطويل» لم يكن فى الفترة الأولى موضع اعتراض وذكر انه ـ أى أنور نافع ـ كلفه « جمال عبد الناصر » بأن يسلم «عبد السلام فهمى جمعة » مايمكن أن نسميه تبليغ القيادة للوفد وقد سافر معه المرحوم « أحمد الحضرى المحامى » حيث التقيا بعبد السلام جمعه فى عزبته بالقرب من طنطا الذى قرأ فى وجودهما التبليغ تليفونيا على « النحاس باشا » وكان البيان أو التبليغ يبدأ بثقة القيادة فى وطنية النحاس باشا والمطالبة بفصل فؤاد سراج الدين ومحمود سليمان غنام وأعضاء الوفد من اسرة الوكيل ، وترك التصرف لعبد السلام جمعة فى إعفاء من يرى من أعضاء الوفد ، ثم اجتمع « عبد السلام جمعة » على مدى ساعات ثلاث بجمال عبد الناصر وأنور السادات وكمال الدين حسين . وانتهى الموقف برد النحاس باشا برفض هذا التبليغ ، وماجاء فيه . والأرجح أن هذا الرد املاه « النحاس باشا » على « عبد السلام جمعة » ليسلمه إلى جمال عبد الناصر ، وأرجو من لديه صورة منه أن ينشرها خدمة لتاريخ تلك الفترة المضطربة .

والمعروف أن « عبد الفتاح الطويل باشا » لم يقدم لمحكمة الثورة وإن كان قد استدعى للشهادة بمناسبة محاكمة « فؤاد سراج الدين باشا » وقد انتقل « عبد الفتاح الطويل » ابن طنطا ، وزعيم الوفديين فى الإسكندرية ، وأول وكيل برلمانى لشئون القصر ووزير العدل والمواصلات والصحة ، وعضو مجلس النواب منذ عام ١٩٢٤ ، انتقل إلى رحاب الله فى يونيو ١٩٦٣ .

الأسانيد :

١ ـ إبراهيم الطويل . . حديث شخصى ١٩٨٨ .
٢ ـ الأهرام ـ جريدة . . (أعداد ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٣١ يناير ١٩٥٣) .
٣ ـ أنور نافع . . حديث شخصى (٢٦ أغسطس ١٩٨٨) .
٤ ـ جمال بدوى . . (جريدة الوفد ٣ ، ١٠ يناير ١٩٨٥) .
٥ ـ حسن يوسف . . (القصر ودوره فى السياسة) .
٦ ـ د . عبد العظيم رمضان . . تطور الحركة الوطنية فى مصر .
٧ ـ د . نبيل عبد الحميد وآخرون . . شهداء ثورة ١٩١٩ .

عبد اللطيف المكباتى



كانوا سبعة رجال من مصر ، شكلوا ما عرف فى التاريخ المصرى الحديث بالوفد الأول أو المجموعة الأولى للوفد « سعد زغلول، على شعراوى ، عبد العزيز فهمى ، أحمد لطفى السيد ، محمد محمود ، على علوبة ، وعبد اللطيف المكباتى » .

وهذا التشكيل نتيجة جهد من جانب « سعد زغلول » الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية بعزبته بمسجد وصيف ، وبيته الذى أطلق عليه « مصطفى الشوربجى » عضو الحزب الوطنى عبارة (بيت الأمة) وتميزت جهود سعد بالسرية والكتمان حتى ضاق بهذه السرية « على ماهر ومصطفى النحاس » وذهبا يشكوان سعدا لزميله « عبد العزيز فهمى » ولما وثق بهما الرجل طمأنهما إلى جهود سعد ، وتصديه للكفاح من أجل استقلال البلاد ولكنه يلجأ إلى التحفظ والتمويه حماية للحركة فى مهدها .

وعبد اللطيف المكباتى ، على نقيض ذلك تماما ، لايعرف كيف يخفى سرا ، ما فى قلبه على لسانه ، واضح وصريح ولايعرف فى أمور السياسة إلا الوضوح والصراحة ، فأطلق عليه زملاؤه عبارة (المدباتى) . . وهكذا عرف باسم عبد اللطيف المدباتى !! .

كان يزهد فى الشهرة . ولم يسع للأضواء ، فلم تسلط عليه الأضواء ، فكان أقل الساسة الأول شهرة ، ولا يكاد يعرفه أحد من الجيل الجديد ، بل والجيل الوسيط أيضا ، من أجل هذا نكتب عنه بعد أن كتبنا عن زملائه الستة فى (الوفد الأول) . . سعد زغلول رئيس الوفد وزعيم الأمة ، وعلى شعراوى عضو الجمعية التشريعية ووكيل الوفد وأمين الصندوق فى الفترة الباكرة ، والفقيه القانونى عضو الجمعية التشريعية عبد العزيز فهمى ، والمفكر والكاتب والمترجم مدير المكتبة السلطانية أحمد لطفى السيد ، ثم ابن من عرض عليه الملك فأبى ، ابن محمود باشا سليمان زعيم

حزب الأمة ، محمد محمود ، والسادس هو آخر من ضمه سعد إلى الوفد الأول والذى سعى إلى سعد مرات كثيرة واستدعاه سعد فى مساء ١٢ نوفمبر ١٩١٨ للحضور إلى منزله صباح ١٣ نوفمبر ١٩١٨ . ونعنى به (محمد على) الذى عرف فيما بعد بمحمد على علوبة ـ ذهب إلى بيت سعد وكان « سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى » يتأهبون للذهاب إلى مقابلة « السير ونجت » فى تمام الساعة الحادية عشرة . . يبقى لنا إذن الرجل الذى ابتعد عن الأضواء ، وابتعدت الأضواء عنه ، والذى انكسرت نفسه بعد أن راح ابنه ضحية غلطة قدرية ، ومات غريقا أمام عينيه فى رأس البر ، وانزوى الرجل حتى رحل عام ١٩٢٤ .

السياسة والأخلاق

كان « المهندس أحمد عبده الشرباصى » يتحدث عن « عبد اللطيف المكباتى » على أنه شخص لم يجد تاريخ مصر الحديث بمثله ، وبأفكاره وبسلوكه حتى أصبح « المهندس الشرباصى» نسخة مكررة من ابن خاله « المكباتى » فى الفكر وفى السلوك وقد كتب « الشيخ مصطفى عبد الرازق » وهو من عرف باستقامة الفكر ونزاهة القصد فى جريدة السياسة : الأحد ٢٠ ربيع الأول ١٣٤٣هـ ـ ١٩ أكتوبر ١٩٢٤م كتب يقول :

فى سنة ١٩١٣ سمعنا أن قاضيا من ذوى الكفاية والخلق ، قد استقال من منصبه ليضع مواهبه السامية ومطامح نفسه الكبيرة فى خدمة أمته فى الجمعية التشريعية . ولم يكن لأعضاء الجمعية التشريعية راتب ذو شأن ولا امتيازات مغرية من أجل ذلك شعرت البلاد بتقدير العاطفة النبيلة فى نفس هذا النائب الشاب ثم جعلت مواقفه فى الجمعية التشريعية تكشف عن أصله حتى صار أحد أولئك الأفراد الذين يشار إليهم بالبنان من بين أعضاء الجمعية ، باعتبارهم قادة الحركة وأهل الرأى ولعله كان أحدثهم سنا .

كنا فى ذلك العهد شبابا فى معاهد العلم ننظر بإعجاب وفخر إلى وثبات عبد اللطيف المكباتى فى ميدان المجد والشرف ولم يكن الشباب فى عهدنا هو الذى يضع موازين الرجال ولكن مع ذلك كان يرقب بعناية وروية كيف تبنى الأمة المجد الصحيح لأبنائها وكنا نفهم أن خير مجد الرجال ما يقوم على فضائل الأخلاق . فلما برزت شخصية المكباتى ممتازة بالصراحة والشجاعة والأخلاق عرفنا سر عظمته ، فإن هذه الفضائل لاتكون الا للنفوس الكبيرة وهى عزيزة خصوصا فى الأمم الناهضة من عثار طويل .

ثم جاءت النهضة الوطنية ، وكان من زعمائها منذ فجرها الأول وظل عنصرا فعالا من عناصرها الطيبة ممتازا بصدق عزيمته . .

كانت شمائل عبد اللطيف المكباتى شمائل قوة يحيط بها النبل من جميع جهاته ، صريح فى وطنيته ، صريح فى جهاده صريح فى صداقته ، صريح فى عداوته ، وكانت مخايل عظمته الخلقية تلوح فى مظاهر هيكله الجسمانى . . جسم ممتلئ وافر ، من غير أن يسرف فى ضخامة ولا طول مع تناسب الأعضاء وقوة العقل ونشاط الحركة وعينان فى بريقهما ذكاء وفطنة يفيضان نورا وبشرا وقد يقدحان نارا وشررا ، ينطلق فى مشيته بخطا مطمئنة من غير فتور ، مشرقا عالى الرأس ، فصيح اللهجة من غير تكلف ، فى صوت واضح سليم الرنة قوى التأثير .

ولقد عصف الموت به من غير نذير ، فهدم به صرحا رفيع العماد ، وذوى أملا نضيرا من آمال البلاد .

انتهت هذه الصورة القلمية التي رسمها « الشيخ مصطفى عبد الرازق لعبد اللطيف المكباتى وكان المهندس الشرباصى عندما يتحدث عن ابن خاله المكباتى ويستوقفه الحضور ويحسبونه مغاليا بفعل صلة القربى يستشهد بما كتبه الشيخ مصطفى عبد الرازق فى تأبين المكباتى فى شهر رحيله أكتوبر ١٩٢٤ .

الجمعية التشريعية

وفى بيانات الجمعية التشريعية انتخابات ١٣ ديسمبر ١٩١٣ نجد اسم عبد اللطيف المكباتى بك مع حسين هلال بك وعثمان سليط بك ومتولى نور بك عن مديرية الدقهلية إلى جانب أسماء عديدة من مدن مختلفة . . « سعد زغلول باشا » وعبد الخالق مددكور باشا وحسين واصف باشا ، ومحمد يكن باشا وعبد السلام العلايلى بك ومحمد فتح الله بركات بك وعبد العزيز فهمى بك ، ومحمد علوى الجزار بك ومحمد أبو حسين باشا وعبد اللطيف الصوفانى بك ، والشيخ محمد حسن عزام ومحمد رشوان الزمر أفندى ، وحمد الباسل بك ، وعلى شعراوى باشا ، ومحمد على علوبة بك ، ومحمد محفوظ باشا ، وعمر عبد الآخر بك ، ومحمد أمين أبو ستيت بك ، وأحمد مظلوم باشا ، وعدلى يكن باشا ، سينوت حنا بك ، وكامل صدقى باك المحامى والشيخ محمد شاكر وأمين سامى باشا وعديد من الأسماء الأخرى التى لمعت فى سماء الحركة الوطنية .

وعين « أحمد مظلوم باشا » رئيسا للجمعية التشريعية ، وعدلى يكن باشا وكيلا لها وكان « سعد زغلول باشا » هو الوكيل المنتخب . . وعندما ثار الخلاف بين « سعد » الوكيل المنتخب ، و«عدلى» الوكيل المعين حول تولى رئاسة الجمعية فى حالة غياب الرئيس . . انحاز « عبد اللطيف المكباتى » العضو المنتخب ، و«سينوت حنا » العضو المعين إلى صف « سعد زغلول » وتولى

المكباتى رئاسة لجنة الأوقاف فى الجمعية التشريعية وكان الخديو « عباس حلمى الثانى » هو المشرف على أوقاف المسلمين ،وكانت شهيته مفتوحة لابتلاع خيرات الأوقاف ، واستدعى «المكباتى » لمقابلته لكن « المكباتى » رفض أن يذهب لأنه يعلم نتائج المقابلة مقدما . .

وعلى أية حال فان تجربة (الجمعية التشريعية) التى قامت على أساس دستور (أول يوليو ١٩١٣) الذى أعده (حسين رشدى باشا) وزير الحقانية بالاتفاق مع « كتشنر» ووقعه « الخديو عباس حلمى الثانى » وهو يصطاف فى باريس ، هذه التجربة فشلت فقد أفرزت الانتخابات عناصر لاتساير رغبات الانجليز . . وكان على رأس هذه العناصر الوكيل المنتخب « سعد زغلول» . . ولهذا تأجل افتتاح الدورة الثانية التى حل موعدها فى أول نوفمبر ١٩١٤ (بدأت الدورة الأولى فى ٢٢ يناير ١٩١٤) ثم تأجل انعقاد الجمعية إلى أجل غير مسمى « وأعلنت الهدنة فى ١١ نوفمبر ١٩١٨ .

مـع سعد والوفد

فى ٨ يناير ١٩١٨ ألقى « ولسن » رئيس الولايات المتحدة الأمريكية فى « الكونجرس » خطابا طويلا عن الحرب العالمية الأولى.

وعن الأسباب التى دعت أمريكا لخوض غمارها ودعوته لسلامة أراضى الأمم الصغرى . . وفى ظل هذا المناخ كان سعد زغلول يسعى سرا وعلانية لتكوين الوفد وفى مقدمة الذين تشاور معهم عبد اللطيف المبكاتى وزملاؤه أعضاء الجمعية التشريعية وفى الساعة الحادية عشرة من صباح ١٣ نوفمبر ١٩١٨م قابل نواب الأمة الثلاثة سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى ونجت باشا المعتمد البريطانى فى دار الحماية ثم تألف الوفد المصرى سعد زغلول رئيسا ، على شعراوى عبد العزيز فهمى محمد محمود ،أحمد لطفى السيد عبد اللطيف المكباتى ، محمد على أعضاء وبعد ذلك وضعوا للوفد قانونا يجرى العمل بمواده وتصدق عليه يوم ٢٣ نوفمبر ١٩١٨ ورأى الوفد أن يكون فى يده (توكيل) بالمطالبة بحقوق مصر فى تقرير مصيرها وبالسعى فى سبيل حريتها واستقلالها . ولأعضاء الوفد السبعة أن يضموا إليهم من يختارون . وقد طبع التوكيل وتناوله الناس يوقعون عليه ، وتوالى ضم الأعضاء للوفد وقد حاول نفر من (الحزب الوطنى) تشكيل (وفد) آخر وصرف النظر عن المحاولة نظرا لانضمام عدد من شباب الحزب الوطنى للوفد أمثال « مصطفى النحاس وحافظ عفيفى وأمين الرافعى وعبد الرحمن الرافعى ومحمد عبد اللطيف دراز » وتمت محاولة أخرى لتشكيل وفد حكومى برئاسة « حسين رشدى » رئيس الوزراء ومعه

«عدلى يكن » وزير المعارف وفشلت هذه المحاولة أيضا وقدم « حسين رشدى » استقالته .

وبدأ الوفد حملة مكاتبات لولسون ورئيس الوزراء البريطانى وللمعتمد البريطانى وممثلى الدول الأجنبية وحملة موازية لتوسيع نطاق الوفد وشحن الشعور الوطنى خلف الوفد ، وعدد من المكاتبات للسلطان وردت السلطات العسكرية البريطانية باعتقال رئيس الوفد « سعد زغلول » ومعه « محمد محمود وحمد الباسل وإسماعيل صدقى» فى ٨ مارس ١٩١٩ ولم تكد تبزغ غزالة يوم ٩ مارس حتى كان نبأ القبض على رئيس الوفد وثلاثة من أعضائه قد انتشر فى ربوع مصر ، وبدأت الثورة الشعبية الكبرى وتحمل العبء من بقى بعد الاعتقال من أعضاء الوفد ومنهم بالطبع « عبد اللطيف المكباتى ونجد توقيعه على « النداء إلى الأمة المصرية» الذى وقع عليه شيخ الجامع الأزهر ومفتى الديار المصرية ، وبطريرك الأقباط ورئيس الوزراء ورئيس الجمعية التشريعية والوزراء ورجال الحزب الوطنى ورجال الوفد ، ذلك النداء الذى ناشد الناس تجنب الاعتداء على طرق المواصلات والأملاك والأنفس وكان النداء بتاريخ ٢٤ مارس ١٩١٩ وواقع الأمر أن الأعمال الثورية كانت قد بدأت تخف حدتها وفى ٣٠ مارس قدم الوفد المصرى بيانا للمندوب السامى شرح فيه عدالة القضية الوطنية وطلب بمساواة مصر بالأمم الأخرى التى نالت استقلالها . . وقع على هذه المذكرة حسب ترتيب التوقيعات فى الأصل الفرنسى « على شعراوى » عبد العزيز فهمى ، أحمد لطفى السيد محمد على، سنيوت حنا ، محمد أبو النصر جورج خياط حافظ عفيفى ، عبد اللطيف المكباتى ، مصطفى النحاس .

وفى ٧ ابريل ١٩١٩ أعلن « المندوب السامى » الأفراج عن سعد باشا ورفاقه ، وأعلن السماح لأعضاء الوفد بالسفر إلى أوروبا واعتزم أعضاء الوفد السفر فى ١١ ابريل واجتمعوا بمنزل على شعراوى لاختيار اللجنة المركزية للوفد ، وسافر الأعضاء إلى أوروبا ومن بينهم « عبد اللطيف المكباتى » لتبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ الوفد قام فيها « المكباتى » بدور هام .

المكباتى المدباتى

من أطرف الصور التى توضح شخصية « المكباتى تلك التى سجلها محمد كامل سليم فى مذكراته عن أيام الوفد فى أوروبا كان « ملنر » قد قدم مشروعا اعتبره سعد حماية تحت اسم استقلال ، ورأى فيه الفريق المعارض لسعد غير هذا الرأى وحسما لخلاف رأى الوفد فى ١٨ أغسطس ١٩٢٠ أن يرسل إلى مصر عبد اللطيف المكباتى وأحمد لطفى السيد ومحمد محمود ، وعلى ماهر على أن ينضم إليهم فى مصر مصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفى ويقوموا

بعرض المشروع على الأمة بأسلوب محايد ، إلا أن «على ماهر » رأى فى مصر أن يكون العرض بطريقة تغرى الناس بقبول المشروع ورد سعد برسالة حادة إلى على ماهر والأعضاء بأن المشروع ظاهره الاستقلال وباطنه الحماية . وأخذت جرائد لندن وجرائد باريس تنشر العناوين التى ترضى كبرياء المصريين : مصر تحقق أمانيها الوطنية . . نجاح الوفد فى مهمته . . استقلال مصر وأيد أحمد لطفى السيد ومحمد محمود وعبد اللطيف المكباتى « المشروع » والتزم مصطفى النحاس وحافظ عفيفى وويصا واصف الحياد ووقع سعد فى أشد حالات الكرب والحزن إنقاذا للموقف حدد سعد عددا من التحفظات يرى ضرورة إقرارها فى المفاوضات وهى . إلغاء الحماية بنص صريح ، تنفيذ المعاهدة عقب التصديق عليها ، ضمان إعطاء مصر الماء الكافى من النيل ، تسوية مسألة السودان . .

وأدرك سعد أن مناورة الذين عرضوا المشروع نجحت وأصبحت الغالبية تميل إلى قبول المشروع . . وفى ٢٠ أكتوبر عاد المندوبون الأربعة ومعهم ويصا واصف وحافظ عفيفى ومصطفى النحاس الذى كشف أسلوب المندوبين فى تأييد المشروع عند عرضه على الهيئات المختلفة . وبعد جلسات متعددة من المفاوضات وضح للفريق المؤيد للمشروع أنه لافائدة طالما « سعد هو الذى يرأس وفد المفاوضات واتجهت نيتهم إلى أن يكون « عدلى » هو رئيس وفد المفاوضات وأغرقوا الاجتماعات فى محاورات ومناورات وهنا نقدم الصورة التى سجلها محمد كامل سليم لشخصية المكباتى ٢٣ نوفمبر ١٩٢٠ ـ قال المكباتى المدباتى فى صراحة عجيبة إنهم يريدون تنحية الرئيس سعد عن المفاوضات فلا يعالجها فى المستقبل وإنهم يريدون أن يتولى أمر المفاوضات عدلى ومن يختارهم وقال ضاحكا لقد حاولنا تهدئة سعد وزعمنا أننا على رأيه ولا نريد دخول المفاوضات إلا بعد قبول التحفظات لكن «سعد» (ثعلب) لم ينخدع بما قلناه .

هكذا كانت المؤامرة ، كشف عنها « المكباتى » ولكن « الثعلب سعد » قطع المفاوضات وعاد «عدلى » فى مارس ١٩٢١ ليرأس الوزارة ويشكل وفد المفاوضات وعاد سعد فى ابريل ليستقبل استقبال الأبطال وتفشل المفاوضات ويقدم عدلى استقالته . وفى ٢٩ ديسمبر ١٩٢١ كان سعد وعدد من زعماء الوفد فى الطريق إلى « سيشل» فيما عرف بالاعتقال الثانى .

الانشقاق الكبير

كان « المكباتى » والمعارضون لسعد قد عادوا إلى مصر فى ٢ يناير عام ١٩٢١ ، بالاتفاق مع «عدلى» بطبيعة الحال الذى عاد كما عرفنا فى مارس عام ١٩٢١ ليرأس الوزارة وليرأس

وفدمفاوضات كان من أعضائه « عبد اللطيف المكباتى » الذى استدعاه من لندن « عبد العزيز فهمى » للإعداد لحزب جديد! وكان الاستدعاء فى ٣٠ أغسطس ١٩٢١.وكان المكباتى قد قدم استقالته من الوفد ومعه عدد آخر فى ٢٨ ابريل عام ١٩٢١ . وفى صيف ١٩٢١ أنشأ الخارجون على الوفد جمعية مصر المستقلة لمساندة عدلى فى وزارته ومفاوضاته وحصل حافظ عفيفى على امتياز إصدار جريدة السياسة ووقفت حكومة عبد الخالق ثروت خلف الجمعية والجريدة والمجموعة التى تمهد لحزب جديد فى مواجهة الوفد وتم التأسيس الفعلى لحزب الأحرار الدستوريين فى ٣٠ أكتوبر ١٩٢٢ برئاسة عدلى يكن ومدحت يكن ومحمد محمود وكيلين ومحمد على سكرتيرا وإبراهيم الدسوقى أباظة سكرتيرا مساعدا وعبد اللطيف المكباتى أمينا للصندوق .

الأسانيد:

١ ـ عبد الرحمن فهمى (مذكرات) . .

٢ ـ على عبد الرازق . . (من آثار مصطفى عبد الرازق) .

٣ ـ د . فرج الشرباصى . . مع المهندس أحمد عبده الشرباصى .

٤ ـ د . لويس عوض . . تاريخ الفكر المصرى الحديث .

٥ ـ ماريوس ديب . . الوفد وخصومه (ترجمة عبد السلام رضوان)

٦ ـ محمد على علوبة . . (ذكريات) تحقيق بإشراف ، د. عاصم الدسوقى .

عبد المنعم عبد الرءوف



قبل أن أكتب عنه أقدمه لكم :

* عبد المنعم عبد الرءوف الضابط الطيار كان أقرب الضباط على الإطلاق إلى قلب الفريق عزيز على المصرى وقد رتب « عبد المنعم » مع زميله « حسين ذو الفقار صبرى » طائرة حربية ليهربا بها مع عزيز المصرى وأقلعت الطائرة فى ليلة ١٥ مايو ١٩٤١ ولخطأ فنى سقطت بهم فى مزرعة يوسفى قرب (قليوب) فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل . وكان ذلك فى عهد وزارة حسين سرى باشا الذى اهتم بالبحث عن عزيز وزميليه .

* عبد المنعم عبد الرءوف ، بعد فشل هذه المغامرة التى كانت بقصد الهرب إلى بغداد للانضمام إلى ثورة « رشيد عالى الكيلانى» اختفى وعزيز المصرى وحسين ذو الفقار فى منزل مدرس بالفنون الجميلة فى أمبابه ، هو « المرحوم عبد القادر رزق » والذى أصبح فى السنوات الأخيرة وقبل رحيله وكيلا لوزارة الثقافة .

واقتحم البوليس شقة « عبد القادر رزق » بحثا عن أحمد حسين وكانت المفاجأة أن يجد عزيز المصرى وزميليه فقبض عليهم . وفى مارس سنة ١٩٤٢ أفرجت عنهم حكومة « مصطفى النحاس باشا » رغم معارضة الانجليز ونقل عبد المنعم من سلاح الطيران إلى سلاح آخر فى الجيش .

* عبد المنعم عبد الرءوف كان موضع تقدير المرحوم « الشيخ حسن البنا » المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين ، وقد نشأ عبد المنعم فى بيئة دينية ، واقتربت أسرته من « الشيخ حسن البنا » وقد كان « عبد المنعم »منذ فترة باكرة عضوا بجماعة الإخوان المسلمين وظل على ولائه لها إلى أن فارق الحياة فى ٣١ يوليو ١٩٨٥ .

* فى أوائل عام ١٩٤٨ حين بدأ « جمال عبد الناصر » فى تكوين الضباط الأحرار اتصل بعبد المنعم عبد الرءوف الذى قدم له « كمال الدين حسين ، وخالد محيى الدين ، وحسن إبراهيم » وهم أعضاء فى جماعة الاخوان المسلمين وغيرهم من الضباط المتعاطفين مع الإخوان . . ولعل ذلك كله كان بتوجيه من المرشد العام أو من عزيز المصرى أو بتوجيه مباشر من عضو الاخوان النشط الضباط المتقاعد « محمود لبيب » .

* هذه النواة الأولى للضباط الأحرار ومنها عبد المنعم عبد الرءوف ، بدأت كمجموعة من مجموعات الإخوان المسلمين فى الجيش وكانت هذه المجموعة ضمن نشاط الضابط المتقاعد «محمود لبيب » ولكن وضح من البداية أن « جمال عبد الناصر » يسعى لاستقلال الضباط الأحرار عن الإخوان المسلمين وعن القوى السياسية الأخرى وكان عبد الناصر على اتصال بأكثر من اتجاه سياسى فى وقت واحد . . بالإخوان المسلمين تحت اسم « زغلول عبد القادر » وتحت اسم «موريس » فى المنظمة الماركسية وحرص عبد الناصر على أن تظل الأسرار الحقيقية للضباط الأحرار مقصورة عليه وعلى عدد قليل من المخلصين له .

* فى أواخر عام ١٩٥١ كان « عبد المنعم عبد الرءوف » الوحيد الذى اعترض بإصرار على اقتراح « جمال عبد الناصر » بضم «أنور السادات » إلى اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار . . ويمكن أن يعد هذا الاعتراض تعبيرا عن موقف الإخوان المسلمين من أنور السادات الذى اتصل فى مرات سابقة بالشيخ حسن البنا ، واتصل بيوسف رشاد رجل الملك ، وكان فيما سبق أيضا على اتصال بمجموعة البغدادى ، وبالفريق عزيز المصرى . على أية حال تم قبول السادات عضوا باللجنة التأسيسية .

* فى مارس ١٩٥٢ رأى « جمال عبد الناصر » وبعض قادة الضباط الأحرار أن الوقت مناسب لعمل انقلاب عسكرى ولكن المناقشة داخل الإخوان المسلمين أظهرت تخوفا وعدم ثقة فى مدى إخلاص عبد الناصر ومجموعته لاتجاهات الإخوان بعد الاستيلاء على السلطة ، وتم إرجاء الموعد .

وتفجرت المناقشات بعدها داخل (اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار) حول العضوية المزدوجة لعبد المنعم عبد الرءوف فى اللجنة التأسيسية وفى جماعة الإخوان المسلمين معا ، وحول نشاطه الذى تزايد لضم عدد من الضباط الأحرار للجماعة ، وكانت اللجنة ترى أن تقتصر العلاقة على التعاون دون الاندماج . . وتقرر إسقاط عضوية عبد المنعم عبد الرءوف من اللجنة التأسيسية ولكن بقى فى الجيش ليقوم بدور هام فى حصار قصر رأس التين عندما كان فيه الملك السابق فاروق ويبدو أن « جمال عبد الناصر» كان يخطط للتخلص من العناصر التى ترتبط بهيئات أو جهات يمكن أن تعوق حركته . . فها هو قد تخلص من «عبد المنعم عبد الرءوف » العضو

الملتزم بالاخوان المسلمين، وبعد الانقلاب بشهور قليلة تم إبعاد «عبد المنعم أمين» المعروف بارتباطاته القوية بالدوائر الأمريكية، وفي فبراير ١٩٥٣ قدم «يوسف صديق» المعروف باتجاهاته اليسارية استقالته، ومن بعده بفترة استقال «خالد محيي الدين» الذى بدأ إخوانيا وانتهى يساريا .

* وفى يناير ١٩٥٤ كانت السيارات تقطع شوارع القاهرة تجمع الإخوان من بيوتهم وكانت القطارات تحمل المعتقلين الإخوان من الأقاليم ، وأصدر مجلس قيادة الثورة قراراً فى ١٢ يناير سنة ١٩٥٤ بأن يجرى على جماعة الإخوان المسلمين قانون حل الأحزاب، وجرت حركة اعتقالات واسعة لفعاليات جماعة الإخوان المسلمين وفى مقدمتهم « عبد المنعم عبد الرءوف » الذى قدم للمحاكمة العسكرية وفى مايو ١٩٥٤ كان « عبد المنعم عبد الرءوف » فى طريقه من السجن إلى المحاكمة تحرسه سيارتان حربيتان بهما ستة جنود بالمدافع الرشاشة ولكن « عبد المنعم عبد الرءوف » يهرب من حارسه العميد محمد نبيه خطاب ويختفى فى القاهرة إلى أن غادر مصر إلى لبنان فى أواخر سنة ١٩٥٤ ويتزوج هناك من زوجته اللبنانية سنة ١٩٥٥ من أسرة « الخالدى » .

* هرب خارج مصر ، وفى عنقه حكم بالإعدام ، عاش فى لبنان والاردن وتركيا وعاد إلى لبنان مرة أخرى لاجئا سياسيا وفى ظروف صعبة إلى أن أصدر عنه « الرئيس السابق محمد أنور السادات» عفوا فى سبتمبر ١٩٧٢ . . وبدأ المرض يناوشه بداية من عام ١٩٧٣ إلى أن رحل فى ٣١ يوليو ١٩٨٥ .

وأظن أن هذه مقدمة تكفى ـ على إجازها ـ للتعريف به . . وأنتقل الآن إلى الكتابة عنه دراسة وتحليلا وتفصيلا . . والكتابة عنه جزء لا يتجزأ من قصة الإخوان المسلمين والتنظيمات السرية فى الجيش ، وقصة الإخوان المسلمين وحركة ٢٣ يوليو وقصة الفريق عزيز المصرى . . لقد كان « عبد المنعم عبد الرءوف » عنصرا أساسيا فى هذه القصص الثلاث .

الحرب والتنظيمات السرية

حيث كانت الحركة السرية فى الجيش المصرى ، كان هناك عزيز المصرى وحيث كان عزيز المصرى كان هناك « عبد المنعم عبد الرءوف » موضع إعجابه وموضع تقديره . . وحيث كان عبد المنعم عبد الرءوف كانت هناك جماعة الإخوان المسلمين أو العكس .

ومع بداية الحرب العالمية الثانية (سبتمبر ١٩٣٩ ـ مايو ١٩٤٥) ومع تصاعد قوة ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية أخذت فصائل سياسية كثيرة فى البلاد العربية تأمل فى هزيمة قوات الاحتلال البريطانى والاحتلال الفرنسى .

كانت هناك موجة داخل مصر تغذى هذا الاتجاه كراهية فى الاحتلال البريطانى وفى مقدمة

هذه القوى جماعة (الإخوان المسلمين) وجماعة (مصر الفتاة) و(الحزب الوطنى) وفى مقدمة الرموز لهذا الاتجاه أيضا « عزيز المصرى باشا » و« على ماهر باشا » و«أحمد حسين » .

ونظر هؤلاء جميعا إلى العناصر الشابة الثائرة فى الجيش والتى يمكن أن تؤيد هذا الاتجاه . . وظهر من هؤلاء كما هو معروف تاريخيا « عبد اللطيف البغدادى ، وأحمد سعودى أبو على ، وحسن عزت ، وأنور السادات ، وعبد المنعم عبد الرءوف » .

واتصلت هذه العناصر بجماعة الإخوان المسلمين وبمصر الفتاة وبالحزب الوطني وبعلى ماهر وبعزيز المصرى ، وكانت جماعة الإخوان المسلمين تهدف إلى ضم هذه العناصر وغيرها إلى صفوفها واقتربت هذه العناصر بدرجات متفاوتة ، البعض حاول التعاون دون الاندماج . والبعض أخلص للانتماء بلا حدود ومن هؤلاء كان « عبد المنعم عبد الرءوف » الذى رأى فى الاندماج فى الجماعة نوعا من الأمل للثائرين إذا ما تعرضوا للمتاعب .

وكانت الفكرة الرئيسية للقوى وللأفراد المشجعين للمحور هى (التصدى للقوات البريطانية المحتلة للبلاد وتدمير مخازنها وخطوط مواصلاتها وعرقلة انسحابها أمام القوات الضاغطة عليها معتقدين أنه بذلك يمكن أن نطالب باستقلال بلادنا . . البغدادى ص ١٣) .

وقد تم الاتصال بخصوص هذا الأمر مع جماعة الإخوان المسلمين للتعرف على مدى استعدادها للمشاركة فى تحقيق هذا الهدف وقد رحب المرحوم الشيخ حسن البنا بالفكرة ولكنه اقترح اندماج التنظيمين فى بعضهما ولكننا لم نتفق معه على فكرة الإدماج خوفا من أن تذوب منظمتنا وهى فى بداية عهدها داخل منظمتهم . . وكان قد اتضح لنا هذا الهدف الذى يرمون إليه عندما قال لنا المرحوم الشيخ حسن البنا إننا ندعو إلى الدين لغرض سياسى نأمل تحقيقه ولسنا مشايخ طرق . . البغدادى ص ١٤ .

وقد جذبت هذه الأفكار التى ترمى إلى ضرب قوات الاحتلال البريطانية بوسائل عملية كالتفجيرات وغيرها ، وترمى إلى معاونة قوات المحور معاونة عملية جذبت عددا من الضباط الشبان منهم « عبد المنعم عبد الرءوف » .

مرحلة التكوين

فى مثل هذا المناخ السياسى تبلورت شخصية « عبد المنعم عبد الرءوف » الذى ولد فى حى العباسية بالقاهرة فى ١٦ مايو سنة ١٩١٤م وتخرج فى الكلية الحربية سنة ١٩٣٨ ، ليعمل طيارا فى سلاح الطيران الملكى المصرى وإن كان قد تحول إلى وحدات أخرى فى الجيش بعد الإفراج عنه فى مارس ١٩٤٢ .

منذ البداية يعمل الملازم طيار « عبد المنعم عبد الرءوف » فى هذا المناخ السياسى ويقترب من الشخصية المثيرة الانقلابية والمغامرة شخصية الفريق « عزيز على المصرى » ويعتمد عليه « عزيز » فى تدبير أمر سفره إلى بيروت التى كانت تحت سيطرة حكومة فيشى الفرنسية بهدف السفر إلى بغداد للمشاركة فى ثورة « رشيد عالى الكيلانى » المؤيدة للمحور ، والمعادية للانجليز . . ولكن المحاولة تفشل كما عرفنا . . كان المناخ مهيأ للتعاون وللاتصال بعناصر ألمانيا التى تقترب جيوشها من حدود مصر الغربية وكان مهيأ لتعاون عناصر الجيش المصرى الشابة مع القصر وخاصة بعد الإنذار البريطانى للملك فاروق فى ٤ فبراير ١٩٤٢ ونظر الضباط إلى الملك على أنه رمز لمصر فى ذلك الحين ، وكانت العناصر الفعالة داخل القصر لها صلاتها بالمحور وخاصة إيطاليا .

مناخ يحاول ضرب قوات الاحتلال البريطانى بالتعاون مع قوات المحور الزاحفة فى ذلك الحين ، ويحاول التنسيق بين القوى المؤيدة لهذا الاتجاه خاصة جماعة الإخوان المسلمين ومصر الفتاة وشباب الحزب الوطنى ، والضباط الشبان ، وتنشط مجموعة من الشخصيات المعروفة . . « كعلى ماهر ، وعزيز على المصرى ، وأحمد حسين » وتبرز جماعة الإخوان المسلمين كجماعة تعرف أهمية «التنظيم » على ماعداه من العناصر . . فتهتم بضم الضباط الشبان إلى صفوفها ، فى سرية تامة فى أغلب الأحيان . . وتهتم بتدريب الشباب رياضيا وعسكريا . . وتخصص لهم أفضل عناصرها . . مثل « المرحوم محمود لبيب » .

وفى مايو ١٩٤١ فشلت محاولة « عزيز المصرى وعبد المنعم عبد الرءوف وحسين ذو الفقار صبرى » للهرب إلى لبنان والعراق تلك المحاولة التى قام بدور واضح فيها « عبد المنعم عبد الرءوف » والتى تمت بعد اتصالات مع القوات الألمانية وكانت الفكرة أصلا التى اتفق فيها « عزيز» مع عملاء الألمان هى أن تقوم طائرة ألمانية باختطاف « عزيز » من منطقة صحراوية . وتم تحديد منطقة (جبل رزه) على طريق الواحات البحرية فتوجه « عزيز وعبد المنعم » إلى المنطقة وفى الطريق تعطلت السيارة وفات الوقت المحدد لهبوط الطائرة الألمانية التى كان من المقرر أن يصعد إليها « عزيز المصرى » .

الالتزام الحزبى

فى مارس ١٩٤٢ م أفرج « مصطفى النحاس باشا » عن « عزيز المصرى وعبد المنعم عبد الرءوف وحسين ذو الفقار صبرى» وقد تم إبعاد عبد المنعم عن الطيران إلى سلاح آخر . . وإن كان النشاط السرى قد تشعب داخل الجيش فى تلك الفترة وما قبلها وما بعدها إلا أن الباحث يلاحظ أن خطوات عبد المنعم عبد الرءوف كانت محسوبة مما يوضح أثر ارتباطه بجماعة الإخوان المسلمين .

لم يكن « عبد المنعم عبد الرءوف » بعيدا عن المجموعة السرية الأولى التى اتسعت وضمت «المشير ـ فيما بعد ـ أحمد إسماعيل » وضمت « خالد محيى الدين » إلى جانب « عبد اللطيف البغدادى وحسن عزت وأنور السادات وحسن إبراهيم » لم يكن عبد المنعم عبد الرءوف بعيدا عن نشاط هذه المجموعة التى كانت على اتصال بالإخوان المسلمين وبعزيز المصرى ، واتصلت فى فترة ما بأحمد حسين . . ويسجل « أنور السادات » فى كتابه (البحث عن الذات) أهمية الدور الذى كان « عبد المنعم » يقوم به . . (ص ٣٤) .

وقد قامت هذه المجموعة يوم الاثنين ٢٩ يونية ١٩٤٢ بايفاد أحد أعضائها « أحمد سعودى أبو على » على طائرة مقاتلة من النوع البريطانى (جلاديتور) فى الصباح الباكر ومعه حقيبة بها معلومات عن القوات البريطانية ، واتجه بها نحو منطقة مرسى مطروح ليسلمها إلى الألمان هناك . . ولايعرف أحد حتى الآن مصير « أحمد سعودى » ولا مصير طائرته ، وكلفت قيادة الطيران المصرى فى ذلك الحين « الطيار رضوان » البحث عن طائرة سعودى ولكنه وصل إلى الألمان وبقى فى ألمانيا حتى قبض عليه هناك بعد انتصار الحلفاء . وحكم عليه فى مصر بالسجن لمدة ١٥ سنة وتم الإفراج عنه بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . وقد جرى تحقيق آخر حول طائرة « سعودى » لم يصل إلى «البغدادى » الذى يعده الرجل الأول فى هذه المجموعة ، ولم يصل إلى « عبد المنعم» الذى يعده السادات الرجل الثانى . . وإنما جوزى بسببه « حسن إبراهيم » بتأخير أقدميته سبعة ضباط .

وعلى الرغم من الصلة الوثيقة والمستمرة بين « عبد المنعم عبد الرءوف » وبين « أنور السادات » الذى يعرف تقدير « الشيخ حسن البنا وعزيز المصرى » لعبد المنعم إلا أن « عبد المنعم » لم ينزلق إلى اتصال « السادات » بجواسيس الألمان فى حكاية (عوامة الراقصة حكمت فهمى) .

والجاسوسان الألمانيان هما « هانز ابلر » والثانى « ساندى » .

تسلل « ابلر أو حسين جعفر ، وساندى» إلى مصر فى ملابس ضباط انجليز عبر الصحراء الغربية إلى أسيوط ، ومن أسيوط إلى القاهرة ، ومعهما ألوف الأوراق المالية المزورة . . واستأجرا عوامة الراقصة حكمت فهمى التى عملت بالإنتاج السينمائى فى أخريات أيامها ، واتصل الألمانيان بعبد المغنى سعيد (الكاتب المعروف الآن ووكيل وزارة العمل الأسبق) عن طريق قريب لحسين جعفر أو ابلر ، وطلب الألمانيان مقابلة « عزيز المصرى » فأوصلهما « عبد المغنى سعيد » إلى « الطيار حسن عزت » زميل «عبد المنعم عبد الرءوف » وتلميذ « عزيز المصرى » . وعن طريق «حسن عزت » اتصل الألمانيان بأنور السادات وبعزيز المصرى .

اتصل السادات بهذين الجاسوسين الألمانيين ، واتصل بهما عزيز المصرى ، وفى أغسطس من

عام ١٩٤٢ قبض على عزيز المصرى مرة أخرى وقبض على « أنور السادات» . . ولم يشمل التحقيق « عبد المنعم عبد الرءوف » .

التنظيم والإخوان المسلمون

فى ٨ أكتوبر ١٩٤٢ تقرر طرد أنور السادات من الجيش ، وأرسل إلى معتقل المنيا ، وجمال عبد الناصر فى السودان ، وزاد ارتباط « عبد المنعم عبد الرءوف » بالإخوان المسلمين . وفى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ أقيلت حكومة الوفد . وشكل « أحمد ماهر » وزارته من أحزاب الأقلية السياسية إلى أن قام « محمود العيسوى » من شباب الإخوان والمحامى بمكتب « عبد الرحمن الرافعى » باغتيال « أحمد ماهر » وحل محله « محمود فهمى النقراشى » وبدأت الحركة الوطنية تأخذ بعدا جديدا .

ولكن منذ الإفراج عن « عبد المنعم عبد الرءوف » و«عزيز المصرى » فى مارس ١٩٤٢ وبعد اعتقال أنور السادات وعزيز المصرى فى أغسطس ١٩٤٢ حتى ١٥ مايو ١٩٤٨ وهو تاريخ دخول الجيش المصرى حرب فلسطين ، أخذت حركة التنظيم السرى مسارا معينا ينبغى تسجيله .

تصاعد نشاط « عبد المنعم عبد الرءوف » باعتباره الشخص الأول فى الظروف التى أشرنا إليها وكثف جهوده فى ضم ضباط الجيش إلى الإخوان المسلمين . وكان الصاغ « محمود لبيب» وكيل الإخوان هو المشرف على تثقيف وتدريب و إرشاد الضباط اخوانيا .

وبين الحين والآخر يلتقى هؤلاء الضباط « بالشيخ حسن البنا » وفى وجود « محمد لبيب وعبد المنعم عبد الرءوف » ، وكانت نواة هذا التنظيم السرى المرتبط بجماعة الإخوان المسلمين فى مطلع عام ١٩٤٤ حسب الأقدمية فى كشف الجيش المصرى (حركة الضباط الأحرار والاخوان المسلمون ص ٣٣) ١ ـ اليوزباشى عبد المنعم عبد الرءوف . ٢ ـ اليوزباشى جمال عبد الناصر . ٣ ـ الملازم أول كمال الدين حسين . ٤ ـ الملازم أول سعد حسن توفيق (الذى أبلغ جمال عبد الناصر أن الملك قد كشف حركة الضباط الأحرار) . ٥ ـ الملازم أول خالد محيى الدين (تحول إلى الماركسية عام ١٩٤٧) . ٦ ـ الملازم أول حسين حمودة (مؤلف كتاب أسرار الضباط الأحرار والاخوان المسلمون) . ٧ ـ الملازم أول صلاح الدين خليفة (ضابط متقاعد الآن) .

وقام هؤلاء السبعة فى أوائل عام ١٩٤٦ بحلف اليمين فى حجرة مظلمة تماما ، فى منزل فى حى الصليبة بجوار سبيل أم عباس ، أمام رجل مغطى بملاءة .

وفى يناير ١٩٤٦ كلف « عبد المنعم عبد الرءوف » الصاغ « حسين حمودة » باغتيال « أمين عثمان » إلا أن « محمود لبيب » تدخل ورفض أن يقوم أحد من التنظيم السرى بهذا الاغتيال حرصا على السرية .

وفى أبريل ١٩٤٨ بدأت حركة التطوع للقتال فى فلسطين وكانت الكتيبة الأولى : البكباشى أحمد عبد العزيز قائدا ومعه عبد المنعم عبد الرءوف ، وزكريا الوردانى ، ومعروف الحضرى ، وكمال الدين حسين ، وحسن فهمى عبد المجيد ، ومصطفى صدقى، وخالد فوزى ، وأنور الصبحى .

الصـدام ولقـاء الهنـد !

وفى ١٥ مايو ١٩٤٨ توقف نشاط التنظيم السرى لاشتراك الضباط فى حرب فلسطين وإن كان الأعضاء قد بذلوا جهودا كبيرة فى الحرب . وبعد الحرب وضحت خطة عبد الناصر فى عزل التنظيم عن جماعة الإخوان المسلمين .

وقد عرفنا موضوع القبض على عبد المنعم عبد الرءوف فى أوائل عام ١٩٥٤م وهو عام الصدام الأول بين الإخوان ونظام ٢٣ يوليو ، ثم كان الصدام الدامى الثانى بعد محاولة اغتيال عبد الناصر فى ميدان المنشية بالاسكندرية فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ . وكان عبد المنعم عبد الرءوف هاربا خارج مصر . وجاء الصدام الدامى الثالث عام ١٩٦٥ وهو خارج مصر أيضا ، إلا أن ولاءه ظل قويا لمبادئ الإخوان المسلمين .

ترك زوجة وأولادا فى مصر ، وتزوج من لبنانية وهو فى لبنان وأنجب منها .

كانت العلاقات الإنسانية مسألة أساسية عند « عبد المنعم عبد الرءوف » . سنة ١٩٤٤ هرب السادات من المعتقل ولجأ إلى منزل « عبد المنعم » . . وعندما كان السادات معتقلا وجدت أسرة السادات فى « عبد المنعم » عضو الإخوان المسلمين معينا يرعى شئونها بانتظام . وتدور الأيام ويحل موعد زفاف ابنتى « عبد المنعم » وهو غائب أو هارب . . فيفتح « السادات » بيته لاسرة عبد المنعم ، ويعقد قران ابنتى عبد المنعم فى منزل السادات . . ويشهد على عقد القران الرئيس الأسبق « جمال عبد الناصر » هذه واقعة مؤكدة . . وتبقى واقعة موضع خلاف نسجلها للباحثين ولمن لديهم معلومات أدق . . فى بداية الستينات نشرت بعض الصحف العربية أن الرئيس الأسبق « جمال عبد الناصر » وهو فى زيارة لنيودلهى فوجئ بين مستقبليه من السفراء بعبد المنعم عبد الرءوف باعتباره سفيرا للاردن ، وقيل إن الملك حسين منحه الجنسية الاردنية وعينه سفيرا للاردن فى نيودلهى . . غير أن زوجته الفاضلة والتى كان قد تزوجها من لبنان عام ١٩٥٥ نفت لى بحسم مسألة الجنسية الاردنية ، ومسألة تعيين « عبد المنعم» سفيرا للاردن فى نيودلهى . . وأقرت أن الموضوع قد نشر فعلا فى ذلك الحين ولكنه غير صحيح . . ورجحت أن يكون الموضوع من صنع

أحد كبار معاونى « عبد الناصر » فى ذلك الحين . . وقد تردد أنه « الأستاذ فتحى رضوان » . . على أية حال الموضوع نشر فعلا وأكده لى صديق مصرى قرأه بنفسه فى حينه فى الكويت . . وتبقى كلمة من لديه الحقيقة .

الأسـانيد :

١ ـ أنور السادات . . أسرار الثورة المصرية .

٢ ـ حسن العشماوى . . الإخوان والثورة .

٣ ـ حسين حمودة . . الضباط الأحرار والإخوان المسلمون .

٤ ـ عبد اللطيف البغدادى . . مذكرات .

٥ ـ محمد نجيب . . كلمتى للتاريخ .

الدكتور عبد الوهاب عزام



ما شاء الله ، بارك الله فى مصر الولود ، فى يوم واحد مشهود ، يدخل إلى مجمع اللغة العربية عشرة رجال . . وأقرءوا الأسماء التى ورد بها المرسوم الصادر فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٤٦ . الدكتور إبراهيم بيومى مدكور ، والدكتور أحمد زكى ، والأستاذ زكى المهندس، والدكتور عبد الرزاق السنهورى ، والشيخ عبد الوهاب خلاف ، والأستاذ مصطفى نظيف ، والدكتور محمد شرف والأستاذ محمد فريد أبو حديد ، والشيخ محمود شلتوت ، والدكتور عبد الوهاب عزام .

ومن قال إن تاريخ مصر مقصور على رجال السياسة والأحزاب والوزراء ؟ ومن قال إن العمل فى الحقل والمصنع والمدرسة والجامعة ودور العبادة والمعامل والجيش وغيرها ليس سياسة ؟ تاريخ مصر كل هذه الأنشطة وكل هؤلاء . . تاريخ مصر فى كل المؤسسات . . قضائية وإدارية وثقافية وتنفيذية وشعبية وحكومية وسياسية . .

ومجمع اللغة العربية ، على الرغم من أنه مؤسسة تعنى أساسا باللغة وتطورها ومواكبتها للنهضة الحديثة ، الا أن التفكير فيه كان فى الأساس تلبية لحاجة النهضة المصرية الاقتصادية والعسكرية والصناعية والاجتماعية . ولم يكن هذا النشاط بعيدا عن السياسة . . فرفاعة الطهطاوى الذى قام بجهود هائلة فى نقل المعارف الأوربية إلى اللغة العربية ، والشيخ محمد عبده الذى جدد فى أسلوب التأليف وطالب بإنشاء مدرسة دار العلوم للمساهمة فى تطوير اللغة وتوفيق البكرى وأحمد تيمور ولطفى السيد الذين انشئوا الجمعيات لتطوير اللغة العربية ، ورواد مجمع اللغة فيما بعد أمثال محمد توفيق رفعت والدكتور منصور فهمى والشيخ إبراهيم حمروش والشيخ محمد الخضر حسين وعلى الجارم هؤلاء جميعا وغيرهم أسهموا بقدر وفير فى نهضة مصر الحديثة السياسية وغير السياسية .

وننظر إلى العشرة الذين دخلوا إلى مجمع اللغة العربية فى يوم واحد (٢٨ نوفمبر سنة ١٩٤٦) . . الدكتور إبراهيم مدكور (١٩٠٢) مد الله فى عمره وأسبغ عليه نعمة الصحة . . رئيس المجمع حاليا ، كاتب ولغوى ومفكر ، ووزير سابق ، وعضو مجلس شيوخ سابق ، اعتقل وسجن فى ثورة ١٩١٩ ، ونادى بإصلاح الأداة الحكومية ، ودعا إلى تحديد الملكية الزراعية . الدكتور أحمد زكى (١٨٩٥ ـ ١٩٧٥) عالم كيميائى وأديب ، ووزير سابق ، مدير سابق لجامعة القاهرة ، ورأس تحرير مجلة العربى التى تصدر من الكويت . وزكى المهندس (١٨٨٧ ـ ١٩٧٦) أحد رجال التربية والتعليم ، وهو أحد الأساتذة الذين شجعوا الطلاب على المشاركة فى ثورة سنة ١٩١٩ . والدكتور عبد الرزاق السنهورى (١٨٨٥ ـ ١٩٧٦) أحد أعلام الفقه والقانون ، والوزير السابق ، وضع خدماته تحت تصرف حركة ٢٣ يوليو ، ثم اصطدم بقائدها جمال عبد الناصر ، وضع القانون المصرى المدنى والقوانين المدنية والتشريعات الدستورية لعدد من البلاد العربية . الشيخ عبد الوهاب خلاف (١٨٨٨ ـ ١٩٥٦) أحد الفقهاء المجددين المجتهدين فى الشريعة الإسلامية تخرج على يديه أبناؤه القضاة الشرعيون والقضاة المدنيون والمدرسون . الدكتور محمد شرف (١٨٩٠ ـ ١٩٤٩) الوكيل الأسبق لكلية الطب وتفرغ على إخراج معجم خاص بالمصطلحات الطبية . محمد فريد أبو حديد (١٨٩٣ ـ ١٩٦٧) أحد المؤسسين للجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤ ، المستشار الفنى السابق لدار المعارف . الشيخ محمود شلتوت (١٨٩٣ ـ ١٩٦٣) فقيه واسع الأفق ، مفسر واسع الاطلاع ، حارب الجمود والعصبية المذهبية ، ونندد بفكرة سد باب الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية . تجاوب مع الشيخ محمد مصطفى المراغى فى مشروعاته لإصلاح الأزهر . مصطفى نظيف المدير الأسبق لجامعة عين شمس ، وكان ناظرا لمدرسة أسيوط الثانوية وهو أحد علماء الطبيعة المعدودين ورائد من رواد النهضة العلمية العربية .

أرايت أن هؤلاء التسعة أسهموا فى نهضة مصر الحديثة العلمية والتعليمية والثقافية والدينية والاجتماعية والسياسية أيضا . أما الدكتور عبد الوهاب عزام (١٨٩٣ ـ ١٩٥٩) فله ماتبقى من صفحات فإنه فارس هذه الحلقة .

أكثر من رجـل

وعاشر هؤلاء الذين انضموا إلى مجمع اللغة فى يوم واحد ، هو « الدكتور عبد الوهاب عزام » السفير الأسبق لمصر فى الباكستان والمملكة العربية السعودية ، والعميد الأسبق لكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول بالقاهرة ، وعضو المجمع العلمى العربى بدمشق والمجمع العلمى العراقى ومجمع اللغة العربية ، وكاتب أديب مؤلف ، ومنشىء لجامعة الرياض ، ورئيس لقسم اللغة

العربية واللغات الشرقية بكلية الآداب ومترجم عن اللغتين التركية والفارسية ، ومحقق لبعض كتب التراث الشعرية والمترجمة إلى العربية وعالم فى اللغات الشرقية . . قال عنه الدكتور طه حسين فى حفل تأبينه : (بفضل عبد الوهاب عزام ، استقر تدريس اللغة الفارسية فى جامعة القاهرة ، وانتقل منها إلى جامعات أخرى ، ومعاهد أخرى للتعليم ، وبفضل عبد الوهاب عزام أخذنا نعرف أدب الفرس ، ونعرف من آثارهم وأمورهم شيئا غير قليل .)

وعن الفارسية ترجم « الدكتور عبد الوهاب عزام » ديوان (بيام مشرق) للشاعر والفيلسوف والمعلم واحد قادة الدعوة الإسلامية « محمد إقبال » وطبعت الترجمة العربية فى كراجى سنة ١٩٥١ م ـ وكانت أول ترجمة كاملة إلى العربية لهذه الرسالة . ولابد أن أمورا بذاتها دفعت « الدكتور عزام » إلى ترجمة هذه الرسالة . وجاء هذا الديوان ردا على (الديوان الشرقى) للمفكر الغربى «جيتة » فوضع إقبال (بيام مشرق) أو رسالة المشرق سنة ١٩٢٣م . وعلى غرار ما فعله الشاعر الألمانى « جيتة » فى الديوان الشرقى كتب « إقبال » فى أعلى ديوان رسالة المشرق عبارة (ولله المشرق والمغرب) وأسفل هذه العبارة عبارة أخرى (رد على ديوان الشاعر الألمانى جيتة) . ويدير « إقبال» حوار ممتعا فى العالم الآخر مع تولستوى وماركس وهيجل ومزدك ونيتشه ، ويتحدث عن اينشتاين وجلال الدين الرومى ، وحوارا آخر بين أوجيست كونت من ناحية وبين رجل أجير من ناحية أخرى ، وحوارا بين لينين من ناحية والقيصر من ناحية أخرى .

وأظن أن الدافع الذى حدا بإقبال إلى وضع هذا الديوان (بيام مشرق) أو رسالة المشرق هو بذاته الذى حدا بالمفكر المصرى «دكتور عزام» إلى ترجمتها إلى اللغة العربية من الفارسية . . يقول «إقبال » ـ لقد حاولت فى أعمالى بالفارسية أن أبرز حقيقة مؤكدة أشار إليها القرآن الكريم .

« إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) . لقد أصدر « إقبال » بيام مشرق بعد الديوان الشرقى لجيته بمائة عام ، وترجم « عزام » . رسالة إقبال بعد صدورها بالفارسية بـ ٢٨ سنة ، ولم تكن الترجمة مجرد عمل من مصرى يجيد الفارسية ، وإنما نجد (عبد الوهاب عزام) بعد سنتين من صدور الترجمة قد اصدر فى القاهرة كتابا من تأليفه عن (محمد إقبال ، سيرته وفلسفته وشعره) بالقاهرة سنة ١٩٥٣ . ومن الضرورى أنه عاش مع « إقبال » وشعره وفلسفته وجذبته إليها سيرة حياته وأعجبه دوره فى الدعوة إلى وحدة المسلمين وقد زار « إقبال » مصر سنة ١٩٣١م زيارة قصيرة كان « عبد الوهاب عزام » يعمل وقت ذاك مدرسا بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ولم نقف على مصدر يدلنا على ان الرجلين التقيا فى القاهرة . واختار عبد الوهاب عزام أيضا أول أشعار إقبال بالفارسية وترجمها إلى العربية وهى تلك التى نشرها فى لاهور لأول مرة فى سنة ١٩١٥ م . وقد اطلق « إقبال » على هذه الأشعار الباكرة اسم (أسرار خودى) أى أسرار الذات ثم أضاف إليها « رموز خودى » ، وقام عبد الوهاب عزام سنة ١٩٥٦ بنشر ترجمة عربية للأسرار

والرموز وفى الأشعار يثبت إقبال أن الكون كله يخضع لارادة الذات وأن عشق الذات يسود كل شىء فى هذا العالم وهذه الأشعار لقيت معارضة من القراء حين نشرها وقد فسر إقبال ذلك بصعوبة تلك الأشعار أو بإغراقها فى الرمزية ووعد بجزء ثالث إلى جانب (الأسرار والرموز) يوضح فكرته أكثر وأكثر واختار له عنوانا (الوجود المستقبلى للإسلام) إلا انه لم يصدر وقد ترجم عبد الوهاب عزام كذلك مجموعة شعرية صدرت عام ١٩٣٦ م هى (ضرب كليم) ونشرت الترجمة العربية بالقاهرة فى سنة ١٩٥٢م .

ووصف « إقبال » هذا الديوان بأنه (إعلان للحرب على العصر الحاضر) وتناول فيه السياسة فى المشرق والمغرب والتعليم والتربية والإسلام والمسلمين .

وهكذا نجد أن الشاعر المفكر الإسلامى « إقبال » قد استحوذ بأعماله وشخصيته وأشعاره وأفكاره على كاتبنا المصرى عبد الوهاب عزام فيصدر كتابا عنه ويترجم له أشعارا إلى اللغة العربية هذا إلى جانب مقتطفات متفرقة من الشعر الفارسى والشعر التركى نشرها فى فترة باكرة بمجلة الرسالة التى كان يصدرها الأستاذ أحمد حسن الزيات .

أبو الطيب المتنبى

وإذا أردنا أن نقف على مكانته الثقافية الباكرة يكفى أن نقول إن « عبد الوهاب عزام » كتب فى مجلة الرسالة (٣٣ ـ ١٩٥٣) إلى جانب « طه حسين ومحمد حسين هيكل وعباس محمود العقاد ومصطفى صادق الرافعى وأحمد أمين وعبد العزيز البشرى وأمين الخولى ومحمد عوض محمد ومحمود تيمور وإبراهيم عبد القادر المازنى وتوفيق الحكيم وخليل مطران وعبد الرحمن شكرى وأحمد زكى أبو شادى ومحمد عبد الله عنان وأحمد رامى وأحمد زكى وإسماعيل مظهر » .

وإذا كان « محمد إقبال » قد استحوذ على عبد الوهاب عزام فإن شاعرا عربياً شامخا دخل إلى دائرة نشاط الدكتور عزام ذلك هو أبو الطيب المتنبى اذ عكف عبد الوهاب عزام على تحقيق ديوانه ثم أصدر كتابا عن الشاعر نفسه بعنوان (ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام) وأبو الطيب المتنبى علم من أعلام الشعراء العرب وطبع كثيرين من شعراء العربية بطابعه ، وهو من شعراء القرن الرابع الهجرى وقد زار « المتنبى » مصر أيام « كافور » وزعم « الدكتور زكى مبارك » أنه زار قريته سنتريس وهذا لم يقم عليه دليل قوى وقد أخذ العلماء يصنفون شروحا لديوان المتنبى منذ أن كان هو نفسه على قيد الحياة منذ أكثر من ألف عام . ومن هؤلاء ابن جنى وهو أول شارحيه وأبو العلاء المعرى وغيرهما ثم الدكتور عبد الوهاب عزام وكتابه يطلق عليه الباحثون (ديوان المتنبى) وهناك

شروح أخرى لعدد من الشوامخ أمثال زكريا التبريزى تلميذ أبى العلاء وعبد القاهر الجرجانى وشاعر مصرى « ولد سنة ٣٩٣هـ» وضع كتابا بعنوان المنصف فى سرقات المتنبى وقد بلغت الشروح المستوفاة لسائر الديوان سبعة عشر شرحا يقف فى وسطها (ديوان المتنبى) للدكتور عبد الوهاب عزام وحتى نعرف قيمة هذا العمل وقيمة الجهد الذى بذل فيه نقول إن عددا من الأسماء الكبيرة اكتفت بالكلام عن بعض أبيات من المتنبى أمثال أبى بكر الخوارزمى وعبد الرحمن النيسابورى وأحمد بن محمد العروضى .

والمتصفح لديوان المتنبى بتحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام يرى أن المتنبى قد جمع قصائد الصبا بها سمى (العراقيات الأولى ثم (الشاميات) ثم المصريات وهى الكافوريات فالعراقيات الأخيرة إلى آخر ذلك ، وقد لاحظ الدكتور عزام أن كثيرا من القصائد له مقدمات طويلة ويرجح أن هذه المقدمات من إملاء المتنبى نفسه على رواة شعره وهذا مالم يحدث لأى شاعر آخر وقد شغل عبد الوهاب عزام وهو الشخص القريب من التصوف والقريب من محمد إقبال بشخصية المتنبى ذات الحضور الوهاج والمقبل على المغامرة دائما والمندفع إلى المديح وإلى الهجاء لذوى السلطان والذى اتصل بوالى طبرية وبابن طفح وسيف الدولة وكافور الاخشيدى ورفض أن يمدح الصاحب بن عباد عندما علم أن الصاحب شديد الرغبة فى استبعاد الكتاب والشعراء . . ويوم الاثنين لست ليال بقين من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلثمائة من الهجرة كان المتنبى يقترب من بغداد فقتل وقتل معه عبده وابنه وهناك روايات كثيرة عن أسباب مقتله . . ولعل سبب اهتمام الدكتور عزام به إعجابه بشعره الفحل وشخصيته الهادرة مما جعله يحقق الديوان سنة ١٩٤٤ م ثم يصدر كتابا بعنوان (ذكرى أبى الطيب المتنبى بعد ألف عام) .

عـزام ومصطفى النحاس

هذا وقد شغل عبد الوهاب عزام عدة مناصب أتاحت له الفرصة للتعرف على أحوال البلاد التى عمل فيها بل إنه كان موضع ثقة كبار المسئولين فى تلك البلاد . عمل سفيرا لمصر فى الباكستان فكان قريبا إلى قلوب المسئولين والمثقفين على السواء لما عرف عنه من بحوثه ودراساته السابقة عن شاعرهم « محمد إقبال » حدثنى الأستاذ إبراهيم فرج أن الملك عبد العزيز آل سعود كان قد بعث برسالة إلى النحاس باشا عقب إلغاء معاهدة ١٩٣٦ عن طريق السفير السعودى فى مصر يعرض فيها وساطته لدى حكومة واشنطون ، وطلب من النحاس أن يحدد شروطه لابلاغها إلى الحكومة الأمريكية ، وكنت ـ أى إبراهيم فرج ـ فى ذلك الوقت وزيرا للخارجية بالنيابة ، فاقترحت على النحاس تكليف الدكتور عزام ب إلاغ الرد إلى الملك عبد العزيز ، وكان عزام فى ذلك الوقت يقضى إجازته السنوية فى القاهرة حيث كان يشغل منصب سفير مصر لدى

باكستان، وقام عزام بمهمته الدبلوماسية ، فلما عاد بالجواب ، كانت وزارة الوفد قد أقيلت ، فقدم التقرير إلى وزير الخارجية السابق ، الأمر الذى يكشف عن حرصه واحترامه التقاليد والأصول وطلبنا منه تسليم التقرير إلى على ماهر باشا رئيس الوزراء ، ووزير الخارجية الجديد .

وإلى جانب أعماله فى بلاد وقف على أحوالها وتعرف على مسئوليها كانت له رحلات إلى تركيا وبلاد الشام والعراق وإيران وبعض دول أوربا جمعها فى كتاب باسم (رحلات عبد الوهاب عزام) . .

وعاد للعراق للتدريس فى بغداد ثم عمل فى السعودية حتى بلغ سن التقاعد سنة ١٩٥٣ وبذل جهودا كبيرة فى إنشاء جامعة الرياض وأصبح مديرا لها حتى توفى فى يناير عام ١٩٥٩ ويكون هذا الرجل (أو هؤلاء الرجال) قد عاش ٦٦ عاما عاش غالبيتها يقدم لمصر وللبلاد العربية والإسلامية أجل ما لديه من عطاء .

بداية الرحلة

ولد بالشوبك الغربى بمحافظة الجيزة فى سنة ١٨٩٣م . والشوبك الغربى (نزلة) تابعة لمركز العياط عرف أهلها بالبطولة فى مواجهة قوات الاحتلال الانجليزى فى ٣٠ مارس ١٩١٩ . وقد حفظت لنا (مذكرات عبد الرحمن فهمى) فظائع قوات الاحتلال فى الشكوى التى قدمها عبد اللطيف أفندى أبو المجد ابن عمدة نزلة الشوبك المرفوعة لأعتاب الحضرة السلطانية ورجال الحكومة ونواب الأمة المصرية ويجد القارئ نص هذه الشكوى التى تسجل مدى الانحطاط الذى وصلت إليه القوات الانجليزية على صفحات (١٩٤ ـ ٢٠٠) من كتاب مذكرات عبد الرحمن فهمى جـ ١ الذى صدر أخيرا .

وفى تلك النزلة نشأ عبد الوهاب عزام نشأة دينية فحفظ القرآن الكريم منذ صغره والتحق بالأزهر ، وانتقل منه إلى مدرسة القضاء الشرعى وتخرج منها أول زملائه سنة ١٩٢٠م . وعمل مدرسا بها وفى الوقت ذاته كان يدرس فى الجامعة المصرية فحصل منها على ليسانس الآداب سنة ١٩٢٣ .

وفى تلك السنة (١٩٢٣) وبعد مائة عام تقريبا من سفر الشيخ رفاعة الطهطاوى إماما لبعثة محمد على إلى باريس يتكرر الموقف فيسافر الشيخ عبد الوهاب عزام إماما فى السفارة المصرية فى لندن وكما فعل رفاعة حين اتجه لدراسة اللغة الفرنسية التحق عبد الوهاب بمدرسة اللغات الشرقية

بجامعة لندن ليدرس الفارسية وكان معه أستاذنا الدكتور محمد مهدى علام والمرحوم حامد عبد القادر وسنة ١٩٢٨م عاد من لندن ليعمل مدرسا بكلية الآداب وحصل على الدكتوراه فى الأدب الفارسى عام ١٩٣٢ وعمل أستاذا بالكلية ثم عميدا لها عام ١٩٤٥ ولقى ربه بالسعودية فى يناير ١٩٥٩ راضيا مرضيا .

الأسانيد :

١ ـ د . أحمد معوض ـ محمد إقبال .

٢ ـ عبد الرحمن فهمى ـ المذكرات .

٣ ـ د . عبد المجيد دياب ـ أبو الطيب المتنبى .

٤ ـ د . عبد المنعم الجميعى مجمع اللغة العربية .

٥ ـ على شلش ـ دليل المجلات الأدبية .

٦ ـ محمد مهدى علام ـ المجمعيون .

عدلى يكن



أول رؤساء حزب الأحرار الدستوريين (٣٠ أكتوبر ١٩٢٢) .

ولد عام ١٨٦٦ م ، وفى رواية أخرى ١٨٦٤م ، وتوفى فى باريس ١٩٣٣ . جميع الكتابات التى عرضت له تناولته فى مجال المقارنة مع « سعد زغلول » ونحن هنا لسنا فى مجال المقارنة أو المفاضلة ، ولهذا سوف نقدم صورته دون المقارنة مع شخصية « سعد زغلول » التى سيطرت على القلوب وعلى الشارع المصرى .

كتب عنه « محمد كامل سليم » سكرتير سعد زغلول فقال . . رجل الديوان ، أرستوقراطى ، فيه دم تركى أجنبى ، عظيم الثراء ، نبت من بيئة الحكام ، وليس فى قلبه مايضرم الشوق إلى الحرية والاستقلال . ثقافته ونشأته وتربيته وعاداته فرنسية وأقدر على الكلام بالفرنسية أضعاف قدرته على الكلام بالعربية العامية ، ولم يعرف العربية الفصحى ، ولم يقرأ كتابا من كتب الأدب العربى . رجل مصالح أولا وأخيرا ولايعنى بسواها . وكل وسيلة تحقق مصالحه هى مقبولة فورا مادامت لاتعرضه للمتاعب والأخطار ، ويرى أن المساومة وحدها هى سر النجاح فى الحياة ، والنعومة والمكر وانتهاز الفرص خير الوسائل فى الحياة . متكبر لايترك أية عاطفة تسيطر عليه ، فهو يقلد الانجليز فى البرود ولايسمح لأية عاطفة أن تفوت عليه مصلحة يريدها . وهو بحكم مزاجه البارد وطبيعته الجامدة وبيئته ونشأته لايعترف بالمثل العليا ، ولايتأثر كثيرا بما يصيب الآخرين . سلوكه يتوقف على مايراه فإن كان مايراه صعبا جدا أعرض عنه وانصرف إلى سواه . وإن كان مايراه مفيدا وممكنا بمجهود يسير أقبل عليه ودافع عنه وقام بالعمل لتحقيقه . ومصلحته الشخصية هى الهدف الأول والأخير على الدوام . ولايرى أى معنى للتمسك بالمبدأ أو الثبات على عهد أو مقاومة القوة القاهرة ، ويرى أن التمسك بذلك إنما هو من مظاهر الغباء وقلة

العقل وأسلوبه فى الكلام أسلوب السياسى الناعم الملمس الذى يؤذى ولايجرح . وكان يتكلم دائما فى هدوء .

هذا ماكتبه عنه « سكرتير سعد » وهو بالتأكيد محب لسعد ، ولهذا يجدر أن ننظر إلى ماكتبته «دكتورة عفاف لطفى السيد » ابنة شقيق « أحمد لطفى السيد» المحب لعدلى يكن ، والدكتورة عفاف ليست موالية لسعد ويظهر هذا بوضوح فى كتبها التى أصدرتها . . كتبت تصف « عدلى يكن » فقالت ـ ولد ارستوقراطيا أسمر البشرة ، ملامحه زنجية يعزوها البعض إلى أجداده السودانيين ، ومع ذلك كانت تربطه بالأسرة المالكة رابطة قرابة . كان واسع الثراء ، ولم يكن يحارب قط من أجل البقاء أو الشهرة إذ أتيا له بحق المولد ، فضلا عما كان يتمتع به من صفات مؤكدة وبخاصة مهارته الإدارية . تلقى العلم فى فرنسا وتركيا والتحق بالمدارس الفرنسية والألمانية فى مصر . ولم يكن عدلى ارستوقراطيا فحسب ، بل كان أمينا أيضا ، عنده (عزة نفس) وهى من الخصال التى يقدرها الناس فى مصر تقديرا عظيما ، وهو لايحط من قدر نفسه أبدا ليؤدى عملا وضيعا . ويندر أن يقبل الاشتراك فى أى أمر أعنف من مناوشات سياسية نبيلة . كان يفضل أن يستقيل عن أن يحط نفسه بالاشتراك فى شغب سياسى . كان رجل دولة ولكن لم يكن سياسيا . كان دائما محل إعجاب ، ولكن نظرا لترفعه لم يكن محبوبا وقلة من الشعب تعرفه ، وهو بدوره نادرا مايتصل بالناس ، ونادرا ماكان يتأثر بهم ، ومع ذلك كان رجلا حكيما يمكنه أن يرى جانبى المشكلة ، ويحترم آراء الآخرين .

عدلى وزيرا

وفى تقديرى أن كل صورة كانت لجانب واحد من « عدلى يكن » والصورتان معا تشكلان الصورة الشاملة لعدلى يكن ، الذى تعلم فى الاستانة ومصر وفرنسا . وفى مصر تعلم فى المدرسة الألمانية والفرير والجيزويت ومدرسة مارسيل . وسنة ١٨٨٠ عين كاتبا بقلم الترجمة بنظارة الداخلية . ثم تولى منصب سكرتارية مجلس النظار (مجلس الوزراء) فى عهد الأرمنى الداهية الماكر « نوبار ». وعين عام ١٨٩٠ وكيلا لمديرية المنوفية ، فوكيلا لمديرية المنيا . ثم مديرا للفيوم سنة ١٨٩٤ . فمديرا للشرقة والدقهلية والغربية ومحافظا للقاهرة .

وفى ٥ ابريل سنة ١٩٠٤ صدر (أمر عال) لحسين رشدى باشا بتشكيل نظارة جديدة اختار فيها « عدلى يكن باشا » ناظرا للخارجية وكانت نظارة رشدى هى آخر عهد مصر بالنظارات اذ إن الحرب العالمية الأولى بدأت فى أول أغسطس ١٩١٤ ، ورحل الخديو عباس حلمى الثانى إلى الأستانة ولم يعد بعد ذلك إلى مصر ، وأصبح « حسين كامل » سلطانا على مصر . وشكل

«حسين رشدى » وزارته الثانية فى ١٩ ديسمبر ١٩١٤ وتولى « عدلى يكن » وزارة المعارف العمومية. وفى ١٠ أكتوبر ١٩١٧ شكل « حسين رشدى » وزارته الثالثة وبقى « عدلى يكن » وزيرا للمعارف إلى أن استقالت الوزارة فى أول مارس ١٩١٩ . وفى ٥ ابريل ١٩١٩ شكل « حسين رشدى » وزارته الرابعة التى استمرت حتى ٢٢ ابريل ١٩١٩ وشغل فيها « عدلى يكن » منصب وزير الداخلية . وبذلك يكون « عدلى يكن » قد شغل منصب الوزير من ٥ ابريل ١٩١٤ حتى ٢٢ ابريل ١٩١٩ ، أى لأكثر من خمس سنوات متصلة ولكن فى مواقع وزارية مختلفة .

وبالنظر فى تواريخ الوزارات الماضية تكون الفترة من ١٣ نوفمبر ١٩١٨ حتى ٢٢ ابريل ١٩١٩ ، التى كانت فترة المد الشعبى حول الوفد وحول سعد زغلول ، تكون داخل نطاق رياسة «حسين رشدى » لوزارات متعاقبة ، وكان فيها « عدلى يكن » وزيرا للمعارف مرة ، ووزيرا للداخلية مرة أخرى . وبخصوص جمع التوكيلات للوفد فى نوفمبر ١٩١٨ فقد لاحظ رئيس الوفد « سعد زغلول » أن (وزير الداخلية ورئيس مجلس الوزراء ـ حسين رشدى) قد أمر بالكف عن إمضاء هذه التوكيلات ، وأمرت الداخلية بمصادرة ماتم التوقيع عليه . وقد أرسل « سعد زغلول» بصفته وكيلا منتخباً للجمعية التشريعية ورئيس الوفد المصرى احتجاجا فى ٢٤ نوفمبر ١٩١٨ لحسين رشدى باشا الذى أجابه برد يفيد أن « مستشار الداخلية » وهو انجليزى هو الذى أصدر تلك التعليمات . ورغم هذا فقد كان الإقبال على جمع التوكيلات للوفد شديدا وقد قدم « حسين رشدى » استقالة الوزارة فى أول مارس ١٩١٩ ووقف الوفد إلى جانب « رشدى » وأرسل مايشبه الإنذار للسلطان « أحمد فؤاد » وفى ٨ مارس كما هو معروف اعتقلت السلطات البريطانية « سعد زغلول » وثلاثة من قادة الوفد . وبقيت البلاد دون وزارة جديدة إلى أن شكل « رشدى » وزارته الرابعة من ٩ ـ ٢٢ ابريل . وتولى « عدلى » وزارة الداخلية وكان قد تضامن مع « رشدى » فى تقديم استقالته السابقة . وفى عهده اجتمع مجلس مديرية الجيزة واحتج على الفظائع التى ارتكبها الانكليز ضد الأهالى . بل إن « عبد الرحمن فهمى » يسجل فى مذكراته (ظلت البلاد من أول مارس ١٩١٩ دون وزارة مسئولة حتى إذا أجابت السلطة الانجليزية رغبات الأمة التى هى رغبات رشدى باشا وزميله عدلى باشا ، وهى السماح للمصريين بالسفر إلى أوروبا لعرض قضية البلاد أذعن رشدى باشا للرغبة (التى أبديت لتشكيل الوزارة فى ٩ ابريل ١٩١٩) ولم يسجل « عبد الرحمن فهمى » فى مذكراته ـ وهو معروف بدقته وحيدته ـ أية ملاحظات على تصرفات « عدلى يكن» وزير الداخلية أثناء توليه الداخلية فى الفترة الحرجة من ٩ ـ ٢٢ ابريل ١٩١٩ .

عـدلى فى أوروبا

تم الإفراج عن سعد زغلول وزملائه الثلاثة فى ٨ ابريل ، وسافر عدد من أعضاء الوفد من بورسعيد إلى فرنسا فى ١١ ابريل والتقى الجميع هناك لعرض قضية البلاد على مؤتمر السلام . ثم نجحت الثورة بإجماع المصريين على مقاطعة لجنة ملنر وعادت إلى لندن . واضطر « ملنر » للاتصال بسعد زغلول فى باريس ودعوته للمفاوضة فى لندن . وظل سعد يعارض ويعترض . واضطر أخيرا إلى الموافقة تحت ضغط غالبية الوفد يؤيدهم فى ذلك الرأى « عدلى يكن » وهكذا سافر سعد زغلول وأعضاء الوفد من باريس إلى لندن فى ٥ يونية ١٩٢٠ . وفى يوم ٦ يونية ذهب «سعد وعدلى » لمقابلة « ملنر » . وفى ٩ يونية بدأت الجلسة الأولى للمفاوضات الساعة ٤٫٣٠ بعد الظهر فى وزارة المستعمرات ومثل الجانب المصرى « سعد زغلول ومحمد محمود وأحمد لطفى السيد وعدلى يكن » وتعددت الجلسات . وفى أول يوليو ١٩٢٠ وردت برقية من « مصطفى النحاس » تحمل أنباء القبض على « عبد الرحمن فهمى » وسبعة وعشرين مصريا من زعماء الشباب والطلبة فى قضية أطلق عليها اسم (المؤامرة الكبرى) . وقرر « سعد » قطع المفاوضات فورا ولكن إخوانه ينصحونه بالتريث وفى مقدمتهم « عدلى يكن » الذى قال (إن ملنر يجب ان يعطى فرصة ليصلح ما افسده غيره) . وفى ١٧ يوليو تقدم « ملنر » بمشروع للمعاهدة . ورد « سعد » بمشروع آخر . وفى ٢٠ يوليو أبلغ «عدلى » الوفد أن « ملنر » اتصل به تليفونيا وأبلغه أنه ساخط على مشروع الوفد ورافض له . فأعلن سعد ضرورة قطع المفاوضات والعودة من لندن إلى باريس ، ولكن أغلبية الأعضاء ومعهم « عدلى » رأوا ضرورة التريث وضبط الأعصاب . ووصل « حسين رشدى » إلى لندن وانضم إلى المتفاوضين ، وفى ٢٥ يوليو وضع « رشدى وعدلى وأحمد لطفى السيد وعبد العزيز فهمى ومحمد على علوبة » مشروعا جديدا حمله « عدلى » إلى ملنر دون أن يطلع « سعد زغلول » عليه وتقدم « ملنر » بمشروع جديد رفضه « سعد زغلول » ولكن غالبية الأعضاء قرروا أن يعود أربعة منهم هم « أحمد لطفى السيد ، ومحمد محمود ، وعلى ماهر ، والمكباتى » إلى مصر وينضم إليهم « مصطفى النحاس وويصا واصف والدكتور حافظ عفيفى » الموجودون فى مصر . ولم يرض « سعد » عن هذا الاقتراح وعاد من لندن إلى باريس فى ١٦ أغسطس . . وكان الموقف كالتالى يعارض المشروع « سعد زغلول وواصف غالى وسينوت حنا وعلى ماهر ومصطفى النحاس ومعهم الحزب الوطنى . . وفوجئ سعد بأقسام كثيرة تؤيد المشروع وصولا إلى اتفاق مع انجلترا . . « عدلى وعدد كبير من أعضاء الوفد » وصحافة لندن وباريس تروج للاتفاق ، ومعهم عدد من أعضاء الجمعية التشريعية . . وكان الرأى العام فى مصر يميل إلى قبول المشروع مع بعض التحفظات عليه .

وبدأت المفاوضات جولة جديدة ، وكان سعد يأمل أن يضع تحفظات جوهرية على المشروع ورفض « ملنر » هذه التعديلات وهنا حسم الموقف داخل الوفد . . غالبية الأعضاء ينضمون إلى عدلى فى قبول « مشروع ملنر » . . وعدد قليل من الوفد يقف إلى جانب « سعد » ووقع الصدام السافر بين سعد وعدلى . فى نوفمبر ١٩٢٠ . وعاد سعد مرة أخرى من لندن إلى باريس ، أما عدلى فقد تخلف فى لندن لعدة أيام .

وكان الموقف قد تحدد . . عاد « عدلى » إلى مصر ، واتجهت نية غالبية أعضاء الوفد إلى المفاوضات مع انجلترا بدون سعد زغلول حتى يمكن الوصول إلى اتفاق ، وفى يناير ١٩٢١ كتب «عبد العزيز فهمى وأحمد لطفى السيد ومحمد محمود ومحمد على علوبة وعبد اللطيف المكباتى وحمد الباسل » خطابا إلى سعد زغلول يتهمونه بالسياسة الانفرادية وأنه وحده يتحمل تبعة انقسام الأمة ! وفى ١٥ مارس ١٩٢١ استقالت وزارة نسيم وشكل « عدلى يكن » وزارته الأولى فى ١٦ مارس ١٩٢١ . . وبدأ « عدلى » عهد رئاسته للوزارة ، وأصبح فى حياته رئيسا للوزارة مرات ثلاثا .

عدلى رئيسا للوزراء

وأدرك « سعد » أن هدف « عدلى » هو إبعاده عن رئاسة وفد المفاوضات ، للوصول إلى أى اتفاق مع الانجليز . وعاد « سعد» من أوروبا فى ٤ ابريل ١٩٢١ واستقبل استقبالا منقطع النظير. وفى محاولة ماكرة حاول « عدلى » أن يضم « سعد زغلول » إلى وفد المفاوضات مجرد عضو ، وأعلن « سعد » شروطه وهو أن يتولى رئاسة وفد المفاوضات باعتباره زعيم الوفد وزعيم الأمة ، والغاء الاحكام العرفية والمراقبة على الصحف ، وأن يكون الغاء الحماية إلغاء تاما أحد أهداف المفاوضات . وفشلت مناورة عدلى وتوجه « سعد » إلى اجتماع فى شبرا وأطلق قوله المشهور (جورج الخامس يفاوض جورج الخامس) وعاد « عدلى » من لندن بعد فشل المفاوضات . وقدم استقالة الوزارة فى ٨ ديسمبر التى قبلت فى ٢٤ ديسمبر ١٩٢١ بعد الاعتقال الثانى لسعد وقادة الوفد ونفيهم إلى (سيشل) . وفى ٧ يونيه ١٩٢٦ شكل « عدلى يكن » وزارته الثانية وكانت وزارة ائتلافية اشترك فيها الوفد ، وأيدها بأغلبيته فى مجلس النواب ، بعد أن أصر الانجليز والملك فؤاد على ألا يشكل « سعد الوزارة ، وحدث لقاء عنيف بين سعد والمندوب السامى وتحركت قطع الأسطول البريطانى إلى الإسكندرية ، وترددت الأقوال عن اتجاهات سعد إلى (إعلان الجمهورية) أو القيام بحركة مثل « أحمد عرابى » وفى ٧ يونية شكل « عدلى » وزارة ائتلافية برئاسته وتضم عددا من الوفديين والأحرار الدستوريين . وكان « سعد » رئيسا لمجلس النواب . وقد

مارس الوفد سلطاته على هذه الوزارة إلى أن استقالت فى ٢١ ابريل ١٩٢٧ .

وفى ٢ أكتوبر ١٩٢٩ استقالت وزارة اليد الحديدية ، وزارة محمد محمود الأولى ، بعد مناورات عديدة من « على ماهر » وزير المالية ، وتولى « عدلى يكن» وزارته الثالثة التى استمرت من ٣ أكتوبر ١٩٢٩ حتى أول يناير ١٩٣٠ ، وتولى فيها « عدلى يكن » منصب وزير الداخلية إلى جانب منصب الرئاسة . وقد أجرت هذه الوزارة الانتخابات بطريقة حرة دون تدخل إدارى وفاز الوفد بالأغلبية الساحقة، وانتهت مهمة وزارة عدلى يكن الثالثة وأفسحت الطريق لوزارة «مصطفى النحاس الثانية فى أول يناير ١٩٣٠ .

رئيسا للأحرار الدستوريين

يرى « ماريوس ديب » أنه يمكن النظر إلى (الوفد) فى نشأته عقب الحرب العالمية الأولى على أنه مركب من (الحزب الوطنى وحزب الأمة) السابقين على وجوده استعار من الحزب الوطنى منهاجه وحظى بتأييد انصاره فى المدن ، واستعار من حزب الأمة أفكاره وحظى بتأييد انصاره فى الريف . . أى إنه يريد القول بأن (الوفد) هو مزيج من طبقة الأفندية (الحزب الوطنى فى المدن) ومن الأعيان (حزب الأمة فى الريف) وهذا تحليل سهل يريح الذين يكتبون فى السياسة . وفى تقديرنا أن الأمور فى بلد مثل مصر وفى ظل الاحتلال نحن فى حاجة إلى نظرة أعمق من هذه النظرة السهلة المريحة . فالحزب الوطنى (مصطفى كامل ومحمد فريد) اذا كان قد قام على أكتاف (الأفندية والطلبة) فهذه ضرورة اقتضتها نسبة الأمية المتفشية التى ألقت على (الطلبة) عبء النضال الوطنى ، ولكن الطلبة كطليعة للتغيير نجد لهم دورا حتى فى دول رأسمالية متقدمة مثل فرنسا أيام إضرابات ١٩٦٨ وأيام ١٩٨٦ . وبرنامج الحزب الوطنى كان يهدف إلى أن يكون حزبا للأمة ، وفى فترة من الفترات كان بالفعل حزب الأغلبية . وحزب الأمة ايضا وإن اعتمد على (كبار الملاك) فى الريف إلا أنه اعتمد أيضا على فئة أخرى هى فئة (صفوة المثقفين) أبناء كبار الملاك الذين تعلموا فى الغرب ، وتأثروا بأفكاره ، والذين أسسوا (الحزب الديمقراطى) أمثال د . محمد حسين هيكل ومصطفى عبد الرازق ومحمود عزمى وهؤلاء جميعا شكلوا فيما بعد فى ظل الأحرار الدستوريين مجموعة الاستنارة الفكرية ونظرا لوجود قضية وطنية تهم طبقات الشعب كله ، كان كل حزب يسعى إلى أن يكون حزبا للأمة بأسرها . . على أية حال استطاع (الوفد) فى ظل القضية الوطنية أن يكون بالفعل (حزبا للأمة بأسرها وهذه قضية يمكن أن نثيرها فى دراسة مستقله . ومن خلال الحركة الوطنية ذاتها بدأ الانقسام الأول يتسلل إلى الوفد على أساس منهاجين . . منهاج يأخذ ما يمكن أخذه من الاحتلال ويرفض عناد وتصلب « سعد زغلول » الذى رفض مشروعات الاستقلال المنقوص . وتبلور الانقسام بعد تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى صدر من جانب

واحد ، وفى ظل تشكيل لجنة وضعت الدستور الذى عرف بدستور ١٩٢٣ وحين صدر تصريح فبراير ، وإبان عمل لجنة الدستور كان عدد من قادة الوفد فى المنفى . وعارض الوفد والحزب الوطنى أعمال لجنة الدستور . ولكن بعد محاولة القصر اختزال ماوصلت إليه الحركة الوطنية كان المدافع الأول عن هذه المكاسب هو (الوفد) وعدد من قادة الانقسام مثل « عبد العزيز فهمى » . وفى مجريات الأمور بعد ذلك أصبح الوفد فى جانب والأحزاب الأخرى فى جانب آخر .

على أية حال أصبح الخلاف بين سعد وعدلى سافرا ، وانضمت غالبية اعضاء الوفد إلى عدلى ونزل « سعد » إلى الشارع فى المدن وإلى الحقل فى الريف فكانت البيعة الكبرى وفى ٣٠ أكتوبر ١٩٢٢ عقدت الجمعية العمومية لحزب الأحرار الدستوريين وفى ١٠ نوفمبر اختير أعضاء مجلس الإدارة . ثم اختير « عدلى يكن » كاول رئيس للأحرار الدستوريين وانقسم الوفد هذا الانقسام الخطير ، وانقسمت الأمة بين سعد وعدلى أو بين الاستقلال التام والاستقلال المتاح ، وسارت الحركة السياسية على النحو الذى هو معروف . وعندما رحل سعد زغلول سنة ١٩٢٧ بكاه «عدلى» وأشاد بوطنيته ، وعندما رحل عدلى يكن سنة ١٩٣٣ نعاه « مصطفى النحاس » وأشاد بنزاهته . ورحم الله الجميع .

الأسانيد :

١ ـ حسن يوسف . . . المذكرات .

٢ ـ عبد الرحمن فهمى . . المذكرات .

٣ ـ د . عواطف لطفى السيد . . تجربة مصر الليبرالية ترجمة : عبد الحميد سليم .

٤ ـ د . ماريوس ديب . . الوفد وخصومه ترجمة : عبد السلام رضوان .

٥ ـ محمد فريد . . . المذكرات بإشراف د . عاصم دسوقى .

٦ ـ محمد كامل سليم . . . . . سعد وعدلى

د . عزيز سوريال



هذا الرجل سرت مصريته فى دمه منذ أن ولد فى قرية (العايشة) وهى قرية صغيرة بمركز زفتى مديرية الغربية بدلتا النيل يوم ٥ يوليو عام ١٨٩٨م ، إلى أن فاجاته أزمة قلبية وهو جالس إلى مكتبه كرئيس لمركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة (يوتا) ـ سولت ليك سيتى بالولايات المتحدة الأمريكية يوم ٢٤ سبتمبر ١٩٨٨م .

من كتاب شيخ ضاع اسمه مع الأيام فى قرية (العايشة) حيث تعلم مبادئ الحساب والقراءة والكتابة ، واستمع إلى آيات القرآن يرددها زملاؤه فى الكتاب عن ظهر قلب فينشأ الصبى « عزيز سوريال عطية » مستقيم اللسان ، سليم العبارة ، إلى أن يجيد فى مقبل الأيام اللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية ، ويكتب باللغات الأربع أكثر من ٦٠ مرجعا عالميا ، ومئات من البحوث والدراسات .

مصريته سرت فى دمه تسعين عاما أو تزيد . . يشارك فى تحرير (الموسوعة الإسلامية) التى تنشرها دار (ماكميلان) . . وتكلفه جامعة (حيدر أباد) بالهند بتحقيق العمل الإسلامى الشهير (الإلمام بالإعلام فيما قضت به الأمور المقتضية فى واقعة الإسكندرية) الذى كتبه « النويرى السكندرى » فى سبعة أجزاء ، فى القرن الرابع عشر الميلادى ثم يشرف على تحرير الموسوعة القبطية والتى شارك فى إعدادها علماء وباحثون من أوروبا وأمريكا ومصر ، ومصريون وغير مصريين . . ومن مصر أذكر «د. رءوف عباس حامد ، ود . عبد العظيم رمضان ، ود . عبد الرحيم عبد الرحمن ، ود . أحمد زكريا ، ود . يونان لبيب رزق ، وايريس حبيب المصرى ، وكاتب هذه السطور وآخرون كثيرون . . . » .

كانت مهمته أن يقيم الجسور بين الثقافات والحضارات والعقائد وألقى محاضراته فى جامعات

أمريكا وأوروبا . كانت له جنازة مهيبة يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٨٨ ، ويقول سفيرنا فى واشنطون « عبد الرءوف الريدى » . . (لقد كان الدكتور عزيز سوريال عطية سفيرا ثقافيا مخلصا لمصر فى أوروبا وأمريكا) . وبعد هذا التصوير السريع نعود إلى سيرته منذ بدايتها بالتصوير البطىء . .

فى البدء كانت المعاناة

الأسرة (مستورة) لا هى بالغنية ولا هى بالفقيرة ، والأب يعمل فى تجارة الأقطان ، والقرية صغيرة ، ولم تكن بالقرى وخاصة الصغيرة منها مدارس للتعليم الابتدائى . و(العايشة) مركز زفتى مديرية الغربية قرية صغيرة ، بل إننا نسميها قرية تجاوزا ، بها (كتاب) لم نصل إلى اسم شيخه ، وفى الكتاب الذى صدر عنه فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨٥ ، شأنه فى ذلك شأن المشاهير ، ذكر « الدكتور سوريال » لمن أجرى معه المقابلة وهو « ايفيرت كولى » أنه قضى سنوات من طفولته فى هذا (الكتاب) يتلقى ما يتلقاه أقرانه من أطفال القرية « آيات من القرآن ، ومبادئ الحساب والقراءة والكتابة ، وحوالى عام ١٩٠٥ وكان عمره ٧ سنوات إذ ولد فى ٥ يوليو من عام ١٨٩٨ انتقلت الأسرة إلى (الزقازيق) حيث التحق بالتعليم الابتدائى وحصل على الابتدائية عام ١٩٠٩ ، ثم جاء إلى القاهرة والتحق بالمدرسة التوفيقية ليحصل على (البكالوريا) القسم العلمى عام ١٩١٤ ثم يلتحق بكلية الطب ، والأسرة تأمل أن يكون أول أبنائها طبيبا مرموقا ، ولكن الحركة الوطنية بقيادة « سعد زغلول » تبدأ بمشوار ١٣ نوفمبر ١٩١٨ ، تجذب الأسرة ضمن آلاف الأسر المصرية التى سارت خلف « سعد » وطالب الطب بالسنة الرابعة يشتعل حماسة فى أحداث الثورة الشعبية الكبرى فى مارس ١٩١٩ ، وتصطدم مجموعته بجنود الاحتلال بالطوب والحجارة ، وتصدر سلطات الاحتلال قرارا بفصل الطالب « عزيز سوريال عطية » فصلا نهائيا من كلية الطب وهو على أعتاب التخرج بعد اعتقاله مرتين ويضيع أمل الأسرة التى داهمتها فى الوقت نفسه كارثة إفلاس عائلها فى تجارة القطن وأصبحت الأسرة يهددها الفقر ، ولكن بعزيمة مصرية أصيلة يغير الشاب « عزيز سوريال عطية اتجاه تعليمه ، ويعيد دراسة البكالوريا فى القسم الأدبى بدلا من القسم العلمى ، ويعمل فى النهار موظفا صغيرا بمصلحة الطب البيطرى بوزارة الزراعة ، ويعطى دروسا خصوصية فى المساء ويحصل على البكالوريا القسم الأدبى ويلتحق بمدرسة المعلمين العليا بالقسم المسائى ، حتى لايفقد وظيفته الصغيرة بالنهار ، وكان أول القسم الأدبى فى القطر عام ١٩٢٠ .

يعمل نهارا ، ويعطى دروسا خصوصية عصرا أو مساء ، ويعاون فى الإنفاق على الأسرة التى أفلس عائلها ، ويحصل على شهادة المعلمين العليا يتفوق لم يسبق له مثيل ويكون الفارق بينه وبين

الطالب الذى يليه فى القسم النهارى أو الليلى ٤٧٫٥ درجة ويتم اختياره فى بعثة إلى ليفربول بانجلترا .

البداية العلمية

إلى (ليفربول) كانت بعثته عام ١٩٢٥ ، وكانت رغبته الأساسية التخصص فى التاريخ الحديث ، إلا أن أستاذ التاريخ القديم والعصور الوسطى « كوبلاند » دعاه إلى محاضرة له عن «العصور الوسطى » خرج منها « عزيز » يقول : هذا هو اتجاهى الذى أجد نفسى فيه .

تخصص فى (العصور الوسطى) وحدثنى وزير التربية والتعليم الأسبق والمترجم والكاتب الكبير حاليا « أحمد نجيب هاشم » أنه سافر فى بعثة إلى (ليفربول) عام ١٩٢٨ وكان « عزيز » و«مصطفى زياده ـ الدكتور فيما بعد » قد سبقاه إلى هناك بثلاثة أعوام، ووجد « عزيز سوريال » شخصية مستقلة الرأى ، عميقة التفكير ، معاونا لزملائه وأبناء وطنه ، مرشدا لهم فى الدراسات والبحوث ، وحدثنى عن أستاذهم « كوبلاند » كنموذج لأستاذ يحترم حرية التفكير لدى تلاميذه، حدث أن كتب « أحمد نجيب هاشم » إجابة نموذجية فى أحد الاختبارات كما وردت فى مؤلفات « كوبلاند » وتوقع أن يسمع كلمة ثناء وفوجئ بالاستاذ يستدعيه ويطلب منه أن تكون له مطالعاته وآراؤه الخاصة بعيدا عن كتب الأستاذ المحاضر .

وطوال سنوات البعثة كان « عزيز » يقسم المكافأة الشهرية إلى أقسام ثلاثة . . الثلث لمعيشته فى ليفربول والثلث للكتب والبحوث ، والثلث يرسله للأسرة فى مصر . . بل إن « الدكتورة جانيت سوريال » الأستاذ بأداب عين شمس بمصر وابنة شقيقه، حدثتنى أن الجوائز المالية التى كان يحصل عليها كان يرسلها لأسرته بمصر ، حصل على الماجستير من جامعة ليفربول وكانت الدراسة تقتضى أن يسافر إلى منطقة البلقان ويطلع على المراجع ويعاين المواقع رؤيا العين ، وحصل على الدكتوراه من جامعة ليفربول أيضا عن الحروب الصليبية فى أواخر العصور الوسطى، ثم حصل على دكتوراه الفلسفة من جامعة (لندن) كما عرفت من أخيه « الأستاذ الدكتور فؤاد سوريال . . . وفى وفاء نادر وبروح طيبة وباستاذية كريمة حدثنى « الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور » وهو تلميذ « الدكتور سوريال » الذى شارك مع « الأستاذ الدكتور محمد شفيق غربال » فى مناقشة رسالة الماجستير للدكتور مصطفى زيادة » بكلية الآداب عام ١٩٤٩ ، حدثنى بأن « الدكتور سوريال » كان يحاضر فى أكثر من جامعة أوروبية وأمريكية ومصرية .

حصل على الدكتوراه من « ليفربول » وعمل أستاذا فى جامعتها ، وأستاذا فى جامعة « لندن » ، ودعته جامعة بون كمحاضر وفى النصف الثانى من الثلاثينات عاد إلى أرض الوطن .

على أرض الـوطن

عاد إلى أرض الوطن ، ولم يوفق فى أن يعمل بكلية الآداب جامعة القاهرة ، فاختير للعمل بتفتيش التاريخ بوزارة المعارف العمومية لمدة عامين ، وفى سنة ١٩٣٨ دعته جامعة (بون) ليعمل مع عميد المستشرقين الألمان « كالى » وأثناء الحرب العالمية الثانية عاد إلى مصر مرة أخرى فى أوائل الأربعينات على غير رغبة الجامعة ، واختير استاذا بكلية الآداب جامعة القاهرة بفضل جهود «الدكتور طه حسين » وشارك فى التدريس بفرع جامعة فؤاد الأول بالإسكندرية إلى أن تأسست جامعة فاروق الأول (جامعة الإسكندرية حاليا) وكان قد شارك الدكتور طه حسين فى مشروعات تأسيس كلية الآداب ، فتفرغ للعمل فى كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، واشتهر بمحاضراته فى الجمعية الجغرافية والجمعية التاريخية وجمعية الآثار القبطية .

وعام ١٩٤٠ تزوج « لولا «نجيب مسيحة » ووالدها نجيب مسيحة » المدير بمصلحة السجون ، والزوجة من أسرة وفدية عماها « الدكتور نجيب اسكندر » و«راغب اسكندر المحامى » ، وابن خالتها « عزيز ميرهم » عضو مجلس الشيوخ الوفدى المعروف .

وقد حدثنى « الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور » عن عملين هامين « للاستاذ الدكتور سوريال » الأول : هو تحقيق مخطوطة من سبعة أجزاء للعالم المؤرخ « النويرى السكندرى » وهو غير النويرى صاحب نهاية الأرب ، وهذا العمل الشهير هو (الألمام بالإعلام فيما قضت به الأمور المقتضبة فى واقعة الإسكندرية) وواقعة الاسكندرية هى القسم الرئيسى فى هذا الكتاب الإسلامى الموسوعى ، الذى احتوى على التعريف بموضوعات إسلامية كثيرة مع التركيز على (واقعة الإسكندرية) التى تدور حول قيام ملك قبرص سنة ١٣٦٥ م بالإغارة على الإسكندرية وتدميرها ، فسجل النويرى السكندرى » هذه الواقعة فى المخطوط المعروف له ، وقد قام « الدكتور سوريال » بتحقيق هذا المخطوط بتكليف من (جامعة حيدر اباد ـ فى الهند وهى جامعة معروفة بنشاطها العلمى ، والعمل الثانى : أشرف عليه وأنفق على طباعته « الأمير عمر طوسون » وهو مخطوط لأحد مؤرخى العصر الأيوبى ، « ابن مماتى » من أقباط مصر . . والمخطوط عن قوانين الدواوين ونظم الحكم ، وقام بتحقيقه « الدكتور سوريال » .

ونأتى إلى مشروع هام له أثره فى حياة « الدكتور سوريال » نفسه طلبته منه (مكتبة الكونجرس) أن يشرف على تصوير مخطوطات دير سانت كاترين فاشترط أن يقوم بهذا العمل لقاء أن تهدى جامعة الإسكندرية نسخة من الصور ، وأن تودع بالدير صورة أخرى ، وأن تتعهد مكتبة الكونجرس بأن تضع صور المخطوطات تحت طلب الباحثين من جميع أنحاء العالم ، ووافقت مكتبة الكونجرس وامتد العمل تحت إشراف « دكتور سوريال » لسنوات إلى أن كانت سنة ١٩٥٢

وفى اجتماع لمجلس الكلية وكان برئاسة عميد كلية الآداب بالإسكندرية المرحوم « الأستاذ محمد خلف الله أحمد » فأثار أحد أعضاء المجلس موضوع تصوير مخطوطات دير سانت كاترين ، وإن الدكتور عزيز سوريال استأثر بهذا العمل الخطير وكان يجب أن يقدم إلى مجلس تأديب بدلا من تسجيل الشكر له ، ولم يرض عميد الكلية ، رئيس مجلس الكلية عن اتجاه هذا العضو ، إلا أن «الدكتور عزيز سوريال عطية» ترك الاجتماع وتوجه على الفور إلى وزير المعارف وقدم استقالته من كلية آداب الإسكندرية ، وكان عمره ٥٤ عاما .

العـدوان الثـلاثى

واتجهت أنظار جامعات الولايات المتحدة الأمريكية إليه . . دعته جامعة ميتشجان كأستاذ زائر وقضى سنة هناك ، ودعته جامعة كولومبيا فى نيويورك كأستاذ زائر لمدة سنة أيضا ، ثم جاءته دعوة من معهد (برنستون) للدراسات العليا وهو معهد أنشأته الولايات المتحدة الأمريكية لعلماء أوروبا يتفرغون فيه للبحث العلمى دون أية التزامات بالتدريس ، ويضع المعهد كل الإمكانات العلمية والمادية ، والوحيد من خارج أوروبا الذى منح هذه الفرصة هو « الدكتور سوريال » المصرى ، وبقى هناك سنتين إلى جانب علماء عظماء أمثال « البرت اينشتاين » من ألمانيا لدراسات الفيزياء ، و«فون نويمان » من المجر لدراسات الكومبيوتر ، و«فايتسمان » من ألمانيا لدراسات الفنون .

وظل دائما فى خدمة الوطن ، حدثنى « الأستاذ الدكتور حسين مؤنس » أنه كان يلبى دعوات جامعات أوروبا لإلقاء المحاضرات ، ثم دعاه « د . مؤنس » ليحاضر فى معهد الدراسات الإسلامية بمدريد فلبى الدعوة وكان الإقبال شديدا للاستماع إليه ، وظلت المراسلات متصلة بينه وبين الدكتور مؤنس .

وأثناء العدوان الثلاثى على مصر فى أكتوبر ١٩٥٦ سافر إلى الولايات المتحدة « أحمد نجيب هاشم ، وحسين كامل سليم والسيدة أمينة السعيد » لشرح طبيعة العدوان وسلامة موقف مصر للمسئولين وللرأى العام فى أمريكا ووضع « الدكتور سوريال » نفسه واتصالاته وعلاقاته تحت تصرف هذا الوفد ، واحتفى بهم وقدمهم إلى المؤرخ المشهور « فيليب حتى » .

استـاذ متمـيز

وعاد إلى الوطن وقد ذاعت شهرته ووفد إلى مصر « بروفيسور أولين » مدير جامعة يوتا فى سولت ليك سيتى بالولايات المتحدة الأمريكية ، وعرض عليه فكرة إنشاء مركز لدراسات الشرق الأوسط

وسافر إلى « يوتا » عام ١٩٥٨ وأنشأ مكتبة للمركز تضارع مكتبة شيكاغو ، ووضع الخطوط الأساسية للمركز يعنى بالدراسات التاريخية والإسلامية والعربية ، ودراسة اللغتين العربية والفارسية وسائر لغات المنطقة وأطلقوا اسمه على مكتبة المركز .

وقد أشرف على هذه المكتبة الزميل والصديق القديم « رجائى نجيب » وعندما سافر المرحوم «الأستاذ محمد خلف الله أحمد» إلى يوتا بدعوة من « فولبرايت » قال قوله المشهور ، وجدت الأمريكيين يعرفون مصر من خلال الدكتور عزيز .

لم يكن مجرد أستاذ ، ولكنه كان أستاذا مصريا ، أدخل تعليم اللغة العربية فى التعليم العام بولاية يوتا ومنحته جامعة يوتا لقب أستاذ متميز وهذا يعنى أن له الحق فى أن يستمر فى العمل إلى أن يرغب هو فى التقاعد وبالفعل ظل يعمل حسب هذا التقليد إلى أن توفاه الله إلى رحمته .

وظل سنوات عديدة يتردد على مصر ، وعلى جامعات أخرى فى أوروبا وأمريكا ليكمل مشروعه الكبير عن تاريخ مصر بعصوره المختلفة ، العصر الفرعونى ، والقبطى ، والإسلامى ، والحديث ، كل ذلك فى دائرة أطلق عليها اسم (انسكلوبيديا كوبتيكا) أى (دائرة المعارف القبطية) وشكل لها هيئة تحرير تحت إشرافه تضم مجموعة من علماء أوروبا وأمريكا ومصر والبروفيسور سوريال » حريص تماما على أن تعنى دائرة المعارف هذه بكل ماهو مصرى ، وأن تعنى بالتعريف بكل من هو مصرى ، وقد شارك فى إعداد هذه الموسوعة مصريون فى أمريكا وأوروبا ، وفى مصر بطبيعة الحال ، وأذكر من الذين شاركوا من مصر د . رءوف عباس حامد ، د. عبد العظيم رمضان ، د . عبد الرحيم عبد الرحمن ، د . أحمد زكريا قاسم ، ود . مجدى وهبه ، ود . يونان لبيب رزق ، وإيريس حبيب المصرى وكاتب هذه الحلقات . . وآخرون » وأشرف على العمل فى مصر الوزير الأسبق الأستاذ مريت غالى » .

وفى جنازة مهيبة تليق بابن عظيم من أبناء مصر ، تم تشييع جنازته فى سولت ليك سيتى يوم ٢٧ سبتمبر (توفى يوم ٢٤ سبتمبر ١٩٨٨) وخرجت جريدة (مون داى مورننج) وجريدتان أخريان تنعى العالم الراحل العظيم ، الذى اختير فى عام ١٩٨٧ (كأستاذ العام) وصدر عنه كتاب عام ١٩٨٥ هو عبارة عن حديث بينه وبين أستاذ أمريكى وعام ١٩٧٥ أعد تلاميذه عدة بحوث صدرت فى كتاب أهدى له ، فضلا عن رسالة جامعية .

إن « الدكتور عزيز سوريال عطية » كعالم ومؤرخ عطاؤه للبشرية كلها ولكنه فى النهاية (رجل من مصر) وانكب تلميذه العظيم « الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، على إعداد بحث عن « الدكتور سوريال مؤرخا » قدمه فى جمعية الدراسات التاريخية فى الأسبوع الأول من يناير ،

وقد قدمه لقراء مصر الزميل « ماجد عطية » فى جريدة الأهالى والدكتورة «جانيت سوريال » على صفحات الأهرام ، وأعدت إذاعة (صوت العرب) برنامجا قصيرا عنه وأشرف الزميل الدكتور «سليان نسيم» على عدة بحوث بجمعية الدراسات القبطية عن الفقيد الكبير .

الأسـانيد

١ ـ أحمد نجيب هاشم . . . حديث شخصى ١٧/ ١٠/ ١٩٨٨ .

٢ ـ د . جانيت سوريال . . . حديث شخصى ١٩/ ١٩٨٨١٠ .

٣ ـ د . حسين مؤنس . . . حديث شخصى ١٩/ ١٠/ ١٩٨٨ .

٤ ـ د . سعيد عبد الفتاح عاشور . . . حديث شخصى ٢١/ ١٠/ ١٩٨٨ .

٥ ـ د . فؤاد سوريال . . . حديث شخصى ٢٠/ ١٠/ ١٩٨٨ .

الدكتور عزيز فهمى



أيها الرواد العظام . . افسحوا مكانا بينكم فى هذه الموسوعة لقائد وطنى ، للدكتور عزيز فهمى ابن عبد السلام فهمى جمعة . أول مايو ، وفى مثل هذا اليوم منذ ٤١ عاماً ، قال الناعى إن «الدكتور عزيز فهمى » البركان الوطنى الثائر قد انطفأ فى ترعة صغيرة فى أواسط صعيد مصر ، وإن سيارة أجرة قد سقطت به عند مدينة (الفشن) وهو ذاهب ليهارس قضية لأحد موكليه . رحل ولم يكن وقت الذهاب قد حان ، إن هى إلا خطوات ثلاث بعد الأربعين . ومازال السؤال معلقا فى الأفواه . . هل هى غلطة قدرية قاسية ، أم إن موعد القضية معروف بالطبع ، والذى دبر للتخلص من هذا الكاتب الثائر وضع فى طريقه السيارة ليموت وينجو السائق ؟ ولكن من هو الذى دبر للتخلص من « عزيز فهمى » ؟ ولماذا لم يفتح ملف التحقيق بعد يوم الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وهو واحد من الذين شاركوا فى صنع ذلك اليوم مع رفاقه « أحمد أبو الفتح ، وإبراهيم طلعت والدكتور محمد مندور، ورفيق الطرزى » . كانت الثورة قصيدة وكان هو الشاعر ، فمن الذى قتل الدكتور عزيز فهمى ؟

هل هى مجرد غلطة قدرية ، أم إن الانجليز ومعاونيهم قد دبروا ورتبوا له فى فترة تصفية الحسابات بعد إقالة حكومة الوفد فى فجر يوم ٢٧ يناير سنة ١٩٥٢ ؟

كانت حكومة الوفد برئاسة « مصطفى النحاس » قد حددت يوم ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ ، موعدا لقطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا ، وموعدا للدخول مع الاتحاد السوفيتى فى محادثات لعقد معاهدة أكثر تقدما من مجرد تبادل العلاقات الدبلوماسية وحكومة الوفد هى أول حكومة مصرية تعترف بالاتحاد السوفيتى سنة ١٩٤٣ ، ويوم ٢٦ يناير كانت التظاهرات فى كل مكان بين طلبة الجامعة وطلاب الأزهر ، بين العمال وجنود بلوكات النظام ، يوم ٢٦ يناير كان

الملك فاروق فى احتفال فاخر فى سراى عابدين مع ضباط الجيش وضباط البوليس .

ويوم ٢٦ يناير احترقت القاهرة ، ولم تجد حكومة الوفد جيشا أو بوليسا إلا فلولا متراخية على آخر النهار . . وفى الساعة الحادية عشرة فى تلك الليلة أعلن « مصطفى النحاس » الأحكام العرفية ، وفى فجر يوم ٢٧ يناير أعلن الملك فاروق إقالة حكومة النحاس ، وعهد بتشكيل الحكومة إلى عدو الوفد المتآمر « على ماهر » وتحول مكتب « الدكتور عزيز فهمى » بشارع قصر النيل إلى ملتقى للثوار من جيله ومن جيل الشباب . . وقامت وزارة « على ماهر » باعتقال الفدائيين فى الإسماعيلية وبورسعيد والتل الكبير . . وليس سرا أن « عزيز فهمى » كانت له يد فى هذه الكتائب التى ناوشت الإنجليز فى منطقة القناة ، إلى جانب الكتائب التى تعمل تحت إشراف « عزيز المصرى » وإلى جانب بعض الكتائب الأخرى ، وفشلت وزارة « على ماهر » وجاء «نجيب الهلالى » بنصيحة من الأمريكان على رأس وزارة فى أول مارس ١٩٥٢ وكان شعارها (التطهير بعد التحرير) ووجهت رأس الرمح ـ بإشراف الأمريكان أيضا ـ ضد الوفد . . وقد تصاعد فى تلك الفترة وعى الحركة الشعبية إزاء الدور المتزايد لأمريكا فى المنطقة مما لم يكشف النقاب عنه تماما حتى اليوم ، واستصدر الهلالى قرارا من الملك فاروق بتأجيل البرلمان شهرا ينتهى فى ١٢ إبريل ١٩٥٢ (وهذا يذكرنا بما فعله صدقى باشا حين أجل مجلس النواب شهرا يبدأ فى ٢١ يونيه ١٩٣٠) . . وقام الهلالى باعتقال « فؤاد سراج الدين ، و . عبد الفتاح حسن » فى محاولة لضرب الوفد .

وتردد أيضا فى تلك الأيام أن « الهلالى باشا » يسعى لتكوين حزب جديد ، وانه يتصل بعدد من القيادات الوفدية للاشتراك معه فى تشكيل هذا الحزب ، وتردد أيضا أنه ـ أى الهلالى ـ اتصل أو هو فى سبيل الاتصال بالقطب الوفدى الكبير « عبد السلام فهمى جمعة » والد « الدكتور عزيز فهمى » وهنا جاء دور (الشباب الوفدى) الذى استنفر للدفاع عن الوفد رغم ملاحظاته النقدية على عدد من المواقف . . وهنا جاء دور « الدكتور عزيز فهمى » وقيل إنه قام بدور حاسم مع والده فى إفشال مخطط الهلالى لإعلان حزب جديد تكون نواته الأساسية من عناصر وفدية معروفة . . فأعلن الهلالى حل مجلس النواب الوفدى فى ٢٤ مارس ١٩٥٢ ، وفشلت وزارة الهلالى وجاء حسين سرى رئيسا للوزارة فى ٢ يوليو ١٩٥٢ ، وفشل « حسين سرى » الذى قدم استقالته فى ٢٢ يوليو وجاء « نجيب الهلالى » من جديد . . وفى ٢٣ يوليو جاء « جمال عبد الناصر وصحبه » وكان « عزيز فهمى» قد رحل فى أول مايو . . وهل الحيثيات السابقة تكفى لاتهام الإنجليز بأنهم وراء مصرع « عزيز فهمى » ؟ أم من الممكن أن يكون الأمريكان معهم ؟ ولماذا الأمريكان ؟ وهل لهم مصلحة ؟! .

الأمريكيون قادمون

كان الدكتور « عزيز فهمى » أثناء حكومة الوفد الأخيرة (١٢ يناير ١٩٥٠ ـ ٢٧ يناير ١٩٥٢) من أبرز قادة الاتجاه الذى يحذر من زحف النفوذ الأمريكى إلى السياسة المصرية ، وأعلنت حكومة الوفد فى صيف ١٩٥٠ موقف حياد مصر إزاء الحرب الكورية وكان هذا الموقف مؤشرا كافيا للأمريكيين بأن الوفد يقف عقبة فى طريق نفوذهم .

ويبدو أن الأمريكيين اتجهوا إلى ضرب الوفد بعناصر وفدية أو قريبة من الوفد فاتصلوا بأحمد نجيب الهلالى القطب الوفدى البارز ، وكثف اتصالاته بالأمريكيين وبالإنجليز وبرجال القصر أيضا بعد تصاعد حدة الأحداث إزاء إقدام حكومة الوفد فى ٨ أكتوبر ١٩٥١ على الغاء معاهدة ١٩٣٦ . . وبات واضحا فى الأفق أن النشاط الأمريكى يتجه إلى ضرب حكومة الوفد . . سيما وإنها سمحت للنشاط الثورى فى الجامعة ، وفى منطقة القناة ، وللتظاهرات الشعبية ضد النفوذ الاستعمارى وضد القصر . . وسمحت لعناصر كثيرة داخل الوفد ذاته أن تدفع الأحداث فى اتجاه جديد . . ودون أدنى شك كانت رموز هذا الاتجاه تتمثل فى «الدكتور عزيز فهمى ، والدكتور محمد مندور ، وأحمد أبو الفتح ، وإبراهيم طلعت ، ورفيق الطرزى ، ومصطفى موسى » .

ودون مبالغة فإن مواقف « الدكتور عزيز فهمى » تعد فصلا عظيما فى كتاب الحرية العظيم فى مصر . . رأس تحرير جريدة (الوفد المصرى) التى أغلقها وألغى ترخيصها « إسماعيل صدقى » فى ١٠ يوليو ١٩٤٦ ، فأصدر الوفد جريدة (صوت الأمة) ورأس تحريرها « الدكتور عزيز » أيضا .

ودعا « عزيز » الأقلام الفتية من الوفد ومن التنظيمات اليسارية لتسبح فى أنهار جريدتى (الوفد المصرى وصوت الأمة) . . وجرائد الوفد الأخرى . . النداء ورابطة الشباب . . سمح الوفد لأقلام ديمقراطية أخرى لتكتب فيها . . وفزع القصر لهذا الاتجاه .

ونزل « الدكتور محمد مندور » بقلمه إلى جوار قلم « الدكتور عزيز فهمى » وكانا يكتبان يوميا تقريبا كلمات أوقعت الرعب فى قلب الجالس على العرش ، وأثارت الجماهير ضد حكومات الأقلية .

وكان الوفد قد ركز هجومه على حكومة محمود فهمى النقراشى عن طريقين . . الأول فى مجلس النواب بقيادة « صبرى أبو علم » زعيم المعارضة . . الثانى فى (الوفد المصرى) بمقالات «الدكتور عزيز فهمى » وغيره من الكتاب التقدميين . . وقد انتقد « الدكتور عزيز » موقف وزير الخارجية «عبد الحميد بدوى » واصلاه نارا حامية فى سلسلة مقالات وأعاد إلى الأذهان تاريخ «بدوى » وموقفه مع « محمد محمود » فى سياسة اليد الحديدية سنة ١٩٢٨ ، وموقفه مع « إسماعيل صدقى »

سنة ١٩٣٠ وإلغاء دستور ١٩٢٣ ووضع دستور « صدقى » بدلا منه .

وجاء « إسماعيل صدقى » فى ١٦ فبراير ١٩٤٦ وأعلن « مصطفى النحاس » تمسك الوفد بإجراء انتخابات جديدة ، وأعلنت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال تمسكها بأن تكون المفاوضات على أساس إصدار بيان رسمى من انجلترا تعترف فيه بحق مصر فى الجلاء التام ، وتعترف بوحدة وادى النيل .

واستقبله الدكتور « عزيز فهمى » بمقالة المشهور الذى قال فيه (إما أن يكون هذا وطننا واما أن يكون وطنا لأعوان الاحتلال فإن كانت الأولى فمن حقنا أن نقرر مصيره ومصيرنا ، وان كانت الثانية فهى الحرب بين الأمة وحكومات الأقلية) .

ونفخ « الدكتور عزيز » بمقالاته الملتهبة والمستعرة فقامت إضرابات ٢١ فبراير بقيادة (اللجنة الوطنية للطلبة والعمال) وخرجت قوات الاحتلال من ثكنات قصر النيل وأطلقت الرصاص على المتظاهرين ، وقامت التظاهرات فى الإسكندرية فى ٤ مارس والتى عرفت بالأحداث الدامية ، وفزعت السراى من هذا المد الثورى الجديد . . وقررت اللجنة الوطنية أن يكون يوم ١١ يوليو (ذكرى ضرب الانجليز للاسكندرية سنة ١٨٨٢) يوما للحداد العام ، ولكن « إسماعيل صدقى » ومن خلفه السراى والإنجليز ، أسرع بتوجيه ضربته الشهيرة فى (١٠ يوليو) واعتقل أكثر من ٢٠٠ مفكر ومثقف وصحفى وطالب وعامل . . وألغى تراخيص جرائد ومجلات (الوفد المصرى والفجر الجديد) وعددا من دور النشر . . وفشل صدقى واستقال فى ٩ ديسمبر ١٩٤٦ ، وكان الوفد قد أصدر جريدته السياسية اليومية الجديدة (صوت الأمة) وتولى « الدكتور عزيز » رئاسة تحريرها أيضا ويواصل مسيرته فى مقدمة الأقلام الثائرة .

قدر من الانتصارات

ذهب صدقى وجاء النقراشى واستمرت القوى الشعبية فى مواجهة محاولات تصفية القضية الوطنية ، واستمرت الأقلام الوطنية فى مواجهة القصر وحكومات الأقلية السياسية ، واستطاع تحالف القوى الشعبية أن يجهض مفاوضات صدقى ـ بيفن وأن يحقق بعض عمليات الجلاء الجزئية لقوات الاحتلال عن مواقعها فى القاهرة والإسكندرية تحت تأثير الصدام المستمر بين القوى الشعبية وبين قوات الاحتلال .

تم جلاء القوات الانجليزية عن القلعة فى ٤ يوليو ١٩٤٦ ، ومعسكرات الطريق الصحراوى بين القاهرة والإسكندرية ومخيم الأهرام ، وقلعة رأس التين ، وثكنات مصطفى باشا ، وقلعة كوم

الدكة فى فبراير ١٩٤٧ ، والجلاء عن مطار هليوبوليس وقشلاق باب الحديد ، ومعسكر الحلمية ، وثكنات العباسية ، وثكنات قصر النيل بالقاهرة ، والنادى البريطانى بالمعصرة والعامرية بطريق الإسكندرية فى مارس ١٩٤٧ .

وفى أغسطس وسبتمبر ١٩٤٧ ظلت القضية المصرية معروضة أمام مجلس الأمن ، واستغرق نظر القضية المصرية أمام مجلس الأمن عدة جلسات ، وكانت آخر جلسة لمجلس الأمن ينظرها جلسة ١٠ سبتمبر ١٩٤٧ ، وأعلن « جروميكو » مندوب الاتحادالسوفيتى ورئيس المجلس فى تلك الدورة ، أن المجلس لم يتمكن من اتخاذ قرار فى شأن القضية المصرية ، وسوف تظل المسألة مدرجة فى جدول الأعمال ويمكن نظر المسألة بناء على طلب أى عضو من أعضاء المجلس أو أى طرف من الطرفين المتنازعين .

ثم دخلت الحركة الوطنية المصرية فى إطار جديد بصدور قرار تقسيم فلسطين فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ إلى دولة يهودية ودولة عربية من الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وصدر هذا القرار بموافقة ٣٣ دولة فى مقدمتها الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا ، ومعارضة ١٣ دولة فى مقدمتها مصر والعراق والدول العربية ، وامتناع ١٠ دول عن التصويت فى مقدمتها بريطانيا والصين . . وساد مناخ جديد داخل مصر ، ودخل الجيش المصرى مع الجيوش العربية إلى فلسطين فى ١٥ مايو ١٩٤٨ . وكانت الجماهير عامة فى حماسة لهذا القرار فيما عدا (الأحزاب الشيوعية) التى أعلنت أن هذه الحرب لصالح الرجعية العربية والاستعمار العالمى ، وفيما عدا «إسماعيل صدقى) الذى حذر من عواقب هذه الحرب .

انتخابات ١٩٥٠

وتولى رئاسة الوزارة فى ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ بعد اغتيال (النقراشى باشا » نائبه « إبراهيم عبد الهادى باشا » الذى قام بتصفية الحسابات مع جماعة الإخوان المسلمين ، واغتيال « الشيخ حسن البنا » مؤسس الجماعة انتقاما لاغتيال النقراشى باشا ، ولم تسكت الأقلام الوطنية وعلى رأسها قلم الدكتور عزيز ، ولم تسكت صحف الوفد والصحف الموالية لها عن الممارسات القمعية لحكومة السعديين ، ونددت بالإرهاب الذى ساد البلاد بزعم التصدى لجماعة الإخوان المسلمين . . وإن كان صديقنا « الدكتور ناجى نجيب » الكاتب المصرى الذى يقيم فى ألمانيا الغربية قد قام بدراسة عن (موضوع العسكرى الأسود) الذى كتبت عنه بعض الصحف المصرية كنموذج لإرهاب حكومة « إبراهيم عبد الهادى » فى تلك الفترة . . ولم يصل بدراسته هذه إلى وجود فعلى لما سمى بالعسكرى الأسود .

وطوال عامى ١٩٤٨ و١٩٤٩ غرقت البلاد ـ إلى جانب أعمال العنف ، وأعمال الإرهاب ـ

غرقت فى موجات قتالية من الاضرابات بين صفوف العمال ، والممرضين ، والبوليس ، ومدرسى التعليم الحر ، وتولت صحف الوفد الدفاع عن هذه الإضرابات بما فيها إضراب رجال البوليس ، وأصبحت البلاد تواجه خطرا حقيقيا وهزة عنيفة يمكن أن تعصف بالنظام كله ورأت الأطراف المختلفة أنه لا مندوحه من عودة الوفد إلى الحكم لعودة الاستقرار إلى البلاد فأرسل الملك فاروق «محمد حيدر » وزير الحربية إلى « إبراهيم عبد الهادى » يأمره بأن يقدم استقالته وكان ذلك فى ٢٥ يوليو ١٩٤٩ ، وعهد برئاسة الوزارة إلى « حسين سرى » الذى استقال فى نوفمبر ١٩٤٩ ليشكل وزارة محايدة أجرت انتخابات ٣ يناير ١٩٥٠ .

وفى تلك الانتخابات رشح الوفد « الدكتور عزيز فهمى » فى دائرة الجمالية ، ورشح « الدكتور محمد مندور » فى الوايلى . . وتم ترشيح أحمد أبو الفتح ، وإبراهيم طلعت ، ورفيق الطرزى ، وكان ترشيح مصطفى موسى » زعيم الشباب الوفدى فى دائرة صعبة هى (باب الشعرية) معقل نائبها العتيد « سيد جلال » والمعركة الانتخابية بالنسبة لهؤلاء النواب الستة لم تكن مجرد انتخابات عادية بل خاضها هؤلاء ومعهم شباب الوفد والشباب الديمقراطى كمعركة سياسية ضد الاحتلال وضد القصر وضد الرجعية المصرية . . ونجح هؤلاء جميعا فى الانتخابات التى حصل فيها الوفد على ٢٢٨ مقعدا ، وحصل السعديون على ٢٨ مقعدا والأحرار الدستوريون على ٢٦ مقعدا ، والحزب الوطنى على ٦ مقاعد ، والحزب الاشتراكى على مقعد واحد ، وحصل المستقلون على ٣٠ مقعدا والمجموع ٣١٩ مقعدا . . وأما (الكتلة الوفدية) التى انشقت على الوفد عام ١٩٤٣ وأصدرت الكتاب الأسود وملأت الدنيا صخبا وضجيجا حول ما أسمته فساد الوفد فلم تحصل على مقعد واحد وطواها النسيان . وعاد الوفد إلى أخطر وزارة عرفتها مصر . . وعادت مصر إلى أحداث خطيرة هى فى تقديرنا التى مهدت إلى يوم الأربعاء ٢٣ يوليو وذلك بفضل ديموقراطية الوفد وطبيعة تكوينه وأسلوب العمل السياسى بداخله مما يميزه عن أى قوة سياسية أخرى .

ديمقراطية الوفد

لم يكن دور « الدكتور عزيز فهمى » فى مجلس النواب الجديد ، وفى الممارسة السياسية فى فترة هذا المجلس ، ودور رفاقه مقصورا على مجرد الانتماء الحزبى . . وإنما كان دورهم تاريخيا فى إحياء تراث الوفد الديمقراطى وربطه بالمعطيات الجديدة التى ألقت بها التطورات المختلفة بعد الحرب العالمية الثانية .

كان دور هذه المجموعة دورا رياديا بالنسبة لشباب الوفد ، ساعد على تعميق ارتباطهم بالحزب فى الوقت الذى يتحدثون فيه بلغة جديدة سواء داخل لجانهم أو على لسان صحيفتهم (رابطة الشباب) التى صدرت فى ٢٠ مارس ١٩٤٧ وحدد « مصطفى موسى» أهدافها فى مكافحة

(الاستعمار والاستبداد) ، ورحب « صبرى أبو علم » سكرتير عام الوفد وقت ذاك بأن يتولى الشباب تحريرها .

وكان من أبرز أعمال « الدكتور عزيز ورفاقه » هو الدفاع عن التعددية الحزبية فى مواجهة ، دعوى الإخوان المسلمين التى روجوها فى ذلك الحين وهى الدعوة إلى (اللاحزبية) والتى كانت فى جوهرها تستهدف ضرب الوفد المصرى .

واتسع الوفد كوعاء للديمقراطية لآراء مختلفة لهذا الفريق دون هزات ودون إجراءات كالدعوة التى نادى بها « رفيق الطرزى » فى جريدة (الجمهور المصرى) لإعادة تشكيل الحزب على أساس ديمقراطى . . ومثل موقف هذا الفريق مجتمعا ومعه شباب الوفد إزاء محاولات بدرت من بعض نواب الوفد إزاء الصحافة أو لحماية أنباء القصر أو لتنظيم مجلس الدولة . . وسرعان ما صرف النظر عن مثل هذه التشريعات المقترحة واستمر الوفد فى مسيرته فى إطاره التاريخى الديمقراطى الذى يتسع لعديد من الآراء طالما هى تتفق مع الخط الديمقراطى للوفد .

وقد أتاح هذا الإطار حرية التعبير للصحف إلى حد أن تناول فيه بعض الصحف القصر والملك شخصيا بشكل لم يسبق له مثيل . . وإن جرت بعض تدخلات من الحكومة سرعان ما تتراجع وتعود الصحف إلى صوتها المرتفع . . وأتاح هذا الإطار حرية التظاهر إلى حد مرمطة سمعة الملك على أفواه الجماهير . . وإن جرى بعض الضبط والربط سرعان ما ينكمش وتهدر التظاهرات فى الشوارع من جديد .

ولم تكن مجموعة « الدكتور عزيز ورفاقه » بعيدة عن ضرب قوات الاحتلال فى منطقة القناة بمد السلاح . . وشهدت تلك الفترة انسحاب العمال المصريين من المعسكرات البريطانية ، وإضرابات المتعهدين والموردين ، ومعركة الإسماعيلية فى ١٦ أكتوبر ١٩٥١ بين شعب الإسماعيلية وبين القوات الإنجليزية ، ومعركة بورسعيد الأولى فى اليوم نفسه ، ومعركة ثانية فى الإسماعيلية فى ١٨ نوفمبر ومعركة فى السويس فى ٣ ديسمبر ثم ضرب محافظة الإسماعيلية بالمدافع فى ١٧ ديسمبر ، ومعركة فى السويس وأبوصوير فى ٤ يناير ١٩٥٢ . . ونأتى إلى الموقعة التاريخية فى ٢٥ يناير ١٩٥٢ .

يوم ٢٥ ينـاير ١٩٥٢

لم يكن « الدكتور عزيز ورفاقه » مجرد كتاب أو مجرد دعاة ، وإنما كانوا يمارسون العمل السياسى ممارسة فعلية . . ولما أدرك الاحتلال والقصر أن المد الوطنى من الصعب مواجهته بالاجراءات

العادية سيما أن حكومة الوفد تشارك فى الكتائب المسلحة وأنها تترك الحرية التظاهرات فى الشوارع تلهب مشاعر الجماهير ضد الاحتلال وضد القصر لجآوا إلى مؤامرة حرق كنيسة الأقباط فى مدينة السويس ، وهنا يظهر الأسلوب الذى واجهت به الحكومة هذه المؤامرة ، « عبد الفتاح حسن » الوزير المسئول فى مكان الحادث بعدها مباشرة . . والثائر « عزيز فهمى » ذو السمعة الطيبة لدى الجماهير بين الناس هنا يشرح أبعاد المؤامرة . . وفشلت تلك المؤامرة .

ولكن بعدها كانت المواجهة المباشرة من قوات الاحتلال . . ففى يوم الجمعة ٢٥ يناير ١٩٥٢ ، وفى الساعة السابعة والنصف صباحا قصد ضابطان بريطانيان إلى منزل ضابط الاتصال المصرى « البكباشى شريف العبد » وطلبا منه مقابلة « اكسهام » قائد القوات البريطانية فى الإسماعيلية الذى سلمه إنذرا بتسليم أسلحة جميع قوات البوليس المصرى بالإسماعيلية ورحيلها عن المنطقة وعندما أبلغ « البكباشى شريف العبد » ما سمعه إلى « اللواء أحمد رائف » وإلى وكيل المحافظة « على حلمى » رفضا الإنذار وأبلغا « فؤاد سراج الدين » وزير الداخلية فأقرهما على تصرفهما وأمرهما بعدم التسليم ومقاومة أى اعتداء من الإنجليز ، وضرب الإنجليز المحافظة بالقنابل والرصاص . . ورد عليهم الجنود المصريون البواسل وسقط ٥٠ جنديا مصريا ، ونحو ٨٠ جريحا ، واعتقل الانجليز « أحمد رائف » واليوزباشى « مصطفى رفعت » وانحنى القائد الإنجليزى تحية لبسالة بلوكات النظام المصريين الذين كان عددهم ٨٠٠ ووقفوا أمام ٧٠٠٠ جندى بريطانى . . وفى اليوم التالى حريق القاهرة ، وفى الذى يليه إقالة حكومة الوفد . . وفى أول مايو ١٩٥٢ ينعى الناعى إلينا « الدكتور عزيز فهمى » الذى جاء إلى السياسة من طنطا .

فى طنطا والقاهرة وباريس

فى مدينة طنطا كان مولده سنة ١٩٠٩ ، ووالده هو « المرحوم عبد السلام فهمى جمعة » أحد أقطاب الوفد ، وشغل منصب السكرتير العام ، وكان رئيسا لمجلس النواب ، تفتحت عينا «عزيز» وهو فى العاشرة من عمره على أحداث ثورة ١٩١٩ ، وكان والده من شبابها المخلصين ، نال شهادة الابتدائية من طنطا ؛ وقضى فى طنطا الثانوية بضع سنوات ثم التحق بمدرسة الجيزة الثانوية وحصل منها على شهادة البكالوريا سنة ١٩٢٧ .

على العموم التحق « عزيز » بكلية الحقوق سنة ١٩٢٧ ، وانتسب فى العام ذاته إلى كلية الآداب وسنة ١٩٣١ حصل على إجازة الحقوق ، وعلى أجازة الآداب ، وتقدم لأعمال السنة بكلية الآداب ببحث عن (المقارنة بين الشعر الأموى والعباسى فى العصر الأول) أشرف عليه « الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام » وقد عنى بتحقيق هذا البحث وكتب مقدمة له صديقنا « الأستاذ

محمد قنديل البقلى » ونشرته (دار المعارف » وأحسب انه اختار بحثه ذاك لأنه شاعر أولا ولأسباب سياسية ثانياً . . فالخوارج والشيعة والمرجئة كلها أمور نشأت وترعرت فى ظل بنى أمية . وقد نشرت له (دار المعارف) أيضا ديوان شعره وغالبيته قصائد وطنية . . وقد لحن « محمد عبد الوهاب » نشيده لمتطوعى (مشروع القرش) فى ديسمبر ۱۹۳۳ . . ويقول فيه :

لـك يا مصـر شـبابى ـــ لـك عـزمـى وجهــادى

ونعيـمى وعـــذابــى ـــ وبروحـــى وفـــؤادى

وشد الرحال إلى باريس وحصل سنة ۱۹۳۸ على الدكتوراه فى القانون عن (الامتيازات الأجنبية ومعاهدة ۱۹۳٦) ، ثم حصل على دكتوراه فى الآداب من (السوربون) . وشبت الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر ۱۹۳۹ فتخلف فترة ، ثم عاد إلى مصر ليعمل فى النيابة ويفصل من الخدمة بعد إقالة حكومة الوفد (أكتوبر ١٩٤٤ وليس أفضل من أن نختم المقال بما قدم به «الدكتور طه حسين » ديوان شعر عزيز فهمى . . قال « الدكتور طه » (إيه يا عزيز ، وما أكثر ما كنت أقول لك أيام كنت طالبا تختلف إلى أستاذك فى الدرس وتختلف إليه فى غير ساعات الدرس، وكنت أقولها لك بعد أن تخرجت من الجامعة وبعد أن أبعدت فى طلب العلم وعدت إلى وطنك ترضى قليلا وتسخط كثيرا ، وكنت أحب أن أسمع منك حديث السخط لأنه كان كريما يملؤه الإباء ويشيع فيه النقاء ، وكنت لا تسمعنى أقول لك إيه يا عزيز حتى ينطلق لسانك بالحديث عذبا كأنه العين الصافية ينساب منها الماء بين الخمائل والرياض ، أو ينطلق لسانك بالحديث كأنه البركان يقذف بالحمم ويوشك أن يحرق من حوله كل شىء وما أكثر ما كنت أقول لك حينئذ ، على رسلك يا بنى فإنك إنما تتحدث إلى الأستاذ الصديق لا إلى المستعمرين ولا إلى الظالمين) .

الأسانيد :

١ ـ الطليعة (مجلة) . . أغسطس ١٩٧٢ .

٢ ـ عبد الرحمن الرافعى . . مصر بين ثورتين .

٣ ـ عزيز فهمى . . الشعر الأموى والشعر العباسى .

٤ ـ لمعى المطيعى . . عزيز فهمى . . ذكراه بعد ٢٥ سنة (الأخبار ٣ مايو ١٩٧٧) .

٥ ـ الوفد المصرى (جريدة مجموعة ١٩٤٦ ـ دار الكتب) .

الفريق عزيز على المصرى



شخص واحد فقط يستطيع أن يكتب تاريخ عزيز المصرى هو عزيز المصرى . . ولكنه رحل فى ١٥ يونيه ١٩٦٥ ومحاولتى الحالية للكتابة عنه سبقتها محاولة سنة ١٩٦٢ . وقبل أن التقى به قابلت واتصلت بالذين اقتربوا منه . فى الروضة وفى المطبعة السلفية وفى شقة تعلوها التقيت بالمفكر الإسلامى الراحل « محب الدين الخطيب » عن طريق صديق مشترك الكاتب الإسلامى الصديق « أنور الجندى » وسمعت من المرحوم « محب الدين الخطيب » مالم يسمعه ، وما لم يعرفه أحد عن « عزيز المصرى » واتصلت بالمرحوم « اللواء محمد صالح حرب » الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين ، واتصلت بالدكتور « حلمى عبد الشافى» الطبيب الذى كان يشرف على علاج « عزيز » فى مستشفى الدمرادس أثناء مرة من مرات اعتقاله والدكتور « حلمى عبد الشافى » هو الذى قام بدور هام فى تأسيس (حزب الأمة) ولكن كل شىء قسمة ونصيب إذ تولى « أحمد الصباحى » مسئولية هذا الحزب وهيمن عليه وفى صحبة الزميل الكاتب الإسلامى بجريدة الأهرام « محمود مهدى » زرت الأستاذ أحمد حسين رحمه الله ورحم الصديق العزيز المستشار فؤاد نصحى الذى كان معنا فى الزيارة .

فى ليلة من ليالى سنة ١٩٦٢ حملت القليل الذى حصلت عليه ، وحملت معى نصيحة من الصديق « أنور الجندى » متعه الله بالصحة أن أتجنب الحديث معه عن « محب الدين الخطيب » لأن بين الرجلين جفوة حملت هذا كله فى ذهنى وأنا أصعد درج البناية رقم ١٨ شارع الجزيرة بالزمالك وكانت جريدة الجمهورية قد نشرت اننى اعتزم إعداد كتاب عن « عزيز المصرى » فأحسست بشبه اتفاق بينى وبين القراء فى مهمتى هذه .

وجلست إليه وبدأت بالتمهيد الحقيقى للكتاب وهو أن « الرئيس جمال عبد الناصر » قد أعلن

عن زيارة له ، للفريق عزيز المصرى ، ليبحث معه استيلاء الضباط الأحرار على السلطة ومن هنا نبتت فكرة إعداد كتاب جيد عن « عزيز » تقوم الدار القومية للطباعة والنشر بإصداره وكان لى دور فى هذه الدار ولكن « عزيز » بذاكرته الحديدية سد الطريق وقال بحسم وحزم إن جمال عبد الناصر لم يكن بين الذين زاروه وإن شخصا واحدا يحوز تقديره وإعجابه هو « عبد المنعم عبد الرءوف » وكان وقتها خارج البلاد عليه حكم بالإعدام من رفاق السلاح والكفاح لأنه على صلة وثيقة بالإخوان المسلمين .

رواية محب الدين

ونظرت إلى الرجل الذى سد على الطريق قبل أن أبدأ، قصير القامة ضامر الجسم له عينا صقر يشع منهما الذكاء عبارات قاطعة داهية صقلته تجارب الأيام فأين أذهب أنا فيه ؟ لا بأس إذن من المغامرة جئت أحمل إليك شهادة حق من زميل قديم .. من؟ .. « محب الدين الخطيب » .. تحفز فى تساؤل .. لم أعطه الفرصة (كانت هذه المقابلة فى حياة محب الدين الخطيب الذى رحل فى ٣١ ديسمبر ١٩٦٩» .. سنة ١٩٠٥ وكان « محب » يدرس الحقوق فى استانبول ومعه زميله «عارف الشهابى » شاهدا الطلاب العرب يزينون غرفهم بصورة شاب مصرى بالملابس العسكرية هى صورة « الملازم عزيز على المصرى » ويؤكد انك فى ٢٤ يوليو ١٩٠٨ كان لك دور فى استيلاء (جماعة الاتحاد والترقى) على السلطة وإجبار « السلطان عبد الحميد » على إعادة العمل بالدستور وعندما تجمعت القوى الرجعية بقيادة شوكت باشا رآك بعينى رأسه تقتحم معسكر (السليمية نسبة إلى سليم الأول) وتقطع الطريق على القوى الرجعية ، الصقر يركز عينيه فى اتجاهى ويهز رأسه تأكيدا لما قاله « محب الدين الخطيب » لى عنه . . . وحدثنى « محب الدين الخطيب » عن دورك مع الشريف حسين وأكد لى أنك كنت معتقلا فى مقر جريدة (القبلة) وكان محب رئيسا لتحريرها وأكد لى أيضا حكم الإعدام الذى صدر ضدك وأن الوحيد الذى استطاع إقناع «الشريف حسين » بالعفو عنك هو صديقك « نورى السعيد » أكثر من هذا ألم تعد إلى مصر وذهب بدلا منك « الأمير الاى محمود القيسونى » والد « الدكتور عبد المنعم القيسونى » المفكر الاقتصادى المعروف ؟! (هذه الرواية لم أجدها فى أية كتابات عن عزيز المصرى ولكننى سجلتها فى هذا المقال للتاريخ وللباحثين الذين يمكن أن يبحثوا عنها) .

المهم أننى لم أخرج من الصقر بأكثر من كلمات .. تمام .. تمام ولكن المذكرات والأوراق ضاعت كلها فى حملات التفتيش والمطاردة العديدة .. ولم يعد فى مقدوره أن يكتب تاريخ حياته .. وخيل لى أن الرجل حريص على ألا يقول شيئا عن حياته وشددت على يديه وأنا أقول

له . . لن يكتب تاريخ الفريق عزيز على المصرى سوى شخص (واحد) إن أراد ذلك هو «الفريق عزيز على المصرى » نفسه وافترقنا .

معلـومات جـديدة

وحسبت أن الكلام عن « الفريق عزيز المصرى » قد توقف عند هذا الحد إلى أن جاء أغسطس ١٩٧٦ وتجدد الحديث عن حقيقة الدور الذى قام به « عزيز المصرى » فى ليبيا إبان الزحف الإيطالى ومحاولة لكشف الغموض الذى أحاط بهذا الدور وفى حدود ما أذكر الآن شارك فى هذه الأحاديث على صفحات جريدة الأخبار « المرحوم أحمد حسين » و«المرحوم محمد فهمى عبد اللطيف » و«السيد حسين ذو الفقار صبرى » وأدليت بدلوى فى هذه الأحاديث وسجلت للتاريخ كل مارواه لى « محب الدين الخطيب » عن عزيز المصرى ولكن المفاجأة جاءت لنا من حيث لا نتوقع فقد أرسلت السيدة خيرية البكرى شيرين وهى أرملة المرحوم « فؤاد باشا شرين » ردا على ندائى الذى كان عنوانا لمقالى (قبل أن يرحل الرجال . . سجلوا تاريخ الثائر الجسور) . . ونشر التعليق تحت عنوان (معلومات جديدة . . منزل محافظ القاهرة يقدم الأمان والطعام للفدائيين !) وقالت « السيدة خيرية البكرى شيرين » نزيح الستار عن دور « عزيز المصرى » مع الكتائب خلال سنتى ١٩٥٠ ، ١٩٥١ ودور زوجها « فؤاد باشا شيرين » وكان يشغل منصب محافظ القاهرة حينذاك فى إخفاء عزيز ورجاله فى منزله وهو آخر مكان يمكن أن تبحث فيه السلطات عن الفدائيين . . تقول السيدة :

وتفصيل الأمر اننى لاحظت اختفاء الطعام والفاكهة والخبز من المطبخ والثلاجة كل صباح ، وكنا نحتفظ بكميات كبيرة منها بحكم المنصب ومتطلباته وكان منزلنا يتكون من طابقين بمصر الجديدة . . وفى الدور الأرضى كان يقع مكتب زوجى وله مدخل خاص من الحديقة واحترت فيما يحدث وضايقنى أن أظلم شخصا بريئا من العاملين بالمنزل . .

ودعانى زوجى إلى مكتبه وإذ بالبطل الجسور يقول . . أنا متأسف بس الأولاد بيجوعوا لأننا نتدرب طول الليل . . وعرفت تفاصيل المغامرة فقد كان « عزيز » يحضر إلى منزلنا فى الفجر فيدخل زوجى ويخدمه بنفسه حتى ينام فيغلق عليه باب المكتب ويخرج البطل فى المساء إلى عملياته الفدائية حتى الفجر وهكذا يوميا . ولم يدر أحد ممن فى البيت أو زواره بهذا الأمر حتى يومنا هذا ثم انتقل زوجى إلى جوار ربه سنة ١٩٦٢ . . ولحق به البطل عزيز المصرى . . رحم الله الجميع . . هكذا كان الرجل مقبلا على المغامرة حتى سن متأخرة وسوف نسير مع هذه الحياة المثيرة المليئة بالمفاجآت .

بـداية الطـريق

حتى تاريخ مولده حوله خلاف . . جاء فى الموسوعة الميسرة أنه ولد سنة ١٨٧٩ ميلادية بالقاهرة وأورد الصديق الراحل « فؤاد نصحى » تاريخا لا أعرف مصدره وهو ١٨٨٠ ميلادية وذلك فى كتابه الصغير عن (عزيز المصرى باشا) وكان قد أصدره سنة ١٩٥١ (ولمست من عزيز المصرى أنه لم يكن راضيا عنه رغم أنه كان محاولة باكرة للتعريف به) وأعتقد أن أقرب التواريخ إلى الصواب هو ما جاء بصحيفة (المؤيد) فى عددها الصادر يوم الأحد ٢٦ جمادى الآخرة ١٣٣١هـ (أول يونية ١٩١٣م) أنه من مواليد القاهرة ١٢٩٤هـ (١٨٧٧م) ووالده هو « زكريا أفندى على » جركسى الأصل توفى و « عزيز » فى العاشرة من عمره فكفلته أمه التى فارقت الحياة بعد وفاة أبيه بخمس سنوات فكفلته أخته من أمه حرم « على باشا ذو الفقار » محافظ القاهرة .

تعلم فى المدرسة التوفيقية وكان اسمه فيها عبد العزيز زكى ولما كان فى الأستانة اتخذ لنفسه اسم عبد العزيز على ومن عادة الأتراك أن يقولوا « عزيز » بدلا من عبد العزيز فأصبحوا يطلقون عليه «قاهرة لى عزيز على » أى عزيز على المصرى . . وهكذا أصبح اسمه فى التاريخ المصرى « عزيز على المصرى » وحصل على البكالوريا من المدرسة التوفيقية سنة ١٨٩٦م . والتحق بمدرسة الحقوق على غير رغبته ونزعته إلى العسكرية وإنما تلبية لرغبة على باشا ذو الفقار وتعلم اللغة التركية فى الإجازة وسافر إلى الأستانة ودخل مدرستها الحربية كما أراد وجاء فى مذكرات جمال باشا أنه تعرف على عزيز بك وقت تخرجه فى المدرسة الحربية حوالى سنة ١٩٠٤م (وهذا يتفق مع التاريخ الذى ذكره لنا « محب الدين الخطيب ») وعمل فى الجيش الثالث بمقدونيا وخدم بعد ذلك فى ألبانيا .

وكانت المدارس العسكرية فى الوقت الذى دخلها « عزيز » تموج بالدعوة إلى الحركات الإصلاحية وكانت مقدونيا من أكثر مناطق الدولة تقدما وبعيدة عن قبضة الدولة العلية وفى المدارس العسكرية تعرف على عدد من الشباب العربى الذين قاموا بدور معه بعد ذلك فى الجمعيات السرية التى أسسها بهدف إنشاء كيان عربى مستقل داخل الدولة العثمانية ومن هؤلاء «نورى السعيد وجعفر العسكرى وجميل المدفعى وعلى جودت وياسين الهاشمى » وفى كلية أركان الحرب التقى عزيز بمصطفى كمال الذى عرف بعد ذلك بمصطفى كمال أتاتورك الذى تولى بعد تخرجه منصبا عسكريا فى دمشق واجتمع حوله عدد من الساخطين على«السلطان عبد الحميد » فكون فى أكتوبر ١٩٠٦ جمعية (الوطن) التى نقلت مركزها بعد ذلك إلى (سالونيك) وفى أوائل سنة ١٩٠٧ حدث اتصال بين جمعية الوطن السرية وبين مركز الاتحاد والترقى فى باريس وجماعة الاتحاد والترقى كانت تناوئ «السلطان عبد الحميد » وتضم عسكريين ومدنيين أتراكا وعربا

مسلمين ومسيحيين وتهدف إلى إقامة دولة عثمانية ديمقراطية فى ظل دستور يكفل المساواة لجميع المواطنين العثمانيين وانضم « عزيز » وعدد من الضباط العرب إلى الاتحاد والترقى .

واتفق الاتحاديون على أن تقوم الثورة فى يوم جلوس السلطان عبد الحميد فى ٢١ أغسطس ١٩٠٨ ولكن لظروف معينة بدأت الثورة فى صباح العاشر من يوليو ١٩٠٨ . وكانت وحدات الجيش الثالث فى مقدونيا قد بادرت باللجوء إلى الجبال معلنة الثورة التى شارك فيها « عزيز » بجهد واضح واضطر السلطان عبد الحميد أن يعلن فى ٢٤ يوليو إعادة العمل بدستور ١٨٧٦ . ولكن فى ١٢ ، ١٣ أبريل ١٩٠٩ حدثت حركة رجعية موالية للسلطان تعارض الاتجاهات الديمقراطية للاتحاد والترقى فزحفت قوات الاتحاديين من سالونيك فى ٢٣ أبريل ١٩٠٩ وكان «عزيز » على رأس إحدى فصائلها وذكر لى « محب الدين الخطيب » أنه شاهد « عزيز بك » يقتحم معسكر (السليمية ـ نسبة إلى السلطان سليم) وقال « جمال باشا » فى مذكراته . . (ولما زحف الجيش على الأستانة بعد الثورة الرجعية فى ١٣ أبريل كان عزيز على رأس إحدى فصائل الجيش وأظهر مهارة عظيمة فى مطاردة الثائرين ولم أكن إلى تلك اللحظة أعرف أنه على صلة بالعرب) وهكذا كان عزيز فى تلك الفترة فى مقدمة العناصر العربية فى الجيش العثمانى التى انحازت إلى الدستوريين الذين نجحوا فى إعادة العمل بالدستور ثم قضوا على التمرد الرجعى فى ٢٣ أبريل ١٩٠٩ وعزلوا السلطان عبد الحميد وأرسلوه إلى المنفى فى سالونيك وجاء « محمد رشاد » بدلا منه .

بعد استيلاء الاتحاديين على السلطة سارت الأمور على غير مايتوقع العرب منهم فأخذ الاتجاه الطورانى يزداد وبدأت نغمة الأتراك والعرب تتصاعد ووضح هذا فى القسوة التى عامل بها الاتحاديون الأقليات الأخرى مثل (الدروز) فضلا عن الخلافات التى بدأت تتسرب إلى السلطة الجديدة ذاتها . . وفى الوقت ذاته كانت الدعوة إلى « العروبة » يشتد عودها فى المجالات المختلفة فى الأدب وفى الفكر وفى المجالات الاقتصادية وأحس العسكريون العرب وفى مقدمتهم « عزيز على المصرى » أنهم قاموا بدور هام فى اسقاط « السلطان عبد الحميد الثانى » فضلا عن القضاء على الحركة الدينية الرجعية التى قامت فى أبريل ١٩٠٩ وتأسست أول جمعية سرية عربية على أساس سياسى وتضم العسكريين والمدنيين العرب واشترك مع « عزيز المصرى » فى هذه الجمعية «سليم الجزائرى وعبد الكريم خليل رئيس المنتدى الأدبى » وأخذت العناصر العربية المعروفة تنسحب من الاتحاد والترقى وهذه العناصر سيكون لها دور هام فى جمعية أخرى أسسها « عزيز المصرى » أيضا بعد انتهاء الحرب الطرابلسية وعودة عزيز إلى الأستانة هى (جمعية العهد) .

ولكن بين تأسيس الجمعية القحطانية وجمعية العهد وقعت الثورة فى اليمن ضد الحكم العثمانى ولأن الإمام يحيى قد دخل قبل ذلك صنعاء فى ٢١ أبريل ١٩٠٥ ، وحاول عزيز بك عقد مصالحة

بين الإمام يحيى والدولة العثمانية فى أغسطس ١٩٠٩ وفشلت محاولات الصلح فنزلت قوات الحكومة فى الحديدة ودخلت صنعاء فى أبريل ١٩١١ ولكن « عزيز بك » نجح فى عقد صلح جديد وفسر هذا بحرص عزيز على تقوية العناصر العربية فى أطراف الدولة العثمانية .

ثم كانت الحرب التركية الإيطالية . . ولاحظ المراقبون أن النفوذ الإيطالى أخذ يتزايد فى طرابلس الغرب منذ تولى الاتحاديون الحكم . . ووجهت إيطاليا إنذاراً للدولة العثمانية فى ٢٧ سبتمبر ١٩١١ وبدأت الحرب فى ٢٩ سبتمبر وبقدر ما تراخت السلطات العثمانية بقدر مانهضت القوى العربية الشعبية لمعاونة المجاهدين العرب فى ليبيا وكان « عزيز » قائدا للقوات العثمانية تحت إمرة «أنور باشا » وقائدا مسئولا عنها بعد رحيل « أنور » فى نوفمبر ١٩١٢ . وكان « عمر المختار » قائدا لشيوخ الزوايا وظل عزيز يقاتل حتى عاد إلى الإسكندرية فى ١٦ يوليو ١٩١٣ وموقف عزيز فى الحرب التركية الإيطالية موضع جدل غير قليل . . ولكن الوقائع تؤكد أنه أبلى بلاء حسنا فى القتال ضد الغزو الإيطالى غير أن وزارة الاتحاديين استقالت فى ٩ يوليو ١٩١٢ وتم توقيع صلح فى مدينة (أوشر) بسويسرا فى ١٥ أكتوبر ١٩١٢ وتعهدت الحكومة العثمانية بموجب هذه المعاهدة بسحب كل ضباطها وجيوشها من طرابلس الغرب وبرقة ورغم ذلك استمر عزيز فى المقاومة قرابة تسعة أشهر وتردد أنه يعتزم انضمامه إلى العرب فى حروبهم الأهلية ضد الدولة العثمانية فصدرت إليه الأوامر بالانسحاب من برقة إلى السلوم وهنا طلب (السنوسيون) منه أن يسلم أسلحة الجيش لهم فرفض ودارت بينهم وبينه معركة دامية ووصل إلى الإسكندرية فى ١٦ يوليو ١٩١٦ . . ومنها إلى الأستانة .

وصل عزيز إلى الأستانة والسخط يتزايد بين العرب ضد الدولة العثمانية لموقفها المتخاذل من الإيطاليين والشكوك تتزايد من الدولة العثمانية حول موقف « عزيز بك » وأسس عزيز (جمعية العهد) ومن العرب الذين انضموا إلى جمعيته فى أكتوبر ١٩١٣ «جميل المدفعى ، وطه الهاشمى ، ويوسف العزاوى ، وسعيد التكريتى ، وصبيح نجيب ، وتحسين العسكرى ، ونورى متاح ونورى السعيد من العراق ومن السوريين . . مصطفى وصفى ، ويحيى كاظم ، وتوفيق الجندى ، وأمين لطفى ، وعلى النشاشيبى ومن طرابلس الغرب محمود حلمى » . هؤلاء كانوا من العسكريين ومن المدنيين اشترك معه « مزاحم الأمين ، وعبد الكريم الخليل ، وعاصم الحلبى ، وإسماعيل الطيب، وأسعد داغر ، وفايق شاكر الطيب ، وثابت عبد النور » وأصبح « عزيز على المصرى» خطرا على الدولة العثمانية ويكفى أن نعرف أنه انضم إليه ٣١٥ ضابطا عربيا من مجموع الضباط العرب فى الدولة العثمانية ٤٩٠ ضابطا وأصبح للجمعية فروع فى الشام وحلب وبغداد والموصل والبصرة وانفجر الحديث عن موقف الدولة العثمانية من اليمن والدروز وطرابلس الغرب ومن العرب عامة .

وبينما كان « عزيز » خارجا من الفندق بعد ظهر ٩ فبراير ١٩١٤ ألقى القبض عليه وبدأت المحاكمة فى أول أبريل ١٩١٤ وجاء فى قرار الاتهام أن أفكار عزيز المصرى تتناقض مع مصلحة الدولة لعثمانية وأنه يبث الفكرة العربية بين الأهالى ويسعى لإنشاء دولة عربية مستقلة يتولى هو إدارة شئونها وذاع بين الناس أن حكما بالإعدام قد اتخذ إلى حين إعلانه فانفجر العرب فى استانبول وسوريا ومصر . ودعا شيخ الجامع الأزهر إلى اجتماع حضره ألوف الناس وخطب فيه « رفيق بك العظم ، ومحمد أفندى لطفى جمعه ، ومحمد أبو شادى بك ، وإبراهيم بك الهلباوى ، ورشيد رضا صاحب المنار » ونددت الصحف العربية والأوربية . . فصدر العفو عنه وأرسل إلى مصر .

الثائر لايهدأ

ولكن الثائر لايهدأ . . وبدأت انجلترا اتصالاتها مع الشريف حسين فى الحجاز وابن السعود فى نجد والإدريسى فى عسير تقدم لهم الوعود للوقوف إلى جانبها ضد تركيا التى انحازت إلى ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى .

ويبين من الوثائق أنه فى يوم ١٦ أغسطس ١٩١٤ عقد « عزيز المصرى » اجتماعا مع أحد المسئولين الإنجليز فى القاهرة ر . م . رسل وقال عزيز إنه يتحدث باسم (لجنة مقرها بغداد) ليعرف موقف بريطانيا من قيام دولة عربية متحدة مستقلة عن تركيا وتضم الأقاليم الناطقة باللسان العربى ورأى انجلترا فى مد اللجنة بالسلاح والأموال . . وأرجأ المندوب البريطانى بحث الموضوع لأن الوقت غير مناسب وفى ٣٠ أكتوبر ١٩١٤ يكتب رئيس المخابرات البريطانية فى القاهرة عن مقابلة سرية له مع « عزيز المصرى » ، طلب فيها عزيز مده بالمال والبنادق والذخيرة والمدفعية لتنفيذ برنامج (القومية العربية) الذى يمكن أن تقوم به قوة قواتها من (الجيش العراقى) ومرة ثانية أرجأ الانجليز بحث الموضوع ولكن فى ١٦ نوفمبر ١٩١٦ بدأ الانجليز الاتصال بعزيز المصرى الذى طلب منهم إعادة نورى السعيد من منفاه فى الهند وكان نورى السعيد قد هرب من تركيا حيث حاولوا اعتقاله كما اعتقلوا «عزيز» ولجأ إلى البصرة فى يونية ١٩١٤ ولكن الإنجليز أبعدوه إلى الهند ثم أعادوه إلى مصر فى ديسمبر ١٩١٥ بطلب من عزيز المصرى وجرت مباحثات بين الإنجليز وبين عزيز المصرى ونورى السعيد والفاروقى والشهبندر ورشيد رضا لم تثمر عن نتائج هامة فذهب نورى السعيد ، إلى الشريف حسين فى مكة وكان محب الدين الخطيب هناك رئيسا لتحرير جريدة القبلة ولحق بهم عزيز المصرى .

الحكم الثـانى بالإعـدام

ودارت محادثات حسين مكماهون فى أكتوبر ١٩١٥ وأعلنت بريطانيا تأييدها لاستقلال البلاد العربية ووصل عزيز إلى الحجاز ١٩١٦ وقسم الجيش إلى قسمين الجيش النظامى وجيش خفيف الحركة ليعمل وراء خطوط الأتراك وقدمت بريطانيا المعونات المالية والأسلحة والخبرة البشرية وبعد سقوط الطائف أعلن الشريف حسين فى يوم ٢٩ نوفمبر ١٩١٦ نفسه ملكا وشكل حكومة على رأسها ابنه « الأمير على » و« الأمير عبد الله » وزيرا للخارجية و« الأمير فيصل » وزيرا للداخلية و «عزيز المصرى» وزيرا للحربية ورئيسا لأركان الحرب وفوجئ الإنجليز بهذه الخطوة ولم يكن فى تقديرهم إن يضعهم الشريف حسين أمام الأمر الواقع إلى هذا الحد وبدأت سياستهم تأخذ شكلا جديدا وبالنسبة لعزيز المصرى قيل أن السوريين وشوا به عند الشريف حسين وأبلغوه كذبا أن المصرى اتصل بالأتراك للاعتراف باستقلال البلاد العربية وقيل إن عناصر أخرى حذرت الشريف من عزيز وأعادوا إلى ذاكرته زحفه وخلع السلطان عبد الحميد وموقفه فى اليمن وقيل إن المصرى قد طالب بإنشاء قيادة عسكرية مستقلة وقيل إنه عاود الاتصال بالإنجليز وطالبهم بالمال والسلاح لإنشاء دولة عربية مستقلة عن تركيا وتقول المصادر إن الشريف حسين عزل عزيز المصرى الذى نزل فى إجازة إلى مصر فى مارس ١٩١٧ ولم يعد بعدها إلى الحجاز ولكن تبقى رواية محب الدين الخطيب لى والتى لم يعترض عليها عزيز المصرى عندما أعدت روايتها عليه وأسجلها هنا للتاريخ والاثنان فى رحاب الله أكد لى « المرحوم محب الدين الخطيب» أن الشريف حسين وصلته رسالة من الإنجليز تؤكد اتصاله بهم وأن حكما بالإعدام قد صدر على عزيز بعد هذه الرسالة وانه كان فى (القبلة) التى رأس تحريرها « محب الدين » وأن تدخلا قويا من نورى السعيد لدى الشريف حسين وكان مقربا منه وبعدها تقرر عودة « عزيز » إلى مصر كما أكد محب الدين أن الأمير الاى محمود القيسونى والد الدكتور عبد المنعم القيسونى وصل إلى هناك بعد عودة « عزيز » .

المهم أن « عزيز على المصرى » عاد إلى القاهرة فى مارس ١٩١٧ ويتزوج من سيدة أمريكية وينجب ابنه الوحيد « عمر » الذى ذهب مع والدته ليعيشا هناك فى أمريكا واختير مديرا لكلية البوليس وهو الذى أدخل نظام الكلاب البوليسية واختاره الملك فؤاد ليشارك فى الإشراف على الأمير « فاروق » وكان يقرر دائما أن أحمد حسنين وعلى ماهر قاما بإفساد الأمير خير قيام مع سبق الاصرار والترصد وسنة ١٩٣٧ رقى إلى رتبة اللواء وحصل على الباشوية ثم عين رئيسا لهيئة الأركان سنة ١٩٣٩ ومنح رتبة الفريق وبعدها بعام أحيل إلى التقاعد . . وفجأة فى مايو ١٩٣٩ يسافر إلى العراق ولم يعرف أحد لماذا سافر . . ولكن بعدها بفترة حدثت ثورة «رشيد عالى الكيلانى » فى العراق بتنسيق مع ألمانيا . . وتساءل الناس هل كان عزيز وراء هذه الثورة . ؟!

ويروى « الرئيس أنور السادات » (أسرار الثورة المصرية) قصة اتصال « عزيز المصرى » برجال

« روميل » الذين تسللوا إلى القاهرة وقصة اتصال عزيز بالمرحوم حسن البنا يوضح كل ذلك أن عناصر كثيرة وقطاعا هاما فى المجتمع المصرى فى تلك الفترة كان يرتب لدخول الألمان إلى مصر على ظن أن ألمانيا النازية سوف تخلص مصر من الاحتلال الانجليزى .

مغامرة لم تتم

وفى ليلة ١٥ ـ ١٦ مايو سنة ١٩٤١ استقل الفريق عزيز على المصرى باشا طائرة الوِن ٢٠٥ من المطار العسكرى بألماظة ومعه حسين ذو الفقار صبرى وعبد المنعم عبد الرءوف وتعطل المحرك وهبطت الطائرة فى مزرعة يوسفى بجوار قليوب وبأعصاب من حديد فى الساعة الرابعة بعد منتصف الليل دق عزيز باب ضابط البوليس المسئول الذى عرف عزيز باشا ولكن خبر الهرب لم يكن قد أذيع فأدى له التحية العسكرية ووضع تحت تصرفه سيارة المركز الحكومية التى أقلتهما إلى ميدان الأوبرا وكان ذلك فى عهد وزارة حسين سرى باشا وبعدها أذيع الخبر ولم يتوصل البوليس إلى مكان « عزيز » .

وكانت تحريات البوليس قد أفادت بأن السيد محمد حسين والد أحمد حسين زعيم مصر الفتاة الهارب والمطلوب اعتقاله يتردد كثيرا على منزل معين بامبابة وداهم الضابط إبراهيم إمام مسئول البوليس السياسى شقة « عبد القادر رزق » المدرس بالفنون الجميلة أصبح فى السنوات الأخيرة قبل رحيله وكيلا لوزارة الثقافة واذ بالبوليس وجها لوجه أمام عزيز باشا المصرى على غير انتظار وأودع السجن فى ٤ يونية ١٩٤١ وأفرجت عنه حكومة النحاس باشا فى مارس ١٩٤٢ وأعيد اعتقاله فى ١٣ أغسطس ١٩٤٢ وأفرج عنه فى ٢٠ نوفمبر ١٩٤٤ لاتهامه بالاتصال بالألمان حسب رواية أنور السادات التى أشرنا إليها من قبل .

وسنة ١٩٤٨ قام بدور هام فى تنظيم كتائب المتطوعين فى حرب فلسطين وقام بدور هام فى تنظيم الكتائب سنة ١٩٥١ كما شرحنا من قبل وبعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ عين سفيرا لمصر فى الاتحاد السوفيتى ١٩٥٣ وبعدها قبع فى بيته ١٨ شارع الجزيرة بالزمالك تقوم على رعاية شئونه « زينب » أفلت من قيودها فى ١٥ يونية ١٩٦٥ ولم تزل قصة هذا الثائر الجسور فى حاجة إلى مزيد من الأضواء .

الأسـانيد :

١ ـ أنور السادات . . أسرار الثورة المصرية .

٢ ـ خيرية البكرى شيرين . . الأخبار ٢٣/٨/١٩٧٦ .

٣ ـ فؤاد نصحى . . الفريق عزيز على المصرى .

٤ ـ لمعى المطيعى . . الأخبار ١٢/٨/١٩٧٦ .

٥ ـ محب الدين الخطيب . . لقاء معه فى منزله بالروضة .

٦ ـ د . محمد عبد الرحمن برج . . عزيز المصرى والحركة العربية .

عـزيـز ميرهـم



هذا نموذج فريد من الرجال ، عاش حياته السياسية كلها محبا ومخلصا ومؤمنا بسعد زغلول ومصطفى النحاس ، وفكره مع المدارس الاشتراكية المختلفة ، أيد تأسيس الحزب الاشتراكى المصرى ١٩٢١ دون أن ينضم إليه ، وعبر عن أفكاره تلك فى رعاية الوفد وتحت رايته ، مطمئنا لحب سعد زغلول ومصطفى النحاس له ، وإعجاب الزعيمين بالنشاط العملى لعزيز ميرهم فى خدمة مبادئ الوفد وسياسته .

وبفضل مناخ الحركة الوطنية الذى أشاعته ثورة ١٩١٩ شارك « عزيز ميرهم » فى تأسيس (الحزب الديمقراطى) مع منصور فهمى ، ومحمد حسين هيكل ، ومحمود عزمى ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ولكن عند أول بادرة من « محمد حسين هيكل » لتأييد « عدلى يكن » فى مواجهة « سعد زغلول » سارع « عزيز ميرهم » بأن أرسل برقية لسعد زغلول يؤيده تأييدا مطلقا ، وأدار داخل الحزب الديمقراطى حوارا حاسما لتأييد سعد ضد عدلى ، ومنذ تلك اللحظة كانت خطوات عزيز ميرهم تحت رأيه الوفد .

وعندما حان موعد الاحتفال بعيد جلوس « الملك فؤاد » فى ٩ أكتوبر ١٩٢٧ ، وكان زعيم الأمة « سعد زغلول » قد رحل فى ٢٣ أغسطس ، قرر « مصطفى النحاس » خليفة سعد زغلول فى رئاسة الوفد أن يحول دون الاحتفال بعيد الجلوس الملكى احتراما لمشاعر الأمة وكتب « عزيز ميرهم» أعنف ما يمكن أن يكتب فى هذا المجال : (ليهنأ بالزينة ضعاف العقول صغار الأحلام وليشترك فى الوليمة أشخاص ليس لهم فى الوطن نصيب . . كل ذلك وضع للشىء فى غير محله ، وخروج مفضوح على الواجبات الأولية للمجاملة واللياقة ، ونصب للأفراح وسط المأتم العام . يجب أن نعلم جميعا أن الملك ، مدين للحركة الوطنية التى كان سعد على رأسها ، ولولا تلك الحركة التى

أسسها سعد ، لما كانت مصر اليوم مملكة ، وكانت مجرد سلطنة ترزح تحت عبء الحماية) .

ثم فتحت صحف الوفد نيرانها على القصر الذى يزمع أن يحيى الأفراح والليالى الملاح ، والشعب حزين لفقد قائده وزعيمه وكان الموقف كله الموجه ضد الملك فؤاد يحوز إعجاب «مصطفى النحاس» بل كان هو الذى أعطى إشارة البدء للصراع مع القصر.

مـع الديمقـراطية

وقد تشرب « عزيز ميرهم » مبادئ الليبرالية فى فرنسا حيث تخرج فى جامعة (ليون) وعاد ليعمل محاميا ويلتقى بمجموعة من أبناء الأعيان ذوى الثقافة الفرنسية مثل « الشيخ مصطفى عبد الرازق ، ومنصور فهمى ، ومحمد حسين هيكل ، ومحمود عزمى ومحمد كامل البندارى ، وعبد الحميد حمدى ويحدثنا « أحمد أمين » فى كتابه (حياتى) عن مجموعة أخرى تعرف إليها سنة١٩١٤ ، من الشباب ذوى الثقافة الإنجليزية نذكر منهم « أحمد زكى ، وأحمد عبد السلام الكردانى ، ومحمد عبد الواحد خلاف ، ومحمد كامل سليم ، ومحمد فريد أبو حديد ، ومحمد أحمد الغمراوى » ويبدو أن هاتين الجماعتين قد تحلقتا حول مجلة (السفور) التى بدأت تظهر فى الأيام الأخيرة (للجريدة) التى توقفت فى ٣٠ يوليو ١٩١٥ ، وكان « أحمد لطفى السيد » قد اعتكف لأسباب سياسية ، وكان « عبد الحميد حمدى » من أعضاء حزب الأمة .

ووضع « عبد الحميد حمدى » جريدة (السفور) تحت تصرف الشباب كافة من ذوى الثقافة الفرنسية والإنجليزية والعربية ووجد الشباب المثقف ملاذا فى سراى (آل عبد الرازق) خلف قصر عابدين ، وأطلقوا على أنفسهم (جماعة العقليين) وبعد قيام الوفد ١٩١٨ ، وقيام الثورة ١٩١٩ ، اجتمع الشباب فى شكل جمعية عمومية صغيرة فى بيت آل عبد الرازق واحتدت المناقشات بين «عزيز ميرهم » و«محمد حسين هيكل » وفى النهاية أقرت الجمعية العمومية فى ١٠ سبتمبر ١٩١٩ برنامجا للحزب الذى أطلقوا عليه اسم (الحزب الديمقراطى) وجاء البرنامج خاليا من عبارة (الاشتراكية) . وكان البرنامج فى مجموعه قريبا من البرنامج العام للوفد مع اهتمام بقضايا العمال وسرعان ما انفجر الخلاف داخل الحزب . . « عزيز ميرهم » فى جانب يؤيد فى حماسة سعد زغلول، «ومحمد حسين هيكل » فى جانب آخر يؤيد « عدلى يكن » وحتى يحسم « عزيز ميرهم» الموقف بادر بإرسال برقية تأييد واضحة لسعد زغلول وانحاز إليه منذ تلك اللحظة وظل طوال حياته مخلصا للوفد . أما « محمد حسين هيكل » فقد انضم للأحرار الدستوريين ورأس تحرير جريدة (السياسة) وتردد « محمود عزمى » بين الحزب الاشتراكى المصرى (الشيوعى) وبين الحزب الديمقراطى وبين الأحرار الدستوريين وبين القصر . . أما « منصور فهمى » الذى بدأ مغاليا فى

أفكاره الحرة تراه فى نهاية المطاف مؤيدا لهيئة التحرير بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وداعيا للانضمام إليها . .

اشتراكى من منازلهم

وقد دعا « عزيز ميرهم » إلى الديمقراطية السياسية على أن تنسحب إلى المجالات الأخرى ، ورأى أن النشاط السياسى الذى أو جدته الثورة المصرية ١٩١٩ جعل من (الوفد) حركة سياسية شاملة تسمح له ولغيره بممارسة هذه الأفكار ، من أجل هذا التزم بالوفد تنظيميا ، وفى الوقت نفسه مارس هواياته الفكرية فآمن بالاشتراكية إيمانا متطرفا رغم ارستوقراطيته ، ولكنه إيمان هواية كما قلنا فلا هو ينضم إلى (الحزب الاشتراكى ـ الشيوعى فيما بعد) ولا يتخذ أية خطوات عملية فى هذا السبيل مما جعل عددا من كتاب الماركسية يقولون عنه إنه كان (أحد وسائل) الوفد لإخضاع الحركة العمالية لنفوذ البورجوازية) .

على أية حال فإن « عزيز ميرهم » كان يكتفى بالتفكير العميق فى مجال الفكر الاشتراكى ، ولكن من يريد تطبيق الاشتراكية فى مصر فهو وشأنه ، وعزيز لايخطو خطوة عملية واحدة فى هذا السبيل ،وقانع بعضويته فى الوفد ، حتى فى كفاحه من أجل مصالح العمال يقوم به من الوفد أيضا . . هكذا قناعة الرجل . . مخلص للفكر الاشتراكى فى المجال النظرى ومخلص للوفد فى حركته العملية .

ابتعد تماما عن (الحزب الاشتراكى) وعن تحوله إلى حزب شيوعى ، وعن الصراعات الداخلية به ، وبالتالى ابتعد عن النشاط العملى لذلك الحزب والذى أدى ببعض أعضائه إلى السجن .

والطريف أنه عندما دب الخلاف بين سلامة موسى ومحمد عبد الله عنان وعلى العنانى ومحمود حسنى العرابى وبين غيرهم من العناصر الأجنبية ، وعندما شن « سلامة موسى » حملة ضد البلشفية وضد الاتحاد السوفيتى ، وتبعه فى ذلك « محمد عبد الله عنان» وآخرون . . من الطريف أن « عزيز ميرهم » وهو مرموق فى الوفد استنكر هذا الهجوم منهم على (البلشفية) ، وأنكر عليهم الهجوم الضارى ضد الاتحاد السوفيتى .

اتحاد النقابات

هو موقف « خاص » لاينضم للحزب الاشتراكى ، ويكتفى بالتفكير للاشتراكيين ويترك لهم الجانب العملى بكل تعقيداته ولا ينضم إلى المجموعة البلشفية داخل ذلك الحزب ولكنه لايؤيد الهجوم عليهم إيمانا بحرية الفكر ، وإيمانا بحقهم فى التعبير .

ولتفسير موقف الرجل نقول إنه كان يؤمن بالإصلاح عن طريق الوسائل البرلمانية ، أى إنه لم يكن يؤمن بالعنف والانقلاب الدموى كان يعتقد فى التطور والتدرج ، وكان ينفر من الأفكار التى تقول بمصادرة أموال الآخرين ، كان ينفر من الحرب بين طبقات المجتمع كان يفضل التعاون بين الطبقات من أجل صالح المجتمع بأسره ومن أجل السلام الاجتماعى .

ولعل « الوفد » كان أفضل الأوعية السياسية لمثل هذا الرجل . . يتيح له حرية التفكير وحرية التعبير طالما هو ملتزم بخط الحزب العام الذى كان يتفق مع تفكيره فى الإصلاح وفى الكفاح البرلمانى وفى الديمقراطية السياسية والاقتصادية والاجتماعية كل هذا داخل إطار أخلاقى ، كما كان يريد « عزيز ميرهم» .

وصفات الرجل الفكرية والسلوكية جعلته قريبا إلى قيادة الوفد ، وفى سنة ١٩٢٩ نراه عضوا بمجلس الشيوخ عن دائرة بولاق الشعبية ، وفى أبريل عام ١٩٣٠ ، تزعم « عزيز ميرهم » محاولة لإقامة مكتب لتنظيم حركة العمال تمهيدا لتأسيس اتحاد للنقابات ـ وكان قد توقف نشاط اتحاد النقابات ١٩٢٨ ـ وكان لجهود « عزيز ميرهم » عضو مجلس الشيوخ الوفدى أثرها ، فقد استجاب له عدد من النقابات المهمة مثل نقابة عمال ورش الترام ، ونقابة المطابع المصرية ، وجمعية رقى العمال ، ونقابة خريجى المدارس الصناعية وعمال ورش النجارة الميكانيكية ، وعمال السيارات وعمال الدخان ، وعمال ترام القاهرة .

واسفرت هذه الجهود عن تأسيس (اتحاد عام النقابات) فى مايو ١٩٣٠ برياسة أحد رجالات الوفد وهو « أحمد محمد أغا المحامى » واتخذ الاتحاد من دار نقابة عمال ترام القاهرة مقرا له ، وبعد أن تولى « إسماعيل صدقى » رياسة الوزارة فى يونيو ١٩٣٠ وحل البرلمان ، نشطت محاولة لإحياء (اتحاد نقابات ١٩٢٨) برياسة « داود راتب » رجل الأحرار الدستوريين . . ولكن أعضاء الاتحاد فى ذلك الوقت فضلوا بقاء الاتحاد برياسة « النبيل عباس حليم » فعزلوا داود راتب واختاروا «عباس حليم » الذى كان على خلاف شديد مع الملك فؤاد وعلى وفاق مع الوفد .

رياسة الاتحاد العام

عندما شرع الوفد بجمع التوكيلات التى تخول له حق الحديث عن الأمة ، كان من الضرورى ان يكون له فى صفوف العمال العناصر ذات الارتباط الوثيق بالعمال وذات الولاء للوفد فى وقت واحد وكان عدد العمال قد زاد نتيجة للحرب العالمية الأولى ، فبعد أن كان عدد العمال سنة ١٩٠٧ حوالى ٤٦٠ ألف عامل وصل عددهم سنة ١٩١٧ ٦٤٠ ألف عامل ، وقد شارك العمال فى الثورة منذ اليوم الأول وشاركوا فى الابتهاج بالإفراج عن زعيم الأمة « سعد زغلول » فى ٨ أبريل ١٩١٩ ،

وأقبل العمال على تأسيس نقاباتهم ، وازداد عدد النقابات وكان من الضرورى أن تهتم الجماعات السياسية المتعلقة بهذا النشاط النقابى ومن المعروف دور (الحزب الاشتراكى المصرى أو الشيوعى القديم) فى تنظيم العمال وفى الدعوة إلى الإضراب والاعتصام ، ولكن هذا النشاط كان فى أيدى العناصر اليسارية الأجنبية وقد ثبت أنها عناصر مشكوك فى ولائها للقضية الوطنية المصرية ، ولم يكن أمام « سعد زغلول والوفد إلا تنظيم العمال المصريين فى نقابات واتحادات ، وقد كان هناك شخصان قاما بالدور الرئيسى فى هذا المجال . . الأول : عبد الرحمن فهمى بقدراته الإدارية والتنظيمية الهائلة والثانى عزيز ميرهم بطاقته النظرية والفكرية والذى عمل كمستشار لعديد من النقابات وعرف بدعوته للعمال ليؤسسوا شركات يمتلكونها يعملون بها بعيدا عن تحكم أصحاب الأعمال فيهم وحتى لا يتعرضوا للفصل والتشريد كما إنه اختير سنة ١٩٣٥ سكرتيرا عاما للاتحاد العام لنقابات العمال ، وسنة ١٩٣٧ اختير رئيسا للمجلس الأعلى للاتحاد .

وقد عرفت تلك الفترة شخصيات عديدة اهتمت بإنشاء (اتحاد عام للعمال) فى مقدمتهم عباس حليم ومحجوب ثابت وعبد الرحمن فهمى ، وداود راتب » وفضل « عزيز ميرهم » أن يكون له دور الاستشارات الفكرية والنظرية ولكنه كان حريصا على أن يكون نشاط العمال تحت راية الوفد ودعما لهذا الاتجاه فإن « عزيز ميرهم » دعا إلى دمج الاتحاد الذى كان قد أنشأة برياسة أحمد اغا المحامى فى مايو ١٩٣٠ فى الاتحاد الذى تولى رياسته عباس حليم (١٧ ديسمبر ١٩٣٠) على اعتبار أن الملك فؤاد قد سحب لقب (النبيل) منه وان النبيل أعلن فى خطاب عام ولاءه للوفد ولكن النبيل ، بعد دمج القوى العمالية فى اتحاده تنكر للوفد وبدأت الحركة العمالية مسيرة جديدة ليس هنا مجال الحديث عنها ونذكر أن الوفد عام ١٩٣٥ أقام برياسة « أحمد حمدى سيف النصر» المجلس الأعلى للعمال وسحب من اتحاد عباس حليم عددا كبيرا من النقابات وتولى « عزيز ميرهم» منصب السكرتير العام للمجلس الأعلى للعمال ، وسنة ١٩٣٧ تولى رياسته .

القصر وعزيز ميرهم

وقد لاحظت فى مذكرات « حسن يوسف » عن (القصر ودوره فى السياسة المصرية ١٩٢٢ ـ ١٩٥٢) اهتماما بالسؤال الذى قدمه « محمود سليمان غنام » فى فبراير ١٩٣٩ عن سبب عدم اعتراف مصر بحكومة الاتحاد السوفييتى ، وكذلك اهتماما بالاستجواب الذى قدمه « عزيز ميرهم» عن مفاوضات مصر وإيطاليا بعد عقد المعاهدة الإنجليزية الايطالية فى أبريل ١٩٣٨ ويبدو أن القصر كان يهتم برصد نشاط عدد من أعضاء مجلسى النواب والشيوخ وإلا ماسجل «حسن يوسف » ما تقدم به «محمود سليمان غنام » و«عزيز ميرهم » .

وبداية من عام ١٩٣٩ كان القصر حساسا جدا من العناصر التى لها اتصالات أو التى عرفت بأنها كانت لها اتصالات بالنقابات العمالية ، وكان « عزيز ميرهم » أحد هذه العناصر البارزة إلى جانب « محسن كامل حسين وحسن نافع ومحجوب ثابت» وهى عناصر معروفة بارتباطها بالوفد ، فضلا عن دورها السابق فى الجهاز السرى برياسة « عبد الرحمن فهمى » .

كما إن « عزيز ميرهم » عندما شكل « مصطفى النحاس » الوزارة فى مايو ١٩٣٦ نجح فى ان يزيد عدد النقابات المرتبطة (بالمجلس الأعلى للعمال) الذى أصبح تحت سيطرة الوفد ، وقد كان لهذه النقابات دور مهم فى أن يسترد الوفد هيبته بعد الانقسام الخطير (١٩٣٧) وتأسيس الهيئة السعدية ، إذ إن الوفد نجح فى ٢ يوليو ١٩٣٨ فى عقد اجتماع حاشد قدر عدد من حضروا الاجتماع بحوالى ٤٠,٠٠٠ « أربعين ألفا » من الهيئة العليا للوفد ، الهيئة البرلمانية ، نقابات العمال ، لجان الشبان ، لجان الطلبة . .

ولم يكن دوره مقصورا على مواقفه فى مجلس الشيوخ ، ولا على نشاطه فى معظم نقابات العمال والاتحادات العمالية ، ولا على أفكاره الاستشارية للمؤسسات العمالية ، ولا على جهاده فى صفوف أبناء سعد والنحاس ، ولا على بحوثه فى الاشتراكية وإنما نزل أيضا إلى ميدان جهاد المرأة المصرية وخاصة على صفحات جريدة « الأمل » وساند هيئة النساء الوفدية التى تكونت فى ظل ثورة ١٩١٩ ، والتى ساندت تأسيس بنك مصر ، والتى قامت بدور فعال فى إضراب العاملات إلى جانب العمال ، والتى نظمت التظاهرات ضد « عدلى يكن » .

وعندما اختار الوفد السيدة « منيرة ثابت » لتأليف جمعية الأمل ، وتصدر مجلة تحمل الاسم نفسه ، وتتولى الدفاع عن مواقف الوفد ، وكانت مجلة أسبوعية سياسية أدبية اجتماعية . . كان قلم « عزيز ميرهم » يدافع عن دور المرأة المصرية فى المجتمع المصرى . .

الأسانيد :

١ ـ أحمد أمين . . . حياتى .

٢ ـ د . آمال السبكى . . . الحركة النسائية فى مصر .

٣ ـ د . رفعت السعيد . . . تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر .

٤ ـ د . رءوف عباس . . . الحركة العمالية فى مصر .

٥ ـ شهدى عطية الشافعى . . . تطور الحركة الوطنية فى مصر .

٦ ـ ماريوس ديب . . . الوفد وخصومه . (ترجمة عبد السلام رضوان) .

على زكى العرابى



هذه الحلقة ، فى مديرية الغربية ، فى محلة (أبو على) بالقرب من طنطا (شىء لله ياسيد) .
فى محلة (أبو على) ولد « على زكى العرابى باشا » عام الاحتلال الانجليزى لمصر سنة ١٨٨٢ م وكان فى الخامسة من عمره عندما توفى والده فكفله عمه « محمد العرابى » وتعهده بالتعليم فى مدارس القاهرة حتى تخرج الشاب النابغة « على » فى مدرسة الحقوق عام ١٩٠٣ م وتفرغ للعمل فى المحاماة ، فى تلك المرحلة الباكرة من عمره فى مكتب أحد مشاهير المحامين « إبراهيم بك عاصم المحامى » ولمجرد العلم فإن «إبراهيم عاصم المحامى » هو والد الفنان الكبير « مدحت عاصم » متعه الله بالصحة ومد الله فى عمره ، والفنان مدحت عاصم له هو أيضا جهود نضالية سابقة ولكنه لايرغب فى الحديث عنها ، وهو فى الوقت ذاته ابن خال رجل الفقه والقانون رئيس مجلس الشيوخ « على زكى العرابى » .

وبعد فترة من العمل فى المحاماة ترك على زكى العرابى مكتب خاله « إبراهيم عاصم المحامى » وعمل بالنيابة والقضاء حتى وصل إلى منصب رئيس محكمة جنايات مصر .

وخطوات « على زكى العرابى» تتشابه إلى حد كبير مع خطوات بلدياته « عبد السلام فهمى جمعة » الذى تولى رئاسة مجلس النواب مرتين ، و« العرابى باشا » تولى رئاسة مجلس الشيوخ مرتين كذلك . . بل إن الفترات متقاربة ومتوازية « عبد السلام باشا » كان رئيسا لمجلس النواب فى الفترة الأولى من (٣١ مارس ١٩٤٢ إلى ١٥ نوفمبر ١٩٤٤) . والمرة الأولى التى تولى فيها على زكى العرابى رئاسة مجلس الشيوخ كانت (من ١٥ نوفمبر ١٩٤٢ إلى ٩ أغسطس ١٩٤٣) وذلك خلفا لمحمد محمود خليل الذى كان رئيسا لمجلس الشيوخ (من ١٨ نوفمبر ١٩٣٩ إلى ١٨ أكتوبر ١٩٤١) أما المرة الثانية التى تولى فيها على زكى العرابى رئاسة مجلس الشيوخ فقد كانت من (١٦

نوفمبر ١٩٥٠ إلى ٢٥ فبراير ١٩٥٢) وهى قريبة من الفترة التى تولى فيها عبد السلام فهمى جمعة رياسة مجلس النواب التى كانت (من ١٦ يناير ١٩٥٠ إلى ١٠ مارس ١٩٥٢) .

وكانت رئاسة على زكى العرابى لمجلس الشيوخ نموذجا لاستقلال الرأى والحيدة والنزاهة ، مع قوة الحجة ، والعمق العلمى وقد عرف بمؤلفاته العديدة فى القانون الجنائى ، والإجراءات الجنائية ومركز الوارث فى الشريعة الإسلامية والشفعة فى الشريعة الإسلامية .

وقد طغت شهرته كرئيس لمجلس الشيوخ على نشاطه فى أية مجالات أخرى ، ومن هذه الزاوية حاولت جهات عديدة الضرب للرجل على نغمة فروسيته فى الدراسات القانونية ، وعلى نغمة اسمه الكبير الذى ارتبط بمجلس الشيوخ ومحاولات القصر عديدة فى هذا المجال انطلاقا من رئاسته لمجلس البلاط منذ عام ١٩٤٢ ، وهذا المجلس يختص بمنازعات الأسرة المالكة ، ومن هنا كان « العرابى باشا » على ارتباط وثيق بكثير من أعضاء الأسرة المالكة ، وقد عرض القصر عليه سنة ١٩٤٨ أن يتولى الإشراف على إدارة أملاك الأسرة المالكة لقاء ١٥ ألف جنيه سنويا وهذا رقم كبير بحساب أربعين سنة مضت وليس هناك مايدل على أن الرجل قد قبل هذا العرض .

وبعد تجربة « أحمد حسنين » مع مكرم عبيد فى النصف الأول من عام ١٩٤٢ والمقابلات الانفرادية التى اختص بها الملك مكرم باشا ، والتلميح بالعروض البراقة من جانب . « أحمد حسنين » لمكرم باشا ومداعبة طموحه . ساعدت على نجاحها وانقسام مكرم باشا وتأليف (الكتلة الوفدية) وإصدار جريدة (الكتلة) وتأثير هذا الانقسام على (الوفد) بدأت محاولة أخرى مع «على زكى العرابى » هذه المرة . وأنا أستند هنا إلى ما قاله لى « محمد زكى العرابى » الابن الأكبر لعلى زكى العرابى باشا فى حديث شخصى معه ، إن الملك فاروق كان يدعو العرابى باشا لزيارته ويشير له الملك أثناء الحديث إلى أنه يقدم له الشاى فى (فنجان) مذهب تقديرا واعزازاً لشخصه . وهى محاولة من الملك لاستمالة العرابى باشا إلى خارج الوفد ويبدو ان القصر قد أساء فهم الرجل أو لم يعرف شخصيته معرفة صحيحة ، فإذا كانت المحاولة قد نجحت مع مكرم عبيد فإن القصر قد نسى أن الجلسة التى عقدها (الوفد) وقرر فيها فصل « مكرم عبيد » ومجموعة المؤيدين له تمت بحضور وموافقة « على زكى العرابى » بل تمت فى منزله ١٠ ميدان المساحة بالدقى .

العـرابى وعبد الناصر

ومن الطريف أن هذا المنزل شهد موقفا غريبا بعد أكثر من ١٥ عاما أخرى ، أثناء العدوان الثلاثى على مصر (أكتوبر ١٩٥٦) نما إلى علم أحد أجهزة عبد الناصر أن حركة داخلية تدبر للاطاحة بحكم عبد الناصر ، وأن هذه الحركة سوف تضع على رأس الحكم « على زكى العرابى »

وفى ظل جو التوتر والاضطراب الذى ساد أجهزة الحكم العليا فى تلك الفترة يبدو أن جهاز عبد الناصر الذى تلقى الخبر أو الإشاعة لم يتحقق الأمر وأرسل قوة لاعتقال « العرابى باشا » وشهد الجيران (طريحة) لبائع المياه الغازية « على طه » بجوار منزل « العرابى باشا » فى محاولة ليعترف بمكان « الباشا » فالمنزل كان خاليا ومظلما لأن « على زكى العرابى » توفى فى ٥ مارس ١٩٥٦ أى قبل العدوان بسبعة أشهر .

وبهذا الصدد فإن « سليمان حافظ المستشار المخلص للسلطة الجديدة هو الذى اقترح على عبد الحكيم عامر وعبد اللطيف البغدادى ان يتنحى جمال عبد الناصر وأن يتولى محمد نجيب السلطة وذلك لتجنيب مصر مخاطر احتلالى جديد . وأشرنا أيضا أن أحد قادة السلطة الجديدة «صلاح سالم » قدم اقتراحا مماثلا وللأمانة التاريخية فإن عبد الناصر وعامر والبغدادى رفضوا هذه الاقتراحات بإصرار . ولكن من المهم أيضا أن نسجل ان أحدا من خارج السلطة الجديدة ومستشارها المخلص لم يتقدم بمثل هذه الاقتراحات .

وفى الأيام الأولى بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وخلع الملك فاروق عن العرش تردد اسم « على زكى العرابى » عند تكوين لجنة الوصاية ولكن الرجل طلب أن يستأذن مصطفى النحاس فى هذا الأمر فكانت النتيجة صرف النظر عن تعيينه فى مجلس الوصاية . ولكننا فى فبراير ١٩٥٣ نجد اسمه ضمن أعضاء (لجنة الدستور) التى شكلت برياسة على ماهر وليس معروفا على وجه الدقة موقف الوفد من هذه اللجنة خاصة وإننا نجد عددا من الأسماء لهم دور تاريخى فى قيادة الوفد : مثل « على زكى العرابى ، وعبد السلام فهمى جمعة ، ومحمد صلاح الدين » .

وقد احتل العرابى مكانه بجدارة فى رئاسة مجلس الشيوخ إلى جانب رؤساء آخرين . . « أحمد زيور ، ومحمد توفيق نسيم وحسين رشدى ، وعدلى يكن ، ويحيى إبراهيم ، ومحمود بسيونى ، ومحمد محمود ، ومحمد محمود خليل ، ومحمد حسين هيكل» .

فى الـوزارة

أما حياته الوزارية فقد اختاره « مصطفى النحاس » عند تشكيل وزارته الثالثة (٩ مايو ١٩٣٦ ـ ٣١ يوليو ١٩٣٧) وزيرا للمعارف العمومية ، وتزامل فى وزارة النحاس باشا مع « واصف بطرس غالى ، وعثمان محرم ، ومحمد صفوت ، ومكرم عبيد ومحمود فهمى النقراشى ، وأحمد حمدى سيد النصر ، ومحمود غالب ، وعلى فهمى ، وعبد السلام فهمى جمعة) .

وبعد أن تولى فاروق سلطاته الدستورية فى ٢٩ يوليو ١٩٣٧ قدم النحاس باشا استقالته وعهد

الملك فاروق إليه بتشكيل وزارته الرابعة (٣ أغسطس ١٩٣٧ ـ ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧) واختار النحاس باشا على زكى العرابى وزيرا للمواصلات . ولم يتم اختيار «محمد صفوت ، والنقراشى ، ومحمود غالب وعلى فهمى » وهم عناصر الانقسام الجديد الذى انشق وأسس (الهيئة السعدية) ودخل الوزارة بدلا من هؤلاء الأربعة « محمود بسيونى ، محمد محمود خليل ، محمد صبرى أبو علم ، عبد الفتاح الطويل) .

أما وزارة مصطفى النحاس الخامسة وهى الوزارة التى شكلت فى ٦ فبراير ١٩٤٢ ، واستقالت فى ٦ ـ مايو ١٩٤٢ فقد اشترك فيها على زكى العرابى كوزير للمواصلات . وفى ٧ مايو ١٩٤٢ صدر مرسوم بتعيين على زكى العرابى رئيسا لمجلس الشيوخ وبناء على ذلك صدر مرسوم بتعديل تأليف الوزارة . ثم يعود مرة أخرى وزيرا للمواصلات فى وزارة مصطفى النحاس السابعة والأخيرة (١٢ يناير ١٩٥٠ ـ ٢٧ يناير ١٩٥٢) وظل العرابى وزيرا للمواصلات إلى ٩ يوليو ١٩٥٠ وعين «محمد محمد الوكيل » وزير الاقتصاد الوطنى وزيرا للمواصلات ، وفى ١٠ نوفمبر عام ١٩٥٠ تولى العرابى رياسة مجلس الشيوخ .

فى صفوف الوفد

وعندما اشتعلت الثورة الشعبية الكبرى عام ١٩١٩ كان عمره حوالى السابعة والثلاثين عاما ، وكان قد ترك العمل بالمحاماة وقطع شوطا فى العمل بالنيابة والقضاء ولذلك شارك بحرص فى أعمال اللجان الفرعية للثورة هو وعدد من زملائه فى النيابة والقضاء . وذلك على عكس موقف يوسف الجندى بلدياته الذى تزعم المجلس الثورى فى مدينة زفتى وأعلن المجلس استقلال المدينة . وكان « العرابى » من عناصر الوفد التى التزمت جانب « سعد زغلول » فى صراعة مع «عدلى يكن » والعرابى ينتمى إلى فئة « الأفندية » فهو ابن عائلة من (الطبقة المتوسطة) الصغرى بالغربية فلم يكن فرع أسرته من (طبقة ملاك الأراضى) وقد حظى الوفد بتأييد فئة الأفندية ، أى المهنيين والموظفين والبورجوازية الصغيرة والتجار والصناعيين والعمال فى المدن وفى الريف أيد (الملاك المتوسطون والفلاحون وبعض كبار الملاك) أيدوا الوفد وأيده كذلك خاصة فى البداية كبار الملاك . ولهذا فان الهيئة العليا للوفد أو القيادة تكونت من أفراد ينتمون لطبقات ثلاث هى : الأفدنية والملاك المتوسطون وكبار الملاك .

وبعد الانشقاق الذى حدث فى الوفد فى أواخر عام ١٩٣٧ انتخب الوفد خمسة عشر عضوا جديدا ، (فى الجهاز القيادى) وهم : « محمد سليمان الوكيل ، محمد المغازى عبد ربه ، وبشرى

حنا ، محمد الحفنى الطرزى ، كمال عليا ، فهمى ويصا ، سيد بهنسى ، ومحمد صبرى أبو علم ، عبد الفتاح الطويل ، يوسف الجندى ، على زكى العرابى ، على حسين ، أحمد نجيب الهلالى ، محمد محمود خليل ، عثمان محرم » . وقد أشرنا إلى هذه الحقيقة فى الحلقة الخاصة بعبد السلام فهمى جمعة .

وعندما تشكلت وزارة « مصطفى النحاس » ـ ٩ مايو ١٩٣٦ ـ كانت الوزارة وفدية خالصة ولكن كان من بين أعضائها الأحد عشر خمسة فقط فى (الهيئة العليا للوفد) وهم : مصطفى النحاس ، ومكرم عبيد ، وأحمدى حمدى سيف النصر ، وعبد السلام فهمى جمعة وواصف غالى»

مراسيم يونية ١٩٥٠

يتميز الوفد منذ تكوينه عام ١٩١٨ بأنه وعاء سياسى له أهداف عامة ويتسع لفئات ولعناصر كثيرة يمكن أن يكون لها مواقفها وأفكارها الذاتية ولكن يجمعها الهدف العام . وبهذا نشأت تقاليد متعارف عليها داخل الوفد تسمح بحرية التعبير وحرية التفكير لهذه العناصر المختلفة . وفى النهاية يكون الالتزام بخط الوفد العام . . مواقف كثيرة . . فى فترات كثيرة يمكن أن ينظر إليها من هذه الزاوية منها قرارات ١٧ يونيو ١٩٥٠ التى قضت بأن يحل « على زكى العرابى » رئيسا لمجلس الشيوخ محل « الدكتور محمد حسين هيكل » وقضت بإلغاء عضوية عدد من أعضاء مجلس الشيوخ . ويلجأ البعض للرد على هذه القرارات برأى خاص لعلى زكى العرابى نفسه . وهذه المسألة فى حاجة إلى شيء من التفصيل . .

لقد كان مجلس الشيوخ مسرحا لاهتزازات بدأت فى مارس ١٩٤١ وانتهت فى يونيه ١٩٥٠ . وفى عهد حكومة « حسين سرى » أجريت القرعة بجلسة ٧ مارس ١٩٤١ لتجديد النصف الأول من أعضاء مجلس الشيوخ ولم تقم الوزارة بإجراء انتخابات لاختيار أعضاء جدد وعمدت إلى استصدار مرسوم فى ٢٤ مارس بتعيين أعضاء جدد بدلا من الذين خرجوا بالقرعة . وكان اختيار «حسين سرى » للأعضاء بطريقة أخلت بنسبة الأعضاء الوفديين فى مجلس الشيوخ . وكان من الطبيعى أن تقوم وزارة الوفد « ٤ فبراير ١٩٤٢» باستصدار مرسوم ببطلان تلك التعيينات ، وقامت بإجراء انتخابات لملء مقاعد الخارجين بالقرعة . ثم جاءت وزارة « أحمد ماهر » فى أكتوبر ١٩٤٤ فأعادت من عينهم « حسين سرى » وأبطلت تعيين الذين اختيروا فى عهد حكومة الوفد وعاد الخلل فى نسبة الأعضاء الوفديين فى المجلس . وحل موعد التجديد النصفى سنة ١٩٤٦ فى عهد « إسماعيل صدقى » فأجريت الانتخابات والتعيينات على طريقة المرحوم صدقى باشا وتحقق للقصر ولأحزاب الأقلية السياسية ما تنشده من إخلال بنسبة الوفديين فى المجلس وكان توزيع

المقاعد كما يلى : ٤٥ للوفديين ، ٤٤ للمستقلين ، ٢٨ للأحرار الدستوريين ، ١٨ للسعديين ، ٩ لحزب الكتلة ، ٢ للحزب الوطنى . وعندما عاد الوفد للحكم فى يناير ١٩٥٠ كان من الطبيعى أن تلغى المراسيم السابقة « الباطلة من وجهة نظرها » فأبطلت رياسة « محمد حسين هيكل » للمجلس ، وأبطلت عضوية إبراهيم عبد الهادى وآخرين وعادت الأغلبية الوفدية لمجلس الشيوخ فى انتخابات التجديد النصفى فى مايو ١٩٥١ . وفى « محاكمة فؤاد سراج الدين باشا » أمام محكمة الثورة برئاسة « عبد اللطيف البغدادى » وعضوية السادات وحسن إبراهيم أشار الشاهد « الدكتور محمد حسين هيكل » إلى مراسيم ١٧ يونيو ١٩٥٠ واستشهد برأى لعلى زكى العرابى . وحقيقة الأمر أن « على زكى العرابى ، نشر رأيه ذاك فى « مجلة القانون والاقتصاد » عدد «سبتمبر ـ ديسمبر ١٩٤٩» فالرأى سابق على مراسم يونيه ١٩٥٠ ولم يكن تعليقا عليها كما حاول البعض أن يوحى بذلك . وموجز الرأى « أنه لا تلازم بين عملية التعيين والانتخابات لعضوية مجلس الشيوخ ولايتحتم أن يكون الانتخاب سابقا على التعيين » وهذا رأى أبداه « على زكى العرابى » وينسحب على أمور إجرائية فى ظل أية حكومة . وقد رأى « العرابى » أيضا « أن الوزارات فى تعاقبها تمثل السلطة التنفيذية ولو تغير أشخاصها ، فإذا استنفدت وزارة حقها فى أمر ما لم يجز لوزارة أخرى أن تلغيه » وهذا الرأى الذى نشره « العرابى » فى أواخر ١٩٤٩ « ينسحب على ما قامت به وزارات حسين سرى وأحمد ماهر وإسماعيل صدقى أكثر من أن ينسحب على ما قامت به حكوم الوفد .

وفى ٥ مارس ١٩٥٦ يوم الرحيل ، كان الزعيم العظيم « مصطفى النحاس » يبكى فى منزل «على زكى العرابى » ذكرى ٥٠ عاما من كفاح الرجال فى سبيل مصر ، وقدم كل رجل فى حدود ما اتيح له من رؤية وعزيمة .

الأسانيد :

١ ـ حسن يوسف . . . القصر ودوره فى السياسة المصرية .
٢ ـ صلاح عيسى . . . محاكمة فؤاد سراج الدين باشا .
٣ ـ ماريوس ديب . . . الوفد وخصومه ترجمة عبد السلام رضوان .
٤ ـ محمد زكى العرابى . . . حديث شخصى ١٨/٨/١٩٨٨ .
٥ ـ د . محمود متولى . . . مصر والحياة الحزبية والنيابية .

على شعراوى



على سطور التاريخ نسير من الوجه البحرى إلى صعيد مصر . من محافظة المنوفية أخصب محافظات وجه بحرى إلى محافظة المنيا أخصب محافظات وجه قبلى ، من قرية (كفر المصيلحة) إلى قرية (المطاهرة) وإن شئت الدقة إلى قرية (بنى محمد شعراوى) إذ إن كلمة (المطاهرة) تطلق على أربع عشرة قرية صغيرة منها (بنى محمد شعراوى) نسبة إلى « حسن أغا شعراوى » وإلى «شعراوى » الجد الكبير .

على سطور التاريخ نسير من « عبد العزيز فهمى » إلى « على شعراوى » أو من ثانى الثلاثة الذين قابلوا المعتمد البريطانى فى تمام الساعة الحادية عشرة من يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ . إلى ثالث الثلاثة « على شعراوى » وإن شئت فبدل المواقع بين الثانى والثالث ويبقى المركز الأول دائما لسعد زغلول العظيم .

لم يكن « سعد زغلول » ألمع رجل قانونى فتلك صفة « عبد العزيز فهمى » ولا أكثرهم مالا ؟ فتلك صفة « على شعراوى » ولا أكثرهم دهاء فتلك صفة « إسماعيل صدقى » ولا أعمقهم ثقافة فتلك صفة « أحمد لطفى السيد » ولا أشدهم مناورة فتلك صفة «على ماهر » ولكن كانت لديه القدرة على القيادة وجعل الآخرين يسيرون خلفه ، كانت لديه الزعامة التى تولدت من شعوره بنبض الشارع ، كان كجهاز (السيسموجراف) الذى ينبىء بحركات الأرض قبل أن يشعر بها الناس ، ووجد فيه الشارع المصرى والحقل المصرى المعبر الحقيقى عن آمالهم فأولوه ثقتهم كزعيم لهم لا ينازعه فى ذلك أحد ، كان كل عضو فى الوفد الأول يتميز بميزة جزئية وإن تكن هامة ، ولكن « سعد زغلول » كان الزعيم وكان القائد .

ميزات شخصية

وقد ثقلت موازين على شعراوى طوال حياته بميزاته الشخصية التى لم يختلف حولها أحد . وقد سجلت الباحثة المصرية الأمريكية « عفاف لطفى السيد » وهى ابنة شقيق « أحمد لطفى السيد» تزوجت فى أمريكا واستقر بها المقام هناك وتعنى بدراسة تاريخ مصر الحديث ، سجلت فى كتابها (تجربة مصر الليبرالية) وهو كتاب لنا على بعض مادته ملاحظات أشرنا إليها فى مقال لنا منذ سنوات . سجلت أن « على شعراوى » كان طاهرا فى سلوكه ومحافظا على تقاليد بيئته التى نشأ فيها ، وقد ظل إلى أن رحل متمسكا بلهجته الصعيدية ، وأشار « محمد السوادى » فى كتابه (أقطاب مصر بين ثورتين) والسوادى من قرية قريبة من قرية على شعراوى ، وأشار إلى أن « على شعراوى » كان رجلا مهيب الطلعة جليل المشية تقيا صالحا . . عرف فيه معاصروه صفات الطهارة والاستقامة من بدء حياته حتى نهايتها ويروون عنه أقاصيص تكاد تلحقه بركب العارفين بالله . .

وفى حديثه عنه ، فى كتابه (هذه حياتى) قال « عبد العزيز فهمى » : (أما على شعراوى فكان من خيرة الوطنيين المخلصين بل من أخلص رجال مصر ، وأكثرهم حبا لوطنه ، وكان جريئا فى الحق ، يقول ما يعتقد ، ويحافظ على كرامته ، ولايمتهنها مهما كانت الظروف . وكان فى الجمعية التشريعية من العاملين لخدمة البلاد) .

هكذا قال عنه القاضى الفاضل « عبد العزيز فهمى » .

أين كان ؟

بعض الباحثين ومعهم بعض الكتاب يتناولون شخصية « على شعراوى » وكأنه ظهر لأول مرة فى الساعة الحادية عشر من يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ وفى هذا ظلم للرجل وظلم للكتابة التاريخية معا .

ففى ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٦٦ م ، أجريت الانتخابات الأولى لمجلس شورى النواب ، وانعقد المجلس فى القلعة برياسة إسماعيل باشا راغب » وتقول أوراق هذا المجلس إن الأعضاء الذين انتخبوا عن (المنيا وبنى مزار) على الوجه التالى إبراهيم أفندى الشريعى عمدة سمالوط ، حسن أفندى شعراوى عمدة المطاهرة ، وإسماعيل أحمد عمدة بنى أحمد ، وأحمد على عمدة الزاوية وأحمد حبيب عمدة الصف ، وميخائيل اثنايوس عمدة اشرومة .

(والمطاهرة) كما أسلفنا هى القرية الكبرى ـ إذا صح هذا التعبير ـ لعدة قرى صغيرة جدا عنها

(قرية بنى شعراوى) التى منها « على شعراوى » وحسن أفندى شعراوى عمدة المطاهرة والذى ورد اسمه ضمن أعضاء مجلس شورى النواب هو « حسن أغا شعراوى » والد « على شعراوى » .

ولكن مجلس شورى النواب (٧٦ ـ ٧٩) الذى شهد خلع الخديو « إسماعيل باشا » يغيب عنه « حسن شعراوى » . وليس فى أعضاء (المنيا وبنى مزار) أحد من أسرة شعراوى . ويتولى «توفيق» فى ٢٦ يونيه ١٨٧٩ . وفى (الوقائع المصرية) عدد أكتوبر ١٨٨١ إشارة إلى أن شريف باشا أرسل منشورا انتخابيا إلى المحافظات والمديريات بوجوب احترام الإدارة لحرية الانتخابات . ونجد أن أعضاء (المنيا) فى هذا المجلس الجديد على النحو التالى : (محمد سلطان باشا) ، وعلى أفندى شعراوى ، وحسن باشا الشريعى ، ويوسف أفندى عبد الشهيد ، ومحمد أفندى جلال ، ومحمد أفندى مصطفى عميرة) . وفى ٢٦ ديسمبر ١٨٨١ افتتح الخديو توفيق الدورة الأولى من برلمانه الأول والذى يطلق عليه « الدكتور لويس عوض » عبارة « برلمان توفيق ـ عرابى » .

ويظهر أمامنا فى برلمان توفيق ـ عرابى اسمان . . الأول هو « محمد سلطان باشا » والثانى هو «على أفندى شعراوى » وسوف يكون لنا مع « محمد سلطان باشا » و«على أفندى شعراوى » حكاية لأن الأول كانت له حكاية مع الثورة العرابية ، والثانى هو الذى نكتب عنه .

سلطان وشعراوى

على شعراوى هو ابن شقيقة محمد سلطان . ويروى « محمد السوادى » الناقد البرلمانى المعروف لجريدة البلاد . وهو من أبناء إقليم المنيا ومن قرية قريبة إلى قرية المطاهرة ، ويروى فى كتابه (أقطاب مصر بين ثورتين) أن « محمد سلطان » كان فى نشأته جمالا، ويحمل الأحجار التى تقطع من المحاجر فوق جمله أو فوق جماله لقاء أجر معين واستطاع أن يصبح شيخا للبلد ، ثم عمدة لها واتصل باسرة « الشريعى » المعروفة فى المنيا ، فأخذ الشريعى باشا بيده إلى المناصب الرفيعة بسبب كفاءته وذكائه رغم أنه يجهل القراءة والكتابة .

مهما يكن من أمر فإن « محمد سلطان » هذا هو أخيرا « محمد سلطان باشا » رئيس المجلس النيابى فى عهد الخديو توفيق . وهو الخصم اللدود للعرابيين وللثورة العرابية والذى أثرى بسبب هذه الخصومة .

المهم أن « حسن شعراوى » وهو فلاح ثرى ذكى تزوج شقيقة لمحمد سلطان ، وأنجب منها «على شعراوى » الذى شب معتمدا على ثروة أبيه وعلى سلطان خاله « محمد سلطان » الذى كان يصعد بخطى نحو المناصب ونحو الثروة معا .

على شعراوى إذن هو ابن « حسن أغا شعراوى » عمدة المطاهرة ، وابن « آمنة » أو « يامنة »

بلغة المنيا ، شقيقة « محمد سلطان باشا » وتزوج « على » فى فترة باكرة وأنجب ولده الأكبر حسن «حسن باشا شعراوى » فيما بعد . وكان الخديو « توفيق » قد أهدى لصديقه المخلص « محمد سلطان » جارية بيضاء أنجب منها « عمر » الذى أصبح فيما بعد « عمر سلطان باشا » وأنجب منها أيضا « هدى محمد سلطان» .

وتقدم « على بك شعراوى » ليتزوج الفتاة المثقفة نزيلة القاهرة ، والتى أصبحت فيما بعد الزعيمة النسائية المعروفة « هدى شعراوى » وقيل إن الزواج لم يكن على رغبتها على أية حال فقد مات أبوها وترك لها هى وشقيقها « عمر » أثنى عشر ألف فدان فى أرض خصبة ، ووضع « على شعراوى ثروته أيضا ـ رغم حرصه الذى عرف به ـ تحت تصرفها ومضت فى نشاطها الاجتماعى المعروف واتخذت لها هى الأخرى فيما بعد نشاطا ملحوظا فى الحركة النسائية وأرسلت « هدى شعراوى » على حسابها الخاص وكجزء من نشاطها الاجتماعى أرسلت « أحمد الصاوى محمد » إلى السربون فى باريس ليتعلم ويصبح فيما بعد الكاتب الصحفى الكبير صاحب (ماقل ودل) .

الطريق إلى الجهاد

وفى النصف الثانى من العقد الأول للقرن العشرين نلمح نشاطا متوازيا لهدى شعراوى ولعلى شعراوى فهل كان زواج «هدى» بـ «شعراوى » هو الدافع لها للتفرغ للأعمال العامة والنشاط الاجتماعى الذى امتد بعد ذلك إلى نشاط سياسى فى ثورة ١٩١٩؟أم أن شخصية هدى شعراوى الثائرة النشطة انعكست على زوجها ؟ على أية حال نلمس نشاطا مبكرا لهدى شعراوى فى المجال الاجتماعى سنة ١٩٠٧ بأن دعت نساء مصر لجمع تبرعات لإنشاء جمعية لرعاية الطفل واقتنع الناس بالفكرة وتم جمع التبرعات لكن الحكومة تدخلت فتوقف المشروع فى مهده . وفى سنة ١٩٠٨ دعت هدى شعراوى الكاتبة الفرنسية . . «مارجريت كليمان » لإلقاء محاضرة ثقافية على السيدات فى قاعة من قاعات الجامعة ونجحت المحاضرة نجاحا عظيما مما شجع « الأمير أحمد فؤاد» ـ الملك فؤاد فيما بعد ـ على تخصيص قاعة للسيدات فى يوم الجمعة من كل أسبوع . وبعدها نشأت فكرة (مبرة محمد على) التى بدأت كجمعية خيرية لتعليم الفتيات الحياكة ومستوصف لرعاية الأطفال صحيا . وكان لهدى شعراوى دور ملحوظ فى ذلك .

على الجانب الآخر من الأسرة . نرى الزوج « على شعراوى » من بين مؤسسى الجريدة التى أنشأها صديقه « أحمد لطفى السيد» فى ٩ مارس ١٩٠٧ والتى توقفت فى ٣٠ يوليو ١٩١٥ . ونجد اسم « على شعراوى » إلى جانب اسم شقيق زوجته وابن خاله «عمر سلطان » وإلى جانب زميله فيما بعد يوم ١٣ نوفمبر وأعنى به « عبد العزيز فهمى » ونحن لا نعرف على وجه الدقة دور

«على شعراوى » بعد ذلك فى (حزب الأمة » الذى شكلته فى ٢١ سبتمبر ١٩٠٧ مجموعة الجريدة أيضا اذ لم يكن له دور ملحوظ فهذه هى طبيعة الرجل البعيدة عن النشاط والمثابرة ومواصلة العمل السياسى بمتاعبه المعروفة .

الاعتـدال

وإلى جانب التقوى والصلاح كانت هناك سمة أخرى اتصف بها « على شعراوى » هى الاعتدال . ولعل هذه الصفة هى التى دفعته للمشاركة فى (الجريدة) والتى قدمها رئيس تحريرها « أحمد لطفى السيد » بعبارات واضحة . محددة « ما الجريدة الا صحيفة مصرية شعارها الاعتدال الصريح . وربما يكون (الاعتدال) ايضا هو الذى جمع فى صداقة قوية بين على شعراوى وعبد العزيز فهمى وأحمد لطفى السيد الذى كان فى فترة ما من حياته رئيسا لنيابة المنيا (مديرية على شعراوى) .

وفى كتاب (هذه حياتى) يحكى لنا « عبد العزيز فهمى » رواية طريفة كانت سببا فى أن يكره «أحمد لطفى » العمل بالمحاماة ويعمل بالسياسة . . والرواية موجزها أن « على شعراوى » ، ذهب يوما إلى مكتب المحاماة بالعتبة الخضراء والذى يعمل به « عبد العزيز فهمى وعزيز منسى وأحمد لطفى السيد ، ذهب ومعه رجل هرم اسمه « عم عزام » كان بعض الناس قد زوروا عليه سندا بمبلغ كبير ، وقد حكم عليه ابتدائيا واستئنافيا ولم يعد هناك وجه قانونى للالتماس ، ولكن « شعراوى » يعلن أن الحكم ظالم وأن « عم عزام » مظلوم فقد ألح على « لطفى » أن يقدم هذا الالتماس . ورفضت المحكمة الالتماس فما كان من « عم عزام » الا أن عسكر فى مكتب المحاماة على أمل أن يقوم « لطفى» بعمل أى شىء لتبرئته . . ومن وقتها هرب « أحمد لطفى السيد » من المحاماة واشتغل بالسياسة ، وسارت حياته كما نعرف . وبعد أن تم إدماج مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية فى (الجمعية التشريعية) فى ظل حكم الخديو عباس حلمى الثانى ، جرت انتخابات الجمعية التشريعية سنة ١٩١٣ وكان الأعضاء عن المنيا هم : المصرى السعدى بك ، حسنين الشريعى بك ، زايد جلال بك ، وعلى شعراوى باشا .

وقد حصل « على شعراوى » على لقب باشا بفضل خاله ووالد زوجته « محمد سلطان باشا » وبفضل ثروة الأسرتين . ويلاحظ أن أسرة سلطان وأسرة شعراوى بفضل الدور الذى قام به « محمد سلطان باشا » ضد الثورة العرابية ولصالح الخديو توفيق لم يصب هاتين الأسرتين أى أذى بعد انكسار الثورة العرابية . ومن بين مئات الذين قبض عليهم وقدموا للمحاكمة كان هناك ٨٠ شخصا من العمد وأعيان الأرياف ليس من بينهم أحد من أسرة سلطان أو أسرة شعراوى على خلاف أسرة الشريعى التى نالها بعض الأذى .

تكون الوفد فى بداية الأمر من : سعد زغلول ، وعلى شعراوى ، وعبد العزيز فهمى ، ومحمد على علوبة ، وعبد اللطيف المكباتى ، ومحمد محمود ، وأحمد لطفى السيد .

وذهب الثلاثة الأول على نحو ماهو معروف فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨ بعد يومين من إعلان الهدنة إلى المعتمد البريطانى « ونجت» إما لماذا اختير وفد (المقابلة) على هذا النحو فالروايات تختلف . . سعد زغلول ليس حوله خلاف فهو وكيل الجمعية التشريعية التى أوقف الانجليز أعمالها بعد إعلان الحماية سنة ١٩١٤ ، وهو الذى كان يدعو القادة الآخرين للاجتماع عنده سرا فى عزبته بمسجد وصيف . . إلخ . . ويقول « عبد العزيز فهمى » تفسيرا للاختيار إنهم حرصوا على من كان عضوا بالجمعية التشريعية . . وكان سعد وكيلا للجمعية وعبد العزيز وشعراوى عضوين ، وقيل ان « سعدا » حرص على اختيار « عبد العزيز » ممثلا للوجه البحرى ، وعلى اختيار «شعراوى» ممثلا للوجه القبلى وأيا كان التفسير الصحيح فإن « على شعراوى » قام بدور هام فى الدعاية للوفد ، والدعاية لجمع التوكيلات للوفد ، والدعوة لمقاطعة لجنة ملنر فى الصعيد عامة وفى إقليم المنيا خاصة لما تتمتع به الأسرة من جاه وسلطان . وشهدت مديرية المنيا أثناء ثورة ١٩١٩ أحداث عنف هامة ضد قوات الاحتلال الانجليزى .

الثورة والانقسام

ويرى البعض أن « على شعراوى » قد نال شهرته ودخل اسمه تاريخ مصر الحديثة إلى جانب «سعد زغلول ، وعبد العزيز فهمى » ، بفضل المشوار الذى صاحبهما فيه إلى المعتمد البريطانى . ولكنه كما قلنا أدى دورا هاما للوفد وللثورة فى الصعيد وعندما اشتد الصراع بعد ذلك بين سعد وعدلى وانقسم الوفد إلى متشددين ومعتدلين انحاز « على شعراوى » حسب طبيعته إلى فريق المعتدلين ، وكما كان لعلى شعراوى دوره فى حدود طبيعته وطاقته فى الثورة ، كان لزوجته وابنة خاله « هدى شعراوى » دورها أيضا وقد سجل هذا الدور الكتاب الأجانب و« عبد الرحمن فهمى» فى مذكراته وتولت « هدى بمساعدة زوجات الوفديين (لجنة الوفد المركزية للسيدات) . شاركت فى كل المواقف السياسية . وخرجت تظاهرات النساء ضد قوات الاحتلال . وكما خرج زوجها على « سعد » خرجت هى أيضا سنة ١٩٢٢ وتركت (لجنة الوفد المركزية للسيدات) وكونت فى ١٦ مارس سنة ١٩٢٣ (الاتحاد النسائى المصرى) وتولت « السيدة شريفة رياض » رئاسة لجنة الوفد للسيدات . وكان « على شعراوى » بعد انسحابه من تيار سعد إلى تيار الاعتدال انسحب من العمل السياسى كله ولجأ إلى مزرعته المريحة واستمرت زوجته « هدى » فى العمل الاجتماعى وإن تركت السياسة لأهل السياسة .

آثر الرجل السكينة والهدوء والراحة دون أن يدخل فى جدل أو فى صخب مع هذا التيار أو ذاك، ولا مع هذا السياسى أو ذاك ، وترك ولدين الأول « حسن شعراوى » من زوجته الأولى ، والثانى « محمد شعراوى » من زوجته الثانية « هدى » وارتبط «محمد شعراوى » بالوفد حتى أصبح عضوا بمجلس الشيوخ ثم انعزل عن العمل السياسى وانصرف إلى شئونه الخاصة التى أغرقته بمشاكلها .

وهذه هى سيرة رجل من مصر بكل مافيها من تقدم وتراجع ، ومن إيجابيات وسلبيات . . ومنذ متى كانت الحياة تسير فى خط مستقيم ؟!

الأسانيد :

١ ـ آمال السبكى . . . الحركة النسائية فى مصر .

٢ ـ د . عفاف لطفى السيد . . تجربة مصر الليبرالية (ترجمة عبد الحميد سليم)

٣ ـ عبد العزيز فهمى . . . هذه حياتى

٤ ـ د . لويس عوض . . تاريخ الفكر المصرى الحديث .

٥ ـ محمد السوادى . . أقطاب مصر بين ثورتين .

على ماهر



يوم الخميس ٢٤ يوليو ١٩٥٢ ، فى اليوم التالى لاستيلاء الضباط الأحرار على السلطة . صدر الأمر الملكى رقم ٥٩ لسنة١٩٥٢ إلى « صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا » بتأليف هيئة الوزارة .

وفى اليوم نفسه رد « على ماهر » بقبول تشكيل الوزارة واحتفظ لنفسه ـ كعادته ـ بعدد من الوزارات الهامة كالحربية والداخلية والخارجية .

كانت تلك هى الوزارة الرابعة التى يرأسها « على ماهر » وكلها كانت تجىء فى ظروف انقلابية ، ويطرب هو عندما يقال عنه «رجل الساعة » وزارته الأولى (٣٠ يناير ١٩٣٦ ـ ٩ مايو ١٩٣٦) كانت على أنقاض وزارة توفيق نسيم (١٤ نوفمبر ١٩٣٤ ـ ٣٠ يناير ١٩٣٦) التى أيدها الوفد وتآمر عليها « على ماهر » رئيس الديوان الملكى وقت ذاك ، والذى اضطر أمام الأحوال الدولية والغزو الإيطالى للحبشة ، وتكوين « الجبهة الوطنية » والتمهيد لمفاوضات مع انجلترا ونذر حرب عالمية ، اضطر بذكائه الخارق إلى أن يجرى انتخابات حرة ينال فيها الوفد الأغلبية الساحقة ويشكل « مصطفى النحاس » وزارته الثالثة فى ٩ مايو ١٩٣٦ ـ وكان الملك فؤاد قد رحل فى ٢٨ أبريل ٣٦ وشكلت هيئة وصاية .

أما وزارة « على ماهر الثانية » التى شكلها فى ١٨ أغسطس ١٩٣٩ ، فتشير الوثائق البريطانية إلى أن على ماهر قد وجه مناوراته ضد وزارة محمد محمود الرابعة (٢٤ يونيه ـ ١٨ أغسطس ١٩٣٩)، ساعده فى ذلك اشتداد الأزمة الصحية على محمد محمود الذى قدم استقالته فعهد الملك إلى « على ماهر » بتشكيل الوزارة وهى وزارته الثانية التى ضمت ٩ وزراء من المستقلين إلى جانب ٥ وزراء من السعديين ، أما الأحرار الدستوريون فقد اعتذروا عن عدم الاشتراك بسبب مناورات «على ماهر » ضد وزارتهم المستقيلة .

مع ارتفاع المدين النازى والفاشى فى أوربا ، وانعكاس هذا على بعض الجماعات والشخصيات داخل مصر ، ومع اقتراب خطر الزحفين الألمانى والإيطالى على الأراضى المصرية ، استقالت وزارة على ماهر فى ٢٧ يونية ١٩٤٠ .

والوزارة الثالثة فظروفها معروفة ، وهى تلك التى شكلت فى ٢٧ يناير ١٩٥٢ ، اليوم التالى لحريق القاهرة وإقالة حكومة الوفد ـ واستمرت وزارة على ماهر إلى أول مارس ١٩٥٢ بعد أن جاءت فى ظروف انقلابية مثل وزارته الأولى والثانية .

ولقد بدأنا حديثنا عن « على ماهر » بوزارته الرابعة التى جاءت هى الأخرى فى ظروف انقلابية واستمرت تلك الوزارة من (٢٤ يوليو ـ ٧ سبتمبر ١٩٥٢) .

أما كيف جاء إلى الحكم عقب استيلاء الجيش على السلطة فسوف نعرض له بعد أن نتحدث عن الوزارات التى اشترك فيها «على ماهر » وسوف نلاحظ أنه دخل هذه الوزارات عقب مناورات ضد الوزارات المستقيلة السابقة عليها ، وأنه أيضا كان يمارس المناورات فى الوزارات التى يشارك فيها .

وزارات الإقلية السياسية

فى الوزارة الثانية لأحمد زيور من (١٣ مارس ١٩٢٥ ـ ٧ يونية ١٩٢٦) تولى « على ماهر » وزارة المعارف ، ومن داخل هذه الوزارة تولى وزارة الحقانية بالنيابة لفترة محدودة .

ومعروف أن « أحمد زيور » هو الذى خلف وزارة الشعب ، وزارة سعد زغلول ، وحل مجلس النواب .

ثم شارك « على ماهر » فى وزارة « محمد محمود » الأولى التى شكلت من (٢٥ يونية ١٩٢٨ ـ ٢ أكتوبر ١٩٢٩) شارك فيها كوزير للمالية ومن داخل الوزارة تولى الحقانية والخارجية بالنيابة وهذه الوزارة هى المعروفة بوزارة اليد الحديدية .

وعاد وزيراً للمعارف فى وزارة إسماعيل صدقى الأولى فى (١٩ يونية ١٩٣٠ ـ ٤ يناير ١٩٣٣) وأدرك « على ماهر » بذكائه أن الاتجاه ليس فى صالح وزارة صدقى باشا فاستقال ورفض دخول الوزارة عند إعادة تشكيلها فى (٤ يناير ـ ٢٧ سبتمبر ١٩٣٣) احتجاجا على حوادث التعذيب ! فى حين أنه اشترك مع زيور باشا الذى كان قد حل مجلس النواب لأن أغلبيته للوفد ، وأجرى انتخابات جديدة أصر فيها الشعب على انتخاب الوفد فقام « زيور » فى وزارته الثانية بحل المجلس الجديد أيضا ونراه قد شارك فى وزارة « محمد محمود » الأولى (٢٥ يونية ١٩٢٨ ـ ٢ أكتوبر

١٩٢٩) وهى وزارة جاءت فى أعقاب إقالة وزارة « مصطفى النحاس » الأولى ويقول « د . عبد العظيم رمضان »إن « على ماهر باشا » كان مستشارا للملك أحمد فؤاد ، ورجله فى حزب الاتحاد وكان صاحب الفتوى فى إقالة النحاس باشا فى يونية ١٩٢٨ وهى أول إقالة فى تاريخ الحكم النيابى فى مصر وكان «محمد محمود » وزيرا للمالية فى وزارة النحاس وقدم استقالته تمهيدا لنجاح المؤامرة ليتولى هو رئاسة الوزارة ويجىء بعلى ماهر وزيرا للمالية .

ومن هنا فإن استقالة « على ماهر » من وزارة صدقى باشا بسبب ما ارتكبه من حوادث تعذيب، واعتذاره عن الوزارة الصدقية المعدلة فى ٤ يناير ١٩٣٠ احتجاجا على ما ارتكبه رجال الإدارة فى حق الأهالى ليس هو السبب الصحيح عند « على ماهر » ولكنه أدرك بحسه السياسى أن « إسماعيل صدقى » ذاهب لا محالة ، وأن وزارته لن يكتب لها عمر جديد بسبب تزايد الكراهية ضدها فأراد أن يحتفظ لنفسه برصيد سياسى يفيده فى مقبل الأيام .

ونعود إلى يوم الخميس ٢٤ يوليو ١٩٥٢ عندما استولى الجيش على السلطة وجاء « على ماهر » رئيسا للوزراء .

لماذا على ماهر ؟

ومنذ ذلك اليوم لم يزل السؤال قائما . . لماذا على ماهر ؟ مستشار الملك فؤاد ورجله الأول فى حزب الاتحاد . . والراعى الأول أو الثانى للملك فاروق فى شبابه . . رئيس الديوان الملكى مرتين . . رئيس الوزراء والوزير السابق فى ظروف انقلابية . . عدو الوفد التقليدى منذ أن قدم استقالته فى ١٨ مارس ١٩٢٢ وانضم للأحرار الدستوريين ثم حزب الاتحاد حزب الملك فؤاد .

بعد يومين فقط من تولى على ماهر لرئاسة الديوان الملكى فى الفترة الأولى (أول يوليو ١٩٣٥) وبعد اتصالات مكثفة بأحزاب الأقلية السياسية المعادية للوفد واتصالات بالجماعات السياسية التى ترغب فى التنسيق مع على ماهر وإن اختلفت الأسباب . . طافت التظاهرات بالقاهرة تهتف للملك الصالح ! ووقفت أحزاب الأقلية السياسية تؤيد ما أسموه (الحق الدستورى) للملك وذلك فى مواجهة اعتراض الوفد على قيام القصر بتعيين بعض المسئولين دون الرجوع للوزارة .

ويقدم « اللواء محمد نجيب » تفسيرا معقولا لاختيار على ماهر رئيسا للوزارة . . (كان اتفاقنا السريع على اختيار على ماهر مبنيا على أساس أن علاقته الوثيقة بالملك تسهل عمليتنا وأنه غير مرتبط بحزب من الأحزاب مما قد يورط الثورة بعلاقاتها فى الأيام الأولى) .

ويفهم من عبارات اللواء نجيب أن اختيار « على ماهر » تم بالاتفاق السريع غير أن الزميل

الصحفى فى الأخبار « المرحوم سامى جوهر » أورد فى كتابه (الصامتون يتكلمون) على صفحتى ٣٩ و٤٠ رواية للسيد « صالح أبو رقيق » العضو القيادى فى جماعة الإخوان المسلمين . . (كان ذلك قبل الثورة بليلتين حضر جمال عبد الناصر ومعه كمال الدين حسين إلى شقة عبد القادر حلمى وهى فى الطابق الثانى بالمنزل الذى كنت أقيم به فى أول شارع الهرم بالقرب من جامع سيدى نصر الدين . . وأبلغنا اعتزامه القيام بالثورة خلال أيام فطلبنا منه الانتظار لحين استطلاع رأى المرشد فطلب استطلاع رأيه أيضا فى أن يتولى الإخوان الحكم بعد نجاح الثورة . . وقابلنا المرشد فطلب منا إبلاغ جمال عبد الناصر موافقته وتأييده وحمايته للثورة كما طلب ابلاغه أنه ليس من المصلحة أن تظهر للثورة علاقة بالإخوان حتى لايتدخل الانجليز لمقاومتها واقترحت أن يتولى الحكم على ماهر باشا على أساس أنه غير حزبى وكان رئيسا للوزارة وقت وفاة الملك فؤاد واستطاع أن يقود البلاد) .

وهذا التصريح يكشف على أن اسم على ماهر قد طرح من جانب الإخوان المسلمين قبل الثورة بليلتين وربما يكون الاختيار قد بدأ من وحى اللحظة بالنسبة للواء محمد نجيب إلا أنه لم يكن هكذا فى ذهن جمال عبد الناصر ، وكان متفقا عليه بين الإخوان وجمال .

على ماهر والإخوان المسلمون

واقتراح اسم « على ماهر » من جانب الإخوان المسلمين يسوقنا إلى البحث فى علاقة « على ماهر » بالإخوان المسلمين تلك الجماعة التى بدأت نواتها الأولى بمدينة الإسماعيلية فى مارس ١٩٢٨ وانتقلت إلى القاهرة فى أكتوبر ١٩٣٢ .

ونلاحظ أنه فى تلك الفترة ارتفع مد دعاية هتلر وموسولينى فى أوربا وانعكست هذه الدعاية على الشباب المصرى سيما شباب الإخوان المسلمين وشباب مصر الفتاة التى ظهرت فى أكتوبر ١٩٣٣ وكان هناك محوران بارزان يلوذ بهما الشباب وهما . . « الفريق عزيز المصرى » و « على ماهر باشا » ومن الثابت اتصال عزيز المصرى بالمرشد « الشيخ حسن البنا » بما يصل إلى حد التنسيق فى بعض الأعمال وقد جمعت الميول نحو دعوة هتلر وموسولينى ، والعداء للحلفاء ، والعداء للحزبية ، جمعت هذه العناصر بين عزيز المصرى وعلى ماهر ومصر الفتاة والإخوان المسلمين ، وفى عام ١٩٣٩ كانت علاقة الإخوان بعلى ماهر قد توثقت ، وعند عودته من مؤتمر فلسطين فى لندن فقد ذهب وفد من الإخوان إلى المحطة لاستقبال على ماهر .

ويقول الدكتور عبد العظيم رمضان فى كتابه (تطور الحركة الوطنية المصرية (١٩٣٧ ـ ١٩٤٨) إن على ماهر باشا قد اتجه فى ذلك الحين إلى احتضان حركة الإخوان وفى الحق لقد اعتبر الإخوان

المسلمون وزارة على ماهر باشا (أغسطس ٣٩ ـ ٢٧ يونية ١٩٤٠) وزارتهم أو ماهو أشبه بذلك .

ويروى « طارق البشرى » فى كتابه (الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢) على صفحتى ٤٧ ، ٤٨ (إن الجماعة اختارت لظهورها السياسى السافر عام ١٩٣٨ إذ كانت معاهدة ١٩٣٦ قد أبرمت وهزت شعبية الوفد الذى شارك فى إبرامها وأرادت الرجعية المحلية أن يخلو لها وجه الحياة السياسية من دون الوفد ، كما رأت السراى الاقتراب من أى تنظيم جماهيرى « جاهز » تمكن له من القوة لقاء استخدامها إياه وفى هذا الوقت كانت ألمانيا وإيطاليا تزدادن نفوذا وكانت سحب الحرب العالمية تتجمع . . وكان « على ماهر » رئيس الديوان الملكى وقتها وصاحب النفوذ الأكبر على الشباب هو مصمم هذه السياسة ومحركها لمصلحة السراى كمؤسسة سياسية ولمصلحة طموحه الشخصى) .

ومهما يكن من أمر فإننا نميل إلى أن اختيار على ماهر رئيسا للوزارة فى اليوم التالى لحركة الجيش كان بموافقة الإخوان وموافقة جمال عبد الناصر اذ لم يعرف عن على ماهر أى خلاف سابق له مع الإخوان المسلمين على غير ما كان الوضع مع (مصر الفتاة) التى انتابت العلاقات بينهما بعض فترات الفتور أو ما يشبه التباعد .

على ماهر ومصر الفتاة

لم تعرف السياسة المصرية جماعة تقلبت مواقفها إزاء المؤسسات والقوى السياسة الأخرى مثل جماعة (مصر الفتاة) التى أعلنت من خلال نشاط الشباب فى مشروع القرش فى أكتوبر ١٩٣٣ .

وقد بدأت العلاقة طيبة بين « على ماهر » ومصر الفتاة يجتمع الفريقان فى الإعجاب بالقوة السياسية الجديدة فى ألمانيا وإيطاليا ، وفى محاولة ضرب شعبية الوفد وفى الفترة التى تلت وفاة الملك فؤاد واستقالة على ماهر ومجىء الوفد إلى الحكم (٩ مايو ١٩٣٦) توثقت العلاقات بين مصر الفتاة وعلى ماهر ولكل فريق هدفه الخاص .

كتب أحمد حسين فى أول يوليو ١٩٣٩ . . (خرج على ماهر من الوزارة وجاء الوفد . . ومنذ اليوم الأول الذى بارح فيه الوزارة شرع يعد الخطط ويحكم التدابير للعودة إلى الحكم . . ونحن نرى هذه المحاولة من ناحية متفقة مع برنامجنا . . هو يريد ذلك لأجل أن يقفز إلى كرسى الوزارة ونحن نريده لنحرر الأمة من ربقة الاستعباد لهذا الصنم المعبود بالباطل) .

وبعد إقالة حكومة الوفد فى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ جاء « محمد محمود » فى وزارته الثانية وكان «على ماهر » رئيسا للديوان الملكى مسبغا رعاية كبيرة على « أحمد حسين ومصر الفتاة » وظهر نفوذ (القمصان الخضر) واتفقت رغبة الطرفين فى هدم الوفد وإضعاف الأحزاب الأخرى أيضا .

وقد أورد الدكتور عبد العظيم رمضان عبارات واضحة صريحة لأحمد حسين عن مستوى ذلك التعاون . . (على ماهر آخر هذه الأسماء الطنانة ، وهو الذى لم يفتر عن تأييدنا تأييدا كاملا طوال ست سنوات . . يمدنا بالمال ويفتح لنا بابه حيث كان فى الليل والنهار وفى أى وظيفة كان فيه) .

وحدث تقلب فى العلاقة بين على ماهر ومصر الفتاة بعد تعيين « محمد كامل البندارى باشا » وكيلا للديوان الملكى ، وكان البندارى يعطف على مبادئ مصر الفتاة وكان على صلة وثيقة بالقصر مما أوغر صدر على ماهر وحدث مايشبه الخلاف بين على ماهر والبندارى وبين على ماهر ومصر الفتاة .

وفى أثناء الحرب عاد التقارب بين على ماهر ومصر الفتاة وسارت الأمور بعد ذلك فى تقدم وتراجع حسب مصلحة كل طرف .

رئيسا للديوان الملكى

فى أول يوليو ١٩٣٥ تولى « على ماهر » منصب رئاسة الديوان الملكى للمرة الأولى ، ولم يترك المنصب إلا وقد استقالت وزارة «توفيق نسيم » فى ٣٠ يناير ١٩٣٦ التى كان الوفد يؤيدها ليصبح « على ماهر رئيسا للوزراء لأول مرة فى ٣٠ يناير ١٩٣٦ .

وخلال فترة رئاسته للديوان كان يحاول تحسين صورة القصر والعمل لحسابه الخاص ـ أى لحساب على ماهر . ووجدها فرصة ليحسن موقفه هو مع الانجليز بحكم دوره كهمزة الوصل بين القصر والانجليز . وعمل لصالح نفسه أيضا فى علاقاته مع الأحزاب الأخرى وظهر بمظهر «المحايد » فى السياسة المصرية وساعده هذا على أن يتولى رئاسة الوزارة للمرة الأولى كما أشرنا فى ٣٠ يناير ١٩٣٦ ويجرى الانتخابات التى فاز فيها الوفد بالأغلبية ، وفى ٢٨ أبريل توفى الملك فؤاد فكان لعلى ماهر دور كبير فى تشكيل هيئة الوصاية وكانت برئاسة « الأمير محمد على » المعروف باتجاهاته التى لاتتفق مع اتجاهات الوفد .

وفى ٩ مايو ١٩٣٦ تولى النحاس باشا الحكم وساءت العلاقات بين الوفد والقصر بفعل على ماهر أيضا ، واستقالت الوزارة فى ٣١ يوليو ١٩٣٧ بعد تولى « فاروق » سلطاته الدستورية ، وكانت الظروف تقضى بأن يعهد إلى النحاس باشا تشكيل وزارته الرابعة (أول أغسطس ١٩٣٧ ـ ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧) ولمواجهة الوفد عين « الملك فاروق » على ماهر رئيسا للديوان الملكى لمرة ثانية ، فى ٢٠ أكتوبر ١٩٣٧ وتفاقم الخلاف بين الوفد من جهة وبين الملك وعلى ماهر من جهة أخرى وانتهى الموقف بإقالة وزارة الوفد فى٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ وظل على ماهر رئيسا للديوان الملكى ليخرج منه رئيسا للوزراء للمرة الثانية فى ١٨ أغسطس سنة ١٩٣٩ حتى ٢٧ يونية ١٩٤٠ .

فى سـطور

ولد على ماهر فى ٩ نوفمبر سنة ١٨٨١ بمدينة القاهرة ونال شهادة البكالوريا (الثانوية العامة) سنة ١٨٩٨ من المدرسة الخديوية ، وحصل على ليسانس الحقوق سنة ١٩٠٣ عمل بالمحاماة ثم عين قاضيا سنة ١٩٠٧ ، فمعيدا بمدرسة الحقوق ١٩٢٣ ومنح (الدكتوراه الفخرية فى القانون) سنة ١٩٢٨ ، كان وزيرا عدة مرات أولاها فى ١٩٢٥ وتولى رياسة الوزارة أربع مرات أولاها فى ٣٠ يناير سنة ١٩٣٦ تزوج سنة ١٩٢٤ وفى ١٣ يناير ١٩٥٣ عين عضواً ثم رئيسا للجنة مشروع الدستور الذى انتهى إعداده ولم يعمل به ، توفى فى أغسطس ١٩٦٠ .

من بعيـــد

والآن . . كيف نراه بعد أن رحل ؟ كيف نرى الشخصية الفريدة المتميزة إذا نظرنا إليها من بعيد ؟ كيف فعل مافعل ؟ وكيف وصل إلى ما وصل إليه ؟ هل هو القدر ؟ هل هو الذكاء ؟ هل هو الرد على التحدى ؟ هل هو الدهاء ؟ القدر . . ربما . . وإلا فكيف نفسر أن يكون على رأس الوزارة ويتوفى الملك فؤاد فى أبريل ١٩٣٦ قبل أن يسلم الحكم لزعيم الأغلبية ويقدر له أن يكون له دور فى تكوين هيئة الوصاية على العرش وفى إعلان فاروق ملكا . . وكيف نفسر أن يتولى رئاسة الوزارة فى ٢٤ يوليو ١٩٥٢ . . ويقدر له أن يكون له دور فى تنازل فاروق عن العرش وفى إعلان هيئة وصاية على العرش .

الذكاء . . ربما . . الممزوج بالمصلحة الشخصية . . ربما وإلا فكيف نفسر أنه كان فى شبابه يميل إلى مبادئ الحزب الوطنى ولكنه لاينضم إليه ويسعى إلى أن يتزعم سعد الحركة الوطنية . ويقرر الوفد المصرى ضم على ماهر فى ٧ نوفمبر ١٩١٩ ويقترب من سعد وفى ظروف حرجة يؤيد تصريح ٢٨ فبراير ويستقيل من الوفد فى ١٨ مارس سنة ١٩٢٢ وإلا فكيف نفسر أنه فى حكومته سنة ١٩٣٦ يدرك تطورات الموقف الداخلى إدراكا ذكيا فهناك الجبهة الوطنية وهناك مفاوضات مقبلة مع الانجليز لتوقيع معاهدة ولا مندوحة من حكومة وفدية تجرى هذه المفاوضات فيشرف «على ماهر» على انتخابات حرة تأتى بأغلبية وفدية وذلك فى ذكاء منقطع النظير فى اختيار طريق لامفر منه وإن كان على غير رغبته الحقيقية .

الدهاء . . ربما . . الفكر . . ربما فى مواجهة التحديات . . والقدرة على التقدم والتراجع . . ربما . . دخل حزب الاتحاد سنة ١٩٢٥ ، حزب الملك فؤاد فرضى عنه الملك بعد أن كان غاضبا عليه لاقترابه السابق من سعد زغلول واستقال بعد ذلك من الحزب بعد أن أضحى الحزب مكروها تماما من الجماهير .

جهوده كلها كانت لمصلحته الخاصة ، اقترب أو قرب إليه مصر الفتاة والإخوان المسلمين والحزب الوطنى ولكن بالقدر الذى يفيده هو . . كان رجلا واحدا ولكنه عمل داخل السياسة المصرية كمؤسسة كاملة ، حركة ودعاية وترقبا ومكرا ودهاء . . كل خطوة محسوبة لمصلحته الخاصة . . قال عنه سعد العظيم : « على ماهر لا يوافق على شىء فى صراحة ، مسالم ومساوم ويحب إمساك العصا من الوسط » .

الأسـانيد :

١ ـ رشوان محمود جاب الله « على ماهر » .

٢ ـ سامى جوهر « الصامتون يتكلمون » .

٣ ـ د . عبد العظيم رمضان « تطور الحركة الوطنية فى مصر ١٩٣٧ ـ ١٩٤٨ » .

٤ ـ على شلبى « مصر الفتاة ودورها فى السياسة المصرية » .

٥ ـ د . يونان لبيب رزق « تاريخ الوزارات المصرية » .

الدكتور على مصطفى مشرفة



شائعة . . تجاوز عمرها ثمانية وثلاثين عاما . . سرت صباح يوم الاثنين السادس عشر من يناير عام ١٩٥٠ ، بعد أن ارتشف الدكتور « على مصطفى مشرفة » ما شاء الله له ان يرتشف من شاى الصباح وصعدت روحه إلى بارئها وأقبل على بيته زملاؤه وتلاميذه من الجامعة ، وأقبل أعضاء من مجلس النواب وقرروا أن يكون تشييع الجثمان يوم الثلاثاء السابع عشر من يناير . . وسرى همس بأنه قتل ، وأن الجالس على العرش هو قاتله . . ولكن لماذا ؟ قال الهامسون . . إن الدكتور على مصطفى مشرفة كان يرأس مجموعة سرية من تلاميذه وأصدقائه ، وهدفها إعلان الجمهورية بدلا من النظام الملكى ، وقال الناس وهم يستغربون الشائعة . . لم لا ؟ إن الملك «فاروق» لم يرسل مندوبا عنه فى تشييع الجنازة ! والدكتور مشرفة هو من هو وها هى الجامعة أساتذة وطلابا تشيع فقيدها العظيم ، وها هم أعضاء مجلس النواب الوفدى يتوافدون على الجنازة، وهاهم كبار القوم وراء الجثمان . . جثمان عميد كلية العلوم بجامعة فؤاد الأول بالقاهرة لمرات أربع ، ولأربعة عشر عاما منذ أن اختاره على زكى العرابى وزير المعارف فى ٢٧ مايو ١٩٣٦ عميدا ، وذلك فى عهد حكومة الوفد « ٩ مايو ١٩٣٦ ـ ٣١ يوليو ١٩٣٧» .

فى عهد عمادته الأولى ، حصل على لقب البكوية بتأثير مصطفى النحاس على السراى ، ومع هذا لم يأبه الدكتور مشرفة بهذا اللقب ولم يكن يعنى به ، ولم يكن يستخدمه فى حياته العامة . وفى ١١ فبراير سنة ١٩٤٦ ، كان من المقرر أن يزور الملك عبد العزيز آل سعود جامعة فؤاد الأول ، وتصادف أن كان على باشا إبراهيم مدير الجامعة مريضا وأصبح الدكتور مشرفة مديرا للجامعة بالانابة وعليه أن يستقبل الملك عبد العزيز آل سعود واضطرت السراى إلى منحه رتبة الباشوية كرئيس « مؤقت » للجامعة ويستقبل عاهل العربية السعودية . وأقبل الأهل والأساتذة والتلاميذ

عليه يهنئونه بالباشوية فاستنكر منهم ذلك معتزا بالدكتوراه لرجل العلم . ومن المحتمل جدا أن تكون أجهزة الرصد قد أبلغت كل ذلك فى حينه ، فزادت من شكوك القصر حول الدكتور مشرفة وحول اتجاهاته .

وكان مشرفة منتخبا وكيلا للجامعة لمدة ثلاث سنوات تنتهى فى ٢ ديسمبر من عام ١٩٤٨ ، وفوجئ بأن وزارة محمود فهمى النقراشى الثانية (٩ ديسمبر ١٩٤٦ ـ ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨) أصدرت قانونا بأن يكون اختيار وكيل الجامعة بالتعيين ، وفى يونيو ١٩٤٨ صدر قرار بإعفاء مشرفة من وكالة الجامعة وتعيين وكيل جديد لها .

وكان من المتوقع عندما يخلو منصب مدير الجامعة أن يكون من نصيب الدكتور مشرفة ، فهو أقدم العمداء ، وشغل منصب وكيل الجامعة لفترة ، بل إنه شغل منصب مدير الجامعة بالإنابة لفترة أخرى . ولكن الدكتور مشرفة لم يذهب للشكر عندما منح رتبة الباشوية فى ١١ فبراير ١٩٤٦ ، وفوجئ فى ٢ ديسمبر سنة ١٩٤٧ بتعين الدكتور إبراهيم شوقى مديرا للجامعة وهو أحدث منه فى العمادة وفى الأستاذية . . وكان القصر وراء هذا القرار .

ولم يكن مشرفة ولا الذين يحيطون به غافلين عن موقف القصر الذى يقف له بالمرصاد . وحدث أن الحكومة الأمريكية اختارت الدكتور مشرفة عضوا فى اللجنة الدولية للبحوث الذرية وعلى هذا دعته جامعة برينستون أستاذا زائرا لإلقاء سلسلة من المحاضرات إلى جانب عدد من مشاهير أساتذة علوم الرياضة والطبيعة فى العالم وفى مقدمتهم اينشتين وفى ٣٠ مارس سنة ١٩٤٧ وافق مجلس الوزراء على سفر الدكتور مشرفة إلى لندن على أن تتحمل الحكومة المصرية نفقات السفر إلى لندن ، وأن يسافر إلى سويسرا على أن يتحمل هو نفقات السفر إلى سويسرا ، ثم يسافر إلى أمريكا على نفقة الحكومة الأمريكية . وفى ٢ أبريل أبلغه الدكتور عبد السلام الكردانى سكرتير عام الجامعة أن مولانا ألغى قرار مجلس الوزراء بندبه أستاذا زائرا لجامعة برينستون . ولكن مشرفة سافر إلى انجلترا وإلى سويسرا وأرسل إلى أهله يطلب مالا فحالت دون إرساله عقبات كثيرة ، فعاد من سويسرا دون أن يسافر إلى أمريكا وخسرت مصر فرصة مهمة فى أن يمثلها أستاذ إلى جانب أساتذة العالم .

كانت مواقف القصر من الدكتور مشرفة معروفة ، وهى كلها تدل على أن القصر كان يضع الدكتور فى خانة الأعداء الذين يتعقبهم ، كما كانت استهانة الدكتور بالجالس على العرش معروفة لدى تلاميذه وأصدقائه ولكن ما مدى صحة تكوين مجموعة سرية تعمل على إعلان الجمهورية ؟ فى حين أنه لم يعرف عن مشرفة أنه منضم إلى حزب من الأحزاب ؟ على الرغم من صداقته لعدد من السياسيين فى مقدمتهم مصطفى النحاس ومكرم عبيد ، وأحمد ماهر وأحمد لطفى السيد .

الشائعة . . لم تزل تحوم فوق الرءوس . . والأمر مطروح لكل من لديه معلومة تضىء الطريق . . ولا نريد أن نغلق هذه النقطة دون أن نشير إلى أنه فى ١٥ أغسطس ١٩٥٢ وجدت جثة الدكتورة سميرة موسى « تلميذة الدكتور مشرفة » داخل سيارتها ولم تزل الشكوك القوية تحوم حول أصابع الصهيونية ، فهل يمكن توجيه الاتهام إلى الصهيونية باغتيال أستاذ جيل مصرى من العلماء « جمال الفندى وأحمد حماد وعبد المعبود الجبيلى وعبد العظيم أنيس » ؟ ولم لا ، سيما أن نفوذ اليهود فى مصر كان واضحا ؟ فلماذا لا تكون هذه العناصر فى مصر قد استغلت ما هو معروف عن كراهية القصر للدكتور على مصطفى مشرفة وأجهزت على حياته وهو فى الثانية والخمسين من عمره . . ؟ « ولد فى دمياط فى ١١ يوليو ١٨٩٨م » . . الأمر كله لم يزل مطروحا ، وصفحات تاريخ مصر الحديث لم تزل مفتوحة ، وإن كانت الأدلة حتى الآن ضعيفة .

مشـروع القرش

حصل مشرفة مع دبلوم مدرسة المعلمين العليا سنة ١٩١٧م وسافر إلى انجلترا فى بعثة للحصول على بكالوريوس الرياضة وقامت الثورة الشعبية الكبرى فى مارس ١٩١٩ ورغب فى العودة من انجلترا للمشاركة فى الثورة ، ولكنه بقى ليحصل على بكالوريوس الرياضة سنة ١٩٢٠ ، وعرف فى انجلترا بنشاطه الوطنى بين المصريين لتأييد الحركة الوطنية فى مصر .

وفى مصر يبدو أنه مال إلى النشاط الاجتماعى دون النشاط السياسى ، فيلتقى بتلاميذه وزملائه وأصدقائه فى بيته يحدثهم عن الحياة الجامعية وكيف تكون . وامتدت علاقاته إلى الطلاب أبناء الدول العربية والأفريقية . عرف بالحيدة والموضوعية والإنسانية فى سلوكه وتعامله مع الناس ، وحب الحرية وانحيازه للديمقراطية وحبه لوطنه إلى أبعد الحدود .

وقد أسهم الدكتور على مصطفى مشرفة بدور مهم فى « مشروع القرش » . وكان أحمد حسين قد لجأ إلى نشر فكرة المشروع فى أواخر عام ١٩٣١ فى أوساط الطلبة بالجامعة والمدارس العليا وعلى صفحات الصحف ، ومع بداية العام الجامعى تولى عميد كلية الطب فى ذلك الوقت الدكتور على إبراهيم باشا ومدير الجامعة فيما بعد ، تولى رئاسة اللجنة التنفيذية للمشروع . وكانت اللجنة قد اتخذت من نادى الجامعة بميدان الأوبرا مقرا لها ، وقد ضمت كلا من الدكتور على إبراهيم رئيسا ، والدكتور عبد الله العربى ، والدكتور على حسن وكيلين ، والدكاترة مصطفى مشرفة ، وعبد الرازق السنهورى ، وعلى بدوى وزكى عبد المتعال والأستاذ أمين الخولى مراقبين ، وعضوية كل من . . نعيمة الأيوبى وكمال الدين صلاح وعبد الخالق فريد ، وأحمد حسين وفتحى رضوان ،

وعبد القادر عودة ، ومنير القاياتى ، وعبد الرحمن الصدر ، ونور الدين طراف ، وحنا مرقص ، ويحيى العلايلى ومصطفى الوكيل ، ومصطفى ملوك ، وإبراهيم عبده ، ومحمد زكى ، ومدحت عاصم ، وصالح عوضين ، وحسين حافظ وأمانة الصندوق أسندت إلى داود راتب وأعمال السكرتارية ، أسندت إلى كل من أحمد حسين ، وفتحى رضوان ، ومدحت عاصم .

وقد حرصنا على تسجيل جميع الأسماء التى عمل معها مشرفة فى ذلك المشروع فى يناير ١٩٣٢ وقد تحدد أول فبراير ١٩٣٢ لبدء الاكتتاب للمشروع . ثم استقال أحمد حسين من سكرتارية المشروع وحل محله كمال الدين صلاح وذلك بعد إعلان قيام « جماعة مصر الفتاة » فى أكتوبر ١٩٣٣ . ولكن وثائق مشروع القرش ووثائق جماعة مصر الفتاة لم تدلنا على انضمام مشرفة إلى جماعة مصر الفتاة .

الطفولة والتحدى

الذين يعرفون أسرة مشرفة فى مدينة دمياط يقولون : إن على مصطفى مشرفة ولد كبيرا ولم يولد طفلا . ويقصدون أنه لم يلعب مثلما لعب أقرانه من الأطفال ، وكان يريد أن يكون دائما فى أول الصف . ولد فى ١١ يوليو سنة ١٨٩٨م ، وسنة ١٩٠٧م داهمت الأسرة أزمة مالية أودت بكل ما تمتلكه ، وقبل أن يؤدى الصبى مشرفة امتحان الشهادة الابتدائية « ١٩١٠ » بشهور توفى والده وبعد أن حصل على الشهادة الابتدائية انتقلت الأسرة إلى القاهرة ولكن مشرفة التحق بمدرسة ثانوية بالإسكندرية بالمجان ثم انتقل إلى القاهرة حتى حصل على البكالوريا سنة ١٩١٤م وتوفيت والدته قبل الامتحان بشهرين . والتحق بمدرسة المعلمين العليا ، وسافر فى بعثة إلى انجلترا وحصل على البكالوريوس فى الرياضة سنة ١٩٢٠ . وبقى فى انجلترا وحصل على الدكتوراه فى فلسفة العلوم سنة ١٩٢٣ ، وأصبح عضوا فى الجمعية الملكية البريطانية . ودفعه التحدى الكامن داخله منذ معاناة الطفولة ورحيل الأب والأم والمأساة الاقتصادية ، إلى محاولة أن يثبت وجوده ، فأخذ ينشر بحوثه العلمية فى المجلات المتخصصة ، وأصبح من فريق المحاضرين فى الجمعية الملكية البريطانية . وبعد أن عاد إلى مصر كان اهتمامه أن يعود إلى انجلترا ليحصل على الدكتوراه فى العلوم ووفقه الله إلى ما أراد ، وسافر مرة ثانية واجتاز الامتحان فى يناير ١٩٢٤ ، وعاد إلى مصر فى فبراير يحمل الدكتوراه فى العلوم . وأصبح الدكتور على مصطفى مشرفة العالم الحادى عشر فى العالم الذى يحصل على الدكتوراه فى العلوم ، وأول مصرى يحصل عليها .

وحاربه الانجليز ورفض طلبه فى وظيفة أستاذ لعلم الطبيعة فى مدرسة الطب . وعينه أحمد لطفى السيد مدير الجامعة المصرية سنة ١٩٢٥ أستاذا مساعدا فى كلية العلوم . ولكن مشرفة كان

يرى أنه أحق بوظيفة أستاذ ، فلجأ إلى أحد أعضاء مجلس النواب الوفديين وكان سعد زغلول رئيسا للمجلس ، فأثير الموضوع وأصدر على ماهر وزير المعارف قرارا بتعيين الدكتور مشرفة أستاذا للرياضة التطبيقية فى كلية العلوم سنة ١٩٢٦ ، وكان بذلك أول مصرى فى هذا المنصب . كان الطريق مليئا بالأشواك ، وكان هو نموذجا للإصرار والتحدى ، واختير فى أكتوبر ١٩٣٠ وكيلا لكلية العلوم حتى عام ١٩٣٦ وهو العام الذى اختارته فيه حكومة الوفد عميدا ، رغم أنه لم يكن الحائز على أكثر الأصوات ولكنه كان أقدم الأساتذة فى كلية العلوم ، وأصبح بذلك أول عميد مصرى لكلية العلوم .

أعـــلام الترجمـة

وإذا كان الدكتور على مصطفى مشرفة فى مكان الريادة العلمية ، فإنه كذلك علم من أعلام الترجمة فى مصر فى القرن العشرين وذلك إلى جانب أحمد فتحى زغلول وأحمد لطفى السيد وطه حسين وعباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازنى ومحمد بدران وزكى نجيب محمود ومحمد عوض محمد وعبد الوهاب عزام ومحمد حسين هيكل وأحمد الصاوى محمد ومحمد مندور ولويس عوض وغيرهم ، وكان صديقا لأحمد لطفى السيد والدكتور طه حسين ، وقد اشترك مع الدكتور طه وآخرين فى كتاب «الحياة والحركة الفكرية فى بريطانيا» .

وقد أسهم مشرفة فى الحركة الفكرية المصرية بريادته فى تخصصه وببحوثه واكتشافاته ، وبتأسيسه للجمعيات المتخصصة ومشاركته فى مجمع الثقافة العلمية ، ومراكز البحوث . حتى الموسيقى أسهم فى إثرائها بتأسيس « الجمعية الموسيقية » بالاشتراك مع محمود الحفنى ، «وأبو» بكر خيرت ، ووديع فرج ، وتولت لجنة من هذه الجمعية ترجمة الأوبرات العالمية إلى اللغة العربية .

وقد اهتم مشرفة بالتأليف العلمى والترجمة العلمية ، فأنشأ قسما للترجمة العلمية فى كلية العلوم لترجمة الكتب العلمية العالمية إلى اللغة العربية ، وقد وضع مشرفة عام ١٩٣٨ « القاموس العلمى» بالاشتراك مع محمد عاطف البرقوقى . وكان يرى جواز استعمال المصطلح الأجنبى فى اللغة العربية بعد تعديله على نحو يتفق وأوزان اللغة شريطة أن يكون مستخدما فى جميع اللغات العلمية الأخرى أو فى غالبيتها . أما إذا كان المصطلح الأجنبى مقصورا على لغة أجنبية أو اثنتين ، فمن الضرورى أن يكون عندنا لفظ عربى . وكان على مقدرة فى أن يترجم الأفكار العلمية إلى صياغة أدبية رفيعة ، وكان ماهرا فى اختيار اللفظ وانتقاء العبارة .

وعنى بتقريب العلم للناس وتجد هذا فى كتبه « مطالعات علمية ، والعلم والحياة ، ونحن والعلم ، والذرة والقنابل الذرية » . وقد اختاره مجمع اللغة العربية خبيرا للجنة المصطلحات العلمية مع مصطفى نظيف ومحمود توفيق حفناوى ، وأحمد زكى .

وقد حرصت الصحف الخاصة والصحف الحزبية أن تستكتب مشرفة لجاذبية مادته وإشراق عبارته وحداثه فكرته . وكتب للأهرام والجديد والمقتطف والجهاد .

حدثني تلميذه (١٩٣١ ـ ١٩٣٥) العالم المعروف الدكتور جمال الدين الفندى عن شخصية الدكتور مشرفة الفذة . . قال فى امتحان البكالوريوس طلب اختيار ٧ أسئلة من ٩ ، فأجاب الفندى على الأسئلة التسعة فمنحه ١١٧ درجة من ١٠٠ ونشر له صورته فى الصفحة الأولى بجريدة الأهرام . . وهكذا الإنسان مع الذين تتلمذوا على يديه . .

عـود على بـدء

ونعود إلى سطورنا الأولى . . احتمال مقتل مشرفة ، إن لم يكن من القصر فلم لا يكون من جهة أجنبية تكره لمصر أن تسير على طريق العلم ، وتكره للعرب أن يكون العلم طريقهم ؟ لا أريد أن أدخل فى تعقيدات علمية ، ويكفى أن أقول إنه سنة ١٩٢٩ نشر « مشرفة » فى الدوريات العالمية بحوثا ، توجها ببحث خطير سنة ١٩٣٢ ، أعقبه ببحث آخر سنة ١٩٤٢ ، وبحوث فى سنوات ١٩٤٤ ، ١٩٤٥ ، ١٩٤٨ تتصل اتصالا وثيقا بنتائج مهمة فى العلوم الذرية والنووية ، ثم انتقل إلى الجانب التطبيقى فدعا إلى البحث عن اليورانيوم فى الصحراء الشرقية . وظل ينادى بضرورة عناية الدول العربية بالعلم ، وإقامة الندوات العلمية بين الدول العربية .

وأهم التوجهات لديه هو اعتقاده بأن العلم هو السبيل إلى التقدم وإلى حل المشكلات . ومن أجل هذا حرص على أن يتحرك جيل من العلماء يكملون المسيرة من بعده . ولكن العدو لم يكن غافلا عن هذه الحقيقة ، فخلال عقد أو عقدين من رحيل مشرفة مات من مات وقتل من قتل من تلاميذه علماء مصر . وقد ركزوا جميعا على الاهتمام المصرى بالذرة وخاصة أن اليورانيوم موجود فى الصحارى المصرية . ومصر على رأس عدد كبير من الدول العربية والإسلامية . لقد رحل العالم الكبير ، ورحل عدد من تلاميذه وترك لنا حسبما سجله الدكتور محمد محمد الجوادى فى كتابه عنه « الدكتور مشرفة بين الذرة والذروة » ترك مشرفة خمسة كتب له وأربعة كتب بالاشتراك مع أساتذة آخرين ، وستة كتب دراسية بالمشاركة و ٥٣ مقالا ، و ٢٠ حديثا إذاعيا وصحفيا ، و٢٥ بحثا علميا باللغات الأجنبية نشرت فى دوريات أجنبية . . رحم الله الدكتور مشرفة .

الأسـانيد :

١ ـ أحمد عصام الدين . . حركة الترجمة فى مصر .

٢ ـ د . جمال الدين الفندى . . حديث شخصى ١١/ ٧/ ١٩٨٨ .

٣ ـ د . على شلبى . . مصر الفتاة (ودورها فى السياسة المصرية) .

٤ ـ د . على مصطفى مشرفة . . العلم والحياة .

٥ ـ د . محمد محمد الجوادى . . مشرفة بين الذرة والذروة .

عمر لطفى



اثنان فى تاريخنا الحديث ، يحمل كل منهما اسم « عمر لطفى » وأحيانا يحدث الخلط بينهما ويظن البعض أنهما شخص واحد الأول دبر مذبحة الإسكندرية فى يونية ١٨٨٢ تمهيدا للاحتلال البريطانى . ونظير هذا عينه « الخديو توفيق » ناظرا للجهادية والبحرية . والثانى رأى الأزمة تطحن الفقراء فى بلاده فنادى بالتعاون وبدأ بتأسيس النقابات الزراعية التعاونية .

نبدأ بعمر لطفى الوزير وننتهى منه فى فقرة أو فقرتين ونترك المقال بأسره بعد ذلك لرائد الحركة التعاونية فى مصر « عمر لطفى» طيب الله ثراه .

« السيد الوزير عمر لطفى » كان محافظا للإسكندرية أيام المد العرابى ، وكان « الزعيم أحمد عرابى » ناظرا للجهادية والبحرية ، وتعهد « عرابى » بمسئوليته عن حفظ الأمن فى بر مصر وأوعز « الخديو توفيق » إلى« عمر لطفى محافظ الإسكندرية » أن يدبر لأحداث الشغب والفوضى خصوصا بين الجاليات الأوربية مما يؤدى إلى التدخل الأوربى ، وإحراج « أحمد عرابى » .

تقول المصادر التاريخية الموثوق بها إن « الأمير حيدر باشا » ابن عم الخديو توفيق حمل هذه الخطة إلى « عمر لطفى » فى الإسكندرية الذى جاء بنفسه إلى القاهرة فى ٩ يونيه ١٨٨٢ فى الساعة الثانية عشرة ظهرا حدثت مشاجرة فردية بين رجل مالطى من أتباع انجلترا ، وبين (مكارى) مصرى بسبب خلاف على أجر مشوار . . أى خلاف على ملاليم بعملة ذلك الزمان ، طعن المالطى التابع لانجلترا المصرى الغلبان بسكين وتجمع الناس وتدخل جاويش مصرى من قسم اللبان ليقبض على المالطى المعتدى، وقيل إن « السيد قنديل » مأمور الضبطية فى حى اللبان بالإسكندرية كان على علم بالمؤامرة فتجاهل الموقف ولم يتدخل واشتعل الموقف وحدثت حرائق وسقط عدد من الضحايا وقيل أيضا إن « عمر المحافظ أشار على رجال البوليس بعدم التدخل

وحرض الناس على الاشتراك فى المذبحة ، وانه أحضر إلى الإسكندرية عددا من البدو الأجراء نزلوا ينهبون ويحرقون . . وطلب انزال عساكر انجلترا إلى الميناء لعجز عرابى عن ضمان الأمن ، المهم أن قوات « عرابى » نزلت إلى الشوارع وسيطرت على الموقف ولكن بعد الحرائق وبعد المذابح وبعد أن أذاع الخديو والمحافظ أن عرابى لايستطيع حماية الأمن فى البلاد . ويروى « الشيخ محمد عبده » أن اشاعات كثيرة راجت تتهم العرابيين وخاصة « عبد الله النعيم » بإثارة الخواطر مما أدى لهذه المذبحة .

ولكن التحليل التاريخى يبرىء عرابى والنديم من هذه المذبحة . وتشير الأدلة القوية إلى «الخديو والمحافظ » ففى ٢٠ يونيو أصدر « الخديو توفيق » أمرا بخلع « أحمد عرابى » من منصب ناظر الجهادية والبحرية . وفى ١١ يوليه ١٨٨٢ ضرب الأسطول البريطانى مدينة الاسكندرية بالمدافع ونزلت القوات الانجليزية وصدر الأمر العالى فى ٢٥ يوليو ١٨٨٢ بتعيين (سعادة عمر لطفى باشا) ناظرا للجهادية والبحرية . وكان « عمر هذا « وزيرا مرتين . . المرة الأولى فى وزارة إسماعيل راغب باشا التى ظلت من (١٧ يونيه ١٨٨٢ ـ ٣١ أغسطس ١٨٨٢) ودخلها « عمر » فى ٢٥ يوليو كما أسلفنا والمرة الثانية فى وزارة « شريف باشا » (٢١ أغسطس ١٨٨٢ ـ ١٠ يناير ١٨٨٤) . واضح إن « عمر المحافظ كوفئ على المؤامرة مرتين بتولى منصب الناظر أو (الوزير) بلغة أيامنا الحالية . ورجاء إذن إلى القراء ، وإلى الدارسين أن يفرقوا بين « عمر لطفى السكندرى » و«عمر لطفى التعاونى » ونترك الأول فى مزبلة التاريخ ونأتى إلى الثانى لإلقاء الأضواء عليه .

العقد الأسود

كان العقد الأول لسنواته العشر الأولى فى القرن العشرين من أسود السنوات التى مرت بمصر من الناحية الاقتصادية . ولم يكن هناك نظام صالح للتسليف يقترض منه الفلاح ما يحتاج إليه بطريقة تبعده عن مهاوى الفقر والفاقة كان المرابون الأجانب يغتنمون الفرصة ويقرضون الفلاح بالفوائد الباهظة التى تثقل كاهله . وفى شهرى أكتوبر ونوفمبر من كل عام تهبط أسعار القطن هبوطا ملحوظا فى الوقت الذى ترتفع فيه أسعار الحبوب لحاجة الفلاحين والسكان إليها بعد أن كان الفلاحون قد باعوا هذه الحبوب من قبل بأسعار منخفضة . . حركة دورية رهيبة ليبيع الفلاح محاصيل الحبوب بسعر منخفض ليعود إلى شرائها بسعر مرتفع ، وإلى شراء المنسوجات القطنية الواردة إليه من الخارج بالأسعار التى يطرحها الأجانب .

هبط المحصول الزراعى وأوشكت البلاد على المجاعة ، على الرغم من أن الاحتلال كان قد حول مصر إلى مزرعة لبريطانيا . . وأصبح الفلاح فى الصعيد لايكاد يجد الذرة وأصبح الفلاح فى

الوجه البحرى لايكاد يجد الأرز . . رغم انخفاض سعر الذرة وسعر الأرز فلم يكن فى جيوب الفلاحين المصريين شىء بعد أن نظفها جباة الضرائب أولا بأول . وزاد الطين بلة انتشار الطاعون فى الماشية وفى النفس على السواء . والذين فى مثل أعمارنا سمعوا من أجدادهم عبارة (سنة الشوطة) ويقصدون بها تلك الأيام السود التى حصدت آباءهم وحصدت مواشيهم لتفشى مرض الطاعون .

وفى أواسط ذلك العقد كان سكان مصر حوالى ١١ مليون نسمة منهم حوالى ٥ر٥ مليون نسمة عاطلون أو مجهولو الصفة ! ، ومنهم حوالى ٥ر٢ مليون نسمة يعملون فى الخدمات المنزلية وما يماثلها وحوالى ٥ر٢ مليون نسمة يعملون بالزراعة أى حوالى ٥ر١٠ مليون نسمة كانوا يعيشون تحت خط الفقر . . والنصف مليون الباقى موزع بين كبار ملاك الأرض والفئات المتوسطة ومستخدمى الحكومة بمختلف درجاتهم والتجارة وعدد من الصناعات والحرف الأخرى .

هل هناك أبلغ من هذه الأرقام دلالة على سوء الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والفلاحون أكثر الفئات تعاسة وذكر الأستاذ عبد الرحمن الرافعى أن الفدان الواحد كانت عليه ديون ٢٥ جنيها فى العام بفائدة قدرها ٥٪ شهريا أى ٦٠٪ سنويا وهذه الفوائد تصل إلى ١٥ جنيها . أى إن الفدان كان محملا بدين يبلغ ٤٠ جنيها فى السنة (مع مراعاة القيمة فى ذلك الوقت) .

سنوات التحدى

وإزاء هذه الظروف القاسية واجه أبناء مصر هذه الأوضاع بالتحدى والتصميم على الخروج بالبلاد من هذه المأساة التى أوقعهم فيها الإنجليز والخديو وبعض كبار الملاك المرتبطة مصالحهم بالإنجليز والخديو .

ولكن لم يكن كل كبار الملاك هكذا كانت شريحة عريضة منهم اتجهت إلى تعليم أبنائها فى أوربا وهؤلاء عادوا بأفكار جديدة وكان من أبنائهم الموظفون وكبار الموظفين بل إن « محمد فريد » يقول فى مذكراته عن فترة باكرة قبل مطلع القرن العشرين : « فى يوم ٢٣ فبراير ١٨٩٣ اشيع أن جماعة من ذوات مصر شرعوا فى إنشاء شركة زراعية رأسمالها ٢٥٠ ألف جنيه لشراء أراضى الدائرة السنية واستغلالها وجعلها شركة مساهمة قيمة كل سهم عشرة جنيهات» من أبناء الذوات خرج قادة هذه الأيام .

كما إن الاضرابات انتشرت سنة ١٩٠٦ (عام دنشواى) بين الطلاب وهم يعبرون عن سخطهم على الاحتلال وعلى الظروف الاقتصادية السيئة التى تمر بها البلاد . وانتشرت الجمعيات

السرية لاغتيال الانجليز أو العناصر المصرية التى تكشف عن تعاونها مع الانجليز ووقف «الشيخ محمد عبده » خلف إنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية .

ولم تكن مصادفة إذن أن يقف « مصطفى كامل » فى مسرح زيزينيا بالإسكندرية فى ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧ يعلن الحزب الوطنى رسميا (وهو موجود فعلا) ويتحدث عن الفلاحين بقوله (الفلاح الذى قضى القرون من السنين وهو معتقد أنه ملك للحاكم ومتاع لا إرادة له فاسمى عمل نقوم به . . هو إنهاض ذلك الفلاح العزيز وأعلاء مكانته فهو ممثل النشاط المصرى ومصدر كل خير ونعيم) . وهنا تبدو أهمية ثورة ١٩١٩ التى جذبت الفئات الشعبية إليها .

وفى السنة ذاتها تصدر (الجريدة) برئاسة « أحمد لطفى السيد) ويقوم حزب الأمة ليدعو لشعار (مصر للمصريين) لخلاصها من الدولة العلية والدولة المحتلة وفى المقابل ينشط « الشيخ على يوسف » فى حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية وتقوى الدعوة إلى إنشاء بنك للأمة ، تلك الدعوة التى كللت بالنجاح على يدى « محمد طلعت حرب » وبعدها بسنوات قام (بنك مصر) فى مايو ١٩٢٠ .

وانتشرت الإضرابات المتفرقة بين عمال خزان أسوان ، وعمال الترزية وعمال شركة الغزل الأهلية بالإسكندرية وعمال المطابع وعمال النظافة وعمال السكة الحديد وعمال الفحم فى ميناء بورسعيد .

وفى ديسمبر ١٩٠٥ يتأسس نادى المدارس العليا ويتم اختيار « عمر لطفى » أول رئيس له ويحاضر « عمر لطفى » ويتحدث ويتصل بالأصدقاء داعيا إلى (التعاون) .

لماذا التعاون ؟

المرابون الأفراد وخاصة الأجانب منهم كانوا البداية فى محاولة الفلاح المصرى الخروج مؤقتا من أزمته وإن كان هذا الأسلوب قد جر عليه كثيرا من الويلات . وظل هذا مصدر التسليف الوحيد للفلاح إلى أن فتحت مصر أبوابها لرؤوس الأموال الأجنبية ، فنشأ مصدر آخر للتسليف ، وهو البنوك التى أنشئت برءوس أموال أجنبية وخاصة بنوك الرهونات الأجنبية وهى فى مصر البنك العقارى والبنك الزراعى وصندوق الرهونات وغيرها .

والفلاح المصرى منذ سنوات طويلة جدا وهو يستخدم الخبرة المتوارثة فى استغلال الثروة الزراعية دون أن تكون أمامه معلومات أو خبرات جديدة واعتماد البلاد على رءوس الأموال الأجنبية وخاصة فى الزراعة ، وقد بلغت نسبة الأموال الأجنبية المستثمرة فى الزراعة ٦٢٪ من مجموع رءوس الأموال الأجنبية فى مصر ، وهذا وحده يشكل خطرا على اقتصاد البلاد .

وكما قال « عمر لطفى » محاضرة له بالإسكندرية : (إن تسرب الأموال الأجنبية إلى مصر فى أيام الرخاء قد غير الناس وملأهم بالغرور فاعتمدوا على هذه الأموال واندفعوا فى تيار المضاربات ولكن من يوم أن أصيبت البلاد بالأزمة المالية انصرفت الأفكار إلى البحث فى إصلاح نظام التسليف فى مصر وجعله نظاما قوميا محضا قائما على بنوك وطنية تجمع أموالها من أبناء البلاد) .

وإذا كان الحزب الوطنى لم يهتم كثيرا بالجانب الاقتصادى وركز على الجانب السياسى وشعارات الجلاء ولا مفاوضة إلا بعد الجلاء إلا أن « محمد فريد » بدافع من ثقافته الذاتية شجع الاتجاهات الجديدة وبدأت تتردد بعض الكتابات عن (التعاونية) بل إن « محمد فريد » وتلميذه «عبد الرحمن الرافعى » وهو فى الوقت ذاته تلميذ لـ « عمر لطفى » أسهما بجهودهما فى النشاط التعاونى منذ ١٩٠٨ ، وعملا إلى جانب جهود « عمر لطفى » على انتشار الجمعيات الزراعية بالقرى وشركات التعاون المنزلية بالمدن .

وكان « عمر لطفى » يؤمن بأن النظام التعاونى هو الطريق الوحيد للخلاص من التعاسة التى فرضها المستغلون . وقال «عمر لطفى » : (إن الزراعة المصرية مصابة بآفات منها نقص المحصول ودودة القطن ، وعدم جودة تيلة القطن ، وعدم وجود المصارف الكافية فى بعض الجهات . والفلاح مصاب بكثرة الديون والاقتراض بالفوائد الفاحشة ، والاضطرار دوما إلى بيع المحصولات قبل أوانها بأثمان بخسة ولايوجد علاج لهذه الأمراض المتعددة إلا بإيجاد النقابات الزراعية) .

النقابات والجمعيات الزراعية

نحن هنا نفرق بين النقابات العمالية والنقابات الزراعية والجمعيات الزراعية التعاونية من حيث طبيعة العمل، ومن حيث الوظيفة ومن حيث الأسلوب . ولكننا أشرنا إلى عدد من الإضرابات العمالية فى العقد الأول من القرن العشرين كدلالة على وجود تنظيمات ولو فى أشكالها الأولى تنظيمات عمالية تسعى لأهداف اقتصادية . بل إننا نجد إشارات لهذه الإضرابات سابقة على مطلع القرن العشرين يسجل « محمد فريد » فى مذكراته عن أحداث أبريل ١٨٩٤ (وردت تلغرافات من بورسعيد تفيد اعتصام عمال نقل القمح لزيادة الأجرة) .

ونجد بدايات واضحة لجمعيات عمالية مثل جمعية لفافى السجاير بالقاهرة فى عام ١٨٩٩ واستمرت قائمة حتى عام ١٩٠١ . وجمعية اتحاد الخياطين بالقاهرة عام ١٩٠١ وتأسست فى نفس السنة جمعية الحلاقين وجمعية عمال المطابع وسنة ١٩٠٢ تأسست جمعيات عمال الأدوات المنزلية وعمال السجاير بالإسكندرية وكتبة المحامين بالقاهرة ، وقد أيد الحزب الوطنى وجريدة اللواء فى مطالبهم وفى تشكيل جمعياتهم بل إن الحزب الوطنى شكل نقابة للصناعات اليدوية فى مطلع عام ١٩٠٨ .

وانتشرت فكرة تأسيس النقابات من القاهرة إلى الأقاليم فأنشئت نقابات بالإسكندرية والمنصورة وطنطا بفضل جهود « محمد فريد » الذى دعا إلى (العناية بنقابات العمال وبث مبدأ التضامن بينهم والدفاع عن حقوقهم واستصدار القوانين التى تضمن لهم عدم التكلف عند الشيخوخة أو عقب الإصابة بما يمنعهم عن الكسب) .

وفى جانب آخر كانت دعوة « عمر بك لطفى » الذى أسس عدة نقابات زراعية كانت أولها النقابة الزراعية التى قام بها «سليمان أفندى زكى العبد » عمدة شبرا النملة بإرشاد « عمر بك لطفى» فى ٢٥ أبريل ١٩١٠ ، ثم نقابة (سنتماى) فى محافظة الدقهلية فى ١١ نوفمبر ١٩١٠ . وأمام العراقيل التى وضعت أمامه لجأ « عمر لطفى » إلى شكل (الشركات المدنية) ومن عام ١٩٠٩ إلى عام ١٩١٠ نجح بالفعل فى تأسيس أول شركة تعاونية وهى شركة التعاون المالى والتجارى بالقاهرة فى ٣٠ ديسمبر ١٩٠٩ وصدر بها الأمر العالى فى ٢٧ يناير ١٩١٠ .

وقد رأى « عمر لطفى » أن الجمعيات الخيرية ليس فى مقدورها مساعدة الفلاحين والعناية بتربية أولادهم . ومعاونتهم فى مهنتهم الرئيسية فلابد إذن من أسلوب جديد هو (التعاون) الذى يقوم على تسخير قوة المجتمع لمصلحة الفرد وتسخير قوة الفرد لمصلحة الجماعة فيتبادل كلاهما المساعدة والمنفعة وعلى هذه القاعدة كان « عمر لطفى » ينشر مبادئ التعاون .

الرجل والمبادئ

فى عام ١٨٦٧ كان مولده وتخرج فى مدرسة الحقوق الخديوية حوالى ١٨٩٠ وعمل مدرسا بها فوكيلا لها . وفى ٨ ديسمبر ١٩٠٥ كان أول رئيس لنادى المدارس العليا واتصل بمصطفى كامل ومحمد فريد وكان من تأثير تدريسه فى (مدرسة الحقوق الخديوية) أن أصدر كتابا عن (حق الدفاع) وكتابا عن (حق المرأة) وكتابا صغيرا عن (الامتيازات الأجنبية) واشتغل بتدريس القانون الجنائى فى الجامعة المصرية . وفى سنواته الأخيرة اتصل بسعد زغلول .

اهتم فى محاضراته بنادى المدارس العليا بالدعوة إلى (التعاون) وضرورة الاهتمام بتأسيس الجمعيات الزراعية التعاونية . ووقف البعض فى وجه هذه الدعوة بزعم (أنها مارقة على الدين) وقام (نادى المدارس العليا) الذى تأسس سنة ١٩٠٥ بدور هام فى الحركة الوطنية وفى النهضة الحديثة على السواء . . منه تحرك الشعور الوطنى الذى آزر « مصطفى كامل » ومنه خرجت فكرة جمعية رعاية الأطفال ومنه بدأ مشروع (مدارس الشعب الليلية) وبداخله دارت المناقشات حول (الجامعة الأهلية) ومنه أيضا بدأ « عمر لطفى » الدعوة إلى (مشروع النقابات الزراعية التعاونية) .

سافر « عمر لطفى» فى صيف ١٩٠٨ إلى إيطاليا لدراسة الحركة التعاونية وهناك التقى بقادة ومفكرى (التعاون) وفى مقدمتهم المفكر التعاونى « لوتزاتى » وعاد فى أواخر أكتوبر ١٩٠٨ ليبدأ حملة محاضرات ودعاية للتعاون وافتتح محاضرات نادى المدارس العليا لسنة (١٩٠٨ ـ ١٩٠٩) بمحاضرة ألقاها فور عودته يوم أول نوفمبر ١٩٠٨ عن نظام التسليف فى ألمانيا وإيطاليا والقواعد التى تسير عليها جمعيات التعاون فى البلدين واقترح أن تكون البداية فى مجال التعاون بنظام التسليف . ثم ألقى محاضرة فى نادى دمياط يوم ٥ يناير ١٩٠٩ ثم عرج على المنصورة وألقى محاضرة أخرى وبعدها توجه إلى الإسكندرية والقى محاضرة فى ٢١ يناير سنة ١٩٠٩ وركز على (أن خير نظام يحسن إدخاله فى مصر هو نظام التسليف القائم على مبادئ التعاون لأن المسلمين يتسابقون إلى الاكتتاب بأموالهم فى مشروع يقوم على مبادئ الإخاء والتضامن وحب الخير والاحسان فليس الغرض من التسليف التعاونى استثمار المال بوساطة إقراضه للغير بالفائدة ولكن الغرض منه تسهيل الإقراض لأعضاء الجمعيات أنفسهم بفضل التوفير والتضامن ومن أسمى أغراضه تخصيص جزء من ربح الجمعيات للأعمال الخيرية والسعى فى إسعاد المتعاونين وإنقاذهم من الفقر ومذهبى الذيأادعو إليه الآن هو نشر مبادئ التعاون على التسليف فى المدن والقرى) .

الصوت والصدى

فى محاضرة ألقاها « الدكتور إبراهيم رشاد » فى مدرسة الخدمة الاجتماعية فى ١٧ مايو ١٩٣٨ ذكر أنه فى يناير سنة ١٩٠٩ شكلت اللجنة التنفيذية للجمعية الزراعية لجنة من المتخصصين من أعضائها « عمر لطفى » لدراسة النظم التعاونية وأشار تقرير هذه اللجنة إلى نوعين من النظم التعاونية .

١ ـ الجمعية الزراعية لشراء حاجيات الزرع وبيع المحاصيل .

٢ ـ صناديق التسليف لإقراض الفلاحين .

إلا أن الحكومة لم تنظر إلى هذا الاقتراح أو ذاك ثم اهتم « الأمير حسين كامل » الذى أصبح «السلطان حسين كامل » فيما بعد بموضوع التعاون . وشكلت لجنة برئاسته لوضع مشروع لقانون التعاون وردت الحكومة بمشروع قانون ملىء بالعوائق وبعد ذلك شكلت لجنة جديدة برئاسة «سعد زغلول » كان لها ملاحظات على مشروع قانون الحكومة وتولت « لجنة سعد » وضع مشروع قانون جديد . غير أن الجمعية التشريعية رفضت مشروع لجنة سعد ووافقت على المشروع السابق للحكومة بما فيه من عوائق .

واستمر أنصار « عمر لطفى » فى الدعوة التعاونية فتعددت النقابات أو شركات التعاون المنزلى ونقابات العمال والصناع ، ولما كان من عوامل نمو الحركة التعاونية إنشاء النقابات العامة فقد سعى إلى انشاء نقابة عامة للتعاون المنزلى والزراعى ولكنه رحل فى ٤ نوفمبر ١٩١١ فاستمر أنصاره وأسسوا النقابة العامة فى أوائل سنة ١٩١٢ وذلك لتعمل على توحيد الجمعيات التعاونية بمصر وإعداد عناصر مدربة على العمل التعاونى . وإذا كانت الحركة التعاونية قد انتشرت ونمت فى أيامنا هذه فإن الفضل الأول يعود إلى الرائد الأول للتعاون فى مصر « عمر لطفى » والفضل الثانى يعود إلى أنصاره وتلاميذه الذين حملوا رسالة التعاون من بعده وسوف نشير هنا إلى اثنين من أنصاره وتلاميذه وهما .

١ ـ أحمد بك لطفى .

٢ ـ الأستاذ عبد الرحمن الرافعى .

أما الأول فهو « أحمد بك لطفى المحامى » وهو شقيق « عمر بك لطفى » وعندما كتب « عبد الرحمن الرافعى » كتابه (نقابات التعاون الزراعية) صدر فى ١٥ يونيه ١٩١٤ بمقدمة ضافية كتبها « أحمد بك لطفى المحامى » ومضى الاثنان فى مقدمة الداعين للحركة التعاونية وسارا على طريق الرائد الأول « عمر لطفى » . .

ويقول « عبد الرحمن الرافعى » إن حركتهم الاجتماعية بدأت بتأسيس (الجمعية الخيرية الإسلامية) . وينقسم الكتاب إلى قسمين الأول . . عن التعاون فى أوربا والثانى . . عن التعاون فى مصر وإلى جانب « أحمد لطفى وعبد الرحمن الرافعى » سار معهما أيضا « مصطفى الشوربجى وعلى الشمسى » وللأمانة التاريخية فإن « محمد فريد » وهو فى الخارج كان يرعى جهود هذه المجموعة فأرسل فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩١٣ إلى عبد الرحمن الرافعى . . (إذا كان الخوف من رجال السلطة حدا بالكثيرين إلى عدم اظهار إحساسهم الوطنى ، فما يمنعهم من صرف همتهم إلى المشروعات الاقتصادية كالنقابات وشركات التعاون المنزلى والمالى وقد برهن ما أسس منها على نجاح عظيم وعلى استعداد الأمة للإقبال على مثل هذه المشروعات . هذا ميدان واسع للجميع فادخلوا فيه بهمة ونشاط . .) .

وفى ٢٣ يوليو سنة ١٩١٤ أرسل « محمد فريد» إلى « عبد الرحمن الرافعى » يهنئه على كتابه (نقابات التعاون الزراعية) يقول له (. . فقد وصلنى كتابكم فى تاريخ النقابات ومستقبلها فى مصر، وقرأته من أوله لآخره فألفيته أحسن كتاب أخرج للأمة المصرية فى هذا العام فشكرا على هذه الخدمة الوطنية التى لاتقدر . . والأمل الآن أن كل النقابات التى تؤسس تنشأ حرة بحيث يسقط قانون الحكومة من نفسه أو تضطر هى إلى تعديله) .

ويمضى الـركب

ويسير فرسان التعاون فى طريقهم ويعاونهم (محمد حسين هيكل وإبراهيم الطاهرى ، وحسين هلال ، وعبد الوهاب البرعى ، والدكتور إبراهيم الوكيل ، ومحمود نصير ، وعبد الفتاح نور ، ومحمود مرسى) وفى ٥ يونيه ١٩٤٣ عقد أول مؤتمر عام للتعاون ، واختيرت مدينة المنصورة باعتبارها من أوائل المدن الرئيسية التى أسهمت مبكرا سنة ١٩٠٨ فى إنشاء النقابات والجمعيات الزراعية . وحضر المؤتمر « عبد الرحمن الرافعى » تلميذ « عمر لطفى » على طريق التعاون . ورأس المؤتمر « فؤاد سراج الدين » الذى كان وزيرا للشئون الاجتماعية فى ذلك التاريخ والذى استصدر من حكومة الوفد فى ٣٠ مايو سنة ١٩٤٤ (قانون الجمعيات التعاونية) وقد ساعد هذا القانون على نشاط الحركة التعاونية وخاصة لظروف الحرب العالمية الثانية فهل كثير بعد هذا أن يقول أحمد شوقى فى رثاء عمر لطفى :

ففيك عـرفت ارتجـال الـدمـوع   ومـنك علمـت ارتجـال الـدرر

ومثـلك يرثـى بـآى الكتـــاب   ومـثلك يفـدى بنصف البشـــر

الأسـانيـد :

١ ـ إبراهيم رشاد . . مذكرات مجاهد تعاونى .

٢ ـ د . رءوف عباس . . الحركة العمالية فى مصر .

٣ ـ عبد الرحمن الرافعى . . نقابات التعاون الزراعية .

٤ ـ عبد العزيز مهنا . . التعاون الزراعى فى أوربا ومصر .

٥ ـ يحيى أحمد . . أسماء لها بريق أخضر .

فتحـى رضـوان



امرأتان عظيمتان وراء هذا الرجل العظيم . . والدته امرأة مصرية بسيطة . . ابنة « على حمدى» فلاح مصرى أصيل من قرية (الخيس) الزقازيق شرقية ، تعهدته بعد أن ولد عام ١٩١١ فى قرية (المنير) قليوبية بما تتعهد به النساء أولادهن ، ثم تعهدته بجريدة (اللواء) لمصطفى كامل ، وبصور مصطفى كامل ، وبإعجابها الشديد بمصطفى كامل وبالحزب الوطنى ، والثانية زوجته السيدة الفاضلة الصابرة ابنة القاضى الشرعى وشقيقة المناضل « كمال الدين صلاح » الذى اغتيل فى الصومال فى أبريل ١٩٥٧ وزميل « سيد فتحى رضوان » و«أحمد حسين » و« حافظ محمود» و «ابراهيم شكرى » فى مشروع القرش ، وجريدة الصرخة، وجمعية مصر الفتاة بعد ذلك .

اسمه الأصلى « سيد فتحى رضوان عثمان » وعلى عادة التسمية بأسماء مركبة كان اسمه وحده «سيد فتحى » وهكذا نجده فى لجان مشروع القرش والمشروعات الأولى . ثم ترك كلمة « سيد » واكتفى بأن يكون مشهورا باسم « فتحى رضوان » وبهذه المناسبة ليس هو « أحمد فتحى رضوان » الدبلوماسى المصرى الذى عمل فى الأردن أيام ولاية « عبد الكريم قاسم » على العراق ، وهوجم الدبلوماسى « أحمد فتحى رضوان » على اعتبار أنه « فتحى رضوان » وزير جمال عبد الناصر ، وأحد قادة مصر الفتاة القدامى . وكنا فى مخابئنا ، أثناء مطاردة عبد الناصر لنا ولغيرنا نبتسم لهذا اللبس . وقد غطى اسم المناضل « فتحى رضوان » على اسم الدبلوماسى « أحمد فتحى رضوان » إلى حد أن مجلة أسبوعية مصورة فى الفترة الأخيرة وهى تستعيد ذكريات من الماضى أوردت بيانات خاصة بالدبلوماسى « أحمد فتحى رضوان » ووضعت صورة « فتحى رضوان » على اعتبار أن البيانات القديمة له . وأعتقد أن الدبلوماسى « أحمد فتحى رضوان » قد وقعت له مواقف طريفة من هذا الازدواج فى الاسم مع الوطنى الراحل « فتحى رضوان».

والده « رضوان عثمان » مهندس الرى كان كثير التنقل . . فى أسيوط تعرف التلميذ « سيد فتحى رضوان » بالتلميذ « عبد المنعم عبد الرءوف » وهو فيما بعد الضابط الذى حاصر قصر رأس التين ، وانتهى الحصار بإبعاد الملك فاروق عن البلاد فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، وانتهى الأمر بالحكم بالإعدام على « عبد المنعم عبد الرءوف » .

وفى بنى سويف التقى « سيد فتحى رضوان » بالتلميذ « مصطفى الوكيل » وهو فيما بعد أحد قادة (مصر الفتاة) . وفى القاهرة يعود الطالب « سيد فتحى رضوان » ليلتقى بالطلاب « أحمد حسين وإبراهيم شكرى وحافظ محمود وكمال الدين صلاح ومصطفى الوكيل » وتبدأ المسيرة التى انتهت فى ٢ أكتوبر ١٩٨٨ إلى جوار مصطفى كامل ومحمد فريد .

الفرســـان الثــلاثة

وكان هناك لقاء باكر بين « فتحى رضوان » و«أحمد حسين » قبل اللقاء فى دراسة الحقوق ، هو لقاء فى مرحلة الدراسة الابتدائية بالقاهرة ، وفى السنة الثالثة الابتدائية وعمر كل منهما حوالى ١٢ سنة أعلنا عن تكوين (جمعية نصر الدين الإسلامى) لنشر تعاليم الدين ، وأعدا منشورات تعبر عن هذا الغرض . وفى مارس من عام ١٩٣٠ صدرت مجلة الصرخة وعلى صفحاتها دعا «أحمد حسين » إلى تكوين ميليشيا فرعونية وإعادة مجد مصر التليد . وقد شارك فى إصدارها « فتحى رضوان » ورأس تحريرها «حافظ محمود » الذى يقول فى كتابه (أسرار الماضى) : ـ ما إن ظهرت الجريدة حتى اقتادونا نحن الثلاثة إلى السجن ورهن التحقيق . ونحن فى محبسنا بسجن الاستئناف كاشفنا زميلنا أحمد حسين بعزمه على إنشاء الجمعية السياسية التى أسماها مصر الفتاة . وقد كان من رأيى ـ الحديث لحافظ محمود ـ الاكتفاء بالجريدة إلى أن يجتمع لمبادئها رأى عام يلتف حولنا .

لكن أحمد كان عنده تصميم المؤمن بفكرته ، فقررت أن أعتزل رياسة تحرير الصرخة .

والذى يتأمل الفرسان الثلاثة « أحمد حسين وفتحى رضوان وحافظ محمود » يلمس أن الثلاثة كانت تجمعهم أنشطة مختلفة وإن كان كل واحد منهم يخطط لمجال يكون بارزا فيه ، ولذلك نجدهم يتقاربون ويتباعدون ولكن دون خلاف جارح . الثلاثة بهرتهم الدعوة إلى الفرعونية ، ولكنا نجد أن « أحمد حسين » عندما عاد « محمد محمود » ابن الصعيد ، وابن محمود باشا سليمان ، من لندن عام ١٩٢٩ وهو يحمل مشروع المعاهدة مع هندرسون ، دعا أحمد حسين المصريين لقبول المشروع وطلب من « محمد محمود» أن يعمل على إعادة مجد مصر ، أى إنه دخل العمل السياسى تحت شعار كبير هو الدعوة لإعادة مجد مصر . فى حين أننا نجد « حافظ محمود » يرأس لجنة

تسمى (جماعة الشاب الحر أنصار المعاهدة) تعمل من خلال ولحساب حزب الأحرار الدستوريين الذى ربط « حافظ محمود » نفسه به وبجريدته السياسة التى تولى رئاسة تحريرها فترة ما . أما « فتحى رضوان » فإنه يرشح نفسه لعضوية اتحاد الطلاب على أساس برنامج إصلاحى محدد ولكنه لم ينجح ، فاعتنق فكرة عقد مؤتمر للطلبة الشرقيين بهدف توسيع دائرة الروابط بين العالم العربى والدول الشرقية . واقتنع بعض أساتذة الجامعة بهذه الفكرة أمثال : الدكاترة على إبراهيم ، وعلى مصطفى مشرفة ، وأحمد أمين ، وعبد الرزاق السنهورى . واتصل فتحى رضوان فى هذا المجال بطلاب تركيا واليابان والصين وجاوه وفلسطين والعراق والهند . ولكن الفكرة طويت والمساعى أحبطت .

وعندما تأسست جمعية (المصرى للمصرى) برياسة « سلامة موسى » عام ١٩٣٠ نتيجة لافكار سلامة موسى نفسه ومقالاته المتعددة أصبح « أحمد حسين » وكيلا للجمعية ، واختير «حافظ محمود » سكرتيرا لها . وأطاح « إسماعيل صدقى » بسلامة موسى واختير للجمعية تشكيل جديد . وفى العام نفسه كان « أحمد حسين » قد عاد من رحلته إلى باريس وعرض (مشروع القرش) على فتحى رضوان وكمال الدين صلاح فوافقا عليه . وشجعت (الأهرام) وبعض الصحف الأخرى الفكرة ، وتولى الدكتور «على إبراهيم » رئاسة المشروع . وتم تشكيل لجنة للمشروع نسجل هنا عناصرها للتاريخ : (الدكتور على إبراهيم رئيسا والدكتور عبد الله العربى أستاذ الحقوق والدكتور على حسن أستاذ الطب وكيلين . والدكاترة على مصطفى مشرفة ، وعبد الرزاق السنهورى وعلى بدوى وزكى عبد المتعال وأمين الخولى مراقبين) . واختير كأعضاء كل من : (نعيمة الأيوبى ، كمال الدين صلاح ، عبد الخالق فريد ، سيد فتحى رضوان ، أحمد حسين ، عبد القادر عوده ، منير الغاياتى ، وعبد الرحمن الصدر ، ونور الدين طراف ، وحنا مرقص ، ويحيى العلايلى ، ومصطفى الوكيل ، ومصطفى ملوك ، وإبراهيم عبده ، ومحمد زكى ، ومدحت عاصم ، وصالح عوضين ، وحسين حافظ) ، وتولى « داود راتب » أمانة الصندوق، وأسندت أعمال السكرتارية إلى كل من : (أحمد حسين ، وسيد فتحى رضوان ، ومدحت عاصم) والطريف أنه بعد قيام مصنع الطرابيش نقلت جريدة مصر الناطقة أول صورة لإنتاج المصنع فى ديسمبر ١٩٣٣ . . وتظهر فيها السيدة « نعيمة الأيوبى » المحامية وهى تضع أول طربوش على رأس «سيد فتحى رضوان » .

مصر الفتـاة

تحت شعار (الله . الوطن . الملك) ، ومن أجل (أن تصبح مصر فوق الجميع وتحالف الدول العربية وتتزعم الإسلام) أعلن « أحمد حسين » فى ١٢ أكتوبر ١٩٣٣ (على جنود مصر الفتاة تقع

تبعة بعث المجد القديم) . ونشر برنامج (مصر الفتاة) فى جريدة الصرخة فى ٢١ أكتوبر ١٩٣٣ . وأصبح « فتحى رضوان » الرجل الثانى فى الجمعية ، إذ إنه تولى منصب السكرتير العام . وفى عام ١٩٣٥ شكلت (مصر الفتاة) القمصان الخضر ، ورد (الوفد) بتشكيل القمصان (الزرق) فى يناير ١٩٣٦ . ومع مطلع عام ١٩٣٧ ، بعد عقد معاهدة ١٩٣٦ ، وفى اجتماع لمجلس الجهاد بالجمعية بدأ « أحمد حسين » قراءة قانون جديد لتحويل الجمعية إلى حزب سياسى ، فاقترح « فتحى رضوان » أن ينسخ هذا القانون ويوزع على أعضاء المجلس وأن تشكل لجنة خاصة لدراسته ، ولم يؤخذ باقتراح فتحى رضوان .. وتم تحويل (جمعية مصر الفتاة) إلى (حزب مصر الفتاة) . وفى ٢٨ نوفمبر ١٩٣٧ أطلق « عز الدين عبد القادر » أحد أعضاء (مجلس الجهاد) أربعة أعيرة نارية على سيارة « النحاس باشا » وتدهور الموقف بين الوفد ومصر الفتاة ، وسارع القصر بإقالة حكومة النحاس باشا فى ديسمبر ١٩٣٧ ، وشكل « محمد محمود » صديق مصر الفتاة الحكومة . وفى مايو ١٩٣٨ أعلن حزب مصر الفتاة تشكيل عدة مكاتب منها مكتب الشئون السياسية برياسة «فتحى رضوان» .

ومنذ أواخر عام ١٩٣٨ بدأ الاتجاه الإسلامى يظهر واضحا فى نشاط حزب مصر الفتاة . وبسبب إرهاصات الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ أصبح التراخى واضحا فى نشاط الأحزاب بعامة . وبدأت عناصر مثقفة وقيادية تجمد نشاطها فى حزب مصر الفتاة وكان « فتحى رضوان » قد جمد نشاطه منذ عام ١٩٣٧ . وفى مارس ١٩٤٠ طرح « أحمد حسين » فكرة تحويل الحزب إلى (حزب إسلامى) وتمسك الكثيرون باسم مصر الفتاة ، ورفع « أحمد حسين » برنامج الحزب إلى الملك فى ١٥ مارس ١٩٤٠ . على أية حال نجد دورا فعالا لفتحى رضوان فى (الحزب الوطنى الإسلامى) الجديد وساد الارتباك عددا من فروع الحزب التى تمسكت باسم (مصر الفتاة) .

وكان « أحمد حسين » قد استحدث فى أواخر عام ١٩٣٧ منصب نائب رئيس الحزب ، وكان «مصطفى الوكيل » قد حصل على الدكتوراه فى العلوم وعاد من لندن وتولى منصب نائب الرئيس ، وهناك خطابات متبادلة بين أحمد حسين وفتحى رضوان فى تلك الفترة توضح تباعد فتحى رضوان عن (مصر الفتاة) منذ ذلك التاريخ على الرغم من استمرار ارتباطه الرسمى .

اللجنة العليا

منذ أواخر عام ١٩٣٧ بدأ تباعد « فتحى رضوان » عن مصر الفتاة من الناحية العملية ، وبدأ يستقطب عددا من مؤيديه وقدم استقالته فعلا ، ولكن الحزب لم يبت فيها فاستمرت الأمور

معلقة وأصبح الشخص الثانى فى الحزب هو « الدكتور مصطفى الوكيل » ومن بعده « محمد صبيح» وفى تلك الفترة كان (الحزب الوطنى) يتعرض لخلافات حادة ، ولصراعات بين حافظ رمضان وعبد الرحمن الرافعى . وتبادل الفريقان قرارات الفصل وأصبح (الحزب الوطنى) فى تلك الفترة مادة لتهكم الصحف عليه والسخرية منه . وازداد الهجوم على « حافظ رمضان » الذى وجد تأييدا من « فتحى رضوان » ومجموعة الشباب التى انضمت للحزب أواخر عام ١٩٤٤ وأصبحت تعرف باللجنة العليا لشباب الحزب الوطنى . إلا أن الاتهامات استمرت والانقسامات زادت ، والمواقف اضطربت . بعد أن اشتد الهجوم على « حافظ رمضان » لاشتراكه فى الوزارات مخالفا تقاليد الحزب ، اشترك «محمد زكى على وعبد العزيز الصوفانى » فى وزارة « إبراهيم عبد الهادى » ٢٨/ ١٢/١٩٤٨ . وبالمثل فإن الفريق المعارض انضم منه اثنان فى وزارة « حسين سرى » ـ ٢٥ يوليو ١٩٤٩ ـ وهما « عبد الرحمن الرافعى ومحمد زكى على » .

وفى ظل هذا المناخ من التمزق والتضارب والصراع ، أصدرت مجموعة اللجنة العليا لشباب الحزب الوطنى بيانا أدانت فيه اشتراك بعض أعضاء الحزب الوطنى فى الوزارة ، وبدأت هذه اللجنة تسلك مسلكا مستقلا عن الحزب الوطنى فى الاجتماعات والمواقف وفى البيانات مما حدا بالحزب أن يصدر بيانا فى جريدة الأهرام (٩ مايو ١٩٤٩) يشجب فيه بيانات تلك اللجنة التى استمرت فى نشاطها المستقل بقيادة « فتحى رضوان » ، واجتمعت اللجنة الإدارية للحزب الوطنى فى ٢٨ يناير ١٩٥٠ وأدانت بالإجماع موقف (اللجنة العليا) وأصدرت قرارا بفصل « فتحى رضوان ، ومحمد زهير جرانه ، ومصطفى المنزلاوى ، ونور الدين طراف » من عضوية الحزب الوطنى .

الحزب الوطنى الجديد

ومضت اللجنة العليا لشباب الحزب الوطنى قدما ، ومضت جريدة (اللواء الجديد) تسهم فى الحركة الوطنية من أجل الاستقلال والديموقراطية والعدل الاجتماعى . . ورددت الصحف أن الاتجاه قوى لإنشاء حزب باسم (الحزب الوطنى الجديد) أو (الحزب الوطنى الاشتراكى) . واعتقل « فتحى رضوان » وعدد من زملائه بعد حريق القاهرة (يناير ١٩٥٢) واتجهت حركة الضباط الأحرار بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى الإفراج عنه ، واشترك فى وزارة محمد نجيب (سبتمبر ١٩٥٢) . واجتمعت اللجنة العليا وقررت تنحية « حافظ رمضان » وتعيين « فتحى رضوان » رئيسا للحزب الوطنى . وردت اللجنة الإدارية وعدد آخر من شباب الحزب الوطنى تستنكر هذا الموقف .

وبعد إصدار القرار الخاص بتنظيم الأحزاب فى سبتمبر ١٩٥٢ تقدم « فتحى رضوان » بإخطار

لتأسيس (الحزب الوطنى الجديد) وتقدم « عبد الرحمن الرافعى » يسانده « فكرى أباظه » وآخرون ، بإخطار آخر باسم (الحزب الوطنى) . ووصل النزاع إلى القضاء الإدارى وبدأت المحكمة فى نظر القضية فى ١٧ نوفمبر ١٩٥٢ . وقررت المحكمة حجز القضية للنطق بالحكم إلى جلسة ٢٢ يناير ١٩٥٣ . ولكن نظام يوليو أصدر قرارا فى ١٦ يناير ١٩٥٣ بحل الأحزاب فأسدل الستار على هذه القضية وغيرها من القضايا المماثلة . واستمر « فتحى رضوان » وزيرا فى عدة وزارات حوالى ٧ سنوات ، أسهم فيها بدعم نظام جمال عبد الناصر ومحاربة النظام القديم وضرب حزب الوفد ، وفى الوقت نفسه اعتقل النظام الجديد « أحمد حسين » وشهدت ساحة السجن الحربى أبشع اعتداء على أحمد حسين وعبد القادرة عوده . وعلى أية حال فقد أنجز « فتحى رضوان» فى ثقافة مصر مايستحق الإشادة ويستحق التقدير .

فى الثقـافة

لا أحد يستطيع أن ينكر الدور الرائد الذى قام به « فتحى رضوان » فى فترة ولايته للارشاد القومى والثقافة بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . وأصدرت وزارة الثقافة فى عهد « فتحى رضوان » مجلة (المجلة) فى يناير ١٩٥٧ ، ومجلة (نهضة أفريقيا) . ونال (المسرح القومى) عناية كبيرة ، وكذلك (المسرح الغنائى) ، ويقول الدكتور « ثروت عكاشة » : من أهم البذور الطيبة التى غرسها الأستاذ فتحى رضوان « مركز الفنون الشعبية » الذى أنشأه عام ١٩٥٧ ليكون مؤسسة علمية لتسجيل التراث الشعبى بمختلف أنواعه . وفى عهده وضع « الدكتور حسين فوزى » بصماته على الثقافة ، وفى مقدمتها (البرنامج الثانى) فى الإذاعة وهو برنامج ثقافى . وتم إنشاء معاهد للباليه وللموسيقى وللسينما ومسرح للعرائس .

أصبح وزيرا فى سبتمبر ١٩٥٢ وترك الوزارة فى أكتوبر ١٩٥٨ ، وطوال هذه السنوات الست كان ـ رحمه الله ـ عاملا من عوامل تعميق الخلاف بين الوفد والثورة . لقد ظل « فتحى رضوان » طوال حياته خصما للثورة العرابية وللوفد ، وإلى يوم رحيله كان يرمى « أحمد عرابى ، وسعد زغلول، ومصطفى النحاس » بالخيانة . سيطرت عليه نظرة حزبية ضيقة ، ولذلك عندما رغب فى أن يكون زعيما لهذا الشعب ، لم تساعده أفكاره التى اعتنقها ، ولم يعط له هذا الشعب تلك الفرصة .

كان الرجل الثانى بعد أحمد حسين فى مصر الفتاة ، فجمد عضويته منذ عام ١٩٣٧ وكان عضوا بارزا فى مجموعة دخلت الحزب الوطنى عام ١٩٤٤ وحافظت على استقلالها حتى خرجت

بزعامة « فتحى رضوان » عام ١٩٤٩ ، وفصلت من الحزب الوطنى فى مايو ١٩٥٠ . ثم شارك مع نظام يوليو فى ضرب زعامات مصر كافة . ولكنه كان شعلة وهاجة إلى أن لقى ربه .

الأسـانيد :

١ ـ د . ثروت عكاشة . . مذكرات فى السياسة والثقافة .

٢ ـ جلال السيد . . الجمهورية ١٣/ ١٠/ ١٩٨٨ .

٣ ـ جلال الدين حمدى . . حديث شخصى ٥/ ١٠/ ١٩٨٨ .

٤ ـ د . حماده إسماعيل . . رسالة دكتوراه عن عبد الرحمن الرافعى .

٥ ـ د . على شلبى . . مصر الفتاة ودورها فى السياسة المصرية .

٦ ـ د . محمود متولى . . مصر والحياة الحزبية والنيابية .

فتح الله بركات



ثلاثة من آل بركات فى تاريخنا الحديث . لايكتمل الحديث عن احدهم إلا بالحديث عن الآخرين . . فتح الله بركات ارتبط اسمه بترشيحه رئيسا للوفد بعد وفاة زعيم الأمة « سعد زغلول » . . . وعاطف بركات القريب إلى قلب « سعد » وارتبط اسمه بمدرسة القضاء الشرعى التى انشأها « سعد » وألغاها « الشيخ محمد مصطفى المراغى » ، ثم « الدكتور بهى الدين بركات » والذى كان عضوا بهيئة الوصاية بعد تنازل « الملك فاروق » عن العرش فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ .

وآل بركات هم (أخوال) سعد زغلول الذى ولد فى قرية ابيانه بمركز فوه (مديرية الغربية وقتذاك) وأبوه الشيخ إبراهيم زغلول ، عمدة القرية . وقد سبق للشيخ إبراهيم زغلول أن تزوج من سيدة أنجب منها بنتين وخمسة أولاد هم : « عبد الرحمن وشناوى ومحمد واحمد وشلبى » ثم تزوج من « مريم » بنت الشيخ « عبده بركات » أحد كبار الملاك ، وانجب منها « ستهم وسعد ، وفتحى » ويذكر « محمد فريد » فى مذكراته ان « فتحى » هذا كان اسمه فى الأصل (فتح الله صبرى) وفصل من المدرسة لاشتراكه فى الدعوة إلى الثورة العرابية ، وغير اسمه إلى « أحمد فتحى زغلول » وعاد إلى الدراسة بالاسم الذى عرف به بعد ذلك. ونسير الآن مع ثلاثة من أبرز أسرة والدة سعد زغلول ، أسرة بركات . . ونبدأ بالدكتور « محمد بهى الدين بركات » بن « فتح الله بركات باشا » وبعده نعرض لأقرب (البركاتيين) إلى قلب سعد ونعنى به « عاطف بركات » وتبقى غالبية الحلقة لصاحب عنوانها « محمد فتح الله بركات » .

ابن فتح الله

فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢تنازل « الملك فاروق » عن العرش خضوعا لطلب من حركة الجيش التى

استولت على السلطة فى ٢٣ يوليو . وخرج « فاروق » من مصر وأصبح ابنه « الأمير أحمد فؤاد » ملكا على مصر تحت رعاية هيئة الوصاية التى تشكلت من القائمقام « محمد رشاد مهنا » أحد الضباط البارزين والمناوئين لجناح « جمال عبد الناصر » ومن « الأمير محمد عبد المنعم »، وهو ابن الخديو السابق « عباس حلمى الثانى » ومن « الدكتور محمد بهى الدين بركات » وهو ابن « محمد فتح الله بركات باشا » وهيئة الوصاية وإن كانت هيئة شكلية إلا أن القرارات ظلت تصدر ممهورة بتوقيع عناصرها الثلاثة .

ولقد تولى « محمد بهى الدين بركات بك » وزارة المعارف العمومية فى وزارة مصطفى النحاس الثانية من أول يناير ١٩٣٠ ـ ١٩ يونيو ١٩٣٠ . وذكرت الدوائر البريطانية أن تعيينه قد تم إرضاء لوالده فتح الله بركات الذى بدأت علاقاته بالوفد وبمصطفى النحاس تشوبها الحساسيات منذ عام ١٩٢٧ ، ولكن هذا لايقلل أبدا من كفاءة « بهى الدين بركات » وسمعته الطيبة . وكان ينظر إليه على أنه من العناصر (المعتدلة) كما كان ينظر إلى والده « فتح الله بركات » على أنه من العناصر اليمينية داخل الوفد . وبعد إقالة حكومة « مصطفى النحاس » جاء « محمد محمود » فى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ ليشكل حكومته الثانية ، وكانت المؤامرات قد اشتدت للاستيلاء على الوفد من الداخل عن طريق أحمد ماهر ومجموعته ، وضربه من الخارج عن طريق « على ماهر » والقصر، والشيخ المراغى ثم يتوج ذلك كله بانقسام (الهيئة السعدية) وقد شكل محمد محمود وزارته من عناصر لها ثقلها التاريخى مثل « عبد العزيز فهمى باشا » و« أحمد لطفى السيد باشا » وعناصر لها ثقلها الشخصى مثل إسماعيل صدقى باشا وعبد الفتاح يحيى باشا وحسن صبرى باشا وحسين سرى باشا وعناصر لها تاريخ وفدى مثل « أحمد محمد خشبة باشا » ومحمد بهى الدين بركات بك الذى اشترك وزيرا للمعارف العمومية إلى جانب عناصر حزبية أخرى معادية للوفد مثل « محمد حافظ رمضان» رئيس الحزب الوطنى وانتهت مهمة هذه الوزارة بإجراء انتخابات أجرتها الإدارة ضد الوفد . وبعد هذه النتيجة المصنوعة شكل محمد محمود وزارته الثالثة ولم يكن محمد بهى الدين بركات عضوا .

ومن الطريف ان محمد بهى الدين بركات فى مارس ١٩٣٢ وقف إلى جانب فريق فى الوفد نادى بمقاطعة التجارة البريطانية والدعاية لهذه المقاطعة وكانت لجنة المقاطعة تتكون من « محمد بهى الدين بركات » وعبد الحميد اللبان ومحمود فهمى النقراشى وكان « مصطفى النحاس » يؤيد هذا الاتجاه الذى عارضه حزب الأحرار بزعامة محمد محمود .

ومن الطريف أيضا أن على ماهر عندما شكل وزارته فى ١٨ أغسطس ١٩٣٩ ، بعد استقالة وزارة محمد محمود الرابعة بفعل مناورات « على ماهر » شكلها من خمسة وزراء من حزب

السعديين ، وثمانية من المستقلين . وتم انتخاب « أحمد ماهر » رئيسا لمجلس النواب بدلا من محمد بهى الدين بركات الذى كان وقت ذاك يؤيده الأحرار الدستوريون .

ويكفى هذا القدر عن « محمد بهى الدين بركات » بن « فتح الله بركات » لنلقى الأضواء السريعة أيضا على « عاطف بركات » ابن شقيقة « سعد زغلول » والذى كان يؤثره بعطفه وحبه وكان عاطف بركات من جانبه يكن الحب والتقدير للزعيم سعد زغلول .

عاطف بركات

ومن خلال مذكرات سعد زغلول ندرك أن عاطف بركات لم يكن مجرد ابن شقيقة الزعيم ، وإنما كان بمثابة الابن المتبنى يصحبه سعد معه فى غالبية تحركاته ويأنس له ولرأيه . . والمذكرات مليئة بالعبارات التلقائية التى تكشف عن هذه العلاقة . . يقول سعد : (فى يوم الجمعة توجهت مع عاطف لفتحى لتهنئته) وعاطف هو عاطف بركات ، وفتحى هو أحمد فتحى زغلول شقيق سعد . ويقول : (حضر أناس آخرون منهم لطفى السيد وعاطف والشيخ الخضرى وجرى الكلام على موضوعات شتى خاصة بالجريدة والذين يتغامزون ويعلنون فى الجرائد عن أنفسهم ثم انصرف الجميع . . وجلس عاطف وقلت له ماحصل) .

وعندما كان « سعد » ناظرا للمعارف ١٩٠٦ يقول : (فاتحت عاطف من بعيد فى موضوع كثرة عمل النظارة وقله الأنصار فيها ، واحتياجى إلى من يعاوننى ، وأريد ان أختار معينا كسكرتير عام أو وكيل) . ويبدو أن « سعدا » كان يريد أن يعرف ـ من بعيد ـ مدى موافقة عاطف إذا عرض عليه العمل معه وسنة ١٩٠٨ يكتب سعد : (عدت إلى المنزل ، وأخبرنى عاطف بان على بهجت كان تكلم مع محمد فريد هو ومحمد راسم ، فى شأن ماكتبه ضدى ، وأنه كتب إليه خطابا شديد اللهجة ولم يرد عليه السلام عندما قابله بعد ذلك) . وفى موضع آخر يكتب : (تقابلت مع ويلس وتواعدنا على أن نتلاقى فى يوم ٥ يونيو ، حيث يكون مترجما بيننا «عاطف » لعدم وجود من يثق به فى الترجمة) . وويلس هو ويلز المدير الإنجليزى للمدارس الصناعية .

وإذا كان هذا هو حب سعد لابن شقيقته عاطف ودرجة الثقة به ، ليس غريبا إذن أن يعينه ناظرا لمدرسة القضاء الشرعى ، وهى المدرسة التى صدر قرارها فى ٢٥ فبراير ١٩٠٧ عندما كان «سعد » ناظرا للمعارف وهى من أفكار « الشيخ محمد عبده » وعلى غير رغبة من « الخديو عباس حلمى الثانى » ويقول « أحمد أمين » فى مذكراته « حياتى » : (دعى مجلس النظار للاجتماع يوم

٢٥ فبراير ١٩٠٧ ورأسه الخديو ، فعارض الخديو المشروع واقترح إرجاء النظر فيه ، فعارض سعد باشا ودافع عن الفكرة وانضم جميع النظار إلى سعد باشا ماعدا ناظر الأشغال) . ويصف لنا أحمد أمين عاطف بركات : (ويتحين عاطف بك بركات فرصة الفسحة أو فرصة وجود بعض الطلبة فى المكتبة ويقف ويلف حوله من شاء من الطلبة يحاورهم ويحاورونه) . وكانت المدرسة تعد نفسها عملا من أعمال « سعد » الجليلة ، والوطنية والوفاء معا يوجبان عليها تأييده ما استطاعت . (وجاء يوم انعقد فيه مجلس الإدارة فى المدرسة فأجتمع بعض الطلبة تحت الحجرة التى ينعقد فيها المجلس وهتفوا بحياة سعد . . ولم يأت المساء حتى أعلن قرار مجلس الوزراء بإحالة عاطف بك إلى المعاش) .

وبعد ان فشلت مفاوضات « عدلى يكن » مع الانجليز عاد عدلى فى ٥ ديسمبر ١٩٢١ ليقدم استقالته التى أرجا « الملك أحمد فؤاد » قبولها ملقيا اللوم فى فشل المفاوضات على سعد وصحبه ، وأنذرت السلطات البريطانية سعدا وفتح الله بركات وعاطف بركات ، ومصطفى النحاس ، وسينوت حنا بمغادرة القاهرة إلى الريف . وقال سعد كلمته المعروفة : فلتفعل القوة بنا ما تشاء وقبل الملك استقالة عدلى فى ٢٤ ديسمبر ١٩٢١ ، وفى ٢٩ ديسمبر كانت سفينة بريطانية بأمر من اللنبى تحمل سعد زغلول وفتحى بركات وعاطف بركات ومصطفى النحاس وسينوت حنا ومكرم عبيد من السويس إلى عدن ثم جزيرة سيشل وهو مايعرف بالاعتقال الثانى لسعد زغلول .

فتح الله بركات

وفى الوزارة الشعبية (٢٨ يناير ١٩٢٤ ـ ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤) التى شكلها « سعد زغلول » كان « محمد فتح الله بركات باشا » وزيرا للزراعة ، ومن داخل الوزارة ذاتها تولى وزارة الداخلية فى ٢٥ أكتوبر حتى تاريخ استقالة الوزارة أى لمدة شهر واحد فى أعقاب اغتيال(السردار) . وفى ٧ يونيو ١٩٢٦ شكل عدلى يكن وزارته الثانية وهى (ائتلافية) شغل فيها « محمد فتح الله بركات» منصب وزير الزراعة حتى (٢١ أبريل ١٩٢٧) وكان الانجليز قد خشوا أن يشكل « سعد » الوزارة بعد الأغلبية الكاسحة التى نالها الوفد فى انتخابات أخريات أيام وزارة « زيور » الثانية وبعد استقالة وزارة عدلى لم يمكن الانجليز والقصر « سعد زغلول » من تشكيل الوزارة . وشكلت الوزارة برياسة « عبد الخالق ثروت » من ٢٥ أبريل ١٩٢٧ ـ ١٦ مارس ١٩٢٨ ، وكان « محمد فتح الله بركات وزيرا للزراعة .

وفى عهد وزارة عبد الخالق ثروت رحل زعيم الأمة « سعد زغلول » فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ . وكتب فى وصيته أن تحفظ مذكراته لدى من يخلفه فى زعامة الوفد وبمعرفة « فتح الله بركات »

وتنفيذا للوصية قام فتح الله بركات بتسليم مذكرات سعد إلى «مصطفى النحاس » بعد أن اختاره الوفد رئيسا له . وبعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ سلم « مصطفى النحاس » المذكرات للدكتور محمد بهى الدين بركات بن « فتح الله بركات » باعتباره أحد ورثة سعد زغلول وبعد ذلك تسلمت الدولة المذكرات من الدكتور بهى الدين بركات واودعتها دار الوثائق القومية لتصبح تحت نظر المؤرخين والباحثين ، إلى أن أذن الله بأن يقوم مركز تاريخ ووثائق مصر المعاصر بنشر الجزء الأول من المذكرات تحت إشراف وبتحقيق « الدكتور عبد العظيم رمضان » .

وقد كان للدكتور « محمد بهى الدين بركات » دور هام فى الحفاظ على (مذكرات سعد زغلول) والحفاظ على مذكرات والده (فتح الله بركات) ولقد جمعت (مذكرات فتح الله بركات) فى ٤٧ كراسة معظمها بخط يده ، فلما أصيب البصر بالمرض أخذ يملى على سكرتيره الأجزاء الأخرى . ويلاحظ أن (مذكرات بركات) لم تخضع لترتيب زمنى . وليس هناك ترقيم للكراسات ، وقد تم هذا الترقيم بعد وفاته بطريقة غير دقيقة ومذكرات بركات تغطى الفترة من (١٩٢٢ ـ ١٩٣٤) أى من السنة التى نفى فيها مع «سعد » ومع « عاطف بركات » إلى سنة وفاته . وتعد مذكرات فتح الله بركات من أهم المصادر عن تلك الفترة وعن نشاط الوفد وسعد زغلول .

الزعـامة بعد سعد

ومن أهم ما يشغل الباحثين بالنسبة إلى « محمد فتح الله بركات باشا » هو موقفه فى الانتخابات التى أجريت فى سبتمبر ١٩٢٧ لاختيار خليفة لسعد زغلول فى زعامة الوفد ، فقد كان « فتح الله بركات » أبرز المرشحين لرياسة الوفد من دوائر كثيرة خارج الوفد وداخل الوفد . فقد نفى مع «سعد » فى سيشل ، وكان عضوا فى الهيئة العليا للوفد على يدى سعد ، واختاره الزعيم وزيرا فى الوزارة الشعبية ووافق له ان يكون وزيرا فى وزارتى عدلى يكن وعبد الخالق ثروت . وكان ترشيحه لرياسة الوفد ـ فى نظر بعض الباحثين ـ مقبولا لدى الدوائر الحزبية خارج الوفد باعتبار الوضع الاجتماعى الذى ينتمى إليه ويضعه « ماريوس ديب » فى كتابه (الوفد وخصومه) فى فئة الملاك المتوسطين ، بينما يضع فى فئة الأفندية «سعد زغلول ، ومحمد عاطف بركات » واللذين ترجع أصولهما إلى فئة الملاك المتوسطين ، أما الذين ينتمون إلى الطبقة المتوسطة المدينية مئة فى المئة ولايملكون مساحة لها أهمية من الأرض فمنهم « مصطفى النحاس وويصا واصف ومحمد نجيب الغرابلى » ووضع الباحث نفسه عددا من قيادات الوفد أيام سعد ضمن طبقة كبار الملاك مثل «حمد الباسل ، المصرى السعدى ، محمد علوى الجزار ، فخرى عبد النور . . »

وخلال فترات رئاسة سعد للوفد كان « سعد » هو صاحب السلطة الفعلية ، ومعه مجموعة

مقربة منه مثل « مصطفى النحاس وواصف غالى ، وفتح الله بركات ، ومرقص حنا ، وعلى الشمسى ، وأحمد ماهر » . وقد احتدم الصراع داخل الوفد بعد وفاة سعد . . وترشح للرئاسة اثنان فقط وآخرون رشحوا أنفسهم بينهم وبين أنفسهم وبين انصارهم المرشحان المعلنان هما مصطفى النحاس وفتح الله بركات . . مصطفى النحاس سكرتير عام الوفد ، والقاضى النزيه ، والوزير فى وزارة سعد ، ونفى معه مثلما نفى فتحى بركات وعاطف بركات والمناضل المثابر والقريب إلى غالبية قاعدة الوفد العريضة من حيث الوضع الاجتماعى و«بركات » تقول عنه المصادر (محنك فى التنظيم والتآمر) وعمدة سابق ، ولم يكمل تعليمه الثانوى فهو بعيد عن المتعلمين فى الوفد . ويقول البعض إن « سعد زغلول » قدألمح إلى ان النحاس هو الذى يصلح للزعامة من بعده . وقد نشطت مجموعة « مكرم عبيد واحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى » فى تأييد مصطفى النحاس وكانت أمنية الانجليز ألا يتولى « النحاس » رئاسة الوفد كانوا يفضلون شخصية تميل للجناح الأيمن مثل « على الشمس أو فتح الله بركات » وقد عرف عن « بركات » مهارته التنظيمية التى كسبت للوفد التأييد الشعبى فى الوجه البحرى ، وكان سياسيا بارعا ، عرف كيف يتعامل مع الفلاحين ومع الأعيان وكرس نفسه لخدمة «سعد زغلول » ولكنه لم يكن يعرف لغة أجنبية ، ولم يكن مثقفا ثقافة غربية . وعرف عنه الحرص والحذر حتى إن البعض وصفه (بالمناورة والتآمر) وتردد فى الترشيح لرئاسة الوفد اسما « واصف غالى » و«أحمد ماهر » وتوارى أحمد ماهر وانضم إلى المجموعة النشطة التى دعت إلى اختيار مصطفى النحاس وهى مجموعة « مكرم وماهر والنقراشى » وقال مكرم بالقرابة إلى قلب الزعيم والقرابة إلى الوطن فى مقابل شعار (القرابة الأسرية) . . وكان يقصد أن يرجح كفة « مصطفى النحاس » سكرتير عام الوفد والمناضل الجسور ، وحتى يقفل باب (القرابة الأسرية) قال : (كان على بن ابى طالب ابن عم الرسول . . واستخلف المسلمون أبا بكر . . دعونا من صلات القربى والدم) . وتم انتخاب « مصطفى النحاس » زعيما للوفد . . وأحداث التاريخ لاتقع مصادفة .

الأسـانيد :

١ ـ أحمد أمين . . حياتى .

٢ ـ سعد زغلول . . المذكرات جـ١ . تحقيق د . عبد العظيم رمضان .

٣ ـ د . عفاف لطفى السيد . . تجربة مصر الليبرالية ترجمة عبد الحميد سليم .

٤ ـ ماريوس ديب . . الوفد وخصومه . ترجمة عبد السلام رضوان .

٥ ـ محمد السوادى . . اقطاب مصر .

فخرى عبد النور



ما أعظم أن يموت الجندى فى ساحة الوغى وأن يموت الكاتب وفى يده القلم وما أروع أن يموت الفنان أمام الجمهور الذى يصفق له . . وهاهو « فخرى عبد النور » يموت فى مجلس النواب يوم التاسع من ديسمبر سنة ١٩٤٢ .

وقد وجه سؤالا إلى وزير الصحة عن التدابير التى أمر باتخاذها لمكافحة حمى الملاريا بمديريتى جرجا وأسوان . . ويطلب الأستاذ « محمود سليمان غنام » بالنيابة عن وزير الصحة تأجيل الإجابة على السؤال لأن وزير الصحة يتفقد فعلا بلاد النوبة وأسوان من أجل الغرض الذى جاء فى السؤال .

وللنائب « فخرى عبد النور » سؤال ثان عن قانون (الإكثار من زراعة القمح) ويرجو « محمد فؤاد سراج الدين » وزير الزراعة المجلس فى ان يؤجل الرد على هذا السؤال أسبوعين .

ثم السؤال الثالث للنائب نفسه إلى وزير الزراعة « محمد فؤاد سراج الدين » أيضا عن السماد الذى تصرفه الحكومة لكل فدان يزرع قمحا . . ويتولى سراج الدين الرد . .

وأمامى مضبطة ، وإن شئت الدقة ، صورة لمضبطة الجلسة الرابعة فى دور الانعقاد العادى الثانى لمجلس النواب ، المنعقدة فى يوم الأربعاء غرة ذى الحجة سنة ١٣٦١هـ . الموافق ٩ من ديسمبر سنة ١٩٤٢م . .

وجدول الأعمال فى مقدمته تلاوة الاعتذارات وأسماء الغائبين دون إذن فى الجلسة السابقة ـ لا أدرى اذا كان هذا التقليد لم يزل معمولا به ؟ ـ وبعد إجراءات أخرى تأتى الأسئلة .

ماشاء الله . . نواب الشعب يقدمون فى هذه الجلسة عشرة اسئلة . . سؤالين لوزير التموين

وسؤالين لوزير المواصلات وسؤالين لوزير المالية وسؤالا لوزير الوقاية ، ثم أسئلة ثلاثة يقدمها فخرى عبد النور .

جلسة الوداع

سراج الدين نحن السبب فى أن تقوم وزارة المالية فى توزيع حوالى ٣٣ كيلو من السماد لفدان القمح - كان هذا فى أثناء الحرب العالمية الثانية - ويقف « فؤاد سراج الدين » يوضح بالأرقام الكميات المتاحة من السماد وتوزيعها على الزراعات المختلفة . . ويعقب « حضرة النائب المحترم فخرى عبد النور بك » محتجا ومحتدا . .

(تصفيق) . . نقلا عن المضبطة . .

وأسير مع المضبطة الحزينة وبين قوسين (بعد أن جلس حضرة النائب المحترم فخرى عبد النور بك بدت عليه دلائل التعب الشديد ثم مال فى مقعده مغشيا عليه) .

الرئيس (عبد السلام فهمى جمعة) - ترفع الجلسة وتخلى القاعة من حضرات النواب المحترمين والشرفات من حضرات الزائرين (رفعت الجلسة فى الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والأربعين مساء وأخليت القاعة والشرفات) . أعيدت الجلسة فى الساعة السادسة والدقيقة الثلاثين مساء .

الرئيس - حضرات الزملاء المحترمين .

ما أصدق الشاعر المصرى حين قال :

دقات قلب المرء قائلة له .

إن الحياة دقائق وثوان

وها هو فخرى عبد النور كان يؤدى واجبا وطنيا بينكم فهوى بيننا وهوى قلبى بين جنبى . فإنى لأعرف فخرى من أمد طويل، من بدء النهضة الوطنية ، رجلا شريفا مجاهدا قوى الإيمان، ولقد قدر له أن يموت فى ميدان الجهاد ميتة المجد والشرف .

وتكلم النائب عبد السلام الشاذلى . . أعتقد أننى إنما أعبر عن شعور إخوانى هنا اجمعين ، إذ أعرب عن مشاركة حضرة صاحب السعادة رئيس المجلس وحضرات الزملاء فى الحداد والحزن على فقيدنا الكريم الذى اختطف من بيننا وهو يؤدى واجبه عن أمته على أكمل وجه .

وتحدث حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس مجلس الوزراء - إنى باسم الحكومة - أعرب عن بالغ تأثرى وزملائى أجمعين لهذا الحادث الفاجع فلقد ثوى الفقيد العزيز وهو قائم بيننا فى هذه الساحة المقدسة يؤدى أشرف الواجبات واجب النيابة عن امته ، ولقد قضى الفقيد زهرة حياته فى خدمة أمته فلم يكن بعيدا عن الحركة الوطنية بل لقد اشترك فيها منذ بدئها وساهم فيها بنصيب وافر ،

وعاصر كل أحداثها البارزة حتى لقد كان حافظا لخطاها ، مسجلا لحوادثها شأن من تابع بالجهاد أطوارها من أولها إلى آخرها .

أما النائب المحترم مكرم عبيد . . فقال ببلاغته المعروفة عنه ـ وكأن الله قد أهم المجلس الموقر فصفق تصفيقا أخيرا ، لا لخطابه، وإنما لجميع جهاده الذى تركز فى كلمته الأخيرة وهو يؤدى واجبه عن بلاده ونصل إلى النائب المحترم حسن يسن ـ الذى قال بعد قصيدة قصيرة . . عرفت فخرى منذ فجر الحركة الوطنية واعتقلت معه ستة أشهر فى قصر النيل فكان لنا مثالا طيبا وقدوة حسنة ، وقد كان يتصدرنا فى كل أمر حتى لقبناه بالرئيس . . عاش فخرى مجاهدا ، ومجاهدا فقط فلم يتقلد منصبا ولم يسع إلى شىء من هذا القبيل .

الطبقة الثالثة

هذا نوع رائع من الرجال يكافح دون أن ينتظر الجزاء ، يدفع دون أن ينظر إلى عائد . . لم يطلب شيئا ، ولم يأخذ شيئا ، ولم يعطه أحد شيئا . . وفى ٢٠ ديسمبر ١٩٢١ وجه الانجليز إنذارا إلى كل من سعد زغلول ومصطفى النحاس وسينوت حنا وجعفر فخرى وأمين عز العرب وصادق حنين أن يبتعدوا عن القاهرة وأن يلزموا الإقامة فى الريف ليفسحوا الطريق لمفاوضات عدلى مع الانجليز ، وتم إبعاد سعد والنحاس وسينوت ومكرم وجعفر إلى سيشل . وبقى ما عرف بالطبقة الثانية من الوفد وقبض الانجليز على هذه الطبقة « حمد الباسل ومراد الشريعى ، وعلوى الجزار وويصا واصف » وساقوهم إلى قشلاق قصر النيل وصدر الحكم عليهم بالإعدام ـ تغير الحكم بعد ذلك ـ ولم يتراجع الرجال وتألفت هيئة الوفد الجديدة التى عرفت بالطبقة الثالثة من « المصرى السعدى وحسين القصبى وفخرى عبد النور ومحمد نجيب الغرابلى ، ومصطفى القاياتى ، وسلامة ميخائيل» . وأصدروا بيانا إلى الأمة وفى ٢٧ يناير ١٩٢٢ تم الإفراج عن الذين كان قد صدر ضدهم قرار بالإعدام لإرهاب الوطنيين وصدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وترك على ماهر الوفد وعين ناظرا لمدرسة الحقوق وعادت السلطات الانجليزية فى يوليو ١٩٢٢ واعتقلت «حمد الباسل ورفاقه » ونشطت الطبقة الثالثة من جديد وكان «محمد نجيب الغرابلى » معتقلا فى طنطا وسلامة ميخائيل كان فى أوربا وانضم إلى الوفد نجيب اسكندر وقدمت السلطات سبعة من الوفد للمحاكمة وهم حمد الباسل ومرقص حنا وواصف غالى وعلوى الجزار وويصا واصف ومراد الشريعى وجورج خياط ، وصدر الحكم عليهم بالسجن سبع سنوات بدلا من الإعدام وهتف «واصف غالى » لتحى مصر وردد الحاضرون الهتاف وقبض البوليس على شاب من الهاتفين وكان هو الدكتور أحمد ماهر ونقلوا إلى سجن مصر ثم إلى معتقل ألماظه .

الوطنى الغيور

كان « سعد زغلول » لايذكر اسم « فخرى عبد النور » أمام الناس إلا ويردفه بعبارة (الوطنى الغيور) حتى أضحى لقباً له بين إخوانه وعلى الألسنة وأصدر الوطنى الغيور مع إخوانه أعضاء الطبقة الثالثة بيانا ملتهبا ضد سلطات الاحتلال ودفاعا عن زملائهم المحكوم عليهم وقال سعد (لو أن هذه الطبقة لم تتقدم الصفوف بعد محاكمة حمد الباسل وإخوانه لظن اللنبى أنه نجح فى القضاء على الحركة . .) .

وفى فجر يوم الاثنين ١٤ أغسطس ١٩٢٢ صبيحة يوم صدور الحكم بالإعدام على حمد الباسل وزملائه ـ أحاط جنود الاحتلال بمنزل فخرى عبد النور وألقوا القبض عليه وكان فى حراسته الضابط « التونى الضبع » وذهبوا به إلى القلعة وبعدها جاءوا بالدكتور نجيب اسكندر والشيخ مصطفى القاياتى ومحمود فهمى النقراشى ، وحسن يس وعبد الستار الباسل ومحمد نجيب الغرابلى ثم نقلوا إلى ثكنات قصر النيل (مكان النيل هيلتون ومبنى الجامعة العربية بميدان التحرير الآن) . واختار المعتقلون السبعة فخرى عبد النور متحدثا باسمهم لدى سلطات الاعتقال ومما يذكر الشيخ مصطفى القاياتى كان أبوه وعمه من أشد المشايعين للثورة العرابية ونزلا ضيفين على معتقل ثكنات قصر النيل سنة ١٨٨٢ .

وفى ٢٢ أكتوبر ١٩٢٢ أفرج عن محمد نجيب الغرابلى والدكتور نجيب اسكندر ، وفى ١٥ نوفمبر افرج عن الشيخ القاياتى وعبد الستار الباسل ومحمود فهمى النقراشى ، وبقى فى الاعتقال حسن يس وفخرى عبد النور وفى ١٧ نوفمبر أطلق الرصاص على المرحومين حسن عبد الرازق وإسماعيل زهدى وهما خارجان من دار حزب الأحرار الدستوريين فأعيد اعتقال الشيخ القاياتى واعتقل الدكتور محجوب ثابت ، وفى ٢٧ ديسمبر أفرج عن حسن يس وبقى فخرى عبد النور وحده فى المعتقل وفى يوم السبت ٣ فبراير ١٩٢٣ تم الإفراج عن فخرى عبد النور ، وكان « سعد زغلول » منفيا فى جبل طارق وأرسل البرقية التالية (إن الافراج عنكم ، المرتقب بفارغ الصبر ملأنا سرورا فلكم أطيب التهانى ونحن معجبون بتفانيكم فى خدمة القضية الوطنية) .

ولكن فترة حريته لم تتجاوز شهرا ويومين فاعتقل من جديد فى ٥ مارس ١٩٢٣ واعتقل جميع أعضاء الطبقة الثالثة من الوفد ومن ثكنات قصر النيل نقلوه إلى (سجن الأجانب) وكان هناك «محمد أبو شادى ، عبد الحليم البيلى ، ومحمود فهمى النقراشى وراغب اسكندر وعبد الغنى سليم عبده » . وبعدها نقلوا « فخرى عبد النور » إلى سجن مصر . وأعادوه إلى سجن الأجانب مرة أخرى وكان الإفراج عنه يوم الاثنين ١٢ يونيه ١٩٢٣ .

ولقد قدر لفخرى عبد النور أن يلتقى فى فترة باكرة بسعد زغلول عندما كان سعد وزيرا للحقانية فى وزارة محمد سعيد التى أعقبت وزارة « بطرس غالى » فى ٢٠ فبراير سنة ١٩١٠ وكان «فخرى بك » فى الأصل من أعضاء حزب الأمة . . وأتركه يحدثنا عن هذه المقابلة فى مذكراته . . فيما أنا فى منزلى هناك ـ يقصد مدينة جرجا ـ فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩١٠ جاءنى القاضى الشرعى . المرحوم الشيخ عبد الحكيم خطاب » وبلغنى نبأ قدوم سعد باشا تصحبه صاحبة العصمة السيدة الجليلة حرمه (أم المصريين) والمرحوم سعيد زغلول ، وكان إذا ذاك طالبا بمدرسة الحقوق والآنسة رتيبة هانم (قرينة الأستاذ محمد أمين يوسف ـ فيما بعد ـ ووالدة الأستاذين مصطفى أمين وعلى أمين) ثم كان لى شرف زيارته إياى فى منزلى ومعه القاضى الشرعى والقاضى الأهلى « توفيق حقى» ومدير الإدارة القضائية « محمد علام » وزير الزراعة فيما بعد ثم سكرتيره الخاص فؤاد كمال .

وكان هذا أول لقاء مع « سعد باشا » وأول حديث دار بينى وبينه وأذكر انى دعوته حينئذ أن يجلس على كرسى كان صاحب السمو الخديو عباس حلمى قد جلس عليه يوم تكرم بزيارتى فى منزلى بجرجا يوم الأربعاء ٩ فبراير ١٩٠٩ فطلب إلى « سعد باشا» أن أحدثه عن هذه الزيارة وكانت جلسة ممتعة أدار فيها سعد باشا الحديث بأسلوبه الجميل الساحر وسألنى عن تاريخ الإنعام على برتبة البكوية ، ورددت على سؤال له بأنى وكيل البنك المصرى فى جرجا من سنة ١٩٠٤ ، وسألنى أيضا فى أى المدارس تعلمت فقلت إنى اتممت ثقافتى فى مدرسة الجزويت بمصر ـ يقصد القاهرة ـ .

واذكر بهذه المناسبة أنه كان قد زارنى فى هذه الدار قبل ذلك ببضعة أيام إبراهيم نجيب باشا مدير عموم الأوقاف مع صهره على أبو الفتوح بك مدير جرجا ، وأحمد أبو الفتوح باشا والده كما زارنى إسماعيل باشا وزير الأشغال وأحمد حشمت باشا وزير المالية .

الحركة الوطنية

كانت تلك المقابلة الباكرة لسعد باشا وقبل أن نصل لاشتراك « فخرى عبد النور » فى الحركة الوطنية بزعامة سعد زغلول نقدم الرجل من بيان موجز لموسوعة جديدة تحت الإعداد كتبها « سعد فخرى عبد النور » الذى أسماه والده باسم سعد حبا وإعجابا بسعد باشا . . ولد فخرى عبد النور بمدينة جرجا فى ١٥ يونيه ١٨٨١ وتوفى بالقاهرة فى ٩ ديسمبر ١٩٤٢ والده عبد النور اقلاديوس (١٨٤٩ ـ ١٨٩٠) اشترك فى إعداد الحملة العسكرية التى شنها الخديو إسماعيل لتثبيت حقوق مصر فى المديريات الاستوائية وقد زارته الإمبراطورة « اوجينى » بمنزله بجرجا فى نوفمبر ١٨٦٩ ، أما جده « اقلاديوس حنين » ١٨٠٤ ـ ١٨٧٧ فقد كان مساعدا لحاكم الإقليم من ١٨٥٥ ـ

١٨٧٣ ، فى عام ١٩٠٨ انضم إلى حزب الأمة واتصل بأحمد لطفى السيد ، وانضم لحركة سعد زغلول الوطنية فى نوفمبر ١٩١٨ وتلك قصة رائعة نترك للمذكرات أن توجزها لنا . .

. . يوم الأربعاء ١٣ نوفمبر ١٩١٨ كانت المجالس فى القاهرة تتحدث عن ذهاب الزعماء الثلاثة . . سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى » إلى دار الحماية البريطانية لمقابلة المعتمد البريطانى « ونجت وبعدها شاء الله أن أقصد إلى « المدرسة الناصرية » لأمر خاص بأكبر أبنائى موريس وقابلت ناظرها ـ سعيد فهمى الروبى بك ـ وفيما أنا معه فى مكتبه إذ دخل الشيخ الوقور على شعراوى باشا ، وأفصح لنا عما دار فى هذه المقابلة التاريخية . . وفى مساء اليوم نفسه زرت نادى رمسيس وهو ناد يضم كبار الأقباط ورويت للحاضرين ما سمعته . . وقرروا انتداب ثلاثة من الحاضرين للذهاب إلى سعد باشا واختير الثلاثة وهم . . ويصا واصف وتوفيق اندراوس وفخرى عبد النور . . واستقبلنا « محمد على علوبة بك » وانتظرنا حتى حضر سعد باشا . . وحضر هذه المقابلة على شعراوى ومحمد محمود وأحمد لطفى السيد ومحمد علوبة ومحمود أبو النصر وقد رحب بنا سعد باشا ترحيبا كبيرا وأعرب عن اغتباطه بالفكرة التى من أجلها حضرنا وظن سعد أننا جئنا لنرشح « ويصا واصف » فأعرب عن اغتباطه بهذا الترشيح إلا أن « ويصا واصف » اعتذر . . وأخيرا أبلغنا سعد باشا الشخص الحائز للصفات الكاملة المؤهلة لعضوية الوفد هو «واصف بطرس غالى » فاغتبط سعد باشا لهذا الاختيار فأعرب عن ثقته وتقديره لعلمه ومكانته ، وأرسل له « ويصا » تلغرافيا بترشيحه إلا أن التلغراف لم يصل إلا بعد زمن بسبب الرقابة العسكرية .

ثم رأى الوفد بعد ذلك أن يضم « سينوت حنا » العضو فى الجمعية التشريعية وجورج خياط فحلفا اليمين مع حمد الباسل فى جلسة واحدة وكان ذلك فى ٢ ديسمبر سنة ١٩١٨ .

ولما خرجنا من حضرة سعد باشا أخذنا معنا نسخا من التوكيلات وقصدنا إلى نادى رمسيس فانهالت التوقيعات عليها من جميع الوافدين على النادى وكان يتولى هذا العمل شقيقى لبيب بك ، وقد توفى مع مزيد الحزن بعد ذلك بأيام قليلة . .

مع المذكرات

أروع ما كتب عن سعد زغلول وجدته فى هذه المذكرات ، قصيدة حب جميلة لشخص سعد وكفاحه فى هذه المذكرات وقد تفضلت الأسرة الكريمة بنسخة من التجار قبل أن تصدر وتتميز بالتفاصيل اليومية الطريفة وتنم عن ذاكرة تعى .

وهى فى النهاية تكشف عن الشخصية الجبارة لسعد زغلول وقدرته على الارتباط بالناس

جماعات وأفرادا ، وعلى الطاقة الهائلة التى تميز بها حتى وهو فى مراحل أخيرة من عمره ، وتبدأ المذكرات بلقاء فخرى عبد النور بسعد زغلول سنة ١٩١٠ وتنتهى بأيام التضحية والبذل سنة ١٩٢٣ ، وهى زاخرة بالأحداث الدقيقة وبالوصف الدقيق للشخصيات التى تعترض الأحداث وصفا أمينا .

أعرف ويعرف غيرى كيف تحارب الحكومة أى حكومة زعيما شعبيا وحزبا شعبيا . . ولكن التفاصيل المذهلة لتآمر حكومة عدلى يكن والسلطات الانجليزية ضد زيارة زعيم الأمة للصعيد التى تقرر أن تبدأ من الجيزة بباخرة نيلية يوم الثلاثاء ١١ أكتوبر ١٩٢١ على أن تمر الباخرة ببنى سويف والمطاهرة وجزيرة بهيج وأسيوط و« أبو» تيج والنخيلة وسوهاج وجرجا ونجع حمادى وقنا وتنتهى عند وصولها إلى الأقصر يوم الأربعاء ١٩ أكتوبر ، هذه التفاصيل توضح درجة التآمر من الانجليز ومديرى المديريات وحشد رجال الإدارة والخفراء وتحطيم الزينات وموائد الطعام والتآمر الدنىء على حياة الزعيم أكثر من مرة ، ولكنها توضح أيضا شجاعة رجال سعد فى المواجهة والتضحية إلى حد الصدام الدامى وسقوط الأبرياء . . وإلى صور تهتز لها النفوس والأبدان . . فى غمرة حشود الحكومة التى رتبت لتهتف ضد سعد وتهديد حياته إذا نزل من الباخرة إلى البر . . ولكن عندما يطل زعيم الأمة من الباخرة بهيبته ومهابته تتحول الجموع إلى أصوات هادرة تهتف بحياة مصر وزعيم مصر وبسقوط الانجليز وبرادع الانجليز . . كانت أيام . .

الأسـانيد :

١ ـ سعد فخرى عبد النور . . حديث معه .

٢ ـ فخرى عبد النور . . مذكرات .

٣ ـ مجلس النواب . . مضبطة جلسة يوم ٩ ديسمبر ١٩٤٢ .

فكـرى أباظـة



إذا كان « محمد فكرى حسين أباظة » قد شيعت جنازته فى ١٤ فبراير من عام ١٩٧٩ ، فإن محاولة قد جرت قبل ذلك بسنوات لواد قلمه وإخفاء اسمه ، فى ١٨ أغسطس من عام ١٩٦١ نشرت الأهرام على صفحتها الأولى خبرا يقول : (أصدر أمس الرئيس جمال عبد الناصر قرارا بإعفاء السيد محمد فكرى أباظة من رئاسة مجلس إدارة مؤسسة دار الهلال ورئاسة تحرير المصور) .

وكان هذا اليوم بداية لإخفاء اسم « فكرى أباظة » من الصحافة المصرية ، ذلك الاسم الذى ظهر على صفحات (الأهرام) منذ عام ١٩١٨ حتى عام ١٩٢٦ ، وأثناء عمله بدار الهلال عمل رئيسا لمجلس إدارة الأهرام من ٢٤ مايو سنة ١٩٦٠ إلى ١٥ أغسطس من عام ١٩٦١ .

ورفع اسم « فكرى أباظه » من صحف (دار الهلال) والتى بدأ يظهر عليها منذ عام ١٩٢٤ (تاريخ صدور المصور) وفى أكتوبر ١٩٣٤م اختاره أصحاب (دار الهلال) رئيسا لتحرير المصور وملأت الشوارع صيحات باعة الصحف . . (فكرى أباظه . . المصور) .

رفع اسمه من الصحافة المصرية ، وقضى عليه أن يقبع فى مسكنه وحيدا ، أو كما قال هو : (حدث اننى قرأت فجأة بالأهرام اننى اعفيت من جميع مناصبى . . وقضى على أن الجأ إلى الشارع واستريح فى قهوة الأنجلو . . .)

وجرت حول الرجل . . عملية تعذيب من نوع غريب . . كان فى عام (الفصل) فى الثامنة والستين من عمره (ولد عام ١٨٩٣م) وانطفأ اسمه بين الناس بقرار اتهام غامض نشر فى الصفحة الأولى من (الأهرام) فى صورة (تعقيب من مصدر مسئول) يشوه صورة « الرجل » بسبب مقال من مقالاته دون أن يكتب أحمد من فرسان الكلام كلمة واحدة فى حق الرجل ، ودون ان يسمح له بالتوضيح أو بالشرح أو بالتعقيب . .

ولكن سمح له بالاعتذار ، وسط هذا المناخ وفحيح الافاعى حوله وهو على اعتاب السبعين . . سمح له بالاعتذار فى صورة مقال خرجت به (الأهرام) أيضا يوم الأثنين ٢٥ سبتمبر ١٩٦١ على الصفحة الأولى . . مقال اضاع كثيرا من رصيد الرجل عند الناس . . ثم سمح له بأن يعود ككاتب فى المصور بداية من ١٦ إبريل ١٩٦٢ . . واعتقد أن الموقف كله يستحق أن يروى للأجيال الجديدة . .

فى ١٨ أغسطس ١٩٦١ صدر (المصور) وبه مقال «فكرى أباظة» بعنوان (الحالة ج) حذر فيه من أن الحرب الباردة توشك أن تتحول إلى حرب حامية واقترح ـ حسب طريقته وبأسلوبه ـ حل جميع الأحلاف العسكرية ، وحل الدولة الشيوعية ، وجلاء القوات السوفيتية والأمريكية والإنجليزية والفرنسية من ألمانيا الغربية والشرقية ، وتوحيد الشطرين فى دولة محايدة واقترح إجراء إصلاح جوهرى فى كيان الأمم المتحدة ، وجلاء القوات الأجنبية من أسيا وأفريقيا ، وحياد منطقة الشرق الأدنى وجميع الدول العربية . . ثم اقترح قيام اتحاد فيدرالى بين الدول العربية ، على أن تدمج فلسطين بما فيها إسرائيل فى هذه الدول وذلك بعد أن تزول الصفة الدينية عن إسرائيل ويصبح الإسرائيليون كأى أقلية من رعايا هذا الاتحاد وأن تكفل لهم كل حقوقهم . . وختم المقال بدخول الصين الشعبية الأمم المتحدة . .

هذا هو مقال ١٨ أغسطس ١٩٦١ الذى كتبه « فكرى أباظة » كأمنيات يقوم بها لو كان أحد أقطاب العالم ، مجرد افكار تقبل أو ترفض ، تناقش أو لا تناقش ، وكان يمكن أن يدور حولها حوار ينتهى بأن ترفض برمتها ، إلا أن « المعقب المسئول » الذى أشارت إليه (الأهرام) عندما نشرت قرار فصل « فكرى أباظة » رأى ـ حسب خبر الأهرام ـ (إن هذا الاتجاه يحمل معانى عديدة لايمكن السكوت عليها فهو ينطوى على دعوة بأن تتجمع الدول الكبرى وتفرض على الدول العربية اتحادا بينها كما ينطوى على دعوة للدول الكبرى بأن تفرض دمج إسرائيل فى اتحاد عربى) .

ولم يعرف أحد من هو هذا « المعقب المسئول» وأغلب الظن أنه هو نفسه الذى كتب حيثيات فصل « فكرى أباظة » ثم نشرت الحيثيات على أنها كلام « معقب مسئول » .

وقد حاول « فكرى أباظة » أن يرد ولم يسمح له أحد بالرد وإنما سمحوا له بالاعتذار الذى أشرنا إليه ، وذلك فى صورة مقال بعنوان « معركة بين ضميرى وقلمى » فى مقال نشره الأهرام فى ٢٥ سبتمبر ١٩٦١ واستهله بقوله : (كان واجبا علىّ أن أنشر لقرائى إيضاحا عن مقالى . . ولقد كان أوجب أن أقدم هذا الايضاح لصاحب الشأن اولا ، وهو سيادة الرئيس . . ولقد فعلت والرجل العظيم الذى أعفى المحكوم عليهم بالإعدام من الإعدام ـ والذى أعفى الذين تآمروا على حياته

من الأشغال الشاقة المؤبدة ـ هذا الرجل لايعز عليه أن يعفى فكرى أباظة لا من الإعفاء وإنما من حيثيات الاعفاء إذا شاء الله ، فشاء . . لايمكن ـ بحال ـ أن يختفى قلم فكرى أباظه فى عهد جمال عبد الناصر) .

ومقال الاعتذار طويل اختلفت حوله الآراء وبعد الاعتذار بستة أشهر وتسعة عشر يوما سمح « عبد الناصر » لفكرى أباظة أن يعود للكتابة فى المصور فى ١٦ ابريل ١٩٦٢ .

ويهمنا أن نذكر هنا أن « صبرى أبو المجد » فى كتابه « فكرى أباظة » قد سجل (ص ٥٨) أنه بحث طويلا عن قرار أصدره الرئيس جمال عبد الناصر بإعفاء فكرى اباظة ، غير أنه لم يجد قرارا بهذا الشكل لا فى الوقائع المصرية ولا فى دار الهلال ولا فى ملف فكرى أباظة بدار الهلال . واذا كان هناك قرار بهذا الشكل فلماذا لم ينشر ؟

ومهما يكن من أمر فإن عام ١٩٦١م كان أخطر أعوام ابن (كفر أبو شحاته) بالشرقية . . فلنبدأ من هناك . .

كفر «أبو» شحـاتة

فى (كفر «أبو» شحاته) شرقية ولد « محمد فكرى حسين أباظة » والتاريخ الأرجح لمولده هو عام ١٨٩٣ وهو تاريخ ميلاد عدد من ساسة مصر مثل « محمد صبرى أبو علم » و«عبد الفتاح الطويل » ووالدته ابنة أحد أعيان « ههيا » وعقد قرانها على والده فى ههيا ثم انتقلا إلى (منيا القمح) فى ذهبية تمخر بحر موسى الجميل ، كتب « فكرى أباظة » عن نفسه فقال : (أنا متدين ومؤمن، ومسلم ، ودينى وإيمانى وإسلامى من النوع العميق لا من النوع السطحى ، تدين سر لا جهر . . علمنى والدى عدم التعصب . . دائما يردد على مسمعى الحديث النبوى الكريم . . (أوصيكم خيرا ببنى خؤولتكم الأقباط) .

دخل كتاب الشيخ « جاد » وزوجته الشيخة « صابحة » وظلت أصابعه وقدماه رغم مرور السنين تشكو عصا الشيخ والشيخة . . وسكنت الأسرة حى شبرا بالقاهرة ، ولما كان أبوه من طلبة الأزهر ومن خريجيه أدخله الأزهر ثم التحق مع أخوته بمدرسة النحاسين المواجهة للكتاب (خان جعفر) وخلع الجلابية ولبس (البدلة) عندما التحق بمدرسة عابدين الابتدائية وانتقل إلى مدرسة الجيزة الابتدائية بعد ان انتقلت الأسرة إلى مصر القديمة ، وحصل « محمد فكرى حسين أباظة » على الشهادة الابتدائية فى يونية ١٩٠٩ ، أى إن عمره كان ١٦ سنة إذا كان عام مولده

١٨٩٣م كما يرجح الكثيرون ، ولكن « فكرى أباظة » يقول (لا أحد يعرف تاريخ ميلادى . . ولا الجن الأزرق) .

مهما يكن من أمر فقد التحق بالمدرسة السعيدية الثانوية فى أكتوبر ١٩٠٩ ، وكان زميله «محمد التابعى » وحصل على شهادة الكفاءة فى يونية ١٩١١ وشهادة البكالوريا فى يونية ١٩١٣ . . وكان يسكن فى مصر القديمة ويذهب بالترام إلى الجيزة ويعترف أنه طوال السنوات الأربع لم يدفع مليما واحدا فى الذهاب والإياب (كنت اعتلى سلم الترام اليمين فإذا أطل الكومسارى انتقلت للشمال بين التلاميذ الآخرين الذين مر عليهم الكومسارى) !

وفى المدرسة السعيدية كان فى الفريق الأول لكرة القدم ، وفريق التمثيل ، وفى جماعة الخطابة ، تفتحت مواهبه فى جميع الأنشطة .

وفى أكتوبر ١٩١٣ التحق بمدرسة الحقوق وتخرج فيها عام ١٩١٧ ، وسوف نسير فى الحلقة الخاصة بمحمد صبرى أبو علم أنه فصل وآخرين لمدة سنة بسبب الدعوة لعدم استقبال «السلطان حسين كامل » اثناء زيارته لمدرسة الحقوق ، وعندما وقع الاعتداء على السلطان فى ٨ أبريل ١٩١٥ ألقى القبض على « محمد صبرى أبو علم ، وأحمد مرسى بدر ، وحسن ياسين ويوسف الجندى ، وآخرين » وقضوا ثلاثة أشهر فى سجن طره فتخرجوا سنة ١٩١٧ مع « فكرى أباظة » الذى لم يقبض عليه وتأخر تخرجهم لمدة عام .

الثورة والنضال الوطنى

تخرج فى الحقوق عام ١٩١٧م كما عرضنا وعمل محاميا تحت التمرين فى مكتب « محمد زكى على » أحد أقطاب الحزب الوطنى، وفكرى أباظة بدوره أحد شباب الحزب الوطنى ، وقدر له أن يذهب إلى أسيوط ويعمل فى مكتب « حامد جودة » وهو من قرية (درنكة) بجوار مدينة أسيوط ، والذى انضم فيما بعد للوفد وانشق مع أحمد ماهر على الوفد ، وأصبح رئيسا لمجلس النواب ، وقد ذهب فكرى أباظة ليلعب كرة القدم فى أسيوط ضمن فريق النادى الأهلى .

ووصلت أخبار الثورة الكبرى إلى اسيوط ، وضرب الانجليز المستشفى فقتل مرضى كثيرون ، وخرجت ديروط وديرمواس فى ثورة عاصفة دامية ، وأعد فكرى أباظة نشيدا للثورة وألقاه فى الكنيسة (فإذا بالناس تموج موج يوم القيامة) وزحف البؤساء زحف الأسود الكاسرة على مستودعات الذخيرة وعلى سلاح البوليس وارتفع اللهب فى إجزاء كثيرة من المدينة . . واشتعلت

الثورة فى المدينة . . كانت ثورة ضد الانجليز والحكومة . . وضد البذخ والثراء الفاحش . . وحكموا على المأمور الوطنى « محمد كامل» بالإعدام ، وقبضوا على الكثيرين ، ويسجل « عبد الراحمن الرافعى » ثورة أسيوط وضحاياها . . شارك « فكرى أباظة » فى إشعال الثورة فى أسيوط . . وصهرته ثورة أسيوط فى أتونها .

وهكذا شارك « فكرى أباظة » الابن الملتزم بالحزب الوطنى (مصطفى كامل ومحمد فريد) فى ثورة ١٩١٩ تحت قيادة « سعد زغلول » وعلاقة فكرى أباظة بسعد زغلول كانت علاقة ود ومحبة ، ولا ينسى « فكرى » عندما فصل سنة ١٩١٠ من المدرسة السعيدية لأنه من سواقط القيد ولم يقدم شهادة ميلاد ، فسافر إلى الإسكندرية لمقابلة عمه « إسماعيل أباظة باشا » ليتوسط له لدى « سعد زغلول » ناظر المعارف ، وأمر « سعد باشا » بقبوله . . ويقول فكرى أباظة : (كان سعد باشا عندما اعنف فى معارضته يقول لى . . الحق علىّ اللى دخلتك المدرسة . .) وفكرى أباظة شخص وفى ومنصف وصادق . . قال كلمة حق فى سعد زغلول وفى خليفته مصطفى النحاس . .

فكرى أباظة . . من العناصر القليلة التى تمسكت بخط الحزب الوطنى فى عدم المشاركة فى الوزارات . . هذا الخط لم يتمسك به عبد الرحمن الرافعى سكرتير الحزب ، ولا حافظ رمضان رئيس الحزب وشاركا فى وزارات الأقلية السياسية !

وبعد أن صدر قانون تنظيم الأحزاب فى ٧ سبتمبر ١٩٥٢ سارع « فتحى رضوان » بتقديم إخطار باسم (الحزب الوطنى الجديد) إلا أن فكرى أباظة كان فى مقدمة المعارضين لمحاولة الاستيلاء على الحزب وشارك فى القضية المرفوعة أمام محامى الدولة فى ديسمبر ١٩٥٢ . . . وانتهت « الخصومة بصدور قرار حل الأحزاب فى ١٦ يناير ١٩٥٣ ، وكان « فكرى أباظة » قد اختير عضوا باللجنة الإدارية للحزب الوطنى سنة ١٩٢١ ، وظل وفيا لمبادئ الحزب ولرجاله وبارا بأبنائه حتى الرمق الأخير فى حياته .

حياتـه فى الصحافة

ارتبط اسمه بالأهرام وبالمصور ، ومن قبل ذلك كتب فى (المؤيد) التى أصدرها « الشيخ على يوسف » وكان يوقع مقالاته باسم « عابر سبيل » ، زميله فى المدرسة السعيدية « محمد التابعى » أصبح صحفيا له أسلوبه الخاص ، وهكذا أصبح ايضا «فكرى أباظة » . . ارتبط بالحزب الوطنى حتى توفى ، وكذلك كان مع مجلة المصور الأسبوعية .

بدأ الكتابة فى الأهرام عام ١٩١٩م وعلى الرغم من أنه بدأ يكتب فى المصور منذ أكتوبر ١٩٢٤ (تاريخ صدور المصور) استمر يكتب فى الأهرام حتى عام ١٩٢٦م وبعدها كان يكتب فى

الأهرام على فترات . . التزم فى كتاباته بالخط الوطنى القومى . . العداء للاحتلال ، والحيدة بين الأحزاب والشخصيات السياسية ، والعلاقات الطيبة مع الساسة .

كان أسلوبه قريبا ومألوفا لدى القراء والمستمعين ، واشتهر بالخطابات المفتوحة وبكلمة الحق وبالجاسوسة الحسناء مع الصراحة والموضوعية فى تقديره للأمور . . كانت له مواقف عليها ملاحظات . . ولكن من منا ليست على بعض مواقفه ملاحظات ؟! كان نقيبا للصحفيين . . أقصد كان نقيبا ذكيا ناجحا . . نسيت أن أقول إنه حصل على (الباشوية) . . له كتاب شهير (الضاحك الباكى) ترجم إلى عدة لغات . . ظل عشر سنوات يكتب فى المصور حتى اختير رئيسا للتحرير عام ١٩٣٤م . . عارض معاهدة ١٩٣٦ ، وعارض قوانين مصادرة الصحف وحبس الصحفيين احتياطيا ، وهاجم قانون تحريم الاجتماعات والتظاهرات ، ونادى بالحياد وعام ١٩٤٥ كان مستشارا صحفيا لوفد مصر عند تأسيس (الأمم المتحدة) وبعث برسائل صحفية نشرت فى المصور والأهرام والمصرى .

استمرت رحلته مع المصور قرابة ٥٥ عاما منذ عام ١٩٢٤ حتى عام الرحيل ١٩٧٩ ، وفى مقال طريف كتبه « محمد سعيد » فى المصور ذكر أن مجموع المقالات التى كتبها « فكرى أباظة » فى المصور هو ٥٥٠٠ مقال فى مختلف ألوان التعبير الصحفى تنوعت بين السياسة والحزبية ، والفن والنقد الاجتماعى ، والاقتصاد والأدب ، والسلوكيات .

ومن لحظة التعاقد معه حتى لحظة الرحيل لم يتخلف عن كتابة مقاله ، فى أكتوبر ١٩٧٧ كتب فى حديث الذكريات (فى أوائل العشرينات كنت أجرب قدراتى على الكتابة فى الأهرام حتى وصلتنى برقية من جبرائيل تقلا ـ أحد أصحاب الأهرام ـ تطالبنى بالحضور إلى القاهرة لكى أتقاضى أجر مقالاتى . . لكننى رفضت هذا العرض متصورا اننى ابيع قلمى . . وبعد احتفال المصور بعشر سنوات على صدوره ، وبعد أعوام من الكتابة والمشاركة فى أسرة التحرير اختارنى أصحاب دار الهلال رئيسا للتحرير فى أكتوبر عام ١٩٣٤) . .

كان مقاله يوم رحيله فى ١٤ فبراير ١٩٧٩ عن التضامن العربى ونبذ الفرقة ، ونشر المصور له كلمات بعد رحيله بعنوان (الحب . . نعم الحب) لقد كانت المحبة تظلل آخر كلماته إلى القراء . .

وفى ١٤ فبراير عام ١٩٧٩ م خرجت جموع مختلفة تودع للمرة الأخيرة « محمد فكرى أباظة » ابن (كفر أبو شحاته) شرقية لاعب الكرة ، الخطيب المفوه ، الشاعر والزجال ، الكاتب الساخر المتميز ، البرلمانى البارز ، نقيب الصحفيين ، ورئيس مجلس إدارة الأهرام ودار الهلال ، ورئيس تحرير المصور ، الابن البار للحزب الوطنى (مصطفى كامل ومحمد فريد) وعضو مجلس إدارته . .

كانت الجموع حزينة خلف جثمانه . . والذاكرة تعود إلى ذلك اليوم من أغسطس عام ١٩٦١ الذى صدر فيه قرار بفصله من جميع مواقعه الصحفية . . وعلى الرغم من أنه عاد إلى الكتابة ، كان « فكرى أباظة » يشعر بأنه كزجاج أصيب بكسور ولا يمكن أبدا أن تداوى الكسور . . ودفنوا الجثمان وعادوا يبحثون عن مذكراته وعرفوا انه أضرم فيها النيران قبل لحظة الفراق الأخيرة ! رحم الله محمد فكرى حسين أباظة وغفر الله للآخرين ، كل الآخرين .

الأسـانيد :

١ ـ أنور الجندى . . الصحافة السياسية .
٢ ـ حازم فودة . . نجوم شارع الصحافة .
٣ ـ د . حمادة إسماعيل . . رسالة دكتوراه عن عبد الرحمن الرافعى .
٤ ـ شكرى القاضى . . الجمهورية ٢١/ ٢/ ١٩٨٨ .
٥ ـ صبرى أبو المجد . . (فكرى أباظة) .
٦ ـ محمد سعيد . . المصور ٧/ ١٢/ ١٩٨٨ .

قاسم أمين



٢١ افريل (ابريل) الساعة التاسعة مساء اليوم المذكور - التليفون يدق ، فدق قلبى لدقه ، وسمعت أحمد فى التليفون يردد بصوت المنزعج قاسم أمين ، ففهمت أنه نزل به مصاب ، فانخلع قلبى ، وقمت منزعجا نحو التليفون ، وسألت ، فقيل : قاسم بيك مات ، فاعترانى هلع شديد ، وقلت انتحر الرجل ! . ثم طلبت عربة ، وركبت مع عبد الخالق وصدقى إلى بيته فوجدنا العويل والصراخ والبكاء والنواح . وهناك رأيت طلعت ، ويحيى ، والدكتور عباس ، وفهمنا من مجموع أقوالهم أنه عاد إلى منزله فى نحو الساعة الثامنة ، وأبى ان يأكل مع الآكلين ، وتألم من شىء فى أعلى صدره . فدعكته زوجته بماء الكولنيا وطلب نارا لإشعال سيجارته ثم فارق الحياة .

وقد تحدث من كانوا فى المكان بالانتحار ، وسألت الدكتور عباس عن حقيقة الأمر ، فقال : إنه موت طبيعى ، ولكن كان فى جوابه شىء من التردد ، وكررت أقوالى عليه فى الغد ، فأجاب - بعد سكوت - بأن الموت طبيعى ، وقال إنما كان عاشقا ، فقلت له : اعرف شيئا من ذلك .

وذهبت إلى البيت مع فتح الله بيك بركات ، وبت طوال ليلى بين التأثر عليه تارة عندما أذكر صداقته ، والتأثر منه تارة عندما اذكر هجره لى . وهذا لطف من الله بى ، لأنه لو حل الموت والصداقة فى قوتها - لفاضت روحى معه .

وكنت أول من توجه فى الصباح إلى منزله باكرا ، ولم أذق فى ليلتى طعم النوم ، وجلست هناك أباشر مايلزم عن مسائل التشييع . وقد مشيت فى الجنازة إلى السيدة .

ومن السيدة أخذت عربة ، وسرت إلى القرافة ، وهناك - بعد الدفن - قام فتحى ، فارتجل خطابا ، أبكى الحاضرين وبكيت بكاء شديدا .

وقد انفعلت انفعالا شديدا فاض ببعض الكلمات . . . وكانت نفسى فى أشد حالات الانفعال ، وكان فى صوتى البكاء والناس من حولى يخافون على ، وأخيرا عدت والدموع تنزل من عينى . .

حـركة وطنية شاملة

عاد « سعد زغلول » والدموع تنزل من عينيه بعد أن دفن صديق عمره « قاسم أمين » يوم الأربعاء ٢٢ ابريل ١٩٠٨ ، وكما قال فى السطور السابقة ـ التى نقلناها عن صفحتى ٦٣١ ـ ٦٣٢ من مذكراته .

وكنا قد اعتزمنا أن تكون تلك الصورة الحية الدقيقة الصادقة التى رسمها « سعد » فى مذكراته عن ليلة وفاة « قاسم » بداية لموضوع عن « قاسم أمين » فى ذكرى وفاته ، وقد دفعنا بالموضوع شهرا إلى الأمام بعد ان حل (يوم المرأة العالمى) فى ٨ مارس . والغريب أن هذا اليوم يعود إلى حركة نسائية وقعت فى الولايات المتحدة الأمريكية يوم ٨ مارس عام ١٩٠٨ ، ثم عقد اجتماع نسائى فى (كوبنهاجن) فى ٨ مارس ١٩١٠ تقرر فيه المطالبة بحقوق المرأة ، وبدأ الاحتفال بيوم المرأة العالمى لأول مرة فى ٨ مارس ١٩١١ .

وعلى الرغم من اننا ننشر الموضوع الخاص بقاسم أمين فى شهر مارس الذى وقع فيه (اليوم العالمى للمرأة) ـ على الرغم من هذا ـ لم يكن قصدنا من الحديث عن قاسم أمين هو ما اشتهر عنه ، أو ما أثير من ضجة حوله بسبب كتابيه (تحرير المرأة) ثم (المراة الجديدة) وإنما بسبب أن «قاسم أمين » كان واحدا من رجال مصر ، قام بدور هام فى (العقد الأول) من القرن العشرين . ذلك العقد الذى اشتد فيه الظلام على شعب مصر ، فخرجت من تراب مصر شموع تتحدى هذا الظلام وتضىء الطريق لنا طوال هذا القرن على امتداده بما فيه من تقدم وتراجع إذ إن حركة «قاسم أمين » من أجل امرأة جديدة كانت جزءا من حركة شاملة لوطن جديد . وكانت دعوته لتحرير المرأة جزءا من حركة تحرير الوطن .

هذا العقد الفريد

مع بداية القرن العشرين ، كان النشاط الاقتصادى للأجانب قد أخذ يتوغل فى الحياة المصرية ليسيطر عليها . ففى سنة ١٩٠٢ بلغت جملة الأموال الأجنبية العاملة فى مصر حوالى ٤٣ مليون جنيه مصرى وكان أغلب هذه الاستثمارات مركزا فى الشركات العقارية وشركات النقل والمواصلات، وشركات الاستغلال التجارى والاستغلال الصناعى ، أى مركزة أساسا فى مشروعات النفع العام كالسكك الحديدية والنقل والمواصلات ثم الزراعة ، وبنسبة قليلة فى الصناعة .

أما فى الزراعة لم يكن هناك نظام صالح للتسليف يقترض منه الفلاح ما يحتاج إليه بطريقة تبعده عن الفقر وكان المرابون الأجانب يقرضون الفلاح بالفوائد الباهظة التى تثقل كاهله . وتعرضت البلاد مرات كثيرة للمجاعة . وعلى الرغم من أن الاحتلال كان يهدف إلى تحويل مصر إلى مزرعة له فإن الفلاح فى الصعيد لم يكن يجد الذرة ، والفلاح فى الوجه البحرى لم يكن يجد الأرز يضاف إلى ذلك الأمراض (الشوطة) التى حصلت للمواشى .

وفى أواسط ذلك العقد كان سكان مصر حوالى ١١ مليون نسمة . منهم حوالى ٥ر٥ مليون نسمة عاطلون ، وحوالى ٥ر٢ مليون نسمة يعملون فى الخدمات المنزلية وما يماثلها ، وحوالى ٥ر٢ مليون نسمة يعملون بالزراعة ، والنصف مليون الباقى موزع بين كبار ملاك الأرض والفئات المتوسطة ومستخدمى الحكومة والتجار ، وعدد من الصناعات والحرف الأخرى . باختصار كان هناك أكثر من عشرة ملايين نسمة يعيشون تحت خط الفقر .

وإلى جانب هذا كله كان التسلط الاحتلالى . . فالمستشار الانجليزى فى كل نظارة له الكلمة الأولى ، والرجل الأجنبى يقهر الرجل المصرى ، وويل للمصرى إذا مس شعرة من الانجليزى أو من احتمى بسلطات الاحتلال . ونموذج (دنشواى) فى يونيو ١٩٠٦ واضح الدلالة . . المشانق والسجون والجلد والتعذيب لعشرات المصريين لمجرد أن (انجليزيا) واحدا مات بضربة شمس بعد أن طارده الفلاحون المصريون من حقولهم وهو يعبث بأرواحهم فى رحلة صيد مع بعض زملائه من رجال الاحتلال .

رجال من مصر

فى هذا العقد الأسود ، اشتدت سواعد رجال مصر لمواجهة هذا التحدى الخطير فى كل المجالات . . فى السياسة ، فى الاقتصاد فى الصحافة ، فى الإصلاح الدينى ، فى التعليم ، فى النشاط الاجتماعى . . وكان « قاسم أمين » واحدا من هؤلاء الرجال . كان قد عاد من فرنسا فى صيف سنة ١٨٨٥م حيث اقترب هناك من « السيد جمال الدين الأفغانى » و«الشيخ محمد عبده » وسنة ١٨٩٤م اصدر كتابه بالفرنسية (المصريون . . رد على الدوق داركور) وكان « الدوق دراكور» هذا قد أصدر سنة ١٨٩٣م كتابه (مصر . . والمصريون) بالفرنسية هاجم فيه تقاليد المجتمع الشرقى وأوضاعه . ثم أصدر « قاسم أمين » سنة ١٨٩٩م كتابه (تحرير المرأة) الذى قوبل بعاصفة من النقد ، وفى العام التالى ١٩٠٠ عالج « قاسم أمين » الرد على حجج خصومه فى كتابه (المرأة الجديدة) الذى ألهب بدوره حماس المعركة من جديد .

كانت تلك هى جهود قاسم أمين فى الأعوام الأخيرة من القرن التاسع عشر . وفى العقد الأول

من القرن العشرين تراه يشارك فى نادى المدارس العليا ، وفى الجمعية الخيرية الإسلامية ، وفى الجامعة الأهلية .

ويعجب الذين يقرءون تاريخنا إذا عرفوا أن (نادى المدارس العليا) الذى تأسس سنة ١٩٠٥ ورأسه التعاونى « عمر لطفى » كان طليعة لكفاح الطلبة المصريين ، وأن « محمد طلعت حرب » الذى أسس (بنك مصر) سنة ١٩٢٠ كان قد أطلق صيحته فى إنشاء (بنك وطنى) سنة ١٩٠٦ ، وكان « مصطفى كامل » يندد بالاحتلال الانجليزى فى كل مكان ، وفى الوقت ذاته كان «قاسم أمين » نائبا لرئيس اللجنة التى تدعو لقيام الجامعة الأهلية .

وفى أواخر القرن التاسع عشر كانت هناك جريدة (المؤيد) للشيخ على يوسف ، ثم ظهرت (اللواء ـ مصطفى كامل) فى يناير ١٩٠٠ . وفى سنة ١٩٠٧ يصدر « أحمد لطفى السيد » (الجريدة) وينشأ حزب الأمة ، والحزب الوطنى ، وحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية وتنشط (الجمعية الخيرية الإسلامية) من منطلق قومى وهو مساعدة فقراء المصريين الذين طحنهم الفقر والمرض ، وينشط « سعد زغلول » داخل (نظارة المعارف) لمواجهة المستشار الانجليزى «دانلوب» وللأخذ بأيدى المصريين فى التعليم .

وهكذا فإن (رجال مصر) واجهوا هذا العقد الأسود . . فأنشئوا الأحزاب وأصدروا الصحف، وأسسوا الجمعيات والنوادى ونادوا بالتحرر الاقتصادى . ونلمح نحن الآن من بعيد مجموعة من الرجال متقاربة الاتجاهات ، تنشأ معا وتتحرك معا ، تتفق وتختلف ولكنها فى النهاية فصيلة واحدة . . « الشيخ محمد عبده ، سعد زغلول ، أحمد لطفى السيد ، قاسم أمين . . » .

السيد والشيخ وقاسم

عندما جاء « السيد جمال الدين الأفغانى » إلى مصر فى مارس ١٨٧١م كان «قاسم أمين » دون الثامنة من عمره إذ إنه ولد (فى أول ديسمبر ١٨٦٣م) ، وعندما أمر الخديوى توفيق بترحيل «السيد » وخادمه « أبو تراب » من مصر إلى (بومباى) فى ٣ـ أغسطس سنة ١٨٧٩م كان « قاسم أمين » فى السنة الثانية بمدرسة الحقوق والإدارة ، ولهذا لا نجد اسمه بين مريدى السيد أمثال «محمد عبده وعبد الله النديم ، وسعد زغلول ، ومحمود سامى البارودى ، وإبراهيم المويلحى ، وإبراهيم اللقانى ، وعلى مظهر ، وحفنى ناصف ، وعبد السلام المويلحى ، وعبد الكريم سلمان ، وأديب إسحق ، وسليم النقاش ، وسعيد البستانى والسيد وفاء التونى ، ومحمد صالح ، وسلطان محمد . » ولكن قدر لقاسم أمين أن يحصل على ليسانس الحقوق سنة ١٨٨١م ويسافر فى بعثة إلى فرنسا لدراسة القانون ، وكان « السيد جمال الدين الأفغانى » قد سافر إلى باريس ولحق به

« الشيخ محمد عبده» فى أواخر عام ١٨٨٣م حيث أصدرا (العروة الوثقى) والتى صدر العدد الأول منها فى ١٣ مارس ١٨٨٤ لمناهضة الزحف الانجليزى على الشرق ، وخاصة فى الهند ومصر، وفى تلك الفترة اقترب « قاسم أمين » من السيد جمال الدين الأفغانى ، وعمل مترجما خاصا للشيخ « محمد عبده » فى باريس . وعاد « قاسم » من فرنسا فى صيف سنة ١٨٨٥م إلى مصر وعين فى النيابة المختلطة ، ومنذ أن عاد « الشيخ محمد عبده » إلى مصر سنة ١٨٨٨م كان « قاسم » وثيق الصلة به ينهل من أفكاره فى الإصلاح الدينى والتربوى وظل وفيا له إلى أن رحل « الشيخ » فى صيف ١٩٠٥ فظل « قاسم » وفيا لذكراه . وتوثقت العلاقة بين قاسم أمين وبين سعد زغلول وأحمد لطفى السيد . وعندما سافر « الخديوى عباس حلمى الثانى » إلى الأستانة فى يوليو ١٨٩٣ اصطحب معه وفدا يتكون من « سعد زغلول ، وأحمد لطفى السيد ، وقاسم أمين ، وحفنى ناصف ، والشيخ على يوسف . » وعندما أصدر « قاسم أمين » كتابه (تحرير المرأة) ١٨٩٩م تردد ان مادة الكتاب اتفق عليها « الشيخ محمد عبده ، وأحمد لطفى السيد ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين » عندما كانوا يصطافون فى جنيف سنة ١٨٩٨م ، ويرى بعض الباحثين أن « الشيخ محمد عبده » كتب الفصول الخاصة برأى الشريعة الإسلامية فى الزواج والطلاق والحجاب وتعدد الزوجات ، وأن الأفكار الخاصة بالحرية هى لأحمد لطفى السيد ، وأن الأسلوب عليه بصمات سعد زغلول .

على أية حال فإنه بعدأان صدر الكتاب وهبت عليه عاصفة من النقد دافع عنه « سعد زغلول وأحمد لطفى السيد » وهاجمه «مصطفى كامل » و«الخديو عباس الثانى » وجريدة (اللواء) وبعد عام من صدور الكتاب ، قام قاسم أمين بالرد على عناصر الهجوم المختلفة فى كتابه الجديد (المرأة الجديدة) وأهداه إلى صديق عمره « سعد زغلول » بعبارة جاء فيها : (فيك قلب يحب وعقل يفكر وإرادة تعمل .) .

الجمعية والجامعة

ومنذ أن عاد « قاسم أمين » من فرنسا سنة ١٨٨٥م لم يكن بعيدا عن الأنشطة السابقة التى أشرنا إليها بما فى ذلك نشاطه فى (الجمعية الخيرية الإسلامية) و(الجامعة المصرية) . وقد كان للشيخ « محمد عبده » دور ملحوظ فى هذين المشروعين ، ولكن إذا تحدثنا عن (الجمعية الخيرية الإسلامية) لاننسى دور « عبد الله النديم » فى تأسيس جمعية بهذا الاسم فى الإسكندرية فى ١٨ ابريل ١٨٧٩ على أن يكون من أهدافها فتح المدارس للبنين والبنات لجميع أبناء الشعب بالمجان للفقراء وبمصروفات للقادرين وتقديم المعونات المالية للفقراء من أهل الاسكندرية . وكانت

مدارس هذه الجمعية مفتوحة لجميع أبناء العقائد الدينية المختلفة . كذلك إذا تحدثنا عن دور «الشيخ محمد عبده » فى مشروع الجامعة المصرية فلا ينبغى ان ننسى دعوة مجلة (الهلال) سنة ١٨٩٨م ودعوتها سنة ١٩٠٠م . وسنة ١٩٠٣م . وكذلك دعوة مجلة المقتطف سنة ١٩٠٣م ، وفى سنة ١٩٠٤م تبنى « مصطفى كامل » و«الشيخ محمد عبده » الدعوة للمشروع ، واتصل الشيخ بالقادرين للتبرع له ، وكان يعاونه فى جهود هذه «سعد زغلول وقاسم أمين » . ثم تأسست لجنة كان نائب الرئيس فيها « سعدزغلول » وسكرتيرها « قاسم أمين » وذلك فى ١٢ أكتوبر ١٩٠٦ . وفى ٣٠ اكتوبر ١٩٠٦ تخلى « سعد زغلول » عن مكانه فى اللجنة كنائب للرئيس وذلك لاختياره (ناظرا للمعارف) وحل محله « قاسم أمين » . وفى ٧ مارس سنة ١٩٠٨ تشكلت لجنة برياسة « الأمير أحمد فؤاد » وعضوية « حسين رشدى ، وقاسم أمين ، ويعقوب ارتين ، ولوزينا بك ، ومسيو ماسبيرو ، ومحمد علوى ، وأحمد زكى » لوضع المشروع التنفيذى للجامعة . ويوم ١٧ ابريل سنة ١٩٠٨ شن « محمد فريد » حملة ضد اللجنة وضد المشروع ، ورحل قاسم أمين فى ٢١ ابريل . . وعقد مجلس إدارة الجامعة أول جلسة له يوم ٢٤ مايو ١٩٠٨ ، ولم يكن قاسم أمين بالطبع عضوا فى أول مجلس لإدارة الجامعة الذى تشكل على النحو التالى «الأمير أحمد فؤاد رئيسا - حسين رشدى وإبراهيم نجيب وكيلين - أحمد زكى سكرتيرا - حسن سعيد أمينا للصندوق - وعضوية كل من يعقوب ارتين ومرقص حنا ومسيو لويز ينايك وعلى ذو الفقار ، وعلى أبو الفتوح ويوسف صديق وعبد الخالق ثروت ومحمد علوى . » .

قاسم والنـديم

على الرغم من أننا لم نعط الأولوية لموضوع (تحرير المرأة) عند الحديث عن « قاسم أمين » ، وعلى الرغم من وجود محاولات رائدة فى هذا المجال سابقة عليه تتمثل فى مدارس تعليم البنات أيام « محمد على الكبير » ، والمفهومات الجديدة التى ألقى بها «رفاعاة الطهطاوى » فى بحر النهضة المصرية الحديثة ، إلا أنه مما لاشك فيه أن « قاسم أمين » أدرك بذكاء مساوئ غياب الديموقراطية وأثرها فى استبداد الحكومات بالرجل ، واستبداد الرجل بالمرأة وهذه سمة المجتمعات الشرقية عامة. والسبيل إلى تحرير المرأة هو (تربية المرأة) حتى تبلغ قدرا من العلوم ، ودراسة بعض الحقائق العلمية والطبيعية حتى تطرح الخرافات . ذلك كله فى حدود ما نادت به (الشريعة الإسلامية) ولم يكن لقاسم أمين الذى ولد من أب تركى وأم صعيدية ، وكان زميلا للشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، واقترب من السيد جمال الدين الأفغانى أن يخرج على أحكام الشريعة .

قضى « قاسم أمين » المرحلة الابتدائية فى مدرسة رأس التين بالإسكندرية ، وأكمل تعليمه

التجهيزى (الثانوى) فى القسم الفرنسى بالمدرسة الخديوية بالقاهرة . وبعد أن حصل على ليسانس الحقوق من مدرسة الحقوق والإدارة سافر فى بعثة إلى فرنسا عام ١٨٨١م . عمل بالنيابة المختلطة ، وقسم قضايا الحكومة ، ورئيسا لنيابة بنى سويف ، ثم رئيسا لنيابة طنطا وجىء له بعبد الله الندين مقبوضا عليه سنة ١٨٩١م فقدم له (القهوة والدخان والنقدية) وأوصى به لدى مدير سجن طنطا وشارك فى حملة للعفو عن عبد الله النديم وعن غيره من ثوار الوطن . وكما أسلفنا كتب فى صحف ذلك العصر ، وأصدر كتابه (المصريون . . ردا على الدوق دراكور) سنة ١٨٩٤م . وأصدر (تحرير المرأة) سنة ١٨٩٩م وسنة ١٩٠٠م أصدر (المرأة الجديدة) وكان قد نشر على صفحات (المؤيد) التى كان يصدرها « الأزهرى الصعيدى الشيخ على يوسف » وشارك فى نشاط (الجمعية الخيرية الإسلامية) وفى الدعوة إلى (الجامعة المصرية) إلى أن رحل مساء يوم الثلاثاء ٢١ ابريل ١٩٠٨ بعد حياة قصيرة (١٨٦٣ ـ ١٩٠٨) فى الزمن، عميقة الأثر والتأثير فى تاريخ مصر الحديث .

الأسانيد :

١ ـ د . أمال السبكى . . . الحركة النسائية فى مصر

٢ ـ د . سامية حسن . . . الجامعة الأهلية .

٣ ـ سعد زغلول . . . المذكرات جـ ١ تحقيق د . عبد العظيم رمضان .

٤ ـ د . على الحديدى . . . عبد الله النديم .

٥ ـ د . محمد عمارة . . . قاسم أمين .

البابا كيرلس الخامس



البطريرك رقم (١١٢) فى سلسلة تاريخ البطاركة للكنيسة القبطية ، رجل عميق الجذور فى تراب مصر باسق كنخيل بلادى ولد عام ١٨٢٤م وتوفى عام ١٩٢٧م فعاش مخلصا لأرض مصر وابنا بارا لشعبها مائة سنة وثلاث سنوات .

عاش الخمسين عاما الأولى من عمره (١٨٢٤ ـ ١٨٧٤) فى عهود م«حمد على الكبير وإبراهيم باشا وعباس الأول وسعيد باشا»، ومنذ أن اختير ليتولى مسئولية الكنيسة المصرية (أول نوفمبر ١٨٧٤) إلى ان توفى (١٧ أغسطس ١٩٢٧) ثلاثا وخمسين سنة قضاها فى عهود ، الخديو إسماعيل، الخديو توفيق ، والخديو عباس حلمى الثانى ، والسلطان حسين كامل ، والملك أحمد فؤاد » ، عاش عهود جميع حكام الأسرة العلوية جميعهم فيما عدا عهد « الملك فاروق » .

أيام «الخديو إسماعيل » ركزت الإرساليات الأمريكية نشاطها فى أسيوط ، وأنشأت الكلية الأمريكية سنة ١٨٦٥م ، ونشطت الإرساليات لنشر البروتستانتية بين الأقباط ولجذب أبناء الأقباط إلى مدارسها . . دخل « البطريرك كيرلس الخامس » اسيوط كما دخل السيد المسيح إلى أورشليم راكبا حمارا .

وتقدم موكب البطريرك القسس وحاملو فروع النخيل والشموع وضاربو الدفوف والمرنمون ، وسافر إلى «أبو» تيج وأخميم وهو يأمر الأقباط بمقاطعة كنائس الإرساليات ومدارسها ، تعاطف مع الثورة العرابية وبعد أن انحاز « الخديو توفيق » ومجلس النظار للانجليز ، انعقد يوم السبت ٢٩ يوليو ١٨٨٢ اجتماع وطنى تصدره « الشيخ محمد عبده » وندد « كيرلس الخامس » بمواقف توفيق . . وانتهى قرار الأمة الممثلة فى كبار رجال الدين والضباط والتجار وكبار موظفى الدولة (بعدم تنفيذ أوامر الخديو لخيانته وخروجه عن الشرع والقانون) . « أما عبد الله النديم » خطيب

الثورة العرابية فقد التقى اتجاهه مع الاتجاه القديم للبطريرك فى مواجهة مدارس الإرساليات ، وكان النديم قد دعا عام ١٨٧٩م إلى إنشاء (الجمعية الخيرية الإسلامية) بالإسكندرية التى اسست عددا من المدارس الخاصة فى مصر لاتتعصب لدين أو لجنس وان انشأتها هيئة دينية ، وتأسست (الجمعية الخيرية القبطية) بناء على دعوة من عبد الله النديم » وموافقة من البطريرك «كيرلس الخامس » الذى تبنى فكرة إنشاء المدارس القبطية الخاصة التى تفتح أبوابها لأبناء الوطن جميعا .

وأثناء الدعوة إلى الاكتتاب لإنشاء الجامعة الأهلية (١٩٠٨م) وحتى يشجع « البطريرك » اثرياء الأقباط للتبرع قامت الكنيسة المصرية بالتبرع لإنشاء الجامعة الأهلية بمبلغ (ألف جنيه) وتوالت تبرعات الأقباط وهكذا قامت الجامعة منهجا وإعدادا لأبناء الوطن جميعا تميز بالزهد والتقشف ولكنه تميز أكثر بالحرص على مهابة الكرسى الذى جلس عليه « القديس مرقس » مؤسس الكنيسة المصرية . . ذهب « كيتشنر » رمز الاحتلال الانجليزى إلى دار البطريرك على غير موعد وفى موكب اهتز له الناس على الجانبين ، وهو يقصد أن يسبر غور هذا البطريرك الزاهد الذى وقف مع عرابى ضد الانجليز وتوفيق . . وأسرع الحاجب إليه يردد وهو يلهث . . اللورد . . اللورد يا أبانا . . فأجاب الزاهد الورع . . ومن يكون اللورد ياهذا ؟ اذهب يا ولد وقل له إن أبانا لايقابل أحدا بغير موعد ! .

وفى سنة ١٩١١م ، وهى السنة التى عقد فيها المؤتمران القبطى بأسيوط والمصرى (الإسلامى) بمصر الجديدة ، وقفت جريدتا (مصر والوطن) خلف الدعوة للمؤتمر القبطى ، وقاطع المؤتمر وعارضه « ويصا واصف » ووصفته جريدة (الوطن) بيهوذا الاسخريوطى وأظهر « كيرلس الخامس » النفور من المؤتمر وحذر من انعقاده وأصدر بيانا طالب فيه المؤتمرين أن يستعملوا الحكمة وأن يتخذوا الوسائل القومية مع الروية والتأنى . . فهاجمته صحيفتا (مصر والوطن) وذكرتا (لاشأن لغبطته بمثل هذه الأمور السياسية وانتهى المؤتمران على خير وخطت الحركة الوطنية إلى الامام حتى جاء « سعد » العظيم يقود الحركة الوطنية وتوثقت علاقاته مع « الأنبا كيرليس الخامس » وأثار الانجليز مسألة (حماية الأقليات) فقال البطريرك قوله الحاسم . إن المصريين شعب واحد ، والذى يحميهم هو الله وحده وكان من قبل قد رفض العروض التى قدمها « كرومر» بمنح المدارس القبطية معونات مالية . أيد الثورة الشعبية الكبرى وبتشجيعه وبمباركته تقدم رجال الدين المسيحى وفى مقدمتهم « القمص سرجيوس » يخطبون فى المساجد ، وفتح الكنائس لرجال الدين المسلمين يخطبون فيها ويدعون إلى وحدة الوطن القومية ووقف إلى جانب حكومة الشعب برياسة « سعد زغلول » (يناير نوفمبر ١٩٢٤) وبعد أن تآمر الانجليز والقصر ضدها وجاء

«أحمد زيور » فى وزارتين متعاقبتين حاول « الملك أحمد فؤاد » أن يبارك « البطريرك » وزارة زيور ، قال بهدوء . . (إن البركة لا تمنح باليمين لتسلب باليسار) وظل على صداقته لسعد باشا ، وعلى تأييده للحركة الوطنية بقيادة سعد . . حتى توفى (أوتنيح على حد تعبير الكنيسة) فى ١٧ أغسطس سنة ١٩٢٧ أى قبل وفاة « سعد زغلول » بستة أيام . . ففقدت البلاد فى أسبوع واحد زعيما وطنيا عظيما ، وقائدا دينيا حكيما له سيرة ينبغى أن تروى لكل أبناء هذا الوطن العظيم .

خمسون سنة تمهيدية

كان زاهدا ناسكا منصرفا عن شئون الدنيا ، ولم يسع فى حياته إلى منصب أو إلى دعاية ، لم يكن طالبا لشيء وإنما كان مطلوبا دائما ولد فى قرية (تزمنت) بمديرية بنى سويف سنة ١٨٢٤م ودعى باسم « يوحنا » وبعد ميلاده بوقت قصير هجر أبواه مديرية بنى سويف إلى (كفر سليمان) بمديرية الشرقية ، اتجه فى صباه إلى الكنيسة ، وعكف على القراءات الدينية ورسم شماسا وظهرت عليه ميول الانقطاع عن العالم وخاصة بعد وفاة والديه ، وفى العشرين من عمره ، سنة ١٨٤٤ قصد دير السريان بالجبل الغربى ولكن أخاه الأكبر الذى تولى شئونه بعد وفاة الوالدين استطاع أن يسترجعه ، وبعد ذلك صمم على الترهب بدير السيدة العذراء بالبراموس .

وسنة ١٨٤٥ رسم (قسيسا) وعندما تمسك الرهبان به ظل يدير شئونهم واستدعاه « البابا ديمتريوس » سنة ١٨٥٥ ورسمه ليصبح (القمص) وليساعد فى الكاتدرائية بالأزبكية ، ولكن الرهبان كتبوا للبابا ليعيده إليهم فكان لهم ما أرادوا .

وسنة ١٨٦٩ توفى « البطريرك ديمتريوس » وظل المنصب البطريركى خاليا نحو خمس سنوات ، ولإجماع الأقباط على أن يتولى « يوحنا » مسئولية الكنيسة المصرية لجئوا إلى « الخديو إسماعيل » ليعاونهم فى هذا الأمر ، فكلفت الحكومة مدير البحيرة لإحضاره من الدير إلى القاهرة ، وأجمع رجال الدين وأعيان الأقباط على اختياره بطريركا فى أول نوفمبر سنة ١٨٧٤ وكان عمره خمسين عاما ، وقد عرف عنه الصلاح ومحبة الفقراء والاهتمام بالتعليم .

البطريرك والثورة العرابية

وتصاعد الصراع بين الكنيسة المصرية من جهة وبين الإرساليات الأجنبية وخاصة الأمريكية من جهة أخرى منذ أيام سعيد باشا (١٨٥٤ ـ ١٨٦٣) ـ واشتد هذا الصراع أيام إسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) وحدث صدام مشهور بين « البابا ديمتريوس » وبين قادة هذه الإرساليات

الأمريكية وواصل « البابا كيرلس الخامس » مقاومته للتيار التبشيرى ، وتوجه إلى الوجه القبلى (اسيوط وابو تيج واخميم) وعمل على عودة التلاميذ من مدارس الإرساليات إلى المدارس القبطية ، واستخدم سلاح (الحرمان) للذين يستمرون فى الاتصال بالأرساليات ، وفى مواجهة الكلية الأمريكية بأسيوط ظهرت الدعوة لإنشاء الكلية القبطية ، وكانت المدارس القبطية مدارس قومية لجميع أبناء مصر شأنها شأن المدارس الإسلامية الأهلية .

وتصاعد مد التدخل الأجنبى وتم خلع « الخديو إسماعيل » وتولى « الخديو توفيق » الحكم فى ٢٦ يونيو ١٨٧٩ ولايخفى الخلاف التقليدى بين النفوذ الأجنبى والكنيسة المصرية إذ إن المذهب الكاثوليكى نشط فى صعيد مصر مع النشاط الأجنبى أيام «سعيد باشا» ، والمذهب البروتستانتى ازداد نشاطه مع ازدياد النفوذ الانجليزى ، منذ أيام « إسماعيل باشا » وكانت الكنيسة المصرية هى إحدى القلاع الوطنية التى وقفت فى وجه النفوذ الأجنبى الذى استهدف ضرب الكنيسة المصرية أو تخريبها من الداخل ومحاولة تقليص نفوذها ولذلك وقف البطاركة السابقون مع «كيرلس الخامس» فى وجه هذا النفوذ الأجنبى ، ومن أجل ذلك كان « البابا كيرلس الخامس » من المتعاطفين مع حركة عرابى منذ إرهاصاتها الأولى فى ١٥ يناير ١٨٨١ عندما تقدم « أحمد عرابى » بعريضته التى يطالب فيها بمساواة الضباط المصريين بالجراكسة . . وتصاعدت الأحداث بسرعة غريبة وقبض على عرابى وزميلين له فى أول فبراير ١٨٨١ واقتحم البطل « محمد عبيد » ثكنات قصر النيل وأفرج عن عرابى وعزل عثمان رفقى وحل محله « محمود سامى البارودى » وزيرا للحربية واستطاع توفيق بعد ذلك أن يعزل « البارودى » ونزل « أحمد عرابى » إلى الشعب ليكسبه بكل طوائفه إلى جانبه وفى الساعة الثالثة والنصف من يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١ توجه « أحمد عرابى » إلى ميدان عابدين على رأس التظاهرة العسكرية الشهيرة وتتصل الأحداث إلى أن يشكل « محمود سامى البارودى » الوزارة ، ويتولى « أحمد عرابى » وزارة الجهادية والبحرية وتوالت سلسلة من المؤامرات انتهت بأن ضرب الأسطول البريطانى الإسكندرية فى ١١ يوليو ١٨٨٢ وانسحب عرابى من الإسكندرية فى ١٣ يوليو ولجأ « الخديو توفيق» إلى الانجليز فى الإسكندرية وانضم إليهم وأصدر بياناته بعدم التعاون مع عرابى وقرر الوطنيون عقد مؤتمر عام فى ١٧ يوليو ١٨٨٢ من كبار رجال الدولة وكبار رجال الدين وكبار التجار والأعيان . . وبعد التداول فى الموقف . . كان رأى بطريرك أقباط مصر تشكيل لجنة لمعرفة الموقف الحقيقى للخديو توفيق . . وتبنى غالبية أعضاء الاجتماع رأى البطريرك مع الاستمرار فى التجهيزات الحربية ، إلا أن « على مبارك » رئيس اللجنة تبنى وجهة نظر « الخديو توفيق » وعاد الاجتماع الوطنى للانعقاد فى ٢٩ يوليو ١٨٨٢ وشارك البطريرك فى التنديد بموقف « توفيق » وقرر الاجتماع الاستمرار فى الاستعداد الحربى ، وعزل الخديو توفيق ، وتكليف أحمد عرابى ـ الذى لم يكن حاضرا فى الاجتماع ـ بالدفاع عن البلاد ،

وبعد هزيمة الثورة العرابية ظلت العلاقة بين الخديو والبطريرك تشوبها الحساسيات وعدم الوفاق .

مرحلة المتاعب

وفى ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ اعتذر « عرابى » عن الثورة وألقى سيفه ، وعاد الخديو توفيق إلى القاهرة فى ٢٥ سبتمبر وبدأت مطاردة العرابيين ، وجاء « كرومر » ليحكم مصر خمسا وعشرين سنة من ١١ سبتمبر ١٨٨٢ حتى ٧ مايو ١٩٠٧ وحاول أن يلعب لعبته على « البابا كيرلس » وعرض عليه المعونات السخية للكنيسة المصرية ورفض البابا بأسلوب جعل « اللورد كرومر » لايعود إلى مثل هذه المحاولة مرة أخرى حتى رحل كرومر عن مصر .

وانصرف « كيرلس الخامس » إلى بناء المدارس وأنشأ تسع مدارس فى القاهرة والجيزة منها المدرسة الأكليريكية ومدرسة البنات بالأزبكية ، والصنائع ببولاق .

ونوجز هنا الخلاف الذى وقع بين البطريرك وبعض الأقباط فى محاولة لتعرف حقيقته وظروفه . . بعد وفاة « البابا ديمتريوس الثانى » سنة ١٨٦٩ وبقى المنصب شاغرا لحوالى خمس سنوات كان يتولى إدارة شئون الكنيسة « مطران الإسكندرية » والذى كان وكيلا للبطريركية منذ ١٨٦٢ واستعان بعدد من الشخصيات القبطية المرموقة ، وتشكل من هؤلاء (مجلس استشارى) ورغب المجلس فى أن تكون له صفة رسمية ورفع القائم بأعمال البطريرك الطلب إلى الحكومة فوافقت على الطلب .

ولما ارتقى « كيرلس الخامس » كرسى البطريركية وضع مع أعضاء المجلس لائحة تقضى بأن ينظر المجلس فى أحوال الكنائس وأموالها وفى المدارس والأوقاف والفقراء والأحوال الشخصية وتم التصديق من الحكومة على اللائحة فى ١٤ مايو ١٨٨٣ إلا أن أعضاء المجلس انصرفوا عن المهام الملقاة عليهم ، وتجمدت أعمال المجلس ، وأخذ النشاط الأجنبى يتصاعد لمحاصرة نشاط الكنيسة، وركز البابا نشاطه فى دعم الكنيسة المصرية لمواجهة نشاط إرساليات الكاثوليك والبروتستانت ، وعندما تحرك بعض أعضاء المجلس من جديد لإحياء المجلس ونشاطه فى مراجعة أحوال الكنيسة كانت تحيط هذه الدعوة ذات النشاط المفاجئ شبهة التحريض من « كرومر وشبهة الاتصال بالإرساليات الأجنبية فاستدعى « البابا كيرلس » المطارنة والأساقفة وكبار القسس وعقد بهم مجمعا أصدروا فيه قرارا بعدم التدخل فى شئون الكنيسة وتأزم الموقف بين « كيرلس » وأعضاء المجلس ، وعندما عاد « المرحوم بطرس غالى باشا » من أوربا كلفه « الخديو توفيق » بحسم المشكلة ، وحدث نوع من الوفاق بين الطرفين تأسست فى ظله (جمعية التوفيق القبطية) ، وتم

تعيين مرتب لرجال الدين الأرثوذكس أسوة بما فعلته طائفتا الكاثوليك والبروتستانت وتم تنظيم الإنفاق على المدارس الخاصة من ريع الأوقاف القبطية .

وحدث أن ارتفعت موجة المطالبة بتشكيل (المجلس الملى) ، وذهب (المرحوم بطرس غالى باشا) يستأذن فى السفر إلى أوروبا ولكن « الخديو توفيق » طلب منه إرجاء السفر وتشكيل المجلس ، وطلب « البابا » تعديل لائحة هذا المجلس ورفض أن يشرف على إجراء الانتخابات . وافتتحت الإجراءات باسم الحضرة الخديوية الفخمة وأسفرت الانتخابات عن فوز : بطرس غالى وحنا نصر الله ، وبطرس يوسف ومقار عبد الشهيد وقلينى فهمى وخليل إبراهيم ويوسف وهبة ، ويوسف سليمان وحنا باخوم ونخلة البارانى وحبشى مفتاح ويعقوب نخلة كأعضاء وتم اختيار ١٢ آخرين بصفة نواب أعضاء اجتمع بطرس غالى مع البابا ووافق على تعديل اللائحة ونسيان ما مضى وفرح الأقباط بهذه النتيجة إلا أن غالبية المجلس اعترضت على هذا الاتفاق فى ٢٦ أغسطس سنة ١٨٩٢م تدهور الموقف من جديد وذهب كيرلس الخامس إلى دير البراموس كرغبة المجلس ولكن جماهير الأقباط طلبت من الخديو توفيق و « مصطفى فهمى » رئيس النظار رجوع البطريرك فصدر الأمر الخديوى فى ٢٠ يناير سنة ١٨٩٣م بعودة البطريرك فأقيمت الأفراح وعم السرور وكان العربان على طول الطريق ينشدون الأناشيد ويطلقون البنادق ويرقصون على صهوات خيولهم حتى وصل الركب إلى محطة كفر الدوار مما يوضح مكانة كيرلس الخامس فى نفوس الناس .

مـع الشـعب

واتصلت مواقف هذا الأب إلى جانب الشعب وقام بزيارة للوجه القبلى وللسودان من ٢٥ يناير حتى ٢ ابريل سنة ١٩٠٤م يتفقد الكنائس والمدارس يشد من أزرها لتحافظ على أبنائها فى مواجهة النشاط الأجنبى ، وكان له موقف واضح من المؤتمر القبطى الذى انعقد فى أسيوط فى ٦ مارس ١٩١١م وتعهد له الأنبا مكاريوس مطران أسيوط بعدم حدوث مايجرح البنيان الوطنى المصرى . .

وفى عهده وبروحه الوطنية اندمج رجال الدين المسيحى مع إخوانهم رجال الدين الإسلامى يتبادلون الخطابة فى المساجد والكنائس . . من رجال الدين المسيحى . . القمص بولس غبريال والقمص سرجيوس الذى خطب فى الجوامع والكنائس والشوارع وأطلق عليه الزعيم سعد زغلول لقب خطيب مصر واعتقلته السلطات الانجليزية حوالى ثلاثة أشهر فى (رفح) .

وبعد أن حمى وطيس الثورة خشى العلماء والأعيان والوزراء أن تفلت أحداث الثورة من قيادتها الفعلية فأصدروا بيانا فى ٢٤ مارس ١٩١٩ دعوا فيه إلى عدم الاعتداء على الأملاك وعدم تخريب المواصلات . . ووقع البيان شيخ الجامع الأزهر ومفتى الديار المصرية وبطريرك الأقباط وشيخ مشايخ الطرق الصوفية ونقيب الاشراف ورئيس الوزراء .

ولم يتردد البطريرك كيرلس الخامس فى تأييد سعد زغلول ووزارة الشعب وحجب تأييده عن وزارتى أحمد زيور وبقى كيرلس الخامس موضع التقدير والاحترام من جماهير الشعب إلى أن توفى فى ١٧ أغسطس ١٩٢٧ تاركا سيرة عطرة ونموذجا دينيا وطنيا يحتذى .

الأسـانيد :

١ ـ جمال بدوى . . مشاهد حية من تاريخ مصر الحديث .
٢ ـ عبد الرحمن فهمى . . (مذكرات) .
٣ ـ طارق البشرى . . المسلمون والأقباط .
٤ ـ فخرى عبد النور . . مذكرات .
٥ ـ د . لطيفة سالم . . القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية .
٦ ـ منسى القمص (الشمـاس) . . تاريخ الكنيسة القبطية .

الدكتور محمد بلال



أكثر ما يحز فى النفس ، عندما يخطر اسمه على البال ، أن اذكر رغبة له اتفقنا على تنفيذها ، ولكنه رحل دون أن تخرج الفكرة إلى الناس . كانت التضحية منهجه فى الحياة ، وكان حديث الشهداء ، أحب الأحاديث إلى نفسه . . وكنت قد تناولت شهداء الحركة الوطنية عام ١٩٣٥ ، وأوردت أسماء اللجنة التنفيذية العليا للطلبة التى قادت الحركة الثورية ضد الاحتلال ، وطالبت بعودة دستور ١٩٢٣ ، ودعوت إلى قيام الجبهة الوطنية التى انتهت جهودها بتوقيع معاهدة أغسطس ١٩٣٦ .

وجلسنا إليه . . الزميل المناضل « الأستاذ أحمد البلقينى » أحد قادة الشباب فى الأربعينات وأنا . . واتفقنا ثلاثتنا على أن نعرض فى أحاديث إلى الشباب ، وعلى صفحات جريدة « الوفد » ثم فى كتاب . . اتفقنا على أن نعرض . . تضحيات شهداء ثورة ١٩١٩ ، وبطولات شهداء (الثورة المصغرة) سنة ١٩٣٥ . وشهداء عامى ٤٥ و١٩٤٦ وكان مقررًا أن أكتب عن (شهداء ثورة ١٩١٩) وأن يكتب الأستاذ (البلقينى) عن حركة الأربعينات ، وأن يكتب « هو » عن الفترة التى عاشها وقادها (١٩٣٥) ولكن إن هى إلا أيام ومضى ليلقى ربه ، ويلقى زملاءه من شهداء الوطن . .

ونحن الآن لا نملك إلا أن نكتب عنه ونقدمه إلى شبابنا . . ثم نكتب عن شهداء الوطن فى ثورة ١٩١٩ ـ وتلك كانت رغبته ـ إن شاء الله وكان فى العمر بقية .

« محمد بلال » ظاهرة فذة بين المناضلين من شباب مصر . . انضم إلى اللجنة التنفيذية العليا للطلبة عن كلية الطب وهو طالب فى السنة الثانية ، ولجان الشبان الوفديين تعقد برئاسته وينسق بينها وبين فرق القمصان الزرق التى كان هو قائدها . . وهو طالب فى السنة الثالثة ، وعندما

يصبح طالبا فى السنة الرابعة يملأ اسمه الصحف الانجليزية والمصرية ويسعى إليه الملك فيساومه.

فى ١٣ نوفمبر ١٩٣٥ ، فى احتفال الأحرار الدستوريين بعيد الجهاد خطب « محمد محمود » مطالبا باعادة دستور ١٩٢٣ وخرج الشباب إلى سرادق الوفد حيث كان « مصطفى النحاس » يطالب بمقاطعة الانجليز وباستقالة وزارة توفيق نسيم . وفى رسالة للدكتور محمد بلال إلى «صبرى أبو المجد » ذكر أن « صموئيل هور » وزير خارجية بريطانيا أصدر فى ١٠ نوفمبر بيانا ضد الأمانى القومية ، فاجتمعت الهيئة الوفدية فى ١٢ نوفمبر وأصدرت القرارات التى أعلنها رئيس الوفد فى ١٣ نوفمبر .

قامت المظاهرات العارمة من الجامعة ومدرسة التجارة بالظاهر والفنون والصناعات . وتوجهت التظاهرات إلى بيت الأمة وثكنات قصر النيل (مكانها الآن النيل هيلتون ومبنى الجامعة العربية) والسفارة البريطانية هاتفين بسقوط بريطانيا ووزير خارجيتها . وامتدت التظاهرات إلى الإسكندرية والمنصورة وشبين الكوم وبور سعيد والزقازيق وأقيمت الجنازات الصامتة فى كل مدينة وقرية . وأبرق الطلاب من خارج مصر يشجعون من فى داخلها واحتجوا لدى عصبة الأمم على طغيان الانجليز . واستعمل طلاب كلية الصيدلة زجاجات مولوتوف يقذفون بها البوليس . ويقول « د . بلال » : إنه فى صبيحة ٧ ديسمبر ١٩٣٥ تجمع الطلاب عند كوبرى عباس وطلب الضابط « نوبل » مقابلتى ووافق على مرور الطلاب إلى الروضة حيث نشبت معركة مع البوليس . ونصحنى « مكرم عبيد » بأن أغادر القاهرة وسافرت إلى منشأة عبد النبى مركز أجا فى منزل زميلى «أحمد عبد النبى » وانتحلت اسم « محمد شوقى » وعدت إلى القاهرة واستؤنفت التظاهرات أمام كلية الطب وكلية التجارة ، وكان الضباط الانجليز يطلقون الرصاص دون وعى . فسقط الشهداء الذين سوف نتحدث عنهم فيما بعد .

لجنة الطلبة التنفيذية

ونواصل مطالعة رسالة « الدكتور محمد بلال » التى حفظت لنا غالبية أسماء لجنة الطلبة التنفيذية العليا . وبدأت اللجنة بممثلين للكليات ـ وهى غير مجلس اتحاد الجامعة ـ ولم تكن لها لائحة تنظم عدد الأعضاء أو طريقة التشكيل ، ولكن الأحداث جمعت الذين تصدروا فى شجاعة حركة الطلاب . وعقدت الاجتماعات بنادى نقابة المحامين ثم بالنادى السعدى إلى أن وقع الاختلاف فى الرأى حول المطالبة بالدستور أولا أو الاستقلال قبل الدستور . والفريق الذى رأى تأجيل المطالبة بالدستور هم : «نور الدين طراف من الطب ، والظاهر حسن أحمد ، وعبد العزيز

الشوربجى من الحقوق ، ومصطفى السعدنى من الآداب وأحمد حسن الباقورى من الأزهر » .

ونترك ما كتبه « الدكتور بلال » مؤقتا وننظر فى الدراسة التى نشرها « الدكتور على شلبى » بعنوان « مصر الفتاة » يقول إنه تألفت عام ١٩٣٥ هيئة تسمى (كتلة الطلبة القوميين) وهذه الهيئة تضم الشباب المعارض للوفد . وقد تولى « نور الدين طراف » أحد أعضاء مصر الفتاة رئاستها وكانت تعقد اجتماعاتها بمنزل النبيل عباس حليم . وشارك أعضاء مصر الفتاة فى حركة الطلبة ١٩٣٥ ، وتقدم « نور الدين طراف » باقتراح فى جلسة مجلس الجهاد بتاريخ ٢٩ مارس ١٩٣٦ لتأليف لجنة من طلبة مصر الفتاة باسم (اللجنة التنفيذية لطلبة مصر الفتاة) .

وسجل « د . بلال » غالبية أسماء أعضاء اللجنة التنفيذية العليا للطلبة نذكر منهم « محمد بلال » من الطب ، فريد زعلوك من الحقوق ، أحمد بشر من الآداب ، محمود لاشين من العلوم ، عبد المنعم البيه من التجارة ، أحمد الدمرداش تونى من الزراعة جلال الدين الحمامصى من الهندسة ، محمد برهام من دار العلوم ، عبد المجيد الغايش من الأزهر ، محمد شبل الحضرى من الفنون الجميلة العليا ، أحمد الشافعى من المدارس الثانوية والمتوسطة .

وتتفق رسالة « الدكتور بلال » مع رسالة الشاعر « عامر بحيرى » ـ توفى أخيرا ـ فى هذا الشأن وفى بيان الشهداء الذين سقطوا فى تلك المعارك .

الشــــهداء

يروى « الدكتور بلال » أن أول الشهداء كان العامل « إسماعيل الخالع » صرعته رصاصة أمام سرادق الاحتفال بعيد الجهاد مساء ١٣ نوفمبر ١٩٣٥ وحمل البوليس جثمانه ودفن خلسة تحت جنح الظلام . أما الشهيد الثانى فهو « محمد عبد المجيد مرسى» شهيد الزراعة وصل جثمانه إلى مشرحة الكلية صباح ١٤ نوفمبر . وتسللنا ليلا فى غفلة من البوليس واستولينا على مفتاح الثلاجة غير أننا فوجئنا عند عودتنا باختفاء الجثمان وأن البوليس كسر باب الثلاجة ونقله فى عربة مغلقة إلى الإسكندرية مع والده حيث دفن بمقبرة العمود . وشهيدنا الثالث « على طه عفيفى » من دار العلوم صرعته هراوة كونستابل انجليزى صبيحة ١٦ نوفمبر أمام كلية دار العلوم وأسلم الروح صباح ١٧ نوفمبر وأحضر إلى المشرحة ليخطفه البوليس ليلا ، وكنا ثلاثة « بلال وطراف وجوهر » دلفنا فورا إلى داخل المشرحة وحملنا جثمانه وأخفيناه أسفل مدرج التشريح ، وانطلق ضباط القسم وحكمدارية القاهرة يفتشون الكلية . واقتحم فريق من الضباط والجنود منزلى بالمنيرة . وأبدى العميد « الدكتور على باشا إبراهيم ، نصيحة بتسليم الجثمان فاشترطناجنازة تجمع كل فئات الأمة وإلا سوف تكون الجنازة شعبية رغم أنف الحكومة . وتم لنا ما أردنا وكتب « فكرى أباظة» مقالا

بعنوان « أشرف سرقة فى التاريخ » فى مجلة المصور ، وكان « عبد الحكم الجراحى » يصارع الموت وأعطيته ربع دمى لاتفاق الفصيلة وقام بزيارته مصطفى النحاس وعدد من الزعماء ، وفاضت روحه صباح ١٩ نوفمبر ١٩٣٥ . . وتقدم جنازته زعماء مصر رمزا لقيام الجبهة الوطنية .

ويحدثنا الشاعر الراحل « عامر بحيرى » عن الشهداء السابقين بما يؤكد رواية الدكتور بلال ، ويضيف أن « عبد الحكم الجراحى » نشرت له مجلة « ابولو » بعض قصائده .

القمصان الزرق

ارتبط اسم (القمصان الزرق) بالدكتور محمد بلال قائدها ومنظمها ، وارتبط اسمه بها واختلفت حولها الآراء . ونعطى الكلمة الأولى له هو . .

يقول الدكتور بلال : مع قيام الجبهة الوطنية فى ١٢ ديسمبر ١٩٣٥ فان تظاهرات الطلبة فى ساحات الكليات وأفنية المدارس والأحياء انتهت بطوابير منتظمة تصدر صيحاتها الوطنية فى هتافات متفق عليها مما أدى إلى انتظامها فى تشكيلات أقرب إلى الفرق العسكرية . مما يصحح الفكرة الخاطئة عند الكثير من المؤرخين من أنها نشأت من خارج صفوف الطلاب لتأديب خصوم الوفد . وكانت أولى الفرق . . فرقة عبد الحكم الجراحى وساحة تدريبها فى فناء كلية الطب ، والثانية فرقة على طه عفيفى وساحة تدريبها أمام دار العلوم ، ثم قامت فرق أخرى فى باقى الكليات والمعاهد والمدارس . ووضع الكاتب والشاعر « مصطفى صادق الرافعى » لها نشيدا ولحنه الموسيقار « رياض السنباطى » واتخذنا اللون الأزرق لون (الجلاليب الزرقاء) زى الفلاح المصرى . واتفقنا على صورة (شارة) توضع على الذراع وشارة معدنية صغيرة تعلق على الصدر ، وكلتاهما تمثل قبضة قوية تطبق على مفتاح النيل . واتخذت الفرق علما خاصا يرفع فى معسكراتها مكونا من اللونين الأحمر والأسود . وقامت هذه الفرق مع أول عام ١٩٣٦ . ويؤكد الدكتور بلال : (أن نشاط اللجنة العليا للشبان الوفديين لم يكن مرتبطا بإدارة الفرق أو تكوينها رغم أن جلسات اللجنة كانت تعقد برئاستى . . وفى مقابلتى لرئيس الوفد مصطفى النحاس وسكرتيره . مكرم عبيد أكدا على الجوهر الأصيل لنظام الحكم الدستورى والديمقراطى فى مصر وحمايته ، فدعوت إلى اجتماع للجان الشبان الوفديين حضره مكرم عبيد وزهير صبرى فى ٥ يناير ١٩٣٦ وانضمت هذه اللجان إلى صفوف الفرق القائمة . . ولم يستمر قيام فرق للطلاب . وحدهم حتى طالب العمال بحق الانضمام إليهم فقامت فرق من عمال العنابر الأميرية والسكة الحديد و«أبو» زعبل بالإضافة إلى فرق أخرى للعمال والمؤلفين والفلاحين فى المدن والقرى) .

وفى أول الأمر تألف مجلس لقيادة الفرق من « محمد بلال ، وفهمى سليمان ، وأحمد لطفى ،

وراغب الهوارى ، ومحمود يونس وعماد الجندى ، وأحمد الشافعى ، وكامل الدماطى ، وحنفى الشريف » وكان يقوم فريق من قدامى الخبراء والعسكريين بمهمة التدريب فى مقدمتهم الصاغ «محمود لبيب » رجل الإخوان المسلمين فيما بعد ـ ثم أصدر الوفد فيما بعد قرارا بتشكيل المجلس الأعلى للفرق من « الأميرالاى » متقاعد حافظ صدقى ، وسيد بهنسى ، ومحمود سليمان غنام ، ومحمد بلال ، وزهير صبرى وميخائيل غالى .

القمصان الخضر

فيما سبق صورة موجزة لما قدمة « الدكتور بلال » عن (القمصان الزرق) وحتى تكتمل الصورة ينبغى أن نقف على نشاط مماثل مقابل عرف بالقمصان الخضر الخاص بجماعة مصر الفتاة ، ويوضح « الدكتور على شلبى » فى كتابه (مصر الفتاة) . أن مصر الفتاة أعلنت منذ بداية تكوينها (يجب أن نجمع الشباب من صعيد واحد ، وأن نعودهم النظام والطاعة ، وأن نلبسهم زيا واحدا وأن نلتف حول العرش) . وأوضح القانون النظامى لجمعية مصر الفتاة الهيكل التنظيمى الذى يبدأ بالانصار ثم المجاهدين . . والمجاهد (يخضع لنظام شبه عسكرى أساسه الخضوع التام للرؤساء وتنفيذ الأوامر دون مناقشة . .) وكل اثنى عشر مجاهدا يكونون قسما . . وكل أربعة أقسام يكونون كتيبة وكل أربعة كتائب تكون فرقة ، وكل أربع فرق تكون لواء ، وكل أربعة ألوية تكون فيلقا ، ولهذه التشكيلات شبه العسكرية أزياء رسمية وشارات مميزة ، ولها مجلس أركان حرب الجهاد . وهذا القانون النظامى نشرته (الصرخة) جريدة الجمعية فى ٣١ مارس ١٩٣٤ أى إنه سابق فكرة القمصان الزرق والقمصان الخضر وقد نشرت جريدة الصرخة أول صورة (لجندى مصر الفتاة) مرتديا القميص الأخضر فى ١٦ ديسمبر ١٩٣٣ . . وقد كان ذلك بداية الدعوة لتكوين فرق المجاهدين لابسى القميص الأخضر . وكان « جمال عبد الناصر » من بين هؤلاء الأعضاء ، وسدد اشتراكه للجمعية بالإيصال رقم ٣٤ عن شهر يناير ١٩٣٥ (انضم جمال عبد الناصر إلى القمصان الخضر عن طريق الأستاذ إبراهيم طلعت المحامى بالإسكندرية ، ويؤكد الدكتور بلال أنه كان أيضا ضمن القمصان الزرق . على أية حال فإن عبد الناصر ابتعد عن مصر الفتاة فى أواخر عام ١٩٣٥ ، والقمصان الزرق نشأت فى أول عام ١٩٣٦) وفى غضون عام ١٩٣٦ ، شرعت جمعية مصر الفتاة فى تنظيم العمال فى شكل فرق يرتدى أعضاؤها القمصان الخضر . ومع بداية عام ١٩٣٦ أصبح فى مصر فرق نظامية شبه عسكرية . . الأولى القمصان الخضر أو الخضراء منذ عام (١٩٣٤) . . والثانية القمصان الزرق أو الزرقاء (مع بداية عام ١٩٣٦) . . الأولى تابعة لجمعية مصر الفتاة . . والثانية تابعة للوفد ، وفى أول يناير ١٩٣٧

تحولت جمعية مصر الفتاة إلى حزب أعلن الحزب عن تأليف فيلق باسم (فيلق فاروق الأول) .

وهكذا فإن تشكيل القمصان الزرق (الوفد) جاء بعد تشكيل القمصان الخضر (مصر الفتاة) وربما كرد فعل له . ومهما يكن من أمر فإن (القمصان الزرق) وجدت ظروفا مواتية للنمور والانتشار فى ظل وزارة النحاس الثالثة (٩ مايو ٣٦ ـ ٣١ يوليو ١٩٣٧) ووزارة النحاس الرابعة (أول أغسطس ٣٧ ـ ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧) وفى نهاية ١٩٣٧ أغلقت حكومة الوفد دور مصر الفتاة بسبب اعتداء « عز الدين عبد القادر » العضو القيادى فى حزب مصر الفتاة على « مصطفى النحاس » .

ومن المعروف أن السلطات الانجليزية كانت تعارض وجود كل هذه التشكيلات شبه العسكرية ، وأن القصر كان معارضا تماما للقمصان الزرق التابعة لحزب الأغلبية الشعبية ، وشنت الصحف الموالية للقصر والمعادية للوفد حملات شعواء على القمصان الزرقاء . واستدعى «الملك فاروق مصطفى النحاس رئيس الوفد ورئيس الوزراء فى ٢٦ أكتوبر ١٩٣٧ وسلمه بحثا قانونيا جاء فيه أن وجود القمصان ينافى الدستور وطلب إليه حلها . واستدعى عميد كلية الطب « الدكتور على باشا إبراهيم » محمد بلال «الطالب بالسنة الرابعة وقت ذاك وبحضور « الدكتور أحمد شفيق باشا » والدكتور مصطفى فهمى ، والدكتور رشوان فهمى والأستاذ محمد السحرتى » وأبلغه أن « الملك فاروق » يعرض عليه وظيفة رفيعة بالسراى نظير أن يعلن باعتباره قائدا للقمصان الزرقاء أن أعضاء تلك الفرق جنود الملك المخلصون ويدينون لجلالته بالولاء والإخلاص . . ورفض المناضل « محمد بلال » هذا العرض . ولكن كان لابد من الحل .

حل الزرقاء والخضراء

كان على الانجليز والملك والأحزاب والعناصر المعادية للوفد أن تطيح أولا بحكومة « مصطفى النحاس » ووجدوا الفرصة فى مناخ الانقسام الخطير داخل الوفد والذى يقوده « أحمد ماهر ، ومحمود فهمى النقراشى ، وحامد محمود ، ومحمود غالب وحامد جودة » وكلها عناصر لها ثقلها ولها دورها التاريخى فأقيلت حكومة الوفد فى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ . وشكل « محمد محمود » وزارته الثانية (٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ ـ ٢٧ ابريل ١٩٣٨) واشتركت فيها عناصر معروفة بمهارتها الفردية وبعدائها التقليدى للوفد «إسماعيل صدقى ، وعبد الفتاح يحيى ، وعبد العزيز فهمى ، ومحمد حسين هيكل ، ومحمد حافظ رمضان ، وحسين سرى وأحمد لطفى السيد . . وغيرهم » . وبدأت الوزارة بحل البرلمان الوفدى فى ٣ يناير ١٩٣٨ وفصلت عددا كبيرا من الموظفين الموالين للوفد . وفى ٩ مارس ١٩٣٨ صدر المرسوم الملكى يحظر كافة التشكيلات شبه العسكرية التابعة للأحزاب

السياسية . وطالب حزب مصر الفتاة باستثناء (القمصان الخضراء) من الحل ولكن « محمد محمود » صديق الحزب لم يستطع إصدار مثل هذا الاستثناء .

ويعلق « الدكتور عبد العظيم رمضان » قائلا إن « النقراشى » اختار موضوع (القمصان الزرقاء) لمنازلة « مصطفى النحاس » على اعتبار أن وجودها كان منافيا للدستور ، وإن كان من المؤكد أن معارضى الوفد لم يكونوا مخلصين فى مهاجمة التشكيلات باسم الدستور ، فقد سبق ظهورها القمصان الخضراء التى ألفها أحمد حسين ، وكانت تلقى من المعارضة كل عطف وتشجيع بسبب مناهضتها للوفد .

رحيـل الفارس

عاش « محمد بلال » وفديا مخلصا ، رفض وظيفة رفيعة بالسراى وهو طالب بالسنة الرابعة بكلية الطب ، ولم يخرج فى أى انقسام تعرض له الوفد ، ولم يهتز فى ظروف الوفد على الطريق الوعرة وعندما حان وقت الذهاب شاء له الله أن يكون فى مقر الوفد وبين قادة الوفد وشبابه فى الأول من مايو ١٩٨٨ فى الاحتفال بذكرى المناضل العظيم « الدكتور عزيز فهمى » .

الأسـانيد :

١ ـ الوفد (جريدة) . . . عدد ٣ مايو ١٩٨٨ .

٢ ـ صبرى أبو المجد . . (سنوات ما قبل الثورة) . (رسائل من محمد بلال وعامر بحيرى وحنفى الشريف وعز الدين عبد القادر) .

٣ ـ د . عبد العظيم رمضان . . تطور الحركة الوطنية فى مصر .

٤ ـ د . على شلبى . . مصر الفتاة .

محمد حافظ رمضان



هو آخر رؤساء (الحزب الوطنى مصطفى كامل ومحمد فريد) هو آخر رؤساء الحزب الوطنى بعد محمد فريد فى فترة الانقسامات والعزلة اذا شئت ، أو فى فترة المحاق إذا أراد آخرون .

كانت تقاليد الحزب الا يشارك فى الحكم ، ومع ذلك دخل هو الوزارة خمس مرات ، وكلها من وزارات الاقلية السياسية الموالية للقصر ، ظل رئيسا للحزب الوطنى منذ سنة ١٩٢٣ حتى سنة ١٩٥٣ حين أصدرت قيادة يوليو قرارا بحل الأحزاب وإلغاء دستور ١٩٢٣ .

فى عام الأحزاب ، عام ١٩٠٧ ظهرت أحزاب كثيرة منها (حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية) ورئيسه الشيخ على يوسف وسبقته جريدته (المؤيد ١٨٨٩) ومنها (حزب الأمة) ورئيسة « محمود سليمان » وسبقته جريدة (الجريدة ١٩٠٧) ، أما «مصطفى كامل » فكان قد أصدر (اللواء سنة ١٩٠٠) وفى ديسمبر ١٩٠٧ اجتمعت أول جمعية عمومية للحزب الوطنى وانتخب « مصطفى كامل باشا » رئيسا للحزب مدى الحياة التى دامت لشهرين فقط بعد هذا الانتخاب واختيرت لجنة إدارية للحزب من « محمد فريد ، محمد حافظ رمضان ، أحمد فايق ، حسن حارس ، سيد شكرى ، على واصف ، عمر أنيس ، فؤاد سليم حجازى ، ويصا واصف ، حسين يسرى ، محرم رستم ، يوسف ذهنى ، على فهمى كامل ، على حشمت ، محمود لبيب . محمد خلوصى ، محمد رشوان ، عبد الرءوف السيوفى ، يوسف حافظ ، ابراهيم حفظى ، عبد الله طلعت ، على لهيطة ، اسماعيل الملوانى ، محمد عبد اللطيف ، فهمى حسين ، وأحمد الجهينى » على أن يكون الحزب للأمة كلها وأن يتمسك بالنظام الدستورى .

وإذا كان الحزب الوطنى قد أعلن عنه « مصطفى كامل » فى أكتوبر ١٩٠٧ ثم اجتمعت الجمعية العمومية فى ديسمبر من العام نفسه إلا أن واقع الأمر يدعونا إلى أن نعتبر الحزب الوطنى

كان موجودا منذ عام ١٩٠٠ حين صدرت اللواء لتعبر عن أفكار هذه المجموعة فى مواجهة المؤيد التى كانت قد بدأت تهادن الانجليز بعد أن كانت صوتا متميزا فى معارضة الاحتلال وبدأت تنافس مصطفى كامل فى التعبير عن رأى الخديو الذى بدأ يخفف من اعتماده على مصطفى كامل ومن الطريف ان الشيخ على يوسف قد نشر أفكار قاسم أمين على صفحات المؤيد .

وإذا كان الحزب الوطنى فى اتجاهه الغالب وفى فتراته الأولى حتى قبل الإعلان الرسمى ينسق مع الخديو ويحرص على تأييد الباب العالى والدولة العثمانية فإن هذه الدعاوى لم تكن مرفوضة من غالبية الرأى العام المصرى ، وبالتالى لم تشكل عقبة أمام مسيرة مجموعة مصطفى كامل ، أما دعوته إلى مقاومة الاحتلال والتشدد فى هذه الدعوة فقد جعلت منه حزبا وطنيا متميزا كسب قطاعا هاما من المجتمع المصرى بحيث يمكن أن نقول إن (الحزب الوطنى) خاصة فى فترة «مصطفى كامل » كان (حزب الجلاء) وكان (حزب الأغلبية) .

وفى هذا العام عام ١٩٠٧ الذى يطلق عليه البعض (عام الأحزاب) ظهرت جماعة أطلقت على نفسها اسم (الحزب الوطنى الحر) . وإذا كان الشيخ على يوسف كانت عنده (المؤيد) ومصطفى كامل عنده (اللواء) وصحف أخرى وأحمد لطفى السيد عنده (الجريدة) فإن المقطم ذات الميول الاحتلالية وضعت صفحاتها فى خدمة مجموعة (الحزب الوطنى الحر) . وكان الشخصان الرئيسيان فى هذا الحزب هما « محمد وحيد ومحمد نشأت » وبعد ذلك صدرت عن الحزب جريدة « الأحرار » وتوالت بعد ذلك أحزاب عديدة مختلفة الاتجاهات . .

والمؤرخ المنصف لا يستطيع أن يقول إن الأحزاب التى ظهرت فى عام ١٩٠٧ وفى السنوات القليلة التالية قد أثرت فى مسيرة الحزب الوطنى بقدر ما أثر فيه رحيل زعيمه ومؤسسه « مصطفى كامل » فى ١٠ فبراير ١٩٠٨ . ففى اليوم التالى للرحيل وقع ما يشبه الانشقاق فى الحزب الوطنى . . مجموعة بقيادة « على فهمى كامل » شقيق الزعيم المؤسس « مصطفى كامل » . . ومجموعة من بينها « محمد حافظ رمضان » تؤيد « محمد فريد » . . وكان الخديو والشيخ على يوسف ضد اختيار محمد فريد رئيسا للحزب فى ١٤ فبراير ١٩٠٨ . وظهر الخلاف أيضا فى صحافة الحزب فقد تولى الشيخ عبد العزيز جاويش رئاسة تحرير اللواء . واستمر الحال والخلاف يتزايد داخل الحزب الوطنى حتى سافر رئيسه محمد فريد سرا إلى خارج البلاد فى ٢٦ مارس ١٩١٢ .

مرحلة جديدة

فى مصر بدأت تتبلور الحركة الوطنية حول مفهومات جديدة قوامها الاستقلال عن انجلترا وعن تركيا وحول حياة دستورية يكون للشعب فيها دور واضح أما الحزب الوطنى فقد غاب عنه رئيسه

والشخصيات ذات الفعالية التى سافرت مع فريد أو لحقت به وقد زاد ارتباطها بتركيا وبالخديو نظرا لاعتمادها عليهما كمصدر للتمويل فانعزلت المجموعة القيادية عن تيار الحركة الوطنية المصرية الجديدة .

ولكن المندهش الأعظم « محمد فريد» ازاء الثورة القومية الكبرى (من الأمور التى كانت غير منتظره ما حصل بمصر فى شهرى مارث ـ يقصد مارس ـ وابريل هو قيام ثورة عامة اشتركت فيها الأمة بجميع طبقاتها . .) بقى فى أوروبا لا يقدر على إصدار توجيه واحد إزاء الأحداث الجارية فى مصر .

وأخذت عناصر الحزب الوطنى داخل مصر تتصرف دون توجيهات من القيادة القابعة فى أوروبا تبهرها شعبية « سعد» الجارفة وتدهشها صلابة « عبد الرحمن فهمى » وجهازه السرى وتقيدها مفهومات عامة ورثوها عن « مصطفى كامل » .

ونقرأ فى صفحتى ٣٠٥ و٣٠٦ من مذكرات محمد فريد بعد الهجرة . . (علمت بأن انجلترا صرحت لوفد آخر كل أعضائه من الحزب الوطنى بالسفر إلى باريس .ـ يشير إلى وفد آخر غير وفد سعد زغلول الذى سافر يوم ٨ أبريل ١٩١٩ ـ وهو مؤلف من أحمد لطفى ـ شقيق عمر لطفى ـ والدكتور إسماعيل ـ غير إسماعيل باشا صدقى ومحمد حافظ رمضان ، وعبد اللطيف الصوفانى ، ومحمد كمال أبو جازية وأحمد وجدى ومصطفى الجوريجى ومحمد زكى على ، وأحمد وفيق رفعت ، ومحمد فؤاد حمدى) . . وعلى صفحة ٣٠٧ نعرف أن رجال الحزب الوطنى قرروا عدم السفر لعدم عرقلة وفد سعد مادام هذا الوفد يطالب باستقلال مصر وحتى تسقط دعوى الانجليز بأن المصريين غير متفقين .

على أية حال فإن رجال الحزب الوطنى داخل مصر كانوا سيتصرفون دون توجيه من محمد فريد وإن « محمد حافظ رمضان» وزملاءه تركوا مكانا لمحمد فريد حتى وهو فى أوروبا ويعيشون على هدى تراث الحزب .

ولكن « محمد فريد » يرحل إلى رحاب الله فى نوفمبر ١٩١٩ والفاعليات الرئيسية فى برلين وباريس والأستانة وتلاميذ مصطفى وفريد بين أمواج الأحداث فى مصر إلا أنهم يتركون مكان رئاسة الحزب شاغرا حتى يوم ٩ مايو ١٩٢٣ بعد شهر واحد من إعلان (دستور ١٩٢٣) . اجتمعت اللجنة الإدارية للحزب فى شكل جمعية عمومية مصغرة وانتخبت محمد حافظ رمضان رئيسا ولم يلبث أن أعلن حسن شافعى الجيزاوى تشكيل ما أسماه اللجنة العامة للحزب الوطنى واتشح بالملابس السوداء حزنا على مصطفى كامل ومحمد فريد ورفض الاعتراف بحافظ رمضان رئيسا للحزب الوطنى لخروجه على خط الزعيمين الراحلين وأعلن إسقاط العضوية عن كل اتباع

حافظ رمضان وزعم أن مؤيدى (اللجنة العامة) هم وحدهم الأعضاء الحقيقيون للحزب الوطنى .

وكان محمد حافظ رمضان قد أرسل برقية إلى الزعيم سعد زغلول يخبره فيها بانتخاب اللجنة الإدارية له رئيسا للحزب الوطنى . وقد فسرت هذه البرقية على أنها محاولة من حافظ رمضان للوئام مع الوفد الممثل للأغلبية الشعبية إلا أن عاصفة من النقد هبت على الرئيس الجديد للحزب الوطنى من الرافعى والجيزاوى فى مصر ومن عبد العزيز جاويش من خارج مصر .

واشتدت العاصفة على رمضان عندما دخل فى مفاوضات مع سعد زغلول بهدف ائتلاف الحزب الوطنى مع الوفد والأحرار الدستوريين وقاد الهجوم هذه المرة فكرى أباظة ، وظهرت دعوة لخلع حافظ رمضان واختيار عبد الحميد سعيد بدلا منه ، وقدم حافظ رمضان استقالته ولكنها رفضت داخل اللجنة الإدارية التى سرعان ما أيدت نظام إسماعيل صدقى مع حزبى الاتحاد والشعب مما زاد من حدة الخلافات داخل الحزب وزاد من عزلته عن التيار الديمقراطى الذى يرفض دكتاتورية صدقى باشا .

وحدث أن إختير عبد الرحمن الرافعى سكرتيرا للحزب الوطنى بدلا من محمد زكى على وذلك فى ٢٦ ديسمبر ١٩٣٢ وكان الرافعى معارضا لائتلاف الحزب الوطنى مع الوفد والأحرار وفى الوقت نفسه معارضا لموقف الحزب من تأييد نظام صدقى وكان لتأييد الحزب لنظام صدقى أثره السيئ على وحدة الحزب فتركه البعض إلى أحزاب أخرى مما حدا بحافظ رمضان إلى أن يقدم استقالته من رئاسة الحزب مرة ثانية فى ٢٣ أبريل ١٩٣٣ ورفضت اللجنة الإدارية الاستقالة الثانية كما سبق ان رفضت الاستقالة الأولى .

وقد ساند عبد الرحمن الرافعى سكرتير الحزب حافظ رمضان رئيس الحزب فى انضمام الحزب الوطنى إلى (الجبهة الوطنية) التى أعلنت فى ١٢ ديسمبر ١٩٣٥ من أحزاب الوفد والأحرار الدستوريين وحزب الشعب وحزب الاتحاد والوفد السعدى والحزب الوطنى والمستقلين وذلك لإعادة العمل بدستور ١٩٢٣ وتوقفت جهود الحزب الوطنى عند هذا الحد وبعدها استكملت الجبهة الوطنية جهودها التى انتهت بمعاهدة ١٩٣٦ التى هاجمها الحزب الوطنى .

رمضان والحكم

كان الحزب الوطنى بعد رحيل مصطفى وفريد يرفض قبول الاشتراك فى الحكم ويعد ذلك خروجا على مبادئ مصطفى وفريد وقبولا ضمنيا لمعاهدة ١٩٣٦ التى هاجمها الحزب ولكن بعد إقالة وزارة مصطفى النحاس الرابعة فى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ ، شكل محمد محمود وزارته الثانية

واشترك فيها حافظ رمضان كوزير دولة وهاجمه عبد الرحمن الرافعى بشراسة واعتبره بعض الأعضاء مفصولا من رياسة الحزب . . وما لبث « حافظ رمضان » أن دخل وزيرا للشئون الاجتماعية فى وزارة حسن صبرى فى يونيه ١٩٤٠ على الرغم من أن الحزب الوطنى كان قد قرر عدم الاشتراك فى الوزارة فى جلسة له بتاريخ ٢٤ يونيه وعقد عدد من أعضاء الحزب الوطنى اجتماعا فى مكتب عبد المقصود متولى واعتبروا حافظ رمضان متخليا عن عضويته ورئاسته وانقسمت اللجنة الإدارية وتبادلت الأطراف المختلفة البيانات بين مؤيد ومعارض للاشتراك فى الحكومة وأعلنت مجموعة حافظ رمضان فصل عبد الرحمن الرافعى ومحمد محمود جلال من الحزب الوطنى وهكذا وصل الحزب الوطنى إلى حالة من التشرذم وبأوامر من القصر عاد حافظ رمضان للاشتراك وزيرا للعدل فى وزارة أحمد ماهر فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ كرئيس للحزب الوطنى إلى جانب الحزب السعدى برئاسة أحمد ماهر والأحرار الدستوريين برياسة محمد حسين هيكل والكتلة الوفدية برياسة مكرم عبيد وذلك لمواجهة الوفد الذى أقيلت حكومته واشترك رمضان باشا فى وزارة أحمد ماهر الثانية فى ١٦ يناير ١٩٤٥ وزيرا للعدل أيضا بل إننا نجده كذلك وفى نفس المنصب فى وزارة « محمود فهمى النقراشى » الأولى فى ٢٤ فبراير ١٩٤٥ . وفى تلك السنة احتفل الحزب الوطنى بحافظ رمضان ونودى به رئيسا مدى الحياة للحزب وتم الصلح بين الفرقاء المتصارعين سنة ١٩٤٦ . وعندما خلف « إبراهيم عبد الهادى » المرحوم النقراشى باشا فى رئاسة الوزارة فى ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ اشترك الحزب الوطنى بوزيرين لا وزير واحد وهما « محمد زكى على وعبد العزيز الصوفانى ، وفى وزارة حسين سرى التى حلت محل وزارة عبد الهادى » فى ٢٥ يوليو ١٩٤٩ دخل الوزارة المعارض العنيد للاشتراك فى الحكم وهو « عبد الرحمن الرافعى » وزيرا للتموين ! ومعه « محمد زكى على » وزيرا للدولة وانتهت بذلك اسطورة اعتراض الحزب الوطنى حزب مصطفى وفريد على الاشتراك فى الحكم . الأخطر من ذلك انه اشترك فى حكومات تقوم بمفاوضات مع الانجليز على عكس شعار الحزب الوطنى (لامفاوضة إلا بعد الجلاء) واشترك فى حكومات موالية للقصر وهو الصديق التقليدى لمؤسسى الحزب الوطنى .

اللجنة العليا

فى أواخر عام ١٩٤٤ كانت مجموعة من الشباب بزعامة « فتحى رضوان » قد انفصلت عن (مصر الفتاة) وانضمت إلى الحزب الوطنى . ومن الطريف أن هذه المجموعة أيدت فى البداية «حافظ رمضان » فى مواجهة « عبد الرحمن الرافعى » وقد حرصت هذه المجموعة على التماسك تنظيميا وعدم الذوبان فى تشكيلات الحزب فأسست ما أسمته (باللجنة العليا لشباب الحزب الوطنى) وأصدرت صحيفة (اللواء الجديد) كتب فيها « حافظ رمضان وفكرى أباظة وعبد الرحمن الرافعى ونور الدين طراف وزهير جرانة » .

وبعد ذلك بدأت هذه الجماعة تقول بعدم صلاحية « حافظ رمضان » رئيسا للحزب ولعلها بذلك كانت تمهد للأستاذ فتحى رضوان ليتولى رئاسة الحزب ، وكان أن اجتمعت اللجنة الإدارية للحزب الوطنى بحضور « عبد الرحمن الرافعى » وقررت فى يناير ١٩٥٠ فصل « فتحى رضوان ومحمد زهير جرانة ومصطفى المنزلاوى ونور الدين طراف » من عضوية اللجنة الإدارية وعضوية الحزب .

وبعد هذا الموقف بدأت اتجاهات الأطراف المختلفة تتضح . . « حافظ رمضان » رئيس الحزب الوطنى أخذ فى زيادة تقاربه مع رؤساء الأحزاب الأخرى فى مواجهة الوفد الذى كان فى الحكم بأغلبية كبيرة . وفى ١٧ يونيه ١٩٥٠ اجتمع « حافظ رمضان» رئيس الحزب الوطنى ، ومحمد حسين هيكل رئيس الأحرار الدستوريين ، و« ابراهيم عبد الهادى » رئيس الهيئة السعدية ومكرم عبيد رئيس الكتلة الوفدية ، وأذاعوا يوم ٢٣ يونيه بيانا إلى الأمة ، ورفعوا عريضة إلى الملك فاروق .

وعلى جانب شيوخ الحزب فقد زاد الخلاف بين عبد الرحمن الرافعى ، وفكرى أباظة ، وعبد المقصود متولى وبين حافظ رمضان واستقال فكرى أباظة من اللجنة الإدارية . أما « فتحى رضوان» فقد مضى فى الطريق الذى يحلم به وهو أن يكون رئيسا للحزب الوطنى أو لحزب آخر . وكثف من اتصالاته بعناصر سياسية مختلفة من أجل تشكيل حزب جديد . وما إن أعلن « محمد نجيب » فى ٣١ يوليو ١٩٥٢ بيانه بتطهير الأحزاب والذى كان موجها أساسا ضد (الوفد) ، وسرعان ما اجتمعت اللجنة العليا لشباب الحزب الوطنى وأعلنت إعفاء « حافظ رمضان » من رئاسة الحزب واختيار « فتحى رضوان » رئيسا ، وكان « حافظ رمضان » ملازما للفراش . . وهنا تصدى « عبد الرحمن الرافعى » لمحاولة فتحى رضوان الاستيلاء على الحزب الوطنى وردت اللجنة الإدارية بأن فتحى رضوان ومجموعته لا صلة لهم بالحزب الوطنى . وفى ٩ سبتمبر ١٩٥٢ صدر قانون تنظيم الأحزاب فسارع « فتحى رضوان » بتقديم إخطاره بتشكيل (الحزب الوطنى الجديد) برئاسة « فتحى رضوان » . وقدم « عبد الرحمن الرافعى » إخطارا (بالحزب الوطنى) برئاسة عبد الرحمن الرافعى ، كل هذا والرئيس المنتخب راقد فى فراشه يصارع المرض . ووصل الأمر إلى القضاء الذى حجز القضية للحكم فى ٢٢ يناير ١٩٥٣ . ولكن السلطة الجديدة أصدرت قرارها فى ١٦ يناير ١٩٥٣ بحل الأحزاب فأراحت العرايا من شراء الصابون ، ومضى « فتحى رضوان » وزيرا ومدافعا عن النظام الذى حل الأحزاب ، ومضى « عبد الرحمن الرافعى » محاميا ومؤرخا ومؤيدا للنظام الذى ألغى دستور ١٩٢٣ .

وفى فبراير ١٩٥٥ رحل « محمد حافظ رمضان » آخر رؤساء الحزب الوطنى حزب مصطفى كامل ومحمد فريد ، حزب الجلاء أو حزب لامفاوضة إلا بعد الجلاء ، الحزب الذى شن حملة شعواء على الثورة العرابية ، وعلى أحمد عرابى ، وعلى العرابيين ، وشن رئيسه « مصطفى كامل » حملة على قاسم أمين وسعد زغلول ، وهاجم خلفاؤه مصطفى النحاس والوفد . . الحزب الوطنى

الذى كان من تقاليده العلاقات الودية مع الخديو والقصر على امتداده بعد ذلك ، ومن تقاليده العلاقات الوثيقة مع الباب العالى والدولة العثمانية ، ومن تقاليده أيضا الإفادة من التناقضات بين فرنسا وانجلترا مرة ، وبين ألمانيا وانجلترا مرة أخرى . . ولكن (الحزب الوطنى) ظل طوال عمره وظل أعضاؤه فى عداء مستمر مع الاحتلال الانجليزى وحسبهم هذا .

الأسـانيد :

١ ـ د . حمادة إسماعيل . . رسالة دكتوراه عن (عبد الراحمن الرافعى) .
٢ ـ حسن يوسف . . . مذكرات .
٣ ـ صبرى أبو المجد . . سنوات ما قبل الثورة .
٤ ـ محمد فريد . . مذكراتى بعد الهجرة .
٥ ـ د . محمود متولى . . . مصر والحياة الحزبية والنيابية .

محمد صبرى أبو علم



فى اليوم الرابع عشر من أبريل عام ١٩٤٧م ، وفى عهد وزارة محمود فهمى النقراشى (٩ سبتمبر ١٩٤٦ - ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨) كانت الجماهير الحزينة المكتظة من ميدان الإسماعيلية ، (التحرير حاليا) إلى جامع الكخيا والتى هبت لوداع سكرتير عام الوفد « محمد صبرى أبوعلم» ، كانت والأسى يجتاح النفوس تطلب من المناضل الوطنى الراحل أن يشكو الظلم لسعد زغلول .

مع « مصطفى النحاس » خرج زعماء الأحزاب ورؤساؤها لوداع « محمد صبرى أبو علم » الذى تميز بعلاقات طيبة مع غالبية الساسة وقادة الرأى . كان يفصل دائما بين المواقف السياسية والعلاقات الإنسانية . . ويوم الجنازة المشهود أقبل « مكرم عبيد » سكرتير عام الوفد السابق على الزعيم « مصطفى النحاس » يحتضنه ويقبله ويطلق قوله المشهور (إذا مات صبرى فإن حب مكرم للناس لايموت) جريدة (صوت الأمة) أربعين يوما مجللة بالسواد حزنا على رحيل بطل الوطن وصاحب امتيازها « محمد صبرى أبو علم » واحد من أعدادها ، يوم التاسع عشر من ابريل . . مصطفى النحاس يشكر شعب مصر الوفى الذى خرج معه لوداع أحد قادة الوفد العظام . . ويقول النحاس عن مساعده الأول .

(كان صديقا وفيا ورجلا أبيا ، وعلى المساومين فى حقوق الوطن جبارا عصيا) ومع «النحاس» كتيبة أخرى من الأقلام الوفية . عبد السلام فهمى جمعة ، والدكتور طه حسين ، والدكتور محمد مندور ، والدكتور محمد بلال ، ومحمود لطيف ، وحافظ شيحا ، والشاعر محمد هارون الحلو ، والملاح التائه الشاعر « على محمود طه » الذى قال فى مطلع قصيدة حزينة له : ألقاك فى عالم الذكرى وتلقانى . . رغم الفراق بهذا العالم الفانى .

ثم كتيبة أخرى من رؤساء اللجان وشباب الوفد ترثى « الرجل » الذى توسمت فيه أن يدعم

حركتها المتطلعة إلى آمال المستقبل ، والمسلحة بالمعطيات الجديدة التى ألقت بها الوضعية الجديدة من التطور السياسى والاجتماعى والاقتصادى على المستويين العالمى والمحلى على السواء . .

وتعد فترة السكرتارية العامة للوفد التى شغلها « محمد صبرى أبو علم » من عام ١٩٤٣ حتى وفاته عام ١٩٤٧ من أخصب فترات العمل الشبابى فى الوفد ، مما أعطى الوفد حركة نشطة وبعدا اجتماعيا . صحف الوفد تركت أنهارها تسبح فيها أقلام من اتجاهات مختلفة تؤمن بان الوفد «جبهة» تلتقى فيها القوى السياسية المناضلة من أجل الاستقلال والديمقراطية والعدل الاجتماعى . وهكذا عصف « إسماعيل صدقى » فى حملته الشهيرة (١١ يوليو ١٩٤٦) بصحف الوفد المصرى ، واعتقل فيها اعتقل كتاب الوفد وشبابه . وبعد أن صدرت (صوت الأمة) وكان محمد صبرى أبو عالم صاحبا لامتيازها ، « وحامد طلبة صقر» مديرا لها ، و« حافظ شيحا » رئيسا لتحريرها استمرت الجريدة فى الحفاظ على التراث الليبرالى للوفد ، وعلى النضال من أجل الاستقلال والديمقراطية والعدل الاجتماعى .

وفى صيف عام ١٩٤٥ كانت البداية لتكوين (اللجنة الوطنية للطلبة والعمال) والتى ضمت ممثلين لطلاب الجامعة والأزهر وطلاب المدارس الثانوية ، وممثلين على العمال . وكان التشكيل (نواة) لجبهة واسعة للكفاح ضد الاحتلال وقواته ، وضد القصر والأحزاب المهالئة له ، وضد الظلم الاجتماعى .

وقد نشط شباب الوفد داخل هذه اللجنة أو الجبهة ، ووجدت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال دعما من الوفد بكل أجهزته وعلى كافة مستوياته ، بداية من زعيم الوفد « مصطفى النحاس» وسكرتير عام الوفد « محمد صبرى أبو علم » . وقد واجه الوفد إجراءات « إسماعيل صدقى» بموقف واضح . طالب « مصطفى النحاس » بإجراء انتخابات جديدة حرة ، وهذا يعنى إسقاط نظام إسماعيل صدقى ، وكتب الدكتور عزيز فهمى فى الوفد المصرى » يقول : إما أن يكون هذا وطننا وإما أن يكون وطنا لأعوان الاحتلال .

واستمد شباب الوفد من المعطيات الاجتماعية والاقتصادية الجديدة ومن ليبرالية الوفد ، ومن استنارة قيادة مصطفى النحاس ومحمد صبرى أبو علم زادا ودافعا لحركتهم داخل الوفد وبين صفوف المناضلين الآخرين . وداخل إطار الحفاظ على تقاليد الوفد صدرت (رابطة الشباب) فى عدد ٢٠ مارس ١٩٤٧ (أى قبل رحيل أبو علم بأقل من شهر واحد) صدرت وتحت الاسم عبارة (لسان حال الطليعة الوفدية) ويتصدر العدد فى الصفحة الأولى صورة للزعيم « مصطفى النحاس » وتحت الصورة عبارة (زعيم الأمة وقائد الشباب) وكتب « محمد صبرى أبو علم » سكرتير عام الوفد كلمة رحب فيها بتولى الشباب تحرير (رابطة الشباب) واشار فى الكلمة إلى واجب الشباب النضالى .

ويبدو أن ما أشار إليه « جا برييل ماير » فى كتابه (تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة ١٨٠٠ ـ ١٩٥٠) ان اتجاه كبار الملاك إلى معارضة حركة الوفد الشعبية لم تكن من سمات الحياة السياسية فى مصر ، واستشهد فى ذلك بانضمام بعض كبار الملاك إلى الوفد أمثال « فتح الله بركات ، وواصف بطرس غالى ، ومرقص حنا ، وجورج خياط ، وأحمد مظلوم) ، يبدو ان هذه المقولة تنطبق أيضا على « محمد صبرى أبو علم » الذى ذكر « جابرييل ماير » أنه ـ أى صبرى أبو علم ـ يمتلك ٥٠٠ فدان . قدم «محمد خطاب » مشروعه المعروف بتحديد الملكية الزراعية ـ مستقبلا ـ بخمسين فدانا على مجلس الشيوخ فى يونيه ١٩٤٥ ، قوبل المشروع برفض شديد ، ولكن « محمد صبرى أبو علم » سكرتير عام الوفد ، وزعيم المعارضة فى مجلس الشيوخ وقف يقول : (إن مواجهة الظروف الاجتماعية هى التى حدت بمقدم المشروع إلى تقديمه ، وفى الحق أنه بذل جهدا مشكورا فى دراسة موضوعه وإعداده وقد اطلعت على بعض محاضر اللجنة ، وفهمت أنه قد أعد له كثيرا من الوثائق وكثيرا مما يبرره .) .

استقلال القضـــاء

عندما شكل « مصطفى النحاس » وزارته السادسة (٢٦ مايو ١٩٤٢ ـ ٨ أكتوبر ١٩٤٤) اختار لوزارة العدل « محمد صبرى أبو علم باشا » وكانت وزارة « النحاس » هذه أطول وزاراته عمرا وأشدها خصومة مع القصر وقد أعد وزير العدل « محمد صبرى أبو علم » مشروع قانون استقلال القضاء الذى أصدرته حكومة الوفد فى ١٠ يوليو ١٩٤٣م . ومنحت حكومة الوفد رجال القضاء قطعة أرض مساحتها حوالى ألفى متر مربع وعشرة آلاف جنيه لنادى القضـاة .

ولم يكن « محمد صبرى أبو علم » وزير العدل وهو يضع مشروع قانون استقلال القضاء ، لم يكن يدرى ولم يكن أحد يدرى أنه سيأتى يوم ٣١ أغسطس بعد ست وعشرين سنة ، فى عام ١٩٦٩ ويصدر فى مصر قانون فصل القضاة بغير الطريق التأديبى، وفصل أعضاء الهيئات القضائية الأخرى . وفى ذات اليوم ، ومنذ الساعة الرابعة بعد الظهر ينطلق طابور من راكبى الموتوسيكلات إلى منازل هؤلاء القضاة يحملون إلى كل منهم ورقة مطبوعة بنموذج متماثل حوى القرار بقانون رقم ٨٣ لسنة ١٩٦٩ والقرارات المنفذة له بإنهاء خدمة هؤلاء القضاة . وكان التوقيع على هذا النموذج بختم وزير العدل الجديد ، « مصطفى كامل اسماعيل » الذى لم يكن قد حلف اليمين بعد . وهكذا فصل قضاة مصر لأنهم استجابوا لرئيس ناديهم المنتخب « المستشار ممتاز نصار » فى عدم الانضمام للاتحاد الاشتراكى حفاظا على استقلال القضاء . . والطريف أن أحد راكبى الموتوسيكلات توجه إلى «المستشار محمد يحيى أبو علم » نجل وزير العدل الأسبق صاحب

مشروع استقلال القضاء « محمد صبرى أبو علم » يسلمه قرار فصله وآخر إلى « المستشار محمد أبو علم » ابن عم « محمد صبرى أبو علم » يسلمه أيضا قرار فصله لأنه إمسك الميكروفون وهاجم محاولات الحكومة إغراء بعض رجال القضاء للموافقة على قانون فصلهم ! غير أن « المستشار محمد أبو علم » تلقى قرار العزل وهو فى الخارج . وبموجب قرار عزل القضاة فصل كل رجل قضاء ينتهى اسمه بلقب «أبو علم » تكريما لوزير العدل الذى الذى أصدر قانون استقلال القضاء عام ١٩٤٣ .

بـداية الرحــلة

من اطرف ما قرأت ما كتبه « الشيخ أحمد أمين » فى (حياتى) عن إسهامه فى السياسة ومشاركته لبعض من صاروا زعماء سياسيين مثل « محمود فهمى النقراشى ، ويوسف الجندى ، ومحمد صبرى أبو علم » ولكنه يبادر إلى القول : « ولكن لم أندفع اندفاعهم ، ولم أظهر فى السياسة ظهورهم لأسباب أهمها أنى لم أتشجع شجاعتهم ، فكنت أخاف السجن وأخاف العقوبة » . والذى نعلمه عن حياة « محمد صبرى أبو علم » أنه فصل سنة وهو فى (مدرسة الحقوق السلطانية) فتأخر تخرجه سنة ، وتخرج سنة ١٩١٧ بدلا من ١٩١٦ . وذلك لمشاركته فى تظاهرة ضد السلطان حسين كامل فى زيارة له لمدرسة الحقوق . وكان عمره وقت ذاك حوالى ثلاثة وعشرين عاما إذ إنه ولد فى ٢١ مارس ١٨٩٣م فى مدينة (منوف) ووالده « محمد خليل أبو علم » أحد كبار التجار . ومن مدرسة المساعى المشكورة فى (منوف) حصل على الابتدائية ، ثم جاء إلى القاهرة ليكمل تعليميه الثانوى والعالى . وبعد أن تخرج فى الحقوق عمل فى المحاماة بين منوف واشمون . وحدث أن كان « سعد باشا » عام ١٩٢٣ يحضر احتفالا لجمعية المساعى المشكورة بعيد الجهاد وأشار إلى « علوى الجزار » ليتكلم غير أن « الجزار » أشار إلى المحامى الشاب «محمد صبرى أبو علم » الذى وقف خطيبا وطنيا بين يدى سعد فأعجب به وطلب منه أن ينقل عمله إلى القاهرة . وفى مكتب «مرقص حنا باشا » عمل « محمد صبرى أبو علم المحامى » . وفى انتخابات ديسمبر ١٩٢٣ رشحه الوفد فى دائرة (منوف) أمام أحد كبار الملاك ، وفاز «أبو علم » بالدائرة وكان من أصغر النواب سنا .

أزمات مع القصر

فى وزارة « النحاس » السادسة (مايو ٤٢ ـ أكتوبر ٤٤) صدر قانون استقلال القضاء ، وفى عهد تلك الوزارة قدر على «محمد صبرى أبو علم » أن يصطدم بالسراى . كانت الوزارة قد اقترحت تعيين « أمين انيس باشا » رئيس لجنة قضايا الحكومة رئيسا لمحكمة النقض ، وصدرت

الموافقة على ذلك وادى اليمين القانونية أمام الملك فى ١٣ أكتوبر ١٩٤٣ . وبعد أسبوعين قدم ثلاثة من مستشارى النقض استقالاتهم احتجاجا على هذا الاختيار والتقى الملك بهؤلاء المستقيلين. ورشحت الوزراء ثلاثة من المستشارين بدلا من الذين استقالوا . وفى تلك الأثناء خلت فى (قضايا الحكومة) ثلاث وظائف لمستشارين ، ووجدها القصر فرصة لكسب المستشارين المستقيلين فرشحهم للوظائف الثلاث الشاغرة فى قضايا الحكومة ، ولكن وزير العدل « محمد صبرى أبو علم » أبلغ « حسن يوسف » فى ٢ يناير ١٩٤٤ ان التعيين من اختصاص رئيس الوزراء ، وأصر القصر على تأجيل الموافقة على تعيين ثلاثة فى مكان الذين استقالوا . وأصر «النحاس باشا » على عدم تنفيذ رغبات القصر ، واحتد « صبرى أبو علم » على «حسن يوسف » وفى النهاية رضخ القصر لطلبات الحكومة .

وفى ٦ أكتوبر ١٩٤٣ نشرت جريدة (المصرى) نبأ تعيين« إبراهيم فرج » و« حسن أبو علم » قاضيين بالمحاكم المختلطة وذلك ضمن حركة واسعة واعترض القصر على « إبراهيم فرج » ودافع الوزير عن تعيين « إبراهيم فرج » ويقول « حسن يوسف » بالحرف الواحد : (وأنهى صبرى باشا الحديث بأنه متمسك بوجهة نظره وبأنه سينتظر من الديوان إخطارا بالموافقة) . ولكن الملك وقع الحركة فيما عدا تعيين « إبراهيم فرج » .

وأقيلت الوزارة كما هو معروف فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ وصدر مرسوم بحل مجلس النواب فى ٨ ديسمبر ١٩٤٤ ، وجرت انتخابات جديدة فى يناير ١٩٤٥ لم يشترك فيها الوفد لأن القصر لم يجب المطالب التى تقدم بها عن طريق « محمد صبرى أبو علم » وتتلخص فى ان تكون الانتخابات حرة، وأن تجرى الانتخابات وزارة من المستقلين ، وإيقاف الأحكام العرفية ، وحرية الصحافة .

هذا عن الوزارة السادسة (٢٦ مايو ١٩٤٢ ـ ٨ أكتوبر ١٩٤٤) ومشاركة « صبرى باشا » فيها كوزير عدل ، وقد بدأ عهده بالوزارة فى وزارة « النحاس باشا » الرابعة (٣ أغسطس ١٩٣٧ ـ ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧) واشترك فيها وزيرا للحقانية . واشترك أيضا كوزير للعدل فى وزارة « مصطفى النحاس » الخامسة (٦ فبراير ١٩٤٢ ـ ٢٦ مايو ١٩٤٢) أما وزارة « مصطفى النحاس » الثالثة (٩ مايو ٣٦ ـ ٢٩ يوليو ١٩٣٧) وهى الوزارة التى أنجزت فيها معاهدة ١٩٣٦ ، وتم فيها إلغاء الامتيازات الأجنبية لم يشارك فيها « محمد صبرى أبو علم » كوزير وإن كان قد شارك فى اللجنة التى أعدت مشروع إلغاء هذه الامتيازات الأجنبية كواحد من العقليات القانونية والدستورية فى الوفد .

أخـلاقيـات المحامـاة

هذا وقد عرف عن « محمد صبرى أبو علم » حرصه على أن يترافع عن القضايا التى يرتاح إليها ضميره القانونى بأحقية أصحابها فى الدفاع عنهم ، وكان يعتذر عن عدم الدفاع فى قضايا كثيرة يكون أصحابها موضع الاتهام الحقيقى ورجل له دوره فى السياسة المصرية ، مثل « محمد صبرى أبو علم » قام بدور هام فى السياسة المصرية والحزبية نتمنى أن يكون قد ترك مذكرات له ونتمنى أن تقوم الأسرة بنشرها إن وجدت هذه المذكرات . وبدون هذه المذكرات لايستكمل الباحث الجوانب الكاملة بهذه السياسة . وعلى الرغم من وضوح الموقف الحزبى لمحمد صبرى أبو علم مما جعل (الهيئة العليا) تختاره عام ١٩٤٣ بالإجماع سكرتيرا عاما للحزب ، كانت له علاقاته الإنسانية والأسرية والشخصية مع عدد من الشخصيات لها أراؤها الخاصة بها مثل «إسماعيل صدقى ، والدكتور محمد حسين هيكل ، وأحمد نجيب الهلالى ، وإبراهيم عبد الهادى .» وفى سبتمبر ١٩٣٠ فى عهد حكومة « صدقى باشا » سافر إلى برلين ضمن الوفد البرلمانى المصرى إلى المؤتمر البرلمانى الدولى .

ولم يكن ـ رحمة الله عليه ـ من النوع الذى يطمع فى الوظائف والمناصب ، ويسعى إليها ويرتب لها الخطوات ، فعندما خرج «مكرم عبيد » من الوفد ، تحدث « محمد صبرى أبو علم » مع « أحمد نجيب الهلالى » وألح عليه ليتولى « نجيب » منصب السكرتير العام للوفد وبعد أن اعتذر ، «الهلالى » أسند المنصب لمحمد صبرى أبو علم بإجماع الآراء وبعد أن رحل فى ١٣ أبريل ١٩٤٧ تولى المنصب « عبد السلام فهمى جمعة » لفترة قصيرة . واعتذر لعدم تفرغه للعمل كسكرتير عام فأسند الوفد منصب السكرتير العام سنة ١٩٤٨ إلى « محمد فؤاد سراج الدين » . . رجال لهم تاريخ .

الأسـانيد :

١ ـ حسن يوسف . . القصر ودوره فى السياسة المصرية (١٩٢٢ ـ ١٩٥٢) .

٢ ـ صوت الأمة (جريدة) . . عدد ١٩ ابريل ١٩٤٧ .

٣ ـ المستشار طارق البشرى . . الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢ .

٤ ـ المستشار محمد يحيى أبو علم . . حديث شخصى ١٩٨٨/٩/١ .

٥ ـ المستشار ممتاز نصار . . معركة العدالة فى مصر .

محمد طلعت حـرب



هل لاسم الأسرة تـأثير على سلوك الأبناء .؟ ربما فوالده مـن عائلة (حرب) . . ووالـدته من عائلة (صقر) . . والعائلتان من مدينة (منيا القمح بالشرقية) .

وهل للحى أو للبيئة الأولى التى ينشأ فيها الإنسـان تأثير على سلوكه فى مقبل الأيام ؟ ربما . . فى قصر الشوق بحى الجمالية بالقاهرة ولـد « محمد طلعت حرب » فى ٢٥ نـوفمبر سنة ١٨٦٧ . . وهل كان يعرف عندمـا حارب « قاسم أمين » الذى نادى بامرأة مصرية جـديدة وعندما وقف إلى جانـب مصطفى كامـل وتيار قوى يـرفض دعـوة قاسم أمين لتحـرير المرأة المصرية . . هـل كان «طلعـت حرب » يتـوقـع أن يكون قصره الـذى عـاش فيه بعـد فترة النشـأة والكائن الآن بشـارع رمسيس رقـم ٣٦٥، هل كان يتـوقع أن يصبـح هذا القصر دارا للمعلمات تتلقى فيـه بنات مصر العلم كما طـالب لهن « قـاسم أمين » وعلى غير رغبـة « مصطفى كـامل وطلعـت حرب ؟ مفـارقة تحدث بعد أن يرحل الرجل عن دنيانا » فى بلدة «(العنانية) بالقرب من دمياط وهو فى زيارة لأحد أصدقائه وكان ذلك فى ٢١ أغسطس ١٩٤١ .

إن ينتقم منه الإنجليز لأنه وضع صرح الاستقلال الاقتصادى هذا أمر مفهوم ولكن أن تساعد حكومة مصريـة فى هذا الانتقام أمر غير مفهوم وغير متصـور قبيل الحرب العالمية الثـانية على وجه التحديد فى ١٨ أغسطـس ١٩٣٩ كان « على ماهر » رئيسـا لحكومة مصر حتى ٢٧ يـونيو ١٩٤٠ و«حسين سرى » وزيرا للمالية فى تلك الحكومة وكان للإنجليز سيطرة على البلاد فأوعزوا للحكومة بـأن تسحب كـل قـرش لها لـدى بنك مصر وأن تسحـب كـل أمـوال صندوق التـوفير البريـدى وصاحب هـذا الإجراء موجة مـن سحب الودائع قام بها الأهـالى سواء من بنك مصر أو مـن بنوك أخرى فحدث عجز فى السيولة النقدية لدى بنك مصر وكان من الطبيعى أن يتقدم « محمد طلعت

حرب » إلى (البنـك الأهلى) يطلب قرضـا لقاء رهـن محفظة الأوراق المالية ، ولكـن البنك الأهلى الذى يسيطر عليـه الإنجليز وجدها فرصة لضرب بنـك مصر فرفض تقديم القرض حتـى لاتتوفر السيولة المنشودة لبنـك مصر على زعم أن بنك مصر لم يلتزم بالأصول المصرفيـة وأن « محمد طلعت حرب » هو سبـب سوء الإدارة ولجأ « محمد طلعت حـرب » إلى رئيس حكومة بـلاده « على ماهر » وإلى وزير مـالية بـلاده « حسين سرى » للتدخل لـدى البنك الأهلى فقـال « حسين سرى » وزير المالية . . أنت أو البنك على زعـم أن هذه هى مطالب البنك الأهلى وأدرك « الـرجل » الموقف أنها فرصة المحتـل الانجليزى للقضاء على بنك مصر وبـالتالى كل شركاتـه . . فاستقال الرجـل وكان ذلك فى ١٤ سبتمبر ١٩٣٩ وحل مكانـه « حافظ عفيفى » وظل الرجل يجتر أحـزانه لخضوع وزير مالية مصر لشروط « السير ادوارد كوك » مدير البنك الأهلى وفى عهد وزارة « حسين سرى باشا » . وفى يوليو ١٩٤١ دعت الحكـومة البرلمان ليوافق على دعم بنك مصر بمليـونى جنيه . . ولا ندرى السر فى موقف على ماهـر وحسين سرى من محمد طلعت حرب الذى ذهب يشكـو الظلم لربه فى ٢١ أغسطس من السنة نفسها أى بعد شهر واحد من قرار الحكومة المصرية بدعم بنك مصر . .

وهكذا كانت نهاية بطل الاستقلال الاقتصادى والذى قال فيه أعظم شعراء العربية بعد المتنبى الشاعر « أحمد شوقى » . .

شـــرفا محمد هـــكذا تبنى العـــلا   بالصبـــر آونة وبالإقــــــدام
مازلـــت تبنى ركـــن كـــل عظيمـــة   حتـــى أتيـــت برابعـــ الأهـــرام

وقال فيه الشاعر بشارة الخورى (الأخطل الصغير)

يا (طلعـة) العرب قد حققت بغيتهـم   فكنت أعطف مـن أم على الضاد
للمـــال آنـــا وللآداب آونـــــة   صحـــائف من مـــروءات وأمجاد

وللرجل حكاية نقولها من البداية . . .

الأمـوال الأجنبية

نحاول هنا أن نذكر الأرقام التقريبية حتـى لا نثقل على القارئ بالكسور والفصلات ونسير مع النشاط الاقتصادى للأجانب فى مصر من بداية القرن العشرين حتى نفهم لماذا كان البنك الوطنى ضرورة للاستقلال الاقتصادى وللاستقلال السياسى على السواء . .

سنة ١٩٠٢ بلغت جملة الأموال الأجنبية العاملة فى مصر حوالى ٤٣ مليون جنيه مصرى (هذه الأرقام أيـام زمان !) وكـان أغلب هـذه الاستثمارات مركـزا فى الشركات العقـارية وشركـات النقل والمواصلات وشركـات الاستغلال التجارى والصنـاعى والزراعى أى مـركزة أساسـا فى مشروعات

النفع العام كالسكك الحديدية والنقل والمواصلات ثم الزراعة والنسبة الصغيرة منها فى الصناعة وفى سنة ١٩١٤ من بداية الحرب العالمية الأولى ارتفعت رءوس الأموال العاملة فى الشركات المختلفة إلى حوالى ٩٢ مليون جنيه مصرى بالإضافة إلى ٨ ملايين جنيه أموالا محلية . . أى إن رءوس الأموال الأجنبية بنسبة ٩٢٪ من الأموال العاملة فى الأنشطة المختلفة فى مصر .

وسنة ١٩١٥ وصلت الأموال الأجنبية إلى ١١٧ مليون جنيه منها ٤٦ مليون جنيه أموالا فرنسية ، و ٣٠ مليون جنيه انجليزية و٤١ مليون جنيه من دول مختلفة المهم أن ٦٢٪ من مجموع هذه الأموال الأجنبية مستثمرة فى الأنشطة الزراعية و٦٪ فقط لا غير فى المجال الصناعى و ٣٢٪ فى مختلف الأنشطة الأخرى ، سياسة موجهة تماما أن تكون أعلى نسبة فى النشاط الزراعى وأقل نسبة فى النشاط الصناعى .

ومع نمو الحركة الوطنية أخذت الأموال الأجنبية فى التراجع فسنة ١٩٢٢ وصلت الأموال الأجنبية إلى ١١١ مليون جنيه التراجع محدود وبطىء ولكنه لايتزايد على الأقل . . وكان رأس المال المصرى كما هو ٨ ملايين جنيه . . ولكن سنة ١٩٥٠ انخفض رأس المال الأجنبى إلى ٩١ مليون جنيه وارتفع رأس المال المصرى إلى ٤٨ مليون جنيه . . وهكذا كلما تصاعدت حركة الاستقلال الوطنى زاد رأس المال المصرى ، وانخفض رأس المال الأجنبى .

البنوك والأجانب

ومع نشاط الأموال الأجنبية ظهرت البنوك التى ترجع بدايتها إلى سنة ١٨٥٦ صحيح أن عدد الأجانب بدأ صغيرا ولكنه أخذ يتزايد حتى وصل إلى ١٧٥ ألف أجنبى سنة ١٩١٧ (هذا الرقم لا يدخل فيه عدد قوات الاحتلال) وبدأ يزداد بعدها ثم أخذ يتناقص بعد معاهدة ١٩٣٦ وبعد إلغاء الامتيازات الأجنبية على أية حال فإن الأجانب فى حاجة إلى نقط ارتكاز مالية تعمل على تثبيت أقدامهم فى الأسواق المالية وتكون حلقة اتصال بين أعمالهم فى مصر وبين مراكزهم المالية فى الخارج . . وحلقات الارتكاز المالية تلك هى (البنوك) الأجنبية التى عملت فى الوقت نفسه على جمع أموال المصريين لاستثمارها لصالح الدول الأجنبية التابعة لها تلك البنوك مع مراعاة أن أرباح النشاط الاقتصادى الأجنبى لم تكن تبقى فى مصر وإنما كانت تحول أولا بأول إلى خارج مصر عملية نهب منظمة لمقدرات البلاد المالية فلم تعد المفاتيح الحقيقية للقوة الاقتصادية المصرية فى أيدى المصريين ومن هنا كانت الدعوة إلى بنك للمصريين أو بنك للأمة على قدم المساواة فى الأهمية مع الدعوة للاستقلال السياسى كانت العمليتان متلازمتين أو متداخلتين تدعم كل منهما الأخرى .

علاج مصر الاقتصادى

وفى يونيو ١٩٠٦ وقعت حادثة دنشواى فأيقظت مشاعر المصريين إلى أخطار الاحتلال . . وأعلن « مصطفى كامل » صيحته بالجلاء . . وفى الوقت نفسه أعلن « محمد طلعت حرب » صيحته بانشاء بنك وطنى . . تحرك « مصطفى كامل » خطيبا يندد بالاحتلال ووقف « محمد طلعت حرب» خطيبا ويقول :

إن اقتصاديات البلاد تحتاج إلى نهضة شاملة مفتاحها هو إنشاء بنك وطنى يديره مصريون بأموال مصرية وبلغة عربية يعمل على تشجيع وتمويل النشاط المصرى فى نواحى الصناعة والتجارة والزراعة .

وأكرر أن ـ الزمن ١٩٠٦ ـ . . الدعوة باكرة وواضحة ومحددة ولم يكن مجرد داعية اقتصادى بل كان يدرك بوعى كامل الارتباط الوثيق بين الاقتصاد والسياسة تحرك فى تلك الفترة تحت راية الحزب الوطنى وشارك فى إنشاء (الجريدة) لسان حال حزب الأمة (١٩٠٧) والتى روجت لشعار (مصر للمصريين) . . وكان الشعار يعنى أيضا أن يكون اقتصاد مصر فى أيدى المصريين . .

وقرأت كتابه (علاج مصر الاقتصادى ومشروع بنك للمصريين أو بنك الأمة) الذى نشرته له (مطبعة الجريدة) فى نوفمبر ١٩١١ (أكرر سنة ١٩١١) وأشهد بالصدق كله إنه كتاب متقدم بكل المعايير . . فى المنهج وفى التحليل وفى الدراسة الموثقة بالقرارات والتقارير المالية والأرقام والإحصائيات والبعد عن الحماسة والإنشاء ويقع فى ١٨٥ صفحة من القطع المتوسط ليت كل مشتغل بالسياسة والاقتصاد يقرأ هذا الكتاب على الأقل ليعرف كيف كان الرجل يدرك أصول الدراسات الاقتصادية وكيف كانت دعوته الباكرة تقوم على حقائق علمية وليست مجرد عاطفة وطنية جياشة . . وبدأت هذه الدراسة العلمية وانتهت بالتركيز على (حاجة مصر لإنشاء مصرف يعمل على مد يد المساعدة للمصريين ويحثهم على الدخول فى أبواب الصناعة والتجارة) وعلى إنشاء بنك مصرى برءوس أموال مصرية .

وضوح وغموض

كانت فكرة البنك الوطنى واضحة إذن فى ذهن « محمد طلعت حرب » جاءت على لسانه سنة ١٩٠٦ كما أسلفنا وجاءت مطبوعة وصريحة فى كتابه سنة ١٩١١ ولكن بين هذين التاريخين ترد مواقف من الرجل لم نجد لها تفسيرا لقد عرفنا أنه كان يميل إلى تيار مصطفى كامل وبعدها كان من رجال حزب الأمة ومن المشاركين فى إنشاء (الجريدة ـ ١٩٠٧) ولكننا نجد بين سطور الكتب أنه بعد وفاة مصطفى كامل طلب « عمر سلطان » العضو فى مجلس إدارة (اللواء) من محمد

طلعت حرب العمل على مساعدتها لأنها كانت تواجه أزمة مالية غير أن طلعت حرب لم يفعل شيئا فتعثرت اللواء وغيرها من صحف الحزب الوطني . . ربما كان الرجل يتجه في تلك الفترة إلى نشاطه الاقتصادي وربما انطفأ أمام عينيه بريق الحزب الوطني بعد رحيل مؤسسه وربما أراد أن يكتفي باتصالاته مع (الجريدة) وربما انشغل في أعماله الاقتصادية الخاصة . . إذ إنه في ٣٠ سبتمبر من سنة ١٩٠٩ قام ومعه عدد من الماليين المصريين بتأسيس (بنك التضامن المالي) وربما نظر إليه على إنه (التجربة الأولى) لمشروعه الذي ينادي به وهو (البنك الوطني) وصدر مرسوم بقيام هذه التجربة في ٢٧ يناير ١٩١٠ تحت اسم (الشركة التعاونية التجارية للائتمان) ونجده كما عرفنا يصدر كتابه الهام في أواخر سنة ١٩١١ العلاج الاقتصادي لمصر . . مشروع بنك للمصريين أو بنك الأمة . وقد أدرك المؤتمر المصري ــ ١٩١١ ـ أن محمد طلعت حرب هو الرجل المنوط به أن يحقق حلم الأمة في الاستقلال الاقتصادي ويرى المؤتمر أهمية أن ينشأ بنك مصري برءوس أموال مصرية أكثر من هذا يقوم المؤتمر كخطوة عملية بإرسال طلعت حرب مبعوثا إلى أوربا لدراسة نظم إدارة البنوك .

التحرك الاقتصادي

وجاءت الحرب العالمية الأولى وانصرفت المؤسسات المختلفة إلى المجهود الحربي وقام هو بتدريس الشئون المصرفية في الجامعة المصرية وهي وظيفة غير حكومية ، وكان من بين المصريين الذين ساندوا الدعوة إلى إنشاء تلك الجامعة . ويقرر « حسين رشدي باشا » تشكيل لجنة لدراسة تأثير الحرب على الصناعات المصرية سنة ١٩١٧ ويشترك «محمد طلعت حرب » في تلك اللجنة التي ترى ضرورة الاهتمام بالصناعات إلى جانب النشاط الزراعي . . وتضع اللجنة تقريرا قيل إن كاتبه هو « محمد طلعت حرب » وقيل إنه « إسماعيل صدقي » على أية حال فإن (المستشار الانجليزي) للشئون المالية وضع التقرير في الأدراج ونام عليه وكيف لا ومحمد طلعت حرب كان يقول عبارته الشهيرة وهي عبارة غاية في الوعي وفي التقدم وتدل على أنه كان واضح الرؤية بعيد النظر . .

قال (لكي يتم الاستقلال السياسي فإنه من الضروري أن تتوفر للوطن إمكانات التحرر الاقتصادي التي ترسي دعائم اقتصادية وطنية يستطيع الوطن أن يواجه بها الاحتياجات التي سوف يجتازها في مراحل نضاله مع الاستعمار . . تغذي كفاحه وتدعمه وتمنحه الصلابة وقوة الصمود . .) أي وعي أكثر من هذا يربط بين التحرر السياسي وبين التحرر الاقتصادي .

إذن لابد من التحرر الاقتصادى . كانت سيطرة رءوس الأموال الأجنبية قوية وصلت نسبتها كما عرفنا ضمن الأموال العاملة ٩٢٪ وكانت نسبة الأموال الأجنبية التى تعمل فى المجال الزراعى ٦٢٪ وسنة ١٩١٧ بلغ عدد الأجانب الذين يملكون أرضا زراعية فى مصر (٨٢٤٢) مالكا ومساحة الأرض التى يملكونها ٧١٢ ألف فدان أى إن الأجانب كانوا يملكون نسبة ١٣٪ من مجموع الأرض الزراعية فى مصر . . الله ! . . ليس هناك بلد فى العالم يسمح للأجانب بملكية الأراضى الزراعية فيه صحيح أن الرقم بدأ ينخفض ولكن قرارا واحدا لم يصدر ليحظر على غير المصريين ملكية الأرض وصحيح أن المؤرخ عبد الرحمن الرافعى كان قد تقدم بهذا المشروع ولكن فى ١٢ فبراير سنة ١٩٥١ (أكرر سنة ١٩٥١) وفى عهد حكومة الوفد صدر قانون يحظر على غير المصريين ملكية الأراضى الزراعية وملكية الأراضى الصحراوية .

الثـــورة القوميـــة

ويجمع المؤرخون على اختلاف اتجاهاتهم ومن بينهم عبد الرحمن الرافعى أن من بين النتائج الهامة التى حققتها الثورة القومية ثورة ١٩١٩ بقيادة « سعد زغلول » قيام بنك وطنى بنك الأمة تحت اسم بنك مصر . . وتحت راية سعد ودون أن ينضم للوفد استمر محمد طلعت حرب يدعو لإنشاء البنك وعرفت الجماهير أن سعدا يؤيد مشروع البنك فاحتضنته واستدعى المستشار الانجليزى « محمد طلعت حرب » وقال له :

كنت أظنك رجلا عاقلا ولكنك فيما يبدو لى أصبت بعدوى الجنون المنتشر فى البلد هذه الأيام . . هل تتصور أن المصريين يستطيعون أن يديروا بنكا ؟ إنكم لاتصلحون للأعمال المالية إنها صناعة الأجانب وحدهم .

أنت تعرف أن فى وسعى أن أمنع قيام هذا البنك ولكننى وافقت على قيامه لاعطيكم درسا فى الفشل وكل ما أنصحك به أن تشرك معك بعض الأجانب حتى تعطى المصريين شعورا بالثقة فى هذا البنك .

قال « محمد طلعت حرب » . . وروح الثورة القومية تشد من أزره .

«لقد قررنا أن يكون هذا البنك مصريا مائة» فى المائة عبارة توازى فى وزنها عبارة « أحمد عرابى » فى ميدان عابدين . وفى مواجهة الخديو توفيق . . قال المستشار لا فض فوه :

إنك تتكلم بلغة تظاهرات الشوارع ، والذى يصلح للشارع لا يصلح لأعمال المال والبنوك . . وقد استدعيتك لأنصحك فأنت رجل طيب لا تشتغل بالسياسة .

حلم الرجل الطيب

هى الثورة الكبرى التى جعلت كل مصرى يشتغل بالسياسة مؤيدا لها . . ضمت إليها العمال وكبار رجال المال . . الفلاحين وكبار ملاك الأرض . . النساء والرجال كل فئات الأمة بعقائدهم الدينية . . ومع بداية المقال عرفنا كيف أن المدير الإنجليزى للبنك الأهلى انتقم من الرجل الطيب . . واشترط وزير المالية المصرى لتدخله لإنقاذ بنك مصر بعد عشرين سنة من قيامه ـ أن يستقيل منه (الرجل الطيب) .

ومهما يكن من أمر فإن إرادة الثورة انتصرت وحلم الرجل الطيب تحقق . وفى ٨ مارس ١٩٢٠ (بعد عام واحد من قيام الثورة وفى ذكرى نفى سعد زغلول وصحبه) تم تحرير العقد الابتدائى بين كل من : (أحمد مدحت يكن باشا ، ومحمد طلعت حرب بك ، واسكندر مسيحه أفندى ، ويوسف اصلان قطاوى باشا ، وعبد العظيم المصرى بك ، وعبد الحميد السويفى بك وعباس دسوقى الخطيب أفندى ، والدكتور فؤاد سلطان) على تأسيس شركة مصرية مساهمة تحت عنوان (بنك مصر) . . واقرءوا الأسماء من جديد لتعرفوا أثر الثورة القومية والتى جمعت المسلمين والمسيحيين واليهود المصريين فى تأسيس بنك مصر . وفى ١٣ أبريل ١٩٢٠ صدر المرسوم السلطانى بإنشاء البنك الذى أعلن قيامه فى ٧ مايو ١٩٢٠ برأسمال قدره ٨٠ ألف جنيه مصرى موزعة على ٢٠ ألف سهم وقيمة السهم الواحد ٤ أربعة جنيهات مصرية وعدد المساهمين (١٢٦) مساهما وجميعهم من المصريين دون استثناء ومن بينهم اثنان من أصل يهودى الأول « يوسف اصلان قطاوى » وهو يهودى مصرى تولى وزارة المالية سنة ١٩٢٤ (فى عهد حكومة أحمد زيور باشا التى خلفت وزارة سعد زغلول) والثانى هو يوسف شيكوريل يهودى مصرى والذى قام بتأسيس محلات شيكوريل .

سعد والبنك

قام البنك ، وقامت بعض شركاته وأحاطه المصريون بالمساندة وأحس «سعد زغلول » اتجاه الانجليز لضربة جديدة لقيادة الوفد وكان حمد الباسل قد وقع فى خلاف مع الوفد وبيته فى مواجهة بيت الأمة وبعث سعد برسالة صغيرة إلى حمد الباسل قبيل اعتقاله فى ٢٣ ديسمبر ١٩٢١ .

عزيزى حمد . . الاتجاه إلى الاعتقال . . واجبك أن تعود إلى الوفد وتنسى الخلافات التى بيننا الموقف يستوجب الاتحاد . . رد الأمة هو عدم التضامن مع الانجليز . . مقاطعة البنوك والشركات الإنجليزية تشجيع بنك مصر . . الامتناع عن تشكيل أى وزارة .

واعتقل « سعد » وعاد « حمد الباسل » إلى الوفد ومعه جورج خياط الذى كان قد ترك الوفد إلى مجموعة عدلى يكن وانضم إلى الوفد فى تلك الأيام (على الشمسى وعلوى الجزار ، ومرقص حنا ، وعبد القادر الجمال ، ومراد الشريعى) وبعد أقل من شهر من اعتقال « سعد » أصدر الوفد بيانا تاريخيا فى ١٣ يناير ١٩٢٢ .

على المصريين أن يسحبوا ودائعهم من المصارف الإنجليزية ومن الواجب على المصريين أن يقبلوا على شراء أسهم بنك مصر حتى يصل رأسماله إلى مبلغ يتناسب مع حالة البلاد الاقتصادية وبذلك يتسنى له أن يساعد المشروعات الوطنية وتنشيط الصناعة والتجارة ، على كل مصرى أن يقاطع شركات التأمين الانجليزية وكذلك السفن وأن يفضل المصنوعات الوطنية والإعلان عنها وتشجيع الإقبال عليها ويجب أن يبشر بهذا النظام ويذاع فى الجوامع والكنائس والنقابات والهيئات .

وكان هذا البيان تنفيذا لتعليمات « سعد » التى تركها قبل الاعتقال وهى الدعوة التى ترددت بعد ذلك فى جمعية (المصرى للمصرى) التى أسسها « سلامة موسى » وعمل فيها « الشاب أحمد حسين » وبعدها أعلن عن « مشروع القرش » .

المهم أن بيان الوفد وقعه « حمد الباسل ، وويصا واصف ، وجورج خياط ، ومرقص حنا ، وعلوى الجزار ، ومراد الشريعى وواصف غالى » فزعت انجلترا لبيان الوفد وأصدر السير اللنبى نائب ملك بريطانيا وقائد القوات البريطانية فى مصر أمرا بتعطيل الصحف التى نشرت نداء الوفد وتم القبض على أعضاء الوفد الذين وقعوه وتم تشكيل محكمة عسكرية انجليزية . . وقال « حمد الباسل » لكم أن تحكموا علينا ولكن ليس لكم أن تحاكمونا . . وردت المحكمة بإصدار حكمها بإعدامهم جميعا وهتف الرجال «نموت وتحيا مصر» .

المال والكلمة

وتراجع الانجليز عن حكم الإعدام وتحول الحكم إلى غرامة مالية كبيرة بمقاييس ذلك الزمان ومضى البنك فى أعماله وتأسيس شركاته وكانت أول شركة يؤسسها البنك هى (مطبعة مصر) فى مايو ١٩٢٢ وفى سنة ١٩٢٥ أسس البنك (شركة مصر للتمثيل والسينما) ولم يكن هذا الاختيار مصادفة ، ولكنه كان إدراكا من « الرجل » لأهمية الكلمة وأهمية الفن إلى جانب المال (ثمار الفكر وثمار الفن جناحان للبنك ، بهما يحلق فى سماء الثورة العملية ولدعم الثورة الشعبية) .

وأذكر عام ١٩٦٢ وكان قد تقرر ضم عدد من دور الطباعة إلى الدار القومية للطباعة والنشر أول دار للنشر العام (أقصد القطاع العام) وكان الدكتور محمد عبد القادر حاتم قد شكل لجنة

لضم هـذه الدور تحت إشراف « الأستـاذ يحيى أبـو بكر » وكنـت أحد أعضـاء هذه اللجنـة التى دخلت مطبعـة مصر لضمها ولتكون مقرا لـرئيس مجلس إدارة الـدار القومية بعد ذلـك . . وقفت اللجنة فى هيبة أمـام تاريخ سابـق لنا فى الحجرة التى جلـس فيها « محمد طلعت حـرب » وجلس فيها « عزيز باشا أباظة » لقد كانت مطبعة مصر أول دار طباعة ونشر يملكها الشعب إذا جاز هذا التعبير . .

وتـوالت الشركـات (حلـج القطن ١٩٢٤ ــ النقل والملاحـة ١٩٢٥ ــ مصر للغزل والنسيـج (المحلة) ١٩٢٧ ــ مصايـد الأسماك ١٩٢٧ ـ نسيـج الحرير ١٩٢٧ ــ بنك مصر وسـوريا لبنـان ١٩٢٩ ـ تصدير الأقطان ١٩٣٠ ـ مصر للطيران ١٩٣٢ ـ بيع المصنوعات المصرية ١٩٣٢ ـ مصر للتأمين ١٩٣٤ ـ مصر للملاحة البحرية ١٩٣٤ ـ مصر للدخان ١٩٣٧ ـ مصر للسياحة ١٩٣٤ ـ صنـاعة الـزيوت ١٩٣٧ ــ الأسمنت المسلـح ١٩٣٨ ــ الغزل والنسيـج (كفر الـدوار) ١٩٣٨ وصباغـى البيضا ١٩٣٨ المناجم والمحـاجر ١٩٣٨ ـ وغيرهـا وغيرها نسيت أن أقول بـالأحرى أن أعيد القـول إنه فى ١٤ سبتمبر ١٩٣٩ وتحت ضغط الانجليز وبتـأييد وزير ماليـة مصرى وفى ظل حكومة مصريـة قدم « محمد طلعت حرب » استقالتـه وخرج من بنك مصر ولم يعد لـه مرة أخرى وحتى خرج من هذه الـدنيا فى ٢١ أغسطس سنة ١٩٤١ فى قرية من إحدى قـرى مركز فارسكور لقد كان فى مصر « رجل » قال : (إن الاستقلال السياسى والاستقلال الاقتصادى توءمان عزيزان خليق بنا أن نوفر لهما القوة والمنعة والسلطان) فهل نستعيد هذا الكلام هذه الأيام ؟

الأسـانيد :

١ ـ الهامى حسين . . محمد طلعت حرب رائد صناعة السينما .
٢ ـ محمد السوادى . . أقطاب مصر بين الثورتين .
٣ ـ محمد طلعت حرب . . علاج مصر الاقتصادى ١٩١١ . مجموعة خطب ١٩٢٧ .
٤ ـ د . نبيل عبد الحميد . . النشاط الاقتصادى للأجانب وأثره فى المجتمع المصرى ١٩٢٢ ـ ١٩٥٢ .

الشيخ محمد عبده



أنا لا أكتب ولكنى أتامل . . كثيرون كتبوا عنه فى حياته ، وكثيرون كتبوا عنه بعد رحيله فى صيف ١٩٠٥ . . وكثيرون سوف يكتبون عنه ولكنه فى حاجة إلى مجلدات .

قال « الخديو عباس حلمى الثانى » إن الشيخ « محمد عبده » يدخل علىّ وكأنه فرعون! والتفت « الخديو » يسأل « عبد الرحمن الكواكبى » رأيه فى الأستاذ الأمام . . فقال الكواكبى : (إن افريقية أخرجت كثيرا من العلماء والفلاسفة والحكماء ، ولكنها أخرجت أخيرا حكيما فاق جميع الحكماء هو الشيخ محمد عبده) وفى السويس ، وفى سنة ١٨٧٩ وقد تقرر خروج « السيد جمال الدين الأفغانى » ودع الشيخ « محمد عبده » وهو يبكى بكاء شديدا ، وقال لتلاميذه : (لقد تركت لكم الشيخ محمد عبده وكفى به لمصر عالما) وأطلق عليه « الأستاذ عباس محمود العقاد » إنه عبقرى الإصلاح والتعليم والهداية ، وانه أعظم من أنجبته القرية المصرية ، ونهض برسالة الأزهر فى عصره . وإذا كان « عبد الرحمن الكواكبى » الذى جاء إلى مصر من (حلب) رأى أن «الشيخ محمد عبده » فاق جميع الحكماء ، فان الشيخ « رشيد رضا » الذى جاء من منطقة (طرابلس) وتتلمذ على يدى الشيخ محمد عبده، وهو الذى كتب تاريخ الأستاذ الإمام كان يرى أن (محمد عبده أعلم من أستاذه الأفغانى) . وهذا الرجل الذى تنتظرون أن أكتب عنه هو الذى قال فى رثائه حافظ إبراهيم :

بكى الشرق فارتجت له الأرض رجة
وضاقت عيون الكون بالعبرات
ففى الهند محزون وفى الصين جازع
وفى مصر باك دائم الحسرات

وفى الشـام مفجـوع وفى الفرس نادب
وفى تونس ما شـئت من زفــرات

أنا لا أكتـب عن الرجـل ولكنى فى محراب سيرته الثـرية أتأملـه فلنسر معا نتأمـل هذا الصرح العظيم الذى أنبتته القرية المصرية وتعهده الأزهر الشريف . .

ـ ١ ـ

نتأمل ونطيل التـأمل فى القرية المصرية . . القريـة الصابرة الولود . . القريـة المصرية أنجبت رفاعة الطهطـاوى وعلى مبارك وعبد الله فكرى وأحمد عرابى ومحمد عبده وسعد زغلـول . . نتأمل القرية المصرية وهـى تنجب لمصر أعظم أبنائها ، وتستودعهم الأزهـر الشريف ليقدم لمصر أعظم قادتها ، نتأمـل قرية صغيرة أو (حصة) حسـب التعبير الدقيق . . (حصة شبشير) مـن إقليم الغربيـة يولد فيها « الأستـاذ الإمام الشيخ محمد عبـده » سنة ١٢٦٦ هجرية (١٨٤٩) ميـلادية . ولكنه نشـأ فى (محلة نصر) إحدى قـرى مركز شبراخيـت بمديـرية البحيرة . وأخوال الشيـخ هـم غالبية سكان (حصة شبشير) ولم يكن يزيد عدد سكان هذه الحصة عن ألف نسمة وأصلهـم من قرية (بنى عدى) بمديرية أسيوط واستقر بهم المقام فى تلك الحصة . . فتكون أم الشيخ صعيدية من محافظـة أسيوط . أمـا والده فقـد نشأ هو وأسرتـه فى (محلة نصر) وإن كـان أخوال والـده هـم غالبية سكـان قرية (كنيسة أورين) . وللشيـخ أقارب بمنية طوخ فى مركـز السنطة ، وأقارب فى بعض القرى المجـاورة . ولمن تهمه الأسماء فى السيرة فإن والد الشيـخ هو «عبده بن حسـن » وأمة هى « جنينة بنت عثمان » .

نشأ إذن فى أسرة كبيرة العـدد من جهـة الأب أو من جهة الأم . ويقـول الشيخ فى سيرتـه التى كتبها بقلمه (تعلمت القراءة والكتابة فى منزل والـدى ، ثم انتقلت إلى دار حافظ قرآن قرأت عليه وحـدى جميع القـرآن أول مـرة . . وبعد ذلـك حملنـى والدى إلى طنطـا لأجـود القرآن فى المسجـد الأحمدى لشهرة قرائه بفنون التجويد ، وكان ذلك فى سنة ١٢٧٩ هجرية ١٨٦٢ ميلادية) .

وفى سيرتـه يحكى لنـا أنـه تلقى فى المسجـد الأحمدى (شرح الكفـراوى على الأجرومـيـة ، وأن المدرسين كانوا يفاجئوننا باصطلاحات نحـوية أو فقهية لانفهمها) فهرب من الدروس إلى أخوال أبيه . وزوجه أبوه وهـو فى سن السادسة عشرة عسى أن يستقيم الحال دون فـائدة ، ولكن صلاح الحال كان باذن الله على يد أحد أخوال والده ، ولولاه ربما سار « الشيخ محمد عبده » فى طريق غير التى سار فيها . . ربما انصرف إلى الزراعة أو إلى غيرهـا من الأعمال ، وربما كان قد تخرج فى الأزهر الشريف وقنع بوظيفة مـن الوظائف التقليدية . ولكن الشيخ درويش كـان على يديه إقبال الشيخ

على الدرس والتحصيل ، وإمعان الفكر فيما يقرأ وتولدت عنده شرارة البحث والتفكير والجدل .

ـ ٢ ـ

والشيخ درويش هو أحد أخوال أبيه ، سبقت له أسفار إلى (طرابلس الغرب) وجلس إلى السيد محمد المدنى ، ثم رجع من أسفاره إلى قريته « كنيسة أورين » واشتغل بما يشتغل به الناس من فلاحة الأرض وكسب الرزق بالزراعة .

وبعد صبر وحسن معاملة تخلى « محمد عبده » عن كراهيته للعلم وأقبل عليه بفضل الشيخ درويش وانهمك « محمد عبده » على كتاب به رسائل كتبها « السيد محمد المدنى » إلى بعض مريديه ، وهى رسائل تحتوى على شىء من معارف الصوفية وكثير من كلامهم فى آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق وتزهيدها فى الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا .

ويقول الأستاذ الإمام فى ذكرياته عن تلك الفترة : (سألت الشيخ : ما هى طريقتكم ؟ فقال : طريقتنا الإسلام ، فقلت أو ليس كل هؤلاء بمسلمين ؟ قال : ولو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمر ، ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب) .

ويستطرد الأستاذ الإمام معلقا على أثر هذه العبارات فى نفسه : (هذه الكلمات كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندى من المتاع القديم . . متاع تلك الدعاوى الباطلة ، والمزاعم الفاسدة ، متاع الغرور بأننا مسلمون ناجون ، وان كنا فى غمرة ساهية) .

وفى منتصف شوال من سنة ١٢٨٢ هجرية (١٨٦٦ ميلادية) جاء شيخنا إلى الأزهر وأخذ يتلقى العلم فيه إلى أن جاء إلى مصر « السيد جمال الدين الأفغانى » أواخر سنة ١٢٨٦ هجرية (مارس ١٨٧١ ميلادية) وقد صاحبه « الشيخ محمد عبده » ابتداء من شهر المحرم ١٢٨٧ هجرية وأخذ يتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والكلامية والحكمية (يقصد الفلسفية) . . (وأخذ مشايخ الأزهر يتقولون عليه وعلينا الأقاويل ، ويزعمون أن تلقى تلك العلوم قد يفضى إلى زعزعة العقائد الصحيحة) ولكن «الشيخ درويش « يرد على هذه الأقاويل بحجة بسيطة ومقنعة . . (فكنت إذا رجعت إلى بلدى عرضت ذلك على الشيخ درويش . . فيقول لى . . إن الله هو العليم الحكيم ، وأن أعدى أعداء العلم هو الجاهل . . وما تقرب أحد إلى الله بأفضل من العلم والحكمة ، فلا شىء من العلم ممقوت عند الله ، ولا شىء من الجهل محمود لديه . .) .

ـ ٣ ـ

فى مارس ١٨٧١ وصل « السيد جمال الدين الأفغانى » إلى أرض مصر . وقد سبقه « رفاعة رافع الطهطاوى » الصعيدى ابن الأزهر فى نشر المعرفة . والدعوة إلى حرية الفكر ، والإصلاح

والتعليم، وتعليم المرأة ، والأخوة الوطنية ، والانفتاح على العلوم الحديثة . ورحل مؤسس النهضة المصرية الحديثة فى ٢٧ مايو ١٨٧٣ أى بعد وصول الأفغانى بأكثر من عامين (ورد فى كتاب محمد عبده للأستاذ العقاد ـ الطبعة الثالثة صفحة ٥٥ أن وفاة الطهطاوى كانت سنة ١٨٧١ ولعلها غلطة مطبعية فى هذه الطبعة) إلا أن « الأفغانى » جاء يلقى بذور الثورة الفكرية ، والثورة السياسية فى التربة المصرية . وأسلفنا القول عن رأى الأفغانى فى «الشيخ محمد عبده » وفى اتصال « محمد عبده » بالأفغانى الذى كان له أثر منتشر الإشعاع فى اتجاهات كثيرة . . جلس إليه مريدون كثيرون . . محمد عبده ، وعبد الله النديم ، وسعد زغلول ، ومحمود سامى البارودى ، وإبراهيم المويلحى ، وإبراهيم اللقانى ، وعلى مظهر ، وحفنى ناصف ، وعبد السلام المويلحى، وعبد الكريم سليمان ، وأديب اسحق ، وسليم النقاش وسعيد البستانى ، والسيد وفاء التونى ، ومحمد صالح ، وسلطان محمد .

أرسل إشعاعه فى اتجاهات مختلفة وتلاميذه يأخذون عنه ما يتفق وطبيعة كل منهم ، شجع تلاميذه على إصدار الجرائد ، يكتب فيها بنفسه ، ويدعو تلاميذه الآخرين . . أصدر تلميذه «أديب اسحق » جريدة مصر . . كتب فيها الأفغانى ، والشيخ محمد عبده ، وإبراهيم اللقانى . واهتم « الشيخ محمد عبده » بالوقائع المصرية التى أشرف على تحريرها وشجع بدوره تلميذه «رشيد رضا » على إصدار (المنار) واشترك مع السيد جمال الدين فى إصدار (العروة الوثقى) فى باريس ، وفى (لندن) أصدر صحيفة (الاتحاد العربى) بمعاونة « بلنت » صديق العرابيين . وشجع أحد مريديه « إبراهيم سراج » على إصدار صحيفتى (الحجاز والفسطاط) .

ودعا « الأفغانى » الثائر . . إلى الثورة فخرج العرابيون من عباءته ، وكذلك « سعد زغلول » أما « الشيخ محمد عبده » فقد حذر من أساليب العنف ، وانحاز للثورة بعد أن بدأت ، ثم مال إلى الإصلاح وربما تكون لنا عودة لهذه الفقرة ، بل سوف تكون حديثنا فى الفقرة التالية مباشرة .

ـ ٤ ـ

أما موقف الأستاذ الإمام من (الثورة العرابية) فهو موقف جدير بالتأمل بل هو جدير بالدراسة وبعدها يحكم القارئ للرجل أو عليه .

بداية كان « الرجل » على خلاف مع عرابى فى برنامجه العملى ، ورأى تنبيه الرأى العام ، وإنهاض الأمة على أسس التربية والتعليم ، وخالف العرابيين فى اتباع أسلوب يفتح الباب لتدخل عسكرى من جانب الدول الأجنبية ، بل إنه قال فى صراحة كاملة فى بيت « طلبة عصمت باشا » قائد الإسكندرية . . (إن هذا الشعب قد يجر إلى البلاد احتلالا أجنبيا يستدعى تسجيل اللعنة

بسببه إلى يـوم القيامة) وابتســم « أحمد عرابى و وقال : « أبـذل جهدى فى ألا أكون مـورد هـذه اللعن) .

وهذا الاحتلال الذى توقعه « الشيخ محمد عبده » وحـذر من استخدام أساليب تؤدى إليه هو الاحتلال البريطانـى البشع الذى جثم على صدر البـلاد أكثر من سبعين سنة . وبالقطـع عندما حذر « الشيـخ » من احتلا ل عسكرى أجنبـى كان يرى بـوضوح قوة العرابيين وحجـم الاستعداد العسكرى ، وكان يـرى بوضوح طبيعة « الخديو تـوفيق » واستعداده للغدر بـالبلاد ، واستعداده لتسليم البلاد إلى القوى الأجنبية فى حالة تعرض عرشه للضياع .

لم ينس « الشيخ » الدرس الذى تعرض له أستاذه « الأفغـانى » عندما ذهب على رأس وفد من المصريين إلى قنصل فرنسا بمصر وأبلغـوه أن حزبا بمصر قد تشكل ويطالـب بأن يتنازل « الخديو إسماعيل » عن الحكـم لولده « توفيق » وتوفيـق هذا كان عضوا (بمحفل الأفغانـى) . وتم خلع «إسماعيل » عام ١٨٧٩ وجاء توفيق الذى قـال للسيد جمال الدين (أنت موضع أملى فى مصر أيها السيد . .) ولكن فى ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ كانت قوة بـأمر « توفيق زميل المحفل » تقبض على «جمال الديـن الأفغانـى » وعلى خادمة« أبـو» تراب » وأودعـا باخرة عنـد السويـس سارت بهما إلى بومباى . وكان هذا اليوم آخر العهد بـ « السيد » فى مصر وكان قرار توفيق بإبعاد (أمله فى مصر) مؤسسا على أن هذا « الأمل » رأس جمعية سرية من ذوى البطش مجتمعة على فساد الدين والدنيا ، مشيرا بذلك إلى « الحزب الوطنى الحر » وإلى (جمعية حلوان) .

رأى « الشيخ » بوضوح احتمالات الخيانة من جانـب « توفيق » ولم يكن هناك فى مصر من يكره (أسرة محمد على) أكثر مـن «الشيخ محمد عبده » . ورأى دائما أن الخير فى أن تتخلـص مصر من حكم هـذه الأسرة . . ورأى أيضا أن توازن القـوى ليس فى صالـح الوطنيين لهذا نصح فى البـداية بالتريث وعدم الاندفاع الذى يمكن أن يجر على البلاد الاحتلال الذى كان . .

ولكن ما إن بـدأت الأحداث تتصاعد إلا وكـان للأستاذ الإمام مـوقف آخر كشف عـن ثورية كامنة تحت رداء الإصلاح والتربية والتعليم .

ـ ٥ ـ

وما إن بدأت الخطوات الأولى للثورة إلا وكان الأزهر يؤيدها ويشد من أزرها ، وفى التاسع من سبتمبر ١٨٨١ طالب الأزهريون بتنحية « الشيخ محمد العباسى » الذى كان يتولى الإفتاء ومشيخة الأزهر ، وفعـلا تم تعيين « الشيخ محمـد الأمبابى » بدلا منـه . وأعلن « الشيخ الأمبـابى » ضرورة عزل «الخديو توفيق » وأفتى « الشيخ محمد عليـش » بأنه لايصح أن يكون توفيق حاكما للمسلمين

بعد أن باع مصر للأجانب ، وأفتى «الشيخ حسن العدوى » بشرعية عصيان « الخديو » ، وبرز دور « الشيخ محمد عبده» فى طليعة المثقفين الذين أسهموا فى الثورة، وأصبح أحد قادة الحركة الوطنية المصرية ، على صفحات (الوقائع المصرية) كان يبث أفكاره عن الحرية والديموقراطية . وشرح فى خطبه معانى القومية ، وأهمية أن تعتمد الحركة الوطنية على جميع عناصر الأمة بلا استثناء، وحث المواطنين على التبرع بالأموال، وامتدح المديرين الذين بذلوا جهودا فى هذا الشأن . وحرص على نشر خيانات توفيق والدعاء لعرابى ، والجهاد فى سبيل الله بالتطوع فى صفوف القوات المحاربة . ودفع تلاميذه إلى كتابة المقالات ضد الخديو توفيق ، وإلى التخلص منه نهائيا بعد محاولة عسكرية لاغتياله لم يقدر لها النجاح .

ولم يرحم « محمد عبده » بقلمه وبلسانه أولئك الذين أبدوا ترددا أو خرجوا على الخط الوطنى أمثال « سلطان » . . ونادى بالشورى التى أرجعها لأصول الإسلام ، وأعطى لمفهوم القومية أبعاده (التى لاتفرق بين دين وآخر ، وهى سمة العصر الحديث منذ الثورة الفرنسية . وهى نزعة فكرية وعاطفية توجه ولاء الفرد للأمة ، وقد سميت القومية نسبة إلى القوم الذين يعيش الفرد بين ظهرانيهم ، ويشعر أن كيانه جزء لايتجزأ من كيانهم ، وللقومية مقوماتها الخاصة كاللغة والأرض والكيان السياسى والعادات والتقاليد أو الدين) .

وحول (الوقائع المصرية) إلى صفحة ثورية ، تنشر خيانات أعداء الثورة ، وتمجد مؤيدى الثورة ، ووضع للوقائع نظاما حديثا فى تحريرها وإدارتها وجعلها تصدر باللغة العربية وحدها ، وعاونه فى ذلك عدد من تلاميذ « الأفغانى » عبد الكريم سليمان، وسعد زغلول ، وإبراهيم الهلباوى .

وبعد أقل من أسبوع من ضرب الإسكندرية بالمدافع البريطانية ، وعلى وجه الدقة فى الساعة الثامنة من يوم الاثنين غرة رمضان ١٢٩٩ هجرية (١٧ يوليو ١٨٨٢ ميلادية) عقد مجلس عام فى وزارة الداخلية ، برئاسة « حسين الدرمللى باشا » وحضره حوالى ٧٠ شخصا من كبار العلماء ورجال الدين والتجار . . وفى هذا الاجتماع قرأ « الشيخ محمد عبده » البرقيات المتبادلة بين الخديو توفيق وأحمد عرابى . وطالب « الشيخ العدوى » بعزل الخديو وإعلان الحرب المقدسة غير أن غالبية المجتمعين لم تقر هذا الاقتراح . واستمرت الأحداث على ماهو معروف . وفى ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ سلم « عرابى » سيفه لقائد القوات الانجليزية الزاحفة إلى القاهرة والتى دخلتها فى ١٥ سبتمبر دون مقاومة تذكر ، وانتكست أعلام الثورة العرابية ووقع فى التاريخ المصرى ما كان قد حذر منه « الشيخ محمد عبده » .

وكان رأيـه فى الأساس هو الاهتمام بتعليم الأمـة لتوكل إليها حقـوقها وهى أمينة عليهـا ، وقال لعرابى أن يصير الاهتمام بالتربية والتعليم بعض سنين ، وليس من المصلحة أن نفاجئ البلاد بأمر قبل أن تستعـد له . وعلى الرغـم من نصائحه تلـك إلا أنه انحاز للثـورة بكل جهوده وبكـل فكره وبكـل قلمه . على أيـة حال انتكسـت أعلام الثـورة وبـدأت فترة تصفية الحسـابات مـن جانب سلطات الاحتلال والخديـو ضد العرابيين والوطنيين . وقبض على « الشيخ محمـد عبده » وبقى فى السجن ثـلاثة أشهر وجهـت إليه فيها اهـانات لاتتفق مـع مركزيـه الدينى والاجتماعـى . وصدر الحكـم بنفيه إلى بيروت ثـلاث سنـوات امتـدت إلى ست سنـوات بسبـب مـواقفه الصلبـة ضـد «الخديو» .

وفى ٢٣ ديسمبر ١٨٨٢ أصدر « الخديو توفيق » أمرا بـإلغاء (جرائد الزمان والسفير والطائف والمفيـد والنجاح) وبـدأت عملية رهيبـة لقطع ألسنـة الثورة العـرابية ، وبعـد أن أقام الشيـخ فى (بيروت) عاما وبعض عـام لحق بأستاذه « جمال الدين » فى باريس ليصدر صحيفـة سياسية هى (العروة الوثقى) .

وصدرت صحيفة العروة الوثقى فى باريس فى ١٣ مارس ١٨٨٤ وصدر منها ١٨ عددا وكانت ترسـل إلى مصر سرا وعنيت الجريـدة (بإفهـام الشرقيين واجباتهم التى كـان التفريـط فيها مـوجبا لسقوطهـم ، وشحذ همم الناس مـن الفتور وانحطاط العـزائم ودعوة المسلمين كافـة إلى التمسك بالأصول التـى كان عليها آباؤهم وأسـلافهم ، وإبطال الزعم بـأن المسلمين لايتقدمون فى مضمار المدنية ، وتقويـة الروابط والصلات بين الأمم الشرقيـة ، ورفع لواء الجامعة الإسـلامية ، وتنكيس أعلام بريطانيا فى الهند ومصر) .

وتوقفت (العروة الـوثقى) وافترق الأستاذ والتلميذ ، ذهـب الأفغانـى إلى (استانبول) وذهب «محمد عبده » إلى طـرابلس الشام ومنها إلى (بيروت) حيـث عمل وعنى بالتعليـم ، وألف كتاب (رسالـة التوحيـد) سنة ١٨٨٥ هنـاك ، ودعا فيه إلى فتـح باب الاجتهـاد ، وكان الـرأى عنده أن (الإصلاح الدينى) هو أساس الإصلاح الاجتماعـى ، والإصلاح السياسى ، وبعد أن عاد الشيخ من باريس إلى بيروت ازداد إيمانـا بعدم المحاولات السياسية ، وضعف أملـه فى الملوك والأمراء . . وحصر أمله كله فى إعداد هذه الأمة للنهضة والمقاومة بالعلم والتربية الاجتماعية الصالحة . وبهذه الروح عاد الشيخ إلى مصر سنة ١٨٨٨ . .

ونقطع المسيرة التـاريخية ونسجـل ما وجه إلى الشيـخ من ملاحظـات ، وذلك بعـد أن وضعنا الظروف التاريخيـة والسياسية والاجتماعية التـى عمـل الشيخ فى إطارهـا ، والآن يمكن أن ننظر إلى هذه الملاحظات فى إطـارها الحقيقى ، وعلى أية حال نسجلهـا هنا حتى تكون الصـورة كاملة . . ولكن لاننسى أن « مصطفى كامل » وحزبه كانا يتهمان « أحمد عرابى » بالخيانة !

كتب « محمد فـريد » فى مذكراتـه (لقد اطلعت بطريـق الصدفة على جواب مـن الشيخ محمد عبده إلى بلانت بتاريخ ذى الحجة ١٢٩٩ هجرية أرسلـه إليه من السجن يشتكى حاله ويقول فيه ما معناه إنه واثـق بأن انكلترا سيكون لها تمثال فى قلب كل مصرى وبكل أسـف لم أتمكن من أخذ صورته) .

والمعروف أن « الشيخ محمد عبده » قبض عليـه بعد دخول الانجليز إلى القاهرة فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ وبقى فى السجن ثلاثـة شهور قبل نفيه إلى بيروت . ومعروف أيضا أن الشيـخ محمد عبده كـان يعطف على أحمد لطفـى السيـد وسعـد زغلول وقـاسـم أمين إلى درجـة أن اصدار جـريـدة (الجريدة) وقيام حزب الأمـة سنة ١٩٠٧ وذلك بعد رحيل الشيخ بعـامين . . كان التعبير الشائع عن مجموعة الجريدة (هذا حزب محمد عبده) ـ محمد فريد اتهم (حزب الأمة) بالعمالة للانجليز!

وفى ٧ فبرايـر ١٩٠٦ كتبت الأهـرام بعد وفـاة الشيخ محمـد عبده يـوليو (١٩٠٥) : (اشتهـر الشيخ محمـد عبده فى أخريـات أيامه بممالأة المحتلين ، وكـان يسمى تلك الممالأة مسـالمة ، وكنا نسميها استسلاما . وهو الذى علم مجلس الشورى الاستسلام حتى بات ذلك المجلس على ماتراه الآن بعين الأسف والحسرة) .

والمعـروف أن الأهرام كـانـت على شىء مـن التأييـد للعـرابيين أثناء المد العـرابـى ولكن بعـد (النكسة!) تحولـت الأهرام للهجـوم على العرابيين وعلى الـوطنيين وإنهم سبب مـا حل بـالبلاد . والطريـف أنها كانت تستخـدم عبارات التحـذير التى كـان يوجهها « الشيـخ محمد عبـده » قبل اشتعال الثـورة العرابيـة ، تستخدمها بعـد النكسة تدليـلا على أن العرابيين لم يستمعـوا إلى صوت العقل .

ونعود إلى المسيرة التاريخية بعد هذه الفقرة الاعتراضيـة ، فنجد أن « الشيخ » قد عاد إلى القاهرة سنة ١٨٨٨ بعـد ان تدخـل صديقـه وتلميذه «سعد زغلـول» لدى « الأميرة » نـازلى فاضـل التى تدخلت لدى ابن عمها « الخديو توفيق » فوافق على عودة «الشيخ محمد عبده » ويقال إن « الأميرة نازلى فاضل » كانت تتعاطف مع العرابيين لكراهيتهـا للخديو توفيق ، وكان صالونها ملتقى دعاة

القومية المصرية ، والديموقراطية السياسية ، والإصلاح الاجتماعى .

عاد الشيخ وأبعدوه عن وظائف التعليم وعينوه قاضيا فى محكمة بنها إلا أن أحكامه كانت نوعا من التعليم أيضا ، وأشرف سنة ١٨٩٢ ميلادية على تأسيس (الجمعية الخيرية الإسلامية) مع أصدقائه وتلاميذه « سعد زغلول وحسن عاصم وأحمد فتحى زغلول » وكان للإمام حلقات أسبوعية يلتقى فيها مع أبناء الأزهر ودار العلوم والأدباء . وفى ذلك العام ، ١٨٩٢ ، عهد إليه بتصحيح أوراق الامتحان للصف الذى فيه « أحمد لطفى السيد » وإذا به يعجب بجرأة التناول وقوة الأسلوب ، وكان « أحمد لطفى السيد » يتوقع أن يرسب لأنه كتب موضوعا ينكر فيه حق الحكومة فى عقاب الجناة لأن الحكومة نفسها تقوم على العنف وليس على العقد . وفوجئ « لطفى السيد بالشيخ « محمد عبده » يهنئه بشجاعته وقوة أسلوبه . ثم عين الشيخ عضوا بمجلس إدارة الأزهر عام ١٨٩٤ . وتولى منصب الإفتاء سنة ١٨٩٩ ، وكان المفتى بحكم وظيفته عضوا فى المجلس الأعلى لديوان الأوقاف ، ومن عمله الإشراف على المساجد فى الأقاليم ، وكان أول ما نظر فيه إنشاء إدارة المساجد ، ودعا « الشيخ » لفتح باب الاجتهاد لإمكان معالجة العديد من القضايا المعاصرة . وحبذ الإفادة بآراء أصحاب المذاهب الأربعة وعلى وجه الخصوص مذهب الإمام مالك ، وأباح التعامل مع البنوك بإدخار الأموال فيها وأخذ الأرباح عليها . ودعا إلى عدم تعدد الزوجات الا للضرورات الشرعية ، وإلى أن من حق الزوجة أن تطلب الطلاق من زوجها لسبب شرعى تثبته بطريقة شرعية . ووافق الشيخ على مشاركة المرأة فى الأمور السياسية ، وهو فى هذا المجال يعد الأستاذ الحقيقى لقاسم أمين . بل قيل إن كتاب (تحرير المرأة) قد وضع فى (جنيف) عندما كان « الشيخ محمد عبده » وسعد زغلول وأحمد لطفى السيد وقاسم أمين هناك للاصطياف وقيل إن الأفكار هى للشيخ والأسلوب لأحمد لطفى السيد ونشر باسم « قاسم أمين » وقيل أيضا إنه تحت تأثير الشيخ استقال « أحمد لطفى السيد » من الحزب الوطنى ، وانتشرت الدعوة إلى (مصر للمصريين) .

واعتبر الشيخ فترة الإصلاح فترة انتقالية تتطلب حاكما مستبدا عادلا نزيها شجاعا حازما (أصيل الرأى عالى الهمة رفيع المقصد) ومن الأعمال التى اهتم بها مشروع الجامعة الأهلية على الرغم من مرض الوفاة .

الرحيـــل

وذات يوم من النصف الأول من شهر يوليو ١٩٠٥ ميلادية توفى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وقد حضرت وفاته زوجته اللبنانية من أسرة (حماده) وجاوز الزحام كل ما قدرته الشرطة واتخذت له حيطتها لتشييع الجنازة من الإسكندرية إلى القاهرة وتعطلت حركة الأسواق ، وأغلقت

الدكاكين ، واكتظت الأرصفة بالواقفين . رحل وقد ترك لمصر أنجب تلاميذه : سعد زغلول وأحمد لطفى السيد وقاسم أمين . وترك فى الشئون الدينية تلاميذه : « الشيخ محمد شاكر ، والشيخ مصطفى المراغى ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ، والشيخ إبراهيم حمروش ، والشيخ محمود شلتوت » . ونلتفت اليوم وإذ بالأستاذ الإمام قد رحل وتلاميذه كافة قد رحلوا . . رحم الله الجميع وكان الله فى عون مصر من بعدهم . . وإذا كنت قد قصرت فى هذه السيرة العظيمة عن هذا الجانب أو ذاك ، وبالقطع قد فعلت . . وشرد الذهن إلى هنا أو إلى هناك فذلك لأننى كما قلت من السطر الأول . . أنا لا أكتب ولكنى أتأمل .

الأسانيد :

١ ـ الشيخ رشيد رضا ، تاريخ الإمام محمد عبده .

٢ ـ د . زكريا سليمان بيومى ، دراسة فى فكر الشيخ محمد عبده .

٣ ـ عباس محمود العقاد ، محمد عبده (عبقرى الإصلاح والتعليم) .

٤ ـ مركز الدراسات بالأهرام ، مصر للمصريين (نخبة من الأساتذة) .

٥ ـ د . محمد عبد الرحمن برج ، عبد الرحمن الكواكبى .

٦ ـ مصطفى عبد الغنى ، ، المؤثرات الفكرية فى الثورة العرابية .

٧ ـ د . محمد عمارة ، جمال الدين الأفغانى المفترى عليه .

محمد عبد الله عنان



تسعون عاما على أرض مصر الطيبة . . ورجل بدأ حياته ماركسيا وزعيما لحزب شيوعى وانتهى مؤرخا عربيا إسلاميا . بدأ حياته ثائرا محرضا على الثورة وانتهى وديعا وقورا . بدأ حياته يميل إلى موسكو حيث ثورة أكتوبر الاشتراكية وانتهى عاشقا لمدينة القاهرة قلب العروبة والإسلام وداعيا لأحياء عيدها الألفى . بدأ مفكرا ماديا وانتهى محبا للأزهر الشريف وكاتبا لدراسة عن تاريخه من أروع الدراسات عن رحلة الأزهر عبر ألف عام . بدأ كاتبا لتاريخ الجمعيات السرية ، ولتاريخ المؤامرات السياسية وانتهى كاتبا لتاريخ الإسلام فى الأندلس ، ولتراجم إسلامية ـ شرقية وأندلسية .

آخر مرة لقيته فيها ، كانت وسط البلد كما نقول « فى أحد الشوارع المزدحمة يتكىء إلى ذراع تلميذه وصديقه ، زميلنا وصديقنا حسين فوزى النجار ، كان المرض يناوشه وفى سبيل أن ينتصر عليه . . نظرت إليه وارتد الذهن ستين عاما إلى الخلف أو تزيد . . أهذا الوديع الوقور كان خلف عمال الإسكندرية وهم يرفعون الراية الحمراء على مصانع الإسكندرية» .

من أين نبدأ مع هذه الشخصية الخصبة؟ من أين نبدأ مع «محمد عبد الله عنان » ؟ نبدأ من حيث بدأ حياته ، أو من حيث قدر له أن يبدأ . . فى يوليو ١٨٩٦ فى قرية بشلا مركز ميت غمر بمحافظة الدقهلية ولد « محمد عبد الله عنان » ، وفى كتاب القرية حفظ ما تيسر من القرآن وانتقلت الأسرة إلى القاهرة فتلقى دروسه الابتدائية فى مدرسة العقادين الأميرية ، وبعد أن حصل على الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠٩ دخل المدرسة الخديوية الثانوية وحصل منها على البكالوريا سنة ١٩١٤ . درس القانون فى مدرسة الحقوق وحصل على الليسانس سنة ١٩١٨ واشتغل بالمحاماة . وكانت الحركة الوطنية المصرية تموج بتيارات كثيرة ، تيار الحزب الوطنى ، وتيارات

عمالية وتيارات وطنية واستطاع سعد زغلول أن يوحد الصفوف جميعها تحت قيادته فى (الوفد المصرى).

نشطت الحركة النقابية فى مصر فى العقد الأول وفى منتصف العقد الثانى من القرن العشرين نشاطا ملحوظا ، وتكونت نقابات عديدة فى مختلف المهن والصناعات ولكن بنشوب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) وإعلان الحماية البريطانية ، وإعلان الأحكام العرفية ، توقفت الحركة النقابية ، وتوقف نشاطها أثناء الحرب .

قاسى العمال والفلاحون أثناء الحرب من جراء تجنيدهم عنوة ، وتشغيلهم سخرة فى أعمال قوات الاحتلال ومات منهم الكثيرون بعيدا عن قراهم وعن ديارهم . وما إن تألف الوفد المصرى بزعامة سعد حتى كان العمال والفلاحون فى مقدمة المؤيدين لتحقيق مطالب البلاد . وما إن اشتعلت الثورة فى ٩ مارس ١٩١٩ حتى كان عمال النقل أول المضربين ، وتعطلت حركة النقل والمواصلات ، وأضرب عمال العنابر وخرج العمال فى التظاهرات وسقط منهم قتلى كثيرون .

وبعد الإفراج عن « سعد » ورفاقه شارك العمال فى تظاهرات الابتهاج يومى ٧ ، ٨ أبريل ١٩١٩ . وكانت تظاهرة قومية ، شارك فيها الشعب بطوائفه المختلفة .

وفى تلك الفترة ظهرت أسماء عديدة تؤيد العمال فى مطالبهم وتدعو إلى تشكيل نقاباتهم ، وكان فى مقدمة هذه الأسماء « محمد عبد الله عنان » وعادت بعض النقابات القديمة إلى نشاطها ، وظهرت نقابات جديدة أخرى ومن بين الأسماء المصرية الأخرى التى ظهرت فى هذا المجال إلى جانب اسم « محمد عبد الله عنان » . اسم « الدكتور محجوب ثابت » واسم « عبد الرحمن فهمى » الذى كان له دور كبير فى تكوين اتحاد عمال مصرى يرتبط بالوفد فى مواجهة النشاط الأجنبى الذى وقف خلف عدد من النقابات خاصة بالإسكندرية .

المناخ الثقافى

وقد شهد العقد الثانى من القرن العشرين وهو العقد الذى بدأت تتشكل فيه شخصية عنان الثقافية بدايات ثقافية على جانب كبير من الأهمية ألقت بظلالها على « محمد عبد الله عنان » وباقى أفراد جيله .

سلامة موسى ينقل أفكار ماركس وتولستوى وغاندى ، وشبلى شميل ينقل أفكار دارون ، وطه حسين يتحدث عن الأفكار الاجتماعية لابن خلدون ، وإسماعيل مظهر يسير فى اتجاه شبلى شميل ويتصدى « فريد وجدى » لتيار الفكر المادى ، وبعد ثورة أكتوبر الاشتراكية يتصاعد

الحديث عن الفكر الاشتراكى ويتصدى لهم الشيخ التفتازانى والشيخ محمد بخيت المطيعى . ويظهر العقاد وسطا بين الاتجاهين ونادى بالإصلاح مستندا إلى التراث الإسلامى . ويظهر أحمد لطفى السيد ليدعم تيار الديمقراطية ومعه مدرسة الاستنارة التى بدأت فى حزب الأمة وتبلورت فى حزب الأحرار الدستوريين حتى بعض رموز الحزب الوطنى كمحمد فريد اهتم بالتعاون وبالنقابات وبالنشاط العمالى .

وينشط عدد من المثقفين فى محاولة لحزب تحت اسم (الحزب الديمقراطى) منهم « محمود عزمى ، ومنصور فهمى ، وعزيز ميرهم ، ومحمد حسين هيكل » .

والأجانب كان لهم نشاط آخر فى اتجاه تأسيس خلايا شيوعية ، خاصة جماعات من اليونان والأرمن والإيطاليين والروس البيض . وأبرز هؤلاء جميعا شخصية غامضة هو « روزنتال » الذى حرك هذه الجماعات الأجنبية فى اتجاه تأسيس نقابات عمالية ، وفى اتجاه تحريض النقابات على الإضرابات ، وفى اتجاه تجميع عدد من المثقفين المصريين لتأسيس حزب شيوعى مصرى .

وفى أغسطس ١٩٢١ يصدر بيان بتكوين (الحزب الاشتراكى) والعناصر المؤسسة له هم «على العنانى ، سلامة موسى ، محمد عبد الله عنان ، حسنى العرابى » .

ولكن صراعا غريبا يدور بين هؤلاء المصريين . وبين بعضهم والعناصر الأجنبية التى وقفت خلف الحزب . فسلامة موسى يبدو أنه من العناصر التى تكتفى بالدعاية لأفكارها ولا يرغب فى أن يحكمه تنظيم معين . وهو من دعاة الاشتراكية القدامى منذ أن أصدر كتابا عن الاشتراكية سنة ١٩١٣ . ونجده بعد الإعلان عن تأسيس الحزب يشن حملة ضد (البلشفية) وأنها نشرت الخراب والدمار فى روسيا ، ويعلن أن أى نشاط شيوعى فى مصر يضر بقضية البلاد الوطنية ـ وهو هنا يقترب من موقف سعد زغلول وموقف الوفد الذى سوف نشير إليه فى فقرات أخرى . وبرر سلامة موسى موقفه هذا بأنه كان يرغب فى تأسيس جمعية وليس فى تأسيس حزب وينسحب سلامة موسى من الحزب ليتفرغ لعمله الصحفى .

أما « محمد عبد الله عنان » والذى ظهر اسمه كسكرتير للحزب فى فترة ما فانه بعد أن ظل يدافع عن الحزب ومبادئه ينفض يديه من الحزب ويبتعد عن رجاله ويجد المرفأ لدى حزب الأحرار الدستوريين وفى جريدتى السياسية اليومية والأسبوعية وتلك قصة أخرى .

كان « روزنتال » ومجموعة الأجانب يصرون على تغيير اسم الحزب الاشتراكى إلى الحزب الشيوعى وان ينضم إلى الشيوعية الدولية (الثانية) وكان يؤيديهم فى هذا الاتجاه « محمود حسنى العرابى » وتزعم « محمد عبد الله عنان » المعارضة وانفصل وكان قد سبقه « سلامة موسى » عندما

أراد أن يقصر نشاط الحزب فى (جمعية) تبشر بما أسماه (بالاشتراكية المصرية) ، وسبقه « على العنانى » الذى نادى بما تقره الأحكام الشرعية والقوانين الدستورية . واتضح فيما بعد أن الصراع كان يدور حول منصب سكرتير الحزب . كان سلامة موسى يرى أنه أجدر العناصر به ، وكانت الصحف قد أشارت إلى أن سكرتير الحزب هو « على العنانى » وينشر « سلامة » بيانا ويوقعه باسمه كسكرتير للحزب . وانتهى هذا الصراع حول المنصب بأن اختار الأعضاء « محمد عبد الله عنان » سكرتيرا وكان مقره بجنينة الناصرية بالسيدة زينب بالقاهرة .

جريدة السياسة

على أية حال فقد انسحب محمد عبد الله عنان وسلامة موسى والعنانى ومضى « حسنى العرابى » فى قبول شروط (الدولية الثانية) لإعلان الحزب كحزب شيوعى وذلك بفعل العناصر الأجنبية . وكان لسعد زغلول رأى فى هذا النشاط الأجنبى وهو إنه ضار بالحركة الوطنية . وجاء رأى « لينين » الذى سجله « إبراهيم عامر » فى كتابه (ثورة مصر القومية) قريبا من رأى سعد زغلول اذ ان لينين اتهم الأجانب الذين يقفون خلف الحزب الاشتراكى المصرى وخلف إضرابات العمال بأنهم عملاء لدول أجنبية وجواسيس يقومون بأعمال استفزازية لضرب الحركة الوطنية على أية حال فقد حدد « عنان » موقفه وأدان الاتجاه الجديد وفى الوقت نفسه كان « عبد الرحمن فهمى و حسب توجيهات « سعد زغلول » قد أصدر جريدتين للعمال ، وقام بتأسيس (اتحاد نقابات عمال وادى النيل) بزعامة عبد الرحمن فهمى . وأصدر سعد زغلول قرارا بحل الحزب الشيوعى ، وتم القبض على عدد من قادته الأجانب والمصريين وترحيل عدد من الأجانب . ويقول « إبراهيم عامر» إنه ثبت أن « روزنتال » كان رعية بريطانية وسافر إلى الخارج . ولعل هذه الأوضاع كلها . . دور الأجانب فى تحريض العمال . . وموقف الحزب من تقاليد البلاد ، وانتشار الإضرابات فى الوقت الذى كان الوفد يتعرض فيه لأول انقسام . . لعل هذه الأوضاع كلها هى التى عمقت التناقضات بين القيادات المصرية العلنية من القيادات الخفية الأجنبية وجعلت « محمد عبد الله عنان » الذى كان سكرتيرا يوما ما للحزب ينفصل عنه .

وفى حزب الأحرار الدستوريين وجد « محمد عبد الله عنان » مكانه داخل جريدتى السياسة اليومية والسياسة الأسبوعية إلى جانب الدكتور محمد حسين هيكل ، والدكتور محمد صبرى السربونى ، ومصطفى عبد الرازق ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ومحمد توفيق دياب ، وعبد العزيز البشرى ، وعلى عبد الرازق ، ومحمود عزمى ، وإسماعيل مظهر وفكرى أباظة ، ومحمود تيمور .

ويروى « فتحى رضوان » فى كتابه (أفكار الكبار) كيف إنه واظب على رؤية « محمد عبد الله عنان » فى مكتبه بحديقة مبنى جريدة السياسة الذى كان مبنى حزب الأحرار الدستوريين . . ويقول (لم أره فى جميع الزيارات ولا حين ألقاه خارجا من مكتبه أو سائرا فى الطريق ، أو فى اجتماع يضم الدكتور هيكل ، وبعض زوار حزب الأحرار أو جريدة السياسة ، لم أره فى كل هذا غاضبا أو محتجا أو عنيفا ، أو غليظا أو سيئ المزاج ، بل لم أسمع له رأيا فى السياسة والشئون العامة بل كان فى جميع الأحوال لطيفا ودودا مقبلا على ضيفه ، حسن اللقيا ، وحسن التوديع . . ولفت نظرى أن الأستاذ محمد عبد الله عنان عاش حياته ، منذ هجر المحاماة بعد سنوات من تخرجه فى مدرسة الحقوق سنة ١٩١٨ وهو يعمل فى الصحافة وكان أكثر عمله فى صحافة الأحرار الدستوريين ومع ذلك لم يستدرجه هذا القرب الحميم ، وصلته الدائمة برئيس تحرير جريدة السياسة ، إلى العمل بالسياسة فأصبح أشبه بشىء يجلس إلى جانب بركان يقذف حممه ، وهو مستغرق فى تصوراته وتأملاته .

عقب أن تخرج فى مدرسة الحقوق سنة ١٩١٨ تفرغ « محمد عبد الله عنان » للمحاماة وللعمل السياسى ، والكتابة فى الصحافة وبعد أن انسحب من الحزب الاشتراكى أو الشيوعى انصرف إلى كتابة ثلاثة كتب وكان لم يزل مدفوعا بالأساس الفكرى القديم . . الأول هو كتاب (قضايا التاريخ الكبرى) وقد صدر فى يوليو سنة ١٩٢٥ وقدم له صديقه « الدكتور محمد حسين هيكل » رئيس تحرير جريدة السياسة والعضو البارز فى حزب الأحرار الدستوريين . والثانى هو (تاريخ الجمعيات السرية) سنة ١٩٢٦ والثالث هو (تاريخ المؤامرات السياسية) سنة ١٩٢٨ . وأكثر فصول هذه الكتب الثلاثة قد نشر فى مجلة (الهلال) وفى جريدة السياسة ، وهى كلها كتب تنم عن قدرة « محمد عبد الله عنان » على التحصيل والتأليف معا .

الدراسات الإسلامية والعربية

وبعد الكتب الثلاثة الأولى والتى نلمس فيها حركة قصور ذاتى لنشاطه السابق نجد ان « محمد عبد الله عنان » نزل عن رغبة واقتناع فى ميدان الدراسات الإسلامية والعربية فيصدر بالعربية والإنجليزية (مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام) ثم يصدر (مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية) و (مؤرخو مصر الإسلامية) . وكتابه الشهير (الحاكم بأمر الله) وهو المرجع الوحيد الكامل عن هذه الشخصية المثيرة . أما كتابه (تاريخ الجامع الأزهر) فسوف يظل مرجعا فريدا عن رحلة الأزهر فى ألف عام وقد أشرنا إليه فى صدر بحثنا هذا ، وقد نشر « عنان » مستندا إلى هذا العمل بحثا رائعا نشره مرة فى مجلة (العربى) ونشر مرة ثانية بإذن من المجلة فى (الكتاب

التذكارى) فى الاحتفال بالعيد الألفى للأزهر وصدر له أيضا (تراجم إسلامية) ـ شرقية وأندلسية .

ومنذ سنة ١٩٤٣ وقف « محمد عبد الله عنان » نفسه وقلمه على تاريخ الحضارة العربية فى الأندلس . وجاءت أعماله فى هذا الميدان تشغل أكثر من أربعة آلاف صفحة فى سبعة مجلدات ضخمة ، وعكف على تحقيق كتاب (الإحاطة فى أخبار غرناطة) ونشر (الآثار الأندلسية الباقية فى أسبانيا) و(نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين) و(عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس) و(دول الطوائف) و(دولة الإسلام فى الأندلس ـ جزءان) . وإلى جانب هذا كله عنى بدراسة (ابن خلدون ـ حياته وتراثه الفكرى) . ومن هنا تكون أعمال « محمد عبد الله عنان» . جميعها فى إطار التاريخ دراسة وتحليلا وفى محاور سياسية وإسلامية وعربية .

كان قد بلغ الثمانين من عمره عندما انتخب لعضوية مجمع اللغة العربية سنة ١٩٧٦ فى الكرسى الذى خلا بوفاة المرحوم الدكتور « عبد الحكيم الرفاعى » وقد قال عنه الأستاذ « على النجدى ناصف » يوم استقباله : لم يتبوأ الأستاذ عنان مكانه هذا بين أنداده ، وفى قلوب قرائه ، عفوا ميسورا ، ولكن جهادا كبيرا ، وصنيعا مشكورا ، يتمثلان فى آثار له حسان ، وبحوث شائقة متعددة ، أصاب الناس منها علما غزيرا ، ومتاعا طيبا لا لغو فيه ولا تأثيم .

ويسجل الأستاذ الدكتور « محمد مهدى علام » اتجاها بارزا فى فكر الأستاذ عنان ـ سعدت بلقائه فى باكورة الستينيات عندما عهد إلى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، فى تأليف لجنة يشترك فيها عضو من كل لجنة من لجان المجلس ، لتختار أسماء الأبطال فى التاريخين العربى والإسلامى . وكان الأستاذ محمد عبد الله عنان ممثلا للجنة التاريخ وحدث أن كان من بين الأسماء المقترحة للاحتفال ببطولتها اسم سليمان الحلبى قاتل كليبر ، القائد الفرنسى الذى ناب عن نابليون فى مصر فى الحملة الفرنسية ، فعارض هذا الأستاذ المؤرخ ، قائلا نحن لا نؤيد الاغتيال السياسى ، ولا يليق أن نعد هذه الشخصية من بين أبطال الإسلام . ووافقت اللجنة على رأيه . إلى هذا الحد كان الرجل فى شيخوخته حريصا على إرساء ما يؤمن به من أفكار إنسانية تبتعد بالإنسان عن الاغتيال السياسى .

وفى السنة ذاتها ١٩٧٦ تقرر منح « محمد عبد الله عنان » جائزة الدولة التقديرية فى الآداب . كان قد بلغ الثمانين من عمره كما ذكرنا ، وكان تلاميذه وأبناؤه من الذين يجيدون السير فى دهاليز وزارة الثقافة وفى دهاليز المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب قد حصلوا على الجائزة دون أن يكون لديهم مثل ما لديه من علم ومعرفة ، ودون أن يكون لديهم مثل ما لديه من إنتاج . وإنما كانوا يجيدون الدعاية والإعلام ، وكان لديهم البريق اليومى ، وهكذا قدر لمناضل قديم سواء اتفقنا أو

اختلفنـا معه ، وقـدر لمؤرخ كبير سواء عـرفناه أو لم نعـرفـه ، قدر لـه أن يتقدم إلى جـائزة الدولـة التقديرية ويخفق فى الحصول على الأصوات مرة ومرة حتـى أصبح الأمر مدعاة للخجل عند الذين يملكون الأصوات .

رجـل غير مشهـور

لعلى على صواب إذا قلت إن الجيل الجديد من شباب هـذه الأيام ، لا يعرف شيئا عن « محمد عبد الله عنان » والجيل الوسيط يعرف النذر القليل والجيل القديم الذى يؤذن بالرحيل يعرفه مؤرخا عربيا إسـلاميا ، ويعرفه كـاتبا صحفياً وربما لا يعرف عنـه سنوات النشأة أو التكويـن وإذا عرف بعضهم شيئا من هذا فإنهم لاينسبونه إلى الرجل ولا يعرفون الرجل به وكأنهم يريدونه كما أراد لنفسه فى شيخوخته فهو ينظـر إلى أيام الشباب كصفحة انطوت وعفا الله عما سلـف فلم أجد فيما كتبه « فتحى رضوان » عنـه شيئا عن حياته ومواقفـه أيام الشباب ولم أجد فيما كتبه « دكتـور محمد مهدى علام » شيئا من هذا أيضا .

وها هو « محمد عبد الله عنان » كما نقدمه هنا . . ولد سنة ١٨٩٦ فى قرية من قرى الدقهلية ، وحفظ القـرآن ، وتعلم علوم الابتـدائى والثانوى ومدرسـة الحقوق بالقـاهرة حتى تخرج فيهـا سنة ١٩١٨ . وعايش ثورة ١٩١٩ ووقـف على يسار الثورة مع عدد من المثقفين اليسـاريين حتى سنة ١٩٢٤ . وارتد عـن هذا التيـار وواصل الهجوم على رفـاق الأمس ، وتفرغ للمحـاماة وللصحـافة وللتأليف والترجمة ، والتحق ببعض الوظائف حتـى وصل إلى منصب (المراقب) وهى وظيفة دون (المدير العام) ثم تفـرغ للحضارة الإسلامية فى الأندلس ، وللحضارة الإسلاميـة عامة . وحصل على جائزة الدولـة التقديرية وعضـوية مجمع اللغة العـربية سنة ١٩٧٦ . وظل وديعـا وقورا معتزا بنفسه حتى رحـل فى يناير ١٩٨٦ . رحم الله « محمد عبـد الله عنان » بقدر ما أعطـى ، وبقدر ما أتيح له من رؤية . وقد قال عنه « أحمد بهاء الدين » أخيرا إنه أحد أعظم المؤرخين المصريين فى كل العصور .

الأسـانيد :

١ ـ إبراهيم عامر . . ثورة مصر القومية .

٢ ـ فتحى رضوان . . أفكار الكبار .

٣ ـ د . رءوف عباس . . الحركة العمالية فى مصر .

٤ ـ د . رفعت السعيد . . . تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر .

٥ ـ د . محمد مهدى علام . . المجمعيون فى ٥٠ عاما .

محمد على علوبة



فى وثائق الحزب الوطنى ، والوفد المصرى ، والأحرار الدستوريين ، نجد اسمه « محمد على المحامى بأسيوط » وقليلا ما تجد اسمه كما أشرنا إليه فى العنوان . محمد فريد فى مذكراته ، يكتبه هكذا : « محمد على بك » . ووثائق إنشاء حزب الأحرار الدستوريين تذكره على أنه « محمد على سكرتير الحزب » وفى وزارة « زيور » الثانية (١٣ مارس ١٩٢٥) ورد اسمه « محمد على باشا» .

أما « علوبة » فهو اسم اشتهر به والده « على » الذى نشأ فى أسيوط ، أطلقته عليه والدة أحد زملائه تدليلا وتحويرا لكلمة «على » . وبعد أن اعتزل العمل الحكومى ، أنشأ مطحنا ، وليس فى مدينة أسيوط من لا يعرف (طاحونة علوبة) فى وسط المدينة .

وجده « محمد » عاش فى (منفلوط) بمديرية أسيوط باسم (محمد الجهينى) نسبة إلى بلدة «جهينة » التى عاش بها الجد الأكبر ويقال إنه نزح إليها من الحجاز .

وعندما أراد « محمد على » وإخوته أن يتخذوا لهم لقبا رأوا أن لقب (الجهينى) شائع يشاركهم فيه أبناء بلدة (جهينة) فاستقر رأيهم على أن يكون اسم « علوبة » الذى اشتهر به الوالد واشتهرت به (الطاحون) لقبا لهم . فسجله « محمد على » بإشهاد بمحكمة مصر الشرعية بتاريخ ١٠ أغسطس ١٩٣١م .

أصبح اسمه إذن ـ رسميا ـ منذ ١٠ أغسطس ١٩٣١م « محمد على علوبة » وهو الاسم الذى سوف نطلقه عليه فى مختلف مراحل حياته قبل هذا التاريخ وبعده .

بداية الطريق

وفى (ذكرياته) لم يحدد « محمد على علوبة » تاريخا لمولده ، وان كان الأرجح أنه ولد حوالى عام (١٨٧٨م) وكان ذلك فى شارع (درب الشجرة) بالمنيا . حيث كان والده يعمل فى ذلك الحين رئيسا لكتاب (باشكاتب) مجلس مديرية المنيا ، ثم عاد إلى أسيوط رئيسا لكتاب مجلس استئناف وجه قبلى . وبعد أن ترك الوالد خدمة الحكومة اشتغل بالأعمال الحرة من زراعية وصناعية .

دخل الطفل « محمد على علوبة » كتاباً فى سوق الخضار بأسيوط وتعلم الحروف الأبجدية وحفظ قصار السور وحفظ جزء «عم » وجزء « تبارك » وسورة « يس » إلى أن حفظ القرآن بداية وعبادة . . وبعدها التحق بمدرسة أسيوط الابتدائية . ولم يكن فى أسيوط فى ذلك الحين (١٨٩٠م) مدرسة ثانوية فالتحق بالمدرسة الخديوية بدرب الجماميز بالقاهرة ، ونال شهادة البكالوريا سنة ١٨٩٥م . والتحق بمدرسة الحقوق ونال إجازتها من اللغة الفرنسية . وفى أوائل سنة ١٩٠٠ ذهب إلى أسيوط واشتغل تحت التمرين بمكتب المرحوم (حسين فهمى) وكان معه فى المكتب المرحوم « محمود بسيونى » وكان بأسيوط من المحامين فى تلك الفترة «مرقص حنا » و«أحمد رمزى » اللذان تركا النيابة للاشتغال بالمحاماة . ومن الطريف أن المحامين بأسيوط «محمود بسيونى» ومرقص حنا ، وأحمد رمزى ، ومحمد على علوبة ، أصبحت لهم شهرة فى المحاماة على نطاق مصر كلها .

وقيد « علوبة » اسمه محاميا أمام المحاكم الشرعية . ثم تزوج سنة ١٩٠٤ م وتوفى والده فى ٧ مايو ١٩٠٧م وكان عمر « محمد على علوبة » فى ذلك الوقت حوالى ٢٩ سنة .

الطريق إلى الأحزاب

وفى عام الأحزاب ، عام ١٩٠٧م نشأت أحزاب كثيرة ، وفى ذلك العام فكر « محمد على علوبة » فى الانضمام إلى أحد الأحزاب الكثيرة ، ويبدو أن تفكيره كان يدور حول « حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ، وحزب الأمة ، والحزب الوطنى ويسجل انطباعه عن هذه الأحزاب هكذا . .

حزب الأمة معروف عنه كراهيته لطغيان السراى . ورغبته فى الارتقاء بالشعب عن طريق التطور لا عن طريق الثورات وحرصه على المطالبة بالدستور كى يصل إلى تأليف البرلمان . وكان المهيمنون على حزب الأمة من سراة الشعب ولا يظن منهم أنهم يسعون إلى الحكم وكان يطلق عليهم أصحاب المصالح الحقيقية .

وحزب الإصلاح عـرف عنه ـ الكلام مـازال لعلوبة ـ أنه ألـف ليحافظ على مركـز الخديو ضد تطرف رجـال الحزب الوطنى الذيـن قطعوا صلتهم بالخديـو ، وشاع أن الخديو انقطعت صـلاته بمصطفى كامل . وكانت جريدة (المؤيد) غنية بالمواد العلمية والثقافية وكانت تناصب الانجليز العداء وقت أن كان سوء التفاهم قائما بين الخديو واللورد كرومر . فلما عزل اللورد تصادق الخديو مع سير جورست تغير أسلوبها مع الإنجليز .

أما الحزب الوطنى أى حزب مصطفى كامل وفريد فقد كان الرأى العام فى تلك الأوقات يفهم أنه يسعـى فى إخراج الإنجليز بـلا قيد ولا شرط على أن تبقى السيادة الـرمزية للسلطنـة العثمانية وكان يشـايع مصطفى كامـل جميع الشبان المثقفين مـن تعلم منهم فى مدارس مصر أو فى معـاهد أوروبا .

وكان « محمد على علوبة » من أنصار الحزب الوطنى فى حياة مصطفى كامل واندمج فى الحزب بعد أن تـولى محمد فريـد رياسته وعلى صفحـة ٧ من مـذكراته يسجـل محمد فريـد سنة ١٩٠٩ : سافـرت فى يوليو مـع محمود بك حسيب ومحمـود بك محرم ، ومحمد على بـك المحامى بـأسيوط ، وعبد السلام ذهنى المحامى بالمنيا ، واجتمعنا هناك بالوردانى وانضـم إلينا على بك علوى الجزار من حزب الأمة مع محمد بك حسيب وكلاهما من أعداء إبراهيم الوردانى ولما وصلنا الأستانة قابلنا الكثير من المصريين وأعضاء نادى الأحرار من الفرس والأتراك وغيرهم .

وفى ينايـر ١٩١٤ افتتحت الجمعيـة التشريعية وكـان « أحمد مظلوم » رئيسـا وعينت الحكـومة «عـدلى يكن » وكيـلا وانتخب الأعضـاء « سعد زغلـول » وكيـلا أيضا وكـان سعد زغلـول يوقـع مكاتبـاته بصفته (وكيـل الجمعية التشريعية المنتخـب) ونجد محمد على علـوبة عضوا بـالجمعية التشريعية عن بندر أسيوط وتزعم سعد فى الجمعية المعارضة للإنجليز وللخديو .

وتوالـت الأحداث . قـامت الحرب العـالمية الأولى فى أول أغسطـس ١٩١٤ وعطل الإنجليـز أعمال الجمعية فى يونيو بسبب المعارضة . وأعلنوا الحماية على مصر ومنعوا الخديو عباس من العودة إلى مصر وخلعوه فى ديسمبر وعينـوا حسين كامـل سلطانـا على مصر . . وهكذا حتـى نصل إلى وقائع نوفمبر ١٩١٨ وتكوين الوفد . .

أى قـدر هذا ، منـذ اللحظـة الأولى لاشتراك علوبـة فى الـوفد المصرى إلى اللحظـة الأخيرة فى حياتـه وهو خصـم لدود لسعـد زغلول . . وعـدو شرس للوفـد المصرى . عبد العـزيز فهمـى ، وإسماعيل صدقـى ، وأحمد لطفى السيد ، وإبراهيـم الهلباوى فى مذاكراتهم وأوراقهـم سجلوا أن سعد زغلول كـان يسعى إلى تكوين هيئة لتحمـل عبء الجهاد فور انتهـاء الحرب العالمية الأولى ،

وكانـت الاجتماعات تعقد بشكل سرى فى عـزبة سعد باشـا وفى أماكن أخرى وحـرص سعد على الكتمان فى تحركه السيـاسى فى تلك الفترة إلى درجـة أنه لجأ إلى التمويـه مع « على ماهـر ومصطفى النحاس » عنـدما قابـلاه وطلبا منه أن يقـود الجهود للمطالبـة بحقوق البلاد . . مما اضطرهما إلى مقابلـة عبد العزيز فهمـى ليتوسط لـدى سعد وابتسم « عبـد العزيز » وطمأنهما وطمـأن الشباب الآخرين إلى أن سعد باشا يقوم بدوره فعلا ولكنه يتوخى الكتمان فى تحركاته .

ويبـدو أن أسلوب الكتمان هـذا كان سببـا فى جفـوة مبكرة بين « سعـد زغلول » و«محمـد على علوبـة » ، ففى ٨ نـوفمبر ١٩١٨ قابل « علـوبة » سعـد باشا وتحدث معـه فى تكويـن (جمعية) تسعى لتحقيق مـاتصبو إليه البلاد وكان حديـث سعد حديثا عاما غير محدد ، وقـال له إن بعض الأصدقاء (دون أن يذكر الأسماء) فكروا فى هذا الأمر ، وأخذ يتداول معهم فيما ينبغى أن يعمل ، وعند اتفـاقهم على الفكـرة سوف يخبره بـذلك . هـذا بينما سعد وصحبـه كانـوا قد انتهـوا إلى كل التفـاصيل وتـم تشكيـل المجموعـة الأولى أو الطبقـة الأولى للوفـد مـن « سعد زغلـول » ، وعلى شعراوى ، وعبـد العزيز فهمـى ومحمد محمود ، وأحمد لطفى السيـد ، وعبد اللطيف المكبـاتى ، ومحمد على علوبة » وفى يوم ١٢ نوفمبر اتصل سعد بالتليفون بعلوبة فى العاشرة من صباح يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ دون أن يذكر له أية أسماء ودون أن يذكر له أية تفاصيل وثبت أن اتصالا كان قد تم مع المعتمد البريطـانى يوم ١١ نوفمبر لتحـديد موعد للمقـابلة وتحدد الموعد الساعـة ١١ يوم ١٣ نوفمبر وذهب علـوبة إلى منزل سعد باشـا فى الموعد المحدد وفوجئ بـالأعضاء الستة وأخبروه أنهم أصبحوا (هيئـة) تسعى لتحقيق مطـالب البلاد ، وأن سعد زغلـول وعلى شعراوى وعبد العـزيز فهمى فى طريقهـم لمقابلة المعتمد البريطـانى وعليه ـ أى على علـوبة ـ أن ينتظر مـع بقية الأعضاء لحين رجوع المندوبين الثلاثة .

ومنذ تلك اللحظـة ومحمد على علوبة يضمر العـداء لسعد زغلول وتحول هذا العـداء لكراهية للوفد الذى سار تحت لـواء سعد . . فالخصومة تتضح فى وصف علوبة لمقـابلة (الوفد) للمعتمد البريطانى . فقـد حاول دائما أن يلقى الظلال على موقـف سعد فى تلك المقابلة التـاريخية ، وثمة ملحوظة هامة وهى أن « محمد على علوبة » عندما كتب عن المجموعة الأولى للوفد أغفل ذكر اسم «عبد اللطيـف المكباتى » عضـو الجمعية التشريعية عـن الدقهلية فى حين أن المصـادر الموثوق بها تذكر المكباتى ضمن المجموعة الأولى وإن كانت بعض المصادر تقصر المجموعة الأولى على خمسة هم « سعد زغلول ، وعلى شعـراوى ، وعبد العزيز فهمى ، ومحمد محمـود ، وأحمد لطفى السيد » دون ذكر المكباتى وعلوبة .

فى أوروبا

وكان علوبـة ضمن أعضاء الوفـد الذى سافر مـن بورسعيد يوم ١١ أبـريل ١٩١٩ إلى أوروبا ومنذ اللحظة الأولى لوجود الوفد فى أوروبا (أبريل ١٩١٩) إلى رجوع غالبية الوفد إلى مصر (مارس ١٩٢١) ومحمد على علوبة يقف فى الجناح المعارض لسعد ، وقد استخدم وضعه كأمين لصندوق الوفـد لعرقلة تحركات سعـد كرئيس للـوفد . تولى علـوبة أمانة صنـدوق الوفد بعـد أن تنحى على شعراوى فى نـوفمبر ١٩١٩ على أن يرسل مصروفـات الوفـد فى أوربا من مصر ، اضطـر سعد أن يأمره بأن يتخلى عن أمانة الصندوق إلى واصف بطرس غالى . .

أما عبـد اللطيف المكباتـى ، فقد كان ضمـن أعضاء الوفـد فى أوربا وكانـت غالبية مـواقفه معارضة أيضا لسعد زغلول . وفى حديث علوبـة عن (أعمال الوفد فى أوروبا) ذكر لأول مرة عبارة (مؤسسـو الوفد السبعـة) مما يؤكـد ان المؤسسين كانوا سبعـة على خلاف ماذكـر علوبة فى بـداية مذكراته ، وعلى خلاف ما ذكرت بعض المصادر أنهم كانوا خمسة .

عارض « علـوبة » سعـد زغلول وانحاز لعـدلى ، ولم يستطع أن يخفى هـذا العداء حتـى وهو يكتب ذكريـاته عام ١٩٥٤ وبعد أن رحل عـدلى وسعد وكثيرون من الصحاب . . فعنـدما تكلم عن عدلى ومفـاوضاته وتقديم استقـالته فى ٨ ديسمبر ١٩٢١ يقول علوبة بـالحرف الواحد : (فى هذا الوقـت وسعد دائب على الشغب ، وأنصاره يتظـاهرون ويسبون ويخربون ، أمـرت السلطات العسكرية «سعد» بأن يمتنع عن الاشتغال بالسياسة ، ولما لم ينفذ سعد هذا الأمر قبضت السلطة الانجليزية عليه وعلى بعض أنصاره فى ٢٢ ديسمبر ١٩٢١ ونقلتهم إلى سيشل) .

وانصافـا لعدلى يكـن فى هذا الموقـف بالـذات ، بعد أن تقـدم باستقـالته وأدرك أن الاتجاه إلى اعتقال سعد صمم على الاستقالة حتى لايعتقـل سعد فى ظل رئاسته للوزارة ، وأجل « السلطان » قبول الاستقالة إلى مـا بعد اعتقال سعد ، فى ٢٤ ديسمبر . . وهكذا كان « علـوبة » يرى فى كفاح سعد نوعا من الشغب ، وانتقل إلى الجبهة التـى شكلت حزب الأحرار الدستوريين فى ٣٠ أكتوبر ١٩٢٢ واختير سكرتيرا للحزب .

ما بعـد الوفـد

وفى الطريق إلى الانشقاق الكبير فى الوفد والذى بدأ أثناء المفاوضات فى أوروبا تم تشكيل وزارة عدلى يكن فى مارس ١٩٢١ وفشلت مفاوضاته مع الانجليز واعتقل سعد للمرة الثانية فى ديسمبر ١٩٢١ . صدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ من دار الحماية والذى رفضه الحزب الوطنى والوفد وقبله عدلى يكن والجناح المعارض لسعد زغلول داخـل الوفد على اعتبار أن التصريح يعلن (مصر دولة

مستقلة ذات سيادة) وسعى « عبد الخالق ثروت » رئيس الوزراء إلى تشكيل لجنة لوضع الدستور فى أبريل ١٩٢٢ عارضها الوفد والحزب الوطنى واختير علوبة ضمن أعضائها .

ومهما يكن من أمر ، فإن حزب الأحرار الدستوريين بعد إعلان قيامه فى أكتوبر ١٩٢٢ شارك فى وزارة « أحمد زيور » الثانية (١٣ مارس ١٩٢٥ ـــ ٧ يونيو ١٩٢٦) ووزارة عدلى يكن الثانية ٧ يونيو ١٩٢٦ ـــ ٢١ أبريل ١٩٢٧) ووزارة عبد الخالق ثروت الثانية من (٢٥ أبريل ١٩٢٧ ـ ١٦ مارس ١٩٢٨) وشارك فى وزارة مصطفى النحاس الأولى (١٦ مارس ـ ٢٥ يونيو ١٩٢٨) وشكل محمد محمود وزارته الأولى (٢٥ يونيو ١٩٢٨ ـ ٢ أكتوبر ١٩٢٩) فى كل هذه الوزارات التى شارك فيها أو شكلها الأحرار الدستوريون نجد اسم « محمد على بك » . فى وزارة زيور الثانية على الرغم من أنه كان سكرتيرا لحزب الأحرار . وقد أعلن استقالته من سكرتارية الحزب رسميا سنة ١٩٣٤ ثم يعود اسمه وزيرا للمعارف العمومية فى وزارة على ماهر الأولى » (٣٠ يناير ـــ ٩ مايو ١٩٣٦) ووزيرا للشئونه البرلمانية فى وزارة على ماهر الثانية (١٨ أغسطس ١٩٣٩ ـــ ٢٧ يونيو ١٩٤٠) واشترك فى وزارة محمود فهمى النقراشى الثانية (٩ ديسمبر ١٩٤٦ ـــ ٣ مارس ١٩٣٧) . . والمعروف أن الوزارة استمرت إلى وقت اغتيال النقراشى فى ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ ، ولكن علوبة باشا استقال فى ٣ مارس ١٩٤٧ لأن اسمه أدرج وزيرا للأوقاف دون علمه .

على أية حال فإن محمد على علوبة بعد عام ١٩٣٤ واستقالته من سكرتارية حزب الأحرار الدستوريين يكون قد ابتعد عن عضوية الأحزاب رسميا وإن ظل صديقا للأحرار الدستوريين ، وعدوا للوفد والوفديين .

ولعل التحرر من الإغراق فى المشكلات الحزبية والقضايا المحلية أتاح للرجل أن يوجه طاقاته فى القضايا الاجتماعية والعربية والإسلامية ، وهو الوجه الذى عرف به فى نهاية الأمر ، بل إنه الوجه الذى بقى منه للتاريخ .

فهو عندما تولى وزارة المعارف عرض على الملك فؤاد ضرورة ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية . وسنة ١٩٣٦ عرض على مجلس الشيوخ مشروعا لتنظيم (تعدد الزوجات) بما يتفق مع الدين وتستلزمه التطورات الاجتماعية وكان مشروعه ينص على (إن الرجل إذا أراد أن يتزوج بثانية ، وجب عليه عرض الأمر على قاض مختص يبحث الضرورة التى تقضى السماح بعقد الزواج) . وقدم مشروعا بتقييد حق الطلاق تقييدا يتفق مع قواعد الشريعة الإسلامية .

وكان « محمد على علوبة » أول سفير لمصر فى الباكستان أواخر سنة ١٩٤٨ ، وعمل على نشر اللغة العربية وتقوية الروابط بين مصر والباكستان .

ويسجل لعلوبة اهتمامه بالمسألة الفلسطينية وله كتاب (فلسطين والضمير الإنسانى) نشر بعد سنة ١٩٦٤ (وكان قد توفى فى ٢٥ مارس ١٩٥٦) واهتمام علوبة بالقضايا العربية والإسلامية قديم يعود إلى عام ١٩٢٩ حيث اهتم بقضية البراق ، وأصبح عضوا مؤسسا للجنة المؤتمر الإسلامى وسافر إلى القدس مع أحمد زكى شيخ العروبة ، وعبد الحميد سعيد للدفاع عن ملكية العرب لحائط البراق وكان عضوا باللجنة التى شكلتها عصبة الأمم لتحقيق النزاع .

وإذا كان محمد على علوبة قد تخلى منذ عام ١٩٣٤ عن الاطار الحزبى فى سلوكه وفى مواقفه فانه لجأ إلى الإسلام يستمد منه أفكاره الجديدة سواء فى المشكلات الاجتماعية كالطلاق وتعدد الزوجات ، أو فى الأمور السياسية كالديمقراطية ، وبسط رأيه فى كتابه (الإسلام والديمقراطية) ودعوته إلى ديمقراطية إنسانية . وفى الوقت ذاته حمل « علوبة » على الماسونية وقال : إنها وراء ثورات فرنسا وأحداث تركيا ١٩٠٨ ، والثورة السوفيتية ١٩١٧ ، وأحداث أسبانيا ١٩٣٦ ، ووراء الحركة الصهيونية ، وأطماعها فى فلسطين . وفى كتابه (مبادئ فى السياسة المصرية) الذى أصدره عام ١٩٤٢ ينادى بـ (كتلة عربية) على أساس أن البلاد العربية تتكلم لغة عربية واحدة وتربط بينها ثقافة واحدة . ويدين غالبيتهم بالدين الإسلامى . ونادى (بكتلة عربية) مع احتفاظ كل دولة عربية بسيادتها واستقلالها ، لقد بدأنا معه وهو مجرد عضو بأحد الأحزاب المصرية ، وانتهينا معه وهو مفكر مصرى عربى إسلامى .

الأسانيد :

١ ـ طارق البشرى . . « الحركة السياسية فى مصر » .
٢ ـ ماريوس ديب . . « الوفد وخصومه ترجمة عبد السلام رضوان » .
٣ ـ محمد على علوبة . . « ذكريات اجتماعية وسياسية » .
٤ ـ محمد فريد . . « المذكرات » .
٥ ـ محمد كامل سليم . . « صراع سعد فى أوروبا » .

الشيخ محمد أبو زهـرة



هـذا رجل شجـاع . . جهر بما يـرى ، وبما يعتقد أمـام النـاس وأمام السلطـان ، ليس مـن الضرورى ان تتفق معه فى كل ما قال وليس مـن الضرورى أن تختلف معه فى كل ما قال ، ولكنك فى الحالين تجد فيه رجلا شجاعا ، له وجه واحد ، يلقـى به البشر ويلقى به السلطان ، ويلقى به ربه .

كانت له آراء فى قضايا الشورى ، والربا ، والحكم بالطاعة ، وغيرها وغيرها . . وفى حدود ما يعتقد أنه الصواب ، قال رأيه دون مواربه .

كـانـت له أفكـار حـول إصـلاح الأزهـر وقـوانين الأسرة ، والأحوال الشخصيـة ، وغيرهـا ، وغيرها . . وفى ضوء ما يرى أنه حق أطلق صيحاته بها رأى .

كانت له مواقف مع سعد زغلول ، ومصطفـى النحاس ، ومحمد نجيب . . ثم مواقف أخرى من جمال عبـد الناصر ، والميثـاق ، والاشتراكية والشيـوعية . . وغير هيـاب ولا وجل أعلـن هذه المواقف . .

كان شجـاعا ، وكان أستـاذا . . ورحل وترك كثيرين تتلمـذوا عليه وصاحبـوه فى جهاده . . الداعية الإسلامـى الشيخ « محمد الغزالى» ووزير الإعلام السابق الـدكتور « أحمد كمال أبو المجد » وأستاذ فلسفـة القانون الرومـانى « الدكتور السيـد بدر » ووزير الأوقـاف الأسبق « الدكتور زكـريا البرى » وأمين عام اتحاد الإذاعات العربيـة السابق « صلاح عبد القادر » الذى كـان قريبًا إلى قلبه والشيـخ الدكتـور « أحمد الشربـاصى » والـدكتور « عبـد الـرحمن الصابـونـى » ، ووزير الشئـون الاجتماعية الأسبق ، الأستـاذ الدكتور «أحمد خليفة » والكـاتب الإسلامى المستشـار « عبد الحليم الجندى » والمحـامى المعروف الأستاذ « عبـد الحليم رمضان » والأستاذ الـدكتور « مأمون سـلامة »

والكاتب الإسلامى « محمد علم الدين » والشيخ « صلاح أبو اسماعيل » ووزير التربية والتعليم الأسبق السياسى المعروف « الدكتور محمد حلمى مراد » والكاتب الإسلامى الكبير « الدكتور محمد كامل البنا » والكاتب الإسلامى الكبير الشهير « على عبد العظيم » والأستاذ الشيخ « يوسف البدرى » ووكيل وزارةالعمل السابق والكاتب الكبير «عبد المغنى سعيد » وغيرهم ، وغيرهم ، ثم تلميذه الوفى الصحفى بالجامعة العربية « أبو بكر عبد الرازق » . وإذا طالعنا كتابات هؤلاء عن أستاذهم الكبير لوجدناهم جميعا يتفقون على أنه كان « أستاذا شجاعا » وإذا طالعنا سيرة هؤلاء التلاميذ لوجدنا لدى كل واحد منهم نوعا معينا من « الشجاعة » سواء فى الرأى أو الموقف أو السلوك أو العمل .

ستائر الكتمان

ولأنه كان شجاعا ، فقدأخلص الحاكم النصيحة لأن (صاحب الرأى المخالف يأتى للحاكم بجديد ، والموافق يأتيه بما عنده ويرجع إليه صداه) ولكن الحاكم لم يكن يريد سوى رجع الصدى فأصدر قرارا يمنعه من الكتابة ومن الفتيا .

وهاجمته أقلام بأقسى هجوم . وجزع الشيخ « محمد الغزالى » وهو يرى (العلماء الراسخين يحيون مستوحشين ويتركون الدنيا وما هى إلا أيام حتى يهال عليهم وعلى ذكراهم التراب . . وتبعت جنائز بعض العلماء فهالتنى قلة المشيعين . . على حين كان قطعان من الدهماء تتبع جنائز المجان والمغنين وبعد رحيل « الشيخ محمد أبو زهرة » واجه اسمه مؤامرة الغمط والتجاهل وواجهت أعماله وأفكاره مؤامرات الصمت المتعمد . .

وتقدم أصدقاؤه وتلاميذه فى وفاء نادر يمزقون ستائر الكتمان ، ويتصدون لمؤامرة الصمت والغمط والتجاهل معلنين أن (الرجل الذى رمق بازدراء الساسة المستبدين ، وأدار وجهه عنهم مستغنيا متأبيا ينبغى أن يكون أسوة حسنة لعلماء هذا العصر) .

وكان الذى قام به تلاميذه هو عمل جدير بالتسجيل لأنه يكشف عن الجوانب المختلفة للشيخ ، وجدير بنا هنا أن نسجل قليلا من كثير مما شهد به علماء العصر ومفكروه . .

* قال « الشيخ أحمد حسن الباقورى » . .

(مع اختلافى فى الرأى مع الإمام «أبو» زهرة حيث ان لكل منا منهجه فى الحياة . . إلا أننى وأنا وزير للأوقاف ، عندما استشكل على موضوع فقهى ، واحتجت فيه إلى الفتوى لم الجأ إلا للإمام «أبو» زهرة . وعلى الفور أجاب ـ ومن الذاكرة ـ لنا على الفتوى ، ذاكرا المصادر التى استند إليها ، وبيان أوجه الاختلاف بالإضافة إلى تأصيل كل ما تذكره وبحق كان العلم يتدفق منه) .

* قال الدكتور محمد كامل البنا . .

(اختلفت معه اختلافا علميا شديـدا . . وبعد هذا الخلاف الحاد حسبت أن الشيخ سيكون فى نفسه شيء من ناحيتى ولكن كان لـه قلب كقلب الطفل البرىء الذى لايحمل ضغينة لأحد ، وما ان تلاقينا حتى كنا كأوفى صديقين) .

* قال الدكتور أحمد خليفة . .

(أنا أشهـد بالصدق وبشعور كـامل المسئولية ، أن صفـات الإمام « أبو زهرة » كلهـا صفات رفيعة ولم أكـن لاتردد لحظة فى أن أذكـر أو أردد شيئا يخالف ذلك . إن أهـم صفاته كـانت الجرأة النادرة . . كان رحمة الله عليه جريئا مقداما فى آرائه ، ومواقفه وفى قوله الحق) .

* قال : الدكتور حلمى مراد . .

(من خلال لقاءاتى العلمية معه ، واستماعى لبعـض محاضراته العامة ، ومطالعاتى ، لمعظم مؤلفاته وبحوثـه ، انطبع فى نفسى أن شيخنا الأستاذ «أبو» زهرة يمتاز بـالعلم الغزير والقدرة على التعبير والإيمان العميق بكل ما يقول) . .

والأقوال كثيرة ، والشهادات عديدة ، من تلاميذه ومعاصريه ، الذين اتفقوا أو اختلفوا معه ، الذين أيـدوه أو عارضوه . . ولكن استـوقفتنا كلمة (الدكتـور عبد المنعم خزبـك) عضو مجلس الشعب لأكثر من مرة . . قال :

(. . فى جلسـة اللجنة المركـزية لـلاتحاد الاشتراكـى برئاسـة « عبـد النـاصر » حـدث توجيـه للمسئولين بألايسمح للشيخ «أبو» زهرة بالاستمرار فى نقده الذى كان يؤثر فى الجماهير باعتباره من أكبر علمائنا الشجعـان الصادقين الذيـن يعتد بهم وبرأيهم . . وباعتبـارهم لاينشدون إلا صـالح البـلاد ، وصالـح الإسـلام ولا يهمـه فى هذا السبيـل مـا يحدث مـن غضب مسئـول أو رضـا أى إنسان . .) .

هكذا شهد د . عبد المنعـم خزبك وقد كان عضوا بارزا فى اللجنة المركـزية للاتحاد الاشتراكى وقد كان للشيـخ موقف معروف من الشيوعيـة ، وقد رأى فيما أشار إليه الميثاق خاصـا بالاشتراكية العلمية حين جاء فيـه . . (إن الاشتراكية العلمية ، هى الصيغة الملائمـة لايجاد المنهج الصحيح للتقـدم ، وإن أى منهاج آخـر لايستطيع بـالقطع أن يحقـق التقدم المنشـود) رأى الشيخ أن هـذا الكلام يقصـد به الشيـوعية وأوضح ان تسرب الشيـوعية إلى بعـض الشباب فى مصر لا يـرجع إلى سنة ١٩٦٠ أو سنـة ١٩٦١ بل إنـه أعمق مـن ذلك ففى الماضـى أخذت الشيـوعية تغـزو نفوس الشباب المصرى عقب الحرب العالمية الثانية .

وقد كانت البوادر لها قد بدأت عقب الحرب العالمية الأولى ، وكان الانجليز حريصين على أن يتهموا كل حركة تمرد عليهم بأنها شيوعية حتى إنهم اتهموا سعد زغلول وثورة ١٩١٩ بأن لهما صلة بالشيوعية . ولكن سعدا قال إنه رجل سياسى لايعنى بالمذاهب الاجتماعية . .

وقع الخلاف الحاد إذن بين الشيخ وبين عبد الناصر حول ما ذهب إليه الميثاق فى شأن الاشتراكية العلمية ورأى الشيخ فيها (المبادئ الشيوعية) . . وكان خلاف آخر قد وقع حول مشروع القانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١ الخاص بإعادة تنظيم الأزهر والهيئات التابعة له ، وقال الشيخ إنه ليس ضد أى إصلاح ولكن الأزهر صانع الثوار والثورات هل من المنطق أن يدبر أمره فى ليلة واحدة ؟ وسرد عددا من عهود الإصلاح ، وأشار إلى عهد الإصلاح الذى ابتدأه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وهو يقضى بأن يبث الأفكار فى الأزهر وان يوجه المسلمين إلى ما كان عليه السلف الصالح ، وأشار إلى الإصلاح النظامى سنة ١٩١١ وما اقترحه أحمد فتحى زغلول من إنشاء هيئة كبار العلماء ، وإدخال دروس الرياضة والجغرافيا ولكن بكميات قليلة ، وأشار إلى إنشاء مدرسة القضاء الشرعى على يدى سعد زغلول ، ثم أرسى الشيخ مقولته وهى أن كل إصلاح للأزهر يجب أن يكون مشتقا من رسالته ومن ثم رأى أن يقوم الأزهر بتثقيف الأطباء والمهندسين بالثقافة الدينية ، واقترح أن يلتحق الحاصلون على المؤهلات العليا من الجامعات وغيرها بالأزهر ، وتوضع لهم مناهج خاصة لتثقيفهم دينيا ، ولم ير إنشاء كليات للطب والهندسة والعلوم .

وصدرت قرارات مختلفة بحرمانه من التدريس فى الجامعة ، وإلقاء الأحاديث العامة وأوصدت أمامه أبواب التليفزيون والإذاعة والصحف .

وانتهى بهم الأمر بأن قيدوا حريته فى بيته وعرفوا أن له تقديرا لاحدود له لسعد زغلول تقديرا لم ينكره الشيخ بل كتبه وجهر به . . ولما جاءت ثورة ١٩١٩ أثار إعجابى الشديد الذى لاحد له ولا حدود سعد زغلول لأنه اقترنت سمعته عندى بوقوفه فى وجه الخديو . وانتقل هذا الحب إلى مصطفى النحاس وكان يكبر فيه نزاهته وتمسكه بقواعد الدين . وفى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ استولى الضباط الأحرار على السلطة (ويعلم كل قارئ أن فرحتى ـ الكلام للإمام ـ ما كانت لتحد يوم عزل فاروق على يد زعيم تلك الثورة اللواء محمد نجيب الوطنى بحق وذهبت يومها إلى قيادة الثورة وألقيت فيها كلمة باسم الجامعيين أشرت فيها إلى مرحلة من تاريخنا وتطوره فى مقاومة الاستعمار والقصر . . وظننت أن العدل قد تحقق . . إلى أن حدثت المفاجأة المذهلة وتغير الوضع تماما وانتصرت الأهواء والنزعات الشخصية وانقلبت الثورة التى باركناها بقيادة محمد نجيب إلى انقلاب عسكرى بقيادة طاغية جديد اذاق البلاد أقسى ألوان الذل والهوان) .

وضحت الصورة الآن أن الخلاف بينه وبين عبد الناصر ليس مجرد خلاف حول الاشتراكية العلمية أو حول الشيوعية أو حول قانون تنظيم الأزهر أو حول تحديد النسل أو غير ذلك وإنما أيضا لأن للشيخ تاريخا فى حب سعد زغلول ومصطفى النحاس ، ثم صداقة شخصية قوية مع اللواء محمد نجيب مع صفات شخصية لا ترضى الحاكم وربما لا ترضى غير الحاكم . . اتصف بصراحته وغضبه لما يعتقد إنه الحق واعتزاز بكرامته بلا حدود ، ورفضه للزلفى وكراهته للملق . . حدث أن شارك فى مناقشة رسالة دكتوراه فى جامعة الأزهر للمرحوم الدكتور حسن صبرى الخولى عن المسألة الفلسطينية وبصراحة الشيخ المعهودة فيه قال : إن الرسالة عبارة عن بعض التقارير الخاصة برئاسة الجمهورية ، وإن الطالب لم يكلف نفسه حتى بجهد ترتيب الصفحات أو حتى إصلاح الأخطاء اللغوية الفادحة ، وهمس أحدهم فى أذن الشيخ بأن الطالب هو الممثل الشخصى لرئيس الجمهورية فصاح أبو زهرة : (متحدث رسمى . . ممثل شخصى تلك مسميات فى مكتب رئيس الجمهورية لادخل لنا بها) . .

النشأة والتكوين

فى مدينة صغيرة ، لها تاريخ قديم ، فى دلتا النيل ، فى المحلة الكبرى ولد « محمد أبو زهرة » فى ٢٩ مارس ١٨٩٨م (١٣١٦هـ) ، دخل الكتاب والمدرسة الأولية ، وحفظ القرآن الكريم ، وتعلم مبادئ العلوم العامة ، والتحق بالجامع الأحمدى فى طنطا سنة ١٩١٣ ، وسنة ١٩١٦ دخل مدرسة القضاء الشرعى ، وكما حدثنا « أحمد أمين » فإن مدرسة (القضاء الشرعى) كان لها مناخ خاص فقد انشأها « سعد زغلول » على غير رغبة الخديو واختار لها قريبا إلى قلبه ، ابن شقيقته « عاطف بركات » الذى تميز بالنزاهة والوطنية ، ومدرسة القضاء الشرعى هى إحدى أفكار « الأستاذ الإمام محمد عبده » فى اصلاح الأزهر وإصلاح التعليم ، ونفذ سعد زغلول فكرة أستاذه وصديقه (فبراير ١٩٠٧) . ومالبث الخديو والسلطات الإنجليزية أن فصلوا « عاطف بركات » لمواقفه الوطنية ويصور لنا « أحمد أمين » مدى حزن طلاب مدرسة القضاء الشرعى على فصل هذا المدير الذى تميز بالخلق والوطنية . ووضعت بعد ذلك خطة لتصفية مدرسة القضاء الشرعى وأقفلت أبوابها سنة ١٩٢٥ وهو عام تخرج « الشيخ محمد أبو زهرة » فيها واتجه للعمل بالمحاماة . وحصل على دبلوم دار العلوم عام ١٩٢٧ ، وعين مدرسا للشريعة واللغة العربية بتجهيزية دار العلوم ، وبعدها عمل مدرسا بالمدارس الثانوية ، وسنة ١٩٣٣ اشتغل بالتدريس فى كلية أصول الدين . وجمع بين التدريس بكلية الحقوق وكلية أصول الدين من سنة ١٩٣٤ حتى سنة ١٩٤٢ عندما تفرغ للتدريس بالحقوق وأصبح رئيسا لقسم الشريعة حتى أحيل إلى المعاش سنة ١٩٥٨م وبعدها عمل فى معهد الدراسات العربية . . وشارك فى إنشاء معهد الدراسات الإسلامية وقام

بتدريس الشريعة الإسلامية فى كلية المعاملات والإدارة بجامعة الأزهر عامى ٦٣ و١٩٦٤م . وقد ظل متمسكا بكل آرائه الدينية والاجتماعية والسياسية إلى أن رحل فى ١١ أبريل سنة ١٩٧٤ . قضى حياته مقاتلا بالخطابة وبالكتابة وبالمحاضرة فى سبيل أفكاره ومعتقداته ، وإن شاب أسلوبه حدة فى النبرة فذلك لأنه لم يكن يرغب فى منصب أو ينظر إلى جاه .

صدر له ثمانون كتابا آخرها (المعجزة الكبرى) وهو العمل الذى عكف عليه فى الفترة التى حالوا فيها بينه وبين الحياة العامة . وفى المقدمة سجل لنا هذه المحنة التى مرت به ومنع من الكتابة فى حين أنه فى كل كتاباته بمجلة (لواء الإسلام) لم يكن يأخذ أجرا لأن صاحب المجلة « أحمد حمزة باشا » كان مضطهدا من السلطان وقبل أن نطوى الصفحة اتركه يحدث القارئ مباشرة . . (اختلطت حياتى بالحلو والمر ، وكنت فى صدر شبابى أرى مر الحياة حلوا . . ولما أخذت أشدو فى طلب العلم وأنا فى سن المراهقة ، دخلت المعهد الأحمدى فى طنطا ، وكنت أفكر لماذا يوجد الملوك ؟ وبأى حق يستبد الملوك بالناس ؟ ولما دخلت مدرسة القضاء الشرعى . وكان ناظرها العالم ذا الأخلاق عاطف باشا بركات . . شديد التمسك برأيه ، مادام لم يعلم أنه باطل . . ومن هذا المنبع استقيت ما تغذت به نفسى ، وأرضى نزعتى . لقد ابتدأت فقيرا ، فى أسرة بين الفقر والغنى ، ولكن لم ينل الفقر من إحساسى بنفسى واعتزازى بدينى وخلقى . ولما دخلت موظفا فى الحكومة قنعت وكنت مدرسا يقدر بين تلاميذه وأولياء أمورهم وعزفت عزوفا كاملا عن الدروس الخصوصية . لقد كان أقصى ما أتمناه أنى عندما أحال على المعاش يكون معاشى كالمرتب الذى عينت به وهو خمسة عشر جنيها . ولكن الله يسر لى ، فقد أحلت على المعاش وأنا آخذ أربعة وتسعين جنيها . ويسر لى الله من كتب كتبتها . وإنى أقول نصيحتى لأبنائى . . كونوا مع الحق دائما ، أخلصوا لله دائما ، ولا تمالقوا فى حق ، ولاتكونوا على ضعيف أبدا .) . هل نسمع ؟

الأسانيد :

١ ـ أبو بكر عبد الرازق ، أبو زهرة إمام عصره .

٢ ـ (د . أحمد كمال أبو المجد ، د . أحمد خليفة ، الشيخ صلاح أبو إسماعيل ، عبد المغنى سعيد ، على عبد العظيم ، د . زكريا البرى ، د . محمد السيد بدر ، د . محمد كامل البنا ، د . عبد المنعم خزبك . الشيخ يوسف البدرى ، د . يحيى الرخاوى) الإمام أبو زهرة من خلال تلامذته ومعاصريه .

٣ ـ أبو بكر عبد الرازق . . أبو زهرة وقضايا العصر .

٤ ـ أحمد أمين . . حياتى .

٥ ـ محمد أبو زهرة . . (المعجزة الكبرى) المقدمة .

الشيخ محمد عبد اللطيف دراز



حرصت على أن يكون اسمه فى العنوان كما كان يحب أن ينطقه ويكتبه فى حياته ، وكما كان يود أن ينطقه ويكتبه الناس ، كان رد الفعل لديه سريعا لايقبل من صديق المساس به أو شبهة المساس به من قريب أو بعيد ، كان يوما بين أقارب وأصدقاء وجاء «حسين الشافعى » عضو مجلس قيادة الثورة وألقى التحية على الشيخ « أهلا بالشيخ عبد اللطيف » ورد الشيخ التحية على «حسين الشافعى باسم أبيه « محمود » وقال لمن حوله . . « حيانى باسم أبى فكان رد التحية باسم أبيه ، هذا على حد ما سجله «محمد طلعت عبد العاطى » نائب الأمين العام لمجلس الشعب سابقا فى انبطاعاته التى لم تنشر بعد ، عن خاله « الشيخ محمد عبد اللطيف دراز » والذى تفضل وأطلعنى عليها .

كان « الشيخ » ينفر من الوصاية عليه أو توجيه النصيحة له فى مواقفه . . فى فترة الاعتقال الأولى لفؤاد سرج الدين ، بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . . أصر « الشيخ » على زيارة فؤاد باشا فى داره ، ولم يأبه لغضب « جمال عبد الناصر » ولم يأبه للتلويح له بمنصب شيخ الأزهر إذا ما أخلص الانقياد للسلطة الجديدة ، ولم يأبه أن يضار « الشيخ أحمد حسن الباقورى » زوج كريمته ، وكان وزيرا للأوقاف فى ذلك الحين . . لم يأبه بشىء من هذا وذهب لزيارة « فؤاد باشا » وقت ان كان يتجنب تلك الزيارة بعض قدامى الزملاء والاصدقاء .

كان وفيا للمعارف والأصدقاء . . أيام حكم « إسماعيل صدقى » وصلته معلومات بأن «الشيخ محمد عبد اللطيف دراز » يزور صديقه « محمود فهمى النقراشى » وكان « النقراشى » فى تلك الفترة من أقطاب « الوفد » ويعارض حكم صدقى معارضة عنيدة ، وطلب « إسماعيل صدقى » « الشيخ محمد عبد اللطيف دراز » فذهب إليه بصحبة « الشيخ محمود شلتوت » وعاتب

«إسماعيل صدقى» الشيخ لأنه حسب المعلومات ـ قد زار النقراشى مرة ، ولوح له بترشيحه قاضيا فى المحكمة الشرعية . وقال «الشيخ» الخبر غير صحيح يادولة الباشا وطرب إسماعيل صدقى لأن الشيخ وهو من قادة الأزهر فى ثورة ١٩١٩ قد أنكر زياراته للنقراشى ، ولأن التلويح بالمنصب قد أثر فى عزيمة هذا الشيخ الثائر . . ولكن «الشيخ» أردف قائلا . لم يحدث يادولة الباشا أن زرت «النقراشى» مرة واحدة . . لقد زرته عدة مرات ، وواجب الوفاء أن أزور صديقى وهو بعيد عن السلطة . . وانصرف «الشيخ» ورفض العرض بأن يكون قاضيا فى المحاكم الشرعية.

بعد ثورة الأزهر

ولم ينس «الشيخ» أن «إسماعيل صدقى» هذا كان قد استهل حكمه بفصله وفصل واحد وسبعين عالما وشيخا من الأزهر فى مقدمتهم «الشيخ عبد الجليل عيسى والشيخ محمود شلتوت ، والشيخ إبراهيم اللقانى ، والشيخ على سرور الزنكلونى . . » . . ومع بداية وزارة «توفيق نسيم» ـ ١٤ نوفمبر ١٩٣٤ بدأ شباب الأزهر حركة تطالب بالإصلاح ، وامتدت الحركة إلى المعاهد الأزهرية فى المدن الأخرى ، وتصاعدت الحركة حتى يناير ١٩٣٥ . . وفى فبراير بلغت الحركة ذروتها وتحدد هدفها فى «عودة المراغى» . . وأطلق زعيم هذه الحركة «الشيخ أحمد حسن الباقورى» صيحته الشهيرة «إما تحت راية المراغى ، وإما إلى القرى تاركين الأزهر للبوم والغربان» وفى ١٨ فبراير ١٩٣٥ أصدر «الشيخ الظواهرى» قرارا بفصل «الشيخ الباقورى ، والشيخ محمد المدنى» وأصدر قرارا بنقل عدد كبير من العلماء منهم : «الشيخ محيى الدين عبد الحميد ، والشيخ عبد اللطيف السبكى» ولكن «الشيخ الظواهرى» اضطر إلى الاستقالة فى ٢٧ إبريل ١٩٣٥ ، وعاد «الشيخ المراغى» شيخا للأزهر وعاد المفصولون والمنقولون، وبقى «الشيخ المراغى» فى منصبه عشر سنوات حتى توفى فى ٢٢ أغسطس ١٩٤٥ .

وقد ظل «الشيخ» مفصولا من الأزهر من عام ١٩٣١ حتى أعيد إلى الخدمة مدرسا بكلية اللغة العربية بعد عودة «المراغى» ١٩٣٥ وفى تلك الفترة حاول «إسماعيل صدقى» أن يلوح له بمنصب القاضى فى المحاكم الشرعية ، وجرت محاولة أخرى من جانب «الأمير محمد على» حيث أرسل فى طلبه يعرض عليه أن يكون إماما للمسجد الذى أقامه الأمير داخل حديقة القصر . . وطلب «الشيخ» أن يكون للمسجد باب على الشارع حتى يؤمه المصلون من أبناء الشعب . . وانصرف «الشيخ» على الرغم من ظروفه المالية .

وعام ١٩٣٦ أصبح وكيلا لمعهد القاهرة الدينى ، فمفتشا للعلوم الشرعية والعربية سنة ١٩٣٧ ، وفى انتخابات أبريل عام ١٩٣٨ التى اجرتها وزارة «محمد محمود» الثانية ، والتى جاءت

فى أعقاب إقالة حكومة مصطفى النحاس » فى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ رشح « الشيخ » نفسه فى بلده « شباس الشهداء » ضمن مرشحى « الهيئة السعدية » والتى انضم إليها لصداقته القوية بالنقراشى باشا ، وتولى التفتيش للوعظ والإرشاد عام ١٩٤١ .

وفى ١٨ فبراير ١٩٤٢ حاول القصر أن يستقطب الأزهر ضد حكومة الوفد فتم اعتقال « الشيخ محمد عبد اللطيف دراز والشيخ أحمد حسن الباقورى ، وكتب « حسن عزت » يصف قدوم «الشيخ » إلى معتقل المنيا فقال : « فى يوم من الأيام جىء بشيخ إلى المعتقل ينبعث من عينيه بريق لم أره إلا فى عينى الفريق عزيز باشا المصرى . . ثم عرفنا إنه فضيلة الشيخ محمد عبد اللطيف دراز» . وخرج من المعتقل بعد فترة قصيرة وأصبح شيخا لمعهد الزقازيق سنة ١٩٤٣ .

وفى أكتوبر ١٩٤٤ عين سكرتيرا عاما للجامع الأزهر والمعاهد الدينية ، وأقيلت حكومة «مصطفى النحاس » وتولى الحكومة «الدكتور أحمد ماهر » .

ونقرأ فى الملحق الأول للجزأين الخامس والسادس من كتاب « تاريخ الحياة النيابية فى مصر » للأستاذ « محمد خليل صبحى » ان « الشيخ محمد عبد اللطيف دراز » المفتش بالمعاهد الدينية فاز بدائرة « شباس الشهداء » فى انتخابات ٩ يناير ١٩٤٥ ، ولكنه استقال فى ١٨ فبراير سنة ١٩٤٦ لاختياره فى وظيفة بالحكومة ، وانتخب بدلا منه تكميليا بالترشيح فى أول أبريل سنة ١٩٤٦ «عبد السلام الشاذلى » وهو منافسه التقليدى فى الدائرة . ونعود إلى مجلد « الأزهر الشريف فى عيده الألفى » لنقف على ان «الشيخ» قد عين مديرا للجامع الأزهر فى يناير ١٩٤٦ ، واختير عضوا فى المجلس الأعلى للأزهر فى مارس ١٩٤٦ . وقد فضل « الشيخ » موقعه فى الأزهر على موقعه فى مجلس النواب . وقد اختار أن يترك مجلس النواب بعد يومين اثنين من استقالة صديقه « النقراشى باشا » وتولى « إسماعيل صدقى باشا » رئاسة الوزارة .

وقد تميز « الشيخ » أثناء فترة رئاسة « النقراشى » للوزارة بالرأى المستقل والشخصية الحرة ، فقد رأى أن يقف إلى جانب المطالبة بعودة « رشيد عالى الكيلانى » من منفاه إلى بلده « العراق » أو إلى أى بلد عربى ليموت حسب رغبته ويدفن فى بلد إسلامى ، فوقع الشيخ على هذه المذكرة بوصفه عضوا فى مجلس النواب المصرى ، وجعل عددا من النواب الآخرين يوقعون معه . ولكن صديقه «النقراشى » خشى أن يغضب ملك العراق ، وأن يشكو بدوره إلى « الملك فاروق » فهرع إلى «الشيخ » يعاتبه وكان عنيفا فى العتاب . . فما كان من « الشيخ » إلا أن قال لصديقه القديم . . إن العتاب مقبول من النقراشى كصديق ومرفوض من النقراشى رئيس الحكومة . . وظل « الشيخ» على موقفه . . وهكذا كان « الشيخ محمد عبد اللطيف دراز » ابن الأزهر وابن ثورة ١٩١٩ .

الشيخ والوفد

كان « الشيخ » من أبناء الحزب الوطنى « مصطفى كامل ـ محمد فريد » وقد حصل على «العالمية » من الأزهر سنة ١٩١٦ م وعمره ستة وعشرون عاما إذ إنه ولد فى سنة ١٨٩٠م « فى محلة دياى مركز دسوق » واتصل بمصطفى كامل قبل رحيله ١٩٠٨ واتصل بمحمد فريد قبل هجرته إلى أوروبا « ١٩١٢» . وتوثقت علاقته بعد ذلك بأمين الرافعى صاحب جريدة الشعب وجريدة الأخبار .

وقد بدأت حركة تشكيل الوفد برئاسة « سعد زغلول » فى نوفمبر ١٩١٨م ويقول « الشيخ محمد عبد اللطيف دراز » : ـ فى أوائل نوفمبر سنة ١٩١٨ أخذ الناس يتهامسون بأن فريقا من المصريين يزمعون تأليف وفد للمطالبة بحرية البلاد لدى مؤتمر السلام . وتناقل الناس أن « الأمير عمر طوسون » أرسل دعوة إلى نواب البلاد وزعمائها وأصحاب الرأى فيها يدعوهم إلى الاجتماع بمنزله بجزيرة بدران لانتخاب أعضاء الوفد .

ثم فشلت هذه الحركة ونهض « سعد زغلول باشا » على رأس جماعة من إخوانه النواب والأعيان لأداء هذه المهمة الخطيرة . وكانت هناك جماعة من أعضاء الحزب الوطنى المقيمين فى مصر ، اجتمعوا بعد خروجهم من السجن يعدون أنفسهم لمثل هذا الأمر . ووقف كثير من الناس موقف الحيرة والارتباك إزاء هذه الوفود المتعددة والأفكار المتضاربة . ويواصل « الشيخ » كلامه . ولما أردت النجاة بنفسى من ظلام هذه الحيرة خطر ببالى « أمين الرافعى » فتوجهت إليه بداره بالحلمية فقال أمين الرافعى ــ إن من واجبنا أن نفسح المجال أمام كل من يريد أن يخدم بلاده ، وأن نعقد ألوية الزعامة لمن شاء العمل باخلاص » .

وكانت العلاقة بين « سعد زغلول » و « أمين الرافعى » فى تلك الفترة قوية ومتينة ، وكان «أمين » يسمى « سعدا » أبا الأحرار ويعلق عليه آمالا كثيرة فى زعامة المعارضة فى الجمعية التشريعية . ولهذا فعندما بدأ تشكيل « الوفد المصرى » كان أمين الرافعى وعبد الرحمن الرافعى من العناصر القريبة إلى سعد زغلول ، واختيرا فى « اللجنة المركزية و للوفد وبدأ الشعب يوقع على عرائض توكيل « الوفد » بأن ينوب عنه فى المطالبة بحقوقه ، وكان « الشيخ » ضمن عناصر الحزب الوطنى التى عملت فى تلك الفترة تحت رأية الوفد وإن ظلت ترتبط بالحزب الوطنى .

الشيخ والثورة

ليس أجمل مما كتبه « عبد الرحمن فهمى » فى مذكراته : كان الذين يأخذون بظاهر الأمور ،

أثناء الحرب العظمى ، يعتقدون أن الأمة المصرية ، راضية عن الحال التى آل إليها أمرها ، بعد إعلان الحماية عليها عام ١٩١٤ . لكن هذا الاعتقاد خاطئ ، يؤدى إلى عدم فهم الثورة المصرية على حقيقتها ، فلو أن حقيقة الأمور كانت كظاهرها ، لما قامت الثورة فى سنة ١٩١٩ ، أو لأخمدت بعد قيامها ببضعة أيام . . ولم يكن التفكير فى أمر البلاد ومستقبلها مقصورا على فئة أو طائفة دون أخرى ، بل كان هذا التفكير عاما . . وفى الساعة الحادية عشرة ، فى اليوم الثالث عشر، من شهر نوفمبر ١٩١٨ قابل نواب الأمة الثلاثة ، سعد باشا زغلول الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية وعلى باشا شعراوى ، وعبد العزيز فهمى بك العضوان فيها ، « ونجت » المعتمد السامى البريطانى فى دار الحماية .

كانت البداية تتفق والظروف الموضوعية التى تمر بها البلاد ، وكان تفسير « عبد الرحمن فهمى » لهذه البداية فى تكوين الوفد تفسيرا سلبيا ، وبعدها ضم الوفد عددا من أعضاء الحزب الوطنى، وعددا من الأقباط ، وأقبلت الأمة على توقيع التوكيلات للوفد .

وقد حفظت مذكرات عبد الرحمن فهمى برقية « على شعراوى » وكيل الوفد المصرى وخطاباته إلى معتمدى الدول بمصر حول اعتقال « حضرة صاحب المعالى سعد باشا زغلول رئيس الوفد المصرى ، وأصحاب السعادة محمد محمود باشا وإسماعيل صدقى باشا ، وحمد الباسل باشا » فى ٨ مارس ١٩١٩ . ولم تكد تشرق شمس يوم ٩ مارس ١٩١٩ حتى كان نبأ القبض على أعضاء الوفد المصرى قد انتشر فى جميع أنحاء البلاد . . وبدأت الثورة .

وقد سجل التاريخ للأزهر فى هذه الثورة دوره المجيد ، فقد كان مركز الثورة ، وقائد الثورة «سعد زغلول » ابن الأزهر ، قضى فى صحنه خمس سنين ، وتقدم الأزهرى « سعد زغلول » صفوف الوطن وقاد الجموع زعيما للشعب ووكيلا عنه . وفى ثورة ١٩١٩ فتح الأزهر ذراعيه لكل الشعب ، لكل طوائفه ، لكل فئاته ، لكل أعماره . واستقبل المسلمين والأقباط ، وأصعدهم منابره ومآذنه ، وخطب فيه الشيخ والقسيس . . ولاينسى الشعب أبناء الأزهر . . « المشايخ مصطفى القاياتى ، ومحمود أبو العيون وعبد ربه مفتاح ، وعبد الباقى سرور ، وأحمد أمين ، ومحمد عبد اللطيف دراز . . » ولاينسى من القساوسة « مرقص سرجيوس وبولس غبريال » ومهما ينسى الناس لاينسون القمص « سرجيوس » وهو يخرج من كنيسته وقد أحاطت به الحشود حتى يدخل الأزهر ويعتلى منبره ويؤكد للجميع أنه ينسى فى سبيل مصر أنه قبطى .

وقد نفى القمص سرجيوس مع الشيخ القاياتى فى رفح . . واعتقل « الشيخ محمد عبد اللطيف دراز » وغيره من علماء الأزهر ومشايخه .

وطلب الانجليز مـن شيخ الأزهر « الشيخ الإمـام محمد أبو الفضل الجيـزاوى » فى ٢ أبريل أن يغلق أبـواب الأزهر ، أو أن يكون مقصـورا على أوقات الصلاة وحسـب ، فرفض الشيـخ محتجا وبقى هذا الجامع ـ كما كان دائما حصنا للوطن وساحة للجهاد الوطنى .

وتميز « الشيخ محمد عبد اللطيف دراز » برأيه المستقل ، وقال البعض عنه إنه كان ذا «شخصية تصادمية » يدافع عما يعتقد ولم يتردد فى أن يصطدم بمحمود فهمى النقراشى رئيس الوزراء ورئيس الحزب الذى انتمى إليـه الشيخ وكانت النتيجـة ان انفصل عن الهيئة السعـدية وانصرف إلى أعماله بالأزهـر . وعلى الرغـم من أن السلطـة الجديدة بعد ٢٣ يـوليو ١٩٥٢ اصـدرت قرارا فى أكتـوبر ١٩٥٢ بتعيينه هـو والشيخ « محمد نور الحسـن زين العابديـن » وكيلين للجامع الأزهر والمعـاهد الدينية ، إلا أن « الشيخ » لم يتردد فى الرد على « جمال عبد النـاصر » وكان عبد الناصر فى حديث أو خطاب له قد تناول « الأزهريين » بالنقد ولم يرد عليه أحد . . إلى أن كان « الشيخ » يتحدث فى « جمعية الشبـان المسلمين » فدافـع عن الأزهر وعـن علمائه وشيوخـه ، واستنكر أن يتعـرض أحد بالهجوم على الأزهريين ثم استقال « الشيخ » من الخدمة فى يناير ١٩٥٤ .

وفى انتخابـات مجلس الأمة عـام ١٩٥٧ فاز « الشيخ » بعضـوية المجلس عـن دائرة « شباس الشهداء » أيضـا . وفى أكتوبر ١٩٧٧ انتقل إلى رحمة الله « الشيـخ محمد عبد اللطيـف دراز » ابن محلة دياى مركز دسوق ، وابن الأزهر الشريف ، وابن ثورة ١٩١٩ . وفى الاحتفال بالعيد الألفى للأزهر فى يونيه ١٩٨٢ منح اسمه وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى .

الأسـانيد :

١ ـ د . السعدى فرهود وآخرون . . الأزهر الشريف .
٢ ـ صبرى أبو المجد . . أمين الرافعى .
٣ ـ عبد الرحمن فهمى « مذكرات » . .
٤ ـ محمد خليل صبحى . . تاريخ الحياة النيابية فى مصر . « الملحق الأول للجزأين الخامس والسادس » .
٥ ـ محمد طلعت عبد العاطى . . « انطباعات لم تنشر بعد » .

محمد فريد



ظلت العلاقة بين « مصطفى كامل » والخديو « عباس الثانى » مايقرب من ١٢ عاما معروفة مرة ومجهولة مرات ، يرتب أمورها «عبد الرحيم أحمد » الصديق الشخصى لمصطفى كامل والموظف فى الوقت ذاته لدى الخديو . . إلى أن كان عام ١٩٠٤ ورتب الخديو أموره مع سلطات الاحتلال وكف يده عن معاونة « مصطفى كامل» ماليا وفى تلك السنة ، فى ١٣ سبتمبر يكتب «مصطفى كامل» إلى شقيقه « على فهمى كامل » وهو على علاقة بالخديو أيضا ـ (إنى يا أخى قرفت من خدمة هذا الرجل . . ولذلك ترانى مصمما قطعيا على الانفصال عنه نهائيا حتى ولو صرت مكبلا بالديون) . ولكن ما الفائدة ؟ و«مصطفى كامل » نفسه قد أصبح أسير هذه العلاقة وقد ظلت منذ ١٩٠٤ حتى يوم الرحيل بين وصل وانقطاع ، وأصبح « على فهمى كامل » رجل الخديو داخل الحزب الوطنى . . ووقع « محمد فريد » فريسة لهذه العلاقة . وكان هذا أول ميراث ثقيل تركه مصطفى كامل لمحمد فريد .

وثانى أقسام الميراث هو موقف « مصطفى كامل » من الدولة العثمانية والذى تردد بين إعلانه عام ١٨٩٦ (إن الراية العثمانية هى الراية التى يجب ان يلتف حولها المصريون) . وإن استقلال مصر عن الدولة العثمانية ضار ببقاء تلك الدولة ، وبين إعلانه عام ١٩٠٧ (نحن لانود إلا أن نكون قوة محالفة للدولة العلية) . . ولكنها كانت دعوة متأخرة إذ إن قوة جديدة تمثلت فى (حزب الأمة) هى التى رفعت شعار (مصر للمصريين) وعندما تولى « محمد فريد » وتردد موقفه بين الارتباط بالدولة العلية وبين شعار (مصر للمصريين) فقد مصداقيته . . وكان هذا عنصرا جديدا من عناصر (أزمة الحزب الوطنى) .

أما ثالث هذه العناصر فهو الاعتماد الواضح على مناصرة فرنسا للحركة الوطنية المصرية إلى أن

كان موقف فرنسا فى فاشودة سنة ١٨٩٨ ، والاتفاق الودى مع انجلترا سنة ١٩٠٤ ، أخذ «مصطفى كامل » يندد بموقف فرنسا وكتب فى ٣— أبريل سنة ١٩٠٦ إلى « مدام جوليت آدم » يقول : إنى ثائر على السياسة المشئومة التى تنهجها فرنسا ، لأنها تمنعنا من أن نكون لها نافعين) فجاء محمد فريد ليتردد فى موقفه بين الاستعانة بفرنسا وبين الاستعانة بألمانيا .

الصراع حول اللواء

جاء « محمد فريد » رئيسا للحزب الوطنى بعد رحيل مؤسس الحزب وراسم سياسته « مصطفى كامل » ، فى ظل صراع مع «على فهمى كامل » الذى كان يطمع فى رئاسة الحزب بعد وفاة أخيه ، وفى ظل شكوك دفينة لدى محمد فريد إزاء علاقة «مصطفى كامل » بالخديو عباس وبالسلطان عبد الحميد سجلها فى مذكراته (كان رحمه الله يخفى على كل مايختص بالمساعدات المالية التى كان يأخذها سواء من الخديو أو من السلطان عبد الحميد) وبدأ الخلاف بين الشركاء فى جريدة (اللواء) التى صدرت فى (٢ يناير ١٩٠٠) وبدأت عملاقة وبأقلام معروفة وتبنت القضايا الوطنية والاجتماعية . وكان الخديو أبرز الشركاء والذى دفع الأموال بصفة سرية ليقوم عمال الجريدة باضراب عن العمل (مذكرات محمد فريد) .

وكشف هذا الصراع عن علاقات سرية بين مصطفى كامل وبين الخديو سنة ١٩٠٦ أى بعد أن أعلن مصطفى كامل (إنه قرف من خدمة هذا الرجل) ! واضطر « محمد فريد » أن يشرف على صحافة الحزب بنفسه وأن يختار « الشيخ عبد العزيز جاويش» رئيسا لتحرير (اللواء) وكان محمد فريد قد تعرف على « جاويش » فى مؤتمر المستشرقين بمدينة الجزائر سنة ١٩٠٥ وقدمه إلى «مصطفى كامل » سنة ١٩٠٦ وقد أغضب اختيار الجاويش لرئاسة تحرير اللواء « أحمد حلمى » الساعد الأيمن لمصطفى كامل ، والذى كان على خلاف شديد مع « على فهمى كامل » فاستقال من اللواء فور تولى الجاويش أمورها وأصدر مجلة أسبوعية باسم (القطر المصرى) فى يوم ٢٤ أبريل ١٩٠٨ وكان يوما مطيرا شديد المطر . . إلى أن صدر أمر باغلاقها فى يوم مطير أخر هو ٨ يناير ١٩١٠ .

وقد بدأت اللواء قوية من الناحية المالية وظلت تنشر الإعلانات التجارية بدون مقابل خلال الشهر الأول لظهورها (شهر رمضان) وظلت تصل بالمجان لمن يطلبها لمدة أسبوع من يوم ظهورها . ونلحظ من بين الشركاء المؤسسين اسم « قلينى فهمى » ومن بين كتابها « ويصا واصف» مما يدل على أن الحزب الوطنى أيام مصطفى كامل كان يحرص على التعبير عن الأمة باقسامها المختلفة . وتبدل الحال أيام محمد فريد وخاصة أيام رئاسة الجاويش لتحرير اللواء إلى أن صدر فى ٣١ أغسطس ١٩١٢ قرار بتعطيل جريدة اللواء بصفة نهائية .

مصطفى وفـريد

وإذا كان لنا قبل أن نوغل فى الحديث أن ننظر مرة إلى مصطفى وأخرى إلى فريد فإننا نلحظ أن مصطفى كامل حين تفرغ للعمل السياسى كان عمره ١٩ عاما وإذا أخذنا بتقدير « دكتور عاصم الدسوقى » فى دراسته لمذكرات محمد فريد وهو أن « محمد فريد » بدأ العمل السياسى الفعلى سنة ١٩٠٤ يكون فريد فى تلك السنة ٣٨ عاما (ولد سنة ١٨٦٦) .. وهذه مسألة هامة .. مصطفى كامل تفرغ للعمل السياسى وعمره ١٩ عاما ، ومحمد فريد تفرغ للعمل السياسى وعمره ٣٨ عاما .. وليس غريبا فى مجتمع ، كانت نسبة الأمية فيه تتجاوز ٩٠٪ أن يعمل طلابه بقضاياه الوطنية ، وليس غريبا أيضا أن يطلق الدارسون على فكر مصطفى كامل (فكر الطلبة) سنة ١٨٩٠ وعمره (١٦ عاما) أسس (جمعية الطلبة الأدبية) جمع فيها « مصطفى كامل » سبعين من زملائه يتبادلون الخطابة وإلقاء الشعر وسنة ١٨٩٣ يدعو مصطفى كامل زملاءه طلبة الحقوق للاحتفال بعيد جلوس عباس ونراه سنة ١٩٠٥ وراء تكوين (نادى المدارس العليا) والذى رأسه عمر لطفى رائد التعاون فيما بعد ، وبدأ النادى يضم إليه طلاب المدارس العليا . كان الطلبة طليعة واعية بقضايا الوطن وبمستقبله وتجمعوا حول طالب وشاب ثائر مثلهم هو مصطفى كامل ومن الطبيعى أن يكون أسلوبهم فى التعبير هو الخطابة حتى المقالات التى امتلأت بها صحف الحزب الوطنى كانت خطابية فى لهجتها .. واستأثر مصطفى كامل بقلوب وعقول الطلاب والشباب الذين أصبحوا فيما بعد رجال الحزب الوطنى وغيره من الأحزاب ..

وعندما تولى محمد فريد زمام أمور الحزب الوطنى كان عمره (٤٢عاما) وهو أقل اقتدارا وتبصرا من مصطفى كامل ، واضعف تأثيرا على الشباب والطلبة ، وجد نفسه حائرا بين أفكار الشباب الثائرة الحماسية وبين حزب آخر يناوئه ويسحب الأرض من تحت اقدامه له مفكر مثقف ثقافة عصرية هو « أحمد لطفى السيد » وله جريدة التفت حولها عناصر مدرسة التنوير فيما بعد .. كان هذا الحزب هو (حزب الأمة) وحزب آخر هو (حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية) يعلن صراحة أنه يدافع عن « الخديو » وله جريدة قوية تلتف حولها فئات معينة وهى جريدة (المؤيد) .

وفى تقديرنا أن « محمد فريد » نفسه وقع نهبا للأفكار الحماسية السابقة للحزب الوطنى ، وللأفكار العصرية لحزب الأمة ولارتباطات قديمة مع الدولة العلية والخديو ، ولأفكار جديدة وفدت إليه من أوروبا .. ولم يستطع أن يقدم صياغة جديدة للحزب الوطنى ، تضىء له الطريق وتحفظ له وحدته .. فانقسم الحزب إلى أقسام مختلفة .. قسم ذهب ينضم إلى احزاب أخرى وقسم أغرق فى الولاء للدولة العلية ، وقسم يعمل سرا لحساب الخديو .. وقسم لجأ إلى الجمعيات السرية وأعمال الاغتيالات الفردية .. ثم غادر مصر إلى أوروبا فى ٢٧ مارس ١٩١٢ . وظل خارج مصر حتى توفى فى ١٥ نوفمبر ١٩١٩ وعمره ٥٣ عاما (ولد عام ١٨٦٦) .

لماذا ألمانيا ؟

سبق « مصطفى كامل » زميله « محمد فريد » فى الاتصال بألمانيا لتوسيع نطاق النشاطين الدعائى والسياسى . وقد سافر مصطفى إلى ألمانيا فعلا فى يونيه ١٨٩٥ واتصل هناك بعدد من الصحفيين الألمان . ومراسلات مصطفى كامل إلى محمد فريد بداية من ٢١ أكتوبر ١٨٩٦ حتى ٢٣ أغسطس ١٩٠٧ تدور حول أهمية دور ألمانيا فى حل القضية المصرية . وخاصة بعد أن ادرك مصطفى موقف فرنسا السلبى ، وكان يرى ضرورة أن يقوم « الخديو » بدعوة أمبراطور ألمانيا لزيارة مصر . ثم تدور المراسلات حول شكوى مصطفى كامل من المصريين الذين لايفعلون شيئا سوى انتقاد جهوده ، وفى ثنايا المراسلات نجد طلبات دائمة من محمد فريد ليمده بالمال وبالسؤال عن أحوال العائلة ورعاية شئونها بمصر نيابة عن مصطفى كامل بسبب إقامته الكثيرة فى دول أوروبا .

ومهما يكن من أمر فقد غادر « فريد » مصر يوم ٢٧ مارس ووصل الأستانة صباح الأحد ٣١ مارس ١٩١٢ وبدأت خلافات بينه وبين الشيخ « عبد العزيز جاويش » وفى ١٧ يونيه (حضرت عائلتى إلى الأستانة وكانت عيشة هنية بين زوجتى وأولادى) ويوم الثلاثاء ١٦ أغسطس ١٩١٢ سافر من الأستانة إلى باريس وسافر من باريس فى ٥ سبتمبر إلى جنيف ، وبعدها سافر إلى استكهولم وفى ٢٩ سبتمبر سافر إلى برلين . ومن برلين كان دائم التنقل إلى باريس وجنيف وإستكهولم وبروكسل . والمراسلات تصله إلى البنك الألمانى ببرلين توجه له عن طريق أحد شباب الحزب الوطنى المصريين فى برلين وفى الأستانة - فى إحدى مرات وصوله إليها - وقف على ميل «الجاويش » للخديو كل الميل . ويسجل أمام وفاة الشيخ على يوسف فى ٢٥ أكتوبر ١٩١٣ (انهد بموته ركن النفاق والذبذبة . هذا الرجل نشأ فقيرا حقيرا فى بلصفورة) وفى ١٨ فبراير سنة ١٩١٤ سافر إلى (لندن) لحضور مؤتمر الأجناس المضطهدة . وفى انجلترا قابل « حفنى محمود عبد السلام عبد الغفار » .

ومما يذكره فى مذكراته أنه عندما بلغته جهود « سعد زغلول » داخل الجمعية التشريعية (والسعى فى تشكيل حزب معارضة فى الجمعية يكون تحت رئاسة سعد زغلول باشا ، تثبت لهم فى ٣١ من هذا الشهر (يناير ١٩١٤) بأن يجتهدوا فى إدخال سعد باشا اللجنة الإدارية ، وانتخابه وكيلا . . ولو تحقق ذلك لأصبح مركز الحزب مقربا فى الظاهر والباطن) . .

وفى أول أغسطس ١٩١٤ أعلنت الحرب العالمية الأولى وفى ١٠ سبتمبر فى الأستانة تحدث محمد فريد مع سفير ألمانيا حول الحملة المزمع أن تقوم من تركيا إلى مصر وعلى رأسها « الخديو عباس الثانى » وتم إعداد منشور يوزع فى مصر .

وبعد جولة طويلة بين الأستانة وبون وجنيف وباريس وبلجيكا عاد « محمد فريد » إلى برلين

فى ١٨ مايو ١٩١٥ ثم سافر إلى الأستانة وإلى جنيف . . ودفع الألمان إلى « الخديو عباس » أربعة ملايين مارك ليشترى جريدة فى باريس ولينفق بسخاء ويعود «محمد فريد » إلى برلين فى ديسمبر ١٩١٥ وقد اخذت الخلافات تتصاعد بين أعضاء الحزب الوطنى فى أوروبا وزادت تنقلاتهم بين مدن أوروبا سنة ١٩١٦ .

ونلحظ فى مذكرات محمد فريد بداية من شهر مايو ١٩١٦ يأسا واضحا من خلاص مصر على يد (الترك والألمان) ونجد حديثا عن ضيق الترك بمحمد فريد ذاته وميلهم إلى « الجاويش » وحديثا عن تردد الألمان إزاء «محمد فريد » مراعاة لشعور حلفائهم الترك .

وهكذا مضت الأيام بمحمد فريد وصحبه والخديو عباس خارج مصر يأتلفون مرة ويختلفون مرات ينقسمون حول الموقف من الخديو ، ويتفقون حول الموقف من الدولة العلية ، ويفاجأ الجميع فى نوفمر ١٩١٨ باستقالة أمبراطور ألمانيا وولى العهد ويلجان إلى هولنده ، وتركيا توقع الهدنة ويهرب الشيخ عبد العزيز جاويش وعدد من المصريين من الأستانة إلى برلين (وقد أحضر الشيخ معه لى ولكل من أعضاء لجنة الحزب أربعمائة جنيه عثمانى) ثم يفر المصريون من برلين إلى سويسرا .

وفى ٨ ابريل ١٩١٩ يسجل « محمد فريد » فى مذكراته ـ من الأمور التى كانت غير منتظرة ماحصل بمصر وهو قيام ثورة عامة اشتركت فيها الأمة بجميع طبقاتها واتحد فيها الأقباط والمسلمون مطالبين باستقلال مصر التام . . والذى يمكن قوله إن هذه الحركة لم تكن فى الحسبان وإن ما أظهره المصريون من التضامن والاتفاق ما كان أحد ليحلم به) .

والمفاجأة الكبرى التى لم يتوقعها « محمد فريد » وهو خارج مصر ، والتى وقعت بعد أن ترك مصر إلى برلين وباريس وفيشى واستكهولم وجنيف وبرن ولوزان ولوكسمبورج بسبع سنوات كاملة، لم تكن مفاجأة للقوى والقيادات السياسية التى بقيت تكافح داخل مصر ولسعد زغلول بالذات الذى رأى « محمد فريد » أن يضمه وكيلا للحزب الوطنى سنة ١٩١٤ . ولكن المحاولة لم تنجح مع سعد الذى وضحت الرؤية أمامه فى حركة وطنية جديدة تأتلف فيها كل قوى الأمة السياسية ، وكل عناصرها سعيا من أجل (استقلال تام) و(دستور) بينما (الحزب الوطنى) يتخبط إزاء الموقف من الدولة العثمانية ومن الخديو ومن فرنسا ومن ألمانيا. وقد آثر « محمد فريد » أن يكافح فى أوروبا وفى الأستانة فترك مصر فى ٢٧ مارس ١٩١٢ ومعه ومن بعده فعل الشىء نفسه أهم قيادات الحزب الوطنى التى سرعان ما انقسمت فى أوروبا إلى مجموعات متفرقة يجمعها فقط اسم الحزب واسم رئيسه ووجودهم فى الغربة . . مجموعة تعمل مع الأتراك تحت جناح الصدر الأعظم سعيد حليم الذى كان يطمع فى عرش مصر ومجموعة تعمل مع الخديو عباس

وتسعى للمصالحة مع انجلترا ، ومجموعة محمد فريد نفسه والتى ترفع على حياء شعار (مصر للمصريين) ولكن جهودها تضيع بين الولاء للدولة العثمانية ، وبين مهادنة الخديو على فترات متقطعة ، وبين الاستقلال الكامل .

أفكار مترددة

لا أحد ينكر أن « محمد فريد » انفق ثروته كلها على الحزب الوطنى ، ومصطفى كامل ، والعمل السياسى ، ولم يمد يده للسلطان أو الخديو ، إلا مضطرا تحت ضغط الحاجة وهو فى أوروبا . ولاينكر أحد أنه وقف إلى جانب تعليم أبناء الشعب ونادى بافتتاح المدارس الليلية وهذا تمشيا مع خط مصطفى كامل فى الدعوة إلى التعليم . ولكن فى حين دعا « مصطفى كامل » إلى الجامعة الأهلية سنة ١٩٠٤ نجد أن « محمد فريد » فى موقف غير مفهوم يشن هجوما على لجنة الجامعة فى أبريل ١٩٠٨ على صفحات (اللواء) ورد عليه « سعد زغلول ، والشيخ على يوسف وقاسم أمين وتم إبعاد « محمد فريد » عن المشروع بعد أن كان سكرتيرا للجنة الاكتتاب .

وكان لانتعاش الحركة الوطنية على يد مصطفى كامل ومحمد فريد أثر كبير فى تحريك الطبقة العاملة المصرية لممارسة النضال للظفر ببعض المكاسب الاقتصادية . وكان الحزب الوطنى وجريدته اللواء يؤيدان العمال فى مطالبهم ، ويرى الدكتور رءوف عباس فى كتابه (الحركة العمالية فى مصر ١٨٩٩ ـ ١٩٥٢) أن عطف الحزب الوطنى على إرابات العمال جزء من مخطط وضعه الحزب منذ انتقلت رئاسته إلى محمد فريد متأثرا فى ذلك بأفكار حزب العمال البريطانى . ودعا محمد فريد إلى العناية بنقابات العمال . وكان لاتصاله بتجارب البلاد الأوروبية أثره على محمد فريد فى تشجيع الدعوة إلى (نقابات التعاون) وتشجيع عبد الرحمن الرافعى وأحمد لطفى السيد فى هذا السبيل وفى الوقت نفسه يهاجم بعنف شأنه فى ذلك شأن مصطفى كامل دعوة قاسم أمين إلى تحرير المرأة ويرى أن ذلك يؤدى إلى فساد الأخلاق .

نهاية الاسطورة

ومن الملاحظ أن (الحزب الوطنى) الذى تحول اسمه إلى أسطورة تحول اسم مصطفى كامل إلى باعث للحركة الوطنية واسم محمد فريد إلى رمز الاخلاص والوطنية . هذا الحزب فى ظل ظروف موضوعية وتطورات داخلية سرعان ماتدهور وانقسم وأفل نجمه وتحول من حزب للجلاء وللدستور إلى حزب صغير وانتهى به الأمر إلى ارتماء فى أحضان الملك أحمد فؤاد ، والملك فاروق من بعده . . لماذا ؟

قلنا عند حديثنا عن مصطفى كامل إن الحزب فى شكله غير الرسمى نشأ فى أحضان « الخديو عباس الثانى » يمده ويمد صاحبه وصحافته بالمال ويدس رجاله واعوانه بداخله . . وعلى الرغم من أن مصطفى كامل تمرد فى أخريات ايامه على الخديو وعلى الرغم من أن محمد فريد كان أكثر حدة فى التناقض مع الخديو . . إلا أنه كان يعود فى الفترات الحرجة إلى التنسيق معه .

وقلنا إن مصطفى كامل فى أخريات أيامه نادى بالاستقلال لمصر عن الانجليز وتركيا إلا أن محمد فريد لم يبدأ من هذه النقطة وإنما عاد إلى الوراء مغاليا فى الارتباط بالدولة العثمانية وبالجامعة الإسلامية . . وقد تبين فى أخريات أيامه خطأ هذه الفكرة .

وفى الوقت الذى بدأ فيه المجتمع المصرى يتجه إلى صياغة جديدة تتمثل فى استقلال الحركة الوطنية عن الخديو وعن تركيا وعن فرنسا أو ألمانيا وتتمثل فى تجميع قوى الشعب بمختلف فئاته وطوائفه سعيا إلى الاستقلال والدستور كان « محمد فريد » ينقل كفاح الحزب إلى خارج مصر ومعه الفعاليات الرئيسية فينقسم الحزب فى الخارج والداخل إلى مجموعات صغيرة متصارعة وذات اتجاهات مختلفة ، كان أكثرها تشنجا مجموعات العمل السرى التى اتجهت إلى محاولة اغتيال الزعامات الشعبية ، وإلى اجهاض ثورة ١٩١٩ .

الأسانيد :

١ ـ د . رءوف عباس . . الحركة العمالية فى مصر .
٢ ـ د . عصام ضياء الدين . . الحزب الوطنى والنضال السرى .
٣ ـ عبد الرحمن الرافعى . . محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية .
٤ ـ محمد فريد (المذكرات) تحقيق د . عاصم الدسوقى .
٥ ـ محمد فريد (المراسلات) تحقيق د . مصطفى النحاس جبر .

الدكتور محمد حسين هيكل



قال الدكتور « طه حسين » يصف صديقه الدكتور « محمد حسين هيكل » . . (هيكل صاحب صحيفة يشرف عليها ويدير أمورها ، ويكتب فيها فصلا فى كل يوم على أقل تقدير ، وهو عضو فى حزب سياسى يتحدث إليهم كل يوم فى السياسة إذا كان الصباح ، فإذا كان المساء فهو أديب يقرأ . . وعلى ذلك كله أب وزوج لا يبخل على أسرته بحقها عليه . . وهو صديق لا يبخل على أصدقائه بحقوقهم عليه ، والغريب مع هذا كله أنك تلقاه فاذا هو رجل هادىء مطمئن ، كأنه أفاق منذ حين قصير من نوم مريح . فهو لم ينشط كل النشاط بعد ، ولكنه بعيد عن الجمود والفتور ولا تكاد تتحدث إليه دقائق حتى يفتنك ويروعك فكأنك تتحدث إلى جنى . ولكنه جنى عذب الروح لذيذ الحديث .

المهم أن هذا « الجنى » عذب الروح لذيذ الحديث عندما وقف أمام محكمة الثورة أبى أن يكون (شاهد ملك) على أى من خصومه السياسيين بل إنه دافع عنهم أمام محكمة « عبد اللطيف البغدادى » .

وكان رجال يوم الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، قد أعلنوا أن الانتخابات العامة سوف تجرى فى فبراير ١٩٥٣ ، أى بعد ستة أشهر من ٢٣ يوليو ولكن قبل أن يحل موعد الانتخابات العامة، وقبل أن يطالبهم الشعب بتنفيذ الوعد ، صدر قرار بحل الأحزاب وبإلغاء دستور ١٩٢٣ ، وصدر إعلان دستورى مؤقت . . وفى سبتمبر سنة ١٩٥٣ أعلن الصاغ « صلاح سالم » عن وجود مؤامرة سياسية من بعض السياسيين ضد النظام . وأعلن أن مجلس الثورة قد قرر تشكيل محكمة من « عبد اللطيف البغدادى » رئيسا وعضوية « حسن إبراهيم وأنور السادات » وجرت حركة اعتقالات واسعة ، وجرت محاكمات لعدد من السياسيين القدامى بتهمة إفساد الحياة

السياسية واستغلال النفوذ ، وأصدرت المحكمة حكما بإعدام « إبراهيم عبد الهادى » جرى تخفيفه بعد ذلك. فى مثل هذا المناخ جرت محاكمة السياسيين القدامى ، وفى مثل ذلك المناخ وقف « الدكتور محمد حسين هيكل » أمام المحكمة لايطعن فى خصومه السياسيين بل اتجه إلى الدفاع عن موقفهم وتصرفاتهم وهم الذين يصفونه دائما بأنه يقف فى خندق حزب كبار الملاك . وبأنه كان يدافع سياسيا عن الذين يقفون فى غير معسكر الشعب .

نشأة محافظة

وقد ولد « محمد حسين هيكل » فى ٢٠ أغسطس سنة ١٨٨٨ فى كفر غنام ، إحدى قرى مركز السنبلاوين من أعمال الدقهلية ومن أسرة ثرية مما كان يعرف وقتئذ باسم (الأعيان) نشأ فى بيت ريفى طيب وكان أبوه رجلا ميسورا ويمت بصلة القربى إلى «أحمد لطفى السيد » والذى سوف يكون له شأن كبير مع « محمد حسين هيكل » توجيها واتجاها ، سياسة وفكرا ، سلوكا وثقافة .

ثم وجد الصبى طريقه إلى كتاب القرية ، وحصل على الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠٠ من مدرسة الجمالية ، ومن مدرسة الخديوية بالقاهرة حصل على البكالوريا سنة ١٩٠٥ ، ثم الحقوق سنة ١٩٠٩ . ومن فرنسا حصل على الدكتوراه سنة ١٩١٢ فى رسالة عن (دين مصر العام) التى أوضح فيها مرض مصر الاقتصادى منذ عهد الخديو إسماعيل ، ويحاول أن يصف العلاج فى حدود رؤيته الفكرية فى ذلك الزمان ويعود « محمد حسين هيكل » إلى مصر بعد حصوله على الدكتوراه سنة ١٩١٢ . . ولكننا نرى اسمه يتردد على صفحات (الجريدة) التى يحررها بلدياته وصديقه وأستاذه « أحمد لطفى السيد » ويتكرر الاسم قبل سفره إلى باريس وأثناء وجوده فى باريس، واستمر يكتب على صفحاتها حتى عام ١٩١٥ وهو العام الذى توقفت فيه .

ومنذ سنة ١٩١٠ بدأ يكتب قصة (زينب) مختزنا الريف المصرى الذى ولد فيه ، ومتأثرا بالريف الفرنسى الذى تأثر به . وقد أخذ ينشرها دون أن يضع اسمه عليها . وإنما اتخذ من عبارة (فلاح مصرى) توقيعا له على فصول القصة فى (الجريدة) التى أنشأها ورأس تحريرها « أحمد لطفى السيد » فى ٩ مارس ١٩٠٧ .

أحمد لطفى السيد

والذى يريد أن يقرأ الجانب السياسى عند « محمد حسين هيكل » عليه أن يعود أولا إلى قراءة «أحمد لطفى السيد » الذى ترك بصماته واضحة على صديقه وإن شئت فقل تلميذه « هيكل » ،

وأزعم أيضا أن مطالعة « أحمد لطفى السيد » تساعدنا على فهم الجانب الثقافى والفكرى لدى «هيكل » وغيره من الجوانب ، ولعل القارئ لم يزل يذكر ما قلناه فى الحديث عن « أحمد فتحى زغلول» عن الوضعية التى دخلت فيها مصر سياسيا وفكريا بعد أن أسلم عرابى سيفه للقائد الانجليزى وبعد أن نكست أعلام الثورة العرابية . وبدأت مطاردة العرابيين . . قلنا إن الفكر الثورى استدار إلى الخلف وتقدم إلى الإمام الفكر الإصلاحى الذى يتجنب الصدام الحاد مع الاحتلال ويعنى بقضايا كثيرة كالإصلاح الدينى « محمد عبده » وحركة الترجمة « أحمد فتحى زغلول » وتحرير المرأة « قاسم أمين » والتعاونيات « عمر لطفى » . . ومن الناحية السياسية الانصراف عن الولاء للدولة العلية وعدم التبعية لدولة الاحتلال والالتفاف حول شعار « مصر للمصريين » وهذا كله هو السبيل إلى الاستقلال مع المحاسنة والتدرج فى نيل المطالب لدى أصحاب هذا الاتجاه . .

وإذا كان لهذه العناصر كلها أن تتجسد فى رجل فهو « أحمد لطفى السيد » الذى أنشأ الجريدة فى ٩ مارس ١٩٠٧ وتوقفت فى ٣٠ يوليو ١٩١٥ ، وأعلنت الجريدة فى عددها الأول عن مؤسسيها « محمود سليمان ـ والد محمد محمود ـ وحسن عبد الرازق وأحمد فتحى زغلول ، وعبد الرحمن الدمرداش ـ وعبد العزيز فهمى ، وعلى شعراوى ، وعمر سلطان » وقدمها رئيس التحرير «أحمد لطفى السيد » بقوله : (ما الجريدة الا صحيفة مصرية شعارها الاعتدال الصريح ومراميها إرشاد الأمة إلى أسباب الرقى الصحيح) ثم تأسيس حزب الأمة فى ٢١ سبتمبر ١٩٠٧ .

فهاهو « أحمد لطفى السيد » المعتدل سياسيا المستنير ثقافيا المتحرر فكريا والذى نعرف من سيرة « محمد حسين هيكل » أنه تعهده بالتوجيه فى التعليم فى مختلف المراحل وفتح له صفحات (الجريدة) قبل أن يسافر إلى فرنسا وأثناء إقامته فى فرنسا ، وبعد ان عاد إلى مصر . . هو الأستاذ الحقيقى المؤثر فى حياة « دكتور محمد حسين هيكل » سياسيا وفكريا مع تفصيلات جزئية بطبيعة الحال .

السياسى المحافظ

ومن هذه الأرضية التى مهدها له « الأستاذ » تبدأ مسيرة « محمد حسين هيكل » السياسية وهى كلها فى الاتجاه المحافظ . .

لم يكن بحكم النشأة ولا بحكم الأسرة يجنح إلى الثورة أو يميل إليها . . كان يميل دائما إلى التدرج المأمون . والتطور الهادئ بل إنه فى كل ما وصل إليه وعلى حد عبارة ذكية قرأتها للمحرر البرلمانى الراحل « محمد السوادى » قال رحمه الله (كان الدكتور هيكل يتدهلز إلى المناصب الرفيعة فى سكون لايثير غضبا . وفى تواضع لايثير حسدا . وفى وداعة لا تثير حقدا) .

وتأسس حزب الأحرار الدستوريين من العناصر التى انشقت على الوفد والتى خرجت على زعامة سعد وكان « محمد حسين هيكل » من العناصر الفعالة فى هذا الحزب ورأس تحرير جريدة (السياسة) التى صدرت فى ٣١ أكتوبر سنة ١٩٢٢ . واستقال «عدلى يكن » من رئاسة الحزب وخلفه « عبد العزيز فهمى » ثم « محمد محمود » وفى سنة ١٩٤٢ ، وفى سكون وتواضع ووداعة تولى « محمد حسين هيكل» رئاسة حزب الأحرار الدستوريين .

كان زعيما للمعارضة بمجلس الشيوخ وكان رئيسا لمجلس الشيوخ . . ولأن الفنان فى داخله يغلب على السياسى فى ظاهره لم يكن خبيرا بدهاليز السياسة . . فأثناء وزارة إسماعيل صدقى مع بداية الثلاثينات رأى (حزب الأحرار الدستوريين) أن ينسق مع (الوفد) فى مواجهة صدقى . . وكان هو يرى مواجهة صدقى دون التنسيق مع الوفد الذى داب الحزب على أن يهاجمه على صفحات (السسياسة) ومن هنا رفض « محمد حسين هيكل » نشر بيان الحزب الذى ينتمى إليه والذى تعبر (السياسة) عنه . وكان أن نشرت قيادة الحزب بيان التنسيق مع الوفد فى جريدة الأهرام .

الحق الطبيعى

ويصل هذا الموقف إلى مداه فى ٢٠ أكتوبر ١٩٣٧ عندما أصدر الملك فاروق أمرا ملكيا بتعيين « على ماهر » رئيسا للديوان الملكى ورأى الكثيرون وخاصة (الوفد) ضرورة أن يعود الملك إلى الحكومة فيما يتخذ من قرارات . . دافع « محمد حسين هيكل» عما أسماه (الحق الطبيعى) للملك .

وتراه قبل ذلك يؤيد مشروع معاهدة بين « عبد الخالق ثروت » و«تشمبرلين » وهو مشروع أقل بكثير من مشروع معاهدة ١٩٣٦ ، وبالمثل دافع عن مشروع « محمد محمود ـ هندرسون » فى حين تراه بعد ذلك داخل (حزب الأحرار) وداخل (مجلس الشيوخ) يقود الحملة ضد مشروع معاهدة ١٩٣٦ وإن كان اسمه من بين أسماء قيادة حزب الأحرار عند موافقة الحزب على المعاهدة .

أما فى مجال العمل الوزارى فإن قائمة الذين تولوا رئاسة الوزارة تخلو من اسم « محمد حسين هيكل » حتى تاريخ وفاته فى ديسمبر ١٩٥٦ وإن كان وزير دولة لأول مرة فى حكومة « محمد محمود » رئيس حزب الأحرار من (٣٠ ديسمبر ١٩٣٧م ـ إلى ٢٧ أبريل ١٩٣٨) وبعد ذلك كان وزيرا للمعارف ست مرات . . مرتين فى وزارة « محمد محمود » من ٢٧ أبريل ١٩٣٨ إلى ٢٤ يونية ١٩٣٨ ومن ٢٤ يونية ١٩٣٨ إلى ١٨ أغسطس ١٩٣٩ ومرة ثالثة فى وزارة « حسن صبرى » من

٢٨ يونية ١٩٤٠ إلى ١٤ نوفمبر ١٩٤٠ ، ومرة رابعة ومرة خامسة فى وزارتى « حسين سرى » من ١٥ نوفمبر ١٩٤٠ إلى ٣١ يولية ١٩٤١ ، ومن ٣١ يوليو ١٩٤١ إلى ٤ فبراير ١٩٤٢ . أما المرة السادسة فقد كان وزيرا للمعارف ووزيرا للشئون الاجتماعية فى وزارة « أحمد ماهر » من ٩ أكتوبر ١٩٤٤ إلى ١٥ يناير ١٩٤٥ . ودعونا نترك هذه المناصب ونصل إلى ما بقى للتاريخ من « محمد حسين هيكل » وهو كثير وجليل .

المعادلة الصعبة

وافكر أمام القارئ بصوت عال . . احيانا أتأمل حياة الفرسان الثلاثة « الدكتور طه حسين » و«الأستاذ عباس محمود العقاد » و« الدكتور محمد حسين هيكل » وأقول لنفسى آه ليته . . وليته . . وليته . . وليته . . ليته . . ليت « الدكتور طه حسين » ما عرف طريقه إلى (حزب الاتحاد) ذلك الحزب الذى أنشأه الملك فؤاد ورعاه وانفق عليه ليستعين به على تنفيذ سياسته وأسند رئاسة تحرير جريدته إلى « الدكتور طه حسين » . . وليت « الأستاذ العقاد » ما انشق على (الوفد) الذى أعطاه عصارة قلمه وأعطاه الوفد الشهرة والمساندة من القائد ومن الجماهير . . وأما « الدكتور محمد حسين هيكل » فليته ما عرف السياسة أصلا وانطلق كما كان فارسا من فرسان الاستنارة الثقافية ، وفارسا من فرسان حرية الرأى والبحث العلمى كان فنانا أخطأ الطريق إلى السياسة .

ولكن منذ متى تسير الحياة فى خط مستقيم ؟ وربما لو سارت الحياة مع « الدكتور محمد هيكل» كما توهمنا ربما ما بقى منه شىء للتاريخ . فمع (الجريدة) ومع (حزب الأمة) ومع (الأحرار الدستوريين) خرجت لمصر وبقيت لمصر أعظم مدارسها الفكرية استنارة وثقافة ودفاعا عن حرية الرأى وحرية البحث . . أحمد لطفى السيد وعبد العزيز فهمى ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ، والشيخ على عبد الرازق ، والدكتور طه حسين ، والدكتور محمد حسين هيكل .

معادلة صعبة كما أسميتها فى مقال عن الدكتور محمد حسين هيكل فى العدد التذكارى من مجلة (الثقافة ـ يناير ١٩٨٢) بمناسبة مرور ربع قرن على رحيل هذا الفارس العظيم . . معادلة صعبة . . مواقف سياسية محافظة . . ومواقف فكرية مستنيرة إلى أبعد الحدود بل وبأكثر مما يظن أحد فى أيامنا هذه . .

الصدق فى الرأى

دافع عن حق الكاتب فى أن يكتب وحق المفكر فى أن يفكر ، وعن صاحب الرأى فى أن يعبر عن رأيه . . هكذا أخذ عن «أحمد لطفى السيد » وهكذا تعلم فى باريس سنة ١٩١٧ . كتب «منصور فهمى » على صفحات (السفور) مقالا عن (الشك واليقين) وانتقده كثيرون ، وعلى

صفحات (الأهرام) كتب « حسن الشريف» مقالا يشتم فيه الشك فى وجود (الخالق) سبحانه وتعالى . وثار كثيرون وتصدى لهذا وذاك « الشيخ رشيد رضا » وانتصر الدكتور « محمد حسين هيكل » فى ذلك الوقت إلى ما أسماه (الصدق فى العقيدة وفى الموقف وفى الرأى) لأن الجماعة لاتضار بمن يخالف عقيدتها مادام موقفها واضحا أما المنافقون فهم خطر دائما على الحياة وعلى العقائد ولا ينبغى أن نخشى حرية التفكير ، والسبيل هو مقابلة الحجة بالحجة والفكرة بالفكرة قصدت هنا أن أقول إن الدفاع عن حرية البحث عند « الرجل » قديم ويعود إلى سنة ١٩١٧ .

وفى ٣ مارس سنة ١٩٢٤ أعلن « مصطفى كمال اتاتورك » إلغاء الخلافة العثمانية فأوعز الاحتلال الانجليزى إلى الملك فؤاد بأن يتولى منصب الخلافة ولما كان الملك فؤاد هو من هو فى صفاته وأخلاقياته ومن منطلق وطنى وديمقراطى وقفت مدرسة الاستنارة ومن بينها « دكتور محمد حسين هيكل » ضد فكرة أن يتولى الملك فؤاد الخلافة واستطاعت هذه المدرسة أن تدفع حزب الأحرار بأسره ضد هذه المحاولة ووقف الأحرار والوفد فى جبهة واحدة ضد فكرة الانجليز وفؤاد .

وبهذا الصدد أصدر « الشيخ على عبد الرازق » القاضى الشرعى بمحكمة المنصورة الابتدائية كتابه (الإسلام وأصول الحكم) سنة ١٩٢٥ بهدف سد الطريق أمام الملك فؤاد الذى أراد مع الانجليز استخدام فكرة (الخلافة) لإضفاء شرعية على تصرفات الملك والانجليز معا ضد الحركة الوطنية المصرية ولكن الكتاب أثار عاصفة فى الحياة السياسية والثقافية والدينية ولم يكن القصر بعيدا عن تحريك هذه العاصفة وكان أن دافع « دكتور محمد حسين هيكل » وحزب الأحرار الدستوريين عن حق « الشيخ على عبد الرازق » فى الدراسة والبحث والتعبير .

ثم جاء كتاب (فى الشعر الجاهلى) سنة ١٩٢٦ وهو فى الأصل محاضرات ألقاها « الدكتور طه حسين » فى قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول وقد قوبل الكتاب بمعارضة شديدة من قطاعات مختلفة فى المجتمع المصرى ووصل الأمر إلى حد التحقيق مع الدكتور طه ولكن التحقيق حفظ فى ٣٠ مارس ١٩٢٧ . وما بين صدور الكتاب وحفظ التحقيق اختلفت الآراء حول الكتاب ومنهجه وحول صاحبه وأهدافه وانتصر « الدكتور محمد حسين هيكل » فى ذلك الحين لحق الدكتور طه حسين فى التفكير وفى التعبير عن رأيه وقد أصاب الدكتور هيكل من جراء هذه المواقف هجوم حاد وقد أشار هو نفسه إلى هذا فى مذكراته (واتهم الناس جريدة السياسة بالالحاد فى الدين . وبالمروق فى الوطنية) وهجوم الناس على جريدة السياسة يعنى الهجوم على هيكل رئيس تحريرها ، والعقل المفكر فيها .

جريدة السياسة

وصدر العدد الأول من جريدة (السياسة) اليومية فى ٣١ أكتوبر سنة ١٩٢٢ لسانا لحال حزب الأحرار الدستوريين واختير «الدكتور محمد حسين » رئيسا لتحريرها والتف حوله أو حول الجريدة « الدكتور طه حسين » و«محمود عزمى » و«توفيق دياب » و«السيد كامل» وعدد من المثقفين الذين لم يجتمع مثلهم فى جريدة حزبية أخرى .

وكانت النبرة حادة فى الصحف الحزبية كعادتها فى كل زمان وخشى الدكتور هيكل أن يتأثر الجانب الثقافى فى (السياسة اليومية) بأسلوب الحوار الحزبى السائد فأصدر (السياسة الأسبوعية) كمجلة ثقافية وإن شئت فقل مجلة فكرية صدر العدد الأول منها فى ١٣ مارس ١٩٢٦ فى حجم الصحيفة اليومية ثم فى حجم نصف الصحيفة اليومية (تابلويد) وثمنها قرش صاغ واحد . وصادرت حكومة « إسماعيل صدقى » عدد ٢ فبراير ١٩٣١ فتقرر إلغاؤها فى اليوم فى اليوم نفسه وإن كانت قد عادت إلى الظهور مرة أخرى فى ١٦ يناير ١٩٣٧ وبعد فترة قصيرة توقفت نهائيا .

وقد حدد الدكتور هيكل هدف (السياسة الأسبوعية) بأن تكون (صلة الثقافة وتبادل الفكر بين الشرق والغرب) وكان الصف الأول من كتابها « طه حسين » ، ومحمد صبرى السربونى ، ومصطفى عبد الرازق ، ومحمد عبد الله عنان ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، ومحمد توفيق دياب ، وعبد العزيز البشرى ، وعلى عبد الرازق ، وعمر عنايت ومحمود عزمى ، وإسماعيل مظهر وعبد الحميد حمدى ، وجعفر والى ، وفكرى أباظة ، ومحمود تيمور ، ومن الصف الثانى أو الجيل الثانى إذا شئت « حافظ محمود » ومحمد زكى عبد القادر ، وسيد نوفل ، وزكى مبارك ، وعثمان أمين ، ومصطفى عبد اللطيف السحرتى ، ونقولا يوسف وإبراهيم ناجى ، وعلى محمود طه ، ومحمود عماد ، ومحمد الأسمر » .

وقد أثرى الجيل الأول والجيل الثانى على صفحات السياسة الأسبوعية (حرية النقد ، وحرية الرأى ، وحرية المعارضة) .

رحلة الفكر

ونحن هنا نقدم الرجل للناس كما كان ، نقدم الصورة كما هى حتى نعرف كيف كان يفكر الناس فى ذلك الزمان وكيف كانت نبرة الهجوم بين المثقفين حادة ، قال عنه « عباس محمود العقاد» (ده مش كاتب . . ده عرضحالجى) ولم يكن الرجل هكذا كل ما فى الأمر أن أسلوبه القانونى ألقى بظلاله على كتاباته وتأثر بلغة الصحافة وحرص على عرض أفكاره عرضا منطقيا مرتبا بعيدا عن (البلاغة) التى لها ثقلها فى النفوس . . والخط ردىء فى حاجة إلى « شمبليون » لفك رموزه .

لم يعن ببلاغة الارتجال وروعة الإلقاء التى سحرت الناس زمانا . . مرن بعيد عن التعصب لأفكاره . . المهم كيف كانت رحلة الفكر عنده ؟ .

تلقاه فى البداية مع (الفرعونية) حريصا على أن يتولى المصريون أنفسهم ، وليس الأجانب ، الكشف عن آثار اجدادهم . . ودعا إلى استلهام الحضارة الفرعونية حرصا على الاتصال الوجدانى الحضارى وقال بوضوح (لا سبيل إلى إنكار ذلك الاتصال النفسى الوثيق الذى يربط تاريخ مصر منذ بدايته إلى عصرنا الحاضر . . هذا الاتصال الوثيق الذى يجعل مصر وحدة تاريخية أزلية خالدة هكذا نظر إلى تاريخنا كتيار دافق متصل . الحضارة فى مصر عنده تيار متصل . . فرعونية ومصرية وعربية إسلامية .

وفكرة المصرية عنده رضع ألبانها كما عرفنا من (الجريدة) ومن (فكر حزب الأمة) ومن « أحمد لطفى السيد » ، وروايته (زينب) تعبر عن مصريته رغم أنه كتبها وهو فى باريس ثم جاء تيار ثورة ١٩١٩ الذى أيقظ الروح القومية فى الثقافة وفى الفن وفى الأدب وفى الحياة الاقتصادية أيضا . .

وكان اهتمامه باللغة العربية واضحا ، كتب مقدمة ديوان أحمد شوقى أعظم شاعر عرفته العربية بعد المتنبى ، فى مجلة السياسة الأسبوعية أصدر عددا خاصا عن « أحمد شوقى » عندما نودى به أميرا للشعراء وأصدر عددا خاصا عن « حافظ إبراهيم » ولكن الأخير كان قد غادر الحياة .

ويرى الكثيرون أن (الأدب الإسلامى) عند « محمد حسين هيكل » هو أهم ما قدمه للناطقين بالعربية وقد انتهج العقاد فى الإسلاميات نهج العبقريات . ونهج هيكل نهج السيرة . وترك للمكتبة العربية أروع ما كتب عن (حياة محمد) سنة ١٩٣٣ و(فى منزل الوحى) سنة ١٩٣٩ و(أبو بكر الصديق) سنة ١٩٤٢ ، و(الفاروق عمر) سنة ١٩٤٤ ، ١٩٤٥ ثم (الإمبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة) نشر بعد وفاته سنة ١٩٦٤ ، و (عثمان بن عفان) نشر بعد وفاته سنة ١٩٦٨ ، والإسلاميات هى آخر ما تلقاه من إنتاج فكرى إسلامى وإن ظل يكتب فى الصحف مقالات متفرقة حتى قبيل رحيله .

أما كتبه الأخرى فقد صدرت له (زينب) سنة ١٩١٤ وجان جاك روسو فى جزأين ١٩٢١ ، ١٩٢٣ وفى أوقات الفراغ ١٩٢٥ وعشرة أيام فى السودان ١٩٢٧ وتراجم مصرية وغربية ١٩٢٩ وولدى ١٩٣١ ، وثورة الأدب ١٩٣٣ ومذكرات فى السياسة المصرية ١٩٥١ ، ١٩٥٣ وصدر الجزء الثالث بعد رحيله سنة ١٩٧٨ ، ولعل آخر كتبه قبل الرحيل هو (هكذا خلقت) سنة ١٩٥٥ ، وعام ١٩٦٤ صدر كتابه (الإيمان والمعرفة والفلسفة) ثم قصص مصرية سنة ١٩٦٧ .

آراء متفرقة

وتكتمل الصورة العامة بعدد من آرائه نشرها متفرقة هنا وهناك . .

قال فى موضوع الفن للفن والفن للحياة . .

التفريق بين الفن للفن والفن للحياة ليس مستطاعا فالفن مظهر من مظاهر الحياة فلا يمكن أن تصوره مستقلا عنها لايستلهمها ولا يوجهها لكنه لا يتصل بالحياة الإنسانية وحدها بل يتصل بحياة الوجود كله فالطبيعة الصامتة والمطر والبرق والرعد والطير والحيوان هذه كلها وسائر مظاهر الطبيعة تفسح أمام الفنان السبيل ليأخذ منها ما يزيد فيه حياة وسموا وما يجعله جديرا بالبقاء .

وقال فى حرية الفكر وحرية التعبير .

إن أقل ما نطمع فيه أن تكون حرية البحث العلمى والاجتهاد الدينى القائم على تسامح الشريعة الغراء أمرا مقررا بحيث لايضار أحد من ورائها ولا يترتب على مخالفة إنسان لغيره فى الرأى أن يصاب بأذى أو يعتدى على حقوقه .

وقال عن تطور الحياة وتجددها .

(إن كل ما تحت الشمس جديد لأنه دائم التجدد . وكل إنسان منا جديد وهو كل يوم متجدد وكلما ازداد بما حوله من صور الحياة امتزاجا ازداد بهذا الامتزاج حياة وازداد بذلك تجددا) .

لم نكن إذن أمام رجل واحد له نشاط واحد كنا مع الأديب الروائى والأديب القاص مع الكاتب والصحفى مع المحامى مع عضو مجلس الشيوخ ورئيس المجلس وزعيم المعارضة مع الوزير مع السياسى الحزبى ورئيس الحزب مع الكاتب الإسلامى والناقد الأدبى مع (جنى) عذب الروح لذيذ الحديث . . مع هؤلاء جميعا فى شخص الدكتور محمد حسين هيكل .

ونترك أستاذنا الدكتور « مهدى علام » يختتم مقالنا هذا بقوله :

(أقرر أن هذا الرجل العظيم كان فى ميدان القصة الرائد الأول وكان فى النقد الأدبى قريبا من القمة وكان فى السياسة من الذين خلطوا عملا صالحا بآخر سيئ) .

الأسـانيد :

١ ـ أنور الجندى . . الصحافة السياسية فى مصر .

٢ ـ الثقافة (مجلة) عدد يناير ١٩٨٢ . دكتور محمد حسين هيكل فى ذكراه الخامسة والعشرين .

٣ ـ فؤاد كرم . . النظارات والوزارات .

٤ ـ د . محمد أبو الأنوار ال. . حوار الأدبى .

٥ ـ محمد حسين هيكل . . مذكرات فى السياسة المصرية .

محمد فهمى عبد المجيد



كان التاريخ ـ ولم يزل ـ هو تاريخ الأسماء اللامعة من الملوك والحكام والرؤساء والسلاطين والقادة والزعماء . مصر القديمة معروفة لدينا بأسماء الفراعنة بداية من الملك مينا موحد القطرين . . ولكن من منا يعرف شيئا عن أبطال من قلب شعب مصر ربما بذلوا أكثر مما بذل الملك مينا ؟! .

والعصر اليونانى الرومانى معروف لدينا بأسماء الحكام من (الخواجات) ولا أحد يعرف شيئا عن أبطال مصر الذين قاوموا مظالم تلك الحقبة . . فيما عدا شهداء مصر الذين دافعوا عن عقيدتهم فى مواجهة القهر الأجنبى حتى جاء الفتح العربى بقيادة «عمرو بن العاص» ورد لهم حرياتهم وطمأنهم على حرية الاعتقاد . .

ورموز الفتح الإسلامى لمصر . . تعرف أمراء المؤمنين وتعرف أسماء الولاة على مصر . . وأما الأبطال من شعب مصر فربما تعرف عنهم النذر القليل .

وبدأ اتجاه جديد ، ولو فى حدود ، وأصبحنا عندما نتحدث عن ثورات مصر فى العصر الحديث . . نتحدث عن عبد الله النديم ومحمود سامى البارودى وعبد العال حلمى وعلى فهمى ومحمد عبيد ، عندما نتحدث عن أحمد عرابى ، ويجىء ذكر على فهمى كامل وعبد العزيز جاويش وإسماعيل لبيب وعبد الملك حمزة وفؤاد سليم عندما نتحدث عن « مصطفى كامل » ونتحدث عن « عبد العزيز فهمى وعلى شعراوى وعلى ماهر ومحمد محمود وأحمد لطفى السيد وعبد الرحمن فهمى ومصطفى النحاس وواصف غالى » عندما يجئ ذكر « سعد زغلول » وهكذا . .

هذه الأسماء كلها من الصف الأول أو الصف الثانى حول هذا الزعيم أو ذاك . . ولكن أين

أبناء الشعب الذين بقوا فى الظل على الرغم من أنهم واجهوا الظلم وبذلوا التضحيات ودفعوا الثمن دون أن تكون لأسمائهم بعض البريق !

فى ثورة أحمد عرابى مثلا سمعت عن بطولة ضابط بوليس فى أسيوط وكان فى منصب (وكيل المديرية) أو ما يشبه ذلك حسبما تروى الروايات واسمه « سرور » هكذا قيل لى . . وكان مدير المديرية اسمه « مراد باشا » ضابط البوليس العظيم « سرور » قاد فى شوارع أسيوط تظاهرة وطنية تهتف ضد الاحتلال الزاحف على بر مصر ، وتهتف ضد الخديو توفيق ، وتهتف باستقلال مصر . . وبعد انكسار الثورة العرابية قبضت عليه سلطات الاحتلال ولا يدرى أحد ماذا كان مصيره . . ومنذ زمن وأنا أجرى وراء قصة البطولة هذه . . وأرجو أن أوفق .

وفى ثورة ١٩١٩ كان « سعد » هو الزعيم وكتبنا عنه وكتب الكثيرون ، وهناك « عبد الرحمن فهمى » قائد الجهاز السرى للثورة وهناك أيضا الضابط (محمد كامل) الوطنى الذى حكم عليه بالإعدام رميا بالرصاص فى أسيوط . . هذا البطل ألا يستحق الكتابة عنه .

وفى حركة الطلاب سنة ١٩٣٥ مازلنا نذكر أسماء « الدكتور محمد بلال والمهندس إبراهيم شكرى والدكتور عبد اللطيف جوهر والدكتور نور الدين طراف » . . متعهم الله بالصحة ونذكر أيضا «الدكتور رشوان فهمى » عليه رحمة الله . . ولكن لماذا لم نعد نذكر « عبد الحكم » و« على طه عفيفى» ابن دار العلوم الذى لقى مصرعه برصاصة غادرة . .

من أجل هذا أكتب هذه الحلقة عن « محمد فهمى عبد المجيد » كمواطن بسيط من أبناء الشعب تحدى القصر وأسهم فى المؤسسات الاجتماعية . .

فى عام ١٩١٠ فكر لفيف من أهل الإسكندرية فى إنشاء جمعية خيرية لمواجهة الأزمة الاقتصادية التى عصفت فى تلك السنوات الكادحة وأطلقوا على هذه الجمعية اسم « المواساة » وكانت المجموعة التى أسست الجمعية تتكون من محمد مالك ومحمد الجمال ومحمد فهمى عبد المجيد وحسين فهمى وعبد الرازق أبو الخير وهؤلاء جميعا كانوا من أبناء الشعب البسطاء ، ولم نعرف منهم سوى « حسين فهمى » الذى أصبح رئيسا لمجلس الإنتاج فيما بعد وامتدت أعمال الجمعية إلى مساعدة الطلاب الفقراء فى التعليم ، وإلى مساعدة الفتيات عند الزواج وتولى نفقات دفن الموتى من الفقراء . .

وسنة ١٩٢٦ أصبح رئيسا للجمعية « إبراهيم أحمد » عضو مجلس الشيوخ ، وأصبح « محمد فهمى عبد المجيد » وكيلا لها وأنشأت الجمعية لها عمارة معاونة شركة التعاون المنزلى لموظفى الحكومة ، ومعاونة نادى موظفى الحكومة .

وفى أواخر عام ١٩٢٩ اتفقت آراء « محمد فهمى عبد المجيد » والدكتور محمود على تخصيص قسم كبير لمعالجة الفقراء مجانا. وفى منتصف عام ١٩٣٠ وافقت بلدية الإسكندرية على أن تبيع للجمعية قطعة أرض مساحتها حوالى ١٨ ألف متر مربع بقيمة مخفضة . ووضع الدكتور «النقيب» تصميم مشروع المستشفى . وعرضت الجمعية المشروع على الأمير « عمر طوسون » راعى جمعية المواساة وتوفر للجمعية فى المدة من ١٩٣٢ ـ ١٩٣٥ ربع مليون جنيه شيد به المستشفى .

وفى أوائل سنة ١٩٣١ والمستشفى فى مرحلة التشييد أوفدت الجمعية « الدكتور النقيب » عضو مجلس إدارة الجمعية إلى أوروبا حيث زار مستشفيات انجلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا وبعدأن عاد أوصى بتشييد مستشفى (مارتن لوثر) ببرلين نموذجا لمستشفى المواساة ووافق مجلس إدارة جمعية المواساة واستدعى المهندس الإخصائى الذى قام بتشيد مستشفى (مارتن لوثر) ببرلين وهو «أرنست كوب » الذى حضر إلى الإسكندرية فى ٢٠ يوليو وعاين الأرض وعاد إلى برلين ليضع التصميمات الهندسية للمستشفى وسافر « محمد فهمى عبد المجيد ومحمد سعيد جميعى » إلى برلين لمعاينة مستشفى مارتن لوثر . وفى ١٦ سبتمبر سنة ١٩٣١ عاد «كوب » إلى الإسكندرية وعرض على الجمعية الأعمال الفنية والهندسية .

وفى ٢٢ نوفمبر ١٩٣١ أعلنت الجمعية ، وهى تتكون من الشباب الراغب فى خدمة وطنه ، أعلنت عن مناقصة لإقامة مبانى المستشفى وفى ٧ يناير ١٩٣٢ تم فحص العطاءات المقدمة وتبين أن أقلها عطاء شركة أجنبية وعرضت الجمعية على المقاول المصرى التالى للشركة الأجنبية تخفيض عطائه ليكون أقل من عطاء الشركة الأجنبية ، ووافق المقاول المصرى وهو « محمد حسن العبد » مساهمة منه فى المشروع الوطنى الإنسانى . .

ولكن أحد كبار رجال القصر ـ لم تذكر المصادر اسمه ـ استدعى « محمد فهمى عبد المجيد» . . وكان قد أصبح رئيسا للجمعية وطلب منه أن يعطى العملية للمقاول المصرى الثانى ـ لم تذكر المصادر اسمه أيضا ـ فرفض رئيس الجمعية هذا الأسلوب فى العمل وغادر القصر مغضوبا عليه من رجل قوى النفوذ ومقرب لأعلى رأس فى البلاد ، وبعدها رفض « الملك فؤاد » حضور حفلة وضع حجر الأساس الذى تقرر أن يكون فى مارس ١٩٣٢ وكان مشروع المستشفى يحمل اسم الملك فؤاد ، وكان أن ألغى محمد فهمى عبد المجيد حفلة وضع حجر الأساس وبدأ العمل بحماسة الشباب فى ١٥ مارس ١٩٣٢ ، وهذا يذكرنا بوضع مشروع القرش الذى قام به عدد من شباب مصر والذى تزعمه شاب مصرى وطنى أصبح زعيما لجماعة مصر الفتاة وهو «أحمد حسين » .

سار العمل فى المستشفى تحت إشراف لجنة تنفيذية تكونت من « محمد فهمى عبد المجيد ،

والدكتور أحمد النقيب ، ومحمد سعيد الجميعى ، والمهندس أحمد المكى والدكتور محمد العقاد .

ولجأت الجمعية إلى أسلوب اليانصيب ، وإلى تبرعات المصريين واعترافا بفضل مصر أسهم الأجانب المقيمون فى الإسكندرية بنصيب هام فى التبرعات وساندت الصحافة الوطنية المشروع ووقفت أقلام كثيرة إلى جانب هؤلاء الشباب . . نذكر منهم أقلام «الدكتور طه حسين ، والدكتور محمد حسين هيكل ، والأستاذ فكرى أباظة » . .

وفى مارس ١٩٣٣ أخذت الجمعية قرضا من بنك مصر بضمان العمارة التى تملكها على أن يسدد على عشرة أقساط سنوية . وعندما تأخرت الجمعية فى سداد القسط الأول فى يونيو سنة ١٩٣٤ ، هدد بنك مصر للأسف الشديد تحت ضغط القصر الذى تأزمت الأمور بينه وبين الجمعية ، هدد بتنفيذ عقد السلفة الذى ينص على أنه فى حالة عدم دفع أى قسط كاملا فى ميعاده يصبح كامل باقى الأقساط مستحق الدفع فورا . وفوجئت الجمعية فى ديسمبر ١٩٣٤ بتنبيه نزع ملكية العمارة المرهونة سدادا لكل الأقساط المتبقية وفى يناير ١٩٣٥ استمر « بنك مصر » فى إجراءات نزع الملكية وأصر على بيع العمارة لإذلال الجمعية .

لجأت الجمعية أمام هذه المحاصرة من القصر الملكى ومن رجاله ومن بنك مصر إلى عمل يانصيب على العمارة ذاتها فى يونيو ١٩٣٦ ربحت من ورائه الجمعية وسددت أقساطها .

وطلبت الجمعية من الحكومة قرضا وقد فرحت الجمعية عندما علمت أن الحكومة قررت تشكيل لجنة برئاسة « الدكتور محمد شاهين » لدراسة الموضوع ولكن « الدكتور محمد شاهين » الطبيب الخاص للملك فؤاد وضع شروطا تؤدى لإدخال المشروع تحت وصاية مصلحة الصحة . فرفضت الجمعية ومضت فى طريقها متحدية كل المعوقات التى وضعها القصر ، وبنك مصر ، وطبيب الملك ، ورجال الملك من الساسة .

عناصر وطنيـة

وإذا وجدت عناصر فى الساحة السياسية تأتمر بأمر القصر وبأمر رجال القصر ، فقد وجدت أيضا عناصر تلتزم جادة الصواب وتسلك سبيل الموضوعية ففى وزارة « توفيق نسيم » ١٤ نوفمبر ١٩٣٤ ـ ٣٠ يناير ١٩٣٦ كان « أحمد عبد الوهاب » وزيرا للمالية فوقف إلى جانب الجمعية ، وقدم لها عام ١٩٣٥ سلفة مالية تسدد على عشر سنوات ابتداء من عام ١٩٣٧ ورد للجمعية ما سبق أن دفعته من ثمن الأرض التى أقيم عليها المستشفى .

وتمكنت الجمعية من استكمال جميع المعدات والأجهزة والأدوات وأصبح المستشفى معدا لأداء رسالته الإنسانية .

وفى نوفمبر ١٩٣٥ عرضت الجمعية على الملك فؤاد افتتاح المستشفى الذى يحمل اسمه ورفض الملك حضور حفل الافتتاح وبدأ العمل فى المستشفى فى أول نوفمبر ١٩٣٥ دون افتتاح رسمى وفى مواجهة موقف القصر من المستشفى تطوع عدد من الأطباء للعمل بالمستشفى دعما لرسالتيه الإنسانية والوطنية .

وما إن علم بذلك الدكتور « محمد شاهين » طبيب خاص الملك ومدير عام الصحة العمومية حتى أصدر أمرا مفاجئا بنقل «الدكتور أحمد النقيب » وكان جراحا بالمستشفى الأميرى بالإسكندرية وله دور فى مستشفى المواساة إلى مستشفى بورسعيد ! إلا أن الدكتور النقيب قدم استقالته وعينته الجمعية مديرا للمستشفى الذى أصبح يضارع أرقى المستشفيات الأجنبية ، وأخذ المصريون يدعمون المستشفى وانهالت التبرعات وقد تبرع تاجر الأخشاب « أسعد باسيلى » بأول سيارة للعيادة الخارجية فى حين أن الأمير «محمد على توفيق » رفض أن يتبرع بحجة ضيق ذات اليد !

على ماهر

توفى الملك فؤاد فى ٢٨ أبريل سنة ١٩٣٦ وجاء الملك فاروق وكانت سياسة « أحمد حسنين » أن يقدم الملك الجديد فى صورة محببة للشعب ، فوضع أحمد حسنين المستشفى تحت رعايته الخاصة وأقيمت حفلة لافتتاح المستشفى رسميا فى ١٢ نوفمبر ١٩٣٦ حضرها الملك فاروق وقدمت حكومة « مصطفى النحاس » عام ١٩٣٦ إعانة سنوية للمستشفى قدرها عشرون ألف جنيه . واستقرت الأمور فى المستشفى وانصرفت الجمعية إلى أغراض أخرى كالعيادات الخارجية والمستوصفات وخاصة فى الأحياء المزدحمة بالسكان وأقامت مسجدا أمام المستشفى . وأنشأت مدرسة للخدمة الاجتماعية التى تحولت فيما بعد إلى معهد للخدمة الاجتماعية وأحيت الجمعية (ملجأ الحرية) الذى أقيم بمناسبة ثورة ١٩١٩ .

ولكن « على ماهر » لم يكن راضيا عن كل هذا النشاط ورفض الملك فاروق بتأثير « على ماهر » مقابلة « محمد فهمى عبد المجيد » ليعرض عليه أمور الجمعية ونشاطها حتى أقيلت وزارة مصطفى النحاس التى ساندت الجمعية فى ديسمبر سنة ١٩٣٧ وانضم « محمد فهمى عبد المجيد » إلى السعديين لصداقته للدكتور « أحمد ماهر » رئيس الهيئة السعدية واختير عضوا بمجلس النواب . وتوفى مدير عام الجمارك وتوقع الناس أن يعين « محمد فهمى عبد المجيد » مديرا عاما للجمارك ، ويستقيل من عضوية مجلس النواب . وكان « محمد فهمى عبد المجيد » قد فضل أن يظل فى مصلحة الجمارك عند انتهاء المدة القانونية المقررة لاختيار أحد المنصبين . . الوظيفة الحكومية أو عضوية مجلس النواب . . وكان ذلك فى يونية عام ١٩٣٨ . إلا أن على ماهر الذى جاء رئيسا

للوزراء فى أغسطس ١٩٣٩ ألغى منصب وكيل الجمرك فأحيل « عبد المجيد » إلى المعاش قبل السن القانونية بـ ١١ عاما إذ إنه من مواليد ١٨٩٠ . .

مصطفى النحاس

ونعود إلى الوراء قليلا إلى سنة ١٩٣٧ حيث بدأ خلاف بين رئيس الجمعية « محمد فهمى عبد المجيد » وبين مدير المستشفى «الدكتور أحمد النقيب » وبدأ الدكتور النقيب يتقرب إلى القصر على حساب رئيس الجمعية . حتى غضب الملك فاروق على «محمد فهمى عبد المجيد » وعندما دعى الملك فى ٦ أكتوبر ١٩٣٨ لحضور الحفلة الخيرية السنوية للجمعية اشترط أن يلقى الدكتور النقيب كلمة الجمعية بدلا من رئيسها عبد المجيد . وفوجئ « على ماهر » رئيس الديوان بأن «محمد فهمى عبد المجيد » نفذ تهديده ولم يحضر الحفلة لاستقبال الملك . وفى اليوم التالى استدعى على ماهر « محمد فهمى عبد المجيد » إلى مكتبه بالقصر وأبلغه إقالته من جمعية المواساة ومن جميع مؤسساتها الخيرية . وعين « حسين فهمى » رئيس مجلس الإنتاج القومى السابق ـ رئيسا للجمعية .

واستولى الملك فاروق على المستشفى وخصص له فيه جناحا لا للعلاج بل للهو ، وفى ٧ أكتوبر ١٩٣٨ أقيل محمد فهمى عبد المجيد من جمعية المواساة التى أسسها . وفى ١٩ أغسطس ١٩٣٩ ألغى « على ماهر » منصبة فى الجمرك . . هكذا كان موقف «على ماهر» من رجل وطنى بسيط أظهر حماسه فى خدمة أهله البسطاء ورحل « فهمى » حزينا فى يناير ١٩٤٣ .

ولكن « مصطفى النحاس » سنة ١٩٤٣ قرر تعليم أولاد « محمد فهمى عبد المجيد » على حساب الحكومة وقرر التصالح فى القضية التى رفعها « عبد المجيد » لإلغاء وظيفته وكان قرار التصالح بما يحقق مصلحة « عبد المجيد » وقررت بلدية الإسكندرية إطلاق اسمه على الشارع المؤدى إلى مستشفى المواساة وقرر مجلس جمعية المواساة وضع تمثال نصفى للمرحوم « فهمى » فى البهو الكبير بالمستشفى .

وأخيرا هل قدر علينا فى مصر أن نحارب الكفاءات المخلصة بالحقد والدس والوقيعة ؟ وهل هذا جزاء الذين يقفون ضد القصر وضد رجال القصر ؟ وهل هذا جزاء الوطنيين المخلصين ؟

هل تريدون معرفة كيف اكتملت مأساة « محمد فهمى عبد المجيد » بعد وفاته بأربعة وأربعين عاما . . أقول لكم . . كنت قد انتهيت من جمع مادة هذا الموضوع وإذ بى اقرأ فى (جريدة الشعب) الثلاثاء ٢٥ أغسطس ١٩٨٧ تحت عنوان (سرقة قبر والد . د. عصمت عبد المجيد)

كتشف د . عصمت عبد المجيد نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية سرقة قبر والده المرحوم محمد فهمى عبد المجيد ـ الكائن بمدافن المنارة بباب شرق الإسكندرية وذلك خلال توجهه يوم الجمعة الماضى لزيارة القبر بعد حضوره الندوة التى أقامتها نقابة الصحفيين بالإسكندرية . .

واتضح أنه أقيم قبران بدلا منه لشخصيتين كبيرتين بالإسكندرية إحداهما تعمل بالمحافظة والأخرى بالرقابة الإدارية . وكان «التربى » قد فجر مفاجأة حينما أخبر وزير الخارجية أن قبر والده أزيل بقرار من المحافظة . اتصل د .عصمت عبد المجيد بالمحافظ وبمدير الأمن للاستعلام منهما عن سبب الإزالة ، وتوجه إلى قسم باب شرق وحرر محضرا بالواقعة . ولا تعقيب لنا فنحن هنا نكتب تاريخ رجال من مصر ونترك التعقيب للدكتور أحمد عصمت محمد فهمى عبد المجيد وشهرته « الدكتور عصمت عبد المجيد ابن رجل من مصر هو « محمد فهمى عبد المجيد » . .

الأسانيد :

١ ـ أحمد أحمد ترك . . صورة رسالة إلى الأستاذ صلاح منتصر .
٢ ـ الشعب (جريدة) ٢٥ أغسطس ١٩٨٧ .
٣ ـ صلاح منتصر . . الأهرام ١٤ ، ١٥ يناير ١٩٨٧ .
٤ ـ محمد سعيد جميعى . . بطل المواساة دار لوران ١٩٦٠ .

الدكتور محمد كامل حسين



مع مولد القرن العشرين كان مولده سنة ١٩٠١ فى سبك الضحاك بالمنوفية . كان الأول على دفعته فى البكالوريا من مدرسة (الإلهامية) بالقاهرة ، وكان الأول على دفعته فى مدرسة الطب سنة ١٩٢٣ ، وكان أول مصرى يجمع بين زمالة كلية الجراحين وماجستير جراحة العظام سنة ١٩٣١ . كان أول وربما آخر من حصل على جائزتى الآداب والعلوم ، وكان أول مدير لجامعة إبراهيم (عين شمس فيما بعد) ، وقدر له بعد رحيله أن يكون أول عضو فى مجمع اللغة العربية تدور حوله وحول أعماله مسابقة للمجمع عن عام ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨ .

هذا (الأول) فى أنشطة كثيرة توفى والده وهو طفل رضيع ، ونشأة كهذه كان يمكن أن تجعله يقبل على الحياة ليأخذ منها كل شىء ، وكان يمكن أن تجعله منكسرا منعزلا يسير إلى جوار الجدار . ولكنه نشأ سويا وإن كان قد آثر ألا يرتبط بزوجة فى مشوار الحياة ، وأخوه الذى يكبره لم يتزوج أيضا .

هذا الذى تفوق فى دراسته شارك فى مواكب ثورة ١٩١٩ .

تخرج فى مدرسة الطب سنة ١٩٢٣ ، وبعدها سافر فى بعثة عامة سنة ١٩٢٥ وعاد من لندن سنة ١٩٢٩ زميلا بكلية الجراحين الملكية . ولكن « الدكتور على باشا إبراهيم » أعاده إلى انجلترا مرة أخرى ليحصل على الماجستير فى جراحة العظام سنة ١٩٣١ .

وهذا الذى تميز بدراسته اللغوية ، وبدراساته الفكرية ، وبإبداعه الأدبى كان متميزا أيضا فيما تخصص فيه من فروع الطب وهو (جراحة العظام) . وفى أوائل الأربعينات ، وعندما أصيب «الملك فاروق » فى حادث سيارة عند (القصاصين) كان الفريق المعالج فى مقدمته « على باشا إبراهيم ، وعبد الوهاب مورو ، وعبد الله الكاتب ، وعباس الكفراوى ، والطبيب الشاب محمد كامل حسين ، ومنح الملك رتبة الباشوية لمن لايحمل هذه الرتبة من الأطباء المعالجين ، ورتبة

البكوية للدكتور محمد كامل حسين ، ولكنه لم يذكرها فى حياته قط ولم يضفها إلى اسمه قط كما فعل الآخرون .

أخلاقيـاته وسـلوكه

فى بداية طريقنا ونحن نتحدث عن « الدكتور محمد كامل حسين » يحسن أن نبدأ بأخلاقياته وسلوكه ، فنحن ننظر إلى الرجل نظرة شاملة ، ولقد عكف صديقنا العزيز الطبيب والأديب الشاب « محمد محمد الجوادى » على تدوين سلوكيات « الدكتور محمد كامل حسين » وهو يكتب سيرته . . لم يكن الدكتور « محمد كامل حسين » يأخذ الناس بما أخذ به نفسه من جد وصرامة ولم تكن كتاباته عن الأخلاقيات والمثاليات والضمير وصفاء النفس إلا تعبيرا عما يمارسه فى حياته . ولم يغضب إنسانا كائنا من كان ولاذكره بسوء ولا صدرت عنه أية إساءة نحوه .

كان قليل الكلام ، شديد الاتزان ، عف اللسـان ، هادئ الصوت ، رقيق الابتسـامة ، زكى السـمت والنفس والضمير رضى الخلق والشمائل ولم يكن يطلب من الناس ماليس فى إمكانهم ، تميز أيضا بالهدوء النفسى وحبه للناس .

وشهد له تلاميذه وزملاؤه بالأمانة فى عمله وبالمعاملة الإنسانية لمرضاه إلى درجة أن مرضاه تحولوا إلى أصدقاء له فى مسيرة الحياة ، وعندما كان مديرا لجامعة عين شمس وتحولت خصومات أعضاء هيئة التدريس إلى نزاعات عاقت دوره العلمى لم يتردد فى الاستقالة من إدارة الجامعة سنة ١٩٥٤ ، لم يبخل بعلمه على أحد وكره التعصب فى الأديان . عرف عنه الاعتدال فى كل الأمور ، فى المأكل ، والملبس ، وفى الحياة عموما استقام سلوكه لم يدخن ولم يعرف الخمر ، ينام مبكرا ويستيقظ مبكرا كعادة أهل الريف ، كان بارا بأهله وبعارفيه لايفرط فى صداقة أحد .

وليست مصادفة أن يعجب بأبى العلاء المعرى أعمق شعراء العرب تفكيرا وأصدقهم عاطفة وأحدهم ذكاء على حد تعبير «محمد كامل حسين » . وفى الشخصيات التى كتب عنها أبدى إعجابه باعتدال أحمد لطفى السيد ، وبعلمه وخلقه .

وأنت إذا طالعت عمله (الوادى المقدس) سرعان ماتدرك أن الأوصاف التى يسوقها إليك إنما هى الأوصاف التى يتحلى بها هو نفسه أو يحاول أن يتحلى بها . . من إيمان يؤمن به قويا خالصا لايشوبه شك ولايعتريه ضعف . . وحيث يحتوى قلبه الحب العميق دون غل ودون حقد . . لايعتريه قلق أو ندم ، يهتدى إلى الحكمة والتفكير المستقيم . . حيث آماله كلها خير ، وأحلامه كلها جميلة . . حيث تسمع صوت ضميرك صريحا واضحا آمرا بالخير فى غير لبس ، هاديا إلى الحق فى غير تردد .

ومن (الوادى المقدس) نقف على اعتقاد صاحب هذا العمل الهام . . فهو يرى الدين وسيلة الإنسان المثلى للاهتداء ، وهو شديد التسامح مع المعتقدات والأفكار التى لايرضاها ولايسلم بها ، وهو يرفض أن يكون الشر هو الأصل فى الإنسان ، ويرى أن الخير هو الأصل ، ويرى أن أكثر الناس طيبون بطبيعتهم .

مجمع اللغة العربية

وأنتقل بالقارئ من محمد كامل حسين جراح العظام إلى محمد كامل حسين جراح اللغة العربية إذا صح هذا التعبير يحاول أن يجبر مافيها من كسور حسب رؤيته . نحن الآن فى سنة ١٩٥٢ ومحمد كامل حسين جراح العظام ينتخب عضوا عاملا بمجمع اللغة العربية خلفا للمرحوم الأستاذ أحمد حافظ عوض .

وفى حفل استقباله حسب طقوس (الخالدين) قال عنه « الدكتور إبراهيم بيومى مدكور » ـ إنه عالم على أدق وأكمل مايراد بهذا الوصف فهو يؤمن بالتجربة إيمانا لايقل عن إيمانه بالعقل ، يؤمن بها لأنها سبيل كشف الحقيقة وكسب المعلومات . . . ويؤمن بالعقل إيمانا كاملا يريد العقل العلمى الذى يحلل ويعلل . . . وهو فى نفسه فيلسوف بقدر ماهو عالم .

وكانت له آراء جريئة فى لغة العرب نظر فى قواعد (جنس العدد) فى اللغة العربية وحسب أنها تفوق تفكير المتكلم فرأى أن تكون للعدد حالة واحدة دون نظر إلى تمييزه أى أن يستقل العدد عن معدوده والتسوية فى العدد بين المذكر والمؤنث وذلك من باب التيسير والتسهيل . . ورفض المجمع هذا الاقتراح مع تسجيل أن الدكتور كامل يتحرك من منطلق غيرته على اللغة العربية ورغبته فى تيسير الحديث بها .

واهتم بموضوع (اللغة العلمية والمصطلحات العلمية) وهو هنا يفرق بين العلم ولغة الأدب ، اللغة العلمية ينبغى أن تطابق، روح العلم ، وأن تكون ألفاظها محددة بعيدة عن المرادفات ، وأن تدل على الحقائق والوقائع ، ودعا إلى وضع المصطلحات العلمية وأن تكون هذه المصطلحات صورة حية لتطور العلوم .

ودخل فى معارك مع زملائه اللغويين ، وذهب إلى أن (أخطاء اللغويين) أكثر الأخطاء الشائعة التى يتحدث عنها اللغويون وعنى بالدعوة إلى (دائرة معارف عربية) تساعد على توحيد المصطلحات وعلى تحديد المعنى الدقيق والمادة الدقيقة سواء للأشخاص أو الموضوعات . وكان من رأيه أيضا الاهتمام بما أسماه (الفصحى المخففة) وهى وسط بين الفصحى وبين العامية وأشار إلى ضرورة وضع القواعد لها .

وقد أسهم « الدكتور محمد كامل » فى أعمال المجمع مساهمة فعالة ، خاصة لجنة المصطلحات الطبية . وأسهم ببحوث متعددة فى موضوعات متباينة . . . فى حقيقة أمر الفرزدق ، وفى القواعد العامة لوضع المصطلحات العلمية ، وفى اللغة والعلوم، وفى أصول علم اللغة وفى أسلوب أبى العلاء المعرى ، وفى أخطاء اللغويين ، وفى شعر المتنبى . وقد ظل عضوا بمجمع اللغة العربية حتى توفى فى ٦ مارس ١٩٧٧ .

وفى سنة الرحيل أصدر آخر كتبه (اللغة العربية المعاصرة) الذى أودعه أفكاره الجريئة لتيسير اللغة العربية ، وهذا الكتاب موضع إعجاب زميله وصديق عمره « الدكتور حسين فوزى » والدكتور « محمد كامل حسين » يرفض العودة إلى ما يسميه الفصحى العالية فتكون كأهل الكهف الذين حسبوا أن عملتهم ـ وهى صحيحة غير زائفة ـ يمكن أن تروج ويقضون بها حوائجهم ، وتكون مثل علماء الحفائر ، علمهم له قيمته التاريخية ولكن لاضرورة للسير على منواله ، والذين يقصرون علمهم على ماعرفه القدماء مثلهم كمثل من يسير محمولا على عربة (كارو) وعلى بعد خطوات منه طريق واسعة تقطعها السيارة فى دقائق والذين يستخدمون القواعد الجامدة مثلهم كمثل من يستخدم مغزل اليد وحوله الآلات التى تغزل آلاف الأمتار فى الساعة الواحدة . والذين يعتقدون أن كل مالا يرد فى المعاجم خطأ ، مثلهم كمثل الذى يدخل السجن طواعية واختياراً .

قـرية ظـالمة

إذا نظرت فى أية قائمة للكتب ، أو فى الفهارس تحت اسم « محمد كامل حسين » لوجدت أنه أثرى المكتبة العربية بعديد من الكتب . . . المتنوعات الجزء الأول سنة ١٩٥١ ، وبعده بسنوات عشر الجزء الثانى سنة ١٩٦١ . وفى هذين الجزأين جمع بحوثه ودراساته التى سبق له أن نشرها متفرقة . وبين هذين التاريخين ينشر أحد كتبه الخطيرة وهو (التحليل البيولوجى للتاريخ) سنة ١٩٥٧ ثم كتابه (وحدة المعرفة) وهو الموضوع الذى أدخله معركة مع عباس محمود العقاد ومع الدكتور زكى نجيب محمود . أما (الوادى المقدس) وهو قريب من التأملات الفلسفية فقد صدر سنة ١٩٦٨ ، وسنة ١٩٦٩ صدر له مختارات وهى فى واقع الأمر مختارات علمية ، وسنة ١٩٧١ صدر له كتابان هامان . . (الذكر الحكيم) وآخر أعماله (اللغة العربية المعاصرة) إلى جانب عديد من القصص القصيرة ذات العناوين المباشرة والتى نشرها متفرقة فى دوريات مختلفة .

ويلاحظ القارئ أن هذه جميعها ليس من بينها العمل الذى ارتبط باسمه أو الذى ارتبط اسمه به وهو رواية (قرية ظالمة) التى صدرت له سنة ١٩٥٤ . ومن قبيل تداعى المعانى إذا ذكر أمامنا اسم « الدكتور محمد كامل حسين » لتذكرنا أو ذكرنا رواية (قرية ظالمة) وهكذا عدد من كبار

أدبائنا . . توفيق الحكيم وعودة الروح . . طه حسين والأيام . . المنفلوطى والنظرات أو العبرات . . محمد حسين هيكل وزينب . . يحيى حقى وقنديل أم هاشم . . والأمثلة كثيرة يستطيع كل واحد منا أن يلحظها مع الأدباء والشعراء والفنانين عموما .

والقرية الظالمة هى (أورشليم) وماحدث من أهلها اليهود ومن حكامها الرومان مع « السيد المسيح » وحوارييه على النحو الذى هو شائع ومعروف وعلى النحو الذى هو مختلف عليه أيضا ، ولكن يبقى ماليس حوله خلاف وهو أن اليهود منذ حوالى عشرين قرنا طغت على حياتهم مادية جشعة وأنهم ضاقوا بدعوة « السيد المسيح » إلى المحبة والسلام والتواضع . وضاق أغنياؤهم بأن يقتسم كل من له ثوبان ملابسه مع آخر فقرروا أن يتخلصوا منه ، وأثاروا الجماهير بدعاوى لها مسحة الدين ، واخترقوا الحواريين وكان أحد التلاميذ عونا لهم ، وأهاجوا الجماهير على الحاكم الرومانى . . ورغم كل ما يحدث تنتشر الدعوة الجديدة هنا وهناك . ولسنا بصدد تلخيص رواية (قرية ظالمة) ولسنا بصدد بيان أوجه النقد الفنى حولها ، ولكن حسبها وحسبه انهما أصبحا كوجهى عملة واحدة هى عملة جيدة على كل حال . وتعدت شهرتها حدود مصر وأدخلت صاحبها فى عداد الأدباء إلى جانب ميادين أخرى كالطب وعلوم اللغة . أما آراؤه الفكرية والسياسية والفلسفية والتى شاعت فى ثنايا دراساته وبحوثه وما أصدره من كتب فسوف نعرض لها بعد قليل .

ثلاثة عقود

ثلاثة عقود من القرن العشرين تركت بصماتها واضحة على محمد كامل حسين وقد عرضنا أنه ولد مع مطلع القرن فى مارس ١٩٠١ وتوفى أيضا فى مارس (١٩٧٧) .

ولد مع بداية العقد الأول بسنواته السود التى مرت على مصر . وصلت الأزمة الاقتصادية إلى حد الجوع ، وانتشرت الأمراض فى البشر وفى الحيوانات على السواء ، وعبث جنود الاحتلال بمقدرات البلاد وحادثة دنشواى ١٩٠٦ دليل على ذلك . وتوفى والده وهو طفل رضيع وكفله أخوه « الصادق » الذى كان يقيم بالقاهرة . وعاش الاثنان على حب إلى أن فرق الموت بينهما . لم يتزوجا وعاشا مع أخت لهما مات زوجها وهى صغيرة . لعل سنوات العقد الأول بأزمتها الاقتصادية ، ولعل حرمانه من عطف الأب وإرشاده ، ولعل حب أخيه ورعايته له تركت آثارها على الفتى طوال حياته . كان محبا للناس ومواسيا لهم ، كان زاهدا فى بريق الدنيا معتدلا مستقيما ، بل لعلها هى التى دعت به إلى دراسة الطب فكان إنسانا طبيعيا ، وكان إنسانا يتسع قلبه لكل البشر حتى للذين يخالفونه الرأى والعقيدة ، ويجىء العقد الثانى وإذ بالصبى ينتقل من المدرسة

الإبتدائية إلى المدرسة الإلهامية الثانوية ويحصل على البكالوريا ويدخل مدرسة الطب وهو فى السنة الثانية وفى شهر (مارس) شهر مولده وشهر وفاته نشبت ثورة مصر القومية ويشارك فيها الشاب «محمد كامل حسين » وإذ بروحها القومية وروح التضحية والفداء ، روح الاندماج الوطنى تبقى معه حتى يوم رحيله ، كان وطنيا لاشك فى هذا ، كان قوميا لاشك فى هذا .

وفى أوائل العقد الثالث ، يتخرج فى مدرسة الطب سنة ١٩٢٣ ، ويسافر فى بعثة إلى لندن سنة ١٩٢٥ ، ويعود سنة ١٩٢٩ وهو زميل بكلية الجراحين الملكية . وهناك فى أوروبا بين لندن وباريس تتفتح بصيرته على العلوم المادية ويقتنع بأساليب البحث العلمى ، ويقف على مذاهب الفلسفة التى تدعو إلى الشك ويعيش مع المجتمعات الأوروبية وهى تضطرم بمذاهب اجتماعية واقتصادية تدعو إلى الاشتراكية وإلى الشيوعية . يعود إلى بلده وإذ به يكتب ناقدا ورافضا للاشتراكية والشيوعية ، وتبقى فى نفسه نزعة إنسانية أصيلة تدعو إلى المحبة والتكافل الاجتماعى ولكن داخل إطار إنسانى وبوسائل ترفض إهراق دم الإنسان ، وترفض إزهاق روحه . ولكن يبقى معه حتى يوم رحيله انفتاح على ثقافة الآخرين دون عقد ودون حساسية ودون تعصب .

جيــل المعــاناة

عندما أطلت النظر فى حياة « الدكتور محمد كامل حسين » خطر لى أن أقوم بسرد سريع لجيله الذى ولد معه أو بعده فى العقد الذى ولد فيه وجدت أن مصر المحروسـة قد أنجبت رجالا أعطوا لها كل ما يمكن فى حـدود ما اتيح لهم من رؤية ومن جهد منهم من ذهب نطلب له الرحمة ومنهم من لم يزل على ظهرها ندعو له بالصحة والعافية والعطاء .

تأملوا معى الذين أعطوا ـ محمد خلف الله أحمد ، وحسين خلاف ، وبدر الدين أبو غازى ، والشيخ عبد الرحمن تاج، وعزيز أباظة ، ومراد كامل ، وأحمد عبده الشرباصى ، وأحمد عمار ، وعلى الجندى ، وإبراهيم أنيس ، وأحمد بدوى ، وأحمد حسن الباقورى ، ومحمد زكى عبد القادر، وعلى النجدى ناصف . .

وإبراهيم بيومى مدكور ، ومحمد مهدى علام ، ومحمد توفيق الطويل ، ومحمود شاكر ، ومصطفى مرعى ، وسليمان حزين ، وشوقى ضيف ، وعبد السلام هارون ، وزكى نجيب محمود وغيرهم وغيرهم . . من جيل النهضة الفكرية والثقافية .

الأســانيد :

١ ـ لفتحى رضوان . . أفكار الكبار .

٢ ـ د . محمد كامل حسين . . التحليل البيولوجى للتاريخ .

٣ ـ د . محمد محمد الجوادى . . الدكتور محمد كامل حسين .

٤ ـ د . محمد مهدى علام . . المجمعيون فى ٥٠ عاما .

الشيخ محمد مصطفى المراغى



رحل الأستاذ الإمام « محمد عبده » فى يوليو ١٩٠٥ وترك لمصر وللعالم الإسلامى ثروة من الرجال « الشيخ محمد مصطفى المراغى ، والشيخ محمد شاكر ، والشيخ إبراهيم حمروش ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ، والشيخ محمود شلتوت» واختزن الشيخ الإمام « محمد مصطفى المراغى » فى ضميره قول أستاذه « الإمام محمد عبده » إلى الخديو عباس حلمى الثانى ـ (إن إصلاح الأزهر أعظم خدمة للإسلام وإصلاحه إصلاح لجميع المسلمين) .

وعى « المراغى فى ذاكرته هذا القول وترسم منهاج أستاذه فى كل ما تولى من مناصب دينية ، فلم يتقيد بمذهب أبى حنيفة كما كان المتبع آنذاك ، وتزعم الدعوة إلى فتح باب الاجتهاد وتوحيد المذاهب حتى تتوحد الأمة . . هكذا كان وهو يعمل قاضيا لمديرية دنقلة ، وقاضيا لمديرية الخرطوم وقاضيا للقضاة بالسودان . . وهكذا كان وهو يعمل رئيسا للتفتيش الشرعى ، ورئيسا للمحكمة الابتدائية الشرعية ، ورئيسا للمحكمة العليا الشرعية فى مصر بعد أن عاد من السودان . . إلى أن جاء «مصطفى النحاس» رئيسا للوزراء (١٦ مارس ـ ٢٥ يونيه ١٩٢٨) وتمسك بتعيين « المراغى» شيخا للأزهر ـ على غير رغبة الملك فؤاد ـ فى ٢٣ مايو ١٩٢٨ . وهو أصغر من تولى هذا المنصب الجليل (ولد فى مارس ١٨٨١م فى المراغة مركز طهطا مديرية سوهاج) وكان أصغر من حصل على (العالمية) ـ حصل عليها سنة ١٩٠٤م ـ على يدى « الأستاذ الإمام محمد عبده» الذى رشحه فى السنة نفسها للعمل فى السودان . . وفى السودان تعلم اللغة الانجليزية واتسعت علاقاته بزملائه وأصدقائه السودانيين، وتوثقت علاقاته بالحاكم العام للسودان وهو انجليزى مع الحفاظ على جلال المنصب الذى يشغله، ومع تمسكه بالقواعد الشرعية ، ومع حرصه على هيبة شخصيته . . وعرف عنه الميل إلى الاعتدال ، والنفور من العنف

مع الاستقلال فى اتخاذ القرار . . كل هذا بذكاء خارق جعل الانجليز يلتفتون منذ وقت مبكر ـ إلى الشيخ الذى يتمتع بقدر كبير من الذكاء والدهاء واستقلال الرأى والشخصية وتقرر أن يتولى منصب قاضى القضاة بالسودان (١٩٠٨م) وعمره ٢٧ سنة فكان أصغر من تولى هذا المنصب . وقاضى القضاة منصب بالسودان كان يشغله مصرى ولكن الانجليز سنة ١٩٤٧ وبعد انتهاء مدة « الشيخ حسن مأمون » عينوا سودانيا فى هذا المنصب رغبة منهم فى إضعاف الصلة الدينية بين مصر والسودان ، وفى الوقت نفسه محاولة للإيقاع بين البلدين الشقيقين .

وعندما كان « الشيخ » قاضيا للقضاة بالسودان قامت الثورة الشعبية الكبرى مارس ١٩١٩ بمصر ، فأصدر « المراغى » نداء للمصريين بالسودان للتبرع المالى لإنقاذ منكوبى الثورة . وعلى الرغم من أن « الشيخ » لم يناشد السودانيين للتبرع فقد استاء الحاكم العام من هذه الخطوة السلمية والتى حصرت تحرك المصريين هناك فى نطاق التبرع . وإن كانت بعض القطاعات السودانية تحركت بالفعل لتأييد الثورة المصرية . على أية حال فقد وصل المبلغ إلى ستة آلاف جنيه سلمه « المراغى » للأستاذ « محمد العشماوى » ـ الوزير محمد العشماوى باشا فيما بعد ـ والذى كان قاضيا مدنيا بالخرطوم ، ليقدمه بدوره إلى الجمعيات الخيرية الإسلامية والقبطية فى مصر تتصرف فيه بمعرفتها . كان ذلك فى شهر يونيه ١٩١٩ . وعاد « الشيخ » إلى مصر من السودان فى شهر يوليو من السنة نفسها .

الشيخ وقضايا الخلافة

ونتوقف قليلا عند موعد عودة « الإمام » إلى مصر من السودان ريثما نتحدث عن مواقف هامة فى تاريخ « الشيخ المراغى » قبل هذا التاريخ وبعده توضح حقيقة شخصيته وأبعاد علاقاته بالانجليز التى يكثر الحديث فيها أحيانا بمعزل عن ظروفها التاريخية وبمعزل عن أسلوب الإمام ومواقفه الأخرى .

كان من أثر الحرب التركية الإيطالية (١٩١١ ـ ١٩١٣) وتخاذل تركيا فى تلك الحرب أن تزايد السخط بين العرب ضد الدولة العثمانية ، وأسس عدد من شباب العرب العسكريين والمدنيين (جمعية العهد) أكتوبر ١٩١٣ فى مقدمتهم : « عزيز المصرى وجميل المدفعى ، وطه الهاشمى ، ويوسف الغزاوى ، وسعيد التكريتى ، وصبيح نجيب ، وتحسين العسكرى ، ونورى السعيد ومصطفى وصفى ، ويحيى كاظم وتوفيق الجندى ، وأمين لطفى ، وعلى النشاشيبى ومزاحم الأمين ، وعبد الكريم الخليل وعاصم الحلبى ، وإسماعيل الطيب ، وأسعد داغر ، وفايق شاكر الطيب ، وثابت عبد النور » . وانضم غالبية هؤلاء ـ بمعاونة الإنجليز ـ إلى حركة « الشريف

حسين سنة ١٩١٥ ، وكان الانجليز يسعون إلى نقل (الخلافة) من الدولة العثمانية إلى « الشريف حسين » باعتباره قريشيا وخاصة أنه بعد سقوط (الطائف) أعلن نفسه ملكا فى ٢٩ نوفمبر ١٩١٦ ولكن « الشيخ مصطفى المراغى » على الرغم من علاقته الوثيقة بالإنجليز ، وعلى الرغم من حرص الانجليز على الاحتفاظ بتلك العلاقة قوية ، على الرغم من هذا كله أعلن « المراغى » عدم شرعية نقلها للشريف حسين الحليف القوى للإنجليز فى المنطقة أثناء الحرب العالمية الأولى . كان موقف « المراغى » هنا على غير رغبة الانجليز ، وعلى غير رغبة الحركة القومية العربية الصاعدة .

وفى ٣ مارس ١٩٢٤ ألغى « أتاتورك » الخلافة العثمانية ، ورغب الانجليز هذه المرة فى أن يصبح « الملك أحمد فؤاد » خليفة للمسلمين . ووجدها الملك فرصة للتخلص من القيود ـ المحدودة ـ التى يفرضها دستور ١٩٢٣ على سلطاته ، فرغب فى الخلافة كانت سياسة أتاتورك الجريئة قد لقيت إعجابا من عناصر وقطاعات كثيرة من الشعب المصرى ، ولكن عناصر هامة دافعت عن بقاء (الخلافة) كرابطة دينية . وعندما حاول « الشريف حسين » ملك الحجاز أن يأخذ البيعة لنفسه تذكر الناس ما كان قد أعلنه « الشيخ المراغى » من قبل ثم تحول الاتجاه العام بفعل الشعور القومى إلى أن تكون مصر مركز الخلافة .

وتكونت (الهيئة العلمية الدينية الإسلامية الكبرى) برئاسة « الشيخ «أبو» الفضل الجيزاوى » شيخ الجامع الأزهر وعضوية «الشيخ محمد مصطفى المراغى ، والشيخ عبد الحميد البكرى ، والشيخ محمد شاكر » وعدد من الشيوخ والعلماء ومعهم عدد من المدنيين . . ونشط القصر فى الدعاية والدعوة لهذه الهيئة ولتأليف لجان لها ، وتشجيع المجلة الشهرية التى أصدرتها الهيئة باسم (مجلة المؤتمر الإسلامى العام للخلافة فى مصر) .

إلا أن دور الانجليز المكشوف من هذه (المسألة الدينية) ومحاولة استغلالها لمصالحهم المعادية للحركة الوطنية ، والدور الواضح النشط الذى قام به « حسن نشأت » رجل القصر فى إنشاء اللجان الخاصة بالخلافة وشخصية الملك « أحمد فؤاد » وما أحاط بها من سلوكيات غير مقبولة لدى الرأى العام المصرى ، هذه العناصر وغيرها كشفت عن الاتجاهات السياسية خلف هذه (المسألة الدينية) ورأى الوفد و « سعد زغلول » عدم تمكين « الملك فؤاد » من هذا الرداء الدينى الذي يمكن أن يستغله لزيادة سلطة القصر . وكان الملك لايضمن تماما تعاون حزب الأحرار الدستوريين معه ، فأسس القصر (حزب الاتحاد) والذى قام بالدور النشط فيه « حسن نشأت » الذى كان الداعية للجان الخلافة . ومن هنا مال الأحرار الدستوريون إلى عدم زيادة سلطان «فؤاد» بالخلافة ، ووقف حزب الأحرار ووزراؤه وقادته ومستنيروه وصحيفته إلى جانب « الشيخ

على عبد الرازق » عندما أصدر كتابه الشهير (الإسلام وأصول الحكم) عام ١٩٢٥م . والكتاب كان موجها ضد رغبة الملك فؤاد فى الخلافة . وتكاتف الوفديون والأحرار فى الوقوف فى وجه رغبة الملك ، وظهرت كتابات هامة تجزئ الموضوع إلى عنصرين . . وجوب الخلافة . . ومن يكون الخليفة ؟ والمعروف أن « الشيخ المراغى » كان مؤيدا قويا لحزب الأحرار الدستوريين وصديقا حميا لأحمد لطفى السيد مفكر الحزب . . وجاء رأى « المراغى » فى مسألة الخلافة على وجوبها من الناحية الشرعية ، ولكنه ترك مسألة من يشغلها معلقة ، فأسر له الملك فؤاد هذا الموقف ولكن «المراغى جاء شيخا للأزهر مرتين على غير رغبة الملك فؤاد وهذا ما سوف نفصله فيما بعد .

حـزب الخـلافة الإسـلامية

وأفضل أن نستكمل مواقف « الشيخ » فى مسألة الخلافة قبل أن نتحدث عن المشيختين الأولى والثانية للمراغى . وقد انتهينا إلى أن الحديث عن الخلافة أيام الملك فؤاد فتر لأسباب سياسية ودينية معا . . ولكن (جماعة مصر الفتاة) بزعامة « الأستاذ أحمد حسين» استمرت تنادى بزعامة مصر للبلاد الإسلامية ، وزادت من نشاطها أيام كان « المراغى » شيخا للأزهر للمرة الثانية لتفيد من أثر « الشيخ» على الملك فاروق ، وعبر « أحمد حسين » عن هذا الاتجاه فى خطاب إلى الملك فاروق فى فبراير ١٩٣٨ على صفحات مجلة (مصر الفتاة) وتبلور الاتجاه إلى دعوة لتأسيس (حزب الخلافة الإسلامية) يعمل على جمع كافة المسلمين والالتفاف حول (مليكنا الصالح خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاروق الأول) كما جاء فى الدعوة إلى اجتماع لهذا الغرض يعقد فى الساعة الثانية بعد الظهر بالجامع الأزهر يوم الجمعة ٢٣ أغسطس ١٩٤٠ م . ووقع هذا البيان « محمد مصطفى المراغى ومحمد حسن الفحام ، وعبد المجيد سليم ، وعباس مشالى ، وإبراهيم حمروش ، ومأمون الشناوى . وإبراهيم الجبالى وسليمان نوار ، وعبد الجليل عيسى ، وعبد الرحمن عزام ، والحسينى سلطان ، وأمين الشيخ ومصطفى عنانى ، وعبد الحميد بصيلة وأحمد شاكر ، وسعد اللبان ، وأحمد حسين وعزيز المصرى ، وعلى ماهر» وواضح من الأسماء التى دعت لذلك الحزب أنها أسماء سياسية فى غالبيتها وان الدعوة سياسية فى المقام الأول لمواجهة الانجليز . ولم يظهر دور واضح لجماعة (الإخوان المسلمين) لتكوين ذلك الحزب ، وسرعان ما فترت الدعوة له وإزاء ذلك بادر « أحمد حسين » بتغيير اسم (مصر الفتاة) إلى (الحزب الوطنى الإسلامى) فى مارس ١٩٤٠ . وعرض تعديلا لبرنامج (مصر الفتاة) وأبرز الجانب الإسلامى على ما عداه . وازداد التقارب بين الملك فاروق وجماعة مصر الفتاة عن طريق « محمد كامل البندارى » وكيل الديوان الملكى وقت ذلك ـ الباشا الأحمر فيما بعد ـ وكان صديقا حميا للأستاذ « أحمد حسين » .

المراغى شيخا للأزهر

عاد « المراغى » قاضى قضاة السودان إلى مصر فى يوليو ١٩١٩ ، وتنقل فى عدة مناصب .. رئيس التفتيش الشرعى بوزارة الحقانية ، ورئيس محكمة مصر الابتدائية الشرعية ، وعضو المحكمة العليا الشرعية ، فرئيس المحكمة العليا الشرعية .. وكان فى هذه المناصب جميعا أصغر من تولاها .

ونحن الآن فى عهد وزارة « مصطفى النحاس » الأولى من ١٦ مارس ـ ٢٥ يونيه ١٩٢٨ ، وهى وزارة ائتلافية بين الوفد والأحرار الدستوريين . والشيخ المراغى مؤيد للأحرار الدستوريين ، وصديق حميم لمحمد محمود ، ولم يكن قد ظهر عداء بعد بين « الشيخ » والوفد . والملك « أحمد فؤاد » لم يزل يذكر موقف الشيخ فى تأييده للخلافة وتجنب الحديث عمن يتولاها . وفى يوليو ١٩٢٧ توفى شيخ الأزهر « الشيخ الإمام محمد أبو الفضل الجيزاوى » وظل المنصب شاغرا حتى تولى « مصطفى النحاس» رئاسة الوزارة ، ورشح الملك فؤاد « الشيخ الظواهرى» ورفض «النحاس» مرشح الملك ، واقترح « محمد محمود» وزير المالية فى وزارة النحاس الائتلافية اسم «المراغى » وأصبح بذلك مرشحا للوزارة الائتلافية ورفض الملك . فأصر « النحاس » على تعيين «الشيخ محمد مصطفى المراغى » شيخا للأزهر ، وعلى تعيين « الشيخ عبد المجيد سليم » مفتيا للدار المصرية فى ٢٣ مايو ١٩٢٨ . وبعد شهر انفرط عقد الائتلاف وأقيلت الوزارة بفعل دسائس « على ماهر » وشكل « محمد محمود » وزارته الائتلافية الأولى بدون الوفد (٢٥ يونية ١٩٢٨) وكان « المراغى» أصغر من تولى مشيخة الأزهر (٤٧ عاما) وتسانده حكومة حزب الأحرار ، ويؤيده تيار الإصلاح داخل الأزهر وشكل لجنة للإصلاح برئاسته انتهت من بحوثها فى سبتمبر . وأقرت وزارة « محمد محمود » هذه الاقتراحات . وبدأ المراغى فى تنفيذ مشروعه قبل أن يصدر قانون به فألغى مدرسة القضاء الشرعى .. وكان من بين الاقتراحات إلغاء دار العلوم ، وفتح باب الاجتهاد وإدخال العلوم الحديثة .. وأدرك « المراغى » بذكائه الخارق ان الوزارة تتباطأ فى استصدار القوانين تجنبا لصدام مع الملك الذى لم يرض عن (مشروع المراغى) وتحت إصرار المراغى أقرت الوزارة المشروع . ورفض الملك المشروع فى اليوم الأخير للوزارة . وقدم المراغى استقالته وأصر عليها فقبلها محمد محمود يوم استقالة الوزارة أيضا (٢ أكتوبر ١٩٢٩) وكان من الطبيعى أن يخلفه « الشيخ الإمام محمد الظواهرى » فى ١٠ أكتوبر ١٩٢٩» .

وظل « المراغى » بعيدا عن الأزهر قرابة خمس سنوات ، ولكن ما أعظم أن يكون (المصلح) مطلوبا لا طالبا .. خرج الأزهر ينادى (بالمراغى ؛ وألح فى النداء ولكن الرد كان فصل ٧٢ من شيوخه وعلمائه .. منهم « الشيخ إبراهيم اللقانى ، والشيخ عبد الجليل عيسى ، والشيخ

شلتوت ، والشيخ محمد عبد اللطيف دراز والشيخ على سرور والزنكلونى . ومع بداية وزارة «توفيق نسيم» ـ ١٤ نوفمبر ١٩٣٤ إلى ٣ يناير ١٩٣٦ ، وكان الوفد يؤيدها لأنه أعلن عن عزمه على إعادة العمل بدستور ١٩٢٣ ، بدأ شباب الأزهر حركة أعلى صوتا تطالب بالإصلاح ، وامتدت الحركة إلى معاهد المدن الأخرى ، وتصاعدت الحركة حتى يناير ١٩٣٥ . . وفى فبراير بلغت الحركة ذروتها وتحدد هدفها فى عودة (المراغى) وأطلق زعيم هذه الحركة « الشيخ أحمد حسن الباقورى» عبارته الشهيرة : (إما تحت راية المراغى ، وإما إلى القرى تاركين الأزهر للبوم والغربان) . . ولكن « الشيخ الظواهرى » فى ١٨ فبراير ١٩٣٥ أصدر قرارا بفصل « الشيخ الباقورى » والشيخ محمد المدنى وقرارا بنقل عدد كبير من العلماء مثل : « الشيخ محيى الدين عبد الحميد ، والشيخ الظواهرى » ذى استقال فى ٢٧ أبريل ١٩٣٥ ، وعاد « الشيخ المراغى » شيخا للأزهر وعاد المفصولون والمنقولون » وبقى فى منصبة عشر سنوات حتى توفى فى ٢٢ أغسطس ١٩٤٥ .

اعلن الدعوة إلى فتح باب الاجتهاد ، وتوحيد المذاهب حتى تتوحد الأمة .

ودارت بينه وبين « أغاخان » سنة ١٩٣٨م محادثات بهدف تكوين هيئة للبحث الدينى تستهدف التضامن بين الهيئات التعليمية فى العالم الإسلامى ، والعمل على تبسيط قواعد الدين وتعاليمه ، ومحاولة التوفيق بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم وتأكيد الروابط فيما بينهم ، وألف لجانا لدراسة قوانين الأزهر والعمل على إصلاحها ، وأنشأ مراقبة للبحوث والثقافة الإسلامية تختص بالنشر والترجمة والعلاقات الإسلامية .

وفى مذكراته الاجتماعية والسياسية يسجل « محمد على علوبة » إنه بعد أن اختير وزيرا للمعارف فى وزارة على ماهر (٣٠ يناير ١٩٣٦) عرض على الملك فؤاد ضرورة ترجمة القرآن الكريم فقال له إن شيخ الأزهر الشيخ مصطفى المراغى كان قد عرض عليه الفكرة وإنه لم يقبلها اتقاء مجاهرة بعض رجال الأزهر بمخالفة هذا العمل للدين ، وطلب الملك من علوبة أن يذهب ويتفق فى هذا الشأن مع الشيخ المراغى ، وهذا يبين أن الملك «فؤاد» كان يعمل حسابا للشيخ المراغى حتى ولو لم يكن يميل إليه . كان المراغى أمينا فى عمله فبعد أن اختير بالمجمع اللغوى سنة ١٩٤٠ وجد أنه مثقل بالأعمال فاستقال سنة ١٩٤٢ .

الناقة والجمل

وعلى عكس علاقة الشيخ بالملك فؤاد ، كانت علاقته وثيقة بالملك فاروق واعتاد على أن يلقى دروسا فى المساجد فى رمضان ويوم ١٩ سبتمبر ١٩٤١ كان يخطب الجمعة فى (جامع بيبرس) والملك فاروق حاضر يستمع ، وفى اليوم السابق وقعت غارة على القاهرة راح ضحيتها ٣٩ قتيلا و٣٣ جريحا . وعبر « الشيخ » عن مشاعر غالبية الشعب فى عدم الاشتراك فى الحرب بقوله المشهور

(حرب لاناقة لنا فيها ولاجمل) وكان « حسين سرى » رئيسا للوزراء للمرة الثالثة ، وغضب الانجليز . وبعد أن أعيت الحيلة حسين سرى فى حواره مع الشيخ قال سرى للمراغى : هذا كلام فى السياسة وليس من اختصاصك ، وليس لك أن تتكلم فى أمور تخصنا . . فقال المراغى : إننى لا أتكلم فى السياسة . . وأخذ ورقة وكتب استقالته التى لم تقبل .

وكان موقف « الشيخ » فى هذه المسألة يتفق وموقف الأحرار الدستوريين والحزب الوطنى والقصر . أما الوفد فقد ركز على مطالب محددة هى أن تتعهد انجلترا بانسحاب قواتها بمجرد عقد الصلح وبإعادة النظر فى المعاهدة . وطوال عهد حكومة الوفد (فبراير ١٩٤٢ ـ أكتوبر ١٩٤٤) لم يفكر الوفد فى إعلان الحرب ضد المحور وركز على مطالبه السابقة . كان السعديون بزعامة «أحمد ماهر» ينادون فى صراحة بالاشتراك فى الحرب ، وقد دفع « أحمد ماهر » حياته ثمنا لهذا الاشتراك مساء يوم ٢٤ فبراير ١٩٤٥ . وفى السنة نفسها فى ٢٢ أغسطس توفى « الشيخ الإمام محمد مصطفى المراغى » تاركا ما يتفق ويختلف حوله الناس . . شأنه شأن كل رجل عظيم .

الأسـانيد :

١ ـ د. السعدى فرهود وآخرون . . الأزهر الشريف .

٢ ـ أنور الجندى . . الإمام المراغى .

٣ ـ حسن يوسف . . مذكرات .

٤ ـ طارق البشرى . . المسلمون والأقباط .

٥ ـ عباس محمود العقاد . . محمد عبده .

٦ ـ د . عبد المنعم النمر . . الأخبار ٢٨/ ٤/ ١٩٨٨ .

٧ ـ د . على شلبى . . مصر الفتاة .

٨ ـ محمد على علوبة . . ذكريات اجتماعية وسياسية

محمد محمود



هذا الرجل من الصعيد . . ولعلى بهذه العبارة أرضى رغبة الدكتور بجامعة سوهاج ورائد الشباب بكلية التربية الذى تفضل برسالة لى يقترح فيها إعداد سلسلة خاصة تحت عنوان (هذا الرجل من الصعيد) لاتكون مقصورة على أهل السياسة وإنما تتناول المنسيين مثل محمد عبد المطلب شاعر البادية (سوهاج) والشاعر على الجندى عميد دار العلوم (سوهاج) والشيخ حسنين مخلوف المفتى الأسبق (بنى عدى وغيرهم ، وذلك لمواجهة ما أسماه بالزيف الذى يمارس ضد الصعايده ممثلا فى الإسقاط الذى يقوم باسم الفن) .

وزيادة فى اغرائى يذكر الدكتور الصعيدى أن هذه رغبة مجموعة من مثقفى الصعيد وقد سبق هذه الرسالة رسائل أخرى . ويبدو أن أهلنا فى الصعيد لديهم قدر زائد من الحماسة لصعيديتهم - ربما لمواجهة الفن الزائف الذى يمارس ضدهم - يكفى أن اذكر ان « محمد محمود » هو الوحيد من بين قادة الأحرار الدستوريين الذى نجح فى انتخابات يناير ١٩٢٤ أمام مرشحى سعد زغلول ويكفى أن أذكر أننا ونحن صغار كنا نردد على لسان محمد محمود قولا ينسب إليه (أنا ابن من عرض عليه الملك فأبى) إشارة إلى أن الانجليز بعد إعلان الحماية على مصر مع نشوب الحرب العالمية الأولى ومنع الخديو عباس حلمى من العودة إلى مصر اتجهت انظارهم إلى « محمود باشا سليمان » والد « محمد محمود » لتنصيبه سلطانا على مصر فأبى .

محمود سليمان

وإذا كان الحديث عن الوالد يسبق الحديث عن الولد ، أذكر أننا ونحن تلاميذ فى مدينة «أبو»

تيج مديرية أسيوط كنا أكثر أبناء الصعيد ترديدا لهذا القول الذى ينسب إلى « محمد محمود » ليس زهوا بصعيدى يعرض عليه الملك ولكن لأن « محمود سليمان » كان فى فترة من حياته عمدة لمدينتنا (أبو تيج) وفى قائمة أعضاء (مجلس شورى النواب) يناير ١٨٦٧ نجد من بين أعضائه « سليمان افندى عبد العالى » عن أسيوط وهو والد « محمود سليمان » وجد « محمد محمود » وفى قائمة أعضاء برلمان توفيق ١٨٨١ وعن أسيوط نجد اسم « محمود بك سليمان عبد العالى » وهو والد « محمد محمود » . ثم عين عضوا فى (مجلس شورى القوانين) وبقى عضوا فيه لمدة ثلاثة عشر عاما منها ثمانية أعوام نائبا لرئيس الجمعية العمومية . وكان نائبا لمدير جرجا ونائبا لمدير أسيوط .

و « محمود سليمان » من رواد سياسة الاعتدال فى مصر ، ومن مجموعة ينسب إليها أنها خرجت على خط الثورة العرابية بعد ان ألقى عرابى سيفه وهو واحد من الذين بادروا بلقاء قادة حملة الاحتلال فى محاولة للمهادنة والمحاسنة لأنهم يرون أن « أحمد عرابى » لم يكن موفقا فى اختيار توقيت الصدام ولا فى معرفة مدى قوته التى يواجه بها القوة الأجنبية ، وأنه كما قال له الشيخ «محمد عبده» محذرا إن الصدام سوف يجلب النكبات على البلاد على أية حال كانت المجموعة تتكون من « محمد سلطان ، ومحمود سليمان وعبد الشهيد بطرس ، ومحمد الشواربى ، وعبد السلام المويلحى ، وأحمد السيوفى » ، وكان الشيخ « محمد عبده » قد حذر كما قلنا فى اجتماع مشهور من عواقب الصدام غير المدروس ، ولكنه انحاز تماما للثورة العرابية عندما وقع الصدام ، وبعد انكسار الثورة عاد إلى (مدرسة الإصلاح الدينى والتعليمى) وفى محاولة لإنقاذ مايمكن إنقاذه .

وهذه المدرسة هى التى أسست جريدة (الجريدة) وأسست حزب الأمة ، تأسست (الجريدة) فى ٩ مارس ١٩٠٧ وتوقفت فى ٣٠ يوليو ١٩١٥ . وأعلنت الجريدة فى عددها الأول عن مؤسسيها « محمود سليمان ـ حسن عبد الرازق ـ أحمد فتحى زغلول عبد الرحمن الدمرداش ـ عبد العزيز فهمى ـ على شعراوى ـ عمر سلطان » وفى ٢١ سبتمبر ١٩٠٧ تأسس حزب الأمة وكان «محمود سليمان » أول رئيس له . وحزب الأمة تأسس من كبار الملاك الزراعيين الذين يرون فى أنفسهم الأصحاب الحقيقيين لمصر لذلك نادوا بشعار (مصر للمصريين) بعيدا عن الانجليز أو العثمانيين واهتموا بالثقافة العصرية فكان من أبنائهم (مدرسة الاستنارة) التى ترعرعت بعد ذلك فى حزب الأحرار الدستوريين . وقد حملت (الجريدة) هذه الدعوة للمصريين ، ومعارضة الاتجاه إلى الدولة العثمانية التى كان يحملها « مصطفى كامل » وفى الوقت ذاته دعت إلى التعقل وعدم العنف .

والملاحظ أن « سعد زغلول » رغم علاقاته الوثيقة بالشيخ « محمد عبده » الأب الروحى لجماعة حزب الأمة ، ورغم علاقاته الوثيقة بكثيرين من أعضاء حزب الأمة ومؤسسى الجريدة كان حريصا

ألا يدخل الحزب أو يرتبط بالجريدة . والذى كان له دور مع أعضاء الحزب والجريدة هو شقيقه «أحمد فتحى زغلول » . والملاحظ أيضا أن أعضاء حزب الأمة كان لهم دور بارز فى تأليف الوفد المصرى مثل « محمود سليمان » الذى أصبح رئيسا للجنة الوفد المركزية ومثل « عبد العزيز فهمى وعلى شعراوى ومحمد محمود» .

محمد محمود

وإذا كان « محمود سليمان » الأب تعلم فى الأزهر فإن « محمد محمود » الأبن تعلم فى اكسفورد وإذا كان الأب محبوبا من الذين احاطوا به لم يكن الابن هكذا لنزعة من التعالى والغطرسة أو ما يشبه ذلك .

هل أصفه لكم ؟ كان محمد محمود ربعة ، ذا ملامح سمراء وجهه عريض منبسط ، شفتاه تميلان إلى الغلظة ، أنيق الملبس مثله مثل « على ماهر » فى العناية المفرطة بمظهره والأسرة يرجع أصلها إلى الحجاز واستقرت فى مدينة (ساحل سليم) بمديرية أسيوط منذ أمد طويل وهى أسرة كبيرة يطلق عليها اسم بيت (السلينى) ولا أعرف أصل هذه التسمية .

ولد محمد محمود سنة ١٨٧٧ وبعد تعليمه الابتدائى والثانوى درس التاريخ فى اكسفورد . وبعد أن عاد ترقى بسرعة ملحوظة إلى أن أصبح مديرا للفيوم ثم مديرا للبحيرة . ويذكر « أحمد لطفى السيد » فى مذكراته أنه كان يتشاور مع « محمد محمود » فى تأسيس الجريدة وفى سياستها ، وفى تأليف (حزب الأمة) وفى خطه السياسى وكان هذا سنة ١٩٠٧ . وفى مذكراته يسجل «سعد زغلول » إنه عندما كان ناظرا للمعارف زار الفيوم سنة ١٩٠٨ واستقبله « محمد محمود » مدير الإقليم وهناك تعرف « سعد » على « حمد الباسل » وندرك من المذكرات أن هذه المقابلة بين سعد ومحمد محمود سبقتها مقابلات أخرى .

كان « محمد محمود » معروفا إذن لسعد زغلول لذلك نجد أن « سعدا » قد دعاه قبيل إعلان الهدنة فى الحرب العالمية الأولى إلى عزبته بمسجد وصيف مع « عبد العزيز فهمى » و« أحمد لطفى السيد » وتحدث معهم فيما ينبغى عمله بعد إعلان الهدنة . وفى الاجتماع الموسع الذى عقد فى بيت سعد زغلول فى ١١ نوفمبر ١٩١٨ وحضره « محمد محمود » تقرر أن ينوب عن الوفد فى لقاء المعتمد البريطانى « سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى » وكان من الطبيعى أن يصبح « محمد محمود» عضوا فى التكوين الأول للوفد المصرى الذى تشكل من . . « سعد زغلول ، وعلى شعراوى ، وعبد العزيز فهمى ، وأحمد لطفى السيد ومحمد محمود ، وعبد اللطيف المكباتى ، ومحمد على علوبة » .

وفى يوم ٨ مارس ١٩١٩ ـ اليوم السابق على الثورة ـ اعتقل الانجليز محمد محمود مع سعد زغلول وحمد الباسل وإسماعيل صدقى وسارت بهم باخرة إلى مالطة ـ وهكذا قدر لمحمد محمود أن يكون أحد الأربعة الكبار الذين أشعلوا ثورة ١٩١٩ غداة إلقاء القبض عليهم .

الأخـوة الأعـداء

ويتم الإفراج عن سعد وصحبه فى ٧ أبريل ١٩١٩ ويسافرون إلى باريس ويلحق بهم عدد آخر من أعضاء الوفد ـ ويبقى الوفد بين باريس ولندن ، بين مفاوضات ومباحثات ، بين شد وجذب قرابة عامين وفى غالبية المواقف كان هناك فريقان . . فريق عرف بتشدده وتطرفه على رأسه «سعد» وفريق عرف باعتداله وحسن تدبيره كما يقال وعلى رأسه « عدلى يكن » وفى غالبية المواقف كان «محمد محمود » فى فريق الاعتدال الذى كان يضم « عبد العزيز فهمى وأحمد لطفى السيد وحمد الباسل ، وعبد اللطيف المكباتى ، ومحمد على علوبة » .

ووصل « عدلى يكن » مع الانجليز إلى صيغة معينة من الاتفاق لم يرض عنها « سعد » واتجه إلى قطع المفاوضات إلا أن غالبية الوفد (فريق الاعتدال) نصحت بالتريث وقررت إيفاد أربعة من أعضاء الوفد إلى مصر وطرح المشروع على الشعب وكان « محمد محمود» واحدا من هؤلاء الأربعة . وقد لاحظ « مصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفى » أن المندوبين الأربعة يعرضون الانفاق بطريقة تجعل الناس يميلون إلى قبوله وليس بأسلوب محايد فسافروا إلى باريس فى ٤ أكتوبر ١٩٢٠ لوضع الأمر أمام «سعد » وهنا بدأت ملامح الانقسام فى الوفد تتضح ، وفى ٢٠ نوفمبر قرر « عدلى يكن » العودة إلى مصر وشكل وزارته الأولى فى ١٦ مارس ١٩٢١ وأجرى مفاوضات مع الانجليز بتأييد من فريق (الاعتدال) وفشلت المفاوضات وعاد (عدلى) ليقدم استقالته التى قبلت فى ٢٤ ديسمبر وكان الانجليز قد قرروا توجيه ضربة إلى « سعد » والمؤيدين له ويتم اعتقالهم .

وفى أكتوبر ١٩٢٢ تم الإعلان عن تشكيل حزب الأحرار الدستوريين كإعلان عن الانقسام الكامل فى الوفد وتولى رئاسة الحزب « عدلى يكن » وكان من أبرز عناصره « محمد محمود » . وفى أواخر ديسمبر ١٩٢٤ تخلى « عدلى » من رياسة الحزب لعبد العزيز فهمى الذى استقال بدوره سنة ١٩٢٦ ليصبح « محمد محمود » رئيسا لحزب الأحرار الدستوريين حتى توفى فيفبراير ١٩٤١ . وخلال تلك الفترة تولى رئاسة الوزارة والوزارة عدة مرات وكانت له مواقف هى موضع خلاف شديد .

نحـو السـلطة

استقال « محمد محمود » من الوفد فى ٢٨ أبريل ١٩٢١ ، وشارك فى تأسيس حزب الأحرار الدسـتوريين فى أكتوبر ١٩٢٢ وهو الوحيد من زعماء هذا الحزب الذى نجح فى انتخابات يناير ١٩٢٤ . واطيح بوزارة الشعب فى نوفمبر ١٩٢٤ ، وجاءت وزارة القصر والانجليز برياسة « أحمد زيور » من نوفمبر ١٩٢٤ حتى مارس ١٩٢٥ ثم وزارته الثانية فى مارس ١٩٢٥ حتى يونية ١٩٢٦ . ولم يكن هناك مفر من اللجوء إلى وزارات ائتلافية تكون فيها الغالبية للوفد بدلا من أن تكون وفدية خالصة .

جاءت وزارة برياسة « عدلى يكن » من ٧ يونية ١٩٢٦ ـ ٢١ أبريل ١٩٢٧ كان « محمد محمود» وزيرا للمواصلات فيها وسقطت الوزارة لعدم رضاء « سعد » عن سياستها . وأعقبتها وزارة برياسة « عبد الخالق ثروت » من أبريل ١٩٢٧ ـ مارس ١٩٢٨ ، وهى وزارة ائتلافية من الوفد والأحرار الدستوريين ، كان « محمد محمود » وزيرا للمالية فيها . واستمر وزيرا للمالية فى وزارة «مصطفى النحاس » الأولى من مارس ـ يونية ١٩٢٨ . وفى منتصف الطريق فى ٤ مايو ١٩٢٨ قدم « محمد محمود » استقالته ثم سحبها وعاد يستقيل فى ١٧ يونيه كل ذلك للإطاحة بوزارة «مصطفى النحاس » واستقال الوزراء الأحرار الدستوريون وسقطت وزارة « مصطفى النحاس » الأولى فى ٢٥ يونيه ١٩٢٨ . وكانت التظاهرات الشعبية خلال فترة تلك الوزارة تجتاح البلاد مؤيدة للوفد وللنحاس مما أعاد للأذهان أيام سعد زغلول ولجأ القصر إلى « محمد محمود » ليحكم البلاد بيد من حديد .

حكـومة اليد الحـديدية

جاء « محمد محمود » رئيسا للوزارة فى ٢٧ يونيه ١٩٢٨ وأصبح رئيسا للأحرار الدستوريين بعد تخلى عبد العزيز فهمى وروجت صحيفة الحزب لسياسة حكومة دعامتها الأحرار الدستوريون الذين خرجوا من الوفد اعتراضا على ما أسموه (دكتاتورية سعد) والذين كان لهم الدور الأكبر فى (لجنة الدستور) التى وضعت دستور ١٩٢٣ , ومن المفارقات أن هؤلاء هم أول من عصف بهذا الدستور المنقوص وتمسك الوفد به ودافع عنه على الرغم من أن الوفد قاطع لجنة (الأشقياء) التى وضعت الدستور واشترك فى تلك الوزارة (على ماهر) واحتفظ « محمد محمود » لنفسه بوزارة الداخلية حتى يمارس سياسة اليد الحديدية . فأوقف الحياة النيابة ثلاث سنوات قابلة للتجديد حسب منطوق الأمر الملكى فى ١٩ يوليو ١٩٢٨ ،وأعاد العمل بقانون المطبوعات القديم الصادر

١٨٨١ ، وإلغاء رخصة نحو مائة صحيفة ، وأنذر صحف الوفد بالتعطيل ، ومنع الموظفين من الاشتغال بالسياسة ، وحرم على الطلبة القيام بالتظاهرات واشتعل الموقف ضد حكومة اليد الحديدية ، عقب البيان الذى اصدره « مصطفى النحاس » زعيم الوفد داعيا الأمة للدفاع عن دستورها . ورفض الوفد إبداء رأيه فى مفاوضات « هندرسن ـ محمد محمود » طالما إن الحياة النيابة معطلة فى البلاد واتضح أن (اليد الحديدية) عاجزة أمام المقاومة الشعبية خاصة أن انجلترا لم تكن مطمئنة إلى عقد اتفاقية دون موافقة الوفد، كما إن القصر رأى فى بعض مواقف « محمد محمود » محاولة منه للانفراد بالسلطة واتضح أن حكومة محمد محمود هى (يد من حديد فى ذراع من جريد) على حد قول كاتب الوفد فى ذلك الوقت (عباس محمود العقاد) .

بعيدا عن الحكم

قدم « محمد محمود » استقالة يده الحديدية فى ٢ أكتوبر ١٩٢٩ .

ثمانية أعوام قضاها « محمد محمود » بعيدا عن السلطة بدأها بمقاطعة الانتخابات التى جرت بعد استقالته تجنبا لهزيمة ثقيلة للحزب من جراء سياسة اليد الحديدية . ونهج حزب الأحرار بعد ذلك نهج التحالف مع الوفد لمواجهة دكتاتورية إسماعيل صدقى خاصة عندما حاول إسماعيل صدقى أن يكون له حزب يجذب إليه عددا من عناصر الحزبين الكبيرين وخاصة عناصر الأحرار الدستوريين .

وكان التألف بين الأحرار الدستوريين والوفد يتقدم ويتراجع حتى ظهر فى صورة واضحة فى أواخر سنة ١٩٣٥ فى عهد حكومة «توفيق نسيم » حيث تحالف الحزبان الكبيران مع القوى والشخصيات الأخرى من أجل إعادة العمل بدستور ١٩٢٣ والتمهيد للدخول فى مفاوضات لمكاسب استقلالية أكثر ورفعت الأحزاب المتحالفة فى ذلك الحين بعريضة فى هذا الشأن إلى الملك أحمد فؤاد . وصدر الأمر الملكى رقم ١١٨ لسنة ١٩٣٥ بإعادة العمل بدستور ١٩٢٣ . وطالب الزعماء وفى مقدمتهم مصطفى النحاس ومحمد محمود الوزارة بإصدار قانون الانتخاب والغاء القوانين الاستثنائية . وفى تلك الفترة ظهر الدور الكبير الذى قامت به (لجنة الطلبة التنفيذية) وأصدرت بيانا بأن تكون التظاهرات بعيدة عن التخريب ووقع البيان :

كلية الطب : نور الدين طراف ـ أحمد عبد الله ـ إبراهيم عبود ـ عبد اللطيف جوهر ـ حسنى العامرى .

كلية الآداب : مصطفى السعدنى ـ طلعت خالد ـ سامى ناشد ـ عثمان عسل ـ محمود يوسف رضوان .

كلية الحقوق : الظاهر حسن ـ أحمد عبد العزيز الشويحى ـ محمد حسن حمزة ـ طاهر نعمان ـ محمد أبو بكر الهوارى ـ مراد يس ـ أحمد شرف الدين ـ خليل جمال الدين ـ عبد الغفار متولى ـ محمود فهمى أبو عزيز ـ حمادة الفاضل .

كلية الهندسة : جلال الدين الحمامصى ، إبراهيم عثمان ، مصطفى السعيد ، عزالدين كامل .

كلية الزراعة : حسين الأبيارى ، أحمد الدمرداش التونى ، عبد المقصود عزت ، حسين حلمى ، فؤاد على ، محمد محمد سرحان .

كلية التجارية : عبد الله بغدادى أباظة ، إبراهيم الدسوقى ، أحمد حلمى ، أحمد شلبى .

دار العلوم : محمد برهام ، أحمد محيى الدين ، سعيد العجان ، سليمان النمكى .

العـودة إلى القـوة

وفى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ عاد « محمد محمود » رئيسا للوزارة للمرة الثانية التى ضمت إسماعيل صدقى ، وعبد الفتاح يحيى وعبد العزيز فهمى ، وحافظ رمضان ، ومحمد كامل البندارى وغيرهم وبدأت الوزارة أعمالها بحل البرلمان الوفدى وفصلت الموظفين الوفديين وسيطرت على الانتخابات التى أعقبتها وزارة محمد محمود الثالثة من ٢٧ أبريل ١٩٣٨ وباشرت سياسة القوة وفى ٢٤ يونية ١٩٣٨ شكل « محمد محمود » وزارته الرابعة التى استمرت إلى ١٨ أغسطس ١٩٣٩ والتى سقطت بفعل مناورات على ماهر رئيس الديوان الملكى وقت ذاك وبعد أقل من شهر تقوم الحرب العالمية الثانية وتدخل السياسة المصرية فى مرحلة جديدة .

الأسـانيد :

١ ـ جمال بدوى . . كان وأخواتها .

٢ ـ صبرى أبو المجد . . سنوات ما قبل الثورة .

٣ ـ عبد العزيز فهمى . . هذه حياتى

٤ ـ د . على شلبى ود . مصطفى النحاس جبر . . الانقلابات الدستورية فى مصر .

اللواء محمد نجيب



أبدأ بآخر أمنيات الرجل ، بآخر سطور كلمته للتاريخ . . « والآن لم يعد عندى حديث ، ولم يعد عندى مايقال ، ولم يعد عندى إلا رجاء هو أن أدفن فى السودان بجوار أبى وخالى هناك » .

ومحمد نجيب ابن « النهارية ــ مركز كفر الزيات » وأول رئيس لجمهورية مصر ولد فى « ناحية ساقية أبى معلا » بالخرطوم عاصمة السودان الشقيق ، فى ١٧ يوليو ١٩٠٠ م خدم جده فى السودان . ووالده وخاله الضابطان خدما وماتا ودفنا فى السودان ، وهو تعلم وخدم فى السودان ، واتصل بالجمعية السودانية الوطنية « اللواء الأبيض » . وله كتاب « ذكريات من السودان » فلماذا لاتحقق أمنية الرجل فى ٢٨ من أى أغسطس قادم ، فى ذكرى رحيله «٢٨ أغسطس ١٩٨٤ » . وأن تودع مصر أول رئيس لجمهوريتها فى تراب السودان الشقيق رمزا للإخاء . . هل يحقق قادة السودان ومصر أمنية رجل أعطى السودان ومصر معا ؟

أما قبل . . .

وقبل أن نسير مع الرجل فى حياته . وفى مواقفه . وفى مواقف الآخرين منه ، أرى أن أرتب أوراقى فى غابة الأوراق والذكريات والمذكرات . وأن أضع نقاط ضوء استقر عليها ضميرى العلمى من واقع تجارب وأحاديث وقراءات فى نزاهتها ، وهى عندى هنا تفكك العلامات الفارقة التى كان يضعها الآباء لتبين حدود زراعاتهم وأراضيهم .

* التنظيم السرى الذى بدأ فى الجيش المصرى سنة ١٩٤٠ ، كانت الشخصية الأساسية فيه «عبد اللطيف البغدادى » ومعه «أحمد سعودى أبو على ، ومحمد وجيه أباظة ، وحسن عزت ، وحسن إبراهيم » ثم انضم إليهم « أنور السادات » ولم يكن محمد نجيب أو جمال عبد الناصر على صلة بهذه المجموعة التى كان هدفها الأساسى معاونة الألمان لضرب قوات الاحتلال الإنجليزى

لمصر . وفى هذا المجال اتصلت هـذه المجموعة بالإخوان المسلمين وبالحزب الـوطنى وبعزيز على المصرى وبآخرين .

* جمال عبد الناصر بدأ عـام ١٩٤٨ قبل حرب فلسطين وبعدها فى تنظيم مجمـوعة « الضباط الأحرار » وفى هذا المجال اتصل بالإخوان المسلمين ، وبعدد مـن أعضاء الهيئة الوفدية ، وبتنظيم (حدتـو) الماركسى ، وبعناصر مجموعـة « البغدادى » القديمـة وبأنور السادات الـذى كان على صلة بيـوسف رشـاد وثيق الصلة بـالحرس الحديدى . . « وهـذا الحرس كان وراء بعـض حوادث الاغتيالات لصالح الملك فاروق » .

* خلال فترة فيما قبل ٢٣ يوليو ، وبعـدها تكونت مجموعة قيادية عرفت قبـل ٢٣ يوليو باسم «الهيئة التأسيسية للضبـاط الأحرار » وبعد ٢٣ يوليو باسم « مجلس قيـادة الثورة » والعناصر هى : «جمال عبد الناصر ، وعبد اللطيـف البغدادى ، وعبد المنعم عبد الرءوف ــ الوحيد الذى اعترض على ضم أنـور السادات للهيئة التـأسيسية وفصل قبـل ٢٣ يوليو ، وحكـم عليه بالاعـدام وهرب خارج البلاد ـ محمد أنور السادات ، وحسن إبراهيم ، وكمال الدين حسين ، وخالد محيى الدين ، وزكريـا محيى الدين ويـوسف صديق ، وجمال سـالم ، وصلاح سالم ، وحسين الشافعـى ، وعبد الحكيم عامر ، وعبد المنعم أمين ـ فصل بعد ٢٣ يوليو بشهور قليلة » .

* اللواء « محمد نجيب » هو الوجه الوطنى المحترم الـذى قدمت به حركة الجيش فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ نفسها إلى الجيـش وإلى الشعب معا . اشترك فى حرب فلسطين وكـان أركان حربـه « عبد الحكيم عـامر » الصـديق الصـدوق لجمال عبد الناصر ، وسنـة ١٩٤٢ ـ وكـان مساعـدا لنائب الأحكام عـاون « أنور الســادات » أثناء التحقيقات معـه ، وكان معـروفا بمواجهتـه لحيدر بـاشا وحسين سرى عـامر رجلى الملـك فاروق . وعـرفتـه الجماهير رئيسا لنـادى الضباط على غير رغبـة الملك ، والذى ضم عـددا من الضباط الأحرار . . وقام الملك بحل هـذا المجلس الذى يتحداه . وهذا كله يقطـع بأن الضباط الأحرار كـانوا على صلة باللـواء محمد نجيب ، وكان هـو على معرفة بعناصرهـم القيادية ، وعلى دراية بحركتهم وبأهدافها ، ويقطـع بأنه كان يؤيدهم ولهذا فإننا نطرح جانبا ماقيـل بأنه لم يعرف بالحركة إلا بعـد استيلاء قوات « يوسف صديـق على القيادة . فلو كان يجهل كل شىء لما ذهب لتولى قيادة الحركة لمجرد اتصال تليفونى من « الصاغ جمال حماد » أو لمجرد أنهم أرسلوا له عربة جيش .

* وقت أن كان « أنور السادات » فى سينما الروضة ، ووقـت أن كان عبد الناصر وعبد الحكيم بالملابس المدنية يرقبان الموقـف تقدم « البكباشى يوسف صديق » قبل ساعـة الصفر بساعة كاملة يقتحم القيادة ويعتقل « اللواء حسين فريد » وقـادة الوحدات المجتمعين لإجهاض حركة الضباط

الأحرار ، وتـم نقلهم إلى معسكر الاعتقـال فى الكلية الحربية . ولولا تحرك قـوات يوسف صـديق لكان قادة الضباط الأحرار جميعا فى غياهب السجون ، وربما على أعواد المشانق .

مواقف سابقـة

قدمنـا فى الفقرات السابقـة ما استقـر عليه ضميرنا العلمـى من عناصر هـى بمثابـة إشارات ضوئيـة ونحن نتحـدث عن « اللواء محمـد نجيب » الـذى يقول إنـه عندما كـان مساعـدا لنائب الأحكام عام ١٩٤٢ وقف إلى جانب « أنور السادات » أثناء التحقيق معه . والرواية صحيحة لأن « محمد نجيب » نشرها فى كتاب له صدر فى حياة « الرئيس الراحل محمد أنور السادات » واعترض على تعيين «محمد حيدر » قائدا للجيس لأنه ضابط بوليس ، ولم يذهب إلى تهنئته وقد كان « حيدر باشا » قريبـا للمشير عبد الحكيم عامر . واشترك « محمد نجيـب » فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ وجرح ثلاث مرات ، واستدعى إلى القاهرة وعين قائدا لمعهد دراسات الضباط العظام . وعاد مرة أخرى إلى فلسطين وتولى قيادة اللواء العاشر الضارب بالإضـافة إلى اللواء الرابع . . وكان « الصاغ أ. ح . عبد الحكيـم عامر » هـو أركان حرب « محمـد نجيب » . . وإلى هنا نستطيـع أن نقول إن «أنور السادات وعبد الحكيم عـامر وبالتالى جمال عبد الناصر صديق عامر » كـانوا يعرفون « محمد نجيب » معرفة جيدة .

واعترض « حيدر باشا » مرتين على ترقية « محمد نجيب » ، وحيدر كما هو معروف رجل الملك فاروق . ولهذا فـإن هذا الاعتراض على الترقيـة هو عـدم رضاء مـن الملك على « محمـد نجيب » . وبعد حرب فلسطين عين « نجيـب » مديرا لسلاح الحدود وبعـدها نقل « نجيب » مـديرا لسلاح المشاة وعين بدلا منه فى سلاح الحدود « حسين سرى عامر » .

و «حسين سرى عامر » هـو أحد رجال الملك داخل الجيش ، وفى ينـاير ١٩٥٢ حاول « جمال عبد الناصر » ومجموعة خاصة له تتكون مـن « حسن إبراهيم ، وكمال رفعت ، وحسن التهامى » حاولـوا اغتيال « اللواء حسين سرى عامـر » وهنا نفتح قـوسا لنقول إن « جمال عبد النـاصر » رغم رئاستـه للهيئة التـأسيسية للضبـاط الأحرار ، ورغـم رئاستـه لتنظيم الضبـاط الأحرار كـانت لـه مجموعاته الخاصة التـى يحركها لأهدافه الخاصة دون استشارة التنظيم . ومن هـذا القبيل ما قام به «كمال رفعت وداود عويس » من إلقاء القبض على « محمد نجيب » ونقلاه إلى ميس سلاح المدفعية أثناء أزمة مـارس ١٩٥٤ دون معرفة من مجلس القيـادة . ومنها المجموعة التى فجـرت القنابل فى الجامعة ومحطة السكة الحديد وجروبى القاهرة ويـذكر عبد اللطيف البغدادى فى مذكراته «صفحة

١٤٦ » أن « عبد الناصر » اعترف أمامـه وأمام كمال الدين حسين وحسن إبراهيـم بأن الانفجارات من تدبيره . . ليشعر الناس بأنهم فى حاجة إلى من يحميهم .

ونعود إلى يناير ، وقد جرت انتخابـات مجلس إدارة نادى ضباط الجيش وفازت غالبية قـائمة الضباط الأحرار ، وفاز محمد نجيب برئاسة النادى . وفى ١٦ يوليو ١٩٥٢ أصدر الملك قرارا بحل مجلس إدارة النادى ، وتعيين مجلس إدارة جديد برئاسة «اللواء على نجيب » شقيق محمد نجيب .

وفى شهر مارس ١٩٥٢ اعتقلت السراى « اليوزباشى محمد رياض » وهو من الضباط الأحرار الموالين لنجيب وهـذا يوضح أن نجيـب ومعاونيه كـانوا من الـذين يخشى القصر سطـوتهم داخل الجيش .

الليـلة التـاريخية

وفى يوم الثلاثاء ٢٢ يوليو ١٩٥٢ ، وقبل أن ينتصف الليل تحرك « البكباشى يوسف صديق » واقتحـم برجـالـه رئاسة الجيـش وسيطر على منطقـة كـوبرى القبـة . وقبـض على « حسين فريـد ورجالـه» . . ثم تقدمـت « الكتيبة ١٣ » بقيادة « العقيـد أحمد شوقـى» . . وبعدها جـاء « ناصر وعامر » كما أسلفنا وجـاء السادات . . وانتهى الجزء الأول من الخطة بنجاح حوالى السـاعة الثالثة بعد منتصف الليل . وكان « أحمد مرتضى المراغى » وزير الداخلية قد اتصل باللواء أ . ح . محمد نجيب فى منزلـه يسأله عن طلبات «المتمـردين » ـ على حد تعبيره ، وطلـب منه العمل على تهدئة الموقـف . وتلقـى « محمد نجيب » خبر نجـاح الاستيلاء على قيادة الجيـش . وتوجه ليتـولى قيادة الانقلاب « الانقلاب كلمة البغدادى » . وكتب « الصاغ جمال حماد » البيان ، وألقى عليه « جمال عبد الناصر » نظـرة عامة وراجعه « محمد نجيـب » وأضاف عليه بخط يده عبـارة « طبقا لأحكام الدستور » . والبيان الأصلى لم يزل لدى « اللواء جمال حماد » .

وفى الصباح استمع شعـب مصر ، إلى البيان بصوت أحد الضباط ، وبعدهـا بصوت « محمد أنور السادات » وموقعا عليه باسم « القائد العام للجيش اللواء أركان حرب محمد نجيب » .

وتلاحقت الأحـداث سريعة . . عهد إلى « على ماهـر » برئاسة الوزارة فى ٢٤ يـوليو ١٩٥٢ ، وصدر إليـه أمر التكليف بـوزارته الرابعة مـن الملك فاروق واحتفـظ « على ماهر » لنفسـه بوزارات الداخلية والخارجية والحربية والبحرية .

وفى صبـاح يوم السبـت ٢٦ يـوليو ١٩٥٢ تـوجـه « الفـريق محمـد نجيـب » إلى مقر الـوزارة بالإسكندرية . وقـدم إلى « على ماهر » رئيس الوزراء انذار الجيـش الموجه إلى الملك فاروق بضرورة

توقيع وثيقة التنازل عن العرش قبل الثانية عشرة من ظهر اليوم نفسه ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة مساء .

وكانت وثيقة التنازل « من الفريق أركان حرب محمد نجيب . . باسم ضباط الجيش ورجاله إلى جلالة الملك فاروق . . » وقد عارض « محمد نجيب » رأى جمال سالم الذى طالب بإعدام فاروق . وبعد أن غادر الملك فاروق البلاد . أعلن « محمد نجيب » تنازله عن رتبة الفريق التى حملها ليوم أو بعض أيام ، وذلك مراعاة لأحوال البلاد الاقتصادية . . على أية حال عرف دائما واشتهر باسم « اللواء محمد نجيب » .

وكنا قد عرفنا أن خلافا قد وقع مع « عبد المنعم عبد الرءوف » وهو من عناصر الإخوان المسلمين الملتزمين ، وفصل من الهيئة التأسيسية قبل ٢٣ يوليو وحكم عليه بالإعدام وهرب إلى خارج البلاد واستقر به المقام فى الاردن وفى رعاية « الملك حسين » وبعد ٢٣ يوليو رأت الهيئة التأسيسية إبعاد « عبد المنعم أمين » لتصرفات خاصة كثيرة تحيط به ، وهو الذى رأس المحكمة التى حكمت على العاملين « خميس والبقرى » بالإعدام . وأهم الخلافات المبكرة التى وقعت داخل الهيئة التأسيسية فقد كانت إزاء موقف «يوسف صديق » الذى دافع بإصرار عن عودة الحياة النيابية ، وعن عودة مجلس النواب المنتخب الذى كان « على ماهر » فى حكومة مابعد حريق القاهرة قد استصدر قرارا بحل هذا المجلس . وانتهى الخلاف بفصل « يوسف صديق » واعتقاله فى السجن الحربى ، أما الصراع الكبير فقد كان طرفه الحاد مع « محمد نجيب » وانتهى هذا الصراع فى ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ بقرار من مجلس قيادة الثورة بإعفاء محمد نجيب من منصب رئيس الجمهورية وطويت بذلك صفحة الجمهورية المصرية الأولى .

الجمهورية الأولى

على الرغم من أن الأحداث ، من حيث الشكل كانت تتخذ خطا صاعدا باللواء محمد نجيب . . يتولى رئاسة مجلس قيادة الثورة ، فرئاسة الوزارة بعد استقالة على ماهر فى ٧ سبتمبر ١٩٥٢ ، ورئاسة الجمهورية فى ١٨ يونية ١٩٥٣ ، إلا أن واقع الأمور يوضح أن القوة الأخرى المواجهة لنجيب كانت مدركة لأهدافها ، وتحكم قبضتها على الأوضاع ، وتمسك بالخيوط بحيث تنتهى اللعبة فى النهاية لصالحها .

فاختيار « على ماهر » وهو الذى عرف بعدائه التاريخى للحكم النيابى ، وللوفد وللنحاس باشا يوضح لماذا وقف رجال يوليو بعناد ضد عودة البرلمان الوفدى المنتخب . . وكانت وزارة « على

ماهـر » التى شكلـت فى ٢٤ يوليـو ١٩٥٢ إلى ٧ سبتمبر ١٩٥٢ من أشخـاص عرفـوا بالعـلاقة الشخصية مع على ماهر نفسه .

والوزارة الأولى للـواء محمد نجيب التى شكلـت برئاسته « من ٧ سبتمبر ١٩٥٢ إلى ١٨ يـونية ١٩٥٣ » كانت تضـم فى المقدمة « سليمان حافـظ » نائبا لرئيـس مجلس الوزراء ووزيرا للـداخلية ، المعروف بالعداء الشديد للوفد وللنحاس بـاشا ، وقد وقف بشدة ضد أى اتجاه دستورى منذ الأيام الأولى ، وقاد مع الـدكتور السنهورى توجيـه مجلس الدولة فى ٣١ يـوليو ضد دعوة مجلس النواب السابق وهو الرأى الذى دافع عنه فى شجاعـة « الدكتور وحيد رأفت » وضمت الوزارة أيضا عددا من أعضاء الحزب الـوطنى وعددا من المعروفين باتجاهـاتهم المعادية للديموقراطيـة . . وبهذا كانت أقدام قادة ٢٣ يوليـو المعادين للديموقراطية والـراغبين فى الدكتاتورية ترسخ تـدريجيا . . مما رجح كفتهم فى نهاية المطاف على « محمد نجيب » عندما حاول أن يتمسك بالديموقراطية وينادى بالحياة النيابية .

ونأتى إلى الإعـلان الدستورى الصادر من مجلـس قيادة الثورة فى ١٨ يونيـة ١٩٥٣ والذى وقع عليه « محمـد نجيب » تحت لقـب «قائد ثـورة الجيش » ووقعـه معه « جمال عبـد الناصر ، وعبـد اللطيف البغدادى ، وأنور السادات ، وعبد الحكيـم عامر ، وكمال الدين حسين ، وجمال سالم ، وزكريا محيـى الدين ، وحسين الشافعى ، وصلاح ســالم ، وحسن إبراهيم ، وخالد محيـى الدين وهنا نلحظ غياب « يوسف صديق » ، وعبد المنعم أمين » اللذين خرجا أو أخرجا من المجلس » .

كان هـذا الإعلان تتويجا لخطـوات ضد الأحزاب ، انتهت بحـل هذه الأحزاب ، وبعـد إلغاء دستور ١٩٢٣ ، وبعد إعلان فترة انتقال لمدة ثلاث سنوات ربما لم يكـن محمد نجيب موافقا عليها كلهـا أو على بعضها ــ كما سوف يتبين ــ ولكنه ظهـر بمظهر المشـارك فيها ، أو غير القـادر على وقفها . . وكان تعيينـه رئيسا للجمهورية مجرد إعلان عـن مسمى وظيفى جديد سـوف يشغله من بعده «جمال عبد الناصر » .

نجيب والقيـــادة

كان « محمد نجيب » يرغب فى الديموقراطية ، ولكن الكلمة كانت للقيادة التى لم تكن ترغب فى ذلك . . وأسجل هنا موقفين يوضحان هذا الأمر .

* يقول « المهندس سيد مرعى » فى أوراقـه السياسية الجزء الأول ص ٢١٥ : (دخلت مع وفد السعديين إلى مكتـب اللواء نجيـب . . ورحب بنـا بأسلـوبه المهـذب وأخذ يستمـع إلينا بقلـب

مفتوح . . ولاحظنا أن هنـاك ضابطا شابا يقـف بجواره طوال الوقت وبعـد أن طال الحديث أنهى هذا الضابط المقابلة وقال للواء نجيب بلهجـة قاطعة . . على كل حال يجتمعوا خارج المكتب . . ويتفاهموا فى هـذا الموضوع . . حتـى لايضيعوا وقتنـا . . وهز محمـد نجيب رأسه موافقـا ولم يقل شيئا) . . وكان هذا الضابط هو جمال عبد النـاصر . . ويعلق « سيد مرعى » (وأدركت أنهم مش عايزين الأحزاب نهائيا . . لاحزبنا ولا أى حزب آخر) .

والذى أدركـه « المهندس سيد مرعى » من المقـابلة الأولى للقيادة ، وفى فترة مبكـرة هو إدراك صحيح لم يـدركه شبـاب الأحزاب الـذين لعبـت بهم القيادة وأوقعتهـم فى دوامة مع أحزابهم ، وأنزلت الارتباك بالأحزاب كلها .

* وأنقل هنا عن « جريدة المصرى ـ ١١ أغسطس ١٩٥٢ » . .

(. . عقد الشباب الوفدى أمس اجتماعا حضره جميع أعضاء اللجان الوفدية بالقاهرة تكلم فى هذا الاجتماع الأساتذة لويس فانوس وإسماعيل أحمد سليمان وأحمد عبد الجواد وهبه وعبد المحسن حمودة وأحمد عبده حسنين ونـور الدين مصطفـى ثم تلا الأستاذ لمعـى المطيعى المذكرة المرفـوعة إلى الرئيس مصطفى النحاس . . وقد صورت هذه المذكرة التفـاف الشعب حول الوفد لأنه كان أمينا على القضية الوطنيـة ثم توجه وفد منهم إلى القيـادة العامة ، واستقبلهم اللواء أركـان حرب محمد نجيب ، وتناول الحديث مايشاع من التفكير فى حل الأحزاب ، وأكد القائد العام أنه لا توجد أى فكرة عن حل الأحزاب ، وأن مايشاع حول هذا الموضوع إنما هو إشاعة مغرضة) .

ولكن على الرغم من هذا النفى القاطـع صدر فى ٧ سبتمبر قانون إعادة تنظيم الأحزاب ، وفى ١٠ ديسمبر إلغـاء دستـور ١٩٢٣ ، وفى ٦ــ يناير ١٩٥٣ صـدر قـرار حل الأحـزاب فيما عـدا الإخـوان المسلمين ، وفى ١٠ فبرايـر الإعلان الـدستـورى المؤقـت لفترة الانتقال ، وفى ١٩ مـايـو ١٩٥٣ قرار بأن يكون « جمال عبد الناصر » نائبا لرئيس مجلس قيادة الثورة .

فى تقديـرنا أن « جمال عبـد الناصر » لعب لعبتـه بمهارة فـائقة . . ففى ١٨ يـونية تـولى محمد نجيب رئاسة الجمهورية وأعاد تشكيل وزارته . . وفى الوقت نفسه كان « جمال » نائبا لرئيس مجلس قيادة الثورة . . وتـولى وزارة الداخلية ، وتولى صديقـه « عبد الحكيم عامر » منصـب القائد العام للقوات المسلحة بدلا مـن اللواء محمد نجيب ، فأصبح جمال عبد النـاصر يسيطر فعليا على قيادة الثورة وعلى الجيش وعلى الداخلية . . وبعد أن انتهـى كل شىء كتب نجيب . . « أعترف الآن ، أن هذا كان خطئى الكبير الذى وقعت فيه » .

وأخذ الموقـف يتفجر فى يناير وفبرايـر ١٩٥٤ ، وطلبوا من نجيب أن يترك رئاسـة الوزارة لجمال وأن يكتفى نجيب برئاسة الجمهورية . واجتماعات واقتراحات وتناقضات واختلافات وكل واحد

له رأى ومناورات مرهقة للاعصاب . . وقرار لسلاح الفرسان فى ٢٦ فبراير ١٩٥٤ بإعادة نجيب رئيسا للجمهورية وتشكل وزارة مدنية وتظاهر « عبد الناصر » بحرصه على الحياة النيابية وحل مجلس القيادة والعودة إلى الثكنات ، وعامر يعلن عدم الالتزام بالقرارات ويحاصر سلاح الفرسان والطائرات تهدد بضرب سلاح الفرسان . . ويتقدم « خالد محيى الدين » بتهدئة سلاح الفرسان ويقوم « عامر » باعتقال بعضهم وبعد تظاهرات شعبية فى ٢٨ فبراير تعلن الإذاعة عودة نجيب ، وفى الوقت نفسه يقوم « عبد الناصر » باعتقالات للإخوان والشيوعيين وتشكيل محاكم عسكرية وفى ٥ مارس يتقرر إعادة رئاسة الوزارة لنجيب وانتخاب جمعية تأسيسية وإلغاء الرقابة على الصحف ، ويعلن عبد الناصر القرارات بنفسه .

وفى ١٥ مارس تظهر موجه اقتراحات جديدة ، وكل واحد منهم فى حالة نفسية سيئة وتتفجر القنابل فى الجامعة وجروبى والسكة الحديد . . ويوم ٢٦ مارس يتم الإفراج عن « الهضيبى » وعدد من الإخوان وتقوم إضرابات مدفوعة الأجر من عمال النقل، وعمال مديرية التحرير ، والحرس الوطنى والاعتداء على مجلس الدولة والدكتور « السنهورى » وتحدث المشادة بين نجيب وبين جمال سالم وعبد الناصر وعبد الحكيم أمام « الملك سعود » يوم ٢٨ مارس وتنتشر الشائعات حول الاتجاه لاغتيال نجيب وأحمد شوقى . ويتم التراجع عن القرارات السابقة كلها ويثور المحامون والطلاب يوم ٣٠ مارس ، وتتسع الاعتقالات للإخوان وللشيوعيين وللوفديين من جديد ويستولون على جريدة المصرى ، ويستقيل خالد محيى الدين ويعتكف « محمد نجيب » فى منزله ويتولى جمال رئاسة الوزارة بدلا من نجيب .

ويتم التوقيع على اتفاقية الجلاء فى ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ ، وهو يوم الاعتداء على « جمال عبد الناصر » فى ميدان المنشية وتحدث اعتقالات واسعة للإخوان المسلمين وتتشكل محاكم الشعب برياسة « جمال سالم » . وتحكم المحكمة على سبعة من قيادات الإخوان بالإعدام ، وينفذ الحكم فيما عدا « الهضيبى » الذى خفف الحكم عليه إلى السجن مدى الحياة .

وفى ١٤ نوفمبر صدر قرار مجلس قيادة الثورة بإعفاء « اللواء محمد نجيب » من رئاسة الجمهورية ، وطويت بذلك صفحة الجمهورية الأولى . . شريط طويل مرهق للاعصاب أشبه بالكابوس ، أو أشبه بحرب العصابات ، أو أشبه بالسيرك دون وجود قوة شعبية تحسم الأمور لصالح الشعب .

استمرار الشريط الكئيب

لعل أفضل تعبير هو ما قاله محمد نجيب نفسه . . « لم أهزم بالضربة القاضية ، ولكننى هزمت بالنقط بعد كفاح طويل . . » وفى ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ أخذه « عبد الحكيم عامر وحسن

إبراهيم » إلى المرج ليقيم فى منزل استولوا عليه وكان مملوكا للسيدة حرم «مصطفى النحاس باشا» . . وأجبر « خالد محيى الدين » على الإقامة فى سويسرا ، وهرب « محمد رياض » إلى السعودية وألقى بأحمد شوقى فى السجن . وفى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ تعرض أول رئيس لجمهورية مصر « لهوان ما بعده هوان » وتعرض للضرب والسب ، واصطحبه « جمال القاضى ، ومحمد عبد الرحمن نصير » إلى مدينة « طما » فى صعيد مصر وتحفظوا عليه فى بيت زوج شقيقة « أحمد أنور» وعديل « حسين عرفة » وعاد بعد ذلك إلى القاهرة ليواجه مأساة رحيل ابنه « على » فى حادث غامض بألمانيا الاتحادية ، وليواجه مأساة تزوير تاريخه فى حياته على أيدى أتباع « عبد الناصر » فى الإعلام والتربية والثقافة . . ويرحل « محمد نجيب » ابن « النهارية » مركز كفر الزيات وأول رئيس لجمهورية مصر فى ٢٨ أغسطس ١٩٨٤م وكان قد رحل قبله « جمال عبد الناصر ، وعبد الحكيم عامر ، وجمال سالم ، وصلاح سالم ، وأنور السادات ، وكمال رفعت » وبقيت مصر .

الأسانيد . .

١ ـ أنور السادات . . البحث عن الذات .

٢ ـ المصرى . . « جريدة » ١١ أغسطس ١٩٥٢ .

٣ ـ سيد مرعى . . أوراق سياسية « ٣ أجزاء » .

٤ ـ عبد اللطيف البغدادى . . مذكرات « جزءان » .

٥ ـ محمد نجيب . . كلمتى للتاريخ .

الدكتور محمد مندور



عبارة واحدة جعلتني اتريث فى تحرير هـذه السيرة بعد أن جمعت مادتها العلمية . . وجعلتني أعود إلى قـراءة المادة التى أمـامي مـن جديـد ، وأن أستعيد ذكـريات جيلي معـه ، ودعتني إلى أن أدرس بعناية أكثر موقفه من ٢٣ يوليو وموقف رجـال ٢٣ يوليو منه ودفعتني ـ حتى أستوثق أكثر ـ إلى أن أتصل بالشاعرة الكبيرة الأستـاذة « ملك عبد العزيز » تلميذته فى قسم اللغـة العربية بكلية الآداب ـ جامعـة فؤاد الأول ، ثم زوجته ورفيقـة دربه منذ مارس ١٩٤١ ـ وعقب رحيله فى « ١٩ مايـو ١٩٦٥ » توفرت الشاعـرة على جمع كتبه ومقالاته ، وسلمـت هذه الحصيلة لصديـق مسيرته الفكرية « الدكتور لويس عوض » وبالفعل كتـب الدكتور « لويس » مقالين فى جريدة « الأهرام » عن « الدكتـور مندور » منذ صداقته له فى ٢١ أكتـوبر ١٩٣٧ بباريس حتى لفـظ أنفاسه الأخيرة بالقاهرة فى ١٩ مايو ١٩٦٥ ، وحسب رواية « الشاعرة ملك عبد العزيز » لى فإن « الدكتور لويس عوض » لم يكتـب ماهـو أكثر أهمية مما كتب لأن « جمال عبـد الناصر » لا يرغـب ـ حسـب رواية الأستاذ محمـد حسنين هيكل للـدكتور لـويس ـ فى إلقاء الأضـواء على جهود اشتراكيـة ونضاليـة وسياسيـة قبل ٢٣ يـوليو ١٩٥٢ ، وهـذا يتفق مع أسلـوب تفكير رجال يـوم الأربعاء ٢٣ يـوليو ١٩٥٢ فى أن الله سبحانه وتعالى خلق مصر فى فجر الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ومرة ثانية سلمت « الشاعرة ملك عبـد العزيز » حصيلة المقالات والأوراق لمجلة « الطليعـة » التى أصدرت فى عدد مايـو ١٩٦٦ ملفا عن « مندور فى تـراثنا القومي » وذلـك فى الذكرى الأولى لرحيلـه ، وهذا يفسر التشابه الكبير فيما جاء فى هـذا الملف وفيما كتبه « الدكتور لويس عـوض » لأن المصدر واحد وهو تراث الدكتور مندور الذى جمعته من بعده زوجته « الشاعرة ملك عبد العزيز » .

ويبدو أنني استرسلت ، وكاد الخيط يفلت مني ، أعود إذن إلى السطر الأول .

أانقل هنا مـا جاء بعدد مجلة الطليعة فى مـايو ١٩٦٦ ـ فى صفحة ١٤٤ ما نصـه « لقد استمر فكر منـدور السياسى النير ، يرسل ومضـاته حتـى آخر كلمـة كتبها ففى آخـر مقال كتبـه بروز اليوسف فى ٢٤ / ٥/ ١٩٦٥ وضع يـديه على أحد العوامل الأساسية إن لم يكن أكثـرها أساسية فى الآونة الأخيرة بالنسبة لضمان نجاح الثورة وتقدمها ، حين قال « إن التنظيم السياسى الذى تحدث عنه الميثاق كـدينمو الاتحاد الاشتراكى ، هذا التنظيـم هو وحده الذى سيستطيـع ، إذا نجحنا فى تكوينـه أن يميز بين الحق والباطـل ، والنصح والغـش ، والصدق والكذب فى مجالات السيـاسة والإدارة والاجتماع والأخلاق » وعلى صفحة ١٥٢ فى الموضوع ذاتـه « كتب أخيرا فى روز اليوسـف ، وقد كتب مقالته الأخيرة بها ليلة وفاته ونشرت فى الأسبوع التالى » .

وهنا ترتب العنـاصر . . آخر مقال كتبه بروز اليوسف ونشر فى ٢٤ مـايو ١٩٦٥ « بعد رحيله الذى كـان فى ١٩ مايـو » كتب ليلة وفـاته ، وهـذه البيانـات القاطعة فى الملـف تعنى أن كـاتب الموضوع تسلم المقال من « الدكتور مندور » لنشره بروز اليوسف ، أو أنه حضر كتابته ليلة الوفاة ، أو أملاه عليـه وهو يحتضر ، أو كان حـاضرا إملاءه على زميـل آخر ، أو على الأقل نقـل إليه خبر كتابة المقال من شخص يثق فى صدق بياناته .

ولأن موضوع المقال الأخير على جـانب من الأهمية بالنسبة لتطور فكر « الـدكتور مندور » كان اتصالنا بـالشاعرة « ملك عبـد العزيز » لإلقاء الضـوء على ظروف الكتابة فى ليلـة الوفاة . . وعلى سبيل القطـع أكدت لنا الشاعـرة أنها لم تكتب بنفسها شيئا مـن هذا ، وذلك لأن الأطباء كـانت تعليماتهم حاسمـة فى الأسبوعين الأخيريـن له بعـدم القراءة وبعـدم الكتابـة ، ولهذا امتنعت عـن الكتابـة له تنفيـذا لتعليمات الأطباء . هـذا وإن كانـت « الشاعـرة الكبيرة » قد أوردت احتمال أن يكون قـد أملى المقال على واحد مـن تلاميذه . وقد أضـافت أنها لاتذكـر شيئا عن هـذا المقال أو موضوعـه ، أو عن ملابسات كتـابته أو نشره بعد وفاته . والتنظيـم السياسى هنا ، مـوضوع هذا المقال ـ الذى قيل إنه كتبه ليلة الوفـاة ـ يتعلق بتنظيم طليعة الاشتراكيين الشهير بالتنظيم الطليعى وهو تنظيم سرى كـان يشرف عليه « شعراوى جمعة » ويضم فى أمـانته « محمد فايـق وزير الإعلام الأسبق ، وسـامى شرف سكرتير الـرئيس الراحـل جمال عبد النـاصر للمعلومات ، وأحمد كـامل رئيس المخابرات ، ومحمود أمين العالم المفكر الماركسى » وعددا آخر من رجال الإعلام والأمن . .

٢٣ يـوليـو

وهذا الذى كتبه الـدكتور مندور ـ أو قيل إنه كتبه ــ ليلة الوفاة سوف يظل مـوضع تحفظ حتى نجد ما يسانده فى مقال آخر يكون قد كتبه وهو فى أتم عافيته ، أو إلى حين أن ينشر علينا البعض أسماء ذلك التنظيم الذى أطلق عليه أصحابـه اسم « طليعة الاشتراكيين » والذى عرف بين الناس

باسم « التنظيم الطليعى » وهو تنظيم سرى داخل الاتحاد الاشتراكى ، وكانت لجانه تندس فى مواقع الإنتاج وفى الأنشطة المختلفة ، جميع الأنشطة حتى « القضاء » .

وهذا المقال الذى نشر بعد رحيل الدكتور مندور فيما يشبه الوصية التى كتبها وهو يحتضر ورأى فيه « هذا التنظيم هو وحده الذى سيستطيع أن يميز بين الحق والباطل ، والنصح والغش ، والصدق والكذب فى مجالات السياسة والإدارة والاجتماع والأخلاق » هذا كله ذهب مع الريح فى ٥ يونيه ١٩٦٧ ، وظهرت أثاره جلية واضحة فى « مجالات السياسة والإدارة والاجتماع والأخلاق » بما يجعلنا نتحفظ إزاءه كما قلنا ، ويجعلنا نعود إلى موقف « الدكتور محمد مندور » من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بشىء من التفصيل .

والذى نعرفه أن سلطة ٢٣ يوليو اعترضت على الدكتور مندور مرتين ، مرة لصالح المرحوم الدكتور فؤاد جلال دون إبداء الأسباب ، والثانية لصالح « مصطفى كامل مراد » ـ رئيس حزب الأحرار حاليا ـ ولكن هذه المرة كان مشفوعا بخطاب تقدير للدكتور مندور يبشره بأن السلطة الجديدة اذ تعترض عليه فإنها تدخره لأعمال هامة فى مقبل الأيام .

كتب « الدكتور مندور » فى جريدة الجمهورية ، وعمل بجريدة « الشعب » التى أشرف عليها « المرحوم صلاح سالم » ورأس تحريرها لفترة « الأستاذ أحمد بهاء الدين » وكان فى فترة سابقة يكتب فى مجلة اسمها « الثورة » التى أصدرها أحد الضباط الأحرار «وحيد رمضان » والذى كان يعد الدكتور مندور استاذاً له وسعى إليه أن يكتب فى مجلته « الثورة » .

الديمقراطية السياسية

ومهما يكن من أمر ، فإن المقال الذى نشر باسمه فى مجلة روز اليوسف بعد رحيله ، والذى قيل إنه كتبه ليلة وفاته لا يشكل أمرا محددا فى موقف « الدكتور مندور » من اتجاهات ٢٣ يوليو غير الديمقراطية . . فهذه السطور التى يتحدث فيها عن « التنظيم السياسى » دينامو الاتحاد الاشتراكى تحمل الأمنيات بأن يقوم هذا التنظيم بدور فى مجال السياسة والأخلاق والاجتماع .

ويبقى دوره المحدد الموفق إزاء الاتجاهات غير الديمقراطية لدى قادة ٢٣ يوليو والتى كان يحذر منها دائما . وقد صح ما توقعه فى مجمله .

فى ديسمبر ١٩٥٢ صدر للدكتور مندور كتاب صغير بعنوان « الديمقراطية السياسية » فى سلسلة جديدة هى « كتاب المواطن» وقد صدر من هذه السلسلة ثلاثة أو أربعة أعداد . وكان يقوم على إصدارها مجموعة من الشباب الوطنى الذين كانوا يخشون الاتجاهات غير الديمقراطية لدى رجال ٢٣ يوليو ، وليس سرا أن « الدكتور مندور » كتب هذا الكتيب وركز فيه على حرية

العمل السياسى ، وحرية تكوين الأحزاب ، وحرية التعبير ، وحرية الاعتقاد تحذيرا من اتجاهات « فاشية » كان يراها تطل من مبنى قيادة الحركة الجديدة .

وقد صح ما توقعه « مندور » عندما حمل « المرحوم الدكتور فؤاد محيى الدين » وكان قريبا من «القيادة » كما كانوا يسمونها فى تلك الأيام ، حمل إلينا نحن شباب تلك الأيام اقتراحا براقا من «القيادة » بان يتكون « مجلس استشارى » يضم الشباب الوطنى وممثلين للنقابات المهنية والعمالية ، وكان هذا الاقتراح بديلا عن تمسك مجموعة الشباب بعودة مجلس النواب المنتخب الذى سبق حله، وبعد مناقشات استمرت غالبية الليلة تم رفض الاقتراح الذى حملة الدكتور فؤاد محيى الدين .

المجلس الاستشارى

ولا أتكلم هنا عن موضوعات يمكن أن يقال حولها . . ومن أدرانا ؟ فقد رحل الدكتور محمد مندور ، ورحل الدكتور فؤاد محيى الدين . . وأبادر فأقول إننى كتبت صراحة هذا الموضوع فى أكثر من مقال ، فى حياة « الدكتور فؤاد محيى الدين » رئيس وزراء مصر الأسبق ورجوته أن يكتب مذكراته ويزيح الستار عن هذا الموضوع . . هذه واحدة . أما الثانية فإننى سجلت فى مقال من هذه المقالات أن هذا الاجتماع الخطير عقد فى منزل بأرض الطويل بحى شبرا ، هو منزل « الأستاذ محمد جويلى » عضو مجلس الشعب حاليا عن الحزب الوطنى الديمقراطى . أما الثالثة . . فهى تتعلق بالدور الفكرى الخطير الذى قام به « الدكتور مندور » عندما حملنا إليه ـ نحن الشباب ـ هذا الاقتراح المبكر من السلطة الجديدة . . وكان رأيه . . هذا اقتراح سبق أن طبقه «موسولينى» فى إيطاليا وكان بداية لضرب الديمقراطية السياسية ، وانفراد « موسولينى » بالسلطة .

ولما كان هذا الاتجاه ينذر بالخطر على الحياة الديمقراطية فى مصر . . عقد مؤتمر عام فى منزل «المرحوم حفنى باشا الطرزى » قطب الوفد المعروف والمنزل كان كائنا فى أول حى السكاكينى من جهة شارع « الملكة نازلى » . . وتكلم فى هذا المؤتمر « المرحوم الدكتور محمد مندور » شارحا ومحذرا من الاتجاهات الدكتاتورية أو الفاشية على حد تعبيره ، وتكلم « المهندس رفيق الطرزى » ابن صاحب البيت أو صاحب البيت . . وكان عضوا بمجلس النواب ـ آخر مجلس نواب فى مصر ، وقد فرض على نفسه عزلة اختيارية منذ مايقرب من ٣٥ سنة ، وعلى أية حال فإن مجلة المصور ـ فى تلك الفترة ـ تحمل الكثير من وقائع هذا المؤتمر .

هذه وقائع من مواقف « الدكتور مندور » بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وهى وقائع تبين أنه على الأقل فى السنوات الأولى كان مناهضا لكل اتجاهات غير ديمقراطية ، وتبين أنه بعد أن استمر

الوضع للسلطة الجديـدة اعترضت على « الدكتور مندور » مرتين وليس هناك مـا ينبئ بأن السلطة الجديدة قد غيرت موقفها الحذر إزاء « الدكتور مندور » وليـس هناك ما ينبئ بأن « الدكتور مندور» قد انحاز تماما لعبد الناصر أو لمرحلته .

الموقف من الماركسيـة

والذى حدث حول موقف « مندور » من ٢٣ يوليـو نجد شبيها له فى موقفه من « الماركسية » ـ حدث خلط كبير بين أفكـاره وبين أفكار بعض الماركسيين إلى درجة أن بعض زملاء حـزبه داخل الوفد كانوا يحسبـونه ماركسيا من باب التصنيف السهل السريع ، وهكذا فعـل « صدقى باشا » فى يوليو ١٩٤٦ مبررا اعتقال « منـدور » والغاء ترخيص « الوفد المصرى » ومجلـة « البعث » التى كان «الدكتور مندور » قد أصـدرها من ماله الخاص فى ديسمبر ١٩٤٥ ، واتهمه « صدقى بـاشا » بأنه «الوسيـط » بين الوفد وبين الشيوعيـة الدولية ـ ولم يكـن شىء من هـذا صحيحا فلا حزب الـوفد حزب شيوعى ولا « الدكتور مندور » ماركسى أو شيوعى . . وله أقوال ثابتة فى هذا المجال . . « لم يكن لى فى يـوم من الأيـام اتصال بالحزب الشيـوعى ومنظماتـه ، وإذا كنت وضعـت بين شعارات جريدة الوفد المصرى التـى كانت تنشر تحت عنوانها كل يوم شعار العدالـة الاجتماعية ، فقد كنت مدفوعا فى ذلك بنزعة إصلاحية خالصة وكانت تدعونى إلى مناصرة العدل بين المواطنين ، وتقريب المسافة بين الثراء والفقر المدقع الذى كانت تتردى فيه الملايين .

وهو بهذا قد حدد مـوقعه بدقة . . إصلاحى يدعـو إلى مناصرة العدل الاجتماعى بين المواطنين . . وإذا كان بعـض من يقرءون لـه يلمسون أنه خفـف من نقده لـلأنظمة الشيوعيـة . . فيمكن القول إنـه مال فى أخريـات سنواته إلى تخفيـف ملاحظـاته حول الماركسيـة والماركسيين إلا أن هذه «المصالحة » إذا جاز هـذا التعبير لم تتم إزاء نقطتين على وجه التحديد . . الأولى مـوقف الماركسية من الدين ، والثانية موقف الماركسية من الملكية الخاصة .

الديمقراطية الاجتماعية

وقد عرف عن « الدكتور مندور » قوله بما أسماه هو « الديمقراطية الاجتماعية » وإن شئت القول « الديمقـراطية الاشتراكية » وهو فى هـذا متأثر بـالفكر الاشتراكى الفـرنسى عندما كـان عضوا فى البعثة التى أوفدها « الدكتور طه حسين » إلى بـاريس سنة ١٩٣٠ من خريجى كلية الآداب ولم تعد إلى مصر إلا بعد تسع سنوات عام ١٩٣٩ .

ويوضح « الدكتور منـدور » موقفه الفكرى بوضوح كامل على صفحـات مجلة « الثقافة » سنة ١٩٤٣ . . يقول . .

(بـالنظر فيما يكتـب اليـوم فى بلادنـا نجـد نزعتين . . نـزعـة الديمقـراطيـة الحرة ، والنزعـة

الاشتراكية . . وأصحاب النزعتين فيما أعتقد مخطئون . . فالديمقراطية الحرة تدعو كما هو معلوم إلى الحد من اختصاصات الدولة وإلى عدم تدخلها فى الحياة الاقتصادية وهذا مذهب لو طبق فى بلادنا لظللنا على ما نحن فيه من فقر وتخلف . فنحن إذن فى أمس الحاجة إلى تدخل الدولة فى كافة نواحى حياتنا الاقتصادية . ونترك الديمقراطية الحرة لننظر فى الاشتراكية كمذهب اجتماعى . ومن الثابت أنه لو وزعت الثروة الموجودة الآن ببلادنا بالتساوى لافتقر الجميع ولم يغتن أحد ثم إنه لكى تحقق الاشتراكية لابد من سفك دماء فيما أرجح وهذا أمر إجرامى لا يمكن أن يفكر فيه عاقل . وإذن فنحن من جهة نرفض الديمقراطية الحرة لأننا لا نرى مفرا من دعوة الدولة إلى التدخل كما نرفض الاشتراكية لأننا نكره وسائلها ونخشى طغيانها .

وبهذا يتضح موقف « الدكتور مندور » الفكرى . . إيمان بالدين ، وحرص على الملكية الخاصة ، وديمقراطية سياسية تسمح بحرية تكوين الأحزاب وحرية الاعتقاد والتعبير ، وتدخل للدولة فى حياتنا الاقتصادية ، ورفض للطغيان وسفك الدماء فى تطبيق العدل الاجتماعى .

وفى موضع آخر يقول «مندور» عن وسيلة تحقيق « الديمقراطية الاجتماعية » (ليس هناك طرق غير النزول إلى الشارع وكسب الرأى العام تمهيدا للوصول إلى السلطة الفعلية . .) وأحسبه فى ذلك متأثرا بأفكار الحزب الاشتراكى الفرنسى ، وبالاشتراكية الديمقراطية عموما ، والأخذ بالأسلوب البرلمانى وصولا إلى السلطة وهو ما كان يميز هذه الأحزاب عن الأحزاب الشيوعية .

كتاب الشيخ عطوة

كانت تلك بعض الملامح الفكرية « للدكتور محمد مندور » ابن « كفر مندور » مركز منيا القمح بمديرية الشرقية . وولد فى ٥ يوليو سنة ١٩٠٧ أى إنه كان يكبر زميل كفاحه « الدكتور عزيز فهمى » بسنتين . تعلم « مندور » فى كتاب « الشيخ عطوة » بالقرية . ثم تلقى تعليمه الابتدائى بمدرسة الألفى الابتدائية بمنيا القمح . ونال البكالوريا سنة ١٩٢٥ بمدرسة طنطا الثانوية ـ القسم الأدبى . ولكن حادثة تدخل فى وجدانه الوطنى سنة ١٩١٩ وهو فى الثانية عشرة من العمر يشاهد تظاهرة من الفلاحين على جسر بحر مويس ، ويشاهد الانجليز يطلقون الرصاص على أهله الفلاحين فيسقط منهم ١٥٠ ما بين قتيل وجريح . وما أن يستقيل سعد زغلول فى آخريات عام ١٩٢٤ ، ويحل محله « أحمد زيور باشا » حتى يتزعم « مندور » تظاهرة طلابية ضد الانجليز وضد حكومة زيور باشا ، ويفصل من المدرسة فترة غير قصيرة . وحصل على ليسانس الآداب سنة ١٩٢٩ وعلى ليسانس الحقوق سنة ١٩٣٠ . وسافر فى بعثة إلى باريس سنة ١٩٣٠ . وهناك كانت حياته سياحة فكرية وثقافية وفنية . وقف هناك على معالم الحضارة الأوربية ، وعلى الفكر الاشتراكى ، وعاش النشاط الأدبى والفنى . وحصل على شهادات فى اللغة اليونانية وآدابها ، وشهادة فى الأدب الفرنسى ، وشهادة فى فقه اللغة الفرنسية ، وشهادة من

معهد الصوتيات وحصل على دبلوم فى الاقتصاد والتشريع المالى . ويحدث ما يوقفه عن البعثه عام ١٩٣٦ ويسعى له « أحمد لطفى السيد » لدى « مكرم عبيـد » الذى أعاد البعثة إليه ، أو أعاده إلى البعثة بسبب موقفه الـوطنى فى باريس دفاعا عن حق مصر فى إلغـاء الامتيازات الأجنبية . ويعود ابن كفر مندور من بعثته الطويلة فى باريس ، وقد حصل على شهادات ودبلومات دون أن يحصل على الدكتوراه التى أوفد من أجلها .

بعـد البعثـة

لم يكن مندور راغبـا فى العمل بالنيابة وسافـر إلى البعثة . ولكنه عندما عـاد من البعثة دون أن يحصل على الـدكتوراه غضب منه وعليـه « الدكتور طه حسين » وأبـى عليه أن يقوم بالتـدريس فى قسم اللغـة العربية ، ولم يقبلـه قسم اللغة الفـرنسية . ولكن « أحمد أمين » هيـأ له أربع سـاعات للترجمة مـن الفرنسيـة إلى العـربية . وفى العـام الجامعى ١٩٤٠ ــ ١٩٤١ أخـذ جدولا فى معهـد الصحافة لتدريس اللغة الفرنسية والترجمة من الفرنسية إلى العربية .

وسنة ١٩٤٢ عينه « الدكتور طه » عضوا فى هيئة التدريس بجامعة الإسكندرية وكانت جامعة ناشئة . ولم يكن « الدكتور مندور » من النوع الذى يريد أن يحصل على الدكتوراه كترخيص يسمح له بالتدرج فى السلك الجامعى وإلا حصل عليها وهو فى باريس من أيسر السبل وما أكثرها للذين يعرفون دهـاليز الحصول على مثل هذه الشهـادات عن غير طريق المعـرفة الجادة . ولهذا عكف فى مصر على أطروحتـه « النقد المنهجـى عند العـرب » وتحت إشراف « أحمد أمين » أنجزهـا فى تسعة أشهر وحصل بها على شهادة الدكتوراه التى يريدونها وكان ذلك فى سنة ١٩٤٣ .

وبقدر غير قليل مـن التحدى قدم استقالته من الجامعـة وخرج للعمل بالصحافـة فى جريدة «المصرى » سنة ١٩٤٤ . ويبدو أنـه هيأ نفسه للعمل بالصحافـة والسياسة وبالحياة العـامة ومعه المؤهـلات أو الأسلحة المطلـوبـة من دراسـة الحقـوق إلى دراسة الاقتصـاد إلى الفكـر والثقافـة إلى الدكتوراه . . ولم يلبث أن وقع فى نزاع مع أصحاب جـريدة المصرى . . وانطلق إلى جريدة « الوفد المصرى» وكان الصراع السياسى محتدما فى تلك الأيام .

سنوات الصراع

عندما عـاد « مندور » إلى مصر سنة ١٩٣٩ كان هنـاك حزب الأغلبية الشعبية « الـوفد » بتراثه الليبرالى وإلى يساره أخذت الحلقات الماركسية بفكرهـا الجديد فى النمو ، وهناك إلى يمينه الإخوان المسلمون الذين وجدوا منه سنة ١٩٢٨ ومصر الفتاة التـى تأسست عام ١٩٣٣ . وعرفنا فيما سبق المعانـاة التى لقيهـا « مندور » فى الجامعـة ، من النـاحية الأخـرى كان لـه فكره المتميـز . . إيمان

بالديمقراطية السياسية وبدرجة من تـدخل الدولة فى الاقتصاد ، وحرص على الدين وعلى الملكية الخاصة والقول بالعدل الاجتماعى مما يشكل فى مجموعة ديمقراطية اشتراكية أو ديمقراطية اجتماعية على حد تعبيره . . بهذه الأسلحة خاض « منـدور » الحياة السياسية من باب الصحـافة فى جريدة المصرى ، والوفد المصرى ، والبعـث . وأحاط نفسه أو أحاط بـه مجموعة من الكتـاب اليساريين مثل « أحمد رشـدى صالح ، وسعـد مكاوى ، ونعمان عاشور ، وأنـور كامل ، ومحمـد إسماعيل محمد ، ومصطفى كـامل منيب ، وأنور المشرى » وهو يجد فيهـم كفاءات ثقافية تعـاونه فى أعماله الصحفية ، وهـم يجدون فيه مظلة واقية شرعيـة فى ظلال حزب الأغلبية الشعبية . . ولكن الحدود واضحة ومعروفة ، والمقام محفوظ . فإذا وافقهم على أن الـدين عقيدة بين الإنسان وخالقه تحميها القوانين ولا يحاسب عليها أحد . . لكنه يؤكد مخاصمته لموقف الماركسية من الدين . وإذا وافقهم فى الدعوة إلى العدل الاجتماعـى . . أكد مبدأ الحفاظ على الملكية الخاصة . وبسبـب مقالاته ضد «إسماعيل صدقى » ومفاوضاته مع الانجليز دخل الحبس الاحتياطى أكثر من عشرين مرة فى عام واحد .

وهاجم إسماعيل صدقى وهاجم مكرم عبيد سنة ١٩٤٤ عندما ثارت مناقشات حول الميزانية فى عهد وزارة « أحمد ماهر » . . وطالب إسماعيل صدقى بعقـد قروض عامة ، وطالب مكرم عبيد بأن تبيـع الحكومـة أراضيها على أن يـدفع الثمـن فورا . . عـارض «الدكتـور مندور » فكـرة عقد القروض التى تمكن الأثرياء من استغلال أموالهم المكـدسة وإن الدولة ستدفع لهم أرباح القروض من دمـاء الشعب . وعـارض فكرة أن تبيع الحكـومة أراضيها وأن يـدفع المشترون الثمـن فورا لأن معنى ذلك هو أن كبار الأثرياء سينهبون أملاك الحكومة ويزداد التفاوت بين الأغنياء والفقراء .

المثقف الثـورى

والدكتور محمد مندور نموذج للمثقف الثورى الـذى قرن الفكر بالعمل ، والإيمان بالنضال ، وحكمت أفكاره نشاطيه السياسى والأدبى معـا فأصبح داعية تطور وتقدم فيما يكتب وفيما يسلك وهذا هو دوره العظيم فى تاريخنا المعاصر سواء داخل الوفد أو فى الصحافة أو فى السياسة .

الأسـانيد :

١ ـ الطليعة ـ مجلة ـ مايو ١٩٦٦ ملف فى الذكرى الأولى لرحيله .

٢ ـ د . عبد المنعم تليمه . . مجلة الكاتب يونية ١٩٦٧ .

٣ ـ د . لويس عوض ـ الثورة والأدب .

٤ ـ ملك عبد العزيز الشاعرة ـ نقاش بتاريخ ٨/ ٥/ ١٩٨٧ .

محمود حمدى الفلكى



لم يكن اسمه هكذا فى البداية ، بعد مولده سنة ١٨١٥ ببلدة الحصة مديرية الغربية كان اسمه « محمود أحمد » ، وبعد أن ذاع صيته فى مجال الفلك والعلوم اشتهر باسم « محمود حمدى الفلكى ». وعندما أصبح ناظرا للنافعة (وزيرا للأشغال) من ١٨ يونية ١٨٨٢ - ٢١ أغسطس ١٨٨٢ فى نظارة إسماعيل راغب باشا أو وزارة الأزمة كما يطلق عليها « الدكتور لويس عوض » وعندما أصبح ناظرا للمعارف العمومية بعد الاحتلال فى نظارة (نوبار باشا الثانية) من ١٠ يناير ١٨٨٤ - ٩ يونية ١٨٨٨ كان قد اشتهر باسم « محمود الفلكى باشا » وهو الاسم الذى دخل به القبر فى ١٩ يوليو ١٨٨٥ . ويخبرنا « أحمد سعيد الدمرداش » فى كتابه عنه . . إن « محمود الفلكى باشا » ناظر المعارف العمومية توجه إلى الجبانة فى ١٨ يوليو ١٨٨٥ وحث العمال على سرعة الانتهاء من استكمال القبر الذى كان قد رسمه لنفسه ، وبعد أن اطمأن إلى أن القبر أصبح جاهزا عاد إلى مكتبه فى اليوم التالى ليموت فجأة وهو صحيح وبعافية .

المهم أن « محمود أحمد » هذا هو « محمود حمدى الفلكى » أو « محمود الفلكى باشا » لم يبق من سيرته فى أذهان الناس سوى ميدان أو شارع الفلكى ، وفى الفترة الأخيرة أشيع أن جهة ما فى سبيل أن تغير اسم الميدان أو اسم الشارع . وجاءنى الصديق الكاتب «مختار السويفى» يستحثنى أن يحتل « محمود الفلكى » واحدة من حلقات (هذا الرجل من مصر) وبعد حاضر . . حاضر دون تنفيذ . وضع أمامى كتابا من تأليف « محمود الفلكى » بالفرنسية ونقله إلى العربية حفيدة « محمود صالح الفلكى » وفى هذا الكتاب ترجمة ضافية لحياة « محمود الفلكى باشا » كتبها الحفيد الوفى مستندا إلى عدد من المراجع الدقيقة ، ووضع (السويفى) أمامى أيضا دراسة له عن (العبقرى المصرى محمود الفلكى) كان قد نشرها فى جريدة الأخبار فى أواخر عام ١٩٨٥ .

وحماسة « مختار السويفى » لمحمود الفلكى باشا تعادلها حماسة الزميل الكبير « كامل زهيرى » النقيب الأسبق للصحفيين الذى حكى لى أنه عندما كان فى (باريس) منذ سنوات قضى أياما كثيرة يبحث عن آثار « الفلكى باشا » هناك إذ إنه سافر فى بعثة سنة ١٨٥٠م إلى باريس وهو برتبة (الصاغ) واتخذ المرصد الفلكى مقرا له . ودرس على أيدى علماء الطبيعة والفلك مدة تسع سنوات كاملة . . ويستعيد « كامل زهيرى » سعادته وهو يبحث عن محل إقامة (الفلكى) وعن بحوثه ودراساته التى وضعها بالفرنسية وعن المعاهد التى درس فيها فى باريس .

ووعدت بالكتابة عنه ، وهأنذا أفى بالوعد . . وأرجو أن يقرأ هذا الموضوع الذين يركبون الخنازير وهم يفكرون فى اسم (مودرن) لميدان الفلكى .

العهود الخمسة

وإذا كنا قد عرفنا أن « محمود الفلكى باشا » قد ولد سنة ١٨١٥م ورحل سنة ١٨٨٥م ، فمعنى هذا أنه شهد عصور محمد على ، وعباس الأول ، وسعيد ، وإسماعيل ، وتوفيق ، وعند وفاة محمد على (٢ أغسطس ١٨٤٩م) كان المهندس « محمود أحمد » يقوم بتدريس الرياضيات والفلك فى مدرسة المهدسخانة ومديرا للمرصد الفلكى الملحق بالمدرسة . وعندما توفى « محمود الفلكى» عام ١٨٨٥ فى عهد الخديو توفيق ، كان كما عرفنا ناظرا (وزيرا) للمعارف العمومية .

ونقف فى عصر إسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) عند حركة الترجمة . وكانت رغبة إسماعيل فى الاستقلال عن تركيا تقوده إلى زيادة التمصير وبدأت اللغة العربية تحتل مكانتها . وقد صدر أمر لوزير الداخلية فى عام ١٨٦٦ ينص على استخدام اللغة العربية فى تحرير المراسلات الداخلية .

واتخذ « إسماعيل » عددا من الخطوات للاهتمام بالترجمة ، والاهتمام بتعليم اللغات الأجنبية ، وإعادة فتح مدرسة الألسن ١٨٦٧ ، وتنوع اللغات الأجنبية فى المدارس ، وكان تعليم اللغة الفرنسية اجباريا .

نشطت حركة الترجمة فى عهد إسماعيل . وتأتى العلوم والرياضيات وفنون الهندسة على رأس القائمة ، وتأتى بعدها العلوم العسكرية ، وفى المرتبة الثالثة الآداب ، وفى المرتبة الرابعة التاريخ والجغرافيا ، وفى المرتبة الخامسة القانون ، وأخيرا (الطب والديانات والإحصاء والشئون المنزلية) .

يهمنا هنا أن ترجمة (العلوم والرياضيات والهندسة) كانت تحتل المقام الأول فى عصر إسماعيل وهذا يدل على عقلية ناضجة متقدمة . . ولا بأس هنا أن نذكر قائمة بأسماء المترجمين أو أهم المترجمين فى عهد إسماعيل فى الفروع المختلفة :

العلوم والرياضيات : محمود حمدى الفلكى ، وصالح مجدى ، وعبد الله أبو السعود ، ومحمود سليمان ، وجرجس حليا ومحمود فهمى ، وإسماعيل مصطفى الفلكى ، وأحمد نادى ، وعلى عزت ، وإبراهيم مصطفى .

العلوم العسكرية : أحمد عبيد الطهطاوى ، سليمان سليمان ، سليمان رءوف ، عبد الرحمن على ، حسن مظهر ، أحمد حمدى ، محمد عثمان .

الآداب : محمد عثمان جلال ، أحمد نجيب ، بشارة شديد ، حسين حسنى ، نجيب بحرى ، مراد مختار .

التاريخ والجغرافيا : خزين نعمة الله الخورى ، محمد أحمد عبد الرازق ، خليفة محمود عبد الله ، أبو السعود الطهطاوى .

القانون : رفاعة الطهطاوى ، عبد الله أبو السعود ، محمد قدرى ، أحمد زكى .

المعارف الأخرى : حسن عبد الرحمن ، هليلة تمرهان ، حسن محمود ، نخلة صالح ، حسن عاصم ، حسين ندور ، سعيد البستانى ، محمد أحمد بن صدقى .

عصر محمد على

وعلى الرغم من أن « محمود الفلكى » حرص على أن يبتعد عن (السياسة) وربما هذا كان من عوامل عدم شهرته ، إلا أن طبيعة كل فترة من الفترات الخمس من محمد على إلى توفيق انعكست على أعماله بطبيعة الحال . .

كان مولده كما عرفنا عام ١٨١٥ فى أسرة فقيرة ، وسنة ١٨٢٤ وهو فى التاسعة من عمره اصطحبه شقيقة الأكبر إلى الإسكندرية حيث ألحقه بإحدى المدارس الابتدائية ، وبعدها ألحقه بالمدرسة البحرية وكانت تسمى (مدرسة الترسخانة) ويديرها مهندس فرنسى خبير فى بناء السفن يعاونه عدد من الخبراء الفرنسيين والإيطاليين . وكانت (الترسخانة) فى مستوى المعاهد المتوسطة ، وتخرج فيها برتبة (البلوك أمين) سنة ١٨٣٣ . وجاء سنة ١٨٣٤ إلى القاهرة ليلتحق بمدرسة (المهندسخانة) ببولاق وتخرج منها سنة ١٨٣٩ برتبة الملازم . وأتقن اللغة الفرنسية فترجم إلى العربية كتابا فى (التفاضل والتكامل) الذى طبع بمطبة بولاق سنة ١٨٤٢ بموافقة «محمد على » الكبير . وصدر قرار بتعيينه مدرسا فى مدرسة (المهندسخانة) لتدريس الرياضيات ، وعلم الفلك ، ومديرا للمرصد الفلكى الذى ألحق بالمهندسخانة ، ووضع رسالة باللغة العربية بعنوان (نبذة مختصرة فى تعيين عروض البلاد وأطوالها) . وكان « محمد على » تحت

ضغط مشروعـاته الحربيـة خارج البـلاد فى حاجة لجبـاية الخراج ، فـأراد تحديد مسـاحات الأرض المنزرعة ليقيـم الخراج على أساسها ، فاستعـان بعناصر أجنبية وأرمنية ، ولكـن « محمود الفلكى» كان مـن العناصر المصريـة التى قـامت بدور هـام فى قياس المسـاحة المنـزرعة على أسـس علمية واستطاع ان يعين خطوط الطول والعرض لنحو ثلاثين نقطة فى الدلتا والوجه القبلى .

ومن الطـريف أن « محمود الفلكى » كـان مدرسا لعلى مبـارك عندما التحق « على » بمـدرسة المهندسخانة . وعلى مبـارك أصغر فى العمر من محمود الفلكى بثمانية أعـوام ولكنه سبقه فى الترقى إلى الوظائف العليا وفى الرتب .

حـركة الانكماش

ويقصد بحـركة الانكماش تلك التـى صاحبت عهـد « عباس الأول » الذى تـولى حكم مصر (٢٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨م) فى حياة محمد على الذى كان قد ترك الحكم لابنه « إبراهيم باشا » الذى توفى ١٠ نوفمبر ١٨٤٨ . وبدأ عباس الأول فى حركته الانكماشيـة ونفى « رفاعة رافع الطهطاوى » إلى السودان وأغلق مدرسة الألسن وصفى الكثير مـن المدارس وسرح تلاميذها ، وطرد الكثير من المثقفين والعلماء ونفى بعضهـم إلى الآستانـة ، واستدعـى « على مبارك » مـن باريـس الذى كـان يتدرب فى الجيـش الفرنسى وقـربه إليه . وفى أكتوبـر ١٨٥٠م أراد الخديو تقليص حجـم التعليم وميـزانيته ، فطلـب سرا مـن « على مبارك » وزميليـه « حماد عبـد العاطـى وعلى إبـراهيم » إعـداد المشروع ، فأعـد « على مبارك » مشروعـا استحق عليه رتبـة (اميرالاى) واستحق منصـب (نظارة المدارس) . وأصبحـت لعلى مبـارك منـزلـة عنـد « عباس الأول » وتـراجعـت أسهـم « رفـاعـة الطهطاوى » . . على أية حال هناك دفاع ممتع عن عدم مسئولية « على مبارك » فى حركة الانكماش مع « عباس الأول » فى كتاب الدكتور محمـد عمارة عن على مبارك . ولم ينس « على مبارك» أستاذه السابـق فى مدرسة (المهنـدسخانـة) ونعنى به « محمـود الفلكى » فأرسلـة مع زميليـه « إسماعيل مصطفـى الفلكى » و«حسين إبـراهيم» فى بعثـة إلى باريـس لـدراسة علـوم الفلك لتـولى مدرسـة (الرصدخانة) التى ألغيت فى مشروع الانكماش لعدم وجـود من يتولى أمرها ، وكان سفر البعثة فى ٨ أكتوبر ١٨٥٠ . وفى ١٥ يوليو سنة ١٨٥٤م يلقى « عباس الأول » مصرعه بطريقة غامضة على أيدى الخدم ويتولى أمر البـلاد « الوالى سعيد » بن « محمد على » فيقرب « رفـاعة الطهطاوى » إليه ويبعد « على مبارك » عنـه وسوف نرى ماذا كـان شأن « محمود الفلكى » فى عهـد « سعيد » ولكن بعد أن نوجز حاله فى فترة « عباس الأول » .

فى باريـس اتخذ المرصد الفلكى مقـرا له ، ودرس على أيـدى علماء الطبيعة والفلك مـدة تسع

سنين كاملة ، وفى سنة ١٨٥٤ قام برحلات إلى ألمانيا وبلجيكا لزيارة مراكز الأرصاد . وقدم رسالة إلى أكاديمية العلوم البلجيكية ، نشرتها سنة ١٨٥٤ .

عهد سعيد

وإذا كان « على مبارك » فى فترة الانكماش قد أرسل « محمود الفلكى » فى بعثة إلى باريس ، فإن « رفاعة الطهطاوى » الذى أصبحت له الحظوة عند « سعيد » بدلا من « على مبارك » الذى أرسلوه إلى ميدان الحرب فى القرم لأنه يحمل رتبة (اميرالاى) . . رفاعة الطهطاوى كان وراء أن ترسل الحكومة المصرية إلى « محمود الفلكى » فى باريس - بعد أن اشتهر فى الأوساط العلمية — لكى يواصل بحوثه فى بريطانيا ، يزور مراكز الرصد فيها . ونشرت له أكاديمية العلوم البلجيكية سنة ١٨٥٥ (رسالة فى التقويمين الإسلامى واليهودى » ونشرت له أيضا سنة ١٨٥٦ رسالة عن (شدة المجال المغناطيسى فى بريطانيا وهولندا وبلجيكا وفرنسا) . . وفى السنة ذاتها نشرت له أكاديمية العلوم الفرنسية (رسالة عن المواد المغناطيسية الأرضية فى باريس) . ونشرت له أكاديمية العلوم البلجيكية سنة ١٨٥٨ (رسالة فى التقويم العربى قبل الإسلام ، وفى ميلاد النبى وعمره عليه السلام) .

وفى سنة ١٨٥٩ عاد محمود الفلكى إلى مصر بعد أن قضى فى المحافل العلمية فى أوروبا تسع سنوات . . وكان رائد النهضة الفكرية « رفاعة الطهطاوى » فى يده مقاليد الأمور التعليمية والثقافية . منحت الحكومة رتبة (الاميرالاى) ورتبة (البكوية) للفلكى ، واختير عضوا بالمجمع العلمى المصرى ، وانتخب وكيلا للجمعية الجغرافية المصرية منذ تأسيسها وأصبح رئيسا لها فى أخريات أيامه . وعمل على استكمال أجهزة المرصد التى وصلت بعد وفاة « سعيد » . وبدأ سنة ١٨٥٩ فى رسم خريطة كاملة للقطر المصرى وأنجزها فى عهد إسماعيل سنة ١٨٦٩ . ووضع رسالة فى وصف الكسوف الكلى للشمس فى دنقلة يوم ١٨ يوليو ١٨٦٠ ، وقدمها إلى أكاديمية العلوم فى باريس ، وطبعت سنة ١٨٦١ ، ونشرت له أكاديمية العلوم البلجيكية سنة ١٨٦٢ (رسالة فى عمر الأهرام) وفى تلك الرسالة انتهى إلى أن الأهرام بنيت سنة ٣٣٠٣ قبل الميلاد مع احتمال الخطأ فى مائة أو مائتين من السنين . . وعندما زار « أمبراطور البرازيل » مصر فى تلك الفترة قال له : لقد أحسنت فى جميع ما فعلت وأتيت بأدلة بارعة ، وفى سبيل إعداد بحثه هذا يقول : ذهبت إلى الأهرام قبل الاعتدال الربيعى بيومين ، ونصبت خيمتى أسفل أكبر الأهرام ، ومكثت أربعة أيام بلياليها وصحبنى اثنان من إخوانى « أحمد بك فايد » أستاذ الكيمياء بالمهندسخانة ، و « مصطفى شوقى » أفندى . وبينما أنا فى إحدى هذه الليالى شاخص إلى السماء ، جامع حواسى ومستعمل أفكارى فى البحث . . اذ وقع بصرى على كوكب «الشعرى

اليمانية ـ السيروس » إذ هو أنور الكواكب الثوابت فوجدت أشعته عند التوسط تسقط على الوجه الجنوبى من الهرم الأكبر، وعلى الوجه المماثل من بقية الأهرام عمودية) .

ووصل إلى نتائج أهمها أن أضلاع الأهرام متجهة اتجاهـا صحيحا نحو الجهات الأربع الأصلية وأن نسبة ارتفاع الهرم إلى محيط كرة الأرض ١ : ٢٧٠ مليونا .

وفى سبيل أن يرصد كسوف الشمس فى دنقلة فى ١٨ يـوليو ١٨٦٠ سافر تحت الشمس المحرقة على ظهور الجمال لأيام كثيرة . ورغـم تلف بعض الأجهزة رصـد هذه الظاهرة . وأثنـت أكاديمية العلوم فى باريس على هذا العمل العلمى .

عصـر الازدهـار

ويأتى عهد « الخديو إسماعيل ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ وهو عهـد ازدهار على المستوى الفردى لرفاعة الطهطـاوى وعلى مبارك ومحمـود الفلكـى ، وعهـد ازدهار على مستـوى النشر والترجمة والتعليـم والنهضة الفكرية الحديثة . وقدر لرفاعـة الطهطاوى أن يرحل عام ١٨٧٣ ، ولمحمود الفلكى أن يرحل عام ١٨٨٥ ، أما على مبارك فقد عاش إلى عام ١٨٩٣ ليتألق نجمه أكثر وأكثر . .

فى تلك الفترة أخذ « محمود الفلكـى » يستكمل مشروعاته التى بدأهـا أيام « سعيد » ووصلت أجهزة المرصد سنة ١٨٦٤ ، ونقـل المرصد من مكانه القديم فى بـولاق إلى العباسية سنة ١٨٦٥ ، وظل يشرف على المرصد لسنوات عديدة .

وفى سنة ١٨٦٩ استكمل إعداد خريطة فلكية طبوغرافية للقطر المصرى ، وكان قد بدأ العمل فيها سنـة ١٨٥٩ . واكتشف مقيـاس النيل القديـم عند « ادفـو » سنة ١٨٧٠ ، ومقيـاس النيل بجهة أسوان ، وموقعه أمـام أسوان على النيل من الطرف الجنوبى الشرقى من جـزيرة أنس الوجود (والمقياس موجود فى بئر . . سام مستقيم يمينا ، وينـزل ١٢ درجة وهناك يتصل البئر بمياه النيل التى تدخل إليـه من باب ومن فتحات أخرى فى الحائط . وفى ديسمبر ١٨٧٤ رصـد مرور كوكب الزهرة على قرص الشمس) وفى تلك الفترة وضع رسالة باللغة العربية (فى التنبؤ عن مقدار فيضان النيل قبل فيضانه) وألقـى عدة محاضرات بالجمعية الجغرافية المصرية عن أعـالى النيل وزيادة مياه الفيضان ونشر ملخصا لـلأرصاد الجوية من ١٨٦٨ ـــ ١٨٧٧ . وقام بتمثيل الحكومـة المصرية فى المؤتمر الجغـرافى الدولى ببـاريس سنـة ١٨٧٥ . ونشر فى (كوبنهـاجن) سنـة ١٨٣٧ رسالـة (فى المقاييس والمكاييل) .

فترة الرحيـل

تولى توفيق بعد عزل إسماعيل فى فترة مضطربة سنة ١٨٧٩ ، ويبدو أن « محمود الفلكى » كان

حريصا على ألا ينغمس فى الأحداث السياسية ، وأن ينصرف إلى نشاطه العلمى . وبعد استقالة البارودى فى ٢٧ مايو ١٨٨٢ رفض « مصطفى فهمى وعمر لطفى » رئاسة النظارة فأسند إلى «إسماعيل راغب » فى ١٩ يونيه الذى أسند « نظارة النافعة » لمحمود الفلكى باشا واستقالت الوزارة فى ٢١ أغسطس . وفى نظارة نوبار باشا الثانية (١٠ يناير ١٨٨٤ ـ ٩ يونيه ١٨٨٨) تولى «محمود الفلكى» نظارة المعارف العمومية حيث توفى فجأة فى ١٩ يوليو ١٨٨٥ ، وقد ترك لمصر أعمالا علمية لا تقل أهمية عن الجهود السياسية لغيره . . وهذه الأعمال العلمية العظيمة قد تشفع له عند الذين يركبون الخنازير فيتركون اسمه على الميدان والشارع .

الأسـانيد :

١ ـ أحمد سعيد الدمرداش . . محمود الفلكى .

٢ـ أنور عبد الملك . . نهضة مصر .

٣ ـ د . لويس عوض . . تاريخ الفكر المصرى الحديث .

٤ ـ د . محمد عمارة . . على مبارك

٥ ـ مختار السويفى . . جريدة الأخبار ٢٦/ ١١/ ١٩٨٥ .

٦ ـ محمود الفلكى . . رسالة عن الإسكندرية القديمة . ترجمة محمود صالح الفلكى .

محمود أبو الفتح



كلما جلست إليه ، زاد احترامى لذلك الجيل العظيم الذى يسبق جيلى .

يحلو له دائما أن يحدثنا عن « مصطفى النحاس » وعن سلوكه القويم النادر .

وندرك ونحن نستمع إليه لماذا حرص رجال يوليو على أن ينتقموا من « مصطفى النحاس » فى شخص « إبراهيم فرج » .

مصطفى النحاس كان (ولى أمر) إبراهيم فرج ، وإبراهيم ـ مد الله فى عمره ـ لم يزل محبا ووفيا ومخلصا لذكرى الزعيم العظيم مصطفى النحاس .

كلما جلست إليه ، أحرص على أن أعرف رأيه ـ وهو قارئ ممتاز ـ فيما أكتب هذا (هذا الرجل من مصر) وأن أعرف منه مالم أكن أعرف .

فى الأيام القليلة الماضية . . وبنظرات عتاب قال . . « محمود أبو الفتح » : قلت طبعا ، ضرورى ، فى ذهنى وأردف قائلا وهو يدير أرقام التليفون . . أول نقيب للصحفيين وقلت بلهجة دفاع عن النفس . . نعم إنه أول من طلب من الحكومة سنة ١٩٤١ إنشاء نقابة للصحفيين ، فوافقت الحكومة بشرط توفير مقر ، وتبرع « محمود أبو الفتح » بشقته فى عمارة الايموبيليا واختاره الصحفيون أول نقيب لهم فى عهد حكومة الوفد (٤٢ ـ ١٩٤٤) خصصت الحكومة الأرض الحالية للنقابة ، وتبرع هو بالجزء الأكبر من نفقات المبنى وحينما تقرر افتتاح مبنى النقابة كان « محمود أبو الفتح » قد استنفد مرات انتخابه كنقيب فاختار الصحفيون أخاه « حسين أبو الفتح » نقيبا بالتزكية . . وسمعته ينهى المكالمة . . أحمد . . لعى سيمر عليك غدا . . وودعنى فى أبوة آمرة . . أحمد أبو الفتح فى انتظارك غدا . . وودعته وأنا أتمنى أن يكون جيلنا والأجيال التاليةبعض النقاء والعزيمة والصدق لدى ذلك الجيل .

سعد ودنلوب

عندما كان سعد زغلول ناظرا للمعارف (١٩٠٦ ـ ١٩٠٨) ذهب إليه « الشيخ أحمد أبو الفتح» مفتش اللغة العربية ومن أبناء دار العلوم وأستاذ الشريعة الإسلامية لأكثر من ثلاثين عاما فى (الحقوق) فيما بعد . ذهب يعرض مشروعا لنشر (الكتاتيب) ويطلب دعمها . . وقال سعد أنت والد التلميذ « محمود أبو الفتح » نعم ، وماذا فى الأمر ؟! وقال سعد . . لقد أيدت رأى المدرس المصرى الذى منح . . محمود الدرجة النهائية فى موضوع كتبه باللغة الانجليزية بروح وطنية وعلى غير رغبة المدرس الإنجليزى الذى أعطى« محمود» صفرا تنفيذا لتعليمات « دنلوب » المستشار الانجليزى للتعليم فى مصر . . وقاد محمودتظاهرة ضد سياسة دنلوب ففصل من المدرسة استنادا إلى شهادة بحسن نية من زميله أحمد عبد الغفار وحصل على البكالوريا بنظام (المنازل) وفى مدرسة الحقوق جاء دنلوب يزور المدرسة ليواجهه محمود أبو الفتح بتظاهرة ويتقرر فصل محمود مرة أخرى . .

وسنة ١٩١٤ وكان محمود أبو الفتح قد تجاوز العشرين من العمر (ولد بالزقازيق فى ١٥ أغسطس ١٨٩٣ ـ وتوفى فى ١٥ أغسطس ١٩٥٨) اتصل بجريدة وادى النيل وهى جريدة موالية للحزب الوطنى أصدرها محمد الكلزه فى الإسكندرية فى ٢ مايو ١٩٠٨ ، واستمرت إلى ٣١ ديسمبر ١٩٣٦ وكتب فيها . . « أحمد عبد الغفار ومحمود أبو الفتح وتوفيق دياب ، وعبد اللطيف النشار ، ومحمد حمدى ، ومحمود عزمى ، وأحمد حسين ، وفتحى رضوان » . . وكانت ذات اتجاه معتدل وعلى صلة قوية بأحمد لطفى السيد رغم تأييدها للحزب الوطنى . .

مع الوفد المصرى

ترك محمود أبو الفتح كتابين . . (مع الوفد المصرى) (والمسألة المصرية والوفد) . . وفيهما تسجيل دقيق لحركة الوفد المصرى فى أوروبا وما اتصل بالحركة من ملابسات ويظهر فى الكتابين أسلوب الصحفى محمود أبو الفتح . وكان أول اتصال له بالوفد المصرى فى فبراير ١٩١٩ فى الإسكندرية عندما عرض على « محمود أبو النصر » عضو الوفد ما تنشره الصحف الأجنبية عن الوفد وعن المسألة الوطنية واقترح أن تتم ترجمة هذه التعليقات واقترح الرد عليها وكان محمود أبو الفتح يجيد اللغتين الانجليزية والفرنسية ووافق سعد باشا على الاقتراحات على أن يقيم أبو الفتح فى القاهرة ومقابل عشرة جنيهات من أول مارس ١٩١٩ .

وفى مساء ٣١ مارس ١٩١٩ حصل أبو الفتح على أول حديث من اللورد اللنبى ونشرته جريدة

وادى النيل وفى ١١ أبريل ١٩١٩ رافق محمود أبو الفتح الوفد المصرى فى السفر إلى باريس مندوبا عن جريدة وادى النيل ، وطلب منه « داود بركات » أن يوافى (الأهرام) بأخبار الوفد المصرى فى باريس ويصف لنا التظاهرة التى ودعت الوفد المصرى فى بورسعيد إلى أوروبا . ووصلت السفينة قبل ظهر الجمعة ١٨ أبريل ، وهناك فى باريس يتصل بجمعية الطلبة المصريين . وفى ٢٥ أبريل يكتب « أبو الفتح » مذكرة عن الحركة المصرية ، وعن مطالب المصريين ويرسلها إلى أعضاء مجلس العموم ، وأعضاء مجلس اللوردات وإلى أعضاء حزب العمل ، وبتوقيع محمود أبو الفتح صحفى مصرى يرسل فى ١٥ مايو برقية إلى مجلس العموم ، وتعرف هناك إلى الصحفيين الفرنسيين الذين يعملون سرا من أجل استقلال بلادهم ولم يذكر أسماءهم خوفا من بطش السلطات بهم .

واهتم « أبو الفتح » فى باريس بالحصول على تأييد اليسار الفرنسى للمطالب المصرية وقد عانى أبو الفتح فى باريس كثيرا خاصة من الناحية المالية وإن كان فى موضع آخر من الكتاب يسجل أن محمود الكلزه سلمه بعد رجوعه كل مستحقاته المالية . وكان قد سافر مقترضا من أصدقائه وعاد من باريس مقترضا من عبد العزيز فهمى ومحمود أبو النصر .

ماقبل المصرى

وإذا كان اسم محمود أبو الفتح قد ارتبط بجريدة المصرى (أكتوبر ١٩٣٦ ـ مايو ١٩٥٤) فإن نشاطه قد امتد إلى مجالات مختلفة بعد عودته من أوروبا فقد أصدر جريدة (الجمهور) كجريدة مصرية تتولى الدفاع عن القضايا الوطنية والحرية والاستقلال وتم تعطيلها ، وفى ٢٨ نوفمبر ١٩١٩ تعاقد على الاشتراك فى تحرير « الأفكار » وكانت من قبل يصدرها عبد العزيز الصوفانى واشترك فى تحريرها الدكتور زكى مبارك الذى كتب أنه كان يحررها من أولها إلى آخرها ! وتم الاتفاق بين الصوفانى وعبد القادر حمزة على أن تصدر موالية للوفد . وكتب فيها سينوت حنا . وقررت السلطات تعطيلها بعد ثلاثة أشهر بسبب مقالات سينوت . .

ويقول محمود أبو الفتح فى كتابه الذى يقترب من المذكرات إنه سافر مرة أخرى إلى أوروبا وإلى إيطاليا وبلجيكا وجنوب فرنسا وتوطدت علاقته بجريدة الأهرام فى عهد ولاية داود بركات . وكان الصحفى المصرى الوحيد بل إنه أول صحفى يذيع خبر اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون سنة ١٩٢٢ . واشترك مع عبد الله حسين فى تغطية مفاوضات محمد محمود ـ هندرسون .

وقد ظل محمود أبو الفتح المحرر الأول فى الأهرام . وكان داود بركات رئيسا لتحرير الأهرام (١٨٩٨ ـ ١٩٣٣) وفى ٥ نوفمبر ١٩٣٣ توفى داود بركات ورنا محمود أبو الفتح ببصره إلى كرسى رئاسة التحرير ، غير أن أصحاب جريدة الأهرام وضعوا « انطون الجميل باشا » رئيسا للتحرير

ومنذ ذلك اليوم تأكد محمود أبو الفتح أنه يلزم لمصر جريدة يومية مصرية تعبر عن الحركة الوطنية المصرية وكان هذا الحدث فى حياته نقطة تحول رئيسية .

جريدة المصرى

واتفق ثلاثة محمود أبو الفتح ومحمد التابعى ، وكريم ثابت ، على أن يصدروا جريدة يومية قترح لها كريم ثابت اسم المصرى والآن أصبح الثلاثة فى ذمة الله وأصبح المصرى فى ذمة الشعب .

باع محمد التابعى حصته للوفد واشترى محمود أبو الفتح حصة كريم ثابت ثم اشترى حصة الوفد . . وأصبحت جريدة المصرى ملكية موحدة لآل أبو الفتح . .

ولعل السياسة التى سار عليها المصرى فى عهد رئيس تحريره أحمد أبو الفتح منذ أول يوليو ١٩٤٦ نفس ذات سياسته فى فترة حسين أبو الفتح عامى ٤٤ ـ ١٩٤٥ وكلتاهما امتداد للسياسة التى سار عليها المصرى أيام محمود أبو الفتح من ١٩٣٦ ـ ١٩٤٤ وهى فى مجملها ان تكون الجريدة عامة وليست حزبية بالمعنى الضيق . . وأن تتجه إلى الخبر قبل المقال ، وأن تكتفى بكلمة المصرى بدلا من المقالات الحزبية الحادة . وفى تقديرنا أن هذه السياسة تتفق وافتتاحية محمد التابعى التى قدم بها الجريدة إلى القارئ : وعدا واحدا فقط هو الذى نتقدم به إلى القراء . . أن نحاول ما استطعنا أن ندخل على المصرى دائما لونا من روح العصر الذى نعيش فيه . . عصر الاختزال والسرعة والوصول إلى الهدف من أقصر طريق ، عصر الأخبار والأخبار ودائما الأخبار فلن تجدوا فى المصرى صفحة كاملة عن أيهما أفضل البحترى أو أبو تمام ؟ كلاهما عندنا رجل فاضل نرضى أن نقرأ على روحه الفاتحة ولكننا لن نقرأ له سبعة أعمدة . .

وهذا لاينفى أن المصرى قد مرت عليها أيام كانت فيها وفدية حزبية وكانت القيادات داخل الوفد تتجاذبها . وقد لمع مصطفى أمين وعلى أمين فى جريدة المصرى وقدم مصطفى أمين حديثا مع مصطفى النحاس عن معاهدة ١٩٣٦ واهتم أحمد أبو الفتح فى فترته ٤٦ ـ ١٩٥٤ بتقديم الشباب أمثال محمد خالد ومحمد حمزة ، وعبد القادر حمزة ، وعبد المنعم الصاوى ، ومحمود عبد المنعم مراد .

يوليو والمصرى

كى ندرك حقيقة موقف ٢٣ يوليو ١٩٥٢ من جريدة المصرى ينبغى أن نقلب صفحات الجريدة قبل ذلك بسنوات فى ضوء ملفات الخارجية البريطانية والتى أوردتها الدكتورة لطيفة سالم فى كتابها (الصحافة والحركة الوطنية المصرية ـ من ملفات الخارجية البريطانية) . . وينبغى أن

نضع فى الاعتبار الاتصالات التى تمت بين رجال يوليو ، ورجال السفارة الأمريكية فى الأسبوع الأول من انقلاب الجيش والتى كشف عنها النقاب أخيرا ونشرتها مجلة المصور المصرية ، وينبغى أيضا وهو الأهم إدراك حقيقة دور «محمود أبو الفتح » فى تحرير جريدة المصرى ، وينبغى أخيرا أن نعرف العلاقة بين « جمال عبد الناصر » و«أحمد أبو الفتح » .

و «محمود أبو الفتح » . كان له صوت الخبرة فى الجريدة ، كانت له بصمات تجربة سابقة فى جريدة الأهرام . وسواء تولى رياسة التحرير « حسين أبو الفتح » أو «أحمد أبو الفتح » فله دائما الإشراف العام واليومى .

وأشارت ملفات الخارجية البريطانية (٤٥ ــ ١٩٥٢) إلى ما كتبه « محمود أبو الفتح » (المصرى فى ١٦ يوليو ١٩٤٩) بعنوان (يا زعماء مصر اقرءوا الكتابة على الحائط) ويحذر من تخطيط بريطانيا ضد مصر إذ إن وصى العراق وملك الاردن وأمير ليبيا مجتمعون فى لندن ، ويحذر من التدخل فى الانتخابات القادمة . وفى ٢٩ مارس ١٩٥١ يرسل مسئول النشر بالسفارة البريطانية إلى حكومته بما يقوم به « محمود أبو الفتح » فى جريدة المصرى ويشير إلى احتمال أن تكون حكومة الوفد خلف الحملة الوطنية التى تقوم بها . ويشير إلى حملة « المصرى » على أمريكا لدورها فى مساندة بريطانيا (٢٥ أكتوبر ١٩٥١) .

والعلاقة بين « جمال عبد الناصر » وأعضاء الهيئة الوفدية (الدكتور عزيز فهمى ، وإبراهيم طلعت ، وأحمد أبو الفتح ، ورفيق الطرزى ، أصبحت الآن معروفة وشبه مؤكدة ، ولا يخفى أن «أحمد أبو الفتح » لظروف خاصة أسهم فى تحذير « جمال عبد الناصر» من موقف القصر إزاء محاولة إجهاض (٢٣ يوليو) فسارع « جمال عبد الناصر » إلى تقديم موعد الحركة .

هذه العناصر الثلاثة تؤكد أن الضباط الأحرار استولوا على السلطة ليلة ٢٣ يوليو وقد أسهم «أحمد أبو الفتح » بدور فى حمايتها، وأسهم « محمود أبو الفتح » بدور وطنى ضد بريطانيا ، وأسهم « المصرى » بدور هام فى الحركة الوطنية . فإذا ما جاءت (الوثائق الأمريكية التى قدمها « الدكتور رضا شحاته » الوزير المفوض بالخارجية المصرية ونشرتها مجلة المصور المصرية لتشير إلى أن مندوب الضباط الأحرار فى (٢٤ يوليو ١٩٥٢) أكد لممثل السفارة الأمريكية أن الصحف المصرية اليسارية سوف يوقف إصدارها، ومن المنتظر إغلاق (جريدة المصرى) يكون الأمر موضع أكثر من علامة استفهام .

موقفــان

والآن وقد رحل « محمود أبو الفتح » فى ١٥ أغسطس (يوم مولده) ١٩٥٨ ، ورحل « جمال عبد الناصر » فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، وابتعدت الصورة فأصبحنا نرى منحنياتها أكثر وضوحا

فإننا نرى بوضوح موقفين (جريدة المصرى) وبها أسرة أبو الفتح والمحررون الوطنيون الشبان تتمسك منذ اليوم الأول (٢٣ يوليو) بالجمهورية البرلمانية ، وبالدستور وبالنظام النيابى ، وبموقف محدد من الولايات المتحدة الأمريكية التى تزحف لترث النفوذ البريطانى . . من أجل هذا ينطلق قلم « رئيس التحرير » - أحمد أبو الفتح - يوميا تقريبا يؤذن بهذا الاتجاه ، ويفتح صفحات المصرى لأصحاب الاتجاه الوطنى الديمقراطى من العسكريين والمدنيين على السواء . . وعلى الواجهة الأخرى « جمال عبد الناصر » ومجموعته تتحدث بهذا كله مجرد حديث . . وفى التنفيذ يعمقون اتجاه الجمهورية الدكتاتورية ، وإلغاء الدستور ، وحل الأحزاب ، والإعلان عن «هيئة التحرير » واعتقال الشيوعيين والوفديين ومهادنة الإخوان المسلمين مرة وضربهم مرات ، ومطاردة شرسة لكل العناصر التى تأتى بكلمة الديمقراطية على ألسنتها . .

وسافر « محمود أبو الفتح » إلى الخارج ، وبقى « أحمد أبو الفتح » يدفعه شبابه إلى الإصرار على الاتجاه الوطنى الديمقراطى والأمل فى إقناع « جمال عبد الناصر » لم يزل يراوده . . والاجتماعات تعقد وتنفض بينه وبين عبد الناصر . . والطريقان يتباعدان . . عبد الناصر مستمر فى الاعتقالات وتصفية المعارضين له ويريد أن تكون المصرى ورجالها كتيبة ضاربة للتنظيم الواحد . . وأحمد أبو الفتح يريد الدستور والحريات وهو كفيل بتأييد واسع لعبد الناصر من كل العناصر التى وضعت الأمل فى (٢٣ يوليو) قبيل وبعيد وقوعها .

وتباعدت السبل بين « عبد الناصر » و «أبو الفتح » و « أحمد أبو الفتح » عزوف عن مقابلات لا جدوى منها إلى أن هدده «عبد الناصر» باعتقال العناصر الأساسية فى (جريدة المصرى) وبذلك تتوقف الجريدة ، وتحت هذا التهديد كان اللقاء العاصف والأخير بين « جمال عبد الناصر» و « أحمد أبو الفتح » فى ١٤ مارس ١٩٥٤ الذى طال لست ساعات وحضره « أحمد أنور » الذى كانت تربطه بالوفد صلات قديمة ، ويربطه بأحمد أبو الفتح ود خفى . .

وفى نهاية الاجتماع عرف « أحمد أبو الفتح » بطريقة ما من « أحمد أنور » أن « عبد الناصر » قرر أن يهدر دمه ضمن قائمة من المعارضين لسياسته ، فكان أن سافر إلى بيروت صباح ١٥ مارس ١٩٥٤ ولم يعد إلى مصر إلا فى عهد « أنور السادات » .

الاستيلاء على المصرى

كان « جمال عبد الناصر » ينظر إلى الأمور من زاوية سياسية وهذا هو سر تفوقه على أقرانه فى اللجنة التأسيسية وفى مجلس قيادة الثورة . يروى « عبد اللطيف البغدادى » فى الجزء الأول من مذكراته على صفحتى ١٢٢ ، ١٢٣ أن محكمة الثورة برئاسته حكمت فى تلك الفترة على (صاحبى

جريدة المصرى محمود وأحمد أبو الفتح بدفع مبلغ ٢١ ألف جنيه فروق ضرائب مستحقة عليهم) ولكن « جمال عبد الناصر » اعترض وطالب بتقسيط المبلغ ! فقال لهم البغدادى فى مجلس قيادة الثورة : منذ متى كانت جريدة المصرى مؤمنة بكم ؟! أليس أصحاب المصرى هم الذين تكلم عنهم صلاح فى المؤتمر الشعبى يوم ١٥ سبتمبر ١٩٥٣؟! أليس هو أحمد أبو الفتح الذى يهاجمكم وخاصة صلاح ؟! .

هذه جزئيات صحيحة ، ولكن « جمال عبد الناصر » ينظر إلى الأمور من زاوية أخرى . . كان مجلس قيادة الثورة أثناء جولة من جولات أزمة مارس قد قرر إلغاء الرقابة على الصحف اعتبارا من السبت ٦ مارس ١٩٥٤ وتولى « عبد الناصر » إعلان ذلك فى مؤتمر صحفى يوم الأحد ٧ مارس فى مبنى مجلس قيادة الثورة . . ولهذا فعندما عرض موضوع (المصرى) قال عبد الناصر . . هل أنتم مستعدون للدخول فى معركة مع جريدة المصرى خاصة بعد الإعلان عن حرية الصحافة ؟ ولكن بعد سحب قرارات ٢٥ مارس المعروفة ، وإعادة الرقابة على الصحف فى ٢٩ مارس ١٩٥٤ ، فى اجتماع مجلس قيادة الثورة فى ٣٠ مارس تم الإعلان عن محاكمة « محمود أبو الفتح ، وعن مصادرة أمواله ، وإحالة ٨ من أساتذة الجامعة إلى المعاش ، والاعتداء على الدكتور السنهورى فى مجلس الدولة ، وطالب عبد الناصر بإصدار قانون لتطهير الصحافة . وكلف « صلاح سالم » فتحى رضوان بوضع هذا القانون وفى اجتماع ٤ أبريل ١٩٥٤ تم الإعلان عن محاكمة « محمود أبو الفتح » ومصادرة جريدة المصرى . وتم الاستيلاء عليها وعلى مبانيها وعلى ملحقاتها فى ٥ مايو ١٩٥٤ .

صوت مصر الحرة

وسألت الأستاذ « أحمد أبو الفتح » عن الإذاعة المسماة بصوت مصر الحرة ، وعن طبيعتها وعن حقيقتها . . فأوضح أن إذاعة شبيهة بهذا الاسم كانت تصدر ربما من قبرص ويحتمل أن تكون انجلترا وراءها . . وكانت هذه إذاعة (بذيئة ومبتذلة) على حد قوله . وليس لأى أحد من أسرة «أبو الفتح » صلة من قريب أو من بعيد بهذه الإذاعة . . وإنما الذى حدث بعد الاستيلاء على (المصرى) وأموالها ومطابعها وملحقاتها . . ظل « محمود أبو الفتح » يتنقل بين لبنان وأوروبا . . وقبيل وفاته بشهور قليلة وعن طريق « شارل ديجول » وليس عن طريق أحد غيره ، سلمته فرنسا محطة إذاعة وهى إحدى محطات الإذاعة القديمة التى كانت «حركة المقاومة الفرنسية » تستخدمها ضد النازى . كان ديجول يرقب تحركات الأسطول الأمريكى فى المتوسط وقت ذاك ، ويرقب النفوذ السوفيتى المتصاعد فى المنطقة . . فى هذا المناخ وضعت فرنسا محطة الإذاعة تلك ، تحت تصرف «محمود أبو الفتح وأحمد أبو الفتح » وأربعة من زملائها ومعاونيهما .

يبقى أن أسجل أن « أحمد أبو الفتح » أكد فى حديثه معى أنهم اشترطوا بحزم على السلطات الفرنسية عدم التدخل فى سياستهم . . وكانت فترة البث ٣ ساعات يوميا . . تدافع عن حق الجزائر فى الاستقلال ، وتهاجم إسرائيل وأساليبها ، وتدافع عن حق الشعب المصرى فى الحرية والديمقراطية .

وبعد تشغيل إذاعة (صوت مصر الحرة) بشهور قليلة توفى « محمود أبو الفتح » ابن « الشيخ أحمد أبو الفتح » صاحب ورئيس تحرير (جريدة المصرى) الوطنية الديمقراطية . . وكان رحيله فى ١٥ أغسطس ١٩٥٨ ، ودفن ولم يزل جثمانه فى تونس .

الأسانيد :

١ ـ أحمد أبو الفتح . . لقاء معه .

٢ ـ أنور الجندى . . الصحافة السياسية .

٣ ـ عبد اللطيف البغدادى . . المذكرات جـ١ .

٤ ـ د . لطيفة سالم . . الصحافة والحركة الوطنية المصرية .

٥ ـ محمد التابعى . . أسرار الساسة والسياسة .

٦ ـ محمود أبو الفتح . . مع الوفد المصرى .

محمود سليمان غنام



تحت راية الوفد أعطى لمصر كل مايمكن أن يعطى دون أن ينظر إلى عـدد المرات التى استوزره فيها الوفد ، فهى لاتزيد على مرتين بصفه أصلية .

فى شهر فبراير ١٩٣٩ ، وفى ظل وزارة محمد محمود الرابعة (٢٤ يونيه ١٩٣٨ ـ ١٨ أغسطس ١٩٣٩) كان « محمود سليمان غنام » عضوا بمجلس النواب ، ويقدم سؤالا عن سبب عدم اعتراف مصر بحكومة الاتحاد السوفيتى . هذا الموقف الباكر كان منذ حوالى نصف قرن من نائب مصرى يرقب بذكاء شديد مجريات الأمور على الساحة العالمية .

وفى عهد وزارة على ماهر الثانية (١٨ أغسطس ١٩٣٩ ـ ٢٧ يونيه ١٩٤٠) وعلى وجه التحديد فى شهر أبريل وبريطانيا تتلقى الضربات الموجعة من ألمانيا النازية ، يقف النائب المحترم «محمود سليمان غنام » فى مجلس النواب يطالب بانسحاب القوات العسكرية البريطانية من المدن الرئيسية ، وخاصة من الأحياء الوطنية الآهلة بالسكان والمدارس والفنادق .

وتؤكد وثائق النصف الأول من عام ١٩٤٢ ، والذى شهد الانقسام المعروف بالكتلة الوفدية عن الحزب الأم (الوفد) تؤكد أن « محمود سليمان غنام » كان من بين العناصر التى حاولت مخلصة رأب الصدع وسعت جاهدة لعدم توسيع شقة الخلاف .

تراه محاميا شجاعا عن الدستور وعن حق الأحزاب فى التواجد على الساحة ، وعن حق الوفد فى اجراء تشكيلة لمستوياته المختلفة طبقا للائحة الداخلية ، فقد اعفى « على ماهر » فى ٧ سبتمبر ١٩٥٢ ، وفى ٩ سبتمبر صدر قانون الاصلاح الزراعى وصاحبته ضجة إعلامية كبرى ، وفى اليوم ذاته صدر قانون تنظيم الأحزاب السياسية الذى لم يكن له هدف سوى ضرب (الوفد) وتلك

قصة أخرى سوف نقف على تفصيلاتها مع تفصيلات غيرها عند الحديث عن مواقف فى حياة «محمود سليمان غنام» .

نظرة إلى المستقبل

كان « محمود سليمان غنام » سياسيا مثقفا نقول هذا باطمئنان كامل . . ففى فبراير سنة ١٩٣٩ وقبل أن تندلع شرارة الحرب العالمية الثانية بثمانية أشهر . وقبل أن يشارك الاتحاد السوفيتى فى هذه الحرب ، وقبل أن يكون له دور فيها يجذب إليه انظار الدول المختلفة ، وانظار القوى السياسية . رأى محمود سليمان غنام » كسياسى مثقف ، بثاقب بصره أو بصيرته أن الاتحاد السوفييتى بدأ يظهر بقوته على الصعيد الدولى ، وان هذه القوة الجديدة من الصعب تجاهل وجودها فيقف فى مجلس النواب فى فبراير ١٩٣٩ ، والحكومة هى حكومة « محمدمحمود» ابن «محمود باشا سليمان » والحزب الحاكم هو حزب كبار ملاك الأرض حزب الأحرار الدستوريين . . وغنام فى مجلس النواب يسأل عن أسباب عدم اعتراف مصر بالحكومة السوفيتية ؟ كلام نابع من بصيرة تنظر إلى ابعد من موضع الاقدام ، ساعده فى ذلك تواجده فى (الوفد) الذى يبيح حرية التفكير وحرية التعبير لاعضائه بمختلف رؤياهم الفكرية ولهذا لم تكن مصادفة أن الحكومة المصرية التى اعترفت بالاتحاد السوفيتى وتبادلت معه التمثيل الدبلوماسى هى حكومة الوفد برئاسة « مصطفى النحاس » سنة ١٩٤٣ ساعدها فى ذلك التواجد المبهر للاتحاد السوفيتى فى الحرب العالمية الثانية ، وساعدها فى ذلك أيضا التحالف الذى كان قائما بين الاتحاد السوفيتى والحلفاء فى مواجهة دول المحور .

والثقافة الوطنية تعطى دائما صاحبها حيوية وعمرا جديدا ، وهكذا وجدنا « محمود سليمان غنام » منحازا دائما للشباب . يقف دائما إلى جانبهم يرعاهم ويتقبل مايطرحونه من أفكار وقضايا بكل ما فيها من طموح وجنوح فى الشهور الأولى من حركة الجيش تجاذبتها تيارات ومواقف مختلفة وساد الفزع بعض دوائر هذه الحركة . فتحكم بالإعدام على عاملين فى كفر الدوار فى حين أن العمال تحركوا من منطلق الأمل فى حركة الجيش وتم اعتقال عدد من السياسيين فى حين ان مواقف القوى السياسية لم تكن قد اتضحت بالقدر الكافى ونقل أحد اعضاء الهيئة الوفدية عن جمال عبد الناصر شخصيا انه ينظر إلى قسم هام من الشباب الوفدى على انه اخطر اعداء الحركة فى حين ان هذا القسم كان قد وضع ما يشبه البرنامج لو روجع الأن لوضح ان حركة الجيش قامت فى مسيرتها الطويلة بتنفيذ غالبية المشروعات التى وردت به . وفى مناخ الاضطراب النفسى والتوجس والريبة خشى « الرجل » ان تضيع بعض عناصر الشباب الوفدى فى لحظة من لحظات الضرب العشوائى ،

فنشر بيانا فى جريدة « الأهـرام » يدافع فيه عن الشباب وخص بالذكـر وبالأسماء عددا من شباب الوفـد . مرة أخرى وفى منتصـف عام ١٩٥٣ وفى مناخ الانقسـام الفكرى والتنظيمى الـذى ساد المنظمات الماركسيـة ازاء الموقف مـن حركـة الجيش ، قـدمـت الحركة عـددا من فعـاليات إحـدى المنظمات الماركسية للمحاكمة أمام مجلس عسكرى عـال وهنا تقدم « محمود سليمان غنام » للدفاع عن هؤلاء الشبـاب ، ليس من منطلق الاتفـاق مذهبيا معهم ولكن مـن منطلق الدفاع عـن حريـة التفكير وحريـة التعبير للشباب ، وهى حـرية حرص عليهـا الوفـد طوال تاريخه . وهنـا اعتقلت حركة الجيش « المناضل محمود سليمان غنام » وقـدمته للمحاكمة بتهمـة الاشتراك فى نشاط جماعة سرية ذات مبادئ هدامة !

وقد ظن البعض ـ خطأ ـ ان « محمود سليمان غنام » كان على صلة باحدى المنظمات الماركسية ، وذلك بسبب مواقفه السـابقة التى اشرنـا إليها ، وحقيقة الأمر انـه كان جنديـا وفيا لمبادئ الـوفـد وتراثه ، واتخذ مواقفه كافة مخلصا لزعامة مصطفى النحاس وميلا لفؤاد سراج الدين السكرتير العـام للوفد عندما كان « غنام » سكرتيرا عاما مساعدا . . كان يتحرك بفعل التراث الوطنى للوفد . .

الخط الوطنى

وعن الخط الوطنى للوفد قال « الدكتور رفعت السعيد » بحق ان « مصطفى النحاس » وحزبه لم يفقدا ابدا خط العداء العام للاحتلال البريطانى . . وعندمـا كانت بريطانيا تعانى من ضربات النازى فـاجأ الـوفد ـ فى أول أبـريل ١٩٤٠ ـ الجميـع بتقديـم مذكرة شـديدة اللهجـة للسلطات البريطانية وطالبها بالاستجابة ـ لخمسة مطالب هى :

١ ـ ان تصرح ـ مـن الآن ـ بجلاء القوات البريطـانية عن مصر بعد انتهـاء الحرب وعقد مؤتمر الصلح .

٢ ـــ اشتراك مصر اشتراكا فعليـا فى مفاوضـات الصلـح ليتم الاعتراف فيهـا باستقـلال مصر كاملا .

٣ ـ الدخـول فى مفاوضات مع مصر بعـد انتهاء مفاوضات الصلـح يعترف فيها بحقوق مصر كاملة فى السودان لمصلحة أبناء وادى النيل جميعا .

٤ ـ حل مشكلة القطن بعدم الحيلولة دون تصديره إلى البلاد المحايدة .

٥ ـ الغاء الأحكـام العرفية التى أعلنت بناء على طلبهـا . وقد احدثت هذه المذكـرة هزة عنيفـة حاصرت كل خصوم الوفد : الاحتلال ـ القصر ـ احزاب الأقلية .

ومضت المطارق الوفدية تهوى على سياسة الاحتلال . . ففى مجلس النواب وقف « محمود سليمان غنام » ليدين تغلغل القوات العسكرية البريطانية تغلغلا واضحا فى جميع الأحياء الوطنية الأهلة بالسكان . والمدارس والشوارع والفنادق الوطنية . .

كان « غنام » برلمانيا ممتازا ، وكان أيضا كاتبا سياسيا ممتازا بمقالاته فى صوت الأمة وصحف الوفد الأخرى ، بل إنه فى ٣١ يناير ١٩٥٣ ينتهز فرصة وفاة « السير ونجت » وهو المعتمد البريطانى الذى قابله سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى » يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ ، وينشر « غنام » مقالا بجريدة الأهرام بهذه المناسبة ، وبكل ذكاء السياسى المحنك يتحدث عن الاحتلال البريطانى ، وجهاد سعد ، ودور الوفد ، وعيد الجهاد الوطنى فى ١٣ نوفمبر وتضحيات الشعب من أجل الحرية والدستور . والمقال رسالة واضحة للذين حلوا الأحزاب والغوا دستور ١٩٢٣ واعتقلوا الذين كانوا يتنادون بالتعددية الحزبية ، وبالدستور وبالديمقراطية .

غنام وزيرا

عندما شكل « مصطفى النحاس » وزارته السادسة (٢٦ مايو ١٩٤٢ ـ ٨ أكتوبر ١٩٤٤) خرج « مكرم باشا » من الوزارة وحل محله « كامل صدقى باشا » وزيرا للمالية . وفى تلك الوزارة شغل « الاستاذ محمود سليمان غنام » منصب وزير التجارة والصناعة الذى كان يشغله « كامل صدقى بك » .

وتميزت وزارة « النحاس باشا » السادسة بالصدام الدائم مع القصر ومحاولات القصر تحريض القوى السياسية الأخرى ضد الوفد . وتميزت أيضا ، وخاصة عام ١٩٤٤ ، بالصدام بين الوفد والانجليز ، واصرار « النحاس » على تحقيق المطالب الوطنية ، وضرورة تعديل المعاهدة المبرمة بين مصر وبريطانيا عام ١٩٣٦ . وفى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ كان الانجليز والملك قد اتفقا على الاطاحة بحكومة النحاس باشا . ولكن « النحاس باشا » بعناده الوطنى المعروف عنه أعلن فى خطاب العرش عند افتتاح الدورة البرلمانية فى منتصف نوفمبر ١٩٥٠ ان المعاهدة فقدت صلاحيتها كأساس للعلاقات مع بريطانيا ولامناص من تعزيز إلغائها . وفى ٢٦ أغسطس من عام ١٩٥١ قال مصطفى النحاس , ستلغى المعاهدة فى القريب العاجل . وهكذا فإن النحاس باشا عندما أعلن باسم مصر فى ٨ أكتوبر ١٩٥١ الغاء معاهدة ١٩٣٦ لم يكن يسعى إلى دعاية شعبية كما قال بعض اعداء الوفد ، وإنما كان تحقيقا لمطلب أساسى أفصح عنه الوفد منذ عام ١٩٤٤ .

وفى وزارة النحاس باشا السابعة والأخيرة « ١٢ يناير ١٩٥٠ ـ ٢٧ يناير ١٩٥٢ » الوزارة التى أعلنت إلغاء المعاهدة وفتحت أبواب الجهاد الشعبى ضد الانجليز ، فى هذه الوزارة كان « الأستاذ محمود سليمان غنام » وزيرا للتجارة والصناعة ، وقد تولى الوزارة فى حياته بصفة أصلية مرتين وان

كان فى المرة الأخيرة تولى وزارات عديدة بالنيابة وهى « المواصلات ، الاقتصاد الوطنى ، المعارف ، التموين » .

محـاولة للتشـويه

وقد عرف « محمود سليمان غنام » بنزاهة القصد وبنظافة اليد ، ولكن حدث اثناء محاكمة «فؤاد سراج الدين باشا » أمام محكمة « عبد اللطيف البغدادى » والتى استمرت من ٨ ديسمبر ١٩٥٣ ، حتى مارس ١٩٥٤ حدث اثناء تلك المحاكمة أن كان «الدكتور زكى عبد المتعال » الوزير السابق فى وزارة الوفد الأخيرة من شهود تلك المحاكمـة ، واستمر يشهد ويشهد على مدى ست جلسات من « ١٥ ـ ٢٠ ديسمبر ١٩٥٣» . وتناول كثيريـن فى شهاداته ومن بينهم الرجـل النزيه الشريف «محمود سليمان غنام » أمـا ماذا قال « الدكتـور عبد المتعال » ومدى مـا قاله من الصحـة فهذا كله يوضحـه الرد الذى نشره « محمـود سليمان غنام » فى جـريدة « المصرى » فى عددهـا الصادر فى ١٨ ديسمبر ١٩٥٣ . وقد ركزنا على المعلومات الأساسية . . وفيما يلى الرد .

اشارت صحـف صباح أمـس إلى ما دار فى شهادة « الاستـاذ زكى عبـد المتعال » أمـام محكمة الثورة زاعما اننى تلمسـت سببا للسفر إلى الخارج بحجة زيارة دار سك النقـود فى فرنسا وانجلترا ، وانه عارض فى ذلك لأن السبب المستتر لهذا السفر يرجع إلى رغبتى فى زيارة ولدى بانجلترا . واننى ابادر بتكذيب ما رواه هـذا الشاهد من أساسه كما بادرت باخطـار محكمة الثورة . . واعلن للرأى العام اننى سافـرت للخارج وأنا وزير فى مهمات رسمية ثلاث مرات . . « ملحوظـة من عندنا » . غنام عمـل وزيرا ٤ سنوات و ٤ شهـور » الأولى فى أوائل ١٩٤٤ لحضور مـؤتمر تجارى فى القدس استغرق أسبـوعا تنـازلت عن بـدل السفر وهـو ٧٠ جنيها وصرفت مـن جيبى الخاص مـائة جنيه الثانية ــ تقرر ان أسافر ومعى وكيـل وزارة التجارة والصناعة إلى فرنسـا وانجلترا سنة ١٩٥٠ وكان ولدى قـد قضى معنا فى مصر اجازة ثـلاثة أشهر . ولما علم بـوجودى فى لندن حضر لرؤيتنـا من جلاسجو على حسـابه الخاص . ولم يقرر مجلس الوزراء لنـا بدل سفر خاص فى هـذه المأمورية . وصرف لنا بـدل السفر العادى المقـرر فى اللائحة الثـالثة ـ تلقيـت سنة ١٩٥١ من وزيـر التجارة الإيطالى دعوة لزيارة معـرض ميلانو ، وتلقيت مثل هذه الدعوة مـن معرض « ليل » وصرفت بدل السفر المقرر وقدره عشرة جنيهات فى اليوم واستمرت المأمورية أسبوعا .

وسأتخذضد هذا الشاهد ما يخولنى القانون اتخاذه ضده . . وليعلم الرأى العام أنه لا يليق بمن كان استـاذا فى كلية الحقـوق ان يعمد إلى قلـب الحقائق ويتهم اشرافـا بالبـاطل . . محمـود غنام المحـامى . ودخـل « زكـى عبد المتعـال » الجلسة التـى تقـرر ان يقوم فيهـا « فـؤاد سراج الديـن » بمناقشته فى شهاداته ضده . وبدأ حديثه فى تخاذل : لو يسمح لى سيادة الرئيس احب اذكر اننى

قبل دخولى قـاعة الجلسة قابلنى فى الطرقـة الأستاذ محمود سليمان غنام وقال لى . . حـارفع ضدك جنحه مباشرة ان شاء الله وانصرف .

وبالتأكيد اشفق رئيس المحكمة « البغدادى » على هـذا الشاهد لأنه قال له : معلش . . انتم زمايل قدام تقدروا تحاسبوا بعض خارج المحكمة . .

محـكمة الثـورة

عجزت الثورة عن محاكمة « مصطفـى النحاس » ولجأت إلى محاكمته فى أشخاص « فؤاد سراج الدين ، وإبراهيم فرج ، ومحمود أبو الفتح ، وحسين أبو الفتح » .

وقد سبق المحاكمة صراع من نوع اخر ، فقـد شهدت ساحة محكمة القضاء الإدارى بمجلس الدولـة ـ الدائرة الثالثـة قضية الاعتراض على اخطار تكويـن حزب الوفد . وسبـق ان اشرنا إلى ان قانون تنظيم الأحزاب السياسية الذى صدر فى ٩ سبتمبر ١٩٥٢ كان القصد الرئيسى له هو ضرب حزب الوفد ، والتقليل من شأن زعامة مصطفى النحاس . وقد ساعد المناخ العام سواء من خارج الوفد أو مـن داخله على ان يقع الوفـد فى المصيدة التى اعدهـا بمهارة فائقة « جمال عبـد الناصر » وتشنج فى الـدفاع عنها « سليمان حـافظ » وباركهـا « فتحى رضـوان » . وغرق الوفـد فى الرد على اعتراض سليمان حافظ على الرياسة الشرفية لمصطفى النحاس ، واعترض على عضوية عبد الفتاح الطويل .

ودخل الـوفد ساحـة القضاء بكتيبـة قانونيـة على مستوى رفيع . . وحيـد رأفت . . إبـراهيم فـرج . . محمود سليمان غنـام . وفى ٩ ينايـر ١٩٥٣ قدمـت بحوث دستـورية لاثبـات ان قانـون الأحزاب غير دستورى ، وتـوضح أنه لا شأن بقانون الأحـزاب بمسألة الرياسـة الشرفية لمصطفى النحاس . ويسأل رئيس الدائرة . . ما الذى يلزم الحكومة الحاضرة باحترام الدستور ؟

وهنا ينبرى « محمود سليمان غنـام » بالرد الذى وضـع النظام الجديد فى مأزق . . فبيـان القائد العام أكد ان الجيش قام بحركته لمصلحة الشعب ولاحترام الدستور ، وان قرار الوصاية على العرش صدر استنادا إلى الدستور .

ولكن اللعبة لم تكن هكـذا . . فى ١٦ يناير صدر قانون حل الأحزاب السيـاسية وفى ١٧ يناير تقررت فترة انتقال مدتها ثلاث سنوات ، وفى ١٠ فبراير أعلن الدستور المؤقت محل دستور ١٩٢٣ الذى ألغى . وجـرت حركة اعتقالات لعنـاصر كثيرة ، من المدنيين والعسكريين وخاصـة ضباط سلاح المدفعية وفى مقدمتهم «رشاد مهنا » وجرت محاكمات خاصة لعدد من العسكريين .

وقد اجمع المؤرخون على ان محكمة الثورة كانت موجهة أسـاسا ضد الوفد وضد زعيمه مصطفى

النحاس . فقد قدم إليها « فؤاد سراج الدين » السكرتير العام للوفد منذ عام ١٩٤٨ ، ومعه «محمود سليمان غنام » السكرتير العام المساعد . . و « إبراهيم فرج» القريب إلى قلب مصطفى النحاس .

ورب ضارة نافعة فقد كشف الشاهد « عبد المتعال » عن مقابلة مع الملك فاروق حضرها وزير التجارة « محمود سليمان غنام » واراد الملك ان يثير مسألة الغلاء فسأل عن ارتفاع أسعار المنسوجات واجاب غنام . . حنعمل ايه للمضاربات ؟ وفهم الملك وقال لغنام : يعنى ياحضرة الوزير قصدك انى أنا بأضارب ؟ » رحم الله الوزير الوطنى الشجاع محمود سليمان غنام الذى رحل عام ١٩٧٤ .

الأسانيد :

١ ـ الأهرام « جريدة » . . اعداد ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٣١ يناير ١٩٥٣ .

٢ ـ الطليعة « مجلة» سبتمبر ١٩٧٥ .

٣ ـ حسن يوسف . . المذكرات .

٤ ـ صلاح عيسى ـ محاكمة فؤاد سراج الدين باشا .

٥ ـ عبد اللطيف البغدادى ـ المذكرات جـ ١ .

محمد زكى عبد القادر



نحو النور . . سارت وصارت حياته . منذ شبابه الباكر كان اقرانه يقصدونه المشورة ، فيقدم الرأى بأدب جم فى حدود ما اتيح له من رؤية . على أعتاب الثلاثينات من هذا القرن قصده «حافظ محمود» وصديقه السودانى «معاوية نور» فلم يأخذ الزهو بلب «محمد زكى عبد القادر» ولم تتعذر خطاه بفعل الغرور ، ولكنه أشار على صاحبيه ان يذهبوا ثلاثتهم ويلتمسون الرأى لدى اديب يكبرهم عمرا هو «محمود تيمور» ذلك عام ١٩٢٩ ، وتيمور فى الثانية والثلاثين من عمره ، وزكى عبد القادر فى الثالثة والعشرين إذ انه ولد فى بلدة فرسيس من أعمال محافظة الشرقية سنة١٩٠٦م ، وعندما بلغ محمد زكى عبد القادر الثانية والثلاثين من عمره وفى فبراير ١٩٣٨م بدأ يكتب عموده الصحفى (نحو النور) بجريدة الأهرام . وهذا بالقطع من أشهر الأعمدة الصحفية ومن اكثرها احتراما ، وثمارا للقراء . . فالأعمدة الصحفية كثيرة ، وعناوينها متشابهة ، وبعضها مادته مكرورة وهزيلة ، والكثير منها أفكارها هامشية ، وغالبيتها يمر عليها القراء مر الكرام بعد مطالعة سطر أو سطرين ، قليلة هى إذن الأعمدة الصحفية الجادة والذكية وغير المطروقة والتى تضيف للقراء جديدا ، والقراء يعرفون ذلك أكثر منا .

وظل «محمد زكى عبد القادر» يكتب نحو النور فى جريدة الأهرام ثم فى جريدة الأخبار وأخبار اليوم منذ فبراير ١٩٣٨ حتى ٧ مارس ١٩٨٢ (يوم رحيله) أى انه ظل يقدم ثمارا طيبة للقراء على مدى ٤٤ عاما بقلم عف لايعرف التجريح الأهوج ، ولايعرف المهادنة الذليلة ، رأى فيه القراء نموذجا للكاتب الناضج المتزن مع سلامة الطوية وحسن القصد ، والميل للحرية دون حدود وبلا انفعال . . ولانه عاش يتكلم بقلمه ، فانه لجأ فى كثير من الأحيان فى عموده اليومى إلى أسلوب الحوار بين الشيخ وتلميذه ، وهو أسلوب لجأ إليه بعض الأدباء يريدون به طرح الرأى والرأى الآخر ، أو طرح آراء الأجيال المختلفة .

وقد كتب عموده الصحفى اليومى أكثر من ستة عشر ألف مرة بالمنهج نفسه ، وبالرصانة ذاتها ، وبالموضوعية التى عرفت عنه . وهى كلها فى حاجة إلى أن تجمع فى كتب لأن بها آراء وافكارا ينبغى أن تحفظ للأجيال القادمة . ويكفى أن اذكر لقارئ اليوم قضيتين اختلف فيهما « محمد زكى عبد القادر » عن الآخرين . . القضية الأولى اختلف فيهـا مع « الدكتور طه حسين » عندما نادى بأن يكـون التعليم كالماء والهواء . . ورأى « محمـد زكى عبد القـادر » بان يكون الاهتمام الأسـاسى بمحو الأمية قبل الاهتمام بالتوسع فى التعليم الابتـدائى والثانوى والجامعى . والقضية الثانية حين اتجهت نيـة القيادة السياسية فى نـوفمبر ١٩٧٨ إلى الغاء وزارة الثقافـة وأيد هذا الرأى قلـم « محمد زكـى عبد القـادر » وعـارضه الـدكتور زكـى نجيـب محمود ، وأحمد بهاء الـديـن ، وعبد الـرحمن الشرقاوى ، وكاتب هـذه الحلقات . وكان من الطريف أن يصـدر مقالى فى (الأخبار) ٧ نوفمبر ١٩٧٨ بعنوان (اين وزراء الثقـافة السابقون استحث فيـه الدكتور ثروت عكاشـة والأستاذ فتحى رضوان ، والـدكتور محمد عبـد القادر حاتـم ان يذودوا عـن وزارة الثقافة وفى الـوقت ذاته كـانت مقالات « نحو النـور » تقارن بين الثقافة التى ازدهـرت عندما لم تكن لها وزارة ، ثـم خبت بعد ان كان لها وزارة ووزراء وطابور من وكلاء الوزارة . على اية حـال هذا رأيه وكان دائما مستقل الرأى وله رؤيته الذاتية ، ولعل هذه الصفة هى التى جعلـت « صدقى باشا » يعتقله فجر ١١ يوليو ١٩٤٦ متهما اياه بالترويج للشيوعية !

الشيخ (أبو الخشب)

فى فجر ١١ يـوليو ١٩٤٦ كـان بوليس « إسماعيـل صدقـى » يدخل بيـت « محمد زكـى عبد القادر» المحرر بالأهـرام وصاحـب ورئيس تحرير مجلـة (الفصول) بحثـا عن الكتـب والمنشورات الشيوعية . وقـال وكيل النيابة « حسين زكى » للكـاتب الكبير انه متهم بالعمـل على (قلب نظام الحكم) وقد قبـض البوليس على ذمة هذه القضية ـــ والتى عرفت بقضية الشيـوعية الكبرى ـ على حـوالى مائتين مـن الكتـاب والصحفيين والمفكريـن وقادة التجمعـات المهنيـة المختلفة ، وأغلـق إسماعيل صدقى صحف الوفد المصرى وعددا من دور النشر . وتم تفتيش منزل « محمد زكى عبد القادر » ومكتبه بجريدة الأهرام ، ومقر مجلته (الفصول) ولم يكـن هناك شىء بالطبع يدين كاتبنا الكبير ، وتقدم تسعة من المحامين على رأسهم « محمد صبرى أبو علم » سكرتير عام الوفد للدفاع عن « محمد زكى عبد القادر » وبعد حبسه أربعة أيـام جددت النيابة الحبس ١٤ يوما . واستدعاه رئيس النيـابة « مصطفـى حسنى» وواجهـه بتقريـر القلم السيـاسى والـذى جاء فيـه ان « هنرى كورييل » الداعية الشيوعى المعروف طلب منه انشـاء خلية شيوعية بالأزهر ، وان زكى عبد القادر

كلف إبراهيم أبو الخشب . وبعرض الأوراق على النائب العام افرج عنه بعد أن قضى سبعة أيام . وقال للنائب العام . . (انا خارج من هنا وأنا حزين . . تقرير من مخبر نظير خمسة قروش وارجع ثانى هنا . . اننى متألم لأن حريتى لم تعد فى أمان) .

هذه هى رواية « محمد زكى عبد القادر » . . بقى ان نعرف رواية « إبراهيم أبو الخشب » لتقف على طبيعة أسلوب الحكم أيام « إسماعيل صدقى » الذى اعد القضية من البداية حتى النهاية بهدف ضرب شعبية الوفد . و « ابراهيم أبو الخشب » الذى ورد ذكره فى هذه القضية هو الآن فضيلة الشيخ الدكتور « إبراهيم أبو الخشب » الأستاذ غير المتفرغ بالأزهر الشريف ، وله كتابات عديدة نذكر منها (تاريخ الأدب العربى ، ومحنة اللغة العربية ، ويارسول الله) اكتب هذه الحلقة واكد انه لم يعرف « محمد زكى عبد القادر » على الاطلاق ، وفوجئ ببوليس صدقى يفتش بيته ويقبض عليه ويوجه إليه الاتهام بانه اتفق مع زكى عبد القادر على تشكيل جمعية باسم (جمعية الخبر) ولم يكن « الشيخ أبو الخشب » قد رأى « محمد زكى عبد القادر» أو تعرف عليه ، وأصر فى التحقيق على مقابلة النائب العام ، وبعد حبسه أربعة أيام عرض على « محمود منصور » النائب العام الذى افرج عنه . أما لماذا قبض بوليس صدقى باشا عليه فذلك لأنه كان فى الأزهر ضمن فريق غير مؤيد للشيخ المراغى والشيخ دراز والشيخ عبد الآخر أبو زيد . والمعروف ان هؤلاء جميعا كانوا من المناوئين للوفد . وقد ثبت ان حملة صدقى المشهورة عام ١٩٤٦ كانت موجهة ضد الوفد .

على أن المتأمل فى مؤلفات محمد زكى عبد القادر وهى كثيرة ، وعلى مقالاته فى عموده اليومى ، فى مقالاته الأخرى ، بل فى مجلة فصول فى كل اعدادها ، وفى الجمعيات التى شارك فى نشاطها . . لايلمس اية اتجاهات شيوعية ولايسارية لدى « محمد زكى عبد القادر » وإنما هو كاتب وطنى وديمقراطى يسعى إلى درجات معتدلة من العدل الاجتماعى لبنى وطنه .

اقدام على الطريق

و « محمد زكى عبد القادر » اذا كان قد أثر الا ينضم إلى حزب من الأحزاب فانه لجأ وعدد من اقرانه إلى أشكال أخرى من العمل الفكرى والثقافى والاجتماعى مثل جمعية الفلاح ، وجمعية النهضة القومية ونادى الشرقية ، ومجلة فصول ، ثم الندوات الأسبوعية التى كان يعقدها منذ عام ١٩٥٦ وتوقفت عام ١٩٧٣ . ثم عضويته فى لجنة العلوم الإنسانية بجامعة القاهرة .

ومن زملاء « محمد زكى عبد القادر » أو كان هو زميلا لهم نذكر . . الدكتور إبراهيم بيومى مدكور ومريت غالى وجفرى بطرس غالى ، وزهير جراته . وهم عناصر تميزت بالجدية والصدق

مع الـذات ووضوح الرؤية ، ومـع ثقافتهم الواسعـة أشتهروا بالفكـر الاصلاحى والمناداة بـالعدل الاجتماعى فى مـواجهة الجشـع الاقطاعـى والرأسمالى والكتيبـات التى اصـدروها والبحـوث التى اعدوهـا والمحاضرات التـى قدموهـا كلها تـدور حول الاصلاح الاجتماعـى مما وضعهـم فى صف المفكرين التقدميين .

ومن هـذا المنطلق يمكـن الاعتماد على ماكتبـه هؤلاء المفكـرون الاصلاحيـون فى فهم الأوضـاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ايضا . وفى هـذا المجال يمكن . الاعتداد بما كتبه « محمد زكى عبد القادر » فى كتبه (اقدام على الطريق ، وذكريات ومذكرات ، ومحُنة الدستور) .

وفى روايته لسيرته الذاتية عرض للأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى مرت بمصر وجاوزهـا إلى البلاد العربيـة . وفى كل مـاروى وحلل والتزم النظـر الموضوعى والأمـانة فى الـرواية والصور التـى رسمها لـلأشخاص ، رسمها فى مـوضوعيـة تامة ، وحـاول جهده ان يبعـد شعوره الشخصى وكتب فى مذكراته وذكرياته يقول : (كل ما أرجوه ألا أكون قد أذيت أحدا أو جرحته ، حيا أو ميتا ، فمن كان مثلى كثير الجروح مؤمنـا بضعف الإنسان ، لايمكن أن يقصد إلى احداث جرح بانسان آخر . .) .

مع صاحبة الجلالة

تخرج فى كلية الحقـوق سنة ١٩٢٦ م وعمل لفترة قصيرة بـوزارة الأوقاف ثم عين محررا بجـريدة السياسة . وقد صدرت جريدة (السياسة) فى ٣١ أكتوبر ١٩٢٢ لتعبر عن (الأحرار الدستوريين) وهـى فى منهاجهـا الفكرى امتـداد لصحيفة (الجريـدة) التى عبرت عـن (حزب الأمـة) ورأس تحريرها « أحمد لطفى السيـد » وفى جريدة السياسة التقى « محمد ز كى عبـد القادر » بأحمد لطفى السيد ، ومحمـد حسين هيكل ، وطـه حسين ، والشيخ مصطفى عبـد الرازق ، وأحمد شـوقى ، وزكى مبارك ومحمود عزمى ، والمازنى وتوفيق ديـاب وظل « محمد زكى عبد القادر » محررا بالسياسة حتى عطلت اداريا من ديسمبر ١٩٣٠ إلى يونيو ١٩٣١ .

واشتغل بـالمحاماة إلى ان عين محررا بجريـدة الأهرام فى سنة ١٩٣٧ وأشرف على تحريـر الأهرام بعد وفاة رئيـس تحريرها « انطـون الجميل» وظل مشرفا على تحريـر الأهرام من سنـة ١٩٤٨ إلى سنة ١٩٥٠ عندما انتقل إلى مؤسسة أخبار اليوم واختير بعد صدور الأخبار اليومية (١٥ يونية ١٩٥٢) أحد رؤسـاء تحريرها . وفى سنة ١٩٥٦ اختير رئيسـا لتحرير (المختـار) وهى طبعة عربيـة لمجلة أمريكية كانـت (دار الهلال) تتولى اصدارها ثم تولتها (مؤسسـة أخبار اليوم) واختير استاذا غير متفرغ فى معهد الصحافة وانتخب عضوا بمجلس نقابة الصحفيين ووكيلا لها واستقال بعد فترة .

هل كان « محمد زكى عبد القادر » يحسب انه سوف يموت فى أحد مطاعم وسط القاهرة (٧ مارس ١٩٨٢) وهو الذى افرد صفحات حزينة من مذكراته وذكرياته للموت . . سنة ١٩٤٧ فى زهو العمر ونضج الشباب مخلفا وراءه طفلين فى حاجة إلى الحب والحنان . ومخلفا أباه طحنه الحزن على الابن الذى كان معتمده حيث يعيش فى الريف يحمل عنه عناء الاشراف على الزراعة واداء الواجبات الاجتماعية والواجبات السياسية من استقبال المرشحين والناخبين وأهل شهر أكتوبر من هذه السنة ١٩٤٧ ، وجاءت الأنباء من الريف ان اباه فى حالة سيئة . وبلغ الريف والشمس تميل إلى المغيب . هل هى الشمس التى تميل إلى المغيب أم هى حياة إنسان عزيز . .

وشهد الموت وواجهه . . بات ليلة كاملة إلى جوار طفلة ، هى ابنته التى لم تكن قد جاوزت شهورا ثمانية . . واتاها الأجل والليل وليد . . ليلتها راح فى صلاة ودعاء وخشوع وخيل إليه ان الخيط الذى يفصل بينها وبينه رقيق ، ليلتها كان متعاطفا معه ، مع الموت ، ولم يجد فرقا بينه وبين الحياة . عايش الموت والحياة حقيقة واقعة متمثلة فى الطفلة المسجاة إلى جواره . وشهد الموت مرة أخرى ، فى طفل آخر ، هو ابنه ايضا ، وكان لم يكمل الثمانية اشهر عدا .

وفى أواخر عام ١٩٢٧ ، كان قد ترك عمله فى وزارة الأوقاف ، والدنيا تبدو أمامه جديدة بارعة رائعة ، وذهب إلى سينما متروبول لكى يشهد الاحتفال بذكرى الزعيم الوطنى محمد فريد . ووقف رجل ضئيل الجسم اشيب ، لا هو طويل ولا هو بالقصير ، وسمع همسا حوله إنه على فهمى كامل بك شقيق الزعيم مصطفى كامل ، وما ان بدأ يتكلم حتى هوى ، رأى الرجل الذى كان اصبح ولم يكن . . اين هو ؟ ماذا حدث ؟ ثم تبين ان الخطيب الذى لم يوشك أن يتكلم صمت إلى الأبد . . . ماذا حدث ؟ . . ان الأجل بالمرصاد . . ليس فى حاجة ان يقدم لأحد الأسباب أو يقدم الاعتذار . .

وبعد ذلك بسنوات كان فى اليونان مع المرحوم « حبيب جاماتى » و« حافظ محمود » فى دعوة لرحلة سياحية . وابتعدت السفينة عن أثينا مهد سقراط وأرسطو وأفلاطون . . وفى بحر ايجة . . السفينة متوازنة والأمواج خافتة كانها تتناجى . . وفى قاعة الطعام ، وما كادت الساعة تبلغ التاسعة حتى بدأت السفينة تهتز ، وأخذت الموائد ترتج وصحاف الطعام تتصادم وتتلاقى ، وتطلعوا إلى البحر فإذا هو مكشر الأنياب . وعاد إلى غرفته والساعة التاسعة والنصف مساء والسفينة ريشة فى مهب الرياح . . وخيم على الأفق صمت مخيف ليس فيه إلا صوت الموج يهاجم السفينة كأنه الأسد المفترس . وحانت منه التفاتة من النافذة إلى البحر ، فإذا هو ميدان سباق لنمور وأسود مفترسة . . واعد نفسه للنهاية التى لا مفر منها . . وتوجه إلى الله بصلاة خاشعة . . والناس لايشعرون بالحاجة إلى الإيمان وإلى الله إلا حينما تتقطع بهم الأسباب وتظلم الأضواء لا

يكون أمامهم إلا الله العلى المتعال . وسأل الله الا تكون النهاية فى هذا البحر الهائج المخيف بعيدا عن أرض الوطن . وراح خاطره إلى الأعزاء الذيـن غادرهم فى أرض الوطن ، ممن يعتمدون عليه ، كيف يكون حـالهم بعده . وتناول « محمد زكى عبـد القادر » ما يحمله من أوراق ومـزقها ، وهذه واقعة تذكرنى بما فعله شرقاوى آخر هو « فكرى أباظة » الذى مزق مذكراته أو حرقها قبل ان يرحل عن دنيانـا . وفى تلك الليلة رأى الله ، فما كان الفجر ينبثـق وتبدو تباشيره أصبح البحـر كالطفل القرير واصبحت السفينـة على وجهه كانها الأب الحنون . وصلى الى الله خاشعا يشكـر له ان مسه بجناح من رحمته ويرجو المزيد . . وهكذا الإنسان . .

رحلـــة قـــلم

بدأ الرحلة من (فرسيس) بالشرقيـة عام ١٩٠٦ كما قلنا ، ونال شهادة الكفاءة سنة ١٩٢٠ ، وحصـل على البكالـوريا مـن مدرسـة الزقـاريـق الثانـوية سنـة ١٩٢٢ ، وتخرج فى الحقوق سنـة ١٩٢٦ ، وعمل لفترة بوزارة الأوقـاف ، فجريدة السياسة ، فـالمحاماة ، فمحررًا بجـريدة الأهرام حتى أشرف على تحريرها ، فاخبار اليوم ثم رئيسا لتحـرير الأخبار ، فرئيسا لتحرير (المختار) من عام ١٩٥٦ حتـى عام ١٩٦٧ ، وسنـة ١٩٨٠ انتخب لعضـوية مجمـع اللغة العـربية حتـى يوم الرحيل فى ٧ مارس ١٩٨٢ تاركا خلفه أكثر من عشرين كتابا نافعا للناس .

وفى حياته خـاض تجربة الانتخابات لمجلـس النواب مرتين . . الأولى فى الريـف فى الشرقية ، والثانية فى روض الفرج بالقاهرة . . ولم يقدر له الفوز فى المرتين . . ولكن تجربة الترشيح فى الريف عمقت فى نفسـه ما يعانيه الشعـب من فقر وجهل ومـرض ، وفى المدينة يحتاج المرشح ــ على حد تعبيره ــ ان يتحلل تماما من مقتضيات الأخلاق والذمة والأمانة . كانت التجارب قاسية بالنسبة له بين الأحزاب والجماعات وسماسرة الانتخابـات والوعود الكاذبة والنفاق واللف والـدوران والدعاية وانفاق الأموال مما لم يكن من طبع الكاتب الذى يسطر خواطره للقراء .

ولا ينبغى أن نختم هذه الحلقـة عن « محمد زكى عبد القادر » دون ان نذكـر انه لم يؤيد (٢٣ يوليو ١٩٥٢) تـأييدا واضحا كما أنه لم يعارضها معـارضة واضحة ، واكتفى بأن يـرقب الأحداث واستمر يبدى رأيه فى الأوضـاع الاجتماعية العامة ، وان كانت (البهجة الطارئة والفـرحة المفاجئة) قـد طغـت عليـه فى الفترة الأولى لـرغبتـه فى التغيير ، والتخلـص مـن القصر ومـن ضغطـه على الحريات ، وقـد دعاه « محمـد فؤاد جـلال » للمشاركة فى لجنـة استشاريـة لمجلس قيـادة الثورة فى أغسطس ١٩٥٢ وكان عددهم حـوالى ٣٠ عضوا منهم « محمد فريد أبو حديـد ، وزكى هاشـم ،

وحسن كـامل سليـم ، ووليم سليم حنـا ومريـت غالى ، ومحمد فـؤاد جلال ، وسيـد قطب » .
وبعض هؤلاء الثلاثين وصل إلى الوزارة ، وبعضهم وصل إلى رقبته حبل المشنقة !

الأســانيد :

١ ـ الدكتور إبراهيم أبو الخشب . . حديث شخصى ١٩ / ٩ / ١٩٨٨ .

٢ ـ حافظ محمود . . اسرار الماضى .

٣ ـ فتحى رزق . . شموع فى بلاط صاحبة الجلالة .

٤ ـ محمد زكى عبد القادر . . مذكرات وذكريات .

٥ ـ د . محمد مهدى علام . . المجمعيون فى ٥٠ عاما .

الشيخ مصطفى عبد الرازق



لم يسعدنى الحظ ان أجلس إلى هذا الأستاذ الجليل جلسة التلميذ منذ التحقت بقسم الفلسفة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا) سنة ١٩٤٦ ، كان الأستاذ الجليل شيخا للجامع الأزهر فجلست إلى تلاميذه أساتذتى الاجلاء « الدكتور أحمد فؤاد الاهوانى ، والدكتور محمد مصطفى حلمى ، والدكتور عثمان أمين » و « الدكتور على عبد الواحد وافى ، والدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده » (رحمهم الله جميعاً) .

وحاولت هنا ان اقصر هذه الحلقة عليه وفشلت ، فكيف لى ان اتحدث عن فرع باسق ، واغفل شجرة وارفة الظلال هى (آل عبد الرازق) . أسرة عريقة فى الوطنية ، وإذا ما تحدثت عن أسرة « عبد الرازق » تحدث بالضرورة عن « حسن بن أحمد بن محمد ، بن عبد الرازق » الذى دخل تاريخ مصر الحديث باسم « حسن عبد الرازق » وتوطدت العلاقة بينه وبين « الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده » وأعلن فى ٢٠ سبتمبر ١٩٠٧ تسمية الجمعية العمومية لشركة (الجريدة) بحزب الأمة . وإذا ما وصل الحديث إلى «حسن عبد الرازق باشا » امتد بالضرورة إلى أولاده « على عبد الرازق » المعروف بكتابه (الإسلام وأصول الحكم) وأزمته سنة ١٩٢٦ ، و« محمود عبد الرازق» ثم « حسن عبد الرازق » الذى اغتيل فى ٦ نوفمبر ١٩٢٢ واغتيل معه « إسماعيل زهدى » المحامى أمام مقر حزب الأحرار الدستوريين .

آل عبد الرازق

أسرة وطنية عريقة فى قرية (أبو جرج) بكسر الجيم وتسكين الراء ، من قرى محافظة المنيا

بالصعيد قال عنها « محمد زكى عبد القادر » إنها كانت على عداء وخصومة مع الملك « أحمد فؤاد» وعلى خصومة مع الخديو عباس الثانى لدورها فى انشاء حزب الأمة والجريدة ، وبعد ذلك لدورها فى تأسيس حزب الأحرار الدستوريين ثم لكتاب (الإسلام وأصول الحكم) لعلى عبد الرازق والذى وضعه ليسد الطريق أمام الملك فؤاد حين طمع فى أن يكون خليفة للمسلمين .

وتشير الدكتوره « سعاد عبد الرازق » إلى أصل الأسرة فى (البهنسا) وهى (بلدة) على بحر يوسف تبعد عن قرية (أبو جرج) بنحو خمسة عشر كيلو مترا وكان الجد الأكبر « عبد الرازق » يتولى قضاء (البهنسا) حوالى عام ١٧٩٧م وانتقل « أحمد عبد الرازق » حفيد الجد الأكبر ، والجد الأول للشيخ مصطفى عبد الرازق انتقل إلى(أبو جرج) لتولى كرسى القضاء ، واستقرت الأسرة بها وعرفت بأسرة (القضاة) .

والدكتور « حسن محمود » بلديات « الشيخ مصطفى عبد الرازق » يقول : أبو جرج قرية من أكبر قرى مركز بنى مزار محافظة المنيا ، قرية وادعة مسالمة ، يعيش أهلها أسرة واحدة غنيها وفقيرها لم تعرف البغضاء . . وقد شببت عن الطوق وأنا أرقب منبهرا ذلك القصر المهيب الذى يقف شامخا على مشارف القرية من ناحية الشرق حيث أسرة « حسن باشا عبد الرازق » الثرية الكريمة التى جمعت بين العلم والفضل . وكانت شهور الصيف من أسعد أيامنا نحن أطفال هذه القرية، حين تدب فى القصر الكبير الحياة ، ويعود أبناء « حسن باشا عبد الرازق » واذا بهم فى تواضع العلماء وسخاء أهل الريف يخالطون الكبير والصغير ويعرفون أهل القرية شيوخا وشبابا وأطفالا . . يلاطفون ويسألون والقصر مأوى للغريب والمحتاج والموائد حافلة ليل نهار بالضيفان من كل فج كانوا قدوة فى البر بالناس والترفق بأهل القرية يعينون المحتاج ويعلمون الفقير ويشجعون على العلم . .

ويواصل « د . حسن محمود » كلامه : وكنا نرى الشيخ الجليل فى رقته وحيائه يسير عصر كل يوم فى الطريق الزراعى الطويل المنبسط أمام القرية منفردا حينا أو بصحبة صديقة « د . طه حسين » وزوجته الفرنسية وكانا ينزلان صيف كل عام ضيوفا على (آل عبد الرازق) .

أما قصر آل عبد الرازق فى القاهرة خلف قصر عابدين أو (القصر الجمهورى حاليا) يلتقى فيه يوم الجمعة ابناء (أبو جرج) فى القاهرة ، فالدعوة مفتوحة وكان الطلاب والتلاميذ منهم يكتبون فى خانة ولى الأمر « بيت عبد الرازق » عابدين ويقدم « أحمد أمين » صورة لمنزل صديقه «الشيخ مصطفى عبد الرازق كان منزلا يحتفظ بالتقاليد القديمة لبيوت الأسرة الكبيرة ، يكثر زوارها وتمد موائدها غداء وعشاء ، وكان أصدقاء الشيخ من الشباب ينفردون بحجرة فى البيت يتلاقى فيها شبان الأزهر بشبان الحقوق ببعض الشبان الذين يتعلمون فى أوروبا ، فتثار المسائل

على اختلاف ألوانها دينية وفلسفية وسياسية واجتماعية تتبادل فيها الأفكار والأراء ، وآراء المحافظين تواجه آراء الأحرار ومؤيدو السفور ينازعون مؤيدى الحجاب ، والوطنيون يثورون على الرجعيين) .

وقد قدر البعض ملكية عائلة عبد الرازق بسبعة آلاف فدان ، هذا هو بيت (عبد الرازق) بمناخة الاقتصادى والاجتماعى والدينى الذى نشأ فيه « الشيخ مصطفى عبد الرازق » . أما رب البيت « حسن عبد الرازق » فقد كان على علاقة طيبة بالشيخ «محمد عبده » وكان ذا ثقافة دينية أزهرية فضلا عن مكانته الاجتماعية والسياسية . وبعد عشرة أيام من حادثة دنشواى ، عقد الاجتماع الأول لتأسيس شركة لاصدار (الجريدة) فى يونيو ١٩٠٦ فى منزل « محمود سليمان » والد محمد محمود واختير محمود سليمان رئيسا واختير حسن عبد الرزاق نائبا وأحمد لطفى السيد مديرا ، وصدر العدد الأول من (الجريدة) فى ٩ مارس ١٩٠٧ ، وفى ٢١ سبتمبر ١٩٠٧ عقدت الجمعية العمومية ، للجريدة برياسة حسن عبد الرازق لمرض محمود سليمان وفى هذا الاجتماع أعلن حسن عبد الرازق تحويل الجمعية العمومية إلى حزب باسم (حزب الأمة) واختير « محمود سليمان » رئيسا و « حسن عبد الرازق وعلى شعراوى » وكيلين واختير « أحمد لطفى السيد » سكرتيرا عاما للحزب وأصبحت الجريدة لسانا لحال حزب الأمة . وفى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٠٧ توفى حسن عبدالرازق باشا والد الشيخ مصطفى عبد الرازق ووالد حسن عبد الرازق الذى كان عضوا فى مجلس إدارة (حزب الأحرار الدستوريين) واغتيل كما أشرنا من قبل عند خروجه من جريدة السياسة فى ١٦ نوفمبر ١٩٢٢ . . على اية حال أصبح من اليسير الآن ان ندخل مباشرة إلى سيرة «الشيخ مصطفى عبد الرازق » .

السفور والحزب الديمقراطى

فى هذه البيئة ولد « مصطفى عبد الرازق » حوالى عام ١٨٨٥ ـ ١٣٠٤هـ وهو الأبن الرابع بين سبعة أبناء وبنتين لوالده حسن عبد الرازق وفى السادسة من عمره التحق بكتاب القرية ، فتعلم القراءة والكتابة وحفظ شيئا من القرآن الكريم وفى الحادية عشرة من العمر التحق بالجامع الأزهر. والتقى بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . فكان يحضر دروسه التى يلقيها بعد صلاة المغرب فى الرواق العباسى . غير أن « الشيخ محمد عبده » يرحل فى١١ يوليو ١٩٠٥ فتضطرب أحوال شيخنا مصطفى ولكنه يعكف على الدراسة ليحقق أمل الإمام فيه ونال اجازة العالمية فى ٢٥ يوليو ١٩٠٨ . ودعى للتدريس فى مدرسة القضاء الشرعى وبعد عام استقال وسافر إلى فرنسا سنة ١٩٠٩ وحضر سنتين فى السوربون ثم تحول سنة ١٩١١ إلى جامعة ليون ليحاضر فى أصول

الشريعة الإسلامية واضطرته ظروف الحرب العالمية الأولى إلى أن يعود لمصر سنة ١٩١٤ بعد أن حصل على الدكتوراة عن « الإمام الشافعى أكبر مشرعى الإسلام » وترجم إلى الفرنسية بالاشتراك مع « برنار ميشيل » رسالة التوحيد للإمام الشيخ محمد عبده ، كما الفا معا كتابا باللغة الفرنسية عن (الشيخ محمد عبده) وعين سنة ١٩١٥ موظفا فى المجلس الأعلى للأزهر ثم مفتشا بالمحاكم الشرعية سنة ١٩٢٠ .

وإلى ان اقفلت الجريدة أبوابها فى ٣٠ يوليو ١٩١٥ كان فى أغلب فتراتها كاتبا من كتابها وقال عنها : (استبشرنا بها راية يلتف حولها الجوهر المصفى من شبابنا ، وتسير فى ظلها دعوة الحرية والتقدم بين حياة العلم والعقل وجاه العصبية والغنى ، ثم ماتت الجريدة وتفرق عنها أصحابها غافلين لاهين بمظاهر القابهم وأموالهم) .

وسرعان ما صدرت جريدة (السفور) التى اصدرها « عبد الحميد حمدى » أحد أعضاء حزب الأمة ، وضمت السفور إليها أقلام : « مصطفى عبد الرازق ، ومحمد كامل البندارى ، وعزيز ميرهم ، ومحمد حسين هيكل ، ومحمود عزمى ، ومنصور فهمى ومحمد أحمد الغمراوى ، ومحمد فريد أبو حديد ، ومحمد كامل سليم ، ومحمد عبد الواحد خلاف ، وأحمد زكى ، وأحمد أمين ، كما ان غالبية هذه العناصر كانت تجتمع فى بيت عبد الرازق وفى هذا البيت أعلن عن قيام (الحزب الديمقراطى) ووضع « مصطفى عبد الرازق » ومحمد حسين هيكل ، وعزيز ميرهم ، ومحمود عزمى ، ومنصور فهمى » فى ١٠ سبتمبر ١٩١٩ ، وفى الحجرة الخاصة بمصطفى عبد الرازق فى بيت آل عبد الرازق وضعوا قانون الحزب الديمقراطى وتمزق هذا الحزب بين الوفد ، وحزب الأحرار الدستوريين والحزب الاشتراكى المصرى وهو الحزب الذى تحول إلى (الحزب الشيوعى) فيما بعد .

أستاذاً للفلسفة

فى سنة ١٩٢٧ نقل « الشيخ مصطفى عبد الرازق ، استاذا مساعدا للفلسفة الإسلامية بكلية الآداب ، بجامعة فؤاد الأول ، ثم صار استاذ كرسى الفلسفة سنة ١٩٣٥ واصدر فى هذا المجال كتاب (تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية) وكتاب (فيلسوف العرب والمعلم الثانى) ووضع أمام تلاميذه شخصيات لم تكن قد نالت حظها من الدرس والبحث ، أمثال البهاء زهير الذى يمت إلى مصر والمصريين بصلة ، والليث بن سعد ، فقيه مصر الأول ، والكندى فيلسوف العرب ، والفارابى المعلم الثانى ، وفخر الدين الرازى ، وأسهم فى ترجمة (رسالة التوحيد) لأستاذه « الإمام محمد عبده » إلى الفرنسية . والتف حوله عدد من صفوة الطلاب أصبحوا فيما بعد أساتذة للفلسفة والاجتماع .

وهو أول من انشأ فى الدراسات الجامعية مادة للدراسة سميت بالفلسفة الإسلامية ، ولكنه كان يرى ويردد ان أول من قام بهذا العمل هو « المستشرق الإيطالى سانتلانا » فى الجامعة المصرية الأهلية .

والشيخ فى كل ما كتب يكشف عن نزعة أدبية واهتمام بالحياة الاجتماعية والتعمق فى معانى الفلسفة الإسلامية ، والتعبير عنها بعبارات سهلة واضحة . وقد حرص الدكتور « طه حسين » على ان يقوم الشيخ مصطفى عبد الرازق بتدريس مادة الفلسفة الإسلامية فى كلية الآداب .

والشيخ فى حياته كلها كان يعتقد ان هناك شيئا فوق العلم وفوق الفن هو مايطلق عليه اسم (الأخلاق) .

ولخص « الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى » منهج الشيخ فى إنه كان يرى (إن بناء ثقافتنا وإعادة مجد أمتنا يكون بانفتاحنا على ماهو جديد مع احتفاظنا بالقديم بحيث لايطغى القديم على الجديد ، ولا الجديد على القديم ، وان نكون يقظين تجاه محاولة تشوية تراثنا الفكرى الإسلامى ، وان نثق بأنفسنا وبتراثنا الحضارى ، وان ننشر مالم ينشر منه حتى نحكم عليه الحكم الصحيح) .

وزيرا للأوقاف

هو أول شيخ أزهرى يتولى وزارة الأوقاف وتولاها ثمانى مرات كانت أولاها فى وزارة « محمد محمود» الثالثة من (٢٧ أبريل ١٩٣٨ - ٢٤ يونيو ١٩٣٨) فى أعقاب انتخابات نموذج للتدخل والتزوير وانشغلت الوزارة فى الرد على مناورات « على ماهر» رئيس الديوان الملكى واستقالت الوزارة ليشكل « محمد محمود » وزارته الرابعة (من ٢٤ يونيو ١٩٣٨ - ١٨ أغسطس ١٩٣٩) ويتولى الشيخ مصطفى عبد الرازق بك وزارة الأوقاف . والمرة الثالثة للشيخ وزيرا للأوقاف كانت فى وزارة حسن صبرى الأولى من ٢٧ يونيو ١٩٤٠ - ١٤ نوفمبر ١٩٤٠ . والمرة الرابعة فى وزارة حسين سرى الأولى من ١٥ نوفمبر ١٩٤٠ - ٣١ يوليو ١٩٤١ ثم وزيرا للأوقاف للمرة الخامسة وهو يحمل لقب باشا فى وزارة حسين سرى الثانية من ٣١ يوليو ١٩٤١ - ٤ فبراير ١٩٤٢ ويتولى الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا وزارة الأوقاف للمرة السادسة فى وزارة أحمد ماهر الأولى من ٨ أكتوبر ١٩٤٤ - ١٥ يناير ١٩٤٥ ، ومن يناير ١٩٤٥ إلى ٢٤ فبراير ١٩٤٥ يشكل أحمد ماهر وزارته الثانية ويبقى الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا وزيرا للأوقاف للمرة السابعة . ولم يقدم أحمد ماهر استقالة وزارته لاغتياله ويقوم محمود فهمى النقراشى بتشكيل وزارته الأولى فى ٢٤ فبراير ١٩٤٥ ،

وتنتهى الحرب العالميـة الثانية فى مايو ١٩٤٥ وتقوم مجمـوعة من الشباب ثبت فيها بعـد أنها كانت تعمل لحساب القصر باغتيال أمين عثمان فى يناير ١٩٤٦ ، وتسفر الانتخابات البريطانية عن فوز حـزب العمال الـذى يمهـد لسحـب اللورد كيلـرن السفير البريطـانـى مـن مصر وتستقيـل وزارة النقراشى فى ١٥ فبرايـر ١٩٤٦ والتى كان فيها الشيخ مصطفـى عبد الرازق وزيرا لـلأوقاف للمرة الثامنة والأخيرة .

شيخا للأزهر

فى ٢٧ ديسمبر ١٩٤٥ عين الشيـخ مصطفـى عبد الـرازق شيخـا للجـامع الأزهـر ومـن ٣٠ ديسمبر ١٩٤٥ تم ندب أحمد عبد الغفـار وزير الزراعة وزيرا للأوقاف واستقـالت وزارة النقراشى الأولى فى ١٥ فبراير ١٩٤٦ .

وقد أحاطت بعض الملابسات بتعيين الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخا للجامع الأزهر . كان الشيخ مصطفى المراغى قد توفاه الله يوم ٢٢ أغسطس سنة ١٩٤٥ . وثارت أزمة بين القصر وهيئة كبار العلماء وكما يقول حسن يوسف فى مذكراته (أزمة أثارها الملك شخصيا بغير مبرر . .) وكان الملك فاروق قد رغب فى تـرشيح الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخا للجامـع الأزهر ، وكان قانون الأزهـر ينص على اختيـار شيخه مـن بين أعضاء هيئـة كبـار العلماء . وتقدمـت وزارة النقراشـى بتعديل قانون الأزهر لالغاء الشرط الخاص بعضويـة هيئة كبار العلماء . وبدلا من شرط التدريس فى الأزهر لمدة عشر سنوات تعدلت المادة إلى خمس سنوات بالتـدريس فى الأزهر أو فى جامعة فؤاد الأول أو جامعة فاروق الأول . وكـذلك اضيف لمبررات الترشيح من سبق ان تـولى منصب الافتاء أو عضويـة المحكمة الشرعية . اجتمعت هيئـة كبار العلماء وقررت الاعتراض على الترشيـح بدون عضويـة هيئة كبار العلماء . وقدم « الشيـخ مأمون الشناوى » وكيـل الأزهر استقالته مـن منصبه احتجاجا على تخطيه للتعيين شيخا للأزهـر . ووافق مجلس النواب بجلسة ١١ ديسمبر ١٩٤٥ ، ووافق مجلس الشيوخ كذلك على تعديل قانون الأزهر . ولم يكن الاعتراض من جانب رجال الأزهر مقصودا به الشيخ مصطفـى عبد الرازق وإنما كان المقصود به الحفاظ على التقـاليد المرعية لاختيار شيخ الأزهر.

وفى اليوم الخامس عشر من فبراير سنة ١٩٤٧ ، ذهب الشيخ إلى الأزهر ، وعاد إلى منزله قبيل العصر ، وتوضـأ وصلى العصر . . وأوى إلى الفراش بعـد ان شعر بالاعيـاء يزحـف إلى جسده . . وكانت النهاية المحتومة . .

توفاه الله بعد اثنين وستين عاما قضاها الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا أسهم بقلمه دفاعا عن الحريات كطريق لتحولات اجتماعية وسياسية وفى حـدود ما اتيح له من رؤية . . تتلمذ على أيدى الإمام محمد عبده وظل وفيا له ولمدرسته طوال عمره . . وعندما كان أستاذاً للفلسفة الإسلامية من ١٩٢٧ ، حتـى ١٩٤١ تحلقت حـوله مجمـوعة كـان لها اسهامهـا الواضـح بعد رحيلـه : توفيـق الطويل، وعلى النشار ، ومحمد عبد الهادى أبـو ريدة ، وعثمان أمين ، ومحمد مصطفى حلمى ، وأحمد فؤاد الاهـوانى . . وغيرهـم ، تولى وزارة الأوقاف ثمان مـرات على فترات من ٢٧ أبـريل ٣٨ حتى ٢٧ ديسمبر ١٩٤٥ ، كان فيها نموذجا للنزاهة والصدق والسماحة .

الأسـانيد :

١ - إبراهيم بيومى مدكور وآخرون . الشيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق .

٢ - أحمد أمين . . حياتى .

٣ - حسن يوسف . . مذكرات .

٤ - محمد السعدى فرهود وآخرون . . « الأزهر الشريف فى عيده الألفى » .

٥ - محمد على علوبة . . « ذكريات سياسية واجتماعية » .

٦ - محمد مهدى علام . . « المجمعيون فى خمسين عاما » .

مصطفى النحاس



أيها الغاضب الكبير تأمل
كيف صار الكتاب كالخرفان
عد إلينا ياسيدى عد إلينا
وانتشلنا من قبضة الطوفان
ورفضنا كل السلاطين فى الأرض
رفضنا عبادة الأوثان
عد إلينا فان ما يكتب اليوم
صغير الرؤى ، صغير المعانى
سقط الفكر فى النفاق السياسى
وصار الأديب كالبهلوان
يتعاطى التبخير يحترف الرقص
ويدعو بالنصر للسلطان
عبد إلينا فان عصرك عصر
ذهبى ونحن عصر ثان
ارم نظارتيك ما أنت أعمى
إنما نحن جوقة العميان

وقبل أن يتحرك الذين احترفوا الصيد فى الماء العكر ، أو الذين احترفوا تعكير الماء الرائق . . أقول ان هذه الأبيات ليست لى ، فأنا لست بشاعر ، وأقصى ما وصلت إليه فى حديقة الشعر هو أن أتذوق أصدقه ، وان كان أعذب الشعر أكذبه كما يقال .

وقائل هذه الأبيات هو الشاعر العربى الكبير « نزار قبانى » والزمان فى أواخر عام ١٩٧٤ . . والمكان قاعة الجامعة العربية بالقاهرة . . والمناسبة مرور عام على رحيل عميد الأدب العربى . . وزير المعارف العمومية فى وزارة الوفد (١٢ يناير ١٩٥٠ ـ ٢٧ يناير ١٩٥٢) والشاعر هنا يخاطب الدكتور طه حسين .

ولكن ، إذا أراد القارئ أن يخاطب بها « مصطفى النحاس » فهذا شأنه ، ولا دخل لى فى ذلك ، ولا دخل لنزار قبانى أيضا . وإذا أراد القارئ ان يستعيد الأبيات ، وأن يسقط معانيها على الزمن الذى قيلت فيه (١٩٧٤) وعلى زمن آخر يقف على حدود يوم الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فهذا شأنه أيضا ولا دخل لى فيه ، وان كان الشاعر يقارن بصراحة بين زمن ١٩٧٤ وزمن عاش فيه الدكتور طه حسين عميدا للأدب العربى . . وعلى مسئولية القارئ أن يستعيد الأبيات مرة ومرات ، وأن يسقط ما فيها من معان على الأزمة التى يريدها أو يتصورها .

وبالنسبة لى فاننى أتوقف دائما عند بيتين من القصيدة أوردت هنا احدهما ليكون مدخلا لى وأنا أكتب عن مصطفى النحاس . . البيتان هما :

أرم نظارتيك كى اتملى ... كيف تبكى شواطئ المرجان

أرم نظارتيك ما أنت أعمى ... إنما نحن جوقة العميان

فى جسارة عبقرية ، اقتحم الشاعر منطقة غاية فى الحساسية عند « طه حسين » وماظنه البعض نقطة الضعف عند « طه حسين » اعتبرها الشاعر نقطة القوة . . فالعيون الضريرة . . شواطئ المرجان . . والعميد ليس بأعمى . . وإنما نحن جوقة العميان . والأكف التى التهبت تصفيقا لأبيات « نزار » لم تكن مقصورة على « طه حسين » وإنما صفقت لأن الشاعر كان يقارن بين عصر وعصر . . بين زمن وزمن . واقتحم المنطقة المحظورة . .

موقف تاريخى فى ٤ فبراير

والآن ، هل مهدت لنفسى وأنا أختار ما حدث فى ٤ فبراير ١٩٤٢ بداية للحديث عن «مصطفى النحاس » . . لم يكن أعمى ، وإنما نحن جوقة العميان . . وليرم كل نظارتيه ، أو ليرى الموقف عاريا على حقيقته فى ذلك اليوم ٤ فبراير ١٩٤٢ دون تشدق بألفاظ وعبارات لاتساوى شرو نقير تعتبر فى تلك اللحظات التاريخية التى اتخذ فيها « مصطفى النحاس » الموقف شديد الذكاء فانقذ مصر من الخراب والدمار ، وانقذ عرش مصر رمز الوطن فى ذلك الزمان ، وأنقذ شعب مصر من سياسيين لم يروا فى تلك الفترة غير مصالحهم الذاتية .

* جحافل النازية الألمانيـة والفاشية الإيطالية تدق بعنف أبواب مصر الغـربية ، وفصائل من شباب مصر تدافـع عن وطنية غير واعية ، وبخطـوات غير محسوبة تهتف فى شـوارع القاهرة . . «إلى الأمام ياروميل » ظنـا ان « هتلر » و «موسولينى » سوف يقدمـان استقلال مصر على طبق من ذهب للفصائل التى تمهد لهم دخول البلاد . . دون ادراك لما فعلته قوات النازى وقوات إيطاليا فى فرنسا ووسط أوروبا والبلقان من نهب للثـروات ، ومن دم ، ومن خراب ، ومن سحق لأى مظهر ديموقراطى فاذا دخلت قوات «روميل » مصر لضـاعت البلاد وضاع استقلالها (المنقوص) الذى يتحدثون عنه ، ولن يكون فى مقدورهم بعد ذلك أن يهتفوا . . « إلى الوراء ياروميل » .

* ضيـاع مصر فى تلـك الفترة ، ودخول قـوات المحـور . . كـان يعنى ضيـاع منطقـة الشرق الأوسط بأسرهـا من الحلفاء ، وتمهيدا لضياع ارتكازات بـريطانيا فى آسيا . . ولم تكن بـريطانيا أو الدول المتحالفة معهـا على استعداد للحظة واحدة لوقوع مصر فى أيدى (المحـور) . وكان لابد من ان تتحول مصر ، كل شبر فيها لمسرح معركة دمويـة رهيبة بين قوات المحور وقوات الحلفاء . وهنا نسأل دعاة « إلى الأمام ياروميل » ودعاة كرامة الملك . . ودعاة عدم تشكيل وزارة وفدية . . نسألهم ماذا يكون الموقـف ؟ هل يحاربون إلى جانب الغزاة الجدد لالحاق الهزيمـة بقوات الحلفاء ؟ أم أنهم يشكلون الكتائب للحرب ضد المحور والحلفاء معا ؟ أغلـب الظن إنه ما كان فى مقدورهم هذا أو ذاك . . وكانوا يتركون البلاد مسرحا لمعارك رهيبة من بيت لبيت بين قوات المحور وقوات الحلفاء .

* كان الموقـف الذى اتخذته الشعوب فى أوروبـا والأمريكتين وغالبية الشعـوب بما فيها الاتحاد السوفيتـى ، داخل ألمانيا ذاتها كما أثبتـت الوقائع بعـد ذلك : وهجرة العلماء والمفكـرين والمثقفين فرارا من جحيم النازيـة والدكتاتورية . . اتخذت الشعوب فى غالبية دول العـالم موقفا واعيا يتمثل فى الوقوف فى وجـه الزحف النازى الـدكتاتورى ، حتى لـو أدى هذا للتعاون والتنسيق مـع قوات الحلفاء . . هكذا فعل « ستالين » ، وفعل « تيتو » ، وفعل « ديجول » .

* فى مصر كان الملك يتعاون سرا مع إيطاليا ، وكانت فصـائل سياسية جديدة ـ عن قصد أو غير قصد ـ ترحب بالغزو المحورى لمصر ، وكانت أحزاب الأقلية المعادية فى جوهرها للديمقراطية والدستـور لا يهمها إلا كراسـى الحكم ، ومن هنـا فانها جميعـا لم ترفض تشكيـل حكومة بـرئاسة مصطفى النحاس ، وإنما رفضت فقط أن تكون الحكومة وفدية خالصة .

* من حيـث الشكل احتج رؤسـاء الأحزاب جميعـا وفى مقدمتهم « مصطفـى النحاس » على الانذار البريطانى ، ومن حيث الشكل أيضا طلبوا ان يكون تشكيل الوزارة بتكليف من الملك . . ولكن « مصطفـى النحاس » بسابـق خبرته بهؤلاء جميعـا رفض فى تلك الظـروف الحرجة ان يشترك أحد من هؤلاء معه فى الحكومة . . خطيئة « النحاس » فى نظرهم هنا هى الانفراد بحكومة وفدية .

* الملك كان يتآمر مع المحور وخاصة إيطاليا . . وهذا ثابت بالوقائع التاريخية . . والمرحوم أحمد حسين والمرحوم حسن البنا كانا ــ فى تلك الفترة ينسقان مع رجال القصر ، وزعماء أحزاب الأقلية ومعهم على ماهر . . كانوا جميعا يأتمرون بأمر القصر للوقوف فى وجه الوفد . . فلماذا المزايدة على الوفد وعلى النحاس؟

* مصطفى النحاس هو الزعيم الوحيد الذى واجه القصر فى عهديه . . عهد فؤاد وعهد فاروق ، وهو الزعيم الوحيد الذى أقاله القصر من الوزارة أربع مرات من مجموع الوزارات التى ألفها . . وكانت محاولات ضربه تأتى دائما من أحزاب القصر ، سواء التى دخلت معه فى وزارة ائتلافية ، أو من خارج الوزارة . . كان من الطبيعى إذن ان يرفض اشتراك الأحزاب الأخرى معه فى وزارة ٤ فبراير ١٩٤٢ .

*أثبتت جميع الدراسات المنصفة أن« مصطفى النحاس » لم تكن له صلة لا من قريب ولا من بعيد بالانذار البريطانى . وادرك الساسة الآخرون ان الانجليز جادون فى انذارهم ، فوافقوا ـ ومعهم الملك ـ على تشكيل حكومة برئاسة « النحاس باشا » وكل الذى اشترطوه هو أن يشتركوا فى وزارة النحاس .

* عندما كان الألمان يزحفون إلى الإسكندرية طلب الإنجليز أن ينتقل الملك فاروق ، والحكومة إلى السودان أو إلى جنوب أفريقيا . . ولم يمانع الملك فاروق ؛ ولكن الذى رفض وطلب من الملك أن يرفض هو مصطفى النحاس رئيس حكومة ٤ فبراير .

كان البديل رهيبا . . وفى لحظة تاريخية . . وكان مصطفى النحاس واضح الرؤية ، ثاقب النظر ، فتقدم ، وقبل تشكيل الحكومة فى ٤ فبراير ، فى لحظة تاريخية . وقع « لينين » الصلح مع الألمان وانسحب من الحرب العالمية الأولى ليدعم أقدام الثورة الاشتراكية الوليدة ، وفى لحظة تاريخية هادن « ستالين » ألمانيا النازية ليتمكن من الاستعداد الحربى ، وفى لحظة تاريخية قفز «ديجول » إلى طائرة بريطانية وترك فرنسا ليعود إليها محررا لها ، وفى لحظة تاريخية تحالف « تشرشل » مع الشيطان يقصد ستالين ـ ليتمكن من هزيمة ألمانيا .

هل أطلت ؟ أظن . . ولكن كان من الضرورى أن أطيل فى هذه المسألة ، لأن الحديث فى أمور أخرى سهل ميسور .

ماذا قدم لمصر

ولكن . . ماذا قدم « مصطفى النحاس » لمصر خلال فترات حكمه المتقطعة ، والتى كانت غالبيتها تنتهى بالاقالة ؟

* فى الحكومة الأخيرة نشطت حركة الكفاح المسلح ضد قوات الاحتلال فى منطقة القناة ، وكانت بعلم الحكومة الوفدية وبتأييدها ، وربما بتدبيرها .

* من أجل هذا أباحت الحكومة لكل مصرى أن يحمل السلاح ، وسحبت آلاف المصريين الذين يعملون فى المعسكرات الانجليزية ، وأصدرت الحكومة قرارات سريعة بتعيينهم فى المصالح الحكومية جميعها .

* من أجل مصر وقع « مصطفى النحاس » معاهدة ١٩٣٦ ، ومن أجل مصر أيضا ألغى «مصطفى النحاس » هذه المعاهدة .

* رفضت حكومة النحاس باشا مقترحات الدول الأربع إلى قيادة متحالفة مشتركة للدفاع عن الشرق الأوسط ، وإن تكون قاعدة القناة لقوات هذه الدول الأربع .

* قانون الضمان الاجتماعى .

* انشاء مجلس الدولة ، وديوان المحاسبة ، وديوان الموظفين .

* قانون استقلال القضاء .

* مجانية التعليم الابتدائى والتعليم الثانوى ، والمجانية الفعلية فى التعليم الجامعى وعدم حرمان أى طالب من الامتحان بسبب المصروفات .

* انشاء وزارة للاقتصاد الوطنى والاهتمام بتصنيع البلاد وبالاقتصاد الزراعى .

* حرية الصحافة لم تشهدها البلاد فى غير حكومات الوفد من قبل .

* قيام الجامعة العربية ، والعمل على ضم ممثل لفلسطين إلى هذه الجامعة .

* الحياد فى الحرب الكورية ١٩٥٠ .

* كفاح مستمر من أجل حماية الدستور ، ومن أجل الحكم الدستورى .

* المساواة فى الحقوق والواجبات لكل طوائف الأمة .

* إلغاء الامتيازات الأجنبية .

* تمصير الديون والسير فى تسديدها .

* قانون الاهتمام باللغة العربية .

*نظام تغذية أطفال المدارس الأولية .

*مشروع خزان أسوان .

* قانون الضرائب التصاعدية .

* قانون انصاف الموظفين .

* إلغاء نظام السخرة لحراسة النيل أيام الفيضان .

* إلغاء ضريبة الخفر التى كان يفرضها العمد على الفقراء من أهل القرى .

* قانون عقد العمل الفردى ، وقانون عقد العمل الجماعى ، وقانون تحديد ساعات العمل بـ ٨ ساعات ، وقانون حق تكوين النقابات العمالية .

* قانون الضرائب التصاعدية .

* قانون انشاء البنك المركزى .

وفى هذا المجال لا أريد أن أطيل ، لأن السؤال يلح على القلم . . وهل جزاء الرجل الذى يقدم هذه الأعمال إلى بلده أن يوجه إلى صدره السونكى ؟ وإلى سيارته القنابل ؟ وإلى بيته الديناميت ؟ نعم . . يمكن أن يحدث هذا مادام الرجل عنيدا فى الحق . . عنيدا فى سبيل الحريات . . عنيدا فى مواجهة طغيان القصر . . عنيدا فى استقلال الوطن . نعم . . يمكن ان يحدث هذا . . مادام الذى يوجه السونكى يأتمر بأمر معاد للحريات ، وما دام الذى يلقى القنبلة أو يطلق الرصاص أو يفجر الديناميت خادما للقصر ، أو واقعا تحت تأثير سياسى مهرج .

محاولات الاغتيال

فوق طاقة البشر ، ما تعرض له « مصطفى النحاس » من محاولات للاغتيال .

* فى ١٩ يونيه ١٩٣٠ جاء « إسماعيل صدقى » إلى الحكم ، وأجل انعقاد البرلمان لمدة شهر تبدأ من ٢١ يونيه ، وانفجرت المظاهرات ونزلت قوات « صدقى » تطلق الرصاص على المتظاهرين، وأرسلت بريطانيا بارجتين إلى الإسكندرية . وأغلق صدقى أبواب البرلمان بالسلاسل . وتقدم « ويصا واصف » رئيس مجلس النواب وأمر الحرس بتحطيم السلاسل وفتح الأبواب . وفشلت محاولة صدقى ، وزادت شعبية النحاس . وكان فى جولة سياسية فى مدينة المنصورة يوم ٨ يوليو ١٩٣٠ وسدد أحد رجال الشرطة سونكيا مسموما إلى صدر « النحاس » بهدف القضاء عليه والتخلص منه . إلا أن « سينوت حنا » عضو الوفد تلقى الطعنة الغادرة بذراعه مفتديا زعيمه . وأشارت الجماهير الغاضبة فى جنازة « سينوت حنا » إلى « إسماعيل صدقى» على أنه المدبر والقاتل .

* ولم يتراجع الرجل عن عناده فى حب الشعب ، وفى الدفاع عن قضاياه ، ويشكل وزارته الثالثة (٩ مايو ١٩٣٦ إلى ٣١ يوليو ١٩٣٧) ثم وزارته الرابعة (من أول أغسطس ١٩٣٧ إلى ٣٠

ديسمبر ١٩٣٧) . وفى تلك الفترة تقع المحاولة الثانية لاغتيال « النحاس باشا » وهو فى طريقه لحضور أحد المؤتمرات الشعبية فى حى بولاق بالقاهرة .

* سنة ١٩٣٨ يضعون المتفجرات فى محرك سيارة الرجل ، ويكتشف الأمر ويتم انتزاع المتفجرات وينجو « النحاس باشا » من المؤامرة الثالثة .

* ولم تفلح الإقالة سنة ١٩٤٤ ، ولم تفلح دعاية الكتاب الأسود فى تشويه سمعة الزعيم ، فينصبون له كمينا سنة ١٩٤٥ وهو فى طريقه من منزله بجاردن سيتى إلى النادى السعدى . . وعلى سيارته يلقون قنبلة . . وترتعش يد المتآمر ـ المجهول المعلوم ـ وتخطئ القنبلة طريقها إلى «النحاس باشا » . . وينجو ثم يمضى فى طريقه أكثر صلابة وأشد عزما .

* لم تنته المؤامرات بعد ، ويعود « المجهول المعلوم » وتتحرك سيارة بها شحنة ناسفة لتنفجر فتدمر واجهة المنزل . ورأينا بأعيننا ـ وكنا لم نزل طلابا بالجامعة ـ جزءا من السيارة المتفجرة وقد تطاير ليخترق النافذة ويتوقف فوق « ناموسية » سرير رئيس الوفد وتلتهب حناجر الشباب سنة ١٩٤٨ بحياة مصطفى النحاس وبسقوط المجرم . . المجهول المعلوم .

* وأعداء النحاس لا يتوقفون ، ويعودون فى سنة ١٩٤٨ ذاتها . . وحين كان النحاس باشا وفؤاد باشا يدلفان إلى داخل المنزل ينهمر رصاص المدفع الرشاش ويسقط ثلاثة من الحراس قتلى ، وينجو رئيس الوفد وسكرتير الوفد .

ويذهب المتآمرون ويبقى الرجل على عناده الوطنى دون خوف ودون تردد .

التحدى والصراع

لم يقدر لزعيم مصرى ان يصارع القصر ، ويصارعه القصر مثلما قدر لمصطفى النحاس . وبداية من يوم ١٤ سبتمتبر ١٩٢٧ وهو يوم اختيار « النحاس » رئيسا للوفد المصرى . إلى يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، وهو يوم خلع الملك فاروق ومصطفى النحاس يواجه دسائس القصر ، ويوجه السهام للقصر دفاعا عن الشرعية الدستورية .

وفى الفقرة السابقة سجلنا محاولات لاغتيال الرجل . وهى كلها بتدبير القصر ومن صنعه أو لصالحه فى النهاية .

أحمد عرابى مثلا ظل سنة أو أكثر قليلا يواجه دسائس الخديو توفيق ، ومصطفى كامل كان «سمنا على عسل » مع الخديو عباس الثانى طوال فترة كفاحه ، ومرات الخلاف معه كانت معدودة وهينة ، ومحمد فريد دخل السجن لمدة ستة أشهر بطولها وكان على خلاف حذر مع

الخديو عباس ، إلى أن هاجر إلى أوربا ، فلم يتعرض لدسائس عنيفة من الخديو . بدأت رئاسة «محمد فريد» للحزب الوطنى سنة ١٩٠٨ وهاجر إلى أوربا سنة ١٩١٢ . . أربع سنوات فقط قضاها فى مصر رئيسا للحزب الوطنى . رؤساء الأحزاب الآخرون محمد محمود ، أحمد ماهر ، محمود فهمى النقراشى ، مكرم عبيد . . اختلفوا مع القصر أيام النضال . . ولكن أيامهم فى رئاسة أحزابهم كانت على وفاق مع الجالس على عرش مصر .

إلا هذا الرجل « مصطفى النحاس » ابن الشيخ « محمد النحاس » صاحب (مغلق) خشب صغير فى سمنود محافظة الغربية . هذا الرجل العنيد الذى كتب عنه « اللورد كيلرن » فى مذكراته (رجل ضئيل الجسم يبرز صدره إلى الأمام وكأنه يتحدى العالم كله) هذا الرجل عاش حياته السياسية كلها ليتحدى الجالس على العرش . وتعرض لمؤامرات التصفية الجسدية .

* فى ١٤ سبتمبر ١٩٢٧ كما قلنا اجتمع الوفد المصرى واختار « مصطفى النحاس » رئيسا له ، وفى ١٩ سبتمبر أصدر الوفد برئاسة النحاس بيانا : لقد فجع الوفد فى رئيسه ولكنه لايزال حيا قوى الحياة بأمته واحدا فى كتلته ! أمينا على عهده ولن يترك ميدان الشرف حتى يتحقق مجد البلاد باستقلالها . وبعد أسبوعين أو ثلاثة من زعامة النحاس للأغلبية بدأت « السراى » تعد للاحتفال بيوم (٩ أكتوبر) يوم عيد جلوس الملك فؤاد على العرش . . وقرر النحاس أن (ينكد) على الملك يومه لأن مصر لم تزل ترتدى الحداد على زعيمها الراحل « سعد زغلول » وكتب «عزيز ميرهم » عضو الوفد وبتشجيع من النحاس (ليهنأ بالعيد من يشاء ويهنأ بالزينة صغار الأحلام ، وكل ذلك وضع للشىء فى غير محله وإقامة للأفراح وسط المأتم العام أن جلالة الملك مدين للحركة الوطنية التى كان سعد زغلول على رأسها ولولا تلك الحركة لما كانت مصر اليوم مملكة ، وكانت مجرد سلطنة) وكانت بداية لا تبشر بالخير بين القصر والوفد .

* قام « النحاس » بتشكيل وزارته الأولى فى ١٦ مارس ١٩٢٨ ، وكانت وزارة ائتلافية مع الأحرار الدستوريين . . وانسحب الأحرار وعلى رأسهم « محمد محمود » من الوزارة . وأعطى الفرصة للملك فؤاد لاقالة النحاس ، وليقوم هو بتشكيل وزارة اليد الحديدية فى ٢٥ يونية ١٩٢٨ وليبدأ عهدا من حكمة الدكتاتورى الذى عرف به « محمد محمود » بعد ذلك .

* وفى ١٩ يونيه ١٩٣٠ جاء « إسماعيل صدقى » حتى ٤ يناير ١٩٣٣ ثم إلى ٢٧ سبتمبر ١٩٣٣ فى فترة من الكساد الاقتصادى والفقر السياسى والمضايقات للوفد ولرئيسه بايعاز من الملك فؤاد ولصالحه على أقل تقدير .

* كل الانقسامات التى حدثت فى وفد مصطفى النحاس كانت بتدبير من القصر أو بمباركته أو لصالحه . . انقسام (السبعة ونصف) سنة ١٩٣٢ الذى بدأ باستقالة ، « نجيب الغرابلى » والذى انتهى بفكاهات ساخرة على صفحات الجرائد والمجلات . . انقسام خيرة أبناء الوفد غالب وماهر والنقراشى وعبد الهادى على الوفد . . لم تكن أيدى السراى عن طريق الشيخ

المراغى وعلى ماهر بعيدة عن هذا الانشقاق الخطير . انقسام مكرم باشا سنة ١٩٤٣ . . لم تكن يد « أحمد حسنين » بعيدة عنه .

* وهكذا كان صراع القصر ضد رئيس الوفد . . محاولة للاغتيال . وإذا لم تفلح يكون تشجيعا للانقسام . . سنة ١٩٣٠ محاولة للاغتيال لم تفلح ، بعدها سنة ١٩٣٢ محاولة انقسام . انشقاق خطير سنة ٣٧ ـ ١٩٣٨ أعقبوه بمحاولة للاغتيال سنة ١٩٣٨ . والانقسام الشهير عام ١٩٤٣ هز الوفد ، ولكنه لم يقض عليه فكانت محاولات لاغتيال ١٩٤٥ و١٩٤٨ و١٩٤٨ أيضا .

أية أعصاب حديدية ، وأى عناد ، وأى اصرار على مطالب الأمة كان يتمتع بها هذا الرجل . . هذا رغم محاولات كثيرة لتشويه السمعة ، ورغم محاولات كثيرة لضرب الوفد من الداخل ، ورغم محاولات كثيرة للتصفية الجسدية . . محاولات لا تيأس . . واحدة منها كانت تكفى أى سياسى لأن يهدأ أو يتردد أو يترك طريق النضال . .

* فى يونية ١٩٥١ يستيقظ المصريون على جرائد الصباح ، وبها صور الوثائق شيء بالافرنجى وشيء بلغات مختلفة . . ما الحكاية . . النحاس باشا يتخابر مع مستشار السفارة السوفيتية !! ويحقق النائب العام ، ويثبت أن الوثائق مزورة وقد تورط فى الترويج لها « محمد على علوبة » و«حسن عبد الوهاب » وهما من أقطاب الأحرار الدستوريين . ويحكم على العناصر الصغيرة التى اصطنعت هذه الوثائق بالسجن .

يوم الرحيل

هذه هى الحياة التى عاشها حتى يوم الرحيل من أجل مصر ومن أجل شعب مصر تجعل كل مصرى أيا كان موقعه السياسى يحترم نضال هذا الرجل ، ولقد كان محافظ مدينة الإسكندرية الأسبق « المرحوم حمدى عاشور » أحد أبناء مصر الذين أدركوا هذا الموقف ، فأعلن خبر وفاة رئيس وزراء مصر الأسبق « مصطفى النحاس » فى صباح ٢٣ أغسطس ١٩٦٥ من إذاعة الإسكندرية المحلية ، وبهذا انتقل الخبر إلى إذاعة القاهرة والصحف المصرية ، وكان « حمدى عاشور » إلى جانب « محمد فؤاد سراج الدين » وهما يصحبان الجثمان إلى شارع النباتات بجاردن سيتى مقر إقامة مصطفى النحاس .

أما ما حدث يوم الجنازة فى صباح ٢٤ أغسطس ١٩٦٥ فأسألوا عنه واحدا من آلاف الذين التهبت أكفهم بالتصفيق ، عندما شاهدوا نعش الزعيم فوق الرءوس . وكأن الزعيم قد أطل عليهم يخطب فيهم فى واحدة من خطبه بطريقته المألوفة المحببة إليهم أو اسألوا واحدا من الذين اعتقلهم « على صبرى » فى ذلك اليوم حتى أفرج عنهم فى ١٤ نوفمبر ١٩٦٧ وهم . . وحسب الحروف الأبجدية « أحمد صادق » أحمد عبد الجواد وهبة ، البسطويسى صديق ، حسن حصان ، حسين كامل ، حافظ شيحا ، زكى زهران ، صفوان رمضان ، طلعت رسلان ، سعد

المنصورى، عبد العزيز الدرملى ، على سلامة ، على السيد شابون ، على الجزار ، لطفى المحرصاوى ، محمد أحمد على ، مرسى مصطفى مرسى ، سيف الدين الغزالى ، محمد جعفر ، محمد كامل ، مصطفى ناجى ، ياسين سراج الدين ، يوسف الدموهى .

تـأمـلات

شعبنا الطيب كان يقول تأملات عن زعيمه الطيب . . « مصطفى النحاس » . . فيه شىء لله . . يفسرون به ببساطة ماحدث . وكان الأرجح ألا يحدث حسب منطق الحياة الجارية . . ولد صغير يولد فى أسرة رقيقة الحال ـ الوالد يعمل فى مغلق صغير لبيع الأخشاب . . هذا الصبى يفترش الأرض فى كتاب القرية أو المدينة الصغيرة ، يتعلم مبادئ القراءة ويحفظ القرآن الكريم . وفى العاشرة من عمره يلحقه والده بمكتب تلغراف محطة سكة حديد سمنود ليتعلم وليكون «تلغرافجى » بمحطة سكة حديد سمنود أو غيرها من محطات مصر كان هذا هو منطق الأمور . ولكن الله سبحانه وتعالى هيأ له من يأخذ بيده ويلحقه بمدرسة الناصرية الابتدائية بالقاهرة .

والعين بصيرة ، واليد قصيرة كما يقول شعبنا الطيب . . وبهذا المنطق البسيط كان يمكن ان يتوقف التلميذ « مصطفى محمد النحاس » بعد الابتدائية أو بعد التوجيهية . . ولكن التلميذ «مصطفى النحاس » ينجح فى الابتدائية ويكون الأول على القطر سنة ١٨٩١ ينجح فى (البكالوريا) أو التوجيهية على أيامنا أو الثانوية العامة على أيامكم ، ويكون الأول أيضا على القطر . . ماشاء الله . . وفى دراسته بمدرسة الحقوق يحصل على مكافأة التفوق فى القانون المدنى. ومكافأة المرافعات ، مكافأة الشريعة الإسلامية ومكافأة السلوك . . ويتخرج « مصطفى» فى مدرسة الحقوق سنة ١٩٠٠ وترتيبه الأول على دفعته ، وبالتالى على القطر المصرى ، لأنه لم تكن هناك سوى مدرسة واحدة للحقوق .

ست محاولات للاغتيال . . بالسونكى والقنبلة . . والرصاص . . والديناميت ويذهب مرتكبوها فى مزبلة التاريخ ، إذا كان للتاريخ مزبلة . . ويبقى « مصطفى النحاس» زعيما للأمة ٢٥ سنة متصلة ، وعند وفاته . . ويوم رحيله . . يصفق الآلاف لنعشه ، وكأنه لم يزل يخطب فيهم . . فيه شىء لله . . ولا كلمة بعد ذلك .

الأسـانيد :

١ ـ د . رفعت السعيد . . مجلة الطليعة سبتمبر ١٩٧٥ .

٢ ـ على سلامة . . الزعيم مصطفى النحاس .

٣ ـ لمعى المطيعى . . جريدة الوفد ٢١ أغسطس ١٩٨٦ .

٤ ـ د . يونان لبيب رزق . . جريدة الوفد ٢١ أغسطس ١٩٨٦ .

مصطفى مرعى



مصطفى مرعى ، ابن قرية الجزيرة الخضراء التابعة هذه الأيام لمركز مطوبس بمحافظة كفر الشيخ ، فارس من فرسان مصر على مبادئ مصطفى كامل ومحمد فريد يوم كان للسياسة فى مصر فرسانها .

ظل يجاهر بمبادئ الحزب الوطنى إلى ان عين قاضيا بمحكمة الإسكندرية سنة ١٩٣٢ ، ثم استقال من القضاء سنة ١٩٣٦ وعاد للعمل بالمحاماة فى القاهرة ليعبر عما احتبس فى صدره من آراء يحول دونها فى العمل بالقضاء ، ولكنه سنة ١٩٣٩ عين محاميا عاما فمستشارا بمحكمة استئناف مصر سنة ١٩٤١ ومستشارا بمحكمة النقض سنة ١٩٤٦ ، ورئيسا لادارة قضايا الحكومة سنة ١٩٤٨ ، وقد أدى أعماله جميعا بضمير نقى ورأى نزيه . . أثار اعجاب جيلنا كله عندما قدم استجوابا لحكومة الوفد فى مايو ١٩٥٠ حول استقالة رئيس ديوان المحاسبة « محمود محمد محمود » ابن « محمد محمود » رئيس حزب الأحرار الدستوريين السابق ، ورئيس الوزراء الأسبق .

وفى عهد حكومة الوفد (يناير ٥٠ ـ ٥٢) وفى ظل الحريات التى وفرتها الحكومة اشتعل الشارع المصرى ضد القصر . وقدم رئيس ديوان المحاسبة استقالته التى قبلت فى ٢٠ أبريل لامور تمس المستشار الصحفى للملك . وتقدم عضو مجلس الشيوخ «مصطفى مرعى » بسؤال إلى رئيس مجلس الوزراء عن أسباب الاستقالة . . هل هى بسبب يتصل بكريم ثابت وإعانة الحكومة لمستشفى المواساة أم تتصل بملاحظات على نفقات حرب فلسطين ؟ وتلقف الشارع السؤال . . وشجاعة السائل الذى أحال السؤال إلى استجواب . . ودخل « احسان عبد القدوس » وأشعل الشارع بمقالاته المعروفة عن (الأسلحة الفاسدة) . وبقى اسم الرجل « مصطفى مرعى » بطلا فى ذهن الشارع .

كان الرجـل « شجاعا » على المستوى الشخصـى بعيدا عن الحسابـات السياسية التى يجيـدها المحترفون .

كان الرجل « شجاعا » فى لحظاته الأخيرة مـن الحياة حسب رواية « الأستاذ أحمد أبو الفتح » فى جريـدة الوفـد . وكان « زاهدا » على حـد رواية الأسرة عـن وصيته المكتوبـة بأن يكتفـى فى العزاء برسائل البرق أو البريد .

كان الرجـل « أمينا » فى اخفاء خبر محاولة « الفـريق عزيز المصرى » للهـروب خارج مصر على حد رواية « الأستاذ مصطفى أمين» فى فكرته بجريدة الأخبار وجاء سطرها الأخير . . أمس سكت مصطفى مرعى ليتكلم التاريخ . .

عندما يتـكلم التاريخ

وإذا تكلم التـاريخ ليس لأحـد أن يغضب حتى « مصطفـى مرعى » وهـو فى رحاب الله . . وحتى جيلنا كله الذى تلقف رواية (الأسلحة الفاسدة) لأننـا كنا نكره الملك ونريد الإطاحة به ، ومن ثم فإن كل ما يقال عنه وعن حاشيتـه فهو صحيح مادام إنه يعجل بيوم سقوطه ! . . وحتى مجموعـات الضباط الأحـرار « البغدادى ، ومحسـن عبد الخالـق ، وعبد الصمـد » الذيـن اتصلوا بمصطفى مرعى ، وأمينة السعيد ، وإحسان عبـد القدوس . . فقد كان دافعهم وطنيا وغيرة على مستقبل هذا البلد . . وحتى الـذين يريدون أن تبقى صفحة « الثورة » طاهـرة نقية ويرددون اسـم «مصطفـى مرعـى » مـن بين أسماء قيل أنها اعتـزمـت لقـاء عبد النـاصر يطلبـون منه الاستسـلام للمعتـدين عـام ١٩٥٦ . . هـؤلاء ينبغى ألا يغضبـوا إذا طلبنـا منهم أن يقـرأوا (مـذكرات عبـد اللطيف البغـدادى) الجزء الأول ص ٣٤٤ ـ ٣٦٧ ليعرفوا أن أحـد قادة الثورة « صلاح سـالم» هـو الـذى (اقترح على جمال عبد النـاصر أن يعلن بيـانا على الشعـب يخبره فيه بـأنه رأى أن المصلحـة تستدعى تجنيـب البلاد الخراب والمدار) . . وهنا قال جمال عبد الناصر : (إنـه من المستحسن أن ننتحـر جميعا هنـا قبل أن نـأتى بمثـل هذا العمـل) وليعرفـوا أن شخصا واحـدا من المدنيين هـو «سليمان حافظ» طلـب من « صلاح نصر » ان يقابـل « جمال عبد الناصر » وتمت المقابلـة مع عبـد اللطيف البغدادى وعبد الحكيم عامر فى منزل بالدقى الساعة الثامنة والنصف مساء يوم الجمعة ، ٢ نوفمبر ١٩٥٦ . . وكان اقتراح « سليمان حافظ » هو : (إن نتقدم بطلب للدول المعتدية بجعـل مصر دولة محايـدة كسويسرا وكذا قنـاة السويس وأن تضمن هـذه الدول حياد مصر وذلـك حتى نجنب البلاد ويلات الحرب والدمار والخراب والاحتلال . وأن يقوم بتقديم هذا الاقتراح شخص

اخر غير جمال عبد الناصر ــ وليس هناك أصلح من محمد نجيب لهذه المهمة) فرد عليه عبد الحكيم بقوله : (إن هذا الاقتراح سبق وتقدم به جمال للجنة مانزيس ولكنه رفض . .) . . لقد كان هذا الاقتراح اذن هو اقتراح جمال عبد الناصر ، وأعاده « سليمان حافظ » الذى كان قد وضع نفسه فى خدمة حركة الجيش منذ قيامها .

ترتيب الأوراق

قبل أن نصل إلى استقالة رئيس ديوان المحاسبة ، والمراسيم الخاصة بمجلس الشيوخ لابد من ترتيب الأوراق ترتيبا تاريخيا حتى يمكن فهم كل خطوة فهما سليما . . ينص الدستور على تجديد نصف أعضاء مجلس الشيوخ فى كل خمس سنوات . ولما كانت نيابة النصف الأول من أعضاء المجلس تنتهى فى ٦ مايو ١٩٤١ فقد أجريت القرعة بجلسة ٧ مارس . ورأى « حسين سرى » رئيس الوزارة أن ظروف الحرب غير ملائمة لاجراء عملية انتخاب أعضاء جدد ، فاستصدر فى ٢٤ مارس مرسوما بتعيين أعضاء جدد بدلا من الذين خرجوا بالقرعة . ولما تولت وزارة النحاس باشا الحكم فى أعقاب ٤ فبراير ١٩٤٢ ألغت اجراءات حسين سرى وقامت باجراء انتخابات لملء مقاعد الخارجين بالقرعة ، وقامت بتعيين أعضاء جدد بدلا من الذين عينهم حسين سرى . . ولكن القصر بعد اقالة النحاس باشا فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ رغب فى اضعاف نسبة الوفد داخل مجلس الشيوخ . وقام « أحمد ماهر » رئيس الوزراء باستصدار مرسوم يبطل تعيين الأعضاء الذين اختارهم النحاس باشا ويعيد من عينهم حسين سرى . وسنة ١٩٤٦ حل موعد التجديد النصفى . . وهنا يقول « حسن يوسف » فى مذكراته ص ٢٤٦ :

(كان الحكم لاسماعيل صدقى باشا وبتعاونه مع القصر أجريت الانتخابات وتمت التعيينات ، وبهذا تحقق للملك ماكان ينشده من ايجاد توازن بين الأحزاب بحيث يكون للوفديين ثلث الأعضاء وللأحزاب الأخرى الثلث وللمستقلين الثلث) وهذا كلام صريح يوضح ان اجراءات حسين سرى ، وأحمد ماهر ، وإسماعيل صدقى ، كان الهدف منها عدم اعطاء أغلبية للوفد داخل مجلس الشيوخ .

وعلى هذا فمن الطبيعى جدا عندما يعود الوفد فى ١٢ يناير ١٩٥٠ بأغلبية كاسحة فى مجلس النواب أن يعمل على تقويم الوضع فى مجلس الشيوخ بعد أن تعرض لاجراءات سرى وماهر وصدقى لحساب السراى للاخلال بنسبة تواجد الوفد فى مجلس الشيوخ . ويسجل « حسن يوسف » حامل اختام الملك ــ فى مذكراته على ص ٢٥١ :

طلبت مقابلة الملك لأمر عاجل فاستمهلنى ثم حدثنى تليفونيا . . فشرحت له وجهة

نظرى . . انه كملك دستورى (!) لامصلحة له فى أن يكون فى مجلس الشيوخ أغلبية وفدية ساحقة . وقد أنصت الملك إلى حديثى طويلا وأنا أدلل على مجهوداتنا منذ أن كان حسنين باشا رئيسا للديوان لايجاد توازن فى مجلس الشيوخ بين الأحزاب وبين المستقلين . . وفى النهاية قلت إننا قد نأسف يوما على هذا التصرف . .) .

كان تصحيح الوضع داخل مجلس الشيوخ بالنسبة للأغلبية الوفدية ، أمرًا واردا بعد عودة الوفد إلى الحكم فى يناير ١٩٥٠ ، ولكن مجىء مراسيم مجلس الشيوخ فى ظروف تداخلت فيها استقالة رئيس ديوان المحاسبة ، واستجواب « مصطفى مرعى » واثارة ماعرف بقضية (الأسلحة الفاسدة) والرغبة العارمة لدى الشارع المصرى كما أسلفنا ضد الملك أعطى انطباعا معينا ازاء الاستجواب وازاء المراسيم بمجلس الشيوخ .

الاستجواب والمراسيم

على الرغم من محاولة « حسن يوسف » تفسير استقالة « محمود محمد محمود » من رئاسة ديوان المحاسبة بعدم الانعام عليه بالباشاوية فى ديسمبر ١٩٤٩ فى عهد وزارة « حسين سرى » إلا أن الموقف الشجاع لرئيس ديوان المحاسبة من المبالغ التى صرفت لكريم ثابت المستشار الصحفى للملك من مستشفى المواساة ، واصراره على إدراج الأوراق الخاصة بالمستشفى فى التقرير السنوى . ثم اصراره بعد ذلك على الاستقالة (٢٠ أبريل ١٩٥٠) هى كلها مواقف تسجل لمحمود محمد محمود ، وتحسب له أيا كانت الدوافع الشخصية . وبالمثل فان السؤال الذى قدمه «الشيخ مصطفى مرعى» لرئيس مجلس الوزراء فى ٧ مايو ١٩٥٠ عن أسباب الاستقالة وهل الاستقالة مقصورة على موضوع مستشفى المواساة ؟ أم أنها تتصل بملاحظات أبداها ديوان المحاسبة على نفقات حرب فلسطين ؟ هو سؤال شجاع اسهم فى هز الثقة بالملك وبحاشيته ويتسق مع الاتجاه الوطنى العام . ولا يقلل من شأن السؤال الذى تحول إلى استجواب (٢٩ مايو ١٩٥٠) إن مصطفى مرعى سافر إلى أوروبا وأعلن الشيخ المحترم إبراهيم مدكور أنه يتبنى الاستجواب .

وفى ظل تلك الظروف تداخلت فى صورة واحدة المراسيم الخاصة بمجلس الشيوخ ، ثم تفجير موضوع (الأسلحة الفاسدة) بقلم « الأستاذ احسان عبد القدوس » وكانت مراسيم ١٧ يونيه ١٩٥٠ تقضى بتعيين على زكى العرابى رئيسا لمجلس الشيوخ بدلا من د . محمد حسين هيكل وأبطال عضوية إبراهيم عبد الهادى ومصطفى مرعى وآخرين ، وتعيين ٩١ عضوا وفديا و ١٠ أعضاء غير وفديين . وبعد اجراء انتخابات التجديد النصفى للمجلس فى مايو ١٩٥١ تحققت

الأغلبية المطلقة للوفد فى المجلس . وفى ١٧ أكتوبر ١٩٥٠ رفعت بعض الشخصيات السياسية عريضة إلى الملك فاروق وقعها إبراهيم عبد الهادى ومحمد حسين هيكل ، ومكرم عبيد ، وحافظ رمضان وعبد السلام الشاذلى ، وطه السباعى ، ومصطفى مرعى ، وعبد الرحمن الرافعى ، وإبراهيم دسوقى أباظة ، وأحمد عبد الغفار ، وعلى عبد الرازق ، ورشوان محفوظ ، وحامد محمود، ونجيب اسكندر ، وزكى ميخائيل بشارة ، والسيد سليم . وكان هذا الحشد أكبر تجمع من أحزاب الأحرار والسعديين والكتلة والوطنى لمواجهة حكومة الوفد ، وهو أحياء للتجمع نفسه الذى عمل فى أكتوبر ١٩٤٤ بأوامر من الملك لضرب الوفد . . ولكنهم هذه المرة يعيدون إلى ذاكرة الملك (أياما سعيدة كنتم فيها الراعى الصالح والرشيد .) ويهاجمون مراسيم يونية ١٩٥٠ . ثم يتحدثون عن العناصر التى تحجب العرش عن البلاد (لأن الاقدار قد أفسحت مكانا فى الحاشية الملكية لأشخاص حامت حول تصرفاتهم ظلال كثيفة من الشبهات هى الآن مدار التحقيق الخاص بأسلحة جيشنا الباسل) وها نحن قد وصلنا إلى عقدة هذا المقال وهى القضية التى عرفت بقضية الأسلحة الفاسدة .

الأسلحة الفاسدة

أريد هنا أن أكون واضحا ومحددا . . فاننى واحد من جيل صفق لمصطفى مرعى ولاحسان عبد القدوس ولكل من آثار مسألة (الأسلحة الفاسدة) ولكل من اشار بأصابع الاتهام للملك ولحاشية الملك . . وأنا هنا ماجئت بعد حوالى أربعين سنة لأسحب التصفيق أو لأعتذر عنه . . نريد فقط تحديد الوقائع . . دخل الجيش المصرى حرب فلسطين فى ١٥ مايو ١٩٤٨ فى ظل وزارة محمود فهمى النقراشى . . ولحقت الهزيمة بالجيش وبعد سنتين ، وفى ظل الحريات التى أتاحتها حكومة الوفد انفجرت حملة الدعاية التى تفسر الهزيمة بأن الأسلحة كانت فاسدة ! وحتى لايسيء البعض الفهم نقول تحديدا . . كان الملك فاروق فاسدا . . وكانت الحاشية فاسدة . . وكما تاجرت الحاشية بقوت الشعب وبحريات الشعب تاجرت بأسلحة الجيش وأثرت ثراء فاحشا . . الأسلحة لم تكن فاسدة . وأشير هنا فى هذا المقام إلى التحقيق الممتاز الذى نشره جمال بدوى فى حلقات ثلاث (٢٧ ديسمبر ١٩٨٤ ـ ٣ يناير ، ١٠ يناير ١٩٨٥) بعنوان (قصة أشهر استجواب برلمانى قبل الثورة ـ اسطورة الأسلحة الفاسدة) لقد أفاد الضباط الأحرار فائدة ممتازة من الحديث الملتهب حول ماسمى بالأسلحة الفاسدة . وكان عبد اللطيف البغدادى وحسن إبراهيم ومصطفى مرتجى ومحمد شوكت على صلة بمصطفى مرعى وقابل محسن عبد الخالق أمينة السعيد، وكان آخرون على صلة باحسان عبد القدوس . والتهب الشارع المصرى كله ضد الملك

وضد الحاشية . ووجد (الضباط الأحرار) فى القضية ورقة ناجحة لاثارة الضباط الشبان ضد العهد كله . وكان « احسان عبد القدوس » على صلة ما بعدد من الضباط الأحرار ، ويبدأ «الأستاذ احسان » فى إثارة الموضوع فى يوليو ١٩٤٩ . وقدم له (الضباط الأحرار) عددا من الوثائق تشير إلى بعض الأمراء ، وبعض كبار الضباط ، وزوجة أحد كبار الضباط ، وبعض رجال الأعمال . . كلهم متورطون فى صفقات مشبوهة للأسلحة وهذا كله يمكن ادراكه سياسيا حتى بدون وثائقه . . ولكن النقطة الرئيسية هى أن الأسلحة لم تكن فاسدة كما أشيع وقتذاك تضربها إلى الأمام فيرتد الرصاص إلى الخلف ! ويجدد « احسان » الحملة فى يونية ١٩٥٠ بعد أن قدم رئيس ديوان المحاسبة التقرير السنوى ، وبعد أن استقال فى (أبريل ١٩٥٠) كما أسلفنا ، وبعد ان ترك مصطفى مرعى الاستجواب ليتبناه الدكتور إبراهيم بيومى مدكور وسافر إلى أوروبا .

والنقطة الهامة هنا هى موقف حكومة الوفد من هذه القضية الخطيرة وهنا أشير إلى مذكرات حسن يوسف رجل الملك ص ٢٨٦ ـ ص ٢٩٠ يقول : (بدأت القصة بما نشرته مجلة روز اليوسف فى شهر يونيه ١٩٥٠ من أنباء خطيرة عن توريد أسلحة فاسدة للجيش المصرى أثناء حرب فلسطين اذ اتصل بى مصطفى نصرت وزير الحربية والبحرية وقال إنه سوف يبلغ النائب العام . . واستدعت النيابة رئيس التحرير الأستاذ احسان عبد القدوس لسماع أقواله فيما نشرته المجلة . . وبعد ثلاثة أشهر من بدء التحقيق زارنى فى مكتبى عبد الفتاح الطويل وزير العدل وفؤاد سراج الدين وزير الداخلية وقالا ان النائب العام أخبرهما بوجود قرائن بنسبة ٨٠٪ تدل على أن لبعض أفراد الحاشية الملكية صلة بصفقات الأسلحة التى ظهر فسادها . وانه يطلب التصريح بتفتيش منازل خمسة أشخاص من الموظفين ومراقبة تليفوناتهم . .)

ثم يقول حسن يوسف : (وضع النائب العام تليفونات المذكورين تحت المراقبة وراح يفتش منازلهم . . وقام جهلان ـ متعهد التوريدات للخاصة الملكية ـ بفتح الخزانة بحضور رئيس النيابة . واصل النائب العام تحقيقاته إلى أن طلب تسهيلا لعمله ، ضرورة تنحية حيدر باشا القائد العام للقوات المسلحة عن منصبه . كذلك طلب النائب العام اقالة عثمان المهدى رئيس هيئة أركان الحرب من منصبه ، واحالة ١٢ ضابطا إلى المعاش وكان له ما أراد .

لقد سمحت حكومة الوفد بنشر المقالات فى هذا الموضوع الحساس ، وتم ابعاد القائد العام للقوات المسلحة عن منصبه ، وتمت اقالة رئيس هيئة أركان الحرب من منصبه ، وتمت احالة ١٢ ضابطا كبيرا إلى المعاش . وتم تفتيش منازل رجال الحاشية الذين امتد إليهم التحقيق . . وبعد ذلك فى ٢٨ مارس ١٩٥١ صدر قرار بحفظ التحقيق . وقبل ان يسرع القارئ إلى أى تعليق نسجل ان النيابة بعد استيلاء الضباط الأحرار على السلطة فى يوليو ١٩٥٢ أعادت التحقيق فى أمر الأسلحة الفاسدة وانتهى التحقيق إلى الحفظ مرة أخرى .

رجال لاملائكة

وفى النهاية قد نختلف أو نتفق حول مصطفى مرعى الذى جاء من تراب الدلتا سنة ١٩٠٢ وعاد إليه فى ٧ نوفمبر ١٩٨٧ . ولكننا لانختلف حول صدقه مع نفسه وحول اخلاصه ، وحول شجاعته . اشترك فى وزارة « إبراهيم عبد الهادى » الأولى من ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ ـ ٢٥ يوليو ١٩٤٩ ، الوزارة التى اشتهرت بمطاردتها للإخوان المسلمين والشيوعيين ، واشتد السخط الشعبى على إبراهيم عبد الهادى ، ومع هذا فان « مصطفى مرعى » بضمير القاضى وهو وزير فى وزارة حسين سرى (٢٥ يوليو ـ ٣ نوفمبر ١٩٤٩) يعترض على قسوة الحكم الذى صدر ضد أحد زعماء الحركة الشيوعية ومع هذا أيضا يتقدم مصطفى مرعى المحامى الشجاع للدفاع عن إبراهيم عبد الهادى أمام محكمة الثورة . . وقف يدافع عن سياسى لايتمتع بعطف شعبى ، ويقارع الثورة فى عنفوان جموحها وبطشها .

لقد كان لمصطفى مرعى موقف واضح ومحدد من ثورة ٢٣ يوليو ومن ممارساتها ومن تجاوزاتها . وهو فى هذا الموقف صادق مع نفسه . كان صادقا مع نفسه عندما قاد حملة ضد فساد حاشية الملك وضد فساد الملك فلماذا يهاجمه البعض اذا كان صادقا مع نفسه وهو يختلف مع ٢٣ يوليو ؟

ويبدو أن الأستاذ أحمد أبو الفتح قد اقترب منه كثيرا وهو يشهد له بالوطنية والعلم والعدالة والإنسانية والصدق فى العقيدة الدينية والوفاء وحرصه على أداء حق الناس فى ماله الذى هو مال الله ، وعن صلابته فى مواجهة الطغاة وأذناب الطغاة . .

انصرف فى آخريات حياته إلى المشاركة فى أعمال مجمع اللغة العربية (١٩٧٣ ـ ١٩٨٧) وأسهم فى لجان القانون والشريعة والاقتصاد ، والألفاظ والأساليب . . ماذا نريد من رجال مصر أكثر من هذا ؟ هل نريدهم ملائكة ؟ دلونا عليهم ونحن نكتب عنهم .

الأسانيد :

١ ـ أحمد أبو الفتح . . . جريدة الوفد ١٢/ ١١/ ١٩٨٧ .
٢ ـ احسان عبد القدوس . . مجلة روز اليوسف (يوليو ١٩٤٩ ـ يونيه ١٩٥٠) .
٣ ـ جمال بدوى . . جريدة الوفد (٢٧/ ١٢/ ٨٤ ـ ٣/ ١/ ٨٥ ـ ١٠/ ١/ ١٩٨٥ .
٤ ـ حسن يوسف . . مذكرات .
٥ ـ مصطفى أمين . . جريدة الأخبار ٩/ ١١/ ١٩٨٧ .
٦ ـ د . مهدى علام . . المجمعيون فى خمسين عاما .

المستشار ممتاز نصار



الجماعة القيادية للهيئات القضائية

محضر جلسة ٢٨/ ٤/ ١٩٦٩

تم الاجتماع فى منزل السيد الوزير محمد أبو نصير فى تمام الساعة ٣٠ر٦ مساء وحضره السادة على نور الدين ، محمد الصادق مهدى ، عبد الحميد يونس ، على شنب ، . إبراهيم هويدى ، عبد الحميد الجندى ، اعتذر عن الحضور السيد عمر شريف لمرضه .

١ ـ استهل السيد الوزير بانه يتعين وضع خطة متضمنة أهدافا ووسائل ومتابعة لهذا التنظيم ، وذلك فى برنامج زمنى ينتهى فى مدة سنة وفى رأيه ان الأهداف تتمثل فى عنصرين :

(أ) تحطيم عناصر الثورة المضادة داخل القضاء والتى تتجمع بجميع فئاتها بين رجعيين وإخوان مسلمين وانتهازيين حول ممتاز نصار على أساس إنه القوة التى تعارض الحكومة . .

(ب) رفع مستوى الادراك السياسى والقومى لرجال القضاء . وأقر (المجتمعين) هذين الهدفين .

٢ ـ وبالنسبة للوسائل اقترح السيد الوزير كخطوة أولى إعداد مشروع قانون يقدم عن طريق أعضاء مجلس الأمة بإباحة التبادل بين أعضاء الهيئات المختلفة . . ومبررات هذا القانون الآتى :

(أ) . . . . . . (ب) . . . . . ، (جـ) . . . . ، (د) . (هـ) تحطيم تجمع القوى المضادة والمنظمة والمركزة داخل القضاء والنيابة العامة .

وقد وافق المجتمعون على هذا الاقتراح بما يحققه من فوائد كثيرة فى نطاق الأهداف الموضوعة . على أن تقوم اللجنة باعداد مشروع القانون وعرضه على القيادة السياسية .

هذا هو موجز لمحضر التنظيم السرى داخل الهيئة القضائية نقلته عن صفحتى (٩٢ ، ٩٣) من كتاب (معركة العدالة فى مصر) للمستشار ممتاز نصار . . وقد أوجزته بدقة بما فيه الخطأ النحوى فى الفقرة (ب) إذ وردت كلمة (المجتمعين) وصحتها لغويا (المجتمعون) وهى على الأرجح خطأ الذين كتبوا التقرير ، وليست خطأ المستشار نصار الذى نقل عن التقرير ، وهوالذى عمل فى مكتب السكرتير العام للوفد « مكرم عبيد باشا » لمدة ست سنوات . . والتقرير ملئ بعبارات التحطيم وعناصر الثورة المضادة والرجعيين والانتهازيين ، ورفع الإدراك السياسى إلى آخر هذه الألفاظ التى احترفها كتبة التقارير السرية من أعضاء التنظيم السرى ، الذى عرف بالتنظيم الطليعى . . ولحين العودة إلى اقتراح « السيد الوزير محمد أبو نصير » والتركيز على تحطيم «المستشار ممتاز نصار » والذين تجمعوا حوله من « رجعيين وإخوان مسلمين وانتهازيين » ننظر قليلا فى هذا التنظيم الطليعى . .

التنظيم الطليعى

ونتخذ هنا مجال القضاء ، وهو أكثر المجالات هيبة ووقارا ، لنرى ماذا كان يحدث من التنظيم الطليعى ، أو طليعة الاشتراكيين ، أو التنظيم السرى ، أو النواة الاشتراكية الصلبة كما كان يسميه كتبة التقارير تبريرا لعمليات التجسس على زملائهم . . يروى لنا المستشار « ممتاز نصار » فى كتابه الذى أشرنا إليه من قبل فى صفحتى ٧١ ، ٧٢ قصة الاعتداء على أحد وكلاء النيابة ، واجتماع مجلس إدارة نادى القضاة فى ٢١ مارس سنة ١٩٦٩ ، واجتماع المجلس محتجا مع وزير العدل السابق (محمد أبو نصير) واستنكار الوزير لهذا الاعتداء . . وفى مقابلة انفرادية بين « ممتاز نصار » ووزير العدل أبلغه الوزير بالتقرير الذى كتبه أحد أعضاء التنظيم المندسين بين القضاة ، وأن الرئيس جمال عبد الناصر شخصيا واجه وزير العدل بالتقرير الذى كتبه « القاضى فلان » .

وورد على صفحة ٩١ (إن بعض أفراد هذا التنظيم لم يكتف بمراقبة القضاة من زملائهم واعداد التقارير عنهم بل راحوا يتلمسون الحصول على تقارير عن المواطنين ، وقد حدث ان ارتدى أحد أفراد التنظيم السرى فى القضاء جلبابا وتعقب مواطنين أبرياء كانوا يتحدثون فى شئون عامة لا علاقة لها بالقضاء وسجل أحاديثهم ورفعها إلى ذوى الشأن !

ويعقب الرجل المحترم عظيم الاحترام ، الرجل الشهم المستشار « ممتاز نصار » قائلا (ومثل هذا السلوك يحتم محاكمة أعضاء الجهاز السرى فى القضاء لأنه لايسوغ تحت أى ظرف من الظروف ان يبقى فى القضاء من يتصف بمثل هذا السلوك) .

الكشف عن التنظيم

وإذا كان المحامى الصلب ، والقاضى النزيه ، والنائب المحترم عظيم الاحترام قد تصدى لعناصر التنظيم السرى داخل القضاة ، وطالب بمحاكمتهم لأنه لايسوغ تحت أى ظرف من الظروف ان يتحول (القاضى) إلى (عسس) يرتدى الجلباب ويتسقط اخبار الناس ، وهذا الذى كان يحدث فى القضاء كان يحدث أكثر منه مائة مرة داخل الأنشطة الأخرى ، داخل الصحف ، وداخل النقابات المهنية ، وداخل التجمعات العمالية ويفاجأ الناس بعناصر لاهنا ولا هناك قفزت إلى المناصب العليا ، وتصدت لقيادة المجالات الثقافية والإعلامية وغيرها ويرطنون بعبارات . . نواة العمل الاشتراكى . . الطليعة الاشتراكية . . التصدى للثورة المضادة وليس هذا كله إلا لستر كتابة التقارير عن زملائهم وتغطية أنفسهم باتهام العناصر المناورة لهم بالرجعية وبالعمالة .

وأعود اليوم إلى مقال لى فى ٢٧ يوليو ١٩٧٨ بجريدة الأخبار كان سندى فيه ما كتبه « المستشار ممتاز نصار » فى كتابه (معركة العدالة فى مصر) ورأيت فى هذا المقال ضرورة إعلان أسماء ذلك التنظيم إذا أردنا فعلا دعم الديمقراطية ، لأن عناصر هذا التنظيم لم تزل موجودة داخل القضاء ، وداخل الصحف ، وداخل القطاع العام وداخل الحزب الحاكم والأحزاب المعارضة ، بل وداخل الحكومة ذاتها . . والكشف عن هذه العناصر يلقى الأضواء عليها وعلى أساليبها داخل الأنشطة المختلفة . . وهى لم تزل ذات أصوات عالية فى كثير من المجالات وفى كثير من مواقع الإنتاج ، وهو ضرورة ديمقراطية لنزع الفتيل عن هذه القنابل الموقوتة ، ويكفى ان نعرف هنا ان أعضاء أمانة التنظيم الطليعى الذى تشكل بأمر مباشر مع « جمال عبد الناصر » هم : «شعراوى جمعة ، وسعد زايد ، وحلمى السعيد ، ومحمد فايق ، وسامى شرف ، وأحمد شهيب ، وأحمد كامل ، ويوسف غزولى ، ومحمد عروق ، ومحمود أمين العالم ، والسكرتير أسعد خليل » ، وهى أسماء واضحة الدلالة أمام المواطنين .

المناضل الممتاز

ومثل هذا التنظيم السرى وبكل السلطات التى فى يده ، أجهزة الأمن المختلفة ، أجهزة الإعلام ، أجهزة الدعاية الفكرية كان يلقى بثقله داخل القضاء فيتصدى له « ممتاز نصار » والقضاة الشرفاء الذين يحرصون على استقلال القضاء . وحماية لاستقلال القضاء التقى « ممتاز نصار » بالسيد « على صبرى » وبالسيد « شعراوى جمعة » وبالسيد « محمد حسنين هيكل » وبالسيد « كمال رفعت » والجميع أيدوه فى رأيه ، والجميع نقلوا رأيه إلى « الرئيس جمال عبد الناصر» . . ولكن يبدو أن أسلوب التنظيم الطليعى كان له شأن آخر . . التقارير تكتب وترفع

وتصعد على حد تعبير (الجماعات القيادية) فى ذلك الوقت . . وتصب التقارير لدى (الأمانة العامة) وبعدها تصدر القرارات الحاسمة التى لا راد لهامن القيادة السياسية . وحدثت القارعة فى يوم ٣١ أغسطس سنة ١٩٦٩ وفصل القضاة بغير الطريق التأديبى ، وفصل أعضاء الهيئات القضائية الأخرى ، وفى ذات اليوم مساء ومنذ الرابعة بعد الظهر انطلق عدد وفير من راكبى الموتوسيكلات إلى منازل هؤلاء القضاة يحملون إليهم ورقة مطبوعة بنموذج متماثل حوى (انتصار النظام فى معركة اليمن مثلا أو فى معركة الانفصال أو الانتصار فى ٥ يونيه) أسف حوى صدور القرار بقانون رقم ٨٣ لسنة ١٩٦٩ والقرارات المنفذة له بانهاء خدمة هؤلاء القضاة ، وكان التوقيع على هذا النموذج بختم وزير العدل الجديد « الأستاذ مصطفى كامل إسماعيل » الذى لم يكن قد حلف اليمين بعد ! وقد استقال « السيد محمد أبو نصير » للخداع ـ على حد تعبير الدكتور محمد حلمى مراد ـ بعد أن اعد الطبخة كلها .

وهكذا فصل قضاة مصر لأنهم استجابوا لرئيس ناديهم المنتخب فى عدم الانضمام للاتحاد الاشتراكى حفاظا على استقلال القضاء وكان معه نائب رئيس محكمة النقض الآن « يحيى الرفاعى » ، ويومها عرضت الحكومة رشاوى كثيرة على رجال القضاء لعلهم يعدلون عن معارضتهم ، وأمسك المستشار « محمد أبو علم » الميكروفون وأعلن أن رجال القضاء يرفضون الرشاوى وعليهم واجبات وليست لهم حقوق ، وجرت مذبحة القضاة ، وعزل ممتاز نصار ، ويحيى الرفاعى ، وتلقى محمد أبو علم قرار العزل وهو فى الخارج .

خلفيات القارعة

والقارعة التى وقعت فى ٣١ أغسطس ١٩٦٩ والتى نتج عنها عزل « ممتاز نصار » هو ولفيف من القضاة لم تكن بنت يومها ، وإنما هى حادثة لها تاريخ كما يقولون . . ففى عام ١٩٦٣ فكر السيد وزير العدل فى تعديل قانون استقلال القضاء على وجه يزيد من سلطان وزارة العدل فى الإشراف والهيمنة على القضاء بما يؤثر فى استقلاله . فاعترض مجلس إدارة نادى القضاة على هذا التفكير ، وأبرق « ممتاز نصار » إلى « الرئيس جمال عبد الناصر » فى أول أبريل لايقاف هذا المشروع ومنعه من الصدور ، وكانت النتيجة ان صدر قرار فى ١٣ أغسطس سنة ١٩٦٣ بحل مجلس الإدارة المنتخب برئاسة « ممتاز نصار » وحل محله مجلس مؤقت معين ، ولكن فى يونيه سنة ١٩٦٤ أعيد انتخاب « ممتاز نصار » رئيسا حتى أطيح بالنادى وبالقضاة فى ٣١ أغسطس ١٩٦٩ .

وبعودة المجلس المنتخب وبعودة رئيسه المنتخب أيضا أمكن الغاء القيود التى فرضت على القضاء وصدر قانون السلطة القضائية رقم ٤٣ لسنة ١٩٦٥ محققا لرجال القضاء ضمانات

الاستقلال وتعديـل مرتباتهم بالـزيادة التى تحقق لهم العيـش الكريم ، وهذا هـو ما اسماه التنظيم الطليعى وعناصره السريـة وأمانته العامة (بالـرجعية وبالثورة المضادة ، وبـالرجعيين والانتهازيين الذين يلتفون حول رئيس ناديهم « ممتاز نصار » .

ثم حلـت بالبلاد « كـارثة ٥ يونية ١٩٦٧ » وبـدلا من حديـث المسئولين عن أسبـاب الهزيمة والتصدى بشجاعـة لمسئولية الهزيمة كما يحدث فى البـلاد المتحضرة ، وبدلا من التغير الجذرى فى مواجهة هذه الكارثة بدلا من هذا كلـه ، كتب السيد على صبرى عدة مقالات متتالية فى ستة أيام وكأنـه يذكرنـا بحرب الأيام الستة التـى حلت فيها النكبـة على مصر . . وكانت هـذه المقالات فى جريـدة الجمهوريـة يتحدث فيها « السيـد على صبرى » عن القضـاء ووجوب خضوعـه للرقـابة الشعبية وانتمائه للتنظيم السياسى وكأن القضاة هم السبب فى كارثة ٥ يونية .

وواجه نـادى القضاة وعلى رأسه « ممتـاز نصار » هـذا الخداع واللعب بعقول المواطنين بـالبيان الذى عرف ببيـان ٢٨ مارس ١٩٦٨ الذى رفض أية تنـازلات سياسية من جانـب الدولة تحت أى ضغوط ، ودعـا إلى دعم الجبهة الـداخلية ، وشدد على سيادة القـانون ليأمـن جميع المواطنين على حرياتهم وحـرماتهم ، وركز على قيام سلطة قضائيـة حرة مستقلة يؤكد الـدستور استقلالها وضمان عدم عزل القضاة ، وأشار إلى أن النيابة العامة جزء لا يتجزأ من السلطة القضائية .

وقد حـاول « السيد شعـراوى جمعة » وقـف اصدار هـذا البيان ولكـن دون جدوى وصـدرت الأوامر للصحف « القومية دائما » بعدم نشر البيان ، فقـام النادى بطبع البيان وتوزيعه على رجـال القضـاء جميعا ، ولم يكن أمام التنظيم السرى ، والتنظيم السيـاسى، والقيادة السياسية إلا القارعة فى ٣١ أغسطس ١٩٦٩ .

رجعـة إلى الـوراء

هذا الوطنى النادر والقاضى النزيه والمحامى الصلب والنائب المحترم عظيم الاحترام ، (وهى كلها عبارات الزميل الكبير كامل زهيرى) هو نبت بيت وطنى وبيئة مناضلة .

ولد « ممتاز محمد نصار » فى البدارى محافظة أسيـوط فى ٩ نوفمبر ١٩١٢ ، والذين يقتربون من السياسة يعرفـون أن أسيوط كمحافظة تتميز بالعصبيات وبـالأسر الكبيرة فى العمل السياسى . . ومن هذه الأسرة (النـواصر) التى ينتمى إليها الراحـل الكبير وهى أسرة معروفة بانتمائهـا للوفد ، ولظروف مختلفـة ، فإن محافظة أسيـوط كان يغلـب عليها طابـع الميل إلى الوفـد حتى نـازع حزب الأحرار الدستوريين الوفد هناك وذلك لأن أحد كبار رجال مصر منذ أيام حزب الأمة و (الجريـدة)

هو « محمـود باشا سليمان » والـد رئيس حـزب الأحرار ورئيس وزراء مصر فى فترة معينـة . « محمد باشا محمود » له أسرة معروفة فى المحافظة . . ولد « ممتاز نصار » فى بيئة حزبية وفى مناخ سياسى ، وبالنسبـة للبدارى بـالذات فهـى معروفـة بأحـداث التعذيـب التى وقعـت فيها أيـام « إسماعيل صدقى» والتى دفع ثمنها « مأمور البدارى » ، نشأ « ممتاز نصار » إذن فى بيئة يغلب عليها الصراع الحزبى العنيف .

تلقى تعليمـه الابتدائى فى مدرسة البـدارى ، وحصل على شهادتـى الكفاءة والبكالوريـا من مدرسة أسيوط الثانوية فى فترة كانت تعد فيها مدينة أسيوط معقلا من معاقل الوفد ، من الصعب على أى حزب آخر اختراقـه . . ووالده « محمد نصار » عمدة البـدارى كان عضوا بالهيئة الـوفدية ومرشح الوفد فى انتخابات ١٩٣٨ ، ١٩٤٢ عن دائرة البدارى بأسيوط .

وقد قدر لممتاز نصار أن يقترب بطريقة ما مـن أحداث البدارى ، حيث تركت هذه الأحداث بصماتها على تفكيره وعلى وجدانه . كيف ؟

أحـداث البدارى

فى غضون سنة ١٩٣١ كان وقتهـا فى السنة الأخيرة بمدرسة أسيوط الثانويـة وهى مدرسة كبيرة ضخمة بالقرب من خزان أسيوط وحدث أن قتل مأمور مركز البدارى « المرحوم يوسف الشافعى » واتهم فى قتله « أحمد جعيـدى حسين » وكان زميـلا لممتاز بـالمدرسة الابتـدائية بـالبدارى والتحـق بمدرسـة الفنون والصنـايع القـديمة ولم يكمل دراستـه فيها وعـاد إلى بلدتـه البدارى ، وقـاومت البدارى طغيان « اسماعيل صدقى » وباشرت الإدارة تعذيب الأهالى ومنهم أسرة « أحمد جعيدى» ، وأحمد نفسه قتل المأمور مع سبق الأصرار والترصد . وهـاجت السلطات وماجت ، وأشار المرحوم « زيان حسنى » بأصـابع الاتهام إلى العمدة « المرحوم محمد نصار » وإلى أسرتـه على زعم انهم قتلوا المأمور ردا على إيقاف العمـدة ، وكانت حكومة « صـدقى » قد أوقفت عمـدة البدارى ، وعددا آخر من العمـد بمديرية أسيوط ، وغيرها مـن البلاد لعدم تعاونهم مع الحكومـة التى اعتدت على دستور ١٩٢٣ ، وفـرضت دستورا عـرف « بدستور صدقـى » ، وامتد التحقيق مـع أسرة العمدة «محمـد نصار » مـن الغروب حتـى منتصف الليـل دون أن يظهـر دليل واحـد على احد مـن أسرة العمـدة الموقوف ، وحضر وقتهـا رئيس النيـابة « المرحـوم عبـد اللطيف محمـود » الذى وصـل إلى منصب الوزير ، وبرفقته مديـر المديرية « المرحوم أحمد فهمى حسين » وادركا ان التحقيق يسير فى طريق مسدود ، وادركا ان القاتل بالضرورة شخص آخر وان الموقف هو فى يد العمدة الموقوف عن

العمل ، فأرسلا لاستدعاء العمدة « محمد نصار » وطلبا منه المعاونة فى القضية فطلب العمدة اخلاء سبيل كل من قبض عليه ولم يثبت عليه أى دليل . وبالفعل تم اخلاء سبيل جميع الذين القى القبض عليهم ، وبعد ساعتين استطاع العمدة اقناع أهل « أحمد جعيدى » بتسليم نفسه وتسليم السلاح الذى استخدمه فى قتل المأمور والدفاع عن نفسه بالتعذيب الوحشى الذى وقع عليه والذى أهدر آدميته وكرامته ، وبعد جولات قضائية مختلفة انتهت القضية بالحكم على « أحمد جعيدى » بالأشغال الشاقة المؤبدة بدلا من عقوبة الاعدام .

وهذه الوقائع كلها تركت آثارها على نفس « ممتاز نصار » فقد نشأ فى بيئة قاومت ارهاب «صدقى باشا » ونشأ فى أسرة تدافع عن دستور ١٩٢٣ ، ورأى والده يفقد وظيفته الهامة ولا يتعاون مع حكومة تعادى حزب الأغلبية الذى ينتمى إليه ، وكما يقول هو فى كتابه (وهذه الصورة أثرت فى تفكيرى وقوت إيمانى بأن الاعتداء على حرية أى مواطن جريمة لاتغتفر وهى توازى تماما جريمة القتل . .) .

محاميا ووكيلا للنائب العام

ويتخرج فى كلية الحقوق سنة ١٩٣٦ ، ويعمل محاميا فى مكتب « المرحوم الأستاذ مكرم عبيد » والذى عرف ببلاغته وبراعته الخطابية وتمكنه من القانون وأسلوبه المتميز فى المحاكم وأمام القضاء ، وبالطبع فان هذه المميزات كلها انعكست على المحامى الشاب « ممتاز نصار » فضلا عن أن « مكرم باشا » كان فى ذلك الوقت السكرتير العام للوفد ، ومنفذ سياسته ، ودافع حركته ، وبالقطع كان مكتبه ملتقى لفعاليات الوفد من كل مكان .

وفى ٤ مايو سنة ١٩٤٢ يلتحق « ممتاز » بالنيابة العامة وكيلا وكان النائب العام وقتها «المستشار عبد الرحمن الطوير » الذى عرف بحرصه على كرامة معاونيه . . التحق بالنيابة العامة إذن وخلفه ميراث لمقاومة الظلم فى القرية ، وانتماء وفدى فى الأسرة ، واستعداد للتضحية من والده العمدة ، وممارسة للعمل فى مكتب السكرتير العام للوفد . . وأمامه شخصية النائب العام الذى يعتز بكرامته وكرامة معاونيه .

وتتوالى أمامه الصور التى تزيده تمسكا بالنزاهة والكرامة . . فى غضون سنة ١٩٤٢ قام أحد السادة وكلاء النيابة وهو المستشار « صدقى البشبيشى » بتحقيق فى مستشفى قصر العينى ، وحدث ان وجه إليه أحد الأطباء عبارة اعتبرها اهانة له ، وحقق معه وأمر بالقبض عليه ، وتدخل وزير الصحة وقتها وهو « المرحوم الدكتور عبد الواحد الوكيل » وتمسك النائب العام بتنفيذ القانون ، وانتصر « المرحوم مصطفى النحاس » لكرامة النيابة ، ويقول هو فى ذلك الشأن (وهذه

الصورة قد أثرت فى نفسى وجعلتنى دائما اتصرف فى عملى بما اقتنع انه الحق والعدل . .) .

وصورة أخرى حدثت فى غضون ١٩٤٣ ، وفى إحدى نيابات المنيا وكان وقتها « الأستاذ فخرى عبد النبى » وزير العدل الأسبق معاونا للنيابة وحدث ان وجه إليه حكمدار البوليس عبارة اعتبرها ماسة بكرامته ، وتدخل « الوزير المرحوم صبرى أبو علم » لدى رئيس الوزراء « المرحوم مصطفى النحاس » وكان وزيرا للداخلية فأمر بنقل الحكمدار فورا لثبوت خطئه ، ويقول هو تعليقا على هذا . . (وهذه أمجاد النيابة العامة القديمة وعلى الجيل الحالى أن يحافظ على هذه الأمجاد وأن يتمثل بها . .) .

ليس غريبا إذن ، وهو وكيل النائب العام أن يرفض توجيه تهمة العيب فى الذات الملكية للأساتذة فتحى رضوان وأحمد حسين وإبراهيم شكرى ، وليس غريبا ان يرفض وزير العدل فى حكومة الوفد وقتها تدخل السّراى ضد وكيل النيابة الشاب .

فى محراب القضاء

لقد أمضى أغلب حياته فى منصب القاضى حتى وصل إلى أعلى مناصب القضاء . وكسب بنزاهته القانونية والفكرية هيبة كبيرة جعلت كل مستمعيه ينصتون إليه باحترام ليعرفوا رأيه الذى لم يعرف الهوى أو المصلحة الشخصية .

ويسجل التاريخ لهذا الوطنى العظيم ــ حتى لو اختلفا معه فى الموقف ــ نزاهة واستقلالا وثباتا فى مواقفه الواضحة من تطبيق مبادئ الدستور ومواد القانون ونصوص لائحة مجلس الشعب، ومن هضبة الأهرام ، وقانون الطوارئ ، وقانون العيب ، وقانون الانتخاب ، والقوانين الاستثنائية وسائر القوانين سيئة السمعة .

وفى الساعة الثامنة من صباح الثلاثاء ١٤ أبريل ١٩٨٧ ميلادية لبى نداء ربه المحامى القدير ووكيل النيابة الوطنى ، والقاضى النزيه ، ورئيس مجلس ادارة نادى القضاة المنتخب ، والذى رفض انضمام القضاة إلى الاتحاد الاشتراكى ، ونائب الشعب الذى تمسك بالدستور والقانون واللائحة « المستشار ممتاز محمد نصار » ففقدت مصر ابنا بارا ووطنيا محترما عظيم الاحترام!

الأسانيد :

١ ـ د . إسماعيل صبرى عبد الله . . الأهالى ٢٢ أبريل ١٩٨٧ .

٢ ـ كامل زهيرى . . الجمهورية ١٧ أبريل ١٩٨٧ .

٣ ـ لمعى المطيعى . . الأخبار ٢٧ يوليو ١٩٧٨ (التنظيم الطليعى) .

٤ ـ ممتاز نصار . . معركة العدالة فى مصر نوفمبر ١٩٧٤ .



مصطفى كامل

فى الأربعينات أو الأربعينيات ، ونحن طلبة فى جامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا) كنا نفاجأ فى الصباح بعبارات على الجدران لانفهم لها معنى . ولانعرف لها مناسبة ، ولا نقف لها على مصدر مثل عبارة (شرم برم) . وتتناقل الأفواه هذه العبارات مجهولة المعنى والنسب والمصدر . . وكل يفسرها على هواه .

وفى الشهر الماضى ، كنا نستيقظ لنقرأ على الصفحة الأولى من جرائدنا القومية عبارة موحدة الصيغة ، مرة بالبنط الأحمر ومرة بالبنط الأسود تقول أن جمعية للثقافة سوف تقيم احتفالا بذكرى «الزعيم مصطفى كامل » ولم يعرف أحد هذه الجمعية ، ولا أين مقرها ، ولا موعد الاحتفال ولا ما المناسبة . ولا نعرف حتى الآن هل الاحتفال أقيم أم لا ؟

وعلى الرغم من ان زعيما مثل « مصطفى كامل » ليس فى حاجة إلى مناسبة معينة للاحتفال بذكراه أو للحديث عنه ، إلا أن الناس حتى تاريخ نشر السطور الحالية تسأل ما الحكاية ؟

وعدنا إلى التواريخ فى حياة « مصطفى كامل » لم نجد تاريخا واحدا يتفق مع موعد الاحتفال به حسب الإعلان المجهول فى الصفحات الأولى من جرائدنا القومية ، أو الاتصال المرئية والمسموعة . . فتاريخ ميلاده (٤ أغسطس ١٨٧٤) وتاريخ وفاته (فبراير ١٩٠٨) وبينهما تواريخ كثيرة ، وتاريخ حصوله على الشهادة الابتدائية فى يونية ١٨٨٧ ، وتاريخ حصوله على التوجيهية (الثانوية العامة) فى يونية ١٨٩١ وتاريخ حصوله على شهادة الحقوق فى نوفمبر ١٨٩٤ من جامعة تولوز الفرنسية . وحتى تاريخ اصداره العدد الأول من مجلة (المدرسة) كان فى ١٨ فبراير ١٨٩٣ . وعندما سافر قاصدا إلى فرنسا للدعاية للقضية الوطنية على نفقات « الخديو عباس الثانى » كان هذا السفر فى ١٣ أبريل ١٨٩٥ . وفى النهاية أعلن رسميا عن الحزب الوطنى فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ .

وحتى لا أطيل فاننى لم اجد تاريخا واحدا لا فى مولده ، أو وفاته أو دراسته أو فى سفره أو فى اصدار جريدة اللواء مثلا (٢ يناير ١٩٠٠) يفسر لنا هذه الاعلانات الغامضة عن الاحتفال بذكرى لمصطفى كامل ، ولم يصدر بعدها بيان فى سطور قليلة يفسر لنا لماذا لم يقم مثل هذا الاحتفال .

ومهما يكن من أمر فان « مصطفى كامل » قد توفى فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ ، أى إنه مرت على وفاته ثمانون عاما ، وها نحن نكتب عنه فى هذه المناسبة التاريخية .

وإذا ما تحدثنا عن « مصطفى كامل » فسوف يكون الحديث بالمقارنة ضرورة عن « محمد فريد» ، وإذا تحدثنا عن « محمد فريد» فسوف يكون الحديث بالضرورة عن « مصطفى كامل » . كما ان الحديث سوف يكون أكثر ضرورة عن الحزب الوطنى وأزمته .

الخديو هو الأزمة

وفى تقديرنا ان أزمة الحزب الوطنى ولدت معه وهو جنين منذ علاقة « مصطفى كامل » بالخديو عباس الثانى الذى تولى السلطة فى ١٦ يناير ١٨٩٢ عقب وفاة الخديو توفيق (٧ يناير ١٨٩٢) وكان عمر (عباس) ١٧ عاما وعمر « مصطفى » ١٨ سنة واظهر الشاب « عباس » عاطفة مصرية وطنية وان كان « اللورد كرومر » يعتقد انه (مناور بالفطرة) .

واتصل « عباس » سنة ١٨٩٦ بأحمد لطفى السيد الذى كان قد شكل جمعية سرية (لتحرير مصر) مع زميله وصديقه « عبد العزيز فهمى » وفى السنة نفسها رتب « مصطفى كامل » اجتماعا بين « الخديو عباس » وأحمد لطفى السيد . ثم تألفت جمعية سرية برياسة « الخديو عباس » تحت اسم (الحزب الوطنى) ضمت « أحمد لطفى السيد ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، واسماعيل الشيمى («ياور الخديو » ومحمد عثمان (والد أمين عثمان) ولبيب محرم (شقيق عثمان محرم) . وكان لأعضاء الجمعية السرية اسماء حركية مستعارة فكان (الشيخ) اسما للخديو ، و (أبو الفداء) اسما لمصطفى كامل . و (أبو مسلم) اسما لأحمد لطفى السيد .

وإن كانت هذه الجمعية السرية التى سميت بالحزب الوطنى ليست هى بذاتها الحزب الوطنى الذى أعلنه « مصطفى كامل » رسميا فى ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧ ، إلا أن هذا الأمر يوضح أن نشاط مصطفى كامل الحزبى بدأ تحت ولاية (الخديو) وبمعونته المالية ، وأن (الحزب الوطنى) بدأ برياسة الخديو . وان تيار الحزب الوطنى بدأ منذ ١٨٩٦ ودخلت عليه بطبيعة الحال تغيرات كثيرة إلى أن أعلن رسميا كحزب علنى له لائحة وله برنامج وله لجنة إدارية وقيادة .

والصلة قديمة بين « عباس » و «مصطفى » وكان واسطتها « عبد الرحيم أحمد » ، وسافر «مصطفى كامل » فى ١٣ أبريل ١٨٩٥ للدعاية للقضية الوطنية فى فرنسا على نفقة « الخديو » كما كان « عباس » ينسق أيضا بحذر مع فرنسا ضد الانجليز ويبدو أن « الخديو » طلب أن يعود «مصطفى » إلى مصر فى تلك السنة ، ويتضح من خطاب أرسله « مصطفى » إلى صديقه « محمد فؤاد سليم » فى ١٦ أكتوبر ١٨٩٥ أن « الخديو » لم يرسل له قدرا كافيا من المال ، وانه صمم على عدم رجوعه إلى مصر ويطلب من اصدقائه باسم الوطن أن يمدوه بالمال . ومن خطاباته إلى صديقه « عبد الرحيم أحمد » وكيل الشئون العربية بالقصر الخديوى يتحدث عن نفاد المال الذى سلمه إليه وعن حاجته إلى مبالغ جديدة .

ويبدو ان سلطات الاحتلال نبهت « الخديو عباس » إلى الدعاية المصرية فى فرنسا ضد الانجليز سواء تلك التى يقوم بها مصطفى كامل أو أصدقاء الخديو من الفرنسيين فيكف الخديو عن ارسال المال إلى مصطفى ، واضطر « مصطفى كامل » إلى العودة فى ٩ يناير ١٨٩٦ ولم يقابله الخديو بعد عودته بل تجاهل التماسات مصطفى بطلب المقابلة .

وعادت العلاقات ودية مرة أخرى إلى ان تشكلت الجمعية السرية التى أشرنا إليها ونريد أن نقول أن علاقة « مصطفى كامل» بالخديو عباس حلمى الثانى والتى كان يتولى فيها « عباس » الانفاق على جهود مصطفى كامل للدعاية فى مصر كانت تتعرض منذ البداية للتقدم وللتراجع حسب ظروف الخديو نفسه أو حسب مصالحه فإذا كان « الخديو » على ود مع سلطات الاحتلال منع المال عن « مصطفى كامل » وامتنع عن مقابلته . وسجل « محمد فريد » فى مذكراته انه اكتشف فى مرات كثيرة ان « مصطفى كامل » كان يخفى عنه الأموال التى يأخذها من الخديو . واشار أيضا إلى أن عددا من أعضاء الحزب كان على اتصال بالخديو لصالحهم الشخصى .

سنة الحسم

وظلت العلاقة بين مصطفى كامل والخديو عباس بين شد وجذب تحكمها مواقف الخديو ومصالحه كما قلنا إلى أن أعلن «مصطفى كامل » فى رسالة له إلى « عباس الثانى » مؤرخة فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٠٤ (رفعت إلى مقامكم السامى أن الحالة السياسية الحاضرة تقضى على أن أكون بعيدا عن فخامتكم وان اتحمل وحدى مسئولية الخطة التى اتبعها نحو الاحتلال والمحتلين . .) . وهذه السنة ١٩٠٤ سوف يكون لها شأن فى تاريخ الحزب الوطنى فهى السنة التى بدأ فيها « محمد فريد » نشاطه السياسى من الناحية الفعلية ، وهى سنة الوفاق الانجليزى الفرنسى . وليس معنى هذا ان « عباس الثانى » قد كف يده داخل الحزب الوطنى ، وإنما كانت له كما أشرنا علاقات

خاصة بعدد من قيادات الحزب الوطني امتدت إلى عهد رئاسة « محمد فريد » للحزب كما أن عباس لجأ إلى تكثيف علاقاته هذه لتشديد قبضته على الحزب وعلى صحافة الحزب . وهناك قرائن كثيرة على أن « على فهمى كامل » شقيق « مصطفى كامل » كان فى مقدمة عناصر الحزب الوطنى التى لها علاقات خاصة بالخديو ، وتردد انه « أى على فهمى » سلم الخديو عقب وفاة (مصطفى كامل) الأوراق التى تثبت الصلات الخاصة بين الخديو ومصطفى كامل . ويبدو من مراسلات مصطفى كامل انه كان حريصا بدوره على اخفاء طبيعة تلك العلاقة فيقول فى رسالته إلى الخديو المؤرخة فى ١٦ يناير ١٨٩٦ (وقبل الختام . . أسأل سموكم ارسال أمين من اتباعكم أسلم إليه كل المراسلات التى أرسلها إلى رجال المعية مدة اقامتى فى أوروبا إذ انى اخاف ضياعها أو استيلاء البوليس عليها إذا فتش عندى مما يكون وراءه كدر سموكم . .)

لم تكن العلاقة بين مصطفى كامل وعباس حلمى خيرا كلها على الحزب الوطنى ، وتستطيع ان تقول ان « مصطفى كامل » بسبب هذه العلاقة كان يجارى فى عدد من المواقف كموقف «مصطفى كامل » من الثورة العرابية ، ومواقف مصطفى كامل من الدولة العثمانية ، وموقفه من فرنسا ، بل ان موقفه من حركة تحرير المرأة المصرية ، وهجوم مصطفى كامل على قاسم أمين كان حسب تعبير سعد زغلول فى مذكراته (تقربا إلى الباب العالى ونفاقا لذوى الأفكار المتأخرة) .

تركيا وفرنسا

واقترب « الخديو عباس حلمى » من تركيا بحذر وحرص شديدين تاركا لمصطفى كامل التعبير العلنى عن الارتباط بين مصر والدولة العثمانية ، وكان الخديو أيضا من دعاة التنسيق مع فرنسا عن طريق اصدقاء له فى فرنسا ووجدت هذه السياسة قبولا عند « مصطفى كامل » .

وان كان « مصطفى كامل» فى فترات باكرة نادى بالولاء لتركيا إلا انه فى السنوات المتأخرة أعلن ان افكاره لم تكن سوى الصداقة بين تركيا ومصر وان (من الأمور الطبيعية المحضة ان يساعد المصريون دولة الخلافة) . وفى خطبة الوداع التى ألقاها فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ ، وهى الخطبة التى أعلن فيها قيام (الحزب الوطنى) رسميا قال صراحة (رمانا الطاعنون باننا نريد ان نخرج الانجليز من مصر لنعطيها لتركيا كولاية عادية . . وليعلم اعداء مصر أننا نطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من أمم الأرض كلها) ولكن الزمن كان قد فات . . فالخديو قرب اليه « الشيخ على يوسف » وأمده بالأموال ودعم جريدته (المؤيد) . . . بل ودفعه لتأسيس (حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية) الذى وضع فى برنامجه نصا صريحا للدفاع عن الخديو . . والولاء لتركيا أصبح شعارا لقسم هام داخل الحزب الوطنى على رأسه « الشيخ عبد

العزيز جاويش » الذى تولى رئاسة تحرير اللواء بعد وفاة مصطفى كامل ، وظهر حزب الأمة وصحيفته (الجريدة) تنادى بشعار الثورة العرابية (مصر للمصريين) ومات «مصطفى كامل » فى ١٠ فبراير ١٩٠٨ ويحاول الخديو الاستيلاء على الحزب من الداخل . . وينقسم الحزب الوطنى إلى مجموعات مختلفة . . مجموعة عبد العزيز جاويش تعمل لحساب تركيا ، ومجموعة على فهمى كامل وتعمل لحساب الخديو مجموعة محمد فريد يمزقها التردد وعدم وضوح الخط الفكرى .

أما العلاقة مع فرنسا فشرحها يطول تبدأ فى يوم ٢٣ يونيه ١٨٩٣ حين سافر للالتحاق بكلية الحقوق وعلى نفقة الخديو، وعباس الثانى . ثم سافر مرة أخرى سنة ١٨٩٤ ، وادى الامتحان النهائى فى الحقوق بجامعة تولوز حيث حصل على ليسانس الحقوق فى نوفمبر ١٨٩٤ وعنده من العمر عشرون عاما ، وسافر برغبة من الخديو إلى فرنسا فى ١٣ أبريل ١٨٩٥ كما أسلفنا وبعدها عاد إلى مصر ووقعت جفوة خفيفة بينه وبين الخديو على اثر عودته فى ٩ يناير ١٨٩٦ وبتنسيق مع الخديو وعلى نفقته أيضا سافر فى أول أغسطس ١٨٩٦ وادلى باحاديث كثيرة للصحف فى باريس وبرلين وفيينا وفى الأستانة حيث أعلن صراحة (أن الراية العثمانية هى الراية التى يجب أن يجتمع حولها المصريون) وبعد ان عاد إلى مصر سافر إلى أوربا مرتين فى سنة ١٨٩٧ ، ومرة سنة ١٨٩٨ .

فرنسا ومصالحها

وفرنسا كدولة شأنها شأن أى دولة أخرى تراعى دائما مصالحها ، وهكذا كان أيضا موقف الدولة العثمانية من الخديو عباس ومن مصطفى كامل ومن سائر قادة الحزب الوطنى. فرنسا الدولة حتى عام ١٩٠٤ كانت تستخدم (المسألة المصرية) فى الصراع بينها وبين انجلترا ، ومن هنا فتحت ذراعيها لمصطفى كامل وللخديو عباس ، وبدأ « مصطفى كامل » يفيق على الموقف الحقيقى لفرنسا بعد الاتفاق الودى الذى عقد بين انجلترا وفرنسا فى ٨ أبريل سنة ١٩٠٤ ، وهو الاتفاق الذى تم بمقتضاه اطلاق يد فرنسا فى (المغرب) واطلاق يد انجلترا فى (مصر) وضعف الأمر فى فرنسا لدى مصطفى كامل وراوده الأمل فى (ألمانيا) وفى (مدام جوليت ادم) فى فرنسا وتلك قصة أخرى .

كما ان « مصطفى كامل » تبدد الأمل عنده فى « الخديو عباس » الذى أخذ فى تلك السنة يتحول صراحة إلى مهادنة الانجليز . . ويكتب « مصطفى كامل » خطابا إلى شقيقه « على فهمى كامل » فى ١٣ سبتمبر ١٩٠٤ (إنى يا أخى قرفت من خدمة هذا الرجل . . ولذلك ترانى مصمما قطعيا على الانفصال عنه نهائيا ولو صرت مكبلا فى الديون) .

وفى تقديرنا ان سنة ١٩٠٤ كانت تحولا أساسيا فى حركة مصطفى كامل إذ انه أدرك أنه لا أمل فى تركيا أو فرنسا أو الخديو ، وشهدت تلك الفترة حتى رحيله أعظم مقالاته وخطبه ومصاولته

للاحتلال الانجليزى واشادته بمصر والمصريين ، ويحبه لمصر وللمصريين مما ألهب الشعور الوطنى ورفع حماسته .

وإذا كانت ثقة مصطفى كامل قد اهتزت فى فرنسا ، فان ثقته فى « مدام جوليت ادم » بقيت متينة إلى آخر عمره . وقد بدأت علاقته بمدام « جوليت أدم » منذ عام ١٨٩٥ وهو فى الواحد والعشرين من عمره ، وأما هى فكانت فى التاسعة والخمسين من عمرها (١٨٣٦ ـ ١٩٣٦) اهتمت بتقديمه إلى الصحفيين وإلى الساسة فى فرنسا وفى المقابل زارت « جوليت ادم » مصر فى ١٩ يناير ١٩٠٤ واحتفى بها الخديو ومصطفى كامل وعدد من الساسة المصريين ونزلت ضيفة على الخديو وعلى عمر سلطان نجل «محمد سلطان » بالمنيا وزارت اثار تل العمارنة وإسنا وأسوان والفيوم وبور سعيد وكان لهذه الزيارة اثرها على العلاقة بين الخديو والانجليز .

صحوة الموت

يتناقل الناس ما يسمونه بصحوة الموت ، وكيف أن المرء المقبل على الرحيل تصفو نفسه ، وترق تصرفاته ، ويسمو سلوكه . . وعندنا أن « مصطفى كامل » قد دخل منذ سنة ١٩٠٤ مرحلة صحوة الموت فاتضحت مواقفه ، وتحددت خطوطه السياسية ، وزاد اقترابا من الجماهير ، والتهبت كلماته بالوطن والوطنية .

وقد بدأ هذه الصحوة بخطبة حماسية فى ٧ يونية ١٩٠٤ بالإسكندرية ، وسافر إلى انجلترا ليثير الرأى العام ضد سياسة حكومته الانجليزية ، ودعا إلى إنشاء الجامعة الأهلية سنة ١٩٠٥ وصال وجال سنة ١٩٠٦ بمناسبة حادث دنشواى ، وفى اخريات ١٩٠٦ أعد عدته لاصدار جريدتين يوميتين باللغة الفرنسية وباللغة الانجليزية وتحمل كل منهما اسم (اللواء) على غرار (اللواء) العربية التى صدرت يوم الثلاثاء ٢ يناير ١٩٠٠ . وفى ٤ أكتوبر سنة ١٩٠٧ قال « لجوليت آدم » ستكون هذه السنة أهم سنة فى حياتى وفى ٢٢ أكتوبر أعلن الحزب الوطنى . وكان « مصطفى كامل » وراء فكرة (نادى المدارس العليا) الذى اجتمعت أول جمعية عمومية له يوم الجمعة ٨ ديسمبر ١٩٠٦ وردا على اتهامه بالتعصب الدينى ، وقف خلف اختيار « ويصا واصف المحامى» عضوا فى اللجنة الإدارية للحزب الوطنى التى انتخبتها الجمعية العمومية الأولى فى ١٧ من ديسمبر ١٩٠٧ وحصل على أصوات أكثر من التى حصل عليها « على فهمى كامل » شقيق مصطفى كامل .

وعندما كان « مصطفى كامل » مستندا إلى الخديو ومتعاونا مع الباب العالى ومنسقا مع فرنسا . . ورأى أن النتيجة لاشىء وقع فريسة الاحباط فكتب من باريس فى ٢٩ أغسطس ١٨٩٥ إلى صديقه العزيز « فؤاد سليم الحجازى بالحرف الواحد ـ (دعنى بالله عليك من هذه الأمة التى

بلانى الله بأن أكون واحدا من أبنائها) وفى سنواته الأخيرة لم يبق له سوى الشعب المصرى الذكى وصاح « مصطفى بقوله المأثور : « لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا » .

وفى الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ رحل الزعيم « مصطفى كامل » .

الأسـانيد :

١ ـ د . شوقى الجمل ، مراسلات مصطفى كامل (تحقيق) .

٢ ـ صلاح عبد الصبور ، قصة الضمير المصرى الحديث .

٣ ـ عبد الرحمن الرافعى ، مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية .

٤ ـ د . عبد العظيم رمضان . . مصطفى كامل فى محكمة التاريخ .

٥ ـ فتحى رضوان . . مصطفى كامل .

٦ ـ د . لويس عوض . . تاريخ الفكر المصرى الحديث .

مكرم عبيد



هانحن أمام حلقة عن « مكرم عبيد » ابن سعد ، والمجاهد الكبير ، سكرتير الوفد ، ووحدة الأمة وامتزاج القبط والمسلمين كانت أهم أهداف الوفد واعزها عليه ، وهى كذلك عند « مكرم عبيد » . الأستاذ « أحمد حسين » زعيم (مصر الفتاة) يتحدث إلى المستشار « طارق البشرى » فى ديسمبر ١٩٧٣ . . (مكرم حافظ القرآن . . استعمله فى خطبه . . شيخ عرب . . كان المسلمون يتعاركون فى قنا ، وكان مكرم حكما بينهم . .) والأستاذ « محمد شلبى » فى كتابه (حسن البنا . . إمام وقائد) ينقل عن الأستاذ عمر التلمسانى قوله . . (مساء ١٣ فبراير ١٩٤٩ ، نقل جثمان الإمام حسن البنا إلى مسجد قيسون القريب من المنزل ، ولم يسمح لأحد بتشييعه ولم يستطع أحد تقديم العزاء سوى مكرم عبيد) واعرف من كتاب صديقى « الدكتور محمد عمارة » الإسلام والوحدة الوطنية أنه ـ أى مكرم ـ قال فى مجلة الهلال عدد أبريل « رابطة اللغة والثقافة العربية ، والتسامح الدينى ، هى الوشائج التى لم تنل منها الاطماع السياسية منالا . .) .

وثمة وقائع قديمة معروفة عرضت لها فى كتابات سابقة لا بأس أن نمرن الذاكرة ونستعيد ما سبق أن قلناه . . .

* قلت وكان مرجعى (مذكرات فخرى عبد النور) ان سعد باشا عاد من أوروبا إلى الإسكندرية فى ٤ أبريل ١٩٢١ ، وكانت البيعة الكبرى ، وفى ٥ أبريل استقل القطار إلى القاهرة . . وفى القطار قدم له « ويصا واصف » عضو الوفد الشاب «وليم مكرم عبيد » وكان وقتئذ مدرسا بمدرسة الحقوق فحياه « سعد باشا » واثنى عليه وأعرب له عن اعجابه الكبير بمذكراته القيمة التى كتبها باللغة الانجليزية ردا على مشروع المستشار القضائى الانجليزى ، هذا ماقلته وأقول اليوم أن سعد زغلول ضم مكرم عبيد إلى الوفد فى ٦ مايو ١٩٢١ .

* قلت وكان مراجعى (سنوات ماقبل الثورة) لصبرى أبو المجد . . إن « عدلى يكن » عاد من لندن فى ٦ ديسمبر ، بعد فشل مفاوضاته مع الانجليز ، وقدم استقالته فى ٨ ديسمبر وقامت السلطات الانجليزية فى ٢٢ ديسمبر باعتقال « سعد زغلول » وسينوت حنا ، وفتح الله بركات ، ومصطفى النحاس » ونفتهم إلى جزيرة سيشل ، هذا ما قلته وأقول اليوم أن « مكرم عبيد » اقترب فى ذلك المنفى إلى الزعيم سعد زغلول .

* قلت وكان مرجعى (حوار وراء الأسوار لجلال الحمامصى ، ومذكرات حسن يوسف ، واسرار الساسة والسياسة لمحمد التابعى) . . قلت ان جلال الدين الحمامصى فى ليلة من ليالى أغسطس ١٩٤٢ ذهب إلى أحمد حسنين واتفقا على تسجيل ما اسمياه الاستثناءات والانحرافات فى عريضة ترفع إلى الملك فاروق ، ثم سافر « الحمامصى » إلى رأس البر وعرض الفكرة على مكرم الذى وافق وشرع فى كتابة المقدمة ، ثم اقترح الحمامصى تأليف العريضة فى كتاب ، وذكر الحمامصى ان أحمد حسنين كان يتابع تأليف الكتاب ووافق على أن يتسلم العريضة لحفظها فى خزينة القصر حتى لاتقع فى أيدى حكومة الوفد ، وفى ٣١ مارس ١٩٤٣ توجه إلى القصر وتسلم العريضة المحفوظة فى خزينة القصر وقدمها إلى الملك فاروق ، واجمعت المصادر على أن أحمد حسنين اجاد الوقيعة بين مصطفى النحاس ومكرم عبيد وذلك بتحديد موعد يقابل فيه « مكرم » الملك فاروق فى ٣١ مارس ١٩٤٢ ثم اوعز حسنين لمندوب الأهرام بأن يطلب من سكرتير الوفد تصريحا عن المقابلة ، ووقع مكرم فى الشباك وادلى بتصريح نشرته الأهرام اشاد فيه بعطف الملك وخبرته وباطلاعه الواسع ، وقلت وكان مرجعى (الوفد والكتاب الأسود) للدكتور يونان لبيب رزق ان السلطات البريطانية عرفت بأمر الكتاب الأسود ولم تبلغ حكومة النحاس ، هذا ماقلته وأقول اليوم أن دهاء أحمد حسنين تغلب على عبقرية مكرم عبيد الذى سار فى الشوط إلى آخره .

* قلت وكان مرجعى(مذكرات حسن يوسف) أن « مكرم عبيد » وعدد من الشخصيات السياسية رفعوا عريضة إلى الملك فاروق فى ١٧ أكتوبر ١٩٥٠ يحتجون فيها على بعض المراسيم التى استصدرتها حكومة الوفد ، ويتحدثون فيها عما اسمته الصحافة (بقضية الأسلحة الفاسدة) وقد ثبت بعد ذلك وبعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وبشهادة الشهود انه لم تكن هناك أسلحة فاسدة ،

مكرم بعيون الانجليز

خصصت السفارة البريطانية الملف رقم ٢٧ لسكرتير الوفد تحت اسم « وليم مكرم عبيد » وجاء فيه : قبطى من مواليد عام ١٨٨٩ . ونال الشهادة الابتدائية وعمره ١١ سنة التحق بالكلية الأمريكية بأسيوط ثم استكمل تعليمه فى اكسفورد بين عامى ١٩٠٥ ، ١٩٠٨ حيث نال اجازته فى القانون ، حصل عام ١٩١٢ على درجة الدكتوراه فى القانون وعاد إلى مصر ، التحق عام

١٩١٣ بوظيفة سكرتير الجريدة الرسمية بوزارة الحقانية ، وضع مذكرة فى أعقاب اضراب الموظفين عام ١٩١٩ قدمها إلى المستشار القضائى الانجليزى يقترح فيها تحالفا بين انجلترا ومصر ، عين عام ١٩١٩ استاذا بمدرسة الحقوق ، غير انه فصل من هذه الوظيفة فى أغسطس عام ١٩٢١ بعد احالته إلى مجلس تأديب بتهمة الاشتراك فى إقامة مأدبة لزغلول باشا ، ارسله زغلول إلى لندن للدعاية اثناء مفاوضات عدلى ، استقبل استقبالا شعبيا لدى عودته ، وكان زغلول نفسه على رأس مستقبليه لدى وصوله إلى محطة مصر ، نفى مع زغلول إلى جزيرة سيشل وعاد إلى مصر فى يونيو ١٩٢٣ وفاز فى الانتخابات التى جرت فى السنة نفسها عن دائرة قنا بالتزكية ، اصطحبه زغلول فى رحلته إلى لندن عام ١٩٢٤ اثناء المفاوضات مع ماكدونالد ، واعتقل فى ٢٧ نوفمبر ١٩٢٤ بتهمة التحريض على اغتيال السردار ، نجح فى دائرتين فى انتخابات عام ١٩٢٦ ، انتخب سكرتيرا للوفد فى أكتوبر ١٩٢٧ ، تزوج فى نوفمبر ١٩٢٣ من السيدة عايده ابنة مرقص حنا باشا ، عنيف ومتطرف فى عدائه للبريطانيين ، ويعرف بين الزغلوليين باسم (ابن سعد) حركاته المسرحية وفصاحته اللغوية تعطيه تأثيرا كبيرا على الطلاب والجماهير ، تولى وزارة المواصلات فى وزارة النحاس فى مارس ١٩٢٨ ، قام بحملة ناجحة ضد « محمد محمود » فى انجلترا واستقبل استقبالا حافلا بعد عودته فى سبتمبر ١٩٢٩ ، تولى وزارة المالية فى وزارة النحاس التى تألفت فى يناير ١٩٣٠ ، وفى يوليو وسبتمبر من السنة نفسها سافر إلى لندن للدعاية ضد وزارة صدقى ، أصبح وزيرا للمالية فى وزارة النحاس فى مايو ١٩٣٦ وحصل على لقب الباشوية ، كان عضوا فى وفد المفاوضات المصرى للمعاهدة ، كان صديقا لصيقا للنحاس مما اكسبه تأييدا كبيرا فى الوزارة وفى الوفد . .) وإلى هنا نتوقف فى الملف رقم ٢٧ ملف « وليم مكرم عبيد » فى السفارة البريطانية ونواصل نحن الكلام .

الوزارة والانقسام

فى ٩ مايو ١٩٣٦ شكل مصطفى النحاس وزارته الثالثة وتولى مكرم وزارة المالية وفى أغسطس ١٩٣٦ عقدت المعاهدة ، وحاول الوفد دعم مركزه ازاء القصر وخاصة ان الملك فؤاد كان قد توفى فى ٢٨ أبريل ، وفى يوليو ١٩٣٧ تولى فاروق سلطاته الدستورية وقدم النحاس استقالته وشكل وزارته الرابعة فى أول أغسطس ١٩٣٧ التى بقى فيها مكرم عبيد وخرج منها « صفوت والنقراشى وغالب » وقد سبق هذا صراع بين مكرم عبيد وعثمان محرم من جهة يساندهما مصطفى النحاس وبين النقراشى وصفوت وغالب من جهة أخرى يساندهم أحمد ماهر رئيس مجلس النواب ، ويدعمهم على ماهر رئيس الديوان الملكى والشيخ مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر فى محاولة

للاستيلاء على الوفد من الداخل وان يشكل « أحمد ماهر » الوزراة بدلا من النحاس باشا ، والمحللون السياسيون الذين يرصدون التحولات الجديدة بعد المعاهدة ، ونمو الاتجاه الرأسمالى ونهاية بريق الصراع الوطنى، لايغفلون الصراع القديم بين أحمد ماهر والنقراشى من جهة وبين «مكرم عبيد » من جهة أخرى حول منصب سكرتير الوفد بعد وفاة « سعد ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ ، واحساس ماهر والنقراشى بأن كليهما أحق بهذا المنصب ، وخاصة انهما اسبق فى النضال فى صفوف الوفد من مكرم ، ولكن النحاس باشا سائد اختيار « مكرم عبيد » سكرتيرا عاما للوفد .

على اية حال اقيلت وزارة الانقسام فى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ وبعدها تشكل حزب الهيئة السعدية بزعامة ماهر ومعه النقراشى وصفوت وغالب وعبد الهادى وحامد محمود ومجموعة هامة من أعضاء الهيئة الوفدية ومن الشباب .

وإذا كانت وزارة النحاس باشا الرابعة أول أغسطس ٢٧ - ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ قد وقع فيها من الناحية الفعلية انقسام ماهر والنقراشى وكان مكرم هذه المرة هو الذى قال (لو بدا لمكرم أن ينفصل عن النحاس فليذهب مكرم ويبقى النحاس) جاءت وزارة مصطفى النحاس الخامسة (٤ فبراير - ٢٦ مايو سنة ١٩٤٢) ويخرج مكرم ويبقى النحاس أيضا ، ويشكل مكرم حزب الكتلة الوفدية المستقلة ، ويصدر جريدة الكتلة وكما استقالت وزارة النحاس الثالثة فى ٢٩ يوليو ١٩٣٧ ليؤلف النحاس الوزارة الرابعة فى أول أغسطس ١٩٣٧ ليخرج منها النقراشى، استقالت وزارة النحاس الخامسة فى ٢٦ مايو ١٩٤٢ ليؤلف النحاس وزارته السادسة ويخرج منها مكرم عبيد .

الـوزارة المأسـاة

فى ١٢ يوليو ١٩٤٢ اصدرت الهيئة الوفدية قرارها بفصل مكرم عبيد من عضويتها وبعد ذلك فصل من موقعه كسكرتير للوفد ، وفى ٣١ مارس ١٩٤٣ قدم العريضة للملك وفى اليوم نفسه تم توزيع الكتاب الأسود وصدر قرار باعتقال مكرم عبيد وعدد من أعوانه ووقع الملك فى ١٧ أبريل ١٩٤٤ قرارا بأن يشكل أحمد حسنين الوزارة ولكن هذا القرار لم يتمكن القصر من تنفيذه ووضع فى الإدراج إلى أن اقال الملك وزارة النحاس باشا فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ ، واسند رئاسة الوزارة إلى أحمد ماهر الصديق اللدود لمكرم عبيد واسرع على أمين بقرار الافراج عن مكرم عبيد وقرار توليه وزارة المالية ، واذا كنا اطلقنا على وزارة (٤ فبراير ١٩٤٢) وزارة الانقسام ، فان وزارة ٨ أكتوبر ١٩٤٤ هى وزارة المأساة ، لأن الرجل ظن أنه صاحب الدور الأكبر فى اقالة وزارة النحاس باشا ، وهاهو يجد نفسه مجرد وزير فى وزارة يرأسها (عدوه) أحمد ماهر ويقوم بدور كبير فيها (عدوه)

محمود فهمى النقراشى ، وهنا أغرق « الرجل » فى انحيازه للقصر ، وبالغ فى مديحه للملك ، واصر القصر على تخصيص عدد من المقاعد لحزب الكتلة يساوى عدد المقاعد المخصصة لكل حزب آخر مشارك فى الوزارة إلا أن الكتلة فى الانتخابات حصلت على ٢٩ مقعدا فقط من مقاعد مجلس النواب وهى ٢٦٤ مقعدا فى انتخابات عام ١٩٤٥ ، وطلب مكرم أن تحقق الوزارة فى وقائع الكتاب الأسود وامر أحمد ماهر بالتحقيق فى بعض الوقائع الهامة وثبتت براءة الذين وجهت ضدهم الاتهامات ، ثم اهملت الوزارة الكتاب الأسود برمته ، وفى تقديرى أن مكرم باشا أدرك فى تلك الفترة ان الكتلة الوفدية لم تصبح بديلا عن الوفد ، وانه كان كبيرا بالحزب العتيد الذى شارك فى بنائه وتصدى لاعدائه ولكل المنشقين عليه ، وانه عندما كان سكرتيرا للحزب التاريخى تصدى لحمد الباسل والغرابلى والسبعة ونصف وتصدى لأحمد ماهر وها هو الآن مرءوس لأحمد ماهر ، وتصدى للعقاد ، وهاهو الآن يطلب من العقاد ان يكتب مقدمة (المكرميات) لأحمد قاسم جوده ، أو أن يتطوع العقاد بكتابة المقدمة ويمتدح مكرم باشا بعد ان هاجمه .

وبعد الانتخابات التى حصل فيها السعديون على ١٢٥ نائبا والدستوريون ٧٤ نائبا والكتلة الوفدية ٢٩ نائبا والحزب الوطنى سبعة نواب ، والمستقلون ٢٩ نائبا . . قدم « أحمد ماهر » استقالته ليشكل وزارة جديدة وهو منتفخ الأوداج على شركائه ، وانتهت الوزارة الجديدة باغتيال «أحمد ماهر » مساء السبت ٢٤ فبراير ١٩٤٥ ليشكل محمود فهمى النقراشى وزارته الأولى فى ٢٤ فبراير ١٩٤٥ ـ ١٥ فبراير ١٩٤٦ ، وكان الصراع القديم هو فى الأساس بين مكرم والنقراشى وانفجر الخلاف داخل الوزارة وفى ١٤ فبراير ١٩٤٦ استقال مكرم عبيد ووزراء الكتلة الوفدية فأنهار الانقلاب الوزارى ، وقدم النقراشى استقالة الوزارة فى ١٥ فبراير ليشكل إسماعيل صدقى وزارة جديدة فى ١٦ فبراير ١٩٤٦ وكانت وزارة النقراشى (فبراير ١٩٤٥ ـ فبراير ١٩٤٦) هى آخر عهد « مكرم عبيد » بالاشتراك فى اية وزارة حتى توفى فى (٥ يونيو ١٩٦١) عن ٧٢ عاما قضى منها أربعين سنة كاملة يخفق قلبه بحب سعد زغلول ومخلصا لمبادئ الوفد .

وفـدى حتى النهاية

فى ٢٣ أغسطس ١٩٥٣ كان « مكرم عبيد » يحتفل بذكرى وفاة سعد زغلول بميدان باب الحديد ، وأثناء حديث مكرم عن سعد والوفد هتف أحد الضباط. «كلنا هيئة التحرير » وكانت الاحزاب قد حلت ، والقيادة تحاول أن ينضم الجميع إلى (التنظيم الواحد) وهنا ادرك « مكرم عبيد » بخبرته الكامنة أن تاريخه هو سلاحه أمام النظام الجديد فعاد إلى تاريخه المجيد وقال

بحسم . . (اسمع يابنى . . أنا مكرم عبيد . . ولدت وفديا . . وعشت وفديا . . وسأموت وفديا . .)

ويلاحظ انه بعد ١٤ فبراير ١٩٤٦ ، يوم خروج مكرم والكتلة الوفدية من وزارة النقراشى الأولى بدأت حدة التوتر تخف بين أعضاء الكتلة الوفدية ، وبين زملائهم السابقين فى الوفد ، وحدث نوع من التنسيق بين شباب الكتلة والوفد لأنهم فى الأصل ابناء حزب واحد ، ويخلصون لمبادئ سياسة واحدة وبدأنا نقرأ فى عمود الرئيس الجليل وخاصة منذ يناير ١٩٤٨ ان مصطفى النحاس بعث بمندوب أو برسالة للسؤال عن صحة مكرم عبيد إذا ألم به أى مرض .

والحزب الذى شكله الانقسام الرابع ونعنى به الكتلة الوفدية المستقلة حرص مكرم على كلمة الوفدية على غير رغبة عدد من معاونيه .

وهكذا دخل حياتنا الحزبية اسم (حزب الكتلة الوفدية) وجريدة (الكتلة) التى دامت قرابة الخمس سنوات من ١٩٤٤ - ١٩٤٩ ، وان كان الحزب قد بدأ مغاليا فى الانحياز للملك فقد عدل مساره بعد ذلك . . وبدأنا نسمع عبارات مكرم عبيد حسب أسلوبه الخاص به . . الميت الحى فى قبره مشيرا لسعد زغلول ، والحى الميت فى قصره - مشيرا للملك فاروق - ووضعت الكتلة البرنامج الأول سنة ١٩٤٥ وأدخلت عليه بعض التعديلات سنتى ١٩٥٠ ، ١٩٥٢ . وفى منتصف ليلة ٣١ يوليو ١٩٥٢ اذاع محمد نجيب بيانا دعا فيه الأحزاب والهيئات إلى تطهير نفسها وان تعلن برامجها ، وفى ٩ سبتمبر ١٩٥٢ صدر قانون تنظيم الأحزاب ، الذى اثبتت الأحداث فيما بعد أن المقصود به هو ضرب (الوفد) أساسا وعدم الرغبة فى قيام احزاب ، وللتاريخ فقد وقعت أقسام كثيرة من الأحزاب فى المصيدة وفى مقدمتها العناصر اليسارية فى شباب الوفد ، وهذه قصة أخرى يمكن أن نعالجها فى بحث مستقل ، وكذلك مكرم عبيد الذى ظن أنها فرصة لتواجد الكتلة على الساحة فكتب مقدمة بلاغية لبرنامج الكتلة تحدث فيها عن التطهير والتحرير، وانتهت هذه اللعبة كلها فى ١٦ يناير ١٩٥٣ بقرار حل الأحزاب ومصادرة أموالها (باستثناء الإخوان المسلمين) .

أما جريدة (الكتلة) فبعيدا عن المقالات الاستعراضية والحزبية ، فقد فتحت أبوابها لعدد من الشباب المثقف الذى عرف بفكره التقدمى ، وشاركت الكتلة صحف الوفد فى المطالبة بالجلاء والحريات والعدل الاجتماعى ، والهجوم على مفاوضات صدقى - بيفن ، وشددت الحملة ضد بريطانيا بعد رفع دعوى مصر أمام مجلس الأمن فى ١٧ يونيو ١٩٤٧ .

وتمضى الأيام ، وفى ٥ يونيو ١٩٦١ يرحل ابن سعد المجاهد الكبير ، سكرتير الوفد ، « مكرم

عبيد » ، مودعا ببرقية حزينة باكية من صديق عمره ، رفيق جهاده ، زعيمه الطيب مصطفى النحاس الذى اراد له « عبد الناصر » ألا يغادر بيته ، والذى أرسل « أنور السادات » نيابة عنه ، ورحم الله الجميع . .

الأسانيد :

١ ـ جلال الدين الحمامصى . . حوار وراء الأسوار .

٢ ـ طارق البشرى . . المسلمون والأقباط .

٣ ـ د . عبد العظيم رمضان . . تطور الحركة الوطنية فى مصر .

٤ ـ فخرى عبد النور . . مذكرات .

٥ ـ د . لطيفة سالم . . الصحافة والحركة الوطنية .

٦ ـ د . محمود متولى . . الحياة الحزبية قبل ١٩٥٢ .

٧ ـ د . يونان لبيب رزق . . الوفد والكتاب الأسود .

الدكتور نجيب محفوظ



فى الفترة الأخيرة كنت مستغرقا فى القراءة عن كاتب مصر العظيم « نجيب محفوظ » بمناسبة حصوله على جائزة نوبل فى ١٣ أكتوبر ١٩٨٨ . وكان أمامى كم هائل من الكتب والدراسات والبحوث والمقالات والأخبار ، وذلك لأعد (بانوراما ثقافية) عن هذا الكاتب الكبير . واستوقفتنى عبارة حول مولده يوم ١١ ديسمبر من سنة ١٩١١ بالقاهرة . الولادة تعسرت وأشار الأهل والجيران باستدعاء طبيب النساء والولادة « الدكتور نجيب محفوظ » . وتمت الولادة بفضل الله على خير . وفى الصباح توجه «إبراهيم عبد العزيز الباشا » إلى مكتب الصحة ، وفى خانة اسم المولود كتب « نجيب محفوظ » وهكذا أصبح اسم أديبنا الكبير «نجيب محفوظ إبراهيم عبد العزيز الباشا » .

وأسرعت إلى السيرة الذاتية التى كتبها « الدكتور نجيب محفوظ باشا » وأعطاها عنوان (حياة طبيب) وأسرعت أيضا إلى كتاب الصديق العزيز « الدكتور محمد الجوادى » الذى توفر فى السنوات الأخيرة على تسجيل حياة وأعمال عدد من أشهر أطبائنا وعلمائنا أمثال « الدكتور محمد كامل حسين ، والدكتور على مصطفى مشرفة ، والدكتور على إبراهيم ، والدكتور سليمان عزمى » ثم كتابه عن « الدكتور نجيب محفوظ ـ رائد اطباء النساء والولادة » .

عدت إذن إلى قراءة جديدة فى كتاب (حياة طبيب) ، وكتاب « الدكتور نجيب محفوظ ـ رائد أطباء النساء والولادة) . وفى هذه المرة اكتشفت شخصية مصرية لها أعمالها الجليلة على المستوى القومى ، من منطلق قومى ، وبسلوك قومى .

وأطيب كلمات الوفاء والتقدير التى قالها عنه « الدكتور إبراهيم شوقى باشا ، والدكتور إبراهيم المنياوى باشا ، والدكتور مجدى باشا ، والدكتور رشدى إسماعيل ، والدكتور مصطفى بك فهمى

سرور ، والدكتور محمود فاضل سليم ، والدكتور محمود إسماعيل ، والدكتور سليمان عزمى باشا . » وقد حفظت هذه الكلمات الطيبات فى كتاب (الدكتور نجيب محفوظ كما نعرفه) . وأشاد بقدره « الأستاذ أحمد الصاوى محمد » فى زاويته المشهورة (ماقل ودل) . وكتب عنه أديبنا الكبير «يحيى حقى » . أما «الأستاذ صلاح جلال » فقد كتب عنه بعنوان (نجيب محفوظ يساوى ونستون تشرشل وفلمنج مكتشف البنسلين) . وكتب عنه « على أمين » فى عموده (فكرة) ونال جائزة الدولة التقديرية فى العلوم سنة ١٩٦٠ .

أعماله العلمية

باللغة العربية والانجليزية والفرنسية أصدر كتبا ودراسات ومحاضرات وتخرج على يديه تلاميذ نوابغ . باللغة العربية صدر له فن الولادة ، وأمراض النساء ، ومبادئ أمراض النساء ، والثقافة الطبية والطب النسوى عند العرب .

وبلغات أجنبية صدر له أكثر من ٣٠ كتابا وبحثا قد لايهم القارئ العادى معرفتها تفصيلا لأنها شديدة التخصص ويعرفها من لديهم ثقافة طبية عامة أو خاصة . ويكفى هنا أن نشير إلى أهمها تسجيلا لها وإتماما للفائدة . . كتب عن : (النزف قبل الولادة ، والجراحات التى ابتكرها لعلاج النواسير البولية ، وطريقة محفوظ فى وصل المثانة بقناة مجرى البول ، والنواسير البولية عند النساء ، والحمل خارج الرحم ، وأسلوب محفوظ الجراحى فى علاج النواسير بين العنق والرحم ، وأسباب سقوط الأعضاء التناسلية عند النساء ، وعلاج تمزق الرحم أثناء الولادة ، والأورام الخبيثة للأعضاء الحوضية ، وعلاج الحمى النفاسية ، والأورام والأكياس المبيضية ، وتاريخ الولادة وأمراض النساء من أقدم العصور إلى اليوم ، والتخدير النصفى فى الولادة وأمراض النساء والعملية القيصرية . .) وغيرها دراسات وبحوث كثيرة تكشف عن ريادة هذا الطبيب المصرى فى مجال أمراض النساء وفى الولادة .

وبالاشتراك مع « الدكتور أنيس أنسى » كتب (أمراض الرحم الخبيثة) . وبالاشتراك مع «الدكتور محمود إسماعيل » كتب عن (السرطان السلائى) . وبالاشتراك مع « الدكتور مجدى » كتب عن (أورام الرحم الليفية) .

وهكذا عديد من البحوث والدراسات والكتب وضعت هذا الطبيب العالم فى مصاف الأطباء العالميين . أما عمله الكبير فهو (الأطلس) الذى بلغت صفحاته ١٥٠٠ صفحة قال عنه «كومنز باركلى » أستاذ أمراض النساء والولادة فى العالم (لم يظهر فى كتب الولادة وأمراض النساء مثيل

يعادله) . وقام « الدكتور نجيب محفوظ » بطبع هذا العمل الكبير بسبع لغات هى : العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية والإيطالية والأسبانية .. وأمراض النساء فى العالم واعتبروه مرجعا عالميا فريدا فى هذا المجال . والعمل الذى يضارع أطلس محفوظ هو (متحف محفوظ) والذى بدأ العمل فيه بتحضير نماذج أو عينات بعيادته الخاصة ، واشترى (البرطمانات) الزجاجية الخاصة له من فرنسا . ثم نقل هذه (البرطمانات) بالعينات الموجودة بها إلى مدرسة الطب ليدرس عليها الطلاب . وبمناسبة مرور مائة سنة على تأسيس مدرسة الطب ، أقيم مؤتمر طبى بالقاهرة سنة ١٩٢٩ قرر مدير مدرسة الطب تخصيص مكان لحفظ هذه النماذج ويكون نواة لمتحف خاص بأمراض النساء والولادة . وسنة ١٩٣٠ عند انشاء كلية الطب بجامعة فؤاد الأول قدم « الدكتور نجيب محفوظ » هذا المتحف هدية للكلية الجديدة . وفى الأربعينات قامت كلية الطب باعداد تصميم خاص بهذا المتحف العلمى الهام .

هذا الطبيب المصرى الذى طبقت شهرته الآفاق والذى كان واحدا من جيل الأطباء العظام الذين أعطوا لمصر وأعطتهم مصر. . ما حكايته ؟ وما قصة حياته ؟

البداية

والده من تجار القطن بمدينة المنصورة ، الحال ميسور والحمد لله ، وأقام الوالد مع زوجته فى بيت يطل على النيل أجمل بقاع تلك المدينة الجميلة . وقبل عيد الميلاد بيومين ، يوم ٥ يناير ١٨٨٢ والأسرة الصغيرة السعيدة تتأهب للاحتفال بالعيد ، وسبعة أطفال صغار يلهون ويلعبون . . كانت الأم فى المخاض . وجاء الطبيب والمولدة وخرج من بطن الأم مولود ضعيف لا حركة له ولا تنفس . وفى هذا البرد القارص تركوا هذا المولود وانصرفوا إلى الأم . . اعتقد الجميع أن المولود قد مات . ولكن الله قدر له الحياة لأنه كان يدخره لعمل عظيم . وقدر له أن يتجاوز التسعين اذ أنه توفى عام ١٩٧٢ .

التحق بمدرسة الأمريكان بالمنصورة ، وانتقل منها إلى (المدرسة الأميرية الابتدائية) وكان ناظرها « أحمد بك نجيب » ومدرس اللغة العربية « الشيخ محمد المهدى » وتوسما فى الصبى نبوغا باكرا فتعهداه بالعناية والرعاية حتى حصل على الشهادة الابتدائية سنة ١٨٩٥ . وتأتى الرياح بما لاتشتهى السفن ، فقد توفى الوالد ولحقت به الأم وتولى شئون الأولاد نفر من الأقارب أكلوا أموال اليتامى فقطع الابن الأكبر دراسته وعمل بمرتب صغير فى وزارة الأشغال ليعول اخوته . وأحضر هذا الموظف الشاب أخاه «نجيب » ليقيم معه فى شارع الفجالة ويلتحق بالمدرسة التوفيقية الثانوية، وكان « نجيب » يجيد اللغات الانجليزية والفرنسية والعربية فعنى به اساتذة اللغة

الانجليزية والفرنسية و « الشيخ حامد موسى » مدرس اللغة العربية . وتقدم « نجيب » إلى امتحان البكالوريا قبل موعدها بسنتين ، وحصل عليها (عام ١٨٩٨) وجاء ترتيبه التاسع عشر على مستوى القطر . . ولكن مفاجأة لم تكن فى الحسبان . . أمر ناظر المعارف بعرض أوراق الأوائل على الجمهور فى احتفال لتكريمهم . . وتقع المفاجأة ، ويكتشف المسئولون أن خطأ غير مقصود حدث فى جمع درجات الطالب « نجيب محفوظ » ويعاد جمع الدرجات فإذ به الأول على القطر !

وعام ١٨٩٨ يلتحق بمدرسة الطب وكان التعليم باللغة الانجليزية وقد التحق معه عشرون آخرون . وكان ناظر المدرسة هو «الدكتور إبراهيم باشا حسن » .

رواد الطب

سنة ١٨٩٨ دخل « نجيب » مدرسة الطب ، وكان « على إبراهيم » الدكتور على باشا إبراهيم الطبيب العظيم فيما بعد ، كان سابقا عليه بسنة دراسية ، أما زملاء « نجيب » فمنهم « أحمد حلمى » الدكتور أحمد حلمى باشا فيما بعد ، و« حافظ زكى» الدكتور حافظ زكى بك فيما بعد ، و« محمد زكى » الدكتور محمد زكى بك فيما بعد . كانت الدراسة أربع سنوات وحدث عام ١٩٠٢ وهم فى السنة النهائية ، ويتأهبون للامتحان أن ظهر وباء الكوليرا فى بلدة (موشا) . وبلدة موشا كما يعرف القارئ إحدى قرى « مركز أسيوط بمديرية أسيوط ، وهى بلدة « سيد قطب » أحد قادة الإخوان المسلمين فى الستينات . وحدث أن توفى طبيب بلدة موشا لاصابته بالكوليرا وفورا تطوع «نجيب محفوظ » للعمل فى بلدة موشا لمكافحة الكوليرا فى موقعها ، وكان قد تخرج منذ شهر واحد. ثم نقل إلى مستشفى السويس لفحص القادمين إلى مصر من الهند والحجاز ، وبعدها تقرر نقله إلى كلية الطب وحل محله بالسويس « الدكتور سليمان عزمى » الذى تخرج بعد « محفوظ» بأربع سنوات .

ويروى « محفوظ » من ذكرياته أنه حدث عندما كان يكافح الكوليرا عام ١٩٠٢ أن طلبه وكيل المستشفى الأميرى ليصحبه فى حالة ولادة متعسرة ، وكانت مهمته أن يقوم بتخدير المريضة ، وأن يقوم وكيل المستشفى وأحد مساعديه بتوليد السيدة . . «وحدثت كارثة فقد انفصل رأس المولود داخل الرحم وبقى جسد الطفل فى أيدى الوكيل ومساعده . وتركت هذه الحادثة أثرها على نفسية « محفوظ » ولم ينم ليلتين . . وعند ذاك قرر محفوظ أن ينذر نفسه لدراسة الولادة والعناية بالولادة المتعسرة . وبعد أن قضى سنة الامتياز فى مستشفى السويس كما جرت العادة وقت ذاك أن تكون سنة الأمتياز خارج قصر العينى ، قام الطبيب الأجنبى المشرف على المستشفى باهداء « دكتور

محفوظ » عدداً من الكتب الخاصة بأمراض النساء والولادة . ثم أخذ طريقه كطبيب للتخدير فى مستشفى قصر العينى . واقترح انشاء عيادة خارجية بمستشفى القصر فى الصباح لمريضات النساء والولادة وتولى هو أمر هذه العيادة . وبعد نجاح الفكرة تم تأسيس قسم داخلى به عشرة أسرة للولادة وأمراض النساء يتولاه طبيبان أجنبيان وتقرر أن يساعدهما « دكتور نجيب محفوظ » إلى جانب عمله كطبيب تخدير . وفى تقرير علمى عن العمل بهذا القسم خلال سنتين من ٣ ـ ١٩٠٥ تم اجراء ٣٢٠ عملية ، قام « دكتور محفوظ » باجراء ٢٠٠ منها كلها انتهت بنجاح . توفيق من الله لا شك فى هذا . وظل يعمل هكذا مساعدا لرؤساء القسم الأجانب إلى أن نشبت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ وانشغل الأطباء الأجانب فى العمليات الحربية فتولى هو الإشراف على القسم .

وعام ١٩١٩ عاد من (دبلن) طبيب شاب هو « حافظ عفيفى » ـ الدكتور حافظ عفيفى باشا رئيس الديوان الملكى فيما بعد، وكان تخصصه فى أمراض النساء والولادة ، وأنشأ (جمعية رعاية الأطفال) و(مستشفى للولادة) بالدرب الأحمر ، بها قسم للتوليد الخارجى . وساعد هذا العمل فى أن تنشىء (لادى كرومر) قسما للتوليد الخارجى أشرف عليه الدكتور محفوظ . ووضع أساس مدرسة المولدات والممرضات ، واهتم بوضع البرامج الدراسية لها ، وقام بالتدريس فيها ، وهى المدرسة التى قامت بتخريج فئة ممتازة من المولدات . ووضع لهذه المدرسة كتابين فى (فن التمريض) .

وسادت الروح القومية المؤسسات الطبية فاختير « الدكتور نجيب محفوظ » عضوا فى المجلس الأعلى لجمعية الهلال الأحمر ، وتولى رئاستها فى إحدى الفترات ، وكان عضوا فى مجلس إدارة (جمعية رعاية الأطفال) وعضوا فى (مجلس إدارة مستشفى شبرا الخيرى) أما دوره فى انشاء المستشفى القبطى فهو دور قومى ونموذج ينبغى أن يحتذى . وقد شاركه هذه الروح وهذه الجهود «الدكتور إبراهيم فهمى المنياوى باشا ، والدكتور اسكندر فهمى جرجاوى » ، وقد قامت الجمعية الخيرية القبطية برياسة «جرجس انطون باشا » بدور كبير فى انشاء هذا المستشفى على أن تكون له الصفة القومية . وقد ظل هذا الصرح الكبير هكذا منذ افتتاحه سنة ١٩٢٦ حتى اليوم ، وهو الآن أحد مستشفيات المؤسسة العلاجية بالقاهرة .

تقدير الوطن

ولم يبخل الوطن على أحد ابنائه المخلصين الذين يبذلون فى صمت . حصل « نجيب محفوظ » على الأستاذية عام ١٩٢٩ ، ورقى إلى درجة مدير عام سنة ١٩٣٩ . وعندما احيل إلى التقاعد

عام ١٩٤٢ (مواليد ١٨٨٢) صدر قرار بمد خدمته خمس سنوات . ونال نيشأن النيل عام ١٩١٩ ، والبكوية سنة ١٩٣٠ والباشوية سنة ١٩٣٧ . وأصدر عنه زملاؤه وتلاميذه كتابا كما أشرنا بعنوان (الدكتور نجيب محفوظ كما نعرفه) . ورشحته ثلاث هيئات علمية هى الجمعية المصرية لتاريخ العلوم ، والاتحاد العلمى المصرى ، وكلية طب قصر العينى رشحته لجائزة الدولة التقديرية فى العلوم التى حصل عليها عام ١٩٦٠ ، ويومها ألقى كلمة الفائزين أمام الرئيس الراحل « جمال عبد الناصر » . وعام ١٩٧٩ وفى احتفال نقابة الأطباء بيوم الطبيب المصرى أهدى الرئيس الراحل « محمد أنور السادات » قلادة الجمهورية لاسمى المرحومين . . الدكتور على إبراهيم باشا والدكتور نجيب محفوظ باشا . . وسلام على هذا الجيل العظيم من الرواد الأطباء . . الدكتور على إبراهيم باشا . . وعلى جيل رواد أطباء الولادة وأمراض النساء . . الدكتور نجيب محفوظ باشا ، والدكتور أحمد شفيق باشا ، والدكتور مجدى باشا ، والدكتور محمود إسماعيل بك . . وسلام على كل العاملين المخلصين لرفعة هذا البلد الأمين .

الأسـانيد :

١ ـ د . إبراهيم شوقى باشا وآخرون . . الدكتور نجيب محفوظ كما نعرفه .

٢ ـ د . محمد محمد الجوادى . . الدكتور نجيب محفوظ رائد أطباء النساء والولادة .

٣ ـ د . نجيب محفوظ . . حياة طبيب .

٤ ـ د . مهندس يوسف سميكة . . الدكتور نجيب محفوظ طبيب امراض النساء والولادة .

واصف بطرس غالى



سيادة المفضال إسماعيل صبرى باشا .

قيل إن الشعراء انبياء اذ هم ساسة الأفكار ، وقادة الشعوب ، فعسى ان يتبعك شعب مصر فتسلك به مسلك الحق والشرف، والآن يجب على كل عضو من أعضاء العائلة المصرية ، ان يعمل لما فيه التوفيق بين جميع العناصر ، وقد رفعت صوتى الضعيف مناديا بالاتحاد والوئام ، على انى لست ذلك الرجل الذى فى استطاعته ان يبذر السكينة والوفاق لتثبت شجرة المجد والصفاء ، فتثمر ثمار العز والمجد للبلاد ، ولعمرى ان صوتك هو المسموع المجاب .

وتنشيطا للذاكرة ، ننظر قليلا داخل رسالة « واصف بطرس غالى » إلى « المفضال إسماعيل باشا » شيخ الشعراء (١٨٥٤ - ١٩٢٣) وتعلم فى مدرسة الإدارة والألسن ، ونال شهادة الليسانس فى الحقوق من فرنسا ١٨٧٨ وكان أول مصرى يتولى منصب النائب العام لدى المحاكم الأهلية سنة ١٨٩٥ ثم عين محافظا للإسكندرية ١٨٩٦ فوكيلا لنظارة الحقانية ١٨٩٩ وكان على علاقة طيبة بالزعيم « مصطفى كامل » . وتوفى على اثر ذبحة صدرية سنة ١٩٢٣ .

ورثاه حافظ إبراهيم ، وأحمد شوقى وخليل مطران ، وكان من دعاة الاستقلال والوحدة الوطنية .

وكان شيخ الشعراء « إسماعيل صبرى ، صديقا لبطرس غالى » فى ٢٠ فبراير ١٩١٠ رثاه «إسماعيل صبرى» بقصيدة دلت على سماحة وروح وطنية عالية ، وفى محاولة لتطويق اثار الحادث كان لواصف بطرس غالى موقف يدل على وعى وطنى وأعلن ان اغتيال والده حادث فردى ولأسباب سياسية وليس لأسباب طائفية

ولكن اغتيال « بطرس غالى » القى بظلاله الكثيفة السوداء على العلاقة بين المسلمين والأقباط، وبدأت نيران الفتنة تشتعل ، وسعى أهل الشر فيها سعيهم . . ودعا بعض الأقباط إلى عقد المؤتمر القبطى ، ودعا بعض المسلمين إلى عقد المؤتمر المصرى (الإسلامى) فى ابريل ١٩١١ ، ويقول « طارق البشرى » فى كتابه (المسلمون والأقباط ص ٦٩) . . بدأ الأمر بفكرة عقد المؤتمر القبطى قبل اغتيال « بطرس غالى » وكان « وهو رئيس للوزراء » ممن وقفوا ضد تحقيقها فجاء مقتله محرضا الدعاة على عقد المؤتمر ، أى ان « بطرس غالى » عندما كان رئيسا للوزراء كان ضد فكرة عقد (المؤتمر القبطى) ولكن اغتياله اثار الفكرة من جديد ، وهكذا فان « واصف غالى» استنادا إلى موقف والده فى رفض فكرة المؤتمر ، لم يحبذ انعقاد المؤتمر ، كما عارض المؤتمر وقاطعه «ويصا واصف» بتأثيرهما على العناصر المعتدلة أمثال « بشرى حنا وسينوت حنا ونصيف جندى المنقبادى ، وزكى خير الابوتيجى » أمكن احتواء الاتجاهات المتطرفة التى تمثلت فى « أخنوخ فانوس » الذى حاول ان يرأس المؤتمر فاعترض الأقباط كما اعترضوا على (الحزب المصرى) الذى دعا إليه اخنوخ من قبل سنة ١٩٠٨ .

على اية حال فقد اثبتت (الجماعة الوطنية المصرية) مدى قدرتها على احتواء هذا النوع من الخلاف رغم حساسيته بفضل العناصر بعيدة النظر واضحة الرؤية من الجانبين .

لذلك نراه لايحبذ فكرة مؤتمر أسيوط ويلجأ إلى صديقه وصديق والده « شيخ الشعراء » إسماعيل صبرى ليبذر بذور السكينة والوفاق لتثبت شجرة المجد والصفاء ، وكان من أثر ذلك أن وجه « إسماعيل صبرى » قصيدة عصماء داعيا إلى التخفيف من حدة العواطف ، مستنكرا جريمة الاغتيال ، ومناشدا الجميع التمسك بعروة المحبة والأخاء والوحدة .

هـذا هـو واصف غالى

وهذا هو « واصف بطرس غالى » ابن بطرس غالى باشا رئيس النظار (١٩٠٨ ـ ١٩١٠) و«بطرس باشا غالى » ولد فى إحدى قرى مديرية بنى سويف ١٨٤٦ ـ واغتيل فى القاهرة ١٩١٠»، والأسرة من مديرية بنى سويف . . وواصف هو الابن الثانى لـ «بطرس باشا غالى » وهو عم الوزير الدكتور « بطرس غالى حفيد بطرس باشا غالى »الأمين العام للأمم المتحدة حالياً .

واصف بطرس غالى ولد فى القاهرة ، فى ١٤ أبريل ١٨٧٨ فى الفجالة ، وبعد ان انهى مرحلة الدراسة الثانوية سافر إلى فرنسا لينجز دراساته فى القانون ، وبعد عودته من باريس عمل بالمحاماة ، وعينه الخديو « عباس حلمى الثانى » محررا فى (الخاصة الخديوية) عام ١٩٠٦ دون علم والده « بطرس غالى » ، وتعرف وهو فى فرنسا إلى « لويز ماجوريل » وبعد عامين من الخطبة

اصبحت زوجة له وعاونته على ان يقدم روائعه فى الأدب والنقد بالفرنسية .

وسنة ١٩١١ ترك « واصف غالى » العمل فى الخاصة الخديوية وظهرت له أعمال أدبية اشار لها « الأستاذ رءوف كامل » فى كتابه « واصف غالى - الكاتب » وهو كتاب باللغة الفرنسية لم يترجم بعد ، وبالكتاب نماذج لقصص قصيرة ، وقد قام « واصف غالى » بترجمة بعض الشعر العربى إلى اللغة الفرنسية فى كتاب بعنوان (روض الأزهار) ، ونشر هذا الكتاب فى باريس وألقى محاضرات للاشادة بفضل العرب على الثقافة الأوروبية فاقيم له حفل تكريم فى فندق شبرد سنة ١٩١٤ القى فيه « إسماعيل صبرى » قصيدة يشيد فيها بما قام به « واصف بطرس غالى » من عمل ادبى فى فرنسا ومن القاء المحاضرات الأدبية باللغة الفرنسية عن التراث العربى ، وما اغدقه العرب على الثقافة والأدب ، وترجمته لديوان البحترى إلى اللغة الفرنسية بأسلوب ممتاز .

وإذا كان نشاطه الأدبى قد بدأ وانتشر فى فرنسا فان الصحافة المصرية قد عرفته كاتبا بمقالاته خاصة بين عامى ١٩٠٨ - ١٩١٢ . وكان يحب قراءة الشعر العربى ، كما ان رسالته التى يحتفظ بها الأقارب والأصدقاء سواء باللغة العربية أو باللغة الفرنسية تعد من القطع الأدبية .

ارتفع « واصف غالى » على جراحه الشخصية فى مقتل والده « بطرس غالى » ودعا إلى وحدة الأمة وحاول جاهدا أن يسير (مؤتمر أسيوط) فى اتجاه يخدم هذه الوحدة ، وفى أعماله الأدبية ومحاضراته باللغة العربية عمل على تعريف الفرنسيين بالشعر العربى ، وبالثقافة العربية ، وعرفته الصحافة المصرية بمقالاته ذات الاتجاه القومى . . فكان من الطبيعى ان يكون « واصف بطرس غالى » هو أول قبطى ينضم إلى الوفد المصرى .

ويسجل « فخرى عبد النور » فى مذكراته ان المجالس فى القاهرة كانت تتحدث عن اجتماعات سعد زغلول وعلى فهمى مع المعتمد البريطانى « السير ريجنلد ونجت » يوم الأربعاء ١٣ نوفمبر ١٩١٣ .

ولاحظ الأقباط ان اسماء أعضاء الوفد التى ذكرت بعرائض التوكيلات ليس بينها اسم أحد من الأقباط ، وقرروا انتداب ثلاثة من الأقباط للذهاب إلى سعد باشا وعرض هذا الموضوع عليه ، واختير « ويصا واصف المحامى ، وتوفيق اندراوس من أعيان الأقصر ، وفخرى عبد النور من أعيان جرجا » ، ذهب الثلاثة إلى بيت الأمة وكان فى استقبالهم « محمد على علوبة بك » عضو الجمعية التشريعية ، وكان هناك « إبراهيم سعيد باشا ومحمد علوى الجزار بك » وكان « سعد باشا» فى اجتماع خارج الدار لمجلس إدارة الجامعة المصرية ، ثم حضر « سعد باشا » وقابل المندوبين الأقباط الثلاثة وحضر المقابلة « على شعراوى ومحمد محمود وأحمد لطفى السيد ومحمد على علوبة ومحمود أبو النصر » من أعضاء الوفد .

وظن « سعد باشا » انهم جاءوا لترشيح « ويصا واصف » فاعرب عن اغتباطه بهذا الترشيح ، إلا أن الأستاذ « ويصا » اعتذر ، وابلغوا « سعد باشا » ان المثقفين والوجهاء من الأقباط يرون ان الشخص (الحائز للصفات الكاملة المؤهلة) لعضوية الوفد هو « واصف بطرس غالى » ثانى ابناء « بطرس غالى باشا » فاغتبط « سعد باشا » لهذا الاختيار واعرب عن ثقته وتقديره لعلمه من مجلة فرنسية بها مقال لواصف غالى نشره بباريس سنة ١٩١٧ تحت عنوان (الشرق جدير بالاستقلال) .

واستقر الرأى على ترشيح « واصف غالى ، ولما كان موجودا إذ ذاك فى باريس حيث كان يقيم منذ قيام الحرب سنة ١٩١٤ ارسل له « ويصا واصف » تلغرافا بترشيحه منعته الرقابة العسكرية ثم بعثت به الرقابة إلى السفارة الانجليزية بباريس التى قامت بتسليمه إليه ، وهكذا كان « واصف غالى » أول قبطى ينضم إلى الوفد المصرى .

ويوم الجمعة ١١ أبريل سنة ١٩١٩ سافر اعضاء الوفد فى مصر من ميناء بورسعيد قاصدين إلى فرنسا وهم « على شعراوى ، وعبد العزيز فهمى ، وأحمد لطفى السيد ، ومحمد على علوبة ، وعبد اللطيف المكباتى ، وسينوت حنا ، وجورج خياط ، ومصطفى النحاس ، والدكتور حافظ عفيفى ، ومحمود أبو النصر ، وحسين واصف ، » وسافر مع الوفد « ويصا واصف ، وعزيز منسى ، وجورج دومانى ، ومحمد بدر » مترجمين لتفوقهم فى اللغة الفرنسية ، وسافر أيضا « محمود أبوالفتح » مندوبا عن الأهرام ووادى النيل ، وصبيحة الثلاثاء ١٥ أبريل وصلت الباخرة مالطة حيث انضم إلى الوفد المسافر من مصر « سعد زغلول » والزعماء الذين اعتقلهم الانجليز يوم ٨ مارس وافرج عنهم ٨ أبريل ، ووصل الجميع إلى فرنسا يوم الجمعة ١٨ أبريل فانضم إلى الوفد هناك « واصف بطرس غالى » وحمد الباسل وإسماعيل صدقى ومحمد محمود » .

صفحة مشرفة لواصف غالى مع الوفد فى أوربا وقف مع رئيس الوفد « سعد زغلول » ضد المهادنة وضد دعاة الاعتدال ، هكذا كان فى جلسات الوفد كلها ، وهكذا كان فى المفاوضات بين الوفد وبين ملنر ، وعندما قدم «ملنر» مشروعه اتجه « سعد » إلى قطع المفاوضات والعودة إلى مصر . . ولكن الجناح المعتدل رأى أن يقابل « عدلى » المفاوض الانجليزى لعله يصل إلى حد معقول، وفى يوليو ١٩٢٠ عقد الوفد جلسة فى المساء ولم يحضر الجلسة « عدلى » لأول مرة ، واختار الوفد لجنة لدراسة مشروع ملنر ووضع ملاحظات عليه وتكونت هذه اللجنة من « عبد العزيز فهمى ، ولطفى السيد ، وعلى ماهر ، ومحمد علوبة » .

وبعث (الوفد) بالمشروع النهائى إلى « ملنر » الذى كان قد وضعه فى ١٧ يوليو ١٩٢٠ . . وقال « سعد » لأعضاء الوفد : اتنتظرون بعد هذا نذيرا أو انذارا بقطع المفاوضات اصرخ من هذا واصرح ؟

وفى ٢٨ أكتوبر يسجل « محمد كامل سليم » إنه دخل عند الرئيس سعد وكان معه « واصف غالى » وسمع « سعد زغلول » يردد « انك لاتهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء » .

والأعضاء الذين حرصوا على زيارة « سعد زغلول » يوميا هم « واصف غالى ، ومصطفى النحاس ، وعلى ماهر ، وويصا واصف ، والدكتور حافظ عفيفى » .

وفى يوم ٢٥ نوفمبر قال « محمد كامل سليم » للرئيس سعد زغلول رأيه فى أعضاء الوفد . . وعن « واصف غالى » قال . . (واصف غالى عندى ـ أقل الناس طمعا وأكثر الناس تواضعا ، ولا أعرف أكثر منه وداعة ورقة وادبا واخلاصا ، وهو إلى الفيلسوف أقرب منه إلى الرجل العادى) . . فسكت « سعد » واطرق كعادته ، ثم قال : (واصف غالى متواضع فى كبرياء ، ساكن فى حركة ، شديد الحساسية ، قوى فى عاجز ، ماكر فى بساطة ، قليل الكلام كثير التفكير ، واسع الخيال ، بليغ القلم والبيان ، وعنده فى نفسه احسن رأى) .

ولقد وقف « واصف غالى » إلى جانب سعد حتى يوم العودة إلى أرض الوطن ، رحلة العودة التى بدأت من باريس ٢٩ مارس ١٩٢١ ، ووصلوا إلى تريستا ٣٠ مارس وإلى الإسكندرية ٤ أبريل والقاهرة ٥ أبريل ١٩٢١ .

وزيرا للخارجية

قليلون هم الوزراء الذين انحصر نشاطهم فى وزارة معينة ، ومن هؤلاء « واصف بطرس غالى » الذى بدأ نشاطه الوزارى وزيرا للخارجية فى الوزارة الشعبية برئاسة « سعد زغلول » ٢٨ يناير ـ ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤ ، وكان فى تلك الوزارة اثنان من (الأفندية) . . واصف بطرس غالى أفندى وزيرا للخارجية ، ومحمد نجيب الغرابلى أفندى وزيرا للحقانية .

وفى الوزارة الائتلافية (١٦ مارس ـ ٢٥ يونيه ١٩٢٨) وهى الوزارة الأولى لمصطفى النحاس نجد أن « واصف بطرس غالى » قد حصل على لقب (باشا) وتولى وزارة الخارجية أيضا وكان «محمد محمود » وزيرا للمالية واستقال بتحريض من على ماهر حتى تستقيل وزارة النحاس ولكن القصر لم يصبر على الاستقالة فاقال الوزارة النحاسية الأولى .

وللمرة الثالثة يصبح وزيرا للخارجية فى وزارة « مصطفى النحاس » الثانية من أول يناير ١٩٣٠ ـ ١٩ يونيه ١٩٣٠ ، واهتمت تلك الوزارة بمواصلة المفاوضات بسبب الخلاف حول السودان وهى القضية التى فشلت بسببها المفاوضات المصرية الإنجليزية كلها قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فاستقالت الوزارة وجاء إسماعيل صدقى » ليؤجل اجتماعات البرلمان لمدة شهر ، ثم يحل البرلمان ويلغى دستور ١٩٢٣ ، ويضع دستورا جديدا .

أما المرة الرابعة التى تولى فيها « واصف غالى » وزارة الخارجية فقد كانت فى وزارة « مصطفى

النحاس » الثالثة من ٩ مايو ١٩٣٦ ـ ٣١ يوليو ١٩٣٧ وهى أول وزارة للنحاس باشا بعد وفاة «الملك فؤاد » وفى أواخر عهد هذه الوزارة تولى « الملك فاروق » فى ٢٩ يوليو ١٩٣٧ سلطاته الدستورية ، وكانت المعاهدة قد عقدت فى أغسطس وشكل مصطفى النحاس وزارته الرابعة فى أول أغسطس ١٩٣٧ وتولى فيها « واصف بطرس غالى » وزارة الخارجية للمرة الخامسة والأخيرة ، وبفعل مناورات « على ماهر » أيضا اقيلت وزارة النحاس باشا ، ويقرر « حسن يوسف » فى عهد تلك الوزارة ظهرت ملامح سياسية خارجية مستقلة ، (كان أهم مظاهرها مايمكن أن نسميه بسياسة الانفتاح على الشرق ، تمثل ذلك فى اهتمام مصر بقضية فلسطين سنة ١٩٣٧ عندما أثار «واصف غالى » وزير الخارجية قضية فلسطين أمام عصبة الأمم) ، وكان هو ممثلا لمصر فى تلك العصبة ، وكان هذا آخر عهده بالمنصب الوزارى .

المرحلة الأخيرة

وسافر هو وزوجته إلى فرنسا سنة ١٩٣٩ وفجأتهما أحداث الحرب العالمية الثانية ، والمقاومة الفرنسية الباسلة لاحتلال النازى فلجأ إلى « فيشى » سنة ١٩٤٠ وبقيا فيها سنتين ، ثم سافرا إلى جنيف حتى عام ١٩٤٤ ، وبعد انتهاء الحرب عاد « واصف غالى » إلى مصر سنة ١٩٤٥ ، وظل بعيدا عن العمل السياسى والحزبى تقريبا حتى عينته حكومة الوفد (يناير ١٩٥٠) عضوا بمجلس الشيوخ ، ثم عين أثناء عضويته بمجلس الشيوخ عضوا بمجلس إدارة شركة قناة السويس وهو منصب له قيمته المادية ويدر على صاحبه دخلا ماليا كبيرا .

وبعد حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢ قدم استقالته من عضوية مجلس الشيوخ ولم تعد به رغبة فى العمل السياسى بأسره ، وعندما عرض عليه « على ماهر » منصب وزارة الخارجية فى وزارة ما بعد الحريق . . اعتذر بقول مشهور : (أصبحت البلاد مريضة بدرجة كافية . . وعلاجها ليس عند عجوز مثلى) ثم استقال كذلك من عضويته فى مجلس إدارة قناة السويس فى يونية ١٩٥٦ قبل شهر واحد من تأميم القناة .

ثم وقع فريسة المرض لسنتين كاملتين تنقل فيهما للعلاج بين مصر وفرنسا حتى توفى فى ١٠ يناير ١٩٥٨ ، والذين اقتربوا منه يلخصون سلوكه وحياته فى عنصرين : الكرامة والوفاء .

الأســانيد :

١ ـ حسن يوسف . . مذكرات .
٢ ـ رءوف كامل . . الكاتب واصف غالى . (بالفرنسية) .
٣ ـ طارق البشرى . . المسلمون والأقباط .
٤ ـ فخرى عبد النور . . مذكرات .
٥ ـ محمد كامل سليم . . أزمة الوفد الكبرى .
٦ ـ نجيب توفيق . . إسماعيل صبرى شيخ الشعراء .

الدكتور وحيد رأفت



تلقى الرئيس « محمد حسنى مبارك » بالحزن والأسى نبأ وفاة المغفور له « الدكتور وحيد رأفت » الذى كان مصريا عظيما فى ولائه وانتمائه وعطائه وفى خلقه الرفيع وتمسكه بالقيم السامية والمثل العليا طوال حياته الحافلة .

وجاء فى البيان كذلك . . (لقد وهب الفقيد نفسه لخدمة بلاده والدفاع عن قضاياهم فلم يتوان يوما عن اداء واجبه الوطنى بموضوعية نادرة والتزام تام بالأمانة العلمية وتمسك شجاع بالحق والمبدأ وتنزه عن الهوى والغرض وحرصه على وضع المصالح العليا للوطن فوق كل اعتبار . . وقد كانت حياة الدكتور وحيد رأفت كلها سلسلة متصلة من العمل الهادف والعطاء المستمر وسوف تظل سيرته العطرة علامة مضيئة فى تاريخ الوطنية المصرية ونموذجا مشرفا أمام الأجيال المقبلة من أبناء مصر . .) .

كان هذا ما أذاعه مصدر رسمى فى أعقاب إعلان نبأ وفاة « الدكتور وحيد رأفت » الذى وافاه الأجل المحتوم فى الصباح الباكر من يوم الثلاثاء ١٢ مايو ١٩٨٧ .

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يتحدث فيها الرئيس « محمد حسنى مبارك » عن فقيد الوطن . . فى خطاب عام فى نوفمبر ١٩٨٦ قال « الرئيس » : إنه قرأ مقالا للدكتور وحيد رأفت أستاذ الفقه الدستورى الذى يمارس العمل السياسى من موقع المعارضة المضيئة . . واضاف الرئيس ان المقال قد تضمن تفسيرا عن التجاوزات فى السلوك بأنها تمثل أزمة اخلاقية . . وانه قال عن حرية الصحافة انها يجب أن تكون لها حدود ككل حرية . . وأن الديمقراطية قادرة على التعايش فى كل الظروف . . وأن الديمقراطية تعالج نفسها بنفسها .

الخبرة القوميـة

وقد أشاد الرئيس مبارك بهذه الخبرة القومية فى الوقت الذى كان فيه « الدكتور وحيد رأفت » فى موقع نائب رئيس حزب الوفد المعارض .

وعندما كان الوفد فى الحكم سنة ١٩٥٠ ، ولم يكن « الدكتور وحيد رأفت » عضوا فى الوفد ، اختارته الحكومة المصرية لتمثيلها فى هيئة التحكيم المصرية السعودية لفض النزاع بين سوريا ولبنان حول المشكلات الحدودية والقانونية التى نشبت بين البلدين وقت ذلك .

بل أن « مصطفى النحاس باشا » رئيس الحكومة قد طلب منه بصفة سرية ان يشارك فى دراسة الغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ ، المبرمة بين مصر وبريطانيا ، هذا الالغاء الذى أعلنه « النحاس باشا» فى ٨ أكتوبر سنة ١٩٥١ .

وقد رشحته الحكومة المصرية فى عام ١٩٨٢ ليكون العضو المصرى فى هيئة التحكيم بين مصر وإسرائيل حول نزاعهما على الحدود الشرقية وخاصة فى منطقة طابا . وله فى تلك المسألة بحث باللغة الانجليزية .

وحول مشكلة طابا يقول الدكتور وحيد رأفت إن علامات ١٩٠٦ هى الحدود الحقيقية وهى الحدود الدولية لمصر ، وطالما ان الجانبين المصرى والاسرائيلى يعترفان بأنها الحدود الدولية فان المسألة تتعلق بالكشف عن علامات لا أكثر ولا أقل . واسرائيل تعلم تماما أن طابا مصرية مائة فى المائة ولكنها تنظر إلى هذه المنطقة على أنها مسمار جحا حتى يمكنها دائما المساومة وهذا ثابت من الشروط التى تقدمت بها للموافقة على قبول مبدأ التحكيم . . واسرائيل يسيل لعابها إلى مياه الآبار الموجودة فى المنطقة ، وكلنا نعلم مدى حاجة إسرائيل للمياه ، ثم أن وجود طابا على خليج العقبة يزيد من مساحة الشرفة البحرية الإسرائيلية ، بالإضافة إلى أن طابا صمام أمن فى مفترق الطرق إلى السويس والعريش . . ويضيف الدكتور وحيد رأفت إذا كنا لم نتنازل عن طابا لتركيا وقد كانت مصر جزءا من الدولة العثمانية فهل نتنازل عنها لاسرائيل ؟!

وقد بذلت هيئة الدفاع المصرية وفى مقدمتها « الدكتور وحيد رأفت » جهدا كبيرا لاعداد المذكرة على أفضل وجه وتدعيمها بالوثائق والمستندات . وتقع المذكرة المصرية فى ٤٥٠ صفحة مرفقا بها ملحق يضم الوثائق والمستندات ويزيد عدد صفحات المرفق على ١٠٠٠ صفحة . كما تقدم مصر ايضا اطلسا خاصا يضم عددا هائلا من الخرائط وجميعها تؤكد حق مصر . هذا وقد أشرف «الدكتور وحيد رأفت » وأسهم فى إعداد مذكرة الدفاع المصرية عن طابا ، كما تولى المتابعة والإشراف ، وأسهم فى إعداد مشارطة التحكيم .

على النطـاق العربى

ولم تكن جهوده وخبراته مقصورة على بلده مصر ، وإنما تعدتها إلى البلاد العربية ، ففى عام ١٩٦٤ طلبته حكومة الكويت ليكون رئيسا لادارة الفتوى والتشريع بها ، ثم خبيرا قانونيا لسمو أمير الكويت حتى تاريخ عودته إلى مصر فى أبريل عام ١٩٧٢ بناء على رغبته .

وخلال تلك الفترة ، اختارته دولة اتحاد الإمارات العربية بالخليج لإعداد دستور للاتحاد . وقد طاف يصحبه وفد برئاسة وزير خارجية الكويت الشيخ صباح الأحمد الجابر بهذه الإمارات فى سنتى ١٩٦٨ ، ١٩٤٩ لهذا الغرض واعد الدستور الاتحادى لهذه الإمارات .

ثم اختارته دولة الكويت مندوبا عنها فى اللجنة القانونية التى انعقدت فى جنيف (سويسرا) فى عامى ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ لإعداد مشروع اتفاقية عربية لضمان الاستثمارات تنفيذا لقرارات مجلس الجامعة العربية .

ونعود بالذاكرة إلى عام ١٩٥١ حين حصل « الدكتور وحيد رأفت » على وسام الرافدين العراقى، ووسام أمية السورى ، وذلك تقديرا لاسهامه فى مناقشة وصياغة مشروع معاهدة الضمان الجماعى والتعاونى الاقتصادى بين دول الجامعة العربية .

أكثر من هذا فقد اجتاز بكفاءته العلمية حدود مصر وحدود البلاد العربية إلى النطاق الدولى ، فقد اختارته كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا) سنة ١٩٣١ للمشاركة فى مسابقات الأجرجسيون لاختيار الأساتذة بكليات الحقوق الفرنسية .

وحصل على وسام من مركز (السلام من خلال القانون) بمناسبة انعقاد مؤتمر هذا المركز فى القاهرة فى سبتمبر ١٩٨١ .

النشـاط العلـمى

وأمامى المذكرة التى تقدمت بها (الجمعية المصرية للقانون الدولى) لترشيح « الأستاذ الدكتور وحيد فكرى رأفت » لجائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية والقانونية ، والتى حصل عليها عام ١٩٨٤ ، مجهودات يفخر بها كل مصرى ، وتؤكد قيمة الثقافة والعلم فى بناء مصر ، وتدعو للزهو بمشاركة هذا المثقف فى الحياة السياسية والحزبية .

تسعة مؤلفات الأول بالفرنسية سنة ١٩٣٠ عن قضية السلام الدولى ، والأخير بالانجليزية سنة ١٩٨٢ عن (مشكلة طابا بين مصر وإسرائيل) . وفيما بين هذين العملين سبعة أعمال أخرى

عن . . مبادئ القانون الدستورى ، ومبادئ القانون الإدارى ، ورقابة القضاء على أعمال الدولة ، واتحاد الإمارات العربية المتحدة ، والعالم العربى والاستراتيجية السوفيتية ، وفصول من ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ودراسة فى القوانين المنظمة للحريات .

ثم مقالات باللغة الفرنسية نشرت فى مجلات تصدر فى باريس ومقالات عديدة باللغة العربية نشرت بالمجلة المصرية للقانون الدولى .

هذا إضافة إلى مناقشة رسائل عديدة للدكتوراه ولاسيما بكلية الحقوق ، وإضافة إلى فتاويه العديدة المحفوظة بسجلات وزارة الخارجية المصرية عندما كان مستشارا للرأى بمجلس الدولة لهذه الوزارة .

وقد حصل على شهادة الليسانس من كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول (القاهرة) فى عام ١٩٢٦ . وسافر إلى باريس وحصل على الدكتوراه فى القانون العام سنة ١٩٣٠ ، وبعد دخوله فى مسابقات الاجرجسيون التى أشرنا إليها من قبل عاد فى فبراير ١٩٣٥ إلى مصر للتدريس بكلية الحقوق جامعة فؤاد الأولى فى قسمى الليسانس والدكتوراه حتى رقى إلى درجة أستاذ لكرسى القانون العام سنة ١٩٤٠ ، وعين قاضيا بمحكمة الإسكندرية المختلطة فى فبراير ١٩٤٢ ، وبقى فى هذا المنصب حتى عام ١٩٤٦ ، وفى سبتمبر ١٩٤٦ عين مستشارا بمجلس الدولة بالقاهرة عند انشائه ، وذلك بقسم التشريع ثم قسم الرأى كمستشار لوزارتى الخارجية والعدل حتى عام ١٩٥٢ . واستقال فى سبتمبر ١٩٥٢ وعمل بالمحاماة حيث ترافع فى قضايا عديدة أمام القضاء العادى والقضاء الإدارى وأمام محكمة الغدر ومحكمة الثورة ومحاكم أمن الدولة العليا .

وحيـد فى شجـاعته

واستعير هنا عنوان المقال الذى كتبه غداة رحيله الزميل « جمال بدوى » عن موقف يتسم بالشجاعة الأدبية . والصلابة الفكرية ، والانتصار للحق حتى لو كلفه ذلك ان يقف وحيدا فى جانب المثل العليا . . بعد أسبوع واحد من استيلاء الضباط على السلطة كان « وحيد رأفت » يسبح وحده ضد التيار حفاظا على مبادئ الدستور ، وتمسكا باحكام القانون ، ويحكى «الدكتور وحيد رأفت » تفاصيل هذه الجلسة التاريخية فى مجلس الدولة .

دعيت أنا وزملائى رؤساء إدارات الفتوى والتشريع بمجلس الدولة فى ٣١ يوليو ١٩٥٢ إلى جلسة طارئة ، ولم يتخلف عن الاجتماع أحد من مستشارى قسم الرأى وكنت وقتها رئيسا لإدارة الرأى بمجلس الدولة لوزارتى الخارجية والعدل وفوجئنا بحضور رئيس مجلس الدولة الدكتور عبد

الرزاق السنهورى ليرأس الاجتماع بنفسه ، بينما كان يترأس اجتماعاتنا عادة الأستاذ سليمان حافظ بحكم منصبه كوكيل مجلس الدولة لقسمى التشريع والرأى . وأخذ الدكتور السنهورى يعرض علينا الموضوع المطلوب أخذ رأينا فيه والذى دعينا من أجله للجلسة الطارئة .

وعبثا حاولت اقناع زملائى المستشارين فى ذلك الاجتماع التاريخى الذى استغرق حوالى الساعتين والنصف بأن الدساتير الملكية لاتتحدث عادة عن خلع الملوك أو تنازلهم عن عروشهم بل تتناول الحالة الغالبة التى لامفر منها فى حياة الملوك كسائر البشر وهى حالة وفاة الملك . وان هذا ما انصرف إليه ذهن واضعى دستورنا الملكى الصادر سنة ١٩٢٣ . . غير ان الدكتور السنهورى اصر رحمه الله على أننا بصدد ثغرة فى تشريعنا الدستورى لم يرد موضوعها على ذهن واضعى هذا الدستور . وان ملء هذه الثغرة لايكون بطريق التوسع فى تفسير النص القائم بل استكماله بتشريع جديد . ولما كان تعديل الدستور نفسه يستدعى اجراءات مطولة واشراك البرلمان فيها وهو غير قائم فلا بأس من تعديل الأمر الملكى الصادر فى ١٣ أبريل ١٩٢٢ بشأن توارث العرش . وعند اخذ الأصوات بعد هذه المناقشة التى شارك فيها عدد من المستشارين الحاضرين كنت وحدى صاحب الرأى القائل بأن يجرى على تنازل الملك عن العرش ما يجرى على حالة وفاته وانه يتعين بالتالى أعمالا لاحكام دستور سنة ١٩٢٣ والأمر الصادر فى ١٣ أبريل ١٩٢٢ بشأن توارث العرش دعوة مجلس النواب المنحل ومجلس الشيوخ إلى الانعقاد فورا لاختيار هيئة الوصاية على العرش ولكى يؤدى الأوصياء اليمين الدستورية أمامها بينما انقاد زملائى الآخرون إلى جانب رأى الدكتور السنهورى ووكيله سليمان حافظ وصدرت الفتوى من قسم الرأى بهذا المعنى ، بل وذهب المرحوم سليمان حافظ إلى حد اقتراح أن تتضمن الفتوى الصادرة منا دعوة الحكومة إلى استخدام القوة إذا ما حاول مجلس النواب الوفدى المنحل الانعقاد من تلقاء نفسه تمسكا بظاهر نص الدستور . وهنا ثرت فى وجه الزميل سليمان حافظ مذكرا بانه لايليق بسدنة القانون أن يستعدوا الحكومة على نواب انتخبهم الشعب لتمثيله واضفت وهو ما اثبته هنا للذكرى التى قد تنفع المؤمنين اننا بصدد انقلاب عسكرى لايعلم إلا الله أين سيقود البلاد وان واجبنا ان نتضافر لمواجهة ما يصاحب هذه الانقلابات من خطر على الحريات .

وفى أوائل سبتمبر سنة ١٩٥٢ قدم « الوحيد فى شجاعته » استقالته من مجلس الدولة وتفرغ للعمل فى المحاماة . .

وأصبحنا منذ ذلك الحين أمام ثلاثة من رجال القانون والفقه الدستورى . . الدكتور عبد الرازق السنهورى رئيس مجلس الدولة والأستاذ سليمان حافظ وكيل مجلس الدولة والدكتور وحيد رأفت رئيس قسم الرأى والتشريع . . الأول الدكتور عبد الرازق السنهورى كان من الوفديين القدامى الذين خرجوا فى انقسام أحمد ماهر والنقراشى وإبراهيم عبد الهادى . . ونراه هنا فى الأسبوع الأول من استيلاء الضباط . الأحرار على السلطة ، وبعد تنازل الملك فاروق عن العرش بناء على انذار من السلطة الجديدة . . واختارت تلك السلطة هيئةللوصاية على العرش . . تراه هنا لايعمل أحكام القانون ولايحرص على تطبيق الدستور بدعوة مجلس النواب الوفدى ويلتقى السنهورى هنا مع رغبة « على ماهر » الخصم العنيد للوفد ، ورجل الديوان الملكى من قبل ، ورئيس الوزراء باختيار السلطة الجديدة . . وهو الذى استصدر مرسوم تعطيل البرلمان غداة حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ . والتقى السنهورى أيضا مع الرغبة الخفية لقادة الحركة وفى مقدمتهم جمال عبد الناصر فى فرض حكم دكتاتورى وان تظاهروا وصرحوا بعبارات حول الديمقراطية والحياة النيابية . . أما وقد حقق السنهورى بمهارته وبثقافته القانونية أولى رغبات السلطة الجديدة فى الدوران حول الدستور المعمول به ذلك الحين . . فلا بأس ان تستمر الحركة فى الغاء الدستور ذاته! وفى تشكيل لجنة وهمية لاعداد دستور جديد لايوضع موضع التنفيذ . . واخيرا حين حاول «الدكتور السنهورى » ان يسترد هيبته أرسلوا إليه فى مجلس الدولة بعض الصبية المأجورين من عمال النقل ، وبعض العاملين فى مديرية التحرير ، وبعض رجال الحرس الوطنى فى ملابس مدنية ليضربوه فى مقر مجلس الدولة نفسه ، وهو على أعلى كرسى للقانون فى مصر ، وليسمع بأذنيه هتافات بسقوط الحرية وبسقوط الحياة النيابية . . ويدرك ان أول خطوة ضد الدستور وضد القانون اتخذها فى ٣١ يوليو ١٩٥٢ جعلت من رجال ٢٣ يوليو لايقبلون منه سوى السير معهم على طول الخط فى هذا المشوار المعاكس للدستور وللقانون وللحرية .

والثانى . . الأستاذ سليمان حافظ من رجال الحزب الوطنى الذين سحب (الوفد) الأرضية الشعبية من تحت أقدامهم ، وحولهم من حزب له افكار ومواقف إلى مجموعة لايفعلون سوى زيارة اضرحة الزعماء فى المناسبات . التقت احقاده القديمة مع الرغبة الحقيقية لرجال ٢٣ يوليو فى ضرب الوفد وفى تمزيق أغلبيته الشعبية وفى محاصرة زعامة « مصطفى النحاس » أصبح سليمان حافظ وزيرا للداخلية ثم نائبا لرئيس الوزراء وتعهد بتفصيل القوانين والفتاوى حسب الطلب وحسب المقاس . . المهم حل الأحزاب . . المهم هو الغاء رئاسة النحاس للوفد . . المهم هو ضرب القادة التقليديين للوفد . . أخذ القادة الجدد منه كل شىء . . ولم يبق منه شىء للتاريخ

فاطيح به فى أزمة مارس ١٩٥٤ وعاد لمزاولة المحاماة ثم اعتقله « جمال عبد الناصر » أبان العدوان الثلاثى على مصر فى نوفمبر سنة ١٩٥٦ .

أما الفارس الثالث . . وهو الدكتور وحيد رأفت فهو فارس الرأى الشجاع . . الذى قال كلمته دون ان يهاب الحراب المشرعة أيامها .

فـارس الرأى الشجاع

. . ومنذ الأيام الأولى لاستيلاء الجيش على السلطة كان « وحيد رأفت » ثابت الخطى واضح الرؤية حريصا على أعمال أحكام القانون والدستور حتى وقف « وحيدا » داخل مجلس الدولة . . وكان ذلك كما رأينا فى ٣١ يوليو ١٩٥٢ .

ونلقاه على صفحات جريدة الأهرام فى ٢٤ أغسطس و٥ و١٣ سبتمبر ١٩٥٢ يكتب ويرد فى شجاعة منقطعة النظير غير حاسب لعواقب ما تأتى به الأيام وغير ناظر لرضاء السلاطين الجدد . . ويرد على مانشره أحد أساتذة القانون الدستورى المشهورين « الدكتور سيد صبرى » الذى كان قد كتب عدة مقالات فى جريدة الأهرام ابتداء من ٣١ يوليو تحت عنوان (الفقه الدستورى) ويدعو إلى سقوط الدساتير القائمة وانتهى إلى أن ما حدث يوم ٢٣ يوليو هو ثورة ، وبالتالى فان دستور ١٩٢٣ قد سقط تلقائيا بنجاح ثورة يوليو ١٩٥٢ . ويرد « الدكتور وحيد رأفت » بأنه من العسير ان ينعقد الاجماع على وصف ما تم خلال الأيام الأربع الأولى من حركة الجيش بأنه ثورة ، لان مفهوم الثورة فى نظر ـ د وحيد رأفت ـ يتمثل فى انتفاضة جماهيرية آتية من القاعدة الشعبية .

ونراه بعد ذلك فى مجلس الدولة ، وفى محاكم الغدر والثورة محاميا شجاعا عن حق الوفد كحزب ، ومفندا فى جسارة ما يذهب إليه زميله السابق فى مجلس الدولة « سليمان حافظ » من حق السلطة فى تقييد حريات الأحزاب . وفى اختيارها لزعماء الأحزاب وشخصياتها القيادية . . ومؤكدا رأيه الثابت إننا أمام انقلاب وليس ثورة . .

وفى أزمة فبراير ومارس ١٩٥٤ . نراه ينحاز صراحة إلى حق الشعب فى حكومة مدنية ، وفى حكم نيابى . . فيرشحه بعض قادة الجيش رئيسا لحكومة نيابية تنفذ قرارات ١٥ و٢٠ مارس ١٩٥٤ . ولكن المناورات والرغبة فى السلطة كانت أقوى من النوايا الطيبة . . واطيح بكل هذه القرارات التى أعلنوها على الشعب .

ويعتقلونه عام ١٩٥٧ بسبب وجهة نظر ابداها ولم تنشر . . وينتهى به المطاف نائبا لرئيس

حزب الوفد الجديد . . يبدى الرأى فى شجاعة ، ويتخذ الموقف فى موضوعية ، ويسلك طريقه فى نزاهة فكرية .

مسيرة طيبة

وفارسنا الشجاع . . داهمته أزمة قلبية فجر يوم الثلاثاء ١٢ مايو ١٩٨٧ واجمعت الأمة احزابا وإفرادا ، حكومة وشعبا ، إننا فقدنا رجلا عظيما نزيها مستقيما شجاعا عمل من أجل مصر فى حدود ما كان يرى . .

والدكتور « وحيد فكرى رأفت » ولد بالقاهرة فى ١٨ مارس ١٩٠٦ وكان والده طبيبا فى الحرس الملكى أيام الملك فؤاد . وهو من قرية (باسوس) محافظة القليوبية . وأمه من عائلة (الشمسى) . . درس المرحلة الابتدائية فى مدرسة الناصرية ، وحصل على البكالوريا فى المدرسة السعيدية ، وحصل على ليسانس الحقوق عام ١٩٢٦ ، وعلى الدكتوراه فى القانون العام من باريس ١٩٣٠م . وبعدها كانت مسيرة طيبة حاولنا ايجازها فى السطور السابقة . .

الأسـانيد :

١ ـ الجمعية المصرية للقانون الدولى . . مذكرة ترشيح الدكتور وحيد رأفت لجائزة الدولة التقديرية ١٩٨٤ .

٢ ـ الأهرام (جريدة) : ١٣/ ٥/ ١٩٨٧ .

٣ ـ جمال بدوى . . مقال بجريدة الوفد ١٣/ ٥/ ١٩٨٧ .

٤ ـ د . وحيد رأفت . . فصول من ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

ويصا واصف



فى مديرية جرجا ، وحاليا محافظة سوهاج ، وعلى وجه التحديد فى مدينة صغيرة بالصعيد ، مدينة طهطا التى أنجبت رائد النهضة الفكرية الحديثة « رفاعة رافع الطهطاوى » وفى حى متواضع من هذه المدينة الصغيرة تجاورت عائلة « الببلاوى » وهى تعمل بالتجارة ، وعائلة (رافع) التى يعمل أفرادها فى فلاحة الأرض وزراعتها وكان بين هاتين الأسرتين ود وعلاقة طيبة .

وأنجبت أسرة (بدوى رافع) ابنها « رفاعة » الذى أثار وجدان وعقول المثقفين فى مصر وكان ذلك سنة ١٨٠١ ، أما أسرة (الببلاوى) فكان عميدها على شىء من اليسر إذا كان يعمل بالتجارة بين مصر والسودان ، وفى ١٢ مايو ١٨٧٣ ولد « ويصا واصف ميخائيل » . . وتعلم فى مدارس طهطا حتى نال شهادة الابتدائية ، وجاء مع والده إلى القاهرة وتعلم فى مدارس أهلية مختلفة ثم نال شهادة البكالوريا (أو الثانوية العامة حاليا) من المدرسة التوفيقية العتيدة بشبرا ، والتحق بعدها بمدرسة لاعداد المعلمين ، وكان ناظرها فرنسيا ، وقد أنس فى الفتى نبوغا فأرسله لاتمام دراسته بفرنسا ، ووصل باريس سنة ١٨٨٩ ليتعلم العلوم هناك ويعود إلى مصر سنة ١٨٩٤ بعد أن قضى ثلاثة أعوام بمدرسة المعلمين الابتدائية بفرنسا وعامين فى المعلمين العليا بباريس.

وعادات الصعيد هى عادات الصعيد . . فقد ربط له والده مبلغا هاما فى حزام حول وسط «واصف » وتأفف الشاب ، فوضع مبلغا آخر فى جيوبه ، وفى مرسيليا اكتشف واصف أن ماوضعه فى جيوبه قد سرق . . وبقى له المبلغ الذى وضعه له والده فى الحزام حول وسطه . .

بعــد العــودة

عاد إلى مصر ، وعين مدرسا للعلوم بمدرسة رأس التين الثانوية بمدينة الإسكندرية . . وكان يهيمن على التعليم فى ذلك الزمان المستشار الانجليزى « دانلوب » لنظارة المعارف وكان يحارب التعليم الفرنسى واللغة العربية على السواء مما دفع « الشاب ويصا واصف » إلى ان يشن حملة ضد الانجليز وضد سياسة دانلوب وضد الأسلوب السائد فى التعليم وكانت تلك المقالات يرسلها إلى (جريدة اللواء) التى يصدرها « الزعيم مصطفى كامل » فأرسل المشرفون على الجريدة فى طلب هذا الشاب المتعلم والمتحمس وبدأت علاقته بالحزب الوطنى أو بما عرف بعد ذلك بالحزب الوطنى .

ولكن الفتى يتردد بين فرنسا ومصر لدراسة القانون إذ كانت المحاماه والعمل السياسى صنوان فى ذلك الزمان ، ويحصل على ليسانسية الحقوق من جامعة (اكس) فى فرنسا سنة ١٩٠٢ ليستقيل من عمله بالتدريس ، ويلتحق بمكتب المحامى « انطون سلامة » بالإسكندرية ثم مكتب « مرقص حنا باشا » بشارع الفجالة بالقاهرة .

ويقترب « ويصا » من الزعيمين « مصطفى كامل ومحمد فريد » نقرأ فى كتاب المؤرخ « عبد الرحمن الرافعى » عن (محمد فريد). . وفى جريدة اللواء فى ٢٨ ديسمبر ١٩٠٧ ان « ويصا واصف » اختير فى اللجنة الإدارية للحزب الوطنى ضمن ثلاثين عضوا لهذه اللجنة . . وهكذا أصبح من قادة الحزب الوطنى إلى جانب الأعضاء البارزين أمثال « محمد بك فهمى وعلى حشمت، واسماعيل لبيب ، ومحمد حافظ رمضان ، وفؤاد سليم حجازى » وآخرين كثيرين . .

ويبدو أن الحال داخل (الحزب الوطنى) بدأ يتغير بعد رحيل مؤسسه « مصطفى كامل » وفتور بريقه على الحزب ، وضعف قبضة الزعيم الجديد « محمد فريد » وظهور أجنحة متضاربة داخل الحزب . . وابرزها جناح « عبد العزيز جاويش » الذى كان يدعو بحماسة وبقدر كبير من التطرف إلى الارتباط بالدولة العلية (يقصد الدولة العثمانية) . . وبدأ شعار (مصر للمصريين) الذى كان يردده « محمد فريد » نفسه يتوارى ، فيخرج على الحزب عدد من عناصره الهامة ، ومنهم « ويصا واصف » الذى استقال من الحزب الوطنى فى ٦ أغسطس ١٩٠٨ أى بعد ستة أشهر من رحيل مصطفى كامل .

واحس الاحتلال بخطر دعوة الحزب الوطنى إلى الاستقلال ، ودعوة حزب الأمة وخاصة صفوفه المستنيرة إلى (مصر للمصريين) وليست للانجليز أو الدولة العثمانية . . فتجمعت عناصر كثيرة لتبث الفرقة داخل الوطن بين المسلمين والأقباط . . الاحتلال بأساليب ماكرة ، والدولة العثمانية بأساليب متخلفة ، والخديوى عباس الثانى بأساليبه الملتوية ، وعناصر من بين الأقلية

والأغلبية على السواء . . ولسنا بصدد أن نذكر هذه الأسماء أو تلك ، وإنما نسوق الوضع العام لنلقى الأضواء على رجل وقف بصدق وحزم ضد الاتجاهات الانقسامية ، فعارض (مجتمع الاصلاح القبطى) وعارض قيام (الحزب المصرى) وكلاهما من عناصر واحدة كانت تنشر دعايتها تحت شعار (النظر فى الأمور الداخلية للأقباط) .

وعندما عقد المؤتمر القبطى فى أسيوط سنة ١٩١١ وعقد المؤتمر الإسلامى فى مصر الجديدة فى السنة نفسها . . كان موقف «ويصا واصف» واضحا وحازما ومحذرا من دسائس عناصر الأرساليات الأجنبية وعناصر التبشير البروتستانتية ورافضًا لكل دعوة طائفية ، وصارخا بشعار الوحدة الوطنية أيا كانت الجزئيات التى يسوقها المؤتمرون . وفى المقابل كان موقف « أحمد لطفى السيد » فى المؤتمر المصرى (الإسلامى) رافضا لأية اتجاهات طائفية وداعيا للأخاء الوطنى ، وخرجت جريدة (الوطن) التى كانت تصدر فى ذلك الحين ، ووقفت خلف مؤتمر أسيوط ووجهت حملة قاسية ضد « ويصا » وهى ترهب العناصر الأخرى التى ترفض الاتجاه الطائفى أطلقت عليه لقب « يهوذا الاسخريوطى » . . ويهوذا هذا (حسب رواية الانجيل) هو الذى خان السيد المسيح وأسلمه لليهود بثمن بخس هو (ثلاثين من الفضة) .

وجدير بالذكر أن « واصف غالى » كان له موقف مماثل لموقف « ويصا واصف » وكتب « عبد القادر حمزة » الذى حضر المؤتمر فى جريدة (الأهالى) أن موقف الأقباط من خارج المؤتمر وموقف العناصر المستنيرة داخل المؤتمر أدت بالمجتمعين إلى الحفاظ على هذه الجماعة الوطنية ونبذ الطائفية ، وإن أشارت إلى بعض المطالب الخاصة .

الوفد والثورة

وظل الحال على هذا المنوال . . مد وجزر . . تطرف واعتدال . . شد وجذب . . هدوء وتوتر . . حتى قام (الوفد) كمؤسسة سياسية ، وتكونت قيادته على (الوطنية المصرية) دون النظر إلى العقيدة الدينية . . وكان لسعد زغلول الذى نشأ على أفكار «الشيخ محمد عبده » . . وكان لقادة الوفد وتكوينهم الفكرى . . الأثر الكبير فى أن تقوم هذه المؤسسة وتستمر على مبدأ (الوطنية) دون النظر إلى العقيدة الدينية للمواطنين . .

وهكذا ، فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨ يذهب ثلاثة لمقابلة المعتمد البريطانى هم « سعد زغلول ، وعلى شعراوى ، وعبد العزيز فهمى » وبعد المقابلة يذهب ثلاثة من الأقباط هم « فخرى عبد النور ، وويصا واصف ، وتوفيق اندرواس » لمقابلة « سعد زغلول » ويتحدثون حول اشتراك الأقباط فى الوفد . . ويختار « سعد » ويصا واصف لما عرف عنه من مواقف سابقة . . فيستأذن

«ويصا واصف » فى أن يرشح « واصف غالى » . . وكان « المرحوم واصف غالى » فى باريس فاتصل به « ويصا واصف » حتى انه كتب عنه دراسة باللغة الفرنسية سنة ١٩٣٥ بعنوان «المجاهد ويصا واصف » ، وكان هناك وعد من أسرة المرحوم « ويصا واصف» بأن تصلنى هذه الدراسة ، ولكنها لم تكن فى متناول اليد حتى كتابة هذه السطور .

وقامت الثورة الكبرى ، وسعد العظيم على موعد معها أو هى على موعد معه ، ويعود سعد وصحبه بعد الاعتقال ، وفى أبريل ١٩١٩ يسافر الوفد إلى باريس ، ويسافر معه كواحد من المستشارين للوفد « ويصا واصف » وهنا يقرر الوفد ضم «ويصا» إلى عضويته رسميا .

صراع فى أوروبا

ونجحت الثورة باجماع المصريين على مقاطعة لجنة ملنر التى جاءت إلى مصر بحجة إجراء تحقيق فى أسباب قيام هذه الثورة القومية ، وتقديم الاقتراحات المناسبة ، لتسوية بين بريطانيا ومصر .

وعادت اللجنة إلى لندن وتبعث بريطانيا إلى « سعد زغلول » فى باريس للحضور إلى لندن لاجراء المفاوضات . . واتجه «سعد» إلى رفض هذا الطلب إلا أن الجناح الذى يؤيد « عدلى يكن » أو يؤيده « عدلى يكن » ظل يضغط على « سعد » حتى وافق على السفر إلى لندن فى ٥ يونيه ١٩٢٠ ، وفى لندن وفى باريس يدور صراع هائل بين الوفد من جهة وبين المفاوض الإنجليزى من جهة أخرى ، وبين سعد من جهة وعدلى ومؤيديه من جهة أخرى . . وكان سعد يميل دائما إلى قطع المفاوضات والعودة إلى مصر ، وكان يعود من لندن أحيانا إلى باريس يأسا من المفاوضات ومن مراوغة الانجليز . . وفى الفترة التى كان فيها «ويصا واصف » فى أوروبا كان دائما مع المجموعة التى وقفت بصلابة إلى جانب سعد . . ولم يستمر « ويصا » كثيرا فى أوروبا لأننا نجده بعد ذلك فى مصر مع « مصطفى النحاس وحافظ عفيفى » ، ويرد ذكر اسمه دائما فى البرقيات الشفرية التى كانت تصل من مصر إلى « سعد » فى أوروبا سواء فى لندن أو فى باريس ، وتحمل توقيعات « مصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفى » إلى « سعد » لتنقل له أخبار الحركة الوطنية فى مصر ، وأخبار التحركات الشعبية ، وموقف الاحتلال الانجليزى ، وموقف العناصر السياسية الأخرى ، وكان « محمد كامل سليم ، السكرتير الخاص لرئيس الوفد يقوم بحل هذه البرقيات الشفرية .

ووصل الوفد فى أوروبا إلى مرحلة خطيرة . . غالبية الوفد « عبد العزيز فهمى ، وأحمد لطفى

السيد ، وحمد الباسل ، وعبد اللطيف المكباتى ، ومحمد محمود ، ومحمد على علوبة » أصبحوا يضيقون بتطرف « الرئيس سعد » وبتشدده فى المفاوضات ، وأصبحوا يميلون إلى (حكمة عدلى وحسن تدبيره) على حد تعبيرهم .

وأصبح « الرئيس سعد » يضيق بهذا الفريق ولا يثق بهم ولم يكن من رأيه سوى « على ماهر وواصف غالى وسينوت حنا » .

ووصل « عدلى يكن » مع الانجليز إلى صيغة معينة من الاتفاق لم يرض عنها « سعد » وقرر قطع المفاوضات إلا أن الأغلبية قررت ايفاد (أربعة) إلى مصر لعرض الاتفاق على الشعب . . على غير رغبة من « سعد » الذى عاد إلى باريس فى ١٦ أغسطس ١٩٢٠ ومعه واصف غالى وسينوت حنا .

وقد لا حظ الثلاثة « مصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفى » أن المندوبين الأربعة يعرضون الاتفاق بطريقة تجعل الناس يميلون إلى قبوله وليس بأسلوب محايد . . فيسافرون إلى باريس فى ٤ أكتوبر ويضعون الموقف على حقيقته أمام « الرئيس سعد » . ويصل الأمر داخل الوفد إلى مايشبه الانقسام ، وكان الوفد قد عاد إلى لندن فى ٢٠ أكتوبر ووصل « سعد » إلى اقتناع بقطع المفاوضات . . وهو فى هذه الحالة من الضيق نقرأ لمحمد كامل سليم : ـ

فى هذه اللحظة دخل الحجرة مصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفى وعلى ماهر وواصف غالى ، وهم من رأى الرئيس وعاطفته واتجاهه حضروا لتبادل الرأى والحديث بين الزملاء المستشارين فى النظرة والمسلك والمشرب ، ولقد اغتبط بمقدمهم أشد الاغتباط ، واحتفى بهم الرئيس احتفاء فيه حرارة ومعه ابتسام . .

وعاد الوفد من لندن إلى باريس فى ١١ نوفمبر على دفعات . . ولنتأمل هذه الدفعات لنرى النظرة المتشابهة والمشرب الواحد الذى تحدث عنه سكرتير « سعد باشا » . .

الدفعة الأولى : الرئيس سعد وعلى ماهر وواصف غالى ، وسينوت حنا معهم (مصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفى) .

الدفعة الثانية : عبد العزيز فهمى ، لطفى السيد ،محمد محمود ، محمد على علوبة ، حمد الباسل ، عبد اللطيف المكباتى .

أما « عدلى باشا يكن » فقد تخلف فى لندن ولم يعلم أحد سبب تخلفه وفى باريس كان الثلاثة «مصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفى » يزورون سعد باشا يوميا .

الانقسـام الكبير

اتسعت شقة الخلاف بين « سعد زغلول » و«عدلى يكن » وبين الأقلية فى الوفد برئاسة سعد . . وبين الأغلبية فى الوفد برئاسة «عبد العزيز فهمى » أو لصالح « عدلى يكن » الذى قرر العودة إلى مصر فى ٢٠ نوفمبر ١٩٢٠ .

وفى ٢٧ نوفمبر ١٩٢٠ قرر « مصطفى النحاس ، وويصا واصف ، وحافظ عفيفى العودة إلى مصر . . ولأنهم من رأى «سعد لم يكن أحد من أعضاء الوفد فى وداعهم . .

وفى ٢٩ مارس ١٩٢١ اعطى « سعد » أوامره إلى معاونيه بترتيب اجراءات العودة إلى مصر حيث وصل الإسكندرية فى ٥ أبريل ١٩٢١ . . وبعدها يقع الانشقاق من « عبد العزيز فهمى ، وعلى شعراوى ، ومحمد محمود ، وحمد الباسل ، وعبد اللطيف المكباتى ، ومحمد على علوبة ، وأحمد لطفى السيد ، وعبد الخالق مدكور » وينضم اليهم « حافظ عفيفى ، وجورج خياط » وكان قد ابعد عن الوفد من قبل « اسماعيل صدقى ، ومحمود أبو النصر » وبدأت فترة قاسية فى حياة الوفد .

وكان « عدلى يكن » قد شكل وزارته الأولى من ١٦ مارس ١٩٢١ إلى ٢٤ ديسمبر ١٩٢١ . . وكان قد أجرى مفاوضات مع الانجليز على أمل أن يحقق بعض المكاسب ينتصر بها على « سعد » وانضم إليه فريق الاعتدال على أمل القضاء على « سعد » وعلى « الوفد » ونزل الانجليز بسلطانهم لأرهاب « سعد زغلول » فوجهوا انذارا فى ٢٠ ديسمبر ١٩٢١ إلى كل من « سعد زغلول ، ومصطفى النحاس ، وسينوت حنا ، ومكرم عبيد ، وجعفر فخرى ، وأمين عز العرب ، وصادق حنين » ان يبتعدوا عن القاهرة وان يلزموا الاقامة فى الريف . . فأطاع أمين عزب العرب وصادق حنين الأوامر وطواهم النسيان « ورفض سعد » والأربعةالآخرون فتم نفيهم . .

وبقى من الوفد فى مصر بعد الانشقاق الكبير ، وبعد نفى « سعد » والقادة الأربعة . . بقى ثلاثة « على ماهر وواصف غالى ، وويصا واصف » .

وظهر التردد على خطى « على ماهر » فأعد « واصف غالى » بيانا إلى الأمة ضد قرار الانجليز باعتقال « سعد » وزملائه . وأصر « ويصا واصف على أن يكون موقعا عليه من « واصف غالى ، وويصا واصف» يعلن تصميم الأمة على المضى فى الكفاح ضد الانجليز ، وتلقت الجماهير الواعية بيان الوفد على إنه بيان « سعد زغلول » وبيان الهيئة التى تثق فيها . . أكثر من هذا . . فى ظروف التحدى هذه عاد إلى الوفد « حمد الباسل وجورج خياط » . . وانضم إليه « على الشمس وعلوى الجزار ، ومراد الشريعى، وعبد القادر الجمال ، ومرقص حنا» فعاد الانجليز واعتقلوا

«حمد الباسل ، ومحمد نجيب الغرابلى ، وعبد الرحمن القاياتى ، ومراد الشريعى ، وعلوى الجزار» وأرسل الانجليز قوة إلى العتبة الخضراء حيث كانت المحكمة المختلطة ، وحيث كان « ويصا واصف» محاميا بها يترافع فى إحدى القضايا وانتهك الانجليز حرمة القضاء فثار رئيس المحكمة وكان سويسريا ، وثار المحامون وأسرعت القوة الانجليزية بويصا واصف إلى مقر المطافئ حيث كانت سيارة فى انتظارهم لتنقل « ويصا » إلى قشلاق قصر النيل فى ميدان التحرير (حاليا) .

دستور ١٩٢٣

قاطع الوفد والحزب الوطنى لجنة الدستور أو (لجنة الاشقياء) حسب تعبير « سعد زغلول » ، وطرح بعض الأعضاء (المسلمين) فى اللجنة ضرورة النص على تمثيل إخوتهم (الأقباط) رغبة فى طمأنة إخواتهم فى الوطن . . ولكن أعضاء الوفد الذين كانوا فى مصر وقت ذاك طرحوا الموضوع طرحا سياسيا ، ورفضوا فكرة التمثيل الطائفى . . وعارضوا تقسيم التمثيل لأغلبية وأقلية . . وكان « سعد زغلول » يرفض دائما فكرة التمثيل الطائفى . . وهكذا كان موقف « ويصا واصف » فأدلى بحديث للصحف ـ مع مقاطعة الوفد للاشتراك فى اللجنة ـ قال فيه :

إن مصر لا تعرف أكثرية وأقلية ، والقول بأن القبط أقلية حكم عليهم بأنهم أجانب ، ولن يكون فى البرلمان إلا أحزاب سياسية بمعناها العصرى يكون القبط مبعثرين فى هذه الأحزاب ، ولم يكن القبط فى أى وقت موضعا لتشريع استثنائى ، بل عوملوا دائما كمصريين يتمتعون بكافة الحقوق وليس فى مصر إلا جنس واحد تكون على مر القرون المتعاقبة ، وامتزجت الدماء بفعل التوارث بما يقوى على أى فارق دينى ، واذ تكون البرلمان من أحزاب سياسية فقط فلا ضير إلا يكون فيه قبطى واحد) .

ونجحت هذه الأفكار الواعية التى طرحها الوفد ، وطرحها الحزب الوطنى ، وطرحتها عناصر داخل لجنة الدستور فصدر دستور ١٩٢٣ خاليا من أى نص يتصل بالتمثيل النسبى .

تحطيم السلاسل

فى حياة « سعد زغلول » كان « ويصا » وكيلا لمجلس النواب (مجلس الشعب حاليا) وفى حياة « مصطفى النحاس » كان رئيسا لمجلس النواب . . وجلس على المقعد الذى جلس عليه « أحمد مظلوم باشا ، وسعد زغلول ، ومصطفى النحاس ، ومحمد توفيق باشا ، وأحمد ماهر باشا ، ومحمد بهى الدين بركات ، وعبد السلام فهمى جمعة ، ومحمد حامد جودة » . .

ورفض « ويصا واصف » باصرار محاولات « أحمد زيور باشا » لضمه إلى وزارته التى شكلها فى ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤ على أثر استقالة وزارة سعد باشا عقب مقتل « السير لى ستاك » .

وفى عهد وزارة « مصطفى النحاس » الثانية من أول يناير ١٩٣٠ - إلى ١٩ يونية ١٩٣٠ كان «ويصا واصف » رئيسا لمجلس النواب . . وحدث خلاف دستورى بين الملك فؤاد والنحاس باشا . . وفى مجلس النواب طرح هذا الخلاف للمناقشة فوقف «عباس محمود العقاد » يقول بصوته الجهورى (تسحق أكبر رأس تعتدى على الدستور . .) ولم يحاول رئيس المجلس أن يمنع المناقشة أو يؤجلها أو ينتقل إلى جدول الأعمال أو أن يخفف من وقع عبارات « العقاد » فاقال الملك فؤاد حكومة النحاس باشا ، وكلف « إسماعيل صدقى » بتشكيل حكومة جديدة ، والذى حاول ضم « ويصا واصف » إلى الوزارة الجديدة دون جدوى . . فطلب منه ان يمنع المناقشات التى أدت إلى اقالة الوزارة فرفض باصرار فأصدر الملك قرارا بتأجيل انعقاد البرلمان لمدة شهر يبدأ من ٢١ يونية . . وانفجرت المظاهرات ونزلت قوات صدقى تطلق الرصاص على المتظاهرين وأرسلت بريطانيا بارجتين إلى الإسكندرية ، وأمر صدقى بأغلاق أبواب البرلمان بالسلاسل ، وحاصر الشوارع المؤدية إلى البرلمان بقواته . . وتقدم « مصطفى النحاس » واخترق الحصار بسيارته ، ومن خلفه النواب ليصلوا إلى مقر البرلمان بالقوة .

وقرر النواب أن يدخلوا البرلمان خلف مصطفى النحاس بالقوة ، ولكن « الزعيم » حارس التقاليد البرلمانية قال فى حزم . . ان رئيس مجلس النواب هو وحده صاحب الحق فى ان يأمر الحراس بفتح الأبواب . . وتقدم رئيس مجلس النواب « ويصا واصف » وأمر الحرس بتحطيم السلاسل ، وفتح الأبواب . . وتقدم الصفوف إلى الداخل ، وكانت مظاهرة رائعة . . تحدث فيها «مصطفى النحاس » باعتباره نائبا عن دائرة سمنود .

الغـذاء المسموم

وفى ليلة اليوم نفسه استصدر « إسماعيل صدقى » مرسوما بحل مجلس النواب ليجرى انتخابات لايكون للوفد فيها أغلبية ، ولتستمر حكومة صدقى حتى ٤ يناير ١٩٣٣ ، وليعود «ويصا واصف » إلى المحاماه . . إذ كان محاميا أمام المحاكم المختلطة أيضا ، وكان المصرى الوحيد الذى ينتخب نقيبا عدة مرات لنقابة المحامين المختلطة وذلك بفضل تمكنه من القانون ، واجادته للغة الفرنسية .

وفى الأسبوع الأخير من مايو ، الشهر الذى ولد فيه ، كان فى الإسكندرية للمرافعة فى قضية لأحد موكليه . . وقبل ان يتأهب للعودة إلى القاهرة ، ألح عليه أحد معارفه إلى وجبة غذاء من

الأسماك . . هكذا كانت الشائعات المتوارثة تقول بعد تناول وجبة السمك شعر بتعب شديد فى المعدة ، وعاد إلى القاهرة ، وقرر الأطباء انه تعرض لحالة تسمم خطيرة . .

وفى ٢٧ مايو ١٩٣١ ، كانت القاهرة تودع جثمان « ويصا واصف » من منزله بالجيزة ، إلى مقره الأخير بمدافن الجبل الأحمر . . وهتافات هادرة (لن ننساك ياويصا . . لن ننساك يامحطم السلاسل) وتعود الوفود المشيعة فى منتصف الليل والشائعات كلها ان الملك فؤاد وراء الوجبة المسمومة . . ويرحل ويصا واصف تاركا تراثا مجيدا لوحدة الوطن ، ولوحدة مصر ، ونموذجا للوفاء والصلابة . . وتاركا ذرية تخدم مصر فى مجالات مختلفة . . المهندس رمسيس ، والدكتور أوزيريس ، والدكتور اوريس ، والسيدتان ايزس وسيروس . .

الأسانيد :

١ ـ ايزيس ويصا واصف . . دراسة باللغة الفرنسية فى ١٨ صفحة تفضلت بها وذكرت لنا أن كاتبها هو « الأستاذ ميشيل جرجس » .

٢ ـ د . حسين مؤنس . . مجلة آخر ساعة مايو ١٩٧٣ (مقالات بعنوان دور الأقباط فى ثورة ١٩١٩) .

٣ ـ عبد الرحمن الرافعى ـ محمد فريد .

٤ ـ محمد كامل سليم . . صراع سعد فى أوروبا .

البكباشي يوسف صديق



قدمه إلى الناس قلم « الأستاذ محمد حسنين هيكل » بعبارته الرشيقة فى ٢٧ أغسطس ١٩٥٢م على صفحات مجلة (آخر ساعة) وفى مقاله (من هم ضباط محمد نجيب) .. رسمته عدسة القلم الذكى هكذا .

العملاق الأسمر ذو العينين الحمراوين .. عملاق طويل عريض .. لفحته الشمس فى معسكرات الجيش فجعلته أشبه ما يكون بتمثال من البرونز لفارس محارب مدرع من القرون الوسطى .. دبت فيه الحياة بمعجزة فخرج إلى عالم المغامرات هناك لازمتان تميزانه دائما .. شعر منكوش مهوش ، وعينان حمراوان من قلة النوم وكثرة مايبذل من جهد ، قدمه لى لأول مرة اللواء محمد نجيب وكان ذلك قبل حركة القوات المسلحة ببضعة أيام ، كنت جالسا مع اللواء محمد نجيب وكان ساخطا على كل ما يحدث وقال لى بين ما قال : لقد فكرت فى أن استقيل من الجيش! وفجأة ظهر العملاق الطويل القامة الذى يشبه تماثيل البرونز السمراء ، ظهر على باب الشرفة واشترك فى المناقشة وهو فى مكانه قائلا :

لا .. يجب ألا تستقيل .. كلنا نرى أن تبقى معنا .. ويمضى قلم الأستاذ هيكل التصويرى .

وكان شكله فجر يوم حركة القوات المسلحة رائعا كان هو الذى قاد جزءا هاما فى عملية القبض على قواد الأسلحة من لواءات الجيش القدامى ، لقد قام بهذه العملية الخطيرة بمنتهى الثبات والجرأة والسرعة .

وبعد الحركة بثلاثة أيام وعلى وجه التحديد فى يوم السبت ٢٦ يوليو ، اليوم الذى خلع فيه الملك عن العرش لقيته جالسا فى إحدى الشرفات فى مركز رئاسة قوات الجيش وكان قد حلق ذقنه

وخلع عنه البدلة التى ظلت على جسده خمسة أيام متواصلة ليل نهار وكان يحتسى فنجانا من القهوة ، وفى عينيه صفاء غريب ، أشبه ما يكون بأحلام الشعراء وهو الذى كان ليلة الحركة أعصارا هائجا ، لايبقى ولا يذر (انتهى كلام الأستاذ هيكل) .

والآن هل أدعه يحدثنا عن دوره التاريخى ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ من واقع مذكراته ؟ أم أننى أدخر المذكرات إلى مجال آخر أنانية واثرة . . فى حين أنها وصلتنى فى يسر وسهولة . . وتفضل بها الزميل والصديق المناضل القديم « الشاعر محمود توفيق » والسيدة الفاضلة حرمه كريمة البطل الجسور « يوسف صديق » تفضلا بها عن طيب خاطر . . وبعد تفصيلات كثيرة نتجاوزها هنا نصل إلى صفحة ٢٧ من المذكرات . . ويوسف صديق على رأس قواته أمام مقر قيادة الجيش . . (أسرعت بقوتى نحو مبنى القيادة ففوجئت بنيرانه توجه إلينا . . لم يكن فى أرض المعركة . . ما نحتمى به من هذه النيران سوى سور من الأشجار لايكاد ارتفاعه يبلغ المتر ـ وهو يحمى من النظر ولكن لا يحمى من النيران ـ ولما ردت قواتنا على نيران الحرس بنيران حامية عرف الحرس أنه أمام قوة تفوقه عددا فبدأ يتراجع وبعد لحظات توقفت نيرانه تماما فعرفت أن ذخيرته قد نفدت فأمرت بايقاف النيران ـ ثم أصدرت أمرى إلى قوة الحرس بأن تلقى أسلحتها على الأرض ففعلت دون تردد ثم أمرتها بالاتجاه للخلف ففعلت ثم أمرتها بالسير بعيدا عن الأسلحة فنفذت الأمر ـ وتركت حراسة عليها وعلى المدخل ولم يبق أمامى سوى الصعود إلى الطابق العلوى لمهاجمة الاجتماع (يقصد اجتماع اللواء أركان حرب حسين فريد وقادة الوحدات الذى كان منعقدا لاجهاض حركة الضباط الأحرار) .

وتفصيلات أكثر يقدمها لنا يوسف صديق فى ذكريات له على صفحات مجلة (روز اليوسف) رواها أثناء أزمة فبراير ومارس ١٩٥٤ :

(أقول لك باختصار اننى تحركت على رأس هذه القوة الصغيرة فى منتصف ليل ٢٣ يوليو فقابلت فى طريقى من معسكر هاكستب إلى إدارة الحرس قائد فرقة المشاة العسكرية فاعتقلته وأخذته أسيرا ، ثم قابلت القائد الثانى المساعد فى الطريق فاعتقلته كذلك) .

وقد صادفت البكباشى جمال عبد الناصر والصاغ عبد الحكيم عامر فى مصر الجديدة حيث علمت منهما أن أمر الضباط الأحرار قد كشف وأن رئيس أركان حرب الجيش يعقد اجتماعا فى رئاسة الجيش لاصدار أوامره لمقاومة الحركة فأسرعت إلى مقر الاجتماع على الفور وهاجمت القيادة وقبضت على رئيس أركان حرب الجيش وعلى معظم القواد الذين كانوا فى طريقهم إليه ، وكذلك قبضت على القوات التى أرسلت لتعزيز الحراسة على رئاسة الجيش فقضيت بذلك على المقاومة وأصبح للضباط الأحرار الأمر فى البلاد .

الجيش فى السـلطة

وهذا الدور الذى قام به « البكباشى يوسف صديق» أكده « اللواء محمد نجيب » و «عبد اللطيف البغدادى » و« جمال حماد » و«أحمد حمروش» و«الصحفى حمدى لطفى » . . ولكن الرئيس الراحل « محمد أنور السادات » عندما كتب قصة الثورة ، وكتب «البحث عن الذات » أسند هذا الدور « للسيد عبد الحميد شديد » وهو مساعد ليوسف صديق فى هذه الملحمة التاريخية ، ومرة أخرى أسند الدور لعبد الحكيم عامر ويوسف صديق . . ولكن الدور مؤكد على أية حال تقر به كل الوثائق التاريخية التى لها احترامها .

والمؤكد أيضا . . أن « محمد أنور السادات » نفسه كان فى السينما هو والسيدة زوجته ، وأن الضابط « محمد أحمد على غنيم » ـ وهذا هو اسمه بالكامل كما ورد فى مذكرات يوسف صديق ـ قبض على « جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر » وهما بالملابس المدنية وكانا يستكشفان مجريات الأمور وقد تأكدا من أن أمر الحركة قد انكشف وبفدائية نادرة اندفع يوسف صديق يحتل القيادة ويعتقل من فيها ويتغير وجه التاريخ المصرى الحديث .

والمؤكد كذلك أن اللواء محمد نجيب كان وثيق الصلة بالبكباشى يوسف صديق بشهادة محمد حسنين هيكل التى جاءت فى مقاله فى مجلة آخر ساعة مما يجهز تماما على كل الدعاوى التى روجها عبد الناصر ودعاة عبد الناصر من أن « اللواء محمد نجيب » لم يكن على صلة بالضباط الأحرار وأنه لم يعرف بالحركة إلا بعد استيلاء الضباط على السلطة وهذا لايغير من الحقيقة التاريخية وهى أن « جمال عبد الناصر » هو القائد والمنظم لحركة الضباط الأحرار .

الظـلال الأولى

وعمل كبير كالذى قام به « يوسف صديق » ولم يكن فى المخطط الأصلى أن يقوم به ، وإنما هو حسب كلام البغدادى والسادات كان من المقرر أن يقوم به « جمال عبد الناصر » ، وعبد الحكيم عامر ، وعبد اللطيف البغدادى ، وحسن إبراهيم » ولكن أمر الحركة عرفته السراى وأصدرت تعليماتها لضرب الحركة ، وذهب « عبد الناصر وعبد الحكيم » يحومان حول مسرح المعركة المقرر لها وإذ بيوسف صديق ، يعاونه « عبد المجيد شديد » ومعهما ضباط حرس « يوسف صديق » وقد حرص على أن يشيد بأدوارهم فى مذكراته ، هؤلاء كانوا طليعة تنفيذ المرحلة الأولى من الخطة . وهنا يأتى الحديث عما أسماه الكثيرون بالخطأ الذى أنقذ الثورة وهو تحرك « البكباشى يوسف صديق » قبل ساعة الصفر بساعة . . وهل أخطأ « زغلول عبد الرحمن» فى تبليغ «عبد المجيد

شديد» بالموعد ؟ وهل سمع « يوسف » بالموعد بطريقة خاطئة ؟ وتقديرى الخاص أن الموعد الذى عرفه زغلول وشديد ويوسف هو الموعد الذى تحرك فيه يوسف وقواته وقبل موعد الصفر بساعة كاملة . وهذا الموعد أبلغه « جمال عبد الناصر » مباشرة إلى معاونه المخلص « زغلول » ليصل إلى «يوسف » أما لماذا حدد عبد الناصر هذا الموعد المبكر ليوسف وقواته ؟ ربما يكون لنا فيه حديث أكثر شمولا .

وعلى المستوى الفردى نستطيع أن نفهم أثر هذا العمل الكبير الذى قام به « يوسف صديق ، وعبد المجيد شديد ، ومحمود حسنى عبد القادر ، ومحمد أحمد على غنيم ، ومحمود عباس عبد الهادى » على نفسية قائد جسور مثل يوسف صديق .

وقد عبر عن اعتزازه بهذا الدور فى حديث له لجريدة المصرى فى ٢٤ مارس ١٩٥٤ خلال أزمة مارس الشهيرة بقوله : (إن صح لى أن أتحدث عن نفسى فانى أقول لهؤلاء انى ضابط مصرى قمت على رأس الضباط الأحرار يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ بالدور الرئيسى الذى مكن الضباط الأحرار من تنفيذ سياستهم . .) .

وفى تقديرنا أن « جمال عبد الناصر » قائد الضباط الأحرار لم يغب عنه منذ الليلة الأولى للحركة هذا الدور الذى قام به «يوسف صديق » ولعل هذا كان له أثره أيضا فى الصدام المبكر بين جمال عبد الناصر ويوسف صديق ، هذا بالطبع إلى جانب عوامل أساسية تعود إلى الاتجاه الديمقراطى الأصيل لدى « يوسف صديق» والاتجاه الدكتاتورى الأصيل أيضا لدى عبد الناصر ومجلس قيادة الثورة . هذا وان كان « يوسف صديق » قد تميز دائما بقدرته على النظر إلى الأمور نظرة شاملة بايجابياتها وسلبياتها ويرتفع فوق الجراح فى اللحظة المناسبة كما يتضح من موقفه أثناء العدوان الثلاثى .

أعلنت حركة القوات المسلحة أن الانتخابات النيابية سوف تجرى بعد ستة أشهر أى فى أوائل أبريل عام ١٩٥٣ ولم يكن هذا اتجاها أصيلا لدى عبد الناصر أو الغالبية الساحقة من مجلس قيادة الثورة . فعلى مستوى الخبرات المدنية السياسية التى استعانوا بها كان « على ماهر وسليمان حافظ » وكلاهما عدو شرس للديمقراطية وللوفد . . وعلى مستوى المواقف صدر فى ٧ سبتمبر قانون إعادة تنظيم الأحزاب وهم فى حقيقة الأمر لايريدون أية أحزاب وفى ١٠ ديسمبر تقرر الغاء العمل بدستور ١٩٢٣ وفى ١٦ يناير ١٩٥٣ صدر قرار بحل الأحزاب كافة مع الابقاء على جماعة الإخوان المسلمين . ومنذ اليوم الأول لحركة القوات المسلحة حتى فبراير ١٩٥٣ وهو موعد اجراء الانتخابات الذى سبق الإعلان عنه . نستطيع أن نقول أن موقف « يوسف صديق » كان منحازا بشكل مباشر ومحدد للديمقراطية وللحياة النيابية إلى حد الصدام فى المناقشات داخل مجلس قيادة

الثورة وكان موقف « خالد محيى الدين » أكبر خبرة بالعمل السياسى وان كان منحازا أيضا للديمقراطية وكان موقف محمد نجيب فى أساسه ديمقراطيا ولكنه يتسم بالتردد وعدم الحسم .

ويقول « يوسف صديق » كان طبيعيا أن أكون عضوا فى مجلس الثورة وبقيت كذلك حتى أعلنت الثورة أنها ستجرى الانتخابات فى شهر فبراير سنة ١٩٥٣ . غير أن مجلس قيادة الثورة بدأ بعد ذلك يتجاهل هذه الأهداف فحاولت أكثر من مرة أن أترك المجلس وأعود الى صفوف الجيش فلم يسمح لى بذلك حتى ثار فريق من الضباط الأحرار على مجلس قيادة الثورة يتزعمه اليوزباشى محسن عبد الخالق فأيدت الثائرين فأبعدت إلى أسوان سنة ١٩٥٣ وكان مجلس الثورة قد خدعه مستشاروه المضللون فما حل شهر فبراير ١٩٥٣ الذى كان محددا لعودة الحياة النيابية إلا وكان مجلس قيادة الثورة قد اعتقل الضباط الثائرين وحاكمهم وسجنهم ، وأصبح واضحا أن الثورة قد انحرفت واتصلت بالبكباشى جمال عبد الناصر تليفونيا من أسوان وأخبرته أننى لايمكن أن أبقى عضوا فى مجلس الثورة وطلبت منه أن يعتبرنى مستقيلا ، فاستدعانى للقاهرة ونصحت بأن أسافر للعلاج فى سويسره على أن أعود بعد ثلاثة أشهر للعمل فى صفوف الجيش ..

الاســـتقالة

وفى فبراير ١٩٥٣ قدم « يوسف صديق » استقالته وضمنها كل هذه الخلافات وتم ابعاده إلى سويسره فى مارس ١٩٥٣ وهناك أدرك أنه فى المنفى تحت ستار العلاج وتهدئة الأمور فنطق شيطان شعره بقصيدة (حسناء ليسان) تقع فى ٢٩ بيتا من الشعر العمودى نختار منها الأبيات التالية :

حسناء ليسان ترعانى على الجبل
جاءت تداوى فكانت علة العلل
(ايفون) انى غريب فى دياركمو
وللغريب نوال القصد والأمل
أنا من بلاد رواها النيل فى كرم
وفى وفاء كساها أجمل الحلل
الحق فى جانبى والظالمون همو
والله ينصر أهل الحق فى الجلل
ورحت أجمع شمل الناس فى حذر
وفى وفاء وأدعوهم إلى العمل

فقال قوم كفانا الله شرهمو
هذا مريب وقد يدعو إلى خطل
فأرسلوه بعيدا لايهددنا
وشتتوا صحبه فى كل معتقل
فأبعدونى إليكم ألف مغفرة
لأهل مصر وان هم شوهوا عملى
يا أخت انى شهيد جئت جنتكم
هل فى الجنان يداوى الداء بالشعل
أنا الـوفى الذى لم ينـتـه دمه
ينساب من صدره عن يومك الحفل
لم يكفنى شرفا أن كنت شاهده
بل كنت فيه فتى فتيانه الأول

ونترك سويسره ونترك مصحة ليسان ونترك الجبل وسحره ونترك « ايفون » هناك فالشهور الثلاثة المقررة لراحته أو لعلاجه هناك قد انتهت وعودته غير مرغوب فيها ويعود سرا إلى بلدته (زاوية المصلوب - مركز الواسطى - محافظة بنى سويف) فى أغسطس ١٩٥٣ ، وأرسل برقية من هناك إلى اللواء محمد نجيب يبلغه فيها بعودته وباستقالته من الجيش ومن مجلس قيادة الثورة فأسرعت عناصر « عبد الناصر » تحدد اقامته هناك ثم عاد إلى القاهرة وحددوا اقامته هنا فى القاهرة أيضا وبعبارة أدبية بليغة يصف يوسف صديق حاله وحال محمد نجيب (ومن طريف مايمكن أن أذكره أن منزلى بحلمية الزيتون حيث اقامتى محددة لايفصله عن منزل الزميل (ولاحظ عبارة الزميل) محمد نجيب إلا شارع واحد هو الممر الذى يفصل بين الحر المعتقل وبين المعتقل الحر) .

صحيح أنه استقال من الجيش ومن مجلس قيادة الثورةولكن منذ متى كان الثوار يقدمون استقالة من الثورة ؟ انه يعد نفسه منذ الليلة الأولى مسئولا أمام التاريخ . . يقول لمندوب روز اليوسف أثناء أزمة مارس (لا تظن أنه مادامت اقامتى محددة فنشاطى السياسى ينتهى هذا محال فأنا كما قلت مسئول أمام التاريخ ومادام قد أبيح للعسكريين الاشتغال بالسياسة فسيبقى نشاطى السياسى مستمرا حتى يتمكن الشعب من حقوقه وسيادته وقبل هذا ، وقبل أن يعود العسكريون جميعا إلى ثكناتهم وتصبح كما كنا رجال حرب وضد العدو فحسب لايمكن أن يتوقف نشاطى السياسى) .

لقد كان « يوسف صديق » إلى جانب الديمقراطية وعودة الحياة النيابية ، والتعددية الحزبية بشكل مباشر كما قلنا لايعرف التردد ولايجيد السير فى دهاليز السياسة يعبر عن رأيه فى شجاعة حتى ولو وقف وحيدا .

ونراه هناك عندما وقعت البلاد فى أزمة فبراير ومارس ١٩٥٤ وطوائف من الشعب كالمحامين والطلاب ينادون بحل مجلس قيادة الثورة ، وبالحياة النيابية وفريق من الجيش يتمثل فى سلاح الفرسان يؤكد هذا الاتجاه ، وخالد محيى الدين من مجلس قيادة الثورة يدافع عن الديمقراطية . . وفى مواجهة هؤلاء جميعا يقف « جمال عبد الناصر » بكل دهائه السياسى ومرونته واجادته للتقدم والتراجع ومعه باقى أعضاء مجلس قيادة الثورة وعناصر كثيرة من الضباط الأحرار وقادة وحدات الجيش الذين يرغبون فى السلطة . . هناك نرى يوسف صديق يؤكد موقفه الثابت منذ الأيام الأولى إلى جانب حق الشعب فى الحياة الديمقراطية .

ولأهمية هذا الموقف الذى لاتردد فيه أشير إلى الرسالة التاريخية التى أرسلها البكباشى يوسف صديق إلى « اللواء محمد نجيب » لتبقى وثيقةتاريخية .

السيد رئيس الجمهورية ورئيس قيادة الثورة ورئيس مجلس الوزراء والحاكم العسكرى العام ـ جمهورية مصر « البرلمانية » .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد :

فلاشك أنكم تقدرون مدى المسئولية التى أتحملها معكم أمام التاريخ عن مصير هذه البلاد نتيجة للعمل الإيجابى العنيف الذى قمت به فى يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، والذى لا أستطيع أن أفلت من مسئوليته حتى بعد استقالتى من مجلس قيادة الثورة فى فبراير سنة ١٩٥٣ .

بالرجوع إلى التاريخ الذى عملناه من يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ إلى أن وصلنا لهذه الحالة نلمس الآتى :

(أ) بعد طرد فاروق من البلاد فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ بدأ مجلس قيادة الثورة مناقشة الخطوة التالية التى كانت تتلخص فى هذا السؤال (لمن الحكم ؟) وكان هناك رأيان فى الجواب على هذا السؤال أما أحدهما فكان يرى دعوة البرلمان المنحل ليباشر سلطته الشرعية وأما الآخر فقال بعدم دستورية هذا الحل ورأى أن نذهب مذهبا آخر ، استقر الرأى على استفتاء قسم الرأى بمجلس الدولة مجتمعا لهدايتنا إلى التصرف الدستورى السليم فأفتى بأغلبية تسعة أصوات ضد صوت واحد بعدم دستورية دعوة البرلمان الصوت الواحد للدكتور وحيد رأفت .

(ب) سرنا على هدى هذه الفتوى ووصلنا إلى الحالة السيئة الراهنة وتبين لنا أننا ضللنا الطريق .

(جـ) بعد أن تبين لنا بوضوح أننا قد ضللنا الطريق فلا يكون هناك تصحيح للوضع سوى أن نعود إلى حيث أشكل عليه الأمر فلنصحح طريقنا .

وعلى ضوء هذه الحقائق نجد أن علاج الموقف ينحصر فى أحد حلين لا ثالث لهما .

(أ) دعوة البرلمان المنحل ليتولى حقوقه الشرعية .

(ب) تأليف وزارة ائتلافية تمثل القيادات السياسية المختلفة القائمة فعلا فى البلاد وهى الوفد والإخوان المسلمون والاشتراكيون والشيوعيون تشرف على اجراء انتخابات للبرلمان فى أسرع فرصة حتى تختار البلاد حكامها الشرعيين ويعود الجيش إلى ثكناته . . وأقترح أن يكون رئيس الوزارة المقترحة هو الدكتور وحيد رأفت الذى أكسبته الحوادث التاريخية هذا الحق فلا تكون الرياسة محلا للخلاف .

القاهرة فى ١٧ مارس سنة ١٩٥٤ .

القائمقام أركان الحرب يوسف منصور صديق عضو مجلس قيادة الثورة سابقا .

وأعتقد أن هذه الرسالة هى (جهيزة) التى قطعت قول كل خطيب حول موقف يوسف صديق من الديمقراطية ولم يكن أمام الجناح الآخر المعادى للديمقراطية منذ اليوم الأول لحركة القوات المسلحة إلا الحل التقليدى وهو الاعتقال .

وفى أبريل ١٩٥٤م اعتقل القائمقام يوسف صديق فى السجن الحربى ! واعتقلت السيدة زوجته وأبناؤه وأقاربه وكل من سار على دربه ، وأفرج عنه فى مايو ١٩٥٥ . وظلت اقامته محددة حتى أكتوبر ١٩٥٦ عندما وقعت مؤامرة العدوان الثلاثى من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل فعاد البطل الجسور إلى ملابس الميدان وخرج يدافع عن تراب مصر . . ورأينا العملاق الأسمر ذا العينين الحمراوين فى سجن مصر يزور الشاعر محمود توفيق زوج كريمته . . وكنت هناك . وكانت هذه المرة الأولى والأخيرة التى قدر لى أن أرى فيها المقاتل الجسور من أجل الديمقراطية كنا ثلاثة طلبنا منه أن يبلغ جمال عبد الناصر أن يفرج عنا نحن المسجونين السياسيين لندافع عن أرض الأباء والأجداد ونعود بعدها إلى الزنازين . . وجاء رد عبد الناصر . . لا . . متشكرين !!

فى صباح ٣١ مارس ١٩٧٥ م كان رحيل ابن مصر القائمقام يوسف منصور صديق الذى ولد فى ٣ يناير ١٩١٠ فى قرية صغيرة من صعيد مصر وتخرج فى الكلية الحربية سنة ١٩٣٣ وتخصص فى التاريخ العسكرى وحصل على شهادة أركان حرب ١٩٤٥ وتقدم ليلة ٢٣ يوليو يحتل مقر قيادة الجيش ويعتقل من فيها . . ومحمد أنور السادات فى سينما الروضة . . وجمال وعبد الحكيم يرقبان الموقف من بعيد . . وتلك قصة أخرى .

الأسـانيد :

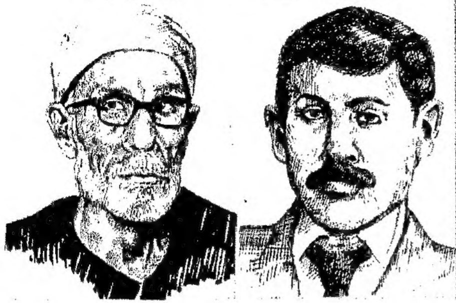
١ ـ المصرى . . (جريدة) أعداد ٢٣ ـ ٢٥ مارس ١٩٥٤ .
٢ ـ روز اليوسف . . (مجلة) ذكريات يوسف صديق العدد ١٣٤٦ .
٣ ـ محمد حسنين هيكل . . آخر ساعة ٢٧ أغسطس ١٩٥٢ .
٤ ـ الوادى . . (مجلة) العدد ٤٠ أغسطس ١٩٨٢ .
٥ ـ يوسف صديق . . مذكرات لم تنشر بعد

فهرس

رقم الإيداع : ١٩٩٥/٤٢٠٤
I.S.B.N. 977 - 09 - 0291 - 8

مطابع الشروق

القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ـ٨١٧٢١٣ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



هذه الموسوعة

هذه موسوعة جديدة فى شكل جديد ومضمون جديد تضم تسعين رجلاً من مصر أثروا الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والثقافية خلال فترة يمكن أن نطلق عليها سنوات التكوين بالنسبة لمصر الحديثة. وهى جزء من الإثراء الحقيقى لذاكرة الأمة وعقل المجتمع ووعى المواطن بما تضمه من دراسات تحليلية. ولم يكن غريباً أن أعرف من أصدقاء مغتربين خارج مصر أن أولادهم الذين يقرأون حتى الآن باللغة العربية أنبهروا وكان سؤالهم الدائم: هل كان فى مصرنا مثل هذه الشخصيات الرائدة؟



لقد لمعت هذه النجوم الزاهرة فى سماء مصر واختلفت درجات الاضاءة التى تبعث بها، ولكنها أعطت بقدر ما أتيح لها من رؤية فى حدود زمانها وموقعها.

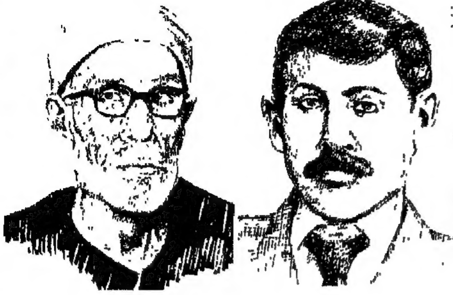






هذه الموسوعة

هذه موسوعة جديدة فى شكل جديد ومضمون جديد تضم تسعين رجلاً من مصر أثروا الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والثقافية خلال فترة يمكن أن نطلق عليها سنوات التكوين بالنسبة لمصر الحديثة. وهى جزء من الإثراء الحقيقى لذاكرة الأمة وعقل المجتمع ووعى المواطن بما تضمه من دراسات تحليلية. ولم يكن غريباً أن أعرف من أصدقاء مغتربين خارج مصر أن أولادهم الذين يقرأون حتى الآن باللغة العربية أنبهروا وكان سؤالهم الدائم: هل كان فى مصرنا مثل هذه الشخصيات الرائدة؟







لقد لمعت هذه النجوم الزاهرة فى سماء مصر واختلفت درجات الاضاءة التى تبعث بها، ولكنها أعطت بقدر ما أتيح لها من رؤية فى حدود زمانها وموقعها.







